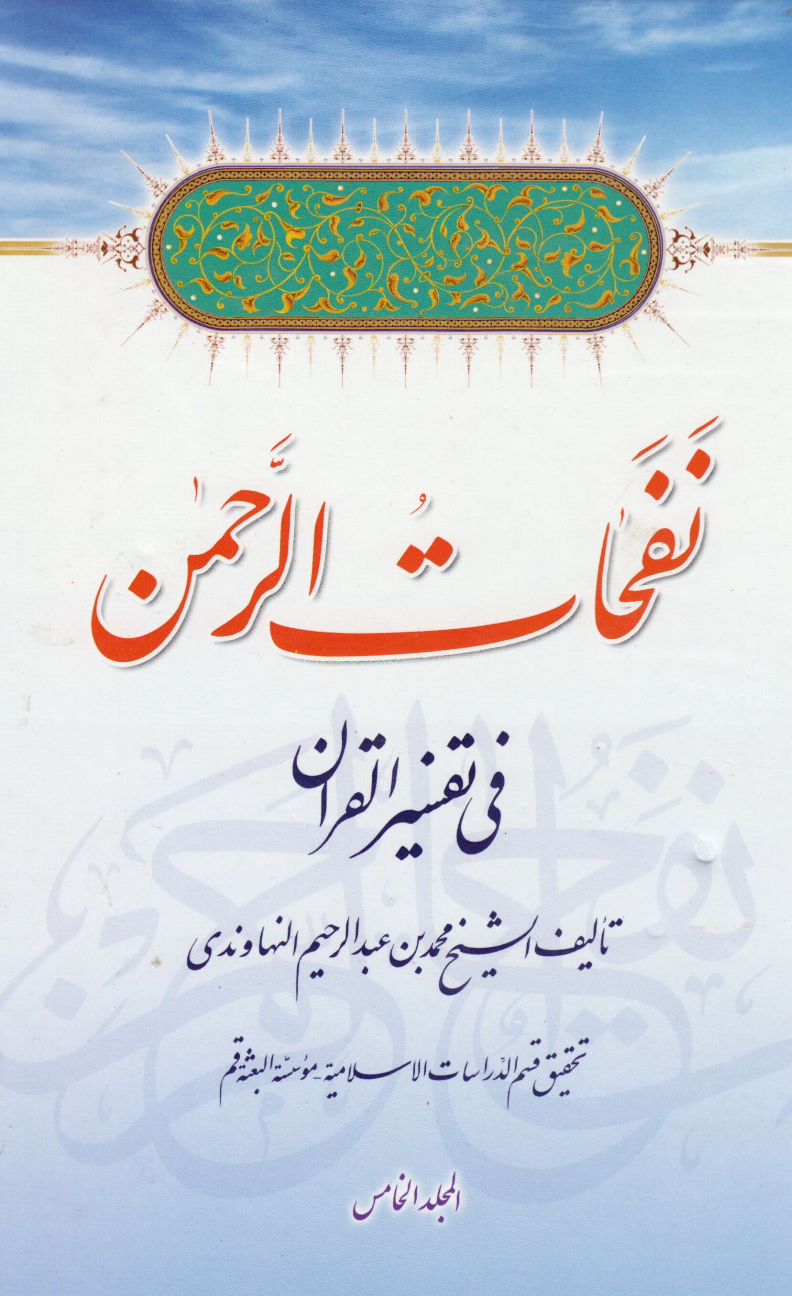

نفحات الرحمن
في تفسير القرآن
تأليف الشيخ محمد بن عبد الرحيم النهاوندي
تحقيق قسم الدراسات الاسلامية - مؤسسة البعثة قم
المجلد الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم



نفحات الرحمن

في

تفسير القرآن

تأليف

الشيخ محمد بن عبدالرحيم النهاوندي

(١٢٩١ـ١٣٧١هـ)

الجزء الخامس

تحقيق

قسم الدراسات الإسلامية ـ مؤسسة البعثة ـ قم

نهاوندی، محمد ۱۲۵۲- ۱۳۳۰
نفحات الرحمن فی تفسیر القرآن/تالیف محمد بن عبدالرحیم النهاوندی؛
تحقیق
قم: موسسه البعثه، مرکز الطباعه و النشر ۱۳۸۶
۶ج.
دوره: X-۷۶۵-۳۰۹-۹۶۴؛ ج.۱: ۵-۷۵۹-۳۰۹-۹۶۴؛ ج.۲: ۹-۷۶۰-۳۰۹-۹۶۴؛ ج.۳: ۷-۷۶۱-۳۰۹-۹۶۴؛ ج.۴: ۵-۷۶۲-۳۰۹-۹۶۴؛ ج.۵: ۳-۷۶۳-۳۰۹-۹۶۴؛ ج.۶: ۱-۷۶۴-۳۰۹-۹۶۴
فیپا
عربی.
کتابنامه.
تفاسیر شیعه —قرن ۱۴.
بنیاد بعثت. واحد تحقیقات اسلامی
بنیاد بعثت. مرکز چاپ و نشر
BP۹۸/ن۹ن۷
۲۹۷/۱۷۹
۸۴/۳۷۴۹۰م



مرکز الطباعة و النشر فی موسسة البعثة

نفحات الرحمن فی تفسیر القرآن ج۵

الشیخ محمد بن عبدالرحیم النهاوندی

تحقیق: قسم الدراسات الاسلامیة — موسسة البعثة — قم

الطبعة الاولی ۱۴۲۹ق.

الکمیة: ۲۰۰۰ نسخه

التوزیع: موسسة البعثة

طهران — شارع سمیه — بین شارعی الشهید مفتح و فرصت — الرقم ۱۰۹

هاتف: ۸۸۸۲۲۳۷۴ فاکس: ۸۸۳۲۵۴۶۴

شابک ج.۵: ۳-۷۶۳-۳۰۹-۹۶۴
شابک دوره: X-۷۶۵-۳۰۹-۹۶۴

في تفسير سورة القصص

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسم * تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ * نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِى نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ[١ـ٦]

لمَا ختم سبحانه سورة النمل المفتتحة بذكر فضيلة القرآن المتضمَنة لبيان تفضَلاته على الأنبياء، وحججه على التوحيد والمعاد، وإنعامه على المؤمنين في الآخرة، وحرمة مكة، وترغيبه في تلاوة القرآن المختتمة بأمر النبيَ بالحمد على تفضَله عليه بالحكمة والنبوة، وتهديد مكذَبيه بإراءتهم العذاب في الآخرة، اردفها في النظم بسورة القصص المفتتحة بذكر عَظَمة القرآن المتضمَنة لتفضلاته على موسى، ومنَته على المؤمنين به باهلاك أعدائهم وأخلافهم في الأرض، وإثبات التوحيد والمعاد، وبيان حرمة الحرم، وفضل نبينا، وصدق كتابه، ورجوع أمر النبوة إلى اختيار الله، واختصاص الحمد في الدنيا والآخرة به، وغير ذلك من المطالب المناسبة لما في السورة السابقة، فابتدأها على حسب دأبه في كتابه بذكر أسمائه المباركات تعليماً للعباد بقوله: ﴿**بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ**﴾، ثمَ افتتحها بالحروف المقطَعة بقوله: ﴿**طسم**﴾ وقد مرَ تأويلها، وما ذكره كثيرٌ من العامة في تأويلها تخرَصٌ بالغيب واتَباع للمُتَشابه.

ثمَ عظَم سبحانه السورة بقوله: ﴿**تِلْكَ**﴾ السورة أو الآيات ﴿**آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ**﴾ والقرآن الموضَح للحقّ وطريق الرشاد، أو الموضَح لكونه من الله باشتماله على المعجزات، أو لصدق نبوة محمَد ﷺ. أو المبين للحلال والحرام وكيفية التخلَص من شُبهات الضالّين وقَصَص الأولين.

ثمَ شرع في قصة موسى بقوله: ﴿**نَتْلُوا**﴾ ونقرأ ﴿**عَلَيْكَ**﴾ يا محمَد بواسطة جَبْرئيل بعضاً ﴿**مِن نَبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ**﴾ وجملةً من خبرهما الذي له شأن حال كوننا ملتبسين ﴿**بِالْحَقِّ**﴾ والصدق ليكون

نافعاً ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وإن كانت التلاوة لهم ولغيرهم إتماماً للحُجَة.

ثمَ كأنه قيل: ما كان نبأهما[١]؟ فأجاب بقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا﴾ واستكبر ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وادّعى ما ليس له ﴿وَجَعَلَ﴾ بترفعه ﴿أَهْلَهَا﴾ وسُكّانها ﴿شِيَعاً﴾ وفرقاً يتبَعونه، أو أصنافاً معدّدة في الاستخدام بتعيين كل صنفٍ لعملٍ من بناءٍ وحرثٍ وحفرٍ وغيرها، أو أحزاباً متعادية بعضهم مع بعضٍ، ليكونوا متّفقين على طاعته، أو مختلفة في الاعزاز والإذلال والراحة والمشقّة، كالقبطيين المتنعَمين في الراحة، والاسرائيليين الذليلين المستعبدين، ويرجّح هذا الوجه قوله: ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ ويقهر ﴿طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾ يقال لهم بنو إسرائيل حيث إنّه ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ ويُكثِر القتل فيهم ﴿وَيَسْتَحْيِى﴾ ويستبقي في الحياة ﴿نِسَاءَهُمْ﴾ لخدمة نسائه ونساء القِبط ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ لجرأته على قتل تسعين ألف على ما قيل[٢] من صغار أولاد الأنبياء بتوهَم فاسد، واستخدام نسائهم.

عن ابن عباس: لمّاكثر العصيان في بني إسرائيل، وترك العلماء والعباد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، سلّط الله عليهم القِبط، فاستعبدوهم، وحملوا عليهم المشاق[٣].

وروي أنّ فرعون رأى في المنام أنّه ظهرت نارٌ من أحد جوانب بيت المقدس، فأحاطت بمصر وبيوته[٤]، فأحرقت القِبط جميعاً، ولم تتعرض لبني إسرائيل، فسأل العلماء عن تعبيره، فقالوا: سيظهر في بني إسرائيل رجلٌ يكون هلاكك وهلاك مُلكك بيده، فأمر بقتل أبناء بني إسرائيل[٥].

وقيل: إنّ الأنبياء السابقين بشروا بمجيئة، وسَمِع فرعون ذلك[٦].

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى﴾ بني إسرائيل ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بتخليصهم من الظلم والعبودية ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ وقادةً في الدين ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ﴾ لأرض مصر وأمتعة آل فرعون وأموالهم، وإنما قدّم إمامتهم في الدين على وراثتهم الأموال في الذكر مع تأخرها عنها في الوجود لانحطاط رُتبتها عنها ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التي يَسْكُنها أعداؤهم من مصر والشام ونُسلّطهم عليها، ونُسكنهم وننفّذ أوامرهم، ونبسُط أيديهم فيها ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَ﴾ وزيره ﴿هَامَانَ وَجُنُودَهُمَا﴾ وعساكرهما ﴿مِنْهُم مَّا كَانُوا﴾ منه ﴿يَحْذَرُونَ﴾ ويجتنبون خوفاً من هلاكهم وذَهاب مُلكهم على يد مولودٍ من بني إسرائيل.

عن الصادق عليه السلام: «أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نظر إلى [علي و] الحسن والحسين فبكى وقال: أنتم

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٣٨٠.
٢. تفسير الرازي ٢٤: ٢٢٥، تفسير روح البيان ٦: ٣٨١.
٣. بحار الأنوار ١٣: ٥٣.
٤. في تفسير الرازي: واشتملت على مصر.
٥. تفسير الرازي ٢٤: ٢٢٥.
٦. تفسير الرازي ٢٤: ٢٢٥.

المستضعفون بعدي» فقيل للصادق عليه السلام ما معنى ذلك يا بن رسول الله؟ قال: «معناه أنتم الأئمة بعدي، إن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ﴾» ثمّ قال: «فهذه الآية جاريةٌ فينا إلى يوم القيامة»[1].

وفي رواية اُخرى عنه عليه السلام «هي لنا» أو «فينا»[2].

وفي رواية: نظر أبو جعفر إلى أبي عبدالله عليه السلام يمشي فقال: «أترى هذا من الذين قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا﴾» الآية[3].

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِى إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتِ ٱمْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ[٧ـ ١١]

ثمّ ذكر سبحانه أول منّته على موسى بقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ وقذفنا في قلبها، أو أريناها في المنام ﴿أَنْ﴾ يا أمّ موسى ﴿أَرْضِعِيهِ﴾ ما لم تَخفِي عليه الطَّلب ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ الطلب بأن يَحِسّ به الجيران عند بُكائه ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ والنِّيل.

وقيل: يعني إذا خِفتِ حِفظه وعَجَزتِ عن تدبيره فسلّميه إلينا ودَعِيه في حفظنا[4] ﴿وَلَا تَخَافِى﴾ عليه ضيقاً وشدّةً، ولا ضَياعاً ولا هلاكاً ﴿وَلَا تَحْزَنِى﴾ على فِراقه ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ عن قريبٍ بأحسن وجهٍ وألطف تدبيرٍ ﴿وَجَاعِلُوهُ﴾ مرسلاً ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

عن ابن عباس: أنّ أمّ موسى لمّا تقارب ولادتها، كانت قابلة من القوابل التي وكّلهن فِرعون بالحُبالى مصافية لأمّ موسى، فلمّا أحسّت بالطلق أرسلت إليها وقالت لها: قد نزل بي ما نزل، ولينفعني اليوم حُبّك إيّاي، فجلست القابلة، فلمّا وقع موسى على الأرض هالها نورٌ بين عينيه، فارتعدت مفاصلها، ودخل حبّ موسى في قلبها، فقالت: يا هذه ما جئتك إلا لقتل مولودك، ولكنّي

---

١. معاني الأخبار: ١/٧٩، تفسير الصافي ٤: ٨٠.
٢. أمالي الصدوق: ٧٦٩/٥٦٦، تفسير الصافي ٤: ٨١.
٣. مجمع البيان ٧: ٣٧٥، تفسير الصافي ٤: ٨٠.
٤. تفسير روح البيان ٦: ٣٨٣.

وجدت لابنك هذا حباً شديداً، فاحتفظي بابنك، فانّي أراه عدوّنا، فلمّا خرجت القابلة من عندها أبصرها بعض العيون، فجاء إلى بابها ليدخل عليها، فقالت اُخته: يا اُمّاه، هذا الحرس، فلفتّه ووضعته في تنّورٍ مسجورٍ، فطاش عقلها فلم تعقِل ما تصنع، فدخلوا فاذا التنّور مسجورٌ، ورأوا اُمّ موسى لم يتغيّر لها لون، ولم يظهر لها لَبنٌ، فقالوا: لِمَ دخلت القابلة عليك؟ قالت: إنّها حبيبةٌ لي دخلت للزيارة، فخرجوا من عندها، ورجع إليها عقلها، فقالت لاُخت موسى: أين الصبيّ؟ قالت: لا أدري، فسَمِعت بكاءه في التنّور، فانطلقت إليه، وقد جعل الله النار عليه برداً وسلاماً، فأخذته.

ثمّ لمّا رأت اُمّ موسى فرعون مُجدّاً في طلب الوِلدان، خافت على ابنها، فقذف الله في قلبها أن تتّخذ لها تابوتاً، ثمّ تقذِف التابوت في النّيل ، فذهبت إلى نجّارٍ من أهل مصر، فاشترت منه تابوتاً، فقال لها: ما تصنعين به؟ فقالت: ابنٌ لي أخشى عليه كَيد فِرعون، اُريد أن اُخبّئَه فيه، وما عَرَفت أنّه يُفشي ذلك الخبر، فلمّا انصرفت ذهب النجّار إلى فِرعون ليُخبر به الذبّاحين، فلمّا جاءهم أمسك الله لسانه، وجعل يشير بيده، فضربوه وطردوه، فلمّا عاد إلى موضعه ردّ الله عليه نُطقه، فذهب مرةً اُخرى ليُخبرهم به، فضربوه وطردوه، فلمّا عاد إلى موضعه ردّ الله عليه نُطقه، فذهب مرة اُخرى ليُخبرهم به، فضربوه وطردوه، فأخذ الله بصره ولسانه، فجعل لله تعالى إن ردّ عليه بصره ولسانه لا يَدُلّهم عليه، فعلم الله منه الصدق، فردّ عليه بصره ولسانه، وانطلقت اُمّ موسى وألقته في النّيل، وكان لفرعون بنتٌ، لم يكن له ولدٌ غيرها، وكان لها كلّ يومٍ ثلاث حاجات ترفعها إلى أبيها، وكان بها بَرَصٌ شديدٌ، وكان فرعون شاور الأطبّاء والسَّحَرة في أمرها، فقالوا: أيّها المَلِك، لا تبرأ هذه إلّا من قِبل البحر، يوجد منه شبه الإنسان فيُؤخذ من ريقه، فيُلطَخ به بَرَصها فتبرأ من ذلك، وذلك في يوم كذا في شهر كذا حين تُشرِق الشمس.

فلمّا كان ذلك اليوم غدا فرعون إلى مجلسٍ كان له على شفير النّيل، ومعه آسية بنت مُزاحم، وأقبلت بنت فرعون في جواريها حتى جلست على الشاطئ، إذ أقبل بتابوتٍ تضربه الأمواج، وتعلّق بشجرةٍ، فقال فرعون: خُذوه ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ وصانوه من الضياع ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ﴾ في العاقبة ﴿عَدُوّاً﴾ يُغرقهم في البحر ﴿وَ﴾ لنسائهم ﴿حَزَناً﴾ على هلاك رجالهنّ وصَيْرُورتهنّ إماءً لهم، فشبّه سبحانه العَداوة والحُزن بالعلّة لفعلهم لتربيتها عليه ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا﴾ في عقائدهم وأعمالهم ﴿خَاطِئِينَ﴾ ولذا قتلوا اُلوفاً لأجل موسى، ثمّ أخذوه يربّونه ليكبُرَ ويفعل بهم ما كانوا يحذرون منه.

فلمّا رأى فرعون التابوت المُطلى بالقير، أمر بفتح بابه فلم يقدِروا، ثمّ عالجوا كسره فلم يقدروا ،

فنظرت آسية فرأت نوراً في جوف التابوت لم يره غيرها، فعالجته وفتحته، فاذا هي بصبيّ صغير يتلألأ النور من بين عينيه، فألقىٰ الله محبتّه في قلوب القوم، وعَمَدت ابنة فرعون إلى رِيقه فلطخت به بَرَصها فبرئت، فضمّته إلى صدرها[١].

وقيل: إنّها لما رأته برئت، فقال الغُواة من قوم فرعون: إنا نَظُنّ أنّ هذا هو الذي تَحذر منه، فرُمي في البحر خوفاً منك، فهمّ فرعون بقتله[٢].

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَةُ فِرْعَوْنَ﴾ ـ وكانت من خيار نساء بني إسرائيل من سبط لاوي على ما قيل[٣]. وقيل: كانت عمّه موسى، لمّا أخرجته من التابوت، وأحبّته للنور الذي بين عينيه[٤]، أو لملاحة وجهه، أو لبُرء بنته بريقه، أو لأنّه يمتصّ إصبعه، أو لأنّه لم يكُن لها وُلدٌ ذكور[٥] ـ: يا فرعون هذا الطفل ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾ وسرور قلبٍ ﴿لِّى وَلَكَ﴾ عن ابن عباس: قال فرعون قرّة عين لكِ، وأمّا أنا فلا حاجة لي فيه. فقال ﷺ: «والذي يحلف به لو أقرّ فرعون بأنّه قُرّة عين له كما أقرّت، لهداه الله كما هداها»[٦]. ثمّ لمّا اطلعت على أنّ فرعون همّ بقتله استوهبته منه وقالت: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ وإنّما خاطبته بصيغة الجمع تعظيماً له، لتساعدها على مسألتها، ثمّ ذكرت ما يُرغبه في إجابتها بقولها: ﴿عَسَىٰٓ﴾ ونرجو ﴿أَن يَنفَعَنَا﴾ ويصل إلينا منه خيرٌ كثيرٌ لما فيه من أمارة اليُمن والبركة، من لمعان النور من وجهه، وارتضاعه من إصبعه، وشِفاء البنت بريقه ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ﴾ لأنفسنا ﴿وَلَدًا﴾ لكونه أهلاً للتبنّي للمُلوك، فأجاب فرعون مسألتها ووهبة لها، فاشتغل فرعون وآسية وخدمها بتربيته ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بخطأهم العظيم في رجاء النفع منه والتبنّي له وتربيته، لكون هلاكهم وذَهاب ملكهم بيده ﴿وَأَصْبَحَ﴾ وصار ﴿فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ لمّا سَمِعت أنّ ولدها في يد فرعون ﴿فَارِغًا﴾ وخالياً من العقل والصبر من فَرط الخوف، أو خالياً من كلّ همٍّ إلّا همّ موسى، أو خائفاً ومُشفِقاً عليه، أو فارغاً من الوحي الذي أوحينا إليها قبل وناسياً له.

قيل: إنّ الشيطان جاءها، فقال لها: كَرِهت أن يُقتَل ولدك ويكون لك الأجر، فتولّيت إهلاكه وابتليت بالعقوبة، فلمّا اطّلعت أنّ ولدها وقع في يد فرعون أنساها عِظَم البلاء عَهْد الله إليها[٧] ﴿إِن﴾ الشأن أنّها ﴿كَادَتْ﴾ وقَرُبت ﴿لَتُبْدِى﴾ بموسى وتظهر ﴿بِهِۦ﴾ من ضَعف البشرية وفَرْط الاضطراب.

عن ابن عباس: كادت تُخبِر بأنّ ما وجدتموه ابني[٨].

---

١. تفسير الرازي ٢٤: ٢٢٧.
٢. تفسير الرازي ٢٤: ٢٢٨.
٣. تفسير روح البيان ٦: ٣٨٤.
٤. تفسير روح البيان ٦: ٣٨٤.
٥. تفسير الرازي ٢٤: ٢٢٨.
٦. تفسير الرازي ٢٤: ٢٢٨.
٧. تفسير الرازي ٢٤: ٢٢٩.
٨. تفسير الرازي ٢٤: ٢٣٠.

وعن الباقر عليه السلام: «كادت تُخبِر بخبره أو تموت»[١] ﴿لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا﴾ وشَدَدنا ﴿عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بالصبر والثبات بتذكرها ما وعدناه من ردّه إليها سالماً وجعله رسولاً.

وقيل: إنّ المراد صار فؤادها فارغاً من كلّ غمٍّ وخوفٍ لمّا سَمِعت أنّ امرأة فرعون عطفت عليه، وكادت تُبدي أنّه ولدها، ولم تملِك نفسها فرحاً لولا أن سكنّا ما بها من شدّة الفرح[٢]، وعلى أي تقدير كان ذلك الربط ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والمصدّقين بقدرتنا وصِدْق وعدنا ﴿وَقَالَت﴾ اُمّ موسى ﴿لِأُخْتِهِ﴾ لأبيه وأمّه اسمها مريم أو كلثوم: ﴿قُصِّيهِ﴾ وفتّشي خبره، واتّبعي أثره، وانظُري كيف حاله، فجاءت إلى باب فرعون ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ﴾ ورأته ﴿عَن جُنُبٍ﴾ وناحيةٍ بعيدةٍ عند فرعون وأهله ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ولا يلتفتون إلى أنّها اُختها جاءت لتعرف حاله وتفتيش كيفية تعيّشه.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [١٢ و ١٣]

ثمّ بيّن الله تعالى تدبيره في ردّ موسى عليه السلام إلى اُمّه حسب وعده إياها بقوله: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ ومنعنا عنه لبن المُرضعات، أو ثديّات[٣] النساء بالنِّفار عنها.

قيل: إنّ اُمّه أرضعته ثلاثة أشهر حتى عَرَف رِيحها[٤].

قيل: لم يقبل ثديَ أحدٍ ثمانية أيّام، وكان يرتضع من لبنٍ يخرُج من إصبعه، فاضطربت آسية وقومها من ذلك، ﴿فَقَالَتْ﴾ اُخت موسى لفرعون وأهله بعد أن رأت عدم قبول موسى ثديَ أحدٍ، واعتناء فرعون بشأنه، وطَلَبهم امرأةً يقبل ثديها: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ ويَضْمَنون إرضاعه وتربيته ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ وكلّ لنفعه وخَيره طالبون، وبحَضانته مُجدّون؟

قيل: إنّ هامان قال: إنّها تعرفه وتعرِف أهله. قالت: إنّما أردت إن هم للمَلِك ناصحون[٥].

رُوي أنّهم قالوا لها: من يكفله؟ قالت: اُمّي. قالوا: ألامّك لبن؟ قالت: نعم، لبن هارون، وكان هارون ولد في سنة لا يُقتَل فيها صبيّ، فقالوا: صدقت[٦].

وقيل: إنّها قالت: هي امرأة قد قُتِل ولدها،فأحبّت أن تتّخذ صغيراً ترضعه. قالوا: اذهبي وأتينا بها، فرجعت إلى اُمّها فأخبرتها بالقصّة، فجاءت مع ابنتها إلى فرعون، فرأت موسى عنده وهو يبكي،

---

١. تفسير القمي ٢: ١٣٦، تفسير الصافي ٤: ٨٢.
٢. تفسير الرازي ٢٤: ٢٢٩.
٣. كذا، وجمع الثدي: أثدٍ أو ثُدِيّ.
٤. تفسير الرازي ٢٤: ٢٣٠.
٥. تفسير روح البيان ٦: ٣٨٧.
٦. ايضاً.

وفرعون يُسلّيه ويلعب معه، لشدة حبّه إياه، فلمّا رأى أمّ موسى أعطاها موسى، فاحتضنته وألقمته ثديها، فلمّا شمّ موسى رائحة اُمّه أخذ ثديها، فقال فرعون: مَن أنت منه، فقد أبى كلّ ثدي إلّا ثديك؟ قالت: أنا امرأة حسنة الخُلق، طيّبه الريح واللبن، لا اُوتىٰ بصبي إلّا ثديي، فدفعه إليها وأجرى عليها اُجرتها كلّ يوم دينار، وقال: آتيني بها كلّ اُسبوع مرة، فرجعت به إلى بيتها من يومها مسرورة[١]، فأخبر الله تعالى بانجاز وعده بقوله: ﴿فَرَدَدْنَاهُ﴾ وأرجعناه ﴿إِلَىٰ أُمِّهِ﴾ حسب وعدنا ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بوصال ولدها ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ بفراقه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللهِ﴾ جميعه في حقّ موسى ﴿حَقٌّ﴾ وصدق لا يمكن الخُلف فيه ﴿وَلٰكِنَّ﴾ الناس أو آل فرعون ﴿أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بصدق مواعيده.

ثمّ قيل: إنّ موسى مَكَث عند اُمّه إلى فِطامه، ثمّ ردّته إلى فرعون وآسية، فنشأ في حِجرهما يربيّانه بأيديهما واتّخذاه ولداً، فبينا هو يلعب يوماً بين يدي فرعون وبيده قضيبٌ له يلعب به، إذ رفع القضيب فضربه على رأس فرعون، فغضب اللّعين، وتطيّر من ضربه، وهمّ بقتله، فقالت آسية: أيّها المَلِك لا يَشُقّن عليك ولا تغضب، فانّه صبيٌّ صغيرٌ لا عقل له، وإن شئت اجعل في الطشت جمراً وذَهَباً، فانظُر إلى أيّهما يقبِض، فأمر فرعون بذلك، فلمّا مدّ موسى يده إلى الذهب قبض المَلَك المُوكّل به على يده، فردها إلى الجمر، فقبض موسى عليها، فالقاها في فيه، ثم قذفها حين وجد حرارتها، فقالت آسية: ألم أقل لك إنّه لا يعقِل شيئاً، فصدّقها وكفّ عنه[٢].

ثمّ روي عن الباقر عليه السلام «أنّه لم يزل موسى عند فرعون فيأكرم كرامة حتىبلغ مبلغ الرجال» الخبر[٣].

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَٱسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ[١٤ ـ ١٦]

ثمّ أخبر الله بنبوته بقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ وكمال قوّته في جسده، وهو على ما قيل ما بين ثماني عشر الى ثلاثين[٤]. وعن ابن عباس: إلى أربعين[٥] ﴿وَٱسْتَوَىٰ﴾ واعتدل وكمل عقله.

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٣٨٧.
٢. تفسير روح البيان ٦: ٣٨٨.
٣. تفسير القمي ٢: ١٣٧، تفسير الصافي ٤: ٨٣.
٤. تفسير الرازي ٢٤: ٢٣٢، تفسير روح البيان ٦: ٣٨٨.
٥. تفسير الرازى ٢٤: ٢٣٢.

قيل: هو عند بلوغ أربعين سنة[١].

وعن الصادق عليه السلام: «أشُدَّه ثماني عشر، واستوى أي التحى»[٢] ﴿آتَيْنَاهُ﴾ وأعطيناه ﴿حُكْماً﴾ ونبوّة، أو حكمة ﴿وَعِلْماً﴾ بالدين ﴿وَكَذٰلِكَ﴾ الجزاء الجزيل الذي أعطيناه موسى على إحسانه في العمل ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

روي عن الباقر عليه السلام: «أن فرعون كان يُنكِر ما يتكلّم به موسى من التوحيد [حتى هم به] فخرج موسى من عنده»[٣].

وعنه عليه السلام قال: «كانت بنو إسرائيل تطلُبُ وتسأل عنه عليه السلام، فعُمّي عليهم خبره، فبلغ فرعون أنهم يَطلُبونه ويسألونه، فأرسل إليهم، وزاد عليهم في العذاب، وفرّق بينهم ونهاهم عن الأخبار به والسؤال عنه، فخرجت بنو إسرائيل ذات ليلةٍ مُقمِرةٍ إلى شيخٍ لهم عنده علم، فقالوا: كنّا نستريح إلى الأحاديث، فحتى متى نحن في هذا البلاء؟ قال: إنّكم لا تزالون فيه حتى يُحيي الله من ولد لاوي بن يعقوب اسمه موسى بن عمران غلام طُوال جَعْد[٤]، فبينا هم كذلك إذ أقبل موسى عليه السلام على بغلةٍ حتى وقف عليهم، فرفع الشيخ رأسه فعرفه بالصفة، فقال ما أسمك؟ قال: موسى. قال: ابن من؟ قال: عمران؟ فوثب إليه الشيخ فأخذ بيده فقبّلها، وثاروا إلى رِجله فقبّلوها، فعرفهم وعرفوه واتّخذ شيعةً»[٥].

وقيل: إنّه لمّا كبر كان يلبس الثياب الفاخرة، ويركب المراكب الفارهة الخاصة لفرعون، وكان يقال له موسى فرعون، فَركِب فرعون يوماً وموسى غائب، فلمّا جاء موسى عليه السلام سأل عن فرعون، فقالوا: ذهب إلى موضع كذا، فذهب في طلب فرعون[٦] ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ التي يقال لها مَدين، أو منف[٧] من أرض مصر، وهي مدينة فرعون التي كان ينزلها، وفيها كانت الأنهار تجري من تحت سريره، وكانت في غربي النِّيل على مسافة اثني عشر ميلاً من مدينةُ فُسطاط مصر المعروفة يومئذٍ بمصر القديمة، ومنف أول مدينة عُمّرت بأرض مصر بعد الطوفان، أو المراد مدينة مصر، وكان قصر فرعون على طَرَفٍ منها.

وعن الرضا عليه السلام: «هي مدينة من مدائن فرعون»[٨].

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٣٨٨.
٢. معاني الأخبار: ١/٢٢٦، تفسير الصافي ٤: ٨٣.
٣. تفسير القمي ٢: ١٣٧، تفسير الصافي ٤: ٨٣.
٤. جعُدَ الشعر: اجتمع وتقبضّ والتوى، فهو جَعْد، ووجه جَعْد: مستدير قليل اللحم.
٥. كمال الدين: ١٣/١٤٩، تفسير الصافي ٤: ٨٣.
٦. تفسير الرازي ٢٤: ٢٣٣.
٧. في النسخة: صنف، وكذا التي بعدها، تصحيف، انظر معجم البلدان ٥: ٢٤٧، وتفسير روح البيان ٦: ٣٩٠.
٨. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/١٩٨، تفسير الصافي ٤: ٨٣.

وكان دخول موسى عليه السلام فيها ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ وفي وقت لا يعتاد دخولها فيه. عن ابن عباس: دخلها في الظهيرة عند المَقِيل[١].

وفي رواية اُخرى عنه: كان بين العشاءين، كما عن الرضا عليه السلام[٢].

وعن أمير المؤمنين: «دخلها في يوم عيدٍ كان أهلها مشغولين باللهو واللّعِب، وكانت المسالك خالية من المارّة[٣] ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ ويتنازعان إذا نظر احد إليهما قال ﴿هَٰذَا﴾ الرجل الذي اسمه السامري على قول[٤]، أو ندمي على آخر من بني إسرائيل الذين هم ﴿مِن شِيعَتِهِ﴾ وأتباعه في دينه ﴿وَهَٰذَا﴾ الرجل الآخر من القِبط الذين هم ﴿مِنْ عَدُوِّهِ﴾ ومبغضيه ومخالفيه في دينه. قيل: كان خبّاز فرعون. وقيل: طبّاخه، اسمه فاتون على قول[٥]، أو فليقون على آخر، كان يُريد أن يُسَخر الاسرائيلي لحمل الحطب إلى مطبخ فرعون[٦].

فلمّا جاء موسى ﴿فَاسْتَغَاثَهُ﴾ واستنصره الرجل ﴿ٱلَّذِى﴾ كان ﴿مِن شِيعَتِهِ﴾ وتابعيه، واستعان به ﴿عَلَى﴾ دفع ﴿ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ﴾ القِبطي، فقال: موسى: يا قِبطي، خلّ الاسرائيلي، ولا تتعرّض له، فلم يعتنِ به ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ﴾ وضربه بالكفَ المقبوض ضربةً واحدةً ﴿فَقَضَىٰ﴾ الله لشدّة قوّة موسى ﴿عَلَيْهِ﴾ بالموت فمات، فندِم موسى من فعله الذي كان خلاف الأولى، و ﴿قَالَ هَٰذَا﴾ القتل ﴿مِنْ عَمَلِ﴾ من يعمل بإغواء ﴿ٱلشَّيْطَانِ﴾ ووسوسته لا من عمل مثلي ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ﴾ لابن آدم ﴿مُضِلٌّ﴾ له عن طريق صلاحه ﴿مُبِينٌ﴾ ومتظاهر في عداوته وإضلاله.

وانّما كان عمله خلاف الأولى؛ لأنّه لم يُؤمر بقتل الكفّار، أو لكونه مأموناً فيهم، فلم يكن له اغتيالهم، ولذا استغفر ربّه و ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ بقتل القِبطي الذي كان تركه أولى لي[٧] ﴿فَاغْفِرْ لِى﴾ ما صَدَر منّي من العمل الذي هو بمنزلة الذنب في حقّي ﴿فَغَفَرَ﴾ الله ﴿لَهُ﴾ ذلك برحمته ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ للذنوب العظام فضلاً عن ترك الأولى ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالتائبين خصوصاً موسى عليه السلام.

قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ [١٧]

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٣٩٠.

٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/١٩٨، تفسيرالصافي ٤: ٨٣، وفيهما: بين المغرب والعشاء.

٣. مجمع البيان ٧: ٣٨١ عن ابن عباس.

٤. تفسير روح البيان ٦: ٣٩٠.

٥. تفسير روح البيان ٦: ٣٩٠.

٦. تفسير روح البيان ٦: ٣٩٠.

٧. في النسخة: مني.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام: **﴿رَبِّ﴾** أقسم عليك **﴿بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾** من الايمان والعرفان والقوة والمغفرة لأتوبنّ **﴿فَلَنْ أَكُونَ﴾** بعد ذلك أبداً **﴿ظَهِيراً﴾** ومُعيناً **﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾** والخاطئين.

روي عن عليّ بن الجهم، قال: كنت في مجلس المأمون، وكان عنده الرضا عليه السلام فسأله المأمون، وقال: يا بن رسول الله، أليس من قولك: إنّ الأنبياء معصومون؟ قال: «بلى هم عليهم السلام معصومون من الكبائر والصغائر» قال: ما تقول في قوله تعالى: **﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾**؟ قال عليه السلام: «لمّا دخل موسى في مدينة من مدائن فرعون على حين غفلةٍ من أهلها، وكان بين المغرب والعشاء، رأى رجلين يقتتلان، كان أحدهما من قومه والآخر من قوم فرعون، فوكزه موسى بحكم الله، فمات القِبطي، فقال موسى: هذا الاقتتال الذي كان بينهما من عمل الشيطان لا ما فعل موسى عليه السلام من قتل القِبطي بوكزه».

قال المأمون: فما معنى قول موسى: **﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾**؟ قال عليه السلام: «كان مراد موسى مناجاته: ربّ إني وضعت نفسي في غير موضعها، حيث دخلت هذه المدينة، فاستُرني ربّي من أعدائي حتى لا يَظفَروا بي فيقتلوني، فستره الله تعالى منهم، ثمّ قال: ربّ بما أنعمت عليّ من كمال القوة بحيث قتلتُ الرجل بوكزةٍ، فلن أكون ظهيراً للمجرمين، بل أُجاهدهم في سبيلك بقوّتي حتى ترضى»[1].

أقول: بعد ثبوت عصمة الأنبياء بحكم العقل ودلالة الآيات وتظافر الروايات، فلابدّ من حمل أمثال الآيات على غير ظاهرها، ولو كان في غاية البُعد لعدم إمكان رفع اليد عن الأدلّة القاطعة بالظهورات والظنون، وقيل: إنّ المعنى بحقّ إنعامك عليّ وإحسانك إليّ اعصِمني فلن أكون مُعيناً لمن تؤدّي معاونته إلى الجُرم والقطيعة[2].

عن ابن عباس: أنّه عليه السلام لم يستثنِ، فابتُلي بالعون مرةً أُخرى كما سيأتي[3].

أقول: في الآية دلالةٌ واضحةٌ على حُرمة إعانة المجرمين والعُصاة والظالمين بما تصدُق عليه الإعانة، ولو بالكتابة وبَري القلم، وحُسن إعانة المؤمنين في أداء التكاليف وسائر حوائجهم، كما يَدُلّ عليه قوله: **﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم﴾**[4].

فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ

---

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٩٥ و١٩٨ و١/١٩٩، الاحتجاج: ٤٢٦ و٤٢٨، بحار الأنوار ١٣: ٦/٣٢.

٢و٣. تفسير روح البيان ٦: ٣٩١. ٤. المائدة: ٢/٥.

قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ[١٨]

﴿**فَأَصْبَحَ**﴾ موسى تلك الليلة التي قَتَل فيها القِبطي ﴿**فِى ٱلْمَدِينَةِ**﴾ وبلدة مصر حال كونه ﴿**خَائِفاً**﴾ من آل فرعون على نفسه و ﴿**يَتَرَقَّبُ**﴾ ويترصَّد منهم طلب قَوَده، وينتظر القِصاص منه، أو الخبر من قِبَل فرعون في حقّه، فخرج من آل فرعون مستتراً ويمشي في المسلك ﴿**فَإِذَا**﴾ الرجل الاسرائيلي ﴿**ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُ**﴾ واستعان منه على دفع القِبطي ﴿**بِٱلْأَمْسِ**﴾ وفي اليوم السابق ﴿**يَسْتَصْرِخُهُ**﴾ ويناديه لينصُره على دفع قِبطيّ آخر يُنازعه، فلمّا سَمِع موسى عليه السلام نداء الإسرائيلي ﴿**قَالَ لَهُ مُوسَىٰ**﴾ تَضَجُّراً منه ﴿**إِنَّكَ**﴾ يا إسرائيلي والله ﴿**لَغَوِيٌّ**﴾ ومُوقعٌ لي بسبب كَثرة نِزاعك فيما هو خلاف صلاح الوقت، أو إنّك لكثير المخاصمة التي هي خلاف صلاحك ﴿**مُّبِينٌ**﴾ وظاهر منك هذا العمل.

فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ * وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّى أَن يَهْدِيَنِى سَوَاءَ ٱلسَّبِيلِ[١٩ ـ ٢٢]

﴿**فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ**﴾ موسى ﴿**أَن يَبْطِشَ**﴾ ويأخذ ﴿**بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا**﴾ بقوّةٍ ويضربه بشدّة، ورأى القِبطيّ استعانة السبطيّ وإرادة موسى بطشه، وقد علم أنّ رجلاً أعانه بالأمس على قِبطيّ فقتله المُعين، فحَدَس أنّ الرجل هو موسى، أو سَمِع ذلك من أحد ﴿**قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِى**﴾ بسبب نزاعي مع السبطيّ ﴿**كَمَا قَتَلْتَ**﴾ من القِبط ﴿**نَفْساً**﴾ لأجل ذلك ﴿**بِالْأَمْسِ**﴾.

وقيل: إنّ السبطي لمّا رأى غضبة موسى غليه قال ذلك بتوهّم أنّ موسى أراد أن يَبْطِش به كما في (العيون) حيث قال قال «وهو من شيعته»[١].

ثمّ لامه القائل على المبادرة في القتل وترك الاصلاح بقوله: ﴿**إِن تُرِيدُ**﴾ وما تقصُد ﴿**إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّاراً**﴾ وظالماً للناس ﴿**فِى ٱلْأَرْضِ**﴾ وقتّالاً للنفوس ﴿**وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ**﴾ بين الناس بالقول والفعل، ودافعي الخصومة من بين المتنازعين بالتي هي أحسن، فلمّا قال القِبطي أو

---

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/١٩٩، تفسير الصافي ٤: ٨٤.

الاسرائيلي ذلك، انتشر الحديث في المدينة، وانتهى إلى فِرعون، فهمّوا بقتله ﴿وَ﴾ إذن ﴿جَاءَ رَجُلٌ﴾ مؤمن من آل فرعون وطائفة القِبط يقال له حزقيل أو حزئيل ﴿مِنْ﴾ قصر فرعون الذي كان في ﴿أَقْصَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ وأخرها.

قيل: كان ابن عمّ فرعون[١]، أو موسى[٢]، وهو ﴿يَسْعَىٰ﴾ ويسير سريعاً إشفاقاً على موسى حتى وصل إليه. ثمّ ﴿قَالَ﴾ نصحاً وتخويفاً له: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ ٱلْمَلَأَ﴾ والأشراف من القبط ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ ويتشاورون بسببك ﴿لِيَقْتُلُوكَ﴾ قِصاصاً وعِناداً ﴿فَاخْرُجْ﴾ عاجلاً من هذه المدينة تحفّظاً على نفسك ﴿إِنِّي لَكَ﴾ فيما آمرك به من الخروج والفِرار من القوم ﴿مِنَ ٱلنَّاصِحِينَ﴾ والطالبين لخيرك وصلاحك.

القمي قال: وبلغ فرعون خبر قتل موسى الرجل، فطلبه ليقتله، فبعث المؤمن إلى موسى أنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك[٣] ﴿فَخَرَجَ﴾ موسى ﴿مِنْهَا﴾ فوراً بلا زادٍ وراحلةٍ حال كونه ﴿خَائِفاً﴾ على نفسه من القِبط وخَدَم فرعون و ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ ويترصّد لُحوق الطالبين له وتعرّضهم إياه في الطريق.

ثمّ التجأ إلى الله تعالى، لعلمه بأنّه لا ملجأ له سواه و ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي﴾ وخلّصني ﴿مِنَ﴾ ظُلم ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾ واحْفَظْني من لحوقهم إياي، وسلّمني من شرّهم.

وفي الحديث: يلتفت يَمْنة ويَسْرة، ويقول: ربّ نجّني إلى آخره[٤].

قيل: ومرّ نحو مَدين، وكان بينه وبين مَدين مسيرة ثلاثة أيام[٥]، ولم تكن في سلطان فرعون ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ وأقبل نحوها، وسلك في طريقها غير قاصدٍ لها[٦]، وأخذ يمشي على غير معرفته مسلّماً نفسه إلى الله، أعلن بتوكّله عليه و﴿قَالَ عَسَىٰ﴾ وأرجو من ﴿رَبِّي﴾ اللّطيف بي ﴿أَن يَهْدِيَنِي﴾ ويُرشدني ﴿سَوَاءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ ووسطه المُوصِل إلى المقصود والمأمن.

قيل: إنّه عليه السلام قصد التوجّه إلى بلدة مَدين، لأنّه وقع في نفسه أنّ بينه وبين أهل مَدين قرابة، لأنّهم كانوا من أولاد مَدين بن إبراهيم، وكان هو عليه السلام من بني إسرائيل، ولم يكن له علم بالطريق، بل اعتمد على فضل الله وتوكّل عليه في إيصاله إليه[٧].

وقيل: إنّ جَبْرئيل جاءه وعلّمه الطريق[٨].

وقيل: لمّا أخذ موسى في السير جاءه مَلَك على فَرَسٍ فسجد له موسى عليه السلام من الفرح، فقال

---

١. تفسير البيضاوي ٢: ١٨٩، تفسير روح البيان ٦: ٣٩٢.
٢. تفسير الصافي ٤: ٨٥.
٣. تفسير القمي ٢: ١٣٧، تفسير الصافي ٤: ٨٥.
٤. تفسير القمي ٢: ١٣٧، تفسير الصافي ٤: ٨٥.
٥. تفسير القمي ٢: ١٣٧، تفسير الصافي ٤: ٨٥.
٦. في النسخة: نحوه، وسلك في طريقه غير قاصدٍ له.
٧ و٨. تفسير الرازي ٢٤: ٢٣٨.

المَلَك: لا تفعل واتّبعني، فاتّبعه نحو مَدين[١].

وقيل: إنّه ذهب نحو مَدين حتى وصل إلى ثلاث طرق، فاختار الطريق الوسط، وهو المراد من سواء السبيل، فانه وسطه ومعظمه، ثمّ جاء طالبوه فذهبوا إلى الطريقين الآخرين، فلم يجدوه[٢].

وقيل: كان حافياً، ولم يكن له طعام إلّا الورق[٣].

قيل: إنّه مشى ثمانية أيام، وجُرِحت قدماه من المشي، ولم يأكُل في الثمانية إلّا من حشيش الأرض وورق الأشجار[٤].

وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ * فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ[٢٣ ـ ٢٥]

﴿**وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ**﴾ ووصل إلى البئر التي كانت على ثلاثة أميال منها وأهلها يسقون منها ﴿**وَجَدَ**﴾ موسى ﴿**عَلَيْهِ أُمَّةً**﴾ وجماعة ﴿**مِنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ**﴾ منه مواشيهم ﴿**وَوَجَدَ**﴾ أيضاً ﴿**مِن دُونِهِمُ**﴾ وفي مكان أسفل منهم ﴿**ٱمْرَأَتَيْنِ**﴾ إحداهما صفورا، والأُخرى ليا، بنتا يثرون، ويثرون هو شعيب على ما قيل[٥]، وهما ﴿**تَذُودَانِ**﴾ وتمنعان أغنامهما من التقدّم إلى البئر، أو من التفرّق، أو من الاختلاط بأغنام الغير، أو تمنعان أنفسهما من الاختلاط بالرجال، أو وجوههما من نظر الأجانب ﴿**قَالَ**﴾ موسى لهما: ﴿**مَا خَطْبُكُمَا**﴾ وما شأنكما فيما أنتما عليه من التأخر، وما لكما لا تسقيان أغنامكما؟ ﴿**قَالَتَا**﴾ دأبنا أن ﴿**لَا نَسْقِى**﴾ أغنامنا ﴿**حَتَّىٰ يُصْدِرَ**﴾ ويصرف ﴿**ٱلرِّعَاءُ**﴾ وحُفّاظ المواشي مواشيهم بعد ريّها تعفّفاً وحَذَراً من مخالطة الرجال، فاذا انصرفوا سقينا أغنامنا من فضل مواشيهم ﴿**وَأَبُونَا**﴾ شعيب لا يستطيع أن يُباشر سقيها؛ لأنه ﴿**شَيْخٌ كَبِيرٌ**﴾ في السنّ، أو في القَدر والشرف، لذا يُرسلنا معها للسقي اضطراراً.

---

١. تفسير الرازي ٢٤: ٢٣٨.

٢. تفسير البيضاوي ٢: ١٩٠، تفسير أبي السعود ٧: ٨، تفسير روح البيان ٦: ٣٩٣.

٣. تفسير أبي السعود ٧: ٨.

٤. تفسير الرازي ٢٤: ٢٣٨.

٥. تفسير روح البيان ٦: ٣٩٥.

روي أنّ الرجال كانوا يضعون على رأس البئر حجراً لا يرفعه إلّا سبعة رجال أو عشرة أو أربعون، فقام موسى فرفعه وحده[1]، وسألهم دَلواً فأعطوه دلواً لا يَنْزَحها إلّا عشرة، فاستسقى بها وحده ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ أغنامهما وأصدرهما.

القمي: فلمّا بلغ ماء مَدين رأى بئراً يستسقي الناس منها لأغنامهم ودوابّهم، فقعد ناحيةً ولم يَكُن أكل منذ ثلاثة أيام شيئاً، فنظر إلى جاريتين في ناحية ومعهما غنمات لا تدنوان من البئر، فقال لهما: ما لكما لا تسقيان؟ فقالتا ما حكى الله، فرَحِمهما موسى عليه السلام ودنا من البئر، فقال لمن على البئر: أسقي لي دلواً ولكم دلواً، وكان الدلو يَمُدّه عشرة رجال، فاستقى وحده دلواً لمن على البئر، ودلواً لبنتي شعيب وسقى أغنامهما[2] ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ﴾ وانصرف ﴿إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ من شدة الحرّ وضَعْف الجوع ﴿فَقَالَ﴾ يا ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ﴾ ولو كان قليلاً ﴿فَقِيرٌ﴾ ومُحتاج. عن الصادق عليه السلام: «سأل الطعام»[3].

وفي (النهج): «والله ما سأل الله عزّ وجلّ إلّا خبزاً يأكُله؛ لأنه كان يأكُل بَقْلَة الأرض، ولقد كانت خُضرة البقل تُرى من شَفيف صِفاق بطنة لهُزاله وتَشَذّب لحمه»[4].

وروي أنّه قال ذلك وهو محتاجٌ إلى شِقّ تمرةٍ[5].

وعن العامة: لمّا كان موسى جائعاً سأل من الله ما يأكُل، ولم يسأل من الناس، ففَطِنت الجاريتان، فلمّا رجعتا إلى أبيهما قَبل الناس وأغنامهما قفلت، قال لهما: ما أعجلكما؟ قالتا وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى لنا، ثمّ تولى إلى الظلّ. فقال: ﴿رَبِّ﴾ إلى آخره. فقال أبوهما: هذا رجلٌ جائعٌ. فقال لواحدة منهما: اذهبي فادعيه لنا[6].

القمي قال: فلمّا رجعت ابنتا شعيب إلى شعيب قال لهما: اسرعتما الرجوع؟ فأخبرتاه بقصّة موسى ولم تعرفاه، فقال شعيب لواحدة منهما: أذهبي إليه فادعيه لنجزيه أجر ما سقى لنا[7]. ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَاهُمَا﴾ وهي الكبرى منهما اسمها صفورا، أو صفورة، أو صفرى، واسم الصغرى صفيرا، حال كونها ﴿تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ كما هو عادة الأبكار، أو لكمال إيمانها وشرف عنصرها وكرامة نسبها، ثمّ ﴿قَالَتْ﴾: أيّها الرجل ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ﴾ ويطلُبُ حضورك عنده ﴿لِيَجْزِيَكَ﴾ ويُعطيك ﴿أَجْرَ مَا

---

١. تفسير أبي السعود ٧: ٨، تفسير روح البيان ٦: ٣٩٥.
٢. تفسير القمي ٢: ١٣٧، تفسير الصافي ٤: ٨٦.
٣. الكافي ٦: ٥/٢٨٧، تفسير الصافي ٤: ٨٦.
٤. نهج البلاغة: ٢٢٦ الخطبة ١٦٠، تفسير الصافي ٤: ٨٦.
٥. كمال الدين: ١٣/١٥٠، تفسير الصافي ٤: ٨٦.
٦. تفسير الرازي ٢٤: ٢٤٠، تفسير أبي السعود ٧: ٩.
٧. تفسير القمي ٢: ١٣٨، تفسير الصافي ٤: ٨٦.

سَقَيْتَ لَنَا﴾ فأجاب موسى الدعوة شوقاً إلى زيارة شعيب، وطلباً لخدمته، لا طمعاً في طعامه وأجره، فقام وانطلقا وهي أمامه، فالزقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته، أو كشفت عن ساقيها، فقال لها: امشي خلفي وانعتي لي الطريق، فتأخرّت وكانت تقول: عن يمينك، أو عن شمالك، أو عن قُدَامك.

القمي: فقام موسى معها، ومشت أمامه، فصفقتها الرياح، فبان عجزها، فقال لها موسى تأخَري ودلَيني على الطريق بحصاة تلقيها أمامي اتّبعها، فأنا من قومٍ لا ننظُر في أدبار النساء، الخبر[١].

فمشيا حتى اتيا دار شعيب، فبادرت المرأة إلى ابيها فأخبرته، فأذِن له في الدخول، وشعيب يومئذٍ شيخٌ كبيرٌ، وقد كفَ بصره ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ﴾ موسى سلَم عليه فردَ عليه السلام وعانقه. ثم أجلسه بين يديه، وقدَم إليه الطعام فامتنع منه، وقال: أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيته، وإنّا أهل بيت لا نبيع ديننا بدنيانا. فقال شعيب لا والله يا شاب، ولكن هذه عادتنا مع كلّ من ينزل بنا، فأكل منه ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ وأخبره بما جرى عليه من ولادته إلى فِراره من فرعون وقومه ومجيئه إلى مَدين ﴿قَالَ﴾ له شعيب: ﴿لَا تَخَفْ﴾ هنا من فرعون وقومه، فانّك ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾ فانه لا سلطان لهم بأرضنا، ولسنا في مملكة فرعون.

قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ ٱسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَأْجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ * قَالَ إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَىٰ ٱبْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ[٢٦ و ٢٧]

فبينما كانا يتكلّمان ويتوانسان وكانت بنتا شعيب حاضرتين إذ ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا﴾ وهي الكبرى التي جاءت في طلب موسى: ﴿يَا أَبَتِ ٱسْتَأْجِرْهُ﴾ لرعي أغنامك والقيام بأمورها، فانّ للرجل قوةً على العمل والأمانة في العِرض والمال ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَأْجَرْتَ﴾ رقبتهم وأفضلهم الأجير ﴿ٱلْقَوِى ٱلْأَمِينُ﴾.

روي أنّ شعيباً قال لها: ما أعلمك بقوته وأمانته؟ فذكرت له ما شاهدت منه من إقلال الحَجر عن رأس البئر، ونزح[٢] الدلو الكبير، وأنّه خفَض رأسه عند الدعوة ولم ينظُر إليها تورّعاً حتى بلغت رسالتها، وأنّه أمرها بالمشي خلفه[٣].

والقمي ـ في حديث ـ: «فقال لها شعيب: أمّا قوّته فقد عرفتها بأنّه يسقي الدلو وحده، فبما عرفتِ

---

١. تفسير القمي ٢: ١٣٨، تفسير الصافي ٤: ٨٦.
٢. في تفسير أبي السعود وتفسير روح البيان: نزع.
٣. تفسير البيضاوي ٢: ١٩١، تفسير أبي السعود ٧: ١٠، تفسير روح البيان ٦: ٣٩٧.

أمانته؟ فقالت: إنَه لمّا قال لي تأخرَي عنَي ودلَيني على الطريق فأنا من قوم لا ننظُر في أدبار النساء، عَرَفت أنّه ليس من الذين ينظُرون في أعجاز النساء، فهذه أمانته[1].

وعن الكاظم عليه السلام. قال «قال لها شعيب: يابنية هذا قوَي قد عَرَفته برفع الصخرة، من أين عَرَفته أنّه أمين؟ قالت: يا أبتِ إنّي مشيتُ قُدّامه فقال: امشي خلفي، فان ضللتُ فارشديني إلى الطريق، فإنّا قومٌ لا ننظُر في أدبار النساء»[2] إذن ﴿قَالَ﴾ شعيب: يا موسى ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ وأزوّجك ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ اللتين عندك ﴿عَلَىٰ﴾ شرطٍ، وهو ﴿أَن تَأْجُرَنِى﴾ وتعمل لي بالأجر ﴿ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ وسنين ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ﴾ السنين ﴿عَشْراً﴾ في الخدمة والعمل ﴿فَمِنْ عِندِكَ﴾ إتمامها وبتفضّلك إكمالها، لا الزامٌ من عندي عليك ﴿وَمَا أُرِيدُ﴾ من استئجارك ﴿أَنْ أَشُقَّ﴾ وأصعّب الأمر ﴿عَلَيْكَ﴾ وتحميلك ما تتعب فيه، بل أُريد أن أُساهلك وأُسامحك.

قيل:رأى شعيب بنور النبوة أنّ موسى يبلُغ إلى درجة النبوة في ثماني سنين، وفي الأزيد إلى العشر كمال الكمال[3].

سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ * قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ * فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوا إِنِّى ءَانَسْتُ نَاراً لَعَلِّى ءَاتِيكُم مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ[٢٧ ـ ٢٩]

ثمّ رغّبه في القبول بقوله: ﴿سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾ والطالبين لخيرك، والمحسنين إليك في هذه المعاملة بلين الجانب، والوفاء بالعهد، والمداراة في القول والعمل، وغير ذلك ممّا يوجب راحتك وتيسير العمل عليك ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ العهد الذي عاهدتني عليه ثابت ﴿بَيْنِى وَبَيْنَكَ﴾ جميعاً لا أُخالفه ولا تُخالفه ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ الذين ذكرت من القصير والطويل ﴿قَضَيْتُ﴾ وفيت بأداء الخدمة فيه ﴿فَلَا عُدْوَانَ﴾ وتجاوز ﴿عَلَيَّ﴾ من قِبلك بمطالبة الزيادة، أو لا إثم عليَ في قضاء الأقصر، ولا إلزام عليّ بالعمل بالأكثر ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ من الشرط المقرر فينا ﴿وَكِيلٌ﴾ وشاهدٌ وحفيظٌ.

قيل: فجمع شعيب مؤمني مَدين وزوّجه ابنته صفورا، ودخل موسى بيت شعيب، وأقام برعي

---

١. تفسير القمي ٢: ١٣٨، تفسير الصافي ٤: ٨٧.
٢. من لا يحضره الفقيه ٤: ١٢/٧، تفسير الصافي ٤: ٨٧.
٣. تفسير روح البيان ٦: ٣٩٨.

أغنامه عشر سنين[١].

عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه سُئل: أي الأجلين قضى؟ قال: «أوفاهما وأبطأهما»[٢].

وفي رواية: «وإن سألت أي الابنتين تزوّج؟ فقل الصغرى منهما، وهي التي جاءت وقالت: ﴿يَا أَبَتِ ٱسْتَأْجِرْهُ﴾[٣].

وعن الصادق عليه السلام: أنّه سُئِل أيّتهما التي قالت: ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ﴾؟ قال: «التي تزوّج بها» قيل: فأي الأجلين قضى؟ قال: «أوفاهما وأبعدهما عشر سنين» قيل: فدخل بها قبل أن ينقضي الشرط أو بعد انقضائه؟ قال: «قبل أن ينقضي» قيل: فالرجل يتزوّج المرأة ويشترط لأبيها إجارة شهرين، أيجوز ذلك؟ قال: «إن موسى عَلِم أنّه سيُتِمّ شرطه» قيل: كيف؟ قال: «عَلِم أنّه سيبقى حتى يفي»[٤].

وفي (الكافي و (الفقيه) عن الصادق عليه السلام: «أنّ علياً قال: لا يحِلّ النكاح اليوم في الاسلام بإجارة بأن يقول أعمل عندك كذا وكذا سنة على أن تزوّجني اختك أو ابنتك. قال: هو حرامٌ لأنّه ثمن رقبتها، وهي أحقّ بمهرها»[٥].

قال في (الفقيه): وفي حديث آخر: «إنّما كان لموسى عليه السلام لأنّه عَلِم من طريق الوحي هل يموت قبل الوفاء أم لا، فوفى بأتمّ الأجلين»[٦].

أقول: لا إشكال في بطلان المهر إذا كان العمل لغير المرأة، وظاهر الآية أن إجارة موسى عليه السلام كانت بأُجرة على ذمّة شعيب، وإنّما كان قَبول موسى لهذه الإجارة من شرط شعيب عليه السلام على موسى عليه السلام في إنكاحه ابنته بمهر معين، ولم يكن عمل موسى عليه السلام لشعيب عليه السلام مهراً لابنته نعم هو من الشروط الابتدائية التي لم يجب الوفاء به على المشهور.

وفي (الاكمال): أنّ يوشع بن نون وصيّ موسى عاش بعد موسى ثلاثين سنة، وخرجت عليه صفراء بنت شعيب زوجة موسى، فقالت: أنا أحقّ بالأمر منك، فقاتلها وقتل مقاتليها، وأحسن أسرها[٧].

وروي أنّه لمّا أتمّ العقد قال شعيب لموسى: ادخل ذلك البيت، فخُذ عصاً من تلك العِصيّ، وكانت عنده عِصيّ الأنبياء، فأخذ عصاً هبط بها آدم من الجنة ولم يزل الأنبياء يتوارثونها حتى وصلت إلى

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٣٩٩.
٢ و٣. مجمع البيان ٧: ٨٧، تفسير الصافي ٤: ٣٩١.
٤. مجمع البيان ٧: ٣٩٠، تفسير الصافي ٤: ٨٧.
٥. الكافي ٥: ٢/٤١٤، من لا يحضره الفقيه ٣: ١٢٧١/٢٩٨.
٦. من لا يحضره الفقيه ٣: ١٢٧٢/٢٩٨، تفسير الصافي ٤: ٨٨.
٧. كمال الدين: ٢٧، تفسير الصافي ٤: ٨٨.

شعيب عليه السلام فمسّها وكان مكفوفاً، فلم يَرْضَها له خوفاً من أن لا يكون أهلاً لها[١]، وقال: غيرها، فلا يقع في يده إلّا هي سبع مرات، فعَلِم أنّ لموسى شاناً، وحين خرج للرعي قال له شعيب: إذا بلغت مَفْرِق الطُّرق فلا تأخُذ عن يمينك، فانّ الكلأ بها أكثر، إلّا أن فيها تنيناً[٢] أخشى منه عليك وعلى الغنم، فأخذت الغنم ذات اليمين، ولم يقدِر على كفّها، ومشى على أثرها، فاذا عشبٌ وريفٌ لم ير مثله، فنام فاذابالتنّين قد أقبل، فحاربته العصا حتى قتلته، وعادت إلى جنب موسى داميةً، فلمّا أبصرها داميةً والتنّين مقتولاً سُرَ[٣]، ولمّا رجع إلى شُعيب أخبره بالشأن، ففرِح شُعيب وعَلِم أن لموسى شأناً، وقال: إنّي وهبت [لك] من نتاج غَنَمي هذا العام كلّ أدرعٍ[٤] ودرعاء، فأوحى الله إليه في المنام: أن اضرِب بعصاك الماء الذي هو في مستسقى الأغنام ففعل، ثمّ سقى، فما أخطأت واحدة إلّا وضعت أدرع ودرعاء، فعَلِم شعيب أنّ ذلك رزقٌ ساقه الله إلى موسى وامرأته، فوفّىٰ له بالشرط، وسلّم إليه الأغنام[٥].

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ﴾ وأتمّ ﴿مُوسَى﴾ ذلك ﴿ٱلْأَجَلَ﴾ المشروط بينهما، وفرغ من خدمة عشر سنين عزم على الرجوع إلى مصر.

قيل: فبكى شعيب، وقال: يا موسى، كيف تخرُج عني وقد ضَعُفتُ وكَبِرتُ؟ فقال له: قد طالت غيبتي عن اُمّي وخالتي وأخي هارون واُختي في مملكة فرعون. فقام شعيب وبسط يده وقال: يا ربّ بحُرمة إبراهيم الخليل، وإسماعيل الذبيح، وإسحاق الصفيّ، ويعقوب الكظيم، ويوسف الصدّيق، رُدّ قوّتي وبصري، فأمّن موسى على دُعائه، فردّ الله عليه بصره وقوّته. ثمّ أوصاه بابنته[٦].

وفي حديث القمي: أنّه قال لشعيب: لابدّ لي أن أرجِع إلى وطني واُمّي، فما لي عندك؟ فقال شعيب: ما وَضَعت أغنامي في هذه السنة من غنم أبلق فهو لك فعَمد موسى عندما أراد أن يُرسِل الفحل على الغنم إلى عصاه فقشر منه بعضه وترك بعضه، وغرزه في وسط مَربِض الغنم، وألقى عليه كساءً أبلق، ثمّ أرسل الفحل على الغنم، فلم تضع الغنم في تلك السنة إلّا بُلقاً، فلمّا جاء عليه الحول حمل موسى امرأته، وزوّده شعيب من عنده، وساق غنمه، فلمّا أراد الخروج قال لشعيب: آتني عصاً تكون معي، وكانت عِصيّ الأنبياء عنده قد ورثها مجموعةً في بيت، فقال له شعيب: ادخُل هذا البيت وخُذ عصاً من بين العِصيّ، فدخل فوثبت إليه عصا نوح وإبراهيم، وصارت في كفّه، فأخرجها، فنظر

---

١. في النسخة: أهلها.
٢. التنّين: حيوان اسطوري يجمع بين الزواحف والطير، ويقال: له مخالب أسد وأجنحة نسر، وذنب أفعى.
٣. في النسخة: شكر.
٤. الأدرع: ما سود رأسه وبيض سائره.
٥. تفسير روح البيان ٦: ٣٩٩.
٦. تفسير روح البيان ٦: ٤٠٠.

إليها شعيب، فقال: ردّها وخُذ غيرها، فوثبت إليه تلك بعينها فردّها، حتى فعل ذلك ثلاث مرات، فلمّا رأى شعيب ذلك، قال له: اذهب، فقد خصّك الله عزّ وجلّ بها[١]. فأخذ العصا ﴿وَسَارَ﴾ موسى ﴿بِأَهْلِهِۦٓ﴾ وزوجته صفوراء وولده بإذن شعيب إلى مصر، فانحرف من خوف ملوك الشام عن الطريق، وأخذ في السير بالبادية حتى جنّهم الليل، واشتدّ البرد، وانقلب الهواء، وأخطأ الطريق[٢]، وجاءت الرياح العاصفة، وتفرّقت أغنامه، وأخذ زوجته الطلّق وهي حامل، إذن ﴿ءَانَسَ﴾ ورأى ﴿مِن جَانِبِ﴾ جبل ﴿ٱلطُّورِ﴾ ومن الجهة التي تليه ﴿نَاراً﴾ ذات اشتغال ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ﴾ والمتعلّقين به: ﴿ٱمْكُثُوٓاْ﴾ وقفوا هنا ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ﴾ ورأيت من البعيد ﴿نَاراً﴾ وأنا أذهب وحدي إليها ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا﴾ وممنَ حولها ﴿بِخَبَرٍ﴾ ودلالة على الطريق ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ وقطعة أوعود غليظ في رأسه شيء ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ وبحرارتها تدفأون.

وعن الباقر عليه السلام: «سار بأهله نحو بيت المَقْدِس فأخطأ الطريق ليلاً، فرأى ناراً قال لأهله: ﴿ٱمْكُثُوٓاْ﴾ الآية»[٣].

فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِىَ مِن شَاطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَارَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَامُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَامُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ [٣٠ـ٣١]

فترك أهله في البريّة وذهب في طلب النار ﴿فَلَمَّآ أَتَاهَا﴾ وبلغ عندها ﴿نُودِىَ﴾ وخوطب بصوتٍ عالٍ ﴿مِن شَاطِئِ﴾ وشفير ﴿ٱلْوَادِ﴾ الذي في الجانب ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ من موسى ﴿فِى﴾ البُقعة والقطعة ﴿ٱلْمُبَارَكَةِ﴾ الكثيرة الخير من الأرض، وكان النداء ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ الزيتونة، أو السدرة، أو السَّمُرة، أو العُنّاب، أو العَوْسَج.

وفي الحديث: «أنّها شجرة اليهود ولا تنطِق»[٤].

قيل في تفسيره: إذا نزل عيسى وقتل اليهود، فلا يختفى أحدٌ منهم تحت شجرةٍ إلّا نطقت، وقالت يا مُسلم، هذا يهوديّ فاقتُله إلّا شجر الغَرْقد[٥]، فانّه لا ينطِق[٦].

وكان أوّل كلامه تعالى: ﴿أَن يَامُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ الذي اُناديك وأدعوك باسمك، وأنا ﴿رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ من يدك على الأرض، فألقاها بلا ريثٍ، فصارت ثُعباناً ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا

---

١. تفسير القمي ٢: ١٣٩، تفسير الصافي ٤: ٨٨.
٢. في النسخة: عن الطريق.
٣. مجمع البيان ٧: ٣٩١، تفسير الصافي ٤: ٨٩.
٤. تفسير روح البيان ٦: ٤٠١.
٥. الغَرْقَد: شجرٌ عظام، وقيل هي العوسج إذا عظم.
٦. تفسير روح البيان ٦: ٤٠١.

﴿تَهْتَزُّ﴾ وتتحرّك بسرعة ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ وحيّة صغيرة في سرعة السير ﴿وَلَّىٰ﴾ ورجع ﴿مُدْبِراً﴾ له من شدّة الخوف، وفرّ إلى الجهة التي جاء منها ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ ولم يلوِ رأسه إلى خلفه.

قيل: إنّها لم تَدَع شجرةً ولا صخرةً إلّا ابتلعها حتى سَمِع موسى صرير أسنانها، وسَمِع قعقعة الصخر في جوفها، فحينئذٍ ولّى مدبراً[١]، فنودي: ﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ﴾ وارجِع إلى مكانك الذي كنت فيه من الطور ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ من هذا الثعبان ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ﴾ من جميع المخاوف فاطمأنّ قلبه الشريف، ومدّ يده إلى الثعبان، فأخذه وجرّه إلى نفسه، فصار عصاً.

ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَالِبُونَ[٣٢ـ٣٥]

ثمّ نودي أن ﴿ٱسْلُكْ﴾ وادخِل ﴿يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ﴾ منه حال كونها ﴿بَيْضَاءَ﴾ مشرقة ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ وعيبٍ وبَرَصٍ ﴿وَٱضْمُمْ﴾ واجمع ﴿إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ ويديك بإدخال إحداهما تحت الأخرى، أو بادخالهما في جيبك، أو بوضعهما إلى صدرك حتى تسكُن ﴿مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ والخوف.

قيل: إنّه من معاينة الثعبان فَزِع واضطرب، فاتّقاه بيده، كما يفعل الخائف من الشيء، فقال تعالى له: ما فعلته فيه غَضاضة عند العدوّ، فاذا رأيت الثعبان أدخِل يدك[٢] تحت إبطيك[٣]، ثمّ أخرجها[٤] بيضاء، لتظهر لك معجزتان ﴿فَذَانِكَ﴾ الأمران من انقلاب العصا ثعباناً واليد البيضاء ﴿بُرْهَانَانِ﴾ وحُجّتان نيّرتان ﴿مِن﴾ قبل ﴿رَّبِّكَ﴾ على صدق رسالتك ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أو مرسلان أو منتهيان إليهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ وخارجين عن الحدّ في الظلم والطُّغيان ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ قِصاصاً ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ﴾ وأطلق ﴿مِنِّي لِسَاناً﴾ وأبين منطقاً ﴿فَأَرْسِلْهُ﴾ وأشركه ﴿مَعِيَ﴾ في الدعوة ليكون ﴿رِدْءاً﴾ وعوناً لي ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ ويُساعدني في تقرير الحُجّة وإبطال شُبهه القوم ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ في دعوى رسالتي، ولا يُطاوعني

---

١. تفسير الرازي ٢٤: ٢٤٦.
٢. في النسخة: يديك.
٣. تفسير الرازي ٢٤: ٢٤٧.
٤. في النسخة: اخرجهما.

لساني في إلزامهم بحُجَتي. ﴿قَالَ﴾ تعالى إجابةً له: ﴿سَنَشُدُّ﴾ وسنحكم ﴿عَضُدَكَ﴾ ونقوّي قلبك ﴿بِأَخِيكَ﴾ هارون ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً﴾ واستيلاءً على معارضيكما.

عن الصادق عليه السلام «هيبته في قلوب الأعداء، وحجتّه في قلوب الاولياء»[١].

﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ بقتل وإساءة، أو باستيلاء ومُحاجّة، وتكون سلطنتكما، وعدم وصوله إليكما ﴿بِآيَاتِنَا﴾ والمعجزات التي أعطيناكما ﴿أَنْتُمَا وَمَنِ﴾ آمن بكما و ﴿آتَّبَعَكُمَا﴾ في دينكما هم ﴿آلْغَالِبُونَ﴾ على فرعون وقومه بالحُجَة أولاً وبالدولة آخراً.

قيل: لمّا تمت مناجات موسى ربه ذهب من مكانه إلى مصر، ولم يرجِع إلى أهله، فبقي أهله وأولاده وأغنامه في الوادي بين مصر ومَدين ثلاثين يوماً حتى مرّ بهم راعٍ من أهل مَدين، فعرَفَ بنت شعيب، وهي باكية حزينة من الوحدة وفِراق موسى فسألها عن حالها، فردّهم إلى مَدين[٢].

وقيل: إنّه رجع إليهم في تلك الليلة فسألته امراته، وقالت: هل أتيت بالنار؟ قال: جئت بالنور حيث أعطاني الله الرسالة. ثمّ توجّه هو بأهله إلى مصر، فوصلوا إلى باب البلد أول الليل، وجاء إلى باب بيت أبيه، وفيه اُمّه واُخته وأخوه هارون، وكانوا يأكُلون العَشاء فقال: يا أهل البيت، أنا غريب لا مأوى لي في بلدكم، فهل تأذنون لي أن أبيت في داركم هذه الليلة؟ فقالت اُمّه لهارون: ائذن له حتى يستريح هذه الليلة، لعلَ الله أن يرحم بذلك ابني[٣] موسى، فأدخله هارون، ووضع عنده الطعام، وكانوا لا يعرِفونه، فلمّا اشتغل معهم بالكلام عَرَفته اُمّه، وضمّته إلى صدرها وبكت، ثمّ قال لهارون: إنّ الله اصطفاني بالرسالة، وجعلك لي رِدءاً، وأمرنا أن نذهب إلى فرعون وندعوه إلى طاعة الله، فقال هارون: سمعاً وطاعةً، فقالت اُمّهما: أخاف أن يقتُلكما، فانّه طاغٍ جبار. قال موسى: إنّ الله أمرنا بذلك، وهو يَحْفَظنا، فجاءا في تلك الساعة، أو في اليوم الثاني إلى باب فرعون، وقالا للبوّابين: استاذنوا لنا بالدخول على فرعون، فإنا رسول الله إليه وإلى قومه، فاستأذنوا، فلم يأذَن إلى سنة[٤].

فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرىً وَمَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي آبَائِنَا آلْأَوَّلِينَ * وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ آلدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ آلظَّالِمُونَ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا آلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي[٣٦ـ٣٨]

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٤٠٤.
٢. تفسير روح البيان ٦: ٤٠٥.
٣. في النسخة: علىٰ ابني.
٤. تفسير روح البيان ٦: ٤٠٥.

ثمَ أذن لهما بالدخول، وهو جالس على سريره، وحوله أشراف مملكته ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ ومعجزاتنا حال كونها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ وواضحة الدلالات على صدقهما في الرسالة ﴿قَالُوا﴾ يا موسى ﴿مَا هٰذَا﴾ الذي جئت به من العصا واليد البيضاء وغيرهما من خوارق العادات ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرىً﴾ على الله، وكِذب نسبته إليه من أنه معجزة أجراها الله بيدك ﴿وَمَا سَمِعْنَا﴾ بهذا السحر، أو ﴿بِهٰذَا﴾ الذي تقول من التوحيد والرسالة ﴿فِي آبَائِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وأسلافنا الأقدمين ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لمَا رأى منهم العِناد واللَّجاج: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ﴾ ودين الحق، وأرشد إلى الطريق إليه ﴿مِنْ عِندِهِ﴾ ومن قِبَله، ومن قال بالضلال والباطل منّا ومنكم فيعامل كلاً بما يستحقّه ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ﴾ هذه ﴿ٱلدَّارِ﴾ الفانية، وهي الجنة والنِّعم الدائمة والراحة الأبدية التي هي أحسن العواقب وأحمدها.

ثمَ بالغ سبحانه في تهديدهم بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّالِمُونَ﴾ على أنفسهم بإهلاكها بالكفر والعِناد للحقّ وتكذيب الرسل، ولا يفوزون بخيرٍ، ولا ينجون من عذاب. ثمّ قيل: إنّه لمَا آل الأمر إلى إحضار السَّحَرة ومعارضتهم موسىٰ عليه السلام بالسحر، جُمِع السحرة[1] ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ بعد حضورهم واجتماع الناس في الموعد: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِنْ إِلٰهٍ﴾ ومعبودٍ ﴿غَيْرِي﴾ في الأرض، فمن يدّعي ذلك فعليه إثباته بالحُجّة القاطعة والبراهين الواضحة.

روي أنه كان بين هذه الكلمة وبين قوله: ﴿انا ربكم الأعلى﴾ أربعين سنة[2].

فَأَوْقِدْ لِي يَا هامَانُ عَلَى ٱلطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ * وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي ٱلْيَمِّ[٣٨ـ٤٠]

ثمَ لمَا كان نَفْي الحُجّة العقلية على إثبات صانع للعالم غير تأثيرات الأفلاك والكواكب ملازماً لحصر طريق العلم بالمشاهدة، قال تمويهاً على الناس، أو حُمقاً وجهلالةً، أو تهكّماً لوزيره ﴿فَأَوْقِدْ لِي﴾ واشعل النار ﴿يَا هَامَانُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ واطبَخ الآجرَ قيل: إنه أول من عَمله[3] ﴿فَاجْعَل لِي﴾ وابنِ منه ﴿صَرْحاً﴾ وقَصراً رفيعاً أعلو عليه ﴿لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلٰهِ مُوسَىٰ﴾ واشاهده، إنّه كما يقول ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ﴾ في ادّعائه أنّ له إلهاً في السماء.

قيل: إنّه لمَا أمر ببناء الصَّرح، جمع هامان العمّال حتى اجتمع خمسون ألف بنّاء سوى الأتباع

١و٢. تفسير روح البيان ٦: ٤٠٦. ٣. تفسير البيضاوي ٢: ١٩٣، تفسير روح البيان ٦: ٤٠٦.

والأُجراء، وأمر بطبخ الآجُرّ والجِصّ ونَجْر الخشب وضرب المسامير، فشيّدوه حتى بلغ مالم يبلُغه بُنيان أحدٍ من الخَلق[١].

قيل: كان مِلاط القصر خَبَث[٢] القوارير، وكان الرجل لا يستطيع القيام عليه من طوله مخافة أن تَنسِفه الريح، وكان طوله خمسة آلاف ذراع، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع[٣].

فلمّا تمّ بناء الصَّرح علاه فرعون ظاناً أنّه يصير أقرب إلى السماء بحيث يُمكنه رؤية ما فيها، فلمّا نظر بعد ارتقائه فوقه إلى السماء رآها كما رآها من فوق الأرض، فانفعل ورمى بنُشابةٍ نحو السماء، فأراد الله أن يَفتنهم فُردّت إليه وهي ملطوخةٌ بالدم، فقال: قد قتلت إله موسى، فعند ذلك بعث الله جَبْرئيل لهدمه وقت غروب الشمس، فضربه بجَناحه فقطعه ثلاثة قطع: قطعة وقعت على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل، وقطعة وقعت في البحر، وقطعة في المغرب، فلم يبق أحدٌ من عُمّاله إلّا وقد هلك[٤].

وروى القمي ـ في حديث ـ «فبنى له هامان في الهواء صَرحاً حتى بلغ في الهواء مكاناً لا يتمكن الانسان أن يقوم عليه من الرياح العاصفة، فقال لفرعون: لا نقدِر أن نزيد على هذا، فبعث الله عز وجل رياحاً فرمت به، فاتّخذ فرعون وهامان عند ذلك التابوت، وعَمَدا إلى أربعة أنسُرٍ، فأخذا افراخها وربيّاها: حتى إذا بلغت القوّة وكَبُرت، عَمَدا إلى جوانب التابوت الأربعة، فغرزا في كلّ جانبٍ منه خشبةً، وجعلا على رأس كلّ خشبةٍ لحماً، وجوّعا الأنسُر، وشدّا أرجلها بأصل الخشبة، فنظرت الأنسُر إلى اللَّحم، فأهوت إليه، فصفّقت بأجنحتها، وارتفعت بها في الهواء، وأقبلت تطير يومها. فقال فرعون لهامان: انظُر إلى السماء هل بلغناها؟ فنظر هامان فقال: أرى السماء كما كنتُ أراها من الأرض في البعد. فقال: انظُر إلى الأرض. فقال: لا أرى الارض، ولكن أرى البحار والماء.

قال: فلم تزل الأنسُر[٥] ترتفع حتى غابت الشمس، وغابت عنهما البحار والماء، فقال فرعون: يا هامان انظُر إلى السماء، فنظر إليها، فقال: أراها كما كنت أراها من الأرض، فلمّا جنّهم الليل نظر هامان إلى السماء، فقال فرعون: هل بلغناها؟ قال: أرى الكواكب كما كنت أراها في الأرض، ولست أرى من الأرض إلّا ظُلمةً.

ثمّ حالت الرياح العائمة في الهواء، فانقلب[٦] التابوت بهما، فلم يَزَل يَهوي بهما حتى وقع على

---

١. تفسير الرازي ٢٤: ٢٥٣.

٢. الخَبَث: ما ينفيه الكِير من الحديد ونحوه عند إحمائه وطرقه.

٣. تفسير روح البيان ٦: ٤٠٦.

٤. تفسير الرازي ٢٤: ٢٥٣.

٥. في النسخة: النسر.

٦. في النسخة وتفسيري القمي والصافي: فاقبلت.

الأرض، وكان فرعون أشدَ ما كان عُتوَاً في ذلك الوقت[١].

وقيل: إنّه لم يُبنَ الصَّرح، لغاية البعد من العاقل أن يتوهَم أنّ بصعود الصَّرح يقرُب إلى السماء مع وضوح أنّ من علا على الجبال الشامخة يرى السماء كما كان يراها من الأرض، وهكذا الكلام فيما نُقِل من رمي السَّهم إلى السماء ورجوعه متلطَخاً بالدم، فانّ العاقل يعلم أنّه لا يُمكنه إيصال السَّهم إلى السماء، ومن اعتقد ذلك عُدّ من المجانين[٢].

فلابُدَ من حمل أمره ببناء الصَّرح على إرادة إيهام البناء، ولم يُبنَ، أو على إرادة التهكَم كأنّه قال: لا سبيل إلى إثبات وجود إله السماء إلّا بالدليل أو بالحسّ، ولا دليل عليه، فانّ التغيّر في العالم يُمكن أن يكون بحركات الأفلاك والكواكب، ولا يُمكن الإحساس إلّا بالصعود إلى السماء، وذلك لا سبيل إليه، ثمّ قال لهامان تهكَماً: ابن لي صَرحاً، ثمّ رتّب على المقدّمتين قوله: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّهُ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ﴾.

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وتعظَموا عن الايمان بموسى والانقياد للحقّ في المصر وما يليه ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وبلا استحقاق، ولم يخافوا عذابه ونَكالاً حيث توهّموا ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ﴾ بعد الموت ﴿إِلَيْنَا﴾ وإلى حكمنا ﴿لَا يُرْجَعُونَ﴾ لجزاء أعمالهم وتكبّرهم وعِنادهم ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ﴾ بالعذاب بعد ما بلغوا من الكفر والطغيان النهاية أخذ عزيزٍ مقتدرٍ ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ﴾ وألقيناهم ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ وبحرالقُلْزُم[٣]، وعاقبناهم بالإغراق، وفي تشبيههم بالحصاة المقبوضة بالكفّ المنبوذة في الماء غاية تعظيم الأخذ وتحقير المأخوذ بعد الاخبار بتكبّرهم وتعظَمهم.

فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلظَّالِمِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ هُم مِنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ [٤٠ـ٤٢]

ثمّ أمر الله سبحانه بالاعتبار بحالهم وبالغ في بيان عاقبتهم بقوله: ﴿فَانظُرْ﴾ يا محمد بعين قلبك، أو أيّها العاقل ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلظَّالِمِينَ﴾ ومآل كفرهم وطغيانهم في الدنيا ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ بالحرمان من ألطافنا وإيكالهم إلى أنفسهم ﴿أَئِمَّةً﴾ وقُدوةً لأهل الضلال حيث إنّهم كانوا ﴿يَدْعُونَ﴾ النّاس إلى الكفر وتكذيب الرسل المؤدّي ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾ وعذاب دار القرار ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ ينزل عليهم العذاب الشديد، وهم لا يستطيعون نصر أنفسهم و ﴿لَا﴾ هم ﴿يُنصَرُونَ﴾ من قِبَل غيرهم بدفع العذاب

---

١. تفسير القمي ٢: ١٤٠، تفسير الصافي ٤: ٩٠.
٢. تفسير الرازي ٢٤: ٢٥٣.
٣. أي البحر الأحمر.

عنهم بالشفاعة والعناية، كما يُنْصَر الأئمة الدُّعاة إلى الجنة.

عن الصادق عليه السلام: «أنّ الأئمّة في كتاب الله إمامان، قال الله تعالى: ﴿**وجعلناهم ائمة يهدون بامرنا**﴾[١]، لا بأمر الناس: يُقدِّمون أمر الله قبل أمرهم، وحُكم الله قبل حُكمهم. قال: ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ**﴾ يقدمون أمرهم قبل أمر الله، وحُكمهم قبل حُكم الله، ويأخُذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب الله»[٢].

﴿**وَأَتْبَعْنَاهُمْ**﴾، وألحقناهم ﴿**فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا**﴾ إلى يوم القيامة ﴿**لَعْنَةً**﴾ من ساحة الرحمة وبُعداً من كلّ خيرٍ، أو الدعاء باللعن والطرد من الناس والملائكة ﴿**وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ هُم**﴾ بالخصوص ﴿**مِنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ**﴾ والمُبعَدين من الجنة والنِّعم الدائمة.

وعن ابن عباس: من المشوَّهين[٣] لسواد الوجه وزُرقة العين[٤].

قيل: إنّ الله يُقبِّح صورهم ويُقبِّح عملهم، ويجمع لهم بين الفضيحتين[٥]، فصارت قَباحة عقائدهم وأعمالهم مُودّية إلى هذه القَباحة التي لا قَباحة فوقها.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّاهِدِينَ[٤٣و ٤٤]

ثمّ بيّن سبحانه كمال تفضّله على موسى مضافاً إلى ما سبق بقوله: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ**﴾ المعهود ﴿**مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ**﴾ والأمم الماضية بالعذاب، كقوم نوح وعاد وثمود وأضرابهم، حال كونه أو ليكون ﴿**بَصَائِرَ لِلنَّاسِ**﴾ وأنواراً يُبصَر بها الدين وطريق الخير ﴿**وَهُدىً**﴾ ورشاداً إلى الحقّ والشرائع ﴿**وَرَحْمَةً**﴾ ونعمةً على من تمسّك به، والتزم بالعمل بما فيه بتكميل النفوس وإعدادهم للفيوضات ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ ويتّعظون بما فيه.

ثمَ نبّه سبحانه على أنّ الإخبار بمناجاة موسى وسائر قضاياه إنّما هو بالوحي بقوله: ﴿**وَمَا كُنتَ**﴾ حاضراً ﴿**بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ**﴾ من جبل طُور الذي كان فيه مناجاة موسى ربّه ﴿**إِذْ قَضَيْنَا**﴾ وعَهِدنا ﴿**إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ**﴾ العظيم الشأن، وهو الرسالة ﴿**وَ**﴾ في فرضه ﴿**مَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّاهِدِينَ**﴾ للوحي والمناجاة حتى تُخبِر الناس بها عن حضور ومشاهدة، وما كنت تالياً للكتُب، ومتعلّماً من العلماء،

---

١. الأنبياء: ٢١/٧٣.　　٢. الكافي ١: ١٦٨/٢، تفسير الصافي ٤: ٩١.
٣. في تفسير الرازي: المشئومين.　　٤ و ٥. تفسير الرازي ٢٤: ٢٥٥.

فلابدَ من كون إخبارك بها عن الوحي.

وَلٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِى أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلٰكِن رَّحْمَةً مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِن نَّذِيرٍ مِن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ[٤٥ و ٤٦]

ثمّ قرّر ذلك بقوله: ﴿**وَلٰكِنَّا أَنشَأْنَا**﴾ وخلقنا ﴿**قُرُوناً**﴾ كثيرةً بعد موسى إلى زمانك ﴿**فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ**﴾ وتمادت عليهم مُدد حياتهم، فتغيرت الشرائع، وحرّقت الكتب، واندرست العلوم، وعميت الأنباء ﴿**وَمَا كُنتَ ثَاوِياً**﴾ ومقيماً ﴿**فِى أَهْلِ مَدْيَنَ**﴾ كما كان شعيب وموسى مقيمين فيهم ﴿**تَتْلُوا**﴾ وتقرأ ﴿**عَلَيْهِمْ**﴾ وتتعلّم منهم، أو أنت تتلو على أهل مكة ﴿**آيَاتِنَا**﴾ الدالة على قَصَصهم وما جرى بين موسى وشعيب ﴿**وَلٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ**﴾ إيّاك ومُوحين إليك تلك الآيات ونظائرها لتكون معجزةً لك وعبرةً لقومك ﴿**وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ**﴾ الايمن ﴿**إِذْ نَادَيْنَا**﴾ موسى إنّي أنا الله ربّ العالمين ﴿**وَلٰكِن**﴾ أرسلناك بالقرآن الذي فيه جميع العلوم وكثير من المغيبات ليكون ﴿**رَّحْمَةً مِن رَّبِّكَ**﴾ وتفضّلاً عليك وعلى اُمّتك و ﴿**لِتُنذِرَ**﴾ به ﴿**قَوْماً**﴾ واُمّيين ﴿**مَّا أَتَاهُم**﴾ وما أرسل فيهم أحد ﴿**مِن نَّذِيرٍ**﴾ ورسول منهم ﴿**مِن قَبْلِكَ**﴾ مع تمامية الحجة عليهم ببعث الأنبياء الكثيرة في بني إسرائيل وغيرهم من الأمم.

قيل: إنّه كانت حجج الأنبياء قائمةً عليهم، ولكن ما بعث إليهم من تجدّد تلك الحجج عليهم[١]، فبعث نبينا فيهم لذلك ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ ويتنبّهون ويتعّظون، أو يهتدون إلى الحقّ.

عن النبي ﷺ في قوله: ﴿**وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا**﴾ قال: «كتب الله كتاباً قبل أن يخلق الخلق بألفي عام، ثمّ وضعه على العرش ثمّ نادى: يا اُمّة محمّد، إنّ رحمتي سبقت غضبي، أعطيتكم قبل أن تسألوني، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني، من يلقيني منكم بشهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله، أدخلته الجنّة»[٢].

وعن ابن عباس: يعني إذ نادينا اُمّتك في اصلاب آبائهم: يا اُمّة محمد، أجبتكم قبل أن تدعوني، وأعطيتكم قبل أن تسألوني، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني، وإنّما قال الله ذلك حين أختيار موسى

---

١. تفسير الرازي ٢٤: ٢٥٨.

٢. تفسير الرازي ٢٤: ٢٥٧، تفسير روح البيان ٦: ٤١٠.

سبعين رجلاً لميقات ربّه[١].

وعن وهب، قال: لمّا ذكر الله لموسى فضل اُمّة محمّد قال: ربّ أرينهم. قال: إنّك لن تُدركهم، وإن شئت أسمعتك أصواتهم؟ قال: بلى يا رب. فقال سبحانه: يا اُمّة محمّد، فأجابوه من أصلاب آبائهم، فأسمعه الله أصواتهم، ثمّ قال: أجبتكم قبل أن تدعوني... إلى آخر ما قال ابن عباس[٢].

وفي (العيون) عن النبي ﷺ: «لمّا بعث الله عزّ وجلّ موسى بن عمران، واصطفاه نجياً، وفلق له البحر، ونجّى بني إسرائيل، وأعطاه التوراة والألواح، رأى مكانه من ربّه عزّ وجلّ، فقال: ربّ لقد أكرمتني بكرامةٍ لم تُكرِم بها أحداً من قبلي. فقال الله جل جلاله: يا موسى، أما عَلِمت أنّ محمّداً أكرم عندي من جميع خَلْقي؟

فقال موسى: يا ربّ، إن كان محمّدٌ أكرم عندك من جميع خلقك، فهل آل نبي أكرم عندك من آلي؟ فقال الله: يا موسى، أما علمت أنّ فضل آل محمد آل النبيين كفضل محمّد على جميع المرسلين؟

فقال موسى: يا رب، فان كان آل محمد كذلك، فهل في اُمم الأنبياء أفضل عندك من اُمّتي؛ ظَلّلتَ عليهم الغمَام، وأنزلت عليهم المَنّ والسّلوى، وفَلَقت لهم البحر؟ فقال الله جلّ جلاله: يا موسى، أما علمت أنّ فضل اُمّة محمّد على جميع الأمم، كفضله على جميع خلقي.

قال موسى: يا ربّ، ليتني كنت أراهم. فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: يا موسى، لن تراهم، وليس هذا أوان ظهورهم، ولكن تراهم في الجِنان والفِرْدَوس بحضرة محمد في نعيمها يتقلّبون، وفي خيراتها يتبحبحون، أفتُحبّ أن اُسمعك كلامهم؟ قال: نعم إلهي. قال جلّ جلاله قم بين يدي، واشدُد مِئْزَرَك، قيام العبد الذليل بين يدي المَلِك الجليل. ففعل ذلك فنادى ربّنا عزّ وجلّ: يا اُمّة محمّد، فأجابوه كلّهم وهم في أصلاب آبائهم وأرحام اُمهاتهم: لبيك اللهمّ لبيك، لا شريك لك لبيك، إنّ الحمد والنِّعمة والمُلك لك، لا شريك لك. قال: فجعل الله عزّ وجلّ تلك الإجابة شِعار الحاجّ.

ثمّ نادى ربّنا عزّ وجلّ: يا اُمّة محمّد، إنّ قضائي عليكم إنّ رحمتي سبقت غضبي، وعفوي قبل عقابي، فقد استجبتُ لكم قبل أن تدعوني، وأعطيتكم قبل أن تسألوني، من يلقيني بشهادة أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله، صادق في أقواله، محقّ في أفعاله، وأنّ علي بن أبي طالب أخوه ووصيه من بعده ووليه، يلتزم طاعته كما يلتزم طاعة محمد، وأن أولاده المُصْطَفين الطاهرين المطهّرين المعانين بعجائب آيات الله ودلائل حُجج الله من بعدهما أولياءه، اُدخله جنتّي وإن كانت ذنوبه مثل زَبَد البحر.

---

١. تفسير الرازي ٢٤: ٢٥٧.

٢. تفسير الرازي ٢٤: ٢٥٧.

قال: فلمّا بعث الله عزَ وجلَ محمداً قال: يا محمد، وما كُنتَ بجانب الطُّور إذ نادينا اُمَتك بهذه الكرامة» الخبر[١].

قيل: إنّ الله ذكر عدم حضور النبيّ ﷺ في الجانب الغربي إذ قضى إلى موسى الأمر، وهو إنزال التوراة، حتى تكامل دينه، وكونه في أول الأمر في أهل مَدين، وكونه في الطُّور ليلة المناجاة؛ لأنّ كلّها أحوال عظيمة وإنّما عَرّفها النبيّ ﷺ للرحمة، [ثمّ] فسّر الرحمة بقوله: ﴿لِتُنذِرَ﴾ إلى آخره[٢].

وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ [٤٧ و ٤٨]

ثمّ بيّن سبحانه حكمة بعثه في المشركين بقوله: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ﴾ وعقوبة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿فَيَقُولُوا﴾ اعتراضاً واحتجاجاً علينا يوم القيامة ﴿رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا﴾ ولم لم تبعث فينا ﴿رَسُولاً﴾ من قبلك يتلو علينا آياتك، ويُتِمّ علينا حُجّتك، ويهدينا سبيلك؟ ﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ ونهتدي بهدايتك ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بتوحيدك وبما أنزلت من الآيات والأحكام، ما أرسلناك إليهم، فلم تكن حكمة إرسالك فيهم إلّا قطع حُجّتهم، وسدّ باب اعتذارهم، وإتمام الحُجَة عليهم.

ثمّ بيّن سبحانه غاية شقاوتهم بأنّهم قومٌ إذا لم نبعث إليهم الرسول اعترضوا علينا، وإذا بعثنا الرسول اعترضوا عليه بأنّه لم لم يأتِ بمعجزةٍ اقترحوها عليه بقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ﴾ محمد بالرسالة التي هي ﴿ٱلْحَقُّ﴾ وعَين الصدق ﴿مِنْ عِندِنَا﴾ وبأمرنا بالمعجزات الباهرات ﴿قَالُوا﴾ تعنّتاً واقتراحاً عليه وعلينا: ﴿لَوْلَا أُوتِيَ﴾ محمد من المعجزات ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ بن عمران من الآيات التسع والكتاب المنزل جُملةً واحدةً مع أنّ الواجب على الله أن يُعطي الرسول معجزةً تَدُلّ على صدقه، ولا يجب أن تكون معجزات الأنبياء واحدة، بل لا يجوز ذلك للحكمة البالغة.

أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ * قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِندِ ٱللهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ [٤٨ ـ ٥٠]

---

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣٠/٢٨٣، تفسير الصافي ٤: ٩٢.

٢. تفسير الرازي ٢٤: ٢٥٨.

ثمّ بيّن سبحانه أنّه مع بطلان اعتراضهم ليس غرضهم إلّا التعنّت واللّجاج بقوله: ﴿**أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا**﴾ وأضراب هؤلاء المتعنّتين من اليهود، أو اليهود الآمرين لهؤلاء المشركين بالسؤال ﴿**بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ**﴾ وفي الزمان الذي أظهر موسى معجزاته و ﴿**قَالُوا**﴾ في شأن موسى وهارون، أو في شأن موسى ومحمّد ﷺ ﴿**سِحْرَانِ تَظَاهَرَا**﴾ وساحران تعاونا على السحر، أو يعضُد كلّ منهما الآخر في ترويج الباطل.

قيل: إنّ قريشاً بعثوا رَهطاً إلى رؤساء اليهود في عِيدٍ لهم فسألوهم عن شأن النبيّ ﷺ، فقالوا: إنّا نجده في التوراة بنعته وصفته، فلمّا رجع الرَّهط وأخبروهم بما قالت اليهود قالوا ذلك[1].

وقيل: إنّ اليهود أمروا قريشاً أن سألوا محمداً ﷺ أن يأتي مثل ما اُوتي موسى، والمراد: أو لم يكفر هؤلاء اليهود الذين أمروا قريشاً بهذا السؤال[2].

وقيل: إنّ المعنى: أو لم يكفر آباؤهم بأن قالوا في شأن موسى وهارون: ساحران[3] تظاهرا و ﴿**إِنَّا بِكُلٍّ**﴾ منهما، أو بكلّ الأنبياء ﴿**كَافِرُونَ**﴾.

وقيل: إنّ المراد أو لم يكفُر اليهود بما اُوتي موسى عليه السلام من قبل من البشارة بعيسى وبمحمّد ﷺ فقالوا: إنّهما ساحران[4] تظاهرا.

وقيل: إنّ المراد بالحقّ هو القرآن[5]، والمراد من قوله: ﴿**لولا اوتى مثل ما اوتى موسى**﴾ لولا نزل القرآن جُملةً واحدةً كما نزل التوراة كذلك، والمراد من قوله ﴿**ساحران تظاهرا**﴾ أنّ الكتابين تظاهرا وتوافقا في المطالب، ويُصدّق أحدهما الاخر، ومعنى قوله: ﴿**إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ**﴾ بكلا الكتابين، ويؤيدّه قوله في ردهم: ﴿**قُلْ**﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين القائلين بهذا القول: ﴿**فَأْتُوا**﴾ أنتم ﴿**بِكِتَابٍ مِنْ عِندِ اللهِ**﴾ يكون ﴿**هُوَ أَهْدَىٰ**﴾ إلى الحقّ من كتاب موسى وكتابي [و] أرشد إلى طريق السعادة الأبدية ﴿**مِنْهُمَا**﴾ بأيّ وسيلةٍ تتمكّنون، إذن أنا ﴿**أَتَّبِعْهُ**﴾ وأعمل به وإن خالفتموه ﴿**إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ في أنّهما ساحران مختلقان، وفيه نوع تحدٍ وتهكّم ﴿**فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا**﴾ لك المسألة، ولم يعملوا بما أمرتهم به من إتيان كتاب آخر أهدى، ولم يُمكنهم ذلك ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ**﴾ الزائغة في قولهم بأنّ الكتابين سحران من غير أن يكون لهم دليلٌ يُعْتَمد عليه.

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢٤: ٢٦٠.　　٣ و٤. تفسير الرازي ٢٤: ٢٦١.

٥. تفسير روح البيان ٦: ٤١١.

ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ [٥٠ و ٥١]

ثمّ أعلن سبحانه بغاية ضلالهم بقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ على نفسه ﴿مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ ٱللهِ﴾ وقال قولاً أو عمل عملاً بشهوة نفسه من دون أن يكون على صحّته حُجَةٌ واضحةٌ شرعيةٌ أو عقليةٌ.

عن الكاظم عليه السلام - في هذه الآية - قال: «يعني من اتّخذ دينه ورأيه بغير إمامٍ من ائمّة الهُدى»[1].

ثمّ إنّه تعالى بعد ذمّهم بغاية الضلال هدّدهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللهَ لَا يَهْدِي﴾ إلى دين الحقّ، ولا يوفّق للالتزام به ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على أنفسهم بالكفر والإصرار على العِناد، بل يَشْمُلهم الخذلان الذي هو أشدّ العذاب في الدنيا لاستتباعه أشدّ العذاب في الآخرة.

ثمّ بيّن الله سبحانه حكمة نزول القرآن نجوماً بقوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا﴾ لقريش، وأكثرنا ﴿لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ بانزال آيات القرآن العظيم واحدة بعد واحدة وقطعة بعد قطعة حسبما تقتضيه الحكمة ليتّصل التذكير - عن الكاظم عليه السلام: «إمام إلى إمام»[2] - ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ويتعّظون فيؤمنوا وينقادوا للحقّ، أو المراد: تابعنا لهم المواعظ والزواجر، وبيّنا لهم قَصَص المُهْلَكين قَرناً بعد قَرن بالعذاب على الكفر وتكذيب الأنبياء لعلّهم يتّعظون ويخافون أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم من الأُمم الظالمة المكذّبة للرُّسل كقوم نوح وأضرابهم.

ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ [٥٢ و ٥٣]

ثمّ استدلّ سبحانه على صحّة النبوة وصدق القرآن بعجز البشر عن إتيان مثل هذا الكتاب، أكدّ ذلك بالاستدلال عليهما بايمان علماء أهل الكتاب به بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ﴾ السماوي كالتوراة والانجيل، وأنزلنا عليهم في الزمان السابق على نزول القرآن و ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ وآمنوا به حقّ الايمان ﴿هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ وبكونه كلام الله يصدّقون.

قيل: نزلت في أُناس من أهل الكتاب، كانوا على شريعةٍ حقّةٍ، فلمّا بعث الله محمّداً صلى الله عليه وآله آمنوا به منهم سلمان وعبدالله بن سلام[3].

وحاصل الاستدلال: أنّ المطّلعين على الكتب السماوية لمعرفتهم بصفات القرآن وعلائمه

---

١. الكافي ١: ١/٣٠٦، تفسير الصافي ٤: ٩٤.
٢. الكافي ١: ١٨/٣٤٣، تفسير الصافي ٤: ٩٤.
٣. تفسير الرازي ٢٤: ٢٦٢.

المكتوبة في الكتب، آمنوا به، فعليكم أيّها المشركون الأُميّون أن تقتدوا بهم، بل أنتم أولى بالايمان به.

وقيل: نزلت في أربعين رجلاً من أهل الانجيل، وهم أصحاب السفينة، جاءوا مع جعفر من الحبشة[١].

وعن رفاعة بن قَرَظة: نزلت في عشرة أنا منهم[٢].

ثمّ بيّن الله سبب إيمانهم بالقرآن بقوله: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ القرآن واطّلعوا على فضائله وعلائمه المذكورة في الكتب ﴿قَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ ثمّ أكّدوا إيمانهم به بقولهم: ﴿إِنَّهُ ٱلحَقُّ﴾ النازل ﴿مِن﴾ قبل ﴿رَّبِّنَا﴾ ثمّ بيّنوا أن إيمانهم به ليس حادثاً باستماع تلاوته، بل كان متقادماً قبل نزوله بقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ له، ومنقادين لما فيه، لما وجدنا البشارة بنزوله في كتب الأنبياء السابقين.

أُولٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَاهِلِينَ [٥٤ و ٥٥]

ثمّ إنّه تعالى بعد مدحهم بالايمان القديم والحادث بشّرهم بالأجر بقوله: ﴿أُولٰئِكَ﴾ المؤمنون من أهل الكتاب ﴿يُؤْتَوْنَ﴾ ويُعطَون ﴿أَجْرَهُم﴾ وثواب إيمانهم بمحمد وكتابه ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ مرّة بإيمانهم بمحمد قبل بعثته وبالقرآن قبل نزوله، ومرة بايمانهم بعد بعثته ونزوله.

وقيل: مرّة بايمانهم بالانبياء قبل محمّد، ومرة بايمانهم به[٣].

وفي الحديث: «ثلاثة يُؤتون أجرهم مرّتين - إلى أن قال - ورجل آمن بالكتاب الأوّل، ثمّ آمن بالقرآن»[٤].

وقيل: إنّهم لمّا آمنوا بمحمد شَتَمهم المشركون فصَفَحوا عنهم، فلهم أجران: أجر على إيمانهم، وأجر ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ وصَفَحوا[٥]، أو ثبتوا على الايمان والعمل بشريعة الاسلام.

عن الصادق عليه السلام قال: «بما صبروا على التقيّة»[٦].

ثمّ وصفهم الله بالالتزام بلوازم الايمان من العبادات البدنية بقوله ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ ويدفعون ﴿بِالْحَسَنَةِ﴾ والطاعة البدنية، أو التوبة ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ والمعصية السابقة، أو بالعفو والصَّفح الأذى.

وعن الصادق عليه السلام: «الحسنة التقيّة، والسيئة الإذاعة»[٧].

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢٤: ٢٦٢.
٣. تفسير الرازي ٢٤: ٢٦٢.
٤. تفسير روح البيان ٦: ٤١٤.
٥. تفسير الرازي ٢٤: ٢٦٢.
٦. الكافي ٢: ١/١٧٢، تفسير الصافي ٤: ٩٥.
٧. الكافي ٢: ١/١٧٢ و ٦/١٧٣، تفسير الصافي ٤: ٩٥.

وعن النبيّ ﷺ: «اتبع السيئة الحسنة تَمحُها»[١].

ومن الطاعة المالية بقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ وأعطيناهم من الاموال ﴿يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الله ومن الأخلاق الحميدة بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا﴾ من الأعداء والجهّال الكلام ﴿اللَّغْوَ﴾ والباطل ﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ وسكتوا ومرّوا.

قيل: لمّا أسلموا لعنهم أبو جهل، وشَتَمهم المشركون، فسكتوا ولم يخوضوا فيه[٢].

والقمي قال: اللغو الكذب[٣].

﴿وَقَالُوا﴾ إن تكلّموا في جوابهم: يا قوم ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا﴾ من الايمان والحِلم والصَّفح ونحوها ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ من الكفر والطغيان والعِناد مع الحقّ، والتكلّم باللغو والسَّفاهة ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ ونودّعكم ونتركُكم ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ ولا نطلُب صُحبتهم ومخالطتهم، أو لا نجازي[٤] جهلهم بالجهل وباطلهم بالباطل.

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ [٥٦]

ثمّ لمّا ذكر سبحانه هداية جمع من أهل الكتاب، نبّه على أنّ الهداية لا تكون إلّا بتوفيقه بقوله: ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمّد ﴿لَا تَهْدِي﴾ هداية موصلة إلى الجنّة والخير أبداً أحداً حتى ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هدايته من الناس، وآشتقت إلى إيمانه غاية الاشتياق، وبذلت في إدخاله في الاسلام نهاية الجهْد ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي﴾ بتوفيقه وعناياته الخاصة إلى الحقّ وقَبول الاسلام ﴿مَن يَشَاءُ﴾ هدايته بمقتضى استعداده وطِيب طينته وقوّة عقله ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ وأخْبرَ بحال المستبعدين لنَيْل فيوضاته، أو هو المختصّ بعلم الغيب، فيعلم من يهتدي بعدُ ومن لا يهتدي.

قال بعض العامة: الجمهور على أنّ الآية نزلت في أبي طالب عمّ الرسول[٥]، ونقل الفخر عن الزجّاج إجماع المسلمين على ذلك، قال: وذلك أنّ أبا طالب قال عند موته: يا معشر بني عبد مناف، أطيعوا محمّداً وصدّقوه تُفلِحوا وترشُدوا. فقال النبي ﷺ: يا عمّ، تأمُرهم بالنُّصح لأنفسهم وتَدَعه لنفسك؟ قال: فما تُريد يا ابن أخي؟ قال: أُريد منك كلمةً واحدةً، فإنّك في آخر يوم من أيام الدنيا؛ أن تقول لا إله إلّا الله، أشهد لك بها عند الله تعالى قال: يا بن أخي، قد عَلِمتُ أنّك صادقٌ، ولكنيّ أكره أن

---

١. تفسير البيضاوي ٢: ١٩٦، تفسير أبي السعود ٧: ١٩، وفي النسخة: اتبع الحسنة السيئة تمحها.

٢. تفسير الرازي ٢٤: ٢٦٢.

٣. تفسير القمي ٢: ١٤٢، تفسير الصافي ٤: ٩٥.

٤. في النسخة: لا نجازهم.

٥. تفسير روح البيان ٦: ٤١٥.

يُقال جَزِعَ عند الموت، ولولا أن يكون عليك وعلى بني عمّك غضاضة ومسبّة بعدي لقلتها، ولأقررت بها عينيك عند الفراق، لما أرى من شدّة وجدك ونُصحك، ولكنّي سوف أموت على ملّة الأشياخ: عبدالمطلب، وهاشم، وعبد مناف[١].

أقول: الرواية من صدرها إلى ذيلها صريحةٌ في إسلام أبي طالب وتصديقه رسالة النبيّ ﷺ في ما جاء به من التوحيد والدين خصوصاً قوله: ولكنّي أموت على ملّة الأشياخ.

وقد روى الأصبغ بن نُباتة عن أمير المؤمنين أنّه قال: «والله ما عبد أبي وجدّي عبدالمطّلب ولا هاشم ولا عبد مناف صنماً قطّ»[٢]، وإنّما لن يعلن أبو طالب بالشهادة لما رأى من المفسدة في الإعلان بها، لوضوح أن العُذر المذكور مانعٌ من الإجهار لا من الإسرار، مع أنّه لا يمكن للعاقل أن يكُفّ نفسه عن الايمان للوجه الذي نقلوه عنه مع العلم بصدق النبيّ ﷺ فيما أخبر به من العذاب الشديد الأبدي على الشرك، وغاية شوقه إلى سرور قلب النبي ﷺ، وقد تواترت الأخبار عن الأئمّة الأطهار عليهم السلام بإيمانه وإسلامه قبل كلّ أحدٍ.

القمي قال: نزلت في أبي طالب، قال: كان رسول الله ﷺ يقول: يا عمّ قل لا إله إلّا الله أنفعك بها يوم القيامة. فيقول: يا بن أخي، أنا أعلمُ بنفسي، فلمّا مات شَهِد العباس بن عبدالمطلب عند رسول الله أنّه تكلم بها عند الموت. فقال رسول الله: «أما أنّا فلم أسمعها منه، وأرجو أن أنفعه يوم القيامة». وقال: «لو قمت المقام المحمود لشفعت في اُمّي وأبي وعمّي وأخٍ كان لي في الجاهلية»[٣].

أقول: هذه الرواية أيضاً مخالفة لما عندنا من أنّ آباء الأئمة عليهم السلام كانوا كآباء النبيّ ﷺ موحّدين مسلمين من أول بلوغهم، مع أنّ إقراره في ابتداء النبوة بالتوحيد سراً عند النبيّ ﷺ لم يكن فيه مفسدة، فكيف يقول النبيّ ﷺ: «أنا لم أسمعها منه؟».

عن الصادق عليه السلام: أنّ مَثَل أبي طالب مَثَل أصحاب الكهف، أسرّوا الايمان، وأظهروا الشرك، فآتاهم الله أجرهم مرّتين»[٤].

وعنه عليه السلام: قيل له: إنّهم يَزْعُمون أنّ أبا طالب كان كافراً؟ فقال: «كَذَبوا، كيف يكون كافراً وهو يقول:

ألم يعلموا أنّا وَجَدنا محمّداً   نبيّاً كموسى خُطّ في أوّل الكُتبِ

وفي رواية اُخرى، قال: «كيف يكون أبو طالب كافراً وهو يقول:

---

١. تفسير الرازي ٢٥: ٢.   ٢. كمال الدين: ٣٢/١٧٤.

٣. تفسير القمي ٢: ١٤٢، تفسير الصافي ٤: ٩٥.   ٤. الكافي ١: ٢٨/٣٧٣، تفسير الصافي ٤: ٩٥.

لقد عَلِموا أنّ ابننا لا مُكذَّب   لدينا، ولا يَعْبَأ[1] بقول الأباطلِ
وأبيض يُسْتَسْقَى الغَمام بوَجْهه   ثِمالُ[2] اليَتامىٰ عِصمةٌ للأرامِلِ[3]

وعن الصادق عليه السلام[4]: «قال النبيّ صلى الله عليه وآله: إن جَبْرئيل أخبرني أنّ الله حرّم على النار صُلباً حَمَلك، وبَطناً حَملك، وثَدياً أرضعك، وحِجراً كفلك»[5].

أقول: المراد بالحجر الكافل له أبو طالب، مع أنّ المُشرِك لا يُمكن أن يُغْفَر له.

وروي أنّ أمير المؤمنين كان جالساً في الرَّحبة يوماً، فقال رجل: يا أمير المؤمنين، أنت بالمكان الذي أنت به، وأبوك يعذّب بالنار!

قال عليه السلام: «فضّ الله فاك، والذي بعث بالحقّ محمّداً بشيراً، لو شَفَع أبي في كلّ مُذنبٍ على وجه الأرض لشَفّعه الله فيهم، أبي يُعذّب بالنار وابنه قسيم الجنة والنار؟!»[6].

وعن رفاعة، عن آبائه: كان نقش خاتم أبي طالب: «رضيتُ بالله رباً، وبابن أخي محمّد نبياً، وبابني عليّ له وصياً».

وعن الصادق عليه السلام: «أول صلاة صلّاها رسول الله أنّه عليه السلام قام في الصلاة، وقام على الجانب الأيمن منه، فجاء أبو طالب ومعه جعفر، فرآهما يُصلّيان، فقال لابنه جعفر: صِل جَناح ابن عمّك. فقام جعفر إلى يسار رسول الله، فلمّا جاء وقت وفاة أبي طالب أوصى إلى ولده وأقربائه أن ينصُروا رسول الله صلى الله عليه وآله»[7].

وعن الكاظم عليه السلام: أنّه سُئل أكان رسول الله صلى الله عليه وآله محجوجاً بأبي طالب؟ فقال: «لا ولكنه كان مستودعاً للوصايا، فدفعها إليه».

قيل: فدفع إليه الوصايا على أنّه محجوجٌ به؟ فقال: «لو كان محجوجاً به ما دفع إليه الوصية».

قيل: فما كان حال أبي طالب؟ قال: «أقرّ بالنبيّ وما جاء به، فدفع إليه الوصايا، ومات من يومه»[8].

أقول: معنى كون النبي صلى الله عليه وآله محجوجاً به أنّ أبا طالب كان حُجّة عليه قبل البعثة، والمراد بالوصايا وصايا الأنبياء.

وفي رواية، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «والذي بعث محمداً بالحقّ إنّ نور أبي طالب يوم القيامة ليُطفئ

---

١. في الكافي وشعر أبي طالب: يعنى.   ٢. الثِّمال: الغِياث، والذي يقوم بأمر قومه.
٣. الكافي ١: ٢٩/٣٧٣، تفسير الصافي ٤: ٩٦، شعر أبي طالب وأخباره: ٢٦ و٣٣.   ٤. في النسخة: الباقر عليه السلام.
٥. نحوه في الكافي ١: ٢١/٣٧١ ومعاني الأخبار: ١/١٣٦ وأمالي الصدوق: ٩٦٤/٧٠٣ وتفسير الصافي ٤: ٩٦.
٦. بشارة المصطفى: ٢٠٢، تفسير الصافي ٤: ٩٧.   ٧. الغدير ٧: ٣٦٦ و٣٦٧.
٨. الكافي ١: ١٨/٣٧٠، تفسير الصافي ٤: ٩٧.

أنوار الخَلْق إلّا خمسة أنوار: نور محمّد، ونوري، ونور فاطمة، ونور الحسن والحسين ومن ولده من الأئمّة، لأنّ نوره من نورنا الذي خلقه الله من قبل خلق آدم بألفي عام»[١] إلى غير ذلك من الروايات.

وأمّا الآية فلا دلالة لها على كفره، كما اعترف به الفخر[٢]، بل دالّة على إيمانه، لدلالة أنّ النبي ﷺ كان يُحبّه، وهو ﷺ ما كان يُحبّ كافراً لحُرمة حبّه عليه بقوله: ﴿لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء﴾[٣] ويدلّ عليه قوله: «أوثق عُرى الايمان: الحبّ في الله، والبغض في‌الله»[٤] وأظهر مصاديقه بغض المشركين الذين هم أبغض الخلق عند الله، فكيف يجتمع ذلك مع حبّ أبي طالب لو كان مشركاً؟

وكذا ما روي عن السجّاد عليه السلام: «أنّ النبي ﷺ قال: الحمد لله الذي لم يجعل للفاجر عليّ يداً، لكيلا يرونه تحصل في قلبي منه مودّة، فانّ مودّة الفُجّار تجرّ إلى النّار».

وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِن لَّدُنَّا وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[٥٧]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه أنّ الهداية الحقيقية إنّما هي بتوفيقه، بيّن أنّ من لم يشمُله التوفيق يعتذر عن عدم قبوله الدعوة بما ليس بعذر بقوله: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ﴾ ونتّبع دين الاسلام ﴿مَعَكَ﴾ ونقتدي بك في القول بالتوحيد ﴿نُتَخَطَّفْ﴾ ونُخرَج بسرعة ﴿مِنْ أَرْضِنَا﴾ ووطننا، روي أنّها نزلت في الحرث، أو الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مَناف حيث أتى النبي ﷺ فقال: نحن نعلم أنّك على الحقّ، وما كذبت كِذبة قطّ فنتّهمك اليوم، ولكنّا نخافُ إن اتّبعناك وخالفنا العرب أن يتخطّفونا من مكّة والحَرَم، لاجماعهم على خلافنا، وهم كثيرون ونحن أكَلَةُ رأس[٥] لا نستطيع مقاومتهم، فنزلت[٦].

والقمي: نزلت في قريش حين دعاهم رسول الله ﷺ إلى الاسلام والهجرة[٧].

وعن السجّاد عليه السلام، عن النبي ﷺ أنّه قال «والذي نفسي بيده لأدعون إلى هذا الأمر الأبيض والأسود، ومن على رؤس الجبال، ومن في لُجَج البحار، ولأدعون إليه فارس والروم. فتجبّرت قريش واستكبرت، وقالت لأبي طالب: أما تسمع لابن أخيك ما يقول: والله لو سَمِعت بهذا فارس والروم لا ختطفتنا من أرضنا، ولقلعت الكعبة حَجَراً حَجَراً، فأنزل الله هذه الآية»[٨].

---

١. بشارة المصطفى: ٢٠٢، تفسير الصافي ٤: ٩٧. ٢. تفسير الرازي ٢٥: ٢. ٣. الممتحنة: ١/٦٠.
٤. المحاسن: ١٢١/١٦٥. ٥. أي يكفيهم رأس واحد لقلّتهم.
٦. تفسير روح البيان ٦: ٤١٧. ٧. تفسير القمي ٢: ١٤٢، تفسير الصافي ٤: ٩٧.
٨. روضة الواعظين: ٥٤، مناقب ابن شهر آشوب ١: ٥٩، تفسير الصافي ٤: ٩٧.

ثمَ ردَ الله عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَهُمْ﴾ ولم نجعل مقرّهم ومسكنهم ﴿حَرَماً آمِناً﴾ وأرضاً مأمونةً من القتال وتعدّيات العرب لحرمتها، ومع ذلك يُحمَل إلى ذلك الحرم و ﴿يُجْبَىٰ إِلَيهِ﴾ ويُجمَع فيه ﴿ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ومنافع جميع النباتات من الفواكه والحبوب والخضراوات، بحيث لا يرى شرقيها وغربيها ألا وهو فيه، هؤلاء يُرزَقون منها ﴿رِزْقاً﴾ كائناً ﴿مِن لَدُنَّا﴾ لا من لَدُن أحدٍ من الخَلق، فاذا كان هذا حالهم وهم عبدة الأصنام، فكيف نعرّضهم للتخوف والتخطّف إذا صاروا موحدين؟ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ جهَلة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ هذه النِّعم من قِبَلنا، وإلّا لم يخافوا غيرنا، ولا يعلمون أنّ إلٰهم الله،وإلا لم يَعْبُدوا غيره، أو لا يعلمون أنّ ما قالوا ليس بعُذرٍ مقبول، وإلّا لم يعتذروا به.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَليلاً وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَارِثِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِى أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ[٥٨ و ٥٩]

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان أنّ الايمان لا يوجب زوال نعمهم بل موجب لدوامها لهم، بيّن أنّ الإصرار على الكفر وتكذيب الرسل، هو الموجب لزوال النِّعم بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ بالعذاب ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ وبلدة ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ وأطغت النِّعم الكثيرة أهلها فخرّبنا بعد إهلاكهم ديارهم ﴿فَتِلْكَ﴾ المساكن الخربة التي ترونها في أسفاركم إلى الشام ذَهاباً وإياباً ﴿مَساكِنُهُمْ﴾ التي كانوا يَسْكُنونها، فانّها من شدّة خَرابها ﴿لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ ووراء إهلاكهم ﴿إِلَّا قَليلاً﴾ من الناس أو من الزمان، حيث إنّها لا يَسْكُنها إلّا المارّة يوماً أو بعض يوم، كما عن ابن عباس[1]. أو من أعقابهم، فانّهم لم يبقوا فيها إلّا قليلاً من شُؤم كفرهم ومعاصيهم[2]، وقليلاً من الحيوانات كالهام والبُوم[3] ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَارِثِينَ﴾ منهم لتلك المساكن، إذ لم يَخْلُفهم أحدٌ من أعقابهم.

ثمّ لمّا بيّن سبحانه إهلاك كثيرٍ من القُرى لبَطَر أهلها وكُفرهم، بيّن أنّ نزول العذاب لا يكون إلّا بعد إتمام الحُجّة على المعذبين، وأنّ علّة عدم نزوله على الكفّار الذين كانوا قبل بعثة النبي ﷺ مع بَطَرهم وشدّة كُفرهم وعنادهم، عدم بعث الرسول فيهم بقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ التي في الأرض بسبب كفرهم وطُغيانهم ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِى أُمِّهَا﴾ وعظيمها التي تكون تلك القرى أتباعها

---

١. تفسير الرازي ٢٥: ٥. ٢. تفسير الرازي ٢٥: ٥، تفسير روح البيان ٦: ٤١٨.

٣. تفسير روح البيان ٦: ٤١٨، والهام: طائر صغير من طيور الليل يألف المقابر.

ويُسكِنها الأشراف الذين هم مرجِع أهالِي غيرها ﴿رَسُولاً﴾ تتِمَ به الحُجَة عليهم، ويقطَع به معذرتهم بأن يدعوهم إلى توحيدنا و ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ وحُججنا الدالة على العقائد الحقّة، والوعد والوعيد، والترغيب في الطاعة، والترهيب عن الكفر والمعصية، حتى لا يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] فلذا لم نَهْلِك الكفّار الذين كانوا قبل البعثة.

ثمَ نبّه سبحانه على علّة عدم تعذيب الكفّار بعد البعثة بقوله: ﴿وَمَا كُنَّا﴾ وليس من دأبنا أن نكون ﴿مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰ﴾ الكافرة بعد بعثة الرسول وإلزام الحجّة ﴿إِلَّا وَأَهْلُهَا﴾ وسُكّانها ﴿ظَالِمُونَ﴾ على أنفسهم بتكذيب الرسول والآيات، وليس أهل مكّة كذلك؛ لأنّ بعضهم آمنوا وبعضهم يُرجىٰ منهم الإيمان.

وَمَا أُوتِيتُم مِن شَيْءٍ فَمَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ[٦٠ و ٦١]

ثمَ إنّه تعالى أجاب عن عُذرهم ثالثاً بعد الجوابين السابقين بقوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُم﴾ أيّها المعتذرون وأعطيتم ﴿مِن شَيْءٍ﴾ من التمكّن في الحرم وسَعَة الرزق وسائر النِّعم ﴿فَمَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وانتفاع قليل في مدّة العمر فيها ﴿وَزِينَتُهَا﴾ التي تتزيّنون بها من الألبسة الفاخرة والمراكب الفارهة في أيام يسيرة، ثمَ تزول وتَفنى بسرعة ﴿وَمَا عِنْدَ ٱللهِ﴾ من الأجر الجزيل الأُخروي على الايمان به وطاعته وعبادته ﴿خَيْرٌ﴾ لكم من جميع الدنيا وما فيها، لخلوصه من شوائب المكاره والآلام ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ وأدوم لكونه أبدياً ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ولا تُدركون هذا الأمر الواضح، ولا تتفكّرون فيه، فانّكم إذا عَقَلتم ذلك لا تَرضون باستبدال الأدنى بالذي هو خيرٌ، وما هو في مَعرِض الزوال بالذي لا زوال له.

ثمَ بيّن عدم تساوي النِّعم الدنيوية المتّصلة بالنِّعم الأُخروية والمُتّصلة بالعذاب بقوله: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ﴾ على إيمانه وطاعته ﴿وَعْداً﴾ يكون موعوده ﴿حَسَناً﴾ كالجنّة ونعيمها ﴿فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ ومُصيبه لا محالة، لامتناع الخُلف في وعدنا ﴿كَمَن مَتَّعْنَاهُ﴾ ونفعناه ﴿مَتَاعَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وانتفاع أيّام العمر السريع الانقطاع ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ يكون ﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ في مَحْضَر عدلنا للحساب وجزاء الأعمال، فيحكم عليه باستحقاقه العذاب الشديد الأبدي، لا يمكن التساوي ببديهة

---

١. القصص: ٤٧/٢٨.

العقل بين من اتّصل نعِمه الدنيوية بالنِّعم الأخرويّة الأبديّة، ومن اتّصل نِعمه الدنيوية بالعقوبة الأخروية الدائمة.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شرَكَائِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ * وَقِيلَ ٱدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ * وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ * فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ [٦٢ـ٦٦]

ثمّ شرع سبحانه في تهديد المشركين بأهوال القيامة وعدم نفع أصنامهم فيها بقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ والتقدير وذكّرهم يا محمد يوم يناديهم ربّهم نداء غضبان ﴿فَيَقُولُ﴾ لهم تقريعاً وتوبيخاً: قولوا ﴿أَيْنَ شرَكَائِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ وتتوهّمون أنّهم شركائي في الألوهية والعبادة، وكنتم تَعبدُونهم كما تَعْبُدونني، وترجون منهم نجاتكم من الشدائد؟ والغرض من هذا السؤال غايه تفضيحهم الذي هو نوع من العذاب ﴿قَالَ﴾ الشياطين والرؤساء ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اتّخذوهم أرباباً و﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ وثبت عليهم الوعيد بقوله: ﴿لاملئن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾[1]: ﴿رَبَّنَا هٰؤُلَاءِ﴾ الضعفاء الذين اتّبعونا في العقائد والأعمال هم ﴿ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ وأضللناهم عن التوحيد من غير إكراهٍ وإجبارٍ بل ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ﴾ باختيارهم وميل أنفسهم ﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾ وضَلَلنا عن الحقّ كذلك، ولم ينفعنا وإياهم الدلائل العقلية ونصائح الرسل وبيانات الكتب السماوية المشحونة بالوعد والوعيد في الصرف عمّا كنّا عليه من الكفر والعصيان، فاليوم ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ منهم وممّا اختاروه لأنفسهم من الشرك ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ بل كانوا يعبُدون هوى أنفسهم ويتّبعون شهواتهم.

﴿وَقِيلَ﴾ إذن من قبل الله للرؤساء والأتباع تهكّماً وتقريعاً: ﴿ٱدْعُوا﴾ اليوم ﴿شُرَكَاءَكُمْ﴾ وآلهتكم التي تدعون من دوني، كي يشفعوا لكم[2] ويكفّوا عنكم العذاب وينجوكم من شدائد هذا اليوم ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ لفَرْط الحيرة، أو برجاء النُّصرة جمعاً ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ للعجز عن إجابتهم ونُصرتهم ﴿وَرَأَوُا﴾ جميعهم التابع والمتبوع ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ الذي أُعدّ لهم حسب استحقاقهم أنّه قد غشيهم ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ إلى وجهٍ من الحِيل في دفعه، أو إلى الحقّ في الدنيا لما لَقُوا ما لَقُوا.

---

١. السجدة: ١٣/٣٢. ٢. في النسخة: يشفعوكم.

وقيل: إنّ المراد تمنّوا أنّهم كانوا مهتدين إلى الحقّ لا ضالّين عنه[١].

﴿وَ﴾ ذكّرهم يا محمّد ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ ربّهم نداء تقريعٍ وتوبيخٍ ﴿فَيَقُولُ﴾ لهم أيّها الكفّار الغُواة ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الذين أرسلتهم إليكم حين دعوكم إلى التوحيد وإلى عبادتي، ونهوكم عن الشرك والضلال ﴿فَعَمِيَتْ﴾ وسُتِرت ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ والأخبار ونسوها فلا يدرون ما يقولون لفَرْط الدهشة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وفي ذلك الوقت العظيم الهول ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ ولا يرجِع بعضهم إلى بعضٍ في الجواب، لعلمهم باشتراك جميعهم في الحَيرة والوَحشة والعجز عنه.

فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ[٦٧]

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان سُوء حال المصرّين على الشِّرك، بيّن حال التائبين منه بقوله: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ من الشرك والعصيان ﴿وَءَامَنَ﴾ بالتوحيد ورسالة الرسول وصدق كتابه ﴿وَعَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَالِحاً﴾ ومرضياً عند الله ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾ ذلك التائب المؤمن الصالح ﴿مِنَ﴾ جُملة ﴿ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ والفائزين بأعلى المقاصد من الأمن من الأهوال، والنجاة من العذاب، ونيل الجنّة[٢] والنِّعم الدائمة والراحة الأبدية في ذلك اليوم العظيم.

قيل: إنّ ذكر (عسى) في وعد الكرام للتحقيق، وقيل: إنّ المقصود إيجاد الرجاء في قلب التائب[٣]، فكأنّه قال: فليطمع التائب في الفلاح، ولايغترّ بايمانه وعمله، لاحتمال انقلاب حاله وابتلائه بما يوجب هلاكه.

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَانَ ٱللهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ[٦٨ و ٦٩]

ثمّ إنّه تعالى بعد الجواب عن اعتذار المشركين في ترك الايمان، ذكر الجواب عن اعتراضهم على رسالة الرسول بأنّه لابدّ أن يكون من الأغنياء والرؤساء، ومحمد فقيرٌ لا نفوذ لكلامه في العرب بقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ خلقه ﴿وَيَخْتَارُ﴾ من خلقه من يشاء أن يختاره ويصطفيه للرسالة وغيرها، فكما أنّ الخلق إليه يكون الاختيار إليه في جميع الأمور، وإن كان مُختاره مخالفاً لاختيار الناس، لأنّه ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ في أمرٍ من الأمور التكوينية، كالفقر والغنى، والصحة والمرض، والعزّ والذُّل،

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٤٢١.

٢. في النسخة: والنيل بالجنّة.

٣. تفسير أبي السعود ٧: ٢٢، تفسير روح البيان ٦: ٤٢٢.

والرسالة والإمامة وغيرها ﴿سُبْحَانَ ٱللهِ﴾ وتنزّه بذاته من أن يُزاحم اختياره اختيار خلقه ﴿وَتَعَالَىٰ﴾ وترفّع بكمال ذاته ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به من الآلهة التي يدعون من دونه في التصرّف في أمر خلقه، أو عن إشراكهم.

ثمّ هدّد سبحانه الطاعنين في رسالة رسوله بقوله: ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمّد ﴿يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ وتُضمِر قلوبهم من عداوة الرسول والحسد عليه ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ويظهرون من الطعن فيه والاعتراض عليه بقولهم ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾[١] فيجازيهم على مُضمراتهم ومعلناتهم أسوأ الجزاء.

وَهُوَ ٱللهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ ٱللهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ ٱللهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِن رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[٧٠ـ٧٣]

ثمّ إنّه تعالى بعد تخصيص أمر الخلق واختيار الأمور والعلم بالمضمرات والمعلنات بذاته المقدّسة، خصّ الألوهية والحمد بنفسه بقوله: ﴿وَهُوَ ٱللهُ﴾ المستحقّ للعبودية والمتفرّد بالألوهية ﴿لَا إِلٰهَ﴾ ولا معبود بالاستحقاق ﴿إِلَّا هُوَ﴾ تعالى شأنه و ﴿لَهُ﴾ وحده ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ والثناء الجميل ﴿فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾ والدنيا والعُقبى، لاختصاص النِّعم العاجلة والآجلة به ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ النافذ فيهما، لا يزاحمه غيره في الخلق والاختيار.

عن ابن عباس حكم لأهل طاعته بالمغفرة، ولاهل معصيته بالشقاء والويل[٢].

﴿وَإِلَيْهِ﴾ بالبعث ﴿تُرْجَعُونَ﴾ لا إلى غيره، فيجازي كلّاً على حسب استحقاقه.

ثمّ إنّه تعالى بعد تخصيص الحمد بذاته نبّه على بعض مهمّات نِعمَه بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لقومك ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ وأخبروني ﴿إِن جَعَلَ ٱللهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَداً﴾ والظُّلمة دائمة وباقية ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ﴾ لانهار معه ولا ضياء معها ﴿مَنْ إِلٰهٌ﴾ قادر ﴿غَيْرُ ٱللهِ﴾ القدير الحكيم ﴿يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ﴾ يُمكنكم فيه تحصيل معائشكم وتنظيم اُموركم وتفريح قلوبكم ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ دلائل توحيد

---

١. الزخرف: ٣١/٤٣. ٢. تفسير روح البيان ٦: ٤٢٥.

ربّكم، واستحقاقه لشكركم، وتخصيصه بمحامدكم ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَداً﴾ ودائماً ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ ٱللهِ يَأْتِيكُم﴾ بقدرته ﴿بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ﴾ وتستريحون ﴿فِيهِ﴾ من تعب مشاغل النهار ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟

وإنّما ختم الآية الأولى بالتوبيخ على ترك الاستماع، والثانية بالتوبيخ على ترك الإبصار؛ لأنّ الليل يُناسِب الاستماع، ولأنّ منافع السّمع تعمّ المحسوس والمعقول، وبعض منافع الضياء لا تُدرَك إلّا بالعقل، ولذا لم يقرن به جملة (تتصرفون فيه). والنهار مناسب للابصار، ومنفعة الظلمة ـ وهي الراحة والسكون ـ قابلة للإبصار ومنحصرة فيها، ولذا وصف الليل بكونه ﴿تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾.

ثمّ اعلم أنّ فَلَك الشمس يدور في بعض قطعات الأرض رحوياً لا غروب لها فيه، فصار النهار سرمداً، ولا يعيش فيه الحيوان، ولا ينبُت فيه النبات من شدّة حرارة الشمس، وفي بعض القطعات تدور تحت الأرض كذلك فلا طلوع لها فيه، فصار ليلة سرمدياً، فلا يعيش [فيه] الحيوان، ولا ينبُت النبات فيه أيضاً.

﴿وَمِن رَحْمَتِهِ﴾ تعالى أنّه ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ أيّها الناس ﴿ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ مزدوجين متعاقبين الليل ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ﴾ النهار ﴿لِتَبْتَغُوا﴾ فيه مقداراً ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ ونِعمه بأنواع المكاسب ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ربّكم على كلتي النِّعمتين معاً.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ[٧٤و ٧٥]

ثمّ لمّا أثبت سبحانه التوحيد وأبطل الشرك، هدّد المشركين بذكر أهوال القيامة بقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ تقريعاً وتبكيتاً ﴿فَيَقُولُ﴾ يا أيها المشركون ﴿أَيْنَ﴾ الأصنام الذين تَدْعُون أنّهم ﴿شُرَكَائِيَ﴾ في الألوهية والعبادة، والآلهة ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنّهم شُفعائكم ومُنجيكم من الشدائد والمهالك؟ لم لا يُغيثونكم ولا يُخلّصونكم اليوم من العذاب؟ ﴿وَنَزَعْنَا﴾ وأخرجنا ﴿مِن﴾ بين ﴿كُلِّ أُمَّةٍ﴾ وأهل عصر رجلاً معصوماً من العصيان والخطأ ليكون ﴿شَهِيداً﴾ يشهد على تلك الأمّة بقبولهم دعوة رسولهم أوردّها، وطاعتهم له أو عصيانهم إياه، فاذا شهدوا عليهم بالشرك والتكذيب ﴿فَقُلْنَا﴾ لهم: يا معشر المشركين ﴿هَاتُوا﴾ وأقيموا ﴿بُرْهَانَكُمْ﴾ على صحّة ماكنتم عليه من الاشراك ﴿فَعَلِمُوا﴾ يومئذٍ ﴿أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلهِ﴾ في الألوهية والتنزّه من الشريك واستحقاق العبادة

﴿وَضَلَّ﴾ وغاب ﴿عَنْهُم﴾ غيبة الضائع ﴿مَّا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَفْتَرُونَ﴾ على الله من أنه اتخذ لنفسه شريكاً، أو المراد ما كانوا يكذبون من ألوهية الأصنام.

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ[٧٦]

ثمّ استشهد سبحانه على سرعة زوال نِعم الدنيا بسبب الكفر والطغيان بقصة قارون بقوله: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ قيل: كان عمّ موسى، لأنه وعِمران كانا ابني يصهر[١]. وقيل: كان ابن عمّه لأنّ يصهر كان أخي عِمران[٢]، وعن ابن عباس: أنّه كان ابن خالة موسى[٣]، وقيل: إنّه كان لقبه المنور لحُسن صُورته، وكان أقرأ بني إسرائيل للتوراة[٤].

وعن النبي ﷺ: «أنه كان من السبعين المختارة الذين سَمِعوا كلام الله تعالى»[٥].

﴿فَبَغَىٰ﴾ وطلب الفضل والرئاسة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وكونهم تحت حكمه. وقيل: كان يستخفّ بالفقراء[٦] المؤمنين منهم، وقيل: إنّه ظلمهم لأنّ فرعون سلّطه عليهم[٧]. وعن ابن عباس: أنّه تجبّر وتكبّر وسَخِط عليهم[٨]. وقيل: إنّه حسد هارون على الحُبُورة[٩].

روي أنّ موسى عليه السلام لمّا قطع البحر وأغرق الله فرعون، جعل الحُبُورة لهارون، فحصلت له النبوّة والحُبُورة، وكان صاحب القربان والذبح، فوجد قارون من ذلك في نفسه فقال لموسى، لك الرسالة، ولهارون الحُبُورة، ولست في شيءٍ، ولا أصبر أنا على هذا. فقال موسى عليه السلام: والله ما صنعت ذلك لهارون، ولكن الله جعله له. فقال: والله لا أُصدقك أبداً حتى تأتين بآيةٍ أعرِفُ بها أنّ الله جعل ذلك لهارون، فأمر موسى رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كلّ منهم بعصاه، فجاءوا بها، فالقاها موسى عليه السلام في قُبّةٍ له، وكان ذلك بأمر الله، فدعا ربّه أن يُريهم بيان ذلك، فباتوا يَحْرُسون عِصيهم، فأصبحت عصا هارون تهتزّ لها ورق أخضر، وكانت من شجر اللّوز، فقال موسى عليه السلام: يا قارون، أما ترى ما صنع الله لهارون؟ فقال: والله ما هذا بأعجب ممّا تصنع من السحر، فاعتزل قارون ومعه ناسٌ كثيرٌ، وولي هارون الحُبُورة والذبح والقربان، فكان بنو إسرائيل يأتون هداياهم إلى هارون، فيضعها في المَذْبَح،

---

١. تفسير الرازي ٢٥: ١٣.
٢. تفسير الرازي ٢٥: ١٣، تفسير أبي السعود ٧: ٢٤.
٣ و ٤. تفسير الرازي ٢٥: ١٣.
٥. تفسير الرازي ٢٥: ١٤.
٦. تفسير الرازي ٢٥: ١٣، تفسير روح البيان ٦: ٤٢٩.
٧. تفسير الرازي ٢٥: ١٣.
٨. تفسير الرازي ٢٥: ١٤.
٩. تفسير الرازي ٢٥: ١٤، والحُبُورة: الإمامة، مأخوذ من الحبر، بمعنى الرئيس في الدين.

وتنزل النار من السماء فتأكلها[١].

ثمّ حكى الله كثْرة مال قارون بقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ وأعطيناه من الأموال الكثيرة المذخورة ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾ والمقدار الذي مفاتيح صناديقه ﴿لَتَنُوأُ﴾ وتنهض، أو تميل لثقلها ﴿بِالْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾ والجماعة الكثيرة من الرجال الأقوياء إذا حملوها.

عن ابن عباس: العُصبة في هذا الموضع أربعون رجلاً، وخزائنه كانت أربعمائة ألف، يحمل كلّ رجلٍ منهم عشر آلاف مفتاح[٢].

والقمي: العُصبة ما بين العشرة إلى التسعة عشر[٣].

قيل: كان في الانجيل أنّ مفاتح خزائن قارون وِقْر[٤] ستين بغلاً ما يزيد منها مِفتح على إصبع، لكلّ مِفتح كنز[٥].

وقيل: كان قارون أينما يذهب يحمِل معه مفاتيح كنوزه، وكانت من حديد، فلمّا ثَقُلت عليه جعلها من خشب، فثقلت فجعلها من جلود البقر على طول الأصابع[٦].

وقيل: كانت من جلود الإبل[٧].

وقيل: إنّ المراد من المفاتح نفس الكنوز[٨].

وقيل: إنّ المراد بها العلم والاحاطة[٩]، كما قال تعالى: ﴿وعنده مفاتح الغيب﴾[١٠] فالمعنى آتيناه من العلوم ما إن حِفظها والإطلاع عليها ليثقُل على العُصبة اُولي القوَة والهداية.

إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ * وَٱبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ [٧٦و ٧٧]

ثمّ حكى سبحانه وعظ موسى أو بعض المؤمنين من بني إسرائيل له بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ﴾ والتقدير اذكُر إذ قال له ﴿قَوْمُهُ﴾ وعظاً ونُصحاً: يا قارون ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ ولا تَبْطَر بالزخارف الدنيوية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ بالدنيا ومتاعها، لأنها مبغوضةٌ عند الله، لأنّ جمّها[١١] مانعٌ عن حبّه، وصارفٌ عن

---

١. تفسير الرازي ٢٥: ١٤.
٢. تفسير روح البيان ٦: ٤٣٠.
٣. تفسير القمي ٢: ١٤٤، تفسير الصافي ٤: ١٠٢.
٤. الوِقر: الحِمل.
٥ و٦. تفسير روح البيان ٦: ٤٣٠.
٧. تفسير الرازي ٢٥: ١٤.
٨. تفسير الرازي ٢٥: ١٥.
٩. تفسير الرازي ٢٥: ١٥.
١٠. الأنعام: ٥٩/٦.
١١. الجمّ: الكثير، وجمّ الشيء: معظمه.

ذِكره والتوجّه إليه ﴿وَٱبْتَغِ﴾ يا قارون واطلُب ﴿فِيمَا آتَاكَ ٱللهُ﴾ وفي تملّك هذه الأموال التي أعطاكها الله أو بسببها ﴿ٱلدَّارَ ٱلآخِرَةَ﴾ ونِعمها التي وعدها الله المؤمنين فيها، يصرف في تلك الأموال في الوجوه البريّة والمصارف الخيرية كمواساة الفقراء، وفكّ الأسراء، وصِلة الأرحام ونحوها ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ﴾ ولا تترُك حظّك ﴿مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ فانّ حظّ المؤمن من الدنيا تحصيل الآخرة بها.

عن أمير المؤمنين: «صحتّك وقوّتك وشبابك وغناك»[١].

وقيل: يعني لا تترُك أخذ ما يكفيك من الدنيا[٢]. وقيل: يعني لا تنسَ نصيبك من الدنيا حين رِحلتك منها، وهو ليس إلّا الكفَن، فلا تُغرَر بها[٣].

ثمّ إنه الأمر بالاحسان بالمال، أمره بمطلق الاحسان بقوله: ﴿وَأَحْسِن﴾ إلى عباد الله بالمال والجاه والبشر وحُسن اللِّقاء والذِّكر ونظائرها ﴿كَمَا أَحْسَنَ ٱللهُ إِلَيْكَ﴾ بتوفير المال والنِّعم، فنبّه على أنّ إحسان العباد شكراً لاحسان الله ﴿وَلَا تَبْغِ﴾ ولا تطلُب ﴿ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالظُّلم والتكبّر والتجبّر والعِصيان ﴿إِنَّ ٱللهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بل يُبغِضهم.

عن الصادق عليه السلام: «فساد الظاهر من فساد الباطن، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته، ومن خان الله في السرّ هتَك الله سرّه في العلانية، وأعظم الفساد أن يرضى العبد بالغَفْلة عن الله تعالى، وهذا الفساد يتولّد من طول الأمل والحِرص والكِبر، كما أخبر الله تعالى في قصة قارون في قوله: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وكانت هذه الخِصال من صنع قارون واعتقاده، وأصلها من حبّ الدنيا وجمعها ومتابعة النفس وهواها، وإقامة شهواتها، وحُبّ المحمدة، وموافقة الشيطان، واتّباع خطواته، وكلّ ذلك مجتمعٌ تحت الغفلة عن الله ونسيان منّته»[٤].

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِىَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ٱلصَّابِرُونَ [٧٨ـ ٨٠]

---

١. معاني الأخبار: ١/٣٢٥، تفسير الصافي ٤: ١٠٣، وفيهما: ونشاطك، بدل: وغناك، تفسير روح البيان ٦: ٤٣١.

٢. تفسير أبي السعود ٧: ٢٥، تفسير روح البيان ٦: ٤٣١.

٣. تفسير روح البيان ٦: ٤٣١.

٤. مصباح الشريعة: ١٠٧، تفسير الصافي ٤: ١٠٣، وفي النسخة: سنته.

ثمّ إنّ قارون بعد استماع تلك المواعظ ازداد في الكفر والطغيان و ﴿قَالَ﴾ في جواب الناصح: المال الذي اجتمع لي ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾ ووجدته حال كوني ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ كثيرٍ كائنٍ ﴿عِندِى﴾ بالتوراة، فانّه كان أعلم بني إسرائيل بها، أو بالكسب والتجارة والزراعة.

وقيل: إنّ المراد بعلمه علم الكيمياء، فانّه اُنزل على موسى من السماء، فعلم قارون ثلثه ويُوشع ثلثه، وكالِب بن يُوحنا ثلثه فخدعهما قارون حتى انضاف علمهما إلى علمه، فكان يأخُذ الرَّصاص فيجعله فِضَة، ويأخُذ النُّحاس فيجعله ذهباً[١].

وقيل: علم موسى اُخته الكيمياء، ثمّ هي علّمته قارون[٢].

وقيل: إن المعنىٰ إنّ الله أعطاني هذا المال مع كونه عالماً بي وبأحوالي، فلو لم يكن ذلك مصلحةً لما أعطاني[٣]، ومعنى قوله: ﴿عِندِى﴾ أنّ الأمر عندي وفي اعتقادي كذلك.

ثمّ ردّه الله بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ قارون مع ادّعائه وُفُور علمه، أو أولم يكن في علمه أو فيما عنده من العلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ﴾ بالعذاب ﴿مِن قَبْلِهِ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الكافرة الطاغية ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾ من جهة العُدّة والعدد ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعاً﴾ للمال كنمرود وأضرابه، أو أكثر جمعاً للعلم والعبادة حتى لا يغترّ بما اغترّ به من القوّة وكثرة المال أو العلم ﴿وَلَا يُسْأَلُ﴾ حين نزول العذاب ﴿عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ والعاصون لعلم الله بحدود ذنوبهم من حيث الكَثرة والعَظمة، فلا يحتاج إلى السؤال عنهم حتى يشتغلوا بالاعتذار، وإن يسألهم في بعض المواقف توبيخاً وتقريعاً في القيامة ﴿فَخَرَجَ﴾ قارون يوماً من منزله متجبّراً ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ وهو مستغرقٌ ﴿فِى زِينَتِهِ﴾ الظاهرة.

قيل: خرج يوم السبت الذي كان آخر يوم من عمره على بغلة شهباء مُسرجة بسرجٍ من ذهب، وعليه قَطيفة اُرغوانية[٤]، ومعه أربعة آلاف فارس على زيّه، وثلاثمائة جارية بيض عليهن الحُليّ والثياب الحُمر على البِغال الشُّهب[٥]، فلمّا رآه الناس في تلك الزِّينة ﴿قَالَ﴾ الجُهّال ﴿ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾ ويَطْلُبون ﴿ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا﴾ ويرغبون في مَتاعها وزينتها من بني إسرائيل: ﴿يَالَيْتَ﴾ كان ﴿لَنَا﴾ واُوتينا ﴿مِثْلَ مَا أُوتِىَ قَارُونُ﴾ من المال والجاه والخَدم ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ونصيبٍ وافرٍ من الدنيا ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ﴾ بالدين وبأحوال الآخرة وفوائد الزُّهد في الدنيا للمتمنّين ﴿وَيْلَكُمْ﴾ أيّها الطالبون للدنيا ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ وأجره العظيم في الآخرة من الجنّة ونِعمها الدائمة

---

١. تفسير الرازي ٢٥: ١٦، تفسير روح البيان ٦: ٤٣٢.
٢. تفسير روح البيان ٦: ٤٣٢.
٣. تفسير الرازي ٢٥: ١٦.
٤. في تفسير روح البيان: عليه الارجوان، يعني قطيفة ارغواني.
٥. تفسير الرازي ٢٥: ١٧، تفسير روح البيان ٦: ٤٣٣.

﴿خَيْرٌ﴾ ممّا تتمنّون ﴿لِمَنْ آمَنَ﴾ بالله ورُسله واليوم الآخر ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ والكرامة عنده أعظم من الكرامة عند الناس، وهذه الكلمة التي قالها العلماء بالله، أو هذه المَثُوبة التي وعدها الأنبياء لا يستقبلها ﴿وَلَا يُلَقَّاهَا﴾ أو لا يَنالها ﴿إِلَّا ٱلصَّابِرُونَ﴾ على الطاعات وترك المحرّمات وشدائد الدنيا ومصائبها.

فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ ٱللهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَنَّ ٱللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَافِرُونَ[٨١ و ٨٢]

ثمّ إنّ قارون أشر وبَطِر وعتا ﴿فَخَسَفْنَا﴾ أو غيّبنا، أو ذهبنا ﴿بِهِ وَبِدَارِهِ﴾ وكُنوزه ﴿ٱلْأَرْضَ﴾.

عن ابن عباس: أنّ قارون كان يُؤذي موسى كلّ وقتٍ وهو يداريه للقرابة التي كانت بينهما، حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كلّ ألف دينار على دينار، وعن كلّ ألف دِرْهَم على دِرْهَم، فحسبه فاستكثره، فشحّت نفسه، فجمع بني إسرائيل وقال: إنّ موسى يُريد أن يأخُذ أموالكم. فقالوا: أنت سيدنا وكبيرنا، فمُرنا بما شِئت. قال: نُبرطِل فلانة البغية حتى تَنْسُبه إلى نفسها فيرفُضه بنو إسرائيل، فجعل لها طشتاً من ذهب مملوءاً ذهباً، فلمّا كان يوم عيد قام موسى فقال: يا بني إسرائيل، من سرق قطعناه، ومن زنى وهو غير مُحصنٍ جلدناه، وإن أحصن رجمناه.

فقال قارون: وإن كنتَ أنت؟ قال: وإن كنتُ أنا، قال: فإنّ بني إسرائيل يقولون: إنّك فَجَرت بفلانة! فأحضرت فناشدها موسى بالله الذي فلق البحر وأنزل التوراة أن تصدُقَ، فتداركها الله تعالى. فقالت: كَذَبوا، بل جعل لي قارون جُعلاً على أن اقْذِفك بنفسي، فخرّ موسى ساجداً يبكي. وقال: يا ربّ، إن كنتُ رسولك فاغضَب لي، فأوحى الله إليه أن مُر الأرض بما شئت. فانّها مُطيعةٌ لك. فقال: يا نبي إسرائيل، إنّ الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون، فمن كان معه فليَلْزَم مكانه، ومن كان معي فليعتزل، فاعتزلوا جميعاً غير رجلين. ثمّ قال: يا أرض خُذيهم، فأخذتهم إلى الرُّكَب، ثمّ قال: خُذيهم، فأخذتهم إلى الأوساط، ثمّ قال: خُذيهم، فأخذتهم إلى الأعناق، وقارون وأصحابه يتضَرعون إلى موسى، ويناشدونه بالله والرَحِم، وموسى لا يلتفت إليهم من شدّة الغَضب . ثمّ قال: خُذيهم، فانطبقت عليهم الأرض، فأوحى الله إلى موسى: ما أفظّك! استغاثوا بك مراراً فلم ترحمهم، أما وعزّتي لو دعوني مرّةً واحدةً لوجدوني قريباً مجيباً. فاصبحت بنو إسرائيل يتناجون بينهم. إنّما دعا موسى على

قارون ليستبدّ بداره وكُنوزه، فدعا الله حتى خسَف بداره وكُنوزه[١].

القميّ، قال: كان سبب هلاك قارون أنّه لمّا أخرج موسى عليه السلام بني إسرائيل من مِصر، وأنزلهم البادية، أنزل الله عليهم المَنّ والسَّلوىٰ... إلى أن قال: ففرض الله عليهم دُخول مصر، وحرمها عليهم أربعين سنة، وكانوا يقومون من أوّل الليل ويأخُذون في قراءة التوراة والدعاء والبُكاء، وكان قارون منهم، وكان يقرأ التوراة، ولم يكن فيهم أحسن صوتاً منه، وكان يسمّى المنور لحسن قراءته[٢] وكان يعمل الكيمياء.

فلمّا طال الأمر على بني إسرائيل في التيه، وأُمروا بالتوبة، وكان قارون امتنع من الدخول معهم في التوبة، وكان موسى يُحبّه، فدخل موسى عليه وقال له: يا قارون، قومك في التوبة وأنت قاعدٌ ها هنا ادخُل معهم، وإلّا ينزل بك العذاب فاستهان به واستهزأ بقوله، فخرج موسى من عنده مغتمّاً، فجلس في فِناء قصره، وعليه جُبّة شعرٍ، وفي رجليه نعلان من جِلد حمار شِراكُهما من خُيوط شَعر، بيده العصا، فأمر قارون أن يُصَبّ رَمادٌ قد خُلِط بالماء، فصُبّ عليه، فَغضِب موسى غضباً شديداً، وكان في كَتفِه شَعَرات، كان إذا غَضِب خرجت من ثيابه وقَطَر منها الدم، فقال موسى: يا ربّ، إن لم تغضَب لي فلستُ لك بنبي. فأوحى الله عز وجلّ: قد أمرت الأرض أن تُطيعك فمُرها بما شئت.

وقد كان قارون قد أمر أن يُغلَق باب القصر، فأقبل موسى فأوحى إلى الأبواب فانفرجت، فدخل عليه، فلمّا نظر إليه قارون عَلِم أنّه قد أُتي بالعذاب، فقال: يا موسى، أسألك بالرَّحِم الذي بيني وبينك. فقال له: يا بن لاوي، لا تزدني من كلامك، يا أرض خُذيه، فابتلعته بقصره وخزائنه. الخبر[٣].

﴿فَمَا كَانَ لَهُ﴾ في ذلك اليوم ﴿مِن فِئَةٍ﴾ وجماعةٍ متعاضدين ﴿يَنصُرُونَهُ﴾ بدفع عذاب الخسف ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وبغير نُصرته تعالى ﴿وَمَا كَانَ﴾ قارون بنفسه ﴿مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ والمدافعين للعذاب عن نفسه بوجه ﴿وَأَصْبَحَ﴾ وصار ﴿ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا﴾ لأنفسهم ﴿مَكَانَهُ﴾ ومنزلته ﴿بِالْأَمْسِ﴾ وفي الزمان القريب من هلاكه ﴿يَقُولُونَ﴾ تندّماً من تمنيّهم، أو إظهاراً لخطئهم، أو تعجّباً من الواقعة: ﴿وَيْكَأَنَّ﴾ وما أشبه أن ﴿ٱللَّهَ﴾.

وقيل: إنّ (وي) كان مركّب من (ويك) بمعنى ويلك وإن، والمعنى ويلك اعلم أنّ الله[٤] ﴿يَبْسُطُ﴾ ويوسّع ﴿ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ على مُقتضى حكمته، لا لكرامة المبسوط عليه ﴿وَيَقْدِرُ﴾ ويُضيّق الرزق على من يشاء كذلك، لا لهوان المُضَيق عليه ﴿لَوْلَا أَن مَّنَّ ٱللَّهُ﴾ وأنعم ﴿عَلَيْنَا﴾ بمنع

---

١. تفسير الرازي ٢٥: ١٨، ونسبه الى القيل، تفسير روح البيان ٦: ٤٣٥.
٢. في النسخة: صورته.
٣ تفسير القمي ٢: ١٤٤، تفسير الصافي ٤: ١٠٤.
٤. تفسير أبي السعود ٧: ٢٧، تفسير روح البيان ٦: ٤٣٦.

إعطاء ما تمنّيناه من حظّ قارون ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ أيضاً في الأرض، كما خَسَف بقارون، لتوليد الغنىٰ فيما مثل ماولّده فيه من الكِبر والتجبّر والبغي والفساد ونحوها من المُهلِكات ﴿وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ﴾ ولا ينجو من العذاب ﴿ٱلْكَافِرُونَ﴾ لنِعَم الله المُكَذّبون لرسله.

أقول: في الآيات دلالة واضحة على ذمّ الغنى وحبّ الدنيا وتمنّي حُطامها إلّا للتوصّل إلى مرضاة الله ودرجات الآخرة.

عن كبشة الأنماري: أنّه سَمِع رسول الله ﷺ يقول: «ثلاث أُقسم عليهنّ، وأُحدّثكم بحديث فاحْفَظُوه، فأمّا التي أُقسم عليهن، فانّه ما نقص مالُ عبدٍ من صدقة، ولا ظُلِم عبدٌ مَظْلَمة صبر عليها إلّا زاده الله عزّاً، ولا فتح عبدٌ باب مسألة إلّا فتح الله عليه باب فَقْر، وامّا الذي أُحدثكم فاحْفَظُوه، إنّما الدنيا لأربعة نَفَرٍ: عبد رزقه الله علماً ومالاً فهو يتّقي فيه ربّه، ويَصِل فيه رَحِمه، ويعمل لله فيه بحقّه، فهذا بأفضل المنازل. وعبد رزقه الله علماً، ولم يَرزُقه مالاً، فهو صادق النيّة يقول: لو أنّ لي مالاً لعَمِلت بعمل فلان، فهوبنيّته، وأجرهما سَواء. وعبد رزقه الله مالا، ولم يَرْزُقه علماً، فهو لا يتّقي فيه ربّه، ولا يَصِل فيه رَحِمه، ولا يعمل لله فيه بحقّه. وعبد لم يَرْزُقه الله علماً ولا مالاً، فهو يقول: لو أنّ لي مالاً لعَمِلت فيه بعمل فلان، فهو بنيّته، ووِزْرهما سواء»[1].

القمي: أنّه سأل بعض اليهود أمير المؤمنين عليه السلام عن سجن طاف أقطار الأرض بصاحبه، فقال: «يا يهودي، أمّا السجن الذي طاف أقطار الأرض بصاحبه، فانّه الحوت الذي حُبِس يونس في بطنه، فدخل في بحر القُلزُم، ثمّ خرج إلى بحر مِصر، ثمّ دخل بحر طَبَرستان، ثمّ خرج في دجلة العوراء[2] ثمّ مرّ به تحت الأرض حتى لَحِق بقارون... إلى أن قال: وكان يونس يسبّح الله ويستغفره، فسَمِع قارون صوته. فقال للمَلَك الموكّل به: انظُرني فانّي أسمع كلاماً، فأوحي إلى المَلَك: انظُره فأنظره، فقال قارون: من أنت؟ قال يونس: أنا المذنب الخاطئ يونس بن متّى. قال: فما فعل شديد الغضب لله موسى بن عمران؟ قال: هيهات هَلَك. قال: فما فعل الرؤوف الرحيم على قومه هارون بن عمران؟ قال: هلك. قال: فما فعلت كلثم بنت عمران التي كانت سمّيت لي؟ قال: هيهات ما بقي من آل عمران أحدٌ. فقال قارون: واأسفاً على آل عمران! فشكر الله تعالى له ذلك، فأمر المَلَك الموكّل به أن يرفع العذاب عنه ايّام الدنيا»[3].

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٤٣٧.

٢. في النسخة: العور، وفي تفسير القمي: الغوراء، وفي تفسير الصافي: الغور، وما أثبتناه من معجم البلدان، ودجلة العوراء: اسم لدجلة البصرة علم لها. معجم البلدان ٢: ٥٠٣.

٣. تفسير القمي ١: ٣١٨، تفسير الصافي ٤: ١٠٥.

وعن الباقر عليه السلام ـ في حديث ذكر فيه حُوت يونس ـ قال: «فطاف به البحار السبعة حتى صار إلى البحر المَسْجُور، وبه يُعذّب قارون، فسَمِع قارون دويّاً، فسأل المَلَك عن ذلك، فأخبره أنّه يونس، وأنّ الله حبسه في بطن الحُوت، فقال له قارون: تأذَن لي أن أُكلّمك؟ فأذن له، فسأله عن موسى، فأخبره أنّه مات فبكى ثمّ سأله عن هارون، فأخبره أنّه مات فبكى وجَزِع جَزَعاً شديداً، ثمّ سأله عن أُخته كلثم، وكانت مسمّاة له، فأخبره أنّها ماتت، فبكى وجَزِع جَزَعاً شديداً، فأوحى الله إلى المَلَك الموكّل به أن ارفع عنه العذاب بقيّة أيام الدنيا لرقّته على قرابته»[١].

أقول: في الروايات إشكالات، والذي يهوّن الخَطْب أنّها أخبار آحاد لا تزيد علماً ولا عملاً.

تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِى ٱلْأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ[٨٣]

ثمّ بشّر سبحانه المتّقين بالعاقبة المحمودة معظّماً لأمر الآخرة وثوابها بقوله: ﴿**تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ**﴾ التي سَمِعت خبرها، وبلغك وصفها دار ﴿**نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً**﴾ وارتفاع مقامٍ وغَلَبةً وسلطاناً ﴿**فِى ٱلْأَرْضِ**﴾ كما أراد فرعون وقارون ﴿**وَلاَ فَسَاداً**﴾ بالظلم والعدوان على الناس كما أراده ﴿**وَٱلْعَاقِبَةُ**﴾ المحمودة من الجنّة ونعيمها ﴿**لِلْمُتَّقِينَ**﴾ والمحترزين عن العلوّ والفساد وما لا يرضاه الله.

روى بعض العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه كان يمشي في الأسواق وهو والٍ يرشُد الضالّ، ويُعينُ الضعيف، ويَمُرّ بالبياع والبقّال، فيفتح عليه القرآن ويقرأ هذه الآية، ويقول: «نزلت في أهل العدل والتواضُع من الولاة وأهل المقدرة من سائر الناس»[٢].

وعنه بطُرُقهم: «أنّ الرجل ليُعجبه أن يكون شِراك[٣] نعله أجود من شِراك نعل صاحبه، فيدخل تحتها»[٤].

وعن الصادق عليه السلام: «العلوّ: الشّرف، والفساد: النساء»[٥].

وعنه عليه السلام أنه قال لحفص بن غِياث: «يا حَفْص، ما منزلة الدنيا من نفسي إلّا منزلة المَيْتَة، إذا

---

١. تفسير العياشي ٢: ١٩٨١/٢٩٥، تفسير الصافي ٤: ١٠٦.
٢. مجمع البيان ٧: ٤٢٠، تفسير الصافي ٤: ١٠٦، تفسير روح البيان ٦: ٤٣٨.
٣. الشِّراك: سير النعل على ظهر القدم.
٤. مجمع البيان ٧: ٤٢٠، تفسير الصافي ٤: ١٠٦، تفسير الرازي ٢٥: ٢٠، تفسير روح البيان ٦: ٤٣٨.
٥. تفسير القمي ٢: ١٤٧، تفسير الصافي ٤: ١٠٦.

اضطررت إليها أكلت منها. يا حَفْص، إنّ الله تبارك وتعالى عَلِم ما العباد عاملون، وإلى ما هم صائرون، فَحَلُم عنهم عند أعمالهم السيئة لعِلمه السابق فيهم، فلا يَغُرَنّك حُسن الطلب ممّن لا يخاف الفَوتْ» ثمّ تلا الآية، وجعل يبكي، ويقول: «ذهبت والله الأماني عند هذه الآية ، فاز والله الأبرار، أتدري من هم؟ هم الذين لا يُوذُون الذرّ[1]، كفى بخشية الله عِلماً، وكفى بالاغترار بالله جهلاً»[2].

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَـمِلُوا ٱلسَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَبِّى أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ [٨٤ و ٨٥]

ثمّ بيّن سبحانه ما به تحصّل الدار الآخرة والعاقبة المحمودة بقوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ وقد مرّ تفسيرها في آخر سورة النمل[3] ﴿فَلَهُ﴾ بمقتضى التفضّل شيءٌ أفضل من تلك الحسنة و ﴿خَيْرٌ مِنْهَا﴾ ذاتاً ووصفاً في القيامة ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ وعَمِل ما يسوء ربّه كالشِّرك والعِصيان ﴿فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسَّيِّئَاتِ إِلَّا﴾ مثل ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بمقتضى العدل، لا يُزادون عليه ولا يُنقصون.

وفي تكرير إسناد السيئة إليهم مبالغة في الزّجر عنها، وفي تهجين حالهم، وزيادة تبغيض لها في قلوب السامعين، وفيه تنبيه على عِظم كلمة الكُفر بحيث إنّ العذاب الدائم مثلها.

ثمّ بشّر نبيه بأنّ عاقبته أحمد العواقب بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ﴾ وأوجب عليك تلاوته وتعظيمه وتبليغه والعمل به ﴿لَرَادُّكَ﴾ بعد خروجك من الدنيا ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ ومرجعِ عظيمِ الشأن بحيث يَغبِطك به الأوّلون والآخرون، وهو المقام المحمود، ثواباً على إحسانك في العمل، وتحمُّلك المشاقّ التي لا تتحمّلها الجبال.

وقيل: إنّ المراد بالمعاد مكّة، وإنّما نُكّر للتنبيه على عِظم شأنه، فانّ استيلاءه عليها، وقهره أهلها، وظهور عزّ الاسلام وذلّ الكفر[4] بعد كونه مقهوراً ومغلوباً، من خوارق العادات الدالّة على رسالته، والإخبار به قبل ظُهور أماراته، بل وجود أمارات خلافه من الأخبار الغيبيّة.

روي أنّه صلى الله عليه وآله خرج من الغار، وسار في غير الطريق مخافة الطَّلَب، فلمّا أمِن رَجَع إلى الطريق، ونزل بالجُحفة بين مكّة والمدينة، وعَرَف الطريق إلى مكة، واشتاق إليها، وذكر مولده ومولد أبيه،

---

١. الذرّ: اصغر النمل.
٢. تفسير القمي ٤: ١٤٦، تفسير الصافي ٤: ١٠٦.
٣. النمل: ٢٧/ ٨٩.
٤. تفسير الرازي ٢٥: ٢١.

فنزل جَبْرَئيل وقال: تشتاق إلى بلدك ومولدك؟ قال: «نعم». فقال جَبْرَئيل: إنّ الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ يعني إلى مكّة ظاهراً على أهلها[1].

أقول: يُمكن كون المراد بالمعاد الدنيوي والأُخروي.

وعن السجّاد: «يرجع إليكم نبيّكم ﷺ وأمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام»[2].

وعن الباقر عليه السلام: «أنّه ذكر عنده[3] جابر فقال: رَحِم الله جابراً، لقد بلَغَ من عِلمه أنّه كان يعرف تأويل هذه الآية» يعني الرجعة[4].

ثمّ أمره سبحانه ببيان علّة استحقاقه الردّ إلى معاد عظيم الشأن بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿رَّبِّى أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ﴾ والتزم بالدين الحقّ، وما يستحقّه من الثواب في الدارين ﴿وَمَنْ هُوَ﴾ مِنْهمك ﴿فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وانحرافٍ واضحٍ عن الحقّ وما يستحقّه من الهَوان والعذاب في النشأتين.

وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ ٱلْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ * وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ ٱللهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللهِ إِلَٰهاً آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[٨٦ـ٨٨]

ثمّ استشهد سبحانه على تخصيصه بأفضل الكرامة بتخصيصه بنزول القرآن الذي هو أفضل الكُتب عليه بقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا﴾ يا محمد ﴿أَن يُلْقَىٰ﴾ وينزل ﴿إِلَيْكَ ٱلْكِتَابُ﴾ الذي هو أفضل الكتب، وما كان ذلك ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ عظيمة عليك خاصّة بك ﴿مِن رَبِّكَ﴾ اللّطيف بك لم يَشْرِكك فيها غيرك من الرُّسل، فاذا عَلِمت غاية لُطفه بك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً﴾ وعَوناً ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ الذين هم أعداؤه بالمداراة معهم، والتحمّل عنهم، والاجابة إلى طَلِبتهم، بل كن عدوّهم وعوناً للمؤمنين الذين هم أحباؤه ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ هؤلاء المشركون ولا يَصْرِفنَك ﴿عَنْ﴾ تلاوة ﴿آيَاتِ ٱللهِ﴾ القرآنية، وتبليغها، والعمل بها ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ﴾ تلك الآيات ﴿إِلَيْكَ﴾ وتُليت عليك ﴿وَٱدْعُ﴾ الناس ﴿إِلَىٰ﴾ توحيد ﴿رَبِّكَ﴾ وعبادته ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ البتة أبداً ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في الألوهية، أو في الدعوة ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللهِ إِلَٰهاً آخَرَ﴾.

لعلّ النُّكتة في هذه الخطابات قطع أطماع المشركين منه ﷺ،فانّهم كانوا يَدْعونه إلى دينهم، أو

---

١. تفسير الرازي ٢٥: ٢١.
٢. تفسير القمي ٢: ١٤٧، تفسير الصافي ٤: ١٠٧.
٣. في تفسير القمي: سئل عن.
٤. تفسير القمي ٢: ١٤٧، تفسير الصافي ٤: ١٠٧.

المبالغة في قبح هذه الأمور بحيث يَنهىٰ عنها من يمتنع صدورها منه، فكيف بغيره، أو نهي اُمّته بطريق إيّاك أعني واسمعي يا جارة.

وقيل: يعني لا تعتمد على غير الله، ولا تتّخذ وكيلاً في اُمورك سواه[١]، لأنه ﴿لَا إِلَٰهَ﴾ يُلتجأ إليه في دفع المضارّ وجلب المنافع ﴿إِلَّا هُوَ﴾ تعالى وحده، فانّه القادر القاهر الغالب على كلّ شيء و ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ من الروحانيات والجسمانيات ﴿هَالِكٌ﴾ وفانٍ ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾ وذاته، لأنّه الواجب الوجود الذي يمتنع عليه الفَناء.

وقيل: يعني إلّا ما اُريد به وجهه من الأعمال[٢].

وفي الأثر: يُجاء بالدنيا يوم القيامة فيقال: ميّزوا ما كان منها لله، ثمّ يُؤمَر بسائرها فيُلقىٰ في النار[٣].

وقيل: يعني سُلطانه ومُلكه الذي لا يزال.

وعن الصادق عليه السلام، قال: «كلّ شيءٍ هالك إلّا من أخذ طريق الحقّ»[٤].

وعنه عليه السلام: «من أتى الله بما أمره من طاعة محمّد والائمّة عليهم السلام من بعده، فهو الوجه الذي لا يهلِك» ثمّ قرأ ﴿من يطع الرسول فقد اطاع الله﴾[٥].

أقول: المراد أنّ كلّ مطيعٍ لله ولرسوله، فهو وجه الله الذي يُواجه به خلقه، وهو باقٍ في الجِنان مرزوقٌ عند ربّه أبداً، ومن هو عاصٍ لله ولرسوله، فهو من الهالكين، وعنه عليه السلام: «إنّما عنى بذلك وجه الله الذي يُؤتى منه»[٦].

وعن الباقر عليه السلام: «أنّ الله عزّ وجلّ أعظم من أن يُوصَف بالوجه، لكن معناه كلّ شيءٍ هالك إلّا دينه، والوجه الذي يُؤتىٰ منه»[٧].

أقول: الظاهر أنّ الجملة الأخيرة تفسير الدين، والمراد بالوجه فيها الجِهة التي يُؤتى منها، ويُحْتَمل أن يكون المراد الهداة إلى الله، فانّهم السبب الذي يقبل الله ويتوجّه بهم إلى خلقه، بل لا فرق بين المعنيين، فانّهم عليهم السلام لشدّة التزامهم بالدين كأنهم صاروا مجسّمته.

عن الصادق عليه السلام: ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾ قال: «دينه، وكان رسول الله وأمير المؤمنين عليهما السلام دين الله ووجهه، وعينه في عباده، ولسانه الذي ينطِق به، ويده على خلقه، ونحن وجه الله الذي يُؤتى منه، لن نَزَل في

---

١. تفسير الرازي ٢٥: ٢١.
٢. تفسير روح البيان ٦: ٤٤٣، مجمع البيان ٧: ٤٢١.
٣. تفسير روح البيان ٦: ٤٤٣.
٤. التوحيد: ٢/١٤٩، تفسير الصافي ٤: ١٠٨.
٥. التوحيد: ٣/١٤٩، تفسير الصافي ٤: ١٠٨، والآية من سورة النساء: ٨٠/٤.
٦. الكافي ١: ١/١١١، تفسير الصافي ٤: ١٠٨.
٧. التوحيد: ١/١٤٩، تفسير الصافي ٤: ١٠٨، المحاسن: ١١٦/٢١٨.

عباده ما دام لله فيهم رَوِيَّة» قيل: ماالرُّوْيَة؟ قال: «الحاجة» وإذا لم تكن لله فيهم حاجة رَفَعنا إليه وصنع بنا ما أحبّ»[١].

وعن الباقر عليه السلام ـ في هذه الآية ـ قال: «أفيفنى كلّ شيءٍ ويبقى الوجه؟» ثمّ قال: «الله أعظم من أن يُوصَف» ثمّ فسّره بالتفسير السابق[٢].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام بعد تفسير الوجه بالدِّين قال: «لأنّ من المحال أن يَهلِك منه كلّ شيءٍ ويبقى الوجه، وهو أجلّ وأعظم من ذلك، وإنّما يهلِك ما ليس منه، ألا ترى أنّه تعالى قال: **﴿كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك﴾**[٣] ففَصَل بين خَلْقه ووجهه»[٤].

أقول: حاصل المراد أنّ الوجه هو الجهة التي بها يُقبِل الشيء إلى غيره، والله منزّه عن الجهة والعضو، فالمراد منه ما هو سبب إقباله إلى خلقه وهو دينه وحُججه الذين ببركتهم تنزِل الرحمة.

قيل: إنّ مرجِع ضمير وجهه هو الشيء، ووجه الشيء هو الذي يلي جِهته تعالى، فانّ كلّ شيءٍ مركّب من الوجود والماهية والثاني اعتباري لا خارج له[٥]، اتصافه بالوجود بالعرض والمجاز، فانّ العدم لا يصير في الحقيقة معروضاً للوجود الذي هو نقيضه، كما لا يصير الوجود معروضاً للعدم، ولا يقال: انعدم الوجود، بل يحصّل بينهما إضافة اعتبارية يقال بها الماهية موجودة، وصار الموجود معدوماً، والوجود المطلق وجه الله، وهو باقٍ أبداً، والماهية باعتبار إضافتها إلى الوجود هالكة.

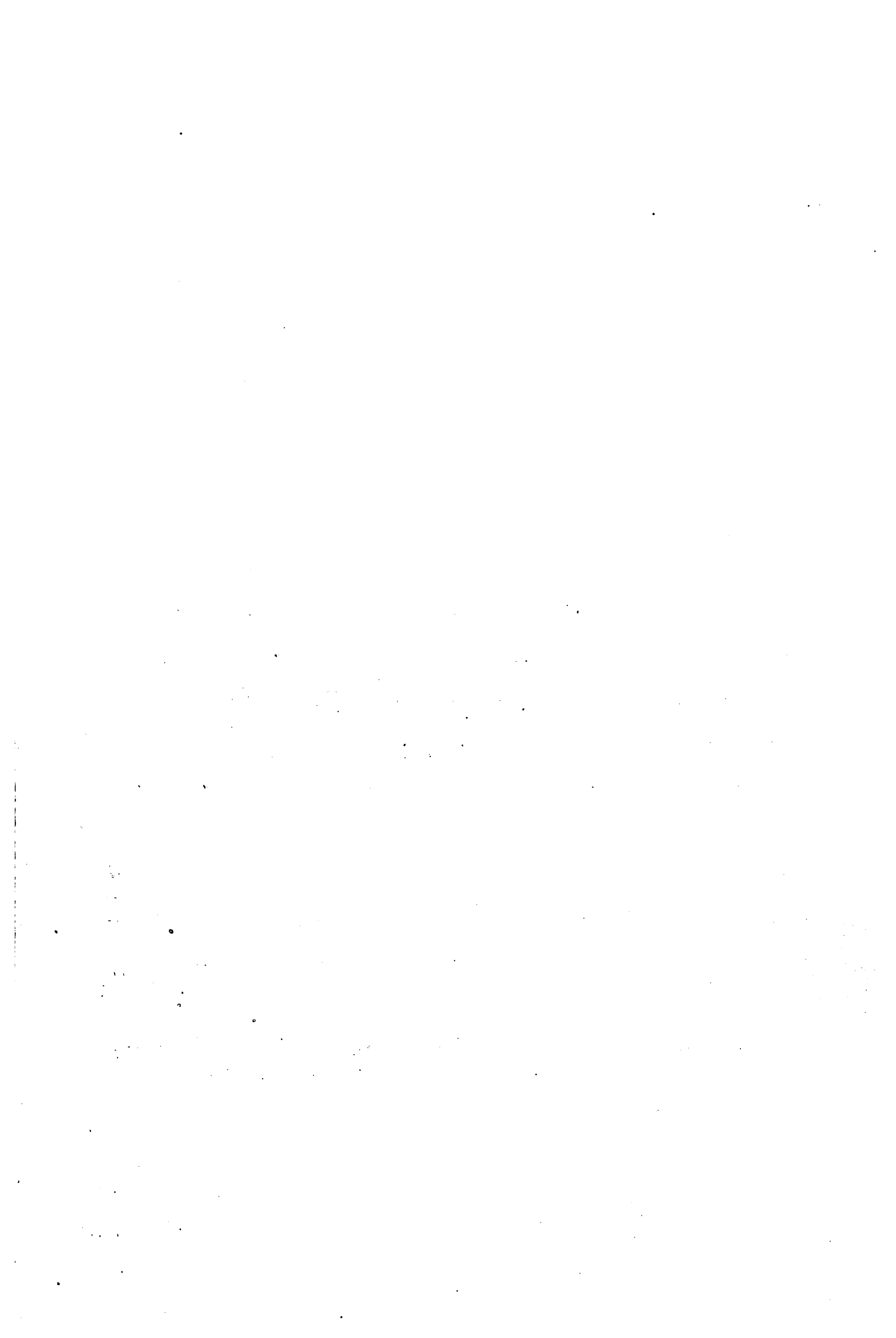
قيل: إنّه ورد في حديث: أنّ الضمير راجع إلى الشيء، ثمّ فسّره بأنّ وجه الشيء لا يهلِك ما يقابل منه إلى الله، وهو رُوحه وحقيقته ومَلَكوته، ومحلّ معرفة الله منه التي تبقى بعد فَناء جسمه وشخصه[٦].

ثمّ إنه تعالى بعد بيان ثبوت ذاته، بيّن ثبوت الحكم لنفسه في عالم الوجود بقوله: **﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾** والقضاء النافذ في كلّ شيءٍ، وفي جميع العوالم **﴿وَإِلَيْهِ﴾** وحده **﴿تُرْجَعُونَ﴾** عند البعث للجزاء بالحقّ والعدل، وقد استدلّت المُجسّمة بهذه الآية حيث أثبت سبحانه لنفسه الوجه[٧]، وبطلانه ظاهرٌ بحكم العقل والروايات السابقة.

الحمد لله على ما أنعم عليّ من التوفيق لإتمام تفسير السورة المباركة، وأسأله التوفيق لتفسير ما بقي من السور المباركات بمحمد وآله الطاهرين.

---

١. التوحيد: ٧/١٥١، تفسير الصافي ٤: ١٠٨.
٢. تفسير القمي ٢: ١٤٧، تفسير الصافي ٤: ١٠٩.
٣. الرحمن: ٢٦/٥٥ و٢٧.
٤. الاحتجاج: ٢٥٣، تفسير الصافي ٤: ١٠٩.
٥. تفسير روح البيان ٦: ٤٤٣.
٦. تفسير الصافي ٤: ١٠٩.
٧. تفسير الرازي ٢٥: ٢٤.



في تفسير سورة العنكبوت

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓم * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ[١ و ٢]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة القصص المتضمّنة لبيان افتتان قارون بالدنيا وحُطامها حتى عارض موسى ولقربه [منه] حتى خسف الله به وبداره الأرض مع كونه أقرأ بني إسرائيل للتوراة وأقرب جُلّهم من موسى، وبيان نهي النبيّ الذي كان معصوماً من الخطأ والزلل عن الافتتان بالمشركين ومواعيدهم مبالغة في زجر أتباعه منه، نُظمت سورة العنكبوت المبدوأة بإنكار حُسبان قبول دعوى الايمان من المؤمنين بغير افتتانهم بحبّ الدنيا وامتحانهم بالبلايا والشدائد حتى يتميّز المُخلص من المنافق والصادق في دعوته من الكاذب، والإخبار بأنّ دأبه تعالى من أوّل الدنيا امتحان المدّعين للايمان بالتكاليف والمِحَن وعدم قَبول دعوتهم بلا ظهور آثار الايمان فيهم من الصبر في طاعة الله وتحمُّل المشاقّ في جنب الله فابتدأ بذكر أسمائه بقوله: ﴿**بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ**﴾.

ثمّ لمّا كان لزوم اختبار حال المؤمنين في الخُلوص والنِّفاق من المطالب المهمّة النافعة، ذكر الحروف المقطّعات لتوجيه القلوب إلى استماعه بقوله: ﴿**الٓم**﴾ وقد مرّ تأويلها في الطُّرفة، ثمّ شرع سبحانه في بيان لزوم كون الايمان عن صميم القلب لا بظاهر القول بقوله: ﴿**أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ**﴾ وتوهّموا ﴿**أَن يُتْرَكُوا**﴾ ويُهملوا ولا يُؤاخذوا على عدم الايمان بمجرّد ﴿**أَن يَقُولُوا**﴾ بألسنتهم ﴿**آمَنَّا**﴾ بالله ﴿**وَ**﴾ برسوله وبدار الآخرة، والحال أن ﴿**هُمْ لَا يُفْتَنُونَ**﴾ ولا يُبتَلون بأنواع البلاء، ولايُمتَحَنون في إيمانهم بالشدائد ومشاقّ التكاليف حتى يظهر ثباتهم في الايمان وخُلوصهم في التوحيد.

وقيل: في وجه تعلّق السورة بما قبلها أنّه لمّا قال سبحانه في السورة السابقة: ﴿**ان الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد**﴾[١] وكان المراد أن يَرُدّه إلى مكّة ظاهراً غالباً على الكفّار، ظافراً طالباً

---

١. القصص: ٨٥/٢٨.

للثأر، وكان فيه احتمال مشاقّ القتال، وصَعُب على البعض ذلك، فقال سبحانه: **﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوا﴾** ولا يؤمروا بالجهاد[١].

وقيل: إنه لمّا قال في أواخر السابقة **﴿ادع إلى ربك﴾**[٢] وكان في الدعاء إليه الطِّعان والحراب، لأنّ النبيّ ﷺ وأصحابه كانوا مأمورين بالجهاد إن لم يؤمن الكفّار، فشقّ على البعض ذلك، فقال سبحانه: **﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾**[٣].

وقيل: إنّه لمّا قال في آخر السورة السابقة: **﴿كلّ شيء هالك إلّا وجهه﴾**[٤] ذكَر بعده ما يُبطِل قول المنكرين للحشر من قوله: **﴿له الحكم وإليه ترجعون﴾**[٥] يعني ليس كلّ شيءٍ هالكاً من غير رجوع، بل كلّ هالك وله رجوعٌ إلى الله، وكان من قول منكري الحشر إنّه لا فائدة في التكاليف إذا لم يكن رُجوعٌ ومعادٌ، فلمّا أثبت الله الرجوع، بيّن حُسن التكليف بقوله: **﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾** إلى آخره[٦]، وما ذكرنا أحسن الوجوه، ويمكن أن يكون وجه النّظم جميع الوجوه.

قيل: نزلت في قومٍ من المؤمنين كانوا بمكة، وكان كفّار قريش يؤذونهم ويعذّبونهم على الاسلام، وكانت صدورهم تضيق لذلك، ويَجْزَعون فتداركهم الله بالتسلية بهذه الآية[٧].

وقيل: إنّها نزلت في عمّار بن ياسر، وعياش بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام[٨]، وكانوا يُعَذَّبون بمكّة[٩].

أقول: هذان الوجهان يُوافقان القول بأن جميع السورة أو الآيات العشر من أولها مكية، كما عليه جمعٌ من المفسرين[١٠]. وأمّا على القول بأنّ جميعها أو عشر آيات من أولها مدنية، كما عليه آخرون فلا [يوافق الوجهين][١١].

وقيل: الآية نزلت في أقوامٍ بمكة هاجروا، فتبعهم الكفّار، فاستشهد بعضٌ ونجا الباقون[١٢].

وقيل: نزلت في مِهْجَع بن عبدالله، قُتِل يوم بدر، وكان أبواه وأقاربه يَجْزَعون عليه[١٣].

عن الصادق عليه السلام: «معنى يُفْتَنون يُبْتَلون في أنفسهم وأموالهم»[١٤].

وعن الكاظم عليه السلام أنّه قرأ هذه الآية، ثمّ قال: «ما الفتنة؟» قيل: الفتنة في الدين. فقال: «يُفْتَنون كما

---

١. تفسير الرازي ٢٥: ٢٥. ٢. القصص: ٢٨/٨٧. ٣. تفسير الرازي ٢٥: ٢٥.
٤. القصص: ٢٨/٨٨. ٥. القصص: ٢٨/٨٨. ٦. تفسير الرازي ٢٥: ٢٥.
٧. تفسير روح البيان ٦: ٤٤٤.
٨. في النسخة: مسلمة بن هشام، تصحيف انظر أُسد الغابة ٢: ٣٤١. ٩. تفسير الرازي ٢٥: ٢٧.
١٠. مجمع البيان ٨: ٤٢٥، تفسير القرطبي ١٣: ٣٢٣. ١١. مجمع البيان ٨: ٤٢٥، تفسير القرطبي ١٣: ٣٢٣.
١٢. تفسير الرازي ٢٥: ٢٨. ١٣. تفسير البيضاوي ٢: ٢٠٣.
١٤. مجمع البيان ٨: ٤٢٧، تفسير الصافي ٤: ١١٠.

يُفْتَن الذهب» ثمّ قال: «يُخَلَصون كما يُخَلَص الذهب»[١].

عن النبي ﷺ: لمّا نزلت هذه الآية قال: «لابُدّ من فتنةٍ تُبتلى بها الأمّة بعد نبيها، ليتعيّن[٢] الصادق من الكاذب، لأنّ الوحي قد انقطع وبقي السيف وافتراق[٣] الكلمة إلى يوم القيامة»[٤].

وفي (نهج البلاغة): قام رجل فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن الفتنة، وهل سألت رسول الله ﷺ عنها؟ فقال علي عليه السلام: «لما أنزل الله سبحانه: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ الآية، عَلِمت أنّ الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، فقلت: يا رسول الله، ما هذه الفتنة التي أخبرك الله بها؟ فقال: يا علي، إنّ أمّتي سَيفْتَنُون من بعدي. فقلت: يا رسول الله، أو ليس قلت لي يوم أُحد حيث استُشْهِد من استُشْهِد من المسلمين وحِيزت[٥] عنّي الشهادة فشقّ ذلك عليّ: ابشِر فانّ الشهادة من ورائك؟ فقال لي: إنّ ذلك كذلك، فكيف صبرك إذن؟ فقلت: يا رسول الله ليس هذا من مواطن الصبر، ولكن من مواطن البُشرى والشُكر. فقال: يا علي، سيُفْتَنُون بأموالهم، ويَمُنّون بدينهم على ربّهم، ويَتَمنّون رحمته، ويأمنون سَخَطه، ويستحلّون حرامه بالشهادة الكاذبة والأهواء الساهية فيستحلون الخمر بالنبيذ، والسُحت بالهدية، والربا بالبيع. قلت: يا رسول الله، فأيّ المنازل أُنزلهم [عند ذلك]، أبمنزلة ردّة أم بمنزلة فتنة؟ فقال: بمنزلة فتنة»[٦].

وعن الكاظم عليه السلام قال: «جاء العباس إلى أمير المؤمنين، فقال: انطلق يبايع[٧] لك الناس. فقال له أمير المؤمنين: أتراهم فاعلين؟ قال: نعم. قال: فأين قوله عز وجل ﴿الم * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ الآية»[٨].

وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَاذِبِينَ [٣]

ثمّ إنّه بعد إنكار ذلك الحُسبان الفاسد، بيّن عدم جوازه ببيان أنّ تفتين مُدّعي الايمان وعدم قبول دعواه مالم يقترن بالصبر على البأساء والضرّاء، دأبه القديم الذي لا يجوز تخلّفه منه تعالى بقوله: ﴿وَ﴾ بالله ﴿لَقَدْ فَتَنَّا﴾ وامتحنّا بالصبر على الشدائد المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ وفي الأعصار السابقة على عُصْرهم ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ﴾ وليُميزنّ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في دعواهم الايمان ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ﴾ وليميزنّ ﴿ٱلْكَاذِبِينَ﴾ فيه، فنَزّل سبحانه نفسه في إيجاد مُوجبات تميّزهم في الظاهر وفي نظرهم منزلة الجاهل الذي يُريد أن يعلم حال قلبهم وواقع إيمانهم مع كونه بالذات عالماً

---

١. الكافي ١: ٤/٣٠٢، تفسير الصافي ٤: ١١١.
٢. في النسخة: لتعيين.
٣. في النسخة: لافتراق.
٤. تفسير الصافي ٤: ١١٠.
٥. في النسخة: وخيّرت.
٦. نهج البلاغة: ٢٢٠ الخطبة ١٥٦، تفسير الصافي ٤: ١١٠.
٧. في تفسير القمي: انطلق بنا نبايع.
٨. تفسير القمي ٢: ١٤٨، تفسير الصافي ٤: ١١١.

بسرائرهم وضمائرهم.

وقيل: إنّ المعنى فليرينّ الله[١]. وقيل: يعني فليُظهِرنّ الله[٢]. وقيل: يعني فليُجازينّ الله، والكلّ على ذِكر المُسبّب وإرادة السبب[٣]. وقيل: إنّ ﴿يَعْلَمَنَّ﴾ محمولٌ على ظاهره[٤]، والمراد أنّ بالامتحان يتعلّق علمه بالواقع تعلقاً حالياً بعد ما كان تعلّقه تعلّقاً استقبالياً.

وفيه أنّه مبني على كون المعلومات عنده ﷻ حالياً واستقبالياً، ولا يكون ذلك إلاّ على فرض كونه تعالى محاطاً بالزمان، وهو باطلٌ قطعاً، فالموجودات في علمه تعالى كلّها في عرضٍ واحدٍ، والتقدّم والتأخر فيها إنّما يكون في نظرنا مع أنّ الظاهر أنه بالامتحان يستكشف ما هو موجود في الحال من صدق الايمان وكِذبه، لا ما يتحقّق بعد الامتحان. ويمكن أن يكون المعنى أنّ فتنة المؤمنين ليس لأجل عمله تعالى بواقع إيمان المدّعي له، فانّ الله تعالى ليعلم البتة صدق الصادق وكذب الكاذب.

قيل: لمّا كان المراد من الكاذبين المستديمين للكفر والمستمرين عليه، عبّر عنهم بصيغة الفاعل الدالّ على الثبوت، بخلاف الصادقين[٥] فانّ المراد منهم المؤمنون الذين كانوا قريبي العهد بالايمان.

وفيه: أنّ عنوان الكذب أيضاً كان حادثاً في ذلك الزمان، وإن كان كفرهم قديماً ومستمرّاً فيهم.

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ ٱللهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللهِ لَآتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ[٤ و ٥]

ثمّ أنكر على الكفّار حُسبانهم الأقبح من حُسبانهم الأول بقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ﴾.

قيل: إنّ المعنى: بل[٦] أظَنّ الكفار ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ﴾ بجوانحهم[٧] وجوارحهم ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ ويَفُوتونا إن لم نُعذّبهم في الحال على سيئاتهم، ليس الأمر كما يَحْسَبون، بل إنْ لم نُعذّبهم في الحال نُعذّبهم فيما بعد بحكم الإيعاد، فانّ الإمهال لا يستلزم الإهمال، فانّ التعجيل في المجازاة شُغل من يخاف الفوت ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ به من أنّ عصيانهم لا يستتبع عقوبة، ومخالفتهم لأحكام الله لا يستعقب عذاباً ونَكالاً، فانّ الحكم الحَسن مايحكُم به العقل، من أنّ الله الحكيم لايُهمل الناس، بل يجعل لهم أحكاماً وتكاليف ينتظم بها معاشهم ومعادهم، ومخالفتها موجبةٌ لاستحقاق العقاب، والحكيم يُعطي كلّ ذي حقٍّ حقّه، ولولا العقوبة على مخالفة الأحكام لكان جعلها بلا فائدة،

---

١. تفسير الرازي ٢٥: ٢٩.
٢. تفسير الرازي ٢٥: ٢٩.
٣. تفسير روح البيان ٦: ٤٤٦.
٤. تفسير الرازي ٢٥: ٢٩.
٥. تفسير الرازي ٢٥: ٢٩.
٦. تفسير أبي السعود ٧: ٣٠.
٧. في النسخة: بجوانحكم.

ولولا جعلها لكان خَلْق الناس عبثاً.

ثمّ حثّ سبحانه الناس على ترك السيئات والعمل بالطاعات بتخويفهم من إتيان يوم القيامة ودار الجزاء بقوله: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا﴾ ويتوقّع ﴿لِقَاءَ ٱللَّهِ﴾ وملاقاة دار جزائه، فليَجْهَد في ترك السيئات والقيام بالعبادات، وليُسارع إلى موجبات غُفران الله وثوابه، وليحذر ممّا يَسُوقه إلى عقاب الله ونكاله، وليستعدّ لإتيان أجل الله ويوم جزائه ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ وغاية زمان انقضاء الدنيا الذي عيّنه الله لفَنائها والله ﴿لَآتٍ﴾ وكائن.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «من كان يُؤمن بأنّه مبعوث، فانّ وعد الله لآتٍ من الثواب والعقاب»[1].

ولا يخفى على الله شيءٌ من أقوال الناس وأعمالهم ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأعمالهم وأحوالهم، فيجازيهم حسبما يستحقون، ولا يفوته شيءٌ، فبادروا العمل قبل الفوت.

وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ * وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ[٦ و ٧]

ثمّ بالغ في الحثّ على الطاعة بقوله: ﴿وَمَن جَاهَدَ﴾ نفسه بترك الشهوات، والصبر على الطاعات، وجاهد الكفّار بالسيف، والشيطان بدفع وساوسه ﴿فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ﴾ جهاداً نافعاً ﴿لِنَفْسِهِ﴾ وفائدته الدنيوية والأخروية عائدةٌ له لا تتعدّاه إلى الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ الخالق للموجودات ﴿لَغَنِيٌّ﴾ بالذات ﴿عَنِ﴾ الموجودات في ﴿ٱلْعَالَمِينَ﴾ ومنافعها، وإنما الموجودات في وجودها وبقائها وكمالها محتاجةٌ إلى فضله وإحسانه وفيضه.

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان عود فوائد مجاهدته وأعماله إلى نفسه إجمالاً، نبّه على أهمّ فوائدها العائدة إليه تفصيلاً بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدانية الله ورسالة رسوله والدار الآخرة ﴿وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿ٱلصَّالِحَاتِ﴾ المرضيّات عند الله المأتيات لوجهه ﴿لَنُكَفِّرَنَّ﴾ ونَسْتُرنّ عن الناس بل ﴿عَنْهُمْ﴾ أنفسهم ﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾ وقبائح أعمالهم التي صدرت في الدنيا عنهم بالغاً ما بلغ بمحوها عن دفاتر أعمالهم، لئلا يطّلع عليها أحدٌ حتى نفسه ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ على إيمانهم وأعمالهم ﴿أَحْسَنَ﴾ وأفضل جزاء ﴿ٱلَّذِى كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَعْمَلُونَ﴾ من الإقرار بالتوحيد، والقيام بالطاعات، وممّا هو لا عينٌ رأت، ولا أذن سَمِعت، ولا خَطَر على قلب أحدٍ.

---

١. التوحيد: ٥/٢٦٧، تفسير الصافي ٤: ١١١.

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[٨]

ثمّ لمّا كان أقوى الموانع من الايمان وطاعة الله رعاية مَيل الأقارب والأرحام خصوصاً الوالدين الذين كان الاحسان إليهم من أهمّ الواجبات والمحسّنات العقلية والشرعية، نهى سبحانه عن جعل نهيهما عن الايمان بالتوحيد مانعاً عنه بقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَانَ﴾ وأوجبنا عليه أكيداً أن يفعل ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾ ما يُعَدّ من غاية كونه ذا حسن ﴿حُسْناً﴾ وعين صلاح فضلاً عن الإطاعة والانقياد لهما ﴿وَ﴾ قلنا له: ﴿إِن جَاهَدَاكَ﴾ وجادلاك مع ذلك ﴿لِتُشْرِكَ بِى﴾ من الموجودات والأصنام ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ﴾ وبإلهيته ﴿عِلْمٌ﴾ وبرهان يفيده ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك، ولا تعين بأمرهما به فضلاً عن أمر غيرهما، فانّه لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق.

ثمّ هدّد سبحانه المشركين الضالّين والمضلّين بقوله: ﴿إِلَيَّ﴾ بعد الموت ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ أيّها الناس المطيعين والعُصاة والموحّدين والمشركين والضالّين والمضلّين لا إلى غيري ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ وأخبركم بعد الرجوع إليّ والحضور عندي ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من التوحيد والاشراك والضلال والاضلال بتعيين جزائكم، وما يترتّب على أعمالكم.

روي أنه لمّا آمن سعد بن أبي وقاص الزُهري، قالت له اُمّه حمنة بنت أبي سفيان بن اُمية بن عبد شمس: يا بُني، ما هذا الدين الذي أحدثت؟ لتَدَعن دينك، أو أذهب من الظلّ إلى الشمس، ولا آكل ولا أشرب من شيءٍ حتى ترجع من دين محمّد أو أموت فتُعيّر بي، فيقال لك: يا قاتل اُمّه فلم تأكل ولم تشرب ثلاثة أيام حتى جَهَدت، فقال لها: يا اُمّ، لو كان لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما كفرت، فكُلي وإن شئتِ فلا تأكلي، فلمّا رأت ذلك أكلت، فأمره الله في الآية أن يُحسِن إليها، ويقوم بأمرها، ويسترضيها فيما ليس بشرٍ ومعصيّة[١]، فنبّه سبحانه على حُكمين:

أحدهما: وجوب البرّ والاحسان بالوالدين وحُرمة عقوقهما.

روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «الجنّة تحت أقدام الاُمّهات»[٢].

وفي الحديث القُدسي: «من رضي عنه والده، فأنا عنه راضٍ».

والثاني، حُرمةُ إطاعتهما في معصية الله.

وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّالِحِينَ * وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٤٥٠.

٢. مجمع البيان ٨: ٤٣١.

يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ[٩ـ١١]

ثمّ بيّن سبحانه حال الموحّدين الذين فارقوا الأقارب والأرحام حُفظاً للدين، وطلباً لرضا ربّ العالمين بقوله: ﴿**وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا**﴾ بما جاء به النبيّ ﷺ ﴿**وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ**﴾ من رفض الشِّرك ومفارقة الأرحام لوجه الله ﴿**لَنُدْخِلَنَّهُمْ**﴾ في الآخرة ﴿**فِي**﴾ زمرة ﴿**ٱلصَّالِحِينَ**﴾ والموحّدين المقرّبين والمؤمنين الكُمّلين ولنعلينّهم في درجتهم، وتُنعِم عليهم بمصاحبتهم.

قيل: إن نُكتة ذكر المؤمنين الصالحين مرّتين أنّ النظر في الآية الأُولى إلى بيان حال المهتدين بعد بيان حال الضالّين، وفي الآية الثانية إلى بيان حال الهادين بعد ذِكر المضلّين، كالوالدين اللذين أُمرا[1] ولدهما بالشرك[2].

ثمّ لمّا ذكر سبحانه لُزوم امتحان المؤمنين بالبلاء ومشاقّ التكليف، لتمييز الصادق في دعوى الايمان عن الكاذب، بيّن حال الكاذب في دعوى الايمان عند ابتلائه بالفتن بقوله: ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ**﴾ وبعضهم ﴿**مَن يَقُولُ**﴾ بلسانه ﴿**ءَامَنَّا بِاللهِ**﴾ عن صميم القلب، كايمان المؤمنين الحقيقي ﴿**فَإِذَآ أُوذِيَ**﴾ من قِبَل الكفّار ﴿**فِي**﴾ سبيل ﴿**ٱللهِ**﴾ ولأجل الايمان به ﴿**جَعَلَ**﴾ وعد الأذيّة التي كانت ﴿**فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ**﴾ وامتحاناً له من قِبَلهم صارفة لنفسه عن الايمان مع ضَعْفها وانقطاعها ﴿**كَعَذَابِ ٱللهِ**﴾ الشديد الدائم، الذي هو صارف المؤمنين الخُلّصين من الكفر به، وجَزِعوا منها، ولذا يَنْصَرِفون من الايمان كما يَنْصَرِف الخُلّصون من الكُفر للخوف منه ﴿**وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ**﴾ لجيش المؤمنين على الكفّار ﴿**مِّن**﴾ قبل ﴿**رَّبِّكَ**﴾ وبرحمته ليقولن للمؤمنين تلبيساً عليهم وطمعاً في الغنيمة: ﴿**إِنَّا كُنَّا**﴾ موافقين ﴿**مَعَكُمْ**﴾ في الايمان، وتابعين لكم في الدين، فاشركونا في الغنائم.

ثمّ ردّهم الله بقوله: ﴿**أَوَلَيْسَ ٱللهُ**﴾ الخالق لكلّ شيءٍ ﴿**بِأَعْلَمَ**﴾ منكم ومن كلّ أحدٍ ﴿**بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَالَمِينَ**﴾ وقلوبهم من الايمان الخالص والنفاق حتى يقولوا ما يقولون من إظهار الايمان، ويفعلوا ما يفعلون من إبطان الكفر والنفاق، نعم ﴿**وَ**﴾ الله هو أعلم، وكذا ﴿**لَيَعْلَمَنَّ ٱللهُ**﴾ البتة إيمان ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا**﴾ عن صميم القلب والاخلاص ﴿**وَلَيَعْلَمَنَّ**﴾ نفاق ﴿**ٱلْمُنَافِقِينَ**﴾ ولا يلتبس عليه حالهم، وإن سكت المؤمن وتكلّم المنافق.

---

١. في النسخة: كالولدين الذين امروا.

٢. تفسير الرازي ٢٥: ٣٦.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ[١٢ و ١٣]

ثمَ لمَا بيَن الله معاملة الكفّار مع المؤمنين في ردّهم إلى الكفر، بيّن مكالمتهم معهم في ضلالهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكّة مخاطبين ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ردَعاً لهم من الايمان، واستمالةً لقلوبهم إلى الكفر ﴿ٱتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ واسلُكوا في الدين مسلكنا، وإن كان بعث وحشر ومؤاخذة، وفرض لكم خطيئة وذنب من جهة التديّن بديننا، فلنرفع عنكم آثامكم وذنوبكم ﴿وَلْنَحْمِلْ﴾ عنكم ﴿خَطَايَاكُمْ﴾.

فردَ الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِن شَيْءٍ﴾ وليسوا برافعين آثامهم من ظهورهم ﴿إِنَّهُمْ﴾ والله ﴿لَكَاذِبُونَ﴾ في وعدهم ذلك، لعدم قدرتهم على إنجازه. ﴿وَ﴾ البتة ﴿لَيَحْمِلُنَّ﴾ هؤلاء القائلون يوم القيامة ﴿أَثْقَالَهُمْ﴾ وأوزارهم التي عملوها في الدنيا ﴿وَأَثْقَالاً﴾ أخر ﴿مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ من جهة إضلالهم الناس، فيُعذّبون بضلال أنفسهم وإضلالهم غيرهم من غير أن يَنْقُص من عذاب الضالّين شيء، كما ورد في الحديث: «من سنّ سُنّةً سيئةً فعليه وِزر من عَمِل بها من غير أن يَنْقُص من وِزره شيء»[١]. ﴿وَ﴾ والله ﴿لَيُسْأَلُنَّ﴾ هؤلاء الكفّار المضلّين ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ سؤال تقريعٍ وتبكيتٍ ﴿عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ويختلقونه في الدنيا.

قيل: يقال لهم يوم القيامة: احملوا خطايا الذين أضللتموهم، فلا يحملون، فيسألون ويقال: لِم افتريتُم وكذّبتُم[٢]؟

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ[١٤ و ١٥]

ثمَ لمَا ذكر الله سبحانه سعي الكفّار في إضلال المؤمنين وإيذائهم لهم على الايمان، ودعوتهم إياهم إلى الكفر، وكان ذلك ثقيلاً على قلب حبيبه، سلّاه بذكر دعوة أُولي العزم من الرسل، ومخالفة أُممهم لهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ للدعوة إلى التوحيد والدين الحقّ ﴿نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ وهم أهل الدنيا.

---

١. مسند أحمد ٤: ٣٥٧. ٢. تفسير الرازي ٢٥: ٤١.

قيل: إنّه عليه السلام أول نبيّ بُعِث إلى عبدة الأصنام، لأنها حدثت في قوم[١] ﴿فَلَبِثَ﴾ ومكث نوح ﴿فِيهِمْ﴾ بعد الارسال، وهو يدعوهم إلى التوحيد ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً﴾ وهم لا يقبلون قوله، ولا يَلْتَفِتون إلى دعوته، بل كانوا يَشْتُمونه ويَضْربونه، وهو لا يَفْتر عن الدعوة، ولا يَنْكَل على تَحمّل أعباء الرسالة حتى يئس من إيمانهم، فدعا عليهم ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ فغرق من في الدنيا كلّها من الكفّار ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ومُصرّون على إهانة الله ورسوله، مبالغون في معاندة الحقّ ولو كانوا غير مصرّين على الكفر ومعاندة الحقّ لم يَغْرَقوا ولم يُعذّبوا، لكونه تعالى توّاباً رحيماً وأمّا نوحاً ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ من الطُّوفان والغرَق والابتلاء بمشاقّ الكَفَرة رحمةً منا ﴿وَ﴾ نجّينا ﴿أَصْحَابَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ أيضاً وأهلها الراكبين فيها معه من المؤمنين به من أولاده وأهله وغيرهم بواسطة السفينة التي صنعها بأمرنا ووحينا ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً﴾ ودلالة على التوحيد ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ حيث إنّها أول سفينة في الدنيا، وسائر السفن التي استدلّ بها سبحانه على توحيده علامة من تلك السفينة، أو المراد جعلنا نجاة نوح وأصحابه، أو قضيّته وواقعته عبرةً وعِظةً للخلق إلى يوم القيامة يتّعظون بها، ويعتبرون منها.

روي أنّ نوحاً بُعِث على رأس الأربعين، ودعا قومه تسعمائة وخمسين عاماً، وعاش بعد الطُّوفان ستّين سنة حتى كثُر الناس وفَشَوا، وذلك من أولاده حام وسام ويافث، لأنّ غيرهم لمّا خرجوا من السفينة ماتوا كلّهم، وكان عمره عليه السلام ألفاً وخمسين عاماً، وهو أطول الأنبياء عمراً، وهو أول من تنشقّ الأرض عنه بعد نبيّنا صلى الله عليه وآله[٢].

وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ وَٱتَّقُوهُ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَٱبْتَغُوا عِندَ ٱللهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلاَغُ ٱلْمُبِينُ [١٦ ـ ١٨]

ثمّ سلّاه سبحانه بذكر إبلاغ إبراهيم في نُصح قومه وعدم قبولهم دعوته بقوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ قيل: إنّ التقدير وأرسلنا إبراهيم، أو اذكره[٣] ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ وهي أهل بلدة بابل: يا قوم ﴿ٱعْبُدُوا ٱللهَ﴾ وحده، ولا تشركوا به شيئاً ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ وخافوا عذابه على الشرك ﴿ذٰلِكُمْ﴾ الذي قلت من التمحّض لعبادته

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٤٥٥.
٢. تفسير روح البيان ٦: ٤٥٦.
٣. تفسير الرازي ٢٥: ٤٣.

والاتقاء منه ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وانفع ممّا أنتم عليه من الاشراك به وعبادة الأصنام ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ شيئاً من الخير والشرّ، وتميّزون أحدهما من الآخر.

ثم أخذ في توبيخهم بقوله: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ﴾ وممّا سواه لجهلكم ونقص عقولكم ﴿أَوْثَاناً﴾ وأحجاراً منحوتةً لا عقل لها ولا قدرة، ولا نفعاً ولا ضرّاً ﴿وَتَخْلُقُونَ﴾ وتخترعون من عند أنفسكم ﴿إِفْكاً﴾ وكذباً فضيعاً شنيعاً حيث تسمّونها إله وشفعاء عند الله، مع أنّ الإله لابدّ أن يكون منعِماً على خلقه و ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ﴾ ولا يقدِرون على إعطائكم ﴿رِزْقاً﴾ قليلاً ﴿فَابْتَغُوا﴾ واطلبوا ﴿عِندَ ٱللهِ﴾ القادر على كلّ شيءٍ ﴿ٱلرِّزْقَ﴾ كلّه بعرفانه والتوجّه إليه ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾ وحده ﴿وَٱشْكُرُوه لَهُ﴾ على نَعمائه حتى يزيدكم النِّعم واعلموا أنكم بعد الموت ﴿إِلَيْهِ﴾ وإلى حكمه ﴿تُرْجَعُونَ﴾ فيثيبكم على طاعته وعبادته، ويعذّبكم على عصيانه ومخالفته، فعليكم أن تُصدّقوني فيما أمرتكم ممّا فيه خيركم في الحياة وبعد المماة ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا﴾ نبي فيما أخبركم به، فليس تكذيبكم إيّاي بأمرٍ بديعٍ، وما هو بضارٍّ علي ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ﴾ وجماعاتٌ كانوا ﴿مِّن قَبْلِكُمْ﴾ أنبياءهم كشيث وإدريس ونوح، فما أضروهم شيئاً، وإنّما أضرّوا أنفسهم بتعريضها للعذاب والهلاك ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ﴾ المرسَل من قبل الله ﴿إِلَّا ٱلْبَلاَغُ ٱلْمُبِينُ﴾ وإرشاد الخلق إلى الحقّ ببيانٍ واضحٍ لا يبقى معه الشكّ، وما عليه أن يصدّق ولا يكذّب، وقد خرجوا وخرجت عن عُهدة ما أمرنا به بما لا مزيد عليه، فليس علينا مجال مسئولية ومؤاخذة، وإنما المسؤولية والمؤاخذة لكم.

أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى ٱللهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ إِنَّ ٱللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلاَ فِى ٱلسَّماءِ وَمَا لَكُم مِن دُونِ ٱللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ [١٩ ـ ٢٢]

ثمّ لمّا ذكر إبراهيم عليه السلام لقومه التوحيد والمعاد، وكان كفّار مكّة منكرين للبعث، استدلّ سبحانه لهم عليه بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ ولم يعلموا علماً جارياً مجرى العِيان في الجلاء والظهور ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ﴾ ويُوجِد ﴿ٱللهُ﴾ بلا سابقة ﴿ٱلْخَلْقَ ثُمَّ﴾ اعلموا أنّه ﴿يُعِيدُهُ﴾ بعد كونه رميماً قياساً على الإبداء ﴿إِنَّ ذٰلِكَ﴾ المذكور من الإعادة ﴿عَلَى ٱللهِ يَسِيرٌ﴾ وسهل لا نَصَب فيه بوجه.

ثمّ أكدّ سبحانه ذلك الدليل بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد، لمنكري البعث: ﴿سِيرُوا﴾ وسافروا ﴿فِى﴾

أقطار ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ وجوانبها ﴿فَانظُرُوا﴾ بنَظَر التفكّر والاعتبار ﴿كَيْفَ بَدَأَ﴾ الله وأوجد ﴿ٱلْخَلْقَ﴾ ابتداءً على كَثْرتهم واختلاف أشكالهم وأحوالهم وأخلاقهم ﴿ثُمَّ﴾ إذا عَلِمتم بدء الخلق عَلِمتم أنّ القادر الذي هو ﴿ٱللَّهُ﴾ بقدرته ﴿يُنشِئُ﴾ ويُوجِد هؤلاء فينشؤون ﴿ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ ويحيون حياة ثانية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الابداء والإعادة وغيرهما ﴿قَدِيرٌ﴾.

وإنّما قدّم ذِكْر العذاب لأنّ المقصود ترهيب مُنكري البعث، وكان ذَكَر الرحمة تبعاً، ثمّ سدّ باب غُرورهم بتأخير عذابهم بقوله: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ تعذيبه، وهم المشركون المنكرون للبعث ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ رحمته، وهم الموحدون المُقرّون بالبعث ﴿وَإِلَيْهِ﴾ وحده إلى حُكمه ﴿تُقْلَبُونَ﴾ وتُردّون فيفعل بكم ما يُريد ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ له وخارجين من سلطانه وإن هَرَبتم ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الواسعة وتواريتم فيها ﴿وَلَا﴾ بالتحصّن ﴿فِي ٱلسَّمَاءِ﴾ التي هي أوسع منها، فانّه يُدرككم لا محالة، ويُجري عليكم حُكمه وقضاءه ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ ومُحِبّ يفدي لكم في دفع العذاب عنكم نفسه وماله، ويشفع لكم عند الله ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ومُعين يَحْرُسكم بقوته ممّا يُصيبكم من البلاء. قيل: إنّ الوليّ هو الذي يدفع المكروه، والنصير هو الذي يأمر بدفعه[١].

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [٢٣ و ٢٤]

ثمّ إنّه تعالى بعد تهديد الكفّار إجمالاً بالعذاب المُبهَم، هدّد خصوص المشركين المنكرين للحشر بالعذاب مفصّلاً بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ﴾ توحيد ﴿ٱللَّهِ﴾ ودلائله، ﴿وَ﴾ كفروا بـ﴿لِقَائِهِ﴾ والحضور عنده في المحشر لجزاء الأعمال ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الكافرون بالخصوص ﴿يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾ وفضلي، وانقطع رجاؤهم من ألطافي بشركهم ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ بالخصوص ﴿لَهُمْ﴾ بالاستحقاق ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بإنكارهم المعاد.

ثمّ إنّه تعالى بعد دعوة كفّار مكّة إلى الايمان بالمعاد والاستدلال عليه، وتهديدهم على الكفر به، عاد إلى بيان قصّة إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ له ومقالهم بعد استماع دعوته ونُصحه ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ الرؤساء لأتباعهم، أو بعضهم لبعض تجمّعوا على إبراهيم و ﴿ٱقْتُلُوهُ﴾ بالسيف، أو الحجارة ﴿أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ بالنار، وانصروا آلهتكم، فاختاروا إحراقه، فألقوه في النار ﴿فَأَنجَاهُ ٱللَّهُ مِنَ﴾

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٤٦٠.

أذى ﴿ٱلنَّارِ﴾ بأن جعلها برداً وسلاماً ورَوحاً وريحاناً ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الإنجاء الخارق للعادة بحِفْظه من حَرّها وإخمادها مع غاية عِظَمها بالفوز عَقيب إحراق الحَبْل الذي أوثقوه بـه وإنشاء الرّوض مكانها ﴿لَأَيَاتٍ﴾ عجيبة ودلائل واضحة على توحيد الله وألطافه بأوليائه ونُصرته لهم على أعدائهم ﴿لِقَوْمٍ﴾ يلتفتون إلى الآيات، ويتفكّرون فيها، وينتفعون بها، وهم الذين ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بالله وبآياته، لا الكافرون الذين لا يعلمون إلّا ظاهر الحياة الدنيا.

وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِن دُونِ ٱللهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِن نَّاصِرِينَ * فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّى إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ[٢٥ ـ ٢٧]

ثمّ إنه تعالى بعد النجاة من النار اخذ في نصح قومه ﴿وَقَالَ﴾ يا قوم ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم﴾ واخترتُم العبادة ﴿مِن دُونِ ٱللهِ﴾ وممّا سواه ﴿أَوْثَاناً﴾ وأحجاراً منحوتةً لتَحْفَظوا ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ والتحابب والتواصل فيكم باجتماعكم على عبادتها، أو المراد مودّتكم للأوثان أو لآبائكم الذين كانوا يَعْبُدون، لا لقيام برهان عندكم على جوازها، واعلموا أنّ تلك المودّة باقيةٌ فيكم ﴿فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ومدّة أعماركم فيها ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ يتبدّل التوادّ بالتباغض، والتواصل بالتباعد، حيث ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم﴾ وهم الأتباع أو العَبَدة ﴿بِبَعْضٍ﴾ وهم الرُّؤساء والمُتَّبَوعون، أو الأوثان، ويتبرأ كلٌّ مِن كُلٍّ.

عن الصادق عليه السلام: «يعني يتبرأ بعضكم من بعض»[١] ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم﴾ من الاتباع أو العَبَدة ﴿بَعْضاً﴾ الآخر من المتبوعين، أو الأوثان.

عن الصادق عليه السلام: «ليس قوم ائتمّوا بإمامٍ في الدنيا إلّا جاء يوم القيامة يلعنهم ويلعنونه إلّا أنتم ومن كان على مثل حالكم»[٢].

﴿وَمَأْوَاكُمُ﴾ ومنزلكم جميعاً العابدون والمعبودون، والتابعون والمتبوعون ﴿ٱلنَّارُ﴾ فانّها مَقرّكم الذي تأوون إليه، ولا تَرجِعون منه أبداً ﴿وَمَا لَكُم مِن نَّاصِرِينَ﴾ يُخَلّصونكم منها، كما خلّصني ربّي من النار التي ألقيتموني فيها ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ بعد رؤية معجزاته. قيل: هو ابن أخيه[٣]. وقيل: ابن

---

١. الكافي ٢: ١/٢٨٨، تفسير الصافي ٤: ١١٤.
٢. الكافي ٨: ١٢٢/١٤٦، تفسير الصافي ٤: ١١٥.
٣. تفسير البيضاوي ٢: ٢٠٧، تفسير أبي السعود ٧: ٣٧.

اخته[١]. وقيل: ابن خالته[٢]. فلمّا يأس من إيمان القوم عَزَمَ على الخروج من ذلك البلد ﴿وَقَالَ﴾ للوط وزوجته سارة ﴿إِنِّى﴾ تارك لقومي و ﴿مُهَاجِرٌ﴾ من هذه البلدة ﴿إِلَىٰ رَبِّى﴾ وذاهب إلى حيث امرني إلهي اللطيف بي ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره، فيَحْفَظني من أعدائي ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يأمُرني إلّا بالذهاب إلى مكانٍ فيه صلاحي.

روي أنّ إبراهيم أول من هاجر، ولكلّ نبيٍ هجرة، ولابراهيم هجرتان؛ فانّه هاجر من كُوثى ـ وهي قرية من سواد الكوفة ـ مع لوط وسارة إلى حران، ثمّ منها إلى الشام فنزل فلسطين ونزل لوط سَدُوم[٣].

قيل: إنه كان له حين هجرته خمس وسبعون سنة[٤].

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ من سارة وهي عجوز عاقر ﴿إِسْحَاقَ﴾ من صلبه ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ من إسحاق حين أيس إبراهيم من الولادة من نفسه، فانّه كان له حينئذٍ عشرون ومائة سنة، ومن زوجته العجوزة العاقر، ولذا لم يذكُر إسماعيل، لأنّ ولادته لم تكن على خلاف العادة. وقيل: إنّه ولد قبل هجرته، وكان سنّه عليه السلام حين ولادته خمساً وسبعين سنة.

وقيل: إنّ إسماعيل كان داخلاً في ذُرّيته المذكورة في الآية، حيث قال: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَابَ﴾ وإنما لم يُصرّح باسمه لأنّ الغرض بيان التفضُّل عليه بالأولاد والأحفاد، فذَكَر من أولاده واحداً، ومن أحفاده واحداً من باب ذكر الواحد وإرادة الجنس، لا لخصوصيةٍ فيه، ولو ذَكَر غيره لفُهِم منه التعديد واستيعاب الكلّ، فيُظَنّ أنّه ليس له غير المذكورين[٥]، مع أنّه كان له عليه السلام على ما روي أربع بنين: إسماعيل من هاجر، وإسحاق من سارة، ومَدين ومداين من غيرهما[٦].

﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ﴾ ونَسْله من بني إسماعيل وبني إسرائيل ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾ إلى يوم القيامة ﴿وَٱلْكِتَابَ﴾ السماوي من التوراة والانجيل والقرآن والصُّحف ﴿وَآتَيْنَاهُ﴾ وأعطيناه ﴿أَجْرَهُ﴾ على هُجرته إلينا ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ وهو إعطاؤه الولد في غير أوانه، والمال الكثير ، والذرية الطيبة التي من جُملتهم خاتَم الأنبياء وسيّد الأوصياء وعترتهما الطاهرة، وإنتماء أهل المِلل إليه، والثناء والصلاة عليه إلى آخر الدهر.

قيل: إنّ الله قسّم الزمان قسمين؛ فجعل في القسم الأول، وهو أكثر من أربعة آلاف سنة النبوة في أولاده من إسحاق، وبعث منهم أنبياء كثيرة لهم فضائل جمة، وجعل في القسم الثاني النبوّة في ذُرّيته

---

١. جوامع الجامع: ٣٥٢، تفسير روح البيان ٦: ٤٦٣.
٢. علل الشرائع: ٥٤٩/٤، تفسير الصافي ٤: ١١٥.
٣. تفسير روح البيان ٦: ٤٦٣، وسَدُوم: مدينة من مدائن قوم لوط كان قاضيها يقال له: سدوم.
٤. الكشاف ٣: ٤٥١، تفسير روح البيان ٦: ٤٦٣.
٥. تفسير الرازي ٢٥: ٥٦ و٥٧.
٦. تفسير روح البيان ٦: ٤٦٣.

من إسماعيل، وهو محمد، فجمع فيه ما كان في جميع الأنبياء، وختم به النبوة، وأرسله إلى كافَة الناس إلى يوم القيامة[١].

وقيل: إنّ من أجره بقاء ضيافته حيث إنَه كان يُحِبّ الضيافة، فجعل الله الخَلق أضيافه إلى آخر الدهر[٢].

﴿وَإِنَّهُ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾ والراقين في أعلى مراتب العبودية، وأكمل درجات الإنسانية.

وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ * أَءِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ * وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَابِرِينَ * وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَابِرِينَ[٢٨ - ٣٣]

ثمّ ذكر سبحانه قصّة لوط وكيفية دعوته ونُصحه لقومه وجوابهم إيّاه بقوله: ﴿وَلُوطاً﴾ قيل: إنّه معطوف على ﴿أرسلنا﴾[٣]. وقيل: إنّ التقدير واذكُر يا محمد لوطاً ﴿إِذْ قَالَ﴾ نُصحاً ﴿لِقَوْمه﴾ وانكاراً عليهم القبائح الدائرة بينهم بعد دعوتهم إلى التوحيد: يا قوم ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾ وترتكبون الخَصْلة ﴿ٱلْفَاحِشَةَ﴾ والفِعلة المتناهية في القُبح مع أنها لِنهاية قُبحها ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾ وما أرتكبها من قبلكم ﴿مِنْ أَحَدٍ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ﴾ وأنتم ارتكبتموها لخباثة طينتكم ورذالة طبيعتكم.

قيل: لم يَنْزُ ذَكَرٌ على ذَكَرٍ قبل قوم لوط قطّ[٤].

وقيل: إنّ المراد مِن سَبْقهم على أهل العالم فيها إكثارهم منها، كما يقال سبق فلان البخلاء في البُخل إذا زاد عليهم[٥].

ثمّ بيّن الفاحشة بقوله: ﴿أَءِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ وتَنْكِحونهم ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ والطريق

---

١. تفسير الرازي ٢٥: ٥٧.

٢. تفسير روح البيان ٦: ٤٦٤.

٣. مجمع البيان ٨: ٤٤٠..

٤. تفسير روح البيان ٦: ٤٦٤.

٥. تفسير الرازي ٢٥: ٥٨.

المعتاد السلوك للناس، وتتعرّضون للمادة بالفاحشة. روي أنّهم كانوا كثيراً ما يفعلونها بالغُرباء، ويَجْبُرونهم عليها، أو تقطعونها بالقتل وأخذ المال[١].

قيل: كانوا يفعلون ذلك، لأن لا يدخلوا بلدهم، ولا يتناولوا من ثِمارهم[٢].

وقيل: يعني تقطعون سبيل النسل بالإعراض عن النساء اللّاتي هُنّ حَرثٌ، وقضاء الشهوة بالرجال الذين ليسوا بحرث[٣].

﴿وَتَأْتُونَ﴾ وتفعلون ﴿فِي نَادِيكُمُ﴾ ومجلسكم الذي تجتمعون فيه من غير مبالاة ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ وما يحكم العقول بقُبحه من اللِّواط أو الضُّراط، كما عن الرضا عليه السلام، قال: «كانوا يتضارطون في مجالسهم من غير حِشمةٍ ولا حَياء»[٤] أو ضرب الأوتار والمزامير والسُّخرية بمن يَمرّ بهم[٥]، أو الحذف[٦] بالحصى، كما عن النبي صلّى الله عليه وآله.

قيل: كانوا يجلسون على الطريق، وعند كلّ واحدٍ قَصْعةٍ فيها حصى، فمن مرّ بهم حَذَفوه، فمن أصابه منهم فهو أحقّ به، فيأخُذ ما معه ويَنْكِحه ويُغرّمه ثلاثة دراهم[٧].

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ إيّاه ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ ما نترُك عملنا ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللهِ﴾ الذي تَعِدنا ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾ في دعوى رسالتك ووعدك، فلمّا يئس لُوط من إيمانهم وقَبولهم نُصحه، ناجى ربّه و﴿قَالَ﴾ متضرّعاً إليه: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ بإنزال العذاب ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض بأعمالهم وعقائدهم، وأنت لا تُحبّ الفساد. فاستجاب الله دعاءه، فأرسل جَبْرَئيل مع عدّةٍ من الملائكة لإهلاكهم، وأمرهم بأن يجيئوا إلى إبراهيم عليه السلام ويُبشّره بإسحاق.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا﴾ له في تضاعيف كلامهم: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ التي يقال لها سَدُوم ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ على أنفسهم بالكُفر والطغيان. ﴿قَالَ﴾ إبراهيم إشفاقاً على الخَلْق ومجادلة عنهم: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطاً﴾ ولا يُعذّب أهل بلد وفيهم مُؤمنٌ، فكيف تُهلِكون أهل سَدُوم؟ ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ﴾ من كلّ أحدٍ ﴿بِمَن فِيهَا﴾ ولسنا بغافلين عن لوط، والله ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ وأتباعه المؤمنين، ولنُخرجنّهم منها ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ الكافرة، فإنّها ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَابِرِينَ﴾ والباقين في القرية والعذاب ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ المذكورون بعد مفارقة إبراهيم عليه السلام ﴿لُوطاً﴾ في قرية سَدُوم على صورة شُبّانٍ مُردٍ حِسانِ الوجوه، عليهم ثياب حَسَنة

---

١ ـ٣. تفسير روح البيان ٦: ٤٦٥.
٤. مجمع البيان ٨: ٤٤٠، تفسير الصافي ٤: ١١٦.
٥. تفسير روح البيان ٦: ٤٦٥.
٦. عوالي اللآلي ١: ٧٢/٣٢٧، تفسير الصافي ٤: ١١٦.
٧. تفسير روح البيان ٦: ٤٦٥.

فاجِرة، ولهم ريح طيبة، ظنّ أنّهم من الإنس، وكان يعلم من حال قومه أنّهم يتعرّضون له بالفاحشة، ولذا ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾ واعتراه اضطرابٌ وخوفٌ بسببهم، وتحيّر في شأنهم وتدبير أمرهم ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً﴾ ورأى نفسه عاجزة عن الدفاع عنهم، وعن حِفظهم من تعدّي القوم.

فلمّا رأى الملائكة فيه أثر المَلال والضَّجرة سَلَوه ﴿وَقَالُوا﴾ له: يا لوط ﴿لَا تَخَفْ﴾ علينا، ولا على أحدٍ من أهلك ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ لورودنا عليك وابتلائك بشأننا، أنّا رسل ربّك لإهلاك قومك و ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ وخاصّتك ممّا يُصيب قومك من العذاب ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ الكافرة، فانّها ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَابِرِينَ﴾ والباقين في العذاب، أو في القرية، أو من المُهْلَكين.

إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ ٱلسَّماءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ[٣٤و ٣٥]

ثمّ إنّهم بعد بشارته بنجاة نفسه وأهله، أخبروه بنزول العذاب على قومه بقوله: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ﴾ البتة ﴿عَلَىٰ أَهْلِ هٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ والبلدة، وكانت عدّتهم على ما قيل سبعمائة ألف رجل[١] ﴿رِجْزاً﴾ وعذاباً شديداً ﴿مِنَ ٱلسَّماءِ﴾ بأمر الله ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ويفعلون المنكرات، ثمّ أمروه بالخروج من البلد وإخراج بناته منها، فلمّا خرجوا رفع جَبْرَئيل المدينة وما فيها بأحد جَناحية، وجعل عاليها سافلها، وانصبّت الحجارة عليها، أو على من كان من أهلها غائباً عنها، فصارت القرية المخروبة عِبرة لأهل العالم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا﴾ أثرها الباقي ﴿مِنْهَا﴾ وهو الجُدد الخَربة والعمارات المنهدمة ﴿آيَةً بَيِّنَةً﴾ وعِبرة واضِحة نافِعة ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ويُدْرِكون العِبَر، ويتأمّلون فيها.

قيل: إنّ العِبرة الباقية من القرية هي الحجارة الممطورة التي كان على كلّ واحدٍ منها اسم من أصابه، فانّها كانت باقية مُدّة مَديدة، وأدركها أوائل هذه الأمّة[٢].

وقيل: كانت ظهور الماء الأسود على وجه الأرض حين خسف بهم، وكان مُنْتِناً بحيث يتاذّى الناس برائحته من المسافة البعيدة[٣].

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَاقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ وَٱرْجُوا ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * وَعَاداً وَثَمُودَا وَقَد تَبَيَّنَ لَكُم مِن مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ

١ـ٣. تفسير روح البيان ٦: ٤٦٧.

أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ * وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ[٣٦ـ٣٩]

ثمّ ذكر سبحانه قصّة شُعيب ودعوته قومه وتكذيبهم إياه بقوله: ﴿وَإِلَىٰ﴾ أهل بلد ﴿مَدْيَنَ﴾ أرسلنا ﴿أَخَاهُمْ﴾ ومن هو من نسبهم، كان اسمه ﴿شُعَيْباً﴾ ليدعوهم إلى التوحيد والطاعة ﴿فَقَالَ﴾ لهم بطريق الدعوة ﴿يَاقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ﴾ وحده، ولا تشركوا به شيئاً ﴿وَٱرْجُوا﴾ وتوقّعوا ﴿ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ الذي لا يوم بعده، لأنّه لا ليل بعده، وهو يوم القيامة ويوم الجزاء، وانتظروا ما يقع فيه من فنون الأحوال والأهوال، واعملوا الأعمال التي تنتفعون بها فيه، وتأمنون بها من العذاب ﴿وَلَا تَعْثَوْا﴾ ولا تُفسِدوا ﴿فِى﴾ هذه ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ التي تَسكُنونها بتنقيص المِكيال والميزان، وتضييع الحقوق حال كونكم ﴿مُفْسِدِينَ﴾ و مبالغين في الافساد، وقيل: إنّ (مفسدين) بمعنى الفساد[1]، والمعنى: لا تُفسِدوا فساداً، ويُحتَمل أن يكون العثو بمعنى الحركة بالتجريد عن الفساد.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في إخباره بتوحيد الله، وقيام الحشر، وقُبح الفساد ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ والزّلزلة الحاصلة من صَيحة جَبْرَئيل عقوبة على تكذيبهم، حتّى تقطّعت قلوبهم، وتهدّمت عليهم دُورهم ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ وصاروا ﴿فِى دَارِهِمْ﴾ وبيوتهم، أو بلدهم ﴿جَاثِمِينَ﴾ وميّتين غير متحرّكين.

﴿وَ﴾ أهلكنا ﴿عَاداً﴾ قوم هود ﴿وَثَمُودَ﴾ قوم صالح ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ﴾ وظهر ﴿لَكُم﴾ يا أهل مكة إهلاكنا إيّاهم ﴿مِن﴾ بقية آثار ﴿مَسَاكِنِهِمْ﴾ الخربة في اليمن والحجر بالنظر إليها في أسفاركم ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ﴾ بتسويلاته ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ القبيحة من فنون الكفر والمعاصي، وحسّنها في أعينهم ﴿فَصَدَّهُمْ﴾ وصرفهم ﴿عَنِ﴾ سلوك ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ الذي أُمروا بسلوكه. وهو التوحيد الموصل إلى كُلّ خير ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ ومتمكّنين من النّظر والتفكّر في آيات التوحيد، ولم يفعلوا ﴿وَقَارُونَ﴾ الذي كان له شَرَف النَّسب وكُنوز من الأموال ﴿وَفِرْعَوْنَ﴾ الذي كان له سَلَطنة مصر ﴿وَهَامَانَ﴾ الذي كان وزيره وأخصّ خواصّه.

ثمّ بيّن سبحانه علّة إهلاكهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ﴾ رسولاً من قبلنا متلبّساً ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والمعجزات الباهرات، فدعاهم إلى الإقرار بتوحيدنا، والانقياد لأوامرنا ونواهينا ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ وتعظّموا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وتأنّفوا عن قبول الحقّ والايمان به في مملكة مِصر، فعذّبناهم أشدّ العذاب

---

١. تفسير الرازي ٢٥: ٦٥.

﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ وفائتين منّا ومعجزين لنا عن عذابهم.

فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلٰكِن كَانُوا أنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ[٤٠ و ٤١]

ثمَ فصّل وشرح كيفية إهلاك الأمم المذكورين بقوله: ﴿فَكُلّاً﴾ منهم ﴿أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ وعاقبناه بجنايته ﴿فَمِنْهُم مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً﴾ وريحاً شديداً حاملاً للحصَى كقوم عاد ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ كقوم ثمود وأهل مَدين ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ كقارون وأتباعه ﴿وَمِنْهُم مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ في الماء كقوم نوح وفرعون وأتباعه ﴿وَمَا كَانَ ٱللهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بما فعل بهم، بل كان يعدِل فيهم ﴿وَلٰكِن كَانُوا أنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر والطُّغيان وتكذيب الرُّسل.

ثمَ لمّا كان المهلكون من المشركين، بيّن بطلان مذهبهم بقوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا﴾ واختاروا لأنفسهم ﴿مِن دُونِ ٱللهِ أَوْلِيَاءَ﴾ وأحبّاء، أو انصاراً، وآلهة، وصفتهم العجيبة ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ وحالها العجيبة فانّها ﴿ٱتَّخَذَتْ﴾ لنفسها ونَسَجت من لُعابها ﴿بَيْتاً﴾ لا جِدار له ولا سقف، ولا يدفع الحرّ ولا البرد ولا المطر، فكذلك الأصنام لا تملِك لعابديها نفعاً ولا ضرّاً، و[لا] خيراً ولا شراً، فمن اعتمد عليها كان كمن أعتمد على بيتٍ لا أساس له ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾ وأضعفها ﴿لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ فانّه أقرب إلى الانهدام من غيره، لأنّه ينهدم بأخفّ الأرياح، كما أنّ مذهب الشرك يبطُل بأدنى التفكّر، إنّهم ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ شيئاً لعلموا ذلك، أو لعلموا مطابقة المثل للمُمثّل له وغاية حسنه وفائدته.

قيل: إنّ العنكبوت كلّما نسجت حولها بنت لنفسها محبساً، ولأرجلها قيوداً، كما أن المشركين كلّما عبدوا غير الله سووا لأيديهم وأرجلهم سلاسل وأغلالاً، وجعلوا الدنيا والآخرة لأنفسهم محبساً[1].

إِنَّ ٱللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا ٱلْعَالِمُونَ * خَلَقَ ٱللهُ ٱلسَّماوَاتِ

١. تفسير روح البيان ٦: ٤٧١.

وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ[٤٢ـ٤٤]

ثمَ أكدَ سبحانه عدم فائدة الأصنام، وهدّدهم على عبادتها بقوله: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ**﴾ وحقيقته وكُنهه ﴿**وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ**﴾ الغالب القادر على الانتقام من أعدائه ﴿**ٱلْحَكِيمُ**﴾ في فِعاله من عقوبتهم وإمهالهم.

ثمَ لمّا كان المشركون يعترضون على القرآن باشتماله على المثل بالعنكبوت والذُّباب، ردّهم الله بقوله: ﴿**وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا**﴾ تنبيهاً ﴿**لِلنَّاسِ**﴾ وتوضيحاً لهم المطالب العالية وتقريباً لما بَعُد عن أفهامهم، وما يفهم حسن تلك الأمثال وفائدتها ﴿**وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا ٱلْعَالِمُونَ**﴾ والمُدركون لحُسن الأشياء والمتدبّرون فيها.

ثمَ استدلَ سبحانه على توحيده بقوله: ﴿**خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ**﴾ وأبدعهما ملتبَساً ﴿**بِٱلْحَقِّ**﴾ والغرض الصحيح والحكمة البالغة، لا عبثاً، ولا لَعِباً، فانّهما مع اشتمالهما على المنافع الدنيوية المربوطة بمعاش الخلق، شواهد دالة على وحدانيته، وكمال قدرته، وحكمته، وسائر صفاته، كما قال سبحانه: ﴿**إِنَّ فِى ذَٰلِكَ**﴾ الخلق العظيم المعجب ﴿**لَآيَةً**﴾ عظيمة، ودلالةٌ واضحةٌ على شؤونه الجليلة، وإنّما هي نافعة ﴿**لِّلْمُؤْمِنِينَ**﴾ لأنّهم المتدبّرون فيها، المدركون لدلالتها، الناظرون بنور الله في عجائبها ووجوه حكمها.

ٱتْلُ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَاةَ إِنَّ ٱلصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ[٤٥]

ثمَ إنّه تعالى بعد إثبات توحيده للمؤمنين، أمرهم بأهم الأعمال وأنفعها، بأمر نبيّه المعظَم بها، إظهاراً لعِظَم شأنها بقوله: ﴿**ٱتْلُ**﴾ يا محمد ﴿**مَا أُوحِىَ**﴾ وأُنزل ﴿**إِلَيْكَ**﴾ بتوسّط جَبْرَئيل ﴿**مِنَ ٱلْكِتَابِ**﴾ السماويَ والقرآن العظيم، وأقرأه لنفسك متحفّظاً لنظمه، ومتدبّراً في معانيه وحقائقه ودقائقه ورقائقه وجهات إعجازه، ليزيدك نوراً على نورٍ، وعلى الناس لتهديهم به إلى الحقّ وصراط مستقيم، وتحملهم على العمل بما فيه من الأحكام والآداب ومحاسن الاخلاق.

روي أنّ عمر أُتي بسارق فأمر بقطع يده، فقال: لم تقطع يدي؟ قال: بما أمر الله في كتابه. فقال: اتلُ عليّ. فقال: ﴿**والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم**﴾[١] فقال السارق: والله ما سَمِعتها، ولو سَمِعتها ما سرقت[٢].

---

١. المائدة: ٣٨/٥.   ٢. تفسير روح البيان ٦: ٤٧٣.

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «من قرأ القرآن وهو قائم في الصلاة، كان له بكلّ حرفٍ مائة حسنة، ومن قرأ وهو جالس في الصلاة، فله بكلّ حرفٍ خمسون حسنة، ومن قرأ وهو في غير الصلاة وهو على وضوء، فخمس وعشرون حسنة، ومن قرأ على غير وضوء فعشر حسنات»[١].

وإنّما قدّم تلاوة الكتاب لما فيه من المعارف والعلوم، وازدياد اليقين بصحة دين الاسلام، وإحياء القلب ونورانيّته، ثمّ أردفها بالأمر بأهمّ الواجبات بقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وداوم عليها متحفظاً لأركانها وأجزائها وشرائطها وآدابها.

ثمّ بيّن سبحانه علّة الأمر بقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بالخاصية وبتأثيرها في نورانية القلب وزيادة القُرب من الله ﴿تَنْهَىٰ﴾ وتمنع المصلّي ﴿عَنِ﴾ ارتكاب ﴿ٱلْفَحْشَاءِ﴾ والمعاصي الكبيرة ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ والصغيرة، فانّ من تنوّر قلبه بالمعرفة، وعَلِم أنّه يحضُر في مقام إظهار العبودية لخالقه وربّه في كلّ يوم خمس مرات، ويُكالمه يتكلّم[٢] ربّه معه، استحيى من ارتكاب ما يُوجِب غضبه تعالى عليه وإعراضه تعالى عنه.

وفي الحديث: «من لم تَنْهَه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم يَزْدَد من الله إلّا بُعداً»[٣].

روي أنّ فتىً من الأنصار كان يُصلّي مع رسول الله صلّى الله عليه وآله الصلوات الخمس، ثمّ لا يَدَع شيئاً من الفواحش إلّا رَكِبه، فوصف للرسول صلّى الله عليه وآله فقال: «إنّ صلاته ستنهاه» فلم يَلْبَث أن تاب، وحَسُن حاله، وصار من زُهّاد الصحابة[٤].

وقيل: إنّ المراد أنّها تنهاه حال الاشتغال بها[٥].

عن الصادق عليه السلام، أنّه قال: «الصلاة حُجْزة الله، وذلك أنّها تحجِز المُصلّي عن المعاصي ما دام في صلاته»[٦] ثمّ تلا الآية.

﴿وَ﴾ بالله ﴿لَذِكْرُ ٱللَّهِ﴾ والتوجّه إليه بالقلب، وتحميده وتسبيحه والثناء عليه باللسان ﴿أَكْبَرُ﴾ وأفضل من سائر العبادات، فانّه رُوحها، أو لكون ثواب[٧] ذِكر الله لذاكره، أو مِن ذكر غير الله، فانّ ذِكر الله يُوجِب الدّخُور في رحمته، وذكر غيره يُوجِب البُعد عنها، أو من ذِكر آبائكم، فانّكم إذا ذكرتموهم تَمْلُون بذِكْرهم أفواهكم وقلوبكم، لعظمتهم في نظركم، ومن الواضح أنّ ذِكر الله أعظم منه.

وقيل: إنّ المراد من الأكبر هو الكبير، لعدم الكِبر لغيره حتى يكون هو أكبر منه[٨]. أو المراد أكبر من

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٤٧٤.
٢. في النسخة: ويُكلّم.
٣. مجمع البيان ٨: ٤٤٧، جوامع الجامع: ٣٥٤، تفسير روح البيان ٦: ٤٧٤.
٤. تفسير روح البيان ٦: ٤٧٤.
٥. تفسير الرازي ٢٥: ٧٢.
٦. التوحيد: ٤/١٦٦، تفسير الصافي ٤: ١١٨.
٧. في النسخة: ثوابه.
٨. تفسير الرازي ٢٥: ٧٤.

أن تُذكر فضائله وثوابه[١].

وقيل: إنّ المراد من ذكر الله هو الصلاة، لاشتمالها على الذِّكر، وإنّما كنّى عنها به للإشعار بأنّ فضلها على غيرها من العبادات لتضمّنها ذِكر الله[٢].

وقيل: إنّ المراد ذِكر الله للعبد أكبر من ذِكره إيّاه، كما رُوي عن الباقر عليه السلام، قال: «ذكر الله لأهل الصلاة أكبر من ذِكرهم إيّاه، ألا ترى أنّه يقول: ﴿اذكروني اذكركم﴾»[٣].

﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ فيُجازيكم بأفضل الجزاء وأعظم الأجر.

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ[٤٦]

ثمّ إنّه تعالى بعد ذمّ الشِّرك والاستدلال على التوحيد، أمر بمداراة أهل الكتاب في إرشادهم بقوله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا﴾ ولا تُخاصموا ﴿أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ من اليهود والنصارى بالحُجّة على صحّة دين الاسلام وصدق النبي صلّى الله عليه وآله ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الحُجج، أو بالخَصْلة التي هي أحسن الخِصال، كمقابلة الخشن باللين، والشرارة بالنُّصح، والعَجلة بالتأنّي، حتى يَقْرَبوا إلى الإيمان.

وقيل: يعني لا تُجادلوهم بالسيف[٤] ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أنفسهم بالإصرار على معاندة الحقّ واللَّجاج في الباطل، فلا بأس أن تُخاشِنوهم في الكلام، وتُغالِظوهم في القول، وتُعارِضوهم بالسيف، فانّ لِين الكلام والمُداراة لا ينفعهم شيئاً.

ثمّ علّم سبحانه المؤمنين كيفية المداراة في الكلام معهم بقوله: ﴿وَقُولُوا﴾ أيّها المؤمنون لأهل الكتاب: نحن ﴿آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ من القرآن ﴿وَ﴾ الذي ﴿أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من التوراة والانجيل وغيرهما من الكتب، ولا نُنكِر صحّة شيءٍ منها حتى تُعاندونا ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ لا تُخالفكم في اعتقاد الألوهية حتى تُكفّرونا، وإنّما كان إيماننا بالقرآن وبالنبي صلّى الله عليه وآله الذي جاءنا به لقيام الحُجّة عندنا بكونهما من قبل ربّنا ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ومنقادون، ولا نُطيع غيره من الأحبار والرُّهبان، ولا نتّخذهم أرباباً.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ[٤٧]

---

١. مجمع البيان ٧: ٤٤٧.
٢. تفسير أبي السعود ٧: ٤٢، تفسير روح البيان ٦: ٤٧٥.
٣. تفسير القمي ٢: ١٥٠، تفيسر الصافي ٤: ١١٨.
٤. تفسير الرازي ٢٥: ٧٥.

ثمّ استدلّ سبحانه على صِدق القرآن بقوله: ﴿وَكَذٰلِكَ﴾ الإنزال البديع لتلك الكتب السماوية ﴿أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمّد ﴿ٱلْكِتَابَ﴾ العظيم والقرآن الكريم الموافق لسائر الكتب في المعارف والعلوم والأحكام ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ﴾ كعبدالله بن سلّام وأضرابه، لِعلمهم بما فيه من البِشارة بنزول القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ ويُصدّقونه ﴿وَ﴾ بعض ﴿مِنْ هٰؤُلَاءِ﴾ المشركين من العرب ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أيضاً لفهمهم جهات الإعجاز فيه.

وقيل: إنّ المراد من الذين آتيناهم الكتاب الأنبياء، ومن قوله: ﴿وَمِنْ هٰؤُلَاءِ﴾ سائر أهل الكتاب[١].

وقيل: إنّ المراد من الأول أهل الكتاب الذين آمنوا به قبل نزوله وقبل بعثة النبيّ ﷺ كقُسّ بن ساعدة، وبحيرا، ونسطورا، وورقة ونظائرهم، لمّا شاهدوا البشارة بنزوله في الكتب السماوية، ومن الثاني الموجودون في عصر النبيّ ﷺ[٢] ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ المُنزلة ولا يُنكرِها ﴿إِلَّا ٱلْكَافِرُونَ﴾ المُصرّون على الكُفر والعَناد.

وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا ٱلظَّالِمُونَ[٤٨ و ٤٩]

ثمّ استدلّ سبحانه على كون القرآن معجزةً باهرةً بأُميّة النبي ﷺ بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمّد ﴿تَتْلُوا﴾ وتقرأ ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ شيئاً ﴿مِن كِتَابٍ﴾ من الكتب المنزلة وغيرها حتى تطلّع على ما فيه من المعارف والعلوم والتواريخ ﴿وَلَا تَخُطُّهُ﴾ ولا تكتبه ﴿بِيَمِينِكَ﴾ المعتاد أن يُكتَب الخطّ بها، وذَكَرها لرفع احتمال التجوّز في الاسناد، ولو كنت قارئاً كاتباً ﴿إِذاً لَارْتَابَ﴾ وشكّ في صدق كتابك ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ والمسارعون في إفساد أمرك، أو القائلون بما لا حقيقة له، فانّهم كانوا يقولون: لعلّه تعلّم مطالب القرآن والتقطها من كُتب الأولين ودفاتر السابقين، مع أنّ الكلام أيضاً في غاية البطلان، لأنّه من الواضح أنّه لو اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله.

وقيل: يعني لا ارتاب المبطلون من أهل الكتاب، وقالوا: إنّا قرأنا في الكتب أن النبي الموعود اُمّي لا يقرأ ولا يكتُب، وهذا المدّعي قارئ وكاتب[٣].

عن الرضا عليه السلام ـ في حديث ـ: «ومن آياته أنه كان يتيماً فقيراً راعياً أجيراً، لم يتعلّم كتاباً، ولم

---

١. تفسير الرازي ٢٥: ٧٦.
٢. تفسير روح البيان ٦: ٤٧٧.
٣. تفسير روح البيان ٦: ٤٨٠.

يختلف إلى مُعلَم، ثمّ جاء بالقرآن الذي فيه قَصص الأنبياء وأخبارهم حرفاً حرفاً، وأخبار من مضى ومن بقي إلى يوم القيامة»[١].

﴿بَلْ﴾ القرآن ﴿هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ ومعجزات محفوظات في القلوب التي ﴿فِى صُدُورِ﴾ المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ﴾ قيل: يعني من أهل الكتاب[٢]. وقيل: من علماء الامّة[٣].

عن الباقر عليه السلام: أنّه تلاها فقال: «ما قال بين دفّتي المُصحَف» قيل: مَن هم؟ قال: عسى أن يكون غيرنا؟»[٤].

وعنه عليه السلام: أنّه تلا هذه الآية فأومأ بيده إلى صدره[٥].

وعن الصادق عليه السلام. قال: «هم الأئمّة»[٦]. وقال: «نحن، وإيّانا عنى»[٧].

قال بعض: إنّ من خصائص القرآن أنّه معجزة باهرة دون سائر الكتب السماوية، وإنّه يكون محفوظاً في الصدور، وغيره من الكتب لا تُقرأ إلّا بالنظر فيها، فاذا أطبقوها لم يقدِر أحدٌ سوى الأنبياء أن يقرؤوا منه شيئاً[٨]، وإنّه باقٍ إلى يوم القيامة محفوظاً من التغيير والتحريف ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ مع ظهور دلائل صدقها، وكونها نازلةً من قبلنا ﴿إِلَّا ٱلظَّالِمُونَ﴾ على أنفسهم بالخروج عن حدود العقل في اللَّجاج والفَساد.

وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِن رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا ٱلآيَاتُ عِندَ ٱللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ أُوْلٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ[٥٠ـ٥٢]

ثمّ إنّه تعالى بعد إثبات صِدق القرآن بكونه مثل سائر الكتب السماوية، وبشهادة أهل الكتاب بصدقه، وبكون الجائي به اُميّاً، مع اشتماله على علومٍ وَفيرةٍ، حكى سبحانه بعض شُبهات الكفّار في صحّة نبوة النبي صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿وَقَالُوا﴾: إنّ الأنبياء الذين جاءوا بالكتب السماوية كانت لهم معاجز، ولو فرض أنّ القرآن الذي جاء به محمد من قبل الله ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ﴾ ومعجزة ﴿مِن رَّبِّهِ﴾ كما

---

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/١٦٧، تفسير الصافي ٤: ١١٩.
٢. مجمع البيان ٧: ٤٥١.
٣. مجمع البيان ٧: ٤٥٠.
٤. الكافي ١: ٣/١٦٧، تفسير الصافي ٤: ١٢٠.
٥. الكافي ١: ١/١٦٦، تفسير الصافي ٤: ١٢٠.
٦. الكافي ١: ٢/١٦٧، تفسير الصافي ٤: ١٢٠.
٧. بصائر الدرجات: ١٦/٢٢٧، تفسير الصافي ٤: ١٢٠.
٨. تفسير روح البيان ٦: ٤٨١.

أنزل على غيره من الأنبياء كالعصا، واليد البيضاء، وإحياء الموتى ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿إِنَّمَا ٱلآيَاتُ﴾ والمعجزات ﴿عِندَ ٱللهِ﴾ وبقدرته وإرادته، لا عندي وبقدرتي وإرادتي ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ورسولٌ مبلّغٌ عنه ببيانٍ واضحٍ، ولمّا لم تكن كتب الأنبياء السابقة مثبتة لنبوّتهم[1] كان اللازم على مُرسَلهم أن يُنزِل عليهم الآيات المثبتة لنبوتهم بمقدارٍ كافٍ لاثباتها، والعجب من هؤلاء الناس أنّهم مع كون القرآن من أعظم المعجزات، يتوقّعون منك معجزةً أُخرىٰ!

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ﴾ الذي يعجز عن إتيان سورة منه جميع الخلق من الجنّ والإنس ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بلغتهم في كلّ زمانٍ ومكانٍ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الكتاب العظيم الشأن ﴿لَرَحْمَةً﴾ عظيمة ونعمة جليلة، أو معجزة واضحة ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ وعِظة، أو دوام إرشاد ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ به، ويُصدّقون أنّه من الله و ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء: إنّ الله شَهِد بصدق نبوتي في كتابه و﴿كَفَىٰ بِٱللهِ﴾ المطلّع على دَعواي ﴿بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً﴾ على صِدقي، أو إن تُكذّبوني وتُؤذونني كفى بالله بيني وبينكم بما صدر منّي من دعوتكم إلى الحقّ وتكذيبكم إيّاي ﴿شَهِيداً﴾ ومُطّلعاً، وكيف يَخفى عليه ما صَدَر منّي ومنكم، وهو ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الأمور التي من جملتها شأني وشأنكم؟ وما يُنكِر علمه إلّا من أنكر اُلوهيّته وربوبيّته ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ﴾ وأنكروا اُلوهيته وربوبيّته ﴿أُوْلَٰئِكَ﴾ الكافرون ﴿هُمُ﴾ بالخصوص ﴿ٱلْخَاسِرُونَ﴾ والمتضرّرون أشدّ الخُسران والضُّرر، لا أخسر منهم.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمّىً لَجَاءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ * يَوْمَ يَغْشَاهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[٥٣ ـ ٥٥]

ومن شُبهاتهم أنّ النبيّ ﷺ لمّا وعدهم بالعذاب على الكفر بقوله: ﴿أُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾ ولم يأتهم، فقالوا: يا محمد، لِمَ لَمْ يأتنا ما وعدتنا من العذاب؟ فأنت كذَبت في وعدك! فحكى سبحانه ذلك بقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ ويتوقعون منك سرعه نزوله، ولم يعلموا أنّ حكمته تعالى اقتضت إمهالهم إلى القيامة وجعل له أجلاً ﴿وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُسَمّىً﴾ ووقتٌ معينٌ بمقتضى الحكمة ﴿لَجَاءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ المُستأصل في الدنيا لاستحقاقهم إيّاه ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم﴾ ذلك العذاب ﴿بَغْتَةً﴾ وبلا

---

١. في النسخة: مثبتاً لنبوتهم وكتبهم.

مقدّمة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه، ولا يحتملونه، أو لا يشعرون بأنّ تأخيره لا ينافي صدق الوعد به، والعَجب أنهم ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ الشديد الذي يفِرّ منه العاقل، ﴿وَ﴾ الحال ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ﴾ عن قريب ﴿لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ في القيامة لإحاطة موجبات استحقاقها بهم في الدنيا من الكفر والطغيان، وأو بصورتها المعنوية، وإن لم تُدرِكها الحواسّ الظاهرية في هذا العالم.

ثمَ عيَن الأجل أو وقت الاحاطة وكيفيتها بقوله: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ ويَسْتُرهم ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ بحيث لا يقدِرون على دَفْعه بايديهم ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ ولا يقدِرون على دسّه بأقدامهم ﴿وَيَقُولُ﴾ الله، أو المَلَك تنكيلاً وإهانة لهم ﴿ذُوقُوا﴾ وأطعموا طعم ﴿مَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا﴿تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والطغيان والعصيان، فانّ هذا العذاب عين أعمالكم المجسّمة في هذا العالم.

يَا عِبَادِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِى واسِعَةٌ فَإِيَّاىَ فَاعْبُدُونِ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ * وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَامِلِينَ * ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ[٥٦ ـ ٦٠]

ثمَ لمّا كان تحديد الكفّار بالعذاب موجباً لشدّة عداوتهم للمؤمنين، وتهييجهم على إيذائهم، أمرهم الله بالهجرة من مكّة بقوله: ﴿يَا عِبَادِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بي وبرسولي: لستُم مضطرّين في الإقامة بمكة﴿إِنَّ أَرْضِى﴾ التي خلقتها ليست ضيقةً ومنحصرةً في أرض مكّة، بل هي ﴿واسِعَةٌ﴾ فاخرجوا من مكة، وهاجروا إلى غيرها من البلاد التي لا يمنعكم الكُفار فيها من القيام بوظائف دينكم ﴿فَإِيَّاىَ فَاعْبُدُونِ﴾ وحدي فيها، وإن كان كبُر عليكم الإعراض عن وطنكم المألوف، فاعلموا أنّكم مفارقونه لا محالة ولو بالموت والخروج من الدنيا، لوضوح أنّه ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ ومُدرِكة طعمه ﴿ثُمَّ﴾ أنتم بعد الموت ﴿إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ من الدنيا، فتُسألون عن أداء ماحُمّلتم من التكاليف والعمل بماجُعِل عليكم من الأحكام، وتُجازون على ما صدر عنكم إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ، فليكن همّكم في تحصيل الراحة في دار لا انقضاء لها، فان لم يتيسّر لكم في الغُربة منزلٌ ومأوى تطيب به نفوسكم وتستريحون فيه، فلا يغُمّكم، فانّ الدنيا سريعة الانقضاء، والآخرة التي لا انقضاء لها سريعة اللّحاق ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ إذا وردوا فيها والله ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ ولننزلنّهم ﴿مِنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفاً﴾ وقصوراً عالية ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾ وفي المنظر منها ﴿ٱلْأَنْهَارُ﴾ الأربعة، يلتذّون بالنظر إليها

حال كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ ومقيمين ﴿فِيهَا﴾ أبداً ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْـعَامِلِينَ﴾ لله تلك القصور، كما أنّ الجحيم المحيط بالكافرين بئس الجزا، والعاملون هم ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على أذى الكفار، وهجر الأوطان، وفُرقه الأقارب والإخوان، وترك الديار والعَقار، بل العمران، وتحمّل المِحَن في رضا المَلِك الديّان ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ اللطيف بهم ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ ويعتمدون في حِفظهم من شرّ الأعداء، وانتظام اُمور معاشهم ومعادهم، فانّ الله حافظهم ورازقهم.

﴿وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ﴾ وكم من حيوانٍ من الوحوش والطيور من خصائصها أنّها ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ ولا تقدِر على رفعه من الأرض ونقله وادّخاره ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾ ويُوصِل إليها ما تعيش به وتحتاج إليه يوماً فيوماً حيث يُوجّهه ﴿وَ﴾ يرزُق ﴿إِيَّاكُمْ﴾ فهم مع ضَعْفهم وأنتم مع قوّتكم سَواءٌ في كون رزقكم بيد الله ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالكم في أمر الرزق ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بضمائركم وما يخطِر ببالكم من أنّا لو خرجنا من ديارنا فمن أين نرتزق؟ وبمقدار حاجتكم، ومحلّ رزقكم.

روي عن ابن عمر أنّه قال: خرجتُ يوماً مع الرسول ﷺ من المدينة حتى دخلنا في حائط أحدٍ من الأنصار، فأخذ ﷺ يأكُل من تحت النخيل تمراً، فقال لي: «ألا تأكُل؟» قلت: لا أشتهي. قال: «لكنّي أشتهيه، وهذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاماً، ولو شئتُ لدعوت ربّي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر، ولكن اُحبّ أن أشبعَ يوماً وأجوعَ يوماً، فكيف بك يا بن عمر لو بقيت مع قوم يُخبّئون رزق سنتهم لضَعْف يقينهم» قال: فو الله ما بَرِحنا حتى نزلت[1].

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * ٱللَّهُ يُبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَـهُ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَن نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّماءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ[٦١ـ٦٣]

ثمّ لما زيّف[2] سبحانه مذهب الشرك، ودعا العباد إلى عبادته، أظهر التعجّب من عبادة المشركين غيره مع قولهم بأنّه تعالى خالق كلّ شيء بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يا محمد ﴿مَنْ خَلَقَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وما فيهما بقدرته ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ وقهرهما تحت إرادته، ويسّرهما على وَفْق حكمته ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ بالفطرة والوجدان: إنّ ﴿ٱللَّهُ﴾ خالقهما ومسخّرهما، فاذا اعترفوا بذلك ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ وكيف عن عبادته ينصرِفون؟

---

١. مجمع البيان ٨: ٤٥٥، تفسير الصافي ٤: ١٢٢.
٢. في النسخة: زلف.

ثمّ إنه تعالى بعد بيان عظمته وقدرته بخلق العالم وتسخير النّيّرين، بيّن مِنّته عليهم بالرزق بقوله: **﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾** ويوسّعه **﴿لِمَن يَشَآءُ﴾** توسعته **﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾** المؤمنين والكافرين **﴿وَيَقْدِرُ﴾** لم يشاء ويضيّق **﴿لَهُۥٓ﴾** وهو يعلم مقدار الحاجات والأرزاق، وطرق إيصالها، ومصالح العباد، ونظام العالم بمقتضى ألوهيته **﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾** لا يَخفى عن علمه خافية.

في الحديث القُدسي «أن من عبادي من لا يُصلحه إلّا الغنى، ولو افقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يُصلحه إلّا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك»[١].

ثمّ بيّن سبحانه اعترافهم بأنّ الرزق كلّه منه، باعترافهم بأنّه منزل الأمطار التي هي سبب الرزق بقوله: **﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾** يا محمد **﴿مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾** المُطِل، أو من جهة العُلوّ **﴿مَآءً﴾** نافعاً **﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾** وأنبتت منها الأشجار والزروع والحشائش من بعد يُبسها؟ **﴿لَيَقُولُنَّ﴾** بعقولهم الفطرية: **﴿ٱللَّهُ﴾** منزل الماء ومُحيي الأرض **﴿قُلِ﴾** يا محمد: **﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾** على نِعمه، وهم لا يَحْمَدونه مع اعترافهم بنِعمه، أو الحمد لله على ظهور الحُجّة ووضوح الحقّ بحيث لا يُمكن لهم جُحوده **﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾** ولا يُدركون أن مُقتضى اعترافهم حمده وعبادته لا عبادة غيره.

وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * فَإِذَا رَكِبُوا فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ[٦٤_٦٦]

ثمّ لمّا كان باعثهم على عبادة الأصنام حبّ الدنيا وشهواتها، ذمّ سبحانه الدنيا بقوله: **﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾** وشهواتها التي تحبونها[٢] وتشتاقون إليها بحيث شغلتكم عن الله وعن الآخرة **﴿إِلَّا لَهْوٌ﴾** وعمل غير عقلاني **﴿وَلَعِبٌ﴾** وشُغل لا فائدة فيه، وإعراض عن الله، وهذان بعيدان عن العاقل، لكونهما سريعي[٣] الانقضاء بالموت، وموجبين للبُعد عن الله **﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾** والله **﴿لَهِىَ﴾** الجنّة التي يكون فيها **﴿ٱلْحَيَوَانُ﴾** الحقيقي والحياة الدائمة التي لا ينغصها الموت والفناء، بل جميع ما فيها ذو حياة لا زوال لها **﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾** وذلك لما آثروا عليها الدنيا التي هي الموتان وأهلها أموات.

ثمّ قرّر سبحانه كون باعثهم على عبادة الأصنام حُبّ الدنيا بأنهم لو انقطعوا عن الدنيا، وضَعُف رجاؤهم في الحياة، نسوا آلهتهم وأخلصوا دينهم لله بقوله: **﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِى ٱلْفُلْكِ﴾** وتوسّطوا البحر، وأشرفوا على الهلاك، نسوا آلهتهم و**﴿دَعَوُا ٱللَّهَ﴾** لنجاتهم حال كونهم **﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾**

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٤٨٩.

٢. في النسخة: تحيونها. ٣. في النسخة: سريع.

موحدَين إياه ﴿فَلَمَّا﴾ استجاب دعاءهم و﴿نَجَّاهُمْ﴾ من البحر وأخرجهم منه سالمين[١] ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ وأمنوا من الغَرق ﴿إِذَا هُمْ﴾ يعودون إلى مذهبهم الباطل، و﴿يُشْرِكُونَ﴾ به غيره ﴿لِيَكْفُرُوا﴾ وكي يكونوا باشتراكهم كافرين ﴿بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ وأنعمنا عليهم من النجاة ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ وكي ينتفعوا به لكونه سبب ألفتهم وتوادّهم.

وقيل: إنّ اللّامين للأمر على سبيل التهديد، كما في ﴿اعملوا ما شئتم﴾[٢] ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وخامة عاقبة الشرك حين يرون العذاب[٣].

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللهِ يَكْفُرُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكَافِرِينَ * وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ [٦٧ ـ ٦٩]

ثمّ نبهم على أنه كما تكون أمنيتهم من الغرق من الله، تكون اُمنيتهم في بيوتهم منه أيضاً بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ ولم يشاهدوا ﴿أَنَّا جَعَلْنَا﴾ بلدهم ﴿حَرَماً﴾ ومحترماً ﴿آمِناً﴾ ومأموناً من القتل ﴿وَ﴾النهب ﴿يُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ﴾ ويؤخذون ﴿مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ قتلاً وسبياً، إذا كانت العرب حولهم في تغاور وتناهب ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ﴾ والأصنام الجامدة مع تلك النِّعم التي يشاهدونها وظهور الدلائل على الحق الذي لا مجال للامتراء فيه ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ هؤلاء الكفّار ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللهِ﴾ التي يجب على كلّ أحدٍ شُكرها، هم ﴿يَكْفُرُونَ﴾ باسندها إلى غيره، أو بالاشتراك به وصرفها في معصيته.

ثمّ إنه تعالى بعد إثبات التوحيد بالأدلة المُتقنة والبراهين الواضحة، وإثبات كون القرآن كلامه نازلاً من قبله بالدلائل القاطعة وتهديد منكريهما بعذاب الآخرة الذي هو أشدّ العذاب، نبّه سبحانه على أن من لا يؤمن بهما مع ذلك هو أظلم الناس على نفسه بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ وأضرّ على نفسه ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ وبَهَت ﴿عَلَى ٱللهِ﴾ الأحد الفَرد بادّعاء الشريك له في الألوهية والعبادة ﴿كَذِباً﴾ مع شهادة جميع أجزاء العالم وأجزاء وجوده على توحيده، وكون وجود الشريك من المحالات ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ﴾ وأنكر نبوة محمد ﷺ أو صِدق كتابه أو صحّة شريعته ﴿لَمَّا جَاءَهُ﴾ وحين استماعه من غير توقّف وتدبّر عناداً ولَجاجاً، أو المراد أنّهم كذّبوا بالله في إخباره بأنّ محمداً رسولي، وكتابه كلامي، وشريعته ديني المرضيّ عندي مع وضوح صدق كلّ من الأمور المذكورة.

---

١. في النسخة: سالماً. ٢. فصلت: ٤١/٤٠. ٣. تفسير روح البيان ٦: ٤٩٣ و٤٩٤.

ثم بيّن كمال استحقاقهم للعذاب بقوله: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ﴾ في الآخرة ﴿مَثْوىً﴾ ومقام دائمي ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾ المكذبين بالله وبرسوله وكتابه؟! ولا يستوجبون الخلود فيها وقد فعلوا ما فعلوا من الافتراء والتكذيب الشنيع بالحقّ الصريح.

وقيل: إنّ الاستفهام الانكاري لاستبعاد اجترائهم على مثل هذا الافتراء والتكذيب[1]، والمعنى ألم يعلموا أنّ في جهنم مثوى لهم حتى اجترءوا هذه الجُرأة.

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان كون الكافرين الجاحدين لتوحيده ورسالة رسوله أظلم الناس، وتوعيدهم بالخلود في النار، وعد المؤمنين المجاهدين في طاعته بألطافه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ وبذلوا وسعهم في النظر في أدلة توحيدنا والتفكر فيها، وجدّوا في طاعتنا، واجتهدوا في جهاد أعدائنا بألسنتهم وأيديهم وأموالهم، والله ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾ بالإلهام والتوفيق والتأييد ﴿سُبُلَنَا﴾ وطُرق القُرب منّا، ولنوصلهم إلى كلّ خيرٍ وسعادةٍ من الكمالات النفسانية وأعلى مراتب الانسانية في الدنيا، ومن الدرجات العالية في الجنّة والنِّعم الدائمة في الآخرة.

وعن ابن عباس: يُريد المهاجرين والأنصار، أي والذين جاهدوا المشركين وقاتلوهم في نصرة ديننا لنهدينهم سبل الشهادة والمغفرة والرضوان[2].

وقيل: يعني لنُثبّتهم[3] على الهداية والايمان، كما عن القمي.

ثمّ وعدهم سبحانه بأعلى منه بقوله: ﴿وَإِنَّ اللهَ﴾ القادر العظيم بالعون والنصر والانس والله ﴿لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ العاملين برضاه في الدنيا والآخرة.

عن الباقر عليه السلام: «هذه الآية لآل محمد ولأشياعهم»[4].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «ألا وإنّي مخصوصٌ في القرآن بأسماء احذروا أن تُغْلَبوا عليها فتَضِلّوا في دينكم، أنا المحسن يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾»[5].

عن الصادق عليه السلام: «من قرأ سورة العنكبوت والروم في شهر رمضان ليلة ثلاث وعشرين، فهو والله من أهل الجنة، ولا استثني فيه أبداً، ولا أخاف أن يكتُب الله عليّ في يميني إثماً، وإن لهاتين السورتين من الله لمكاناً»[6].

الحمد لله على التوفيق لختم تفسيرها.

---

١. تفسير أبي السعود ٧: ٤٨، تفسير روح البيان ٦: ٤٩٥.
٢. تفسير روح البيان ٦: ٤٩٧.
٣. تفسير القمي ٢: ١٥١، تفسير الصافي ٤: ١٢٣.
٤. تفسير القمي ٢: ١٥١، تفسير الصافي ٤: ١٢٣.
٥. معاني الأخبار: ٩/٥٩، تفسير الصافي ٤: ١٢٣.
٦. ثواب الاعمال: ١٠٩، تفسير الصافي ٤: ١٢٤.



في تفسير سورة الروم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ * وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[١ ـ ٦]

ثمَ لمّا أمر سبحانه في السورة السابقة بمداراة أهل الكتاب، وأخبر بايمان كثيرٍ منهم بالقرآن، أبغضهم المشركون، فلمّا قاتل أهل الروم ـ وكانوا أهل الكتاب ـ الفرس المجوس، وغلبوا عليهم، فرِح المشركون بذلك، فأنزل الله سورة الروم، ولذا نظمت بعد العنكبوت فابتدأت بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ولمّا كان في أولها الإخبار بالغيب، وكان معجزةً باهرةً، افتتح السورة بالحروف المقطّعة من قوله: ﴿الٓمٓ﴾ جلباً لتوجّه القلوب إلى استماعها، ثمَ بشّر النبيّ ﷺ والمؤمنين بقوله: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ وانكسروا من جيش الفرس ﴿فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ وأقربها من ملك الروم، وهي جزيرة كانت بين دجلة والفرات، أو أقرب أرض الروم من الحجاز، وهي أذرعات وبُصرى ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ وانكسارهم من الفرس وغاية ضَعْفهم ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ على الفرس ويكسروهم ﴿فِى﴾ مدة ﴿بِضْعِ سِنِينَ﴾ وما بين ثلاثة وتسع أعوام، واعلموا أنه ليس هذه الغلَبة بقدرتهم بل ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ﴾ والقضاء في كونهم غالبين أو مغلوبين ﴿مِن قَبْلُ﴾ وفي زمان لم يكن لأحدهما الغَلَبة، أو قبل بضع سنين ﴿وَمِنۢ بَعْدُ﴾ وفي زمان حصل لأحدهما الغَلَبة على الآخر، أو بعد بضع سنين ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ وحين حصول غَلَبة الروم على الفرس ﴿يَفْرَحُ﴾ ويسُرَ ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بحصول الغَلَبة لأهل الكتاب ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ وبعونه إياهم.

قيل: بلغ خبر الغَلَبة يوم الحديبية[١].

وقيل: أخبر جَبْرئيل النبيّ ﷺ بها، وكان يوم الغَلَبة يوم بدر[٢]. وعليه يمكن أن يكون المراد بفرح المؤمنين بنصر الله فرحهم بغلبتهم على المشركين في بدر.

وقيل: يعني يفرح المؤمنون بقتل الكفّار بعضهم بعضاً، لما فيه من تقليل عددهم وكسر شوكهم[٣]. فانّ الله تعالى ﴿يَنصُرُ مَن يَشَاءُ﴾ نصره من ضعيف أو قويّ أو أهل كتاب أو مؤمن أو غيرهم ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على كلّ شيءٍ لا يُعجزه شيء وهو ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المبالغ في العطوفة على من يشاء نصره، واعلموا أنّ غَلَبة الروم على الفرس يكون ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ الحتميّ الانجاز، لأنّه ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُ﴾ لمنافاته لاُلوهيته ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ وهم المشركون ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ وعده ووجوب إنجازه.

نُقِل أنّ پرويز سلطان الفرس صمّم على أن يقاتل هِرْقِل قيصر الروم، فأرسل إلى الروم عسكراً عظيماً، وأمّر عليهم شهريار وفرخان، وكانا رجلين شجاعين، فاطّلع هِرْقِل على توجّه عسكر الفرس إليه، فأرسل إليهم جيشاً، وأمّر عليهم رجلاً يقال له خنيس[٤]، فتلاقىٰ العسكران بأذرعات وبصرى، وهي أدنى الشام إلى أرض العرب والعجم، فغلب الفرس على الروم، وأخذوا بعض بلادهم، وخرّبوا بعضها، فبلغ الخبر مكة، ففرِح المشركون، وشَمِتوا المسلمين، وقالوا: أنتم والنصارى من أهل الكتاب، ونحن وفارس اُميّون، لأنّ فارس كانوا مجوساً، وقد ظهر إخواننا عليهم، وهم إخوانكم، فنرجو أن نظهر عليكم. فشقّ ذلك على المسلمين واغتمّوا، فأنزل الله الآيات، وأخبر أنّه لا يكون الأمر كما زعموا، فقال أبو بكر للمشركين: لا يُقرّنّ الله أعينكم، والله ليظهر الروم على فارس في بضع سنين. فقال اُبيّ بن خلف: كذبت يا أبا الفصيل[٥]. قال أبو بكر: بل أنت كذبت يا عدوّ الله. قال اُبيّ: اجعل بيننا أجلاً اُناحبك[٦] عليه، فناحبه على عشر نوق[٧] شابة من كلّ واحدٍ منهما، وجعلا الأجل ثلاث سنين، فأخبر أبو بكر رسول الله ﷺ، فقال ﷺ له: «أخطأت، فان البضع ما بين الثلاث إلى التسع» فزايده في الخَطَر، ومَادّه في الأجل، فجعلاهما مائة ناقة إلى تسع سنين، فلمّا خشي اُبيّ أن يخرُج أبو بكر مهاجراً إلى المدينة أتاه فَلَزِمه، فكفل له عبدالرحمن بن أبي بكر، فلمّا أراد اُبيّ أن يخرُج إلى اُحد، أتاه محمد بن أبي بكر ولَزِمه، فأعطاه كفيلاً، ثمّ خرج إلى اُحد، ثمّ مات اُبيّ من جرح

---

١. تفسير أبي السعود ٧: ٤٩، تفسير روح البيان ٧: ٥.
٢. تفسير روح البيان ٧: ٥.
٣. تفسير روح البيان ٧: ٦ و٧.
٤. في تفسير روح البيان: خنس.
٥. في النسخة: الفضل.
٦. ناحَبَهُ: راهنه وخاطره.
٧. في النسخة وتفسير روح البيان: عشرة ناقة.

برمح رسول الله ﷺ بعد رجوعه من أحد.

ثمّ إن پرويز غضب على شهريار وأخيه فرخان لسعاية السُّعاة، فأراد قتل كلّ منهما بيد الآخر، فلمّا وقفا على الحال سألا من هِرَقِل أن يلقياه في وقت الخلوة، فأذن لهما، فلمّا دخلا عليه قبلا دين النصرانية وعهدا إليه أن يُطيعاه ولا يُخالفاه، فجهّز جيشاً كثيفاً، وأمّرهما عليه، وأرسلهما إلى فارس، فذهبا وغلبا على جند پرويز، وأخذا بلاده حتى وصلوا إلى المدائن، وبنوا بلده رومية هناك[1].

وقيل: هرب پرويز، وملكوا ملكه، فلمّا وصل خبر فتح الروم بلاد الفرس إلى العرب، أخذ أبوبكر مائة ناقة شابة من ورثة اُبي، فجاء بها إلى رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «تصدّق بها» فتصدّق أبوبكر بها[2].

قيل: إنّ هِرَقِل أول من ضرب الدينار، وأحدث البيعة[3].

روي أنّ النبي ﷺ كتب إلى هِرَقِل ملك الروم كتاباً، ودعاه إلى الاسلام، فلمّا وصل إليه كتاب النبيّ ﷺ قرأه ووضعه على عينيه ورأسه، وختمه بخاتمه، ثمّ أوثقه على صدره، ثمّ كتب جواب كتابه: إنّا نشهد أنّك نبي، ولكنّا لا نستطيع أن نترُك الدين القديم الذي اصطفاه الله لعيسى عليه السلام. فعَجِب النبيّ ﷺ، فقال: «لقد ثبت ملكهم إلى يوم القيامة».

وكتب إلى كسرى ملك فارس ـ وهو خسرو پرويز ـ يدعوه إلى الاسلام، فلمّا قرأه مزّقه، وأراد قتل الرسول ﷺ فرجع الرسول إلى النبيّ ﷺ وأخبره، فدعا عليه السلام عليه أن يُمزّق كلّ مُمزّق، فمزّق الله ملكهم، فلا ملك لهم أبداً، كما قال عليه السلام: «نطحة أو نطحتان، ثمّ لا فارس بعدها»[4].

وعن الباقر عليه السلام أنّه سُئل عن هذه الآية فقال: «إن لها تأويلاً لا يعلمه إلّا الله والراسخون في العلم من آل محمد، إنّ رسول الله ﷺ لمّا هاجر إلى المدينة وأظهر الاسلام، كتب إلى ملك الروم كتاباً، وبعث به مع رسول يدعوه إلى الاسلام، وكتب إلى ملك فارس كتاباً يدعوه إلى الاسلام، وبعثه إليه مع رسوله، فأمّا ملك الروم فعظّم كتاب رسول الله ﷺ وأكرم رسوله، وأمّا ملك فارس فانّه استخفّ بكتاب رسول الله ﷺ ومزّقه، واستخفّ برسوله، وكان ملك فارس يومئذٍ يقاتل ملك الروم، وكان المسلمون يهوون أن يغلِب ملك الروم ملك الفارس، وكانوا لناحيته أرجا منهم لملك فارس، فلمّا غلب ملك فارس ملك الروم كَرِه ذلك المسلمون واغتموا به، فأنزل الله عز وجل بذلك كتاباً: **﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾** يعني غلبتها فارس في أدنى الأرض، وهي الشامات وما حولها **﴿وَهُم﴾** يعني فارس **﴿مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾** الروم **﴿سَيَغْلِبُونَ﴾** يعني يغلِبهم المسلمون **﴿فِى بِضْعِ**

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٥.

٢. تفسير روح البيان ٧: ٥.

٣. تفسير روح البيان ٧: ٤.

٤. تفسير روح البيان ٧: ٤.

سِنِينَ لِلّٰهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ ٱللّٰهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ﴾.

قال: فلمّا غزا المسلمون فارس وافتتحوها فرِح المؤمنون بنصر الله».

قيل: أليس الله يقول: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ وقد مضى للمؤمنين سنون كثيرة مع رسول الله ﷺ وفي إمارة أبي بكر، وإنّما غلبت المؤمنون فارس في إمارة عمر؟

فقال: «ألم أقل لك إنّ لهذا تأويلاً وتفسيراً، والقرآن ناسخ ومنسوخ، أما تسمع لقول الله عزّ وجلّ: ﴿لِلّٰهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ يعني إليه المشيئة في القول أن يؤخّر ما قدّم ويقدّم ما أخّر في القول إلى يوم تحتّم القضاء بنزول النصر فيه على المؤمنين، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ ٱللّٰهِ﴾ أي يوم يحتّم القضاء [بالنصر]»[١].

أقول: هذه الرواية توافق قراءة ﴿سَيُغْلَبُونَ﴾ بالبناء للمفعول.

يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ * أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَا خَلَقَ ٱللّٰهُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمّىً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ [٧ و ٨]

ثمّ ذمّهم سبحانه بقصر علمهم بشهوات الدنيا بقوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وزينتها وشهواتها، ولا يعلمون باطنها الذي هو المضار والمتاعب ﴿وَهُمْ عَنِ﴾ عالم ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ ودار الجزاء ﴿هُمْ غَافِلُونَ﴾ لا تتوجّه قلوبهم إليها.

عن الصادق عليه السلام أنه سُئل عن قوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فقال: «منه الزجر والنجوم»[٢].

ثمّ لامهم سبحانه على ترك التفكّر في آيات التوحيد والبعث بقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ ولم يتأمّلوا في قلوبهم حتى يعلموا أنّه يجب على الله حشر الخلق لمجازاتهم على أعمالهم بمقتضى الحكمة البالغة، لأنّه ﴿مَا خَلَقَ ٱللّٰهُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الموجودات بغرض من الأغراض ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ والحكمة البالغة والمصلحة التامة، وعمدتها هو[٣] استدلالهم بها على وجوده وكمال صفاته، وارتقائهم بالنظر فيها من حضيض البشرية إلى أعلى درجة الانسانية، واستحقاقهم لفيوضاته الأبدية، ولا يكون ذلك إلّا بانتقالهم إلى دار الآخرة الأبدية، وإلّا كان خلقها عبثاً ولعباً.

---

١. الكافي ٨: ٢٦٩/٣٩٧، تفسير الصافي ٤: ١٢٦.
٢. مجمع البيان ٨: ٤٦١، تفسير الصافي ٤: ١٢٧.
٣. في النسخة: وهو.

وجعل بقاء الموجودات في العالم متلبّساً بوقتٍ معينٍ ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمّىً﴾ مقدّرٍ لابدّ من أن ينتهي إليه، وهو قيام الساعة ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ لأعراضهم عن التفكّر ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ والحضور في محكمة عدله في الآخرة والله ﴿لَكَافِرُونَ﴾ وبالحشر لجاحدون.

أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ ٱللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَاءُوا ٱلسُّوءىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ ٱللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ[٩و ١٠]

ثمّ هدّدهم سبحانه بالعذاب الذي نزل على الأمم الماضية بقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا﴾ ولم يسافروا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ بنظر الاعتبار ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ الأمم ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كعاد وثمود، وإلى ما صار مآل كفرهم وإنكارهم الحشر، فانّهم اُهلكوا بأنواع العذاب، مع أنّهم كانوا أكثر من كفار مكّة تمتّعاً بالدنيا و﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وأعظم منهم جسماً ﴿وَأَثَارُوا ٱلْأَرْضَ﴾ وقلبوها للزراعة وغرس الأشجار، واستنباط المياه، واستخراج المعادن ﴿وَعَمَرُوهَا﴾ بفنون العمارات من الزراعة والغَرس والبناء ﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ لأنّ أهل مكّة أهل وادٍ غير زرع، ولقد أتمّ الله عليهم الحجّة بأن أعطاهم العقل ﴿وَجَاءَتْهُمْ﴾ من قبل الله ﴿رُسُلُهُم﴾ لتبليغ الحقّ إليهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والمعجزات الباهرات، وفكذّبوه فأهلكهم الله بكفرهم وتكذيبهم ﴿فَمَا كَانَ ٱللهُ﴾ بإنزال العذاب عليهم وإهلاكهم ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾ ويُعذّبهم بلا حُجَة عليهم ﴿وَلٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بكفرهم وطُغيانهم الموجبين لاستحقاقهم العذاب ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ بعد خروجهم من الدنيا ﴿عَاقِبَةَ﴾ أمر ﴿ٱلَّذِينَ أَسَاءُوا﴾ واستمرّوا على إتيان المنكرات، وأصرّوا على الكفر ومعارضة الأنبياء العقوبة ﴿ٱلسُّوءىٰ﴾ في الآخرة ـ كما أنّ للذين أحسنوا المثوبة الحُسنى ـ لأجل ﴿أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ ٱللهِ﴾ ودلائل توحيده ومعجزات أنبيائه ﴿وَكَانُوا بِهَا﴾ في الدنيا ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ دائماً.

ٱللهُ يَبْدَؤُا ٱلخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ * وَلَمْ يَكُن لَهُم مِن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ * وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَروا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ ٱلْآخِرَةِ

فَأُولَٰئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ[١١ـ١٦]

ثمَ استدلّ سبحانه على المعاد بقدرته على الخلق الأول بقوله: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ﴾ ويُوجده أولاً في الدنيا ﴿ثُمَّ﴾ بعد إماتته ﴿يُعِيدُهُ﴾ ويوجده ثانياً كما بدأه ﴿ثُمَّ﴾ بعد الخروج من القبور ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وفي محكمة عدله تحضَرون، فيجازيكم على حسب أعمالكم.

ثمَ عيَن سبحانه وقت الرجوع إليه بقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ وتحضر القيامة ﴿يُبْلِسُ﴾ ويسكُن ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ متحيّرين آيسين من الاهتداء إلى الحُجّة، أو من شفاعة الأصنام ﴿وَلَمْ يَكُن لَهُم مِن شُرَكَائِهِمْ﴾ وآلهتهم ﴿شُفَعَاءُ﴾ عند الله حتى يدفعوا عنهم العذاب ﴿وَ﴾ لذا ﴿كَانُوا﴾ في ذلك اليوم ﴿بِشُرَكَائِهِمْ﴾ وأصنامهم ﴿كَافِرِينَ﴾ ولألوهيتها وشفاعتها منكرين.

ثمَ كرّر ذكر قيام الساعة ازدياداً للارعاب بقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ التي يجازى فيها الناس ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ فرقتين: فرقة منهم المؤمنون، وفرقة منهم الكافرون ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَهُمْ﴾ متمكّنون ﴿فِي رَوْضَةٍ﴾ عظيمةٍ وجنةٍ واسعةٍ ﴿يُحْبَرُونَ﴾ ويُسرّون سروراً تهلّلت به وجوههم، أويُكرَمون كما عن ابن عباس[١]، أو يُنعّمون كما عن قتادة، أو يُتوّجون كما عن آخر[٢]. ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَروا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ ٱلْآخِرَةِ﴾ والبعث بعد الموت ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الكافرون المكذّبون ﴿فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ وفي النار مُدْخَلون لا يغيبون عنها أبداً.

فَسُبْحَانَ ٱللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِي ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ[١٧ـ١٩]

ثمَ إنّه تعالى بعد بيان صيرورة الناس في القيامة فرقتين، أمر الناس بتسبيحه وتنزيهه من الظلم والنقائص، وبحمده على كلّ حالٍ بقوله: ﴿فَسُبْحَانَ ٱللهِ﴾ ونزّه في زمان ظهور قدرته وتجدّد نعمته وهو ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ وتدخُلون في الليل ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ وتدخُلون في النهار ﴿وَلَهُ﴾ خاصة ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ على نِعمه كلّها، والثناء الجميل على مِننه من الموجودات الملكوتية، ﴿فِي ٱلسَّمَاوَاتِ﴾ وعالم الملكوت، ومن الموجودات الملكية في السفل ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ فاحمدوه أنتم ﴿وَ﴾ سبّحوه ﴿عَشِيّاً﴾ وآخر النهار، وإنّما ذكر الحمد في البين للتنبيه على استحباب الجمع بين التسبيح والتحميد

---

١. تفسير أبي السعود ٧: ٥٣، تفسير روح البيان ٧: ١٣.
٢. تفسير أبي السعود ٧: ٥٤، تفسير روح البيان ٧: ١٣.

﴿وَ﴾ سبّحوه ﴿حِينَ تُظْهِرُونَ﴾ وتَصِلون إلى نصف النهار.

وقيل: إنّ عشياً وحين تظهرون وقتان للتحميد؛ لأنهما وقت ظهور نعمة الله، وانتظام أمر المعاش، وأخذ نتائج الأعمال، والوقتان الأوّلان وقت الحاجة إلى النوم والانتباه منه، والحاجة إلى تحصيل المعاش والإقدام في رفع الحوائج، فيناسبان لتنزيه الله عن النقائص الامكانية.

وعن ابن عباس: أنّ المراد من التسبيح الصلوات الخمس اليومية، فالمراد من التسبيح في المساء صلاة المغرب والعشاء، وفي الصبح صلاة الفجر، وفي العشيّ صلاة العصر، وفي الظهر صلاة الظهر[1].

وكما أنّه تعالى يُخرِج الانسان في المساء من اليقظة إلى النوم، وفي الصبح يُخرِجه من النوم إلى اليقظة ﴿يُخْرِجُ﴾ الانسان والحيوان ﴿ٱلْحَيَّ مِنَ﴾ التراب والنُّطفة والبيض ﴿ٱلْمَيِّتِ﴾ وقيل: يعني يُخرِج المؤمن من الكافر، والعالم من الجاهل[2] ﴿وَيُخْرِجُ﴾ التراب والنُّطفة والبَيض ﴿ٱلْـمَيِّتَ﴾ أو الكافر والجاهل ﴿مِنَ﴾ الانسان والحيوان ﴿ٱلْحَيِّ﴾ أو من المؤمن والعالم ﴿وَيُحْيِي﴾ بالأمطار ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ ويُنبِت فيها أنواع النباتات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ويُبسها وعدم النبات فيها ﴿وَكَذٰلِكَ﴾ الإحياء والإخراج تحيون بمطر شبه المَنيّ والنُّطفة و ﴿تُخْرَجُونَ﴾ من القبور أحياءً.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلاَفُ ٱلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَاؤُكُم مِن فَضْلِهِ إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّماءِ مَاءً فَيُحْيِى بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ ٱلسَّماءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ ٱلْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ[۲۰ـ۲٥]

ثمَ ذكر سبحانه الدليل المتقن أنه مخرج الحيّ من الميت بقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ ودلائله ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾ يا بني آدم ﴿مِن تُرَابٍ﴾ بعيدٍ من الحياة غايته[3] بخلق أبيكم آدم منه ﴿ثُمَّ

---

١. تفسير أبي السعود ٧: ٥٥، تفسير روح البيان ٧: ١٧.

٢. تفسير روح البيان ٧: ١٧.

٣. أي غاية البعد.

﴿إِذَا أَنتُم﴾ بإرادته وقدرته في الحال ﴿بَشَرٌ﴾ سويّ وإنسان عاقل قويّ ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ وتفرّقون في وجه الأرض لتحصيل معاشكم وحوائجكم، كيف يتصوّر في هذا الخالق الذي خلقكم من تُراب أن يكون عاجزاً من خلقكم ثانياً من تُراب ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ ودلائل قدرته ﴿أَنْ خَلَقَ﴾ الله ﴿لَكُم مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾ ومن جنسكم، أو من عضوٍ منكم ﴿أزواجاً﴾ ونسواناً ﴿لِتَسْكُنُوا﴾ وتميلوا ﴿إِلَيها﴾ وتستأنسوا بها ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم﴾ وفي قلوب كلٍّ منكم بالنسبة إلى الآخر ﴿مَوَدَّةً﴾ ومحبّة ﴿وَرَحْمَةً﴾ وعُطوفة وشَفَقة. قيل: إنّ المودة كناية عن الجِماع، والرحمة كناية عن الولد[1].

﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ﴾ المذكور من خلقكم من تُراب، وخلق أزواجكم منكم، وإلقاء المودّة والرحمة بينكم ﴿لَآيَاتٍ﴾ وحُجج ظاهرة ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أدنى التفكّر في أصل وجودها، والحِكم الكامنة فيها.

ثمّ إنّه تعالى بعد الاستدلال بالآيات الأنفسية أستدلّ بالآيات الآفاقية بقوله: ﴿وَمِنْ﴾ جملة ﴿آيَاتِهِ﴾ والأدلة الدالة على قدرته على الإعادة ﴿خَلْقُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مع عِظَمهما وكثرة أجزائهما بلا مادّة ومُدّة، لوضوح أنّه أقدر على إعادة ما كان حياً وخلقه ثانياً من المادّة.

ثمّ عاد سبحانه إلى ذكر بعض الآيات الأنفسية بقوله: ﴿وَٱخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ ولغاتكم من العربية والفارسية والتركية والرومية والهندية ﴿وَ﴾ اختلاف ﴿أَلْوَانِكُمْ﴾ بالبياض والسواد والحمرة والأدمة والصُّفرة على اختلاف مراتبها بحيث قلّما يتّفق توافق شخصين في اللون مع كثرة عددهم.

عن ابن عباس: كان آدم مؤلفاً من أنواع تراب الأرض، ولذلك كان بنوه مختلفين منهم الأحمر والأسود والأبيض كلّ ظهر على لون ترابه[2].

﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ﴾ المذكور من الخلق والاختلاف ﴿لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ بالحُكم ومصالح الأشياء دون الجُهّال المنغمرين في الشهوات.

عن الصادق عليه السلام قال: «الامام إذا أبصر الرجل عَرَفه وعَرَف لونه، وإذا سَمِع كلامه من خلف حائطٍ عَرَفه وعَرَف ما هو، إن الله يقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية. قال: وهم العلماء فليس يسمع شيئاً من الأمر ينطِق به إلّا عرفه ناجٍ أو هالك، فلذا يُجيبهم بالذي يُجيبهم»[3].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ وأدلّة قدرته ﴿مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ﴾ على حسب العادة ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾ على حسب الحاجة كالقيلولة لاستراحة أبدانكم ﴿وَٱبْتِغَاؤُكُم﴾ وطلبكم الرزق فيهما بالتجارة وغيرها الحاصل لكم ﴿مِن

---

١. تفسير الرازي ٢٥: ١١٠، تفسير أبي السعود ٧: ٥٦، تفسير روح البيان ٧: ١٩.
٢. تفسير روح البيان ٧: ٢٠.
٣. بصائر الدرجات: ١/٣٨١، الكافي ١: ٣/٣٦٤، تفسير الصافي ٤: ١٢٩.

﴿فَضْلِهِ﴾ وإحسانه، ليدوم لكم البقاء إلى آجالكم المُقدّرة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الأمرين ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ الآيات سَماع القبول، ويتدبّرون فيها.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أنّه تعالى ﴿يُرِيكُمُ﴾ ويظهر لكم ﴿ٱلْبَرْقَ﴾ والضياء الحاصل من السَّحاب ليوجد في قلوبكم ﴿خَوْفاً﴾ من نزول الصاعقة المُهلِكة ﴿وَطَمَعاً﴾ ورجاءً بنزول المطر النافع ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّماءِ مَاءً﴾ نافعاً بطريق الأمطار ﴿فَيُحْيِى بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ويُبسها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور من البرق والمطر وإحياء الأرض ﴿لَآيَاتٍ﴾ نافعة ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ عن الله حُججه، ويفهمون أدلّة قدرته وحكمته.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ ٱلسَّماءُ﴾ مع ثِقلها ﴿وَ﴾ ارتفاعها في مكانها بغير عَمَدٍ وتستقرّ ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ فوق الماء ولا تُرسب فيه ﴿بِأَمْرِهِ﴾ تعالى وإرادته، وتستمرّان على ما هما عليه من الهيئة إلى الأجل المُسمّى بمشيئته ﴿ثُمَّ﴾ بعد وضوح كمال قدرته على كلّ شيءٍ اعلموا أنه تعالى ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ بعد انقضاء أجل الدنيا ﴿دَعْوَةً﴾ واحدةً، وقال لكم: أيّها الموتى اخرجوا ﴿مِنَ﴾ القبور التي تكون لكم في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ بالنفخة الثانية في الصور ﴿إِذَا أَنتُمْ﴾ تحيون ثانياً وبلا رَيث ﴿تَخْرُجُونَ﴾ منها سِراعاً، وتُحْشَرون إلى العَرَصة خُشّعاً.

وَلَهُ مَن فِى ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ[٢٦ و ٢٧]

ثمّ لمّا ذكر سبحانه مطاعيته للأموات نبّه على مطاعيته لجميع أهل الملك والملكوت بقوله: ﴿وَلَهُ﴾ بالملكية الاشراقية ﴿مَن فِى ٱلسَّماوَاتِ﴾ من الملائكة والأرواح القُدسية ﴿وَ﴾ من في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ ومن الثقلين إيجاداً وإعداماً وتصرفاً وتدبيراً، ولذا ﴿كُلٌّ﴾ منهم ﴿لَهُ﴾ تعالى ﴿قَانِتُونَ﴾ ومطيعون طوعاً أو كَرهاً، لا يقدِرون على التخلّف عن أمره وإرادته.

ثمّ إنّه تعالى لمّا ذكر قبل الاستدلال دعوتي التوحيد والمعاد بقوله: ﴿الله يبدؤا الخلق ثم يعيده﴾[١] ذكرهما بعد الأدلة المذكورة بعنوان النتيجة بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ﴾ في الدنيا، ويُنشئهم أولاً رجالاً ونساءاً، ثمّ يُميتهم عند انقضاء آجالهم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ويَخْلُقه ثانياً للحساب والجزاء في الآخرة، ولا استبعاد في عودهم ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ﴾ وأسهل وأيسر ﴿عَلَيْهِ﴾ من بدئهم في نظركم

---

١. يونس: ٣٤/١٠.

وبالاضافة إليكم، وإن كانا بالاضافة إليه تعالى سيّان؛ لأنه إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون.

ثمَ بيّن كمال صفاته بقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ والصفات العليا التي ليست لشيءٍ من المملكات ﴿فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقيل: إنّ الصفة العليا هو لا إله إلّا الله، أي الوحدانية[١].

وقيل: يعني هذا مثل مضروب لكم، وله المثل الأعلى من هذا المثل ومن كل مثلٍ يُضرَب في السماوات والأرض[٢].

وقيل: إنّ المراد أنّ ذاته ليس كمثله شيء، وله المثل الأعلى[٣] ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ والغالب على مراده من البدء والإعادة ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ العالم بصلاح الأمور الفاعل على وَفق الحكمة والصواب.

ضَرَبَ لَكُم مَثَلاً مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَكُم مِن مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِن شُرَكَاءَ فِى مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ[٢٨]

ثمَ إنّه تعالى بعد إقامة الحجج على التوحيد والمعاد وتمثيل الإعادة بإعادة الناس فعلهم الأوّل، ضرب مثلاً لتوضيح شناعة القول بالشرك بقوله: ﴿ضَرَبَ﴾ الله ﴿لَكُم مَثَلاً﴾ بديعاً مُنتَزعاً ﴿مِنْ﴾ أحوال ﴿أَنفُسِكُمْ﴾ التي هي أقرب الأشياء منكم وأعرفها لديكم، ليصير بطلان مذهب الشرك كالمحسوس لكم، وهو أنَّه افرِضوني مع غاية عظمتي وقُدرتي مثل أنفسكم مع نهاية حقارتها وعَجْزها ﴿هَل﴾ تتصوّرون أو ترضون أن يكون ﴿لَكُم﴾ بعضاً ﴿مِن مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾ من العبيد والإماء ﴿مِن شُرَكَاءَ فِى مَا﴾ تملِكونه في الظاهر مع أنّه في الواقع نحن ﴿رَزَقْنَاكُمْ﴾ إياه وأعطيناكم وجعلناه في قبضتكم وتصرّفكم ﴿فَأَنتُمْ﴾ وهم ﴿فِيهِ سَوَاءٌ﴾ يتصرّفون فيه كتصرّفكم فيه، بلا فرق بينكم وبينهم، وأنتم ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ في التصرّف فيه بغير إذنهم ﴿كَخِيفَتِكُمْ﴾ من التصرّف فيه ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ والأحرار الذين يكونون مثلكم في المالكية لذلك المال، لا يُتَصوّر ذلك، ولا ترضون به، فكيف تَرضون أن تجعلوا لله شريكاً من مخلوقاته ومملوكاته؟! ﴿كَذٰلِكَ﴾ التفصيل والبيان الواضح ﴿نُفَصِّلُ﴾ ونبيّن ﴿ٱلْآيَاتِ﴾ والدلائل على توحيدنا ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ عن الله حُججه، ويفهمون دلائله.

قال أبو الليث: نزلت في كفار قريش كانوا يعبُدون الآلهة، ويقولون في إحرامهم: لبيك لا شريك

---

١. تفسير الرازي ٢٥: ١١٧.
٢. تفسير الرازي ٢٥: ١١٧.
٣. تفسير الرازي ٢٥: ١١٧.

لك إلّا شريك هو لك، تملِكه وما ملك[١].

وقال القمّي ﷺ: سبب نزولها أنّ قريشاً والعرب كانوا إذا حجّوا يُلبّون، وكانت تلبيتهم: لبيك اللهمَ لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك. وهي تلبية إبراهيم والأنبياء فجاءهم إبليس في صوره شيخ، وقال لهم: ليست هذه تلبية أسلافكم. قالوا: وما كانت تلبيتهم؟ قال: كانوا يقولون: لبيك اللهمَ لبيك، لا شريك لك إلّا شريكاً هو لك. فتفرّق قريش من هذا القول، فقال لهم إبليس: على رسلكم حتى آتي على آخر كلامي. فقالوا: ما هو؟ فقال: إلّا شريكاً هو لك، تملِكه وما ملك. ألا تَرون أنّه يملِك الشريك وما مَلَكه؟ فرضوا بذلك، فكانوا يُلبّون بهذا قريش خاصة، فلمّا بعث الله عز وجل رسوله أنكر ذلك عليهم، وقال: هذا شِرك، فأنزل الله الآية[٢].

بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللّهُ وَمَا لَهُم مِن نَاصِرِينَ * فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ ٱللهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللهِ ذٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلاَةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ[٢٩ـ٣٢]

ثمّ أعرض سبحانه عن مخاطبتهم، وبيّن استحالة تبعيتهم للحقّ بقوله: ﴿**بَلِ ٱتَّبَعَ**﴾ المشركون ﴿**ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾ أنفسهم ﴿**أَهْوَاءَهُم**﴾ وشهوات أنفسهم ﴿**بِغَيْرِ**﴾ دليلٍ يكون سبب ﴿**عِلْمٍ**﴾ فضلّوا عن طريق الحقّ ﴿**فَمَن يَهْدِى**﴾ إلى الحقّ ﴿**مَنْ أَضَلَّ ٱللّهُ**﴾ عنه لسوء اختياره ﴿**وَمَالَهُم مِن نَاصِرِينَ**﴾ يُخلّصونهم في الدنيا من الضلالة، وفي الآخرة من النار.

ثمّ لمّا لم يهتدِ المشركون، وأصرّوا على الشرك، أمر نبيه بالإعراض عنهم وعدم الاعتناء بهم بقوله: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ**﴾ ووجّه قلبك يا محمد واصرِف شراشر وجودك ﴿**لِلدِّينِ**﴾ القيّم الذي أنت عليه حال كونك ﴿**حَنِيفاً**﴾ ومائلاً إليه عن سائر الأديان. ويُحتَمل أن يكون حالاً للدين، فانّه يكون ﴿**فِطْرَتَ ٱللهِ**﴾ وخلقته ﴿**ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ**﴾ وخلقهم ﴿**عَلَيْهَا**﴾ أو المراد الزموا فطرة الله، فانّ هذا الدين ما يحكم به العقل الفطري، وأخذ الله عليه العهد في الذّر، وأرتكز في القلوب [فلا يحيد] الانسان عنه إلّا بالصوارف الخارجية، ولو خلوا وأنفسهم وعقولهم ما اختاروا عليها غيره ﴿**لَا تَبْدِيلَ**﴾ ولا تغيير ﴿**لِخَلْقِ ٱللهِ**﴾ فانّه غير ممكن.

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٢٨. ٢. تفسير القمي ٢: ١٥٤، تفسير الصافي ٤: ١٣١.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الدين الذي أمرتم باقامة وجوهكم له هو ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ السويّ الذي لا عوج له ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فتنحرفون عنه، فوجّهوا له حال كونكم ﴿مُنِيبِينَ﴾ وراجعين ﴿إِلَيْهِ﴾ تعالى في جميع مدة عمركم بحوائجكم، ومقبلين عليه بطاعتكم ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ في مخالفته ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ﴾ التي هي أهمّ الفرائض ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ بتركها ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين لا يسجُدون لربّهم بعد الايمان بالتوحيد، أو من المشركين لغيره في عبادته جلياً أو خفياً، أعني ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ واختلفوا فيما يعبُدون على اختلاف أهوائهم ﴿وَكَانُوا﴾ في عبادة غير الله ﴿شِيَعاً﴾ وأحزاباً، كلّ يشايع ويتابع إمامه الذي هو الأصل والمؤسس لدينه، والكل متّفقون على الضلال و﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ وبما اختاره من الدين ﴿فَرِحُونَ﴾ ومسرورون لاعتقادهم أنّه الحقّ وما سواه هو الباطل.

وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ [٣٣ـ٣٥]

ثمّ بيّن سبحانه أن فطرة المشركين أيضاً على التوحيد، وأنّهم منيبين إلى الله عند الشدائد بقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ﴾ وأصابهم ﴿ضُرٌّ﴾ كالفقر والقَحْط والمرض وغيرها من الشدائد ﴿دَعَوْا رَبَّهُم﴾ لرفعه وكشفه حال كونهم ﴿مُّنِيبِينَ﴾. وراجعين ﴿إِلَيهِ﴾ تعالى عن غيره، لعلمهم بعدم قدرة غيره على كشفه و ﴿ثُمَّ إِذا﴾ استجاب دعاءهم وكشف عنهم ضُرّهم و﴿أَذَاقَهُم مِنْهُ﴾ ومن فضله ﴿رَحْمَةً﴾ ونعمةً من صحةٍ وعافيةٍ وخلاصٍ وسعةٍ وغيرها ﴿إِذَا فَرِيقٌ﴾ وفي الحين جمع ﴿مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ﴾ اللطيف بهم المانّ عليهم بنعمه ﴿يُشْرِكُونَ﴾ كأننا أتيناهم تلك النعمة ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ ويضيّعوا حقّه بعبادة غيرنا.

ثمّ التفت من الغيبة إلى الخطاب[1] تهديداً لهم بقوله: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ أيها الكافرون وانتفعوا بكفركم، وبالنعم التي أعطيناكم في الدنيا الفانية والمدة القليلة ﴿فَسَوْفَ﴾ وعن قريب ﴿تَعْلَمُونَ﴾ وخامة عاقبة كفركم وتمتّعكم في الآخرة، وهي العذاب والنّكال.

ثمّ لامهم سبحانه على التزامهم بعبادة الأصنام بلا حُجّة وبرهان بقوله: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ كتاباً أو نبياً أو مَلَكاً ليكون قوله ﴿سُلْطَاناً﴾ وحُجّةً لهم ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ ويُخبر بأمرنا إيّاهم ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ قيل: يعني باشراكهم أو بعبادة ما كانوا به يُشركون[2].

---

١. زاد في النسخة: بهم. ٢. تفسير أبي السعود ٧: ٦١.

وَإِذَا أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[٣٦ و ٣٧]

ثمّ لمّا كان من لُطفه على العباد أن يختبرهم بالنِّعم والبلايا ليُنيبوا إليه في أحد الحالين، لام المشركين على أنّ الحالين لا يزيدهم إلّا كُفراً بقوله: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ﴾ وأنعمنا عليهم ﴿رَحْمَةً﴾ ونعمةً ﴿فَرِحُوا بِهَا﴾ أشراً وبَطَراً، وزادهم طُغياناً وكُفراً ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ وشدّةٌ من ضيقٍ وبلاءٍ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وبشؤم معاصيهم ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ وييأسون ويَجْزَعون ويَفْزَعون، فلا عند النِّعمة إلى الله يرجِعون ويشكرون ولا عند البلاء إليه يُنيبون ويَرْجِعون ويسألون ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ ولم يعلموا أنّ الشدة والرخاء كلاهما من الله حيث يرون ﴿أَنَّ ٱللهَ يَبْسُطُ﴾ ويُوسّع ﴿ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ وسعة رزقه لعلمه بصلاحه فيها ﴿وَيَقْدِرُ﴾ ويضيّق الرزق لمن يشاء ﴿إِنَّ فِى ذٰلِكَ﴾ المذكور من القبض والبسط ﴿لَآيَاتٍ﴾ نافعة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فانّهم يستدلّون بها على كمال قدرة الله وحكمته.

قيل لبعض العلماء: ما الدليل على وحدة صانع العالم؟ قال: ثلاثة أشياء ذُل اللبيب، وفَقر الأديب، وسُقم الطبيب[١].

فَآتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللهِ وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ[٣٨]

ثمّ خاطب سبحانه من بسط له الرزق، وأمره بانفاق ما زاد عن كفافه لمن قدر عليه رزقه بقوله: ﴿فَآتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وصاحب النسب إليك إذا احتاج في نفقته وما يعيش به ﴿حَقَّهُ﴾ من مالك صدقةً أو صلةً وإعانةً مقدّماً له على غيره ﴿وَ﴾ آت ﴿ٱلْمِسْكِينَ﴾ والفقير ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ حقّهما من مالك صدقةً وإعانة.

قيل: إنّ المخاطب هو النبيّ ﷺ والمراد بذي القربى قرابته[٢].

عن أبي سعيد الخُدري: لمّا نزلت الآية على النبيّ ﷺ أعطى فاطمة عليها السلام فدكاً وسلّمه إليها[٣].

وقيل: إن الخطاب لعموم[٤] الأمة، والمراد بذي القربى فقراء ذُريّة النبيّ ﷺ، والمراد بالحقّ الخُمس، كما عن مجاهد والسدّي[٥].

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٣٩.
٢. مجمع البيان ٨: ٤٧٨.
٣. مجمع البيان ٨: ٤٧٨، تفسير الصافي ٤: ١٣٣.
٤. في النسخة: بعموم.
٥. مجمع البيان ٨: ٤٧٨.

ثمّ حثّهم في ذلك بقوله: ﴿ذٰلِكَ﴾ الايتاء والعطاء من المال ﴿خَيْرٌ﴾ في نفسه، أو من الامساك، ولكن لا لكلّ الناس، وإن كانوا مشركين أو مرائين، بل ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾ بإعطائهم ﴿وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ ويطلبون به رضاه والقرب إليه، فانّ ذلك المال يبقى ويدوم نفعه إلى الأبد ﴿وَأُولَٰٓئِكَ﴾ المنفقون لوجه الله ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ والفائزون.

وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ * ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ [٣٩و ٤٠]

ثمّ لمّا ذكر سبحانه فائدة إنفاق المال لوجه الله، ذكر عدم الفائدة الأخروية في بذله للاغراض الدنيوية بقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم﴾ وأعطيتم شيئاً ﴿مِّن رِّبًا﴾ وزيادة من هدية وهبة، لا لوجه الله، بل ﴿لِّيَرْبُوَا۟﴾ ويزيد ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ حتى يُعطوكم أكثر وأفضل منه، فهذا المال وإن صار سبباً لزيادة أموالكم في الدنيا، ولكن لما لم يكن بذله لوجه الله ﴿فَلَا يَرْبُوا۟﴾ ولا يزيد ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ ولا يُبارك له فيه، ولا يُثاب عليه.

عن الصادق عليه السلام قال: «الربا رباءان: ربا يُؤكل، وربا لا يُؤكل، فأمّا الذي يُؤكل فهديتك إلى الرجل تطلب منه الثواب أفضل منها، فذلك الربا الذي يُؤكل، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وأمّا الذي لا يُؤكل فهو الذي نهى الله عنه [وأوعد عليه النار]»[١].

وعن الباقر عليه السلام: «هو أن يُعطي الرجل العطية، أو يهدي الهدية ليُثاب أكثر منها، فليس فيه أجر ولا وزر»[٢].

وقيل: إنّ المراد به إعطاء الزيادة في المعاملة أو القرض[٣]. ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم﴾ شيئاً ﴿مِّن زَكَوٰةٍ﴾ مشروعة في الأموال الزكوية أو صدقة ﴿تُرِيدُونَ﴾ به ﴿وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ وتطلبون رضاه والتقرّب إليه، فانّه يزيد عند الله.

عن الصادق عليه السلام قال: «مكتوبٌ على باب الجنة: القرض بثمانية عشر، والصدقة بعشر»[٤].

ثمّ لتعميم الحكم لجميع الأمّة إلى يوم القيامة، التفت من الخطاب إلى الغيبة بقوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾

---

١. الكافي ٥: ١٤٥/٦، التهذيب ٧: ٧٣/١٧، تفسير الصافي ٤: ١٣٤.
٢. مجمع البيان ٨: ٤٧٩، تفسير الصافي ٤: ١٣٤.
٣. تفسير الصافي ٤: ١٣٤، تفسير روح البيان ٧: ٤١.
٤. تفسير القمي ٢: ١٥٩، تفسير الصافي ٤: ١٣٤.

المزكّون ﴿هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ وذوو الأضعاف من الثواب في الأجل والمال في العاجل.

ثمَ أكّد ما أدّعاه سبحانه من التوحيد ونفي الشريك له بقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾ هو القادر ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ في الدنيا ولم تكونوا شيئاً مذكوراً ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ بجُوده ما تعيشون به وتبقون إلى منتهى آجالكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ بقدرته ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ في الآخرة ليجازيكم على أعمالكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ، فهذهالأعمال من شؤون الألوهية فانظروا ﴿هَلْ﴾ أحد ﴿مِن شُرَكَائِكُم﴾ وآلهتكم ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم﴾ الخلق والرزق والإماتة والإحياء ﴿مِن شَيْءٍ﴾؟ لا يفعلون شيئاً منها أبداً إذن﴿سُبْحَانَهُ﴾ ونُنزّهه تنزيهاً بليغاً ﴿وَتَعَالَىٰ﴾ تعالياً كبيراً﴿عَن﴾ شرك ﴿مَا يُشْرِكُونَ﴾ به أو عنإشراكهم.

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ * فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ ٱللهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ[٤١ـ٤٣]

ثمَ نبّه سبحانه على ضرر شرك بني آدم على كافة الموجودات بقوله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ﴾ من القَحط والغَلاء، والطاعون والوَباء، وموت الفُجاءة، وكَساد التجارات، والرفع في الزراعات، والقتل والغارات، والزلازل والحريق والفِتن ﴿فِى ٱلْبَرِّ﴾ من البلدان والقُرى والجبال والأودية ﴿وَ﴾ في ﴿ٱلْبَحْرِ﴾ من الأمواج والغَرق وكسر السفن وموت الدوابّ وغيرها.

قيل:البحر يُطلق على البلدان[1]. وقيل: هو البلاد التي في السواحل[2].

﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ من الشِّرك والظُّلم والعِصيان، وإنّما كان ذلك ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ ونُطعمهم ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا﴾ من المعاصي وقليلاً ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن الشرك إلى التوحيد، ويتوبون من سيئاتهم.

في الأخبار أنّ ظهور الفواحش سبب لفشّو الطاعون والأوجاع، ونقص المكيال والميزان سبب للقِحط وشدّة المؤنة، وجَور السلطان ومنع الزكاة سبب لانقطاع المَطَر، ونقض عهد الله ورسوله سبب لتسلّط العدو، وجَور الحكام في الحُكم سبب لوقوع القتال، وأكل الربا سبب للزّلزلة[3].

ثمَ هدّدهم سبحانه بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين ﴿سِيرُوا﴾ وسافروا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾

---

١. تفسير الرازي ٢٥: ١٢٧.

٢. مجمع البيان ٨: ٤٨٠، تفسير أبي السعود ٧: ٦٢.

٣. تفسير روح البيان ٧: ٤٦.

بنظر الاعتبار ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ وإلى ما صار مآل كُفرانهم ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ فإذا كان الأمر كذلك ﴿فَأَقِمْ﴾ يا محمد ﴿وَجْهَكَ﴾ وأقبل بقلبك الشريف ﴿لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ البليغ في الاستقامة ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ﴾ يوم القيامة، وهو ﴿يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ﴾ ولا مانع عن إتيانه ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾.

وقيل: إنّ الظرف متعلّق بفعل يأتي، والمعنى أنّ اليوم يأتي من الله، ولا يمكن لأحدٍ أن يمنع من إتيانه[1]. فالخلق ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ ويتفرّقون فريق في الجنة وفريق في السعير.

مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ * لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْكَافِرِينَ [٤٤ و ٤٥]

ثمّ بيّن سبحانه الفرقتين بقوله: ﴿مَن كَفَرَ﴾ بالله ورسله واليوم الآخر ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ وضرر ترك إيمانه من العقوبة والنّكال لا على غيره ﴿وَمَنْ﴾ آمن و ﴿عَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَالِحاً﴾ مرضياً عند الله، ويجوز أن يكون المراد هنا من العمل الصالح الايمان، فانّه عمل القلب واللسان ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ﴾ وحدها منزل الراحة الأبدية ﴿يَمْهَدُونَ﴾ ويُهيّئون، أو يفرِشون حتى يستريحون فيه إلى الأبد، وقيل: يعني لأنفسهم يَشْفَقون[2].

وعن الصادق عليه السلام قال: «إن العمل الصالح ليسبق صاحبه إلى الجنّة، فيُمهّد له كما يُمهّد لأحدكم خادمة فراشه»[3].

وإنّما كان تفرّقهم بتفريق الله تعالى فرقتين ﴿لِيَجْزِيَ﴾ الله ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿ٱلصَّالِحَاتِ﴾ الجنة والنِّعم العظيمة الأبدية ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ وجوده، لا من عدله، وإنّما قدّم ذكر جزاء المؤمنين إشعاراً بسبق رحمته غضبه، وبأنّه المقصود الأول.

ثمّ كنّى سبحانه من عذاب المشركين بقوله: ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْكَافِرِينَ﴾ فانّ لازم عدم حُبّه لهم بغضه إياهم، ولازمه العذاب الشديد الدائم، وفيه إشارة إلى أنّه يُحبّ المؤمنين، وهو أفضل الجزاء، كما أنّ عدم حبّه أشدّ العذاب عند العارفين.

رويَ أنّ الله تعالى قال لموسى عليه السلام: «ما خلقتُ النار بُخلاً منّي، ولكن أكره أن أجمع أعدائي وأوليائي في دارٍ واحدة»[4].

وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ

---

١. تفسير أبي السعود ٧: ٦٣، تفسير روح البيان ٧: ٤٧.
٢. جوامع الجامع: ٣٦٠.
٣. مجمع البيان ٨: ٤٨١، تفسير الصافي ٤: ١٣٥.
٤. تفسير روح البيان ٧: ٤٨.

بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[٤٦]

ثمّ إنّه لمّا ذكر سبحانه أنّ الشِّرك سببٌ لظهور الفساد في العالم، نبّه على أنّ التوحيد سبب لصلاحه بقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ وعلائم توحيده وقُدرته وحِكمته ﴿أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ﴾ الشِّمال والجَنوب والصَّبا، فانّها رياح الرحمة، لأنّها من رَوح الله، حال كونها أو لتكون ﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾ للخلق بالمطر، ولطافة الهواء، وصحّة الأبدان، ووفور النِّعم ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾ ويُطعمكم طعم السَّعة والسلامة والراحة الكائنة ﴿مِن رَّحْمَتِهِ﴾ وإحسانه، فإنّه لو لم تُهبّ الرياح لظهر الوَباء والفَساد.

وهذا في مقابل قوله: ﴿ظهر الفساد ... ليذيقهم بعض الذى عملوا﴾[١] ولمّا كان المشركون بعيدين عنه تعالى، كنّى عنهم بضمير الغائب، وكان المؤمنون قريبين منه أتى بضمير الخطاب، وإنّما علّل ما أصابهم من الشرّ ببعض أعمالهم، وأسند ما أصابهم من الخير إلى رحمته تقريراً لقوله: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾[٢].

﴿وَلِتَجْرِيَ﴾ وتسير ﴿الْفُلْكُ﴾ في البحر بسوق الرياح الهابّة[٣] ﴿بِأَمْرِهِ﴾ وتعالى لوضوح أنّ الريح لا تتحرّك بنفسها، بل لها[٤] محرك، إلى أن ينتهي إلى محرّك لا محرّك له ولا يتحرّك، وهو الله الموجِد لكلّ شيء، ومن حركة الرياح ﴿وَلِتَبْتَغُوا﴾ وتطلبوا بركوبها وحمل الأمتعة فيها للتجارة ربحاً وفائدةً كثيرةً ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ تعالى وجُوده لا من كسبكم، ولمّا كان توفيق الشكر من نعمه عطَفَه على النِّعم بقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾ بتوفيقه تعالى ﴿تَشْكُرُونَ﴾ نِعمه وأفضاله.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ[٤٧]

ثمّ إنّه تعالى بعد إثبات التوحيد والمعاد، ذكر أمر الرسالة، وأظهر المنّة بارسال الرسل، وفيه تحذير من أخل بالشُّكر بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ وفي أعصار قبل عصرك ﴿رُسُلاً﴾ كثيرة عظيمة الشأن ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ لهدايتهم إلى توحيدنا ومعرفتنا وشكر نعمتنا ﴿فَجَاءُوهُم﴾ مستدلين على صدقهم في دعوى الرسالة من الله ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والمعجزات الباهرات كالعصا وإحياء الموتى، فكفر كلّ قوم بنعمة إرسال رسولهم وكذّبوه وعارضوه واستهزءوا به ﴿فَانتَقَمْنَا﴾ بإنزال العذاب ﴿مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ وكذّبوا رسولهم، وأصروا على شركهم وكفرهم، وتكذيب رسلهم، وحفظنا المؤمنين من شرّهم وضرّهم والعذاب النازل عليهم، ونصرناهم على أعدائهم ﴿وَكَانَ حَقّاً﴾ واجباً

١.الروم: ٤١/٣٠.   ٢.النساء: ٧٩/٤.   ٣.في النسخة: المهبة.   ٤. في النسخة: بنفسه، بل له.

﴿عَلَيْنَا﴾ بمقتضى حكمتنا ورحمتنا ﴿نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في الدنيا بحفظ إيمانهم، ودفع شرَ أعدائهم، وإنجاءهم ممّا أصاب الكافرين، وفي الآخرة بإنجائهم من أهوال يوم القيامة، وخلاصهم من النار، وإدخالهم الجنة، وإنعامهم بالنِّعم الدائمة والراحة الأبدية، وفيه إشعارٌ بأنّ الانتقام لهم وإظهار لكرامتهم، حيث جعلهم مستحقّين على الله أن ينصرهم.

عن النبي ﷺ: «ما من أمرئٍ مسلم يَرُدّ عن عِرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يَرُدّ عنه نار جهنم يوم القيامة[1]. ثمّ قرأ ﴿كَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾».

وعن الصادق عليه السلام قال: «حَسب المؤمن نصرة أن يرى عدوه يعمل بمعاصي الله»[2].

وفي الآية تبشير للنبيّ ﷺ بالظَّفر في العاقبة على أعدائه، والنصر على من كذّبه، وتسلية لقلبه الشريف حيث لم يؤمنوا به فقال: حالك كحال من تقدّمك من الأنبياء العِظام، فانّهم مع معجزاتهم الباهرات كُذِّبوا وصبروا حتى نصرهم الله على تكذيبهم.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِى ٱلسَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ [٤٨ و ٤٩]

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان إرساله الرسل في السابقين، وتسلية نبيه بذكر حالهم وظفرهم على أعدائهم، عاد إلى الاستدلال على توحيده الذي هو أهمّ المقاصد بذكر كيفية بشارة الرياح بالمطر بقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾ هو القادر بالذات ﴿ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ﴾ المبشّرات برحمته من الشّمال والجَنوب والصَّبا ﴿فَتُثِيرُ﴾ وتنتشر بهبوبها ﴿سَحَاباً﴾ واحداً أو أكثر بارادة الله وأمره ﴿فَيَبْسُطُهُ﴾ ويجعل بعضه متّصلاً ببعض تارة، كي يصير قطعةً واحدةً ﴿فِى﴾ سمت ﴿ٱلسَّمَاءِ﴾ وجهة العلوّ ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ الله تعالى سائراً وواقفاً، مُطبقاً مسيرة يوم أو يومين أو أقلّ أو أكثر، أو غير مُطبق من جانب دون جانب ﴿وَيَجْعَلُهُ﴾ تارة أُخرى ﴿كِسَفاً﴾ وقطعاً كلّ قطعةٍ في طرف، أو يجعل بعضه فوق بعض، كما عن القمي[3] ﴿فَتَرَىٰ﴾ يا محمدّ، أو أيّها الرائي ﴿ٱلْوَدْقَ﴾ والمطر ﴿يَخْرُجُ﴾ بأمر الله ﴿مِنْ خِلَالِهِ﴾ وفُرجه وشُقوقه في التارتين وَابِلاً أو هَطِلاً أو رَذاذاً.

عن وهب: أنّ الأرض شكت إلى الله عزّ وجلّ أيام الطُّوفان، فقالت: يا ربّ، إن الماء خدّدني

---

١. مجمع البيان ٨: ٤٨٤، تفسير الصافي ٤: ١٣٦، تفسير روح البيان ٧: ٥٠.
٢. من لا يحضره الفقيه ٤: ٨٤٧/٢٨٤ و: ٨٨٤/٢٩٣، تفسير الصافي ٤: ١٣٦.
٣. تفسير القمي ٢: ١٦٠، تفسير الصافي ٤: ١٣٦.

وخدّشني، لأنّ الماء خرج بغير وزن ولا كيل غضباً لله تعالى فخدّش الأرض وخدّدها، فقال الله تعالى: إنّي سأجعل للماء غِربالاً لا يُخدّدك ولا يُخدّشك، فجعل السّحاب غِربال المطر [١].

﴿فَإِذَا أَصَابَ﴾ الله ﴿بِهِ﴾ وأنزله على أراضي ومزارع ﴿مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أو بلادهم ﴿إِذَا هُمْ﴾ بمجيء الخَصب والأمن من القَحط ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ويفرحون ﴿وَإِن﴾ الشأن أن الذين أصابهم المطر ﴿كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ﴾ المطر ﴿عَلَيْهِم مِن قَبْلِهِ﴾ وإنّما كرّر كلمة ﴿مِن قَبْلِ﴾ تأكيداً ودلالةً على تطاول عهدهم به ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ وآيسين من نزوله.

وقيل: إنّ ضمير (من قبله) راجع إلى إرسال الرياح [٢]، لأنّ الخبير بعد الريح وبسط السّحاب يعرف أن فيه المطر.

فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ ٱللهِ كَيْفَ يُحْيِي ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذٰلِكَ لَمُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ * فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنتَ بِهادِى ٱلْعُمْيِ عَن ضَلاَلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ [٥٠ ـ ٥٣]

ثمّ إنّه تعالى بعد إثبات التوحيد بالتفصيل المذكور، أمر الناس بالاعتبار بآثار المطر وإحياء الأرض بقوله: ﴿فَانظُرْ﴾ أيّها الناظر بنظر الاعتبار ﴿إِلَىٰ آثَارِ﴾ المطر الذي هو من ﴿رَحْمَةِ ٱللهِ﴾ من النبات والأزهار والأشجار والثِّمار، وتفكّر في أنه تعالى ﴿كَيْفَ يُحْيِي ٱلْأَرْضَ﴾ بتلك الآثار ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ويُبسها وعدم ظهور فائدة فيها، وتنبّه على عِظم شأنه وكمال قدرته واعلم ﴿إِنَّ ذٰلِكَ﴾ الربّ العظيم المُحيي للأرض الميتة ﴿لَمُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ﴾ البتة بعد صيرورتهم تُراباً في الآخرة للحساب وجزاء الأعمال ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من إحياء الموتى وغيره ممّا يُمكن أن يوجد ﴿قَدِيرٌ﴾ لا يتصوّر فيه العجز، فانّ نسبة قدرته إلى جميع المُمكنات سواء.

ثمّ ذمّ سبحانه الكفّار بقوله: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً﴾ مُضرّة حارة أو باردة، فأفسدت زرع الكفار ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً﴾ من أثر الريح بعد كونه مُخضرّاً، فيأسوا من نفعه ﴿لَظَلُّوا﴾ وصاروا ﴿مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ جميع نِعم الله عليهم، ولم يلتجئوا إليه بالاستغفار، بخلاف المؤمن الشاكر الصابر، فانّه يَحْمَد الله على كلّ حالٍ، ولا يحزنون على ما فاتهم من المنافع، ولا يفرحون بما آتاهم الله، وإنّما يكون فَرحهم بطاعة الله، وحُزنهم على معصيته، فأولئك الكفّار كالموتى لسلب المشاعر عنهم، فلا

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٥١.

٢. تفسير الرازي ٢٥: ١٣٣.

تطمع يا محمد في قبولهم دعوتك وإيمانهم بك ﴿فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ﴾ دعوتك ومواعظك ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لعدمَ قابليتهم للاستماع، وهم كالصُّم الذين لا يسمعون ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَاءَ﴾ والنداء خصوصاً ﴿إِذَا وَلَّوْا﴾ وأعرضوا عنك حال كونهم ﴿مُدْبِرِينَ﴾ وجاعلين ظهورهم نحوك، فانّهم إذن لا يَرَون إشاراتك وحركات شفتيك حتى يفهموا بفِراستهم أنَك تُكلّمهم وتُخاطبهم وهم لفقدهم البصيرة كالعُمي ﴿وَمَا أَنتَ بِهادِى ٱلْعُمْيِ﴾ ومُدلّهم إلى الطريق بلسانك، وصارفهم ﴿عَن ضَلاَلَتِهِمْ﴾ وسلوكهم في غير الطريق ﴿إِن تُسْمِعُ﴾ دعوتك ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ﴾ ويُصدّق ﴿بِآيَاتِنَا﴾ القرآنية، ويتدبّر فيها، ويتلقّاها بالقبول.

ويجوز أن يكون المراد بالمؤمن المشارف للايمان والمقبل على الآيات بقلبه ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ ومنقادين لإجابة دعوتك وإطاعة أوامرك.

ٱللهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ * وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَابِ ٱللهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ[٥٤ـ٥٧]

ثمّ بالغ سبحانه في الاستدلال على توحيده وقدرته بقوله: ﴿ٱللهُ﴾ تعالى هو القادر ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِن﴾ مبدأ ضعيف يصِحّ أن يقال من غاية ضعفه أنّه عين ﴿ضَعْفٍ﴾ كالتُّراب والنطفة، ثمّ ربّاكم في الأرحام ﴿ثُمَّ جَعَلَ﴾ لكم ﴿مِن بَعْدِ ضَعْفٍ﴾ كان فيكم وأنتم أجنّة ﴿قُوَّةً﴾ على الحركة، وأمتصاص الضَّرع وشُرب اللَّبن منه، ودفع الأذى عنكم بالبكاء، ثمّ ربّاكم حتى بلغتم سنّ الشباب وأكمل قواكم ﴿ثُمَّ جَعَلَ﴾ لكم ﴿مِن بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ كانت لكم في الشباب ﴿ضَعْفاً﴾ آخر حين الشيخوخة والكِبَر ﴿وَشَيْبَةً﴾ وهَرماً ومن المعلوم أنّ هذه الأطوار والأحوال للخلق لا تكون بالطبيعة بل الله ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ من الضَّعف والقوّة والشباب والشيب والهَرم ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوال خلقه ﴿ٱلْقَدِيرُ﴾ على نقله من حال إلى حال.

ثمّ إنّه بعدذكر أحوال خلقه فيالدنيا وأطوارهم، ذكر بعض أحوال الكفّار فيالآخرة بقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ وتجيء وقت جزاءالأعمال، يُسأل الكفّار عن مدّة لبثهم في الدنيا، فحينئذٍ ﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾

والعاصون المنكرون للحشر بالله على أنّهم ﴿مَا لَبِثُوا﴾ وما مكثوا فيها ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ ومدّة في غاية القلّة.

وقيل: إنّ المراد مدّة لبثهم في القُبور، أو بعد فناء الدنيا إلى النشور[١]. وعلى كلّ تقديرٍ كان جوابهم إفكاً وكذباً و﴿كَذٰلِكَ﴾ الإفك والكذب ﴿كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ ويُصرَفون من الحقّ إلى الباطل، ومن الصدق إلى الكذب ﴿وَقَالَ﴾ الملائكة أو الأنبياء والمؤمنون ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا﴾ من قبل الله ﴿ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَانَ﴾ ردّاً عليهم وإنكاراً لكذبهم: والله ﴿لَقَدْ﴾ كذبتم بل ﴿لَبِثْتُمْ﴾ في المدة التي كانت مكتوبة ﴿فِى كِتَابِ ٱللهِ﴾ واللّوح المحفوظ، وهي المدّة المديدة ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ لا الساعة الحقيقية ﴿فَهٰذَا﴾ اليوم ﴿يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ الذي وَعَدكم به الأنبياء ﴿وَلٰكِنَّكُمْ﴾ لفَرْط جهلكم وتفريط النَّظر ﴿كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ في الدنيا أنّه الوعد الحقّ، وتستعجلون به استهزاءً ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بإنكار التوحيد والمعاد ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ وكلمات تُمحى بها ذنوبهم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ويُؤمرون بما يرضون به ربّهم وبه يمحون ذنوبهم من التوبة والطاعة، لعدم قبولها منهم، كما يُؤمرون به في الدنيا ويُقبَل منهم فيها.

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هٰذَا ٱلْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ * كَذٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ [٥٨ـ٦٠]

ثمّ بيّن سبحانه قطع عُذرهم في الدنيا بقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ ووالله قد بيّنا ﴿لِلنَّاسِ﴾ عموماً ﴿فِى هٰذَا ٱلْقُرْآنِ﴾ الكريم بأوضح بيان ﴿مِن كُلِّ﴾ ما يحتاجون إليه من العقائد الصحيحة والأحكام الحقّة والأدب والحكم بحيث يكون في الغرابة ﴿مَثَلٍ﴾ فلا يبقى لهم العُذر في ترك أخذها وعدم العمل بها من قبلنا، وأمّا من قبلك في رسالتك فقد أتيت لهم ما يثبت به برسالتك ﴿وَ﴾ والله ﴿لَئِن جِئْتَهُم﴾ وأتيت لهم ﴿بِآيَةٍ﴾ من القرآن الذي هو أعظم المعجزات ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأصرّوا على العِناد لك وللمؤمنين بك ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ وكاذبون فيما تدّعون ﴿كَذٰلِكَ﴾ الطّبع الفضيع والختم الشنيع ﴿يَطْبَعُ ٱللهُ﴾ ويختِم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سوء عاقبة العقائد الفاسدة، ولا يُدركون الحقّ ودلائله، فيصِرّون على خُرافات اعتقدوها وتُرّهات ابتدعوها.

﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمدَ على أذاهم ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ﴾ بنصرك عليهم وتعذيبهم ﴿حَقٌّ﴾ لا خلْف فيه ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ ولا يُغيضك، أو لا يَحْمِلنّك على القلق والخِفّة جزعاً القوم ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾

---

١. تفسير الرازي ٢٥: ١٣٦.

بصدقك وبالآيات التي نُنزّلها عليك، فتكُفّ عن الدعوة وتتهاون في القيام بوظيفة النبوة، فإنّهم شاكّون ظالّون ولا يُسْتَبْعَد منهم التكذيب والإيذاء.

الحمد لله على نِعمه العظام التي منها إتمام تفسير السورة المباركة.

في تفسير سورة لقمان

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓم * تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْحَكِيمِ * هُدىً وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلٰئِكَ عَلَىٰ هُدىً مِن رَبِّهِمْ وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ[١ ـ ٥]

ثمَ لمَا خُتِمت سورة الروم ببيان عظمة القرآن وإعجازه بقوله: **﴿ولقد ضربنا﴾** إلى آخره، وتكذيب الكفّار له، وأمره تعالى نبيّه بالصبر على تكذيبهم واستهزائهم به، اُردفت بسورة لقمان المبدوءة بذكر عظمة القرآن وكونه هُدىً ورحمة، وإعراض المشركين عنه وتكذيبهم إياه، وذكر وصايا لقمان الحكيم وأمره بالصبر، فابتدأها بذكر أسمائه المباركة بقوله: **﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾**.

ثمَ افتتحها بالحروف المقطَعة بقوله: **﴿الٓم﴾** جلباً لتوجّه الناس إلى ما بعدها من ذكر عظمه القرآن وإعجازه بقوله: **﴿تِلْكَ﴾** السورة والآيات **﴿آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْحَكِيمِ﴾** والقرآن المتضمّن للعلوم الكثيرة والحكم الوفيرة، أو المُحكم المَصُون من التغيير والتبديل، والمحروس من الفساد والبطلان، حال كون الآيات **﴿هُدىً﴾** ورشاداً من الضلالة **﴿وَرَحْمَةً﴾** وسبباً للارتقاء بالمراتب العالية من الكمالات الانسانية، والدرجات الرفيعة من الجنة **﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾** إلى أنفسهم باختيار العقائد الصحيحة، وارتكاب الأعمال الصالحة، وهم **﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلاَةَ﴾** التي هي عمود دينهم **﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ﴾** التي هو رُكن الاسلام **﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ﴾** ودار جزاء الأعمال **﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾** ولا يشُكَون فيها **﴿أُوْلٰئِكَ﴾** المحسنون المتّصفون بالصفات الجليلة مستولون **﴿عَلَىٰ هُدىً﴾** ورشاد حاصل **﴿مِن رَبِّهِمْ﴾** اللطيف بهم وطريق بَيّنهُ الله لهم ووفّقهم لسلوكه.

ثمَ وعدهم بأفضل الجزاء بقوله: **﴿وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾** والفائزون بأعلى المقاصد، والناجون من جميع المهالك والمكارة، لاستجماعهم العقيدة الحقة والأعمال الصالحة.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا

هُزُواً أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ[٦ و ٧]

ثمَ شرع في ذمّ المشركين الصادّين عن سبيل الله بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وبعضهم ﴿مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ ويترك استماع القرآن وقراءته اللتين[١] فيهما كلّ خير، ويستبدلهما باستماع ما لا خير فيه من الكلام كأساطير الأولين وقَصص رستم وإسفنديار.

قيل: نزلت في النَّضر بن الحارث بن كَلَدَة الذي قتله النبي ﷺ صبراً بعد وقعة بدر[٢].

رُوي أنّه ذهب إلى فارس للتجارة، فاشترى كتاب (كليلة ودمنة) و(أخبار رستم وإسفنديار) و(أحاديث الأكاسرة) فجعل يحدّث بها قريشاً في أنديتهم ويقول: إنّ محمّداً يُحدّثكم بعاد وثمود، وأنا أحدّثكم بحديث رستم وإسفنديار، فيستملحون حديثه، ويتركون استماع القرآن[٣]، وكان عمله ذلك ﴿لِيُضِلَّ﴾ الناس ويصرفهم ﴿عَن﴾ سلوك ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والدخول في دينه الحقّ، ويمنعهم بتلك الخُرافات عن قراءة كتابه الهادي إلى المصالح الدنيوية والأُخروية ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بضرر ما يشتريه وبالمعاملة الرابحة، ومع ذلك يَسْخَر بسبيل الله ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً﴾.

وعن الصادق عليه السلام في تفسير لهو الحديث قال: «هو الطعن في الحقّ، والاستهزاء به، وما كان أبو جهل وأصحابه يجيئون به» إلى أن قال: «ومنه الغِناء»[٤].

وعن الباقر عليه السلام: «الغِناء ممّا أوعد الله عليه النار» وتلا هذه الآية[٥].

وعنه أنّه سُئل عن كسب المغنّيات فقال: «التي يدخُل عليها الرجال حرام، والتي تُدعى إلى الأعراس ليس به بأس، وهو قول الله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الآية»[٦] وعليه جمع المفسرين، كابن عباس وابن مسعود وغيرهما[٧].

وعن مجاهد: أنّ الآية نزلت في الذين يشترون المغنيات ويصرفون الناس عن استماع القرآن بألحانهنّ[٨].

وعن الزمخشري: أنّ بعض قريش يشترون المغنيات، فاذا أطّلعوا أن أحداً أراد قَبول الاسلام طلبوه وأطعموه الطعام، وسقوه الشراب، وأمروا المغنيات يغنّين له، ثم قالوا: هذا خيرٌ ممّا يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام والقتال بين يديه[٩].

---

١. في النسخة: التي. ٢. تفسير روح البيان ٧: ٦٥. ٣. تفسير روح البيان ٧: ٦٥.
٤. مجمع البيان ٨: ٤٩٠، تفسير الصافي ٤: ١٤٠. ٥. الكافي ٦: ٤/٤٣١، تفسير الصافي ٤: ١٤٠.
٦. الكافي ٥: ١/١١٩، تفسير الصافي ٤: ١٤٠. ٧. مجمع البيان ٨: ٤٩٠.
٨. الدر المنثور ٦: ٥٠٧. ٩. الكشاف ٣: ٤٩٠.

﴿أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ مذلّ لاهانتهم بالقرآن وبدين الله ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ القرآنية ﴿وَلَّىٰ﴾ وأعرض عنه حال كونه ﴿مُسْتَكْبِراً﴾ ومبالغاً في الترفّع عن استماعها وعن إطاعة أحكامها والايمان بها، ومن المعلوم أنّه لا يتصوّر التولّي عنه ممّن سَمِعها لما فيها من الفصاحة والبلاغة وحُسن الأُسلوب وطلاقة البيان بحيث عجز الإنس والجنّ من الاتيان بمثله، وهذه الأُمور موجبات الاقبال عليها والخضوع لها، فالمتولى عنها[1] يكون ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ ولم يكُن عدم سَماعه لها من باب الاتفاق مع كثرة تلاوتها عنده، بل ﴿كَأَنَّ﴾ حبّ الجاه والحسد والأخلاق الرذيلة أحدث ﴿فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً﴾ وثقلاً مانعاً من سَماعها، ولو تُليت عليه ألف مرّة، فكأنّه مشتاقٌ إلى الكفر وما يترتّب عليه من العذاب ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ يا محمد ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يُبتلىٰ به في الآخرة، كما يُبشّر بما يُحبّه من شهوات الدنيا.

إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ ٱلنَّعِيمِ * خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللهِ حَقّاً وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * خَلَقَ ٱلسَّماوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّماءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هٰذَا خَلْقُ ٱللهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ ٱلظَّالِمُونَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ[٨-١١]

ثمّ أنّه تعالى بعد ما هدّد الكفّار بعاقبة كفرهم واستكبارهم عن سَماع الآيات القرآنية، بشّر المؤمنين بحُسن مآل إيمانهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدانية الله ورسالة رسوله والدار الآخرة ﴿وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿ٱلصَّالِحَاتِ﴾ المرضيات عند ربّه ﴿لَهُمْ﴾ بالاستحقاق في الآخرة ﴿جَنَّاتُ﴾ فيها ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ الدائم - قيل: يعني نعيم جنّاتٍ فعَكَس[2]. وقيل: جنّات النعيم إحدى الجنّات الثمان، كما عن ابن عباس[3] - حال كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ ومقيمين ﴿فِيهَا﴾ يكون هذا الوعد ﴿وَعْدَ ٱللهِ﴾ وقيل: يعني وعد الله وعداً، وحقّ ذلك الوعد[4] ﴿حَقّاً﴾ لا يمكن الخُلف له، لأنّه تعالى هو الغنيّ بالذات، ولا يكذِب أحدٌ إلّا للحاجة ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ والغالب على كلّ شيء، فلا يقدِر أحدٌ على أن يمنعه من إنجاز وعده و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يصدُر منه إلّا ما هو مقتضى الحكمة والصلاح.

ثمّ لمّا هدّد سبحانه المشركين بأشدّ العذاب، ووعد المؤمنين بأعظم الثواب، ووصف ذاته المقدّسة

---

١. في النسخة: عنه. ٢. تفسير أبي السعود ٧: ٧٠. ٣. تفسير روح البيان ٧: ٦٦.
٤. تفسير روح البيان ٧: ٦٧.

بالعزّة والغَلَبة على جميع الموجودات والحكمة البالغة، استدلّ على كمال قدرته على الوفاء بالوعد وعلى غلبته وحكمته بقوله: ﴿خَلَقَ﴾ الله ﴿ٱلسَّماوَاتِ﴾ السبع معلّقات في الجوّ ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ وأسطوانات تمنعها من السقوط كما ﴿تَرَوْنَهَا﴾ كذلك، أو المراد بغير عَمَد مرئية، وإن كان لها عَمَد غير مرئية، وهي قدرة الله تعالى.

عن الرضا عليه السلام: «ثَمَّ عَمَدٌ، ولكن لا ترونها»[1].

﴿وَأَلْقَىٰ﴾ وطرح سبحانه ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كما تُلقى الحصاة من اليد فيها جبالاً ﴿رَوَاسِيَ﴾ وثابتات تثبُتُ وتستقرّ بها الأرض كراهة ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ من جانبٍ إلى جانبٍ وتحرّككم بحركتها.

عن الضحاك: أنّ الله خلق تسعة عشر جبلاً في الأرض ليثبّتها بها كالمِسمار، منها جبل قاف، وجبل أبي قُبيس، وجبل جُودي، وجبل لبنان، وجبل سينين، وطُور سَيْناء، وجبل فاران. وقيل: إنّ الجبال عِظام الأرض وعُروقها[2].

﴿وَبَثَّ﴾ ونشر ﴿فِيهَا﴾ بقدرته ﴿مِن كُلِّ﴾ نوعٍ من الأنواع و﴿دَابَّةٍ﴾ وحيوان مع كثرتها واختلاف أجناسها وأصنافها ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّماءِ﴾ وجهة العُلوّ ﴿مَاءً﴾ نافعاً بالأمطار ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا﴾ بسبب الأمطار ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ وصنف ﴿كَرِيمٍ﴾ وكثير النفع للإنسان والدوابّ إبقاءً لهما، فمن نظر إلى النباتات والأشجار، وتفكّر في عجائب صُنعه فيها وغرائب قدرته، حار عقله، وكَلَّ فِكرُه، كيف لا وأنت ترى اختلاف أشكالها، وتباين ألوانها، وكَثرة خواصّها، وصور أوراقها، وروائح أزهارها، وعجائب أنواع أثمارها وحبوبها، فانّ لكلٍّ من النباتات ورق ولون وريح وزَهر وثَمر وحبّ وخاصية لا تُشبه الأُخرى، ولا يعلم الحُكم في خلقها إلّا الله، وما يعرفه الانسان بالنسبة إلى ما لا يعرفه كقطرة من البحر.

﴿هَذَا﴾ الذي ذكر من السماوات والأرض والجبال والحيوان والماء والنبات ﴿خَلْقُ ٱللهِ﴾ القادر الحكيم ﴿فَأَرُونِى﴾ أيّها المشركون ﴿مَاذَا خَلَقَ﴾ الآلهة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ تَعبُدونها ﴿مِن دُونِهِ﴾ وممّا سواه، وتدّعون أنّهم شركاؤه في استحقاق العبادة، والله لم يَخْلُقوا شيئاً، ولا يملِكون نفعاً ولا ضرّاً ﴿بَلِ﴾ المشركون ﴿ٱلظَّالِمُونَ﴾ على أنفسهم باتخاذهم آلهة، وإشراكهم له في العبادة ﴿فِى ضَلَالٍ﴾ وانحرافٍ ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهرٍ عن الصراط المستقيم بحيث لا يخفى على من كان له أدنى مرتبةٍ من الشعور وأقلّ درجةٍ من البصيرة، فأعرض سبحانه عن المشركين وكفّار قريش وغيرهم، وأضرب عن إلزامهم إلى التسجيل عليهم بالبُعد عن الحقّ بُعداً واضحاً لا يخفى على ناظر.

---

١. تفسير القمي ٢: ٣٢٨، تفسير الصافي ٤: ١٤٠.
٢. تفسير روح البيان ٧: ٧١.

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ[١٢]

ثمّ أنه تعالى بعد ذِكر أدلّه التوحيد، حكى توحيد لقمان الذي كانت حكمته ووصاياه على ما قيل مشهورة في اليهود وغيرهم من أهل الكتاب، بحيث إذا اعترى للعرب همّ[١] رجعوا فيه إلى اليهود، فضربوا لهم الأمثال بما قاله لقمان من الحكم[٢]، بقوله: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا**﴾ وأعطينا ﴿**لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ**﴾ ومعرفة حقائق الأشياء ومصالح الأمور ومفاسدها، وتوفيق العمل بعلمه، وتهذيب الأخلاق، وتكميل النفس، وطول الفكر، وإصابة النظر في المعارف الالهية.

وعن الكاظم عليه السلام قال: «الفهم والعقل»[٣].

وعن الصادق عليه السلام: قال: «أوتي معرفة إمام زمانه»[٤].

قيل: إنّه كان ابن باعور بن ياجور بن تارخ أبي إبراهيم الخليل[٥]. وقيل: اسم ابيه آذر[٦]. وقيل: إنّه ابن عنقاء بن سرون[٧]. وقيل: إنّه كان من بني إسرائيل، وكان ابن اُخت أيوب[٨]. وقيل: كان ابن خالته[٩]. وقيل: إنّه كان عبداً نوبياً من أهل أيله[١٠]. وعن المسيب: هو أسود من سودان مصر[١١]. وقيل: إنّه كان حبشياً ونما في بني اسرائيل[١٢]. قيل: إنّه كان عبداً أسود اللون، غليظ الشفتين، منشقّ القدمين[١٣].

وعن ابن عباس: أنّ لقمان لم يكن نبياً ولا مَلِكاً، ولكن كان راعياً أسود، فرزقه الله العِتق، ورضي قوله ووصيته[١٤].

وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «حقّاً أقول لم يكن لقمان نبياً، ولكن كان عبداً كثير التفكّر، حسن اليقين، أحبّ الله فأحبّه ومنّ عليه بالحكمة»[١٥].

[رُوي أنّ لقمان] كان نائماً نصف النهار إذ جاءه نداء: يا لقمان، هل لك أن يجعلك الله خليفةً فيالأرض تحكم بين الناس بالحق؟ فأجاب الصوت: إن خيّرني ربّي قَبِلت العافية ولم أقبل البلاء، وإن هو عزم عليّ فسمعاً وطاعة، فانّي أعلم أنّه إن فعل بي ذلك أعانني وعصمني.

فقالت الملائكة بصوت لا يراهم: لم يا لقمان؟ قال: لأنّ الحُكم أشدّ المنازل وأكدرها، يغشاه الظُّلم

---

١. كذا، والظاهر مهم.
٢. تفسير روح البيان ٧: ٧٣.
٣. الكافي ١: ١٢/١٠، تفسير الصافي ٤: ١٤١.
٤. تفسير القمي ٢: ١٦١، تفسير الصافي ٤: ١٤١.
٥. تفسير روح البيان ٧: ٧٣.
٦. تفسير أبي السعود ٧: ٧١، تفسير روح البيان ٧: ٧٣.
٧. تفسير روح البيان ٧: ٧٣.
٨. مجمع البيان ٨: ٤٩٤، جوامع الجامع: ٣٦٢.
٩. جوامع الجامع: ٣٦٢.
١٠. تفسير روح البيان ٧: ٧٣.
١١. تفسير الكشاف ٣: ٤٩٣.
١٢. تفسير الكشاف ٣: ٤٩٣.
١٣. مجمع البيان ٨: ٤٩٣.
١٤. مجمع البيان٨: ٤٩٣.
١٥. تفسير روح البيان ٧: ٧٣، مرسلاً.

من كلّ مكانٍ، إن أصاب فبالحريّ أن ينجو، وإن أخطأ طريق الجنة، ومن يكن في الدنيا ذليلاً خيرٌ من أن يكون شريفاً ـ وفي رواية: ومن يكُن في الدنيا ذليلاً، وفي الآخرة شريفاً، خيرٌ من أن يكون في الدنيا شريفاً، وفي الآخرة ذليلاً ـ ومن يَخْتَر الدنيا على الآخرة تَفُتْه الدنيا ولا يُصيب الآخرة. فعجبت الملائكة من حُسن منطقه، فنام نومة فأعطي الحكمة، فانتبه وهو يتكلّم بها[١].

وقيل: ثمّ نُودي داود فَقَبِلها، وقال له داود: طوبى لك يا لقمان أُعطيت الحكمة، وصُرِفت عنك البلوى. وكان لقمان يؤازره بحكمته[٢].

وقيل: إنّه ولد في السنة العاشرة من سلطنة داود، وعاش إلى زمان يونس النبي[٣].

وقيل: عمّر ألف سنة، وتعلّم من ألف نبيّ، وكان راعياً أو نجّاراً[٤]. ونُقِل عنه عشرة آلاف كلمة حكمة، كلّ كلمةٍ تسوّى بجميع العالم[٥].

قيل: إنّ أول ما ظهرت من حكمته أنّه قال له مولاه وهو يرعى أغنامه: يا لقمان، اذبح شاةً، وآتني منها بأطيب مُضْغَتين. فأتاه باللسان والقلب، ثمّ قال له: اذبح شاةً، وآتني بأخبث مُضغتين منها. فأتاه باللسان والقلب، فسأله عن ذلك، فقال لقمان: ليس شيءٌ أطيب منهما إن طابا ولا أخبث منهما إن خَبُثا، فاستحسن كلامه فاعتقه[٦].

ورُوي من حكمته الطيبة أنّه بينا هو مع مولاه، إذ دخل المَخْرَج[٧]، فأطال الجلوس، فناداه لقمان: إنّ الجلوس على الحاجة يتجزّع منه الكَبِد، ويُورِث الناسور، ويُصعّد الحرارة إلى الرأس، فاجلِس هويناً وقُم هويناً. فخرج وكتب حكمته على باب الحُشّ[٨].

وقيل: بينا هو يعِظُ الناس يوماً وهم مجتمعون عليه لاستماع كلمة الحكمة، إذ مرّ به عظيمٌ من عظماء بني إسرائيل، فقال: ما هذه الجماعة؟ قيل له: هذه جماعة اجتمعت على لقمان الحكيم. فأقبل إليه فقال له: ألست العبد الأسود الذي كنتَ ترعى بموضع كذا وكذا؟ قال: نعم. فقال: فما الذي بلغ بك ما أرى؟ قال: صِدق الحديث، وأداء الأمانة وترك ما لا يعني[٩].

وحكي أنّه قال: خدمتُ أربعة آلاف نبي، واخترتُ من كلماتهم ثماني كلمات: إن كنت في الصلاة فاحْفَظ قلبك. وإن كنت في الطعام فاحْفَظ حلقك، وإن كنت في بيت الغير فاحْفَظ عينيك، وإن كنت

١. مجمع البيان ٨: ٤٩٤، تفسير الصافي ٤: ١٤١، تفسير روح البيان ٧: ٧٥.
٢. مجمع البيان ٨: ٤٩٤، تفسير الصافي ٤: ١٤٢، تفسير روح البيان ٧: ٧٥.
٣. مروج الذهب ١: ٧٠.
٤. تفسير الكشاف ٣: ٤٩٣.
٥. لم نعثر عليه.
٦. تفسير روح البيان ٧: ٧٦.
٧. المَخْرَج: الحُشّ أو الكنيف، وهو موضع قضاء الحاجة.
٨. تفسير روح البيان ٧: ٧٦.
٩. تفسير روح البيان ٧: ٧٦.

بين الناس فاحْفَظ لسانك، واذكُر اثنين، وانْسَ اثنين، أمّا اللّذان تَذكُرهما فالله والموت، وأما اللذان تنساهما إحسانك في حقّ الغير، وإساءة الغير في حقّك[١].

وقيل: إنه كان مع داود ثلاثين سنة، وكان عنده يوماً، فرآه يسرُد الدِّرع[٢]، فجعل لقمان يتعجَب ممّا يرى، ويُريد أن يسأله وتمنعه حكمته عن السؤال، فلمّا أتمّها لَبِسها، وقال: نِعم لَبُوس الحرب هذه. فقال لقمان: إنّ من الحكمة الصّمت، وقليل فاعله. فقال داود: بحقّ سُمّيت حكيماً[٣].

وقيل: إنّ داود قال له يوماً: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحتُ بيد غيري. فتفكّر داود فيه، فصَعِق صعقةً، وخرّ مغشيّاً عليه[٤].

وقيل له: أيّ الناس شرّ؟ قال: الذي لا يُبالي أن يراه الناس مُسيئاً[٥].

وقال: الدنيا بحرٌ عميقٌ، هلك فيه خلقٌ كثيرٌ، فاجعل الايمان بالله سفينتك، والتقوى زاد الآخرة، فمن نجا فبرحمة الله، ومن هلك فبذنوبه[٦].

وقال: ليس مالٌ كالصِحّة، ولا نعيم كطيب النفس.

وقيل: إنّه قَدِم من سفرٍ، فلقي غُلامه في الطريق ، فقال: ما فعل أبي؟ قال: مات. قال: الحمد لله ملكتُ أمري. قال: ما فعلت أُمّي؟ قال: ماتت. قال: ذهب همّي. قال: ما فعلت أُختي؟ قال: ماتت. قال: سُتِرت عورتي. قال: ما فعلت زوجتي؟ قال: ماتت. قال: جُدّد فراشي. قال: ما فعل أخي؟ قال: مات. قال: انقطع ظهري، وكُسِر جَناحي. قال: ما فعل ابني؟ قال: مات. قال: تصدّع قلبي[٧].

وقال يوماً لداود: احْفَظ منّي خمس كلمات فيها علم الأولين والآخرين: أوّلها: ليكن عملك للدنيا بقدر لبثك فيها، وثانيها: ليكن عملك للآخرة بقدر لبثك فيها. ثالثها: ليكن همّك أن يُعتقك مولاك من النار. رابعها: ليكن جزاؤك على المعصية بقدر صبرك على النار. خامسها: إذا أردت العصيان فاطلُب مكاناً لا يراك فيه ربّك.

عن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن لقمان وحكمته التي ذكرها الله عزّ وجلّ [فقال]: «أما والله ما أُوتي لقمان الحكمة بحَسَبٍ، ولا مالٍ، ولا أهلٍ، ولا بَسْطٍ في الجسم، ولا جمالٍ، ولكنّه كان رجلاً قوياً في أمر الله، متورّعاً في الله، ساكناً سكيناً، عميق النّظر، طويل الفِكر، حديد النظر، مستعبراً بالعبر[٨]، لم يَنَم

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٧٣.
٢. سَرَد الدرع: نسجها فشَكّ طرفي كلّ حلقتين وسمّرهما.
٣. تفسير روح البيان ٧: ٧٦.
٤. تفسير روح البيان ٧: ٧٦.
٥. مجمع البيان ٨: ٤٩٦.
٦. من لا يحضره الفقيه ٢: ٨٣٣/١٨٥، مجمع البيان ٨: ٤٩٦.
٧. تفسير روح البيان ٧: ٧٧.
٨. في النسخة: مستغن بالغير.

نهاره قطَ، ولم يَرَه أحدٌ على بولٍ ولا غائطٍ ولا اغتسالٍ، لشدَة تَستُّره، وعمق[١] نظره، وتَحفُّظه في أمره، ولم يضحك من شيءٍ قطَ مخافة الإثم، ولم يغضب قطُّ، ولم يُمازِح إنساناً قطُّ، ولم يفرح بشيءٍ إذا أتاه من أمر الدنيا، ولا حزن منها على شيءٍ قطُّ، وقد نَكَح من النساء وولد له الأولاد الكثير، وقدّم أكثرهم أفراطاً[٢] فما بكى على موت أحدٍ منهم، ولم يَمُرّ برجلين يختصمان أو يقتتلان إلّا أصلح بينهما، ولم يمض عنهما حتى تحابّا، ولم يسمع قولاً قطُّ من أحدٍ استحسنه إلّا سأل عن تفسيره وعمَن أخذه، وكان يُكثِر مجالسة الفقهاء والحكماء، وكان يغشى القُضاة والمُلوك والسلاطين، فيرثي القُضاة ممّا ابتُلوا به، ويرحَم الملوك والسلاطين لعزّتهم بالله وطُمأنينتهم في ذلك، ويعتبر ويتعلّم ما يغلِب به نفسه، ويُجاهد به هواه ويحترِز به من الشيطان، وكان يُداوي قلبه بالتفكّر، ويداوي نفسه بالعِبَر، ولا يَضْعَن إلّا فيما يعينه، فبذلك أُوتي الحكمة ومُنِح العَصمة»[٣].

ثمّ ذكر قصّة تخييره بين الخلافة والحكمة قريباً ممّا حُكيت عن العامة، إلى أن قال: «فلمّا أمسى وأخذ مَضْجَعه من الليل، أنزل الله عليه الحكمة، فغشيه بها من قَرنه إلى قدمه»[٤] الخبر.

وقال الله له: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ على ما أنعم عليك من الحكمة وغيرها من النِّعم ﴿وَمَن يَشْكُرْ﴾ نِعم الله ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ﴾ ونفع شكره عائدٌ ﴿لِنَفْسِهِ﴾ لا يتعدّاه إلى غيره، وهو داوم النعمة واستحقاق المزيد.

وعن الصادق عليه السلام: «شُكر كلّ نعمةٍ وإن عَظُمت أن يُحمدَ الله عليها[٥]، وإن كان فيما أنعم عليه حقّ أدّاه»[٦] وفي رواية أُخرى عنه عليه السلام: «من أنعم الله عليه بنعمةٍ فعرفها بقلبه، فقد أدّى شُكرها»[٧].

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ نعمة الله، وخالف أحكامه وأوامره، وأنكر توحيده وحقّ نِعمه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عنه، ولا يحتاج إلى شكره وعبادته ﴿حَمِيدٌ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله، محمودٌ في أرضه وسمائه، سَواء حَمَده خَلْقُه أو شَكَره عبادُه، أو لم يَحْمَدوه وكَفَرُوه.

وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ * وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ

---

١. في النسخة: وعموق. ٢. أي ماتوا صغاراً قبل أن يبلغوا الحلم.
٣. تفسير القمي ٢: ١٦٢، مجمع البيان ٨: ٤٩٧، تفسير الصافي ٤: ١٤٢.
٤. تفسير القمي ٢: ١٦٣، تفسير الصافي ٤: ١٤٣. ٥. الكافي ٢: ١١/٧٨، تفسير الصافي ٤: ١٤١.
٦. الكافي ٢: ١٢/٧٨، تفيسر الصافي ٤: ١٤١. ٧. الكافي ٢: ١٥/٧٩، تفسير الصافي ٤: ١٤١.

لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[١٣ـ١٥]

ثمّ أنّه تعالى بعد ذِكر حكمة لقمان ذَكَر وعظه لابنه الذي كان أعزّ الناس عنده ونهيه عن الشرك بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ قيل: إنّ التقدير واذكُر يا محمد لقومك وغيرهم من المشركين حين قال ﴿لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾[١] قيل: إنّ اسمه أنعم ترحّماً وعُطوفةً[٢]: ﴿يَابُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ﴾ شيئاً في الألوهية والعبادة ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ﴾ بالله والله ﴿لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فانّه تسوية بين الخالق القادر المُنعِم بجميع النِّعم والمخلوق العاجز الذي لا نِعمة له على أحد.

عن الباقر عليه السلام: «الظلم ثلاثة: ظلم يغفِره الله، [وظلم لايغفره الله] وظلم لا يَدَعه الله، وأمّا الظلم الذي لا يغفِره الله فالشِّرك» الخبر[٣].

ثمّ أكّد سبحانه النهي عن الشِّرك ببيان حقّ الوالدين على الولد ووجوب بِرّهما وشُكرهما، ومع ذلك لا يجوز إطاعة أمرهما بالشِّرك وإن أصرّا بقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَانَ﴾ وأوجبنا عليه أكيداً أنْ يَبَرّ ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾ ويُحسِن إليهما لأنّه ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ﴾ في بطنها وحَبِلت[٤] به، فتجد في نفسها بسبب حَمْله ﴿وَهْناً عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ وضَعْفاً في الخَلق والخُلق فوق ضَعْفٍ يوماً بعد يوم حتى تضع حَمْلها، ثمّ تُرضِعه إلى حين فِصاله ﴿وَفِصَالُهُ﴾ وقطعه من الرضاع كائنٌ ﴿فِى﴾ آخر ﴿عَامَيْنِ﴾ من ولادته.

وقلنا له: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى﴾ أيها الانسان بالقيام بوظائف عبوديتي ﴿وَ﴾ اشكُر ﴿لِوَالِدَيْكَ﴾ بالبِرّ والإحسان والاشفاق والتوفيق، لكونهما سببين لوجودك، وربّياك في الظاهر.

عن الرضا عليه السلام في حديث «وأمر بالشُّكر له وللوالدين، فمن لم يشكُر والديه لم يشكُر الله»[٥].

وعنه عليه السلام: «من لم يشكُر المُنْعِم من المخلوقين، لم يَشْكُر الله عزّ وجلّ»[٦].

واعلم أنّه بعد الخروج من الدنيا ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ والمرجِع، فأُجازي الشاكر بالثواب العظيم، والكَفُور بالعذاب الأليم.

وعن الصادق عليه السلام: «جاء رجلٌ إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله، مَن أُبِرّ؟ قال: اُمّك. قال: ثمّ مَن؟ قال: اُمّك. قال: ثمّ مَن؟ قال: اُمّك. قال: ثمّ مَن؟ قال: أباك»[٧].

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٧٧.
٢. تفسير روح البيان ٧: ٧٧.
٣. الكافي ٢: ١/٢٤٨، تفسير الصافي ٤: ١٤٣.
٤. في النسخة: وأحبلت.
٥. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٣/٢٥٨، تفسير الصافي ٤: ١٤٣.
٦. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢/٢٤، تفسير الصافي ٤: ١٤٤.
٧. الكافي ٢: ٩/١٢٧، تفسير الصافي ٤: ١٤٤.

وعن الرضا عليه السلام، قيل له: أدعو لوالديّ إن كانا لا يعرفان الحقّ؟ قال: «ادعُ لهما، وتصدّق عنهما، وإن كانا حيّين لا يعرِفان الحقّ فدارِهما، فانّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إنّ الله بعثني بالرحمة لا بالعُقوق»[١].

ومع ذلك ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ﴾ ونازعاك وأصرّا ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى﴾ في الأُلوهية والعبادة ما تعلم بعدم تأهّلة للأُلوهية وعدم استحقاقه للعبادة، بل ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ولم يقم على استحقاقه برهان ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك، فانّه لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق، ﴿وَ﴾ لكن ﴿صَاحِبْهُمَا﴾ وعاشِر معهما ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ صحاباً ﴿مَعْرُوفاً﴾ ومعاشرة جميلة يرتضيها الشرع، ويقتضيه الكَرم من الانفاق والتكريم والخدمة.

عن الصادق عليه السلام: «برّ الوالدين واجبٌ، وإن كانا مشركين، ولا طاعة لهما في معصية الخالق، ولا لغيرهما» الخبر[٢].

وعنه عليه السلام: «بِرّ الوالدين من حُسن المعرفة بالله، إذ لا عبادة أسرع بلوغاً بصاحبها إلى رضا الله تعالى من حُرمة الوالدين المُسلِمين لوجه الله، لأنّ حقّ الوالدين مشتقٌّ من حقّ الله إذا كانا على مِنهاج الدين والسُّنّة، ولا يكونان يمنعان الولد من طاعة الله إلى معصيته، ومن اليقين إلى الشكّ، ومن الزُّهد إلى الدنيا، ولا يدعوانه إلى خلاف ذلك، فاذا كانا كذلك فمعصيتهما طاعة، وطاعتهما معصية، قال الله تعالى ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ﴾ الآية.

وأمّا في باب العشرة فدارهما وأرفُق بهما، واحتمل أذاهما نحو ما أحتملا منك حال صِغرك، ولا تُضيّق عليهما بما قد وسّع الله عليك من المأكول والملبوس، ولا تحوّل وجهك عنهما، ولا ترفع صوتك فوق صوتهما، فانّ تعظيمهما من الله تعالى، وقُل لهما بأحسن القول وألطفه، فانّ الله لا يُضيع أجرالمحسنين»[٣] ﴿وَٱتَّبِعْ﴾ في جميع أعمالك خصوصاً السّلُوك مع الوالدين ﴿سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾ ورَجَع ﴿إِلَيَّ﴾ بالتوحيد والطاعة واقتد به.

عن الباقر عليه السلام يقول: «سبيل محمد»[٤].

﴿ثُمَّ﴾ بعد الخروج من الدنيا ﴿إِلَيَّ﴾ يكون ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ أيها الأولاد والآباء والأُمّهات ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ إذن ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من الشِّرك والتوحيد والرحمة والعُقوق والطاعة والعِصيان بالإثابة والعقوبة.

---

١. الكافي ٢: ٨/١٢٧، تفسير الصافي ٤: ١٤٤.
٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١/١٢٤، وتفسير الصافي ٤: ١٤٤، عن الرضا عليه السلام.
٣. مصباح الشريعة: ٧٠، تفسير الصافي ٤: ١٤٤.
٤. تفسير القمي ٢: ١٦٥، تفسير الصافي ٤: ١٤٥.

يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّماوَاتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ[١٦]

ثمَ أنّ لقمان بعد نهي ولده عن الشِّرك هدّده على الشِّرك الخفي والمعاصي السّرية بعلم الله تعالى بخفيات الأمور بقوله: ﴿**يَا بُنَيَّ**﴾ أخبرك بالقصة العجيبة ﴿**إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ**﴾ ومقدارها في الصِّغر والقلّة ﴿**فَتَكُن**﴾ مع كونها في نهاية الصِّغر ﴿**فِى**﴾ وسط ﴿**صَخْرَةٍ**﴾ وحجر صلب، أيّ صخرةٍ كانت صغيرةً أو كبيرةً. قيل: هي كناية عن أخفى مكان وأحرزه[١].وعن ابن عباس: هي الصخرة التي عليها المَلك الحامل للأرض، وهي ليست في السماوات والأرض[٢].

﴿**أَوْ**﴾ كانت ﴿**فِى ٱلسَّماوَاتِ**﴾ مع غاية بُعدها، وقيل: إنّ المراد منها العالم العلويّ ﴿**أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ**﴾ والعالم السُّفليّ[٣]. وقيل: إنّ المراد بطن الأرض، وهو أظلم مكان ﴿**يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ**﴾ ويُحضِرها ويُحاسِب عليها[٤]، ويُحضِرها للاغتذاء بها. وقيل: إنّ كلامه ذلك لتربية التوكّل في قلب ابنه، لئلا يميل إلى الشِّرك بطَمَع الرِّزق[٥].

القمي، قال: إنّ الرزق يأتيك به الله[٦].

﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ**﴾ وعالم بخفيات الأمور، أو نافذ القدرة في كلّ شيء، أو ذو العُطوفة بالعباد ﴿**خَبِيرٌ**﴾ ومُطّلع على كُنه الأشياء وقيل: يعني قدير على استخراج الحبّة من بطن الصخرة، وخبير بمستقرّها[٧].

العياشي، عن الصادق عليه السلام: «اتقوا المحقّرات من الذنوب، فانّ لها طالباً، لا يقولنّ أحدكم: أذنِبُ واستغفرُ الله، إن الله يقول: ﴿**إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ**﴾» الآية[٨].

قيل: إنّ هذه الكلمة آخر كلمةٍ تكلّم بها لقمان، فانشقّت مرارته من هيبتها فمات[٩].

يَا بُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ * وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٨١.
٢. تفسير روح البيان ٧: ٨١.
٣. تفسير أبي السعود ٧: ٧٢، تفسير روح البيان ٧: ٨١
٤. تفسير روح البيان ٧: ٨١.
٥. تفسير جوامع الجامع: ٣٦٢.
٦. تفسير القمي ٢: ١٦٥، تفسير الصافي ٤: ١٤٥.
٧. مجمع البيان ٨: ٤٩٩.
٨. مجمع البيان ٨: ٤٩٩، تفسير الصافي ٤: ١٤٥.
٩. تفسير روح البيان ٧: ٨٢.

إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ[١٧ـ١٩]

ثمّ أنّه بعد نهي ابنه عن الشّرك الملازم لأمره بالتوحيد، أمره بلوازمه من العبادات المهمّة بقوله: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ﴾ التي هي أفضل العبادات لله تكميلاً لنفسك وواظِب عليها ﴿وَأْمُرْ﴾ غيرك ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ والمستحسن عند الشرع والعقل ﴿وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ والمستقبح عندهما تكميلاً لغيرك ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ من المشاقّ والشدائد كالفقروالمَرض وغيرهما.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «من المشقّة والأذى في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[١].

﴿إِنَّ ذٰلِكَ﴾ المذكور من الوصايا ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ وحتَميات‍ها وواجباتها التي لا يجوز التواني فيها ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ﴾ ولا تُمِل وجهك تحقيراً ﴿لِلنَّاسِ﴾ وتكبُّراً عليهم. وعن الصادق عليه السلام: «لا تُعرِض عمَن يُكلّمك استخفافاً به»[٢].

والقمّي: لا تذلّ للناس طمعاً فيما عندهم[٣].

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحاً﴾ وبطراً. قيل: يعني حال كونك ذا فرحٍ شديد[٤]. وعن الباقر عليه السلام، يقول: «بالعظمة»[٥].

﴿إِنَّ ٱللّٰهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ ومتكبّر ﴿فَخُورٍ﴾ ومباهٍ بالمال والجاه والنسب وغيرها من النِّعم الدنيوية.

وعن بعض الحكماء: إن افتخرت بفرسك فالحُسن والفَراهة له دونك، وإن افتخرت بثيابك فالجمال لها دونك، وإن افتخرت بآبائك فالفضل فيهم لا فيك، فان افتخرت فافتخر بما فيك[٦].

عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه نهى أن يختال الرجل في مَشيه، وقال: «من لَبِس ثوباً فاختال فيه، خسف الله به من شَفير جهنم، وكان قرين قارون؛ لأنّه أوّل من أختال فخسف به وبداره الأرض، ومن اختال فقد نازعَ الله في جَبَروته»[٧].

﴿وَٱقْصِدْ﴾ وتوسّط ﴿فِى مَشْيِكَ﴾ بعد الاجتناب عن المَرَح بعد الدبيب والإسراع، وعليك بالسكينة والوَقار والتواضُع فيه، في الحديث: «سرعة المشي تُذهب ببهاء المؤمن»[٨]. وروت العامة: أنّ عمر كان إذا مشىٰ أسرع[٩]، والقمي قال: أي لا تَعْجَل[١٠].

---

١. مجمع البيان ٨: ٥٠٠، تفسير الصافي ٤: ١٤٥.
٢. مجمع البيان ٨: ٥٠٠، تفسير الصافي ٤: ١٤٥.
٣. تفسير القمي ٢: ١٦٥، تفسير الصافي ٤: ١٤٥.
٤. تفسير روح البيان ٧: ٨٥.
٥. تفسير القمي ٢: ١٦٥، تفسير الصافي ٤: ١٤٥.
٦. تفسير روح البيان ٧: ٨٥.
٧. من لا يحضره الفقيه ٤: ١/٧، أمالي الصدوق: ٧٠٧/٥١٤، تفسير الصافي ٤: ١٤٦.
٨. تفسير روح البيان ٧: ٨٥.
٩. تفسير روح البيان ٧: ٨٥.
١٠. تفسير القمي ٢: ١٦٥، تفسير الصافي ٤: ١٤٦.

ثمّ لمّا كان من وسائل النَّيل إلى المقصود للبُعد عنه المشي والصوت، أردف ذكر الأدب في المشي بذكر الأدب في الصوت بقوله: ﴿وَٱغْضُضْ﴾ وانقُص ﴿مِن صَوْتِكَ﴾ في التكلّم والتخاطُب، فانّ رفع الصوت ليس فيه فضيلة، بل هو ممّا يُنكره الطبع ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ﴾ وأقبحها وأوحشها والله ﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ عند أغلب الناس سيما العرب، قيل: إنّ المشركين كانوا يفتخرون برفع الصوت، فردَهم الله بتشبيه الصوت الرفيع بصوت الحمارِ مبالغةً في الذمّ. قيل: إنّ صوت كلّ حيوان تسبيح إلّا صوت الحمير، فانّها تصيح لرؤية الشيطان[1]. وفي الحديث: «إذا سَمِعتم نُهاق الحمير فتعوذَوا بالله من الشيطان، فانّها رأت شيطاناً»[2] وإنّما حكى سبحانه تلك الوصايا من لقمان لشيوع الشِّرك وما يليه من الصفات القبيحة المنهيّ عنها في العرب[3].

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدىً وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [٢٠ و ٢١]

ثمّ أنّه تعالى بعد الاستدلال على توحيده بخلق السماوات بغير عَمَدٍ، وببعض نعمه كانزال المطر وإلقاء الجبال في الأرض وإنبات النباتات النافعة، عاد إلى الاستدلال عليه بتسخير ما في السماوات والأرض وعموم نعمه بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ ولم تعلموا يا بني آدم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ بقُدرته ﴿سَخَّرَ﴾ وساق بالقَهر إلى المنافع التي تكون ﴿لَكُم مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ﴾ من الملائكة والكواكب، وجعلها مدبّرات العالم السفلي من الزمانيّ كالفُصول الأربعة والليل والنهار والشهور، ومن الجِسماني كالمعادن والنباتات وغيرهما ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كالجبال والأنهار والبحار وغيرها بأن مكّنكم من الانتفاع بها بواسطة وبلا واسطة ﴿وَأَسْبَغَ﴾ وأكمل ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بلُطفه ﴿نِعَمَهُ﴾ والأمور النافعة في حياتكم وتربيتكم وكمالكم كانت ﴿ظَاهِرَةً﴾ ومحسوسة كحُسن الصورة، واستواء القامة، وكمال الأعضاء والحواسّ الظاهرة ﴿وَبَاطِنَةً﴾ وغير محسوسة كالرُّوح والعقل والفَهم والفِكر والمعرفة، ودين الاسلام، وإرسال الرسول، وإنزال الكتاب.

عن ابن عباس قال: سألت رسول الله ﷺ ما هذه النعمة [الظاهرة] والباطنة؟ قال: «أما الظاهرة: فالاسلام وما حسن من خلقك وما أفضل عليك من الرِّزق، وأمّا الباطنة: فما ستر من سوء عملك

---

١ ـ٣. تفسير روح البيان ٧: ٨٧.

ولم يفضحك به. يا ابن عباس، يقول الله تعالى: إنّي جعلت للمؤمن ثُلث صلاة المؤمنين عليه بعد انقطاع عمله أكفّر به عنه خطاياه، وجعلت له ثُلث ماله ليكفّر به عنه خطاياه، وسترت عليه سُوء عمله الذي لو قد أريته للناس لنبذه أهله ومن سواهم»[1].

وقيل: إنّ الظاهرة: سهولة الأحكام، والباطنة: الشفاعة. وقيل: الظاهرة: النِّعم الدنيوية، والباطنة: النِّعم الأُخروية. وقيل: الظاهرة: القرآن، والباطنة: العلم بتأويلاته وحقائقه[2].

وعن الباقر عليه السلام: «أما النعمة الظاهرة فالنبيّ صلى الله عليه وآله وما جاء به من معرفة الله وتوحيده، وأمّا النعمة الباطنة فولايتنا أهل البيت وعقد مودّتنا»[3].

وعن الكاظم عليه السلام: «النعمة الظاهرة الإمام الظاهر، والباطنة الإمام الغائب»[4].

﴿وَ﴾ مع ذلك **﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾** وبعضهم **﴿مَن يُجَادِلُ﴾** ويُخاصم **﴿فِى﴾** ذات **﴿ٱللَّهِ﴾** أو توحيده، أو كتابه **﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾** حاصلٍ من برهانٍ قاطع **﴿وَلَا هُدىً﴾** من بيان الرسول وعالم رباني **﴿وَلَا كِتَابٍ﴾** سماويّ **﴿مُّنِيرٍ﴾** ومُوضِح للحقّ، ومضيء للطريق القويم، بل يُجادِل بمجرّد التقليد والظنّ الحاصل من الهوى.

وقيل: إنّ المجادِل في كتاب الله هو النَّضر بن الحارث، حيث قال: إنّه أساطير الأولين[5].

﴿وَ﴾ الشاهد على أنّ مجادلتهم لا تكون إلّا عن تقليد آبائهم هو أنّه **﴿إِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾** بطريق النُّصح **﴿ٱتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾** على نبيه من القرآن الناطق بالتوحيد **﴿قَالُوا﴾**: لا نتّبعه **﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾** الماضين من عبادة الأصنام.

عن الباقر عليه السلام: «هو النَّضر بن الحارث، قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: اتّبع ما أُنزل إليك من ربّك. قال: بل أتّبع ما وجدت عليه آبائي»[6].

ثمّ ردّهم الله بقوله: **﴿أَوَلَوْ﴾** قيل: إنّ التقدير أتتّبعون آباءكم[7] ولو **﴿كَانَ ٱلشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ﴾** بما هم عليه من الشِّرك **﴿إِلَىٰ﴾** الورود في **﴿عَذَابِ﴾** النّار **﴿ٱلسَّعِيرِ﴾** والمُلتَهِب فيجيئون إليه.

وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ * وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا إِنَّ

---

١. مجمع البيان ٨: ٥٠١، تفسير روح البيان ٧: ٩٠. ٢. مجمع البيان ٨: ٥٠١.
٣. تفسير القمي ٢: ١٦٥، مجمع البيان ٨: ٥٠١، تفسير الصافي ٤: ١٤٨.
٤. كمال الدين ٦/٣٦٨، مناقب ابن شهر آشوب ٤: ١٨٠، تفسير الصافي ٤: ١٤٨. ٥. تفسير روح البيان ٧: ٩٠.
٦. تفسير القمي ٢: ١٦٦، تفسير الصافي ٤: ١٤٩. ٧. تفسير أبي السعود ٧: ٧٤، تفسير روح البيان ٧: ٩١.

ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ*نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ[٢٢_٢٤]

ثمّ أنه تعالى بعد ذمّ الكفّار المجادلين في الله مَدَح المؤمنين المستسلمين له بقوله: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ﴾ ونفسه ﴿إِلَىٰ ٱللَّهِ﴾ تسليم المتاع لمالكه، وأقبل بشراشره عليه وفوّض اُموره له ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في أعماله مُجدّ في القيام بوظائف عبوديته ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ﴾ وتَعلّق ﴿بِالْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ والحبل المُحكَم الذي لا انقطاع له، ولا يخاف معه من التردّي في مهاوي الهلاك والضلال في الدنيا، ومن السقوط في الجحيم في الآخرة، وتكون عاقبته أحمد العواقب؛ لأنّ إلى الله يكون مآل جميع الأشياء ﴿وَإِلَىٰ ٱللَّهِ﴾ تنتهي ﴿عَاقِبَةُ﴾ جميع ﴿ٱلْأُمُورِ﴾ فيُجازي الموحّد المستسلم إليه أحسن الجزاء، ويُثيبه أفضل الثواب.

ثمّ لمّا ذكر لَجاج الكفّار وجِدالهم في التوحيد وتكذيبهم للرسول، سلّاه سبحانه بقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ بالتوحيد وكذّبك فيه ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾ وتكذيبه، فانّه سيظهر لهم صدقك، لأنّه بعد خروجهم من الدنيا يكون ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ وإلى محكمتنا مآبهم ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾ ونُعلِمهم بعد رجوعهم إلينا ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ في الدنيا من الكفر بالتوحيد وتكذيبك، ولا يخفى علينا شيءٌ من أعمالهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ الخالق لجميع أجزاء الخلق بقدرته ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وما في قلوبهم من الضمائر والنيّات، ولا تنظُر إلى النِّعم التي أنعمنا عليهم في الدنيا من الصحّة والجاه والمال والأولاد، فانّا ﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾ وننفعهم بنعمنا في الدنيا زماناً ﴿قَلِيلاً﴾ وإن طال عمرهم فانّه بالنسبة إلى عمرهم في الآخرة في غاية القِصر.

ثمّ يموتون ويُعذّبون في البرْزخ، ثم يُبْعَثون من قبورهم إلى المحشر ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ ونُلجئهم ﴿إِلَىٰ﴾ الورود في ﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وعقابٍ دائمٍ شديدٍ غايته، فعند ذلك يتبيّن لهم صدقك وكذبهم.

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ[٢٥ و ٢٦]

ثمّ نبّه سبحانه نبيّه ﷺ على أنّ ظهور صدقه لهم لا يتوقّف على البراهين المذكورة، ولا على مجيء الحشر، بل هو ظاهر لهم في الدنيا بالفطرة بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يا محمد ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ بقُدرته والله ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ في جوابك ﴿ٱللَّهُ﴾ وحده خلقهما، لغاية وضوح الأمر بحيث اضطرّوا إلى الإقرار به ﴿قُلِ﴾ إذن ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ظهور صدقك، أو على جعله دلائل

التوحيد بحيث لا يمكن للمكابر إنكارها، فليس شِركهم لإنكاره **﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾** أنّ مقتضى اعترافهم تصديقك، أو لازمه ترك الشِّرك وعبادة الله وحده.

ثمّ لمّا اعترفوا بأنّ الله خالق السماوات والأرض، فعليهم أن يعترفوا بأنّ **﴿لِلَّهِ﴾** وحده **﴿مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ﴾** من الملائكة الذين يقول بعضهم: إنّهم بنات الله، ومن الكواكب التي يعبُدها كثيرٌ من المشركين **﴿وَ﴾** ما في **﴿ٱلْأَرْضِ﴾** من الأصنام وغيرها من الأشياء، ولا يحتاج إلى شيءٍ من الموجودات وعبادتهم وحمدهم، بل **﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾** بذاته **﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾** عمّا سواه **﴿ٱلْحَمِيدُ﴾** في ذاته وصفاته وأفعاله، وإن لم يَحْمَده شيء.

وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[٢٧]

ثمّ لمّا ذكر مالكيته لما في العالم العلويّ والسُّفلي، وكان مُحالاً توهّم حصر سلطانه في العالمين المحدودين، بيّن أنّ له مخلوقات لا نِهاية لها بقوله: **﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن﴾** كلّ **﴿شَجَرَةٍ﴾** بالفرض **﴿أَقْلَامٌ﴾** كثيرة **﴿وَٱلْبَحْرُ﴾** المحيط بالعالم الذي لا ساحل له ولا يعلم عمقه إلّا الله، ويتّصل به سائر البحار مداد **﴿يَمُدُّهُ﴾** ويزيده عند نَفاده و **﴿مِن بَعْدِهِ﴾** بالانصباب فيه **﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾** يوجدها، قيل: إنّ السبعة هنا كنايةٌ عن العدد الكثير[١]، والمعنى البحار الكثيرة علاوة على ما هو الموجود الآن، وقيل: إنّ المراد بحر الصين، وبحر التِبت وبحر الهند، وبحر السند، وبحر فارس، وبحر المشرق، وبحر المغرب[٢]، وإنّما جعلها مُمدّة للبحر المحيط، وكتبت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله، ونَفِدت وفنيت تلك الأقلام والمِداد و **﴿مَّا نَفِدَتْ﴾** وما فنيت **﴿كَلِمَاتُ ٱللَّهِ﴾** وعجائب صُنعه، أو الكلمات الدالة على علمه وحكمته. قيل: إنّ إيثار جمع القلّة في (كلمات) للدلالة على أنّ ما ذُكِر لا يفي بالقليل منها، فكيف بالكثير[٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ وقادرٌ على كلّ شيءٍ **﴿حَكِيمٌ﴾** ومحيطٌ علمه بكلّ شيءٍ. قيل: نزلت ردّاً على اليهود حين سألوا رسول الله ﷺ أو أمروا وفد قريش أن يسألوه عن قوله تعالى: **﴿وما أوتيتم من العلم إلّا قليلاً﴾**[٤] وقد أنزل الله التوراة وفيها علم كلّ شيءٍ، والمراد أن العلم الذي في التوراة و[سائر ما] أُوتي الانسان [من الحكمة والمعرفة] وإن كان كثيراً بالنسبة إليهم، لكنّه بالنسبة إلى علم الله

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٩٥.
٢. تفسير روح البيان ٧: ٩٤.
٣. تفسير أبي السعود ٧: ٧٥، تفسير روح البيان ٧: ٩٥.
٤. الإسراء: ٨٥/١٧.

كالقطرة بالنسبة إلى البحار كلّها[١].

وقيل: إنّها نزلت ردّاً على المشركين حيث قالوا: إنّ القرآن يُوشِك أن يَنْفَد وينقطع[٢].

مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ ٱللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ يُولِجُ ٱللَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱللَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ ٱللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَاطِلُ وَأَنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ[٢٨ ـ ٣٠]

ثمّ أنّه تعالى بعد إثبات توحيده بكمال علمه وقدرته وحكمته، وكان المعاد مقتضى قدرته وحكمته، استدلّ عليه بكمال قدرته بقوله: ﴿مَا خَلْقُكُمْ﴾ في الدينا ﴿وَلَا بَعْثُكُمْ﴾ وإحياؤكم ثانياً في الآخرة، وإخراجكم من القبور مع كثرتكم في السهولة ﴿إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ خلقاً وبعثاً، فكما أنّ إيجاد نفسٍ واحدةٍ لا يحتاج إلّا إلى إرادته، كذلك إيجاد النفوس الكثيرة لا يتوقّف إلّا عليها ﴿إِنَّ ٱللهَ سَمِيعٌ﴾ لكلّ مسموعٍ، فيسمع مقالات الناس في أمر البعث ﴿بَصِيرٌ﴾ لكلّ مبصرٍ فيُبصِر الأحياء والأموات. قيل: إنّ الآية نزلت في ردّ مشركي قريش حيث قالوا: إنّ الله خلقنا أطواراً نُطفةً وعَلقةً ومُضغةً ولحماً، فكيف يبعثنا خلقاً جديداً في ساعةٍ واحدةٍ[٣]؟

ثمّ استدلّ سبحانه على قدرته على الخلق الجديد وإيلاج الروح فيه ببعض آثار تسخير ما في السماوات بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ولم تعلم علماً نازلاً منزلة الرؤية يا محمد أو يا من شأنه الرؤية ﴿أَنَّ ٱللهَ﴾ بقُدرته ﴿يُولِجُ﴾ ويُدخِل ﴿ٱللَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ ويجعلهما متعاقبين، أو يجعل بعض ساعات الليل في النهار، ولا نقص من الاول والزيادة في الثاني ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ﴾ ويُدخِله ﴿فِى ٱللَّيْلِ﴾ بإذهاب الثاني وإتيان الاول مكانه، أو بتنقيص الاول والزيادة في الثاني.

القمي، يقول: ما ينقُص من الليل يدخُل في النهار، وما ينقُص من النهار يدخُل في الليل[٤].

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ وساقهما بالقهر وسيّرهما على وَفْق الحكمة ﴿كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجْرِى﴾ في فَلَكه بحركته القسرية حركةً مستمرةً ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ وانقضاء وقت معين قدّرة الله بحكمته، وهو مجيئ يوم القيامه.وقيل: هو منتهى دورتهما، ففي الشمس سنة، وفي القمر شهر[٥]. ﴿وَ﴾ ألم تعلم

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٩٤.

٢. تفسير روح البيان ٧: ٩٤.

٣. تفسير روح البيان ٧: ٩٦.

٤. تفسير القمي ٢: ١٦٧، تفسير الصافي ٤: ١٥٠.

٥. تفسير أبي السعود ٧: ٧٦، تفسير روح البيان ٧: ٩٧.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ في الليل والنهار ﴿خَبِيرٌ﴾ وعالم، فانّ من شاهد هذا الصنع الرائق والتدبير الفائق، يعلم أنّ صانعه ومدبّره لا يمكن في حقّه الغفلة عن جلائل أعمال عباده ودقائقها ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من القدرة الكاملة والحكمة البالغة والصنائع العجيبة لا يكون بسبب إلّا ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ تعالى ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الثابت في ألوهيّته، الواجب لذاته، المتفرّد في كمال صفاته، وبسبب أنّه لا شريك له في ربوبيته ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ ويَعْبُدون ﴿مِن دُونِهِ﴾ وممّا سواه هو ﴿ٱلْبَاطِلُ﴾ الفاني العاجز عن جلب نفع لنفسه فضلاً عن أن ينفع من يعبُد﴿وَ﴾ بسبب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ والمرتفع عن أن يُشبهه غيره ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي يُحْتَقَر كلّ شيءٍ في جنب كبريائه. وقيل: يعني العليّ في صفاته، الكبير في ذاته[١].

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِنْ ءَايَاتِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَإِذَا غَشِيَهُم مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِأَيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ[٣١و ٣٢]

ثمّ استدلّ سبحانه ببعض آثار تسخيره ما في الأرض بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد، أو أيّها الرائي ﴿أَنَّ ٱلْفُلْكَ﴾ والسفينة ﴿تَجْرِى﴾ وتسير سريعاً ﴿فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ وبرحمته وإحسانه حيث خلق آلاتها، وعَلِم صُنعها، وأرسل الرياح لتسييرها ﴿لِيُرِيَكُم﴾ أيّها الناس بعضاً ﴿مِنْ ءَايَاتِهِ﴾ ودلائل توحيده وقُدرته ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الإجراء للفُلك ﴿لَأَيَاتٍ﴾ عظيمة ودلالات واضحة كثيرة على توحيد الله وصحّة المعاد، نافعة ﴿لِكُلِّ﴾ مؤمن ﴿صَبَّارٍ﴾ ومبالغ في إتعاب نفسه في طاعة الله والتفكّر في آياته ﴿شَكُورٍ﴾ ومُجِدّ في القيام بأداء حقوق نِعمه.

ثمّ بيّن سبحانه أنّ المشركين فِطرتهم على التوحيد، ومقرون به، عند يأسهم من الحياة، وغفلتهم عن الشهوات، فاذا أطمأنوا بالحياة، ورُفِع عنهم الاضطرار، عادوا إلى الشِّرك، وجحدوا آيات التوحيد بقوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ وأحاط بهم في البحر ﴿مَوْجٌ﴾ وماءٌ مرتفعٌ ﴿كَالظُّلَلِ﴾ والجبال، أو قطع السّحاب، أو الأشياء التي تُظِلّ الانسان من الشمس في كَثْرتها وارتفاعها، وأشرفوا على الغرق ﴿دَعَوُا ٱللَّهَ﴾ واستغاثوا به تعالى وحده لنجاتهم حال كونهم ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ﴾ تعالى ﴿ٱلدِّينَ﴾ والعبادة، تاركين لدعاء غيره، غير متوجهين إلى ما سواه، بعلمهم باختصاصه بالقدرة على تحقيق مُناهم وإنجاح مقاصدهم ﴿فَلَمَّا﴾ استجاب دعاءهم لخلوصهم في دعائه و ﴿نَجَّاهُمْ﴾ من الغَرق،

---

١. تفسير الرازي ٢٥: ١٦١.

وأوصلهم ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ سالمين ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ ومتوسط في الإخلاص والكفر، ولم يبق على التوحيد الخالص، ولم يرجع إلى لَجاجه في الشِّرك، لانزحاره منه في الجملة.

ثمّ لمّا خصّ سبحانه نفع آيات التوحيد بالمؤمن الصبّار الشكور، خصّ جُحودها بالذين عادتهم الغدر والكفران بقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ﴾ ولا يَلِجّ في الكفر ﴿بِآيَاتِنَا﴾ وآثار توحيدنا ﴿إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ وغدّار ومُصرّ في نقص العهد و﴿كَفُورٍ﴾ لنِعم الله.

يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ ٱلْغَرُورُ[٣٣]

ثمّ أنّه تعالى بعد إثباته التوحيد والمعاد، هدّد منكريهما بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ واحترزوا من غضبه عليكم بالاجتناب من الكفر والعصيان ﴿وَٱخْشَوْا يَوْماً﴾ عظيماً يُجازي الله فيه و﴿لَا يَجْزِى﴾ ولا يُغني ﴿وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ﴾ بأن يقضي عنه شيئاً من الحقوق، أو يتحمّل شيئاً من سيئاته، أو يُعطيه شيئاً من طاعاته، أو يدفع عنه شيئاً من العذاب بالشفاعة وبذل المال ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ﴾ ومغنٍ أو مُؤدٍّ ﴿عَن وَالِدِهِ شَيْئاً﴾ من الحقوق، ودافع عنه شيئاً من العذاب، مع كون كلٍّ منهما في الدنيا أشفق الناس وأرأفهم بالآخر، وأقرب إليه، فكيف بالأباعد الذين لا شَفَقة لهم ولا مودّة، وبالأصنام الذين لا شعور لهم ولا قُدرة!

وعن كعب الأحبار: تقول امرأة من هذه الأمة لولدها يوم القيامة: يا ولدي، أما كان لك بطني وِعاءً، وحِجري وِطاءً، وثديي سِقاءً، فاحمل عنّي واحداً من ذنوبي، فقد أثقلنّي فيقول: هيهات يا أمّاه ﴿كل نفسٍ بما كسبت رهينة﴾ فاذا حملت عنك فمن يحمل عني؟[1]

فمن كان سبب عدم خوفه رجاء الانتفاع بصلاح الأقارب وشفاعة الأصنام، فقد أخطأ أو عدم يقينه بمجيء ذلك اليوم، فانّ الله وعد به و﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ حَقٌّ﴾ لا خُلف فيه ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ ولا يَخْدَعنّكم ﴿ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا﴾ ولا يَشْغَلنّكم عن التفكّر في الآيات متاعها وشهواتها ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ﴾ وبكرمه وقبول توبتكم بعد عصيانه الشيطان ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ الخَدُوع لبني آدم، فانّه لا نجاة إلّا بالايمان وصالح الأعمال.

---

١. تفسير روح البيان ٧: ١٠١ و١٠٢.

إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ[٣٤]

ثمّ لمّا كان مجال أن يقال: متى يكون ذلك اليوم؟ قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ يُثبت ﴿عِندَهُۥ﴾ وحده ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ ووقت قيام القيامة. ثمّ أردفه بسائر ما يختصّ علمه به بقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ والمطر الذي به رزق الخلق وبقاؤهم في الزمان الذي قدّره إلى محلّه الذي عيّنه في علمه لا يعلمه غيره ﴿وَ﴾ هو ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ من ذكرٍ وأُنثى، حيّ أو ميت، جميل أو قبيح، تامّ أو ناقص، سعيد، أو شقيّ إلى غير ذلك من الصفات، وهو يعلم عواقب أُمور كلّ أحدٍ ﴿وَمَا تَدْرِى﴾ وتعلم ﴿نَفْسٌ﴾ من النفوس ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ﴾ وتَحصّل من المنافع الدنيوية والأُخروية ﴿غَداً﴾ وفي اليوم الذي يكون بعد يومه ﴿وَمَا تَدْرِى﴾ وتعلم ﴿نَفْسٌ﴾ من النفوس أنّها ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ﴾ وأيّ مكان ﴿تَمُوتُ﴾ من برّ أو بحر، أو سهل أو جبل، كما لا تدري في أيّ وقت تموت.

رُوي أنّ مَلَك الموت مرّ على سليمان عليه السلام فجعل ينظُر إلى رجلٍ من جُلسائه، فقال الرجل: من هذا؟ قال: مَلَك الموت. فقال: كأنّه يُريد بي، فمُر الريح أن تحملني وتُلقيني في بلاد الهند، ففعل فقال المَلَك: كان دوام نظري إليه تعجّباً منه، إذ أُمرت أن أقبِض روحه بالهند، وهو عندك[١].

عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «مفاتيح الغيب خمس، وتلا هذه الآية، ثمّ قال: «من أدّعى عِلم شيءٍ من هذه المغيبات الخمس، فهو كافرٌ بالله تعالى»[٢].

ثمّ عمّم سبحانه علمه بجميع الأشياء بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ بذاته ﴿عَلِيمٌ﴾ بالأشياء كُلّها ﴿خَبِيرٌ﴾ ومُطّلع بكُنهها وحقائقها وبواطنها، وإنّما عدّ هذه الخمس لما رُوي من سبب النزول من أنّ الحارث بن عمرو من أهل البادية أتى النبي صلى الله عليه وآله فسأله عن الساعة ووقتها، وقال: إنّ أرضنا أجدبت، وإنّي ألقيت حياتي في الأرض، فمتى ينزل المطر؟ وتركت امرأتي حُبلى فحَمْلها ذكر أم أُنثى؟ وإنّي أعلم ما عَمِلت أمس، فما أعمل غداً؟ وإنّي عَلِمتُ أين ولدت، فبأي أرضٍ أموت؟ فنزلت[٣]. وقد كان المنجمون والكَهَنة يدّعون علمها.

وانّما أخفى الله وقت الساعة، ليكون الناس على حَذَرٍ وأُهبةٍ، كما روي أنّ أعرابياً قال للنبي صلى الله عليه وآله: متى الساعة؟ فقال عليه السلام: «ما أعددت لها» قال: لا شيء إلّا أنّي أُحبّ الله ورسوله. فقال: «أنت مع من

---

١. تفسير أبي السعود ٧: ٧٨، تفسير روح البيان ٧: ١٠٤.
٢. تفسير روح البيان ٧: ١٠٤.
٣. تفسير روح البيان ٧: ١٠٣.

أحببت»[١].

وأخفى علم الأربعة الأخرى ليسألوا الله، ويتضرّعوا إليه، ويتوكّلوا عليه. وقيل: إنّ المقصود بيان اختصاص العلم بالساعة بذاته، وإنّما ذكر إنزاله الغيث وعلمه بما في الأرحام استدلالاً عليه، ثمّ كأنّه قال لطالب العلم بالساعة: لا تسأل عنها فانّك لا تعلم ما هو أهمّ منها، وهو معاشك وموتك[٢].

والحقّ المشهور هو التفسير الأوّل، لما روى عن الصادق عليه السلام: «هذه الخمسة أشياء لم يطّلع عليها مَلَكٌ مُقرّبٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ، وهي من صفات الله»[٣].

وفي (نهج البلاغة): «فهذا هو علم الغيب الذي لا يعلمه أحدٌ إلّا الله»[٤].

وفي (المجمع): رُوي عن أئمة الهدى عليهم السلام: «أنّ هذه الأشياء الخمسة لا يعلمها على التفصيل والتحقيق غيره تعالى»[٥]. ولا ينافي ذلك علم النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام بها في بعض الأوقات، لأنّه بتعليم الله لا بالأسباب.

عن الباقر عليه السلام: «من قرأ سورة لقمان في ليلة، وكّلَ الله به في ليلته ملائكة يَحْفَظونه من إبليس وجُنوده حتى يُصبح، وإذا قرأها بالنهار، لم يزالوا يَحْفَظونه من إبليس وجُنوده حتى يُمسي»[٦].

الحمد لله على التوفيق لاتمام تفسير السورة.

---

١. تفسير روح البيان ٧: ١٠٣.
٢. تفسير الرازي ٢٥: ١٦٥.
٣. تفسير القمي ٢: ١٦٧، تفسير الصافي ٤: ١٥٢.
٤. نهج البلاغة: ١٨٦ ـ الخطبة ١٢٨، تفسير الصافي ٤: ١٥٢.
٥. مجمع البيان ٨: ٥٠٧، تفسير الصافي ٤: ١٥٢.
٦. ثواب الأعمال: ١١٠، مجمع البيان ٨: ٤٨٨، تفسير الصافي ٤: ١٥٢.

في تفسير سورة السجدة

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِن نَّذِيرٍ مِن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ[١ ـ ٣]

ثمَ لمّا خُتِمت سورة [لقمان] المباركة المتضمّنة لإثبات التوحيد والمعاد، والتهديد على إنكارهما، اُردفت بسورة السجدة المتضمّنة لإثبات النبوة وعظمة القرآن والتوحيد والمعاد، فابتدأها بذكر الأسماء المباركات تيمناً وتعليماً للعباد بقوله: ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ثمَ افتتحها بذكر الحروف المقطّعة بقوله: ﴿الٓمٓ﴾ توجيهاً للقلوب إلى المطالب المهمّة التي تُذْكَر بعدها، منها بيان عِظم القرآن بقوله: ﴿تَنزِيلُ﴾ هذا ﴿ٱلْكِتَابِ﴾ المسمّى بالقرآن، المتضمّن للعلوم والأحكام والآداب التي بها تربية نفوس أهل العالم وتكميلها ﴿لَا رَيْبَ﴾ ولا شكّ ﴿فِيهِ﴾ أنه ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ ومع ذلك أتعترف قريش به ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ عِناداً ولَجاجاً: إن محمداً اختلقه من نفسه مع كونه اُميّاً ﴿ٱفْتَرَاهُ﴾ على الله ونَسَبه إليه كذباً، ألا ليس نزوله من الله كذباً ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ النازل ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ اللطيف بك، وإنّما كان إنزاله ﴿لِتُنذِرَ﴾ وتُخوّف به من العذاب على الشِّرك والكفر والعِصيان ﴿قَوْماً﴾ وجماعة ﴿مَّا أَتَاهُم مِن نَّذِيرٍ﴾ ورسول من الله ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ وقبل بعثتك، ولذا يكونون أضلّ الناس وأجهلهم وأحوجهم إلى الإنذار ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بهدايتك وإنذارك ينجون من ظُلمة الجهل ووادي الضلال و ﴿يَهْتَدُونَ﴾ إلى دين الحقّ، ويرشدون إلى الخيرات الدنيوية والاُخروية.

والظاهر أنّ المراد من القوم جميع أهل عصر النبيّ ﷺ، فانّهم كانوا في غاية الضّلال، ولم يأتهم نبي قبل خاتم الأنبياء، وكان واجباً على الله من باب اللُّطف أن يبعث فيهم رسولاً يهديهم إلى الحقّ لئلّا يكون لهم على الله الحُجة بعد بعثته.

وقيل: إنّ المراد خصوص العرب، والمراد بعدم إتيانهم النذير عدم إتيان آبائهم نبيّ من العرب، فانّ إسماعيل كان مبعوثاً إلى قومه خاصة، وعيسى ومن بعده من الأنبياء لم يكونوا من العرب، وخالد بن

سنان وإن كان نبياً عربياً، ولكن لم يَعِش في العرب بحيث تبلُغ دعوته[١]، والأظهر هو الوجه الأوّل.

قيل: إنّ كلمة الترجّي باعتبار حال النبي ﷺ، والمعنى لتُنذِرهم راجياً لهدايتهم[٢] إلى التوحيد والمعارف والدين الحقّ، فان الغرض من بعث الرسول الهداية إلى الدين، وتكميل النفوس، وتربية الذوات المستعدة للترقيات المعنوية، القابلة للنيل إلى الفيوضات الأبدية.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّماءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ[٤ و ٥]

ثمّ شرع في هدايتهم ببيان أدلّة توحيده بقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾ الواجب الوجود هو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ والعوالم العُلوية والسُّفلية ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الموجودات ﴿فِى﴾ مقدار ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من أيّام الدنيا من الزمان، وإنّما خلقها في تلك المدّة مع قدرته على خلقها في أقلّ من طرفة عين، ليتعلّم العباد التأنّي في الأمور وترك العَجَلة فيها ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ وأستولى بالعلم والقدرة ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وقد مرّت الوجوه في تلك القضية، فاذا كان الأمر كذلك، فأنيبوا إليه، وتوكّلوا عليه، واجتهدوا في عبادته، وخافوا عذابه، فانّه ﴿مَا لَكُم﴾ أيّها الناس ﴿مِّن دُونِهِ﴾ وممّا سواه ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ وحافظٍ لصلاحكم، وناصرٍ عند ابتلائكم ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ يدفع عنكم عذابه بشفاعته، ويُجيركم من بأسه ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ قيل: يعني ألا تسمعون هذه المواعظ، فلا تتذكرون[٣] بها ما طبعه الله في فِطرتكم من التوحيد ومعارفه؟

ثمّ بالغ سبحانه في بيان قدرته وحكمته بقوله: ﴿يُدَبِّرُ﴾ ويُنظّم ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ الكائن في عالم الوجود، ويُنزل أسبابه ﴿مِنَ ٱلسَّمَاءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ ويستمرّ ذلك التدبير إلى انقضاء الدنيا ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ﴾ ويصعد ﴿إِلَيْهِ﴾ ذلك التدبير وأسبابه، أو الأمر وينقضي ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ﴾ وطول امتداده ﴿أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ في الدنيا من السنين لانقضاء الدنيا بمجيء يوم القيامة.

القمي: يعني الأمور التي يدبّرها، والأمر والنهي الذي أمر به، وأعمال العباد، كلّ هذا يظهر يوم

---

١. تفسير روح البيان ٧: ١٠٧.
٢. تفسير أبي السعود ٧: ٨٠، تفسير روح البيان ٧: ١٠٧.
٣. تفسير أبي السعود ٧: ٨٠، تفسير روح البيان ٧: ١٠٨.

القيامة، فيكون مقدار ذلك اليوم ألف سنة من سني الدنيا[١]. وقد سبقت أخبار في هذا المعنى[٢].

وقيل: يعني ينزِل أمره من السماء إلى الأرض على عباده، ثمّ تعرُج إليه أعمالهم الصالحة الصادرة على موافقة ذلك الأمر[٣]، وإنّما أسند العروج إلى الأمر، لأنّ العمل أثره، والمراد من اليوم امتداد زمان نزول الأمر وصُعود العمل، فانّ مسافة ما بين السماء والأرض خمسمائة سنة بسير أهل الأرض، فيكون مسافة النزول والصعود ألف سنة.

وقيل: إن المراد أنّه تعالى يُرسِل مَلَكاً لتدبير أمر الأرض، ثمّ يعرُج إلى مكانه في السماء، فينزل المَلَك من السماء ويعرُج إلى مكانه في مدّة لو سار أحدٌ من الناس تلك المسافة لسارها في زمان يكون مقداره ألف سنة[٤].

وقيل: إنّ المراد من السماوات والأرض عالَم الأجسام، والمراد من الأمر عالَم الأرواح الذي يقال له عالم الأمر[٥]، والمراد من اليوم الذي مقداره ألف.

ذٰلِكَ عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ * ٱلَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِن مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَفْـئِدَةَ قَـلِيلاً مَّـا تَشْكُرُونَ[٦ ـ ٩]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان عظمة ملكه ونفوذ أمره، بيّن سَعَة علمه بجزئيات مملكته، وإحاطته بخفاياها بقوله: ﴿ذٰلِكَ﴾ المدبّر لأمور الخلق ﴿عَالِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ وما يَخفى عن الحواسّ، أو الأشياء التي لم توجد بعد، أو الآخرة، أو عالم الأمر ﴿وَ﴾ عالم ﴿ٱلشَّهَادَةِ﴾ والمحسوس، أو الموجودات الفعلية، أو عالم الدنيا، أو عالم الأجسام ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب القاهر على كلّ شيء، أو على الانتقام من الكفَرة والعُصاة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده في تدبير اُمورهم، أو البَرَرة منه بتوفيقهم للخيرات وإنجائهم يوم القيامة من الأهوال والعذاب.

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان الآيات الآفاقية، بيّن الأدلة الأنفسية بقوله: ﴿ٱلَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ﴾ من السماوات والأرض وما بينهما من الموجودات، بأن أوجده على ما ينبغي ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَانِ﴾ الذي هو أعجب المخلوقات، وأُنموذج ما في العالم بخلق آدم عليه السلام ﴿مِن طِينٍ﴾ مأخوذٍ من وجه

---

١. تفسير القمي ٢: ١٦٨، تفسير الصافي ٤: ١٥٣.
٢. في سورة الحج.
٣. تفسير الرازي ٢٥: ١٧٢.
٤. تفسير روح البيان ٧: ١٠٨ و١٠٩.
٥. تفسير الرازي ٢٥: ١٧٢.

الأرض المخمّر بيد القدرة، وبعد خلق آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ جَعَلَ﴾ الله ﴿نَسْلَهُ﴾ وذرّيته بطناً بعد بطن إلى يوم القيامة متكوناً ﴿مِن سُلَالَةٍ﴾ وخُلاصةٍ منتزعةٍ من صُلب الرجل، أعني ﴿مِن مَاءٍ مَهِينٍ﴾ مستقذرٍ غير معتنٍ به، يقال له المَنيَ ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ وعدّل أعضاءه، وصوّره في الرَّحِم﴿وَ﴾ بعد تكميل خلق جسده ﴿نَفَخَ﴾ وأولج ﴿فيه﴾ روحاً طيباً شريفاً، يصِحّ إضافته إلى نفسه لكمال شرفه، ويقول: أدخل فيه ﴿مِن رُوحِهِ﴾ مع أنّه تعالى لا رُوح له، بل هو خالق الرُّوح فجعله حياً سوياً ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ يا بني آدم ﴿ٱلسَّمْعَ﴾ لتسمعوا الأصوات والكلمات التي أهمّها كلمات الله ومواعظه ومواعظ رسله ﴿وَٱلْأَبْصَارَ﴾ لتُبصِروا المبصرات التي أهمّها آيات التوحيد ومعاجز الأنبياء ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتفهموا معاني الكلمات وحقائق الآيات ودقائقها، ومع ذلك ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ نِعم ربّكم.

قيل: إنّ القليل هنا بمعنى النفي[١]، والمعنى لا تشكرون. وقيل: إنّ المراد قليلاً منكم يشكُرون[٢].

وَقَالُوا ءَإِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ * قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ[١٠ و ١١]

ثمّ لمّا ذكر سبحانه آيات قدرته وحكمته من خلق السماوات والأرض، واستيلائه على الموجودات، وتدبيره في عوالم المُلك والملكوت إلى قيام الساعة، وإبدائه خلق الانسان الذي هو أتمّ الموجودات وأجمعها وأعجبها، من الطين، ثمّ خلق ذرّيته من النُّقطة المسلولة من الصُّلب، وإعطائه نعمة السمع والبصر والفؤاد، حكى قول منكري الحشر من كفّار قريش بقوله: ﴿وَقَالُوا﴾ إنكاراً للمعاد واستبعاداً له: ﴿ءَإِذَا ضَلَلْنَا﴾ وغِبنا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بأن صِرنا تُراباً وعِظاماً مخلوطاً بأجزائها بحيث لا يتميّز تُرابنا، كما لا يتميز الماء المخلوط بالحليب منه ﴿أَءِنَّا﴾ مع ذلك ﴿لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وحياة ثانية واقعون أو كائنون؟! لا يمكن ذلك، وهم بقولهم هذا لم يكونوا منكرين لمجرّد الخلق ثانياً ﴿بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ وحسابه وجزائه للأعمال ﴿كَافِرُونَ﴾ أيضاً، ولدار الآخرة والمصير إلى الله منكرون ﴿قُلْ﴾ يا محمد ردّاً عليهم: أعلموا أيّها الكفَرة أنّكم لا تموتون بالطبيعة، ولا تنعدم أرواحكم بل ﴿يَتَوَفَّاكُم﴾ ويقبِض أرواحكم ﴿مَلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ وقابض الأرواح ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ وفُوّض إليه من الله قَبض أرواحكم ﴿ثُمَّ﴾ بعد موتكم ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ ومَليككم يوم القيامة ﴿تُرْجَعُونَ﴾ وفي محكمة عدله تَحْضُرون، فيجازيكم على كُفركم بالتوحيد والمعاد أسوأ الجزاء.

---

١. تفسير روح البيان ٧: ١١٢.

٢. مجمع البيان ٨: ٥١٣.

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ * وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ[١٢ و ١٣]

ثمّ ذكر سبحانه حال حضورهم عنده بقوله: **﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾** يا من شأنه الرؤية **﴿إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾** المنكرون للمعاد **﴿نَاكِسُوا﴾** ومُطرِقو **﴿رُؤُوسِهِمْ﴾** ومُطأطئوها حين الحضور **﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾** خوفاً وحياءً وحُزناً لترى عجباً. ويمكن أن يكون: لولا نشاء التمنّي، إظهاراً لكمال الفضاعة، وهم يقولون: يا **﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا﴾** ما وعدتنا بوقوعه من الحشر للحساب وجزاء الأعمال **﴿وَسَمِعْنَا﴾** نُصح رسولك ومواعظه في الدنيا، فلم نعتنِ بوعدك، وكذّبنا رسولك، أو المراد صرنا الآن بصيرين وسميعين بعد ما كنا في الدنيا عُمياً وصُمّاً **﴿فَارْجِعْنا﴾** إلى الدنيا ورُدّنا إليها **﴿نَعْمَلْ﴾** عملاً **﴿صَالِحاً﴾** مرضياً عندك، نافعاً لنا في هذا اليوم **﴿إِنَّا﴾** الآن **﴿مُوقِنُونَ﴾** بتوحيدك، ورسالة رسولك، وصدق وعدك، كاملون في الايمان بجميع ما يجب الايمان به، فاذا رجعنا إلى دار التكليف لا نُقصّر في امتثال تكاليفك.

ثمّ ردّهم الله بالاشارة إلى امتناع الرجوع إلى الدنيا، لعدم الفائدة في الايمان الضّروري القهري بقوله: **﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾** الهداية القهرية، والايمان الضروري لبني آدم في الدنيا، والله **﴿لَآتَيْنَا﴾** وأعطينا **﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾** من النفوس البَرّة والفاجرة ما يكون به **﴿هُدَاهَا﴾** وإيمانها بما يجب الايمان به وانبعاثها إلى الأعمال الصالحة **﴿وَلَكِنْ﴾** جعلنا الدنيا دار التكليف والامتحان، وبعثنا إليهم الرسول، وأنزلنا عليهم الكتاب، وسلّطنا عليهم الشيطان المُغوي والمُهوي المُردي، وأعطيناهم العقل وقُوّة تميّز الخير والشرّ، وأوكلناهم إلى اختيارهم، ليتميّز الخبيث من الطيب، والناجي من المطيع، والقابل للفيوضات من غير القابل، و**﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾** وسبق الوعيد الصادر منّي، وهو قولي: وعزتي **﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾** في الآخرة **﴿مِنَ﴾** كَفَرة **﴿ٱلْجِنَّةِ﴾** والشياطين **﴿وَ﴾** كَفرة **﴿ٱلنَّاسِ﴾** وذُرّية آدم، والعُصاة منهم **﴿أَجْمَعِينَ﴾** حيث قال بعد قول إبليس **﴿لاغوينهم أجمعين﴾**[١]: الحقّ والحقّ أقول لأملئنّ جهنّم منك وممّن تَبِعك منهم أجمعين.

عن أبي هُريرة، قال: سَمِعت رسول الله ﷺ يقول: «ليعتذرون الله إلى آدم ثلاث معاذير يقول الله: يا آدم، لولا أنّي لعنت الكذّابين وأبغضت الكَذِب والخُلف وأُعذّب عليه، لرحمت اليوم ولدك أجمعين من شدّة ما أعددت لهم من العذاب، ولكن حقّ القول منّي لئن كذّب رُسلي وعُصي أمري لأملأنّ

---

١. الحجر: ٣٩/١٥.

جهنّم من الجنّة والناس أجمعين. ويقول الله: يا آدم، أعلم أنّي لا أُدخِل من ذُرّيتك النار أحداً ولا أعذّب منهم بالنار أحداً، إلّا من عَلِمتُ أنّي لو رددته إلى الدنيا لعاد إلى أشرّ ممّا كان فيه، ولم يرجع ولم يتُب» الخبر[١].

فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[١٤ـ١٧]

ثمّ كأنه تعالى قال: إذا عَلِمتم أنّه لا يمكن رجوعكم إلى الدنيا ﴿**فَذُوقُوا**﴾ وأطعموا طعم نار جهنّم ﴿**بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ**﴾ الله في ﴿**يَوْمِكُمْ هٰذَا**﴾ اليوم العظيم الهائل، وتركتُم النظر والتفكّر في أدلّة المعاد، وانهمكتم في الشهوات ولذائذ الدنيا، وغفلتم عن الدار الآخرة ﴿**إِنَّا**﴾ أيضاً لا ننظُر إليكم اليوم نَظَر الرحمة، كأنّا ﴿**نَسِينَاكُمْ**﴾ وغفلنا عنكم وتركناكم فيما أنتم فيه من العذاب ﴿**وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْخُلْدِ**﴾ والدائم الذي لازم نسيانكم، لا بسبب نسيانكم اليوم فقط، بل به و ﴿**بِمَا كُنتُمْ**﴾ في الدنيا ﴿**تَعْمَلُونَ**﴾ من القبائح والمعاصي، كتكذيب الرسول وإيذائه، وإيذاء المؤمنين به، ونظائرهما من فنون الكبائر.

ثمّ أنه تعالى بعد بيان إنكار المشركين آيات التوحيد والمعاد وسوء حالهم في الآخرة، بيّن تعظيم المؤمنين لأدلّة التوحيد والمعاد، وإظهار خضوعهم وانقيادهم عند سَماعهم الآيات الدالات عليهما وحسن حالهم في الآخرة بقوله: ﴿**إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا**﴾ الدالة على التوحيد والمعاد ﴿**ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا**﴾ ووُعِظوا ﴿**بِهَا**﴾ وسَمِعوها من الرسول، أو المؤمنين ﴿**خَرُّوا**﴾ وسقطوا إلى الأرض حال كونهم ﴿**سُجَّداً**﴾ وخضعوا وأظهروا الانقياد لها ﴿**وَسَبَّحُوا**﴾ لله ونزّهوه عن الشِّرك، والولد، وخلق العالم عبثاً، والعجز عن إعادة الخلق لجزاء الأعمال، وغير ذلك ممّا لا يليق به، مقرنين تسبيحهم ﴿**بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**﴾ على نِعَمه التي أعظمها التوفيق للايمان به وبآياته، والتسليم لأحكامه وأوامره، والرغبة والشوق إلى طاعته، والعمل بمرضاته ﴿**وَهُمْ**﴾ لمعرفة أنفسهم بذلّة العبودية ومعرفة ربّهم بعظمة الألوهية والربوبية ﴿**لَا يَسْتَكْبِرُونَ**﴾ ولا يتعظّمون ولا يترفَعون عن السجود والانقياد له، والتذّلل والخضوع عنده، وبذل الجهد في طاعته وعبادته، بل يهتمّون في القيام بوظائف العبودية

---

١. تفسير روح البيان ٧: ١١٧.

غاية الاهتمام بحيث ﴿تَتَجَافَىٰ﴾ وترفع ﴿جُنُوبُهُمْ﴾ وتتنحّى أضلاعهم في تمام الليل أو نصفه أو ثلثه، أو في ساعة منه ﴿عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ وفرش النوم حال كونهم ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ ويُناجونه ويتضرّعون إليه، أو يصلّون ﴿خَوْفاً﴾ من سَخَطه وعذابه على معاصيهم، أو من البُعد عنه، لتقصيرهم في طاعته، أو من اشتمال أعمالهم بما يُوجِب عدم قبولها ﴿وَطَمَعاً﴾ ورغبة في رحمته وفيوضاته الدنيوية والأُخروية.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ وأنعمنا عليهم من المال، أو من جميع ما لهم منه، ومن العلم والجاه وغيرها ﴿يُنفِقُونَ﴾ ويَبْذُلون للمحتاجين وإخوانهم المؤمنين، تقرّباً إلى الله، وطلباً لمرضاته.

رُوي أنّ الآية نزلت في الذين صلّوا صلاة العِشاء والصُّبح جماعة[١].

وعن الصادق عليه السلام ـ في هذه الآية ـ قال: «لا ينامون حتى يُصلّوا العَتَمة»[٢].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله: «أنّها قيام العبد من الليل»[٣].

وعن مُعاذ بن جَبَل، عن النبيّ صلى الله عليه وآله ـ في حديث ـ قال: «ألا أُخبركم بأبواب الخير؟» قال: نعم. قال صلى الله عليه وآله: «الصوم جُنّة من النار، والصدقة تُكفّر الخطيئة، وقيام الرجل في جوف الليل يبتغي وجه الله»[٤]. وفي رواية: «يذكُر الله»[٥] وفي أُخرى: «يناجي ربّه» ثمّ قرأ هذه الآية ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾[٦].

وعن الباقر والصادق عليهما السلام: ما يقرُب منه[٧].

وعن الباقر عليه السلام ـ في هذه الآية ـ قال: «لعلّك ترى أنّ القوم لم يكونوا ينامون، لا بدّ لهذا البدن أن تُريحه حتى تخرُج نفسه، فاذا خرج النفس استراح البَدَن، ورجع للرُّوح قوّة على العمل» قال: نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام وأتباعه من شيعتنا، ينامون في أول الليل، فاذا ذهب ثُلثا الليل، أو ما شاء الله، فَزِعوا إلى ربّهم راغبين مرهبين، طامعين فيما عنده، فذكرهم الله في كتابه، فأخبركم بما أعطاهم» الخبر[٨] بقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ من النفوس حتى الملائكة المقرّبين والأنبياء والمرسلين ﴿مَّا أُخْفِيَ﴾ وسُتِر ﴿لَهُم﴾ عن إدراك المُدرِكين ﴿مِن﴾ ما به ﴿قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ وسُرور القلوب.

عن ابن مسعود: أنّه مكتوب في التوراة: لقد أعدّ الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لا عين

---

١. تفسير أبي السعود ٧: ٨٥، مجمع البيان ٨: ٥١٨، نسبه إلى القيل.
٢. أمالي الطوسي: ٥٧٦/٢٩٤، تفسير الصافي ٤: ١٥٦.
٣. تفسير أبي السعود ٧: ٨٥، تفسير روح البيان ٧: ١١٩.
٤. مجمع البيان ٨: ٥١٨، تفسير الصافي ٤: ١٥٦.
٥. المحاسن: ٤٣٥/٢٨٩، الكافي ٢: ١٥/٢٠، وفيهما: بذكر الله، تفسير الصافي ٤: ١٥٦.
٦. المحاسن: ٤٣٤/٢٨٩، تفسير الصافي ٤: ١٥٦.
٧. تفسير الصافي ٤: ١٥٦.
٨. علل الشرائع: ٤/٣٦٥، من لا يحضره الفقيه ١: ١٣٩٤/٣٠٥، تفسير الصافي ٤: ١٥٦.

رأت، ولا أذن سَمِعت، ولا خَطَر على قلب بشرٍ، ولا يعلمه مَلَك مقرّب[1] ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَعْمَلُونَ﴾ من الايمان والخُضوع، والتسبيح والتحميد، والقيام عن المضاجع إلى الصلاة والدعاء، وغير ذلك من الصالحات بإخلاص النية وصدق الطويّة.

عن الصادق عليه السلام: «ما من عملٍ حَسَن يعمله العبد إلّا وله ثوابٌ في القرآن إلّا صلاة الليل، فانّ الله عزّ وجلّ لم يبيّن ثوابها لعِظَم خَطَره عنده، قال جلّ ذكره: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَعْمَلُون﴾».

ثمّ قال عليه السلام: «إنّ لله كرامة في عباده المؤمنين في كلّ يوم جمعة، فاذا كان يوم جمعة بعث الله إلى المؤمن مَلَكاً معه حُلّتان، فينتهي إلى باب الجنة فيقول: استأذنوا على فلان فيقال له: هذا رسول ربّك على الباب، فيقول لأزواجه: أيّ شيءٍ ترين عليّ أحسن؟ فيقلن: يا سيدنا والذي آتاك الجنة ما رأينا عليك شيئاً أحسن من هذا الذي بعث إليك ربك. فيتّزر بواحدةٍ» ويتعطّف بالأُخرى، فلا يمُرّ بشيءٍ إلّا أضاء له حتى ينتهي إلى الموعد، فإذا اجتمعوا تجلّى لهم الربّ تبارك وتعالى، فاذا نظروا إليه خرّوا له سُجّداً، فيقول: عبادي ارفعوا رؤوسكم، ليس هذا يوم سُجودٍ ولا يوم عبادةٍ، قد رُفِعت عنكم المُؤنة. فيقولون: يا ربّ، أي شيءٍ أفضل ممّا أعطيتنا! أعطيتنا الجنّة. فيقول: لكم مثل ما في أيديكم سبعين ضِعفاً، فيرجِع المؤمن في كلّ جمعةٍ بسبعين ضِعفاً مثل ما في يديه، وهو قوله: (ولدينا مزيد) وهو يوم الجمعة، ليلتها ليلة غرّاء، ويومها يوم أزهر، فأكثروا فيها من التسبيح والتكبير والتهليل، والثناء على الله، والصلاة على محمّد صلّى الله عليه وآله».

قال: «فلا يَمُرّ المؤمن بشيءٍ إلّا أضاء له، حتى ينتهي إلى أزواجه، فيقلن: والذي أباحك الجنّة يا سيدنا ما رأيناك قطُّ أحسن منك الساعة. فيقول: إنّي قد نظرتُ إلى نور ربّي».

إلى أن قال عليه السلام: «إنّ الله خلق جنّةً بيده لم ترها عينٌ، ولم يَطّلع عليها مخلوق، يفتحها الربّ كلّ صباحٍ فيقول: ازدادي ريحاً، ازدادي طيباً، وهو قول الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾»[2].

وعنهما عليهما السلام، قالا: «قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: لمّا أُسري بي رأيت في الجنة نهراً أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، وأشدّ استقامةً من السَّهم، فيه أباريق عدد النجوم، على شاطئه قِباب الياقوت الأحمر والدُّر الأبيض، فضرب جَبْرئيل بجَناحيه، فإذا هو مِسك أذْفَر.

ثمّ قال: والذي نفس محمدٍ بيده، إنّ في الجنّة لشجراً يتصفق بالتسبيح بصوتٍ لم يسمع الأولون والآخرون [مثله] يُثمِر ثمراً كالرُّمان، يُلقىٰ ثَمَره إلى الرجل، فيَشُقّها عن سبعين حُلّةً، والمؤمنون على

---

١. الدر المنثور ٦: ٥٤٩. ٢. تفسير القمي ٢: ١٦٨، تفسير الصافي ٤: ١٥٦.

الكراسي[١]، وهم الغرّ المُحجّلون، [على الرجل منهم نعلان شِراكُهما من نورٍ، يضيء أمامهم] حيث شاءوا من الجنة، فبينا هم كذلك إذ أشرفت عليه امرأة من فوقه، فتقول: سُبحان الله! يا عبدالله، أما لنا منك دولة؟ فيقول: من أنت؟ فتقول: أنا من اللواتي قال الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِىَ لَهُم مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾»[٢].

أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ * أَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ [١٨ ـ ٢٠]

ثمَ أنه تعالى بعد ذكر حال المؤمن والمُجرِم وعاقبتهما، وجّه الخِطاب إلى العُقلاء، وأنكر احتمال التساوي بين الفريقين بقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ﴾ في الدنيا ﴿مُؤْمِناً﴾ يمكن أن يحتمل أن يكون في الشّرف والمنزلة عند الله ﴿كَمَن كَانَ﴾ في الدنيا ﴿فَاسِقاً﴾؟! لا يُمكن ذلك و﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ أبداً في شيءٍ من الشرف والقُرب والمَثُوبة.

ثمَ أنه تعالى بعد إنكار احتمال التساوي والتصريح بعدمه، والبيان الإجمالي لحُسن عاقبة المؤمن ومَثُوبته، وسوء عاقبة المُجرِم وعقوبته، فصّل ثواب الأول وكيفية عذاب الثاني بقوله: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بما يجب الإيمان به ﴿وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿ٱلصَّالِحَاتِ﴾ في الدنيا ﴿فَلَهُمْ﴾ في الآخرة بالاستحقاق ﴿جَنَّاتُ﴾ اللّاتي تكون لهم ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾ والمَسْكَن الدائم. وعن ابن عباس: أنّ جنّة المأوى اسم إحدى الجنّان الثمان[٣] التي خلقها في الآخرة كلّها من الذهب[٤]، حال كون تلك الجنّات ﴿نُزُلاً﴾ وتشريفاً لورودهم على الله، وصلةً لهم ﴿بِمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَعْمَلُونَ﴾ من الايمان والسجود عند تذكّر الآيات، وتجافي جنوبهم عن المضاجع، ودعاء ربّهم، وإنفاقهم.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا﴾ وخرجوا عن طاعة الله وكفروا به ﴿فَمَأْوَاهُمُ﴾ ومسكنهم ﴿ٱلنَّارُ﴾ سواء عَمِلوا الصالحات أو السيئات، لا يخرُجون منها أبداً ﴿كُلَّمَا﴾ وفي أيّ وقتٍ ضربهم لهيب النار وارتفعوا إلى طبقاتها وقربوا من بابها و﴿أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ ضربهم لهيب النار أو تتلقّاهم

---

١. في المحاسن: على كراسي من نور. ٢. المحاسن: ١٧٢/١٨٠، تفسير الصافي ٤: ١٥٧.
٣. في النسخة: الجنات المأوى اسم إحدى الجنات الثمانية.
٤. تفسير روح البيان ٧: ١٢٢.

الخَزَنة بمقامع من نار أو حديد و﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾ ويهوون إلى قعرها سبعين خرفياً على ما روي، وهكذا يفعل بهم أبداً[1] ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ إهانةً وتشديداً عليهم وزيادةً في غيظهم ﴿ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم﴾ بأخبار الأنبياء ﴿بِهِ﴾ في الدنيا ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ وتقولون: لا جنّة ولا نار.

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ[٢١و٢٢]

ثمّ هدّدهم بالعذاب الدنيوي الذي يكون لطفاً بهم وتنبيهاً لهم بقوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾ بعضاً ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ الدنيوي الذي يكون هو ﴿ٱلْأَدْنَىٰ﴾ والأقرب إليهم كالمرض والفقر والجلاء [من] الوطن ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ﴾ الأخروي ﴿ٱلْأَكْبَرِ﴾ والأشدّ والأدوم وقبله ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن الكفر إلى الايمان، ويتوبون من الشِّرك والمعاصي.

القمي: العذاب الأدنى عذاب الرجعة بالسيف[2].

وعن الصادق عليه السلام: «هو عذاب القبر». وعنهما عليهما السلام: «هو الدابة والدجّال»[3] ولا يرجعون وهم من الظالمين على أنفسهم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ على نفسه ﴿مِمَّن ذُكِّرَ﴾ ووُعِظ ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ ودلائل توحيده وقُدرته وحكمته، وصدَق رسله ودار جزائه ﴿ثُمَّ﴾ لم يعتنِ بها و﴿أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ على خلاف المؤمنين الذين إذا ذُكِروا بها خضعوا لها وخرّوا سُجّداً ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الظالمين على أنفسهم، وإن هانت جريمته وقلّ ظُلمه يوم القيامة ﴿مُنتَقِمُونَ﴾ بتعذيبه، فكيف بمن هو أشدّ جُرماً من كلّ مجرمٍ وأظلم من كلّ ظالم!

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِن لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًىٰ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ

---

١. تفسير روح البيان ٧: ١٢٣.
٢. تفسير القمي ٢: ١٧٠، تفسير الصافي ٤: ١٥٨.
٣. مجمع البيان ٨: ٥٢٠، تفسير الصافي ٤: ١٥٨.

أَفَلَا يَسْمَعُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَاءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ[٢٣ ـ ٢٧]

ثمّ لمَا ذكر إعراض الكفّار عن الآيات، وكان يتألم به قلب نبيّه ﷺ، سلّاه سبحانه بذكر نزول التوراة على موسى عليه السلام وعدم إيمان كثيرٍ من قومه بها، وصبر أنبياء بني إسرائيل على أذى قومهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ وأعطينا ﴿مُوسَى﴾ بن عمران ﴿ٱلْكِتَابَ﴾ المعهود ﴿فَلَا تَكُن﴾ يا محمّد ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ وشكّ ﴿مِن﴾ أخذ موسى عليه السلام ذلك الكتاب و﴿لِّقَائِهِ﴾ أو من لقائك موسى عليه السلام ورؤيته في زمان حياتك، كما رأيته ليلة المعراج مرّتين في السماء السادسة حين صعوده ونزوله، أو في الآخرة، أو من تلقّيك القرآن من لدُن عليمٍ حكيمٍ، كما تلقّى موسى عليه السلام ذلك الكتاب الذي أنزلناه عليه ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ سبب ﴿هُدىً﴾ ورَشاد من الضلال ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الذين اهتدوا به، كما جعلنا القرآن سبب الهداية لاُمّتك المؤمنين به.

﴿وَجَعَلْنَا﴾ بعد موسى عليه السلام في بني إسرائيل جماعةً ﴿مِنْهُمْ﴾ أنبياء ليكونوا ﴿أَئِمَّةً﴾ وقادةً لهم يقتدون بهم قولاً وعملاً ﴿يَهْدُونَ﴾ ويَرْشُدون الخلق إلى الحقّ ﴿بِأَمْرِنَا﴾ إيّاهم به، أو بوحينا إليهم، أو بتوفيقنا لهم ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ على مشاقّ الطاعات وشدائد الأمور وأذى قومهم ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على معارفنا وأحكامنا، لإمعان النظر فيها ﴿يُوقِنُونَ﴾ كما جعلنا في اُمّتك أئمةً هداة مهديين يهدونهم إلى ما في كتابك من المعارف والأحكام والعلوم، ومع ذلك لم يؤمن بكتاب موسى اُمّته، بل اختلفوا فيه، فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر به ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ اللطيف بعباده ﴿هُوَ﴾ بذاته المُقدّسة يتصدّى للحكومة و﴿يَفْصِلُ﴾ ويقضي ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بإثابة المؤمنين وتعذيب الكافرين ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ وفصل القضاء ﴿فِيمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من صدق الأنبياء في إخبارهم بالتوحيد والمعاد وغيرهما من العقائد الحقّة والأحكام الإلهية، بل حكم في الدنيا بينهم بمعاملته مع الأنبياء والمؤمنين بهم والكفار والمكذّبين لهم.

﴿أَ﴾ غفَلوا ﴿وَلَمْ يَهْدِ﴾ ولم يظهر ﴿لَهُمْ﴾ بمطالعتهم الكتب وسَماعهم بالتواتر كيف أكرمنا الأنبياء والمؤمنين، ونصرناهم على أعدائهم و﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ بعذاب الاستئصال ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ جماعة ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ وأهل الأعصار السابقة، كعاد وثمود والمؤتفكات وغيرهم وقومك ﴿يَمْشُونَ فِي﴾ أسفارهم وتجاراتهم في منازل اُولئك الأمم المُهلَكة و﴿مَسَاكِنِهِمْ﴾ الخَربة، ويشاهدون آثار نزول العذاب عليهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإهلاك والله ﴿لَآيَاتٍ﴾ كثيرة، ودلالات واضحةٍ على حُكم الله بحقّانية الموحّدين ومُصدّقي الأنبياء، ومُدّعي المعاد، وبطلان القول بالشِّرك وإنكار المعاد، أهم صُمٌّ

﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ تلك المواعظ والعِبَر، هبوا أنهم لا يسمعون تلك الأخبار ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ بأعينهم ﴿أَنَّا نَسُوقُ﴾ ونجري ﴿الْمَاءَ﴾ النازل من السماء ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ واليابسة المنقطعة عن الماء والنبات ﴿فَنُخْرِجُ﴾ بذلك الماء، ونُنبت ﴿بِهِ﴾ فيها ﴿زَرْعاً﴾ نافعاً ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَ﴾ هم عُمي ﴿فَلَا يُبْصِرُونَ﴾ آيات الله الدالّة على توحيده وقدرته على إعادة خلقهم في الحشر للحساب وجزاء الأعمال.

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ * فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ [٢٨ ـ ٣٠]

ثمَ أنه تعالى بعدما هدّد الكفّار بحكومته عليهم يوم القيامة، حكى استهزاءهم بهذا الوعيد واستعجالهم له بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ استهزاءً للمؤمنين ﴿مَتَىٰ﴾ يكون ﴿هَٰذَا الْفَتْحُ﴾ والحكومة؟ عيّنوا وقته ﴿إِن كُنتُمْ﴾ أيّها المؤمنون ﴿صَادِقِينَ﴾ في إخباركم به.

قيل: إنّ المؤمنين قالوا لكفّار مكّة: إنّ لنا يوماً يفتح الله فيه بيننا ـ يعني يحكُم بيننا ـ يُريدون يوم القيامة[1].

وقيل: إنّ المؤمنين قالوا لهم: سيفتح لنا على المشركين[2]، ويَنْصُرنا عليهم، فأمر سبحانه نبيّه ﷺ بجوابهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: إنّ تريدوا باستعجالكم له وتعيين وقته أن تؤمنوا عند مجيئه، فاعلموا أنّ ﴿يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ وهو يوم القيامة والشهود ﴿لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في نجاتهم من العذاب واستحقاقهم الثواب ﴿إِيمَانُهُمْ﴾ بالله وباليوم الآخر لفوات وقته، فانّ الايمان النافع لا يكون إلّا في الدنيا، وإن تطمئنّوا بخلاصكم فيه من العذاب، فاعلموا أنّ الكفّار لا يَخْلُصون منه ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ ولا يُمْهَلُون ساعة لعدم المقتضى لإمهالهم مع كمال استحقاقهم له، أو لا ينفع يوم غَلَبة المسلمين عليهم إيمانهم،لأنّه إيمان عند رؤية البأس، كايمان فرعون حين الغَرق، ولا يُمهلهم المسلمون، بل يقتلونهم.

والقمي قال: لمّا أخبرهم رسول الله ﷺ بخبر الرجعة، قالوا: متى هذا الفتح؟ وهذه معطوفة على قوله: ﴿ولنذيقنهم من العذاب الادنى﴾[3] الآية.

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٧: ١٢٩.

٣. تفسير القمي ٢: ١٧١، تفسير الصافي ٤: ١٦٠، والآية من سورة السجدة: ٢١/٣٢.

ثمَ سلَى سبحانه نبيّه ﷺ بقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تعتنِ بهم ولا تبالِ بتكذيبهم ﴿وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ النَّظِرة عليهم وهلاكهم، أو ابتلاءهم بالعذاب في القيامة.

في الحديث: «من قرأ (الم تنزيل) و(تبارك الذي بيده الملك) اُعطي من الأجر كأنّما أحيا ليلة القدر»[1].

وفي حديث آخر: «من قرأ (الم تنزيل) في بيته لم يدخُل الشيطان بيته ثلاثة أيام»[2].

وفي ثالث: «تجيء (الم تنزيل) السجدة يوم القيامة ولها جَناحان تطاير صاحبهما وتقول: لا سبيل عليك»[3].

وعن جابر: أنّ رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ (الم) السجدة و(تبارك الذي بيده الملك) ويقول: «هما تَفَضُلان كلّ سورة في القرآن بسبعين حَسَنةً، فمن قرأهما كُتِب له سبعون حسنةً، ومُحي عنه سبعون سيئةً ورُفِع له سبعون درجة»[4].

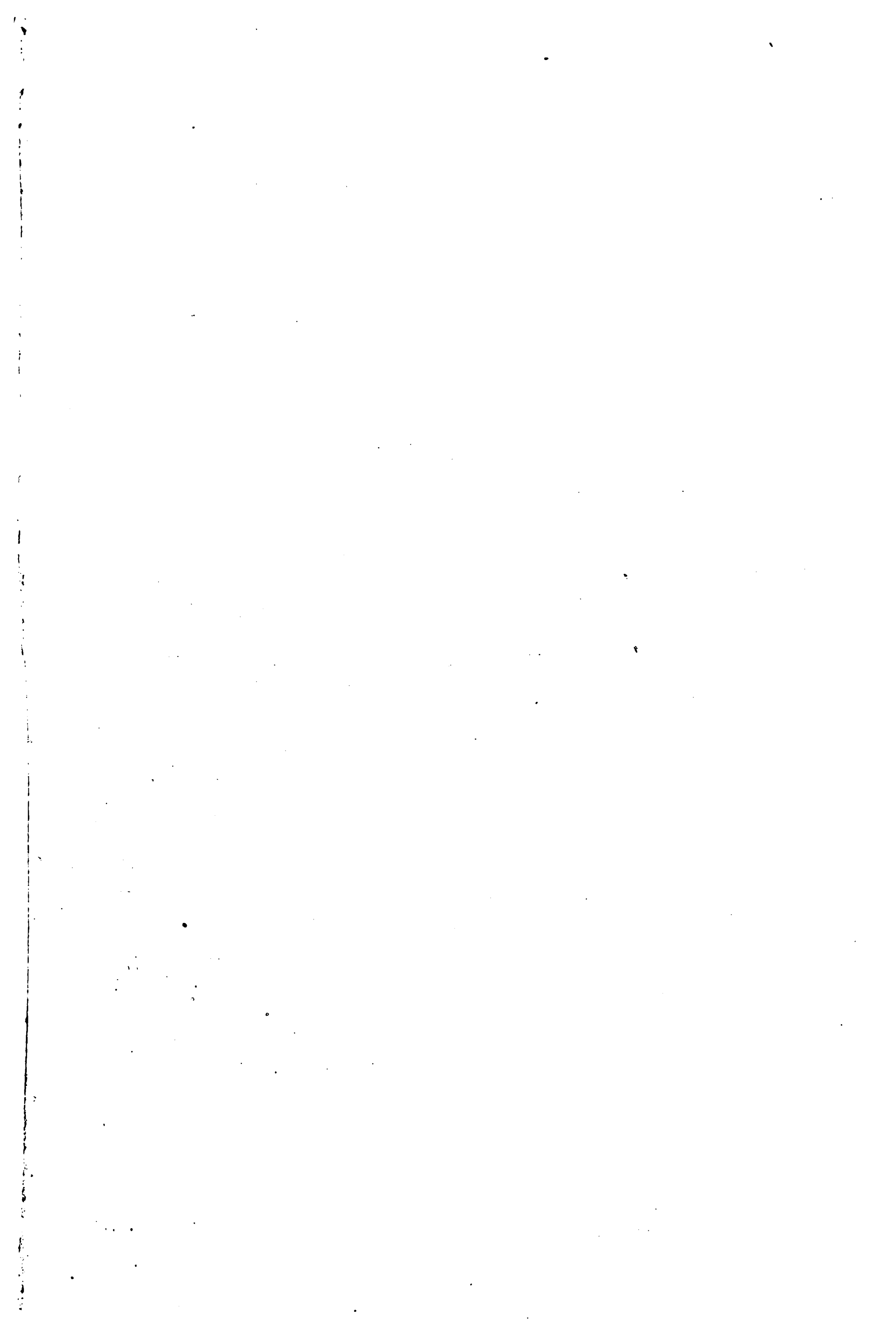
ورُوي أنّ النبي ﷺ كان يقرأ في الفجر يوم الجمعة (الم تنزيل) و(هل اتى على الانسان)»[5].

وعن الصادق عليه السلام: «من قرأ سورة السجدة في كلّ ليلة جمعة، أعطاه الله كتابه بيمينه، ولم يُحاسِبه بما كان منه، وكان من رُفقاء محمّد ﷺ وأهل بيته»[6].

---

١ ـ ٥. تفسير روح البيان ٧: ١٣٠.

٦. ثواب الأعمال: ١١٠، مجمع البيان ٨: ٥٠٨، تفسير الصافي ٤: ١٦٠.



في تفسير سورة الأحزاب

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَافِرِينَ وَٱلْمُنَافِقِينَ إِنَّ ٱللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً[١]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة ﴿الم﴾ السجدة التي كان فيها إثبات النبوّة، وأمر النبيّ ﷺ بالاعراض عن الكفّار واستهزاء الكفّار بالمؤمنين في إخبارهم بغلبتهم على المشركين، اُردفت بسورة الأحزاب التي بدأ فيها بالإعلان بنبوّة محمّد ﷺ وشرح الإعراض عن الكفّار بالنهي عن طاعتهم، والأمر باتّباع القرآن، والاعتماد على الله في دفع شرّ الأعداء، والإخبار بفتح المؤمنين في غزوة الاحزاب، ونهي النبيّ ﷺ عن خشيته من الناس في تزويج زينب بنت جحش، إلى غير ذلك من المطالب المناسبة لما في السورة السابقة، فابتدأ سبحانه على حسب دأبه في كتابه بذكر أسمائه المباركة بقوله: ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تبرّكاً وتيمّناً وتعليماً للعباد.

ثمّ وجه الخطاب إلى نبيّه المعصوم الذي كان مجسّمة التقوى، ولا يتوهّم في حقّه طاعة غير الله، إظهاراً لكمال الاهتمام بالتكاليف الموجّهة إليه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ والشخص الجليل المخبِر عن الله بأخبار عظيمة الفائدة، أو الشخص الرفيع المنزلة عند الله ﴿ٱتَّقِ ٱللهَ﴾ واحترِز غضبه وسَخَطه ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَافِرِينَ﴾ والمتجاهرين بالكفر ﴿وَٱلْمُنَافِقِينَ﴾ المُسرّين له المظهرين للاسلام، ولا تعمل بآرائهم وإن اتّفق الناس على كونها عين الصلاح ﴿إِنَّ ٱللهَ كَانَ﴾ في الأزل بذاته ﴿عَلِيماً﴾ بالأشياء ومصالح العباد، ومحيطاً بمفاسد اُمورهم و ﴿حَكِيماً﴾ فلا ينهى عن شيءٍ إلّا وفيه المفسدة، ولا يأمر بشيءٍ إلّا وفيه المصلحة التامة والحكمة البالغة.

قيل: إنّ أبا سفيان وعِكرمة وأبا الأعور جاءوا بعد وقعه اُحد إلى المدينة، ونزلوا في دار ابن اُبي رأس المنافقين، ثمّ طلبوا يوماً من الرسول الأمان حتى يَحْضُروا عنده ويُكلّموه، فأعطاهم الرسول الأمان، فحضروا مع جمعٍ من المنافقين عنده، وقالوا: يا محمد، ارفض ذكر آلهتنا، وقل إنّها تشفع يوم

القيامة، وتنفع لمن عبدها، ونحن نَدَعُك وربّك، فبان الغضب من كلامهم في وجه الرسول ﷺ فقال ابن اُبي وجمع من المنافقين: يا رسول الله، هؤلاء أشراف العرب، أعطِهم سؤلهم، فانّ فيه صلاحك. فهمّ عمر بقتلهم، فنهاه رسول الله، وقال: «أعطيتهم الأمان، فلا تنقُض عهدي» فأخرجهم عمر من المدينة، فنزلت[1].

وقيل: جاء جماعة من ثَقيف إلى النبي ﷺ وقالوا: دَعنا على عبادة الأصنام سنةً، لتظهر مَزيّة لنا عندك على قريش[2] ثمّ نؤمن بك، فنزلت[3].

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً * وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً * مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ﴾[٢ ـ ٤]

ثمّ أنّه تعالى بعد نهيه عن متابعة الكفّار، أمره باتّباع القرآن بقوله: **﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾** في جميع ما تأتي وتَذَر، واعمل بأحكام الله المُنزلة في القرآن **﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾** من الطاعة والمخالفة **﴿خَبِيراً﴾** لا يَخفى عليه شيء من أعمالكم وأحوالكم، ويجازيكم على حسب استحقاقكم، ولا تخشَ من أحد في مخالفتي، ولا ترجُ من أحدٍ أن يُحسِن إليك، ولا تَخَف أحداً من ضرّه وشرّه **﴿وَتَوَكَّلْ﴾** واعتمد **﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾** في حِفظك، وفوّض إليه جميع اُمورك **﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ﴾** الذي خلقك ودبّر اُمورك، وشرّفك بمنصِب الرسالة **﴿وَكِيلاً﴾** وحافظاً لصلاح اُمورك، وحسبك ربّك ولياً وناصراً.

قيل: من خاف ريحاً أو صاعقةً أو غيرهما من المضارّ والمهلكات، فليكثر من ذكر: يا وكيل، فانّه يُصرَف منه كلّ شرّ وضرّ، ويُفتَح له أبواب كلّ خير[4].

ثمّ لمّا كان طاعة الكفّار الذين هم أعداء الله لا تكون إلّا حبّاً لهم أو طمعاً ما عندهم من الزخارف، أو خوفاً من ضررهم، بيّن سبحانه أنّ حبّهم وخوفهم لا يجامع حبّ الله في قلبٍ واحدٍ بقوله: **﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ﴾** من الرجال وشخص من الأشخاص نبياً كان أو غيره **﴿مِن قَلْبَيْنِ﴾** ومضغتين صغيرتين في هيئة الصَّنوبرة **﴿فِى جَوْفِهِ﴾** وداخل صدره، يكون في أحدهما الايمان وحبّ الله والخوف منه، وفي الآخر الكفر وحبّ أعداء الله والخوف منهم.

عن الباقر عليه السلام، قال: «قال علي بن أبي طالب عليه السلام: لا يجتمع حبّنا وحبّ عدوّنا في جوف إنسان، إنّ

---

١. تفسير روح البيان ٧: ١٣١.

٢. في مجمع البيان: قالوا لتعلم قريش منزلتنا منك.

٣. مجمع البيان ٨: ٥٢٥.

٤. تفسير روح البيان ٧: ١٣٢.

الله لم يجعل لرجلٍ قلبين في جوفه، فيُحِبّ بهذا ويَبْغُض بهذا، فأمّا مُحبّنا فيُخلِص الحبّ لنا كما يَخْلُص الذهب بالنار، لا كَدَر فيه، فمن أراد أن يعلم حبّنا فليمتحن قلبه، فان شارك في حبّنا حبّ عدوّنا فليس منّا ولنسا منه، والله عدوّهم وجَبْرئيل وميكائيل، والله عدوّ للكافرين»[١].

وعن الصادق عليه السلام: «ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه، يُحِبّ بهذا قوماً، ويُحِبّ بهذا أعداءهم»[٢].

وعنه عليه السلام: «فمن كان قلبه متعلقاً في صلاته بشيءٍ دون الله، فهو قريبٌ من ذلك الشيء، بعيدٌ عن حقيقة ما أراد الله منه في صلاته» ثمّ تلا هذه الآية[٣].

وعن ابن عباس: كان المنافقون يقولون: إنّ لمحمد قلبين: قلباً معنا، وقلباً مع أصحابه، فأكذبهم الله[٤].

وعن جمعٍ من مفسّري العامة: أنّها نزلت في أبي مَعْمَر جميل[٥] بن مَعْمَر الفهري، أو جميل بن أسد، وكان لبيباً حافظاً لما يسمع، وكان يقول: إنّ في جوفي قلبين، أعقِل بكلّ منهما أفضل ممّا يعقِل محمّد! وكانت قريش تسمّية ذا القلبين، فلمّا كان يوم بدر وهُزِم المشركون، وفيهم أبو مَعْمَر تلقّاه أبو سفيان وهو آخذ بإحدى نَعْليه بيده، والأُخرى في رجله، وهو يعدو في الرّمضاء، ويقول: أين نَعْلي، أين نَعْلي؟ فقال أبو سفيان له: إحدى نعليك في يدك[٦]. فخَجِل.

وفي رواية، قال له: فما بالك إحدى نَعْليك في يدك؟ قال أبو مَعْمَر: ما شَعَرتُ إلّا أنهما في رجلي، فعلموا يومئذٍ أنّه ليس له إلّا قلبٌ واحدٌ، وإلّا مانسي نَعْله في يده[٧].

وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِى تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ * ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا اٰبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ وَمَوالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلٰكِن مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً [٤ و ٥]

---

١. تفسير القمي ٢: ١٧١، تفسير الصافي ٤: ١٦٢.
٢. مجمع البيان ٨: ٥٢٧، تفسير الصافي ٤: ١٦٢.
٣. مصباح الشريعة: ٩٢، تفسير الصافي ٤: ١٦٢.
٤. تفسير روح البيان ٧: ١٣٤.
٥. في النسخة: حميد.
٦. تفسير القرطبي ١٤: ١١٦، تفسير أبي السعود ٧: ٩٠، تفسير روح البيان ٧: ١٣٤.
٧. تفسير الصافي ٤: ١٦٢.

ثمَ أنه تعالى بعد إبطال هذا القول أبطل قولهم بأنّ الزوجة تصير في حُكم الأمّ بالظِّهار بقوله: **﴿وَمَا جَعَلَ﴾** الله تكويناً أو تشريعاً نساءكم اللاتي يكنّ **﴿أَزْوَاجَكُمُ﴾** وحلائلكم **﴿اللاَّئِى تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ﴾** وتقولون لهنّ: أنتنّ علينا كظهور اُمّهاتنا **﴿أُمَّهَاتِكُمْ﴾** حقيقةً أو حُكماً، أمّا حقيقة فبالبداهة، وأما حُكماً فلعدم المِلاك، فلا وجه لحسبانهنّ مطلّقات، كما تخيلهنّ العرب في الجاهلية مطلقات، ثمَ أبطل قولهم بأنّ من قال لأحد: أنت ابني يكون ابناً له بقوله: **﴿وَمَا جَعَلَ﴾** الله **﴿أَدْعِيَاءَكُمْ﴾** والذين تبنّيتموهم ودعوتموهم باسم الابن **﴿أَبْنَاءَكُمْ﴾** الحقيقة أو الحكمية، كما جعلتهم العرب في الجاهلية أبناء للداعي والمتبنّي، وحرّموا نِكاح أزواجهم عليه، ووَرِثوهم أمواله، ولذا كانت تقول لزيد بن حارثة الكلبي: عتيق رسول الله ابن محمد **﴿ذَٰلِكُمْ﴾** المذكور من اُمومة المظاهرة وبنوّة الدعي **﴿قَوْلُكُم﴾** الذي تقولونه **﴿بِأَفْوَاهِكُمْ﴾** وألسنتكم، لا توافقه قلوبكم وعقولكم، وكِذْب اخترعتموه بأهوائكم **﴿وَٱللَّهُ﴾** المطّلع على حقائق الأشياء وواقعيات الأمور **﴿يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾** والكلام الصِّدق المطابق للواقع **﴿وَهُوَ﴾** بلُطفه **﴿يَهْدِى﴾** عباده **﴿ٱلسَّبِيلَ﴾** الحقّ في جميع الأمور، فدعوا أقوالكم وخُذوا بقوله.

ثمَ هدى الناس وعلّمهم الكلام الحقّ بقوله: **﴿ٱدْعُوهُمْ﴾** وانسُبُوهم **﴿لِأَبَائِهِمْ﴾** الذين ولدوهم، فانّ الدعاء لآبائهم **﴿هُوَ أَقْسَطُ﴾** وأعدل وأقرب للصواب **﴿عِنْدَ ٱللَّهِ﴾** وفي حُكمه من دعائهم لغير آبائهم، وأصدق من نسبتهم إلى من تبنّاهم **﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا﴾** ولم تعرِفوا **﴿آبَاءَهُمْ﴾** حتى تَنْسُبوهم إليهم **﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾** إذا كانوا مسلمين **﴿وَمَوَالِيكُمْ﴾** وعُتقاؤكم إذا أعتقتموهم، أو أحبّاؤكم، فقولوا لهم: يا إخواننا، أو يا أولياءنا **﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾** عند الله **﴿جُنَاحٌ﴾** وإثم **﴿فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾** وعَدَلتم عن طريق الصواب فيه بالسَّهو أو بسَبْق اللِّسان **﴿وَلَٰكِن﴾** الجُناح **﴿مَا تَعَمَّدَتْ﴾** وقصدت **﴿قُلُوبُكُمْ﴾** بعد النهي، وفي الحديث: «من دُعي لغير أبيه، وهو يعلم أنّه غير أبيه، فالجنّة عليه حرام»[1] **﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾** مع التعمد أيضاً **﴿غَفُوراً﴾** وستّار العُصاة[2] التائبين **﴿رَحِيماً﴾** بالمؤمنين.

ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ ٱللهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفاً كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَابِ مَسْطُوراً[٦]

---

١. تفسير روح البيان ٧: ١٣٨.

٢. في النسخة: العصيان.

ثمّ أنه تعالى بعد ما نفى الأمومة عن المظاهرة، والبنوّة عن الدعيّ، أثبت الأبوة والأولوية في جميع الأمور بالمؤمنين لنبيّه ﷺ بقوله: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ﴾ وأجدر ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في جميع الأمور الدينية والدنيوية ﴿مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ لكونه أعلم بمصالحهم ومفاسدهم، وأشفق عليهم منها، فيجب أن يَبْذُولها دونه، ويتّبعوه في كلّ ما يَدْعُوهم إليه، ولا يَدْعُوهم إلّا إلى ما فيه نجاتهم وفلاحهم ورُشدهم وفَوزهم، كما جاء في الحديث «مَثلي ومثلكم، كمَثل رجل أوقد ناراً، فجعل الفَرَاش والجَنادِب[1] يَقعنَ فيها، وهو يَذُبّ عنها، وأنا آخذ بحُجَزكم[2] عن النار، وأنتم تَفْلِتون من يدي، وتَطْلُبون الوقوع في النار بترك ما أمرتُ به، وارتكاب ما نهيتُ عنه»[3].

وفي الحديث: «ما من مؤمنٍ إلّا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة من أنفسهم ومن آبائهم»[4].

وفي آخر: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من نفسه وولده وماله والناس أجمعين»[5]

عن الصادق عليه السلام: «أنّ رسول الله ﷺ قال: أنا أولى بكلّ مؤمنٍ من نفسه، وعليّ أولى به من بعدي». فقيل له: ما معنى ذلك؟ فقال: «قول النبي ﷺ: من ترك دَيناً أو ضِياعاً فعليّ، ومن ترك مالاً فلورثته. فالرجل ليست له على نفسه ولاية إذا لم يكن له مال، وليس له على عياله أمر ولا نهي إذا لم يُجرِ عليهم النفقة، والنبي وأمير المؤمنين ومن بعدهما ألزمهم هذا، فمن هناك صاروا أولى بهم من أنفسهم، وما كان سبب إسلام عامة اليهود إلّا من بعد هذا القول من رسول الله ﷺ وإنّهم آمنوا على أنفسهم وعيالاتهم»[6].

عن بعض العامة: أنّ النبيّ ﷺ لمّا أراد غزوة تبوك، فأمر الناس بالخروج، فقال ناس: نُشاور آباءنا وأمّهاتنا، فنزلت الآية[7].

ورووا عنه ﷺ أنه قال لعلي عليه السلام: «أنا وأنت أبَوا هذه الأمّة»[8].

ثمّ أثبت أمومة المؤمنين لأزواجه ﷺ بقوله: ﴿وَأَزْوَاجُهُۥٓ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ وبمنزلة اللاتي ولدنهم في وجوب التعظيم، وحُرمة النّكاح دون النظر والخلوة والميراث، فانهنّ في جميع ما ذكر بمنزلة الأجنبيات.

---

١. الجنادِب: جمع جُنْدَب ـ بفتح الدال وضمّها ـ نوع من الجراد.

٢. الحُجز: جمع حُجْزَة، وهي موضع شدّ الإزار من الوسط، وموضع التِكّة من السراويل.

٣. تفسير روح البيان ٧: ١٣٨.

٤. تفسير روح البيان ٧: ١٣٩.

٥. تفسير روح البيان ٧: ١٣٩.

٦. الكافي ١: ٦/٣٣٥، تفسير الصافي ٤: ١٦٧.

٧. تفسير روح البيان ٧: ١٣٨.

٨. تفسيرروح البيان ٧: ١٤٠.

عن الباقر عليه السلام في حديث: «وأزواج رسول الله صلى الله عليه وآله في الحُرمة مثل اُمّهاتهم»[١].

وعن القائم عليه السلام: أنّه سُئل عن معنى الطلاق الذي فوّض رسول الله صلى الله عليه وآله حُكمه إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال: «إن الله تقدّس اسمه عظّم شأن نساء النبيّ فخصّهن بشرف الاُمّهات، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا أبا الحسن، إنّ هذا لشرف باقٍ ما دُمنَ على الطاعة فأيّتهنّ عَصَت الله بعدي بالخروج عليك، فأطلقها في الأزواج، وأسقطها من تشرّف الاُمّهات ومن[٢] شرف اُمومة المؤمنين»[٣].

ثمّ لمّا بيّن سبحانه اُبوّة النبي صلى الله عليه وآله للمؤمنين وأولويته بهم من أنفسهم، واُمومة أزواجه لهم، وأخوّتهم في الدين، وكان في بدو الهجرة التوارث بينهم بتلك الاُخوة، نسخ الله حكم التوارث بينهم بعد قوّة الاسلام بقوله: ﴿وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ﴾ وذوو القرابات النسبية ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ﴾ وأحرى ﴿بِبَعْضٍ﴾ آخر منهم في التوارث ﴿فِي كِتَابِ ٱللَّهِ﴾ وفرضه، أو اللّوح المحفوظ، أو القرآن المُنزّل منه ﴿مِنَ﴾ الأنصار ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَاجِرِينَ﴾ منهم. وقيل: هذا بيان لأولى الأرحام[٤].

وعلى أيّ تقدير، فلا يرث غير القرابات النسبية من أموالكم أيّها المؤمنون شيئاً، ولا يجوز لهم أن يأخُذوا منها بعد موتكم ﴿إِلَّا﴾ في صورة ﴿أَن تَفْعَلُوا﴾ أنتم، وتُحسِنوا في حياتكم ﴿إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم﴾ وأحبّائكم من الأقارب أو الأجانب بالإيصاء ﴿مَّعْرُوفاً﴾ وشيئاً حَسَناً عند العقل والشرع، فإنّهم يأخُذون ما اُوصي لهم من الأموال إذا لم يكُن زائداً على الثُّلث.

عن الصادق عليه السلام: أنّه سُئل: أيّ شيءٍ للموالي؟ فقال: «ليس لهم من الميراث إلّا ما قال الله: ﴿إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفاً﴾»[٥].

﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من أولوية النبيّ صلى الله عليه وآله بأمته، واُمومة أزواجه للمؤمنين، وتوارث ذوي الأرحام ﴿فِي ٱلْكِتَابِ﴾ واللّوح المحفوظ، أو القرآن ﴿مَسْطُوراً﴾ ومكتوباً.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقاً غَلِيظاً * لِيَسْأَلَ ٱلصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً [٧ و ٨]

ثمّ لمّا أمر سبحانه نبيّه صلى الله عليه وآله بالتقوى منه، وعدم الاعتناء بالكفار، والتوكّل عليه، والتوجّه بقلبه إليه، وجعل له الولاية العامة، ووجوب الإطاعة، والاُمومة لأزواجه، بيّن نبوّته الموجبة لجميع ذلك، وعِظم

---

١. الكافي ٥: ٤/٤٢١، تفسير الصافي ٤: ١٦٧.
٢. في كمال الدين: فأطلق لها في الأزواج وأسقطها من.
٣. كمال الدين: ٢١/٤٥٩، تفسير الصافي ٤: ١٦٧.
٤. تفسير أبي السعود ٧: ٩١، تفسير روح البيان ٧: ١٤٠.
٥. الكافي ٧: ٣/١٣٥، تفسير الصافي ٤: ١٦٨.

شأنه المقتضية لاعطائه الولاية المطلقة بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا﴾. قيل: إنّ التقدير واذكر يا محمد وقت أخذنا[١] ﴿مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ﴾ كافة حين تحميلهم الرسالة في الذرّ، أو في هذا العالم ﴿مِيثَاقَهُمْ﴾ وعهودهم بتبليغ الرسالة وتحمّل أعبائها.

ثمّ خصّ أُولي العزم منهم بالذِّكر مع دخولهم في النبيّين، تعظيماً لهم، مقدّماً لذِكر حبيبه إعلاناً بشرفه عليهم بقوله: ﴿وَمِنكَ﴾ يا حبيبي ﴿وَمِن نُوحٍ﴾ الذي هو أوّل أُولي العزم، وأصل بني آدم بعد الطُّوفان ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ الذي يفتخر به العرب ﴿وَمُوسَىٰ﴾ الذي يتديّنون بدينه اليهود ﴿وَعِيسَىٰ﴾ الذي تَنسُب النصارى دينهم إليه، ولم يكن له أب، ولذا يكنى بـ﴿ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾.

ثمّ أكّد سبحانه أخذ الميثاق بقوله: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾ وعهداً أكيداً تَعقُبه المسؤولية الشديدة ﴿لِيَسْأَلَ﴾ الله هؤلاء ﴿ٱلصَّادِقِينَ﴾ في دعوة النبوة، والإخبار عن الله ﴿عَن﴾ علّة ﴿صِدْقِهِمْ﴾ كان لوجه الله، أو للرياء وطلب الدنيا ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ والمكذّبين لهم في الآخرة ﴿عَذَاباً أَلِيماً﴾.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً * إِذْ جَاءُوكُم مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللهِ ٱلظُّنُونَا * هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً * وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً * وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً[٩ـ١٣]

ثمّ حثّ المؤمنين على تخليص الايمان بذِكر معجزة النبيّ ﷺ التي كانت دليلاً على صدقه، ونعمةً عليهم، ولُطفاً من الله بهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ﴾ واشكروها ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ وأحزاب من قُريش وغَطفان وكِنانة وبني سُليم وأشجَع واليهود وغيرهم، ليستأصلوكم، فدعا الرسول والمؤمنون ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ إجابةً لدعائكم وإنجازاً لما وعدكم رسولكم ﴿رِيحاً﴾ باردة يقال لها الصَّبا في ليلة شاتية، فأحصرتهم، ولم يجاوز معسكرهم، وسفت التراب في وجوههم ﴿وَجُنُوداً﴾ من الملائكة، وأنتم ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾ فقلعت أوتار خيامهم، وقطعت

---

١. تفسير أبي السعود ٧: ٩١، تفسير روح البيان ٧: ١٤١.

أطنابها، وأطفأت نيرانهم، وأكفأت قدورهم، ونفثت الرُّعب في قلوبهم، وكَبّرت في جوانب معسكرهم حتى سَمِعوا التكبير وقعقعة السلاح، واضطربت خيولهم حتى قال رؤساؤهم: النَّجا النَّجا، فانهزموا ليلاً من غير قتال، وتركوا ما استثقلوا من أمتعتهم **﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾** من حفر الخندق، وتدبير أمر الحرب، وترتيب أسبابه، والثبات على الايمان، والجِدّ في الصالحات **﴿بَصِيراً﴾** وشاهداً، فيجازيكم عليه أفضل الجزاء. واعلم أنّ الآية وما بعدها نزلت في غزوة الأحزاب.

قصة غزوةالأحزاب

رُوي أنّه كان في المدينة ونواحيها بطنان من اليهود؛ أحدهما بنو قُريظة، والآخر بنو النَّضير، فلمّا قَدِم النبيّ ﷺ المدينة صالحهم على أن يكونوا معه، ولا يكونوا عليه، فذهب الرسول ﷺ يوماً مع بعض أصحابه إلى قرية بني النَّضير يقال لها زهرة لحاجة، فجلس إلى جنب جدارٍ من بيوتهم، فعزموا على قتله ﷺ، وصَعِد بعضهم على سطح بيتٍ ليُلقي عليه صخرةً، فأخبره جَبْرئيل بما أرادوا، فقام ورجع إلى المدينة، فلمّا رأى منهم نقض العهد، أرسل إليهم محمد بن مَسْلَمة أن اخرُجوا من أرض المدينة. فامتنعوا، فخرج الرسول ﷺ مع أصحابه لمحاربتهم، فحاصرهم ستّ ليالٍ، وقذف الله في قلوبهم الرُّعب. فسألوا الرسول ﷺ أن يُجليهم ويكُفّ عن دمائهم، فقَبِل عليه السلام مسألتهم وأجلاهم، فسار سيّدهم حُييّ بن أخْطَب وجمعٌ من كبرائهم إلى قريش، وحرّضوهم على حرب رسول الله ﷺ فوافقهم قريش.

ثمّ ساروا إلى غَطفان وقبائل أُخر، وحرّضوهم على ذلك، فتجهّزت قريش ومن اتّبعهم من القبائل، وعقدوا اللواء في دار الندوة، وكان مجموع الأحزاب من قريش، وغَطفان، وبني مُرّة، وبني أشجع، وبني أسد، وبني سُليم، وكِنانة، ويهود بني قُريظة، وبني النضير، وغيرهم قدر اثني عشر ألفاً، وقائد الكلّ أبو سفيان.

فأتى رَكبٌ من خُزاعة في أربع ليالٍ إلى رسول الله ﷺ وأخبروا به، فاستشار ﷺ أصحابه في أمر العدوّ هل يَبرُزون من المدينة، أو يقيمون فيها.

قصة حفر الخندق وذكر إعجاز النبي ﷺ

فقال سلمان: يا رسول الله، إنّا كنّا إذا تخوّفنا لعدوّ بأرض فارس، حفرنا علينا خندقاً، يكون بيننا وبينهم حِجابٌ، وتكون الحرب في مواضع معروفة، ولا يمكنهم أن يأتونا من كلّ وجه، فنزل جَبْرئيل على رسول الله ﷺ وقال: أشار سلمان بصواب، فسار ﷺ مع أصحابه ـ وهم ثلاثة آلاف[1]، أو سبعمائة[2] ـ إلى أُحد، أو إلى جبل سَلع، وجعل أسفله المعسكر.

---

١. تفسير روح البيان ٧: ١٤٣.

٢. تفسير القمي ٢: ١٧٧.

وفي رواية: أمر بمسجدٍ في ناحية أُحد إلى راتج[١]، وجعل على كلّ عشرين أو ثلاثين خُطوة قوماً من الأصحاب يحفِرونه، وبدأ بنفسه، فأخذ مِعولاً، فحفر في موضع المهاجرين بنفسه، وعليٌّ عليه السلام ينقّل التُّراب، حتى عَرِق النبي صلى الله عليه وآله وعيي، وقال: «لا عيش إلّا عيش الآخرة، اللهمّ اغفِر للأنصار والمهاجرين». فلمّا نظر الناس إليه اجتهدوا في الحفر[٢]، وكلّما عرض لهم جبل شَكَوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فيجيء ويضرِب المِعْوَل، فيصير كثيباً مَهيلاً، قال سلمان: ضربتُ في ناحيةٍ من الخندق فَغَلَظت عليّ، فاخذ المِعْوَل من يدي وقال: «بسم الله»[٣].

وفي رواية: دعا بماءٍ فغسل وجهه وذراعيه، ومسح على رأسه ورجليه، ثمّ شَرِب ومجّ من ذلك الماء في فيه، ثمّ صبّه على ذلك الحَجَر، ثمّ أخذ مِعْوَلاً فبرَقت بَرقة[٤]، وكسر ثُلث الحِجارة، فخرج منها نورٌ من قِبَل اليمن كالمِصباح في جوف الليلة المُظلمة، فكبّر رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: «أعطيت مفاتيح اليمن، والله إنّي لأُبصِر أبواب صنعاء من مكاني الساعة كأنّها أنياب الكلاب»[٥].ثمّ وفي رواية: «فبرقت بَرقةً نظرنا فيها إلى قصور المدائن[٦]، ثمّ ضرب أُخرى قطع ثلثاً آخر، وبَرَق منها بَرقةً، فخرج نورٌ من قِبَل الرُّوم، فكبّر رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: «أُعطيت مفاتيح الشام، والله لأُبصِرُ قُصورها»[٧]. وفي روايةٍ نظرنا فيها إلى قصور الشام[٨]، ثمّ ضرب الثالثة فقطع بقية الحجر، وبَرق منها بَرقةً، فخرج نورٌ من قبل فارس، فكبّر رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: «أُعطيت مفاتيح فارس، والله إنّي لأُبصر قصور الحِيرة ومدائن كسرى، كأنّها أنياب كلاب، وجعل يصف لسلمان أماكن فارس، ويقول سلمان: صدقت. ثمّ قال: «هذه فتوح يفتحها الله بعدي يا سلمان»[٩].

وفي رواية جابر: فنظرنا فيها إلى قصور المدائن، فقال رسول الله: «أما إنّه سيفتح الله عليكم هذه المواضع التي برق فيها البرق، ثمّ انهال علينا الجبل كما ينهال الرمل، فقال جابر: فعلمت أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله جائعٌ لمَا رأيت على بطنه الحَجَر، فقلت: يا رسول الله، هل لك في الغذاء؟ قال: «ما عندك؟» قلت: عَناقٌ[١٠] وصاعٌ من شعير. فقال: تقدّم وأصلِح ما عندك.

قال جابر: فجئتُ إلى أهلي، فأمرتها فطحنَتْ الشعير، وذبحتُ المَعز وسلختُها، وأمرتها أن تخبز

---

١. راتج: أطَمة (حِصنٌ) من آطام المدينة. «الروض المعطار: ٢٦٦»، وفي النسخة: رابح.
٢. تفسير القمي ٢: ١٧٧.
٣. تفسير روح البيان ٧: ١٤٤.
٤. تفسير القمي ٢: ١٧٨.
٥. تفسير روح البيان ٧: ١٤٤.
٦. تفسير القمي ٢: ١٧٨.
٧. تفسير روح البيان ٧: ١٤٥.
٨. تفسير القمي ٢: ١٧٨.
٩. تفسير روح البيان ٧: ١٤٥.
١٠. العَناق: الأُنثى من المعز.

وتطبَخ وتشوي، فلمّا فرغت جئتُ إلى رسول الله ﷺ فقلت: بأبي أنت وأميَ يا رسول الله، قد فرغنا، فاحضُر مع من أحببت. فقام ﷺ إلى شفير الخَندق، وقال: يا معاشر المهاجرين والأنصار، أجيبوا جابر. قال جابر: وكان في الخندق سبعمائة رجل، فخرجوا كلّهم، ثمّ لم يَمُرّ بأحدٍ من المهاجرين والأنصار إلّا قال: «أجيبوا جابراً»[١]. وفي رواية: كان على الخندق ثلاثة آلاف رجل[٢].

قال جابر: فتقدّمت وقلت لأهلي: قد أتاك رسول الله بما لا قِبَل لك به. فقالت: أعلمته أنت بما عندك؟ قلت: نعم قالت: فهو أعلم بما أتى. فدخل رسول الله ﷺ، فنظر في القدر، ثمّ قال: «أغرفي وأبقي» ثمّ نظر في التَنّور، ثمّ قال: «أخرجي ـ أو اخبِزي ـ وأبقي» ثمّ دعا بصَحْفة فثرد فيها وتمرّق، وقال: «يا جابر، أدخِل عليّ عشرة عشرة» فأدخلت عشرة فأكلوا حتى نهلو، وما يُرى في القَصْعة إلّا آثار أصابعهم. ثمّ قال: «علي بالذِّراع» فأتيته به، فأكلوه. ثمّ قال: «أدخِل عشرة» فأدخلتم، فأكلوا حتى نهلوا، وما يُرى في القَصْعَة إلّا آثار أصابعهم، ثمّ قال: «عليّ بالذِّراع» فأكلوا وخرجوا، ثمّ قال: «عليّ بعشرة» فأدخلتهم فأكلوا حتى نهلوا، وما يرى فِي القَصْعَة إلّا آثار أصابعهم، ثمّ قال: «عليّ بالذراع» فأتيته، فقلت: يا رسول الله، كم للشاة من ذراع؟ قال: «ذراعان». فقلت: والذي بعثك بالحقّ، لقد أتيتك بثلاثة. فقال: « أما لو سكتّ ـ يا جابر ـ لأكل الناس كلّهم من الذراع» قال جابر: فأقبلت أُدخِل عشرة عشرة حتى أكلوا كلّهم، وبقي لنا من ذلك الطعام ما عِشنا به أياماً[٣].

وفي رواية، قال ﷺ لأهلي: «كُلي وأهدي» فأهديت منه إلى أقربائي[٤] فأكلوا منه حتى شَبِعوا.

فلمّا فرغ رسول الله ﷺ من حفر الخندق في ستّة أيام، أقبلت قريش ومن معهم من الأحزاب يوم فراغهم أو بعد ثلاثة أيام، فلمّا نزلوا العقيق، جاء حُييّ بن أخطب إلى بني قُريظة، وكانوا في حِصنهم قد تمسّكوا بعهد رسول الله ﷺ، فأغواهم وحملهم على نقض العهد، فتجهّزوا لقتال رسول الله ﷺ وأرادو الإغارة على المدينة بمعاونة طائفة من قريش، فبلغ النبيّ ﷺ فعظُم البلاء، وصار الخوف على النساء والذراري أشدّ ممّا على أهل الخندق، فبعث ﷺ ثلاثمائة رجل يحرُسون المدينة[٥]، ويأمنون أهلها.

فأقبلت قريش والأحزاب كما حكاه سبحانه بقوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿مِنْ﴾ الوادي الذي كان من ﴿فَوْقِكُمْ﴾ وأعلى معسكركم وجهة شرقية، وهم عطفان ومن معهم من أهل نجد

---

١. تفسير القمي ٢: ١٧٨.
٢. تفسير أبي السعود ٧: ٩٢، تفسير روح البيان ٧: ١٤٤.
٣. تفسير القمي ٢: ١٧٨.
٤. مجمع البيان ٨: ٥٣٥.
٥. تفسير روح البيان ٧: ١٤٥.

واليهود ﴿وَمِنْ﴾ الوادي الذي كان في ﴿أَسْفَلَ﴾ وأنزل ﴿مِنكُمْ﴾ ومن معسكركم وجهة غربية، وهم قريش ومن معهم من القبائل ﴿وَ﴾ اذكُر ﴿إِذْ زَاغَتِ﴾ وتحيّرت ﴿الْأَبْصَارُ وَ﴾ شَخصَت ﴿بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ من الرُّعب والخوف.

قيل: إنّ الرئة تنتفخ من شدّة الرُّعب، فيرتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحَنْجَرة[١] ومنتهى الحُلقوم، ولولا ضيقه بها لخرجت من الجوف. والمراد أنّه كادت أن تبلُغ القلوب الحناجر خوفاً على أنفسهم من الأحزاب الذين كانوا أضعافهم، وعلى ذراريهم في المدينة من اليهود الذين نقضوا عهد الرسول ﷺ وأرادوا الإغارة عليهم فيها.

﴿وَتَظُنُّونَ﴾ أيّها المظهرون للايمان ﴿بِاللهِ﴾ الذي وعدكم النصر ﴿الظُّنُونَا﴾ المختلفة، فانّ المُخلصين ظنّوا إنجاز وعده وامتحانهم، وظنّ الضعاف القلوب والايمان والمنافقون القتل والأسر والغارة وخلف الله وعده أو كذبه ﴿هُنَالِكَ﴾ وفي ذلك الوقت، أو الموطن ﴿ابْتُلِيَ﴾ واختُبِر ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ بالحصر والرُّعب، وظهر المُخلص من المنافق، والثابت من المتزلزل ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ واضطربوا ﴿زِلْزَالاً﴾ واضطراباً ﴿شَدِيداً﴾ وأُزعجوا وحُرّكوا إزعاجاً وحراكاً قوياً من شدّة الفزع.

﴿وَ﴾ اذكُر ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ ومُسرّو الكفر كمُعتّب بن قُشير وأتباعه، ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ضَعْف الايمان، أو الشكّ لمّا رأوا قوّة العدو وشوكتهم، أو حفر الخندق مع وعده ﷺ بفتح الممالك ﴿مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ بالنصر والغَلَبة وإعلاء الدين ﴿إِلَّا غُرُوراً﴾ ووعداً باطلاً، أو إيقاعاً في الخَطَر والمَهْلَكة بالخُدعة، ﴿وَ﴾ اذكُر ﴿إِذ قَالَت﴾ فِرقة من المنافقين و ﴿طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ كأوس بن قِبطي وتابعيه في الرأي لأهل المدينة: ﴿يَاأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ وسُكّان المدينة ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ في معسكر محمد، ولا يصِحّ توقّفكم فيه مع كَثرة العدوّ ووضوح هلاككم بأيديهم ﴿فَارْجِعُوا﴾ إلى منازلكم بالمدينة، واحْفَظوا أنفسكم من القتل والأسر، وأموالكم من النهب، واتركُوا محمداً بين أعدائه حتى يفعلوا به ما أرادوا ﴿وَيَسْتَأْذِنُ﴾ في الرجوع ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمُ﴾ كبني حارثة وبني سَلَمة ﴿النَّبِيَّ﴾ حفظاً لخاطره احتياطاً، وتحصيلاً لرضاه عنهم، وهم ﴿يَقُولُونَ﴾ اعتذاراً من الرجوع: يا رسول الله ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا﴾ ومنازلنا في المدينة ﴿عَوْرَةٌ﴾ ومختلّة وخَرِبة يُخَاف منها العدوّ والسُّرّاق، لإمكان دخولهم فيها بسهولة، فنرجِع ونسُدّ خَلَلها، ونُعمّر خرابها ونُحصّنها من الدخول فيها، ثمّ نرجع إلى معسكرك، ونكون معك.

---

١. تفسير أبي السعود ٧: ٩٣، تفسير روح البيان ٧: ١٤٨.

قيل: كان النبيّ ﷺ يأذَن لهم في الرجوع[١]، فردّهم الله وأكذب عُذرهم بقوله: ﴿وَمَا﴾ تلك البيوت، وليست ﴿هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ ومختلّة، بَل هي معمورة حصينة مُحرَزة.

عن الصادق عليه السلام: «بل هي رفيعة السَّمْك حصينة»[٢].

وعن الباقر عليه السلام: «كانت بيوتهم في أطراف البيوت حيث ينفرد الناس، فأكذبهم الله»[٣] بقوله: ﴿إِن يُرِيدُونَ﴾ بقولهم ذلك وما يقصَدون من عُذرهم ﴿إِلَّا فِرَاراً﴾ من القتال حبّاً للحياة، وتكذيباً للرسول في وعده بالنصر.

قيل: قد صحّ أنّه فرّ إلى المدينة كلّ من في قلبه مرضٌ، وبقي مع الرسول ﷺ أهل اليقين[٤].

وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا ٱلْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً * وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا ٱللهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللهِ مَسْؤُولاً[١٤ و ١٥]

ثمّ بيّن سبحانه شدّة اشتياقهم إلى الكفر بقوله: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ﴾ بيوتهم وهم فيها، وكان الدخول ﴿عَلَيْهِم مِنْ﴾ جميع ﴿أَقْطَارِهَا﴾ وجوانبها لكثرة الخَلل فيها ﴿ثُمَّ سُئِلُوا﴾ من قبل طائفة أُخرى كافرة، وطلبوا منهم ﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾ والرجعة إلى الشِّرك والكفر، والله ﴿لَآتَوْهَا﴾ وأعطوها السائلين وأجابوهم إليها غير مبالين بما دهاهم من الداهية والغارة ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا﴾ باجابة الفتنة، وما تمكّثوا ﴿بِهَا﴾ زماناً ﴿إِلَّا﴾ زماناً ﴿يَسِيراً﴾ وقليلاً قدر ما يسمعون السؤال ويردّون الجواب فضلاً عن التعلّل باختلال البيوت عند سلامتها، كما فعلوا الآن، وما ذلك إلا لبُغْضِهم للاسلام وأهله، وحبّهم للكفر وأهله، ﴿وَ﴾ هم والله ﴿لَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا ٱللهَ مِن قَبْلُ﴾ حين انهزموا يوم أُحد، ونزل فيهم آيات اللّوم والعِتاب، أنّهم في جهاد الكفّار ﴿لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَارَ﴾ ولا يَترُكون العدوّ في قتال خَلْف ظهورهم، ولا يفِرّون منه كما فرّوا في ذلك اليوم، ومع ذلك فرّوا في هذه الوقعة، ويستأذنوك في الرجوع نقضاً لذلك العهد ﴿وَ﴾ الحال أنّه ﴿كَانَ عَهْدُ ٱللهِ﴾ يوم القيامة ﴿مَسْؤُولاً﴾ عنه هل وفي به أو نُقِض، ويعاقب على نقضه.

---

١. تفسير روح البيان ٧: ١٥١.

٢. مجمع البيان ٨: ٥٤٥، تفسير الصافي ٤: ١٦٩، وسَمْك البيت: سقفُهُ.

٣. تفسير العياشي ٢: ١٨٦٦/٢٥٠، تفسير الصافي ٤: ١٦٩.

٤. تفسير روح البيان ٧: ١٤٩.

قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذاً لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً * قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِنَ ٱللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِن دُونِ ٱللهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً[١٦ و ١٧]

ثمّ أمر سبحانه نبيّه ﷺ بلومهم على لَغوية عملهم بعد بيان ضرره بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: لو فُرِض أنه لاعقوبة على نقض عهد الله وعصيانه ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ﴾ ولا يفيد في سلامتكم وطول عمركم ﴿ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ حَتْف الأنف ﴿أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ بالسيف إذا قدّر كلّ واحدٍ منهما لكم في وقتٍ معينٍ، وجرى عليه القلم، فأنه لا رادّ لقضاء الله، ولا مَحيص عمّا خطّ بالقلم ﴿وَ﴾ لو فُرِض أنّ الفِرار نفعكم في تأخير آجالكم ﴿إِذاً لَا تُمَتَّعُونَ﴾ ولا تُنفعون بالحياة ولذائذ الدنيا ﴿إِلَّا﴾ زماناً أو تمتّعاً ﴿قَلِيلاً﴾ فانّ عمر الدنيا بالنسبة إلى الآخرة في غاية القِلّة، ولابد لكلّ نفسٍ من الخروج منها.

ثمّ أمر سبحانه النبيّ ﷺ بتقرير عدم نفع الفِرار بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمنافقين ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم﴾ ويَحْفَظكم ﴿مِنَ﴾ حُكم ﴿ٱللهِ﴾ وقضائه ﴿إِنْ أَرَادَ﴾ الله ﴿بِكُمْ سُوءاً﴾ وشرّاً، كالهزيمة والقتل والأسر ونحوها ﴿أَوْ﴾ [من] يُصيبكم بسوء إن ﴿أَرَادَ﴾ الله ﴿بِكُمْ رَحْمَةً﴾ ونعمة، كالغلبة على العدوّ والغنيمة والشرف والسلامة ونحوها.

ثمّ قرّر سبحانه عدم عاصمية غيره بقوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِن دُونِ ٱللهِ﴾ وممّا سواه ﴿وَلِيّاً﴾ ومحبّاً ينفعكم لمحبّته إياكم ﴿وَلَا نَصِيراً﴾ ومعيناً يدفع عنكم السوء إذا أتاكم.

قَدْ يَعْلَمُ ٱللهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُولٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ ٱللهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذٰلِكَ عَلَى ٱللهِ يَسِيراً* يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا * وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً[١٨ ـ ٢٠]

ثمّ هدّد سبحانه المنافقين الذين كانوا يصرِفون المسلمين عن الجهاد ونُصرة النبي ﷺ بقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللهُ﴾ ويعرِف ﴿ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾ والمُثبَطين للناس عن نُصرة الرسول ﷺ ودينه، والصارفين لهم عن سلوك طريق كلّ خيرٍ، وهم المنافقون ﴿مِنكُمْ﴾ أيّها المسلمون، ﴿وَ﴾ يعلم ﴿ٱلْقَائِلِينَ

﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ وموافقيهم في الكفر والنفاق من أهل المدينة: ﴿هَلُمَّ﴾ واقرَبُوا ﴿إِلَيْنَا﴾ واحضُروا عندنا، وفيه دلالة على أنّهم حين قولهم هذا، كانوا خارجين من معسكر النبيّ ﷺ متوجّهين نحو المدينة، فِراراً من الزّحف، ولو كانوا في المعسكر يعتذرون ويتأخّرون، ما أمكن لهم، أو يخرُجون مع المؤمنين يُوهِمونهم أنّهم معهم ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ﴾ والحرب ولا يقاتلون الأعداء ﴿إِلَّا﴾ إتياناً، أو قتالاً ﴿قَلِيلاً﴾ أو قليلاً منهم حال كونهم ﴿أَشِحَّةً﴾ وبُخلاء ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بالمعاونة، أو الانفاق في سبيل الله، أو بظَفَرِكم واغتنامكم لا يُريدون أن يكونا لكم.

ثمّ بيّن سبحانه شدّة جُبنهم بقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ ٱلْخَوْفُ﴾ من العدوّ بأن حملوا على عسكر المسلمين ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾ يا محمد في تلك الحالة ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ التجاءً بك، وهم من شدّة الجُبن ﴿تَدُورُ﴾ وتتحرّك ﴿أَعْيُنُهُمْ﴾ في أحداقهم يميناً وشِمالاً ﴿كَالَّذِى﴾ والتقدير كدوران عين الشخص الذي ﴿يُغْشَىٰ عَلَيْهِ﴾ وتَعرِض له[1] الغَشوة وزوال الشُّعور والفَهْم ﴿مِنَ﴾ معالجة سَكَرات ﴿ٱلْمَوْتِ﴾ خوفاً ورُعباً، فلا يقدِر على النّزال والقتال ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾ بانكسار العدوّ والظَّفر عليهم، وجُمِعت الغنائم ﴿سَلَقُوكُم﴾ وآذوكم ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ وأقوال خشنة وكلمات سيئة، كإظهار المِنّة عليكم بالمساعدة والقتال معكم بقولهم: لو لم نكُن معكم لما هَزَمتم العدوّ، وما نجيتم من القتل بسيوفهم، فبنا غلبتموهم ونُصِرتم عليهم، فوفّروا حظّنا من الغنائم، وإنّما قالوا ما قالوا لكونهم ﴿أَشِحَّةً﴾ وحريصين ﴿عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أو المال، أو بُخلاء على المال، بأن يوفّر عليكم القسمة، مع كونهم راضين في أول القتال من الغنيمة بالإياب، فهم قليلو الخير في الحالين، كثيرو الشرّ في الوقتين، لكونهم بُخلاء قبل القتال وبعده ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ حقيقةً، وإن أظهروا الايمان ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ﴾ وأبطل ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ الحسنة لعدم الإخلاص ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الإحباط، ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيراً﴾ وسهلاً. فلمّا نظرت قريش إلى الخندق قالوا: هذه مكيدة ما كانت العرب تعرِفها[2]، فنزلوا بمجمع الأسيال، فصفّ رسول الله ﷺ أصحابه، وكان أكثر الحال بينهم وبين العدوّ الرمي بالنبال والحَصى، وأقبل نوفل بن عبدالله يوماً، فضرب فرسه ليطفِر الخندق فوقع فيه، فنزل إليه عليّ عليه السلام فقطعه نصفين بسيفه[3].

قصة قتل أمير المؤمنين عليه السلام عمرو بن عبد ودّ

ثمّ أقبل عمرو بن عبدودّ وهُبيرة بن وَهْب وبعض الشجعان، فصاحوا بخيولهم حتى طفروا الخندق، وركز عمرو رمحه في الأرض، وكان يُعدّ بألف فارس، وكان عمره

---

١. في النسخة: ويعرضه.
٢. تفسير القمي ٢: ١٨٢، تفسير الصافي ٤: ١٧٥.
٣. تفسير روح البيان ٧: ١٤٥.

تسعين سنة، فنادى: من يُبارزني؟ ثمّ أقبل تجول فرسه ويرتجز ويقول:

ولقـد بُـححتُ مـن النّدا ء بجمعكم: هل من مبارز؟

إلى آخره. فقال ﷺ: «من لهذا الكلب؟ فلم يُجبه أحد. فوثب عليّ عليه السلام فقال: «أنا له يا رسول الله» فقال ﷺ: «يا علي هذا عمرو بن عبدوُدّ، فارس يَلْيَل»[1] فقال: «أنا عليّ بن أبي طالب» فقال ﷺ: «ادنُ منّي» فدنا منه، فعمّمه بيده، ودفع إليه سيفه ذا الفقار، وقال: «اللهمّ احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله» فذهب عليّ عليه السلام وهو يُهَروِل، ويقول:

«لا تَـعْجَلن فـقد أتـاك مجيبُ صوتك غيرُ عاجِز»[2]

إلى آخره.

روى العامة والخاصة أنّه لمّا برز عليّ عليه السلام إلى عمرو قال رسول الله ﷺ: «برز الايمان كلّه إلى الكفر كلّه»[3].

فقال عمرو: من أنت؟ قال: «أنا علي بن أبي طالب، ابن عمّ رسول الله وخَتَنه» فقال: والله إن أباك كان لي صديقاً، وإني لأكره أن اقتُلك ما أمِنَ ابن عمّك أن اختطفك برُمحي، فأترُكك شائلاً بين السماء والأرض، لا حيّ ولا ميت!

فقال له علي عليه السلام: «إنّي اُحبّ أن أقتُلك، وقد عَلم ابن عمّي أنّك إن قتلتني دخلتُ في الجنّة وأنت في النار، وإن قتلتك فأنت في النار وأنا في الجنّة» فقال عمرو: كلتاهما لك، تلك قِسمةٌ ضِيزى.

فقال عليّ عليه السلام: «إني سَمِعتُ منك يا عمرو أنّك قلتَ لا يعرِض عليّ أحدٌ في الحرب ثلاث خصال إلّا أجبته إلى واحدةٍ منها، وأنا أعرِض عليك ثلاث» قال: هات. إلى أن قال: «فالثالثة أن تنزِل من فرسك وتُقاتلني راجلاً حتى اُنابذك» فوثب عن فرسه وعرقبه، ثمّ بدا فضرب علياً عليه السلام بالسيف على رأسه، فاتّقاه عليّ عليه السلام بدرعه أو بدَرَقَته فقطعها، وثبت السيف على رأسه، فضربه عليّ عليه السلام على موضع الرِّداء من عُنقه فسقط، فكبّر المسلمون، فعرف النبيّ ﷺ من تكبيرهم أنّ علياً قتل عَمراً، فقال: «لا فتى إلّا عليّ، لا سيف إلّا ذو الفقار»[4].

وفي رواية: قال عليّ عليه السلام لعمرو: «أما كفاك أنّي بارزتك حتى استعنت عليّ بظهيرٍ؟!» فالتفت عمرو إلى خلفه، فضربه عليّ عليه السلام مسرعاً على ساقيه فقطعهما فسقط، فجلس عليّ على صدره وذبحه،

---

١. يَلْيَل: موضع، وهو وادي ينبع، أو وادي الصفراء دُوين بدر، وفارس يَلْيَل: لقب عمرو بن عبدودّ. «لسان العرب ـ بليل ـ ١١: ٧٤٠».

٢. تفسير القمي ٢: ١٨٢، تفسير الصافي ٤: ١٧٥.

٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٩: ٦١، نهج الحق: ٢١٧، كنز الفوائد ١: ٢٩٧، تأويل الآيات ٢: ١١/٤٥١.

٤. تفسير القمي ٢: ١٨٤، تفسير الصافي ٤: ١٧٦، تفسير روح البيان ٧: ١٤٥.

وأخذ رأسه، وأقبل إلى رسول الله ﷺ والدماء تسيل من رأسه وتقطر من سيفه، وهو يقول:

«أنا عليّ وابن عبدالمطلب»

ثمّ هرب من كان مع عمرو[1].

وقيل: قتل الزبير هُبيرة بن وَهْب، فبقي النبيّ ﷺ يحاربهم خمسة عشر يوماً، فلمّا رأى من أصحابه الجَزَع لطول الحصار، دعا الله وقال: «يا صريخ المكروبين، ويا مجيب دعوة المضطرين، اكشف همّي وغمّي وكَربي، فانّك ترى ما نزل بي وبأصحابي» فبشّره جَبْرئيل أنّ الله يُرسِل عليهم ريحاً وجنوداً من الملائكة، فانهزم القوم كما ذكرنا سابقاً، فبلغ خبر انهزامهم المدينة، وكان المنافقون الذين فرّوا من القتال، ورجعوا إلى المدينة ﴿يَحْسَبُونَ﴾ لجُبنهم أن ﴿ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ ولم ينهزموا.

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللهَ كَثِيراً * وَلَمَّا رَأَى ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ ٱللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً[٢١ ـ ٢٢]

ثمّ بيّن سبحانه ثباتهم على الكفر مع مشاهدتهم هذه المعجزة بقوله: ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ كَرّةً ثانية إلى المدينة وهم فيها ﴿يَوَدُّوا﴾ وتمنّوا ﴿لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ﴾ وخارجون منها إلى البادية أو كائنون ﴿فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ وسُكّان البادية هم ﴿يَسْأَلُونَ﴾ كلّ قادمٍ من المدينة ﴿عَنْ أَنبَائِكُمْ﴾ وأخباركم، وما جرى عليكم ﴿وَلَوْ كَانُوا﴾ في الكرّة الثانية أيضاً ﴿فِيكُم مَا قَاتَلُوا﴾ أعداءكم ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ خوفاً من التعيير وظهور نفاقهم.

ثمّ وعظ الله المسلمين بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيّها المسلمون ﴿فِى﴾ أفعال ﴿رَسُولِ ٱللهِ﴾ وأخلاقه وخِصاله من الثبات في الجهاد، وتحمّل المشاقّ والشدائد في جنب الله، وفي مرضاته ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ وسُنّة صالحة يحِقّ التأسي والاقتداء بها ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللهَ﴾ وثوابه ﴿وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ ونعمه، أو مجيأه ﴿وَذَكَرَ ٱللهَ﴾ في جميع أوقاته وأحواله ﴿كَثِيراً﴾ بقلبه ولسانه، ولا يَغْفَل عنه، فانّ المتأسّي بالرسول ﷺ مَن قَرَن بين الرجاء المذكور ودوام الذِكر الموجب لملازمة التقوى والطاعة.

ثمّ أنّه تعالى بعد ذمّ المنافقين وضُعفاء الايمان بالجُبن والفِرار عن القتال؛ وتكذيب وعد الله

---

١. تفسير القمي ٢: ١٨٤، تفسير الصافي ٤: ١٧٦.

ورسوله بالنصر والغَلَبة على الأعداء، ونقض العهد، مَدَح المؤمنين المُخلصين بالثبات في الحرب، وتصديق الله ورسوله في الوعد، والوفاء بالعهد بقوله: ﴿وَلَمَّا رَأَى ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ المُخلصون ﴿ٱلْأَحْزَابَ﴾ من كفّار الأعراب والجُنود المجتمعة لمحاربة الرسول يوم الخندق ﴿قَالُوا هَٰذَا﴾ الذي نرى من البلاء العظيم ﴿مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ﴾ من قبل في كتابه بقوله: **﴿ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما ياتكم مثل الذين من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا﴾**[1]. إلى آخره، ﴿وَ﴾ وعدنا ﴿رَسُولُهُ﴾ بقوله ﷺ: «سيشتدّ الأمر عليكم باجتماع الأحزاب عليكم، والعاقبة لكم عليهم»[2] وقوله ﷺ: «إنّ الأحزاب سائرون إليكم بعد تسع ليالٍ أو عشر»[3] ﴿وَ﴾ ونعترف بأنّه ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ في وعده ﴿وَرَسُولُهُ﴾ أيضاً صدق في إخباره حيث ترى مطابقته للواقع ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ما رأوه من الأحزاب ﴿إِلَّا إِيمَاناً﴾ بالله ورسوله ﴿وَتَسْلِيماً﴾ وانقياداً لأوامرهما وأحكامهما، لمّا علموا سعادة الدارين فيه.

مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً * لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً[٢٣ و ٢٤]

ثمّ فصّل سبحانه حال المؤمنين المخلصين بقوله: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وبعضهم ﴿رِجَالٌ﴾ كاملون في صفات الرجولية ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ وثبتوا على العزم الراسخ على أداء ما جعلوا لله على أنفسهم من الثبات على نُصرة الرسول ومقاتلة أعداء الله، لإعلاء كلمة الدين ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ ووفى بنَذْره، وخرج عن عُهدة ما التزم به، بأن ثبت في النِّزال وقاتل الرجال لنُصرة دين الله المتعال حتى قُتِل كحمزة بن عبدالمُطّلب، وعُبيدة بن الحارث، وجعفر بن أبي طالب، ومُصعَب بن عُمير، وأنس بن النَّضر الخزرجي عمّ أنس بن مالك الأنصاري.

روت العامة أنّ أنساً غاب عن بدر، فشَهِد أُحداً، فلمّا نادى إبليس: ألا إنّ محمداً قد قُتِل، مرّ بعُمر ومعه نفرٌ فقال: ما يُقعِدكم؟ قالوا: قُتِل محمد. قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟! قوموا فموتوا على ما مات عليه، ثمّ جال بفرسه وحمل بسيفه، فوُجِد قتيلاً وبه بضع وثمانون جراحة[4].

قيل: إنّ جماعة من الصحابة نذروا بعد وقعة أُحد أنّهم إذا لقوا حرباً مع رسول الله ﷺ ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا[5].

---

١. البقرة: ٢/٢١٤. ٢ و ٣. تفسير روح البيان ٧: ١٥٨.
٤. تفسير روح البيان ٧: ١٥٩. ٥. تفسير أبي السعود ٧: ٩٨، تفسير روح البيان ٧: ١٥٨.

وقيل: إنّ النّذر استُعِير للموت؛ لأنّ الموت كنَذْرٍ لازمٍ في عُنق كلّ حيّ[١].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ قضاء نَذْره، ويتوقّع وصول الشهادة إليه مع شدّة اشتياقه إليها، كأمير المؤمنين عليه السلام فانّ الله أخّر شهادته إلى الوقت المعلوم الذي أخبره الرسول صلى الله عليه وآله به.

روى الحاكم باسناده عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «فينا نزلت **﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا آللّٰهَ عَلَيْهِ﴾** وأنا والله المُنتظِر»[٢] ونسب العلامة في (نهج الحق) نزوله في عليّ عليه السلام إلى العامة[٣].

وعن الباقر عليه السلام في قوله: **﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا آللّٰهَ عَلَيْهِ﴾** قال: «لا يَفِرّوا أبداً **﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾** أي أجله وهو حمزة وجعفر بن أبي طالب **﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾** أجله يعني علياً عليه السلام»[٤].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام - في حديث له مع يهودي - قال: «ولقد كنت عاهدتُ الله ورسوله أنا وعمّي حمزة وأخي جعفر وابن عمّي عُبيدة على أن نستشهد[٥] لله تعالى ولرسوله، فتقدّمني أصحابي وتخلّفت بعدهم لما أراد الله تعالى، فأنزل الله فينا: **﴿مِنَ آلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا﴾**» الآية[٦] **﴿وَمَا بَدَّلُوا﴾** عهدهم وما غيّروه **﴿تَبْدِيلاً﴾** يسيراً بخلاف المنافقين فانّهم بدّلوا عهدهم تبديلاً كثيراً، ونقضوا نقضاً واضحاً.

ردّ بعض العامة

أقول: ومن العجب أنّ بعض العامة قال: ومن ينتظر كعثمان وطلحة وغيرهما[٧]، فانّهم مستمرّون على نُذورهم، وقد قضوا بعضها وهو الثبات مع الرسول صلى الله عليه وآله ومُنتظِرون قضاء بعضها وهو القتال إلى الموت شهداء، مع أنّ الظاهر انتظار الشهادة في سبيل الله، ولم يُرزَقوا، لأنّ عثمان قُتِل في سيبل هواه بيد أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله، وطلحة قُتِل لمشاقّته مع إمام زمانه بيد أصحاب خليفة الرسول.

وعن الصادق عليه السلام: «المؤمن مؤمنان: مؤمن صدق بعهد الله ووفى بشرطه، وذلك قول الله عز وجل: **﴿مِنَ آلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾** وذلك الذي لا تُصيبه أهوال الدنيا ولا أهوال الآخرة، وذلك ممّن يَشْفَع ولا يُشْفَع له» الخبر[٨].

وعنه عليه السلام، قال: «لقد ذكركم الله في كتابه فقال: **﴿مِنَ آلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا﴾** الآية، إنّكم وفيتم بما أخذ الله عليه ميثاقكم من ولايتنا، وإنّكم لمّا تبدّلوا بنا غيرنا»[٩].

---

١. تفسير أبي السعود ٧: ٩٨.
٢. مجمع البيان ٧: ٥٤٩، تفسير الصافي ٤: ١٨١.
٣. نهج الحق: ١٩٦/٤٢، شواهد التنزيل ٢: ٦٢٧/١.
٤. تفسير القمي ٢: ١٨٨، تفسير الصافي ٤: ١٨٠.
٥. في الخصال وتفسير الصافي: على أمر وفينا به.
٦. الخصال: ٣٧٦/٥٨، تفسيرالصافي ٤: ١٨٠.
٧. تفسير البيضاوي ٢: ٢٤٣، تفسير أبي السعود ٧: ٩٨.
٨. الكافي ٢: ١٩٣/١، تفسير الصافي ٤: ١٨١.
٩. الكافي ٨: ٣٤/٦، تفسير الصافي ٤: ١٨١.

وعنه عليه السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا علي، من أحبّك ثمّ مات فقد قضى نحبه، ومن أحبّك ولم يَمُت فهو ينتظر»[1].

أقول: الأوّل تنزيلٌ، وهاتان الروايتان تأويلٌ، وإنّما فعلوا من الوفاء ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّادِقِينَ﴾ في عهدهم ﴿بِصِدْقِهِمْ﴾ ووفائهم به قولاً وفعلاً في الدنيا والآخرة جزاءً جزيلاً ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَافِقِينَ﴾ بما ارتكبوا من الفِرار وتخويف المسلمين وتحريضهم على الرجوع إلى المدينة ﴿إِن شَاءَ﴾ تعذيبهم بأن لا يوفّقهم للتوبة وتخليص الايمان ﴿أَوْ﴾ يوفّقهم و ﴿يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ بعد توبتهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُوراً﴾ وستوراً للذنوب ﴿رَّحِيماً﴾ بالمؤمنين، ومُنعِماً عليهم بالجنّة والنِّعم الدائمة.

وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً * وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً [٢٥ ـ ٢٧]

ثمّ بيّن سبحانه لُطفه بالمؤمنين وإنجازه وعد النصر بقوله: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ﴾ بقدرته الأحزاب ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى أوطانهم وهم كاظمون ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ وشدّة غضبهم، والحال أنّهم ﴿لَمْ يَنَالُوا﴾ ولم يُصيبوا ما حسبوه ﴿خَيْراً﴾ لهم من الغَلَبة والغنيمة مع غاية جدّهم فيهما ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ ورَفَع عنهم كُلفة التصدّي له، بارسال الريح الشديدة، وإنزال الملائكة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيّاً﴾ وقادراً على كسر شوكة الكافرين ﴿عَزِيزاً﴾ وغالباً على كلّ شيءٍ ﴿وَأَنزَلَ﴾ بني قُريظة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ نقضوا عهد الرسول صلى الله عليه وآله وتَبِعوا المشركين و ﴿ظَاهَرُوهُم﴾ وعاونوهم على قتال الرسول صلى الله عليه وآله مع كونهم ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ﴾ والمؤمنين بالتوراة التي فيها البِشارة ببعثته وذِكر علائمه وصفاته ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ وحُصونهم وقِلاعهم المُحكمَة ﴿وَقَذَفَ﴾ الله وألقىٰ ﴿فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ من الرسول صلى الله عليه وآله والمسلمين والخوف منهم، بحيث سلّموا أنفسهم للقتل، وأهليهم وذراريهم للأسر، فأنتم أيها المسلمون ﴿فَرِيقاً﴾ منهم ﴿تَقْتُلُونَ﴾ صبراً ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً﴾ آخر منهم ﴿وَأَوْرَثَكُمْ﴾ وملّككم، كما تتملّكون إرث الأقارب ﴿أَرْضَهُمْ﴾ التي كانوا مقيمين يها، ومنتفعين بها بالزراعة والغرس فيها ﴿وَدِيَارَهُمْ﴾ وحصونهم وبيوتهم ﴿وَأَمْوَالَهُمْ﴾ من المواشي والأثاث والنّقود والسّلاح وغيرها ﴿وَ﴾ أورثكم تقديراً ﴿أَرْضاً﴾ أُخرى ﴿لَّمْ تَطَؤُوهَا﴾ ولم تضعوا إلى الآن أقدامكم فيها، كأرض فارس

---

١. الكافي ٨: ٤٧٥/٣٠٦، تفسير الصافي ٤: ١٨١.

والرُّوم وغيرهما من الممالك التي تفتحونها إلى يوم القيامة. وقيل: إنّ الأرض كناية عن فُروج نساء تلك القبيلة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ممّا شاهدتموه ومالم تشاهدوه ﴿قَدِيراً﴾.

قصة بني قُريظة

وكانت قصّة بني قُريظه على ما رُوي أنّ النبي ﷺ لمّا رجع من الخندق في وقت الظهيرة، وصلّى الظهر، دخل بيت زينب، وأراد أن يغتسل من الغُبار، أو غسلت شِقّ رأسه الشريف، فأتاه جَبْرَئيل على فرسه حيروم مُعتجراً بعمامة سوداء فقال: أوضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم. قال: ما وضعت الملائكة السلاح منذ نزل بك العدوّ، أو قال: ما وضعت الملائكة لأمتها، فكيف تضع لأمتك؟ إنّ الله يأمُرك أن لا تصلّي العصر إلّا ببني قُريظة، فانّي متقدّمك ومُزلزِل بهم حصنهم، إنّا كنّا في آثار القوم نَزْجُرهم حتى بلغوا حَمراءَ الأسد[1]، فأمر ﷺ بِلالاً فأذن في الناس: من كان سامعاً مطيعاً فلا يُصلّين العصر إلّا في بني قُريظة[2].

وفي رواية: فخرج ﷺ، فاستقبله حارث بن النعمان، فقال له: «ما الخبر؟» فقال: بأبي أنت وأمّي يا رسول الله، هذا دِحية الكلبي ينادي في الناس: ألا لا يُصلّين العصر أحدٌ إلّا في بني قُريظة. فقال ﷺ: «ذاك جَبْرَئيل، ادعوا علياً» فجاء عليّ عليه السلام فقال له: «نادِ في الناس: لا يُصلّين أحد العصر إلّا في بني قُريظة» فجاء أمير المؤمنين عليه السلام فنادى فيهم، فبادروا إلى بني قُريظة[3].

قيل: وخرج رسول الله ﷺ وقد لَبِس الدِّرع والمِغْفَر، وأخذ قناةً بيده الشريفة، وتقلّد السيف، ورَكِب فرسه اللحيف، وأمير المؤمنين عليه السلام بين يديه مع الراية العظمى، والناس حوله قد لَبِسوا السلاح، وهم ثلاثة آلاف، واستعمل على المدينة ابن أمّ مَكْتُوم[4].

وفي رواية: وأرسل علياً عليه السلام متقدّماً مع بعض الأصحاب، ومرّ ﷺ بنفرٍ من بني النجّار قد لبسوا السلاح، فقال ﷺ: «هل مرّ بكم أحدٌ» قالوا: نعم دِحية الكلبي، وأمرنا بحمل السلاح، وقال لنا: يطلُع عليكم رسول الله الآن. فقال: «ذلك جَبْرَئيل» فلما دنا عليّ عليه السلام من الحُصون، وغرَز اللواء عند أصل الحُصون وأحاط بها، وكان حُييّ بن أخْطَب لمّا انهزمت قريش دخل في حصن بني قُريظة، فأشرف كعب بن أسد[5] شيخ بني قُريظة على أصحاب الرسول ﷺ يشتُمهم ويقول في حقّ النبي ﷺ وأزواجه مقالات قبيحة، فسكت المسلمون وقالوا: بيننا وبينكم السيف.

فلمّا رأى علي عليه السلام رسول الله ﷺ مقبلاً أمر قَتادة الأنصاري أن يَلْزَم اللواء فاستقبله، وقال: يا

---

١. حَمْرَاءُ الأسد: موضع على ثمانية أميال من المدينة.

٢. تفسير روح البيان ٧: ١٦١.

٣. تفسير القمي ٢: ١٨٩، تفسير الصافي ٤: ١٨٢.

٤. تفسير روح البيان ٧: ١٦١.

٥. في النسخة: كعب بن أسيد، وكذا الذي يأتي بعدها.

رسول الله، لا عليك أن لا تدنوا من هؤلاء الأخابيث قال: «لعلّك سَمِعت منهم لي أذىً؟» قال: نعم. قال: «إنهم لو رأوني لأذلّهم الله»[١] فلمّا دنا من حُصونهم قال: «يا إخوان القِردة والخنازير، وعَبَدة الطاغوت، أتشتُمونني أنا، إذا نزلنا بساحة قومٍ ساء صباحهم» فجعلوا يَحْلِفون أنّهم لم يقولوا شيئاً، وأشرف عليهم كعب من الحِصن فقال: والله يا أبا القاسم ما كنت جهولاً، أو قال: ما كنت فحّاشاً. فاستحيى رسول الله ﷺ حتى سقط الرداء من ظهره حياءً ممّا قال.

وكان حول الحصن نخلٌ كثيرٌ، فأشار إليه رسول الله ﷺ بيده، فتباعد عنه، وتفرّق في المفازة، فأنزل رسول الله ﷺ العسكر حول حِصنهم، فحاصرهم ثلاثة أيام لم يُطلِع أحدٌ منهم رأسه، فلمّا كان ثلاثة أيام نزل عليه غزال بن شمونل[٢] فقال: يا محمد، تُعطينا ما أعطيت إخواننا من بني النضير، احقِن دمائنا ونخلّي لك البلاد وما فيها، ولانكتُمك شيئاً؟» فقال: لا، «أو تنزِلون على حُكمي» فرجع. وبقوا خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحِصار، وقذف الله في قُلوبهم الرُّعب، وبكت النساء والصبيان، وجَزعوا جَزعاً شديداً، فقال كبيرهم كعب بن أسد: يا معشر اليهود، نُبايع هذا الرجل ونُصدّقه، فوالله لقد تبيّن لكم أنّه النبيّ الذي تجدونه في كتابكم، وأنّ المدينة دار هجرته، وما منعنا من الدخول معه إلّا الحسد للعرب، حيث إنّه لم يكن من بني إسرائيل، ولقد كنتُ كارهاً من نقض العهد، ولم يكن البلاء والشؤم إلّا من هذا الجالس ـ وأشار إلى حُييّ بن أخطب ـ فقالوا: لا نُفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره ـ أي القرآن ـ.

فقال: فان أبيتم عليّ هذه الخَصْلة، فهلمّوا فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثمّ نخرُج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف حتى لا نترُك وراءنا نسلاً يخشى عليه إن هلكنا. فقالوا: كيف نقتُل هؤلاء المساكين، فلا خير في العيش بعدهم إن لم نهلِك.

فقال: فإن أبيتم فانّ الليلة ليلة السبت، وإنّ محمداً وأصحابه قد أمنوا فيها، فانزلوا لعلّنا نُصيب منهم غفلة. فقالوا: كيف نُفسِد سبتنا، ونُحدِث فيه ما لم يُحدِث فيه من كان قبلنا.

فقال لهم عمرو بن سعدي: فان أبتيهم فاثبتوا على اليهودية، وأعطوا الجزية. فقالوا: نحن لا نُقرّ للعرب بخراج في رقابنا، فانّ القتل خيرٌ من ذلك.

فلمّا اشتدّ عليهم الحصار نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فأمر بالرجال فكُتّفوا، وكانوا سبعمائة، وأمر بالنساء فعُزِلن، فقامت الأوس إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، حلفاؤنا وموالينا من دون

---

١. في تفسير روح البيان: رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً.
٢. في تفسير القي: غزال بن شمول.

الناس، نصرونا على الخزرج في المواطن كلّها، وقد وهبت لعبد الله بن اُبي سبعمائة دارع وثلاثمائة حاسر في صبيحةٍ واحدةٍ، ولا نكون أقلّ من عبدالله.

فلمّا أكثروا على رسول الله ﷺ قال لهم: «أما ترضون أن يكون الحُكم فيهم إلى رجلٍ منكم» فقالوا: بلى. وهو من؟ قال: «سعد بن مُعاذ» قالوا: قد رضينا بحُكمه، فأرسل ﷺ في طلبه، وكان جريحاً في وقعة الخندق، فأتوا به راكب حمار، وكان رجلاً جسيماً، والأوس حوله يقولون: يا أبا عمرو، أحسن في حلفائك ومواليك، فقد نصرونا في بُعاث والحدائق[1]، والمواطن كلّها. فلمّا أكثروا عليه قال: لقد آن لسعدٍ أن لا يأخذه في اللة لومة لائم. فقالت الأوس: واقوماه، ذهبت والله بنو قُريظة آخر الدهر. فلمّا رآه النبي ﷺ قال للأنصار: «قوموا إلى سيّدكم» فقام الأنصار فأنزلوه، فبكت النساء والصبيان إليه، فلمّا سكتوا قال لهم سعد: يا معشر اليهود، أرضيتم بحُكمي فيكم؟ قالوا: نعم قد رضينا بحُكمك، ورجونا نصفَك ومعروفك وحُسن نظرك، فعاد عليهم القول فقالوا: بلي يا أبا عمرو، ثمّ التفت إلى رسول الله ﷺ إجلالاً له فقال: ما ترى بأبي أنت واُمّي يا رسول الله؟ فقال: «احكُم فيهم يا سعد، فقد رضيتُ بحُكمك فيهم» فقال: قد حكمتُ يا رسول الله أن يُقتَل رجالهم، وتُسمى نساءهم وذراريهم، وتُقسَم غنائمهم وأموالهم بين المهاجرين والأنصار. فقام رسول الله ﷺ وكبّر، وقال: «قد حكمتَ بحكُم الله عزَ وجلّ فوق سبعة أرقعة»[2] ثمّ انفجر جُرح سعد، فما زال ينزِف الدم حتى قضى عليه.

فأمر النبيّ بأن يُجمَع ما وُجِد في حصُونهم، فوجدوا فيها ألفين وخمسمائة سيف ، وخمسمائة فرس، وثلاثمائة درع، وألفي رمح، وأثاثا وأواني كثيرة، وجمالاً ومواشي وغيرها، وخمّس ذلك، وجعل عقارهم للمهاجرين، لأنّه ما كان لهم منازل، وأمر بالمَتاع أن يُحمَل، وترك المواشي هناك ترعى الشجر، ثمّ غدا إلى المدينة، وأمر بالأسارى أن يكونوا في دار اُسامة بن زيد، والنساء والذراري في دار ابنة الحارث النجارية، ثمّ خرج عن المدينة، وأمر بالخندق فحفروا فيه الحفائر، أو أمر بحفر اُخدود بالبقيع، فلمّا أمسى أمر باخراج رجلٍ رجلٍ، فكان يضرِب عنقه ويُلقيه في الاُخدود، ويردّ عليه التراب، وكان المتولّي للقتل أمير المؤمنين عليه السلام والزبير.

فأتوا بكعب بن أسد، وكان جميلاً وسيماً، فلمّا نظر إليه رسول الله ﷺ قال له: «يا كعب، أما نفعك

---

١. بُعاث والحدائق: موضعان عند المدينة، كانت فيهما وقعتان بين الأوس والخزرج قبل الاسلام، راجع: الكامل في التاريخ ١: ٦٧٦ و ٦٨٠.

٢. يعني سبع سماوات، وكل سماء يقال لها رقيع.

وصية ابن الحَواس الحَبْر الذكيّ الذي قَدم عليكم من الشام فقال: تركتُ الخمر والخنزير[١]، وجئتُ إلى البؤس والتمور، لنبيّ يُبعَث، مخرجه مكّة، ومهاجره هذه البُحيرة، يجتزئ بالكُسَيرات والتُمَيرات، ويركب الحِمار العَريّ، في عينيه حُمرة، وبين كَتفيه خاتَم النبوة، يضع سيفه على عاتقه، لا يُبالي من لاقى منكم، يبلُغ سلطانه منقطع الخُفّ والحافر؟» فقال: قد كان ذلك يا محمد، ولولا أنّ اليهود يُعيّروني أنّي جَزِعت عند القتل لآمنت بك، ولكنّي على دين اليهودية أحيى عليه وأموت. فأمر ﷺ فقدّموه وضربوا عُنقه.

ثمّ قُدّم حُيي بن أخطب، فقال له النبيّ ﷺ «كيف رأيت صنْع الله يا فاسق؟». فقال: والله يا محمد ما ألوم نفسي في عداوتك، ولقد قلقلتُ كلّ مُقَلْقَل، وجَهَدتُ كلّ الجُهد، ولكن من يَخْذُله الله يُخْذَل، فقُدّم فضرب عُنقه، فقلتهم النبي ﷺ في البَرْدين: الغَداة والعشيّ، في ثلاثة أيام.

ثمّ بعث ﷺ سعد بن زيد الأنصاري بسباياهم إلى نجد، فابتاع بهم خيلاً وسلاحاً، فقسّمها بين المسلمين، ونهى أن يُفرّق بين الوالده وولدها حتى يبلُغ، واصطفى لنفسه منهم ريحانة بنت شمعون وأسلمت، فأعتقها وتزوّج بها، وكانت هذه الوقعة سنة خمس من الهجرة[٢].

يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً [٢٨ و ٢٩]

ثمّ أنه تعالى بعد بيان وظيفة النبي ﷺ في مقام عبوديته، وهي التقوى واتّباع الوحي، وبيان سلطنته المطلقة على أنفس المؤمنين وأموالهم، وجلالة شأن نسائه، وألطافة الخاصة بالمؤمنين به، بيّن وظيفته في المداراة مع أزواجه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ العظيم الشأن، والمخبِر الصادق عن الله المَلِك المنّان ﴿قُل لِأَزْوَاجِكَ﴾ ونسائك اللاتي يكنّ الآن في حِبالتك ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا وَ﴾ السَّعة والتنعّم فيها، وتُردن ﴿زِينَتَهَا﴾ من الثياب الفاخرة والحُلّي والحُلل ﴿فتعالين﴾ واقبلن إلي ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ وأعطكنّ من مالي ما تنتفعن به ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ وأُرسلكنّ إلى بيوتكنّ وقبائلكنّ ﴿سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ وإرسالاً لا ضرار فيه ولا تنازع ﴿وَإِن كُنتُنَ تُرِدْنَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ﴾ وتطلبن قُربهما ورضاهما ﴿وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾ ونعمها التي لا تُعَدّ الدنيا وما فيها عندها بشيء ﴿فَإِنَّ ٱللهَ أَعَدَّ﴾ وهيّأ

---

١. في النسخة: الحمر والحمير.

٢. تفسير روح البيان ٧: ١٦٢، تفسير القمي ٢: ١٨٩، تفسير الصافي ٤: ١٨٢.

﴿لِلْمُحْسِنَاتِ﴾ والصالحات ﴿مِنكُنَّ﴾ في الآخرة ﴿أَجْراً عَظِيماً﴾ وجزاءً جزيلاً لا يُعرَف كُنهه وغايته.

روى المفسرون أنّ نساء النبيّ ﷺ طلبن منه زيادة النفقة والكُسوة وآذينه، لغيرة بعضهن من بعضٍ، فآلى رسول الله ﷺ منهنّ شهراً، فنزلت هذه الآية، وكنّ يومئذٍ تسعاً: عائشة، وحَفصة، وأُمّ حبيبة بنت أبي سفيان، وسَودة بنت زَمعة، وأُمّ سَلَمة، فهولاء من قريش، وصفية بنت حييّ بن أخطب وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجُويرية بنت الحارث المُصطلقية، فلمّا نزلت طلّقهنّ وخيّرهن في المفارقة والبقاء، فاخترن النبي ﷺ [١].

وروى الواحدي [٢] عن ابن عباس: أنّ حَفصة نازعت النبي ﷺ يوماً، وطلبت منه زيادة النفقة. فقال ﷺ: «هل لكِ أن أجعل بيني وبينك رجلاً؟» قالت: نعم. فدعا رسول الله ﷺ عمر، فلمّا حضر قال لها: «تكلّمي» فقالت حَفصة لرسول الله ﷺ: تكلّم أنت ولا تقُل إلّا حقّاً. فرفع عمر يده ليضربها، فقال النبي ﷺ: «كفّ عنها» فقال عمر: يا عدوّة الله ما يقول النبيّ إلّا حقّاً، والذي بعثه بالحقّ لولا مجلسه ما رفعت يدي حتى تموتي. فقام النبيّ ﷺ وذهب في غرفة في المسجد، فمكث فيها شهراً، ومنع نساءه أن يدخُلن معه [٣].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ النبيّ ﷺ لمّا حصل له الغنائم من خيبر، قالت نساؤه: أعطنا من هذه الغنيمة. قال: قسّمتها بين المسلمين بأمر الله، فغضِبن وقلن: لعلّك تظُنّ إن تُطلّقنا لا نجد الأكفاء من قومنا يتزوّجونا! فأنف الله عزّ وجلّ لرسوله، فأمره أن يعتزلهنّ، فاعتزلهنّ رسول الله ﷺ في مَشْرَبة [٤] أمّ إبراهيم تسعة وعشرين يوماً حتى حِضن وطَهُرن، ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية وهي آية، التخيير، فقامت أمّ سَلَمة وقالت: قد اخترتُ الله ورسوله، فقُمن كُلّهن فعانقنه وقلن مثل ذلك» الخبر [٥].

وعن الباقر عليه السلام: «أنّ زينب بنت جَحْش قالت لرسول الله ﷺ: لا تعدِل وأنت نبيّ! فقال: تَربت يداك، إن لم أعدِل، فمن يعدِل ؟!» إلى أن قال: «فقالت: إنّك إن طلّقتنا وجدنا في قومنا أكفاءنا، فاحتبس الوحي عن رسول الله ﷺ تسعاً وعشرين ليلة. قال: فأنف الله لرسوله ﷺ، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِأَزْوَاجِكَ﴾ الآيتين، فاخترن الله ورسوله، ولم يكن شيءٌ، ولو اخترن أنفسهنّ لَبِنّ» [٦].

---

١. مجمع البيان ٨: ٥٤٤، تفسير روح البيان ٧: ١٦٤. ٢. في النسخة: الراقدي. ٣. مجمع البيان ٨: ٥٥٥.
٤. المَشْرَبة: الغُرفة، والصُّفّة، والأرض اللينة دائمة النبات.
٥. تفسير القمي ٢: ١٩٢، وتفسير الصافي ٤: ١٨٥، ولم ينسباها إلى الصادق عليه السلام.
٦. الكافي ٦: ٥/١٣٩، تفسير الصافي ٤: ١٨٥.

وفي رواية: «فخيّرهن حتى انتهى إلى زينب بنت جَحْش، فقامت فقبّلته، فقالت: أختار الله ورسوله»[١].

وروى بعض العامة أنه ﷺ بدأ بعائشة، وقال لها: «إنّي ذاكرٌ لك أمراً أُحبّ أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك» لما علم أنّ أبويها لا يأمرانها بفراقه قالت: وما هو يا رسول؟ فتلا عليها الآية فقالت: أفي هذا أستأمر أبويّ! بل اختار الله ورسوله، فعجب ﷺ من اختيارها، وفرِح حتى ظهر الفرَح على بشرته[٢] ثمّ اختارت الباقيات اختيارها»[٣].

أقول: فيه دلالة على أنّ النبيّ ﷺ لم يُحرز حبّها له، حيث قال: «لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك» بل كان الظاهر منها اختيارها لنفسها، ولذا تعجّب من اختيارها وظهور خلاف الظاهر منها، وليعلم أنّ هذا التخيير من خصائص النبيّ ﷺ.

عن الباقر عليه السلام، أنّه سُئل عن رجلٍ خيّر امرأته فاختارت نفسها، أبانت منه؟ قال: «لا، إنّما هذا شيءٌ كان لرسول الله ﷺ خاصة» الخبر[٤].

يَا نِسَاءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذٰلِكَ عَلَى ٱللهِ يَسِيراً * وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً [٣٠ و ٣١]

ثمّ أدّب الله أزواجه وبيّن وظيفتهنّ بقوله: ﴿**يَا نِسَاءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ**﴾ وبرتكب فِعلةً قبيحةً ظاهرة القَباحة من معاصي الله ومخالفة الرسول وإيذائه. عن ابن عباس: يعني النُّشوز وسوء الخُلق[٥]. عن الصادق عليه السلام: «الفاحشة: الخروج بالسيف»[٦]. ﴿**يُضَاعَفْ لَهَا**﴾ في القيامة ﴿**ٱلْعَذَابُ**﴾ عليها ﴿**ضِعْفَيْنِ**﴾ ومثلي عذاب غيرهنّ من النساء، لعلوّ شأنهنّ، وأتميّة الحُجّة عليهنّ، وزيادة قُبح عصيانهنّ، لاستلزامه إيذاء النبي ﷺ وتوهينه ﴿**وَكَانَ ذٰلِكَ**﴾ التضعيف ﴿**عَلَى ٱللهِ يَسِيراً**﴾ وسهلاً، لشدّة استحقاقهنّ له، ولا يمنعه زوجية النبيّ، بل هي سببه، وفيه مراعاة حقّه ﷺ ﴿**وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ**﴾ ويُداوم على الطاعة ﴿**لِلهِ وَرَسُولِهِ**﴾ إيماناً بهما، وخُضوعاً لهما ﴿**وَتَعْمَلْ**﴾ عملاً ﴿**صَالِحاً**﴾ ومرضياً لهما إلى آخر عمرهما ﴿**نُّؤْتِهَا**﴾ ونُعطها ﴿**أَجْرَهَا**﴾ وثوابها ﴿**مَرَّتَيْنِ**﴾ مرة

---

١. الكافي ٦: ٣/١٣٨، تفسير الصافي ٤: ١٨٦.
٢. في النسخة: من بشره.
٣. تفسير روح البيان ٧: ١٦٥.
٤. الكافي ٦: ٣/١٣٧، وتفسير الصافي ٤: ١٨٦، عن الصادق عليه السلام.
٥. تفسير روح البيان ٧: ١٦٦.
٦. تفسير القمي ٢: ١٩٣، تفسير الصافي ٤: ١٨٦.

على الطاعة، ومرّة على طلبهنّ رضا النبيّ ﷺ وإدخالهن السرور في قلبه الشريف كما قيل[1]، أو مرّة على الطاعة، ومرّة أُخرىٰ عليها لعُلوّ شأنهنّ وزيادة معرفتهنّ ويقينهنّ، كما يكون عذابهنّ ضِعفين[2] ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ وهيّأنا ﴿لَهَا﴾ مضافاً إلى تضعيف الثواب ﴿رِزْقاً﴾ في الجنة يكون ذلك الرزق ﴿كَرِيماً﴾ ومرضياً، أو رفيع القدر وعظيم الخَطَرَ.

عن الباقر عليه السلام قال: «كل ذلك في الآخرة حيث يكون الأجر يكون العذاب»[3].

يَا نِسَاءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ ٱلنِّسَاءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً * وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَاةَ وَآتِينَ ٱلزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ[٣٢ و ٣٣]

ثمّ بالغ سبحانه في ترغيبهنّ إلى الطاعة بتكرار ندائهن ونسبتهن إلى النبيّ الموجبة لاتّباع سيرته بقوله: ﴿يَا نِسَاءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ ومعاشريه ﴿لَسْتُنَّ﴾ في الشرف وعُلوّ المنزلة عند الله ﴿كَأَحَدٍ مِنَ ٱلنِّسَاءِ﴾ الأجنبيات منه، المعاشرات لغيره، ولكن يكون الفضيلة والشرف لكن ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ وخفتنّ الله، واحترزتن [من] مخالفته ومخالفة رسوله، فانّ الاتصال بالنبيّ لا يُفيد شرفاً وفضلاً إلّا إذا انضمّ إليه التقوى[4] والطاعة، فاذا علمتنّ ذلك ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ﴾ ولا تَلِنّ عند مكاملة الأجانب ﴿بِالْقَوْلِ﴾ والكلام كما هو دأب النساء المُطمَعات، فانّ ترقيق الصوت وتليين الخطاب من النساء يُورِث تهييج شهوة الرجال وطمعهم فيهنّ، فأنتنّ لا تفعلن ذلك ﴿فَيَطْمَعَ﴾ فيكُن الرجل ﴿ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ من المَيل إلى الفِسق والفُجور ﴿وَقُلْنَ﴾ عند الحاجة إلى التكلّم معهم ﴿قَوْلاً﴾ يكون عند الشرع والعقل ﴿مَعْرُوفاً﴾ وحسناً بعيداً من التُّهمة والإطماع ﴿وَقَرْنَ﴾ واستقررن ﴿فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ والزَمْنها.

رُوي أنّ سَودة بنت زَمعة ما خطت باب حُجرتها لصلاة ولا لحجّ ولا عُمرة حتى اُخرجت جنازتها من بيتها في زمان عمر، فقيل لها: لم لا تحُجّ؟ فقالت: قيل لنا: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾[5] ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ ولا تكشفن الزينة والمحاسن للرجال، أو لا ...[6] ﴿تَبَرُّجَ﴾ النساء في زمان ﴿ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ قيل: هو زمان نُوح[7]. وقيل: زمان إبراهيم، كانت النساء تلبس الثياب المَطرزة باللآلئ، ويَمْشين في الطرق

---

١. تفسير البيضاوي ٢: ٢٤٥، تفسير أبي السعود ٧: ١٠٢، تفسير الصافي ٤: ١٨٦، تفسير روح البيان ٧: ١٦٨.
٢. تفسير روح البيان ٧: ١٦٨.
٣. تفسير القمي ٢: ١٩٣، تفسير الصافي ٤: ١٨٦.
٤. في النسخة: انضمّ بالتقوى.
٥. تفسير روح البيان ٧: ١٧٠.
٦. بياض في النسخة بمقدار كلمة واحدة، ولعلّها (تتبخترن) كما في (روح البيان) لأن المؤلف في معرض الأخذ عنه أو (لا تبرجن) إعادة للنص القرآني.
٧. تفسير أبي السعود ٧: ١٧٠، تفسير روح البيان ٧: ١٠٢

يعرِضن أنفسهنّ على الرجال، والأُخرى: قيل بعثة نبينا[١].

وعن ابن مسعود، عن النبي صلى الله عليه وآله في حديث ـ: «أنّ يوشع بن نون وصيّ موسى عليه السلام عاش بعد موسى عليه السلام ثلاثين سنة، وخرجت عليه صفوراء بنت شعيب زوجة موسى ـ إلى أن قال ـ: وإنّ بنت أبي بكر ستخرُج على عليّ في كذا وكذا ألفاً من أمّتي، فيُقاتلها ويقتُل مقاتليها ويأسِرها ويحسن أسرها، وفيها أنزل الله ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ يعني صفوراء بنت شعيب[٢].

وقيل: إنّ الجاهلية الأُولى قبل البعثة، والأُخرى في آخر الزمان[٣].

عن الصادق عليه السلام، عن أبيه ـ في رواية ـ: «ستكون جاهلية اُخرى»[٤].

وقيل: إنّ الأُولى[٥] بعد زمان إدريس[٦]. والأُخرى من بعثة نبينا[٧]. رُوي أنّ بطنين من ولد آدم سكن أحدهما السهل، والآخر الجبل، وكان رجال الجبل صِباحاً ونسائهم دمائم، والسهل بالعكس، فجاء إبليس وآجر نفسه من رجلٍ سهليٍ، وكان يخدِمه، فاتّخذ شيئاً مثل ما يُزمّر الرِّعاء، فجاء بصوتٍ لم يسمع الناس مثله، فبلغ ذلك من في السهل، فجاءوا يستمعون إليه، واتّخذوا عيداً يجتمعون إليه في السنة، فتبرّج النساء للرجال، وتزيّنوا لهن، فهجم رجلٌ من أهل الجبل عليهم في عيدهم، فرأى النساء وصباحتهنّ، فأخبر أصحابه، فتحوّلوا إليهم، فنزلوا معهم، وظهرت الفاحشة فيهنّ، وذلك بعد زمان إدريس[٨].

وقيل: إنّ الأُولى هنا بمعنى القديمة[٩] ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَاةَ﴾ المفروضة ونوافلها ﴿وَآتِينَ ٱلزَّكَاةَ﴾ الواجبة والمندوبة، وواظِبن على العبادات البدنية والمالية ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً[٣٣]

ثمّ التفت سبحانه من أزواج النبيّ صلى الله عليه وآله إليه وإلى أهل بيته ترغيباً لهنّ إلى الصلاح والسَّداد بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ بالارادة التكوينية التي لا تتخلّف عن المراد ﴿لِيُذْهِبَ﴾ ويُزيل ﴿عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ والقَذَر من المعاصي والاخلاق الذميمة يا ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ ومَعْدِن الرسالة ومَهْبَط الوحي

---

١. تفسير أبي السعود ٧: ١٧٠، تفسير روح البيان ٧: ١٠٢
٢. كمال الدين: ٢٧، تفسير الصافي ٤: ١٨٧.
٣. تفسير روح البيان ٧: ١٧٠.
٤. تفسير القمي ٢: ١٩٣، تفسير الصافي ٤: ١٨٧.
٥. زاد في النسخة: وقيل أنها.
٦. تفسير روح البيان ٧: ١٧٠.
٧. تفسير روح البيان ٧: ١٧٠.
٨. تفسير روح البيان ٧: ١٧٠.
٩. تفسير روح البيان ٧: ١٧٠.

﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ ويُنظِّفكم منه ﴿تَطْهِيراً﴾ وتنظيفاً بليغاً، ويجعلكم معصومين.

وإنّما فسّرنا الإرادة بالتكوينية، لكونه في مقام بيان فضيلتهم على سائر الناس، ولا فضيلة للارادة التشريعية التي يشترك فيها المؤمن والكافر، فاذا دلّت الآية على عصمة أهل البيت عليهم السلام فلا جرم لا تشمل نساء النبي، للاجماع على عدم عصمتهنّ، وظهور المعصية من أكثرهنّ خصوصاً عائشة وحفصة.

بسط الكلام في آية التطهير

وقد اتّفقت روايات العامة والخاصة على أنّها نزلت في شأن الخمسة الطيبة، وفي (نهج الحق) للعلامة: أجمع المفسّرون. وروى الجمهور كأحمد بن حنبل وغيره أنّها نزلت في [رسول الله] وعليّ وفاطمة والحسن والحسين[١].

وروى الثعلبي، عن أمّ سَلَمة: أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان في بيتها، فأتته فاطمة عليها السلام ببُرمة فيها حَريرة، فقال لها: «ادعي زوجك وابنيك» فجاءتهم فطعموا، ثمّ ألقى عليهم كساءً له خيبرياً، فقال: «اللهمّ هؤلاء أهل بيتي وعِترتي، فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً» قالت أمّ سَلَمة: فأنزل الله فيهم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اَللّٰهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ﴾ الآية[٢]. فأخذ فضل الكساء فغشّاهم، ثمّ أخرج يده، فألوى بها إلى السماء، ثمّ قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصّتي، فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً» فأدخلتُ رأسي في البيت، وقلت: أنا معكم يا رسول الله؟ قال: «إنّك إلى خير»[٣].

وروى الثعلبي، عن مُجمّع، قال: ذهبتُ يوماً مع أمّي إلى عائشة، فقالت لها أمّي: أرايت خروجك يوم الجمل، وقال الله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾؟ فقالت: كان قدراً من الله، ثمّ سألتها عن عليّ فقالت: سألتني عن أحبّ الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وزوج أحبّ الناس إلى رسول الله، لقد رأيت علياً وفاطمة والحسن والحسين، وجمع رسول الله بثوبٍ عليهم، ثمّ قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصّتي، فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً. فقلت: يا رسول الله، أنا من أهلك؟ فقال: «تنحّي، فانّك إلى خير»[٤].

وعن أبي سعيد الخُدري، عن النبي صلى الله عليه وآله، قال: «نزلت هذه فيّ وفي عليّ وفاطمة والحسن والحسين»[٥]. إلى غير ذلك من الروايات الكثيرة العامية[٦].

---

١. نهج الحق: ٣/١٧٣، مسند أحمد ١: ٣٣١، و٣: ٢٨٥، و٦: ٢٩٢، شواهد التنزيل ٢: ١٩ وما بعدها.

٢. زاد في النسخة: وفي رواية.

٣. العمدة لابن بطريق: ٢٢/٣٩، مجمع البيان ٨: ٥٥٩.

٤. العمدة لابن بطريق: ٢٣/٣٩، مجمع البيان ٨: ٥٥٩.

٥. العمدة لابن بطريق: ٢٢/٣٨، مجمع البيان ٧: ٥٥٩.

٦. راجع: سنن الترمذي ٥: ٣٢٠٥/٣٥١ و: ٣٧٨٧/٦٦٣ و: ٣٨٧١/٦٦٩، مسند أحمد ٤: ١٠٧ و٦: ٢٩٢ و٣٠٤، مصابيح

وعن الصادق عليه السلام ـ في هذه الآية ـ قال: «يعني الأئمة عليهم السلام وولايتهم من دخل فيها دخل في بيت النبوة»[١].

وعنه عليه السلام ـ في رواية ـ: « فلو سكت رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يبيّن من أهل بيته لادّعاه فلان وفلان، ولكن الله أنزل في كتابه لنبيّه ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ الآية، وكان عليّ والحسن والحسين وفاطمة، فأدخلهم رسول الله صلى الله عليه وآله تحت الكساء في بيت أمّ سَلَمة. ثمّ قال: اللهمّ إنّ لكلّ نبي أهلاً وثقلاً، وهؤلاء أهل بيتي وثقلي. فقالت أمّ سَلَمة: ألست من أهلك؟ فقال: إنّك إلى خير، ولكن هؤلاء أهلي وثقلي ـ إلى أن قال ـ الرجس: هو الشكّ، والله لا نَشُكّ في ربّنا أبداً»[٢].

وفي رواية عن الباقر عليه السلام: «أنّ الآية تنزل أولها في شيء، وأوسطها في شيء، وآخرها في شيء» ثمّ قال: «﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ من ميلاد الجاهلية»[٣].

وعن الباقر عليه السلام: «نزلت هذه الآية في رسول الله، وعليّ بن أبي طالب، وفاطمة، والحسن، والحسين عليهم السلام وذلك في بيت أمّ سَلَمة زوجة النبيّ صلى الله عليه وآله، فدعا رسول الله أمير المؤمنين، وفاطمة، والحسن، والحسين عليهم السلام، ثمّ ألبسهم كِساءً له خيبرياً، ودخل معهم فيه، ثمّ قال: اللهمّ هؤلاء أهل بيتي الذين وعدتني فيهم ما وعدتني، اللهمّ أذهِب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً. فقالت أمّ سَلَمة: وأنا معهم يا رسول الله؟ قال: أبشري يا أمّ سَلَمة، فانّك إلى خيرٍ»[٤].

وفي احتجاج علي عليه السلام على أبي بكر قال: «فأنشدك الله ألي ولأهلي وولدي آية التطهير من الرجس، أم لك ولأهل بيتك؟» قال: بل لك ولأهل بيتك، الخبر[٥].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال في جمعٍ من المهاجرين والأنصار في المسجد في أيام خلافة عثمان: «أيها الناس، أتعلمون أنّ الله عز وجل أنزل في كتابه ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ فجمعني وفاطمة وحسناً وحسيناً، وألقى علينا الكساء، وقال: اللهمّ إنّ هؤلاء أهل بيتي ولحمتي، يُؤلمني ما يُؤلمهم، ويُخرِجني ما يُخرِجهم، فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، فقالت أمّ سَلَمة: وأنا يا رسول الله؟ فقال: أنت ـ أو إنك ـ على خير، إنّما أُنزلت فيَّ، وفي أخي، وفي ابنتي، وفي ابنيَّ وفي تسعةٍ من ولد ابني الحسين خاصة، ليس معنا أحدٌ غيرنا؟

← السنة ٤: ٤٧٩٦/١٨٣، مستدرك الحاكم ٢: ٤١٦ و٣: ١٤٨، الصواعق المحرقة: ١٤٣، خصائص النسائي: ٤، أُسد الغابة ٤: ٢٩.

١. الكافي ١: ٥٤/٣٥٠، تفسير الصافي ٤: ١٨٨، وفيهما: النبي صلى الله عليه وآله، بدل النبوة.

٢. الكافي ١: ١/٢٢٧، تفسير الصافي ٤: ١٨٨.

٣. تفسير العياشي ١: ٦٤/٩٥، تفسير الصافي ٤: ١٨٨.

٤. تفسير القمي ٢: ١٩٣، تفسير الصافي ٤: ١٨٧.

٥. الخصال: ٣٠/٥٥٠، تفسير الصافي ٤: ١٨٨.

فقالوا كلهم: نشهد أنَّ أمّ سَلَمة حدّثتنا بذلك، فسألنا رسول الله فحدّثنا كما حدّثتنا أمّ سَلَمة»[١].

وعن زيد بن عليّ بن الحسين: أنّ جُهّالاً من الناس يَزْعُمون أنّه إنّما أراد الله بهذه الآية أزواج النبي ﷺ، وقد كذبوا واثموا، وأيمن الله لو عنى أزواج النبيّ ﷺ لقال: ليذهب عنكنّ الرجس ويطهركنّ تطهيراً، ولكان الكلام مونّثاً، كما قال: **﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكن﴾**[٢] **﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾**[٣] و**﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ ٱلنِّسَاءِ﴾**[٤].

وقال القمي ﵀: ثمّ انقطعت مخاطبة نساء النبي، وخاطب أهل بيت رسول الله ﷺ فقال: **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾** الآية[٥].

وقال بعض الأجلّة: يُحتمل أن يكون الخطاب إشارة إلى انتسابهنّ بأهل العصمة ترغيباً لهنّ إلى الطاعة وترك المعصية[٦].

أقول: ويمكن أن يكون الخطاب لأزواج النبي ﷺ وأقاربه ذكوراً وإناثاً، والمقصود إرادة بعضهم من قوله: **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾** كما قال: **﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم انبياء وجعلكم ملوكاً﴾**[٧] ومن المعلوم أنّه لم يكن جميعهم ملوكاً، كما أنّه من المعلوم أنّه لم يكن أزواج النبيّ ﷺ معصومات لظهور عصيانهنّ في زمان النبيّ ﷺ وبعده، كالخروج على وصيّ الرسول الذي كان مع الحقّ والحقّ معه.

وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ ٱللهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً * إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَاتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ وَٱلْقَانِتِينَ وَٱلْقَانِتَاتِ وَٱلصَّادِقِينَ وَٱلصَّادِقَاتِ وَٱلصَّابِرِينَ وَٱلصَّابِرَاتِ وَٱلْخَاشِعِينَ وَٱلْخَاشِعَاتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَاتِ وَٱلصَّائِمِينَ وَٱلصَّائِمَاتِ وَٱلْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَافِظَاتِ وَٱلذَّاكِرِينَ ٱللهَ كَثِيراً وَٱلذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ ٱللهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً [٣٤ و ٣٥]

ثمّ خصّ سبحانه الخطاب بهنّ ازدياداً لوعظهنّ وترغيبهن إلى طاعة الله ورسوله بقوله: **﴿وَٱذْكُرْنَ﴾** وليكن في خاطركنّ نعمة الله التي خصّكن بها وهو **﴿مَا يُتْلَىٰ﴾** ويُقرأ صباحاً ومساءً

---

١. كمال الدين: ٢٥/٢٧٨، تفسير الصافي ٤: ١٨٨. ٢. الاحزاب: ٣٤/٣٣. ٣. الاحزاب: ٣٣/٣٣.
٤. تفسير القمي ٢: ١٩٣، تفسير الصافي ٤: ١٨٧، والآية من سورة الأحزاب: ٣٢/٣٣.
٥. تفسير القمي ٢: ١٩٣، تفسير الصافي ٤: ١٨٧. ٦. لم نعثر عليه. ٧. المائدة: ٢٠/٥.

عليكنّ ﴿فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ وفي حُضوركنّ ومُستَمعكنّ ﴿مِنْ آيَاتِ آللهِ﴾ القرآنية الدالة على صحّة نبوة خاتم الأنبياء، وجلالته وعظمة شأنه، ووجوب طاعته، ﴿وَ﴾ المحتوية على ﴿ٱلْحِكْمَةِ﴾ والموعظة الحسنة، والعلوم الكثيرة. وقيل: إنّ المراد بالحكمة الأحاديث النبوية[١] لطفاً من الله عليكنّ ﴿إِنَّ ٱللهَ كَانَ﴾ من الأزل ﴿لَطِيفاً﴾ ومُبالغاً في البرّ والإحسان بخَلْقه ﴿خَبِيراً﴾ وعليماً باستعداداتهم ومصالحهم.

رُوي أنه لمّا نزلت في نساء النبيّ ﷺ الآيات المذكورة قالت نساء المؤمنين: فما نزل فينا؟ ولو كان فينا خيرٌ لذكرنا[٢].

وعن مقاتل: لمّا رجعت أسماء بنت عُميس من الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب؟ دخلت على نساء رسول الله ﷺ وقالت: هل [نزل] فينا شيء من القرآن؟ قلن: لا. فأتت رسول الله فقالت: يا رسول الله، إنّ النساء لفي خيبةٍ وخَسَار. فقال: «وممّ ذلك؟» قالت: لأنهنّ لا يُذْكَرن بخيرٍ[٣]، فأظهر الله لُطفه بهنّ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ والمقرّين بتوحيد الله ورسالة رسوله، والمنقادين لأحكامهما ﴿وَٱلْمُسْلِمَاتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والمُصدّقين بقلوبهم وجوارحهم لما يجب التصديق به من المبدأ والمعاد وغيرهما ﴿وَٱلْمُؤْمِنَاتِ﴾.

عن الصادق عليه السلام: «إنّ الايمان ما وَقُر في القلوب، والاسلام ما عليه المناكح والمواريث وحقن الدماء، والايمان يُشارك الاسلام، والاسلام لا يُشارك الايمان»[٤].

أقول: هذا موافقٌ لقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَمْ تُؤْمِنُوا وَلٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[٥].

وعن النبيّ ﷺ: «المسلم من سَلِم المسلمون من يده ولسانه، والمؤمن من أمن جاره بوائقه، وما آمن بي من بات شبعاناً وجاره طاوٍ»[٦].

أقول: لا منافاة بين الروايتين، فانّ الأولى في تحقيق معنى اللفظين، والثانية في بيان الوظائف للمتّصفين بهما.

﴿وَٱلْقَانِتِينَ﴾ والمداومين على طاعة ربّهم ﴿وَٱلْقَانِتَاتِ﴾ والملتزمات بها ﴿وَٱلصَّادِقِينَ﴾ في القول والعمل والنية ﴿وَٱلصَّادِقَاتِ﴾ فيها ﴿وَٱلصَّابِرِينَ﴾ على أداء الواجبات والكفّ عن

---

١. تفسير روح البيان ٧: ١٧٣.
٢. تفسير روح البيان ٧: ١٧٤.
٣. مجمع البيان ٨: ٥٦٠، تفسير الصافي ٤: ١٩٠.
٤. الكافي ٢: ٣/٢١، تفسير الصافي ٤: ١٩٠.
٥. الحجرات: ١٤/٤٩.
٦. مجمع البيان ٨: ٥٦١، تفسير الصافي ٤: ١٨٩.

المحرَمات ﴿وَٱلصَّابِرَاتِ﴾ عليهما ﴿وَٱلْخَاشِعِينَ﴾ والمتواضعين لله ولرسوله وللمؤمنين بقلوبهم وجوارحهم ﴿وَٱلْخَاشِعَاتِ﴾ لهم ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ والباذلين بأموالهم في سبيل الله وابتغاء مرضاته ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ بها والباذلات لها ﴿وَٱلصَّائِمِينَ﴾ والممسكين عن الطعام والشراب وسائر المفطرات المعهودة بنيّة صادقة ﴿وَٱلصَّائِمَاتِ﴾ منها ﴿وَٱلْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾ وعوراتهم عن نظر الأجانب ومسّها ﴿وَٱلْحَافِظَاتِ﴾ لها ﴿وَٱلذَّاكِرِينَ ٱللهَ﴾ بقلوبهم وألسنتهم ذكراً ﴿كَثِيراً﴾ بحيث لا يَغْفَلون عنه ولا يَنْسَونه في حال ﴿وَٱلذَّاكِرَاتِ﴾ الله ذكراً كثيراً.

عن ابن عباس: يُريد أدبار الصلاة الصلوات، وغدواً وعشياً، وفي المضاجع، وإذا استيقظ من نومه، وكلّما غدا وراح من منزله[١].

وفي الحديث: «من استيقظ من نومه، وأيقظ امرأته، فصلّيا جميعاً ركعتين، كُتِبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات»[٢].

وعن مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكُر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً[٣].

﴿أَعَدَّ ٱللهُ﴾ وهيّأ ﴿لَهُم﴾ في الآخرة ﴿مَّغْفِرَةً﴾ وستراً للذنوب ﴿وَأَجْراً عَظِيماً﴾ وثواباً جزيلاً لا يمكن بيان كيفيته ومقدار عظمته على ما صدر عنهم من الطاعات والعبادات.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِيناً * وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ ٱللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ ٱللهِ مَفْعُولاً * مَا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللهُ لَهُ سُنَّةَ ٱللهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللهِ قَدَراً مَّقْدُوراً * ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ ٱللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا ٱللهَ وَكَفَىٰ بِاللهِ حَسِيباً[٣٦ـ٣٩]

ثمّ أنّه تعالى بعد أمر النبي ﷺ بتخيير أزواجه، وترغيبهنّ في طاعته، بيّن سبحانه وظيفة عموم الناس من الرجال والنساء بالنسبة إليه بقوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ يصحّ ويستقيم ﴿لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ في

---

١. تفسير روح البيان ٧: ١٧٦.
٢. مجمع البيان ٨: ٥٦١، تفسير روح البيان ٧: ١٧٦.
٣. تفسير روح البيان ٧: ١٧٦.

وقت من الأوقات ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً﴾ وأراد شيئاً ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ والاختيار في قبال قضائهما وإرادتهما بأن يختاروا ﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ وفي عملهم ما شاءوا، بل يجب أن يجعلوا آراءهم واختيارهم تبعاً لرأيهما واختيارهما، ويعلم قضاء الله من قضاء الرسول. وقيل: إنّ المراد قضاء الرسول، وذكر قضاء الله لتعظيم الرسول[١]. وقيل: إنّ ضمير الجمع الثاني للرسول تعظيماً له[٢].

ثمّ هدّد من اختار غير مختارهما بقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في أمرٍ من الأمور، ويختار لنفسه غير ما أختار له ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ وانحرف عن طريق الحقّ والصواب ﴿ضَلالاً﴾ وانحرافاً ﴿مُّبِيناً﴾ واضحاً لا يَشُكّ فيه العاقل.

رُوي أنّ رسول الله ﷺ خطب زينب بنت جحش بن رباب الأسدي، بنت عمّته ميمونة بنت عبدالمطّلب لمولاه زيد بن حارثة، وكانت زينب بيضاء جميلة، وزيد أسود أفطس، فأبت وقالت: أنا بنت عمّتك يا رسول الله، وأرفع قريش، فلا أرضاه لنفسي، وكذلك أبىٰ أخوها عبدالله بن جحش، فنزلت[٣]، فقالت زينب وأخوها: رضينا يا رسول الله، فأنكحها رسول الله إياه، وساق إليها مهرها عشرة دنانير، وستين دِرهماً، وخِماراً، ومِلْحَفة، ودِرعاً، وإزاراً، وخمسين مُدّاً من طعام، وثلاثين صاعاً من تمر، وبقيت بالنكاح معه مدّة، فجاء النبيّ ﷺ يوماً إلى دار زيد لحاجةٍ، فوقع نظره إلى زينب، فأعجبه حُسنها فأحبّها، وقد كان يمتنع عن نِكاحها قبل ذلك، ولا يُريدها. فقال ﷺ: «سبحان الله! يا مُقلّب القلوب ثبّت قلبي» وانصرف، فسَمِعت زينب التسبيح، فذكرته لزيد بعد مجيئه، ففطِن زيد أنّ رسول الله ﷺ أحبّها، فأتى رسول الله ﷺ تلك الساعة، فقال: يا رسول الله، إنّي اُريد أن اُفارق صاحبتي. فقال ﷺ: «مالكَ أرأيت منها شيئاً؟». قال: لا والله ما رأيت منها إلّا خيراً، ولكنّها تتعظّم عليَّ لشرفها، وتؤذيني بلسانها[٤]، فحكى الله منعه منه بقوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ يا محمد ﴿لِلَّذِى أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالتوفيق لقبول الاسلام، والايمان بك، وأعانه على الرضا بما حكم الله به عليه من مفارقته زوجته، وتسليمها للرسول، وتخصيصه من بين الصحابة بذكر اسمه في هذه الآية في القرآن ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بتحريره، وحسن تربيته، وتبنيه وتزويجه من بنت عمّتك ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ زينب ولا تطلّقها ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في طلاقها، أو في الشكوى من تعظّمها ﴿وَ﴾ أنت ﴿تُخْفِى﴾ حين ردعه عن طلاقها ﴿فِى نَفْسِكَ﴾ من الناس ﴿مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ ومُظهِره لهم من عملك بأنّها إحدى أزواجك، وأن زيداً يُطلّقها، وستكون زوجتك، وإنّما كان اخفاؤك لأنّك تخاف ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ من أن يلوموك

---

١ و٢. تفسير البيضاوي ٢: ٢٤٦، تفسير أبي السعود ٧: ١٠٤، تفسير روح البيان ٧: ١٧٧.
٣. تفسير روح البيان ٧: ١٧٧.
٤. تفسير روح البيان ٧: ١٧٨.

ويعيّروك على تزويج دعيّك ﴿وَاللهُ﴾ الغالب القاهر ﴿أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ وحده وتخُصّه بالخَشية إن كان فيه ما يُخشى.

عن السجاد عليه السلام: «أنّ الذي أخفاه في نفسه هو أنّ الله سبحانه أعلمه أنّها ستكون من أزواجه، وأنّ زيداً سيطلّقها، فلّما جاء زيد وقال له: اُريد أن اُطلّق زينب قال له: أمسك عليك زوجك [فقال سبحانه: لم قلت أمسك عليك زوجك] وقد أعلمتك أنّها ستكون من أزواجك»[1].

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ﴾ واستوفى ﴿زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً﴾ كان له فيها، وحاجة يتوقّعها منها، وطلّقها وانقضت عِدّتها ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾.

قصة تزويج الرسول زينب بنت جحش

رُوى أنّه لمّا انقضت عِدّتها قال الرسول صلى الله عليه وآله لزيد: «ما أجد أحداً أوثق في نفسي منك، اخطُب عليّ زينب» قال زيد: فانطلقت، فاذا هي تُخمّر عجينتها، فقلت: يا زينب أبشري، فانّ رسول الله يَخْطُبك، ففرِحت وقالت: ما أنا بصانعه شيئاً حتى أؤامر[2] ربّي، فقامت إلى مسجدها، فنزل في القرآن ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ فزوجها رسول الله، وما أولم على أمرأةٍ من نسائه ما أولم عليها[3].

رُوي أنّها كانت تفتخر على سائر أزواج النبي صلى الله عليه وآله وتقول: زوّجكن أهاليكنّ، وزوّجني الله من فوق سبع سماوات[4].

ورُوى أنها كانت تقول للنبي صلى الله عليه وآله: إنّي لأدِلّ عليك بثلاث: ما من نسائك امرأة تدِلّ بهنّ: جدّي وجدّك واحد، وزوّجنيك الله، والسفير جَبْرئيل[5].

وعن الرضا عليه السلام في تفسير ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ﴾ قال: «إنّ الله عرّف نبيّه أسماء أزواجه في دار الدنيا، وأسماء أزواجه في الآخرة، وإنّهنّ اُمّهات المؤمنين، وأحد من سمّى له زينب بنت جَحْش، وهي يومئذٍ تحت زيد بن حارثة، فأخفى اسمها في نفسه، ولم يُبدِه، لكيلا يقول أحدٌ من المنافقين: إنّه قال في امرأةٍ في بيت رجل إنّها أحد أزواجه ومن اُمّهات المؤمنين، وخشي قول المنافقين، قال الله عز وجل: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ يعني في نفسك، وإنّ الله ما تولّى تزويج أحدٍ من خلقه إلّا تزويج حوّاء من آدم عليه السلام وزينب من رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا﴾ وفاطمة من عليّ»[6].

---

١. مجمع البيان ٨: ٥٦٤، تفسير الصافي ٤: ١٩١.
٢. آمره: شاوره.
٣. تفسير روح البيان ٧: ١٨٠.
٤. تفسير روح البيان ٧: ١٨٠.
٥. مجمع البيان ٨: ٥٦٦، تفسير الصافي ٤: ١٩١.
٦. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/١٩٥، تفسير الصافي ٤: ١٩٢.

وعنه عليه السلام ـ في حديث ـ: «أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قصد دار زيد بن حارثة في أمر أراده، فرأى امرأة تغتسل، فقال لها: سبحان الله الذي خلقك! وإنّما أراد تنزيه الله عن قول من زعم أنّ الملائكة بنات الله ـ إلى أن قال ـ فلمّا عاد زيد إلى منزله أخبرته امرأته بمجيىء رسول الله صلى الله عليه وآله وقوله لها: سبحانه الذي خلقك، فلم يعلم زيد ما أراد بذلك، فظنّ أنه قال ذلك لما أُعجب من حُسنها، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله، إنّ امرأتي في خُلقها سُوء، وإنّي أُريد أن أُطلّقها، فقال له النبيّ صلى الله عليه وآله: أمسك عليك زوجك، واتق الله، وقد كان الله عز وجل عرّفه عدد أزواجه، وأنّ تلك المرأة منهنّ، فأخفى ذلك في نفسه، وخشي الناس أن يقولوا: إنّ محمداً يقول لمولاه: إنّ امرأتك ستكون لي زوجةً، فيعيبونه بذلك» الخبر[1].

ثمّ بيّن الله علّة هذا التزويج بقوله: ﴿لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ وضيق ﴿فِـي﴾ حقّ تزويج ﴿أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ ونساء الذين تبنّوهم ﴿إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً﴾ ولم يبق لهم فيهنّ حاجة وطلّقوهن ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللهِ﴾ وما يُريد تكوينه ﴿مَفعُولاً﴾ ومكوّناً لا محالة، كما كان تزويج زينب للنبيّ صلى الله عليه وآله منه.

ثمّ أنه تعالى بعد بيان عدم الحرج على المؤمنين في ذلك التزويج، وأنّه حُكم الاسلام، نفي الحَرج فيه عن النبي صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿مَا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ شيءٌ ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾ وضيقٍ ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللهُ﴾ وقسمه ﴿لَهُ﴾ وحكم بجوازه وقدره من تزويج زينب، فانّ التزويج ليس من خصائصه، بل كان ﴿سُنَّةَ ٱللهِ﴾ وطريقته المسلوكة ﴿فِي﴾ الأنبياء ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْا﴾ ومضوا من الدنيا ﴿مِن قَبْلُ﴾ فانّ داود ـ على ما قيل ـ كان له مائة مَهيرة، وثلاثمائة سُرّية[2]، وسليمان كانت له ثلاثمائة مَهيرة، وسبعمائة سُرية[3] ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللهِ﴾ وحكمه ﴿قَدَراً مَّقْدُوراً﴾ وقضاءً مقضياً، وحكماً قطعياً لا يغيّر، فانّ أُولـئك الأنبياء هـم ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ﴾ إلى النّاس ﴿رِسَالاَتِ ٱللهِ﴾ وأحكامه ومعارفه ﴿وَيَخْشَوْنَهُ﴾ وحده ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا ٱللهَ﴾ فلا تَخْشَ يا محمد غيره، وأنت سيّدهم وخاتمهم ﴿وَكَفَىٰ بِاللهِ﴾ الذي هـو أحسب الحاسبين ﴿حَسِيباً﴾ ومحاسباً لعبادة على أعمالهم، ومجازياً لهم عليها، فلا ينبغي أن يُخشى إلّا منه في أمر النكاح وغيره إذا علم رضاه به وحكمه فيه.

رُوي أنّ كَثرة الرَّفت ـ أو النكاح ـ من سُنن الأنبياء[4].

---

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٠٣/١، تفسير الصافي ٤: ١٩٢.

٢. المَهيرة: الحُرّة الغالية المهر، والسُّرّية: الجارية المملوكة.

٣. تفسير أبي السعود ٧: ١٠٥، تفسير روح البيان ٧: ١٨٢.

٤. مجمع البيان ٨: ٥٦٦، تفسير روح البيان ٧: ١٨٣.

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «حُبّب إليّ من دنياكم ثلاث: الطِّيب، والنساء، وقُرّة عيني في الصلاة». قيل: إنّه ليس عبادة باقية من عهد آدم إلى الجنّة إلّا الإيمان والنّكاح[1].

مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِّجَالِكُمْ وَلٰكِن رَّسُولَ ٱللهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّينَ وَكَانَ ٱللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً[٤٠]

ثمّ لمّا كان من حُكم العرب أنّ نكاح زوجة الدعي كنكاح زوجة الولد الصُّلبي، واستطال لسان المنافقين على النبي صلى الله عليه وآله بعد نكاح زينب، أبطل الله ذلك الحُكم، وردّ المنافقين بقوله: **﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِّجَالِكُمْ﴾** بالنسب والولادة حتى يثبُت بينه وبينه ما يكون بين الوالد وولده من حُرمة المصاهرة، وإنّما هو أبو رجاله كالحسن والحسين وذُريّتهما **﴿وَلٰكِن﴾** هو أشفق عليكم من الأب الشفيق حيث إنّه يكون **﴿رَّسُولَ ٱللهِ﴾** ومظهر رحمته التي تكون رحمة الأُبوة رشحةً من رشحاتها، بل كان هو آخر الرسل **﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّينَ﴾** الذي لا يرجو أن يجيىء بعده نبيّ يبيّن للناس ما هو صلاحهم وخيرهم، ويُكمِل لهم دينهم ونفوسهم، فلا محالة يكون اهتمامه في بيان صلاح أهل العالم الى يوم القيامة أكثر، وشفقته عليهم أشدّ **﴿وَكَانَ ٱللهُ﴾** عالماً بلياقته لهذه الدرجة العظيمة التي رَفَعه إليها لكونه **﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾** من مخلوقاته وأحوالهم واستعداداتهم **﴿عَلِيماً﴾** ومحيطاً.

وقد تواتر من طرق العامة والخاصة أنّه صلى الله عليه وآله قال لعليّ عليه السلام: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنّه لا نبي بعدي»[2] فلو ادعَى أحدٌ بعده النبوّة، فهو كاذب، ولو جعل الأرض سماءً والسماء أرضاً، فضلاً عن أن يدّعي فوق مرتبة النبوة، كما نسبه الطائفة الضالّة البهائية إلى رئيسهم.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱذْكُرُوا ٱللهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً[٤١ و ٤٢]

ثمّ لمّا ذكر الله سبحانه نعمة رسالة الرسول، وخاتميته، وشفقته، أمر المؤمنين بذكره وثنائه شكراً على نعمته بقوله: **﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾** اشكُروا الله على إنعامه عليكم بتكميل دينكم، وجعلكم اُمّة أشرف الأنبياء و**﴿ٱذْكُرُوا ٱللهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾** رُوي عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «إنّ هذه القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد» قيل: يا رسول الله،فما جلاؤها؟ قال: «تلاوة كتاب الله، وكَثْرة ذكره»[3].

---

١. تفسير روح البيان ٧: ١٨٣.

٢. صحيح البخاري ٥: ٢٠٢/٨٩، صحيح مسلم ٤: ٢٤٠٤/١٨٧٠، سنن الترمذي ٥: ٣٧٣٠/٦٤٠، مستدرك الحاكم ٢: ٣٣٧، مسند أحمد ١: ١٧٣ و١٧٥ و١٨٢ و١٨٤ و٣٣١.

٣. تفسير روح البيان ٧: ١٩١.

وعن الصادق عليه السلام: «ما من شيءٍ إلّا وله حدّ ينتهي إليه إلّا الذكر، فليس له حدّ ينتهي إليه ـ إلى أن قال ـ فانّ الله لم يَرضَ منه بالقليل، ولم يجعل حدّاً له ينتهي إليه» ثمّ تلا هذه الآية[1].

وعنه عليه السلام: «شيعتنا الذين إذا خلوا ذكروا الله كثيراً»[2].

وعنه عليه السلام: «تسبيح فاطمة الزهراء من الذكر الكثير الذي قال الله ﴿اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾»[3].

ثمّ لمّا كان التسبيح أفضل الأذكار خصّه بالأمر بقوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ ونزّهوه من النقائص والشرك والولد ﴿بُكْرَةً﴾ وأوّل النهار ﴿وَأَصِيلاً﴾ وآخره. قيل: إنّ الوقتين أفضل الأوقات[4]. وقيل: هما كناية عن تمام النهار[5].

هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً * تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً[٤٣ـ٤٤]

ثمّ بالغ سبحانه في ترغيبهم إلى ذكره بقوله: ﴿هُوَ﴾ الله ﴿الَّذِي يُصَلِّي﴾ ويعطِف ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في الدنيا بالرحمة الخاصة ﴿وَمَلَائِكَتُهُ﴾ تصلّي وتعطِف عليكم بالاستغفار والدعاء وإصلاح اُموركم ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ برحمته وصلاته ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ الواقعية كالجهل والكفر والمعاصي والأخلاق الرذيلة ﴿إِلَى النُّورِ﴾ الذي صورته في هذا العالم العلم والايمان والطاعة والأخلاق الحميدة ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين ﴿رَحِيماً﴾ حيث اعتنى بصلاحهم وتعلية قدرهم.

عن السُّدّي: قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: أيصلّي ربنا؟ فكبُر عليه هذا الكلام، فأوحى الله إليه: أن قل لهم إنّي اُصلّي، وإنّ صلاتي رحمتي التي تُطفئ غضبي[6].

عن الصادق عليه السلام: من صلّى على محمدٍ وآل محمدٍ عشراً، صلّى الله عليه وملائكته مائة، ومن صلى على محمدٍ وآل محمدٍ مائة مرة، صلّى الله عليه وملائكته ألفاً، أما تسمع قول الله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي﴾؟» الآية[7].

ثمّ ذكر الله لُطفه بهم في الآخرة بقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ وإكرامهم حين الورود ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ وحين يُبْعَثُون كما عن أمير المؤمنين عليه السلام[8] ﴿سَلَامٌ﴾ من الله، أو سلام ملائكته، أو السلامة من كلّ مكروه

---

١. الكافي ٢: ١/٣٦١، تفسير الصافي ٤: ١٩٤.
٢. الكافي ٢: ٢/٣٦٢، تفسير الصافي ٤: ١٩٤.
٣. الكافي ٢: ٤/٣٦٣، تفسير الصافي ٤: ١٩٤.
٤. تفسير أبي السعود ٧: ١٠٦، تفسير روح البيان ٧: ١٩٢، تفسير الصافي ٤: ١٩٤.
٥. تفسير روح البيان ٧: ١٩٢.
٦. تفسير روح البيان ٧: ١٩٣.
٧. الكافي ٢: ١٤/٣٥٨، تفسير الصافي ٤: ١٩٤.
٨. التوحيد: ٢٦٧، تفسير الصافي ٤: ١٩٤.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً﴾ وثواباً ﴿كَرِيماً﴾ مرضياً، وهو الجنّة ونعمه الدائمة.

يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى ٱللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً * وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللهِ فَضْلاً كَبِيراً * وَلَا تُطِعِ ٱلْكَافِرِينَ وَٱلْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللهِ وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلاً[٤٥-٤٨]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان لُطفه بالمؤمنين، وترغيبهم في الذّكر والعبادة، بيّن لُطفه بالنبيّ ﷺ وحثّه على أداء وظيفة الرسالة ومداراته للناس بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ إلى الناس لتكون ﴿شَاهِداً﴾ يوم القيامة على إيمانهم وطاعتهم، وكفرهم وعصيانهم ﴿وَمُبَشِّراً﴾ لأهل الايمان والطاعة بالجنّة والنّعم الدائمة ﴿وَنَذِيراً﴾ لأهل الكفر والعصيان بالنار والعذاب الدائم ﴿وَدَاعِياً﴾ لعموم الناس ﴿إِلَىٰ﴾ توحيد ﴿ٱللهِ﴾ ومعرفته وطاعته ﴿بِإِذْنِهِ﴾ وأمره وتيسيره ﴿وَسِرَاجاً مُّنِيراً﴾ يُستضاء به في ظُلمات الجهل والغَواية، ويهتدي بنوره إلى قُرب الله ونِعم الآخرة، فراقب أحوال اُمّتك ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ منهم ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾ وزيادةً كثيرةً على سائر الأمم في الرُّتبة والشرف، أو على أجر أعمالهم ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَافِرِينَ وَٱلْمُنَافِقِينَ﴾ وذمّ على مخالفتهم وترك اتّباع آرائهم.

قيل: فيه مبالغة في الزّجر عن مداراتهم في أمر الدعوة، واستعمال لين الجانب في التبليغ، والمسامحة في الإنذار[1].

﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ ولا تعتنِ بتُرّهاتهم في شأنك، ولا تَخَف من إضرارهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللهِ﴾ وفوّض اُمورك إليه ﴿وَكَفَىٰ بِاللهِ﴾ وحسبك خالق كلّ شيءٍ من حيث كونه ﴿وَكِيلاً﴾ ومُفوّضاً إليه الاُمور، ومُعتمداً عليه، فانّ من عرف كفاية الله له في كلّ أمرٍ، وتَكَفُّله لمصالحه، استراح قلبه، واكتفى به في جميع اُموره، ولم يُدبر معه.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً[٤٩]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان وظيفة النبيّ مع الله، وهو التقوى وترك طاعة غيره، واتّباع وحيه، ووظيفته مع أزواجه، وهي تخييرهنّ في البقاء معه وفِراقه، ووظيفته مع الناس، وبيان وظيفة المؤمنين مع الله، وهي إكثار ذكره، بيّن وظيفتهم مع أزواجهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ﴾ النساء ﴿ٱلْمُؤْمِنَاتِ﴾

---

١. تفسير أبي السعود ٧: ١٠٨، تفسير الصافي ٧: ١٩٩.

وتزوّجتموهنّ ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ وتدخُلوا بهنّ ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ﴾ حقّ ﴿عِدَّةٍ﴾ ومُدّة تَربّص يحِلّ لها التزويج بعد انقضائها ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾ وتستوفون عددها من الأيام والأشهر، أو الأقراء ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ وأعطوهنّ من أموالكم ما ينتفعن به ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾ وأرسلوهن إلى منازلهنّ ﴿سَرَاحاً﴾ وإرسالاً ﴿جَمِيلاً﴾ لا ضرر فيه عليهنّ ولا إيذاء أو منع حقّ.

عن الصادق عليه السلام في رجلٍ طلّق امرأته قبل أن يدخُل بها، قال: «عليه نصف المَهْر إن كان فرض لها شيئاً، وان لم يكن فرض لها شيئاً فليمتّعها على نحو ما يُمتّع به مثلها من النساء»[١].

وعن الباقر عليه السلام في هذه الآية قال: «متّعوهن: أي أعطوهنّ[٢] ما قَدَرتُم عليه من معروفٍ، فانهنّ يرجِعن بكآبةٍ ووحشةٍ وهمٍّ عظيمٍ وشَماتة من أعدائهنّ، فانّ الله كريمٌ، يستحي ويُحِبّ أهل الحياء، إنّ أكرمكم أشدّكم إكراماً لحلائلهم»[٣].

يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ٱللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ ٱللهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ ٱللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً رَّحِيماً [٥٠]

ثمّ أنّه تعالى بعد أمر نبيّه صلّى الله عليه وآله بتسهيل الأمر على أزواجه بتخييرهنّ في البقاء معه وفِراقه، منّ عليه بتسهيل أمر التزويج عليه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّا﴾ مننّا عليك بتسهيل أمر التزويج عليك حيث ﴿أَحْلَلْنَا﴾ وأبنا ﴿لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ والنساء اللّاتي في حِبالة نكاحك خصوصاً ﴿ٱللَّاتِي آتَيْتَ﴾ وأعطيتهنّ ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ ومُهورهنّ ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ بالسبي، أو الهِبة، أو الشِّراء، سيما إذا كنّ ﴿مِمَّا أَفَاءَ ٱللهُ﴾ وأرجعهن بالأسر ﴿عَلَيْكَ﴾ فانّ قلبك بالصنفين الخاصّين أطيب ﴿وَ﴾ كذا ﴿بَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ﴾ كزينب بنت جحش، فانّها بنت أُمية بن عبدالمطلب ﴿وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ﴾ خصوصاً ﴿ٱللَّاتِي هَاجَرْنَ﴾ من مكّة إلى المدينة ليكُنّ ﴿مَعَكَ﴾ وفي جوارك، فانّ

١. الكافي ٦: ٣/١٠٦، تفسير الصافي ٤: ١٩٥.
٢. في من لا يحضره الفقيه والتهذيب: جملوهن، وفي الصافي: احملوهن.
٣. من لا يحضره الفقيه ٣: ١٥٨٠/٣٢٧، التهذيب ٨: ٤٨٨/١٤١، تفسير الصافي ٤: ١٩٥.

المهاجرات منهنّ أليق بمزاوجتك ﴿وَ﴾ كذا أحللنا لك ﴿ٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً﴾ من المؤمنات ﴿إِنْ﴾ اتفق أنها ﴿وَهَبَتْ نَفْسَهَا﴾ وبُضعها ﴿لِلنَّبِيِّ﴾ بلا مهر وأجر، وهي إنّما تحِلّ لك ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ وطلب ملك بُضعها بلا مهر.

وفي الالتفات من الخطاب الى الغَيبة، إيذانٌ بأنّ الحكم مختصٌّ به عليه السلام، لشرف النبوة، كما صرّح به بقوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ وجعلنا حلّيتها بالهبة مختصّة بك ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فانّ الإحلال لهم مشروطٌ بإنشاء النكاح بلفظه، أو بلفظ التزويج في الدائم، وبأحدهما أو بلفظ التمتيع في المنقطع، ولا يكون بلا مهر أبداً، وهذا هو الذي أشار بقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا﴾ وأوجبنا ﴿عَلَيْهِمْ فِي﴾ حقّ ﴿أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من الأحكام، وإنّما أحللنا عليك النساء، وخصّصناك بتلك الخصائص ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ وضِيقٌ في أمر النكاح ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً﴾ وسَتوراً لما يصدُر من عباده ممّا يعسُر التحرُّز منه ﴿رَحِيماً﴾ ومُنعماً عليهم بالتوسعة والتسهيل في الأحكام.

عن ابن عباس: لم يكُن عند النبيّ صلى الله عليه وآله امرأة إلّا بعقد نِكاح أو مِلك يمين[١].

وقيل: إنّه كانت عنده الموهوبة نفسها، وهي ميمونة، خالة عبدالله بن عباس، خطبها النبي صلى الله عليه وآله فلمّا جاءها الخاطب وهي على بعيرها، فقالت: البعير وما عليه لرسول الله صلى الله عليه وآله[٢].

وقيل: هي زينب بنت خُزيمة الأنصارية، وماتت في حياته صلى الله عليه وآله[٣].

وقيل: هي أمّ شُريك بنت جابر الأسدية، واسمها غزية، ولم يَقْبَلها، وقيل: قَبِلها ثمّ طَلّقها قبل أن يدخُل بها[٤].

وعن ابن عباس: أنّها أقبلت إلى النبي صلى الله عليه وآله فوهبت نفسها له بغير مهر، فقَبِلها ودخل عليها[٥].

أقول: وعليه يكون المراد من قوله الأول حين وفاته.

وعن الباقر عليه السلام: «جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو في منزل حَفْصَة، والمرأة متلبّسة متمشّطة فقالت: يا رسول الله، إنّ المرأة لا تخطُب الزوج، وأنا أمرأة أيّم لا زوج لي منذ دهرٍ ولا ولد، فهل لك من حاجةٍ، فان يكُ فقد وهبتُ نفسي لك إن قبلتني. فقال لها رسول الله خيراً، ودعا لها، ثمّ قال: يا أُخت الأنصارن جزاكم الله عن رسول الله خيراً، فقد نصرني رجالكم، ورغبت فيّ نساؤكم. فقالت لها حَفْصة: ما أقلّ حياءك وأجرأك وأنهمك للرجال! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: كُفّي عنها يا حَفْصة، فانّها خيرٌ منك، رَغِبت في رسول الله فلمْتِها وعِبتِها. ثمّ قال للمرأة: انصرفي رحمك الله،

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٢٠٥.
٢. تفسير روح البيان ٧: ٢٠٦.
٣. تفسير روح البيان ٧: ٢٠٦.
٤ و٥. تفسير روح البيان ٧: ٢٠٦.

فقد أوجب الله لكِ الجنة لرغبتك فيّ، وتعرّضك لمحبّتي وسُروري، سيأتيك أمري إن شاء الله تعالى، فأنزل الله تعالى ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً﴾ الآية. قال: فأحلّ الله عزّ وجلّ هِبة المرأة لرسول الله ﷺ، ولا يحِلّ ذلك لغيره»[1].

وعن القمي ما يقرّب منه إلّا أنّه حكى اللوم عن عائشة، وقال في آخره: «فلا تحِلّ الهِبة إلّا لرسول الله ﷺ»[2].

تُرْجِى مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِى إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكَ ذٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلاَ يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللهُ عَلِيماً حَلِيماً[٥١]

ثمّ بالغ سبحانه في التوسعة على رسوله ﷺ في النكاح والطلاق وحقوق الأزواج بقوله: ﴿تُرْجِى﴾ وتؤخّر ﴿مَن تَشَاءُ﴾ إرجاءها وتأخيرها ﴿مِنْهُنَّ﴾ بأن تترك نكاحها، أو تطلّقها، أو تترك مُضاجعتها وقسمها ﴿وَتُؤْوِى﴾ وتَضمّ ﴿إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ ضمّها وتقريبها منهنّ بالنكاح وإبقاءها فيه، وقسمها ومضاجعتها ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ﴾ وطلبت نِكاحها، أو إمساكها، أو قسمها ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ وتركت نكاحها أو طلّقتها، أو تركت القسمة لها ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ ولا إثم ولا لوم ﴿عَلَيْكَ﴾ لأنّ الاختيار في أمرهنّ بيدك و ﴿ذَٰلِكَ﴾ التخيير وتفويض الأمر إلى مشيئتك ﴿أَدْنَىٰ﴾ وأقرب إلى ﴿أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ وتسرّ قلوبهن بمعاملتك معهنّ ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ بترجيح بعضهنّ على بعضٍ ﴿وَ﴾ إلى أن ﴿يَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ من النفقة والقسمة والمضاجعة، وتطيب نفوسهنّ به، لتعلمهنّ بأن جميع معاملتك معهنّ بحكم الله وإرادته، فان سوّيت بينهنّ فبتفضّلك، وإن رجّحت بعضهنّ فبطاعتك لله، لا بهوى نفسك.

قيل: إنّه ﷺ قبل نزول الآية كان يسوّي بين أزواجه في جميع الأمور، فلمّا نزلت اعتزل من خمسة، وآوى إليه أربعة: عائشة، وحَفْصَة، وأُمّ سَلَمة، وميمونة[3].

وقيل: إنّه بعد نزولها أيضاً كان يُسوّي بينهنّ غير سَوْدة، فانّها وهبت ليلتها لعائشة، وقالت: يا رسول الله، لا تُطلّقني حتى أُحشر يوم القيامة في عِداد أزواجك[4].

قيل: لمّا انسلخت نفسه عن صفاتها، واتّصفت بصفات القلب ـ ولذا قال: «أسلم شيطاني بيدي» ولا

---

١. الكافي ٥: ٥٣/٥٦٨، تفسير الصافي ٤: ١٩٦.
٢. تفسير القمي ٢: ١٩٥، تفسير الصافي ٤: ١٩٦.
٣. تفسير أبي السعود ٧: ١١٠، تفسير روح البيان ٧: ٢٠٧ و٢٠٨.
٤. تفسير أبي السعود ٧: ١١٠، تفسير روح البيان ٧: ٢٠٨.

يقول يوم القيامة: نفسي نفسي ـ اتّصفت دنياه بصفات الآخرة ـ ولذا حلّ له في الدنيا ما يَحلّ لغيره في الآخرة[١] من تزويج الزائد على الأربع، وترك القسمة بينهنّ وسائر الخصائص.

ثمّ هدّد الرجال والنساء على سوء الظنّ به وبمخالفته بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ من الضمائر والخطورات ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً﴾ بكلّ ما تُبدونه وتُخفونه ﴿حَلِيماً﴾ غير عجولٍ في العقوبة، فلا تغترّوا بتأخيرها، فانّ العجلة ممّن يخاف الفوت.

لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً[٥٢]

ثمّ لمّا اخترن الرسول ﷺ بعد تخييرهنّ، ورضين بما اختاره في حقّهن، شكر الله لهنّ بقوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَاءُ﴾ ولا يجوز تزويجهنّ ﴿مِن بَعْدُ﴾ التسع اللاتي خيّرتهنّ فاخترنك ورضين بمعاملتك معهنّ بما شئت، وهن: عائشة، وحَفْصَة، وأُمّ سَلَمة، وزينب بنت جَحْش، وميمونة بنت الحارث، وأُمّ حبيبة بنت أبي سفيان، وصفية، وجويرية، وسَودة. وأفضلهنّ أُمّ سَلَمة، وميمونة. أو من بعد اليوم، فلو ماتت إحداهنّ لم يَحِلّ له نكاح أُخرى ﴿وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ بأن تُطلّق إحداهنّ وتتزوّج مكانها غيرها كرامةً لهنّ وجزاءً على اختيارهنّ الله ورسوله والدار الآخرة، ورضين بما آتيتهنّ، فلا يجوز لك تزويج غيرهنّ من النساء ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ وجمالهنّ.

عن ابن عباس: هي أسماء بنت عُميس، كانت امرأة جعفر بن أبي طالب، فانّه لمّا استشهد أراد رسول الله ﷺ أن يخطُبها، فنهاه الله عن ذلك، فتركها فتزوّجها أبو بكر بإذن رسول الله ﷺ[٢].

وقيل: هي حَبَابَة أُخت الأشعث بن قيس[٣].

ولمّا كانت الأزواج شاملةً للاماء استثناهنّ بقوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ من الإماء، فانّه يحِلّ لك التّسرّي بهنّ. وقيل: إنّ الاستثناء منقطعٌ، لعدم شمول الأزواج إلّا المنكوحات بالعقد[٤].

وعن مجاهد: المراد من الآية لا يحِلّ لك النساء من اليهوديات والنصرانيات من بعد المسلمات، ولا أن تُبدّل بالمسلمات غيرهنّ من اليهود والنصارى، فانّه لا تكون أمّ المؤمنين يهودية ولا نصرانية إلّا ما ملكت يمينك من الكتابيات أن تتسرّى بهنّ[٥].

وقيل: إنّ المراد من قوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَاءُ﴾ المحرّمات التسع المذكورة في سورة النساء[٦].

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٢٠٨.
٢ ـ٥. تفسير روح البيان ٧: ٢١٠.
٦. تفسير الصافي ٤: ١٩٨.

عن الباقر عليه السلام، قال: «إنّما عنى به لا يحِلّ لك النساء اللّاتي حرّم الله عليك في هذه الآية ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ إلى آخرها، ولو كان الأمر كما يقولون كان قد أحلّ لكم ما لم يحِلّ له، لأنّ أحدكم يستبدل كلّما أراد، ولكن الأمر ليس كما يقولون، إنّ الله عز وجل أحلّ لنبيه صلى الله عليه وآله أن ينكِح من النساء ما أراد إلّا ما حرّم في هذه الآية في سورة النساء»[١] ومثله روي عن الصادق عليه السلام[٢].

وقيل: هذه الآية منسوخةٌ بقوله: ﴿تُرْجِى مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِى إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾[٣].

وعن عائشة: أنّها قالت: ما فارق رسول الله صلى الله عليه وآله من الدنيا حتى حلّ له ما أراد من النساء[٤].

وقيل: إنها منسوخةٌ بقوله: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ الآية[٥] ونُسب ذلك إلى أصحابنا.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أحوال خلقه ومصالحهم ﴿رَقِيباً﴾ ومحافظاً، لا يُمكن أن يغفَل ويذهَل عنها.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ ٱلْحَقِّ [٥٣]

ثمّ لمّا بيّن الله سبحانه أدب عشرة النبيّ صلى الله عليه وآله مع عموم الناس وخصوص أزواجه، علّم المؤمنين أدب دخولهم في بيته، ومكالمتهم أزواجه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ وحُجراته في حال من الأحوال ﴿إِلَّا أَن يُؤْذَنَ﴾ ويُعلَن ﴿لَكُمْ﴾ وتُدْعَون ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ وغذاء تأكُلون منه، فحينئذٍ جاز لكم الدخول، وكذا لا تَدْخُلوها إلّا إذا كنتم ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ﴾ وحال كونكم غير منتظرين ﴿إِنَاهُ﴾ ووقته وإدراكه.

رُوي أن ناساً من المؤمنين كانوا ينتظرون وقت طعام رسول الله صلى الله عليه وآله فيدخُلون ويقعُدون إلى حين إدراكه[٦]. وعليه يكون النهي عن الدخول بغير إذن مخصوصاً بالداخلين إلى طعام، ولذا قيل: إن في الكلام تقديماً وتأخيراً، والمعنى: لا تدخُلوا إلى طعامٍ إلّا أن يُؤذَن لكم[٧].

وقيل: إنّ المراد عدم جواز الدخول بغير إذن خصوصاً إذا كان الدخول للطعام، ويكون النهي عن

---

١. الكافي ٥: ٣٨٩/٤، تفسير الصافي ٤: ١٩٨.
٢. الكافي ٥: ٣٨٨/١ و٢، تفسير الصافي ٤: ١٩٨.
٣. تفسير أبي السعود ٧: ١١١.
٤. تفسير الرازي ٢٥: ٢٢٣، تفسير أبي السعود ٧: ١١١.
٥. تفسير الرازي ٢٥: ٢٢٣، تفسير أبي السعود ٧: ١١١.
٦. تفسير روح البيان ٧: ٢١٣.
٧. تفسير الرازي ٢٥: ٢٢٤.

الدخول إلى الطعام من باب النهي عن قول ﴿أُفٍّ﴾ المستلزم للنهي عن الضرب[١].

عن الصادق عليه السلام: «كان جبرئيل إذا أتى رسول الله صلى الله عليه وآله قعد بين يديه قعدة العبد، وكان لا يدخل حتى يستأذن»[٢].

ثمَ لمّا كان النهي عن الدخول بغير إذن ربّما يُوجِب التأذّي والقطع بحيث لا يدخُل بعض المنافقين أصلاً ولو بالدعوة[٣]، أدرك إيجاب الدخول مع الدعوة بقوله: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ﴾ إلى طعام ﴿فَادْخُلُوا﴾ وجوباً حفظاً لحرمة النبي صلى الله عليه وآله وطاعته ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ﴾ وأكلتم الغذاء ﴿فَانتَشِرُوا﴾ وتفرّقوا وأنتم غير ماكثين لدرك حظّ حضور النبي صلى الله عليه وآله ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ﴾ بعضكم مع بعض ﴿لِحَدِيثٍ﴾ تتحدّثون به ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ الاستئناس بعد الأكل المستلزم لإطالة الجلوس ﴿كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾ ويؤلم قلبه الشريف، لتضييق المنزل عليه وعلى أهله، واشتغاله فيما لا يعينه ﴿فَيَسْتَحْيِي﴾ وينفعل ﴿مِنكُمْ﴾ أن يقول لكم: قوموا وأخرجوا ﴿وَاللَّهُ﴾ يأمُركم بالخروج من منزله، وينهاكم عن الاستئناس وإطالة الجلوس عنده، و﴿لَا يَسْتَحْيِي مِنَ﴾ قول ﴿الْحَقِّ﴾ ولا يرى على نفسه فيه عيباً.

روى الفخر: أن بعض الصحابة أطال الجلوس والمكث يوم وليمة النبيّ صلى الله عليه وآله في عُرس زينب بنت جَحْش، ولم يقُل النبي صلى الله عليه وآله له شيئاً، فنزلت الآية[٤].

وقال القمي: لمّا تزوّج رسول الله صلى الله عليه وآله بزينب بنت جَحْش، وكان يُحِبّها، فأولم ودعا الصحابة، وكان أصحابه إذا أكلوا يُحبّون أن يتحدّثوا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وكان يُحبّ أن يخلو، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية، وكانوا يدخُلون عليه بلا إذن[٥].

وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً[٥٣]

ثمَ بيّن الله أدب المكالمة مع أزواجه وطلب الماعون منهنّ عند الحاجة بقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ وطلبتم منهن ﴿مَتَاعاً﴾ وماعوناً تنتفعون به ﴿فَسْأَلُوهُنَّ﴾ ذلك المَتاع والماعون ﴿مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ وخلف السّتر، فانّ الصحابة قبل نزول الآية كانوا لا يُبالون أن يدخُلوا عليهنّ بغير حِجابٍ، فنهى الله عنه وعلّله بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ السؤال من وراء الحِجاب ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ﴾ من الخطورات

---

١. تفسير الرازي ٢٥: ٢٢٤.
٢. علل الشرائع: ٢/٧، تفسير الصافي ٤: ١٩٩.
٣. في النسخة: بالدعاء.
٤. تفسير الرازي ٢٥: ٢٢٥.
٥. تفسير القمي ٢: ١٩٥، تفسير الصافي ٤: ١٩٩.

النفسانية والهواجس الشيطانية ﴿وَقُلُوبِهِنَّ﴾ فانّ الرجل والمرأة إذا لم يَرَ أحدهما الآخر لم يقع في قلبه شيءٌ، بخلاف ما إذا رأى، فانّه لا يُؤمن أحدٌ على نفسه من الخواطر السيئة.

عن عائشة: أنّ أزواج النبي ﷺ كنّ يخرجن الليل لحاجتهنّ، فخرجت سَودة بنت زَمعة ليلة من الليالي عشياً، وكانت امرأةً طويلةً، فناداها عمر: ألا قد عرفناك يا سَودة، فأنزل الله آيه الحِجاب[١].

أقول: لا شُبهة أنّ في ندائه هذا إيذاء النبيّ ﷺ فنهى الله عنه بقوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ يصحّ ويستقيم ﴿لَكُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿أَن تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللهِ﴾ بالتعرّض لأزواجه في حياته ﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا﴾ أو تتزوّجوا ﴿أَزْوَاجَهُ﴾ اللاتي هنّ أمهاتكم ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ وبعد وفاته ﴿أَبَدًا﴾ وآخر الدهر، فانّ في نكاحهن توهينه ﷺ، وإيذاءً له، ومخالفةً لجعلهنّ أمّهاتكم من غير فرق بين المدخول بها والمطلّقة وغيرها، لصيرورتها بالعقد أمّاً للمؤمنين.

وروى العامة أنّ سبب نزولها أنّ طلحة بن عبيدالله قال: لئن مات محمد لأتزوّجن عائشة[٢]. وفي رواية قال: تزوّج محمد بنات عمّنا ويَحْجُبهنّ عنّا! والله لئن مات لأتزوّجن عائشة[٣]، فنزل ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللهِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ذٰلِكُمْ﴾ المذكور من إيذائه وتزويج أزواجه ﴿كَانَ عِندَ ٱللهِ﴾ ذنباً ﴿عَظِيماً﴾ وإثماً كبيراً لا أعظم منه ولا أكبر.

إِن تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً[٥٤]

ثمّ بالغ في التهديد عليهما بقوله: ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئاً﴾ وتُظهِروا قصد نكاحهنّ وإيذاءه، وإيذاء أولاده وأقاربه الذي هو إيذاؤه ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ في صدوركم وتُسرّوه في قلوبكم ﴿فَإِنَّ ٱللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ ممّا تُظهروه أو تُخفوه ﴿عَلِيماً﴾ وعليه مجازيكم.

والقمي، قال: كان سبب نزولها أنّه لمّا أنزل الله ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ وحرّم الله نساء النبي ﷺ على المسلمين، غضب طلحة فقال: يُحرّم محمد علينا نساءه ويتزوّج هو بنسائنا، لئن أمات الله محمداً لنركُضنّ بين خلاخيل نسائه كما ركض بين خلاخيل نسائنا، فأنزل الآية[٤].

وفي رواية: لمّا قُبِض رسول الله، وولي الناس أبو بكر، أتته العامرية والكندية، وهما مطلّقتا رسول الله ﷺ قبل الدخول، وقد خُطِبتنا، فاجتمع أبو بكر وعمر وقالا لهما: اختارا إن شئتما الحِجاب، وإن

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٢١٥.
٢. تفسير روح البيان ٧: ٢١٦.
٣. تفسير روح البيان ٧: ٢١٦.
٤. تفسير القمي ٢: ١٩٥، تفسير الصافي ٤: ١٩٩.

شئتما الباه، فاختارتا الباه، فتزوّجتا، فجُذِم أحد الزوجين، وجُنّ الآخر[١].

وعن أبي جعفر عليه السلام، قال: «ما نهى الله عزّ وجلّ عن شيءٍ إلّا وقد عُصي فيه حتى لقد نكحوا أزواج رسول الله من بعده» وذكر العامرية والكندية، ثمّ قال: «لو سألتم عن رجلٍ تزوّج امرأةً فطلقّها قبل أن يدخل، أتحلّ لابنه فقالوا: لا، فرسول الله أعظم حُرمةً من آبائهم»[٢].

وروي أنّ هذا الحُكم جارٍ في الوصيّ أيضاً[٣].

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِى آبَائِهِنَّ وَلاَ أَبْنَائِهِنَّ وَلاَ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلاَ نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللهَ إِنَّ ٱللهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً * إِنَّ ٱللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً[٥٥و٥٦]

ثمّ لمّا نهى الله عن سؤال الأزواج إلّا من وراء الحِجاب قال آباؤهنّ وأبناؤهنّ: أنحن كالأباعد؟ فنزلت: ﴿**لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِى آبَائِهِنَّ وَلاَ أَبْنَائِهِنَّ وَلاَ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلاَ نِسَائِهِنَّ**﴾ والحرائر المؤمنات منهنّ ﴿**وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ**﴾ من إمائهنّ.

ثمّ لتهييجهنّ على الطاعة خاطبهنّ بقوله: ﴿**وَٱتَّقِينَ ٱللهَ**﴾ فيما أُمرتنّ به من الاحتجاب، ولا تتجرين على العصيان في الخَلَوات ﴿**إِنَّ ٱللهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً**﴾ وعنده حاضراً وإليه ناظراً.

ثمّ بالغ سبحانه في إكرام نبيّه صلى الله عليه وآله وتعظيمه بقوله: ﴿**إِنَّ ٱللهَ وَمَلَائِكَتَهُ**﴾ في الملأ الأعلى ﴿**يُصَلُّونَ**﴾ ويعطِفون ﴿**عَلَى ٱلنَّبِيِّ**﴾ بالرحمة والثناء والتعظيم، وتعلية مقامه، وتشريفه بمزيد كرامته والدعاء والنُّصرة، وإنّما بدأ سبحانه بنفسه إظهاراً لشرفه، وترغيباً للأمّة إليها، فانّه إذا كان مصلّياً عليه مع استغنائه، كانت الأمّة أولى به، لاحتياجهم إلى شفاعته، ولذا قال: ﴿**يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا**﴾ به أنتم أيضاً ﴿**صَلُّوا**﴾ واعطِفوا ﴿**عَلَيْهِ**﴾ بالدعاء والتعظيم والثناء في الملأ الأدنى ﴿**وَسَلِّمُوا**﴾ وانقادوا له، أو حيّوة بالسلام ﴿**تَسْلِيماً**﴾ مناسباً، لشرف منزلته، وعلوّ مقامه.

قيل: إنّ تشريف الله محمداً صلى الله عليه وآله بالصلاة عليه بقوله: ﴿**إِنَّ ٱللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ**﴾ أشرف من تشريف آدم بالسجود[٤].

---

١ و٢. الكافي ٥: ٣/٤٢١، تفسير الصافي ٤: ٢٠٠.
٣. مناقب ابن شهر آشوب ٣: ٣٠٥، تفسير الصافي ٤: ٢٠٠.
٤. تفسير روح البيان ٧: ٢٢٣.

وقيل: إنّ الصلاة[١] على محمدٍ ﷺ أفضل العبادات، لأن الله تعالى تولّاها هو وملائكته، ثمَ أمر بها المؤمنين، وسائر العبادات ليس كذلك[٢]، وفي الحديث: «أنّ لله ملكاً أعطاه سَمْع الخلائق، وهو قائم على قبري إذا مُتّ إلى يوم القيامة، فليس أحدٌ من اُمّتي يصلّي عليّ صلاة إلّا قال: يا محمد، صلّى عليك فلان كذا وكذا، ويصلّي الربّ على ذلك الرجل بكلّ واحدةٍ عشراً»[٣].

وعن عبدالسلام بن نُعيم[٤]، قال: قلت لأبي عبدالله: إني أدخُل بيت الله ولا أعلمُ شيئاً إلّا الصلاة على النبي ﷺ فقال: «أما إنّه لم يخرُج أحد بأفضل ممّا خرجتَ به»[٥].

وعن كعب بن عُجْرة، قال: لمّا نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ قمنا إليه فقلنا: أمّا السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة عليك يا رسول الله؟ قال: قولوا: اللهم صلّ على محمدٍ وآل محمدٍ، كما صلّيت على إبراهيم وآل إبراهيم. إنّك حميد مجيد، وبارك على محمد وآل محمد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد»[٦].

والظاهر أنّ المراد من التشبيه هو في الصلاة والبركة، لا في المقدار والكيفية، بل المقدار والكيفية بمقدار الفضيلة.

عن الصادق عليه السلام أنّه سُئِل عن هذه الآية فقال: «الصلاة من الله رحمة، ومن الملائكة تزكية، ومن الناس الدعاء، وأمّا قوله: ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ يعني التسليم فيما ورد عنه».

قيل: فكيف نُصلّي على محمدٍ وآله؟ قال: «تقولون صلوات الله وصلوات ملائكته وأنبيائه ورسله وجميع خلقه على محمد وآل محمد، والسلام عليه وعليهم ورحمة الله وبركاته».

قيل: فما ثواب من صلّى على النبي وآله بهذه الصلاة؟ قال: الخروج من الذنوب كهيئته يوم ولدته اُمّه»[٧].

وعن الرضا عليه السلام في مجلسه مع المأمون، قال: «قد عَلِم المعاندون أنه لمّا نزلت هذه الآية قيل: يا رسول الله، قد عرفنا التسليم عليك، فكيف الصلاة عليك؟ فقال: تقولون: اللهم صلّ على محمد وآل محمد، كما صليت وباركت على إبراهيم وآل ابراهيم، إنّك حميد مجيد» الخبر[٨].

---

١. في النسخة: الصلوات.
٢. تفسير روح البيان ٧: ٢٢٤.
٣. تفسير روح البيان ٧: ٢٢٤.
٤. في النسخة: عبدالله بن نعيم، تصحيف راجع: معجم رجال الحديث ١٠: ٢١.
٥. ثواب الاعمال: ١٥٥، بحار الأنوار ٩٤: ٣٤/٥٧.
٦. مجمع البيان ٨: ٥٧٩، تفسير روح البيان ٧: ٢٢٥.
٧. معاني الأخبار: ١/٣٦٧، تفسير الصافي ٤: ٢٠١.
٨. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/٢٣٦، تفسير الصافي ٤: ٢٠١.

وعن الباقر عليه السلام: «صل على النبي كلّما ذكرته، أو ذكَره ذاكرٌ عندك، في أذان وغيره»[١].

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً[٥٧]

ثمّ أنّه تعالى أوضح فضيلة المكرمين لرسوله صلى الله عليه وآله والمسلّمين له، وعلوّ مقامهم وكرامتهم عليه، ببيان سوء حال المؤذين له بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ بترك طاعته ﴿وَ﴾ يؤذون ﴿رَسُولَهُ﴾ بتوهينه باللّسان والجوارح، أو المراد يؤذون الله بإيذاء رسوله وإيذاء عِترته وأولاده ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وأبعدهم من رحمته ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ بحيث لا يكاد ينالون منها فيهما شيئاً ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ مع ذلك في الآخرة ﴿عَذَاباً مُّهِيناً﴾ لتوهينهم بالرسول صلى الله عليه وآله.

وقيل: إنّ اللعن بأزاء إيذاء الله، والعذاب بأزاء إيذاء الرسول[٢].

القمي، قال: نزلت فيمن غصب أمير المؤمنين عليه السلام حقّه، وأخذ حقّ فاطمة عليها السلام وآذاها، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من آذاها في حياتي كمن آذاها بعد موتي، ومن آذاها بعد موتي كمن آذاها في حياتي، ومن آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله» وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[٣].

وعن علي عليه السلام، أنّه قال وهو آخذٌ بشعره: «حدّثني رسول الله صلى الله عليه وآله وهو آخذٌ بشعره، فقال: من آذى شعراً منك فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فعليه لعنة الله»[٤].

وعن الصادق عليه السلام، قال: «أخّر رسول الله صلى الله عليه وآله ليلة من الليالي العِشاء الآخرة ما شاء الله، فجاء عمر فدقّ الباب، فقال: يا رسول الله، نام النساء، نام الصبيان، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: ليس لكم أن تؤذوني ولا تأمُروني، إنّما عليكم أن تسمعوا وتُطيعوا»[٥].

وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً[٥٨]

ثمّ أنّه تعالى بعد تعظيم الرسول صلى الله عليه وآله بتقرين إيذائه بإيذاء ذاته المُقدّسة، عظّم المؤمنين بتقرين إيذائهم بإيذاء رسوله بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ﴾ إذا كان إيذاؤهم ﴿بِغَيْرِ مَا

---

١. من لا يحضره الفقيه ١: ٨٧٥/١٨٥، الكافي ٣: ٧/٣٠٣، تفسير الصافي ٤: ٢٠٢.
٢. تفسير الرازي ٢٥: ٢٢٨.
٣. تفسير القمي ٢: ١٩٦، تفسير الصافي ٤: ٢٠٢.
٤. مجمع البيان ٨: ٥٨٠، تفسير الصافي ٤: ٢٠٣.
٥. التهذيب ٢: ٨١/٢٨، تفسير الصافي ٤: ٢٠٣.

﴿ٱكْتَسَبُوا﴾ وبلا جُرمٍ وجنايةٍ موجبةٍ للقِصاص والحدّ والتعزير ارتكبوا.

رُوي أنّ الزُّناة كانوا يتّبعون النساء إذا بَرَزن بالليل لطلب الماء، أو لقضاء حوائجهنّ، وكانوا لا يتعرّضون إلّا للإماء، وربما يتعرّضون للحرائر أيضاً جهلاً أو تجاهلاً، لاتّحاد الكُلّ في اللباس، حيث كانت تخرُج الحُرّة والأمة في دِرعٍ وخِمار[١].

ورُوي أنّ المنافقين كانوا يُؤذون علياً عليه السلام ويُسمعونه ما لا خير فيه[٢] ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلوا﴾ واكتسبوا، أو جعلوا على ظهورهم ﴿بُهْتَاناً﴾ وافتراءً، ونسبة فعل القبيح إليهم كذباً ﴿وَإِثْماً﴾ وذنباً ﴿مُّبِيناً﴾ وظاهراً.

وقيل: إنّ المراد بالبُهتان عقوبته، وقيل: إنّه كنايةٌ عن الظلم، أو المعصية التي يكون عِظَمها كعِظَم معصية البُهتان[٣].

وقيل: إنّه كناية عن الايذاء اللساني والقولي، والإثم عن الإيذاء اليدي والعملي[٤].

وعن القمي: يعني علياً وفاطمة عليهما السلام وهي جارية في الناس كلّهم[٥].

وفي الحديث القُدسي: «من آذى ولياً لي، فقد بارزني بالمحاربة»[٦].

وعن الصادق عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: أين المؤذون لأوليائي؟ فيقوم قومٌ ليس على وجوههم لحمٌ، فيقال[٧]: هؤلاء الذين آذوا المؤمنين، ونصبوا لهم وعاندوهم، وعنّفوهم في دينهم، ثمّ يُؤمر بهم إلى جهنم»[٨].

وعن الباقر عليه السلام: «الناس رجلان: مؤمن، وجاهل، فلا تُؤذوا المؤمن، ولا تجهل على الجاهل، فتكون مثله»[٩].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله: «من بَهَت مؤمناً أو مؤمنة، أُقيم في طينة خَبال، أو يخرُج ممّا قال»[١٠].

وفي رواية: ما طينة خَبال؟ قال: «صديدٌ يخرُج من فُروج المُومسات»[١١].

يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن

---

١. تفسير أبي السعود ٧: ١١٥، تفسير روح البيان ٧: ٢٣٨.
٢. تفسير أبي السعود ٧: ١١٥، تفسير روح البيان ٧: ٢٣٨.
٣. تفسير روح البيان ٧: ٢٣٩.
٤. تفسير الرازي ٢٥: ٢٣٠.
٥. تفسير القمي ٢: ١٩٦، تفسير الصافي ٤: ٢٠٣.
٦. تفسير روح البيان ٧: ٢٣٩.
٧. في النسخة: فمن.
٨. الكافي ٢: ٢/٢٦٢، تفسير الصافي ٤: ٢٠٣.
٩. الخصال: ٥٧/٤٩، تفسير الصافي ٤: ٢٠٣.
١٠. تفسير القمي ٢: ١٩، تفسير الصافي ٤: ٢٠٣.
١١. الكافي ٢: ٥/٢٦٦، تفسير الصافي ٤: ٢٠٣.

جَلاَبِيبِهِنَّ ذٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً رَّحِيماً[٥٩]

ثمّ لمّا كان من أنحاء إيذاء المؤمنين والمؤمنات تعرّض المنافقين وأهل الفجُور للمؤمنات في الطُّرق، وإيذاؤهنّ باحتمال أنهنّ من الإماء الزانيات، كما مرّ، أمر الله سبحانه النبي ﷺ بأن يأمُرهنّ بالتحجّب بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِأَزْوَاجِكَ﴾ اللاتي هنّ في حِبالة نِكاحك ﴿وَبَنَاتِكَ﴾ وهنّ على ما قيل: زينب، ورقية، وأمّ كلثوم، وفاطمة عليها السلام[1] ﴿وَنِسَاءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بك في المدينة: إنّهنّ ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ﴾ ويُقرّبن إليهنّ بعضاً ﴿مِن جَلاَبِيبِهِنَّ﴾ وأثوابهنّ التي هي أوسع من الخِمار، ويغطين بها وجوههنّ وأبدانهنّ حين الخروج من بيوتهنّ، ولا يخرُجن مكشّفات الوجوه كالإماء ﴿ذٰلِكَ﴾ التغطّي وإدناء الجِلباب ﴿أَدْنَىٰ﴾ وأقرب إلى ﴿أَن يُعْرَفْنَ﴾ بالحرية والعفّة، ويميّزن من الإماء والفتيات اللاتي يكنّ مقصودات بالتعرّض ومتوقّعات للزنا ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ أولئك المؤمنات من جهة أهل الفجور بالتعرّض بهنّ في الطريق ﴿وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً﴾ لما سَلَف من التفريط وترك التستّر ﴿رَّحِيماً﴾ وعطوفاً بعباده حيث يراعي راحتهم وصلاحهم في جميع اُمورهم التي منها تعفّف نسائهم وحفظ نواميسهم، أو ذلك التنبيه أدنى أن يُعرفَن بالقدر والمنزلة عند الله، فلا يُؤذين بالأطماع الفاسدة والأهواء الكاسدة والأقوال الكاذبة، وكان الله غفوراً لهنّ، وستوراً لذنوبهنّ، رحيماً بهنّ باعلاء درجتهنّ في الآخرة.

لَئِن لَمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً * مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً * سُنَّةَ ٱللهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللهِ تَبْدِيلاً[٦٠ ـ ٦٢]

ثمّ هدّد سبحانه المنافقين المؤذين للنبي ﷺ وأهل الفجور المؤذين للمؤمنات والناشرين للأخبار الكاذبة الموحشة، أو المُزرية بالمؤمنين بقوله: ﴿لَئِن لَمْ يَنتَهِ﴾ ولم يرتدع ﴿ٱلْمُنَافِقُونَ﴾ عن إيذاء النبي ﷺ والمؤمنين ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الشكّ والرغبة إلى الفجور عن التعرّض لنساء المؤمنين ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ﴾ والمُزلزِلون لقلوب المسلمين بنشر الأخبار الكاذبة الموحشة ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ كالإخبار بانهزام سرايا المسلمين وقتلهم وأسرهم، والإخبار بما فيه إزراء بالمؤمنين والمؤمنات، ونظائرها عما هم عليه من الأعمال والأقوال، والله ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ ولنهيجنّك إلى

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٢٤٠.

قتالهم وإجلائهم، ولنأمُرنك بأخذهم واستئصالهم ﴿ثُمَّ﴾ بعد الإغراء ﴿لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ ولا يُساكنونك ﴿فِيهَا﴾ في بلدك ﴿إِلَّا﴾ زماناً أو جِواراً ﴿قَلِيلاً﴾ يتهيّأون فيه للخروج والفِرار، أو يتبيّن فيه حالهم من الانتهاء وعدمه، وهم في حال خروجهم أو في الزمان القليل الذي يُجاورونك يكونون ﴿مَلْعُونِينَ﴾ ومطرودين من رحمة الله، ومن جِوارك ﴿أَيْنَما﴾ وفي أيّ مكان ﴿ثُقِفُوا﴾ ووُجِدوا ﴿أُخِذُوا﴾ بالقهر ﴿وَقُتِّلُوا﴾ بالسيف ﴿تَقْتِيلاً﴾ فضيعاً مقروناً بالذلّة والهوان، وليس ذلك الاغراء وما يتبعه بِدعاً لكم، بل يكون ﴿سُنَّةَ ٱللهِ﴾ وعادته المستمرّة ﴿فِى﴾ الأمم ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْا﴾ ومَضَوا من الدنيا ﴿مِن قَبْلُ﴾ وفي الأزمنة السابقة ﴿وَلَن تَجِدَ﴾ يا محمد ﴿لِسُنَّةِ ٱللهِ﴾ وعادته المستمرّة من بدو خلق آدم إلى الآن ﴿تَبْدِيلاً﴾ وتغييراً، لكونها على أساس الحكمة التي يدور عليها فلك التكوين والتشريع، أو المراد أنّه لا يقدِر أحدٌ على تبديلها.

يَسْأَلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً * إِنَّ ٱللهَ لَعَنَ ٱلْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً * يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا ٱللهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولاَ * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلاَ * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً[٦٣ ـ ٦٨]

ثمّ لمّا كان ممّا يُؤذي النبيّ ﷺ السؤالات الاستهزائية التعنّتية منه، وكان منها سؤال الكفّار عن وقت القيامة استهزاءً وتعنتاً، حكاه سبحانه توطئةً لتهديد مؤذيه من الكفار بقوله: ﴿يَسْأَلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ﴾ وقت قيام ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ ومجيئ يوم القيامة.

قيل: كان المشركون يسألون عنه ويستعجلونه استهزاءً وتعنّتاً، وأهل الكتاب امتحاناً، لعلمهم بخفائه من جميع الخلق[١]، فأمره الله بجوابهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، في جوابهم: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا﴾ العلم بها ﴿عِندَ ٱللهِ﴾ وحده، لا يُطلِع عليها أحداً من خلقه حتى الأنبياء والمرسلين وملائكته المقربين ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ وأي شيءٍ يُعلمك بوقت قيامها غير الله؟ وقد أخفاه منك لحكمة بالغة، وليس من شرط النبيّ أن يعلم ما اقتضت الحكمة اختصاص علمه به تعالى.

ثمّ بيّن احتمال قُربها تهويلاً لهم بقوله: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ﴾ شيئاً ﴿قَرِيباً﴾ فلا تستعجلوه.

رُوي أنّه إذا هبّت ريحٌ شديدةٌ تغيّر لونه ﷺ، وقال: «تخوّفت الساعة» وقال: «ما أمُدّ طرْفي ولا

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٢٤٣.

أغمضه إلّا وأظنّ الساعة قد قامت»[١] ولعلّ المراد من الساعة في الحديث الموت، فانّه الساعة الصغرى، كما رُوي «أنّ من مات فقد قامت قيامته»[٢].

ثمّ ذمّ الكفّار وأوعدهم بأشدّ العذاب بقوله: ﴿إِنَّ ٱللهَ لَعَنَ ٱلْكَافِرِينَ﴾ وأبعدهم من ساحة الرحمة في الدارين ﴿وَأَعَدَّ﴾ وهيّأ ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿سَعِيراً﴾ وناراً موقدة حال كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ ومقيمن ﴿فِيهَا أَبَداً﴾ دائماً، لأنّهم لا يقدِرون على الخروج منها و ﴿لا يَجِدُونَ﴾ لأنفسهم ﴿وَلِيّاً﴾ ومُحبّاً يشفع في نجاتهم ﴿وَلَا نَصِيراً﴾ ومُعيناً يُخلّصهم منها بقوّته وقُدرته، ويكون حالهم هذا ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ﴾ وتُصرَف ﴿وُجُوهُهُمْ﴾ التي هي أشرف وأعزّ أعضائهم ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾ من جهةٍ إلى جهةٍ كاللّحم الذي يُراد أن يُشوىٰ في النار، أو المراد تتغير وجوههم من حال الحُسن إلى حال القُبح، ومن البياض إلى السواد.

ثمّ كأنّه قيل: ما يقولون في تلك الحالة؟ فقال سبحانه: ﴿يَقُولُونَ﴾ تحسّراً وتندّماً: ﴿يَا﴾ أهل النار ﴿لَيْتَنَا﴾ في الدنيا ﴿أَطَعْنَا ٱللهَ﴾ في أحكامه ﴿وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولاَ﴾ في أمره بالايمان والنُّصرة، فلن نبتلي بذلك العذاب الشديد، ولا تنفعهم الندامة ﴿وَقَالُوا﴾ اعتذاراً من كفرهم وعِصيانهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّا﴾ لو خُلّينا وأنفسنا لم نكن نكفُر ونعصي بل ﴿أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ ورُؤساء أقوامنا ﴿وَكُبَرَاءَنَا﴾ وأشرافنا الذين أمرونا بالكفر والعِصيان ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلاَ﴾ وصرفونا عن طريق الحقّ ودين الاسلام بما زيّنوا لنا الشِّرك ومخالفة الرسول.

ثمّ كرّروا النداء وقالوا: ﴿رَبَّنَا﴾ مبالغة في إجابة استدعائهم بقوله: ﴿آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ﴾ ومثلي ما آتيتنا ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ لضلالهم وإضلالهم ﴿وَٱلْعَنْهُمْ﴾ واطرُدهم من ساحة رحمتك ﴿لَعْناً كَبِيراً﴾ وطرداً شديداً لا يتعقّبه القُرب والرجوع إليها.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ ٱللهِ وَجِيهاً [٦٩]

ثمّ نصح الله سبحانه المظهرين للاسلام ووعظهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمدٍ صلّى الله عليه وآله بألسنتهم ﴿لَا تَكُونُوا﴾ في إيذاء رسولكم ﴿كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ﴾ من قومه الذين آمنوا به، كقارون وأتباعه وغيرهم من بني إسرائيل، حيث اتّهموه بالزنى ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللهُ﴾ ونزّهه ﴿مِمَّا قَالُوا﴾ ونسبوا إليه.

رُوي أنّ قارون دفع إلى زانية مالاً عظيماً على أن تقول على رأس الملأ من بني إسرائيل: إنّي حاملٌ

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٢٤٣.
٢. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٧.

من موسى على الزنى، فأظهر الله نزاهته عن ذلك، بأن أقرّت الزانية بما كان بينها وبين قارون من التباني والمصانعة[١]. ثمّ خسف الله بقارون الأرض بدعاء موسى وأمره.

وقيل: إنّ بني إسرائيل كانوا يغتسلون عُراةً ينظُر بعضهم إلى سوأة بعض، وكان موسى عليه‌السلام يغتسل وحده، ويتستّر من الناس، فقالوا: إنّ اغتساله وحده ليس إلّا لأجل البَرَص الذي في بدنه[٢]، أو لعيبٍ آخر، فذهب موسى يوماً ليغتسل، فوضع ثوبه على حَجَر، ـ قيل: إنّه الحَجَر الذي انفجر منه الماء ـ فلمّا فرغ من غُسله، وأراد أن يلبس ثوبه، فرّ الحَجَر بثوبه، فأسرع موسى خلفه عُرياناً، وهو يقول: ثوبي حَجَر، ثوبي حَجَر، فوقف الحَجَر عند بني إسرائيل، فنظروا إليه وقالوا: والله ما لموسى من بأس[٣].

وعن الصادق عليه‌السلام: «أنّ بني إسرائيل كانوا يقولون: ليس لموسى ما للرجال، وكان موسى عليه‌السلام إذا أراد الاغتسال ذهب إلى موضع لا يراه فيه أحدٌ من الناس، فكان يوماً يغتسل على شطّ نهر، وقد وضع ثيابه على صَخْرةٍ، فأمر الله الصخرة فتباعدت عنه حتى نظر بنو إسرائيل إليه، فَعلِموا أن ليس كما قالوا، فأنزل الله الآية»[٤].

أقول: الظاهر أن الوقعة كانت قبل اطّلاع بني إسرائيل على أنّه ذا أهل وولد.

وعنه عليه‌السلام: «أنّ رضا الناس لا يُملَك وألسنتهم لا تُضْبَط، ألم ينسبوا إلى موسى عليه‌السلام أنّه عنيَن، وآذوه حتى برّأه الله ممّا قالوا»[٥].

﴿وَكَانَ عِندَ ٱللهِ وَجِيهاً﴾ ورُوي أنّ موسى عليه‌السلام خرج مع هارون إلى بعض الكهوف، فرأى هارون سريراً فنام عليه فمات، فلمّا عاد موسى عليه‌السلام وليس معه هارون قال بنو إسرائيل: قتل موسى هارون حسداً له على محبّة بني إسرائيل إياه، فقال موسى عليه‌السلام: ويحكم كان أخي ووزيري أترونني أقتُله؟ فلمّا أكثروا عليه قام فصلّى ركعتين، ثمّ دعا فنزل السرير الذي نام عليه فمات حتى نظروا إليه بين السماء والأرض فصدّقوا أن هارون مات فيه، فدفنه موسى، فقيل في حقه ما قيل، كما ذكر حتى انطلق موسى ببني إسرائيل إلى قبره، ودعا الله أن يُحييه، فأحياه الله تعالى، وأخبرهم أنّه مات، ولم يقتُله موسى»[٦].

وعن أمير المؤمنين عليه‌السلام: «أنّ موسى وهارون صَعِدا الجبل، فمات هارون، فقالت بنو إسرائيل

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٢٤٦.
٢. تفسير روح البيان ٧: ٢٤٦.
٣. تفسير روح البيان ٧: ٢٤٦.
٤. تفسير القمي ٢: ١٩٧، تفسير الصافي ٤: ٢٠٥.
٥. أمالي الصدوق: ١٦٤/١٦٣، تفسير الصافي ٤: ٢٠٥.
٦. تفسير روح البيان ٧: ٢٤٧.

لموسى عليه السلام: أنت قتلته، فأمر الله الملائكة فحملته حتى مرّوا به على بني اسرائيل، وتكلّمت الملائكة بموته حتى عرفوا أنه مات، وبرّأه الله من ذلك»[١].

أقول: يمكن كون إيذائه بجميع الوجوه، وتبرئة الله إيّاه من جميعها.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً[٧٠و ٧١]

ثمّ بالغ سبحانه في نُصح المؤمنين بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللهَ**﴾ في مخالفة أحكامه، وإيذاء رسوله والمؤمنين ﴿**وَقُولُوا**﴾ في حق رسولكم وإخوانكم المؤمنين وسائر الشؤون ﴿**قَوْلاً سَدِيداً**﴾ وكلاماً حقاً وصدقاً، ولا تَخُوضوا في حديثٍ جائرٍ عن العدل والقصد، إذن ﴿**يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ**﴾ بالقَبول والإثابة عليها، ويوفّقكم لما يُحبّه ويرضاه.

عن الصادق عليه السلام ـ في رواية ـ «اعلم أنّه لا يقبل الله منك شيئاً حتى تقول قولاً عدلاً»[٢].

﴿**وَيَغْفِرْ لَكُمْ**﴾ بإزاء استقامتكم في القول والفعل ﴿**ذُنُوبَكُمْ**﴾ العِظام، فانّ الحسنات يُذهِبن السيئات.

ثمّ بالغ في الحثّ على طاعته بقوله: ﴿**وَمَن يُطِعِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ**﴾ في أوامرهما ونواهيهما ﴿**فَقَدْ فَازَ**﴾ في الدارين، ونال بأعلى المقاصد ﴿**فَوْزاً عَظِيماً**﴾ لا يُقادر قدره، ولا يُتصوّر مثله من العزّ والكرامة، والجنة والنِّعم الدائمة، والراحة الأبدية.

عن الصادق عليه السلام: «من يُطِع الله ورسوله في ولاية علي والأئمة بعده، فقد فاز فوزاً عظيماً»[٣].

إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً[٧٢]

ثمّ أنه تعالى بعد بيان جملة من التكاليف والآداب والأخلاق، والأمر بالتقوى والقول السديد، والترغيب في طاعته، حثّ الناس على تحمّل مشاقّها ببيان عظمتها بقوله: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ**﴾ الواجبة الرعاية والحِفظ، وهي على ما قيل تكاليفه وأحكامه[٤] ﴿**عَلَى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ**﴾ مع عِظَمها وقوّتها بأن يجعلهن قابلات ومستعدّات لامتثالها، على أن يثيبهنّ بطاعتها، ويُعذّبهن على

---

١. مجمع البيان ٨: ٥٨٣، تفسير الصافي ٤: ٢٠٥.
٢. الكافي ٨: ١٠٧/٨١، تفسير الصافي ٤: ٢٠٦.
٣. تفسير القمي ٢: ١٩٨، الكافي ١: ٣٤٢/٨، تفسير الصافي ٤: ٢٠٦.
٤. تفسير نور الثقلين ٤: ٣١٤، تفسير الرازي ٢٥: ٢٣٤.

مُخالفتها ﴿فَأَبَيْنَ﴾ وامتنعن ﴿أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ ومِن تَحَمُّلها، وقلن على ما قيل: يا رب، نحن مسخَرات بأمرك، لا نُريد ثواباً ولا عقاباً[١] ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ وخِفن من العذاب المترتّب على مخالفتها جهلاً بسَعَة الرحمة، وعدم الاعتماد بحفظه وتأييده تعالى، فانّ لكلّ موجودٍ عقلاً وإدراكاً على مرتبة وجوده ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَانُ﴾ وقَبِل مشقّة أداء حقّها عند عرضها عليه.

وقيل: إنّ عرض الأمانة من باب الفرض والتمثيل، إيضاحاً لعِظَم شأن تلك الأمانة، والمعنى أنّ هاتيك الأجرام العظام التي هي مثَلٌ في الشدّة والقوّة، لو كانت ذات شعور وإدراك، وكُلّفت بقبول تلك الأمانة ومراعاتها، لأبين من قبولها، وأشفقن منها، لغاية عَظَمة شأنها وتكلّفها، والتزم بها جنس الانسان مع ما فيه من ضَعْف البُنية ورخاوة القوّة[٢].

﴿إِنَّهُ﴾ بالجِبلّة ﴿كَانَ ظَلُوماً﴾ وكثير التعدّي على نفسه بارتكاب العِصيان ﴿جَهُولاً﴾ بوخامة عاقبتها.

عن ابن مسعود، أنّه قال: مُثّلت الأمانة كالصخرة المُلقاة، ودُعيت السماوات والأرض والجبال إليها، فلم يَقْرَبوا منها، وقالوا: لا نُطيق حملها، وجاء آدم من غير أن دُعي وحرّك الصخرة، وقال: لو اُمرتُ بحملها لحملتها، فقلن له: احمِل فحملها إلى رُكبتيه، ثمّ وضعها وقال: لو أردت أن ازداد لزدتُ، فقلن له: احمل فحملها إلى حَقْوه، ثمّ وضعها وقال: لو أردت لزدت، فقلن له: أحمل فحملها حتى وضعها على عاتقه، فأراد أن يضعها، فقال الله: مكانك، فانّها في عُنقك وعُنق ذُرّيتك إلى يوم القيامة[٣].

ورُوي أنّ آدم قال: أحمِل الأمانة بقوّتي أم بالحقّ؟ فقيل: من يحمِلها يحمِل بنا، فانّ ما هو منّا لا يُحْمَل إلّا بنا[٤].

ورُوي أنّ علياً عليه السلام إذا حضر وقت الصلاة يتململ ويتزلزل ويتلوّن، فيقال له: مالك يا أمير المؤمنين؟ فيقول: «جاء وقت الصلاه، وقت أمانة عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يَحْمِلنها وأشفقن منها»[٥].

وفي (النهج) في وصايا أمير المؤمنين عليه السلام للمسلمين: «ثمّ أداء الأمانة، فقد خاب من ليس أهلها، إنّها عُرِضت على السماوات المبنية، والأرض المَدْحية، المَدحوة والجبال ذات الطول المنصوبة، فلا أطول ولا أعرض ولا أعلى ولا أعظم منها، ولو امتنع شيءٌ ذو طُول أو عَرض أو قُوة أو عِزّ لامتنعن،

---

١. تفسير البيضاوي ٢: ٢٥٤، تفسير روح البيان ٧: ٢٥٢.
٢. تفسير أبي السعود ٧: ١١٨، تفسير روح البيان ٧: ٢٥٢.
٣. تفسير روح البيان ٧: ٢٥٣.
٤. تفسير روح البيان ٧: ٢٥٣.
٥. عوالي اللآلي ١: ٣٢٤/٦٢، تفسير الصافي ٤: ٢٠٨.

ولكن أشفقن من العقوبة، وعَقَلن ما جَهِل من هو أضعف منهنّ، وهو الانسان، إنّه كان ظلوماً جهولاً»[١].

وعن القمي (رحمه الله): الأمانة هي الإمامة والأمر والنهي - إلى أن قال - فالأمانة هي الإمامة، عُرضت على السماوات والأرض والجبال ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ أن يَدَّعوها، أو يغصبوها من أهلها ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَانُ﴾ يعني الأول ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[٢].

وعن الصادق (عليه السلام) «الأمانة: الولاية، والانسان: أبو الشرور المنافق»[٣].

أقول: ما ذُكِر في رواياتنا تأويلٌ قابل للنقل، وقد ذكر كثيرٌ من العامة والخاصة لها تأويلات لا ينبغي نقلها، لكونها من غير الراسخين في العلم.

لِيُعَذِّبَ ٱللهُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ ٱللهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً رَحِيماً[٧٣]

ثمّ علّل سبحانه العرض أو الحمل بقوله: ﴿لِيُعَذِّبَ ٱللهُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ﴾ الذين خانوا في الأمانة بعد قبولها ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَاتِ﴾ الذين عصوا ربّهم بردّها وعدم قبولها، كذا قيل[٤] ﴿وَيَتُوبَ ٱللهُ﴾ ويرجع بالرحمة وقبول التوبة ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ﴾ الذين قبلوا الأمانة وراعوها، واهتمّوا بحفظها، قيل: إنّ اللام لام العاقبة، والمعنى كان عاقبة العرض على الانسان[٥] - أو عاقبة حملها - تعذيب الخائنين وإثابة الحافظين.

وإنّما ذكَر قبول توبتهم للتنبيه بأنّهم لا يخلون من فَرَطات باقتضاء جِبِلّتهم وتداركهم لها بالتوبة والإنابة، وذكر اسم الجليل أولاً للتهويل وتربية المهابة، وإعادتها في موضع الاضمار لاظهار مزيد الاعتناء بشأن المؤمنين وتفضيلهم.

ولمّا عبّر سبحانه عن تكاليفه بالأمانة، قدّم ذِكر تعذيب المنافقين والمشركين إشعاراً بكون التعذيب من لوازم الخيانة في الأمانة دون الإثابة على الحِفظ، فانّها بالإحسان والتفضّل.

ثمّ لمّا وصف الانسان بكونه ظلوماً جهولاً، وصف ذاته المقدّسة بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً﴾ وستوراً لظُلم الظالمين من المؤمنين على أنفسهم بالعِصيان ﴿رَحِيماً﴾ بالخاطئين والمسيئين بجهالة حيث يقبل توبتهم، ويُثيبهم بما لا عين رأت ولا أُذن سَمِعت ولا خَطَر بقلب أحدٍ.

---

١. نهج البلاغة: ٣١٧ الخطبة ١٩٩، تفسير الصافي ٤: ٢٠٧.

٢. تفسير القمي ٢: ١٩٨، تفسير الصافي ٤: ٢٠٧.

٣. معاني الأخبار: ٢/١١٠، تفسير الصافي ٤: ٢٠٧.

٤. تفسير روح البيان ٧: ٢٥٦.

٥. تفسير أبي السعود ٧: ١١٨، تفسير روح البيان ٧: ٢٥٦.

عن اُبي بن كعب: كانت سورة الأحزاب تُقارب سورة البقرة، أو أطول منها، ثمّ رُفِع [أكثرها] من الصدور ونُسِخ وبقي ما بقي[١].

وفي الحديث: «من قرأ سورة الأحزاب وعلّمها أهله وما ملَكت يمينه، أُعطي الأمان من عذاب القبر»[٢].

عن الصادق عليه السلام: «من كان كثير القراءة لسورة الأحزاب، كان يوم القيامة في جِوار محمّد وآله الأطهار وأزواجه»[٣].

وفقّنا الله وجميع المؤمنين لإكثار تلاوتها، والتبرّك والعمل بما فيها، بمحمد وآله الطيبين صلوات الله عليهم أجمعين.

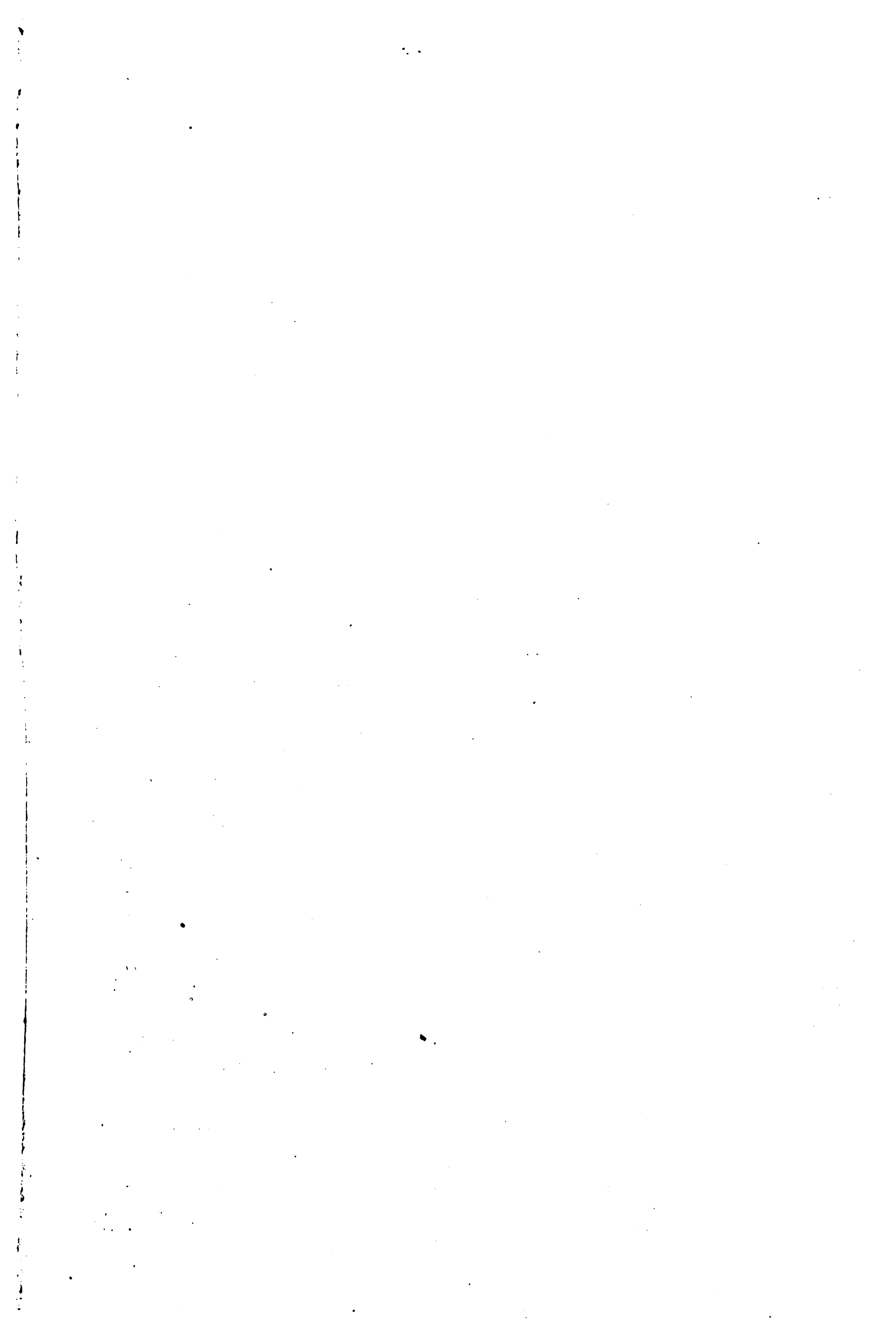
تمّ تفسير سورة الأحزاب بعون الله المَلِك الوهّاب، ونسأله التوفيق لتفسير مايتلوها.

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٢٥٧، وهذه من الأخبار الباطلة التي تدلّ على النقصان في الكتاب الكريم، وهو منزّه عن كلّ أنواع التحريف سواء بالزيادة أو النقص باجماع المسلمين، ومصون من يد التغيير بحفظ العزيز العلّام.

٢. تفسير روح البيان ٧: ٢٥٧.

٣. ثواب الاعمال: ١١٠، مجمع البيان ٨: ٥٢٤، تفسير الصافي ٤: ٢٠٩.



في تفسير سورة سبأ

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلهِ ٱلَّذِى لَهُ مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ * يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّماءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ[١ـ٢]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة الأحزاب التي حكى الله في آخرها استهزاء الكفّار بوعد القيامة، وذكر بعض أهوالها، وبيّن في أولها الولاية المطلقة للنبيّ ﷺ، وفي وسطها رسالته وخاتميته للأنبياء كافة، نظم بعدها سورة سبأ المبدوءة بدليل لزوم المعاد وإنكار الكفّار وقوعه، المتوسطة باثبات رسالته إلى كافة الناس إلى يوم القيامة، فابتدأ بذكر الأسماء المباركات حسب دأبه تعالى بقوله: ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثمّ أثنى على ذاته المقدّسة بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ بجنسه وبجميع أنواعه وأفراده ﴿لِلهِ﴾ وحده، ومختصّ بالواجب الوجود ﴿ٱلَّذِى لَهُ﴾ بالملكية الإشراقية والإيجادية ﴿مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ﴾ من الملائكة والكواكب وغيرها ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الجنّ والإنس والحيوان والنبات والجبال والبحار والمعادن وغيرها من الموجودات التي خلقها الله لانتفاع الانسان في دينه ودنياه ومعاده ومعاشه، وإن لم يَلْزَم كون الحمد على النعمة، لأنّه الثناء على الجميل اختياري ﴿وَلَهُ﴾ تعالى وحده ﴿ٱلْحَمْدُ فِى﴾ عالم ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ الذي يكون بعد هذا العالم على قدرته وعدله وفضله ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي خلق الأشياء على وَفق المصلحة، ونظمها بأحسن نظام ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ والعليم بجميع ذرات الكائنات وبواطنها وعواقبها.

ثمّ قرّر كمال علمه وخبرويته وأوضحه بقوله ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ﴾ ويدخُل ﴿فِى﴾ مضائق ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ وخَلَلها من المياه والكُنوز والدافائن والأموات والأبخرة ونحوها ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنهَا﴾ من المياه والأبخرة والزروع والحشائش والمعادن والأموات حين البعث وغيرها ﴿وَ﴾ يعلم ﴿مَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّماءِ﴾ المُطلّ من الملائكة والكتب والأمطار والبركات ونظائرها ﴿وَمَا يَعْرُجُ﴾ ويصعد ويدخُل

﴿فِيهَا﴾ من الملائكة والأعمال الصالحة والأدعية الخالصة وأمثالها ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ﴾ بالمطيعين و ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ للعاصين.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ * لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ[٣ و ٤]

ثمّ أنّه تعالى بعد توصيف نفسه بالقدرة والعلم الدالين على إمكان المعاد، والحكمة الدالة على وجوبه عليه، حكى إنكار المنكرين له بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جهلاً وعِناداً: ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ قيل: إنّه قال أبو سفيان وحلف باللّات فأمر بردّهم[١] بقوله: ﴿قُلْ﴾ يامحمد لهم ﴿بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ الساعة البتة. ثمّ وصف نفسه بقوله: ﴿عَالِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ تنبيهاً بأنّها من الغيوب التي لا يطّلع عليها غيره، فانّه هو الذي ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ ولا يغيب ﴿عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ وأصغر من شيء كائن ﴿فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مع سعتهما ﴿وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾ المثال والمقدار ﴿وَلَا أَكْبَرُ﴾ منه ﴿إِلَّا﴾ أنّه مثبوت ﴿فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ واللّوح المحفوظ، وإنّما يأتي الله بالساعة ويُثبِت الأشياء ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ في يوم الساعة على إيمانهم وأعمالهم وجزاء ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المؤمنون أن ﴿لَهُم﴾ بالاستحقاق ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ للذنوب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ مُكرَم لا تعب فيه ولا مِنّة، فانّ كمال الانسان ليس إلّا بالايمان والعمل، وليس هذا العالَم محلّ الجزاء عليهما، فلابدّ من عالَم آخر يجزي عليهما.

وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِى ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ * وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ[٥ و ٦]

ثمّ أنّه تعالى بعد ذكر حال المؤمنين، ذكر حال الكفّار بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ﴾ ومشوا سريعاً ﴿فِى﴾ إبطال ﴿ءَايَاتِنَا﴾ القرآنية وأدلّة التوحيد والمعاد والرسالة حال كونهم ظانّين وزاعمين أنّهم ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ لنا، وقادرين على الخروج من تحت قدرتنا بحيث نعجز عن تعذيبهم، أو معاجزين

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٢٦٠.

للضعفاء عن الاستدلال بها ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المسارعون بسبب جدّهم وسعيهم ذلك ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة عذاب كائن ﴿مِن﴾ جنس ﴿رِجْزٍ﴾ وسوء عذاب وشديده و ﴿أَلِيمٌ﴾ غايته.

ثمّ بيّن قوّة إيمان أهل العلم، وعدم تأثير سعيهم وكيدهم في تثبيطهم عن الايمان بقوله: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ﴾ بالكتب السماوية وأحوال الأنبياء وبياناتهم بعين القلب ونور العلم. القمي: هو أمير المؤمنين عليه السلام[1] ﴿ٱلَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ﴾ من النبوة والقرآن والأحكام والحكم ﴿هُوَ﴾ بالخصوص ﴿ٱلْحَقَّ﴾ الحقيق بالقبول ﴿وَيَهْدِى﴾ المصدّقين له ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ ودين الله الغالب المستحقّ للثناء والتمجيد، أو الله المنتقم من المكذّبين، والشكور على المصدقين، ففي ذكر الوصفين ترهيب وترغيب.

وقيل: فيه ترغيب فقط، فانّ سلوك صراط العزيز موجبٌ للعزّ في الدارين، وقربه سبب للكرامة في النشأتين[2].

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَالِ ٱلْبَعِيدِ[٧ و ٨]

ثمّ أنّه تعالى بعد ذكر إنكار الكفّار وردّهم بكونه مقدوراً له، وموافقاً للحكمة المُلزِمة، حكى سبحانه استهزاءهم بإخبار النبيّ صلى الله عليه وآله به، واستعجالهم منه بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعضهم لبعضٍ استهزاءً بالنبيّ صلى الله عليه وآله: يا قوم ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يدّعي النبوة والرسالة من الله و ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ ويُخبِركم بأعجب الأعاجيب الذي لا يقول به عاقل وهو أنكم ﴿إِذَا﴾ مُتّم و ﴿مُزِّقْتُمْ﴾ وفرّقتم ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ و غاية التفرّق بأن صِرتم تُراباً ورُفاتاً ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وتُخلقون مرة أُخرى، و تحيون حياة ثانية لا ندري ﴿أَفْتَرَىٰ﴾ واختلق ﴿عَلَى ٱللهِ﴾ في إخباره هذا ﴿كَذِباً﴾ واضحاً فظيعاً، إن قال ذلك مع شعورٍ وقَصْدٍ ﴿أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾ ومرض زوال العقل، يُوهمه ذلك إن قال هذا القول من دون شعورٍ وقصدٍ.

ثمّ ردّهم الله بأن الأمر ليس كما زعموا، فانّ محمداً صلى الله عليه وآله مُبَرأ من الافتراء والجنون ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ﴾ نسبوا أحد الأمرين إليه على سبيل منع الخُلوّ أجهل الجهال وأسفه السُّفهاء، لأنّهم بسبب أنّهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ولا يُصدّقون دار الجزاء واقعون ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾ الشديد في الآخرة ﴿وَٱلضَّلَالِ﴾

---

١. تفسير القمي ٢: ١٩٨، تفسير الصافي ٤: ٢١١. ٢. الرازي ٢٥: ٢٤٣.

والانحراف ﴿ٱلْبَعِيدِ﴾ عن الحقّ والصواب في الدنيا، وهم لا يُدرِكون حالهم في الدنيا ومآلهم في الآخرة، ولو كان لهم عقل وإدراك لفهموا حقيقة حالهم، ولما اجترءوا على إساءة مقالهم.

أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِنَ ٱلسَّماءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ ٱلسَّماءِ إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَاجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ * أَنِ ٱعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلِسُلَيْمَانَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ [٩ـ١٣]

ثمّ وبّخهم سبحانه بعدم التفاتهم على كونهم محاطين بقدرة الله وفي قبضته الدالّ على توحيده تعالى بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِنَ ٱلسَّماءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بحيث لا يقدِرون على الفِرار منها.

ثمّ هدّدهم بقوله: ﴿إِن نَشَأْ﴾ تعذيبهم على كفرهم وسوء مقالهم ﴿نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ كما خسفناها بقارون ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً﴾ وقطعاً من النار ﴿مِنَ ٱلسَّماءِ﴾ كما أسقطنا على قوم شعيب لتكذيبهم الآيات بعد ظهور البينات ﴿إِنَّ فِى ذٰلِكَ﴾ النظر والفِكر فيهما وفي إحاطتهما بالخلق، أو ما تُلي عليهم من الآية الناطقة بما ذكروا الله ﴿لَآيَةً﴾ ودلالة واضحة على التوحيد والمعاد، ولكن لا للقاسية قلوبهم، بل ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ رجّاعٍ إلى ربّه، فانّه إذا تأمّل فيها ينزجر عن تعاطي القبيح من الشرك وإنكار المعاد.

ثمّ لمّا مدح العبد المنيب ذكر نِعمه ولُطفه على داود عليه السلام المشهور بالانابة بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ وأعطينا ﴿دَاوُدَ﴾ النبي ﴿مِنَّا فَضْلاً﴾ ومَزِية على أقرانه من الأنبياء والأولياء لكثرة إنابته، بأن قلنا للجبال التي في غاية الجمودة: ﴿يَاجِبَالُ أَوِّبِى﴾ وسبّحي مع داود، ورجّعي بالتسبيح إذا سبّح، أو سيري ﴿مَعَهُ وَ﴾ سخّرنا له ﴿ٱلطَّيْرَ﴾ مع غاية نفوره من الانسان، فكان الجبال والطير يسبّحن إذا سبّح داود عليه السلام بحيث يسمع الناس تسبيحهما بلسان فصيح.

القمي ﷺ، قال: كان داود إذا مرّ بالبراري يقرأ الزّبور، وتسبّح معه الجبال والطير والوحوش[١] ﴿وَأَلَنَّا لَهُ﴾ كالشمع والعجين ﴿ٱلْحَدِيدَ﴾ بحيث يُصرّفه في يده كيف يشاء من غير إحماءٍ بنار، وقلنا له: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ﴾ واصنع منه ﴿سَابِغَاتٍ﴾ ودروعاً واسعةً طويلةً ﴿وَقَدِّرْ﴾ واقتصد ﴿فِى ٱلسَّرْدِ﴾ ونظم الحَلَق ونسجها بحيث تناسبت وتساوت في الدقّة والغِلَظ فلا تُغْلَق ولا تُخرَق.

عن الرضا ﷺ: «الحلقة بعد الحلقة»[٢]. وقال القمي: المسامير التي في الحَلقة[٣].

قيل: إنّه ﷺ أوّل من اخترع الدرع، وكان قبل ذلك صفائح حديدٍ مضروبة[٤].

رُوي أنّه ﷺ حين ملك بني إسرائيل كان يخرُج متنكّراً، فيسأل الناس ما يقولون في غيابه، فبعث الله مَلَكاً في صورة آدمي فسأله على عادته، فقال المَلَك: نعم الرجل داود، لولا خَصْلة فيه: فسأله عنها، فقال: إنه يأكُل ويُطعِم عياله من بيت المال، ولو أكل من عمل يده لتمّت فضائله. فعند ذلك سأل الله أن يسبّب له ما يستغني به عن بيت المال، فعلّمه سبحانه صنعة الدرع، فكان يعمل في كلّ يومٍ درعاً ويبيعها بأربعة آلاف دِرْهَم، أو بستة آلاف، يُنفِق على نفسه وعياله ألفين، ويتصدّق بالباقي على الفقراء[٥].

وفي الحديث: «كان داود لا يأكُل إلّا من كسب يده»[٦].

وقيل: إنّ المراد من التقدير في السّرد أن لا يصرِف جميع أوقاته فيه، بل يصرِف مقداراً تحصَل به القوة، ويصرِف البقية في العبادة[٧].

﴿وَ﴾ قلنا ﴿ٱعْمَلُوا﴾ يا داود وآله عملاً ﴿صَالِحاً﴾ خالصاً لله ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من العبادات ﴿بَصِيرٌ﴾ ومطّلع، فأُجازيكم عليها أحسن الجزاء.

﴿وَ﴾ سخّرنا ﴿لِسُلَيْمَانَ﴾ بن داود ﴿ٱلرِّيحَ﴾ وهي الصَّبا على ما قيل[٨] ﴿غُدُوُّهَا﴾ وسيرها من طُلوع الشمس إلى الزوال ﴿شَهْرٌ﴾ ومقدار سير الراكب المُسرِع بين الهلالين ﴿وَرَوَاحُهَا﴾ وسيرها من الزوال إلى الغروب ﴿شَهْرٌ﴾ فكانت تسير في يومٍ واحدٍ مسيرة شهرين للراكب.

القمي: كانت الريح تحمِل كُرسي سليمان، فتسير به في الغَدَاة مسيرة شهرٍ، وبالعشي مسيرة شهرٍ[٩].

﴿وَأَسَلْنَا﴾ وأجرينا ﴿لَهُ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ والنُّحاس المُذاب كالماء الجاري من العين، كما ليّنا لأبيه الحديد، فكان يصنع منه كلّما أراد.

---

١. تفسير القمي ٢: ١٩٩، تفسير الصافي ٤: ٢١١.
٢. قرب الاسناد: ١٣٠٥/٣٦٤، تفسير الصافي ٤: ٢١٢.
٣. تفسير القمي ٢: ١٩٩، تفسير الصافي ٤: ٢١٢.
٤. تفسير روح البيان ٧: ٢٦٧.
٥ ـ٧. تفسير روح البيان ٧: ٢٦٨.
٨. تفسير روح البيان ٧: ٢٦٩.
٩. تفسير القمي ٢: ١٩٩، تفسير الصافي ٤: ٢١٢.

قيل: كان المَعْدِن باليمن [١].

والقمي قال: عين الصُّفر [٢].

﴿وَ﴾ كان ﴿مِنَ﴾ طائفة ﴿ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ﴾ له أعمالاً عجيبة ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وفي منظره ومرآه ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ وبأمره ﴿وَمَن يَزِغْ﴾ ويعدِل ﴿مِنْهُمْ عَنْ﴾ طاعة ﴿أَمْرِنَا﴾ إيّاه بطاعة سليمان، ويَمِل إلى عصيانه ﴿نُذِقْهُ﴾ ونُطعمه ﴿مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ والنار الموقدة في الآخرة، أو في الدنيا.

قيل: كان معه مَلَك بيده سَوط من نار، كلّما استعصى عليه جنّي ضربه من حيث لا يراه ضربةً فأحرقته بالنار [٣].

وكان الجنّ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ لسليمان ويصنعون ﴿لَهُ﴾ بأمره ﴿مَا يَشَاءُ﴾ ويُريد ﴿مِن مَّحَارِيبَ﴾ وقُصورٍ وغُرفٍ عاليةٍ ومساكن شريفةٍ ﴿وَتَمَاثِيلَ﴾ وصورٍ مجسمةٍ من صور الملائكة والأنبياء والوحوش والطيور والأشجار وغيرها.

عن الصادق عليه السلام، قال: «والله ما هي تماثيل الرجال والنساء، ولكنّها الشجر وشِبهه» [٤].

﴿وَجِفَانٍ﴾ وأوانٍ كبيرة ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ والحِياض الكِبار ﴿وَقُدُورٍ﴾ وظُروفٍ من النُّحاس أو الحجارة يُطْبَخُ فيها اللَّحم ﴿رَّاسِيَاتٍ﴾ وثابتات على الأثافي، لا تنزل منها لعِظَمها، ولا تُحرّك من أماكنها، بل يُصْعَد عليها بالسلالم.

ٱعْمَلُوٓا ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ * فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ[١٣ و ١٤]

ثمّ لمّا ذكر نعمه الخاصة على سليمان عليه السلام، طلب منه العبادة والشكر بقوله: ﴿ٱعْمَلُوٓا ءَالَ دَاوُۥدَ﴾ لله واعبدوه، لأجل أن يكون عملكم ﴿شُكْرًا﴾ له تعالى على نعمه، أو المراد اشكروا لله شكراً، أو افعلوا شكراً ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ المُجدّ في أداء حقّ نعمه بالقلب واللسان والجوارح، وإن لم يمكن الخروج عن عُهدة شكر نِعمه، لأنّ توفيق الشكر نعمة عظيمة يجب شُكرها.

ثمّ لمّا ذكر عظمة مُلك سليمان وسلطانه، ذكر نعمته عليه بعد موته بإقامة جسده معتمداً على عصاه، ليتمّ أغراضه، ونبّه على أنّ أحداً لا ينجو من الموت بقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٢٧١.
٢. تفسير القمي ٢: ١٩٩، تفسير الصافي ٤: ٢١٢.
٣. تفسير روح البيان ٧: ٢٧٢.
٤. الكافي ٦: ٧/٥٢٧، مجمع البيان ٨: ٦٠٠، تفسير الصافي ٤: ٢١٢.

وحكمنا بزهاق[١] روحه من جسده ومات، بقي معتمداً على عصاه مدةً مديدة، لكيلا تتوانى جنوده من الجنّ والإنس في ما كلّفهم من الأعمال المقصودة له.

ثمّ ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ﴾ وما عرفهم به ﴿إِلَّا﴾ الأرَضة التي هي ﴿دَابَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ وحشراتها التي تأكلُ الخَشَب، فكانت ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ وعصاه ﴿فَلَمَّا﴾ انكسرت و ﴿خَرَّ﴾ وسقط سليمان عليه السلام على الأرض ميتاً ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ و ظهرت لهم ﴿أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ﴾ لعَلِموا بموت سليمان حينه و ﴿مَا لَبِثُوا﴾ وما مكثوا بعد موته مدّة مديدةً ﴿فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ والأعمال الشاقة التي كانوا يعملونها له بتسخيره وبأمره.

وقيل: يعني تبيّنت للإنس أنّ الجنّ لو كانوا يعلمون الغيب إلى آخره[٢]، فانّ الإنس لمّا رأوا أنّ الجنّ يعلمون ما لا يعلمه الإنس، ظنّوا أنّهم يعلمون الغيب، فظهر بظهور جهلهم بموت سليمان عليه السلام خطأ الإنس في ذلك الظنّ.

قيل: إنّه لمّا دنا أجل سليمان عليه السلام لم يُصبح إلّا ورأى في محرابه شجرةً نابتةً[٣]، فكان يسألها من خواصها فتُخبره بها، وهو يُخبِر الأطبّاء بها، ثمّ إنّه رأى في محرابه يوماً حشيشاً خشباً رطباً، فسأله عن اسمه وخاصيّته، فقال: أمّا اسمي فخرتوب[٤]، وأمّا خاصيّتي فتخريب البيوت، فانّي في أيّ بيت أنبُتُ يخرَب ذلك البيت، فعَلِم سليمان عليه السلام أنّه قد دنا أجله.

ثمّ أنّه لاقى مَلَك الموت، فقال له: أخبرني بوقت موتي، فجاءه يوماً وقال: لم يبق من عمرك إلّا ساعة، فأوص بما شئت، فدعا الشياطين فبنوا عليه صَرحاً من قوارير ليس له باب، فقام يصلّي، وأجتمعت الشياطين حوله، ولم يكن شيطان ينظُر إليه في صلاته إلّا احترق، فقبض عزرائيل روحه الشريف، فبقي جسده قائماً متكئاً على عصاه سنةً، ولم يعلم أحدٌ بموته، ولا يُنكرون عدم خروجه لطول صلاته قبل ذلك، فلمّا أكلت الأرَضَة عصاه، سقط على الأرض، فمرّ شيطان به، فلم يسمع صوته، ثمّ رجع فلم يسمع صوته، ثمّ نظر فاذا هو قد خرّ ميتاً، ففتحوا عنه، فاذا العصا قد أكلتها الأرَضَة، فأرادوا أن يعرفوا وقت موته فوضعوا الأرضة على العصا، فأكلت منها في يومٍ وليلةٍ مقداراً، فحسبوا على ذلك النحو، فوجدوه قد مات منذ سنة، وكانوا يعملون بين يديه بظنّ أنه كان حياً.

ثمّ أنّ الشياطين قالوا للأرضة: لو كنت تأكلين الطعام أتيناك بأطيبه، ولو كنت تشربين الشراب أسقيناك من أطيبه، ولكن ننقُل إليك الماء والطين، فهم ينقُلون إليها ذلك حيث كانت، ألم تر إلى

---

١. كذا، والصواب: زهوق.
٢. مجمع البيان ٨: ٦٠١، تفسير روح البيان ٧: ٢٧٨.
٣. تفسير روح البيان ٧: ٢٧٨.
٤. كذا، ولعله خرنوب، أو خرّوب.

الطين الذي يكون في جوف الخشب، فهو ما يأتيها الشياطين تشكّراً لها[١].

عن الصادق عليه السلام: «أنّ الله عزّ وجلّ أوحى إلى سليمان بن داود عليه السلام أنّ آية موتك أن شجرةً تخرُج من بيت المَقْدِس يقال لها الخرنوبة، فنظر سليمان يوماً فاذا الشجرة الخرنوبة قد طلعت من بيت المَقْدِس، فقال لها: ما اسمك؟ قالت: الخرنوبة، فولى سليمان عليه السلام مُدبِراً إلى محرابه، فقام فيه مُتَكئاً على عصاه»[٢].

وعن الباقر عليه السلام: «أمر سليمان الجنّ فوضعوا له قُبّةً من قوارير، فبينما هو مُتّكيء على عصاه في القُبّة ينظُر إلى الجنّ كيف يعملون، وينظُرون إليه، إذ حانت منه التفاتة، فاذا هو برجلٍ معه في القُبّة، ففزع منه، فقال له: من أنت؟ قال: أنا الذي لا أقبل الرّشا، ولا أهاب الملوك، أنا مَلَك الموت، فقبضه وهو متكئ على عصاه في القُبّة، والجنّ ينظُرون إليه، فمكثوا سنةً يَدْأبون له، حتى بعث الله الأرَضة فأكلت مِنسأته، وهي العصا ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ الآية»[٣].

قال: «فالجنّ تشكُر الأرَضَة بما عَمِلت بعصا سليمان، فما تكاد تراها في مكانٍ إلّا وعندها ماءٌ وطينٌ»[٤].

وقال القمي: فلمّا خرّ لوجهه تبيّنت الإنس أنّ الجنّ لو كانوا يعلمون، إلى آخره، وذلك أن الإنس كانوا يقولون إنّ الجنّ يعلمون الغيب، فلمّا سقط سليمان على وجهه، عَلِموا أن لو يعلم الجنّ الغيب لم يعملوا سنةً لسليمان وهو ميت، ويتوهّمونه حياً[٥].

وعن الرضا عن أبيه عليهما السلام: «أنّ سليمان عليه السلام قال ذات يوم لأصحابه: إنّ الله تعالى وهب لي ملكاً لاينبغي لأحد من بعدي؛ سخّر لي الريح والإنس والجنّ والطير والوحوش، وعلّمني منطق الطير، وآتاني من كلّ شيء، ومع جميع ما أُوتيتُ من الملك ما تمّ لي سرور يوم إلى الليل، وقد أحببت أن أدخُل قَصري فأصعد أعلاه، وأنظُر إلى ممالكي، ولا تأذنوا لأحدٍ عليّ لئلا يُنغّص عليّ يومي. قالوا: نعم.

فلمّا كان من الغد، أخذ عصاه بيده، وصَعِد إلى أعلى موضع من قصره، ووقف مُتّكئاً على عصاه ينظُر إلى ممالكه مسروراً بما أُوتي، فَرِحاً بما أُعطي، إذ نظر إلى شابٍّ حَسَن الوجه واللباس، قد خرج إليه من بعض زوايا قصره، فلمّا بصر به قال له: من أدخلك إلى هذا القصر، وقد أردتُ أن أخلو فيه

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٢٧٩.
٢. الكافي ٨: ١١٤/١٤٤، تفسير الصافي ٤: ٢١٣.
٣. علل الشرائع: ٣/٧٤، تفسير الصافي ٤: ٢١٣.
٤. علل الشرائع: ٣/٧٤، تفسير الصافي ٤: ٢١٣.
٥. تفسير القمي ٢: ٢٠٠، تفسير الصافي ٤: ٢١٣.

اليوم، فبإذن من دخلت؟ قال الشابّ: أدخلني هذا القصر ربّه، وبإذنه دخلت. فقال: ربّه أحقّ به مني، فمن أنت؟ قال: أنا مَلَك الموت. قال: فيما جئت؟ قال: جئتُ لأقبِض روحك. قال: امضِ لما اُمرت به، فهذا يوم سروري، وأبى الله عزّ وجلّ أن يكون لي سرور دون لقائه.

فقَبَض ملك الموت روحه وهو مُتّكيء على عصاه، فبقي سليمان عليه السلام مُتّكئاً على عصاه وهو ميت ما شاء [الله] والناس ينظُرون إليه، ويُقدّرون أنّه حيٌّ، فافتتنوا فيه واختلفوا، فمنهم من قال: قد بقي سليمان متكئاً على عصاه هذه الأيام الكثيرة لم يتعب ولم يَنَم، ولم يأكُل ولم يشرب، إنّه لربّنا الذي يجب علينا أن نعبُده. وقال قوم: إنّه ساحرٌ، وإنّه يُرينا أنّه واقفٌ مُتّكيء على عصاه بسحر أعيننا ـ إلى أن قال ـ: فلمّا اختلفوا بعث الله عزّ وجلّ الأرَضة، فدبّت في عصاه، فلمّا أكلت جوفها انكسرت، وخرّ سليمان من قصره». الخبر[1].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله: «أنّه عاش سليمان سبعمائة واثنتي عشرة سنة»[2].

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِى إِلَّا ٱلْكَفُورَ[١٥ـ١٧]

ثمّ لمّا ذكر سبحانه لُطفه بالمُنيبين الشاكرين، ذكر نقمته على الكافرين بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ﴾ وهم قبيلة في اليمن يُدعَون باسم أبيهم سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «أنّ سبأ رجلٌ من العرب، ولد عشرة» الخبر[3].

﴿فِى مَسْكَنِهِمْ﴾ ومحلّ إقامتهم، وهو مدينة مأرب باليمن، بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ﴿ءَايَةٌ﴾ عظيمةٌ، ودلالةٌ واضحةٌ على وجود الصانع الحكيم اللطيف بعباده، وهي جنان كثيرة متّصلة بعضها ببعضٍ بحيث تُعَدّ ﴿جَنَّتَانِ﴾ أحدهما ﴿عَن يَمِينٍ﴾ من المدينة ﴿وَ﴾ الأُخرى عن ﴿شِمالٍ﴾ منها.

وقيل: يعني لكلّ مسكنٍ ودار جنّتان عن يمينها وشمالها[4].

وقال لهم ربّهم بلسان نبيّهم أو بلسان الحال: يا قبيلة سبأ ﴿كُلُوا﴾ وانتفعوا ﴿مِن رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾ ونِعمه

---

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٤/٢٦٥، علل الشرائع: ٢/٧٣، تفسير الصافي ٤: ٢١٤.

٢. كمال الدين: ٣/٥٢٤، تفسير الصافي ٤: ٢١٥.

٣. مجمع البيان ٨: ٦٠٤، تفسير الصافي ٤: ٢١٥.

٤. تفسير أبي السعود ٧: ١٢٧، تفسير روح البيان ٧: ٢٨١.

﴿وَٱشْكُرُوا لَهُ﴾ على رزقكم، فانّ لكم مضافاً إلى أنواع الثّمار ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ من حيث الهواء والماء والأمان من الأعداء والمؤذيات، تعيشون فيها في الدنيا ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ لذنوبكم في الآخرة ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن آياتنا، ولم يعتنوا بها، وعن شكر نعمنا، فلم يؤدّوا حقّها بالقيام بالطاعة ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ وأجرينا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وعلى بساتينهم وأموالهم ﴿سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ والشديد. قيل: إنّ العَرِم اسم وادٍ جاء منه السيل، كما عن ابن عباس. أو قيل: إنه اسم السدّ الذي يحبِس الماء بلغة حِمْير[١]. وقيل: هو اسم الجُرد الذَّكَر الذي أرسله الله، فنقب عليهم ذلك السدّ[٢].

قيل: إنّه كان مسكن أولاد سبأ في حوالي بلدة مأرِب بين الجبلين، طوله ثمانية عشر فَرْسخاً، وكان لايأتيهم الماء من مسيرة عشرة أيام حتى يجري بين الجبلين، فجعلت بلقيس سدّاً بين الجبلين من الأحجار والقار، كي تجتمع فيه مياه الأمطار والعيون، وجعلت له ثقوباً في أعلاه ووسطه وأسفله، فاذا امتلأ السدّ فتحوا الثقوب العالية، وسقوا مزارعهم وبساتينهم، وإذا توسّطه الماء فتحوا الثقوب المتوسطة وهكذا، فبعث الله ثلاثة عشر نبياً إلى ثلاث عشرة قرية من قُراهم، فدعوهم إلى الايمان والطاعة، وذكّروهم نِعم الله، وخوّفوهم عذابه، فكذبوهم وقالوا: ما تُعرَف له علينا من نِعمة، فقولوا لربّكم فليحبِس عنّا هذه النِّعمة إن استطاع، فارسل الله الجُرذ، فخرّبوا السدّ، فجاءهم السيل الذي لا يُطاق، وملأ ما بين الجبلين، وحمل الجنّات وكثيراً من الناس، وأغرق أموالهم ومواشيهم[٣].

القمي، قال: إنّ البحر كان باليمن، وكان سليمان أمر جنوده أن يُجْروا لهم خليجاً من البحر العَذْب إلى بلاد الهند، ففعلوا ذلك، وعقدوا عُقدةً عظيمةً من الصخر والكِلس حتى يفيض على بلادهم، وجعلوا للخليج مجاري، فكانوا إذا أرادو أن يُرسلوا منه الماء أرسلوه بقدر ما يحتاجون إليه، وكانت لهم جنّتان عن يمين وشمال من مسيرة عشرة أيام، فيها يَمُرّ المارّ لا تقع عليه الشمس من التفافهما، فلمّا عَمِلوا بالمعاصي وعَتَوا عن أمر ربّهم، ونهاهم الصالحون فلم ينتهوا، بعث الله عز وجل على ذلك السدّ الجُرذ ـ وهي الفأرة الكبيرة ـ فكانت تقلع الصخرة التي لا تسقلّها الرجال، وترمي بها، فلمّا رأى ذلك قومٌ منهم هربوا وتركوا البلاد، فما زال الجُرذ يقلع الحجر حتى خرّبوا ذلك [السدّ] فلم يشعروا حتى غشيهم السيل، وخرّب بلادهم، وقلع أشجارهم، وهو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ إلى قوله: ﴿سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ أي العظيم الشديد[٤].

﴿وَبَدَّلْنَاهُم﴾ وعوضناهم ﴿بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ اللتين كانتا عن اليمين والشمال، وذاتي أشجارٍ مثمرة نافعة

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٢٨٣.
٢. تفسير أبي السعود ٧: ١٢٨.
٣. تفسير روح البيان ٧: ٢٨٣.
٤. تفسير القمي ٢: ٢٠٠، تفسير الصافي ٤: ٢١٥.

﴿جَنَّتَيْنِ﴾ اُخريين ﴿ذَوَاتَيْ أُكُلٍ﴾ وثمر ﴿خَمْطٍ وَ﴾ مُرّ، وشجر ﴿وَأَثْلٍ﴾ يقال له طَرْفاء، ولا ثمر له ﴿وَشَيْءٍ مِن﴾ شجرِ ﴿سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾.

قيل: توصيف السِّدر بالقِلّة، لكون ثمره ـ وهو النَّبق ـ ممّا يطيب أكله[١].

وقيل: إنّ السِّدر صنفان: صنف يُؤكل من ثمره ويُنْتَفع بورقه لغسل اليد، وصنف له ثمرة عَفْصة لا تُؤكل أصلاً، وهو البرّي الذي يقال له الضالّ، والمراد ها هنا هو الثاني، فكان شجرهم من خير شجرٍ، فصيّره الله من شرّ شجرٍ بسبب أعمالهم القبيحة[٢].

﴿ذٰلِكَ﴾ التبديل، أو الجزاء الفضيع ﴿جَزَيْنَاهُم﴾ لا جزاء آخر ﴿بِمَا كَفَرُوا﴾ نعمتنا وبسبب تركهم شكرها، أو بسبب كفرهم بالله ورسله ﴿وَهَلْ نُجَازِي﴾ بسلب النعمة ووضع ضدّها مكانها ﴿إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ والمُصرّ في ترك الشكر، لا والله لا نُجازي به غيره.

وقيل: كلمة (هل) هنا للنفي[٣].

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرىً ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ [١٨ و ١٩]

ثمّ أنّه تعالى بعد ذِكر النِّعم التي كانت لهم في بلدهم وكُفرانها، ذَكَر النعمة الخارجة وكفرانهم بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ وأوجدنا مضافاً إلى ما آتيناهم من النِّعم في مساكنهم ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وفي المسافة التي بين بلادهم اليمنية ﴿وَبَيْنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ والبلاد الشامية ﴿ٱلَّتِي بَارَكْنَا﴾ وأكثرنا النِّعم ﴿فِيهَا﴾ بالمياه الكثيرة، والأشجار المثمرة، والخِصْب والسَّعة في المعيشة للأغنياء والفقراء، كفِلَسْطِين وأريحا والأُرْدُنّ.

والقمي، قال: هي مكّة[٤].

﴿قُرىً ظَاهِرَةً﴾ ومتواصلة يُرى بعضها من بعض.

قيل: كان بين سبأ والشام أربعة آلاف وسبعمائة قرية[٥]، أو ظاهرة للمسافر بكونها على الطريق غير

---

١. تفسير البيضاوي ٢: ٢٥٩، تفسير روح البيان ٧: ٢٨٤.
٢. تفسير روح البيان ٧: ٢٨٤.
٣. تفسير روح البيان ٧: ٢٨٤.
٤. تفسير القمي ٢: ٢٠١، تفسير الصافي ٤: ٢١٦.
٥. تفسير روح البيان ٧: ٢٨٥.

بعيدةٍ عنه حتى تُخفى عليه ﴿وَقَدَّرْنَا﴾ في تلك القُرى وعيّنا ﴿فِيهَا﴾ للمسافر ﴿ٱلسَّيْرَ﴾ والسلوك في الأرض مقداراً من المسافة يليق بحال عابري السبيل.

قيل: كان الغادي يَقيل في الأُخرى، والرائح منها يبيت في أُخرى إلى أن يبلُغ الشام، لا يحتاج إلى حمل زادٍ وماء، نعمةً عليهم في سفرهم[1].

وقلنا له بلسان الحال أو المقال: يا أولاد سبأ ﴿سِيرُوا﴾ في تلك القرى، وسافروا ﴿فِيهَا﴾ لمصالحكم، وإن تطاولت مدّة سفركم ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّاماً﴾ كثيرة حال كونكم ﴿آمِنِينَ﴾ من الأعداء واللصوص والسباع بسبب كَثْرة الخَلْق، ومن الجوع والعطش بسبب عِمارة المواضع، أو المراد سيروا فيها متى شئتم من الليالي والأيام لا يختلف الأمن فيها باختلاف الأوقات، فبَطِر أولاد سبأ النعمة، وسئموا طيب العيش ﴿فَقَالُوا﴾ طلباً للتعب: ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ﴾ منازل ﴿أَسْفَارِنَا﴾ بتخريب القُرى وجعلها مفاوز، ليركبوا فيها، ويحملوا الزاد، ويتطاولوا على الفقراء ﴿وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بتعريضها للسُّخط والعذاب بالشِّرك.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ وقصّتهم أخباراً دائرةً على ألسن الناس، وعِظةً وعبرةً لمن بعدهم إلى يوم القيامة ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ﴾ وفرّقناهم في الأرض ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ وغاية التفريق بحيث يُضرَب به المثل، ويقال: تفرّقوا أيدي سبأ، فانّهم كانوا قبائل ولدهم سبأ، ولم يبق أحدٌ منهم في مأرِب، بل سكن غسّان في الشام، وقُضاعة في مكة، وأسد في البحرين، وأنمار في يَثْرب، وجُذام بتِهامة، والأزد في عمان ﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ﴾ التفريق والله ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمة ودلالات واضحة وعِبراً كثيرة وحججاً قاطعة على وحدانية الله وقدرته، وغضبه على الكافرين، وإنّما تكون فائدتها ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ ومبالغ في حِفظ النفس عن المعاصي و ﴿شَكُورٍ﴾ ومُجدٍّ في أداء حقّ نِعم الله، وهو المؤمن الكامل في الإيمان المجتهد في عبادة الرحمن.

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ [٢٠ و ٢١]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان كُفران أولاد سَبأ وطُغيانهم، وتعذيبهم بسلب النِّعم، بيّن أنّها بتسويل الشيطان بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ﴾ وحقّق وأظهر ﴿إِبْلِيسُ﴾ مطابقة ما ﴿ظَنَّهُ﴾ وزعمه في حقّ

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٢٨٥.

أولاد آدم من كونهم يغوون بإغوائه للواقع حيث دعاهم إلى الشرك والعصيان فأجابوه، وأمرهم بها **﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾** وأطاعوه **﴿إِلَّا فَرِيقاً مِنَ﴾** فرق **﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾** وهم المُخلصون منهم.

وقيل: إنّ (من) بيانية[١] والمراد إلّا فِرقة المؤمِنين.

وقيل: ظنّه أنه ناري وآدم طيني، والنار تأكُل الطين[٢]. أو ظنّه أنّ بني آدم مُفسِدون في الأرض[٣].

وقيل: إنّه ظنّ أنه يقدِر على إغواء بني آدم فلمّا زيّن له الكفر والمعاصي، وقَبِلوا منه واتّبعوه، وجدهم كما ظنّ فيهم[٤].

ثمّ بيّن سبحانه أن إبليس ما قهرهم على العصيان بقوله: **﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ﴾** شيء **﴿مِن سُلْطَانٍ﴾** وقهْر بحيث يسلُب عنهم الاختيار، وإنّما كان سلطنته عليهم بالوسوسة والإغواء، ولم نجعل له هذه السلطنة **﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾** ونميّز **﴿مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ﴾** ويخاف عقابنا **﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾** ولا يُؤمن بها ولا يخاف من حسابها.

قيل: إنّ المراد بحصول العلم وجود متعلّقه[٥] **﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾** من خصوصيات خلقه وأحوالهم وبواطنهم وظواهرهم **﴿حَفِيظٌ﴾** ومُطّلع لا تَخفى عليه خافية حتى يحتاج إلى الاستعلام.

عن الباقر عليه السلام، قال: «كان تأويل هذه الآية أنه لمّا قُبِض رسول الله صلى الله عليه وآله، والظن من إبليس حين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله: إنّه ينطِق عن الهوى، فظَن بهم إبليس ظنّاً، فصدّقوا ظنّه»[٦].

وعن الصادق عليه السلام: «لمّا أمر الله نبيّه صلى الله عليه وآله أن ينصّب أمير المؤمنين عليه السلام للناس في قوله: **﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك﴾**[٧] في عليّ بغدير خمّ، فقال: من كنت مولاه فعليّ مولاه، فجاءت الأبالسة إلى إبليس الأكبر وحَثوا التُّراب على رؤوسهم، فقال لهم إبليس: ما لكم؟ قالوا: إنّ هذا الرجل قد عقد اليوم عُقدةً لا يَحُلّها شيءٌ إلى يوم القيامة. فقال لهم إبليس: كلا، إنّ الذين حوله قد وعدوني فيه عِدةً لن يَخْلُفوني، فأنزل الله عزّ وجلّ: **﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾**»[٨].

قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِن دُونِ ٱللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِن ظَهِيرٍ * وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَاعَةُ

---

١. تفسير أبي السعود ٧: ١٣٠، تفسير روح البيان ٧: ٢٨٧.
٢. تفسير روح البيان ٧: ٢٨٨.
٣. تفسير أبي السعود ٧: ١٣٠.
٤. تفسير روح البيان ٧: ٢٨٨.
٥. تفسير أبي السعود ٧: ١٣١.
٦. الكافي ٨: ٥٤٢/٣٤٥، تفسير الصافي ٤: ٢١٨.
٧. المائدة: ٦٧/٥.
٨. تفسير القمي ٢: ٢٠١، تفسير الصافي ٤: ٢١٨.

عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ إِذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ[٢٢ و ٢٣]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه وَخامة عاقبة الشِّرك والكُفران، أمر نبيّه صلى الله عليه وآله بإبطال مذهب الشِّرك، وتبكيت المشركين بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، للمشركين تهكّماً ﴿ادْعُوا﴾ ونادوا الأصنام ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ وتوهّمتم أنّهم آلهة ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وعبدتموهم فيما يهمّكم من جلب نفع أو دفع ضرّ حتى يجيبوكم، كلا لا يقدِرون على شيءٍ من ذلك لأنّهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ من خيرٍ وشرّ ونفعٍ وضرٍّ، لا ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ السبع ﴿وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ وليس لهم تصرّف فيهما ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا﴾ خلقاً وملكاً وتصرّفاً ﴿مِن شِرْكٍ﴾ ودخل ﴿وَمَا لَهُ﴾ تعالى ﴿مِنْهُم مِن ظَهِيرٍ﴾ وعونٍ كي يَعْجَز عن إنفاذ إرادته عند تركهم المعاونة، فان تتوقّعون شفاعتهم عند الله فاعلموا أنّه لا تفيد ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾ من أحدٍ لأحدٍ ﴿عِندَهُ إِلَّا﴾ إذا كانت ﴿لِمَنْ إِذِنَ لَهُ﴾ في الشفاعة ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ﴾ وأُزيل الخوف ﴿عَن قُلُوبِهِمْ﴾ بالاذن لهم في الشفاعة، قام المذنبون المنتظرون لشفاعتهم و ﴿قَالُوا﴾ لهم: أيّها الشُّفعاء ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ وأيّ شيءٍ أوحى إليكم في شأن الشفاعة فأجابهم الشُّفعاء و ﴿قَالُوا﴾: قال ربنا القول ﴿الْحَقَّ﴾ وهو الإذن في شفاعة المذنبين من المؤمنين دون غيرهم ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ والعظيم سُلطاناً، فليس لأحدٍ من أشراف الخلائق أن يتكلّم إلّا بإذنه.

وقيل: إنّ المراد من الفَزَع: الفَزَع الذي عند الوحي، فانّ من في السماوات يَفزَعون عند نزول الوحي، ثمّ يزيل الله عنهم الفَزَع، فيقولون لجَبْرئيل: ماذا قال الله؟ فيقول: قال الحقّ، أي الوحي[١].

عن الباقر عليه السلام: «وذلك أنّ أهل السماوات لم يسمعوا [وحياً] فيما بين أن بُعث عيسى بن مريم عليه السلام إلى أن بُعث محمد صلى الله عليه وآله، فلمّا بعث الله جَبْرَئيل إلى محمد صلى الله عليه وآله سَمِع أهل السماوات صوت وحي القرآن كوقع الحديد على الصفا، فصَعِق أهل السماوات، فلمّا فَرَغ من الوحي انحدر جَبْرَئيل، كلّما مرّ بأهل سماء فُزِّع عن قلوبهم. فقال بعضهم لبعضٍ: ماذا قال ربّكم؟ قالوا: الحقّ وهو العليّ الكبير»[٢].

وقيل: إنّ الله تعالى يُزيل الفَزَع عن القلوب وقت الموت، فيعترف كلّ أحدٍ بأنّ ما قال الله تعالى هو الحقّ، فينفع ذلك القول من سبق ذلك منه في حياته[٣].

وقيل: إنّ المراد الفَزَع من قيام الساعة، لأنّ الوحي إلى محمد صلى الله عليه وآله من أشراطها، فاذا أُوحي إليه فُزِّع أهل السماوات من قيام الساعة حتى إذا أُزيل الفَزَع من قلوبهم قالوا لجَبْرَئيل: ماذا قال ربّكم؟[٤]

---

١. تفسير الرازي ٢٥: ٢٥٥.
٢. تفسير القمي ٢: ٢٠٢، تفسير الصافي ٤: ٢١٩.
٣. تفسير الرازي ٢٥: ٢٥٥.
٤. تفسير الرازي ٢٥: ٢٥٥.

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِنَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدىً أَوْ فِى ضَلالٍ مُبِينٍ * قُل لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ[٢٤ ـ ٢٦]

ثمَ قرّر سبحانه عدم مالكية الأصنام شيئاً بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، تبكيتاً للمشركين: أيّها المشركون ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِنَ ٱلسَّماوَاتِ﴾ بإنزال الأمطار ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ باخراج النباتات ولا تنتظر الجواب منهم، و﴿قُلِ﴾ يرزُقكم ﴿ٱللهُ﴾ لأنّهم لا يُنكرونه بقلوبهم، وإن لم يُقرّوا باللسان خوفاً من الإلزام، ثمَ دارِهم في المُجادلة، ولا تَنْسُبهم إلى الضلال بالصراحة، بل قل: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ﴾ مُركَب ﴿هُدىً﴾ ورَشاد، نسير به إلى المقصد الأعلى ﴿أَوْ﴾ مُنْغَمر ﴿فِى ضَلَالٍ﴾ وانحرافٍ ﴿مُبِينٍ﴾ وواضح عن الحقّ.

ثمَ بالغ في الإنصاف والمُداراة معهم ﴿قُلْ﴾ أنتم أيّها المشركون ﴿لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا﴾ ولا تؤاخذون بذنوبنا ﴿وَ﴾ نحن ﴿لَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من عمل سوء، وفي نسبة الاجرام إلى نفسه واتباعه والعمل إلى الخصم، حطّ النفس، وحِفظ الخصم عن التعصّب المانع عن النظر مع كون الجملتين باعثتين إليه.

ثمَ أمر سبحانه بالمبالغة في الحثّ على النظر والتفكّر بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: اعلموا أنّه ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ وبينكم يوم القيامة ﴿رَبُّنَا﴾ حين الحشر للحساب ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ﴾ ويحكُم ﴿بَيْنَنَا﴾ وبينكم ﴿بِالْحَقِّ﴾ بعد ظهور حال كلٍّ منّا ومنكم، بأن يُدخِل المحقّين الجنّة، والمبطلين النار، فانّ الله أعلم بالحقّ والباطل ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يحقّ أن يحكم به، وبمن يحكم له ومن يحكم عليه، كما أنّه عليمٌ بغيرها من الأمور.

قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ ٱلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[٢٧و٢٨]

ثمَ أنّه تعالى بعد إثبات عجز الأصنام عن أن يَضُرّوا أو ينفعوا، بيّن عدم وجود كمال فيها يوجب استحقاقها العبادة[١] بقوله: ﴿قُلْ﴾ أيّها المشركون ﴿أَرُونِىَ﴾ الأصنام ﴿ٱلَّذِينَ ٱلْحَقْتُم﴾ إيّاهم ﴿بِهِ﴾ تعالى من حيث كونهم ﴿شُرَكَاءَ﴾ له تعالى في الألوهية، لأنظُر بأيّ صفة ألحقتموهم بالله الذي ليس كمثله شيء، وجعلتموهم شُركاء له، هل يَخْلُقون أو يَرزُقون؟ ﴿كَلَّا﴾ ليس لهم ما يجب أن يكون في

---

١. في النسخة: استحقاقهم العباد.

الإله والمعبود ﴿بَلْ﴾ المعبود بالحقّ والإله المستحقّ للعبادة ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ والغالب القاهر، والعالم بجميع الأمور، فأين شركاؤكم التي هي أخسّ الأشياء وأذلّها من هذه المرتبة العالية ودرجة الألوهية.

ثمّ أنّه تعالى بعد إبطال الشِّرك وإثبات التوحيد، بيّن صِدق رسالة الرسول إلى عامة الناس بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمدَ برسالة ﴿إِلَّا﴾ رسالة تكون ﴿كَافَّةً﴾ وعامة أو شاملة ﴿لِلنَّاسِ﴾ كلّهم إلى يوم القيامة، أو المراد ما أرسلناك في حالٍ من الأحوال إلّا حال كونك جامعاً لهم في التبليغ بحيث لا يخرُج منهم أحدٌ، كما في الحديث: «فُضّلت على الأنبياء بستّ ـ إلى أن قال ـ: وأُرسلتِ إلى الخَلْق كافة»[1].

وعن السجاد عليه السلام: «أنّ أبا طالب قال للنبيّ صلى الله عليه وآله: يا بن أخ، إلى الناس كافة أُرْسِلت، أم إلى قومك خاصة؟ قال: لا، بل إلى الناس أُرسلت كافة، الأبيض والأسود، والعربي والعجميّ، والذي نفسي بيده لأدعونَ إلى هذا الأمر الأبيض والأسود، ومن على رؤوس الجبال، ومن في لُجج البحار»[2].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ الله أعطى محمداً شرائع نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ـ إلى أن قال ـ: وأرسله كافةً إلى الأبيض والأسود، والجنّ والإنس»[3]. ﴿بَشِيراً﴾ للمؤمنين بالثواب ﴿وَنَذِيراً﴾ للكافرين بالعقاب ﴿وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ لغفلتهم وإنهماكهم في الشهوات وتركهم النظر في دلائل صدق محمد صلى الله عليه وآله ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ منصبه الرفيع، وعِظم نِعمة رسالته حتى يؤمنوا به، ويشكروا هذه النعمة، فيحملهم الجهل على مخالفته وعصيانه.

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُل لَكُم مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلاَ تَسْتَقْدِمُونَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُؤْمِنَ بِهٰذَا ٱلْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ ٱلظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُجْرِمِينَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنداداً وَأَسَرُّوا ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٢٩٤ و٢٩٥. ٢. تفسير الصافي ٤: ٢٢٠.
٣. الكافي ٢: ١/١٤، تفسير الصافي ٤: ٢٢٠.

رَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَالَ فِى أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[٢٩ ـ ٣٣]

ثمَ أردف سبحانه ذكر الرسالة بذكر المعاد الذي هو الأصل الثالث بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ من فرط جهلهم بطريق الاستهزاء: يا محمد، ويا أتباعه، أنتم تَعِدوننا بمجيء القيامة، فقولوا ﴿مَتَىٰ﴾ وفي أيّ وقتٍ يكون إنجاز ﴿هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ ووقوعه ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيه؟ ﴿قُل﴾ يا محمّد، تهديداً لهم: اعلموا أيّها المنكرون للمعاد أنّ ﴿لَكُم مِيعَادُ يَوْمٍ﴾ عظيمٍ، ووعد وقتٍ شديدٍ كثير الأهوال ﴿لَا تَسْتَأْخِرُونَ﴾ ذلك الموعود عن ذلك الوقت، ولا تَقْدِرون على تعويقه ﴿عَنْهُ سَاعَةً﴾ ودقيقة ﴿وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ عليه.

ثمَ حكى عنهم إنكار جميع اُصول الدين من التوحيد والرسالة والمعاد، وجميع أحكام الله بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عِناداً وطُغياناً: ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْآنِ﴾ الذي يدّعي محمدٌ أنّه من الله، ولا بما فيه من الأصول والفُروع ﴿وَلَا بِالَّذِى﴾ نزل ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وقبله.

ثمَ لمّا يأسوا النبي ﷺ من إيمانهم، وعده سبحانه بأنّهم في القيامة في أذلّ أحوال الموقوفين للحساب بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ يا محمد، أو أيّها العاقل ﴿إِذِ﴾ الكفّار ﴿ٱلظَّالِمُونَ﴾ على أنفسهم بإنكار المعاد ﴿مَوْقُوفُونَ﴾ ومَحْبُوسون ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وفي موقف حساب أعمالهم ﴿يَرْجِعُ﴾ ويَرُدّ ﴿بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ آخر منهم ﴿ٱلْقَوْلَ﴾ ويجادل كلٌّ مع غيره، لعجبت ممّا ترى.

ثمَ كأنه قيل: ما يقولون فقال سبحانه: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا﴾ واستحقروا من السَّفِلة ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا﴾ وتعظّموا عن عبادة الله والانقياد للأنبياء، لرئاستهم وكثرة أموالهم: أيّها الرّؤساء ﴿لَوْلَا أَنتُمْ﴾ وصَدُّكم لنا عن الايمان ﴿لَكُنَّا﴾ والله في الدنيا ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ بالله ورُسله ﴿قَالَ﴾ الرّؤساء ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا﴾ وتأنّفوا عن الايمان والتبعية للرسل ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا﴾ إنكاراً لقولهم وردّاً عليهم: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ﴾ ومنعناكم ﴿عَنِ﴾ قبول ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ والايمان ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم﴾ الهدى ومقتضيه من الرسول والكتاب والمعجزات، لا والله ﴿بَلْ كُنتُم﴾ لخُبث ذاتكم وانهماككم في الشهوات ﴿مُّجْرِمِينَ﴾ وطاغين ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا﴾: نعم، أنتم صَدَدتمونا عن الهُدى، ولكن لا بالاجبار والقهر ﴿بَلْ مَكْرُ﴾ كم في ﴿ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ وحِيَلكم في صرفنا عن اتّباع الحقّ، صدّنا عنه ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا﴾ وتُرغبوننا ﴿أَن نَّكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ﴾ تعالى ﴿أَندَاداً﴾ وشُركاء.

ثمَ كلا الفريقين أضمروا ﴿وَأَسَرُّوا﴾ وأخفوا في قلوبهم ﴿ٱلنَّدَامَةَ﴾ والحَسْرة على ما فعلا من الضلال والاضلال، خوفاً من التعيير، أو عجزاً عن الاظهار ﴿لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَالَ﴾ من النار ﴿فِى أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالحقّ من التوحيد والرسالة والمَعاد في الدنيا من المتبوعين والتابعين لكفرهم ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا﴾ جزاء ﴿مَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والمعاصي، لا والله لا يُجزَون إلّا بعملهم.

وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِن نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[٣٤-٣٦]

ثمّ لمّا يأسوا النبيّ ﷺ من إيمانهم بقولهم: (لن نؤمن) أبداً (بهذا القرآن) سلّى سبحانه نبيّه ﷺ بذكر عدم إيمان التابعين للهوىٰ والمحبّين للدنيا بالرسل في الأعصار السابقة أيضاً بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ﴾ وبلدةٍ ﴿مِن﴾ نبي ﴿نَذِيرٍ﴾ للناس ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ ومُتَنعموها ورؤساؤها تكبّراً وعِناداً للنُّذُر: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ بزعمكم من التوحيد والمعاد والأحكام ﴿كَافِرُونَ﴾ ومُنكِرون، هذه سيرة أغنياء جميع الأمم المتبوعين للفقراء والسَّفِلة، فلا يَهُمَك إنكار أكابر قومك رسالتك، بل لم يقنعوا بالانكار، واستدلّوا على بُطلان دعوى رسالتهم ﴿وَقَالُوا نَحْنُ﴾ أحبّ إلى الله منكم لأنّا ﴿أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً﴾ منكم في الدنيا، وهذه علامة حُبّه لنا ﴿وَمَا نَحْنُ﴾ في الآخرة على تقدير وقوعها ﴿بِمُعَذَّبِينَ﴾ لأنّ من أكرمه الله في الدنيا لا يهينه في الآخرة، أو لأنّه لا عذاب في الآخرة لأحدٍ.

ثمّ أمر سبحانه نبيّه ﷺ بردّهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ﴾ ويُوسّع ﴿ٱلرِّزْقَ﴾ في الدنيا ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ بسطه وتوسعته له، مؤمناً كان أو كافراً ﴿وَيَقْدِرُ﴾ ويضيق على من يشاء تقديره وتضييقه عليه من مؤمنٍ أو كافرٍ حسب اقتضاء حكمته البالغة، فليس بسطه دليلاً على قُرب المبسوط له منه، وتضييقه دليلاً على بُعد من قُدّر عليه عنه، فانّ القرب والبعد والثواب والعقاب منوطان بالايمان والكفر والطاعة والعصيان، كما في الحديث: «الدنيا عرضٌ حاضرٌ يَنال منها البَرّ والفاجر، والآخرة وعدٌ صادقٌ يحكُم فيها مَلِك قاهر»[1]. ﴿وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ الذين هم أهل الغفلة والخِذلان ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فيَزْعُمون أنّ بسط الرزق للكرامة عند الله، والضيق للهوان عليه، مع أنّ كثيراً ما يكون الأول للاستدراج، والثاني لرفع الدرجة[2].

وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٢٩٩.

٢. تفسير أبي السعود ٧: ١٣٥.

فَأُولٰئِك لَهُمْ جَزاءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَاتِ آمِنُونَ * وَٱلَّـذِينَ يَسْعَوْنَ فِى آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولٰئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ * قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُـوَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ [٣٧ـ ٣٩]

ثمّ قرّر سبحانه ذلك، وصرّح ببطلان زعمهم بقوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ﴾ أيها الناس ﴿وَلَا أَوْلَادُكُم﴾ التي تفتخرون وتفتنون بها ﴿بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ﴾ وتُحبّبكم من الخِصال، أو الحسنات ﴿عِندَنا زُلْـفَىٰ﴾ وقُربة ومحبوبية موجبة للإكرام والثواب ﴿إِلَّا﴾ أموال ﴿مَنْ آمَنَ﴾ بما يجب الايمان به ﴿وَعَـمِلَ﴾ عملاً ﴿صَالِحاً﴾ مرضياً عند الله، بانفاقها في سبيل الله، وأولادهم بتعليمهم الخير وترغيبهم إليه وتربيتهم على الطاعة والصلاح. وقيل: يعني ولكن إيمان من آمن وعَمِل صالحاً يقرّبه[١]. ﴿فَأُولٰئِك﴾ المؤمنون الصالحون ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَزَاءُ ٱلضِّعْفِ﴾ وثواب عشرة أعمال فما فوق على عملٍ واحدٍ ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ من الحسنات ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَاتِ﴾ والقُصور العالية في الجنة ساكنون، و ﴿آمِنُونَ﴾ من زوال النِّعم وسائر المكاره.

ثمّ أنّه ﷺ بعد بيان حُسن حال المؤمنين، بيّن سُوء حال الكفّار بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِى﴾ ردّ ﴿آيَاتِنَا﴾ والطعن فيها بظنّ أنّهم يكونون ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ لنا عن تعذيبهم فـ﴿ـأُولٰئِكَ فِـى ٱلْـعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ وداخلون.

ثمّ بيّن سبحانه أنّ البسط والتضييق في الرزق يكون للمؤمنين أيضاً بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّـى يَـبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ البسط له ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ المؤمنين تارةً ﴿وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ ويضيّق عليه أُخرى ابتلاءً وحكمةً، فلا تخشوا الفقر بالانفاق حيث إنّ ما بذلتم ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِن شَيْءٍ﴾ من أموالكم في سبيل الله ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ ويُعطيكم عوضاً باقياً لكم في الآخرة ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿خَـيْرُ﴾ الذين ترونهم ﴿ٱلرَّازِقِينَ﴾ للخلق كالسلاطين والموالي وغيرهم، حيث إنّه تعالى يَرْزُق بلا مِنّةٍ وتوقّع عوض.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُؤْمِنُونَ * فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ [٤٠ـ ٤٢]

---

١. تفسير مجمع البيان ٨: ٦١٥، تفسير الرازي ٢٥: ٢٦٢.

ثمّ أنه تعالى بعد تهديد المتكبّرين المعارضين للرُّسل بالحضور في العذاب، هدّدهم بالفضيحة والهَوان يوم القيامة بقوله: ﴿وَ﴾ ذكّرهم ﴿يَوْمَ﴾ يبعث الله المشركين العابدين للملائكة و ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ إلى المحشر ﴿جَمِيعاً﴾ المستكبرين منهم والمستضعفين ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾ توبيخاً وتفضيحاً لهم وإقناطاً لهم من شفاعة معبوداتهم ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾ الذين هم أشرف شركائهم: أيّها الملائكة ﴿أَهٰؤُلَاءِ﴾ الكفّار ﴿إِيَّاكُمْ كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَعْبُدُونَ﴾؟ فأجاب الملائكة و ﴿قَالُوا﴾ تنزيهاً له تعالى عن الشريك: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ ونُنزّهك من أن نعبُد غيرك ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ ومعبودنا وحافظ صلاحنا ﴿مِن دُونِهِم﴾ إذن كيف نلتفت إلى عبادتهم إيانا، ونرضى بخضوعهم لنا! إنّهم لم يكونوا يَعْبُدوننا حقيقةً ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ والشياطين الآمرين لهم بالشِّرك، والمُربين عنده عبادة غيرك ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم﴾ بقلوبهم ﴿مُّؤْمِنُونَ﴾ وبتسويلاتهم يُصدّقون، وأنت المُطّلع على ضمائر جميعهم. وقيل: إنّ ضمير الجمع في (أكثرهم) راجعٌ إلى الإنس[1]. وقيل: إنّ الأكثر هنا بمعنى الكُلّ[2].

﴿فَالْيَوْمَ﴾ أيّها الملائكة الذين كان المشركون يرجون شفاعتكم وخيركم ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ﴾ آخر منكم، فكيف لغيركم من الإنس، أو لبعض الإنس ﴿نَّفْعاً وَلَا ضَرّاً﴾ وقيل: إنّ الخطاب إلى الكفّار[3] ﴿وَنَقُولُ﴾ الله ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ على الله بتضييع حقّه، وعلى أنفسهم باختيار الكفر وتعريضها للعذاب: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم﴾ في الدنيا ﴿بِهَا﴾ وبوعدها ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ الرُّسل.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرىً وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَمَا آتَيْنَاهُم مِن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ * وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ[٤٣ـ٤٥]

ثمّ أنه تعالى بعد حكاية تكذيب الأمم السابقة رُسلهم، حكى تكذيب هذه الأمّة خاتم النبيين ﷺ بقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ القرآنية ودلائل التوحيد حال كونها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ وواضحات الدلالات على صدق الرسول ﴿قَالُوا﴾ إنكاراً لرسالة الرسول ﴿مَا هٰذَا﴾ الذي يدّعي الرسالة ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾ ويصرِفكم ﴿عَن﴾ عبادة ﴿مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾ من الأصنام في الأزمنة

---

١. تفسير أبي السعود ٧: ١٣٧، تفسير روح البيان ٧: ٣٠٣.
٢. تفسير أبي السعود ٧: ١٣٧.
٣. تفسير الرازي ٢٥: ٢٦٥، تفسير أبي السعود ٧: ١٣٧.

المتطاولة، ويستتبعكم ويترأس عليكم ﴿وَقَالُوا﴾ إنكاراً لصدق القرآن: ﴿مَا هٰذَا﴾ القرآن ﴿إِلَّا إِفْكٌ﴾ وكلامٌ مُموّهٌ ﴿مُفْتَرًى﴾ ومكذوبٌ على الله ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من المشركين وأهل الكتاب ﴿لِلْحَقِّ﴾ والقرآن الصدق ﴿لَمَّا جاءَهُمْ﴾ من قبل الله: ﴿إِنْ هٰذَا﴾ القرآن، وما هو ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

ثمّ لامهم سبحانه على اتّخاذهم الدين بغير دليلٍ بقوله: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُم﴾ وما أنزلنا عليهم ﴿مِن كُتُبٍ﴾ سماوية دالة على صحّة مذهب الشِّرك ﴿يَدْرُسُونَهَا﴾ ويقْرؤونها مكرَراً بتفكرٍ وتأملٍ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ يدعوهم إلى الشرك، ويخوّفهم بالعقاب على تركه.

ثمّ هدّدهم بقوله: ﴿وَكَذَّبَ﴾ الأمم ﴿ٱلَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ وفي الأعصار السابقة على عصرهم آيات الله ورسله كما كذّبوك ﴿وَ﴾ الحال أنّ هؤلاء ﴿مَا بَلَغُوا﴾ وما وجدوا ﴿مِعْشَارَ﴾ ما أعطينا أُولئك الأمم السابقة، وعُشراً، وعُشر عُشر ﴿مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ من القوى الجسمانية وكَثْرة الأموال والأولاد والأعوان.

ثمّ فسر سبحانه التكذيب بقوله: ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾ المبعوثين إليهم في دعوى الرسالة ودعوتهم إلى توحيدي ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ وإنكاري لهم وغضبي عليهم بإنزال عذاب الاستئصال وقطع دابرهم، فما خطر أُولئك المكذّبين لك بجنبهم، فليحذروا من ما ابتُلي به أُولئك الأمم.

قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ[٤٦]

ثمّ أنه تعالى بعد حكاية إصرار قومه عليه السلام على إنكار توحيد الله ورسالة الرسول وصدق القرآن، وتوبيخهم على التديّن بالشرك بغير دليلٍ قاطعٍ عليه، بل بتقليد الآباء وتهديدهم بالعذاب، أمر سبحانه نبيّه صلى الله عليه وآله بنصحهم بألطف بيانٍ، وحثّهم على التفكر في أمر رسالته بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لقومك: يا قوم ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُم﴾ وأنصح لكم ﴿بِوَاحِدَةٍ﴾ مهمةٍ من الخِصال، أو الحسنات، وهي ﴿أَن تَقُومُوا﴾ من مجلسكم أو مجلس رسولكم، وتتفرّقوا من مجامعكم عنده ﴿لِلهِ﴾ ولرضاه ووجهه. وقيل: يعني أن تقوموا لعبادة الله وحده[1] ﴿مَثْنَىٰ﴾ واثنين اثنين ﴿وَفُرَادَىٰ﴾ وواحداً واحداً، فانّ في الكَثْرة والازدحام يقلّ الانصاف ويكثُر الخلاف، ويُشوّش الخاطر، ويثور الغضب ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ في أنفسكم في أمر رسالتي وبياناتي، وأخلاقي وأعمالي، وسيرتي ومعجزاتي، حتى تعلموا أنه ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ وبمن يدعوكم إلى توحيد الله ومعارفه، ويأمُركم بالحسنات وصالح الأعمال والأخلاق،

---

١. تفسير الرازي ٢٥: ٢٦٨، تفسير أبي السعود ٧: ١٣٨.

ويزجُركم عن القبائح، ويعلّمكم المواعظ والحكم الكثيرة شيء ﴿مِن جِنَّةٍ﴾ وخِفّة العقل يدعوه إلى دعوى النبوة وتحمّل أعباء الرسالة، كما زعمتم، فاذا علمتم أنّه أرجح أهل العالم عقلاً، وأنزههم نفساً، وأصدقهم قولاً، وجب عليكم اتّباعه والايمان به ﴿إِنْ﴾ صاحبكم، وما ﴿هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ ومُخوّف ﴿لَكُم﴾ من ربكم ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وقبل ابتلائكم به في الآخرة.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ الله جلّ ذكره أنزل عزائم الشرائع وآيات الفرائض في أوقات مختلفة، كما خلق السماوات والأرض في ستّة أيام، ولو شاء أن يَخْلُقها في أقلّ من لمح البصر لخلق، لكنّه جعل الأناة[1] والمُداراة مثالاً لأمنائه، وإيجاباً للحُجّة على خلقه، فكان أوّل ما قيّدهم به الاقرار بالوحدانية والربوبية والشهادة بأن لا إله إلّا الله، فلمّا اقرّوا بذلك تلاه بالاقرار لنبيه بالنبوة، والشهادة له بالرسالة، فلمّا انقادوا لذلك فرض عليهم الصلاة، ثمّ الصوم، ثمّ الحجّ، ثمّ الجهاد، ثمّ الزكاة، ثمّ الصدقات وما يجري مجراها من مال الفيء، فقال المنافقون: هل بقي لربّك علينا شيءٌ آخر يفرضه فتذكُره لتسكُن أنفسنا إلى أنه لم يبق غيره؟ فأنزل الله في ذلك: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾ يعني الولاية» الخبر[2].

قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِ عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ[٤٧ و ٤٨]

ثمّ أمره سبحانه بتأمين قلوبهم من الطمع في أموالهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ إن كنتم لا تؤمنون لخوفكم من طمعي في أموالكم، فاعلموا أنّ ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِنْ أَجْرٍ﴾ على رسالتي ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾.

قيل: لمّا نزل ﴿قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾[3] قال صلى الله عليه وآله: «لا تؤذوني في قرابتي» فلمّا سبَّ الأصنام، قال المشركون: ما أنصفنا محمد يسألنا أن لا نُؤذيه في قرابته، وهو يُؤذينا بسبّ آلهتنا! فنزلت هذه الآية[4]. يعني إن شئتم آذوا قرابتي ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ وما ثوابي ﴿إِلَّا عَلَى ٱللهِ﴾ لأنّ عملي له ﴿وَهُوَ﴾ على خلوص نيّتي مطّلع، أو على رسالتي شاهدٌ لأنّه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

عن الباقر عليه السلام في هذه الآية: «أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله سأل قومه أن يُوادّوا أقاربه ولا يُؤذوهم، وأمّا قوله: ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ يقول: ثوابه لكم»[5].

وعنه عليه السلام: «يعني أجر المودة التي لم أسألكم غيره فهو لكم، تهتدون به، وتنجون من عذاب يوم

---

١. الأناة: الحِلم والوقار. ٢. الاحتجاج: ٢٥٤، تفسير الصافي ٤: ٢٢٥. ٣. الشورى: ٤٢/٢٣.
٤. تفسير روح البيان ٧: ٣٠٨. ٥. تفسير القمي ٢: ٢٠٤، تفسير الصافي ٤: ٢٢٦.

القيامة»[١].

وعنه عليه السلام أيضاً: «أجر ما دعوتكم إليه من إجابتي وذُخره، فهو لكم دوني»[٢].

ثمّ لمّا كان الكفّار يستبعدون تخصيص الوحي والرسالة به عليه السلام، ردّهم سبحانه بقوله: **﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ﴾** ويرمي **﴿بِالْحَقِّ﴾** ويُنزله على من يراه أهلاً له، أو يرمي به الباطل فيَدْمَغه ويُعْدِمه، وهو **﴿عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ﴾** فيعلم ضمائر خلقه واستعداداتهم، ويعلم خفايا الأُمور ومنها أمر الآخرة.

قُلْ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ * قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِى إِلَيَّ رَبِّى إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ[٤٩و٥٠]

ثمّ أمر نبيّه صلّى الله عليه وآله بالإخبار بمجيء الحقّ الذي أخبر بأنّه تعالى يقذفه بقوله: **﴿قُلْ﴾** يا محمد **﴿جَاءَ ٱلْحَقُّ﴾** الموعود قذفه، وهو التوحيد ودين الاسلام **﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَاطِلُ﴾** والشرّ **﴿وَمَا يُعِيدُ﴾** قيل: هو كنايةٌ عن زواله وذَهابه[٣].

عن ابن مسعود: أنّ النبي صلّى الله عليه وآله دخل مكّة وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، وجعل يَطْعَنها بعودٍ في يده، ويقول: «جاء الحقّ وزهق الباطل **﴿قُلْ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾**»[٤].

وعن الرضا، عن آبائه عليهم السلام، مايقرُب منه[٥].

ثمّ قرّر رسالته بقوله: **﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ﴾** عن الحقّ **﴿فَإِنَّمَا أَضِلُّ﴾** ووباله **﴿عَلَىٰ نَفْسِى﴾** ولا يتعدّى إلى غيري **﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ﴾** إلى الحقّ ووصلت إليه **﴿فَبِمَا يُوحِى إِلَيَّ رَبِّى﴾** من الحكمة والبيان **﴿إِنَّهُ﴾** تعالى **﴿سَمِيعٌ﴾** لمقالي ومقال أعدائي (عليم) بما هو الحقّ منهما وما هو الباطل و **﴿قَرِيبٌ﴾** منّا يأخُذ المُبطِل بلا تحمّل زَحمة البُعد وتأخير الأخذ.

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَكَانٍ قَرِيبٍ * وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ * وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ * وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِى شَكٍّ مُرِيبٍ[٥١ـ٥٤]

ثمّ هدّد المشركين بقوله: **﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾** المشركين والعصاة يا محمد، أو يا ابن آدم **﴿إِذْ فَزِعُوا﴾** من

---

١. الكافي ٨: ٥٧٤/٣٧٩، تفسير الصافي ٤: ٢٢٦.
٢. مجمع البيان ٨: ٦٢٠، تفسير الصافي ٤: ٢٢٦.
٣ و ٤. تفسير روح البيان ٧: ٣٠٨.
٥. أمالي الطوسي: ٦٨٣/٣٣٦، تفسير الصافي ٤: ٢٢٦.

رؤية العذاب عند الموت، أو حين البعث، أو يوم بدر. وعن الباقر عليه السلام: «إذ فزعوا من الصوت، وذلك الصوت من السماء»[١] لرأيت أمراً هائلاً معجباً ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ لهم من عذاب الله، ولا نجاة بهربٍ أو تحصّنٍ، أو سائر وسائل الحفظ، وإن أخّر عقوبتهم، وإنّما يستعجل من يخاف الفوت.

عن ابن عباس: أنّ ثمانين ألفاً، وهم السفياني وقومه، يخرجون في آخر الزمان، فيقصدون الكعبة ليُخرّبوها، فاذا دخلوا البيداء خُسِف بهم، فلا ينجو منهم إلّا السري الذي يُخبِر عنهم، وهو جُهينة، فلذلك قيل: وعند جُهينة الخبر اليقين[٢].

وعن الباقر عليه السلام: «لكأني أنظُر إلى القائم وقد أسند ظهره إلى الحجر -إلى أن قال-: فإذا جاء إلى البيداء يخرُج إليه جيش السفياني، فيأمُر الله عزّ وجلّ الأرض فتأخُذ بأقدامهم، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ قال: من تحت أقدامه خُسِف بهم»[٣] وقيل: من ظهر الأرض إلى بطنها، أو من الموقف إلى النار، أو من صحراء بدرٍ إلى قليبها[٤].

﴿وَقَالُوٓا﴾ عند معاينة العذاب، لدفعه عن أنفسهم بإقرارهم به، أو بدين محمد صلّى الله عليه وآله، أو بقيام القائم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ ولا ينفعهم عند معاينة العذاب، وبعد انقضاء زمان التكليف، وهو لخروجهم عنه صار بعيداً عنهم ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ وتناول الايمان ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ وهو الدنيا ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ وفي زمان التكليف ﴿وَ﴾ كانوا ﴿يَقْذِفُونَ﴾ ويرمُون ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ ويتكلّمون بما لم يطّلعوا عليه كمن[٥] يرمي الحجارة ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ إلى ما لا يراه من المرماة ﴿وَحِيلَ﴾ وأوجد المانع من الوصول ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بعد الموت ﴿وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من النجاة من العذاب والوصول إلى النعيم الدائم ﴿كَمَا فُعِلَ﴾ ذلك ﴿بِأَشْيَاعِهِم﴾ والذين كانوا قبلهم من المكذّبين الذين أُهلكوا بالعذاب ﴿مِن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِى شَكٍّ﴾ ممّا يجب الايمان به ﴿مُّرِيبٍۭ﴾ ومُوقعٍ لقلوبهم في الاضطراب.

عن الصادق عليه السلام: «من قرأ الحمدين حمد سبأ وحمد فاطر في ليله، لم يزل في ليلته في حِفظ الله وكلاءته وإن قرأهما في نهاره لم يُصِبْه في نهاره مكروهٌ، وأُعطي خير الدنيا وخير الآخر، ما لم يَخْطِر على قلبه، ولم يبلُغ مُناه»[٦].

رزقنا الله توفيق تلاوتهما في الليل والنهار، كما وفّقنا لاتمام تفسير الأُولى منهما، وله الحمد والمنّة على نِعمهِ الظاهرة والباطنة.

---

١. تفسير القمي ٢: ٢٠٥، تفسير الصافي ٤: ٢٢٦.
٢. تفسير أبي السعود ٧: ١٤٠، تفسير روح البيان ٧: ٣١٠.
٣. تفسير القمي ٢: ٢٠٥ و٢٠٦، تفسير الصافي ٤: ٢٢٧.
٤. تفسير أبي السعود ٧: ١٤٠.
٥. في النسخة: كما.
٦. ثواب الأعمال: ١١٠، تفسير الصافي ٤: ٢٢٨.

في تفسير سورة فاطر

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلّهِ فَاطِرِ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً أُوْلِى أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ ٱللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[١]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة سبأ المبدوءة بحمد الله على نعمة الإبداء والإعادة، وتوبيخ المشركين ومنكري المعاد، ومُحاجّتهم وتهديدهم بالعذاب، وذمّهم على شكّهم في أصول التوحيد والرسالة ودار الجزاء، نَظَمَ بعدها سورة فاطر المبدوءة بحمد الله على نعمه الظاهرية، وهي خلق الموجودات، ونِعمه الباطنية وهي إنزال العلوم والمعارف والأحكام والآداب بتوسّط الملائكة والأنبياء والرسل والأولياء، وذكر الأدلة الدالّة على التوحيد والمعاد الرافعة للشكّ فيهما عن القلوب، فابتدأ فيهما بذكر الأسماء المباركات بقوله: ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثمّ أردفها بحمد ذاته المقدّسة بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ والثناء الجميل ﴿لِلّهِ﴾ ثمّ وصف ذاته بالقدرة الكاملة والنِّعم الفاضلة الموجبتين لاستحقاقه الحمد بقوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومُبدِعهما من غير مثالٍ سابقٍ و ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً﴾ ووسائط بينه وبين أنبيائه ورُسله وأوليائه، يُبلّغون إليهم العلوم والمعارف والحكم والأحكام والآداب بالوحي والإلهام والرُّؤى الصادقة المتّصفين بكونهم ﴿أُوْلِى أَجْنِحَةٍ﴾ وذويها كالطيور.

في كيفية خلق الملائكة

ثمّ بيّن عدد أجنحتهم[1] بقوله: ﴿مَثْنَىٰ﴾ واثنين اثنين ﴿وَثُلاَثَ﴾ وثلاث ثلاث ﴿وَرُبَاعَ﴾ وأربع أربع. قيل: إنّ تفاوتهم في عدد أجنحتهم حسب تفاوت مراتبهم[2]، فانّهم مع خِفّة أجسادهم ولطافتها مُحتاجون إليها، فانّهم ينزلون من السماء إلى الأرض، ويعرُجون منها إلى محلّهم من السماء في طرفة عين و ﴿يَزِيدُ﴾ الله ﴿فِى ٱلْخَلْقِ﴾ منهم جثّةً وقامةً وحُسناً وجَناحاً ﴿مَا يَشَاء﴾ منها.

---

١. في النسخة: جناحهم.

٢. تفسير البيضاوي ٢: ٢٦٧، تفسير أبي السعود ٧: ١٤١، تفسير روح البيان ٧: ٣١٢.

رُوي أنّ صنفاً من الملائكة لهم ستة أجنحة، بجَناحين منها يَلُفّون أجسادهم، وبآخرين منها يطيرون فيما اُمروا به، وجَناحان منها مرخيان على وجوههم حياءً من الله[١].

ولعلّ كَثْرة بُعد مقامهم من الأرض من موجبات كثرة أجنحتهم، روت العامة عن النبيّ ﷺ أنّه رأى جَبْرئيل ليلة المعراج وله ستمائة جَناح اثنان منها يبلُغان من المشرق إلى المغرب[٢].

وعن الصادق عليه السلام، قال: «خلق الله الملائكة مختلفة، وقد رأى رسول الله ﷺ جَبْرئيل وله ستمائة جَناح» الخبر[٣].

وعن النبي ﷺ أنه رأى جَبْرئيل ليلة المِعراج وله ستمائة ألف جَناح[٤].

وعنه عليه السلام: «أنّ لله تعالى مَلَكاً يقال له دردائيل، كان له ستة عشر ألف جَناح»[٥] إذن تُحمَل الآية وما عن النبي ﷺ ـ من أنّ الملائكة على ثلاثة أجزاء، جزء له جَناحان، وجزءٌ له ثلاثة أجنحة، وجزءٌ له أربعة أجنحة[٦] ـ على بيان وجود هذه الأصناف فيهم، لا إرادة الحصر فيها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ في (التوحيد) عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه سُئِل عن قُدرة الله عزّ وجلّ، فقام خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: «إنّ لله تبارك وتعالى ملائكة لو أن مَلَكاً منهم هبط إلى الأرض ما وسعته لِعظَم خَلْقهِ وكَثْرة أجنحته، ومنهم من لو كلّفت الجنّ والإنس أن يصفوه ما وصفوه، لبُعد ما بين مفاصله، وحسن تركيب صورته، وكيف يُوصَف من ملائكته من سبعمائة عام ما بين مَنْكِبيه وشَحْمة اُذنيه، ومنهم من يَسُدّ الأفق، بجناح من أجنحته دون عِظَم بدنه، ومنهم مَن السماوات إلى حُجزته، ومنهم من قدمه على غير قرار في جوّ الهواء الأسفل والأرضون إلى ركبتيه، ومنهم من لو اُلقي في نُقرة إبهامه جميع المياه لوسعتها، ومنهم من لو اُلقيت السفينة في دموع عينيه لجرت دهر الداهرين، فتبارك الله أحسن الخالقين»[٧].

واعلم أنّ الروايات دالّة على كون الملائكة أجساماً لطيفة في غاية الكَثْرَة، فلا يجوز إنكاره وإنكار وجود الأجنحة لهم، أو تأويل الجَناح بالجُملة، كما حكى عن جماعة أنّهم قالوا: إنّ الملائكة له وجه إلى الله يأخذُون منه نِعمه، ويُعْطُون مَن دونهم ممّا أخذوه بإذن الله، كما قال تعالى: **﴿نزل به الروح الامين على قلبك﴾**[٨] وقوله: **﴿علمه شديد القوى﴾**[٩] وقال تعالى في حقّهم: **﴿فالمدبرات أمراً﴾**[١٠]

---

١ و٢. تفسير أبي السعود ٧: ١٤١، تفسير روح البيان ٧: ٣١٣.
٣. تفسير القمي ٢: ٢٠٦، تفسير روح البيان ٤: ٢٢٩.
٤. تفسير الصافي ٤: ٢٢٩.
٥. كمال الدين: ٣٦/٢٨٢، تفسير الصافي ٤: ٢٢٩.
٦. الكافي ٨: ٤٠٣/٢٧٢، تفسير الصافي ٤: ٢٢٩.
٧. التوحيد: ٣/٢٧٨، تفسير الصافي ٤: ٢٣٠.
٨. الشعراء: ١٩٤/٢٦.
٩. النجم: ٥/٥٣.
١٠. النازعات: ٥/٧٩.

فهما جَناحان، وفيهم من يفعل ما يفعل من الخير بواسطة، فالفاعل بواسطة فيه ثلاث جهات، ومنهم من له أربع جهات وأكثر[١].

وقيل: إنّ المراد بالأجنحة الصفات الملكية والقوى الرّوحانية، وليست كأجنحة الطير[٢].

وفي (الكافي) عن الثُّمالي، قال: دخلتُ على علي بن الحسين عليه السلام فاحتبست في الدار ساعة، ثمّ دخلتُ البيت وهو يلتقط شيئاً، وأدخل يده من وراء السِّتر، فناوله من كان في البيت، فقلت: جُعِلتُ فداك، هذا الذي أراك تلتقطه أي شيءٍ هو؟ قال: «فَضْلة من زَغَب الملائكة نجمعه إذا خَلونا، نجعله سَيْحاً[٣] لأولادنا» فقلت: جعلت فداك، فانّهم ليأتونكم؟ فقال: «يا أبا حمزة، إنّهم ليزاحمونا على تُكآتنا»[٤].

مَّا يَفْتَحِ ٱللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللهِ يَرْزُقُكُم مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ * وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ[٢ ـ ٤]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان كمال قدرته بخلق السماوات والأرض والملائكة، واستخدامهم في الأمور، بيّن تفرّده في تدبير العالم وإعطاء النِّعم بقوله: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللهُ لِلنَّاسِ مِن﴾ باب من أبواب ﴿رَحْمَةٍ﴾ عامة كالسَّعة والصِحّة والنُّصرة ونظائرها من النِّعم، أو رحمة خاصة كالتوفيق والعلم والحكمة ونظائرها، ويُرسلها ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ ولا مانع من إرسالها من خلقه، ولا قادر على حبسها ممّا سواه ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ الله ويمنع من إعطائه وإرساله ﴿فَلَا مُرْسِلَ﴾ ولا مُعطي ﴿لَهُ﴾ ممّا سوى الله و ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ فلا يكون العطاء والمنع إلّا له تعالى، لعدم وجدان غيره شيئاً وقدرته على شيءٍ ﴿وَهُوَ﴾ تعالى وحده ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ القادر على كلّ شيءٍ، والقاهر على كلّ شيءٍ، فلا يُنازعه في إعطائه ومنعه أحدٌ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ العالم بالمصالح والمفاسد، والمُطّلع على المَحلّ القابل للاعطاء وغيره، فهو المستحقّ للحمد والثناء والعبادة والخُضوع.

---

١. تفسير الرازي ٢٦: ٣. ٢. تفسير روح البيان ٧: ٣١٣.

٣. السيح: ضرب من البرود، وفي بعض نسخ المصدر: سُبحاً: جمع سُبحة، وقد يراد بها القلادة تُجعل في سلك وتعلّق على الأولاد للعوذة. قال في (المرآة): في (بصائر الدرجات): سِخاباًلأولادنا، في أخبار كثيرة، السِّخاب: خيط يُنظم فيه خرز ويلبسه الصبيان والجواري، وقيل: هو قلادة من قرنفل ومسك ونحوه، وليس فيها من اللؤلؤ والجوهر شيء. مرآة العقول ٤: ٢٩٠.

٤. الكافي ١: ٥٣/٣٢٤، تفسير الصافي ٤: ٢٣١، والتُّكآت: جمع تُكَأة، ما يعتمد عليه حين الجلوس.

ثمَ أنه تعالى بعد بيان تفرّده بالقدرة الكاملة والحكمة البالغة الموجبتين لحمده وشكره وعبادته، دعا عموم الناس إلى تذكر نِعمه وإقبالهم إلى شُكره بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ من الأبيض والأسود والأحمر ﴿ٱذْكُرُوا﴾ واعرِفوا ﴿نِعْمَتَ ٱللهِ﴾ وتفضّله ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بالخَلق والرزّق والصِحة والأمنية وغيرها من النِّعم، وأدَوا حقّها بالقيام بالشُكر والعبادة، وانصفوا من أنفسكم ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللهِ﴾ ومُفضّل بنعمة الايجاد لشيءٍ من الأنبياء سوى الله وهو ﴿يَرْزُقُكُم﴾ ما يُوجب بقاءكم ﴿مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ بالمطر والرياح النافعة ﴿وَ﴾ من ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ بالنباتات والزروع والأشجار، لا والله لا خالق ولا رازق غيره، فاذن خُصّوه بالعبادة لأنه ﴿لَا إِلٰهَ﴾ ولا معبود بالاستحقاق ﴿إِلَّا هُوَ﴾ تعالى وحده ﴿فَأَنَّىٰ﴾ ومن أي وجهٍ، وأي جهةٍ ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ وتُصرَفون من توحيده إلى الشرك، ومن عبادته إلى عبادة غيره من الأصنام والملائكة والكواكب وغيرها ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ في إدّعاء التوحيد والرسالة، وأصرّوا على إنكارهما، فليس تكذيب الرسول أمراً بديعاً منهم ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾ كثيرة أُولو شأنٍ خطيرٍ ومعجزاتٍ باهرة، أرسلناهم إلى أُممٍ كثيرةٍ ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ وقبل إرسالك إلى قومك، فصبروا على تكذيبهم وإيذاء قومهم، فظفروا بمقاصدهم من الغَلَبة والنُّصرة وإعلاء الكلمة ﴿وَإِلَى ٱللهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ وترد عواقبها، فيجازي الصابر على صبره والمكذّب على تكذيبه.

يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللهِ ٱلْغَرُورُ * إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ[٥ و ٦]

ثمَ أنه تعالى بعد إثبات التوحيد والدعوة إلى الاقرار به، دعا الناس إلى الإيمان بالحشر بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ اعلموا ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ﴾ بالحشر والمعاد ودار الجزاء ﴿حَقٌّ﴾ وصدق لا خُلف فيه ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ ولا تذهلنّكم ﴿ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا﴾ وشهواتها عن السعي لها بطاعة الله وترك معاصيه ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم﴾ ولا يوقعنّكم في خَطَر العذاب والحِرمان من الثواب ﴿بِٱللهِ ٱلْغَرُورُ﴾ والشيطان الموسوس في الصدور، بأن يُمنّيكم عفو الله عن المعاصي لكرمه وسَعَة رحمته، إنّه أكرم الأكرمين في موضع العفو والرحمة، وأشدّ المعاقبين في موضع النّكال والنِّقمة.

ثمّ فسّر سبحانه الغرور وعرّفه بالعداوة الموجبة للاحتراز منه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ﴾ الذي أخرج أبويكم من الجنة لعداوته لهما ﴿لَكُمْ﴾ أيضاً ﴿عَدُوٌّ﴾ مبين، فاذا علمتم عداوته ﴿فَٱتَّخِذُوهُ﴾ بمخالفتكم إياه في العقائد والأعمال ﴿عَدُوّاً﴾ وكونوا منه على حَذَرٍ في جميع الأحوال والأوقات،

وأعلموا أنه ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ﴾ ويُحرّض جماعة أتباعه على العمل بأوامره ووساوسه ﴿لِيَكُونُوا﴾ بمخالفة الله ﴿مِنْ أَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ والخالدين في نار الجحيم، لا لوصولهم إلى المنافع الدنيوية كما هو مقصد المتحابّين في الدنيا الغافلين عن المفاسد الأُخروية.

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ * أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ ٱللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ ٱللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ [٧و ٨]

ثمّ بيّن سبحانه حال حزبه وحزب الشيطان في الآخرة مبالغةً في الزجر بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اتّبعوا الشيطان و ﴿كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يُمكن بيان حدّ شدّته وكيفيتها ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ اتّبعوا الله ورسوله و ﴿آمَنُوا﴾ بهما وبما يجب الايمان به ﴿وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿ٱلصَّالِحَاتِ﴾ والمرضيات عند الله، وصبروا على مشاقّ طاعته ﴿لَهُمْ﴾ بإزاء إيمانهم ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ عظيمةٌ للذنوب وستر لها عن غيره بإخفائها عن الناس في الدنيا، ومحوها من ديوانهم أو تبديلها بالحسنات في الآخرة ﴿وَأَجْرٌ﴾ وثواب ﴿كَبِيرٌ﴾ لا غاية له على أعمالهم.

ثمّ بيّن سبحانه وجوب كون الكفّار معذّبين، وكون المؤمنين الصالحين منعّمين، وعدم إمكان التساوي بينهما بقوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ﴾ من قبل النفس والشيطان ﴿سُوءُ عَمَلِهِ﴾ وقبيح فعله ﴿فَرَآهُ﴾ وتوهّمه ﴿حَسَناً﴾ وجميلاً لجهله وضَعف عقله، يمكن أن يكون كمن رأى القبيح قبيحاً فاجتنبه، والحَسَن عند الله حسناً فارتكبه لقوّة عقله وعلمه بعواقب الأمور في الآخرة ودار الجزاء، لا والله لا يمكن ذلك أبداً.

ثمّ لمّا كان كفر الكافر ثقيلاً على قلب نبيّه ﷺ سلّاه سبحانه، وبيّن أن الكفر والايمان بمشيئته بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللهَ﴾ بالخذلان المسبّب عن خُبث الطينة وسوء الأعمال ﴿يُضِلُّ﴾ ويُحرف عن الحقّ وسبيل الخير ﴿مَن يَشَاءُ﴾ خِذلانه وضلاله ﴿وَيَهْدِى﴾ ويرشِد ويُوصِل إلى الحق والدين المرضيّ عنده بتوفيقه المسبّب عن حُسن الفطرة وطيب الطينة وحسن الأعمال والأخلاق ﴿مَن يَشَاءُ﴾ توفيقه وهدايته، فاذا علمت أن ضلال الكفّار بارادة الله ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ﴾ ولا تهلِك ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وعلى ضلالهم وكفرهم لأجل ﴿حَسَرَاتٍ﴾ وأحزان متوالية تعتريك، لإصرارهم على الكفر والتكذيب، وإنّما عليك النُّصح والتبليغ، وقد خرجت عن عُهده ما عليك، وليس عليك إيمانهم، ولا

يَضُرك كفرهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ويعملون من القبائح، فيجازيهم عليها أسوأ الجزاء.

وَٱللَّهُ ٱلَّذِى أَرْسَلَ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ[٩]

ثمَ أنه تعالى لمَا وعد بالحشر والمعاد، استدلَ على إمكانه بقدرته المحسوسة على إحياء الأرض المَيْتة بقوله: ﴿وَٱللَّهُ﴾ تعالى هو القادر ﴿ٱلَّذِى أَرْسَلَ﴾ وهيّج ﴿ٱلرِّيَاحَ﴾ المختلفة كالجَنُوب والشِّمال والصَّبا ﴿فَتُثِيرُ﴾ وتنشُر[١] ﴿سَحَاباً﴾ ممطراً بين السماء والأرض ﴿فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ وأرض يابسة لا نبات لها، لإنزال المطر فيها ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ أو بالسَّحاب المُمطِر ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ الميتة، وصيّرناها خضراء بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ويُبسها ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الإحياء الذي تُشاهدونه في الأرض ﴿ٱلنُّشُورُ﴾ بعد موتكم وحشركم من القبور بعد كونكم تُراباً ورُفاتاً في صحَة المقدورية وبسهولة الثاني من غير تفاوت بينهما أصلاً سوى الإلف في الأول دون الثاني.

عن العسكري عليه السلام: «أنّ الله عز وجل ينزل بين نفختي الصُّور بعدما ينفخ النفخة الأولى من دون السماء الدنيا من البحر المسجور الذي قال الله تعالى: ﴿والبحر المسجور﴾[٢] وهو مَنيّ كمَنيّ الرجال، ويمطر ذلك على الأرض، فيُلقي الماء المنَى على الأموات البالية، فيَنْبُتون من الأرض ويحيون»[٣].

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ[١٠]

ثمَ لمَا كان المشركون يتوهَمون عزَهم في عبادة الأصنام، والمنافقون يطلُبون العزّ بموافقة المشركين، دفع سبحانه التوهّم بعد إثبات التوحيد بقوله: ﴿مَن كَانَ﴾ من المشركين والمنافقين ﴿يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ والشرف ﴿فلله﴾ وحده ﴿ٱلْعِزَّةَ﴾ والشرافة الدنيوية والأخروية ﴿جميعاً﴾ فليطلُبها من عنده بطاعته وعبادته، فانّ الشيء لا يُطلب إلّا من عند صاحبه ومالكه، وفي الحديث: «أنّ ربّكم يقول كلّ يوم: أنا العزيز، فمن أراد عزّ الدارين، فليُطِع العزيز»[٤] ولذا أثبت العزة لرسوله وللمؤمنين في الآية الأخرى، لأنهم أطاعوه.

---

١. في النسخة: تنتشر. ٢. الطور: ٦/٥٢.
٣. التفسير المنسوب الى الامام العسكري عليه السلام: ٢٨٢/ ١٤٠، تفسير الصافي ٤: ٢٣٣.
٤. مجمع البيان ٨: ٦٢٨، تفسير الصافي ٤: ٢٣٣.

ثمّ لمّا كان المشركون يقولون: نحن لا نعبُد من لا نراه، فانّ البعد من المعبود ذُلّ وهوانٌ، فـردّهم سبحانه بقوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ تعالى ﴿يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ الذي تتكلّمون به من كلمة التـوحيد وسـائر الأذكار المندوبة والاستغفار والدعاء، فان لم تروه فانّه يسمع كلامكم، ويقبل الطيّب من أقـوالكـم ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ﴾ المُصدّق للكَلِم والقول يقوّى ذلك القول و ﴿يَرْفَعُهُ﴾ إلى محلّ القبول.

عن الصادق عليه السلام: «الكَلِم الطيّب: قول المؤمن: لا إله إلّا الله، محمد رسول الله، عليّ وليّ الله وخليفة رسول الله، والعمل الصالح: الاعتقاد بالقلب أنّ هـذا هـو الحـقّ مـن عـند الله لاشكّ فـيه مـن ربّ العالمين»[١].

وعن الباقر عليه السلام، قال: «قال رسول الله: إنّ لكلّ قولٍ مُصدّقاً من عمل يُصدّقه أو يُكذّبه، فاذا قال ابن آدم وصدّق قوله بعمله، رفع قوله بعمله إلى الله، وإذا قال وخالف عمله قوله، ردّ قوله عـلى عـمله الخبيث وهوى به في النار»[٢].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «من قال: لا إله إلّا الله مُخلصاً، طُمِست ذنوبه كما يُطْمَس الحرف الأسود من الرَّقّ الأبيض، فاذا قال ثانية: لا إله إلّا الله مُخلصاً، خرقت أبواب السماء وصفوف الملائكة حتى يقول الملائكة بعضها لبعضٍ: اخشعوا لعظمة أمر الله، فاذا قال ثالثة مُخلصاً: لا إله إلا الله، لم تَنْته دون العرش، فيقول الجليل: اسكني فوعزّتي وجلالي لأغفرنّ لقائلك بما كان فيه» ثمّ تلا هذه الآية ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ يعني إذا كان عمله خالصاً ارتفع قوله وكلامه[٣].

ثمّ بيّن سبحانه ما يترتّب على القول والعمل الخبيثين، ومـا يـستحقّ فـاعلهما بـقوله: ﴿وَٱلَّـذِينَ يَمْكُرُونَ﴾ المكرات ﴿ٱلسَّيِّئَاتِ﴾ كمكرات قريش في إطفاء نور النبيّ صلّى الله عليه وآله وكـمكرات أصـحاب السقيفة في غصب خلافة الوصي عليه السلام، ومكر كلّ مُبطلٍ في إذهاب الحقّ ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا تُوصَف شدّته ﴿وَمَكْرُ أُولٰئِكَ﴾ الماكرين ﴿هُوَ يَبُورُ﴾ ويفسُد ويَفْنى بلا نتيجة، بخلاف العمل الصالح فانّه يبقى ويفيد بحال عامله.

وَٱللهُ خَلَقَكُم مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِى كِتَابٍ إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى ٱللهِ يَسِيرٌ[١١]

١و٢. تفسير القمي ٢: ٢٠٨، تفسير الصافي ٤: ٢٣٣. ٣. الاحتجاج: ٢٦٠، تفسير الصافي ٤: ٢٣٤.

ثمّ عاد سبحانه إلى الاستدلال على قدرته وعلمه الموقوف عليهما المعاد بقوله: ﴿وَٱللَّهُ﴾ هو القادر الذي ﴿خَلَقَكُم﴾ أولاً ﴿مِّن تُرَابٖ﴾ بخلق أبيكم آدم منه ﴿ثُمَّ﴾ خلق ذُرّيته ﴿مِن نُّطۡفَةٖ﴾ وماءٍ يخرج من بين الصُّلب والترائب ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمۡ﴾ يا بني آدم ﴿أَزۡوَٰجٗاۚ﴾ وأصنافاً كالأسود والأبيض والأحمر والذَّكر والأنثى ﴿وَمَا تَحۡمِلُ﴾ ولا تحبَل ﴿مِنۡ أُنثَىٰ﴾ ومرأة ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ حَمْلها ﴿إِلَّا﴾ حال كونها ملتبسة ﴿بِعِلۡمِهِۦ﴾ تعالى، وتابعة لمشيئته، يعلم مكان حَمْلها ووضعها ووقتهما، وأحوال طفلها من الذكورة والأنوثة والنقص والتمام وغير ذلك ﴿وَمَا يُعَمَّرُ﴾ ولا تطول حياة ﴿مِن مُّعَمَّرٖ﴾ وطويل الحياة ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنۡ﴾ مدّة حياة أحدٍ على حسب الاقتضاء الأول و ﴿عُمُرِهِۦٓ﴾ لعروض المانع ﴿إِلَّا﴾ أنّه مكتوبٌ ﴿فِي كِتَٰبٍۚ﴾ ولَوحٍ محفوظٍ عند الله يقرأه الملائكة المقرّبون والنفوس القدسية المتصلة باللَّوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من خلقكم من تراب إلى آخر ما في الآية، أو من ثبت زيادة الأعمار ونقصها في الكتاب ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ القادر على كلّ شيءٍ الغني في أفعاله عن الأسباب ﴿يَسِيرٞ﴾ وسهل.

قال جمع: أنّ عمر شخص واحدٍ لا يزيد ولا ينقص، والحقّ أنّ لكلّ أحدٍ بمقتضى الحكمة الأولية مع قطع النظر عن العوارض والطوارئ أجلاً معيناً مكتوباً في لوح المحو والإثبات، ثمّ تلك الحكمة تتغيّر بالعوارض، فقد يعرِض أمرٌ يقوّي مقتضى البقاء وزيادة الحياة، ويغيّر المصلحة الأولية، فيزيد في العمر، وقد يعرِض أمرٌ مقتضى لنقص لنقصه، ويسمى ذلك بالأجل المُعلّق، ولا يموت أحدٌ به، ومن المعلوم أنّ الله من أوّل الخلق عالم بالمصلحة الأولية وعروض العوارض ووقوع الموت في أي وقت وأي ساعة بلا تأخّر ولا تقدّم، ويسمى ذلك بالأجل الحتمي، ولا يبقى أحدٌ بعد بلوغه، ولا يعقِل البَداء لله.

عن النبي ﷺ: «الصدقة وصِلة الرّحِم تُعمّران البلاد، وتزيدان في الأعمار»[١].

وعنه ﷺ: «برّ الوالدين يزيد في العمر»[٢].

وعنه ﷺ: «إنّ المرء ليصل رَحِمه وما بقي من عمره إلّا ثلاثة أيام (أو ثلاث سنين) فيُنسئه (فيزيده) الله إلى ثلاثين سنة، وإنّه ليقطع رَحِمه وقد بقي من عمره ثلاثون سنة، فيرُدّه الله إلى ثلاثة أيام»[٣].

وعن الصادق عليه السلام: «ما نعلم شيئاً يزيد في العمر إلّا صِلة الرّحِم حتى إنّ الرجل يكون أجله ثلاث

---

١. جوامع الجامع: ٣٨٧، تفسير الصافي ٤: ٢٣٤، تفسير روح البيان ٧: ٣٢٨.
٢ و٣. تفسير روح البيان ٧: ٣٢٨.

سنين، فيكون وَصُولاً للرَّحِم، فيزيد الله في عمره ثلاثين سنة فيجعلها ثلاثاً وثلاثين سنة، ويكون أجله ثلاثاً وثلاثين سنة، فيكون قاطعاً للرَّحِم، فيُنقِصه الله عزّ وجلّ ثلاثين سنة ويجعل أجله إلى ثلاث سنين»[١].

وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[١٢]

ثمَ بالغ سبحانه في إثبات قدرته بالآثار الظاهرة بقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ﴾ المتشابهان في الصورة في طعم الماء، بل يقال لواحد منهما: ﴿هٰذَا﴾ الماء ﴿عَذْبٌ﴾ وحُلوٌ و ﴿فُرَاتٌ﴾ وطيّبٌ و ﴿سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾ ومَرِئ ماؤه ﴿وَ﴾ للآخر ﴿هٰذَا﴾ الماء ﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ هو مُرٌّ شديدُ الملوحة ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ منها مع هذا الاختلاف تصيدون السُّموك والطُّيور و ﴿تَأْكُلُونَ لَحماً طَرِيّاً﴾ جديداً لأنّه يفسُد بترك التسارع إلى أكله ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ من كلّ منهما، أو من المِلح الأجاج اللؤلؤ والمَرْجان، وتجعلونهما ﴿حِلْيَةً﴾ وزينةً ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ قيل: إسناد اللُّبس إلى الرجال باعتبار لُبس النساء لهم، فكأنّهم لبسوها[٢].

أقول: لا يحتاج إلى هذا التكلّف بعد كون الخطاب إلى الناس والنساء منهم ﴿وَتَرَى﴾ أيّها الرائي ﴿ٱلْفُلْكَ﴾ والسفينة ﴿فِيهِ﴾ العَذْب منه والمِلْح ﴿مَوَاخِرَ﴾ وشواقّ للماء بجريها مُقبلةً ومدبرةً ﴿لِتَبْتَغُوا﴾ وتَطْلُبوا بعضاً ﴿مِن﴾ نِعم ربّكم و ﴿فَضْلِهِ﴾ بالنقلة فيها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نِعمه وتقومون بحقّها حيث ترون أنّه تعالى جعل المهالك سبباً لوجود المنافع وحصول المعايش.

قال جمع من مفسّري العامة: إنّ المراد من الآية ضَرْب المَثَل في حقّ الكفر والايمان، والكافر والمؤمن، فالبحر العَذْب مَثَل للايمان أو المؤمن، والبحر المِلْح الأُجاج مَثَلٌ للكفر أو الكافر، فكما لا يُشبَه البحر العَذْب بالبحر الأُجاج، كذلك لا يُشبَه الايمان أو المؤمن بالكفر أو الكافر، بل حال الكفر أو الكافر أدون من البحرالأُجاج؛ لأنّه يُشارك البحر العَذْب في كثيرٍ من المنافع، كالمنافع المذكورة، ولا نفع للكفر أو الكافر[٣].

يُولِجُ ٱللَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱللَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ

---

١. الكافي ٢: ١٧/١٢٢، تفسير الصافي ٤: ٢٣٤.
٢. تفسير روح البيان ٧: ٣٣٠.
٣. تفسير الرازي ٢٦: ١٠، تفسير روح البيان ٧: ٣٣٠.

يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ[١٣ و ١٤]

ثمَ ذكر سبحانه من آثار قدرته بقوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ وقد مرَ تفسيرهما مكرّراً ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ وقهرهما تحت إرادته ﴿كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجْرِى﴾ ويسير في فَلَكه بحركته الخاصة وعلى المدارات اليومية بحركته القَسْرية ﴿لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ومُعينٍ قدَره الله لجريهما، وهو يوم القيامة.

أيّها الناس ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ القادر الحكيم الذي فعل هذه الأعاجيب هو ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي هو ﴿رَبُّكُمْ﴾ واعلموا أنّ ﴿لَهُ﴾ وحده ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ والسلطنة التامة في عالم الوجود من المُلك والمَلَكوت والجَبَروت، إذن خصّوا العبادة به، ولا تُشركوا به غيره.

ثمَ بيَن أنَ الأصنام فاقدون لصفات الألوهية بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ والقِشرة البيضاء الرقيقة الملتفّة على النَّواة ﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾ وتُنادوهم أو تسألوهم حاجة ﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ﴾ لأنَهم جمادات ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على الفرض دعاءكم ﴿مَا ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ وما أجابوكم، لعدم قدرتهم على النُّطق، أو ما قضوا حاجتكم لعجزهم عن دفع الضرر عن أنفسهم وجلب نفع إلى أنفسهم بوجهٍ، فكيف بدفع الضرر عنكم، أو إيصال النفع إليكم؟ هذا في الدنيا، وأما في الآخرة بعد صيرورتهم أحياءً ناطقين ﴿يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ إيّاهم بالله، ويُنكِرون أنكم تَعْبُدونهم من دون الله، ﴿وَ﴾ اعلم أنه ﴿لَا يُنَبِّئُكَ﴾ ولا يُخبرك يا محمد بواقع الأمور أحدٌ ﴿مِثْلُ﴾ إله ﴿خَبِيرٍ﴾ بجميع الأمور وحقائقها وواقعياتها بحيث لا يمكن السهو والغلط والاشتباه في إخباره.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ * إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ * وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ[١٥ ـ ١٨]

ثمَ أنه تعالى بعد بيان عجز الأصنام من إجابة عابديها، وعدم نفعهم لهم في الدنيا والآخرة، بل يضادّوا عابديهم فيها، أعلن في الناس بحاجة جميع الخلق إليه تعالى بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الأبيض والأحمر والأسود ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ والمحتاجون ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ في وجودكم وبقائكم ورزقكم وعزّكم ودينكم في الدنيا، ونجاتكم ونيلكم بالدرجات العالية في الآخرة ﴿وَٱللَّهُ﴾ الواجب الوجود

﴿هُوَ﴾ وحده ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾ عن كلّ شيءٍ ممّا سواه ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ والمستحقّ للثناء الجميل على نِعمه العامة والخاصة.

قيل: لمّا كثر الدعاء من النبيّ ﷺ إلى عبادة الله والامتناع منها من الكفّار، قالوا: لعلّ الله محتاجٌ إلى عبادتنا حتى يأمُرنا أمراً بالغاً، ويهدّدنا على تركها مُبالغاً، فأنزل الله ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَاءُ إِلَى ٱللهِ وَٱللهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ [1].

ثمّ بيّن قدرته وغناه عنهم بقوله: ﴿إِن يَشَأْ﴾ إذهابكم وإهلاككم ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ عن وجه الأرض، ويهلككم جميعاً بالعذاب ﴿وَيَأْتِ﴾ مكانكم ﴿بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أقوى وأحسن وأطوع منكم ﴿وَمَا ذٰلِكَ﴾ الإذهاب والإتيان ﴿عَلَى ٱللهِ﴾ القادر على كلّ شيءٍ الغنيّ عن الأسباب ﴿بِعَزِيزٍ﴾ ومُتعذّرٍ ولا صَعْبٍ ومتعسّرٍ، بل عليه هيّنٌ يسيرٌ.

ثمّ بيّن سبحانه أنّ إصرار النبي ﷺ على دعوتهم ليس لتضرّره بكُفرهم بقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ ولا تحمِل نفس ﴿وَازِرَةٌ﴾ وحاملة ثِقل العصيان ﴿وِزْرَ﴾ نفس ﴿أُخْرَىٰ﴾ وثِقل عصيانها، بل إنّما تحمِل كلّ نفس إثم نفسها الذي اكتسبته في الدنيا، ولا يُؤاخَذ شخصٌ إلّا على ما ارتكبه من الذنب، لا على ما ارتكبه غيره ﴿وَإِن تَدْعُ﴾ نفس ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ ومتحمّلة للمعصية أحداً ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ وثِقلها الذي عليها من الذنوب ليحمِل شيئاً منه ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ ولو كان قليلاً، ولا يجيب دعوتها ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المدعوّ ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ من الداعي كالأب والأمّ والولد والأخ، إذ لكلٍّ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه وحِمْلٌ يُعجزه، فكفركم وعصيانكم لا يضُرّ النبيّ ﷺ.

إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى ٱللهِ ٱلْمَصِيرُ * وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ * وَلَا ٱلظُّلُمَاتُ وَلَا ٱلنُّورُ * وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ[١٨ـ ٢١]

ثمّ لمّا كان فيه تهديدٌ شديدٌ، وما كاد يؤثّر في قلوب المصرّين على الشِّرك، سلّى سبحانه نبيّه ﷺ بقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ ويفيد إنذارك وعظتك المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾ ويخافون ﴿رَبَّهُم﴾ الكائنين عنه تعالى ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ المحجوبين عن رؤيته ﴿وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ﴾ وراعوا حدودها وشرائطها، فانّهم المنتفعون بانذارك دون المتمرّدين الطاغين من الناس، وليس عليك إيمانهم، وإنّما عليك الإنذار، وقد أدّيت ما عليك وأبلغت، ثمّ بيّن سبحانه أنّه كما لا يضُرّ عصيان أحدٍ غيره، لا ينفع طاعة أحدٍ

١. تفسير الرازي ٢٦: ١٣.

غيره بقوله: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ وتطهّر نفسه من الذنوب ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ﴾ ويتطهّر ونفعه ﴿لِنَفْسِهِ﴾ وقيل: إنّ المراد من أعطى الزكاة فانّما ثوابه لنفسه[1] ﴿وَإِلَى ٱللهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ والمرجع لكلّ من الكافر والمؤمن، فيُجازي كلاً على حسب استحقاقه.

﴿وَمَا يَسْتَوِى﴾ عنده في المجازاة الكافر الذي هو ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ القلب ﴿وَ﴾ المؤمن الذي هو ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بالحقّ ووظائفه الإلهية ﴿وَلَا﴾ فُنون الباطل التي هي ﴿ٱلظُّلُمَاتُ﴾ في الآخرة ﴿وَلَا﴾ الحقّ الذي هو ﴿ٱلنُّورُ﴾ وأفراده، لأنّ الحقّ واحدٌ ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ﴾ الذي هو كناية عن ثواب الله والراحة الأبدية ﴿وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ الذي هو كناية عن عذاب النار.

وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَاءُ وَلَا ٱلْأَمْوَاتُ إِنَّ ٱللهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ * إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ * وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ ٱلْمُنِيرِ * ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ[٢٢ ـ ٢٦]

ثمّ ضرب سبحانه مثلاً للمؤمن والكافر بقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى﴾ المؤمنون الذين هم ﴿ٱلْأَحْيَاءُ وَلَا﴾ الكفّار الذين هم ﴿ٱلْأَمْوَاتُ﴾.

ثمّ بيّن قدرته على قهرهم بالايمان بقوله: ﴿إِنَّ ٱللهَ﴾ بقدرته ﴿يُسْمِعُ﴾ كلامه ويُفهمه ﴿مَن يَشَاءُ﴾ إسماعه وإفهامه بإحياء قلبه ﴿وَمَا أَنتَ﴾ يا محمّد ﴿بِمُسْمِعٍ﴾ كلامك ﴿مَن﴾ هو كالميت الذي ﴿فِى ٱلْقُبُورِ﴾ لعدم قدرتك على ذلك ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ وما أنت إلّا مخوّف للناس من عذاب الله.

ثمّ بيّن سبحانه أنّ إنذاره ليس من قِبل نفسه بقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ إلى النّاس حال كونك مصحوباً ﴿بِالْحَقِّ﴾ وملتبساً بالصدق، لتكون لهم ﴿بَشِيراً﴾ بالثواب على إيمانهم ﴿وَنَذِيراً﴾ لهم بالعقاب على كفرهم وشِركهم ﴿وَإِن مِنْ أُمَّةٍ﴾ وما من جماعةٍ وأهل عصرٍ ﴿إِلَّا خَلَا﴾ ومضى ﴿فِيهَا نَذِيرٌ﴾ مبعوثٌ من الله لإنذارهم وهدايتهم إلى الحقّ، من رسول أو وصيّ رسول، فلست بِدعاً من الرسل، وفي الآية دلالةٌ على أنّه لا يخلو زمان من حجّة إما ظاهرٌ مشهورٌ أو غائب مستورٌ، كما دلّت عيه الروايات الكثيرة[2].

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٣٣٧.

٢. الكافي ١: ٦/١٩٤، تفسير القمي ٢: ٢٠٩، عنهما تفسير الصافي ٤: ٢٣٦.

ثمَ سلّى سبحانه نبيّه ﷺ على تكذيب قومه بقوله: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ فلا تُبالِ تكذيبهم، ولا تحزَن عليه ﴿فَقَدْ كَذَّبَ﴾ الأمم العاتية الطاغية ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وفي الأعصار السابقة على عصرهم رسلهم، ثمَ كأنّه قيل: هل كان لهم رُسلٌ؟ فأجاب سبحانه بقوله: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ مستدلّين على صدق رسالتهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والمعجزات الباهرات الدالات على صدقهم وصحة نبوّتهم ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ والصُحف السماوية كصُحف شيث وإدريس وإبراهيم عليهم السلام ﴿وَبِالْكِتَابِ ٱلْمُنِيرِ﴾ المُوضح للحقّ المبين، لما يُحتاج إليه من الحكم والأحكام والمواعظ والأمثال والوعد والوعيد ونحوها، كالتوراة والإنجيل ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ﴾ بعذاب الاستئصال ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأنكروا رسالتهم وكذّبوهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ وتعييري عليهم بالعقوبات الشديدة التي صارت عِبرةً لمن بعدهم إلى يوم القيامة، وفيه وعيدٌ لمكذّبي النبيّ ﷺ ووعد له بالنّصر والظّفر.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّماءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَابِّ وَٱلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذٰلِكَ [٢٧ و ٢٨]

ثمَ أنه تعالى بعد حكاية تكذيب الرسل في دعوى التوحيد والرسالة، شرع في الاستدلال على توحيده بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يابن آدم، أو يا محمد، ولم تعلم ﴿أَنَّ ٱللهَ﴾ بقدرته الكاملة ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّماءِ مَاءً﴾ بالأمطار.

ثمَ عدل من الغيبة إلى التكلّم إظهاراً لكمال الاعتناء ببديع صُنعه بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ من الأرض والأشجار ﴿بِهِ ثَمَرَاتٍ﴾ كثيرة ﴿مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا﴾ وأنواعها كالرُّمان والتّفاح والتين والعنب وغيرها، وأصنافها أو هياتها من الصُّفرة والحُمرة والبياض والسواد وغيرها ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ وخُطط وطُرق ظاهرة. وقيل: يعني ذو جُدد ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ كلّ واحدةٍ من البيض والحُمر ﴿مُخْتَلِفٌ﴾ أيضاً ﴿أَلْوَنُهَا﴾ بالشدّة والضّعف وجُدَد سُود ﴿وَغَرَابِيبُ﴾ وبالغات أعلى درجة السواد بحيث لا يُمكن الاختلاف فيها.

ثمَ بيّن سبحانه السّود المحذوف الموكّد بالغرابيب بقوله: ﴿سُودٌ﴾ فعلى ما فسرّنا الآية يكون المقصود بيان اختلاف الطرق في اللون كاختلاف الثّمار في اللون، ويمكن أن يكون المقصود بيان اختلاف نفس الجبال في اللون ، فبعضها تكون ذا جُدَد بيض وحُمر، وبعضها يكون كلّه أسود ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَابِّ﴾ كالفرس والبَغْل والحِمار ﴿وَٱلْأَنْعَامِ﴾ كالإبل والبَقر والغَنم ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ بأن

منهم أبيض، ومنهم أحمر، ومنهم أسود، ومنهم أصفر، ومنهم على لونٍ آخر ﴿كَذٰلِكَ﴾ الاختلاف الكائن في الثِّمار والجِبال.

إِنَّمَا يَخْشَى ٱللهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ إِنَّ ٱللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ ٱللهِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلاَةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ[٢٨ ـ ٣٠]

ثمّ لمّا خصّ سبحانه تأثير الإنذار بالذين يخشون ربّهم بالغيب، بيّن اختصاص الخَشية بالعارفين بالله بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللهَ مِنْ﴾ بين ﴿عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ﴾ بالله العارفون بشؤونه وعظمته وقهاريته لا غيرهم، لأنّ الخَشية متوقّفة على معرفة المخشيِّ منه بالعظمة والمهابة والقدرة والقهارية، كما بيّن سبحانه علّة وجوب خَشيته بقوله: ﴿إِنَّ ٱللهَ عَزِيزٌ﴾ وغالبٌ على من عصاه، وقادرٌ على الانتقام ممنّ عاداه وخالفه ﴿غَفُورٌ﴾ لمن يخشاه ويُطيعه، فمن كان أعلم به تعالى كان أخشى منه كما قال النبيّ ﷺ: «أنا أخشاكم من الله، وأتقاكم له»[١].

وروي عنه ﷺ أنّه سُئل: أيّنا أعلم؟ قال: «أخشاكم من الله»[٢].

عن السجاد عليه السلام، قال: «ما العلم بالله والعمل إلّا إلفان مُؤتلفان، فمن عرف الله خافه، وحثّه الخوف على العمل بطاعة الله، وإنّ أرباب العلم وأتباعهم الذين عرفوا الله فعَمِلوا له ورَغِبوا إليه، وقد قال الله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللهَ﴾» إلى آخره[٣].

وعن الصادق عليه السلام: «دليل الخَشية التعظيم لله والتمسّك بخالص الطاعة وأوامره، والخوف والحَذر، ودليلهما العلم»[٤] ثمّ تلا هذه الآية.

أقول: ولذا مدح الله العلماء بالعمل بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ ٱللهِ﴾ حقّ تلاوته، ويهتمّون بالعبادات البدنية التي أفضلها الصلاة كما قال تعالى: ﴿وَأَقَامُوا ٱلصَّلاَةَ﴾ بآدابها وشرائطها، وبالعبادات المالية كما قال سبحانه: ﴿وَأَنفَقُوا﴾ في سبيل الله ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ وأعطيناهم من الأموال ﴿سِرّاً﴾ وخُفيةً من الناس، لإدراك فضيلة الصدقة السرّية ﴿وَعَلاَنِيَةً﴾ وجِهاراً لترغيب الناس إليه، وهم بأعمالهم وعباداتهم ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً﴾ ومبايعةً مع ربّهم في سوق الدنيا ﴿لَن تَبُورَ﴾ ولن تخسر تلك التجارة أبداً ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ ويُعطيهم على أعمالهم ﴿أُجُورَهُمْ﴾ التي وعدهم بلسان نبيه في

---

١. تفسير أبي السعود ٧: ١٥١، تفسير روح البيان ٧: ٣٤٤.

٢. تفسير روح البيان ٧: ٣٤٤.

٣. الكافي ٨: ٢/١٦، تفسير الصافي ٤: ٢٣٧.

٤. مصباح الشريعة: ٢٣، تفسير الصافي ٤: ٢٣٧.

كتابه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[1] ﴿وَيَزِيدَهُم﴾ الله على ما يستحقّون ما لم يخطر ببالهم ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ وجُوده وخزائن رحمته، كقبول شفاعتهم في العُصاة من أقربائهم وأصدقائهم ومحبّيهم ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿غَفُورٌ﴾ وستّارٌ لفَرَطاتهم ﴿شَكُورٌ﴾ لطاعاتهم، ومجازيهم عليها أفضل الجزاء.

وَٱلَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَابِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ * ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ [٣١ و ٣٢]

ثمّ لمّا ذكر سبحانه تلاوة العلماء كتابه الكريم مدح كتابه بقوله: ﴿وَٱلَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ بتوسّط جبْرَئيل ﴿مِنَ ٱلْكِتَابِ﴾ الحميد والقرآن المجيد ﴿هُوَ﴾ بالخصوص ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الذي يجب الأخذ به، والعمل بما فيه، وأدلّ الدليل على حقّانيته وصدقه، وكونه مُنزلاً من الله، إنّه يكون ﴿مُصَدِّقاً﴾ وموافقاً في العلوم والمعارف وأُصول الأحكام والحكم والمواعظ ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وما قبله من الكتب السماوية كالتوراة والانجيل والزّبور وغيرها، مع كون من جاء به اُمّياً لم يقرأ الكُتب، ولم يُجالِس أحداً من علماء أهل الكتاب، وإن اعترض المشركون عليك وقالوا: لِمَ اُوحي إليك ولم يُوحَ إلى رجلٍ من القريتين عظيم؟ فقل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِ﴾ القابلين للإيحاء إليهم وغير القابلين له ﴿لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ يعلم بواطنهم ومن قوة عقولهم ونورانية طينتهم وقلوبهم، ويرى ظواهرهم من حسن أخلاقهم وسيرتهم، فيصطفي لوحيه ورسالته أعقلهم وأفضلهم وأكملهم، ولا يَنْظر إلى كَثْرة جاههم ومالهم وأولادهم وأعوانهم ﴿ثُمَّ﴾ بعد إعطائك الكتاب العظيم وإيجابه إليك ﴿أَوْرَثْنَا﴾ وأعطينا ذلك ﴿ٱلْكِتَابَ﴾ المُنزل إعطاء إرث الوالد لولده ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَاهُم﴾ وانتجبناهم ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ للإعطاء والإكرام ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ بمخالفته لأحكامه وعِصيانه ربّه ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ ومتوسّط في العمل بالكتاب، لا مُجدّ فيه ولا مُسامح ومُساهل ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ﴾ ومتقدّم على جميع الناس في العمل ﴿بِالْخَيْرَاتِ﴾ الأعمال الصالحات ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وإرادته وتوفيقه ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من إيراث الكتاب والسّبق بالخيرات ﴿هُوَ﴾ بالخصوص ﴿ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ من الله الكبير، والإنعام الجزيل من المُنعم القدير.

---

١. التوبة: ١١١/٩.

قال المفسرون من العامة: إنّ المراد من المصطفين في الآية جميع الأمّة[١]. ورووا عن النبي ﷺ أنّه لمّا نزلت هذه الآية فَرِح فرحاً شديداً وقال ثلاثاً: «أمّتي وربّ الكعبة»[٢].

واختلفت أقوالهم في المراد من الفرق الثلاث؛ قيل: الظالم من رجحت سيئاته حسناته، والمقتصد من تساويا، والسابق من رجحت حسناته[٣]. وقيل: الظالم هو الموحّد غير المطيع، والمقتصد: هو الموحّد المطيع، والسابق: هو الموحّد الذي لا يتوجّه إلى غير الله[٤]. وقيل: الظالم هو المرتكب للكبائر، والمقتصد هو المرتكب للصغائر، والسابق هو المعصوم[٥]. وقيل: الظالم أصحاب المشأمة، والمقتصد أصحاب الميمنة، والسابق بالخيرات[٦]، السابقون المقربون[٧]، إلى غير ذلك من الأقوال الكثيرة.

وفي روايات أهل البيت عليهم السلام: أنّ المراد من المصطفين الذين أورثوا الكتاب أولاد عليّ وفاطمة عليهما السلام[٨]. وفي بعضها: المراد من الظالم من لا يعرِف الإمام، ومن المقتصد العارف به، ومن السابق الإمام، كما عن الباقر[٩] والصادق[١٠] والرضا[١١] والعسكري[١٢] عليهم السلام.

وفي بعضها: المراد من الظالم من استوت حسناته وسيئاته، ومن المقتصد العابد لله حتى يأتيه اليقين، ومن السابق من دعا إلى سبيل ربّه، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ولم يكن للمُضلّين عَضُداً، ولا للخائنين خصيماً، ولم يرضَ بحكم الفاسقين إلّا من خاف على نفسه ودينه ولم يجد أعواناً، كما عن الصادق عليه السلام[١٣].

وعن الباقر عليه السلام: «أمّا الظالم لنفسه ها هنا من عَمِل صالحاً وأخَر سيئاً، وأما المقتصد فهو المتعبّد المجتهد، وأمّا السابق بالخيرات فعليّ والحسن والحسين ومن قُتِل من آل محمد عليهم السلام شهيداً»[١٤].

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * ٱلَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا

---

١. تفسير أبي السعود ٧: ١٥٣، تفسير روح البيان ٧: ٣٤٦.
٢. تفسير روح البيان ٧: ٣٤٧.
٣. تفسير الرازي ٢٦: ٢٤.
٤ و ٥. تفسير الرازي ٢٦: ٢٥.
٦. زاد في النسخة: والسابقون.
٧. تفسير الرازي ٢٦: ٢٥.
٨. بصائر الدرجات: ٣/٦٥، تفسير الصافي ٤: ٢٣٨.
٩. الكافي ١: ١/١٦٧، تفسير الصافي ٤: ٢٣٨.
١٠. الكافي ١: ٢/١٦٧، تفسير الصافي ٤: ٢٣٨.
١١. الكافي ١: ٣/١٦٧، تفسير الصافي ٤: ٢٣٨.
١٢. الخرائج والجرائح ٢: ٩/٦٨٧، تفسير الصافي ٤: ٢٣٨.
١٣. معاني الأخبار: ٢/١٠٥، تفسير الصافي ٤: ٢٣٩.
١٤. مجمع البيان ٨: ٦٣٩، تفسير الصافي ٤: ٢٣٩.

لُغُوبٌ[٣٣ـ٣٥]

ثمّ بيّن سبحانه فضله الكبير بملاحظة أنّه سبب للتفضّلات المذكورة بقوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ وبساتين إقامة واستقرار لا رحيل منها، أو المراد بساتين خاصة اسمها عَدْن ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ يوم القيامة، ثمّ ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ ويُزيّنون ﴿فِيهَا﴾ رجالاً ونساءاً ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ مَصُوغةٍ ﴿مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً﴾ ودُرّاً بالنصب عطفاً على محلّ الذهب، والمعنى ويُحلّون لؤلؤاً ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ وثوبٌ رقيقٌ من إبريسم ﴿وَقَالُوا﴾ عند الدخول في الجنات تشكّراً لما صنع بهم ربّهم: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِى أَذْهَبَ﴾ وأزال ﴿عَنَّا﴾ بتفضّله علينا بالجنّة ﴿الْحَزَنَ﴾ والغمّ.

عن النبي ﷺ: «أمّا السابق فيدخُل الجنة بغير حساب، وأمّا المقتصد فيُحاسَب حساباً يسيراً، وأما الظالم لنفسه فيُحبَس في المقام، ثمّ يدخُل الجنّة، فهم الذين قالوا: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾»[١].

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ للمذنبين ﴿شَكُورٌ﴾ للمطيعين بإثابتهم إلى غير نهاية ﴿الَّذِى أَحَلَّنَا﴾ وأنزلنا ﴿دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ والبقاء، وجنّةً لا خُروج منها أبداً ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ وإحسانه بلا حقّ لنا عليه ﴿لَا يَمَسُّنَا﴾ ولا يُصيبنا ﴿فِيهَا نَصَبٌ﴾ وتعب ووَجَع، كما كان يُصيبنا في الدنيا ﴿وَلَا يَمَسُّنَا﴾ ولا يَعْترينا ﴿فِيهَا لُغُوبٌ﴾ وكَلال وعَناء، إذ لا تكليف فيها ولا كدّ، فبيّن سبحانه أنّ لهم السرور بالنجاة من العذاب، وبالدخول في الجنات، وبالاكرام بتحليتهم بأعلى الحُليّ التي يتحلّى بها الملوك، وباللباس الذي هو أفضل الألبسة، وبالخلود في النِّعم، والراحة من جميع المكاره والآلام.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِنْ عَذَابِهَا كَذٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَصِيرٍ[٣٦ و ٣٧]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان حُسن حال المؤمنين بيّن سوء حال الكفّار في الآخرة بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وبكتابه ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ بسبب كُفرهم وأشدّ العذاب بارتكابهم أكبر الكبائر وأقبح القبائح ﴿لَا يُقْضَىٰ﴾ ولا يُحكَم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بالموت ﴿فَيَمُوتُوا﴾ ويستريحوا منه ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم﴾ طَرْفَة عين ﴿مِنْ عَذَابِهَا﴾ بل كلّما خبت زادوا سعيراً ﴿كَذٰلِكَ﴾ الجزاء الفظيع

---

١. مجمع البيان ٨: ٦٣٨، تفسير الصافي ٤: ٢٤٠.

﴿نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ ومبالغ في الكفران، أو مصرّ على الطُّغيان ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ﴾ ويستغيثون ويَضِجّون ﴿فِيهَا﴾ ويقولون حال استغاثتهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ منها، وخلّصنا من عذابها، ورُدّنا إلى الدنيا نؤمن بك في الدنيا و ﴿نَعْمَلْ صَالِحاً﴾ فيها ﴿غَيْرَ﴾ العمل ﴿الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ ونحسبه صالحاً، فيقال لهم توبيخاً وتبكيتاً: ألم نُعطِكم المُهلة ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ ونُبقيكم في الدنيا مقدار ﴿مَا يَتَذَكَّرُ﴾ ويتنبّه ﴿فِيهِ﴾ من الزمان ﴿مَن تَذَكَّرَ﴾ وتتمكّنون فيه من التفكّر وإصلاح العقائد والأعمال.

عن النبي ﷺ: «من عمّره الله ستين سنة، فقد أعذر إليه»[1].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «العُمر الذي أعذر الله إلى ابن آدم ستّون سنة»[2].

وعن الصادق عليه السلام: «هو توبيخ لابن ثمان عشرة سنة»[3].

﴿وَجَاءَكُمُ﴾ من قِبَل الله ﴿النَّذِيرُ﴾ المُخوّف من عذاب هذا اليوم ﴿فَذُوقُوا﴾ العذاب، لأنّكم ظلمتم أنفسكم بالكفر والطُّغيان على ربّكم وتكذيب نبيّكم ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ في هذا اليوم ﴿مِن نَصِيرٍ﴾ يدفع عنهم العذاب، ومعين يعينهم في الخلاص منه.

إِنَّ اللهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِى الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً[٣٨ و ٣٩]

ثمّ لمّا قطع سبحانه رجاءهم العود إلى الدنيا، وأخبرهم بدوام عذابهم إلى الأبد، بيّن علمه بُخبث ذاتهم وعودهم إلى الكفر والعِصيان إنّ عادوا إلى الدنيا، وبنيّتهم أنّهم لو بقوا في الدنيا إلى الأبد لبقوا على الشِّرك والعِصيان بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وخفيّاتهما، فيعلم خُبث طينة المُصرّين على الشِّرك بحيث لو رجعوا إلى الدنيا رجعوا إلى ما كانوا عليه من الشِّرك والعِصيان، وإنّهم كاذبون في قولهم: أخرجنا نعمل صالحاً، و ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ والنيّات السوء التي في القلوب، فيعلم أنّ نية المشركين كانت في الدنيا أنّهم لو كانوا باقين فيها أبد الدهر لداموا على الشرك، ولذا يُعذّبهم أبداً على نيّاتهم، فليس لأحدٍ أن يقول: لا يجوز العذاب الأبدي على الشِّرك في أيام معدودة.

ثمّ ذكر سبحانه بعد تهديد المشركين بعذاب النار في القيامة منّته عليهم إثباتاً لتوحيده، وإتماماً

---

١. مجمع البيان ٨: ٦٤١، تفسير الصافي ٤: ٢٤١.

٢. نهج البلاغة: ٣٢٦/٥٣٣، مجمع البيان ٨: ٦٤١، تفسير الصافي ٤: ٢٤١.

٣. مجمع البيان ٨: ٦٤١، تفسير الصافي ٤: ٢٤١.

لحُجّته، وتقريراً لعدم رجوعهم عن شِركهم إذا رجعوا إلى الدنيا بقوله: ﴿هُوَ﴾ الله القادر ﴿ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ﴾ بقدرته وفضله ﴿خَلَائِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ومُتصرّفين فيها، ومُسلّطين على الانتفاع بها وبنعِمها، أو خلفاء ممّن كان قبلكم من الأمم، وأورثكم ما كان لهم من الأمتعة، ونبّهكم بسوء حال الماضين من المشركين، وأعلمكم بما نزل على الأقدمين من العاصين، ومع ذلك ما تنبّهتم وما اتّعظتم ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ بالله والدار الآخرة ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ ووبال شِركه وجُحوده الحقّ من الطرد والنار، لا يتعدّاه إلى غيره ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً﴾ وغَضَباً شديداً يُوجب لهم العذاب الأبد ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً﴾ وضرراً عظيماً لا يُتصوّر فوقه الضرر، وهو فوات النِّعم الأبدية والراحة السّرمدية.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً * إِنَّ ٱللهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً [٤٠ و ٤١]

ثمَ أمر سبحانه نبيّه ﷺ بإلزام المشركين على إبطال الشِّرك، وتوبيخهم على عبادة ما لا يليق للعبادة، ولا دليل على جوازها بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد، للمشركين ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ وأخبروني ﴿شُرَكَاءَكُمُ﴾ والأصنام ﴿ٱلَّذِينَ﴾ سميتموهم من قِبَل أنفسكم أنداداً لربّكم و ﴿تَدْعُونَ﴾ وتَعبُدونهم ﴿مِن دُونِ ٱللهِ﴾ الذي هو خالقكم والمنعم عليكم ﴿أَرُونِى﴾ وعيّنوا لي ﴿مَاذَا خَلَقُوامِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ وأيّ جزءٍ من أجزائها أوجدوه حتى يُمكنكم أن تقولوا إنّهم آلهة في الأرض والله إله السماء؟! ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ مع الله ﴿فِى﴾ خلق ﴿ٱلسَّمَاوَاتِ﴾ حتى تقولوا إنّهم آلهة السماوات؟! ﴿أَمْ﴾ أعطينا الأصنام أو المشركين و ﴿آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً﴾ كتبنا فيه أنّ لهم الشفاعة، أو يجب عليكم عبادتهم ﴿فَهُمْ﴾ إذن ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ من الله وحُجّةٍ كائنةٍ ﴿مِنْهُ﴾ ليس أحدٌ من الأمور حتى يجوز عقلاً أو تعبّداً عبادتهم ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّالِمُونَ بَعْضُهُم﴾ السابقون أو الرؤساء ﴿بَعْضاً﴾ اللاحقين أو التابعين بأنّه يشفعون عند الله ويقضون حوائج عابديهم ﴿إِلَّا غُرُوراً﴾ وباطلاً لا أصل له، وإيقاعاً في خطَر العذاب.

ثمَ بيّن سبحانه أن عظمة القول بالشِّرك ممّا يزيل السماوات والأرض عن مقرّهما بقوله: ﴿إِنَّ ٱللهَ

﴿يُمْسِكُ﴾ ويَحْفَظ ﴿ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ بقُدرته من ﴿أَن تَزُولَا﴾ أو كراهة أن تزولا من مقرّهما بسبب قول المشركين بالشِّرك بالله.

عن الرضاﷺ، قال: «بنا يُمسِك الله السماوات والأرض أن تزولا»[1].

﴿وَ﴾ بالله ﴿وَلَئِن زَالَتَا﴾ عن مكانهما ومقرّهما، كما يزولان في يوم تُبدّل الأرض فيه غير الأرض، وتُطوىٰ السماء كطَي السِّجل للكتب ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ وما حَفَظهما من الزوال[2] ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ من الموجودات غير الله و ﴿من بعدِهِ﴾ أو من بعد نزولهما ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿كَانَ حَلِيماً﴾ غير مُعاجِل بعقوبة الكفّار بإنزالهما بقولهم بالشِّرك، مع أنه مقتضٍ لهدَهما هدّاً، ومع ذلك يُمسِكهما ويمنعهما من الزوال و ﴿غَفُوراً﴾ لمن رجع عن الشِّرك وتاب من الكفر.

وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً * ٱسْتِكْبَاراً فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللهِ تَحْوِيلاً [٤٢ و ٤٣]

ثمَ أنه تعالى بعد حكاية إنكار المشركين التوحيد، حكى إنكارهم الرسالة وإصرارهم عليه بقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا﴾ وحلفوا ﴿بِاللهِ﴾ مع أنّ الحلف باسم الله العظيم يكون جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ وأكيده وغليظه، وقالوا: والله ﴿لَئِن جَاءَهُمْ﴾ نبيّ ﴿نَذِيرٌ﴾ ومُخوّف من قِبَل الله، كما أدّعى كثيرٌ من الأمم مجيئه فيهم ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ﴾ وأطوع له ﴿مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ كاليهود والنصارى وغيرهم، لكوننا أكثر استعداداً وعقلاً وفَهْماً وذَكاء منهم ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ محمدﷺ وهو ﴿نَذِيرٌ﴾ من النُّذر، وأفضلهم، بالمعجزات الباهرات الدالّة على صدقه ﴿مَازَادَهُمْ﴾ مجيؤه أو ذلك النذير ﴿إِلَّا نُفُوراً﴾ وتباعداً عن طاعته والاهتداء بهدايته، وكان نفورهم ﴿ٱسْتِكْبَاراً﴾ وتعظيماً ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَ﴾ عُتوّاً على الله، ومكروا ﴿مَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ أو المراد ما زادهم إلا استكباراً، ومَكْر السيء، والتدبير الشنيع، والحيلة القبيحة في قتله وإبطال دعوته ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿لَا يَحِيقُ﴾ ولا يحيط ﴿ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ﴾ ووَباله وعذابه ﴿إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ وفاعله.

في الحديث: «لا تَمكُروا ولا تُعينوا ماكراً، فانّ الله يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾»[3].

---

١. كمال الدين ٢٠٢/٦، تفسير الصافي ٤: ٢٤٣.
٢. في النسخة: النزول.
٣. تفسير الرازي ٢٦: ٣٤، تفسير روح البيان ٧: ٣٦١.

وفي الآخر: «المكرُ والخديعة في النار»[١].

رُوي أنّ قريشاً بلغهم قبل مبعث رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّ أهل الكتاب كَذّبوا رسلهم، فقالوا: لعن الله اليهود والنصارى، أتتهم الرسل فكذّبوهم، وحلفوا كما حكى الله عنهم[٢].

ثمّ هددهم سبحانه بقوله: ﴿فَهَلْ﴾ المشركون ﴿يَنظُرُونَ﴾ وينتظرون ﴿إِلَّا سُنَّتَ﴾ الله في الأمم ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ وطريقته المألوفة الجارية في المكذبين السابقين وماكريهم بالنبيين من تعذيبهم وإهلاكهم ﴿فَلَن تَجِدَ﴾ يا محمد، أو يا بن آدم ﴿لِسُنَّتِ اللهِ﴾ وطريقة معاملته مع أعدائه وأعداء رسله ﴿تَبْدِيلاً﴾ بأن يعفو عن المكذّبين الماكرين الذين كان بناؤه على تعذيبهم ﴿وَلَن تَجِدَ﴾ أبداً ﴿لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾ ونقلاً لعذابه من المكذّبين إلى غيرهم، ومن المستحقّين إلى من عداهم، وعدم وجدانهما دليل على عدم وجودهما.

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً * وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمّىً فَإِذَا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً [٤٤ و ٤٥]

ثمّ استشهد سبحانه على سُنّته السابقة في الأمم بالآثار الباقية من المعذّبين الماضين بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾ قيل: إنّ التقدير أقعد المشركين في منازلهم[٣] ولم يسافروا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ولم يذهبوا إلى الشام واليمن والعراق للتجارة أو غيرها ﴿فَيَنظُرُوا﴾ بنظر الاعتبار إلى الديار الخربة التي بقيت من الأمم المُهْلَكة، فيعلموا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ تكذيب الأمم ﴿الَّذِينَ﴾ عَتوا على الله وكذّبوا الرُّسل ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ كعاد وثمود وقوم سبأ؟ ﴿وَ﴾ الحال أنّهم ﴿كَانُوا﴾ في حياتهم ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فما أغنى عنهم شدّة القوى وعظمة الأجساد وطول الأعمار، مع أنّهم لم يكذّبوا مثل محمد صلّى الله عليه وآله ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ﴾ عن إنفاذ إرادته وتعذيب أعدائه ﴿مِن شَيْءٍ﴾ كائن ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ ولم يَفُته، فهؤلاء أولى بأن لا يُعجِزوه ولا يفوتوه ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿كَانَ عَلِيماً﴾ بأعمالهم وعقائدهم الفاسدة وأخلاقهم الرذيلة ﴿قَدِيراً﴾ على تعذيبهم وإهلاكهم.

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٣٦١.
٢. تفسير أبي السعود ٧: ١٥٦، تفسير روح البيان ٧: ٣٦٠.
٣. تفسير أبي السعود ٧: ١٥٧، تفسير روح البيان ٧: ٣٦٢.

ثمَ بيّن سبحانه لطفه بالكفّار والعصاة بإمهالهم وعدم مؤاخذة كلّهم مع استحقاقهم لتعجيل العذاب عليهم بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ ويُعجّل عقوبتهم ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ وكفرهم وعِصيانهم في الأرض ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ واحداً ﴿مِن﴾ جنس ﴿دَابَّةٍ﴾ ومتحرّك يتحرّك فيها بإنزال العذاب ﴿وَلَٰكِن﴾ بلُطفه ﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾ ويُمهلهم ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ووقتٍ معينٍ قدّره لموتهم بحكمته البالغة، أو قدّره لنزول العذاب عليهم، أو قدّره لحساب الناس، وهو يوم القيامة ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ المُقدّر ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ يُؤاخذهم و ﴿كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً﴾ لا يُؤاخذهم أزيد من استحقاقهم، ولا أقلّ منه، ولا يأخذ البرئ بالمُجرم والمُؤمن بالكافر، بل يجازي كلاً بعمله، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرّ.

وقد مرّ ثواب تلاوة السورة المباركة في آخر سورة سبأ، ولله الحمد والمِنّة على توفيقه لاتمام تفسير السورة وله الشكر.

في تفسير سورة يسٓ

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يسٓ * وَٱلْقُرْآنِ ٱلْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * تَنزِيلَ ٱلْعَزِيْزِ ٱلرَّحِيمِ * لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ[١ـ٦]

ثمَ لمّا خُتِمت سورة الملائكة المبدؤة بإظهار غاية عَظَمة ذاته المقدّسة بجعل الملائكة رسلاً المختتمة بلوم المشركين على كذبهم في دعوى أنّه إن جاءهم نذيرٌ لكانوا أشدّ تسليماً وأكثر اتّباعاً له من اليهود والنصارى لقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴾[١]، أردفها بسورة يسٓ المبتدئة ببيان منّته عليهم بإرسال خاتم النبيّين ﷺ وعظمة الكتاب النازل عليه، وهو القرآن المشتمل على الحكم والأحكام، وجعله من أعظم معجزاته، وبيان إصرار المشركين على معارضته وتكذيبه، وغيرها من المطالب المرتبطة بالسورة السابقة، فافتتحها على دأبة بذكر الأسماء المباركات بقوله: ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وقد مرّ تفسيره.

ثمَ ابتدأ بذكر الحروف المقطّعة بقوله: ﴿يس﴾. قيل: رمز عن خطاب يا أيّها السامع للوحي، كما عن الصادق عليه السلام في (معاني الأخبار)[٢] وعليه تكون (يا) حرف نداء و(السين) رمز عن السامع، وقيل: إنّها رمزٌ عن كلمة سيّد البشر، أو سيّد المرسلين[٣]، والظاهر أنّه المراد من الروايات الكثيرة الدالة على أن ﴿يس﴾ اسم من أسماء النبي ﷺ.

ثمَ عظّم سبحانه القرآن بحلفه به على صدق نبوة نبيّه بقوله: ﴿وَٱلْقُرْآنِ ٱلْحَكِيمِ﴾ والكتاب الجامع للحكم التي لا نهاية لها، أو المحكم الذي لايكسِره شيء، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أو الحاكم بين الخلق إلى يوم القيامة فيما اختلفوا فيه، حيث يجب الرجوع إليه فيه.

ثمَ ذكر سبحانه المُقسم عليه بقوله: ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ من قِبل الله إلى خلقه

---

١. فاطر: ٤٢/٣٥.
٢. معاني الأخبار: ١/٢٢، تفسير الصافي ٤: ٢٤٤.
٣. تفسير روح البيان ٧: ٣٦٥.

لهدايتهم وإرشادهم إلى ما هو الصواب من اُمور الدنيا والآخرة، فليس للكفار أن يقولوا: لست مُرسَلاً، وإنك ثابت أو متمكّن ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ﴾ وطريق ﴿مُسْتَقِيمٍ﴾ مُوصل إلى أعلى مراتب كمال الانسانية والقُرب منه، وأعلى درجات الجنة والرضوان بلا انحراف واعوجاج، وهو الاسلام المركّب من التوحيد والمعارف الإلهية والأحكام العملية والأخلاق الربانية، وإنّما وصف دينه بالاستقامة مع كون شرائع سائر الأنبياء مستقيمةً لكون استقامته وإيصاله إلى المقصد الأعلى فوق استقامتها، وفي توصيف القرآن البالغ حدَ الاعجاز في حُسن الاسلوب وفصاحة البيان بالحكمة البالغة، أو الحكومة بين الناس مع كون الآتي به اُمياً، إشارة إلى كونه أقوى الأدلة على كونه واجداً للوصفين، وإنّما أتى بالدليل بصورة الحَلْف للتنبيه بعظمة القرآن، فانّ الحَلْف لا يكون إلّا بأمرٍ عظيمٍ عند الحالف، وبأنّ البرهان قد اُقيم على الأمرين مراراً بأبلغ بيان، فلم يبق إلّا الحَلْف على المُدّعى برجاء كونه سبباً لوثوق المنكِر به، فجمع سبحانه بين الاستدلال والحَلْف بقوله: ﴿وَٱلْقُرْآنِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أعني ﴿تَنزِيلَ﴾ الإله ﴿ٱلْعَزِيْزِ﴾ والقاهر لكلّ شيءٍ، والقادر على عقوبة مُنكِر القرآن ورسالة رسوله ودينه ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بمن أقرّ بالجميع، والعطوف بمن أطاعه وأطاع رسوله، أو المراد القاهر لعباده بجعل الأحكام الوجوبية والتحريمية، الرحيم بهم بجعل الأحكام الندبية والكراهية والإباحية، وإنّما وصفه بكونه تنزيلاً من الله لكمال ظهور آثار النزول فيه، بحيث صحّ أن يقال مبالغة: إنّ هذا لمُنزَل عين النزول.

ثمَ بيَن سبحانه علّة إرسال رسوله وتنزيل كتابه بقوله: ﴿لِتُنذِرَ﴾ يا محمد وتخوّف ﴿قَوْماً﴾ وطائفةً تكون فيهم ﴿مَّا أُنذِرَ﴾ به وخوّف بتوسط سائر الأنبياء ﴿آبَاؤُهُمْ﴾ من العذاب. وقيل: يعني قوماً الذين اُنذِر آباؤهم[١]، أو قوماً نحو ما اُنذر آباؤهم، كما روي عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «لتُنذِر القوم الذين أنت فيهم، كما اُنذِر آباؤهم»[٢].

أقول: على هذا يكون (ما) مصدرية. وقيل: إنّها نافية، والمعنى لتُنذِر قوماً الذين ما اُنذر آباؤهم الأقربون لطول مدّة الفترة[٣] وغيبة الأنبياء من بينهم، وإن اُنذر آباؤهم الأبعدون الذين كانوا في زمان إسماعيل ومن بعده من الأنبياء العرب والعجم، فبعد غَلَبة الكفر وشيوعه وغيبة الأنبياء لم يُنذَروا، فصار الناس جميعاً غافلين عن التوحيد والمعارف والمعاد، فصارت هذه الغفلة سبباً لوجوب إنذارهم، كما قال سبحانه: ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ عن الله، وعن رسوله، وعن وعيده، كما عن الصادق عليه السلام[٤].

لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً

---

١. تفسير الرازي ٢٦: ٤٢، تفسير القرطبي ١٥: ٦.
٢. الكافي ١: ٩٠/٣٥٨، تفسير الصافي ٤: ٢٤٥.
٣. تفسير روح البيان ٧: ٣٦٨.
٤. الكافي ١: ٩٠/٣٥٨، تفسير الصافي ٤: ٢٤٥.

فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ[٧ـ٩]

ثمّ بيّن سبحانه لَجاج القوم وامتناعهم من الايمان بقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ﴾ وثبت ووجب ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ والوعد الذي سبق منّا عند تهديد إبليس ـ حيث قلنا: ﴿لأملئنّ جهنم منك وممن تبعك﴾[١] أو قولنا: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[٢] ـ ﴿عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾ لوضوح كونهم أهل الشّقاوة والشِّقاق ﴿فَهُمْ﴾ لخُبث ذاتهم وانطباع قلوبهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بك وبكتابك وإنذارك أبداً، ولا يُطيعونك في شيءٍ أصلاً.

ثمّ شبّه سبحانه الأخلاق الرذيلة المانعة عن إيمانهم بالغُلّ العريض الذي يكون في العنق فيمنع الرأس من تطأطئه وانحنائه بقوله: ﴿إِنَّا﴾ بتجبّلهم على الحسد والكبر والشّقاء، كأنه ﴿جَعَلْنَا﴾ وصيّرنا ﴿فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ وجيادهم ﴿أَغْلَالاً﴾ غِلاظاً ثقالاً ﴿فَهِيَ﴾ لكثرة غِلَظها وعُرضها منتهية من الصدور ﴿إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم﴾ لتلك الأغلال ﴿مُّقْمَحُونَ﴾ رؤوسهم ورافعوها غير قادرين على تطأطئها والالتفات بها.

فحاصل المعنى أنّ كفّار مكة لكَثرة تكبّرهم وشدّة حسدهم على النبيّ ﷺ [أبوا] تسليماً وانقياداً له، وأن يلتفتوا إلى الحقّ، وأن يفتحوا عيونهم لرؤية معجزاته وآياته، وأن ينظُروا إليه وإليها، وأن يُؤمنوا بما جاء به.

عن الصادق عليه السلام، قال: «هذا في الدنيا، وفي الآخرة في نار جهنم مُقْمَحون»[٣].

ثمّ شبّه سبحانه امتناعهم عن سلوك طريق الحقّ والصراط المستقيم، ووقوفهم على الكفر [الذي] عماهم عن رؤية المعجزات، بمن كان في أطرافه سدٌّ عظيمٌ لا يمكنه الخروج منه، ولا رؤية ما في العالم من الأشياء بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ وخلقنا ﴿مِن بَيْنِ إِيْدِيهِمْ﴾ وتلقاء وجوههم ﴿سَدّاً﴾ عظيماً ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ وورائهم أيضاً ﴿سَدّاً﴾ عظيماً لا يُمكنهم المشي لا من القُبال ولا من الخَلف، فلا يقدِرون على الذّهاب إلى المقصد، والرجوع إلى المأوى والمأمن ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ وغطّينا رؤوسهم وأبصارهم بسبب السدّين، لغاية تقاربهما وارتفاعهما، أو بغشاءٍ آخر مانعٍ عن إبصارهم ﴿فَهُمْ﴾ لذلك ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ شيئاً من آيات الآفاق والأنفس الدالات على وَحْدانية الله، ومن المعجزات الدالة على نبوة النبي ﷺ وحقّانية دينه.

عن الباقر عليه السلام: «يقول فأعميناهم فهم لا يُبصرون الهُدى، أخذ الله سمعهم وأبصارهم وقلوبهم،

---

١. سورة ص: ٨٥/٣٨. ٢. السجدة: ١٣/٣٢. ٣. الكافي ١: ٩٠/٣٥٨، تفسير الصافي ٤: ٢٤٥.

فأعماهم عن الهدى»[١].

رُوي أنّها نزلت في أبي جهل وصاحبيه المخزوميين حيث حلف أبو جهل أنّه يرضَخ رأس محمد ﷺ إن رآه في الصلاة، فرآه يوماً[٢] يصلي، فأخذ صخرةً فرفعها ليُرسلها على رأسه، فالتزقت بيده، ويده بعنقه، فرجع خائباً إلى قومه[٣]، فنزلت: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ إلى آخره، فقام الوليد بن المُغيرة الخزومي، وقال: أنا أقتُله بهذه الصخرة، فأخذ الصخرة، فجاء نحو النبي ﷺ، فلمّا قَرُب منه عُمي بصره، فكان يسمع صوته ولا يرى شخصه، فرجع إلى صاحبيه فلم يَرَهُم حتى نادوه فأخبرهم بالحال، فنزل في حقّه: ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ إلى آخره.

وعن القمي: أنّها نزلت في أبي جهل بن هشام ونفرٍ من أهل بيته، وذلك أنّ النبي ﷺ قام يُصلّي وقد حلف أبو جهل اللعين: لئن رآه يصلّي ليَدْمَغه، فجاء ومعه حَجَرٌ والنبي ﷺ قائم يصلي، فجعل كلّما رفع الحَجَر ليرميه، أثبت الله يده إلى عُنقه، ولا يدور الحَجَر بيده، فلمّا رجع إلى أصحابه سقط الحَجَر من يده، ثمّ قام رجلٌ آخر، وهو من رَهْطه أيضاً، فقال: أنا أقتُله، فلمّا دنا منه جعل يسمع قراءة رسول الله ﷺ فأُرعِب ورجع إلى أصحابه، فقال: بيني وبينه [كهيئة] الفحْل[٤] يخطِر بذنبه، فخفتُ أن أتقدّم[٥].

وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ[١٠ و ١١]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان شدّة امتناعهم عن الانقياد للنبي ﷺ، وعدم سلوكهم طريق الحقّ، وعدم رؤيتهم معجزاته، صرّح بعدم تأثير إنذاره في قلوبهم بقوله: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ ولا يتفاوت في حقّهم ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ وخوّفتهم من عذاب الله على الشرك وتكذيبهم نبوّتك وكتابك ﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ ولم تَعِظهم، فانّ قلوبهم شرّ القلوب لأنّها لا تتّعظ بالعِظَة، فاعلم إذن أيّها النبي أنّهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بك حتى يأتيهم الموت، لكون ذواتهم في أعلى درجة الشقاوة، وقلوبهم في أقصى مرتبة القساوة، فلا تُتعِب نفسك في دعوتهم إلى الايمان، ولا تَكُن حريصاً في وَعْظهم وإنذارهم، بل اكتفِ بما تُتِمّ به الحُجّة عليهم.

ثمّ بيّن سبحانه اختصاص نفع الإنذار والدعوة إلى الايمان بأصحاب القلوب الصافية والآذان

---

١. تفسير القمي ٢: ٢١٢، تفسير الصافي ٤: ٢٤٤.

٢. زاد في النسخة: أن.

٣. تفسير الرازي ٢٦: ٤٤، تفسير أبي السعود٧: ١٦٠.

٤. في المصدر: العجل.

٥. تفسير القمي ٢: ٢١٢، تفسير الصافي ٤: ٢٤٥.

السامعة بقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ الإنذار النافع في الهداية والارشاد ﴿مَنِ﴾ لان قلبه و ﴿ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ والعِظَة، أو آمن بالقرآن وسلّم للبرهان ﴿وَخَشِيَ﴾ بإنذارك ﴿ٱلرَّحْمٰنَ﴾ والإله الذي وَسِعت رحمته كلّ شيءٍ وهو ﴿بِالْغَيْبِ﴾ والحِجاب عنهم، فيؤمن به ويعمل لمرضاته، أو خشي عقوبة الرحمن في الآخرة وأهوال القيامة التي تكون محجوبة عن أبصارهم ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ يا محمّد، بعد الإنذار وتأثّره بالعِظَة واتّباعه لها وقيامه بالأعمال الصالحة ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾ عظيمةٍ لذنوبه ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ وثوابٍ جسيمٍ مرضيّ له على إيمانه وأعماله.

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ[١٢]

ثمّ أنّه تعالى بعد أمر النبيّ ﷺ ببشارة المؤمنين بالثواب أخبر بمجيء الآخرة التي هي دار المغفرة والثواب بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ بقدرتنا الكاملة ﴿نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ونبعثهم بعد انقضاء الدنيا من القبور لجزاء الأعمال ﴿وَنَكْتُبُ﴾ في الصُّحف، ونثبت في الدفاتر بتوسّط الكِرام الكاتبين، أو نكتُب في اللّوح المحفوظ ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ وأسلفوا وأتوا به في زمان حياتهم من الأعمال خيراً أو شراً حسنة أو سيئة، ﴿وَ﴾ نكتب فيها ﴿آثَارَهُمْ﴾ وما أبقوه بعد موتهم من سُنّةٍ حسنةٍ أو سيئةٍ، أو ما يُوجِب انتفاع الناس به من علمٍ أو كتابٍ، أو وقفٍ أو حبسٍ، وإشاعة باطلٍ، أو بدعة، أو تأسيس ظلم، أو صَنعة فيها فسادٌ كاختراع آلة لهو، أو بناء كنيسة أو غيرها.

وقيل: إنّ المراد آثار أقدام الماشين إلى المساجد[١]، روى بعض العامة: أنّ جماعة من الصحابة بعُدت دورهم عن مسجد النبي ﷺ، فأرادوا النفير[٢] إلى جِوار المسجد، فقال النبي ﷺ: إنّ الله يكتُب خطواتكم ويُثيبكم عليها، فالزموا بيوتكم»[٣].

وعن (المجمع): أنّ بني سَلَمة كانوا في ناحيةٍ من المدينة، فشكوا إلى رسول الله ﷺ بعْد منازلهم من المسجد والصلاة معه، فنزلت الآية»[٤].

ثمّ بيّن سبحانه سَعَة علمه بكلّ شيءٍ فضلاً عن أعمال العباد بقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء، وكلّ موجودٍ من الموجودات من الجواهر والأعرض والأعمال والأفعال والأقوال، أو أجل أو رزق أو نصيب، أو إحياء وإماته ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ وأثبتناه ﴿فِي إِمَامٍ﴾ وأصلٍ عظيمِ الشأن ﴿مُبِينٍ﴾ ومظهر

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٣٧٥.
٢. في تفسير روح البيان: النقلة.
٣. تفسير روح البيان ٧: ٣٧٥.
٤. مجمع البيان ٨: ٦٥٣، تفسير الصافي ٤: ٢٤٦.

لجميع الأشياء والأمور، وهو اللّوح المحفوظ. قيل: سمّي إماماً لأن الملائكة يتّبعونه ويعملون به[١].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا والله الامام المبين، أبيّن الحقّ من الباطل، وَرِثْته من رسول الله صلى الله عليه وآله»[٢].

وعن (الاحتجاج): عن النبيّ صلى الله عليه وآله ـ في حديث ـ قال: «معاشر الناس، ما من علمٍ إلّا علّمنيه ربّي، وأنا علّمته علياً، وقد أحصاه الله فيّ، وكلّ علمٍ عَلِمته أحصيته في إمام المتقين»[٣].

وعن الباقر، عن أبيه، عن جدّه عليهم السلام قال: «لمّا نزلت الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله قام أبو بكر وعمر من مجلسيهما، وقالا: يا رسول الله، هو التوراة؟ قال: لا. قال: هو الإنجيل؟ قال: لا. قال: فأقبل أمير المؤمنين عليه السلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: هو هذا، إنّه الإمام الذي أحصى الله فيه علم كلّ شيء»[٤].

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ * قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ ٱلرَّحْمٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ[١٣ ـ ١٥]

ثمّ أنه تعالى بعد بيان أنّ محمداً صلى الله عليه وآله من المرسلين، وأن وظيفته إنذار قومه، وأنّ طائفةً منهم لا يؤمنون به حتى يَرَوا العذاب الأليم، وطائفةً منهم يؤمنون به ويُفيد الانذار لهم فلنشملهم الرحمة والمغفرة، أمره سبحانه أنّ يذكُر لقومه قصّة الرُّسل المبعوثين إلى بلدة إنطاكية، وتطابُق حالهم وحال قومهم لحاله وحال قومه بقوله: ﴿وَٱضْرِبْ﴾ يا محمّد، وأذكُر عند قومك، وبيّن ﴿لَهُم﴾ لتوضيح حالك وحالهم، ولُطف الله بك وقهره على أعدائك ﴿مَثَلاً﴾ وقصةً عجيبةً هي في الغرابة كالمَثل، وأعني بها ﴿أَصْحَابَ ٱلْقَرْيَةِ﴾.

قيل: إنّ التقدير مثل أصحاب القرية التي كانت بالرُّوم تسمّى أنطاكية[٥] ﴿إِذْ جَاءَهَا﴾ وحين دخلها ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ والمبعوثون من قبل الله، أو من قبل عيسى الذي كان مبعوثاً ورسولاً من الله.

ثمّ بيّن سبحانه كيفية مجيئهم إليها بقوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا﴾ أولاً ﴿إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾ من الرسل يدعوانهم إلى التوحيد والايمان بشريعة عيسى عليه السلام ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ في دعوى الرسالة والتوحيد ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ هما وقوّيناهما ﴿بِثَالِثٍ﴾ من الرسل يقال له شمعون الصفا، وكان وصيّ عيسى عليه السلام بعد رفعه إلى السماء ﴿فَقَالُوا﴾ جميعاً لأهل القرية: يا أهل القرية ﴿إِنَّا إِلَيْكُم﴾ من جانب الله ﴿مُرْسَلُونَ﴾ فأنكروا رسالتهم، و﴿قَالُوا﴾ في جوابهم: ﴿مَا أَنتُمْ﴾ أيها المدّعون للرسالة ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ تأكلون الطعام

---

١. تفسير الرازي ٢٦: ٥٠.
٢. تفسير القمي ٢: ٢١٢، تفسير الصافي ٤: ٣٤٧.
٣. الاحتجاج: ٦٠، تفسير الصافي ٤: ٣٤٧.
٤. معاني الأخبار: ١/٩٥، تفسير الصافي ٤: ٢٤٧.
٥. تفسير روح البيان ٧: ٣٧٧.

وتمشون في الأسواق، لا مَزيّة لكم علينا، ولا فضيلة لكم كي تُخَصّون بالرسالة دوننا، ولو كان لله رسولاً لكان مَلَكاً، ثمّ بالغوا في التكذيب بقولهم: ﴿وَمَا أَنزَلَ﴾ الله الإله الذي تقولون إنّه ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ومن شأنه الرحمة والرسل إليكم من السماء ﴿مِن شَيْءٍ﴾ من الكتاب والملائكة ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ في دعوى الرسالة والتوحيد ونزول الكتاب، وما أنتم إلّا تَفْتَرُون على الله في أنّه أرسلكم إلينا لهدايتنا.

قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ[١٦ و ١٧]

ثمّ لمّا رأى الرسل إصرار القوم في تكذيبهم، بالغوا في الدعوى، وأكّدوها بالحَلْف، و﴿قَالُوا﴾ يا قوم ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ من قبله، وإن كذّبتمونا، ولا يَضُرّنا إنكاركم علينا، لأنّه ليس وظيفتنا ﴿وَمَا﴾ الواجب ﴿عَلَيْنَا﴾ من قِبل ربّنا ﴿ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ﴾ والتبليغ الواضح بإظهار رسالتنا، وإظهار المعجزات الشاهدة على صدقنا، وما قصّرنا في العمل بما هو وظيفتنا وأداء ما هو في عُهدتنا، وأمّا إجباركم على الايمان، فليس بواجبٍ علينا، ولا في وسعنا، فإنْ أصررتم على الكفر كان وَباله عليكم.

حكى بعض العامة: أنّ عيسى عليه السلام بعث رجلين من الحواريين قبل رفعه إلى السماء إلى بلدة أنطاكية، وكان أهلها يعبُدون الأصنام، فلمّا أمرهما أن يذهبا إلى البلدة، قالا: يا نبي الله، انّا لا نعرف لسان القوم، فدعا الله لهما فناما مكانهما فلمّا استيقظا، وقد حملتهما الملائكة وألقتهما إلى أرض أنطاكية، فكلّم كلّ واحدٍ صاحبه بلغة القوم، فلمّا قرُبا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غُنيمات له، وهو حبيب النجار، وكان ينحِت الأصنام، ويقال له صاحب يسّ، لأنّ الله تعالى ذكره في سورة يسّ، فسلّما عليه، فقال لهما: من أنتما؟ فأخبراه بأنّهما رُسل عيسى، وقالا: جئنا لنهديكم إلى دين الحقّ، ونُرشِدكم إلى الصراط المستقيم، وهو توحيد الله وعبادته. فقال الشيخ: ألكما على صدق دعواكم دليل واضح؟ قالا: نعم، نحن نشفي المريض ونُبرئ الأكمه والأبرص باذن الله، وكان لهما ما لعيسى من المعجزة بدعاء عيسى عليه السلام، فقال الشيخ: إنّ لي ابناً مجنوناً قد عجزت الأطباء من علاجه، فاشفياه من مرضه، فذهب بهما إلى داره، فدعوا الله ومسحا المريض، فقام باذن الله صحيحاً، فآمن حبيب، وفشا الخبر، وشُفي على أيديهما خلقٌ كثيرٌ، وبلغ حديثهما إلى المَلِك، واسمه بحناطيس الرُّومي، أو انطيخس، أو شلاحن، فطلبهما فأتياه، فاستخبر عن حالهما، فقالا: نحن رسل عيسى عليه السلام، ندعوك إلى عبادة ربٍّ واحدٍ. فقال: ألنا ربّ غير آلهتنا؟ قالا: نعم، وهو من أوجدك وآلهتك، من آمن به دخل الجنة، ومن

كفر به دخل النار، فغضِب المَلِك وضربهما وحبسهما.

فانتهى ذلك إلى عيسى عليه السلام فبعث ثالثاً وهو شمعون ليَنْصُرهما، فجاء شمعون القرية متنكّراً، فعاشر [حاشية المَلِك] حتى استأنسوا به، ورفعوا حديثه إلى المَلِك، فطلبه وأنِس به، وكان شمعون يُظهر موافقته في دينه، حيث كان إذا دخل معه على الصنم يصلّي ويتضرّع، وهو يظُنّ أنّه من أهل دينه، فقال شمعون يوماً للمَلِك: بلغني أنّك حبست رجلين دَعَواك إلى إله غير إلهك، فهل لك أن تدعوهما فأسمع كلامهما وأخاصمهما عنك؟ فدعاهما.

وفي بعض الروايات: أنّ شمعون لمّا ورد أنطاكية دخل السجن أولاً حتى انتهى إلى صاحبيه، فقال لهما: ألم تعلما أنّكما لا تُطاعان[١] إلّا بالرِّفق واللُّطف؟ إنّ مَثَلكما مَثَل المرأة لم تلد زماناً من دهرها، ثمّ ولدت غلاماً، فأسرعت بشأنه فأطعمته الخبز قبل أوانه فغصّ به فمات، فكذلك دعوتكما هذا المَلِك قبل أوان الدعاء.

ثمّ انطلق إلى المَلِك، فاستدعاهما ـ بعد التقرّب إليه ـ للمخاصمة، فلمّا حضرا قال لهما شمعون: من أرسلكما؟ قالا: الله الذي خلق كلّ شيءٍ، وليس له شريك. فقال: صِفاه وأوجزا. قالا: يفعل ما يشاء، ويحكم ما يُريد. قال: وما بُرهانكما على ما تدّعيانه؟ قالا: ما يتمنّى المَلِك. فجيء بغلام مطموس العينين بحيث لا يتميّز موضع عينيه من جبهته، فدعوا الله حتى انشقّ له موضع البصر، فاخذا بُندقتين من الطين، فوضعاهما في حَدقتيه، فصارتا مُقلتين ينظُر بهما، فتعجّب المَلِك، فقال له شمعون: أرايت لو سألت إلهك حتى يصنع مثل هذا، فيكون لك وله الشرف؟ قال: ليس لي عنك سرّ مكتوم، إنّ إلهنا لا يُبصر ولا يسمع ولا يضُرّ ولا ينفع.

ثمّ قال لهما المَلِك: إنّ هنا غلاماً مات منذ سبعة أيام، كان لأبيه ضَيعةٌ قد خرج إليها، وأهله ينتظرون قدومه، واستأذنوا في دفنه، فأمرتهم أن يُؤخّروه حتى يحضُر أبوه، فهل يُحييه ربّكما؟ فأمر بإحضار ذلك الميت، فدعوا الله علانيةً، ودعا شمعون سرّاً، فقام الغلام الميت حيّاً بإذن الله، وقال: لمّا مُتّ وفارق روحي من جسدي برزت على سبعة أودية من النار لموتي على الكفر، وأنا اُحذّركم عمّا أنتم عليه من الشِّرك، ورأيت أنّ أبواب السماء مفتوحةً، وعيسى عليه السلام قائماً تحت العرش، وهو يقول: ربّ انصُر رُسلي. فأحياني الله وأنا أشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّ عيسى رُوح الله وكلمته، وأنّ هؤلاء الثلاثة رُسل الله. قال المَلِك: ومن الثلاثة؟ قال الغلام: شمعون، وهذان. فتعجّب المَلِك، فلمّا رأى شمعون أنّ قول الغلام أثّر في المَلِك أخبره بالحال، وأنّه رسول المسيح إليهم ونَصَحه، فآمن المَلِك فقط

---

١. في النسخة: تطلقان.

خُفيةً على خوفٍ من عُتاة ملّته، وأصرَ قومه على الكفر، فَرجَموا الرُسل بالحجارة، وقالوا: إنّ كلمتهم واحدة، وقتلوا حبيب النجّار وأبا الغلام الذي أُحيي لأنّه أيضاً كان قد آمن[١]. وقيل: إنّ المَلِك أيضاً أصر [على] كفره[٢].

عن القمي ﷺ، عن الباقر عليه‌السلام: أنّه سُئِل عن تفسير هذه الآية، فقال: «بعث الله رجلين إلى أهل مدينة أنطاكية، فجاءهم بما لا يعرِفون، فغلَظوا عليهما، فأخذوهما وحبسوهما في بيت الأصنام، فبعث الله الثالث، فدخل المدينة فقال: أرشدوني إلى باب المَلِك، فلمّا وقف على الباب قال: أنا رجلٌ كنت أتعبّد في فَلاة من الأرض، وقد أحببت أن أعبُد إله الملِك، فأبلغوا كلامه المَلِك، فقال: أدخلوه إلى بيت الآلهة. فأدخلوه، فمكث سنةً مع صاحبيه، فقال لهما: أيُنقل من دين إلى دين بالخُرق، أفلا رفقتما؟ ثمّ قال لهما: لا تُقرّان بمعرفتي.

ثمّ أُدخل على المَلِك، فقال له المَلِك: بلغني أنّك كنتَ تعبُد إلٰهي، فلم أزل وأنت أخي فسلني حاجتك فقال: مالي حاجة أيّها المَلِك، ولكن رأيت رجلين في بيت الآلهة، فما حالهما؟ فقال المَلِك: هذا رجلان أتياني ببطلان ديني، ويدعواني إلى إله سماويّ. فقال: أيها المَلِك فمناضرة جميلة، فان يكن الحق لهما اتبعناهما، وإن يكن الحقّ لنا دخلا معنا في ديننا، وكان لهما ما لنا، وعليهما ما علينا.

فبعث المَلِك إليهما، فلمّا دخلا عليه، قال لهما صاحبهما: ما الذي جئتما به؟ قالا: جئنا ندعو إلى عبادة الله الذي خلق السماوات والأرض، ويخلُق في الأرحام ما يشاء، ويُصوّر كيف يشاء، وأنبت الأشجار والثمار، وأنزل القَطْر من السماء.

فقال لهما: إلهكما هذا الذي تدعوان إليه وإلى عبادته، إن جئنا بأعمى يقدِر أن يَرُدّه صحيحاً؟ قالا: إن سألناه أن يفعل فعل إن شاء. قال: أيّها المَلِك عليّ بأعمى لم يُبصِر شيئاً قطّ. فأتي به، فقال لهما: ادعوا إلهكما أن يرُدّ بصر هذا. فقاما وصلّيا ركعتين، فاذا عيناه مفتوحتان، وهو ينظُر إلى السماء. فقال: أيّها المَلِك عليّ بأعمى آخر. فُأتي به فسجد سجدةً، ثمّ رفع رأسه، فاذا الأعمى يُبصِر.

فقال: أيّها المَلِك حُجَة بحُجَةٍ. عليّ بمُقْعَد. فأُتي به، فقال لهما مثل ذلك، فصلّيا ودعوا الله، فاذا المُقْعَد قد أُطلقت رجلاه وقام يمشي، فقال: أيّها المَلِك، عليّ بمُقْعَد آخرَ فأُتي به، فصَنَع به كما صَنَع أوّل مرّة، فانطلق المُقْعَد، فقال: أيّها المَلِك، قد أتيا بحُجّتين، وأتينا بمِثلهما، ولكن بقي شيءٌ آخر، فان كانا فعلاه دخلتُ معهما في دينهما، ثمّ قال: أيّها المَلِك، بلغني أنّه كان لك ابن واحد ومات، فان

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٣٧٨.

٢. تفسير روح البيان ٧: ٣٨٠.

أحياه إلَهِهما، دخلتُ معهما في دينهما. فقال له: وأنا أيضاً معك.

ثمَ قال لهما: قد بقيت خَصْلةٌ واحدةٌ، قد مات ابن المَلِك، فادعوا إلٰهكما أن يُحييه، فخرّا ساجدين لله عزَ وجلَ، وأطالا السُّجود، ثمَ رفعا رأسهما، وقالا للمَلِك: ابعث إلى قبر ابنك تَجِده قد قام من قبره إن شاء الله، فخرج الناس ينظُرون، فوجوده قد خرج من قبره ينفُض رأسه من التُّراب، فأُتي به إلى المَلِك، فعرَف أنَه ابنه، فقال: ما حالك يا بُني؟ قال: كنت ميتاً، فرأيت رجلين بين يدي ربّي الساعة ساجدين يسألانه أن يُحييني فأحياني. قال: يا بُني، تعرفهما؟ قال: نعم، فأخرج الناس إلى الصحراء، فكان يمُرّ عليه رجلٌ رجلٌ فيقول أبوه: انظُر، فيقول: لا، ثمّ مرّوا عليه بأحدهما بعد جمعٍ كثيرٍ، فقال: هذا أحدهما، وأشار بيده إليه، ثمَ مرّوا أيضاً بقومٍ كثيرين حتى رأىٰ صاحبه الآخر، وقال: هذا الآخر، فقال النبيّ صاحب الرجلين: أمّا أنا فقد آمنتُ بإلٰهكما، وعَلِمت أنّ ما جئتما به هو الحقّ. فقال المَلِك: وأنا أيضاً آمنت بإلٰهكما، وآمن أهل مملكته كُلَهم»[1].

قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُوا طَائِرُكُم مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَاقَوْمِ ٱتَّبِعُوا ٱلْمُرْسَلِينَ * ٱتَّبِعُوا مَن لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ[١٨ ـ ٢١]

ثمَ لمّا عجَزَ القوم عن الاحتجاج، وضاقت عليهم الحِيل، سلكوا طريق العِناد واللِّجاج و ﴿قالوا﴾: أيّها المدّعون للرسالة ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ وتشأمنا بقدومكم في بلدنا، إذ منذ قَدِمتم انقطع عنّا المطر، وابتُلينا بالبلايا والشرور ـ على ما قيل ـ فاخرُجوا من بيننا، أو انتهوا عن دعوتكم[2]، والله ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا﴾ عمّا تقولون، ولم تمتنعوا عن مقالتكم، ولم ترتدعوا عن دعوتكم ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ ولنرمينّكم بالحِجارة ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾ وليُصيبكم ﴿مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهو القتل بالأحجار.

وقيل: إنّ المراد بالرجم السبّ والشتم، والمعنى لنشتُمنّكم، بل لا نكتفي به، فان لم ترتدعوا بالشتم لنضرِبنّكم ونقتُلنكم[3]، فأجابهم الرُّسل و ﴿قَالُوا﴾: يا قوم ﴿طَائِرُكُم﴾ وسبب شؤمكم ﴿مَعَكُمْ﴾ وهو كفركم بالله، وطغيانكم عليه، وتكذيبكم رُسله، فانّه سبب ابتلائكم بالبلايا والشرور، وليس ذلك منّا.

ثمَ لاموهم على تطيّرهم وتوعيدهم بقولهم: ﴿أَئِنْ ذُكِّرْتُم﴾ ووُعِظتم وأُرشدتم إلى ما فيه خيركم وسعادتكم ونُصحتم بما فيه صلاح دنياكم وآخرتكم، وتطيّرتم بالمُرشِد الناصح، أو توعّدتموه

---

١. تفسير القمي ٢: ٢١٣، تفسير الصافي ٤: ٢٤٧.
٢ و٣. تفسير روح البيان ٧: ٣٨١.

بالرَّجم والتعذيب؟! ليس هذا طريق الإنصاف وسلوك الشاعر العاقل ﴿بَلْ أَنتُمْ﴾ أيها الناس ﴿قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ ومتجاوزون عن حدّ العقل والانصاف، متوغلون في الجهل والعدوان والظلم والطُّغيان، فلمّا سَمِع حبيب النجّار الذي آمن بالرسل قبل ورودهم في المدينة معارضة القوم للرسل، وتصميمهم على قتلهم، جاء لنصرتهم كما حكاه سبحانه بقوله: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ وأبعد مكانٍ منها، وهو ما يقرُب من بابها، وكان دورها اثني عشر ميلاً على ما قيل[1] ﴿رَجُلٌ﴾ عظيم الشأن عند الله لإيمانه وكماله في الصفات الوجودية، وهو ﴿يَسْعَىٰ﴾ ويُسرِع في مشيه، لئلا يفوت عنه نُصرة الرسل بقتلهم ورجمهم، و﴿قَالَ﴾ إشفاقاً لقومه: ﴿يَا قَوْمِ﴾ إن أردتم خير الدنيا والآخرة ﴿ٱتَّبِعُوا﴾ وأطيعوا هؤلاء ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الذين يدعونكم إلى توحيد الله وخلُوص العبادة له.

قيل: إنّه بعد ذلك سأل الرسل: أتريدون على رسالتكم أجراً؟ قالوا: لا. فقال: يا قوم[2] ﴿ٱتَّبِعُوا مَن لَا يَسْأَلُكُمْ﴾ ولا يطلُب منكم ﴿أَجْراً﴾ ومالاً على إرشادكم إلى الحقّ، وتعليمكم المعارف والأحكام الإلهية ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ إلى خير دينكم ودنياكم، عالمون بما فيه صلاح معاشكم ومعادكم ، فبيّن وجود المقتضي لاتّباعهم، وهو كونهم مهتدين وعالمين بالمصالح والمفاسد، وعدم المانع وهو الضرر المالي فيه.

وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنقِذُونِ * إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ [٢٢ ـ ٢٤]

ثمّ بالغ في ترغيبهم إلى اتّباعهم ببيان أنّهم لا يدعون إلّا إلى ما يحكُم به كلّ عقلٍ سليم، وإن ما يُرغّبهم فيه هو الذي اختاره لنفسه بقوله: ﴿وَمَا لِيَ﴾ وأي داعٍ يدعوني إلى أن أعبدَ الأخشاب والأحجار التي لا تنفعني ولا تضرّني و ﴿لَا أَعْبُدُ﴾ الإله القادر ﴿ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ وأخرجني بقدرته من كتم العدم إلى عالم الوجود، وأنعم عليّ بنعمة الحياة في البدو؟ ﴿وَ﴾ أنتم ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بعد الموت، وتُعاقبون على الإشراك به وتكذيب رُسله، فجمع بين غاية الترغيب والترهيب.

ثمّ بيّن كون عبادة غير الله سَفهاً لا يرتكبه من شمّ رائحة العقل بإنكاره من نفسه بقوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ﴾ وأختار لنفسي غير الإله الذي فطرني و ﴿مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ ومعبودين كالأصنام والكواكب وغيرهما مع أنّه ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ والإله الواسع الرحمة ﴿بِضُرٍّ﴾ ومكروهٍ لسوء عملي ﴿لَا تُغْنِ عَنِّي﴾ ولا

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٣٨٣.

٢. تفسير القرطبي ١٥: ١٨.

تنفعني ﴿شَفَاعَتُهُمْ﴾ عنده في حقّي ﴿شَيْئاً﴾ يسيراً من النفع، لعدم كونهم أهلين للشفاعة ﴿وَلَا﴾ هم بقدرتهم ﴿يُنقِذُونِـ﴾ـني ويخلّصونني من الضُرّ، لكون عجزهم إلى الغاية.

ثمّ بيّن غاية ضلال عبدة الأصنام بألطف بيان بقوله: ﴿إِنِّي إِذاً﴾ وحين اتّخاذي إلهاً غير الله، والله ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وانحرافٍ واضحٍ عن طريق العقل ومَسْلَك العقلاء، بحيث لا يخفى على أحدٍ ممّن شمّ رائحة العقل والإدراك.

إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ * قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ[٢٥ ـ ٢٧]

ثمّ لمّا بيّن وجوب اتّباع الرسل الدُّعاة إلى التوحيد، وكون الشِّرك غاية السَّفه والضلال بالبرهان المطويّ في كلامه، أعلن بإيمانه بقوله: ﴿إِنِّي﴾ يا قوم ﴿آمَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الذي هو ربّي وربّ كلّ شيء، فاسمعوني وأجيبوني في وعظي ونُصحي، وأقبلوا قولي.

قيل: إنّه خاطب الرسل بذلك حين أراد القوم قتله، ومقصوده إصغاؤهم إلى إقراره بالتوحيد، ليشهدوا به عند الله[1].

قيل: أطال الكلام مع القوم ليشغلهم عن قتل الرسل، إلى أن قال: إني آمنت بربكم ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ فوثبوا عليه فقتلوه، وباشتغالهم بقتله تخلّص الرسل[2].

قيل: إنّهم وطئوه حتى خرجت أمعاؤه من دُبره[3]. وقيل: نشروه بالمِنشار حتى خرج من بين رجليه[4]، وقيل: خَرَقوا خرقاً في حلقه، ثمّ علقوه[5] من وراء سور المدينة[6]. وقيل: ألقوه في بئر يقال له الرَّس، وقبره في سوق أنطاكية[7].

قيل: إنّ اسم ابيه مري، وكان من نَسْل إسكندر الرومي[8].

روى بعض العامة عن النبي ﷺ أنّه قال: «سُبّاق الأمم ثلاثة لم يكفُروا بالله طَرفة عين: علي بن أبي طالب، وصاحب يس، ومؤمن آل فِرعون»[9].

أقول: هذا منافٍ لما حكوه من أنّه كان ينحِت الأصنام وآمن في سنّ الشيخوخة على يدي الرسل،

---

١. مجمع البيان ٨: ٦٥٨.
٢. تفسير روح البيان ٧: ٣٨٦.
٣. تفسير القرطبي ١٥: ١٩.
٤. تفسير القرطبي ١٥: ١٩، تفسير روح البيان ٧: ٣٨٦.
٥. في تفسير القرطبي: حرقوه حرقاً، وعلقوه.
٦. تفسير القرطبي ١٥: ١٩.
٧. تفسير روح البيان ٧: ٣٨٦.
٨. تفسير روح البيان ٧: ٣٨٣.
٩. تفسير روح البيان ٧: ٣٨٣.

وفي (المجالس) عن النبي ﷺ قال: «الصدّيقون ثلاثة: حبيب النجار مؤمن آل يسّ الذي يقول: ﴿اتبعوا المرسلين﴾، وحزقيل مؤمن آل فرعون، وعلي بن أبي طالب وهو أفضلهم»[١].

وفي (الخصال) عنه ﷺ: «ثلاثة لم يكفُروا بالوحي طَرفة عين: مؤمن آل يسّ، وعلي بن أبي طالب، وآسية امرأة فِرعون»[٢].

ثمَ حكى سبحانه لُطفه به بعد قتله بقوله تعالى: ﴿قِيلَ﴾ له بشارةً من قِبَل الله بأنّه من أهل الجنة، أو إكراماً، أو إذناً: يا حبيب ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ التي اُعدّت للمتّقين، فلمّا رأى كرامته على الله بتوحيده وإيمانه ﴿قَالَ﴾ تمنّياً لعلم قومه بما ناله من الكرامة والنِّعم الدائمة: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى﴾ من ذنوبي ﴿وَجَعَلَنِى﴾ عنده بلُطفه ﴿مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ والمتنعمين في الجنة، فيحملهم علمهم بحالي على التوبة من الكفر، وقَبول الايمان، والقيام بطاعة الله. في الحديث العامي: «نصح قومه حياً وميتاً»[٣].

وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِنَ ٱلسَّماءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ * إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ * يَاحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ [٢٨ ـ ٣٠]

ثمَ أنّه تعالى بعد بيان إكرامه للمؤمن، بيّن قهره على أعدائه وكيفية اهلاكهم بقوله: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا﴾ إذ قُتِل حبيب ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ الذين عادوه وقتلوه ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ لإهلاكهم ﴿مِن جُندٍ﴾ وعسكرٍ من الملائكة ﴿مِنَ ٱلسَّماءِ﴾ كما أنزلنا يوم بدرٍ واُحد والخندق ﴿وَمَا كُنَّا﴾ ولم يكن مناسباً لقُدرتنا وحِكمتنا أن نكون ﴿مُنزِلِينَ﴾ للملائكة لإهلاك قوم ونصرة نبي، بل كان إنزال الملائكة من خصائصك وكرامتك، بل ﴿إِن كَانَتْ﴾ وما وجدت بأمرنا لاهلاكهم ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾.

رُوي أنّ الله بعث جَبْرئيل، فصاح عليهم صيحة ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ وميّتون، لا يُسمَع لهم حسيس، ولا تُرى لهم حركة، وكانوا كسراج اُطفي بريحٍ، أوكنارٍ خمدت بماءٍ في السهولة السرعة[٤]. قيل: وقعت الصيحة في اليوم الذي قتلوه[٥]. وقيل: في الساعة التي عادوا فيها بعد قتله إلى منازلهم فرحين مستبشرين[٦]. وقيل: في اليوم الثالث من قتله[٧].

---

١. أمالي الصدوق: ٧٦٠/٥٦٣، تفسير الصافي ٤: ٢٥٠.
٢. الخصال: ٢٣٠/١٧٤، تفسير الصافي ٤: ٢٥٠.
٣. تفسير روح البيان ٧: ٣٨٧.
٤. تفسير روح البيان ٧: ٣٨٨.
٥. تفسير روح البيان ٧: ٣٨٩.
٦. تفسير روح البيان ٧: ٣٨٩.
٧. تفسير روح البيان ٧: ٣٨٨.

عن النبي ﷺ: «أربعة مدائن من مدائن النار: أنطاكية، وعَمَورية، وقُسْطَنْطِينة، وظَفَار اليمن». قيل: إنّه بلدةٌ قريبةٌ من صنعاء يُنسَب إليها الجَزَع[1].

ثمّ أنه تعالى بعد حكاية إهلاك أهل أنطاكية، أظهر حُبّه بعباده المخلوقين بقدرته بإظهار التحسّر على المكذّبين بالرُّسل، وإراءة ذاته المقدّسة كالمتحسّر عليهم مع تقدّسه عن العوارض البشرية والإمكانية بقوله: ﴿يَا حَسْرَةً﴾ شديدة ﴿عَلَىٰ ٱلعِبَادِ﴾ المخلوقين في العالم لتحصيل العلوم والمعارف الإلهية، وتكميل النفوس لنيل الرحمة والنِّعم الدائمة احضُري، فانّ هذا الوقت الذي يُصِرّ العباد على الكفر وقت حضورك، فانّهم ﴿مَا يَأْتِيهِم﴾ من قبل الله ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ لهدايتهم وتعليمهم وتربيتهم لُطفاً بهم ورحمةً عليهم ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾ مع أنّ في قبولهم نصائحه واتّباعهم أوامره سعادة الدارين.

قيل: إنّ بإنشاء هذا النداء حضرت محضر الحسرة في النفوس القُدسية والأوراح المُجرّدة والقلوب الزاكية المطهّرة، بل في جميع الحيوانات والنباتات والجمادات.

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ[٣١]

ثمّ أنه تعالى بعد إظهار الحسرة على المكذّبين بالرُّسل الذين كانوا في القرون الماضية، وفي عصر خاتم النبيين، أظهر العجب من عدم اعتبارهم من هلاك الأمم المستهزئة بالرسل بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ اُولئك المكذّبون والمستهزئون، ولم يعلموا علماً يُشابه الرؤية أنا ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ بعذاب الاستئصال ﴿قَبْلَهُم﴾ وفي الأعصار والأزمنة السابقة على عصرهم ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ والأمم المكذبة بالرسل المستهزئة بهم؟! ولم يَرَوا بعد إهلاكهم ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ﴾ في الدنيا ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ بل انقطعوا عن الدنيا بالكُلية.

وممّا تضحك به الثكلى ما قاله إسماعيل الحقّي في (روح البيان) من أنّه يجب إكفار الروافض في قولهم بأنّ علياً وأصحابه يرجِعون إلى الدنيا، فينتقمون من أعدائهم، ويملأون الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلِئت ظُلماً وجَوراً، وذلك القول مخالفٌ للنصّ، نعم إنّ روحانية [علي ﷺ] من وزراء المهدي في آخر الزمان على ما عليه أهل الحقائق[2]. فانّ كلامه سخيف ـ لظهور فساده، ودلالته على عدم فَهمه وعدم اطّلاعه على مذهب الطائفة المحقّة الذين هم أعلى شأناً من أن يجري اسمهم على لسان هذا الصوفي العاميّ ـ لا بأهلٍ للجواب.

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٣٧٧.

٢. تفسير روح البيان ٧: ٣٩٠.

قيل: إنّ المراد أنّ الباقين لا يرجِعون إلى المُهلَكين بنَسَبٍ ولا ولادة، وهو كنايةٌ عن انقطاع نَسْلهم من الدنيا[1].

وَإِن كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ * وَآيَةٌ لَهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ[٣٢ـ٣٥]

ثمّ أنه تعالى بعد بيان عدم رجوعهم إلى الدنيا وانقطاعهم عنها، أخبر باجتماعهم مع الباقين في القيامة بقوله: ﴿وَإِن كُلٌّ﴾ من المُهْلَكين والباقين، وما واحدٌ منهم ﴿لَمَّا جَمِيعٌ﴾ ومجتمع مع الآخرين ﴿لَدَيْنَا﴾ يوم القيامة ﴿مُحْضَرُونَ﴾ وإلى موقف الحساب يُساقون للحساب والجزاء.

ثمّ أنه تعالى بعد تهديد المشركين بما نزل على الأمم المُهْلَكة، وحُضورهم بعد الموت في محضر عدله، ذكر بعض الآيات العظيمة الدالّة على وحدانيته وقدرته على البعث بعد الموت بقوله: ﴿وَآيَةٌ﴾ عظيمة ودلالة واضحة ﴿لَهُمُ﴾ على التوحيد وكمال قُدرته على البعث بعد الموت ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ واليابسة التي لا نبات لها، أمّا كيفية آيتيتها هو أنّا ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ وأنبتنا فيها نباتات مختلفة كثيرة، ومن أهمّ منافع إحيائها أنّا أنبتنا ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً﴾ عظيم النفع كالبُرّ والشعير اللذين يتقوّت بهما ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ وبه يتعيّشون ﴿وَجَعَلْنَا﴾ في الأرض وخلقنا ﴿فِيهَا جَنَّاتٍ﴾ وبساتين متشكّلة ﴿مِن نَّخِيلٍ﴾ وأنواعٍ مختلفة من شجر التمر ﴿وَ﴾ من أَعْنَابٍ متنوعة ﴿وَفَجَّرنَا﴾ وشققنا ﴿فِيهَا﴾ كثيراً ﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ النابعة ﴿لِيَأْكُلُوا﴾ بعد خلق ما ذكر من البساتين، أو بعد تفجير العيون ﴿مِن ثَمَرِهِ﴾ الحاصل منه، ﴿وَ﴾ من ﴿مَا عَمِلَتْهُ﴾ واتّخذته ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ منه من العصير والدِّبس ونحوهما.

وقيل: إنّ كلمة (ما) نافية، والحال أنّ الثمر ليس ممّا عملته أيديهم، بل يكون ممّا خلقه الله[2].

ثمّ وبّخ سبحانه الناس على ترك شُكر هذه النعمة بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ المُنعِم بالإقرار بتوحيده وتقديسه وتحميده، مع أنّ الواجب بحكم العقل شكر المُنعِم.

سُبْحَانَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا

---

١. تفسير روح البيان ٢٦: ٦٤.

٢. تفسير أبي السعود ٧: ١٦٦، تفسير روح البيان ٧: ٣٩٤.

يَعْلَمُونَ * وَآيَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ * وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ[٣٦ـ٣٨]

ثمّ لمّا كان المشركون كفروا هذه النِّعم بجعل الشريك له تعالى، نزّه ذاته عن الشريك بقوله: ﴿سُبْحَانَ﴾ الإله القادر ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ بقدرته الكاملة ﴿ٱلْأَزْوَاجَ﴾ والأصناف من المخلوقات ﴿كُلَّهَا﴾ ثمّ فصّل سبحانه أنواع المُمكنات والمخلوقات بقوله: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ كالأشجار والثّمار والزُّروع والحبوب والحشائش وغيرها ممّا يأكل الناس والأنعام ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ذُكراناً وإناثاً ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ به ولا يَطّلعون عليه من المجرّدات والمادّيات والبرّيات والبحريات.

قيل: إنّ دوابّ البرّ والبحر ألف صنفٍ لا يعلم الناس أكثرها[١].

عن الصادق عليه السلام: «أنّ النُّطفة تقع من السماء إلى الأرض على النبات والثمر والشجر، فيأكل الناس منه والبهائم، فتجري فيهم»[٢].

﴿وَآيَةٌ﴾ عظيمة أُخرى ﴿لَّهُمُ﴾ تَدُلّ على وحدانية رَبّهم، وهي ﴿ٱلَّيْلُ﴾ المُظلِم وبيان كيفية آيتيته هو أنّا ﴿نَسْلَخُ﴾ ونُزيل ﴿مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ بحيث لا يبقى منه شيءٌ من ضوئه، كما يُزال جلد الغَنَم منه ﴿فَإِذَا هُم﴾ بعد كشف النهار عن مكانه ﴿مُّظْلِمُونَ﴾ ومُحاطون بسواد الليل.

وعن الباقر ـ في تأويله ـ «يعني قُبِض محمّد صلى الله عليه وآله وظهرت الظُّلمة، فلم يُبصِروا فضل أهل بيته»[٣].

﴿وَ﴾ كذا ﴿ٱلشَّمْسُ﴾ المُضيئة المُشرقة آيةٌ عظيمةٌ لهم حيث إنّها ﴿تَجْرِى﴾ وتسير ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ وإلى حدّ ينتهي إليه دورها في آخر السنة، كسير المسافر إلى المقصد الذي ينتهي إليه سيره.

وقيل: إنّ مستقرّها وسط السماء، فشبّه سبحانه بطء سيرها وحركتها هناك بالوقوف[٤].

وقيل: إنّ مستقرّها هو البُرج الذي يكون بعد البُرج الذي تكون فيه، فانّ سيرها في بُرجها يترتّب عليه استقرارها في البُرج الذي بعده شهراً[٥].

وقيل: إنّ المستقرّ اسم زمان انقطاع سيرها، وهو عند خراب العالم، أو المراد وقت قرارها وتغير حالها بالطُّلوع من مغربها[٦]، كما عن أبي ذرّ في رواية عامية، قال: دخلت المسجد ورسول الله صلى الله عليه وآله جالسٌ، فلمّا غابت الشمس قال: «يا أبا ذرّ، أتدري أين تذهب هذه الشمس؟» فقلت: لا، الله ورسوله أعلم. فقال: «تذهب وتسجُد تحت العرش، فتستأذن فيُؤذَن لها، ويُوشك أن تسجُد ولا يُقبَل منها،

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٣٩٥.
٢. تفسير القمي ٢: ٢١٥، تفسير الصافي ٤: ٢٥٣.
٣. الكافي ٨: ٣٨٠/٥٧٤، تفسير الصافي ٤: ٢٥٣.
٤ و٥. تفسير روح البين ٧: ٣٩٧.
٦. تفسير روح البيان ٧: ٣٩٨.

وتستأذن فلا يُؤْذَن لها، ويقال لها: أرجِعي إلى حيث جئتِ، فتطلُع من مغربها، فذلك قوله: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾»[١].

وفي (المجمع) عنهما عليهما السلام: «لا مستقرَ لها»[٢].

﴿ذَٰلِكَ﴾ الجري البديع الموافق للحكم الكثيرة التي عَجَزت عن فَهمْها العُقول والأفهام ﴿تَقْدِيرُ﴾ الإله ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ القاهر بقدرته لكلّ شيءٍ، وبإرادته وتدبيره ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بمصالح العالم وجميع الحكم.

قيل: إنّ مَن تفكّر في سير الشمس عَلِم أنّه على الوجه الأنفع الأصلح لنظام العالم، ولا يكون ذلك إلّا بتدبير العليم الحكيم، فانّ من المعلوم أنّها في كّل يوم من ستة أشهر يكون خطّ سيرها غير خطّ السير الذي يكون لها في الأيام الأُخر، لأنّه لو كان سيرها في جميع الأيام على خطٍّ واحدٍ لا حترقت الأرض المسامتة لمسيرها، وفسدت الأراضي غير المسامتة لاستيلاءالرطوبات المجتمعة فيها في الأشياء، ولذا قدّر سبحانه قُربها من جميع قطعات الأرض بالتدريج، لتخرج النباتات من قطعات الأرض، والثِّمار من أشجارها، وتنفتح وتجِفّ، ثمّ تبعُد كيلا تحترق الأرض والأشجار[٣].

وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ * لَا ٱلشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ[٣٩ و ٤٠]

ثمّ أنّه تعالى قدّر لها طلوعاً وغروباً، لئلا تكِلّ القُوى بكثْرة السير والتعب، ولا يختلّ النظام بسبب الظُّلمة الدائمة، ثمّ أنّه تعالى قدّر لها سيراً أبطأ من سير القمر، وأسرع من سير زُحل، فلو كانت بطيئة السير لدامت زماناً طويلاً في مُسامته شيءٍ واحدٍ فتُحرقه، ولو كانت سريعة السير لما حصل منها النفع المقصود من تخفيف الرطوبات ونضج الأثمار وتربية المعادن والأبدان وغيرها.

﴿وَ﴾ قدرنا ﴿ٱلْقَمَرَ﴾ يعني ﴿قَدَّرْنَاهُ﴾ وعيّنا له ﴿مَنَازِلَ﴾ كلّ ليلةٍ ينزل في منزلٍ لا يتخطّاه ولا يتقاصر عنه ﴿حَتَّىٰ عَادَ﴾ في الدقّة والصُّفرة والتقوّس ﴿كَالْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ وعُود العِذق العتيق من شِمراخه ورأسه إلى مَنْبِتِه، فإنّه إذا يَبِس وعتُق صار أدقّ وأقوس، وعَوْد القمر إلى هذه الحالة في ليلة السابع والعشرين في عيون الناظرين، وإن كان في الواقع عظيماً.

ثمّ بين سبحانه كون الشمس والقمر مسخَرين وسائرين على وَفْق الحكمة بقوله: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنْبَغِى﴾ ويتيسّر ويصِحّ ﴿لَهَا﴾ مع إرادة الله كونها أبطأ سيراً ومتأخرةً من القمر ﴿أَن تُدْرِكَ﴾ في

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٣٩٨.

٢. مجمع البيان ٨: ٦٦٣، ولم ينسبه إليهما عليهما السلام، تفسير الصافي ٤: ٢٥٣.

٣. تفسير الرازي ٢٦: ٧٢.

سيرها ﴿ٱلْقَمَرَ﴾ وتساوقه فيه، بأن تسير في بُروجها الاثني عشر في شهر كما يسير القمر في بُروجها الاثني عشر، وإلّا يلزَم حصول الفصول الأربعة فيه.

واحتمل بعضٌ كون المراد من الإدراك البلوغ في الآثار، وإنّ لكلّ منهما أثراً يَخُصّه لا يمكن للآخر وجدان ذلك الأثر، أو المراد البلوغ في المكان، فانّ لكلٍّ منهما فَلكاً لا يمكن اجتماعهما في مكانٍ واحدٍ ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ ومعجزه من أن يأتي بعده وينتهي إليه، فتكون جميع الأوقات ليلاً، بل النهار يناوبه.

عن الباقر عليه السلام، قال: «يقول الشمس سلطان النهار، والقمر سلطان الليل، لا ينبغي للشمس أن تكون مع ضوء القمر بالليل، ولا يسبق الليل النهار، يقول لا يذهب الليل حتى يُدركه النهار»[1].

وعن الصادق عليه السلام: «النهار خُلِق قبل الليل» وفي قوله: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ قال: «أي سبقه النهار»[2].

أقول: لأنّ الليل هو الظُّلمة الحاصلة بعد غروب الشمس.

وقيل: إنّ المراد بالليل سلطان الليل، وهو القمر، والمراد بالنهار سلطان النهار، وهو الشمس، فيكون المعنى لا يسبق القمر الشمس في السير بأن يجتمعا في وقتٍ واحدٍ مع كونهما نَيّرين، بل إذا كان القمر في اُفق المشرق، كانت الشمس في اُفق المغرب ، وهذا في حركتهما اليومية، ولذا عبّر عنهما بالليل والنهار[3].

﴿وَكُلٌّ﴾ منهما ﴿فِى فَلَكٍ﴾ غير فَلك الآخر، وسماء غير سماء الآخر ﴿يَسْبَحُونَ﴾ ويسيرون بسرعة وسهولة، كالسابح في الماء.

روت العامة: أنّ الله خلق بحراً دون السماء جارياً في سرعة السّهم، قائماً في الهواء بأمر الله تعالى، لا تقطُر منه قَطرة تجري فيه الشمس والقمر والنجوم، فذلك قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ والقمر يدور دوران العَجَلة في لُجّة غَمر ذلك البحر، فاذا أحبّ الله أن يُحدِث الكسوف خرَف الشمس عن العَجَلة، فتقع في غمر ذلك البحر، ويبقى سائراً على العجلة النصف أو الثلث، أو ما شاء الربّ[4].

وإتيان صيغة الجمع مع أنّ السابح اثنان، لا سناده إلى الكلّ الذي هو جمعٌ في المعنى، أو للكثرة

---

١. تفسير القمي ٢: ٢١٤، تفسير الصافي ٤: ٢٥٣.
٢. مجمع البيان ٨: ٦٦٤، وتفسير الصافي ٤: ٢٥٣ عن الرضا عليه السلام.
٣. تفسير الرازي ٢٦: ٧٣.
٤. تفسير روح البيان ٧: ٤٠٣.

العارضة لهما بسبب العوارض، أو كون المراد جميع الكواكب، وإتيانه بالواو والنون لتنزيل الكوكبين منزلة العُقلاء، لاسناد السياحة التي هي فعلهم إليهما.

وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُم مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ[٤١ و ٤٢]

ثمّ أنّه تعالى بعد ذكر اختلاف الليل والنهار، ذكر نعمة اختلاف الفُلك في البحر، أو لمّا ذكر نعمة سير النيّرين، ذكر نعمة تهيئة وسيلة سير الانسان في البرّ والبحر بقوله: ﴿وَآيَةٌ﴾ عظيمة أُخرى ﴿لَّهُمْ﴾ ودلالة واضحة على توحيد ربّهم ﴿أَنَّا حَمَلْنَا﴾ وركّبنا ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ونسلهم الضِّعاف الذين يصعُب عليهم السفر في البرّ ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ والسفينة المملوءة منهم ومن غيرهم ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِن﴾ نظير الفُلك و ﴿مِثْلِهِ﴾ في سهوله السير به ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ عليه في البراري والجبال من الإبل وسائر الحيوانات الحمولة.

قيل: إنّ المراد من الفُلك فُلك نوح[١]، ومن ضمير الجمع نوع الانسان[٢]، والمعنى أنّا حملنا ذرية بني آدم في فُلك نوح المملوء منهم ومن سائر الحيوانات التي لا تعيش في الماء، ولولا حمل الذُّرية في الفُلك لما بقي لبني آدم نسلٌ وعَقب، وخلقنا لهم ممّا يُماثل ذلك الفُلك من السفن والزوارق، وعلى هذا قوله: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بدل (حملناهم) مُشعرٌ بكمال النعمة وعدم اختصاصها بهم، بل تكون متعديةً إلى أعقابهم إلى يوم القيامة.

وقيل: في التخصيص بذريتهم إشارةٌ إلى عدم الفائدة في حملهم، لكونهم كفاراً، وإنّما الفائدة في حمل ذرّيتهم المؤمنين. وقيل:إنّ المراد بالذُّرية جنس بني آدم، ويشمل الآباء والأولاد[٣].

وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ * إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعاً إِلَىٰ حِينٍ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَمَا تَأْتِيهِم مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَوْ يَشَاءُ ٱللهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلالٍ مُبِينٍ[٤٣-٤٧]

---

١. تفسير البيضاوي ٢: ٢٨٢، تفسير أبي السعود ٧: ١٦٨.
٢. تفسير الرازي ٢٦: ٧٩.
٣. تفسير الرازي ٢٦: ٧٩.

ثمّ نبّه سبحانه على أنّ الركوب ليس علّةً للعبور من البحر بالسلامة، بل الله هو الحافظ للراكب والمركوب بقوله: ﴿وَإِن نَّشَأْ﴾ إغراقهم ﴿نُغْرِقْهُمْ﴾ في البحر مع كونهم في الفُلك ﴿فَلَا صَرِيخَ﴾ ولا مُعين ﴿لَهُمْ﴾ يحرُسهم من الغرق قبله ﴿وَلَا هُمْ﴾ بعد الغرق في البحر ﴿يُنقَذُونَ﴾ ويُخلّصون منه بسبب من الأسباب ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ عظيمة كائنة ﴿مِّنَّا﴾ عليهم ﴿وَمَتَاعاً﴾ وانتفاعاً منهم بالحياة والنِّعم الدنيوية ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ موتهم والأجل المقدّر لهم، فانّ الرحمة والعيشة المُقدّرة مُنجية ومُغيثة لهم.

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان عدم اهتدائهم واعتنائهم بالآيات، بيّن عدم تأثّرهم واتّعاضهم بالمواعظ بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ نُصحاً وعِظةً أيّها المشركون آمنوا بالله و ﴿اتَّقُوا﴾ بايمانكم ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ وما نزل من العذاب على الأُمم الذين كانوا من قبل بسبب الشرك والطُّغيان على الله ورُسله، واحذروا من أن ينزِل عليكم مثله ﴿وَ﴾ احذروا ﴿مَا خَلْفَكُمْ﴾ وما أعدّ لكم من العذاب الأليم الدائم في الآخرة. ـ عن الصادق عليه السلام، قال: «معناه اتقوا ما بين أيديكم من الذنوب، وما خلفكم من العذاب»[1]. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ويُرجى أنكم بإيمانكم ﴿تُرْحَمُونَ﴾ من قبل الله، لأنّ النجاة من الشدائد لا تكون إلّا برحمة الله، ولا تَشْمُلكم رحمته إلّا بالايمان والتقوى ـ أعرضوا عن النُّصح البليغ، بل عاندوا وكابروا الناصح الشفيق، وأعجب من ذلك أنّهم ما يَرون ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ ومُعجزة من مُعجزات رسولهم ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ وبها غير معتنين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ نُصحاً وإشفاقاً على الفقراء: ﴿أَنفِقُوا﴾ على الفقراء والمحتاجين بعضاً وشيئاً ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من الأموال، وأعطاكم من النعم تفضّلاً وإحساناً، لتَردّوا به البلاء عن أنفسكم وأهليكم ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ نِعم الله، وأنكروا توحيده ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ونصحوا إنكاراً عليهم واستهزاءً بهم: ﴿أَنُطْعِمُ﴾ من أطعِمتنا ﴿مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ﴾ إطعامه ﴿أَطْعَمَهُ﴾ بقدرته كما أطعمنا على زعمكم أنّ الله أعطانا هذه الأموال، وتَحْسَبون أنّه لو شاء لأغنى الفقراء وأعزّ الأذلّاء ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ وما تكونون ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وانحرافٍ واضحٍ عن الحقّ، وخطأ ظاهرٍ عن طريق الصواب، حيث لا تسألون الله الانفاق عليهم، وتأمُرونَنا بما يُخالف مشيئة الله.

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ[٤٨ ـ ٥٠]

---

١. مجمع البيان ٨: ٦٦٧، تفسير الصافي ٤: ٢٥٤.

ثمّ حكى سبحانه عنهم إنكار البعث واستهزاءهم به بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ هؤلاء المشركون للرسول والمؤمنين إنكاراً للمعاد واستهزاءً بهم: ﴿مَتَىٰ﴾ وفي أيّ وقتٍ يُنجَز ﴿هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ الذي تَعِدوننا به من قيام الساعة والحساب والجزاء على الأعمال؟ عيّنوا وقته ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في الوعد به.

ثمّ لمّا كانت الحكمة البالغة مقتضيةً لاخفائها، أجابهم سبحانه من قبل المؤمنين بذكر علاماته الموحشة وأهواله العظيمة بقوله: ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ وما ينتظرون في وقوعه ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ لا يحتاج معها إلى الثانية، وهي نفخ إسرافيل في الصُّور المرة الأُولى التي تكون نفخة الصَّعق والموت، وهي ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ وتَنالهم مُفاجأة بالقهر وسائر الناس ﴿وَ﴾ الحال أنـ﴿ـهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ ويتنازعون في تجاراتهم ومعاملاتهم، وفي سائر أمور دنياهم.

عن ابن عباس: تهيج الساعة والرجلان يتبايعان [قد] نَشَرا أثوابهما فلا يَطويانها، والرجل يَلوطُ حوضه فلا يستقي منه، والرجل قد انصرف بلبنٍ لفجته[1] فلا يطعمه، والرجل قد رفع لقمته أو أكلته إلى فيه فلا يأكُلها، ثمّ تلا هذه الآية ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾[2].

وقيل: إنّ المراد أنّهم يختصمون في أمر البعث[3] ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ ولا يقدِرون عليها لمُفاجأتهم بالموت، فلا يَدَع لهم مجال الأمر بأداء الواجبات، أو ردّ مظلمة، فضلاً عن فعله ﴿وَلَا﴾ يُمهلهم كي ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِمْ﴾ وأزواجهم وأولادهم ﴿يَرْجِعُونَ﴾ من السوق، بل يموتون في مكانهم.

القمي، قال: ذلك في آخر الزمان، يُصاح فيهم صيحةً وهم في أسواقهم يتخاصمون، فيموتون كلّهم في مكانهم، لا يرجِع أحدٌ إلى منزله، ولا يوصي وصية[4].

وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ[٥١ و ٥٢]

ثمّ بيّن سبحانه الأهوال التي بعد الصيحة والموت بقوله: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ بعد موت كافة الناس النفخة الثانية ﴿فَإِذَا هُم﴾ من غير لبثٍ ﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ والقبور التي دُفِنوا فيها ﴿إِلَىٰ﴾ محضر عدل ﴿رَبِّهِمْ﴾ وموقف حساب أعمالهم ﴿يَنسِلُونَ﴾ ويُسرِعون جبراً وعُنفاً.

ثمّ كأنه قيل: ما يقول المنكرون للمعاد والبعث بعد خروجهم من قبورهم ومشاهدتهم صدقه؟ فأجاب سبحانه بقوله: ﴿قَالُوا﴾ تأسّفاً على إنكارهم البعث، وخوفاً ممّا ينزل بهم من العذاب: ﴿يَا

١. كذا، وفي تفسير روح البيان: لقحته.
٢. تفسير روح البيان ٧: ٤٠٩.
٣. تفسير الرازي ٢٦: ٨٧.
٤. تفسير القمي ٢: ٢١٥، تفسير الصافي ٤: ٢٥٥.

﴿وَيْلَنَا﴾ ويا هلاكنا احضُر في هذا الوقت، آن وقت حضورك، ثمَ لمّا يُوهموا أنّهم كانوا نائمين، ثمَ تيقَظوا قالوا تعجباً: ﴿مَنْ بَعَثَنَا﴾ وأقامنا ﴿مِن مَّرْقَدِنَا﴾ ومنامنا؟ ثمَ التفتوا إلى وعد الرسل بالبعث بعد الموت فقالوا: ﴿هٰذَا﴾ البعث من القبر والحياة بعد الموت هو ﴿مَا وَعَدَ﴾نا به ﴿ٱلرَّحْمٰنُ﴾ في الدنيا بلسان الرسل ﴿وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ في إخبارهم عن الله بالعالم الآخرة والحساب والجزاء، وقلنا لهم استهزاءً متى هذا الوعد؟

وقيل: إنّهم لمّا قالوا: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ أجابهم الملائكة والمؤمنون: إنّ هذا البعث ليس التيقّظ من النوم، بل هو ما وعده الرحمن[1].

عن الباقر عليه السلام، قال: «إنّ القوم كانوا في القبور، فلمّا قاموا حسبوا أنّهم كانوا نياماً، قالوا: ﴿يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ قالت الملائكة: ﴿هٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾»[2].

وعن الصادق عليه السلام، قال: «كان أبو ذرّ يقول في خطبةٍ: وما بين الموت والبعث إلّا كنومة نمتها، ثمَ استيقظت منها»[3].

إن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ * فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّ أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ[٥٣ـ٥٥]

ثمَ بيّن سبحانه سهولة إحيائهم وإحضارهم في محضر عدله بقوله: ﴿إِن كَانَتْ﴾ النفخة الثانية للخلق، وما صدرت من إسرافيل ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ غير محتاجة إلى الثانية ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ بتلك الصيحة من غير لبثٍ ما ﴿جَمِيعٌ﴾ ومجموع ﴿لَدَيْنَا﴾ وفي موقف الحساب ﴿مُحْضَرُونَ﴾.

ثمَ أعلن سبحانه بعدله في المُجازاة بقوله: ﴿فَالْيَوْمَ﴾ الذي حضرتم أيّها الناس عندنا لجزاء الأعمال ﴿لَا تُظْلَمُ﴾ من قبلنا ﴿نَفْسٌ﴾ من النفوس مؤمنة كانت أو كافرة بنقص الثواب أو زيادة العقاب ﴿شَيْئاً﴾ يسيراً، ولو كانت مثقال ذرّة ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ﴾ أيّها الكفار والفجّار ﴿إِلَّا﴾ جزاء ﴿مَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والعصيان، وأمّا المؤمنون، فانّهم يُجزون اليوم بما لم يعملوا فضلاً ورحمةً عليهم، كما قال: ﴿ويزيدهم من فضله﴾.

ثمَ بيّن سبحانه حسن حال المؤمنين في ذلك اليوم، ازدياداً لحسرة الكفّار بقوله: ﴿إِنَّ﴾ المؤمنين

---

١. تفسير البيضاوي ٢: ٢٨٤، تفسير روح البيان ٧: ٤١٢.

٢. تفسير القمي ٢: ٢١٦، تفسير الصافي ٤: ٢٥٥.

٣. الكافي ٢: ١٨/١٠٨، تفسير الصافي ٤: ٢٥٦.

الذين يكونون ﴿أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ﴾ وأهلها ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ كائنون ﴿فِى شُغُلٍ﴾ عظيمٍ وعملٍ يصرفهم عن الالتفات إلى أهوال اليوم وشدائده بحيث لا يُحزِنهم الفزع الأكبر ﴿فَاكِهُونَ﴾ ومتنعّمون بنِعم الجنة، ومتلذّذون بلذاتها، مسرورون بما نالوا من درجاتهم.

قيل: إنّ فاكهون تفسير لشغلهم، والمراد أنّهم شُغِلوا باللذّة والسرور، لا بالويل والثبور[١].

القمي، قال: ﴿فِى شُغُلٍ﴾ يعني في افتضاض العذارىٰ ﴿فَاكِهُونَ﴾ قال: يُفاكهون النساء ويُلاعبونهنّ[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «شُغلوا بافتضاض العذارى، قال: وحواجبهنّ كالأهلّة، وأشفار أعينهن كقوادم النّسر»[٣].

وفي الحديث العامي: «إنّ الرجل ليُعطى مائة رجل في الأكل والشرب والجِماع»[٤].

وفي الحديث: «أنّ أحدهم ليفتضّ في الغَداة الواحدة مائة عذراء»[٥].

وعن عكرمة: تكون الشهوة في اُخراهنّ كالشهوة في أوّلهن، كلّما افتضّها رجعت على حالها عذراء[٦].

رُوي أنّه جاء رجلٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: يا رسول الله، أنفضي إلى نسائنا في الجنة كما نُفضي إليهنّ في الدنيا؟ قال: «والذي نفسي بيده إنّ المؤمن ليُفضي في يوم واحدٍ إلى ألف عذراء»[٧].

وقيل: إنّ الشُّغل هو سَماع الأصوات الطيبة والنَّغمات اللذيذة[٨].

وقيل: إنّ المؤمن إذا اشتهى سَماع الغِناء أرسل الله تعالى إسرافيل فيقوم إلى الجانب الأيمن من المؤمن فيقرأ القرآن، ويقوم داود على جانبه الأيسر فيقرأ الزَّبور[٩].

وقيل: إنّ الشُّغل هو التزاور، فانّ المؤمنين يتزاورون في الجنة[١٠].

هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِى ظِلَالٍ عَلَى ٱلْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ * لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ * سَلَامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ [٥٦ـ٥٨]

ثمّ بيّن سبحانه كمال النعمة عليهم بقوله: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ المؤمنات اللّاتي كُنّ لهم في الدنيا مستقرّون ﴿فِى ضِلَالٍ﴾ وراحةٍ أبديةٍ، لا يشوبها تعبٌ ولا نَصَب.

قيل: أي في عزّة ومَنَعة[١١]، متمكّنون ﴿عَلَى ٱلْأَرَائِكِ﴾ والسُّرر المزيّنة التي تكون في الحِجال

---

١. تفسير الرازي ٢٦: ٩١.
٢. تفسير القمي ٢: ٢١٦، تفسير الصافي ٤: ٢٥٦.
٣. مجمع البيان ٨: ٦٧١، تفسير الصافي ٤: ٢٥٧.
٤ ـ٩. تفسير روح البيان ٧: ٤١٤.
١٠. تفسير روح البيان ٧: ٤١٥.
١١. تفسير روح البيان ٧: ٤١٧.

﴿مُتَّكِئُونَ﴾ ومعتمودن على النّمارق.

ثمّ أنّه تعالى بعد ذِكر نعمة اُنسهم بأزواجهم، واستغراقهم في الراحة، وتمكّنهم على السُّرر التي هي أحسن المجالس، وفراغهم من جميع المشاغل، بيّن مأكولهم في الجنة بقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ وأغذيةٌ لذيذة غاية اللذّة، بلا اضطرارٍ لهم إلى أكلها من جهة تألّمهم بالجوع وضَعْف القوى وإصلاح المِزاج ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ ويشتهون من المأكولات اللّذيذة والأشربة الطيبة.

قيل: إنّ المراد لهم مايدعون الله أن يُعطيهم فيستجيب دُعاءهم[١].

وقيل: لهم ماكانوا يَدّعُونه في الدنيا من الجنّة ودرجاتها[٢] ونِعمها، وعلى أيّ تقديرٍ يكون في قوله: ﴿لَهُمْ﴾ دلالة على كون الفاكهة وغيرها من النِّعم ملكاً لهم وتحت سلطنتهم واختيارهم.

ثمَ ختم سبحانه ذكر نعمه على المؤمنين بذِكر أعلاها بقوله: ﴿سَلَامٌ﴾. قيل: إنّ التقدير سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار[٣] ﴿قَوْلاً﴾ كائناً ﴿مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ بالمؤمنين عَطُوفٍ بعباده الصالحين.

قيل: إنّ (سلام) بدل من (ما يَدّعون) والمعنى لهم سلام[٤] وتحيّة، يقال لهم قولاً من جهة ربٍّ رحيمٍ بواسطة المَلَك أو بدون واسطة مبالغة في تعظيمهم[٥].

في الحديث: «بينما أهل الجنة في نَعيمهم إذ سطع نور فرفعوا رؤوسهم، فاذا الربّ تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم، فيقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، فذلك قوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ فينظُر إليهم وينظُرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيءٍ من النِّعم ما داموا ينظُرون إليه حتى يحتجب عنهم، ويبقى نوره وبركته عليهم»[٦].

أقول: المراد من إشرافه عليهم ظهور رحمته الخاصة بالخُلّص[٧]، وتجلّي النور الخاصّ الذي هو من آثار رضوانه، ومن نظره إليهم إدامة ذلك التجلّي، ومن نظرهم إليه محوهم فيه.

القمي، قال: السلام منه هو الأمان[٨].

وقيل: إنّه كلامٌ منقطعٌ عمّا قبله، ويكون ذلك إخباراً منه تعالى لنا في كلامه، فانّه لمّا بيّن كمال حسن حالهم قال: ﴿سلام عليهم﴾ كما قال: ﴿سلام على نوح﴾ و ﴿سلام على إبراهيم﴾ و ﴿سلام على المرسلين﴾ فهو إحسان على عباده المؤمنين كإحسانه على المرسلين[٩]، وإنّما وصف ذاته

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٤١٨.
٢. تفسير البيضاوي ٢: ٢٨٥.
٣. تفسير روح البيان ٧: ٤١٩.
٤. تفسير الرازي ٢٦: ٩٤.
٥. تفسير روح البيان ٧: ٤١٨.
٦. تفسير روح البيان ٧: ٤١٨.
٧. في النسخة: بالخُلّصين.
٨. تفسير القمي ٢: ٢١٦، تفسير الصافي ٤: ٢٥٧.
٩. تفسير الرازي ٢٦: ٩٤.

بالربوبية المُشعِرة بمالكيته وسيادته، للدلالة على نهاية التعظيم المعجب، فانّ تسليم المالك المُنعِم العظيم الشأن على عبده الضعيف من العجانب الدالة على نهاية التعظيم والعُطوفة.

وَٱمْتَازُوا ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُـجْرِمُونَ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِى ءَادَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ[٥٩ ـ ٦١]

ثمّ أنه تعالى بعد بيان كمال حسن المؤمنين وإكرامهم في الآخرة، بيّن سوء حال الكفار وإهانتهم فيها بقوله: **﴿وَٱمْتَازُوا ٱلْيَوْمَ﴾** وتفرّقوا عن المؤمنين **﴿أَيُّهَا ٱلْمُـجْرِمُونَ﴾** والعُصاة، وادخُلوا مساكنكم التي اُعدّت لكم في جهنم.

وقيل: يعني تفرّقوا وتلاشوا من الحسرة والندامة، لما ترون من رفعة منزلة المؤمنين وحُسن حالهم، أو تفرق بعضكم من بعضٍ على خلاف ما للمؤمنين من الاجتماع مع الأزواج والتزاور بينهم، وامتازوا وتفرّقوا من شُفعائكم وقُرنائكم، فما لكم اليوم من شفيع ولا حميم، أو امتازوا عمّا ترجون، واعتزلوا من كلّ خير، أو امتازوا وتبيّنوا من بين الناس، فتظهر فيهم سيماء يعرفون بها، وهو السواد الذي يظهر في وجوهم[1].

أقول: المجرمون الذين يخلّدون في النار هم المنكرون للصانع وتوحيده، والمُنكِرون للرسالة، والمُنكِرون للولاية أو واحد من ضَروريات الدين، كالشفاعة وظهور المهدي عليه السلام في آخر الزمان.

ثمّ أنه تعالى بعد أمر المجرمين بالامتياز، أخذهم بالتقريع والتبكيت بقوله: **﴿أَلَمْ أَعْهَدْ﴾** ولم أُوصِ في عالم الذّر، أو في الدنيا بلسان الرسل **﴿إِلَيْكُمْ يَا بَنِى ءَادَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا﴾** ولا تُطيعوا **﴿ٱلشَّيْطَانَ﴾** الذي أخرج أبويكم من الجنة، ولم أقل **﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾** ومبغضٌ ظاهر البغضاء بحيث لا تَخفى عداوته على ذي مُسكة؟! وإنّما نسب سبحانه إليهم عبادة الشيطان مع أنّ أحداً لا يعبُده؛ لأنّ عبادة غير الله بأمره هي عبادته.

عن الصادق عليه السلام: «من أطاع رجلاً في معصيةٍ، فقد عبده»[2].

وعن الباقر عليه السلام: «من أصغى إلى ناطقٍ فقد عبده، فان كان الناطق يروي[3] عن الله فقد عبد الله تعالى، وإن كان الناطق يروي عن الشيطان فقد عبد الشيطان»[4].

﴿وَ﴾ ألم أعهد إليكم **﴿أَنِ ٱعْبُدُونِى﴾** وأخلصوا لي العبادة **﴿هٰذَا﴾** العهد **﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾**

---

١. تفسير الرازي ٢٦: ٩٥.

٢. الكافي ٢: ٨/٢٩٣، تفسير الصافي ٤: ٢٥٨.

٣. في الكافي: يؤدي، وكذا التي بعدها.

٤. الكافي ٦: ٢٤/٤٣٤، تفسير الصافي ٤: ٢٥٨.

مؤصل لكم إلى كلّ خيرٍ وسَعادة.

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ * هٰذِهِ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ * ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[٦٢ـ٦٥]

ثمّ بالغ سبحانه في تقريعهم، وبيّن أنّ خلافهم لم يكن منحصراً بنقض عهدي، بل كان به وبعدم اتعاظهم بما شاهدوا وعلموا من العقوبات النازلة على الأمم السابقة بطاعتهم الشيطان بقوله: ﴿**وَلَقَدْ أَضَلَّ**﴾ الشيطان ﴿**مِنكُمْ**﴾ أيها المجرمون ﴿**جِبِلاً**﴾ وخَلقاً ﴿**كَثِيراً**﴾ فأصابهم لأجل ذلك ما أصابهم من العقوبات الهائلة التي ملأ الآفاق أخبارها، وبقي مدىٰ الدهر آثارها ﴿**أَفَلَمْ تَكُونُوا**﴾ قيل: إنّ التقدير أكنتم تشاهدون آثار عقوباتهم فلم تكونوا ﴿**تَعْقِلُونَ**﴾ وتفهمون أنها لضلالهم وطاعتهم الشيطان، فترتدعوا عنها كيلا يحيق بكم العقاب؟![1]

ثمّ أنه تعالى بعد تقريع المجرمين، أراهم نتيجة ضلالتهم بقوله: ﴿**هٰذِهِ**﴾ النار الموقدة التي تَرَونها هي ﴿**جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ**﴾ في الدنيا ﴿**تُوعَدُونَ**﴾ هاوتُهدَّدون بها على ألسنة الرسل في أزمنة متطاولة.

قيل: ثمّ يُقادون إلى شفيرها[2] ثمّ يقال لهم: ﴿**ٱصْلَوْهَا**﴾ وألقوا أنفسكم فيها، وقاسوا حرّها ﴿**ٱلْيَوْمَ**﴾ الذي يكون يوم المجازاة ﴿**بِمَا كُنتُمْ**﴾ في الدنيا ﴿**تَكْفُرُونَ**﴾ بالله وبرسله.

عن أبي هريرة، قال: أُوقِدت النار ألف عام فابيضَت، ثمّ أُوقِدت النار ألف عام فاحمرّت، ثمّ أُوقِدت ألف عام فاسودّت فهي سوداء كالليل المُظلِم، وهي سجن الله تعالى للمجرمين[3].

ثمّ لوى سبحانه الخطاب إلى الغَيبة إيذاناً بأنّ ذِكر أحوالهم الفظيعة مقتضية للإعراض عنهم، ثمّ حكى أحوالهم القبيحة لغيرهم بقوله: ﴿**ٱلْيَومَ**﴾ نمنعهم من التكلّم، كأنّا ﴿**نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ**﴾ فلا يقدِرون على النُّطق ﴿**وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم**﴾ وتعترف جوارحهم ﴿**بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ في الدنيا ويعملون من السيئات والقبائح، وذلك حين عاينوا صحائف أعمالهم، وأنكروا شركهم وسيئاتهم.

عن أنس، قال: كنّا عند رسول الله ﷺ فَضحِك، فقال: «أتدرون مم ضحكت؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «من مخاطبة العبد ربّه يقول: يا رب ألم تجزني[4] من الظّلم؟ يقول: بلى. فيقول: ما أجيز عن

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٤٢٣.
٢. تفسير أبي السعود ٧: ١٧٦، تفسير روح البيان ٧: ٤٢٤.
٣. تفسير روح البيان ٧: ٤٢٤.
٤. في تفسير روح البيان: تجرني.

نفسي إلّا شاهداً منّي. فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين [شهوداً]. فيُختَم على فيه، ويقال لأركانه: انطِقي، فتنطِق بأعماله، ثمّ يُخلّى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعداً لكنّ وسُحقاً، فعنكنّ كنت أُناضل»[١].

القمي، قال: إذا جمع الله الخلق يوم القيامة، دفع إلى كلّ انسان كتابه فينظر فيه، فيُنكرون أنّهم عملوا من ذلك شيئاً، فتشهد عليهم الملائكة فيقول: يا ربّ، ملائكتك يشهدون لك، فيحلِفون أنّهم لم يعملوا من ذلك شيئاً، وهو قول الله يوم يبعثهم الله جميعاً، فيحلفون له كما يَحلفون لكم، فاذا فعلوا ذلك خَتمَ الله على ألسنتهم، وتنطِق جوارحهم بما كانوا يكسِبون[٢].

وفي (الكافي) عن الباقر عليه السلام: «ليست الجوارح تشهَد على المؤمن، إنّما تشهد على من حقّت عليه كلمة العذاب، فأمّا المؤمن فيُعطى كتابه بيمينه، قال الله عزّ وجلّ: **﴿فمن اوتى كتابه بيمينه فاولئك يقرؤن كتابهم ولا يظلمون فتيلا﴾**»[٣].

أقول: الرواية مختصّة بالشهادة على المؤمن، فلا ينافي ما ورد في الحديث: «أنّ الله تعالى يُخاطب العبد المؤمن يوم القيامة ويقول: ما أتيت من العبادات والخيرات؟ فيستحي المؤمن أن يعرِض عباداته وحسناته، فيُنطق الله جوارحه فيشهدون بحسناته وأعماله الخيرية حتى أنّ أنامله تشهد بأنّه عدّ تسبيحاته بها»[٤].

وعن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال لبعض النساء: «عليكنّ بالتسبيح والتهليل والتقديس، واعقِدن بالأنامل، فانّهنّ مسؤلات مُسْتَنْطَقات»[٥].

أقول: لا ينافي هذا لما سبق، لأنّه شهادةٌ له، بل لا ينافي شهادة جوارح بعض المؤمنين عليه، لإظهار فضله وسعة رحمته. كما ورد أنّ عبداً تشهد عليه أعضاؤه بالزلّة فتتطاير شعرةٌ من جَفْن عينيه، فتستأذن بالشهادة له، فيقول الله: تكلّمي يا شعرة جَفْن عبدي، واحتجّي عن عبدي، فتشهد له بالبكاء من خوفه، فيغفر له، فينادي منادٍ: هذا عتيق الله بشعرةٍ[٦].

وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا ٱلصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ[٦٦ و ٦٧]

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٤٢٥.
٢. تفسير القمي ٢: ٢١٦، تفسير الصافي ٤: ٢٥٨.
٣. الكافي ٢: ١/٢٧، تفسير الصافي ٤: ٢٥٨، والآية من سورة الإسراء: ٧١/١٧.
٤. تفسير روح البيان ٧: ٤٢٦.
٥. تفسير روح البيان ٧: ٤٢٦.
٦. تفسير روح البيان ٧: ٤٢٥.

ثمَ نبّه سبحانه على أنّ حكمته البالغة اقتضت إيكال الناس إلى اختيارهم في الكفر والعصيان والايمان والطاعة، وإلّا كان قادراً على سلب قوى الكفّار وتعجيزهم عن العصيان بقوله تعالى: **﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾** بالمشيئة التكوينية طمس أعينهم ومحوها **﴿لَطَمَسْنَا﴾** وجعلنا المحو **﴿عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾** وسوّينا مكانها بحيث لا يبقى لها ضوء ولا يبدو لها شقّ ولا جَفْن، كما ختمنا على قلوبهم ومحونا بصائرهم **﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾** وتبادروا إلى الصراط المستقيم الواسع الذي اعتادوا سلوكه **﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾** ذلك الطريق، وكيف يَرَون موضع أقدامهم منه حتى يُمكنهم المشي فيه؟ وفيه تهديد لمُكذّبي الرسول بما فعل بقوم لوط حين كذّبوه وراودوه عن ضيفه.

ثمّ بالغ سبحانه في إظهار قدرته وتهديد المشركين بقوله: **﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾** مسخهم ومحو صورتهم النوعية **﴿لَمَسَخْنَاهُمْ﴾** وغيّرنا صورتهم بأن جعلناهم حَجَراً أو مَدَراً أو جماداً آخر، أو مسلوبي القوىٰ **﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾** ومقامهم وفي محلهم بالفور بحيث لا يكون لهم مجال الانتقال منه **﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً﴾** وذَهاباً إلى أمامهم وبين أيديهم **﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾** إلى ورائهم وخلفهم، وفيه إشعارٌ باستحقاقهم تلك العقوبة في الدنيا، كاستحقاقهم عقوبة الختم في الآخرة، وإنّما المانع الحكمة المقتضية لإمهالهم، فلا يشاء ذلك.

وَمَن نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ * وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ * لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ [٦٨ ـ ٧٠]

ثمَ استشهد سبحانه على قدرته على سلب قوتهم بما يَرَون من سلب قوى المعمَّرين بقوله تعالى: **﴿وَمَن نُعَمِّرْهُ﴾** ونُطيل مدّة حياته في الدنيا **﴿نُنَكِّسْهُ﴾** ونَقلِبه **﴿فِي الْخَلْقِ﴾** والجسم والقوى الظاهرية والباطنية، ونجعله بخلاف ما كان عليه في صباوة شبابه، فلا يزال تتغير جُثّته ويتزايد ضَعْفه، وتتناقص قُواه وبُنيته، ويتغيّر شَكْله وصورته حتى يعود إلى حالة شبيهة بحال صباوته في ضَعف بدنه وقلّة عقله وفَهْمه **﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾**. قيل: إنّ التقدير أترَون ذلك فلا تفهمون أنّ من قَدر على ذلك قَدَر على ما ذكر من الطمس والمسخ؟[1]

ثمَ لما ذكر سبحانه المطالب العالية الراجعة إلى المبدأ والمعاد الدالة على كونها نازلةً من الله القادر الحكيم، وكان المشركون يكذّبونها ويَنسُبونها إلى الشعر ويقولون: إنّ محمداً شاعر، فردّ الله عليهم

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٤٢٨.

بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ﴾ والكلام المنظوم المزخرف المنسوج المبنيّ على التخيّلات والوهميّات ﴿وَمَا يَنبَغِى﴾ ولا يصلح ﴿لَهُ﴾ ولا يليق به الشعر والكلام الموزون المركّب من الأوهام والأكاذيب، لرفعة مقام النبوة عنه، بل ﴿إِنْ﴾ هذا الكتاب الذي أتي به محمّد ﷺ وما ﴿هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ وعظةٌ من الله للعالمين، وهدايةٌ للمهتدين ﴿وَقُرْآنٌ﴾ وكتابٌ سماويٌّ ﴿مُّبِينٌ﴾ وظاهرٌ أنّه من الله الحكيم، أو فارقٌ بين الحقّ والباطل، ومُوضِحٌ للعلوم والحكم والأحكام، وإنّما أنزله الله تعالى ﴿لِيُنذِرَ﴾ محمد ﷺ ويخوّف بالعذاب على الشِّرك والعِصيان ﴿مَن كَانَ حَيّاً﴾ وعاقلاً فيهما مُنوّرَ الفِكر والقلب ﴿وَ﴾ لئن ﴿يَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ ويثبت بإيضاح الحقّ وإتمام الحُجّة الوعد بالعذاب ﴿عَلَى﴾ القوم ﴿ٱلْكَافِرِينَ﴾ المُصرّين على المعاندة للحقّ، فانّه بتمامية الحُجّة عليهم يستحقّون العذاب وتنجيز الوعد به.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ [٧١ـ٧٣]

ثمّ أنه تعالى بعد إثبات نبوة النبيّ ﷺ وصدق كتابه، عاد إلى إثبات التوحيد بقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا﴾ قيل: إنّ التقدير ألم يتفكّروا ولم يعلموا[١]؟ ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ ولانتفاعهم ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ وصنعت قدرتنا بغير إعانة الغير ومشاركته ﴿أَنْعَاماً﴾ وأموالاً راعية من الإبل والبقر والغَنم والمَعْز اللّاتي فيها فوائد كثيرة ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ وعليها مُسلّطون، وفيها مُتصرّفون ﴿وَذَلَّلْنَاهَا﴾ وسخّرناها بقدرتنا ﴿لَهُمْ﴾ بحيث لا تستعصي عليهم في شيءٍ ممّا يريدون بها، فانّ الابل والبقر مع عِظَمهما وقوّتهما يَقودهما طفلٌ صغيرٌ ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ ومركوبهم يقطعون عليها المسافات البعيدة ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ لحمها وشحمها ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ﴾ كثيرة اُخر غير الركوب والأكل، كالجلود، والأصواف، والأشعار، والأوبار، والنتائج والحمل والحرث ﴿وَمَشَارِبُ﴾ من الألبان ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ المنعم بالإقرار بتوحيده والقيام بطاعته؟!

وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ * لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ * فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ [٧٤ـ٧٦]

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٤٣٣.

ثمّ وبّخهم سبحانه على كفرانهم بقوله: ﴿وَٱتَّخَذُوا﴾ واختاروا لأنفسهم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وما سواه ﴿ءَالِهَةً﴾ ومعبودين من الأصنام ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ وبرجاء أنّهم ﴿يُنصَرُونَ﴾ من جهتهم ويعاونون من قبلهم في الأمور، أو برجاء أنّها يشفعون لهم يوم القيامة، مع أنّ أولئك الأصنام ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ ولا يقدِرون على إعانتهم في شيء، لا في الدنيا ولا في الآخرة، لغاية عجزهم ﴿وَهُمْ﴾ باتّباعهم وعبادتهم الأصنام في الدنيا يكونون ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة﴿جُندٌ﴾ وعسكر يتّبعونهم حين سوقهم إلى النار، وكلّهم العابد والمعبود ﴿مُّحْضَرُونَ﴾ في جهنم مجتمعون فيها، أمّا العابد فلاستحقاقه، وأمّا المعبود فلأن يكون وقوداً لها وحسرة لهم.

رُوي أنّه يُؤتى بكلّ معبودٍ من دون الله ومعه أتباعه كأنّهم جُنده، فيُحْضَرون في النار[١].

أقول: هذا إذا كان المعبود جماداً، أو كان راضياً بعبادة غيره إيّاه، وفيه بيان غاية عجز الأصنام عن نُصرتهم.

ثمّ لمّا كان عداوة المشركين وسوء أقوالهم مؤثراً في انكسار قلب النبي ﷺ، سلّى سبحانه حبيبه بقوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ ولا يُؤلم قلبك عداوة المشركين و ﴿قَوْلُهُمْ﴾ إنّ محمداً شاعرٌ أو مجنون ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ ويُضمِرون من بُغضك وعداوتك ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من سبّك وشتمك، أو ما يَسْتُرون من النفاق، وما يُعلِنون من الشِّرك، أو ما يُسرّون من العلم بنبوتك، وما يُعلنون من إنكار صدقك، أو ما يُسرّون من العقائد الفاسدة، وما يُعلنون من الأعمال القبيحة.

أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي ٱلْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ[٧٧ ـ ٧٩]

ثمّ أنه تعالى بعد إثبات التوحيد والنبوة، رفع شبهتهم في المعاد بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَانُ﴾ ولم يعلم ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ﴾ وصوّرناه بقُدرتنا بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً مع نَضارته وبهجته، وكونه ذا أجزاء مختلفة بالماهية والطبيعة ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ قذرة متشابهة الأجزاء، وجعلناه بعد افتقاده لجميع القوى ذا نُطقٍ وفِطنةٍ وعقلٍ و ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ لنا ومجادلنا بالباطل ﴿مُّبِينٌ﴾ ومُظهِر للحجّة علينا في خصومته.

قيل: إنّ قوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ كناية عن صيرورته ناطقاً، فإنّ إبداع الفَهْم والنُّطق في الجماد

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٤٣٤.

أغرب من خلق الجسم[١]، وذكر الخصومة مكان النُّطق لكونها أعلى منه؛ لأنّ الناطق مع نفسه لا يبين كلامه مثل ما يبين كلامه مع غيره عند المخاصمة، فقوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ إشارة إلى أدنى ما كان عليه وقوله: ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ إشارة إلى أعلى مرتبة كماله الظاهري.

ثمّ بيّن سبحانه خصومته مع ربّه بقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً﴾ وتكلّم في ردّ المعاد الذي وعدنا به كلاماً غريباً ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ ابتداءً من تُراب، ثمّ من نُطفةٍ و ﴿قَالَ﴾ استبعاداً لصحّة المعاد حين أخذ عظمٍ رميم بيده ﴿مَن﴾ يقدِر على أن ﴿يُحْيِي﴾ هذه ﴿الْعِظَامَ﴾ ويُصيّرها إنساناً سوياً ﴿وَهِيَ﴾ الآن ﴿رَمِيمٌ﴾ باليةٌ بعيدةٌ من الحياة غايته ﴿قُلْ﴾ يا محمّد، ردّاً لهذا المخاصم الغبيّ، وتبكيتاً له: ﴿يُحْيِيهَا﴾ الإله القادر ﴿الَّذِي أَنشَأَهَا﴾ وخلقها ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وحين لم يكن شيئاً، فانّ الخلق ثانياً أهون من الخلق أولاً مع قابلية المادة وبقاء القدرة، لاستحالة التغيّر في ذاته تعالى ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ من الإنشاء والإعادة ﴿عَلِيمٌ﴾ ومبالغ في الاحاطة بتفاصيل كيفياته، وبجميع الأجزاء المتبدّدة المتفتّتة لكلّ من الأشخاص، وأوضاع بعضها من بعض من الاتصال والانفصال والاجتماع والافتراق، فيُعيد كلّاً على النَّمط السابق مع القوى التي كانت لها قبل.

قيل: إنّ فيه رفع شبهة الآكل والمأكول، وهي أنّه إذا أكل إنسان إنساناً، وصار المأكول أجزاءً للآكل، فان أُعيدت أجزاء المأكول إليه لا تبقى أجزاء للآكل حتى يعاد، وإن أُعيد إلى الآكل لا يبقى للمأكول شيءٌ، فأبطلها الله بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ وتقريره أنّ لكلّ من الآكل والمأكول أجزاءً أصليةً وأجزاءً فضلية، وتُصيّر الأجزاء الأصلية من المأكول أجزاءً فضليةً من الآكل، والله تعالى عالمٌ بالأجزاء الأصلية من كلّ منهما، فيجمعها وينفخ فيها الروح، فيُحيي الآكل والمأكول من الآجزاء الأصلية التي كانت لكلّ منهما[٢].

روى بعض العامة أنّ الآيتين نزلت في أُبي بن خلف حيث أخذ عظماً بالياً، وأتى النبيّ ﷺ، وقال: إنّك تقول: إنّ الٰهك يُحيي هذه العظام؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم ويُدخلك جهنّم»[٣].

وعن الصادق عليه السلام، قال: «جاء أُبي بن خلف فأخذ عظماً بالياً من حائطٍ ففتّه، ثمّ قال: يا محمد، إذا كنّا عظاماً ورُفاتاً ءَإنا لمبعوثون، فنزلت»[٤].

وعنه عليه السلام: «إنّ الروح مقيمةٌ في مكانها، روح المُحسِن في ضياءٍ وفُسحةٍ، وروح المُسيء في ضِيقٍ

---

١. تفسير الرازي ٢٦: ١٠٨.
٢. تفسير الرازي ٢٦: ١٠٩، تفسير روح البيان ٧: ٤٣٨.
٣. تفسير أبي السعود ٧: ١٨٠، تفسير روح البيان ٧: ٤٣٦.
٤. تفسير العياشي ٣: ٢٥٣٣/٥٦، تفسير الصافي ٤: ٢٦١.

وظُلمةٍ، والبدن يصير تُراباً كما منه خُلق، وما تقذِف به السباع والهوام مما أكلته وفرَقته، كلّ ذلك في التراب محفوظٌ عند من لا يَعزُب عنه مثقال ذرّة في ظلمات الأرض، ويعلم عدد الأشياء ووزنها، وإنّ تُراب الروحانيين بمنزلة الذهب في التراب، فاذا كان حين البعث مطرت الأرض مطر النشور، فتربو الأرض ثمّ تُمخَض مخض السقاء، فيصير تراب البشر كمصير الذهب من التراب إذا غسل بالماء، والزبد من اللبن إذا مُخِض، فيجمع تراب كلّ قالبٍ إلى قالبه، فينتقل باذن الله القادر إلى حيث الروح، فتعود بإذن المصوّر كهيئتها، وتَلِج الروح فيها، فاذا استوى لا يُنكِر من نفسه شيئاً»[1].

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّاقُ ٱلْعَلِيمُ[٨٠و ٨١]

ثمّ لمّا كان من شُبهات مُنكري البعث والمعاد عدم إمكان تعلّق الروح بالأجزاء الترابية اليابسة والعظام النخرة، دفعها سبحانه بتوصيف ذاته المقدّسة بالقدرة على الجمع بين النار والشجر الرطب مع المضادة بينهما بقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ وخلق بقدرته ﴿لَكُم﴾ ولنفعكم ﴿مِنَ ٱلشَّجَرِ﴾ الرطب ﴿ٱلْأَخْضَرِ﴾ مع انتشار الماء في أجزائه وخَلَله ﴿نَاراً﴾ مُحرقة.

قيل: إنّ العرب تَتّخذ زُنُودهم من المَرْخ والعَفَار، وهما شجران في بواديهم، يقطعون منهما غُصنين كالمِسواكين، فيُسحق المَرْخ وهو الذكر على العَفَار وهو اُنثى، فتنقدح منهما النار[2]، مع كونهما أخضرين يقطُر منهما الماء ﴿فَإِذَا﴾ خرجت النار من الشجر ﴿أَنتُم﴾ أيها العرب ﴿مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ وتُشعِلون النار في الحَطَب، فكما لا مجال لأن تَشكُّوا في خروج النار من الشجر الرطب، ليس لكم أن تَشكُّوا في أنّ الله قادرٌ على إيلاج الروح في الأجزاء اليابسة بأن يجعلها غضّةً طرية كما كانت قبل الموت، وإحيائها كما كانت في الدنيا.

ثمّ أنكر سبحانه على من أنكر قدرته على جمع أجزاء البدن وإحيائها ثانياً بقوله: ﴿أَوَلَيْسَ﴾ الإله القادر ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ بقدرته ﴿ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ مع كِبَر جسمهما وعِظَم شأنها ﴿بِقَادِرٍ﴾ في اعتقاد المشركين ﴿عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ في الحقارة والصِّغر بالنسبة إليهما ﴿بَلَىٰ﴾ قادرٌ على أن يخلُق مثلهم ببديهة العقل، بل أقدر ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّاقُ﴾ للممكنات، والمُوجِد لجميع الموجودات ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكيفياتها وكمياتها ومصالحها ومفاسدها.

---

١. الاحتجاج: ٢٥٠، تفسير الصافي ٤: ٢٦١.

٢. تفسير روح البيان ٧: ٤٣٩.

عن الصادق عليه السلام: «أمّا الجدال بالتي هي أحسن، فهو ما أمر الله نبيّه صلى الله عليه وآله أن يُجادِل من جَحَد البعث بعد الموت وإحياءه له، فقال عزّ وجلّ حاكياً عنه: **﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾** الآية، فأراد من نبيّه صلى الله عليه وآله ان يُجادل المُبطِل الذي قال: كيف يجوز أن يبعث هذه العظام وهي رميم! قال: **﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾**، أفيعجِزُ من ابتدأه لا من شيءٍ أن يُعيده بعد أن يَبْلى؟ بلى ابتداؤه أصعب عندكم من إعادته.

ثمّ قال: **﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً﴾** أي إذا كَمَنت النار الحارة في الشجر الأخضر الرَّطْب، ثمّ يستخرجها، فعرّفكم أنّه على إعادة من بَلي أقدر. ثمّ قال: **﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ﴾** الآية، أي إذا كان خلق السماوات والأرض أعظم وأبعد في أوهامكم وقدركم أن تقدِروا عليه من إعادة البالي، فكيف جوّزتم من الله خَلْق هذا الأعجب عندكم، والأصعب لديكم، ولم تُجوّزوا منه ما هو أسهل عندكم من إعادة البالي؟»[١].

إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[٨٢ـ٨٣]

ثمّ بيّن سبحانه كمال قدرته على إيجاد كلّ شيءٍ من الأشياء بلا حاجة إلى إلهٍ ومعاونٍ وعُدّة مُدّة بقوله تعالى: **﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾** عزّ شأنه **﴿إِذَا أَرَادَ﴾** وشاء أن يكون المعدوم **﴿شَيْئاً﴾** موجوداً عظيماً كان أو حقيراً، جليلاً كان أو دقيقاً **﴿أَن يَقُولَ لَهُ كُن﴾** وأن يُريده بالإرادة التكوينية **﴿فَيَكُونُ﴾** ويُوجد من غير ريثٍ وتأخير.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّما كلامه سبحانه فعلٌ [منه] أنشأه، قال يقول لا بلفظٍ ... ويُريد ولا يُضمِر»[٢].

وعن الرضا عليه السلام: «**﴿كُن﴾** منه تعالى صُنع، وما يكون به المصنوع»[٣].

وإنّما عبّر عن إرادته بقول: **﴿كُن﴾** تمثيلاً لتأثير قدرته وإرادته تعالى فيما أراد وجوده بأمر المطاع للمأمور المطيع في سرعة حصول المأمور به من غير توقّفٍ على شيءٍ ما، لوضوح أنّه لا يكون هنا قول ولا أمر ولا مأمور، إذ لا معنى لأمر المعدوم أن يوجد نفسه.

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان كمال ذاته، وبيان قدرته الكاملة على الإنشاء والإعادة وعدم تخلّف مراداته

---

١. الاحتجاج: ٢١، تفسير الصافي ٤: ٢٦٢.

٢. نهج البلاغة: ٢٧٤ الخطبة ١٨٦، تفسير الصافي ٤: ٢٦٢.

٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/١٧٣، تفسير الصافي ٤: ٢٦٢.

عن إرادته، علّم الناس تنزيه ذاته المقدّسة وتسبيحه بقوله تبارك وتعالى: ﴿فَسُبْحَانَ﴾ الإله القادر ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ﴾ وبإرادته وقُدرته ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ ووجود جميع الموجودات وجميع الممكنات، فانّ كلّ موجودٍ مركبٌ عن جزءٍ ملكي وهو الماهية، وجزء ملكوتي وهو وجوده.

وقيل: إنّ المراد نزّهوا الله الذي تحت قدرته ملك كلّ شيءٍ وضبطه وتصرّفه عمّا وصفوه به من العجز، وتعجّبوا ممّا قالوه في شأنه من النُّقصان[1].

وقيل: إنّ ملكوت الشيء ما يقوم به من الأرواح والملائكة[2].

﴿وَإِلَيْهِ﴾ وحده أيّها الناس ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بعد الموت للحساب وجزاء الأعمال.

عن الباقر عليه السلام: «من قرأ سورة يَس في عمره مرّة كتب الله له بكل خلقٍ في الدنيا وبكلّ خلقٍ في الآخرة وفي السماء بكلّ واحدٍ ألفي ألف حسنة، ومحا عنه مثل ذلك، ولم يُصِبه غُرمٌ ولا هَدْمٌ ولا نَصَبٌ ولا جُنون ولا جُذام ولا وَسواس ولا داءٌ يَضُرّه، وخفّف الله عنه سَكَرات الموت وأهواله، وولي قبض روحه، وكان ممّن يَضْمَن الله له السَّعة في معيشته، والفرح عند لقائه، والرضا بالثواب في آخرته، وقال الله لملائكته أجمعين من في السماوات ومن في الأرضين: قد رضيتُ عن فلان، فاستغفروا له»[3].

وعن الصادق عليه السلام: «إنّ لكلّ شيءٍ قلباً، وإنّ قلب القرآن يَس»[4].

أقول: لعلّ وجهه أنّ القلب به حياة الشيء، ولمّا كانت سورة يَس مُصدّرةً بذكر خاتم النبيين صلى الله عليه وآله ورسالته، وكانت حياة القرآن بوجوده وبعثته، صارت السورة بمنزلة القلب للقرآن.

وقيل: إنّ وجهه أنّ صحّة الايمان بالاعتراف بالحشر والحشر مقرّرٌ في هذه السورة بأبلغ وجه[5].

وقيل: إنّ وجهه أنّه ليس فيها إلّا تقرير الأُصول الثلاثة[6] بأقوى البراهين، فانّه تعالى ابتدأها بالرسالة بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ودليلها ما قدّمه عليه من قوله ﴿وَٱلْقُرْآنِ ٱلْحَكِيمِ﴾ وما أخرّه عنه من قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْماً﴾ وختمها ببيان التوحيد والحشر بقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ إشارة إلى التوحيد، وبقوله: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إشارة إلى الحشر، ومن حصّل هذه الثلاثة فقد حصّل نصيب قلبه، وهو التصديق بالجَنان.

إلى أن قال: فلمّا لم يكن فيها إلّا أعمال القلب سمّاها قلباً، ولهذا ورد أنّ النبي صلى الله عليه وآله ندب إلى تلقين

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٤٤٢.
٢. تفسير الصافي ٤: ٢٦٣.
٣. ثواب الاعمال: ١١١، تفسير الصافي ٤: ٢٦٣.
٤. مجمع البيان ٨: ٦٤٦، تفسير الصافي ٤: ٢٦٣.
٥. تفسير الرازي ٢٦: ١١٣، تفسير روح البيان ٧: ٤٤٢.
٦. تفسير الرازي ٢٦: ١١٣.

يسَ لمن دنا منه الموت عند رأسه؛ لأنّ في ذلك الوقت يكون اللسان ضعيف القوة، والأعضاء الظاهرة ساقطة البُنية، لكن القلب راجعٌ إلى الله عن كلّ ما سواه، ومُقبِلٌ إليه، فيُقرأ عند رأسه ماتزداد به قوة قلبه، ويشتدّ تصديقه بالأصول[١].

قد تمَ تفسير السورة المباركة بتوفيق الله وعونه.

---

١. تفسير الرازي ٢٦: ١١٣.

في تفسير سورة الصافات

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلصَّافَّاتِ صَفّاً * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً[١ـ٣]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة يسٓ المبدوءة بذكر خاتم النبيّين ﷺ وتعظيمه ورسالته المتضمّنة للتوحيد والمعاد، المختتمة بردّ شبهة منكرية، نظمت بعدها سورة الصافات المبدوءة بتعظيم المؤمنين بالحَلْف بهم، المتضمّنة للأصلين المذكورين، وتجليل آل يسٓ، وهم آل النبي ﷺ بالتسليم عليهم، فابتدأها على دأبه بقوله ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ثمّ لمّا كانت عادة العرب تأكيد الدعوى بالحَلْف بالأمور العظيمة الشريفة المحبوبة عندهم، حَلَف سبحانه بجماعات المؤمنين التالين للقرآن بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلصَّافَّاتِ﴾ لله أقدامهم، والقائمات بعبادته ﴿صَفّاً﴾ محموداً عند الله، وهو الصفّ والقيام على خطٍ مستقيمٍ في جماعة الصلاة، أو في ميدان الجهاد ﴿فَالزَّاجِرَاتِ﴾ والجماعات الناهيات للناس عن المنكرات، أو للشيطان عن الوساوس، أو المانعات للكفّار عن الاستيلاء على المسلمين ﴿زَجْراً﴾ بليغاً ﴿فَالتَّالِيَاتِ﴾ والقارنات ﴿ذِكْراً﴾ عظيم الشأن، كالقرآن والتسبيح والتحميد والتهليل.

قيل: إنّ الفقرات الثلاث في المصلّين جماعة؛ الصافات عند أداء الصلاة جماعة، الزاجرات للشيطان بالاستعاذة بعد التكبير، التاليات للقرآن بعدها[١].

وقيل: إنّها صِفات العلماء؛ الصافات الذين يقومون منهم للدعوة إلى دين الله، والزاجرات الذين يَزْجُرون العوامّ عن الضلال ويدفعون شبهاتهم، ويتلون عليهم مايُرغّبهم في العمل بشرائع الله تبارك وتعالى[٢].

وقيل: إنّها صفات الملائكة حيث إنّهم يقفون صفوفاً، أما في السماوات لأداء العبادة[٣]، أو يصُفّون

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٧: ٤٤٥.

٣. تفسير الرازي ٢٦: ١١٤.

أجنحتهم في الهواء ويقفون لانتظار أمر الله إليهم، ويَزْجُرون الناس عن المعاصي بالإلهامات[١]، أو الشياطين عن التعرّض لبني آدم بالشرّ والإيذاء[٢]، أو عن استراق السمع[٣]، أو يزجُرون السّحاب للسوق من بلدٍ إلى بلدٍ[٤]، ويتلون القرآن والتسبيحات.

وقيل: إنّ المراد بالصافات الطيور، وبالزاجرات كلّ ما يردع الناس عن المعاصي، وبالتاليات كلّ من يتلو كتاب الله[٥].

إِنَّ إِلٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ * رَبُّ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَارِقِ * إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّماءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ * وَحِفْظاً مِن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ * لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ[٤ـ١٠]

ثمّ ذكر سبحانه المحلوف عليه بقوله: ﴿إِنَّ إِلٰهَكُمْ﴾ ومعبودكم المستحقّ للعبادة ﴿لَوَاحِدٌ﴾ لا شريك له ولا ضدّ ولا ندّ، وهو ﴿رَبُّ ٱلسَّماوَاتِ﴾ السبع وما فيها من الكواكب ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ وما عليها من الجبال ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الملائكة والثّقلين والطيور وعجائب الخلق، ومالكها وحافظها ومُبلغها إلى الكمالات اللائقة بها ﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَارِقِ﴾ العديدة التي تكون للكواكب، وهي ثلاثمائة وستون بعدد أيام السنة، وبحسبها المغارب، ولذا اكتفى بذكرها.

ثمّ لمّا كان من أدلّة التوحيد حُسن نظام العالم، نبّه عليه بقوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّماءَ ٱلدُّنْيَا﴾ والقُربى منكم وحسّنا منظرها ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ والنجوم من حيث تلألؤها وأوضاعها سواء أكانت مركوزةً فيها، أو فيما فوقها من السماوات ﴿وَ﴾ حَفِظناها ﴿حِفْظاً﴾ كاملاً، أو لتكون حافظاً ﴿مِن﴾ قرب ﴿كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ طاغٍ صاعدٍ إليها برمي الشهب، ولذا ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ ولا يستمعون، أو لا يُصغون ﴿إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وجماعة الملائكة الساكنين في السماوات العُلى، المطّلعين على أسرار اللّوح المحفوظ على ما قيل[٦].

وقيل: إنّ المراد بالملأ الأعلى أشراف الملائكة وكيفية حِفظ السماء منهم[٧]، ومنعهم عن الاستماع أنّهم يرمون بالشُّهب ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ كما يُقذَف العدوّ بالحجارة ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ من جوانب السماء

---

١. تفسير الرازي ٢٦: ١١٤.
٢. تفسير الرازي ٢٦: ١١٥.
٣. تفسير روح البيان ٧: ٤٤٥.
٤. تفسير روح البيان ٧: ٤٤٥.
٥. تفسير الرازي ٢٦: ١١٦.
٦. تفسير روح البيان ٧: ٤٤٩.
٧. تفسير روح البيان ٧: ٤٤٩.

إذا قصدوا الصعود إليها، ليكون القذف والرمي بالشُّهب ﴿دُحُوراً﴾ وطرداً لهم عنها.

وقيل: إنّ التقدير يُدْحَرون دُحوراً[1]. قيل: إنّ الدُّحور هو الطَّرد مع أشدّ الصَّغار والذُّلّ[2].

﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة مضافاً إلى عذابهم في الدنيا بالشهب ﴿عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ ودائمٌ بالنار. القمي ﷺ: أي دائمٌ موجعٌ قد وصل إلى قلوبهم[3]. وقيل: إنّ الرجم بالشُّهب عذابٌ دائمٌ لهم[4].

قال المفسّرون: إنّ الشياطين كانوا يَصْعَدون إلى قُرب السماء، فلمّا سَمِعوا كلام الملائكة، وعرفوا به ما سيكون، وكانوا يُخبِرون الكَهَنة به، ويُوهِمونهم أنّهم يَعْلمون الغيب، فمنعهم الله تعالى من الصُّعود إلى قُرب السماء بالشُّهب[5]، فلا يسمع شيطانٌ كلام الملائكة ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ﴾ من الشياطين، واختلس كلام الملائكة، وأخذه بسرعة ﴿ٱلْخَطْفَةَ﴾ الواحدة، واختلاساً فارِداً ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ بالفَور ولَحِقه بسُرعةٍ ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ وشُعلةٌ مُضيئةٌ من النار غاية الإضاءة، كأنّها تَثْقُب بنورها الجوّ، وهو يحدُث في النجوم ثم ينفصل منها، كما ينفصل السهم من القوس، فكون النجوم رجُوماً من جهة كونها سبباً لرمي الشُّهب، لا أن نفس النجوم تصير شُهباً، لوضوح أنّ النجوم لا تنقُص بالشُّهب، والقول بأنّ الكواكب قسمان: قسم باقٍ في المُلك مدى الدهر، وقسم حادثٌ لا يبقى، وهو الحادث بتصاعد الأجزاء الأرضية مع الأبخرة واحتراقها بالقرب من الأثير، أو باشتعال الهواء القريب من الأثير بالحركة، خلاف القرآن العظيم، لظهوره في كون تلك الكواكب التي تكون زينةً للسماء تكون حِفظاً ورجوماً للشياطين.

قال قَتَادة: جعل الله النجوم لثلاث: زينةً للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلاماتٍ يُهتدى بها[6].

رُوي عن ابن عباس، أنه قال: بينما رسول الله ﷺ جالسٌ في نفرٍ من أصحابه، إذ رُمي بنجم، فقال ﷺ: «ما كنتم تقولون لمثل هذا في الجاهلية؟» فقالوا: يموت عظيم، أو يولد عظيمٌ. فقال ﷺ: «إنّه لا يُرمى لموت أحدٍ ولا لولادته، ولكن الله إذا قضى أمراً يُسبّحه حَمَلة العرش، ويقول أهل السماء السابعة لحَمَلة العرش: ماذا قال ربّكم؟ فيُخبِرونهم، فيستخبر أهل كلّ سماء أهل سماء، حتى ينتهي الخبر إلى سماء الدنيا، فتَخْطَفه الجنّ فيرمون، فما جاءوا به على وجهه فهو حقّ، ولكنّهم يزيدون ويَكذِبون، فما ظهر صدقه فهو من قسم ما سُمِع من الملائكة، وما ظهر كِذبه فهو من قسم ما قالوه منه»[7].

---

١. تفسير الرازي ٢٦: ١٢٣.

٣. تفسير القمي ٢: ٢٢١، وتفسير الصافي ٤: ٢٦٥ عن الباقر عليه السلام.

٤. تفسير أبي السعود ٧: ١٨٥.

٥. تفسير الرازي ٢٦: ١٢٠.

٦. تفسير روح البيان ٧: ٤٥٠.

٧. تفسير روح البيان ٧: ٤٤٩.

ومن التواريخ وبيان الحكماء الذين كانوا قبل الاسلام، يظهر أنّ الشُّهب كانت قبل الاسلام، وظاهر الآيات أنّها لرجم الشياطين، وظاهر قوله تعالى: **﴿انا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً﴾** [١] أن الشهب حدثت بعد بعثة النبي ﷺ، فلابدّ من الحَمْل على كثرة الشُّهب وشدّة المنع.

ثمّ أنّ مبدأ خلقة الجنّ من النار لا ينافي احتراقهم بها، لأنّ لازم كونهم جسماً احتراقهم بها، لأنّ النار تُحرِق الجسم وإن كان لطيفاً.

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِن طِينٍ لأَزِبٍ * بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ * وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ * وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ * وَقَالُوا إِنْ هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَاؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ[١١ ـ ١٧]

ثمّ أنه تعالى بعد إثبات توحيده بخلق السماوات والأرض وما بينهما، وخلق مشارق الكواكب، وتزيين السماء بها، شرع في إثبات الحشر والمعاد بقوله تبارك وتعالى: **﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾** أيّها الرسول وأسألهم بمحاجةٍ توبيخاً [٢] أو تقريراً **﴿أَهُمْ﴾** مع صِغر جثّتهم وضَعْف بُنيتهم **﴿أَشَدُّ خَلْقاً﴾** وأمتن بُنيةً، أو أصعب خَلقاً على خالقهم **﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾** من الملائكة والسماوات والأرض والكواكب والمشارق والجنّ والشياطين؟ وإنّما ذكر كلمة (من) لتغليب العقلاء. ثمّ نقول: لو فرضوا أنّهم كانوا أشدّ خلقاً من السماوات والأرض وغيرهما من الموجودات ألا يُقرّون ولا يقولون: **﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم﴾** بقُدرتنا أول مرّة **﴿مِن طِينٍ لأَزِبٍ﴾** لاصقٍ باليد، فاذا عَلِموا أنّ الطين المركّب من التُّراب والماء قابلٌ لأن يصيّره القادر الحكيم إنساناً ذا شعور ونُطق وعقل، كان عليهم أن يعتقدوا إمكان خَلْقهم مرّة اُخرى، لبقاء تلك القابلية في تُرابهم، وعدم إمكان زوال القدرة عن الخالق القادر الذي خلقهم أول مرّة، لكون قدرته ذاتية غير قابلة للزوال **﴿بَلْ﴾** لا تستفتهم لكونهم معاندين حيث إنّك **﴿عَجِبْتَ﴾** من إنكارهم إمكان البعث ووقوعه مع غاية وضوح دليله **﴿وَ﴾** هم **﴿يَسْخَرُونَ﴾** منك ويستهزئون بك حيث تدعوهم إلى الإقرار والإيمان به مع كونهم مُستَبْعِدِين إياه.

وعن قَتادة: أنّه عَجِب نبيّ الله ﷺ من هذا القرآن حين اُنزل وضلال بني آدم، وذلك أنّ النبيّ ﷺ كان يظُنّ أنّ كلّ من يسمع القرآن يُؤمن به، فلمّا سَمِع المشركون القرآن سَخِروا منه ولم يؤمنوا،

---

١. الجن: ٨/٧٢.

٢. في النسخة: بحاجة قريحاً.

عَجِب من ذلك النبي ﷺ فقال الله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ[1] * وَإِذَا ذُكِّرُوا﴾ ووُعِظوا وهُدّدوا على إنكارهم البعث أو القرآن ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ ولا يتّعظون، أو إذا نُبّهوا على أدلّة البعث أو جهات إعجاز القرآن لا يتنبّهون لكثْرَة عِنادهم وقلّة فَهْمهم وفِكْرهم ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ ومُعجزةً دالّةً على صدق رسالتك وإخبارك بوقوع الحشر والنشر ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ ويُبالغون في الاستهزاء بك، أو يحملون غيرهم على الاستهزاء، فلا بالبراهين يلتزمون، ولا بالموعظة يتّعظون، ولا بالمعجزة يُؤمنون ﴿وَقَالُوا﴾ للمُعجِز الذي تأتيهم به: ﴿إِنْ هٰذَا﴾ الفعل الخارق للعادة، وما هو ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وشَعْبذة ظاهرة بحيث لا يَشُكّ فيه أحدٌ، كيف يُمكن أن يكون ما أتى به معجزةً دالةً على صدقه في دعوى البعث مع أنّها كذبٌ ظاهرٌ ﴿أَ﴾ نُبعَث ﴿إِذَا مِتْنَا﴾ ودُفّنا ﴿وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً﴾ باليةً.

ثمّ بالغوا في الإنكار بإعادة أداة الاستفهام، كأنّهم قالوا: أنصفوا أيّها العقلاء ﴿ءَإِنَّا﴾ مع ذلك لمُحيون بعد الموت ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾ ومُخرَجون من القبور، فرضنا أنّا نُبعَث لقُرب عهدنا بالحياة واجتماع تُرابنا في قبورنا ﴿أَوَ﴾ يُبعَث ﴿آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ وأجدادنا الأقدمون مع تفرّق تُرابهم في أطراف العالم، ومحو أثر قبورهم، هيهات هيهات!

قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ * وَقَالُوا يَاوَيْلَنَا هٰذَا يَوْمُ الدِّينِ * هٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ * احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ[١٨ ـ ٢٣]

ثمّ أنّه تعالى بعد إقامة الأدلة السابقة على إمكان البعث والإعادة بعد الموت، وعدم المجال لإقامة البرهان، أمر نبيّه ﷺ بمعارضة إنكارهم بالاثبات بقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين المعاندين: ﴿نَعَمْ﴾ على رغم أُنوفكم يُبعَثون جميعاً ﴿وَأَنتُمْ﴾ أيضاً تُبعَثون ﴿دَاخِرُونَ﴾ وصاغرون في المحشر وأذلّاء بين الناس، حيث منعكم التكبّر والخُيلاء عن تبعيّة الرسول ﷺ وقبول قوله وتصديقه في ادّعاء إمكان البعث، مع أنّه مضافاً إلى إمكانه ليس على الله بصَعْب، بل في غاية السُّهولة ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ﴾ وصيحةٌ ﴿وَاحِدَةٌ﴾ من إسرافيل، ونَفْخةٌ من الصُّور من غير حاجةٍ إلى الثانية ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ يُحيَون ويقومون من قبورهم ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى أنفسهم وجوانبهم كالحيارىٰ، أو ينظُر بعضهم إلى بعضٍ نظر الحَيْرة، وينظُرون كما كانوا يُبصرون وينظُرون في زمان حياتهم في الدنيا، أو

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٤٥١.

ينتظرون ما يُفعَل بهم ﴿وَقَالُوا﴾ حين رأوا أنّهم مبعوثون تحسّراً ونَدامة: ﴿يَـٰوَيْلَنَا﴾ ويا هلاكنا احضُر، فهذا أوان حضورك ﴿هَٰذَا﴾ اليوم ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ ووقت الجزاء على الأعمال، والعقوبة على السيئات.

فيقول الله أو الملائكة، أو يقول بعضهم لبعض توبيخاً وتقريعاً: ﴿هَٰذَا﴾ اليوم ﴿يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ والقضاء بما تستحقّون من الثواب أو العقاب، أو يوم الفرق بين المؤمنين والمهتدين والكافرين والضالين، وهو اليوم ﴿ٱلَّذِى كُنتُم﴾ في الدنيا ﴿بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ وتقولون: لا بعث ولا حساب ولا عقاب.

فيقول الله للملائكة: ﴿ٱحْشُرُوا﴾ واجمعوا ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ على الله بكفرانهم نِعمه وتضييعهم حقّه، وعلى أنفسهم بتعريضها للعقاب الدائم والهلاك الأبد، ﴿وَ﴾ أحشروا ﴿أَزْوَاجَهُمْ﴾ وأشباههم من أهل الشِّرك والكفر والنفاق والعِصيان، أو قرناءهم من الشياطين أو نساءهم اللّاتي كُنّ على دينهم ﴿وَ﴾ احشُروا ﴿مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام وغيرها معهم لازدياد حسرتهم وتخجيلهم، أو الشياطين الذين زيّنوا لهم الكفر ﴿فَاهْدُوهُمْ﴾ وسوقوهم، أو أرشدوهم ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ والطريق المستقيم إليها، وفيه تهكّمٌ بهم.

قيل: إنّ كلّ ظالمٍ يُحشَر مع من كان مُعيناً له ومُوافقاً له، فاليهود مع اليهود، والنصارى مع النصارى، والمجوس مع المجوس، وشارب الخمر مع شارب الخمر، والزاني مع الزاني[١]، وهكذا كلّ من كان على عقيدته.

وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ [٢٤ـ٢٦]

ثمّ لمّا ساق الملائكة المجرمين إلى جهنّم نادى الله: يا ملائكة العذاب الذين يسوقون الكفار إلى جهنّم، احبِسوهم ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ على الصراط، أو على شفير جهنّم.

ثمّ بيّن سبحانه علّة توقيفهم بقوله: ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ عن أعمالهم وعقائدهم في الدنيا سؤال توبيخٍ وتقريع.

وقيل: يسألهم خَزَنة جهنّم هناك ويقولون: ﴿ألم يأتكم رسلٌ منكم﴾ بالبينات؟ فيقولون ﴿بلى

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٤٥٣.

ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين﴾[١].

وعن (العلل) عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه قال في تفسير الآية: «لا يجاوز قدما عبد حتى يُسأل عن أربعٍ: عن شبابه فيما أبلاه، وعن عمره فيما أفناه، وعن ماله من أين جمعه وفيما أنفقه، وعن حبّنا أهل البيت عليهم السلام»[٢].

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «عن ولا ية أمير المؤمنين عليه السلام»[٣].

ويُحْتَمل أنّ من السؤال قوله: **﴿مَالَكُمْ﴾** أيها الكفَرة، ولأيّ سبب **﴿لَا تَنَاصَرُونَ﴾**؟ عن ابن عباس: أي لا ينصُر بعضكم بعضاً كما كنتم في الدنيا تتناصرون، وذلك أنّ أبا جهل قال يوم بدر: نحن جميعٌ منتصرٌ. فقيل لهم يوم القيامة: مالكم غير متناصرين؟

وقيل: يقال للكفار ما لشركائكم لا ينصُرونكم، ولا يمنعونكم من العذاب؟[٤] وعلى أي تقدير لا ناصر لهم **﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ﴾** منقطعون عن جميع الحيل في نجاتهم، و **﴿مُسْتَسْلِمُونَ﴾** ومُنقادون لحُكم الله ومتمكّنون لعذابه.

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَـمِينِ * قَالُوا بَل لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ * فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ [٢٧ ـ ٣٢]

ثمّ بين سبحانه أنّهم مع عدم كونهم متناصرين كلّهم متخاصمون بقوله: **﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾** وهم أتباع الرؤساء أو الشياطين **﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾** الآخر وهم الرؤساء أو الشياطين **﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾** ويتخاصمون.

ثمّ كأنّه قيل: كيف يكون تساؤلهم[٥] وتخاصمهم؟ فأجاب سبحانه بقوله: **﴿قَالُوا﴾** الأتباع لرؤسائهم، أو الكفرة لقرنائهم من الشياطين: **﴿إِنَّكُمْ﴾** أيّها الرؤساء أو الشياطين **﴿كُنتُمْ﴾** في الدنيا **﴿تَأْتُونَنَا﴾** وتَحمِلونا على الكفر والعِصيان **﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾** وبالقوة القهرية على ما قيل[٦]، وتُجبِروننا على الكفر والعصيان.

---

١. تفسير الرازي ٢٦: ١٣٢، والآية من سورة الزمر: ٧١/٣٩.
٢. علل الشرائع: ٢/٢١٨، تفسير الصافي ٤: ٢٦٦.
٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٢٢/٥٩، أمالي الطوسي: ٥٦٤/٢٩٠، تفسير الصافي ٤: ٢٦٦.
٤. تفسير الرازي ٢٦ : ١٣٣.
٥. تفسير روح البيان ٧: ٤٥٥.
٦. تفسير الرازي ٢٦: ١٣٤، تفسير البيضاوي ٢: ٢٩٢.

وقيل: يعني عن ناحية الحلف واليمين، فانّ روساءهم كانوا يَحلِفون لأتباعهم المستضعفين أن ما يَدْعُونهم إليه هو الحقّ المبين، فكانوا يثِقُون بأيمانهم[1].

وقيل: إنّ المراد أنّكم كنتم تخدعوننا، وتُوهِمون لنا أنّ دعوتكم إيّانا ليست إلّا نُصرة الحقّ وتقوية للصدق[2]. فأجابهم الرؤساء و ﴿قَالُوا﴾ لهم: ما أجبرناكم على الكفر وأضللناكم عن الايمان ﴿بَل لَمْ تَكُونُوا﴾ في الدنيا ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ حتى تقولوا إنّا صرفناكم عن الايمان ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم﴾ شيء ﴿مِن سُلْطَانٍ﴾ وقهر وإجبار يُسلَب به اختياركم ﴿بَلْ كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿قَوْماً﴾ وجمعاً ﴿طَاغِينَ﴾ على الله باختياركم، ومُصرّين على العِصيان بشهوة أنفسكم ﴿فَحَقَّ﴾ وثبت ولَزِم ﴿عَلَيْنَا﴾ في اليوم ﴿قَوْلُ رَبِّنَا﴾ ووعيده بالعذاب على الكفر والعصيان، لعدم جواز خُلف الوعد عليه، فاليوم ﴿إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ طَعْم ذلك العذاب باستحقاقنا، ولمّا كنتم راغبين الى الكفر ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾ ودعوناكم إليه من غير إكراهٍ وإجبار، فاستجبتم لنا باختياركم وهوى أنفسكم، فليس لكم حق الاعتراض علينا ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ وضالّين عن الحقّ، فأحببنا أن تكونوا أمثالنا في الغواية والضّلال.

فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ * إِنَّا كَذٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلٰهَ إِلَّا ٱللهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ ءَإِنَّا لَتَارِكُوا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ * بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ * ومَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[٣٣ ـ ٣٩]

ثمّ أنّه تعالى بعد حكاية تخاصم الرؤساء والأتباع، أخبر عن سوء حالهم في جهنّم بقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ﴾ ودخول النار والابتلاء بالشدائد ﴿مُشْتَرِكُونَ﴾ لاشتراكهم في الغواية والضلال والعِصيان.

ثمّ بيّن سبحانه عدله وحكمته في تعذيبهم بقوله: ﴿إِنَّا كَذٰلِكَ﴾ الفعل الفضيع، ومثل هذه المعاملة الهائلة ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ ونعامل معهم لإنكارهم التوحيد والرسالة والمعاد، كما نبّه سبحانه عليه بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ بطريق النّصح والعِظة والدّعوة إلى التوحيد. قولوا: ﴿لَا إِلٰهَ إِلَّا ٱللهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ويتأنّفون عن القول به، ويتعصّبون لآلهتهم، ويُصِرّون على الشِّرك ﴿وَيَقُولُونَ﴾ في جواب الداعي إلى التوحيد والقائل به وهو النبي الأمّي ﷺ الآتي بالقرآن: ﴿ءَإِنَّا لَتَارِكُوا﴾ عبادة ﴿ءَالِهَتِنَا﴾ وأصنامنا اتّباعاً ﴿لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ حيث إنّه يدّعي خلاف ما وجدنا عليه

---

١. تفسير الرازي ٢٦: ١٣٤.
٢. تفسير الرازي ٢٦: ١٣٤.

آباءنا.

ثمّ ردّهم سبحانه بقوله: ﴿بَلْ جَاءَ﴾ من جانب الله ﴿بِالْحَقِّ﴾ وما هو ثابتٌ بالبراهين القاطعة، ومحقّق عند العقل السليم من التوحيد الذي أخبر به جميع الأنبياء ﴿وَصَدَّقَ﴾ محمد ﷺ بما أخبر به جميع ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فيما أخبروا به من التوحيد ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيّها المشركون والله ﴿لَذَائِقُوا ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ للاشتراك والاستكبار وتكذيب الرسول الأمين، وفي الالتفات من الغيبة إلى الخِطاب إظهار لشدّة الغضب عليهم.

ثمّ نبّه سبحانه على أن ليس في تعذيبهم[1] شائبة الظلم والعمل بخلاف الكرم، بل هو ما يستحقّونه بقوله: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا﴾ مقدار جزاء ﴿مَا كُنتُم﴾ في الدنيا ﴿تَعمَلُونَ﴾ من الكفر والعِصيان لا تُزادون[2] ولا تُنقَصون.

إِلَّا عِبَادَ ٱللهِ ٱلْمُخْلَصِينَ * أُولَـٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ[٤٠ـ٤٢]

ثمّ بيّن حُسن حال المؤمنين بقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ له في العبادة.

قيل: إنّ الاستثناء منقطعٌ، والمعنى لكن عباد الله المُخْلَصين[3] لا يَذوقونه، والمُخْلَصون بالفتح: الذين أخصلهم الله لعبادته، وبرّأهم من عبادة غيره.

ثمّ بيّن سبحانه بعد خلاصهم من العذاب نَيْلهم بغاية الفضل بقوله: ﴿أُولَـٰئِكَ﴾ الأجلاء الرفيعو المقام، الممتازون عن غيرهم بطيب الطينة وحُسن الفِطرة والخُلوص في العبادة ﴿لَهُمْ﴾ بمقابل حُسن عقيدتهم وأعمالهم ﴿رِزْقٌ﴾ لا يَمكن وصف كماله وحُسنه ﴿مَعْلُومٌ﴾ عندهم في الآخرة وجُوداً وقدراً وحُسناً ولذةً وطيباً، وذلك الرزق ﴿فَوَاكِهُ﴾ كثيرةٌ ونِعمٌ لذيذةٌ من الثِّمار وغيرها تُؤكل للذّة لا للحاجة.

وقيل: إنّ المراد بالفواكه خصوص الثِّمار؛ لأنّ رزق أهل الجنّة كلّه من الثِّمار[4]، أو لأنّ ذِكرها مُغنٍ عن ذِكر غيرها، لأنّها من أتباع سائر الأطعمة[5]، فاذا كانت الفاكهة التي هي أدنى من غيرها حاضرةً على الدوام، كان غيرها أولى بالحضور.

وقيل: لمّا كانت الفاكهة في بلاد العرب عزيزة الوجود، خصّها بالذِّكر لازدياد التشويق[6].

---

١. في النسخة: أن في تعذيبهم ليس.
٢. في النسخة: لا تزدادون.
٣. تفسير الرازي ٢٦: ١٣٦.
٤ ـ٦. تفسير روح البيان ٧: ٤٥٨.

ثمَ لمّا كان الرزق المقرون بالإهانة غير معتنٍ به عند النفوس الأبية والهمم العالية، بيّن سبحانه إكرامهم بقوله: ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ عند الله تبارك وتعالى غاية الإكرام مُعظَمون نهايةالتعظيم.

عن الباقر عليه السلام، عن النبي صلى الله عليه وآله - في حديث - «أمّا قوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ بأن يعلمه الخُدّام فيأتون به أولياء الله قبل أن يسألوهم إيّاه، وأمّا قوله: ﴿فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ قال: إنّهم لا يشتهون شيئاً في الجنّة إلّا أكرموا به»[1].

فِى جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ * عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ * بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ * وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ[٤٣-٤٩]

ثمَ أنّه تعالى بعد ذِكر مأكولهم وصف كمال مجلسهم ومشروبهم بقوله: ﴿فِى جَنَّاتِ﴾ وبساتين ذوات ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ وهم متمكّنون فيها ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ حال كونهم ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾ ومواجهين، ليفرحوا بحُسن حال الأحبّة ورُؤيتهم ويتآنسوا[2]. رُوي أنّهم إذا أرادوا القُرب سار السرير تحتهم[3]، ثمَ وصف سبحانه كمال مجلسهم ومشروبهم بقوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ ويدُور الغِلمان حولهم ﴿بِكَأْسٍ﴾ وإناءٍ من زُجاجةٍ فيه خمر ﴿مِن﴾ نهرٍ ﴿مَّعِينٍ﴾ وجارٍ على وجه أرض الجنّة، أو من شرابٍ معينٍ وظاهرٍ للعيون، أو جارٍ من العُيون، وتلك الخَمْرة على خلاف خُمور الدنيا ﴿بَيْضَاءَ﴾.

قيل: إنّ خَمراً منه أشدَ بياضاً من اللَّبن[4].

ثمَ بالغ سبحانه في بيان لذتها بقوله: ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ حيث إنّه تعالى جعلها عين اللّذة بخلاف خُمور الدنيا، فانّها - على ما قيل - لا لذّه لها[5] ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ وصُداع، أو فساد من صُداع أو وَجَعَ بَطْن ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ ويَسْكَرون. القمي، قال: لا يُطْرَدون عنها[6].

ثمَ وصف سبحانه منكوحهم بقوله: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ ٱلطَّرْفِ﴾ وحابسات الأبصار عن غير أزواجهن، بل يكون نَظَرَهنّ إلى أزواجهن، لحُسنهم في نظرهن وعفّتهن، وهن ﴿عِينٌ﴾ قيل: يعني حِسان الأعين وعِظامها[7] ﴿كَأَنَّهُنَّ﴾ في البياض والنظافة ﴿بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ ومستور مَصُونٌ من الغُبار. قيل: شبّههن سبحانه في البياض ببيض النّعام، لأنّ لونها بياض مخلوط بالصُّفرة، وهو أحسن ألوان

---

١. الكافي ٨: ١٠٠/٦٩، تفسير الصافي ٤: ٢٦٨.
٢. في النسخة: ويتوانسوا.
٣ و ٤. تفسير الرازي ٢٦: ١٣٧.
٥. تفسير روح البيان ٧: ٤٥٩.
٦. تفسير القمي ٢: ٢٢٢، تفسير الصافي ٤: ٢٦٨.
٧. تفسير روح البيان ٧: ٤٦١.

الأبدان[١].

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ * يَقُولُ ءَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ * ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ءَإِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِى سَوَاءِ ٱلْجَحِيمِ * قَالَ تَاللهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ [٥٠ـ٥٧]

ثمّ حكى سبحانه بعض محاورات أهل الجنّة، كما حكى بعض محاورات أهل النار بقوله: ﴿**فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ**﴾ ويتحادثون.

قيل: إنّ الكلام عطفٌ على قوله: ﴿**يطاف عليهم بكأس**﴾[٢] والمراد أنّ أهل الجنّة يشربون ويتحادثون على الشُّرب، كما هو عادة أهل شُرب الخَمْر في الدنيا، فيُقبِل بعضهُم على بعضٍ حال كونهم يتساءلون عمّا جرى عليهم في الدنيا[٣] ﴿**قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ**﴾ في تضاعيف محاوراته وأثناء كلامه: ﴿**إِنِّى كَانَ لِى**﴾ في الدنيا ﴿**قَرِينٌ**﴾ وجليس ﴿**يَقُولُ**﴾ على سبيل التوبيخ على إيماني بالبعث والحساب: ﴿**ءَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ**﴾ بالبعث كيف تُقرّ بما تستبعده العقول؟ ﴿**ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً**﴾ بعد الموت منتشراً في وجه الأرض ﴿**وَعِظَاماً**﴾ باليةً ﴿**ءَإِنَّا**﴾ لمحيَون ثانياً و﴿**لَمَدِينُونَ**﴾ ومُجزَون على أعمالنا؟! هيهات هيهات لا يكون ذلك أبداً!

ثمّ ﴿**قَالَ**﴾ ذلك القائل: ﴿**هَلْ أَنتُم**﴾ يا أصحابي ﴿**مُّطَّلِعُونَ**﴾ على أهل النار، ومشرفون عليهم حتى اُريكم ذلك القرين المُكذِّب بالبعث؟ ﴿**فَاطَّلَعَ**﴾ القائل وأشرف على قرينه ﴿**فَرَآهُ**﴾ مستقرّاً ﴿**فِى سَوَاءِ ٱلْجَحِيمِ**﴾ ووسطها ثمّ ﴿**قَالَ**﴾ ذلك القائل لقرينة الهالك ﴿**تَاللهِ إِن كِدتَّ**﴾ وقد قاربت ﴿**لَتُرْدِينِ**﴾ وإلى أن تُهلِكني كما هلكت ﴿**وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى**﴾ عليّ بالهداية والعِصمة ﴿**لَكُنتُ**﴾ معك ﴿**مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ**﴾ في العذاب، والمُساقين إلى النار، كما اُحضرت أنت وأمثالك.

عن ابن عباس: في الجنّة كُوىً ينظُر منها أهلها إلى أهل النار ويُناظرونهم، لأنّ لهم في توبيخ أهل النّار لذّةً وسرُوراً[٤].

أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ

---

١. تفسير أبي السعود ٧: ١٩١، تفسير الصافي ٤: ٢٦٩.
٢. الصافات: ٤٥/٣٧.
٣. تفسير الرازي ٢٦: ١٣٨، تفسير البيضاوي ٢: ٢٩٤، تفسير أبي السعود ٧: ١٩١، تفسير روح البيان ٧: ٤٦١.
٤. تفسير روح البيان ٧: ٤٦٢.

ٱلْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَامِلُونَ[٥٨ ـ ٦١]

ثمَ أقبل القائل إلى جُلسانه وقُرنانه في الجنّة بعد الإعراض عن قرينة الذي رآه في النار، وحاورهم في الخُلود في الجنّة سُروراً بفضل الله، والتذاذاً بتحديث [جلسانه عن] نِعمِهِ، فقال لهم: **﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾** قيل: إنّ التقدير أنحن مُخلَدون، فما نحن بميتين؟[١] **﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾** كانت في الدنيا، وقبل بعثنا من القبور. وقيل: إنّ الاستثناء منقطعٌ، والمعنى لكن موتتنا الأولى قد كانت في الدنيا[٢]. وقيل: إنّ (إلّا) هنا بمعنى بعد وسوى[٣] (وما نحن) كالكفّار **﴿بِمُعَذَّبِينَ﴾** أبداً.

عن الباقر عليه السلام: «إذا دخل أهل الجنّة في الجنّة وأهل النار في النار، جيء بالموت فيُذبَح كالكبش بين الجنّة والنّار، ثمّ يقال: خُلودٌ فلا موت أبداً. فيقول أهل الجنّة: **﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾**»[٤].

﴿إِنَّ هٰذَا﴾ الخُلود في الجنّة، ودوام النعمة، والأمن من العذاب، والله **﴿لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾** والظَّفر بأقصى المطالب، وهو السعادة الأبدية التي لا سعادة فوقها و **﴿لِمِثْلِ هٰذَا﴾** المَقْصَد الأعلى **﴿فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَامِلُونَ﴾** وليجتهد المجتهدون، لا للمقاصد الدنيوية السريعة الزوال والانقطاع.

قيل: إنّه من كلام الله ترغيباً للناس في طلب ثواب الآخرة[٥].

أَذٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ[٦٢ و ٦٣]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان نِعم أهل الجنّة ومأكلهم ومشربهم، ذكر سبحانه مأكول أهل النار ومشروبهم، بقوله: **﴿قُلْ﴾** يا محمد، لقومك المشركين بعد تلاوة الآيات النازلة عليك في وصف نِعم أهل الجنّة: أنصفوا يا قوم **﴿أَذٰلِكَ﴾** الرزق المعلوم الذي هو فاكهة الجنّة **﴿خَيْرٌ﴾** وأحسن من كونه **﴿نُزُلاً﴾** وتهيئةً لورودكم يوم القيامة، أو خيراً حاصلاً مع كون حاصلة اللّذة والسُّرور **﴿أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾** التي حاصلها الألم والغمّ.

قيل: إنّ المفسرين لم يَذْكُروا لشجرة الزَّقُّوم تفسيراً[٦].

وقيل: إنّ الزَّقُّوم اسم شجرة صغيرة الورق مُرّة كريهة الرائحة، تكون بتهامة، يعرفها المُشركون[٧].

---

١. تفسير أبي السعود ٧: ١٩٣، تفسير روح البيان ٧: ٤٦٢.
٢. تفسير روح البيان ٧: ٤٦٣.
٣. تفسير روح البيان ٧: ٤٦٣.
٤. تفسير القمي ٢: ٢٢٣، تفسير الصافي ٤: ٢٧٠.
٥. تفسير روح البيان ٧: ٤٦٣.
٦. تفسير الرازي ٢٦: ١٤١.
٧. تفسير روح البيان ٧: ٤٦٤.

وقيل: إنّ شجرة الزَّقُّوم هي أطعمةٌ كريهةٌ في النار[١].

وقيل: إنّ ظاهر القرآن أنها شجرةٌ كريهةُ الطعم، نَتنةُ الرائحة، شديدة الخُشونة[٢].

روي أنّه لمّا نزلت هذه الآية قال ابن الزِّبَعْرىٰ شاعر قريش: أكثر الله في بيوتكم الزَّقُّوم، فانّ اليمن يُسمّون الزُّبد والتمر بالزَّقُّوم. وقال أبو جهل لجاريته: زَقّميني، فأتته بزُبد وتمر، وقال تَزقّموا[٣].

وقيل: إنّ المشركين لمّا سمعوا الآية قالوا: كيف يُعقَل أن ينبُت الشجر في جهنّم مع أنّ النار تُحرِق الشجر؟[٤] فردّ الله سبحانه عليهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً﴾ وسبباً لشُبهةٍ موجبةٍ لتمادي الكفّار في كفرهم ﴿لِّلظَّالِمِينَ﴾ والمشركين وقيل: إنّ المراد من الفتنة المِحنة والعذاب[٥]. وقيل: إنّ المراد الامتحان والابتلاء في الدنيا، حيث إنّ الكفار لمّا سَمِعوا كون الشجر في النار طَعَنوا في القُرآن والنبوة، وإنّ المؤمنين لمّا سَمِعوا آمنوا وفوّضوا علمه إلى الله[٦].

إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ ٱلشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِؤُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ[٦٤ـ٦٨]

ثمّ وصف سبحانه الشجرة بقوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ﴾ وتنبُتُ ﴿فِى أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ وقَعْرها، وترتفع أغصانها إلى دركاتها، وما كان منبته النار لم يحترق بها. وفيه ردّ على من قال: كيف يُعقَل أن ينبُت الشجر في النّار مع أنّ النار تُحرِق الشجر ﴿طَلْعُهَا﴾ وثَمَرها الذي يظهر منها في تناهي القُبح والايحاش ﴿كَأَنَّهُ رُؤُوسُ ٱلشَّيَاطِينِ﴾ قيل: إنّه تشبيه بالمُخيّل، فانّ الناس يتخيّلون أن صورة الشياطين أقبح الصُّور وأكرهها، ولذا لو وصفوا شيئاً بغاية القباحة، قالوا: كأنّه شيطان، كما أنّهم لو وصفوا شيئاً بغاية الحُسن قالوا: كأنّه مَلَك[٧].

وقيل: إنّ الشيطان اسم حيّة لها رأس وعُرف، وهي من أقبح الحيّات، وبها يُضرَب المثل في القُبح[٨].

وقيل: إن رؤوس الشياطين نبتٌ معروفٌ قبيحُ الرأس[٩] ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾ بالإكراه والإجبار، أو

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٤٦٤.
٢. تفسير الرازي ٢٦: ١٤١.
٣. تفسير الرازي ٢٦: ١٤١.
٤. تفسير الرازي ٢٦: ١٤١، تفسير روح البيان ٧: ٤٦٥.
٥. تفسير البيضاوي ٢: ٢٩٥.
٦. تفسير الرازي ٢٦: ١٤٢.
٧. تفسير الرازي ٢٦: ١٤٢، تفسير روح البيان ٧: ٤٦٥.
٨ و٩. تفسير الرازي ٢٦: ١٤٢.

لشدّة الجوع ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾.

ثمّ لمّا كان لازم الشّبع وملأ[1] البطن العطش وشدّته، بيّن سبحانه مشروبهم، كما بيّن مشروب أهل الجنّة بعد ذكر طعامهم بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ﴾ بعد الأكل من الشجرة واشتداد العطش وطول الاستسقاء ﴿عَلَيْهَا لَشَوْباً﴾ وخليطاً ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ وماءٍ متناهٍ في الحرارة.

قيل: يعني شرباً من دم أو قيح أسود أو صديد ممزوجاً ومشوباً بماءٍ حارٍ غاية الحرارة يقطع أمعاءهم[2].

قيل: إنّ كلمة (ثمّ) دالة على التراخي الزماني، فيُفهَم منها أنّ أهل النار يملأون بطونهم من شجرة الزّقّوم وهي حارة تُحرِق بطونهم، فيعظُم عطشهم، فيستسقون فلا يُسقَون إلّا بعد مدةٍ طويلةٍ ليكمل تعذيبهم. وقيل: إن كلمة (ثمّ) دالةٌ على التراخي في الرّتبة، فتدُلّ على أنّ مشروبهم في الشناعة أشدّ من مأكولهم[3].

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ بعد أكل الزّقّوم وشُرب الحميم، كما عن مقاتل[4] ﴿لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ قيل: إنّ موضع الحميم خارجٌ من الجحيم، فهم يُورَدون الحميم لأجل الشُّرب كما تُورَد الإبل إلى الماء، ثمّ يُردَون إلى الجحيم، كما دلّ عليه قوله: ﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾[5] وقيل: إنّ الزّقّوم والحميم نُزلٌ يُقدَمُ إليهم قبل دخول الجحيم[6].

إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ * وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُنْذِرِينَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُنْذَرِينَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللهِ ٱلْمُخْلَصِينَ [٦٩ - ٧٤]

ثمّ بيّن سبحانه علّة استحقاقهم هذا العذاب الشديد بقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا﴾ ووجدوا ﴿آبَاءَهُمْ﴾ وكُبراءهم ﴿ضَالِّينَ﴾ ومنحرفين عن طريق الحقّ والهُدى بعبادتهم الأصنام ﴿فَهُمْ﴾ بلا تدبّرٍ في صحّة مذهب آبائهم، وتحصيل دليلٍ على حقانية دينهم مع وضوح بطلانه بأدنى تفكّر ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾ وعقبهم، أو إلى تقليدهم ﴿يُهْرَعُونَ﴾ ويُسرِعون بكمال الشدّة، ويتبعونهم مع غاية العصبية.

ثمّ لمّا كان إصرار الناس على الكفر والضلال سبباً لتألم قلب النبيّ ﷺ وحُزنه، سلّاه سبحانه

---

١. في النسخة: وملأنه. ٢. تفسير روح البيان ٧: ٤٦٥.
٣. تفسير روح البيان ٧: ٤٦٥. ٤. تفسير الرازي ٢٦: ١٤٣.
٥. تفسير الرازي ٢٦: ١٤٣، والآية من سورة الرحمن: ٥٥/٤٤.
٦. تفسير روح البيان ٧: ٤٦٥.

بقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ﴾ والله ﴿قَبْلَهُمْ﴾ بإضلال إبليس ﴿أَكْثَرُ﴾ القرون ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ والأمم الماضين ﴿وَ﴾ والله ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم﴾ من قبلنا أنبياء ﴿مُنذِرِينَ﴾ ومُخوّفين لهم من العذاب على الشِّرك والعصيان مع المعجزات الباهرة والبراهين القاطعة، فبيّنوا لهم بُطلان عقائدهم، وسوء عاقبة كفرهم، فما اعتنوا بإنذارهم ﴿فَانظُرْ﴾ أيّها النبيّ، أو الناظر ﴿كَيفَ﴾ كان ﴿عَاقِبَةُ﴾ أمر الأمم ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾ ومآل كفرهم وطُغيانهم، فقد عَلِمت أنّ عاقبتهم كانت أوخم العواقب وأسوأها ﴿إِلَّا﴾ عاقبة الذين كانوا ﴿عِبَادَ ٱللهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فانّ عاقبتهم خير العواقب وأحسنها.

وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ * وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ ٱلْبَاقِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَالَمِينَ * إِنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ [٧٥ـ ٨٠]

ثمّ لمّا ذكر سبحانه إرساله الرسل إلى الأمم الضالة، ذكر بعض الأنبياء العِظام ولُطفه بهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا﴾ ودعانا ﴿نُوحٌ﴾ لتخليصه من إيذاء قومه وقتلهم إياه، والأمن [من] الغرق بالطُّوفان ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ نحن لُدعائه.

ثمّ بيّن سبحانه حُسن إجابته له لقوله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ وأقاربه ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ والغمّ الشديد، وهو أذى قومه، أو الغرق بالطُّوفان ﴿وَجَعَلْنَا﴾ بعد هلاك الخَلْق بالطُّوفان ﴿ذُرِّيَّتَهُ﴾ ونَسْله فقط ﴿هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ على وجه الأرض.

رُوي أنّه مات كلّ من معه في السفينة غير أبنائه وأزواجهم، وهم الذين بقوا متناسلين إلى يوم القيامة[1].

﴿وَتَرَكْنَا﴾ على نوح، وأبقينا ﴿عَلَيْهِ فِى﴾ الأمم ﴿ٱلْآخِرِينَ﴾ الثناء وحُسن الذكر ﴿سَلَامٌ﴾ من الله، أو من الملائكة والثَّقلين ﴿عَلَىٰ نُوحٍ﴾ وذلك السلام والتحية باقٍ عليه ﴿فِى ٱلْعَالَمِينَ﴾ وأمّة بعد أُمّة.

قيل: إنّ المراد الدعاء بثبوت هذه فيهم جميعاً، كأنّه أثبت الله التسليم على نوح وأدامه في الملائكة والثقلين، فيسلّمون عليه بكُلّيتهم[2].

قال القُرطبي: جاءت الحية والعقرب لدخول السفينة، فقال نوح: لا أحمِلكما لأنّكما سبب الضرر والبلاء. فقالا: احمِلنا ونحن نَضْمَن لك أن لا نضُرّ أحداً ذَكَرك، فمن قرأ حين يخاف مضرّتهما

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٤٦٧.

٢. تفسير الرازي ٢٦: ١٤٥، تفسير روح البيان ٧: ٤٦٨.

﴿سَلاَمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَالَمِينَ﴾ لم يَضُرّاه[١].

عن الصادق عليه السلام - في حديث -: «وبشّرهم نوح بهود، وأمرهم باتّباعه، وأن يُقيموا الوصيّة كلّ عام فينظُروا فيها، ويكون عِيداً لهم، كما أمرهم آدم عليه السلام، فظهرت الجبرية من ولد حام ويافث، فاستخفى ولد سام بما عندهم من العلم، وجرت على سام بعد نوحٍ الدولة لحام ويافث، وهو قول الله عز وجل: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ يقول: تركت على نوح دولةَ الجبّارين، ويُعزّي[٢] الله محمّداً صلى الله عليه وآله بذلك.

قال: وولد لحام: السند والهند والحبش، وولد لسام العرب والعجم، وجرت عليهم الدولة، وكانوا يتوارثون الوصية عالِم بعد عالِم حتى بعث الله هوداً»[٣].

ثمّ أنه تعالى بعد ذِكر نِعَمِهِ على نوح، بيّن استحقاقه لها بقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ ومثل تلك النّعم ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ونُفضّل عليهم بسبب إحسانهم.

إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ * وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ[٨١-٨٥]

ثمّ أثنى على نوح وذكر إحسانه بقوله: ﴿إِنَّهُ﴾ كان أحداً ﴿مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بتوحيدي وبما يجب الايمان به من البعث وغيره. وفيه بيان أنّ من أعظم درجات الانسان الايمان بالله والانقياد لطاعته.

ثمّ بين سبحانه غضبه على أعداء نوح بقوله: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا﴾ بالطُّوفان الأقوام ﴿ٱلْآخَرِينَ﴾ المعاندين لنوح، وهم الكفار والمشركون.

قيل: إنّ كلمة (ثم) لبيان غاية البُعد وتفاوت الرُّتبة بين إنجاء نوح وأهله، والإغراق المتراخي الزماني[٤].

ثمّ بيّن سبحانه قصّة إبراهيم عليه السلام الذي كان من أُولي العزم بعد نوح عليه السلام بقوله: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ﴾ وأتباعه والسالكين على منهاجه في التوحيد والدعوة إليه، والثبات على الحقّ، وتحمّل أذى القوم ﴿لَإِبْرَاهِيمَ﴾. عن ابن عباس: من أهل دينه، وعلى سُنته، أو ممّن شايعه في مصابرة المكذّبين[٥].

قيل: كان بين نوح [وإبراهيم] ألفان وستمائة وأربعون [سنة] وما كان بينهما إلّا نبيان: هود،

---

١. تفسير القرطبي ٩: ٣٢.
٢. في كمال الدين: ويعزّ.
٣. كمال الدين: ٣/١٣٥، تفسير الصافي ٤: ٢٧٢.
٤. تفسير روح البيان ٧: ٤٦٨.
٥. تفسير أبي السعود ٧: ١٩٦، تفسير روح البيان ٧: ٤٦٨.

وصالح[١].

أقول: الظاهر أنّ المراد النبي المعروف، لأنّه لا شُبهة أن الأرض لا تخلو من حُجَة.

وعن الكلبي: أنّ المراد أنّ من شيعة محمّد ﷺ إبراهيم[٢]، وإن لم يذكُر اسمه الشريف قبل الآية، وكان إبراهيم قبل نبينا بكثيرٍ، لكنّه تابعٌ له في الحقيقة[٣].

﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ﴾ وحين أقبل إلى خالقه ومالكه ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من الآفات النفسانية، والهواجس الشيطانية، والعلائق الدنيوية. عن ابن عباس: إنّه يُحِبّ للناس ما يُحِبّ لنفسه، وسَلِم جميع الناس من غِشّه وظُلمة، وأسلمه الله تعالى فلم يعدِل به أحداً[٤].

وقيل: إنّ (إذ) متعلّق باذكر المقدّر[٥].

وكان ظهور مجيئه ربّه وإقباله إلى مالكه ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ الذين كانوا عبدة الأصنام إنكاراً عليهم وتوبيخاً لهم ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ وأيّ شيءٍ هذه الأصنام التي لها تَسجُدون.

ءَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ ٱللهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَالَكُمْ لَا تَنطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَٱللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ * قَالُوا ٱبْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ * وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ [٨٦ـ٩٩]

ثمّ بالغ في توبيخهم ولومهم بقوله: ﴿ءَإِفْكاً﴾ وكذباً أو باطلاً ﴿آلِهَةً﴾ ومعبودين ﴿دُونَ ٱللهِ﴾ وسوى المعبود المستحقّ للعبادة ﴿تُرِيدُونَ﴾ وتَطْلُبون.

قيل: إنّ (إفكاً) مفعولاً له، وإنّما قدّمه لكون الأهمّ عنده أن يُقرّر عندهم أنّهم على إفكٍ وباطل في شِركهم[٦]. وقيل: إنّه مفعول لـ(تريدون)[٧] أو حال، والمعنى أتريدون آلهة من دون الله آفكين[٨].

﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ وحُسبانكم في حقّه، أتظنّون أنّه جعل لنفسه من الجمادات شُركاء

---

١. تفسير أبي السعود ٧: ١٩٧، تفسير روح البيان ٧: ٤٦٩.
٢. تفسير الرازي ٢٦: ١٤٦، تفسير القرطبي ١٥: ٩١.
٣. تفسير روح البيان ٧: ٤٦٩.
٤. تفسير الرازي ٢٦: ١٤٦.
٥. تفسير البيضاوي ٢: ٢٩٧.
٦. تفسير الرازي ٢٦: ١٤٧، تفسير روح البيان ٧: ٤٦٩.
٧. تفسير الرازي ٢٦: ١٤٧.
٨. تفسير الرازي ٢٦: ١٤٧.

في العبادة، أو أنّه من جنس هذه الجمادات حتى جعلتموها مساويةً له، أو تَظُنّون أنّه لا يُؤاخذكم بإشراككم، أو أنّه غافلٌ عن سيئات أعمالكم، وهو ربّ العالمين، لا يساويه[١] وليس كمثله شيءٌ، ولا يرضى بعبادة غيره، ولا يعزُب عنه مثقال ذرّة.

ثمّ صمّم إبراهيم عليه السلام على أن يُلزِم قومه الحُجّة على عدم قابلية[٢] الأصنام للعبادة حتى خرج القوم إلى عِيدٍ لهم، فقالوا: يا إبراهيم، اخرُج معنا إلى الصحراء وإلى عيدنا[٣]، وكانوا على ما قيل يَتَعاطَون علم النجوم[٤] ﴿فَنَظَرَ﴾ إبراهيم ﴿نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾ فرآى موقعها واتصالاتها، أو نظر في علم النجوم ﴿فَقَالَ﴾ اعتذاراً من الخروج ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ ومريضٌ لا يصلُح لي الخروج.

عن ابن عباس: أنّهم كانوا يَتَعاطَون علم النجوم، فعاملهم على مُقتضى عادتهم، وذلك أنّه أراد أن يُكايدهم في أصنامهم، ليُلزِمهم الحُجّة في أنّها غير معبودةٍ، وكان لهم من الغد يوم عيد يخرجُون إليه، فأراد أن يتخلّف عنهم، ليبقى خالياً في بيت الأصنام، فيقدِر على كَسْرها[٥].

قيل: إنّ المراد من قوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ إنّي سأسقُم، وكانت تأتيه سقامة كالحُمّى في بعض ساعات الليل والنهار[٦].

وقيل: كان له نجمٌ مخصوصٌ، كلّما طلع على صفةٍ مخصوصةٍ مَرِض[٧].

وقيل: إنّ هذا الكلام منه على سبيل التعريض، ومُراده أنّ الإنسان في أكثر أحواله لا ينفكّ عن حالةٍ مكروهةٍ[٨] إمّا في بدنه، وإمّا في قلبه، وكل ذلك سُقم[٩].

وقيل: يعني سقيم القلب غير عارفٍ بربّي، وكان ذلك قبل بُلوغه[١٠].

وقيل: يعني مريض القلب بسبب إطباق ذلك الجمع العظيم على الكفر والشرك[١١].

وعن الباقر عليه السلام: «والله ما كان سقيماً وما كَذَب»[١٢].

وعن الصادق عليه السلام، قال: «إنّه حَسَب فرأى ما يَحُلّ بالحسين عليه السلام، فقال: إنّي سقيم لما يَحُلّ بالحسين»[١٣].

قيل: إنّ القوم توهّموا من قوله ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ أنّه ابتُلي بالطاعون لكثرته في زمانه[١٤] ﴿فَتَوَلَّوْا﴾

---

١. في النسخة: لا يساومه.
٢. يريد استحقاق.
٣. في النسخة: معيدنا.
٤. تفسير روح البيان ٧: ٤٦٩.
٥. تفسير الرازي ٢٦: ١٤٧.
٦. تفسير الرازي ٢٦: ١٤٧.
٧. تفسير الرازي ٢٦: ١٤٧.
٨. في النسخة: مكرهة.
٩. تفسير الرازي ٢٦: ١٤٨.
١٠. تفسير الرازي ٢٦: ١٤٧.
١١. تفسير الرازي ٢٦: ١٤٧.
١٢. الكافي ٨: ١٠٠/٧٠، تفسير الصافي ٤: ٢٧٣.
١٣. الكافي ١: ٣٨٧/٥، تفسير الصافي ٤: ٢٧٣.
١٤. تفسير أبي السعود ٧: ١٠٧، تفسير الصافي ٤: ٢٧٣، تفسير روح البيان ٧: ٤٧٠.

وأعرضوا ﴿عَنْهُ﴾ حال كونهم ﴿مُدْبِرِينَ﴾ وهاربين منه، لخوف السِّراية، فلمّا ذهب القوم وتركوه جاء إلى بيت الأصنام ﴿فَرَاغَ﴾ وذهب خُفية ﴿إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ فرآى أنّ القوم وضعوا عندهم الطّعام لتحصُل له البركة على ما قيل[١] ﴿فَقَالَ﴾ لهم استهزاءً بهم: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ من هذا الطعام؟

ثمّ بالغ في الاستهزاء بهم وقال ﴿مَالَكُمْ﴾ وأي حال عرض لكم أنكم ﴿لَا تَنطِقُونَ﴾ ولا تُكلّمون معي ولا تُجيبوني؟ ﴿فَرَاغَ﴾ وأقبل ﴿عَلَيْهِمْ﴾ خُفية فضربهم ﴿ضَرْباً﴾ شديداً ﴿بِالْيَمِينِ﴾ وبتمام القوّة التي كانت له. قيل: إنّ المراد فأقبل عليهم حال كونه ضارباً لهم بسبب الحَلْف على ضربهم بقوله: ﴿تالله لاكيدن أصنامكم﴾ فلمّا رجع القوم من عيدهم[٢] جاءوا إلى الأصنام على حسب رسمهم، فوجدوها مكسورةً، فظنّوا بالقرائن أنّه عمل إبراهيم[٣] ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ﴾ وتوجّهوا نحوه، وهم ﴿يَزِفُّونَ﴾ ويُسرِعون في المشي.

ثمّ أنّه بعد ما جرت بينه وبين القوم من المحاورات التي حكاها سبحانه في سورة الأنبياء ﴿قَالَ﴾ توبيخاً لهم: ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾ ياقوم، وأنتم عقلاء ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾ بأيديكم من الأحجار والأخشاب؟! ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ بقُدرته مادةً وصورةً ﴿وَ﴾ خلق ﴿مَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأصنام بإقداركم على نَحْتها.
ولمّا عجز نمرود وخواصه من إبطال حجّته ﴿قَالُوا﴾: يا قوم ﴿ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً﴾ رفيعاً عظيماً، واملأوه حطباً، وأشعلوا فيه النار لإحراق إبراهيم ﴿فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ والنار الشديدة الإيقاد. قيل: إنّ القائل رجلٌ من أعراب فارس اسمه الهيزن[٤].

عن ابن عباس، أنّه قال: بنوا حائطاً من حجر، طوله في السماء ثلاثون ذِراعاً، وعرضه عشرون ذِراعاً، وملأوه حَطباً، وأشعلوا فيه ناراً[٥].

﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً﴾ وشرّاً عظيماً، وهو إحراقه بالنار ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ والأذلّين بإبطال كيدهم، وجعل النار عليه برداً وسلاماً، وسعيهم في إهلاكه سبباً لظهور حُجّته ووضوح صدقه وعلوّ رُتبته ﴿وَقَالَ﴾ للوط ولمن آمن به من بعد إنجاء الله إياه من النار: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ﴾ ومهاجرٌ من هذه القرية الظالم أهلها، وهي حرّان، أو بابل، أو هرمز بحرة[٦] التي كانت بين البصرة والكوفة ﴿إِلَىٰ﴾ بلاد الشام التي أمرني ﴿رَبِّي﴾ بالذّهاب إليها.

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٤٧٠.
٢. في النسخة: معيدهم.
٣. تفسير روح البيان ٧: ٤٧٠.
٤. تفسير روح البيان ٧: ٤٧١.
٥. تفسير روح البيان ٧: ٤٧١.
٦. الذي في معجم البلدان: هُرْمز جرد: ناحية في أطراف العراق، وهُرمُز قَرة: قرية في طرف نواحي مرو، ولعل ما في المتن مصحف ما عن: هرمز جرد. معجم البلدان ٥: ٤٦٣.

وقيل: أمر بالذّهاب إلى أرض فِلَسْطين وهي بين الشام ومِصر[١]. أو المراد إلى موضعٍ يكون فيه صلاح ديني[٢]، أو إلى بيت المَقْدِس، كما عن الصادق[٣].وعن أمير المؤمنين عليه السلام في رواية: «فذهابه إلى ربّه توجّهه إليه عبادةً واجتهاداً وقربةً إلى الله»[٤]. إنّه بلُطفه ﴿سَيَهْدِينِ﴾ إلى الموضع الذي أمرني بالذّهاب إليه، ويرشدني إليه البتة على لُطفه أو وَعْده.

رُوي أنّ إبراهيم لمّا جعل الله عليه النار برداً وسلاماً، وأهلك عدوّة نمرود، وتزوّج بسارة، وكانت أحسن النساء وجهاً، وكانت تُشبه حوّاء في حُسنها، عزم الانتقال من أرض بابل إلى الشام[٥].

رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَا بُنَىَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَاإِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّؤْيَا إِنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَاءُ ٱلْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * كَذٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ [١٠٠-١١١]

ثمّ أن سارة اشترت هاجر، فوهبتها لإبراهيم[٦]، فلمّا ملكها دعا ربّه بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى﴾ ولداً يكون ﴿مِنَ﴾ عبادك ﴿ٱلصَّالِحِينَ﴾ والكاملين في العلم والعمل والأخلاق، ليكون عوناً لي على الطاعة والدعوة، ويؤنسني في الغُربة ﴿فَبَشَّرْنَاهُ﴾ إجابةً لدُعائه ﴿بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ وولدٍ صالحٍ متحمّلٍ للمشاقّ، صبورٍ عند إصابة المكاره، لا يغلِب عليه الغضب، ولا يعجل في الأُمور.

قيل: إنّه تعالى جمع فيه بشارات ثلاث: الأُولى: إنّه غلام، والثانية: إنّه يبلُغ أوان الحلم، والثالثة: إنّه حليم، ومن حِلمه أنّه استسلم للذبح[٧]. قيل: ما نعت الله نبياً بالحِلم لعزّة وجوده غير إبراهيم وابنه[٨].

فلما وهب له إسماعيل، ونشأ إلى أن بلغ رُتبة [أن] يعاون إبراهيم في حوائجه ومشاغله ﴿فَلَمَّا بَلَغَ﴾ إبراهيم ﴿مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ في مشاغله ومصالحه، أو السعي الذي هو أحد أعمال الحجّ، أراد الله أن

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٧: ٤٧٢.
٣. الكافي ٨: ٥٦٠/٣٧١، تفسير الصافي ٤: ٢٧٤.
٤. التوحيد: ٥/٢٦٦، تفسير الصافي ٤: ٢٧٤.
٥. تفسير روح البيان ٧: ٤٧٣.
٦. في النسخة: فوهبها من إبراهيم.
٧. تفسير الرازي ٢٦: ١٥١، تفسير أبي السعود ٧: ١٩٩، تفسير روح البيان ٧: ٤٧٣.
٨. تفسير البيضاوي ٢: ٢٩٨، تفسير أبي السعود ٧: ١٩٩، تفسير الصافي ٤: ٢٧٥.

يُريه كمال حِلم ولده، فأمره في المنام بذبحه.

قصة رؤيا إبراهيم، وإقدامه بذبح ولده

رُوي أنّ إبراهيم رأى ليلةَ التروية في منامه كأنّ قائلاً يقول له: إنّ الله يأمُرك بذبح ابنك هذا، فلمّا أصبح تروّى في ذلك من الصباح إلى الرَّواح، أمن الله هذا الحكم أم من الشيطان، فمن ثَمّ سُمّي يوم التروية، فلمّا أمسى رأى مثل ذلك، فعَرف أنّه من الله، فسُمّي يوم عرفة، ثمّ رأى مثله في الليلة الثالثة، فهمّ بنحره فسُمّي يوم النحر[1].

وفي (الكافي) عنهما عليهما السلام: «لمّا كان يوم التروية قال جَبْرَئيل لابراهيم: تروّ من الماء، فسُمّي تروية، ثمّ أتى مِنى فأباته بها، ثمّ غدا إلى عرفات، فضرب خِباءه بنَمرة دون عَرَفة، وبنى مسجداً بأحجارٍ بيض ـ إلى أن قال ـ: عَمَد به الى عرفات فقال: هذه عرفات، فاعرِف بها مناسِكَك، واعتَرِف بذنبك، فسُمّي عرفات. ثمّ أفاض إلى المُزْدَلِفة، فسُمّيت المُزْدَلفة لأنّه ازدَلَف إليها»[2].

وعلى أي تقدير، فجاء إبراهيم باسماعيل إلى مِنى، وهو ابن ثلاث عشر سنة على ما قيل[3] و ﴿قَالَ﴾ له تلطّفاً وإشفاقاً ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ﴾ ما يُوجِب عليّ ﴿أَنِّى أَذْبَحُكَ﴾ قُرباناً لله. وقيل: إنّه رأى أنّه يذبحه[4] ﴿فَانظُرْ﴾ وتفكّر فيما قلت ﴿مَاذَا تَرَىٰ﴾ وأيّ شيءٍ هو رأيك ومختارك؟ وإنّما استكشف رأيه ليعلم أنّه صابرٌ في البلاء ومنقادٌ لأمر الله أو جزوع آبٍ من التسليم، وليكون سُنة في المشاورة، أو ما ترى من نفسك من الصبر والتسليم؟ فلمّا سَمِع إسماعيل ذلك من أبيه ﴿قَالَ﴾ بلا ريثٍ وتأمّل ﴿يَا أَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ به من ذبحي، وإنّما قال ما تؤمر ولم يقل ما اُمرت، للدلالة على أنّ انقياده لا يختصّ بخصوص الذبح الذي اُمر به، بل يَعُمّ لكلّ ما يُؤمر به في حقّه ﴿سَتَجِدُنِى﴾ يا أبه ﴿إِن شَاءَ ٱللَّهُ﴾ أن أكون صابراً ﴿مِنَ ٱلصَّابِرِينَ﴾ على الذبح، أو قضاء الله، ومن المنقادين لأمر الله.

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ وانقادا لأمر الله، عن قتادة: أسلم إبراهيم ابنه، وإسماعيل نفسه[5] ﴿وَتَلَّهُ﴾ وصرعه إبراهيم ﴿لِلْجَبِينِ﴾ وألقاه على شِقّه بحيث وقع جبينه على الأرض لمباشرة الأمر بصبرٍ وجَلَدٍ ﴿وَنَادَيْنَاهُ﴾ من جانب الجبل، أو من مَيسرة مسجد الخَيف ﴿أَن يَاإِبْرَاهِيمُ﴾ كُفّ عن ذَبح ولدك، فانّك ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّؤْيَا﴾ وعَمِلت بما رأيت في المنام من العزم على الذبح، وإتيان مُقدّماته التي كانت تحت يدك وقدرتك. قيل: إنّه تعالى أمَرَ السِّكين بقوّته على مَنْحَره فلم يقطع، ثمّ وضع السِّكين على قفاه فانقلب السكّين[6].

---

١. تفسير الرازي ٢٦: ١٥٣، تفسير البيضاوي ٢: ٢٩٨، تفسير أبي السعود ٧: ٢٠٠، تفسير روح البيان ٧: ٤٧٣.
٢. الكافي ٤: ٩/٢٠٧، تفسير الصافي ٤: ٢٧٧.
٣. مجمع البيان ٨: ٧٠٦، تفسير الرازي ٢٦: ١٥٢.
٤. تفسير الرازي ٢٦: ١٥٣.
٥. تفسير الرازي ٢٦: ١٥٧، تفسير روح البيان ٧: ٤٧٤.
٦. تفسير روح البيان ٧: ٤٧٥.

قيل: إنّ جواب (لمّا) محذوف، والتقدير لمّا فعل ذلك وناديناه أن يا إبراهيم قد صَدّقت الرؤيا، سعد سعادةً عظيمة، وآتاه الله نبوّة ولده، وأجزل له الثواب[١].

وقيل: إنّ التقدير كان ما كان ممّا لا يحيط[٢] به نطاق البيان من استبشارهما وشكرهما الله على ما أنعم عليهما من رفع البلاء بعد حلوله، والتوفيق لما لم يُوفّق أحد لمثله، وإظهار فضلهما بذلك على العالمين مع إحراز الثواب العظيم[٣] ﴿إِنَّا﴾ كما جزينا إبراهيم وابنه بإحسانهما وطاعتهما ﴿كَذٰلِكَ نَجْزِى﴾ جميع ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالاحسان والطاعة، أو إنّا كما فرّجنا عنهما الكُربة بإحسانهما، كذلك نَجزي غيرهما من المحسنين ﴿إِنَّ هٰذَا﴾ البلاء الذي ابْتَلينا به إبراهيم وابنه والله ﴿لَهُوَ ٱلْبَلَاۤءُ﴾ والابتلاء ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ والمُظهِر للمُخلص من غيره، أو إنّ ما فعلنا لهو المحنة البيّنة الصعوبة، إذ لا شيء أصعب منها، ونجّينا إسماعيل من الذبح ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ الجُثّة أو عظيم القدر.

قيل: إنّ عظمة قدر هذا الفداء، لكونه فِداء إسماعيل النبي وخاتم الأنبياء الذي كان في صُلبه[٤].

عن ابن عباس: أنّه الكبش الذي قرّبه هابيل فتُقبّل منه، وكان يرعى في الجنّة حتى فدى به إسماعيل[٥].

عن الصادق عليه السلام في رواية: «فلمّا كان في الليل أتى إبراهيم آتٍ من ربّه، فأراه في الرؤيا ذبح ابنه إسماعيل بموسم مكّة، فأصبح إبراهيم حزيناً للرؤيا التي رآها، فلمّا حضر موسم ذلك العام حمل إبراهيم هاجر وإسماعيل في ذي الحجّة من أرض الشام، فانطلق بهما إلى مكّة ليذبحه في الموسم، فبدأ بقواعد البيت الحرام، فلمّا رفع قواعده خرج إلى مِنى حاجّاً، وقضى نُسكه بمِنى، ثمّ رجع إلى مكّة، فطاف بالبيت أُسبوعاً، ثمّ انطلقا فلمّا صارا في السعي[٦]، قال إبراهيم لاسماعيل: يا بُني إنّي أرى في المنام أنّي أذبحك في الموسم عامي هذا، فما ترى؟ قال: يا أبت افعل ما تُؤمر. فلمّا فرغا من سعيهما انطلق به إبراهيم إلى مِنى، وذلك يوم النحر، فلمّا انتهى إلى الجَمرة الوسطى، أضجعه لجبينه الأيسر وأخذ الشّفرة ليذبحه، نودي: ﴿أَن يَاإِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّؤْيَا﴾ إلى آخره، وفُدي إسماعيل بكبشٍ عظيم، فذبحه وتصدّق بلحمه على المساكين»[٧].

وفي رواية عنهما عليهما السلام: «ثمّ قام على المشعر الحرام، فأمره الله أن يذبح ابنه، وقد رأى شمائله وخلائقه، وآنس ما كان إليه، فلمّا أصبح أفاض من المشعر إلى مِنى، فقال لأُمّه: زوري البيت أنت.

---

١. تفسير الرازي: ٢٦: ١٥٧ وفي النسخة: واجزاله الثواب.
٢. في النسخة: يطاق.
٣. تفسير وروح البيان ٧: ٤٧٦.
٤. تفسير وروح البيان ٧: ٤٧٦.
٥. تفسير أبي السعود ٧: ٢٠١، تفسير روح البيان ٧: ٤٧٧.
٦. في مجمع البيان: المسعى.
٧. مجمع البيان ٨: ٧١٠، تفسير الصافي ٤: ٢٧٦.

واحتبس الغلام، فقال: يا بُني هات الحِمار والسكّين حتى أُقرّب القُربان، فانّ ربّك أين هو يابُني أنت والله هو، إنّ الله تعالى قد أمرني بذبحك، فانظُر ماذا ترى؟ **﴿قَالَ يَا أَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّابِرِينَ﴾** فلمّا عزم على الذبح قال: يا أبه خمّر[1] وجهي وشُدّ وثاقي. قال: يا بُني الوَثاق مع الذبح! والله لا أجمعهما عليك اليوم».

إلى أن قال الباقر عليه السلام: «فأضجعه عند الجَمْرة الوسطى، ثمّ أخذ المُدية فوضعها على حلقه، ثمّ رفع رأسه الى السماء، ثمّ انتحىٰ[2] عليه بالمدية فقلبها جَبْرَئيل عن حلقه، فنظر إبراهيم فاذا هي مقلوبة، فقلبها إبراهيم على حدّها، وقلبها جَبْرئيل على قفاها، ففعل ذلك مراراً، ثمّ نودي من ميسرة مسجد الخَيف: **﴿يَاإِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّؤْيَا﴾** واجترّ الغلام من تحته، وتناول جَبْرَئيل الكبش من قُلّة ثَبير[3] فوضعه تحته»[4].

وفي رواية القمّي: «ونزل الكبش على الجبل الذي عن يمين مسجد مِنى، نزل من السماء، وكان يأكُل في سواد، ويمشي في سواد، أقْرَن». قيل: ما كان لونه؟ قال: «أملح، أغبر»[5].

وفي رواية عن الرضا عليه السلام: «فلمّا عزم على ذبحه، فداه الله بذِبْحٍ عظيمٍ؛ بكبشٍ أملح، يأكُل في سواد، ويشرب في سواد، وينظُر في سواد، ويمشي في سواد، ويبول ويَبْعَر في سواد، وكان يرتع[6] قبل ذلك في رياض الجنّة أربعين عاماً، ما خرج من رَحِمِ اُنثى، وإنّما قال الله له كن فكان، ليُفتدى به إسماعيل، فكلّما يُذبَح بمِنى فهو فِدية لاسماعيل إلى يوم القيامة.

إلى أن قال: والعِلّة التي لأجلها دفع الله عزّ وجلّ الذبح عن إسماعيل هي العلّة التي من أجلها دفع الله الذبح عن عبدالله، وهي كون النبي صلّى الله عليه وآله والأئمة في صُلبهما، فببركة النبي صلّى الله عليه وآله والأئمة دفع الله الذبح عنهما، فلم تجرِ [السنّة] في الناس بقتل أولادهم، ولولا ذلك لوجب على الناس كلّ أضحى التقرّب إلى الله تعالى ذِكره بقتل أولادهم، وكلّ ما يتقرّب به الناس من اُضحيّة فهو فِداءٌ لإسماعيل إلى يوم القيامة»[7].

وعنه عليه السلام: «لو خلق الله مضغةً أطيب من الضأن، لفدى بها إسماعيل عليه السلام»[8].

وعن الرضا عليه السلام، قال: «لمّا أمر الله إبراهيم أن يذبح مكان ابنه إسماعيل الكبش الذي أنزله عليه،

---

١. في النسخة: غمّر. ٢. انتحى: أي اعتمد ومال.
٣. ثَبير: هو أعلى جبال مكة وأعظمها. ٤. الكافي ٤: ٩/٢٠٧، تفسير الصافي ٤: ٢٧٧.
٥. تفسير القمي ٢: ٢٢٦، تفسير الصافي ٤: ٢٧٩. ٦. في النسخة: يربع.
٧. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢١٠ و١/٢١٢، تفسير الصافي ٤: ٢٧٩.
٨. الكافي ٦: ١/٣١٠، تفسير الصافي ٤: ٢٨٠.

تمنَى إبراهيم أن يكون قد ذبح ابنه إسماعيل بيده، وأنَه لم يُؤمر بذبح الكبش مكانه، ليرجِع إلى قلبه ما يرجِع إلى قلب الوالد الذي يذبح أعزَ ولده بيده، فيستحقَ بذلك أرفع درجات أهل الثواب على المصائب. فأوحى الله عزَ وجلَ إليه: يا إبراهيم، من أحبُ خلقي إليك؟ قال: يا ربَ، ما خلقت خلقاً أحبَ إلي من حبيبك محمد. فأوحى الله إليه: يا إبراهيم، هو أحبَ إليك أم نفسك؟ قال: بل هو أحبَ إليّ من نفسي. قال: فولده أحبَ إليك أم ولدك؟ قال: بل ولده. قال: فذبحُ ولده ظلماً على أيدي أعدائه أوجع لقلبك، أو ذبح بيدك في طاعتي؟ قال: يا رب، بل ذبحه على أيدي أعدائه أوجع لقلبي. قال: يا إبراهيم، إنّ طائفةً تزعُم أنّها من أُمَة محمّد ستقتل الحسين ابنه من بعده ظُلماً وعُدواناً، كما يُذبَح الكبش، ويستوجبون بذلك سَخَطي. فجَزِع إبراهيم لذلك، فتوجّع قلبه، وأقبل يبكي، فأوحى الله تعالى إليه: يا إبراهيم، قد فديت جزعك على ابنك إسماعيل لو ذبحته بيدك بجزعك على الحسين وقتله، وأوجبت لك أرفع درجات أهل الثواب على المصائب، وذلك قول الله عزّ وجلَ: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾»[1].

ثمَ بيَن سبحانه زيادة تشريفه لإبراهيم بقوله، ﴿وَتَرَكْنَا﴾ وأبقينا ﴿عَلَيْهِ فِى﴾ الأمم ﴿ٱلْآخِرِينَ﴾ حُسن الذِّكر والثَّناء الجميل إلى يوم القيامة، أو التحية له بقولهم: ﴿سَلَامٌ﴾ من الله، أو من الملائكة والثقلين ﴿عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ كما أبقينا على نوح هذه التحية ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الجزاء الجزيل، ومثل هذا الأجرُ الجميل ﴿نَجْزِى﴾ جميع ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين منهم إبراهيم حيث ﴿إِنَّهُ مِنْ﴾ جملة ﴿عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وأوليائنا المُخلصين، لا من عباد الدنيا وأتباع النفس والهوى.

وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ ٱلصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ * وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ * وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ ٱلْغَالِبِينَ * وَآتَيْنَاهُمَا ٱلْكِتَابَ ٱلْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ [١١٢ ـ ١٢٢]

ثمَ بيَن سبحانه زيادة تفضّله وإنعامه على إبراهيم بقوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ﴾ مع غاية كِبره وعُقم زوجته سارة ويأسها من الولد ﴿بِإِسْحَاقَ﴾ وجعلنا ذلك الولد ﴿نَبِيّاً﴾ صالحاً ﴿مِن﴾ جملة الأنبياء

---

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/٢٠٩، تفسير الصافي ٤: ٢٧٩.

﴿ٱلصَّالِحِينَ﴾ وفي وصفه بالصلاح بعد النبوة غاية تعظيم لشأنه، ودلالة على كونه أعلى مراتب كمال الانسانية ﴿وَبَارَكْنَا﴾ على إبراهيم وأنعمنا ﴿عَلَيْهِ﴾ بكثرة الأولاد ﴿وَ﴾ كذا ﴿عَلَى﴾ ابنه ﴿إِسۡحَاقَ﴾ حيث أخرجنا من صُلبه بني إسرائيل ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ ونسلهما ﴿مُحۡسِنٌ﴾ كأنبياء بني إسرائيل الذين منهم موسى وعيسى وغيرهما من الرسل، ﴿وَ﴾ منهم ﴿ظَالِمٌ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ باختيار الكفر وارتكاب المعاصي ﴿مُبِينٌ﴾ وظاهرٌ ظُلمه. وفيه ردّ على اليهود حيث افتخروا بكونهم من ولد إسحاق ويعقوب، ودلالة على أنّ النسب لا أثر له في الصلاح والفساد والطاعة والعِصيان. وفي الحديث: «يا بني هاشم لا يأتيني الناس بأعمالهم، وتأتوني بأنسابكم»[1].

ثمّ بيّن سبحانه تفضّله على موسى وأخيه هارون بقوله: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا﴾ وأنعمنا ﴿عَلَىٰ مُوسَىٰ وَ﴾ أخيه ﴿هَارُونَ﴾ بنعمة النبوة والرسالة وغيرهما من النِّعم الدينية والدنيوية ﴿وَنَجَّيۡنَاهُمَا﴾ برحمتنا ﴿وَ﴾ نجّينا ببركتهما وبتبعهما ﴿قَوۡمَهُمَا﴾ بني إسرائيل ﴿مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ والغمّ الشديد الذي كان لهم من تعذيب فرعون وقومه ﴿وَنَصَرۡنَاهُمۡ﴾ على أعدائهم ﴿فَكَانُوا﴾ بنُصرتنا ﴿هُمُ ٱلۡغَالِبِينَ﴾ على عدوّهم بعد أن كانوا مغلوبين ومقهورين، وأنزلنا على موسى وهارون ﴿وَآتَيۡنَاهُمَا﴾ بعد نجاتهما وقومهما وإهلاك عدوّهما ﴿ٱلۡكِتَابَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ﴾ والتوراة الواضح لجميع ما يحتاج إليه الناس من المعارف والأحكام والأخلاق وغيرها ﴿وَهَدَيۡنَاهُمَا﴾ بالوحي وإيتاء الكتاب ﴿ٱلصِّرَاطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ ودللناهما على الطريق الواضح إلى قُربنا وخير الدنيا والآخرة وجنات النعيم ﴿وَتَرَكۡنَا﴾ وأبقينا ﴿عَلَيۡهِمَا﴾ حسن الذِّكر والثناء ﴿فِي﴾ الأمم ﴿ٱلۡآخِرِينَ﴾ وهم اُمّة خاتم النبيين ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ وهو كلام الله كما في نظائره ﴿إِنَّا﴾ كما جزيناهما النِّعم العِظام ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي﴾ جميع ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بإحسانهم ﴿إِنَّهُمَا مِنۡ﴾ جملة ﴿عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ * أَتَدۡعُونَ بَعۡلًا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَالِقِينَ [١٢٣ـ١٢٥]

في بيان دعوة إلياس وغيبته

ثمّ ذكر سبحانه رسالة إلياس وكيفية دعوة قومه بقوله: ﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ﴾ بن ياسين من سبط هارون على ما قيل[2] ﴿لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ من جانب الله إلى قومه.

وقيل: إنّه إدريس النبي[3]، وعلى أيّ تقدير: اذكر يا محمد ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ﴾ نُصحاً وإنكاراً عليهم الشِّرك: يا قوم ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله وعذابه على الشِّرك والعِصيان.

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٤٧٩.

٢ و٣. تفسير الرازي ٢٦: ١٦١، تفسير روح البيان ٧: ٤٨١.

روي أنّه بُعِث بعد موسى يوشع بن نون، ثمّ كالب بن يوقنا، ثمّ حزقيل، فلمّا قُبِض حزقيل عظمت الأحداث في بني إسرائيل، ونسوا عهد الله، وعبدوا الأصنام والأوثان، وكانت الأنبياء يبعثون بعد موسى بتجديد ما نسوا من التوراة، وبنو إسرائيل كانوا متفرّقين بأرض الشام، وكان سبط منهم حلّوا ببَعْلَبَك ونواحيها من أرض الشام، وهم السبط الذين كان منهم إلياس، فلمّا أشركوا وعبدوا الصنم وتركوا العمل بالتوراة، بعث الله إليهم إلياس نبياً[1]. فدعاهم إلى التوحيد، وقال لهم: ويلكم ﴿أَتَدْعُونَ﴾ وتَعْبُدون الجَماد الذي سمّيتموه ﴿بَعْلاً﴾ مع أنّه لم يَخلُق ذُباباً ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَالِقِينَ﴾ وتترُكون عبادته، مع أنّه خَلَق السماوات والأرض وغيرهما بقُدرته؟!

قيل: إنّ بعلاً كان اسم صنم لأهل بلدة بك من بلاد الشام، وهو اليوم معروف ببعلبك، وكان من ذهب طوله عشرون ذراعاً وله أربعة أوجه، وفي عينيه يا قوتتان كبيرتان، فُتِنوا به وعظّموه حتى أخدموه أربعمائة سادن، وجعلوهم أنبياء، فكان الشيطان يدخُل جوفه، ويتكلّم بشريعة الضلالة، والسَّدنة يَحْفَظونها، ويُعلّمونها الناس[2].

نقل كلام الفخر وردّه

قال الفخر الرازي: هذا مشكل، لقدحه في كثير من معجزات النبي ﷺ، كتكلّم الذئب والجمل معه[3].

وفيه: أنّ المعجزة دليل الصدق في مورد إمكانه كنبوة نبينا، لا في مورد امتناع الصدق، فمن ادّعى النبوة، ودعا الناس إلى عبادة غير الله، هو كاذب ولو أتى بألف معجزة.

ٱللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَائِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللهِ ٱلْمُخْلَصِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ * إِنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ[١٢٦ ـ ١٣٢]

ثمّ صرّح الناس بالتوحيد ونفي الشرك، حيث فسّر أحسن الخالقين بقوله: ﴿ٱللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَائِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الذين كانوا قبل صُنعكم هذا الصنم، فاذا لم يكُن البَعْل ربّ آبائكم لا يكون ربّكم ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ مع إتمامه الحجّة عليهم عِناداً ولَجاجاً ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ بتكذيب رسولهم ومعارضتهم للحقّ ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ ويدخُلون في النار يوم القيامة، ولا ينجو من اُولئك القوم ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ والموحّدين الذين أخلصهم الله لنفسه ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾.

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٤٨٢.

٢. تفسير روح البيان ٧: ٤٨١.

٣. تفسير الرازي ٢٦: ١٦١.

﴿سَلاَمٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾. قيل: إنّ إلياس وإلياسين واحد، كما أنّ سِيناء وسينين واحد[١]. وقيل: إنّ ياسين اسم والد إلياس، وآله هو إلياس[٢]. وقيل: إنّه جمع اُريد به إلياس وأتباعه المؤمنين به، كما يقال المُهلّبيون[٣].

وقال كثير من مُفسّري العامة: إنّ (يس) اسم النبي صلى الله عليه وآله، والمراد من آل يس آله كما عن ابن عباس[٤].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «إنّ الله سمّى النبي صلى الله عليه وآله بهذا الاسم، حيث قال: **﴿يس والقران الحكيم انك لمن المرسلين﴾** لعلمه أنّهم يُسقطون السلام على آل محمد كما أسقطوا غيره»[٥].

وعن الصادق عليه السلام، عن آبائه، عن علي عليهم السلام ـ في هذه الآية ـ قال: «يس محمد، ونحن آل يس»[٦].

أقول: على هذا الشكل ارتباط الآية بما قبلها وما بعدها من قوله: **﴿إِنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾**.

روى بعض العامة أن إلياس دعا على قومه فقَحَطوا ثلاث سنين، فلم يرتدعوا عن الشرك، فلمّا رأى إلياس منهم ذلك دعا الله أن يُريحه منهم، فقيل له: اخرُج يوم كذا إلى موضع كذا، فما جاءك من شيءٍ فاركبه. فخرج إلياس في ذلك اليوم مع خادمه اليسع، فوصل الموضع الذي اُمر، فاستقبله فرسٌ من النار، فركب عليه، فانطلق الفرس به إلى جانب السماء، فناداه اليسع، ما تأمُرني، فألقى كساءه إليه من الجوّ فرفع الله إلياس، وقطع عنه لذّة المطعم والمشرب، وكساه الريش[٧].

وقيل: إنّه في الأرض غائبٌ عن الانظار كالخِضر، وهما آخر من يموت من بني آدم، وإلياس موكّل بالصحارى، والخِضر موكّل بالبحار[٨].

وَإِنَّ لُوطاً لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزاً فِى ٱلْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ * وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ[١٣٣ـ١٣٨]

قصة لوط عليه السلام

ثمّ ذكر سبحانه لُطفه بلُوط، وغضبه على أعدائه وقومه بقوله: **﴿وَإِنَّ لُوطاً لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾** إلى أهل سَدوم، واذكُر يا محمد **﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾** وعياله

---

١. تفسير الصافي ٤: ٢٨٢، تفسير روح البيان ٧: ٤٨٢.
٢. تفسير الصافي ٤: ٢٨٢، تفسير روح البيان ٧: ٤٨٢.
٣. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٢، تفسير أبي السعود ٧: ٢٠٤.
٤. جوامع الجامع: ٤٠١.
٥. الاحتجاج: ٢٥٣، تفسير الصافي ٤: ٢٨٢.
٦. معاني الأخبار: ٢/١٢٢، تفسير الصافي ٤: ٢٨١.
٧. تفسير روح البيان ٧: ٤٨٣.
٨. تفسير روح البيان ٧: ٤٨٣.

﴿أَجْمَعِينَ﴾ من العذاب ﴿إِلَّا﴾ امرأةً ﴿عَجُوزاً﴾ مُسنةً، قدَرنا أن تكون ﴿فِي ٱلْغَابِرِينَ﴾ والباقين في العذاب والهلاك، أو في الماضين والهالكين ﴿ثُمَّ﴾ بعد انجانهم ﴿دَمَّرْنَا﴾ وأهلكنا بالعذاب ﴿ٱلآخَرِينَ﴾ من قومه بكفرهم وطُغيانهم ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكّة والله ﴿لَتَمُرُّونَ﴾ في أسفاركم إلى الشام ﴿عَلَيْهِم﴾ وعلى ديارهم المخروبة ومنازلهم المنهدمة حال كونهم ﴿مُصْبِحِينَ وَ﴾ مُتلبّسين ﴿بِاللَّيْلِ﴾ قيل: إنّ المراد تعميم الأوقات يعني ليلاً ونهار[١] ﴿أَ﴾ تُشاهدون ذلك ﴿فَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ولا تدركون أنّهم كانوا مثلكم في الكفر والعصيان؟ فتخافوا أن ينزل بكم ما نزل بهم، وأن يُصيبكم مثل ما أصابكم من العذاب.

عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية فقال: «تمرُّون عليهم في القرآن إذا قرأتم القرآن تقرأون ما قصّ الله عليكم من خبرهم»[٢].

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِن يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ[١٣٩ـ١٤٨]

قصة يونس بن متىٰ عليه السلام

ثمّ ذكر سبحانه قصة يونس بن متىٰ بقوله: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ﴾ بن متّى، الملقب بذي النون من أولاد هود على ما قيل[٣] ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ من الله إلى بقية قوم ثمود بنينوى من بلاد الموصل على ما قيل[٤]، وعن ابن عباس: أنه كان يسكن فِلَسْطين[٥]. واذكُر يا محمد ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ وهرب يونس من قومه خجلاً أو خوفاً من أن يَظُنّوه كاذباً في وعيده بإهلاكهم بلا انتظار الوحي إلى ناحية البحر، فانتهى ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ والمملوء من الناس والمتاع.

رُوي أنّه لما دخل السفينة وتوسّط البحر، واحتبست من الجري ووقفت، فقال الملاحون: هنا عبد آبق من سيده، وهذا رسم السفينة إذا كان آبقٌ لا تجري[٦].

وقيل: إنّهم قالوا: إنّ فيكم عاصياً، وإلّا لم يحصُل ما نراه من غير ريحٍ ولا سببٍ ظاهرٍ، وقال التجّار:

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٤٨٥.
٢. الكافي ٨: ٢٤٩/٣٤٩، تفسير الصافي ٤: ٢٨٢.
٣. تفسير روح البيان ٧: ٤٨٦.
٤. تفسير روح البيان ٧: ٤٨٦.
٥. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٤.
٦. تفسير روح البيان ٧: ٤٨٧.

قد جرّبنا مثل هذا، فاذا رأينا ذلك نقرَع، فمن خرج اسمه نرميه في البحر، لأنّ غَرَق الواحد خيرٌ من غَرَق الكلّ [١].

﴿فَسَاهَمَ﴾ وأقرع أهل السفينة، أو يونس مع أهل الفُلك ثلاث مرات ﴿فَكَانَ﴾ يونس ﴿مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ والمغلوبين بالقُرعة، فقال يونس: أنا العبد الآبق، وأنا والله العاصي، فتلفّف في كِسائه، وقام على رأس السفينة، فرمى بنفسه في البحر [٢]. ﴿فَٱلْتَقَمَهُ﴾ وابتلعه ﴿ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ نفسه على خروجه من بين قومه بلا إذن من الله تعالى.

عن الباقر عليه السلام، قال: «إنّه لمّا رَكِب مع القوم، فوقفت في اللُّجّة، واسْتَهَموا فوقع السَّهم على يونس ثلاث مرات، فمضى يونس إلى صدر السفينة، فاذا الحوت فاتح فاه، فرمى بنفسه» [٣].

وفي رواية عن الصادق عليه السلام: «فلمّا توسطوا البحر، بعث الله حوتاً عظيماً، فحبس عليهم السفينة، فنظر إليه يونس، ففزِع منه، وصار إلى مُؤخرَ السفينة، فدار إليه الحوت، ففتح فاه، فخرج أهل السفينة فقالوا: فينا عاصٍ، فتساهموا فخرج سَهْم يونس، وهو قول الله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ فأخرجوه، وألقوه في البحر، فالتقمه الحوت، ومرّ به في الماء» [٤].

رُوي أنّ الله تعالى أوحى إلى السمكة: أنّي لم أجعله لك رزقاً، ولكن جعلت بطنك له وِعاءً، فلا تكسري منه عظماً، ولا تقطعي منه وصلاً [٥].

قيل: فسَفَل به إلى قرار الأرضين حتى سَمِع تسبيح الحصى [٦]، فمكث في بطنه أربعين ليلة [٧]. وقيل: شهراً، وقيل: عشرين يوماً. وقيل: سبعة أيام. وقيل: ثلاثة أيام [٨]. وكان يسبّح الله بقوله: ﴿لا اله إلا أنت سبحانك إنّي كنتُ من الظالمين﴾.

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ والذاكرين الله كثيراً بالتسبيح، أو من القائمين بحقوق الله قبل البلاء ﴿لَلَبِثَ﴾ ومَكَث حياً أو ميتاً ﴿فِى﴾ جوف الحوت و﴿بَطْنِهِ﴾ من حين دخوله فيه ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ من القبور للحساب وجزاء الأعمال، أما ببقائهما حيّين أو ميتين فيكون بطن الحوت قبر يونس، ولكن لم يَلْبَث لكونه من المسبّحين، وفيه الحثّ على ذكر الله بالتسبيح والتهليل.

---

١. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٤، تفسير روح البيان ٧: ٤٨٧.
٢. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٥، تفسير روح البيان ٧: ٤٨٧.
٣. من لا يحضره الفقيه ٣: ١٧٣/٥١، تفسير الصافي ٤: ٢٨٣.
٤. تفسير القمي ١: ٣١٨، تفسير الصافي ٤: ٢٨٣.
٥. تفسير روح البيان ٧: ٤٨٧.
٦. تفسير روح البيان ٧: ٤٨٧.
٧. تفسير أبي السعود ٧: ٢٠٦، تفسير روح البيان ٧: ٤٨٧.
٨. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٥.

رُوي عن ابن عباس أنّ السمكة أخرجته إلى نِيل مِصر، ثمّ إلى بحر فارس، ثمّ إلى بحر البطائح، ثمّ إلى دجلة[١].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنّ الحوت قد طاف به في أقطار الأرض والبحار، ومرّ بقارون»[٢].

عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «يسبّح يونس في بطن الحوت، فسَمِعت الملائكة تسبيحه، فقالوا: ربّنا إنّا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرضٍ غريبةٍ؟ فقال: ذلك عبدي يونس، عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر، فقالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك [منه] في كلّ يومٍ وليلةٍ عمل صالح؟ فقال: نعم، فشفعوا له، فأمر الحوت فقذفه في الساحل، فذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾»[٣]. وألقيناه ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ والمكان الخالي من الشجر والنبات ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ وعليلٌ لضعف بدنه، حيث إنّه صار كالفَرْخ المنتوف لا لحم له ولا شعر. قيل: سقيم بمعنى سليب[٤]. قيل: ألقاه الحوت بأرض نصيبين[٥] ﴿وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِن يَقْطِينٍ﴾ وقَرْع لتُظلّه من الشمس، وتمنع بدنه من الذُّباب، فانّه على ما قيل لا يقع عليه الذُّباب[٦]. وكان يأكل من ثمرها حتى تشدّد.

رُوي أنّه قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله: إنّك تُحِب القَرْع؟ قال: «بلى، هي شجرة أخي يونس»[٧].

عن الباقر عليه السلام، قال: «لَبِث يونس في بطن الحوت ثلاثة أيّام ـ إلى أن قال ـ: فاخرجه الحوت وألقاه بالساحل، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين ـ وهو القَرْع ـ فكان يَمُصّه ويستظلّ به وبورقه، وكان تساقط شعره، ورقّ جلده»[٨].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «فأمر الحوت أن يلفِظه على ساحل البحر، وقد ذهب جلده ولحمه، وأنبت الله عليه شجرةً من يقطين ـ وهي الدُّبّاء ـ فأظلّته من الشمس فسكن، ثمّ أمر الله الشجرة فتنحّت عنه، ووقعت الشمس عليه فجزِع، فأوحى الله إليه: يا يونس، لم ترحم مائة ألف أو يزيدون، وأنت تَجْزَع من ألم ساعة! قال: ربّ عفوك عفوك، فرّد الله عليه بدنه»[٩].

وعن الباقر عليه السلام ـ في رواية ـ: «فلمّا قوي وأشتدّ بعث الله دودةً فأكلت أسفل القَرْع، فذَبَلت القرعة، ثمّ يَبِست، فشَقّ ذلك على يونس، فظلّ حزيناً، ثمّ أوحى الله إليه مالك حزيناً يا يونس؟ قال: يا ربّ هذه الشجرة التي كانت تنفعني، فسلّطت عليها دودةً فيَبِست. قال: يا يونس، أحزِنت لشجرةٍ لم

---

١. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٥.
٢. تفسير نور الثقلين ٤: ٤٣٥.
٣. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٥، تفسير روح البيان ٧: ٤٨٨.
٤. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٦.
٥. تفسير روح البيان ٧: ٤٨٨.
٦. تفسير البيضاوي ٢: ٣٠٢، تفسير روح البيان ٧: ٤٨٩.
٧. تفسير البيضاوي ٢: ٣٠٢، تفسير أبي السعود ٧: ٢٠٦، تفسير روح البيان ٧: ٤٨٩.
٨. تفسير القمي ١: ٣١٩، تفسير الصافي ٤: ٢٨٤.
٩. تفسير القمي ١: ٣١٩، تفسير الصافي ٤: ٢٨٤.

تزرعها، ولم تَسْقِها، ولم تُعْنَ[١] بها أن يَبِست حين استغنيتَ عنها، ولم تحزن لأهل نينوى، أكثر من مائة ألف أردتَ أن ينزل عليهم العذاب»[٢].

وقيل: إنّ اليقطين كلّ شجرة لا تقوم على ساق، وتمتدّ على وجه الأرض كالدُّبّاء والحَنْظل والبِطّيخ[٣] وقيل: إنّه قيل عند ابن عباس هو ورق القَرْع. فقال: ومن جعل القَرْع بين الشجر يقطيناً؟ كلّ ورقةٍ اتسعت وسترت فهي يقطين[٤].

وقال: أنبت الله عليه شجرةً من يقطين، فكان يستظلّ بها، ويأكُل من ثمرها حتى تشدّد، ثمّ إنّ الأرَضَة أكلتها، فخرّت من أصلها، فحزِن يونس لذلك حُزناً شديداً، فقال: يا ربّ كنت استظلّ تحت هذه الشجرة من الشمس والريح، وامُصّ من ثمرها، وقد سقطت؟ فقيل له: يا يونس، تَحْزَن على شجرةٍ أُنبتت في ساعة، وقُلِعت في ساعة، ولا تحزن على مائة ألف أو يزيدون تركتهم، فانطلق إليهم[٥].

وفي الرواية الباقرية عليه السلام: «قال الله تعالى: إنّ أهل نينوى آمنوا واتّقوا، فارجع إليهم»[٦]. كما قال سبحانه: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ﴾ ثانياً إلى قومه الذين خرج من بينهم، وكان عددهم بالغاً ﴿إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ﴾ نفس ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ على مائة ألف بثلاثين ألف، كما عن الصادق عليه السلام[٧]، أو بعشرين ألف في نظر الرائي وتقديره[٨].

قيل: إنّ المراد إرساله فيهم قبل التقامه الحوت حيث إنّه أخبر أولاً بأنّه من المرسلين، والواو لمطلق الجمع[٩]، وذكره بعد قصة هربه وما بعده، للدلالة على مقدار مَن أرسل إليهم عدداً. وقيل: إنّه لم يكن قبل التقامه الحوت نبياً، وكانت رسالته بعده[١٠].

عن ابن عباس، قال: إنّه كان يسكُن مع قومه فِلَسْطين، فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصفاً، وبقي سبطان ونصف، وكان الله أوحى إلى بني إسرائيل: إذا أسَرَكم عدوّكم أو أصابتكم مُصيبة، فادعوني استَجِب لكم. فلمّا نَسُوا ذلك وأُسِروا، أوحى تعالى بعد حين إلى نبيّ من أنبيائهم: أن اذهب إلى مَلِك هؤلاء الأقوام وقل له حتّى يبعث إلى بني إسرائيل نبياً. فاختار يونس [لقوّته] وأمانته. قال يونس: الله أمرك بهذا؟ قال: لا، ولكن اُمرت أن أبعث قوياً أميناً وأنت كذلك. فقال

---

١. في تفسير القمي: تعي.
٢. تفسير القمي ١: ٣١٩، تفسير الصافي ٤: ٢٨٤.
٣. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٦، تفسير أبي السعود ٧: ٢٠٦.
٤. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٦.
٥. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٥.
٦. تفسير القمي ١: ٣٢٠، تفسير الصافي ٤: ٢٨٥.
٧. تفسير الصافي ٤: ٢٨٤.
٨. تفسير روح البيان ٧: ٤٨٩.
٩. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٦.
١٠. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٣.

يونس: وفي بني إسرائيل من هو أقوى منّي، فلم لا تبعثه؟ فألحّ المَلِك عليه، فغَضِب يونس منه، وخرج حتّى أتى بحر الروم، ووجد سفينة مشحونةً[1]. وذكر قصة الحوت، قال: كانت رسالته بعد ما نبذه الحوت[2].

أقول: هذا مخالف لرواياتنا.

رُوي أنّ يونس خرج من العراء ومرّ بجانب نينوىٰ، فرآى هناك غلاماً يرعى، فقال له: من أنت يا غلام؟ فقال: من قوم يونس. قال: فاذا رجعت إليهم فاقرأ عليهم منّي السلام، وأخبرهم أنّك لقيت يونس ورأيته. فقال الغلام: إن تكن يونس [فقد] تعلم أنّ من يحدّث ولم تكن له بينةٌ قتلوه، وكان في شريعتهم أن من كَذَب قُتِل، فمن يشهد لي؟ فقال له يونس: تشهد لك هذه الشجرة وهذه البُقعة. فقال الغلام ليونس: مُرهما بذلك؟ فقال: إذا جاءكما هذا الغلام فاشهدا له. قالتا: نعم. فرجع الغلام إلى قومه، فأتى المَلِك، فقال: إني لَقيت يونس، وهو يقرأ عليكم السلام، فأمر المَلِك أن يُقتَل. فقال: إنّ لي بينةً. فأرسل معه جماعة، فانتهوا إلى الشجرة والبُقعة. فقال لهما الغلام: أنشدكما الله عزّ وجلّ هل أشهدكما يونس؟ قالتا: نعم. فرجع القوم مذعورين، فأتو المَلِك فحدّثوه بما رأوا، فتناول المَلِك يد الغُلام فأجلسه في منزله، وقال له: أنت أحقّ مني بهذا المقام والمُلك؟ فأقام بهم الغلام أربعين سنة[3].

وعن الباقر عليه‌السلام - في رواية - «فانطلق يونس إلى قومه، فلمّا دنا من نينوىٰ، استحيى أن يدخل، فقال لراعٍ لقيه: إئت أهل نينوا فقل لهم: إنّ هذا يونس قد جاء. فقال الراعي: أتكذِب، أما تستحي ويونس قد غَرِق في البحر وذهب؟ قال يونس: اللهمّ إنّ هذه الشاة تشهد لك أنّي يونس. وأُنطقت الشاة له بأنّه يونس، فلما أتى الراعي وأخبرهم أخذوه وهمّوا بضربه. فقال: إنّ لي بينةً أقول. قالوا: فمن يشهد لك؟ قال: هذه الشاة تشهد. فشَهِدت بأنّه صادق وأن يونس قد ردّه الله إليكم. فخرجوا يَطْلُبُونه، فوجدوه فجاءوا به ﴿فَآمَنُوا﴾ بيونس بعد رجوعه إليهم وحسن إيمانهم» كما عن الباقر عليه‌السلام[4].

وروى بعض العامة أنّ قومه آمنوا فسألوه أن يرجِع إليهم فابى يونس، لأنّ النبي إذا هاجر لم يرجِع إليهم مقيماً فيهم[5].

وقيل: إنّ المراد فآمنوا بالله بعد مشاهدتهم آثار نزول العذاب[6]، وتابوا من الشرك والعصيان ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ﴾ ونفعناهم بالحياة الدنيا ونعمها ﴿إِلَى حِينٍ﴾ قدّرناه لهم، والوقت الذي جعلناه أجلاً

---

١. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٤.
٢. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٦.
٣. تفسير روح البيان ٧: ٤٨٩.
٤. تفسير القمي ١: ٣٢٠، تفسير الصافي ٤: ٢٨٥.
٥. تفسير روح البيان ٧: ٤٩٠.
٦. تفسير أبي السعود ٧: ٢٠٦، تفسير روح البيان ٧: ٤٨٩.

لكلّ واحدٍ منهم، وإنّما أخّر سبحانه قصة يونس، لأنّ في قصص سائر الأنبياء ترغيب إلى الصبر وتحمُّل الأذىٰ، وفي قصته تهديد على قلّة الصبر، والترغيب مقدّمٌ على الترهيب، كذا قيل[1].

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلاَئِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ[١٤٩ و ١٥٠]

ثمّ لمّا ذكر سبحانه أدلة التوحيد والمعاد، ووصف ذاته المقدسة بنعوت الكمال وغاية العظمة والجلال والتفرُّد بالخلق والربوبية، وبّخ قريشاً وبني مُلَيح وجُهينة وخُزاعة وبني سَلَمَة القائلين بأنّ الملائكة بنات الله بقوله: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ يا محمّد واستطلع رأيهم على سبيل التوبيخ والتجهيل ﴿أَلِرَبِّكَ﴾ الخالق لجميع الموجودات الغنيّ عن الكائنات ﴿ٱلْبَنَاتُ﴾ من الأولاد مع استنكافهم منهنّ بحيث يقتلونهنّ إذا ولدن لهم أو يَدفنونهن أحياء ﴿وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ الذين هم أرفع الأولاد بحيث يفتخرون بهم؟! لا يمكن ذلك أبداً، فانّ الخالق لا يختار لنفسه الأحسن، ولمخلوقاته الأرفع.

قيل: إنّهم قالوا: إنّ الله تعالى تزوّج من الجنّ، فخرجت منها الملائكة، فهم بنات الله، لذا سُتِرن من العيون[2].

ثمّ بالغ سبحانه في توبيخهم وتبكيتهم بقوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلاَئِكَةَ﴾ الذين هم أشرف الموجودات وأبعدهم من الصفات الجسمانية والرذائل الطبيعية ﴿إِنَاثاً﴾ مع أنّ الأنوثة من خسائس صفات البشرية ﴿وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ أنوثتهم، فانّ الحكم بأنوثة حيوانٍ لا يمكن إلّا بالمشاهده، لعدم الطريق للعقل إلى دَرْك الأمور الجُزئية، وعدم نقل ممّن شاهد الملائكة كالأنبياء والرسل، مع أنّهم يُنكرون رسالة البشر.

أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ * فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ[١٥١ ـ ١٥٧]

ثمّ أنّ الأقبح من إسناد الأنوثة إلى الملائكة إسناد الولادة إلى الله الخالق لجميع الموجودات الغنيّ عن الكائنات، ولذا أعلن في العالم بغاية جهالتهم بقوله: ﴿أَلَا﴾ تنبهوا أيها العقلاء ﴿إِنَّهُم مِّنْ﴾ أجل

---

١. تفسير الرازي ٢٦: ٢٦٣، تفسير روح البيان ٧: ٤٩١.

٢. تفسير روح البيان ٧: ٤٩١.

﴿إِفْكِهِمْ﴾ وتوغّلهم في الباطل، وحِرصهم على أسوأ الكذب وأقبح الافتراء ﴿لَيَقُولُونَ﴾ ما تَشْـهَد العقُول على بُطلانه وفساده، وهو قولهم: إنّه ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ الملائكة ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في قولهم كذباً لا يَشُكّ فيه ذو مُسكة، لوضوح أنّ الولادة من خصائص الجسمانيات، والله خالق جميع الأجسام وغيرها من الموجودات، مع أنّ طلب الولد من لوازم الحاجة، والله تعالى هو الغنيّ المطلَق له ما في السماوات والأرض.

ثمّ على فرض المُحال إمكان الولادة منه تعالى ﴿أَصْطَفَى﴾ وهل اختار لنفسه ﴿ٱلْبَنَاتِ﴾ التي هي أحسن الأولاد ﴿عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ الذين هم أكمل الأولاد، مع أنّه تعالى أكمل الموجودات، ولا يمكن للأكمل أن يختار لنفسه إلّا الأكمل ﴿مَا لَكُمْ﴾ أيّها الجُهّال ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ على الله القادر على كلّ شيء الغنيّ عن كلّ شيء بهذا الحكم الذي تحكم ببطلانه بديهة العقل، ويتنفر منه جميع العقلاء؟ ﴿أَ﴾ تقولون ذلك القول ﴿فَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ولا تفهمون شناعته، ولا تتنبّهون بنهاية قَباحته؟! أتدّعون اُنوثة الملائكة بهوى أنفسكم، أو بتقليد آبائكم وكُبرائكم ﴿أَمْ لَكُمْ﴾ على هذه الدعوى ﴿سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ وحُجّةٌ واضحةٌ، ودليل قاطعٌ من أخبار نبيّ أو كتاب مُنزل عليكم من السماء، فيه بيان صفات الملائكة؟! فان نزل عليكم كتاب ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ الناطق بصحّة دعواكم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تدّعون من كون الملائكة إناثاً، وفي نزول الكتاب إليكم.

وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَانَ ٱللهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللهِ ٱلْمُخْلَصِينَ [١٥٨ـ ١٦٠]

ثمّ أنّ جمعاً من الزنادقة[١] كانوا قائلين على ما قيل بأنّ الشيطان أخ الله، فالله تعالى خالق الخير، والشيطان خالق الشر[٢]. فوبّخهم الله سبحانه على هذا القول بقوله: ﴿وَجَعَلُوا﴾ بهوى أنفسهم ﴿بَيْنَهُ﴾ تعالى ﴿وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ﴾ والشياطين ﴿نَسَباً﴾ خاصاً، وهو القرابة بالأُخوة.

وقيل: إنّ المراد بالجِنّة جماعة الجنّ[٣]، وبالنسب المصاهرة والمزاوجة، كما مرّ حكايته عن بعض المشركين. قيل: إنّ كفار قريش لمّا قالوا: الملائكة بنات الله. قال أبو بكر: فمن أُمهاتهم؟ قالوا: سَرَوات

---

١. وهم المجوس القائلون بيزدان وأهرمن، كما في تفسير الرازي.
٢. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٨، تفسير أبي السعود ٧: ٢٠٨.
٣. في النسخة: بالجنة الأجنة، وما أثبتناه من تفسير روح البيان، ذلك لأن الأجنة جمع جنين، اما الجن فهي اسم جنس يدل على الجمع، وواحده جني. تفسير روح البيان ٧: ٤٩٢.

الجن[١].

وقيل: إنّ المراد بالجِنّة الملائكة، لاجتنانهم واختفائهم عن الأبصار[٢]، والنسب الولادة حيث قالوا: إنّ الملائكة بنات الله.

ثمّ ردّهم الله بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ﴾ بالمعنى الأول والثاني ﴿إِنَّهُمْ﴾ أنفسهم ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ في النار، والمعذّبون فيها، ولو كان الشياطين اُخوة الله أو الجنّ[٣] أزواجه ما اُحضروا في النار، وعلى الوجه الثالث يكون مرجع ضمير الجمع القائلون بكون الملائكة بنات الله، ثمّ نزّه سبحانه ذاته المقدسة عن تلك النِّسب القبيحة غير اللائقة بالاُلوهية بقوله: ﴿سُبْحَانَ ٱللهِ﴾ وتنزّه واجب الوجود ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ به وينسُبون إليه من الولد والأخ والزوج.

وقيل: إنّ التسبيح من الملائكة، والمراد: ولقد علمت الملائكة أنّ المشركين لمُحضرون، وقالوا: سبحان الله عما يصفون[٤]. ثمّ استثنوا أنفسهم عن أولئك الواصفين بقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ والمعنى: ولكن عباد الله المُخْلَصين الذين نحن منهم براء من ذلك التوصيف، بل نصفه بالصفات العليا، وعلى كونه كلام الله يكون المعنى: ولكن عباد الله المُخْلَصين لا يصفونه بتلك الصفات.

وقيل: إنّ الاستثناء راجعٌ إلى ضمير الجمع في (محضرون) والمعنى لكن عباد الله المخلصين لا يُحْضَرون، بل هم ناجون[٥].

وقيل: إن الاستثناء من معنى ضمير الجمع في قوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَباً﴾[٦] والأقرب هو الوجه الثاني.

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ * وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ [١٦١ ـ ١٦٤]

ثمّ عاد سبحانه إلى خطاب المشركين، ونبّههم بأنّ إضلالهم الناس لا أثر له إلّا فيمن قدّر الله دخوله في النار بقوله: ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ من دون الله من الأصنام وغيرها ﴿مَا أَنتُمْ﴾ بتوصيفكم الله بصفاتٍ غير لائقةٍ بجنابه ﴿عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴾ ومُضلّين أحداً من الناس ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ﴾ في علم الله وتقديره ﴿صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ ومُلقٍ نفسه فيها في الآخرة لخُبث ذاته وسوء اختياره ورذالة

---

١. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٨، تفسير أبي السعود ٧: ٢٠٩.
٢. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٨، تفسير روح البيان ٧: ٤٩٣.
٣. في النسخة: أو الأجنة.
٤. تفسير أبي السعود ٧: ٢٠٩، تفسير روح البيان ٧: ٤٩٤.
٥. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٩.
٦. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٩.

صفاته.

قيل: إنّ كلمة (الواو) في قوله: **﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾** بمعنى مع، والجملة خبر كلمة (إنّ)[١] والمعنى: إنّكم دائماً مع ماتعبُدون لا تُفارقونه ولا تترُكون عبادته أبداً، وإنّ ضمير (عليه) راجع إلى كلمة (ما) في (وما تعبدون) والمعنى: ما أنتم أيّها المشركون على ما تعبُدون بفاتنين وبباعثين وحاملين على طريق الفتنة والاضلال إلّا من هو صال الجحيم مثلكم[٢].

ثمّ ردّ الله سبحانه القائلين بكون الملائكة بنات الله بما يُظهِر الملائكة المقرّبون في مقام العبودية والانقياد للخدمة من قولهم: **﴿وَمَا مِنَّا﴾** أحدٌ **﴿إِلَّا﴾** ويكون **﴿لَهُ مَقَامٌ﴾** وشُغل معينٌ في إصلاح العالم، وعبادة موظّفة كلّها **﴿مَعْلُومٌ﴾** لنا لا نقدِر أن نتجاوز ولا نستطيع أن ننزل منه خضوعاً لعظمة الله، وخُشوعاً لهيبته وتواضعاً لجلاله.

رُوي أنّ منهم راكعاً لا يُقيم صُلبه، وساجداً لا يرفع رأسه[٣]. وعن ابن عباس: ما في السماوات موضع شِبر إلّا وعليه مَلَك يُصلّي ويُسبّح[٤].

وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ * وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ ٱللهِ ٱلْمُخْلَصِينَ * فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ[١٦٥ ـ ١٧٠]

ثمّ بيّنوا قيامهم للخدمة بقولهم: **﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّافُّونَ﴾** لأداء الطاعة والاشتغال بالخدمة **﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾** لله، ومنزّهونه عن الشريك والولد، وسائر ما لا يليق بمقام ربوبيته ووجوب وجوده. قال بعض العامة: الأوّل إشارة إلى درجاتهم في الطاعة، والثاني إلى درجاتهم في المعرفة[٥].

وعن (نهج البلاغة) في وصف الملائكة: «صافّون لا يتزايلون، مُسبّحون لا يَسْأمون»[٦].

القمي رحمه الله: قال جَبْرئيل: **﴿إِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾**[٧].

وعن الصادق عليه السلام: «كنّا أنواراً صفوفاً حول العرش، نسبّح فيُسبّح أهل السماء بتسبيحنا، إلى أن هبطنا إلى الأرض فسبّحنا، فسبّح أهل الأرض بتسبيحنا **﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾**»[٨].

---

١. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٩.
٢. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٩.
٣. تفسير روح البيان ٧: ٤٩٥.
٤. تفسير روح البيان ٧: ٤٩٥.
٥. تفسير البيضاوي ٢: ٣٠٤، تفسير الصافي ٤: ٢٨٦.
٦. نهج البلاغة: ٤١، تفسير الصافي ٤: ٢٨٦.
٧. تفسير القمي ٢: ٢٢٧، تفسير الصافي ٤: ٢٨٦.
٨. تفسير القمي ٢: ٢٢٨، تفسير الصافي ٤: ٢٨٦.

قيل: إنّ في قولهم ﴿إِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ دلالة على حَصْر الصفّ في العبادة، والتسبيح بهم، فدلّ على أنّ عبادة غيرهم من الثقلين وتسبيحهم بالنسبة إلى عبادتهم وتسبيحهم كالعدم[1].

وإن كان تأويله في الأئمة عليهم السلام يدلّ على أنّ عباده الملائكة وتسبيحهم في جنب عبادتهم وتسبيحهم كالعدم، أو المراد العبادة الاستقلالية والأولية لا التبعية.

ثمّ وبّخ سبحانه المشركين بخُلفهم ونقضهم العهد بقوله: ﴿وَإِن كَانُوا﴾ قبل بعثه النبي صلى الله عليه وآله ونزول القرآن ﴿لَيَقُولُونَ﴾ اعتذاراً عن شركهم وتقليد آبائهم ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً﴾ وكتاباً ﴿مِنَ﴾ كتب الأمم ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كالتوراة والإنجيل ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ والموحّدين الخالصين، ولما خالفنا كتابنا كما خالفت الأمم كُتبهم، ولمّا لم ينزل علينا كتاب ناطق بالتوحيد وبطلان عبادة الأصنام، قلّدنا آباءنا الأقدمين، وقلنا بما قالوا. فلمّا جاءهم ذِكرٌ هو سيد الأذكار، وكتابٌ مهيمنٌ على سائر الكتب متضمّنٌ للتوحيد والمعارف والحكم والأحكام ودلائل الصدق ﴿فَكَفَرُوا بِهِ﴾ وأنكروا صدقه، ونسبوه إلى الشعر والسحر والكِهانة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وخامة عاقبة كفرهم وسوء نتيجته، وهو الخِذلان والقتل والأسر في الدنيا، والعذاب الأليم الدائم في الآخرة.

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ ٱلْغَالِبُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ * وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ [١٧١ـ١٧٥]

ثمّ أنّ الله تبارك وتعالى بعد تهديد الكفّار والمشركين بالخِذلان والعذاب، ذكر نُصرته لانبيائه عليهم السلام بقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ﴾ ووالله لقد تقدّمتْ في الأزل، أو في اللّوح المحفوظ ﴿كَلِمَتُنَا﴾ ووعدنا ﴿لِعِبَادِنَا﴾ الخُلّصين وأنبيائنا ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلى الناس لهدايتهم ودعوتهم إلى التوحيد، ومعرفة الله بصفات الكمال والجلال، وتلك الكلمة وذلك الوعد هو قولنا: ﴿إِنَّهُمْ﴾ فقط ﴿لَهُمُ ٱلْمَنْصُورُونَ﴾ من قِبَلنا في الدنيا والآخرة على مخالفيهم ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا﴾ وعسكرنا، وهم المرسلون وأتباعهم الذين يحامون عن ديننا وكتبنا ﴿لَهُمُ ٱلْغَالِبُونَ﴾ على أعدائهم بالمال، وإن فُرِضت الجولة والدولة لغيرهم في بُرهة من الزمان، وأمّا الغَلَبة بالحُجّة فهي لهم في جميع الأزمان والأوان، ولا يكون لغيرهم ولو في آن.

ثمّ أنّ الله تبارك وتعالى بعد تقوية قلب نبيّه صلى الله عليه وآله بالنُّصرة، أمره بترك مقاتلة أعدائه بقوله: ﴿فَتَوَلَّ﴾

---

١. تفسير الرازي ٢٦: ١٧١.

يا محمّد، عن المشركين المعاندين، وأعرض ﴿عَنۡهُمۡ﴾ واصبر على أذاهم، ولا تقاتلهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ووقتٍ معينٍ نأمُرك فيه بقتالهم قيل: هو يوم بدر، وقيل: يوم الفتح[١]، ﴿وَأَبۡصِرۡهُمۡ﴾ في ذلك الوقت، أو في الحال على أسوأ حال وأفظع نَكالٍ حلّ بهم من القتل والأسر والأمر بالإبصار في الحال للإيذان بقربه، كأنّه بين يديه يُبصره في الوقت ﴿فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾ وعن قريبٍ يُعاينون ما يحلّ بهم من الشرور.

أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ * فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَاءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ * وَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٍ * وَأَبۡصِرۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ[١٧٦ ـ ١٧٩]

ثمّ لمّا كان في الآية تهديد المشركين بالعذاب، كانوا يقولون استهزاءً به: متى ينزل ذلك العذاب؟ أنكر الله سبحانه عليهم استعجالهم الناشيء عن الجهل بقوله: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا﴾ المستأصل لهم ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ لا والله لا ينبغي الاستعجال به فانّه جهلٌ وسَفَهٌ ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ﴾ وحلّ بِفنائهم ذلك العذاب الموعود كالجيش المُغير على قومٍ ﴿فَسَاءَ﴾ وبئس ﴿صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ بالعذاب.

قيل: إنّ الإغارة لمّا كثّرت من العرب في الصباح، كنّى بالصباح[٢] عن وقت الإغارة، و[إن كان] نزول البلاء والشدة أي وقت كان[٣].

ثمّ أنّه تبارك وتعالى بعد تهديد الكفّار بالعذاب، وكان فيه تقوية قلب النبي ﷺ في معارضة القوم، أكّد سبحانه الأمر بالتولّي والإعراض عنهم إلى زمان نزول العذاب، أو نزول الأمر بقتالهم بقوله: ﴿وَتَوَلَّ﴾ يا محمّد وأعرض ﴿عَنۡهُمۡ﴾ ولا تُقدم على قتالهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ وإلى وقتٍ معلومٍ ﴿وَأَبۡصِرۡ﴾ ما يُفعَل بهم ﴿فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾ وعن قريبٍ يرون ما يُوعدون، وفي إعادته غاية التهديد والتهويل.

وقيل: إنّ المراد من هذا الكلام فيما تقدّم أحوال الدنيا، وهنا أحوال الآخرة[٤].

القمي ﷺ: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ﴾ يعني العذاب إذا نزل ببني اُمية وأتباعهم في آخر الزمان، قوله: ﴿فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾ قال: أبصروا حين لا ينفعهم البصر. قال: فهذه في أهل الشُّبهات والضلالات من أهل القبلة[٥].

---

١. تفسير الرازي ٢٦: ١٧٢، تفسير الصافي ٤: ٢٨٧. ٢. في النسخة: الصباح.
٣. تفسير أبي السعود ٧: ٢١١، تفسير الصافي ٤: ٢٨٨، تفسير روح البيان ٧: ٤٩٩. ٤. تفسير الرازي ٢٦: ١٧٣.
٥. تفسير القمي ٢: ٢٢٧، تفسير الصافي ٤: ٢٨٨.

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ [١٨٠ ـ ١٨٢]

ثمّ أنّه تعالى بعد حكاية مقالات المشركين ودفعها، ووعد الرسل بالغلبة والنُّصرة، وأكّد تنزيه ذاته المقدّسة عمّا يقول الظالمون بقوله تعالى: **﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾** يا محمّد، ونزّهه غاية التنزيه، وهو أيضاً **﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾** والغَلَبة والعظمة ومالكها وصاحبها، فلا عزّة إلّا له، ولا غَلَبة إلّا منه، فهذا الربّ مستحقٌّ للتنزيه **﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾** به أُولئك المشركون، وينسُبون إليه ممّا لا يليق بساحة كبريائه من الشُّركاء والأزواج والأولاد، وخُلف الوعد بالعذاب على الأعداء والنُّصرة للأولياء.

ثمّ أعلن سبحانه بإكرامه لرُسله، وإن أهانهم أعداؤهم، بالتسليم على عامّتهم من آدم إلى الخاتم بعد التسليم على عدّةٍ من أُولى العزم منهم، كنوحٍ وإبراهيم وموسى بقوله: **﴿وَسَلَامٌ﴾** من الله المنبيء بالأمان من جميع المكاره الدنيوية والأُخروية، والفوز بجميع المقامات العالية **﴿عَلَى﴾** جميع الأنبياء **﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾** و المبعوثين من جانب الله لهداية الخلق ونشر الشرائع.

في الحديث: «إذا سلّمتم عليّ فسلّموا على المرسلين، فانمّا أنا منهم»[١].

وروي عنه صلى الله عليه وآله: «إذا صلّيتم عليّ فعمّوا»[٢].

ثمّ أتبع سبحانه تنزيه ذاته ولُطفه وإكرامه بعباده المرسلين، بالثناء الجميل على نفسه بقوله: **﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾** على تكميل نِعمه على المرسلين، وإفاضته عليهم من فنون الكرامات السَّنية والكمالات الدينية والدنيوية، وعلى أتباعهم من الآلاء الظاهرية والباطنية الموجبة لحمده.

قيل: إنّ اختصاص الحمد بذاته دالٌّ على اختصاص جميع الكمالات به، وأنّه لا كمال لأحدٍ إلّا وهو منه وراجعٌ إليه، وكُلّ النِّعم منه فلا مُنعم غيره[٣].

وقيل: في هذه الآية إشارة إلى وصفه بالصفات الثبوتية بعد التنبيه على اتّصافه بالصفات السَّلبية، وإيذان باستثناءٍ بالأفعال الجميلة التي منها إكرام الرسل والمؤمنين بهم بأسنى الكرامات، وفيها إشعارٌ بتحقّق النصر والغَلَبة للرسولّ. وفي الآيات تعليم كيفية تسبيحه تبارك وتعالى، والتسليم على الرسل، وتحميده[٤].

روىٰ بعض العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام: «من أحبّ أن يكتال بالمِكيال الأوفى من الأجر يوم

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٧: ٥٠٠. ٣. تفسير روح البيان ٧: ٥٠٠.
٤. تفسير أبي السعود ٧: ٢١٢، تفسير روح البيان ٧: ٥٠٠.

القيامة، فليكن آخر كلامه من مجلسه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾»[١].

وفي (الكافي) و(الفقيه) ما يقرب منه[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «من قرأ سورة الصافات في كل يوم جمعة، لم يزل محفوظاً من كلّ آفةٍ، مدفوعاً عنه كلّ بليةٍ في الحياة الدنيا، مرزوقاً في الدنيا بأوسع ما يكون من الرزق، ولم يُصبه في ماله وولده ولا بدنه سوءٌ من الشيطان ولا من جبارٍ عنيدٍ، وإن مات في يوم أو ليلة بعثه الله شهيداً وأماته شهيداً وأدخله الجنة مع الشهداء في درجة من الجنة»[٣].

وعن الكاظم عليه السلام: «أنّها لم تُقرأ عند مكروبٍ من موت إلّا عجّل الله راحته»[٤].

قد تمّ تفسير السورة المباركة ولله الحمد.

---

١. تفسير البيضاوي ٢: ٣٠٥، تفسير أبي السعود ٧: ٢١٢، تفسير روح البيان ٧: ٥٠٠.
٢. الكافي ٢: ٣/٣٦٠، عن الباقر عليه السلام، من لا يحضره الفقيه ١: ٩٥٤/٢١٣، تفسير الصافي ٤: ٢٨٨.
٣. ثواب الأعمال: ١١٢، مجمع البيان ٨: ٦٨١، تفسير الصافي ٤: ٢٨٨.
٤. الكافي ٣: ٥/١٢٦، تفسير الصافي ٤: ٢٨٩.

في تفسير سورة صٓ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ * بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ[١ و ٢]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة الصافّات المبدوءة بتعظيم التالين للذكر، وبيان التوحيد والمعاد بالأدلّة القاطعة، وتعجّب النبيّ ﷺ من عدم إيمان المشركين بهما، المتضمنة لحكاية مُخاصمة أهل النار بعضهم مع بعضٍ، وذكر مسكن المؤمنين في الآخرة وطعامهم وشرابهم ومنكوحهم، ومسكن المشركين في الآخرة ومأكولهم ومشروبهم، وحكاية ألطاف الله بجماعة من الأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وهارون وإلياس ولوط ويونس، نُظِمت بعدها سورة صَ المبدوءة بتعظيم القرآن بالحَلْف به، وبيان كونه الذكر، وتعجّب المشركين من رسالة محمّد ﷺ ودعوته إلى التوحيد، وبيان ألطافه الخاصة بجماعة من الأنبياء كداود وسليمان وأيوب وإبراهيم وبعضٍ آخر منهم، وذكر مسكن المتّقين في الآخرة ومأكولهم ومشروبهم، ومسكن أهل النار ومأكولهم ومشروبهم، وحكاية مخاصمة بعضهم مع بعضٍ، وغير ذلك من المطالب المناسبة للسورة السابقة، فابتدأها على دأبه بقوله تبارك وتعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾:

ثمّ افتتحها بحرف ﴿صٓ﴾ من الحروف المقطّعة، لجلب توجّه الناس إلى المطالب المهمة التي بعدها، قيل: هو اسمٌ للسورة[١]. وقيل: رمزٌ عن الأسماء الحُسنى التي فيها حرف الصاد كصادق، وصمد، وبصير ونظائرها[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّه اسمٌ من أسماء الله، به أقسم الله»[٣].

وقيل: إنّه رمزٌ عن صدق محمدٍ ﷺ في كلّ ما أخبر عن الله، وعليه يكون هو المقسم عليه، وكذا على الوجه الأوّل إذ التقدير بناءً عليه: هذه ص أي السورة المنزلة من الله بطريق الإعجاز[٤].

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢٦: ١٧٤.

٣. مجمع البيان ٨: ٧٢٦، تفسير الصافي ٤: ٢٩٠.

٤. تفسير الرازي ٢٦: ١٧٤.

وعن ابن عباس: أنَ صَ كان بحراً [بمكة و] كان عليه عرش الرحمن، إذ لا ليل ولا نهار[١].

وعن الصادق عليه السلام: «وأمّا صَ فعينٌ تنبع من تحت العرش، وهي التي توضأ النبي صلى الله عليه وآله منها لمّا عُرِج به، ويدخُلها جَبْرئيل كلَ يومٍ دخلةً فينغمس فيها، ثمّ يخرُج منها فينفُض أجنحته، فليس من قطرة تقطُر من أجنحته إلّا خلق الله تبارك وتعالى منها مَلَكاً يُسبّح الله ويُقدّسه ويُكبّره ويَحْمَده إلى يوم القيامة»[٢].

وعنه عليه السلام ـ في حديث المعراج ـ: «ثمّ أوحى الله إلى محمدٍ صلى الله عليه وآله: ادنُ من صاد فاغسل مساجدك وطهّرها، وصلِّ لربك. فدنا رسول الله صلى الله عليه وآله من صاد، وهو ماءٌ يسيل من ساق العرش الأيمن» الخبر[٣].

وعن الكاظم عليه السلام ـ في حديث ـ: أنّه سُئل ما صاد الذي أُمِر أن يغتسل منه ـ يعني النبيّ صلى الله عليه وآله ـ لمّا أُسري به؟ فقال: «عين تنفجر من رُكنٍ من أركان العرش، يقال لها: ماء الحياة، وهو ما قال الله عز وجل: ﴿ص وَٱلْقُرْآنِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾»[٤] والمواعظ والعِبَر، فانّ فيه قَصص الأنبياء والأمم. وقيل: يعني ذي الشرف والذِّكر في ألسنة الناس إلى يوم القيامة[٥]. وقيل: إنّ المُقسَم عليه محذوف، وهو إنّه لحقّ، وإنّ محمداً لصادق[٦]. ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من رؤساء قريش والمُصرّين على مخالفته كائنون ﴿فِى عِزَّةٍ﴾ وحمية وأنَفَة عن قَبول تبعيته، واستكبار عن الاعتراف بنبوته وتصديق كتابه، ﴿وَ﴾ في ﴿شِقَاقٍ﴾ بعيدٍ وعداوةٍ شديدةٍ له.

كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ * وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ [٣و ٤]

ثمّ هدّدهم سبحانه بقوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ وكثيراً ما استأصلنا ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ وفي الأعصار السابقة على عصرهم ﴿مِن قَرْنٍ﴾ وأهل عصرٍ واحدٍ بالعذاب على كُفرهم والمُشاقة مع رسولهم ﴿فَنَادَوْا﴾ ربّهم أو أعوانهم حين نزول العذاب استغاثةً أو توبةً واستغفاراً ليُنجوهم منه ويُغيثوهم من الهلاك، ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿لَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ وليس الوقت وقت الفِرار والخَلاص.

قيل: إنّ قريشاً إذا ضاقت عليهم الأرض في القتال نادوا: مناص مناص، أي اهرُبوا[٧].

ثمّ بيّن سبحانه أنّ من العجائب أنهم استبعدوا ﴿وَعَجِبُوا﴾ من ﴿أَن جَاءَهُم﴾ رسول ﴿مُنذِرٌ﴾

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٢.
٢. معاني الأخبار: ١/٢٢، تفسير الصافي ٤: ٢٩٠.
٣. الكافي ٣: ١/٤٨٥، تفسير الصافي ٤: ٢٩٠.
٤. علل الشرائع: ١/٣٣٥، تفسير الصافي ٤: ٢٩٠.
٥. تفسير الرازي ٢٦: ١٧٥.
٦. تفسير البيضاوي ٢: ٣٠٦.
٧. تفسير روح البيان ٨: ٤.

يُنذرهم من عذاب الله، وهو ﴿مِنْهُمْ﴾ وبشر مثلهم يأكُل ويمشي بينهم، ولم يتعجّبوا من أن تكون المنحوتات آلهة، مع أنّ الثاني من العجائب لا الأول، فلمّا رأوا المعجزات الصادرة منه ﴿وَقَالَ ٱلْكَافِرُونَ هٰذَا﴾ هو ﴿سَاحِرٌ﴾ فيما يُظهره من الخوارق للعادة و﴿كَذَّابٌ﴾ في دعوى الرسالة والتوحيد ونزول الوحي والآيات إليه من السماء، وكون ما يأتي به معجزة أقدره الله عليها للشهادة على صدقه.

أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلٰهاً وَاحِداً إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا وَٱصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هٰذَا إِلَّا ٱخْتِلَاقٌ [٥ ـ ٧]

ثمّ استشهدوا على كذبه بادّعائه التوحيد مع بُعده في زعمهم بقوله: ﴿أَجَعَلَ﴾ محمد ﴿ٱلْآلِهَةَ﴾ الكثيرة التي نَعبُدها ﴿إِلٰهاً وَاحِداً﴾ في زعمه ﴿إِنَّ هٰذَا﴾ [أي] الدعوى ﴿لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ وأمرٌ بعيدٌ عن الأذهان لم يقُل به أحدٌ من آبائنا الأولين. قيل: إنّهم قالوا ثلاثمائة وستين إلهاً لا تكفي لتنظيم اُمور أهل مكة، فكيف ينتظم أمر العالم بإلهٍ واحدٍ[1].

رُوي أنه بعد إسلام حمزة وعمر، جاء أشراف قريش كالوليد بن المُغيرة، وأبي سفيان، وأبي جهل وأضرابهم إلى أبي طالب، وقالوا: يا عبد مَناف، أنت شيخنا وكبيرنا، قد علمت ما فعل هؤلاء السُّفهاء ـ يعنون المسلمين ـ فجئنا لتقضي بيننا وبين ابن أخيك. فاستحضر أبو طالب رسول الله ﷺ وقال: يا بن أخي، هؤلاء قومك يسألونك السؤال فلا تَمِل كلّ المَيل على قومك. فقال ﷺ: «ماذا يسألونني؟» فقالوا: ارفُضنا وارفُض ذكر آلهتنا، ونَدَعك وإلهك. فقال ﷺ: «أرايتم إن أعطيتكم ما سألتم، أتعطونني كلمةً واحدةً تملِكون بها العرب وتدين لكم العجم». قالوا: نعم. قال: «تقولون لا إله إلّا الله» فقاموا وقالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحداً[2].

﴿وَٱنطَلَقَ﴾ وذهب ﴿ٱلْمَلَأُ﴾ من قريش والأشراف ﴿مِنْهُمْ﴾ وهم على ما قيل خمسة وعشرون من مجلس أبي طالب[3] بعد ما شاهدوا تَصَلُّب النبيّ ﷺ في دينه، ويئسوا ممّا كانوا يَرجونه من المصالحة بتوسّط أبي طالب، وقال لهم عُقبة ابن أبي مُعيط على ما قيل: ﴿أَنِ ٱمْشُوا﴾ يا قوم على طريقتكم، وسيروا على مذهبكم، ولا تُكلّموا محمداً بعد، فانّه لا فائدة في مكالمته[4]. ﴿وَٱصْبِرُوا﴾

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٥.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٥، تفسير الرازي ٢٦: ١٧٧، تفسير البيضاوي ٢: ٣٠٧، تفسير أبي السعود ٧: ٢١٥.

٣. تفسير الرازي ٢٦: ١٧٧، تفسير أبي السعود ٧: ٢١٥، تفسير روح البيان ٨: ٥.

٤. تفسير روح البيان ٨: ٦.

واثبتوا ﴿عَلَىٰ﴾ عبادة ﴿آلِهَتِكُمْ﴾ وأصنامكم ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الصبر والثبات على الدين ﴿لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ وأمرٌ يُطلَب.

قيل: يعني أنّ هذا الذي شاهدنا من محمد من أمر التوحيد ونفي آلهتنا لشيءٌ يُراد من جهة إمضائه وإنفاذه لا محالة من غير صارفٍ يلويه ولا عاطف يُثنيه، فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله عن رأيه بواسطة أبي طالب وشفاعته، وحَسْبُكم أن لا تمنعوا عن عبادة آلهتكم بالكلية، فاصبروا عليها، وتحمّلوا ما تسمعون في حقّها من القَدْح وسُوء المقال[١].

وقيل: يعني أنّ هذا الهَتك الذي نراه بآلهتنا، والقدح الذي نسمع فيهم، لأمرٌ يُراد بنا، ومكر يُمكر علينا[٢]، أو المراد أنّ دينكم لشيءٌ يستحقّ أن يُطلَب، فيكون ترغيباً فيه، وتعليلاً للأمر بالصبر[٣]. أو المراد أنّ هذا الذي نرى من محمدٍ من المخالفة لديننا، هو شيءٌ يُراد بنا من حوادث الزمان الذي لامناصَ منه[٤].

وعن الباقر عليه السلام، قال: «أقبل أبو جهل ومعه قومٌ من قريش، فدخلوا على أبي طالب، فقالوا: إن ابن أخيك قد آذانا وآذى آلهتنا، فادْعه وأمُره أن يَكُفّ عن آلهتنا، ونكُفّ عن آلهته. فبعث أبو طالب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فدعاه، فلمّا دخل النبي صلى الله عليه وآله لم يَرَ في البيت إلّا مُشركاً. فقال: السلام على من اتّبع الهدى. ثمّ جلس، فخبّره أبو طالب بما جاءوا له. فقال صلى الله عليه وآله: «وهل لهم في كلمةٍ خيرٌ لهم من هذا، يسودون بها العرب ويطؤون أعناقهم[٥]؟ فقال أبو جهل: نعم، وما هذه الكلمة؟ قال صلى الله عليه وآله: تقولون لا إله إلّا الله، فوضعوا أصابعهم في آذانهم، وخرجوا هُرّاباً وهم يقولون: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾[٦]. قيل: أرادوا من المِلّة مِلّة قريش التي أدركوا آبائهم عليها[٧]. وقيل: أرادوا مِلّة النصارى[٨].

﴿إِنْ هَٰذَا﴾ القول وما هذه الكلمة ﴿إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ وكذبٌ مخترعٌ من قبل نفسه، وباطلٌ لا يقول به عاقل، فانّه لو كان حقّاً لقال به آباؤنا.

ءَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ[٨]

ثمّ أنه تعالى بعد حكاية إنكارهم التوحيد تمسّكاً بكونه خلاف ما عليه آباؤهم، حكى عنهم إنكار نبوة النبي صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿ءَأُنزِلَ﴾ من الله ﴿عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ والكتاب السماويّ ﴿مِن بَيْنِنَا﴾ ونحن أحقّ

---

١. تفسير أبي السعود ٧: ٢١٥، تفسير روح البيان ٨: ٦.
٢ ـ ٤. تفسير روح البيان ٨: ٦.
٥. في النسخة: أقدامهم.
٦. الكافي ٢: ٥/٤٧٤، تفسير الصافي ٤: ٢٩٢.
٧. تفسير الرازي ٢٦: ١٧٨، تفسير روح البيان ٨: ٦.
٨. تفسير الرازي ٢٦: ١٧٨، تفسير البيضاوي ٢: ٣٠٧، تفسير أبي السعود ٧: ٢١٥.

بنزول الذكر منه، لكوننا أكبر[١] سناً، وأكثر سناً، وأكثر مالاً وأعواناً، وأعظم شأناً، وأبسط يداً وأنفذ قولاً من محمد الذي لا مال له ولا ولد ولا أعوان ولا رياسة، وكما فَضّلنا الله عليه بتلك النِّعم الظاهرة، كان عليه أن يُفضّلنا عليه بإنزال الوحي والكتاب ومَنْصِب الرسالة، ومع فرض كونه مساوياً لنا فترجيحه علينا بتلك الكرامات ترجيحٌ بغير مُرجّح، ومن الواضح أنّ هذا الاعتراض ليس إلّا من جهة عدم التأمّل في جهات إعجاز القرآن الموجِب لليقين بكونه كلام الله الخالق لكلّ شيءٍ، وليس ممّا اختلقه محمّد ﷺ من قبل نفسه، وليس ترك تأمّلهم فيه من جهة قطعهم بأنه كلام البشر **﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ﴾** وترديدٍ **﴿مِن ذِكْرِى﴾** وإعجاز كتابي، لا في نبوة محمّد ﷺ، ولو تأمّلوا فيه عَلِموا بأنّه كتابي، ومحمّد رسولي، ومع الشكّ يجب عليهم التأمّل والتفكّر بحُكم العقل **﴿بَل لَمَّا يَذُوقُوا﴾** ولم يطعموا بعدُ **﴿عَذَابِ﴾** فاذا ذاقوا وطَعِموا طَعْمه، عَلِموا أنّ القرآن ذِكري، ومحمداً رسولي، ولمّا كانوا في شكٍّ ولم يذوقوا العذاب على ترك التدبُّر، كانوامذبذبين بين الأوهام، تارةً يقولون إنّه سحرٌ، وأُخرى شعر، وثالثة إنّه كِهانةٌ.

أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ * أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِى ٱلْأَسْبَابِ[٩و ١٠]

ثمّ ردّهم سبحانه بأنّ منصِب النبوة برحمة الله واختياره وإعطائه بيده بقوله: **﴿أَمْ عِندَهُمْ﴾** وبيدهم **﴿خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾** حتّى يُعطوها من شاءوا، ويمنعوها عمّن شاءوا، ويحكموا فيها بآرائهم، فيختاروا للنبوة بعض زُعمائهم ويمنعوك عنها، ليس الأمر كذلك، فانّ النبوة عَطيةٌ من الله، ودرجةٌ عاليةٌ لايقدِر على إعطائها إلّا من لا نهاية لقُدرته، ولا غاية لجُوده، وهو الله العزيز الوهّاب، فانّه الغالب الذي لا يُغالَب، والوهّاب الذي يَهَب ما يشاء لمن يشاء **﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾** حتّى يكون لهم التصرُّف فيهما وفيما بينهما، كيف يشاءون فينصِبون أحداً للنبوة، ويعزِلون منها أحداً، ويُنزلون من السماء مَلَكاً بالوحي أو الكتاب على ما يشاءون؟! كلا ليس لهم ذلك، فان كان لهم ذلك **﴿فَلْيَرْتَقُوا﴾** وليصعدوا **﴿فِى ٱلْأَسْبَابِ﴾** والمعارج التي يتوصّل بها إلى العرش حتّى يجلسوا عليه، و يُدبّروا أمر العالم، ويُنزلوا الوحي على من يَرونه أهلاً له. وفيه نهاية التهكّم، فاذا لم يكن لهم وفي تصرّفهم مُلك السماوات والأرض وما بينهما والسلطنة فيهما، لا يكون بيدهم خزائن الرحمة، وليس لهم إنزال رحمة أو منعها، ولا نَصْب أحدٍ ولا عَزْله.

---

١. في النسخة: أكثر.

وقيل: إنّ المراد بالأسباب الفلكيات، وأستدلّ به على أنّ الفلكيات أسبابٌ للحوادث السُّفلية[١].

جُندٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ ٱلْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ ٱلْأَحْزَابُ * إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ * وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ * وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ[١١ـ١٦]

ثمّ لمّا ذكر سبحانه أنّ المشركين لا يملِكون السماوات والأرض، بيّن عجز الجُند منهم فضلاً عن العشرة والعشرين بقوله: ﴿جُندٌ مَا﴾ وعسكرٌ قليلٌ منهم كلّما كثروا ﴿هُنَالِكَ﴾ وفي ذلك المكان الذي أنكروا التوحيد، وعَجِبوا من رسالتك، وتكلّموا بالكلمات التي لا تَليق بمقامك ﴿مَهْزُومٌ﴾ ومنكسرٌ ومغلوبٌ عن قريبٍ، وذلك الجُند ﴿مِن﴾ جُملة ﴿ٱلْأَحْزَابِ﴾ والجماعات القوية الذين[٢] تحزّبوا واجتمعوا على تكذيب الرسل ومعارضتهم.

وقيل: إنّ (هنالك) إشارةٌ إلى يوم بدر. قال قَتادة: إنّ الله أخبر بمكة أنّه سيُهزم جُند المشركين، فجاء تأويلها يوم بدر. وقيل: يوم الخندق. وقيل: يوم فتح مكة، فانّ مكة هو الموضع الذي ذكروا فيه هذه الكلمات[٣]. فهو إخبار بكونهم منهزمين في مكّة، وهو من المعجزات. وقيل: إنّ المعنى هم كجُند ما من الكفار المتحزّبين على الرسل، مهزومٌ ومكسورٌ عمّا قريب، فلا تُبال بقولهم، ولا تكترث بَهذيانهم[٤].

ثمّ ذكر سبحانه الأحزاب الذين جعل قريش منهم بقوله: ﴿كَذَّبَتْ﴾ كما كذّبتك يا محمّد قومك ﴿قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ ونُوحاً ﴿وَعَادٌ﴾ هُوداً ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ موسى، وهو من كَثْرة ظُلمه، أو قوّته كان ﴿ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ وإنّما وصف فِرعون بهذا الوصف، لأنّه على رواية بعض العامة كانت له أوتاد من حديدٍ يُعذّب الناس عليها بأن يمدّ[٥] من غضِب عليه مستلقياً بين أربعة أوتادٌ ويشدّ[٦] كلّ يدٍ ورجلٍ منه بسارية، وكان كذلك في الهواء بين السماء والأرض حتّى يموت، أو كان يَمُدّ الرجل مستلقياً على الأرض، ثمّ يشُدّ يديه ورجليه ورأسه على الأرض بالأوتاد[٧].

وقيل: إنّه كان يَمُدّ المُعذّب بين أربعة أوتاد في الأرض، ويُرسل عليه العقارب والحيّات[٨].

وعن الصادق عليه السلام، أنّه سُئِل عن قوله: ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ فقال عليه السلام: «إنّه كان إذا عذّب رجلاً

---

١. تفسير الرازي ٢٦: ١٨٠.
٢. في النسخة: التي.
٣. تفسير الرازي ٢٦: ١٨١.
٤. تفسير أبي السعود ٧: ٢١٦، تفسير روح البيان ٨: ٨.
٥. في السخة: مدّ.
٦. في النسخة: شدّ.
٧. تفسير روح البيان ٨: ٩.
٨. تفسير الرازي ٢٦: ١٨٢، تفسير أبي السعود ٧: ٢١٧.

بسطه على الأرض على وجهه، ومدّ يديه ورجليه ورأسه على الأرض، فأوتدها بأربعة أوتاد، وربما بسطه على خشب منبسط[١] فوتّد رجليه ويديه بأربعة أوتاد، ثمّ تركه على حاله حتّى يموت» الخبر[٢].

وقيل: ينصِب الخشب في الهواء، وكان يَمُدّ يدي المُعذّب ورجليه إلى تلك الخُشُب الأربع، ويضرب على [كلّ] واحدٍ من هذه الأعضاء وتداً، ويترُكه مُعلقاً في الهواء إلى أن يموت[٣].

وعن قَتادة: كانت أوتاداً وأرساناً وملاعب يلعب بها عنده[٤].

وقيل: إنّ عساكره كانوا كثيرين، وكانوا كثيري الأهبة عظيمي النِّعم، وكانوا يُكثِرون من الأوتاد لأجل الخيام[٥].

وقيل: إنّ المعنى ذو الجموع الكثيرة، وسمّى الجموع الكثيرة أوتاداً لأنّهم يَشُدّون مُلكه، كما يُقوّي الوتد البناء[٦].

وقيل: إنّ المعنى ذوا المُلك الثابت، فانّه استقام له الأمر أربعمائة سنة من غير منازِع[٧]، وإنّما استُعير الأوتاد لثبات المُلك، لأنّ أكثر بيوت العرب كانت خياماً وثباتها بالأوتاد[٨].

﴿وَ﴾ كذّبت **﴿ثَمُودُ﴾** صالحاً **﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾** لوطاً، وكانوا ـ على ما قيل ـ أربعمائة ألف بيت في كلّ بيت عشرة[٩] **﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾** وأهل الغَيظة شُعيباً قيل: نُسِبوا إلى الغيظة لأنّهم كانوا يَسكُنونها[١٠]. وقيل: الأيكة اسم بلد[١١] **﴿أُولَئِكَ﴾** الأمم المذكورة هم **﴿الْأَحْزَابُ﴾** الذين تجمّعوا على أنبيائهم **﴿إِن كُلٌّ﴾** من هؤلاء الأمم، وما حزب منهم **﴿إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾** الذين اُرسلوا إليهم **﴿فَحَقَّ﴾** وثَبَت **﴿عِقَابِ﴾** كلّ منهم حسب استحقاقهم، منهم عُوقِبوا بالصيحة، ومنهم بريحٍ صَرصَرٍ عاتية، ومنهم بالغَرَق بالطُّوفان، ومنهم بالغَرَق في البحر، ومنهم بالصاعقة، ومنهم بالرَّجفة، ومنهم بتقليب بلادهم وإمطار الحِجارة عليهم **﴿وَمَا يَنظُرُ هَؤُلَاءِ﴾** الكفرة الذين كذّبوك، وما ينتظرون **﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾** وهي النفخة الثانية. وقيل: هي النفخة الأولى[١٢].

رُوي عن أبي هُريرة، عن النبي ﷺ أنّه قال في هذه الآية: «يأمُر الله إسرافيل فينفُخُ نفخة الفَزَع، فَيَمدّها ويُطولها، وهي التي يقول: **﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾**»[١٣].

وقيل: إن المراد عذاب يَفجأهم ويأخُذهم بغتةً ودفعةً[١٤] **﴿مَا﴾** لتلك الصيحة، وليس **﴿لَهَا مِن﴾** تأخيرٍ وتوقّفٍ ولو مقدار **﴿فَوَاقٍ﴾** ناقة، وهو الفصل ما بين حَلْبتيها، وقيل: يعني ما لها من سكون أو

---

١. في النسخة: الخشب ينبسط.
٢. علل الشرائع: ١/٦٩ باب ٦٠، تفسير الصافي ٤: ٢٩٣.
٣ ـ ٦. تفسير الرازي ٢٦: ١٨٢
٧ ـ ١١. تفسير روح البيان ٨: ٩.
١٢. تفسير الرازي ٢٦: ١٨٣، تفسير البيضاوي ٢: ٣٠٨.
١٣. تفسير الرازي ٢٦: ١٨٣.
١٤. تفسير الرازي ٢٦: ١٨٢.

رجوع إلى السكون[١].

وفي الآيتين تسلية قلب النبي ﷺ، لئلا يحزَن من تكذيبهم وعدم إيمانهم بأنّ قومه جُندٌ قليلٌ من الأحزاب الذين كذبوا الرسل، فاستأصلهم الله بالعذاب، مع كونهم في غاية الكثْرَة والشّوكة والقوَة، فكيف بقومه الذين هم ضُعفاء قليلون، وتهديدٌ لمُكذّبيه ومعارضيه ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿قَالُوا﴾ استهزاءً بالرسول حين سَمِعوا خبر تأخير العذاب إلى الآخرة: ﴿رَبَّنَا﴾ وإلهنا ﴿عَجِّل لَّنَا﴾ بلُطفك ﴿قِطَّنَا﴾ ونصيبنا من العذاب الذي وعدنا محمّد ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ والنفخ في الصُور، ولا تؤخّره إليه.

ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ * وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ[١٧ ـ ٢٠]

ولمَا كان في قولهم هذا زيادة السخرية والاستهزاء به،[٢] بالغ سبحانه في تسلية النبيّ ﷺ بقوله: و﴿ٱصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ من الاستهزاء والتكذيب، وطِب نفساً بما فضّلناك على جميع الرسل من الكتاب والحكمة والسّلطنة في المُلك والملكوت وجوامع الكَلم وفَصْل الخطاب ﴿وَٱذْكُرْ﴾ لتسلية قلبك ما أعطيناه ﴿عَبْدَنَا﴾ المُخلِص لنا، أعني ﴿دَاوُدَ﴾ بن ايشا ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ والقوة في البدن والدين، ومع ذلك ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ورجّاع إلى الله بالتضرّع والتوبة، والتسبيح والتقديس، ولذا ﴿إِنَّا﴾ بقدرتنا ﴿سَخَّرْنَا﴾ وذلّلنا ﴿ٱلْجِبَالَ﴾ له يسيرون ﴿مَعَهُ﴾ وتبعاً له حال كونهنّ ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ لله حالاً بعد حالٍ كرامةً له ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ وآخر النهار ﴿وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ أوّل النهار، ﴿وَ﴾ سخّرنا ﴿ٱلطَّيْرَ﴾ بأنواعها حال كونها ﴿مَحْشُورَةً﴾ ومجموعة إليه من كلّ جانبٍ، ثمّ ﴿كُلٌّ﴾ من الجبال والطير حال تسبيح داود ﷺ ﴿لَّهُ أَوَّابٌ﴾ ورجّاع بالتسبيح والتقديس.

عن ابن عباس: كان داود ﷺ إذا سبّح جاوبته الجبال بالتسبيح، واجتمعت إليه الطير فسبّحت، وذلك حشرها[٣].

وقيل: إنّ ضمير (له) راجع الى الله، والمعنى: أنّ داود والجبال والطير لله أوابٌ ومسبّحٌ[٤].

رُوي أنّ الله تعالى لم يُعطِ أحداً من خلقه ما أعطى داود من حُسن الصوت، فلمّا وصل إلى الجبال ألحان داود تحرّكت من لذّة السّماع، فوافقته في الذّكر والتسبيح، ولما سَمِعت الطيور نَغَماته صَفَرت

---

١. تفسير الرازي ٢٦: ١٨٣.
٢. زاد في النسخة: ثمّ.
٣ و ٤. تفسير الرازي ٢٦: ١٨٦، تفسير روح البيان ٨: ١٣.

بصفير التنزيه والتقديس، ولمّا أصغت الوحوش إلى صوته دنت منه حتّى كانت تؤخذ بأعناقها[١].

﴿وَشَدَدْنَا﴾ وقوّينا مُلكه وسلطنته بالوزراء الناصحين، وبالهيبة وإلقاء الرعب في قلوب المخالفين، وبصنعة اللّبوس وسائر آلات الحرب، ممّا لم يكن لغيره من السلاطين، إلى غير ذلك ما يوجب استحكام ﴿مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ﴾ وأعطيناه ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ والمعارف الإلهية وأحكام الشريعة والعلم بحقائق الأشياء ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ ووضوح البيان بحيث يفهمه كلّ أحدٍ.

وعن الرضا عليه السلام: «أنّه معرفة اللغات»[٢].

وقيل: هو الافصاح بحقيقة الأمر، وقطع القضايا والحكم باليقين[٣].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «هو قوله البينة على المدّعي، واليمين على المُدّعى عليه»[٤].

وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا ٱلْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لاَ تَخَفْ خَصْمانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ ٱلصِّرَاطِ * إِنَّ هٰذَا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ ٱلْخُلَطَاءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ [٢١ ـ ٢٥]

ثمّ لمّا ذكر سبحانه ألطافه بداود، حكى ابتلاءه بالحزن الشديد، لارتكابه ما لم يكن لائقاً بمقامه، كابتلاء نبينا صلى الله عليه وآله بالحُزن على تكذيب القوم، وصدّر ذكر القضية بالاستفهام التعجّبي[٥] المُشوّق إلى سماعها المُوذِن بغرابتها بقوله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ﴾ يا محمّد، وقَرَع سمعك الشريف ﴿نَبَؤُا ٱلْخَصْمِ﴾ والخبر العظيم الجدير بأن يسمعه كلّ أحدٍ في موضوع تنازع الخصمين ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا﴾ وتصعدوا ﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾ وسُور الغُرفة التي كان يتعبّد فيها، ونزلوا فيها ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ﴾ ووردوا عليه بَغتةً مع كون بابها مغلقاً ﴿فَفَزِعَ﴾ ودُهش ﴿مِنْهُمْ﴾ لكون ورودهما على خلاف العادة، فلمّا رأوا فَزَعه ودَهشته ﴿قَالُوا﴾ إزالة لفزعه: يا داود ﴿لَا تَخَفْ﴾ منّا إنا ﴿خَصْمانِ﴾ ومنازعان جئناك لتحكم

---

١. تفسير روح البيان ٨: ١٣.

٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٣/٢٢٨، تفسير الصافي ٤: ٢٩٤.

٣. تفسير روح البيان ٨: ١٥.

٤. جوامع الجامع: ٤٠٤، تفسير الصافي ٤: ٢٩٤، تفسير روح البيان ٨: ١٥.

٥. في النسخة: التعجيبي.

بيننا، أمّا إجمال المخاصمة أنه ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وظلم أحدنا الآخر ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا﴾ واقطع خصومتنا ﴿بِالحَقِّ﴾ والعدل ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ في الحكمَ ولا تَجُر في القضاء ﴿وَٱهْدِنَا﴾ بحكمك ﴿إِلَىٰ سَوَاءِ ٱلصِّرَاطِ﴾ ووسط الطريق بزجر الباغي عن ما سلكه من طريق الجَور، وإرشاده إلى منهج العدل، ثمَ حكى سبحانه تفصيلها بقوله: ﴿إِنَّ هٰذَا﴾الرجل الذي يكون معي ﴿أَخِى﴾ في الدين، أو في الصحبة، أو في النسب على الفرض ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ والضأن الأنثى ﴿وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ليس لي غيرها ﴿فَقَالَ﴾ مع أخوّته المقتضية لتعطّفه: ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ وملّكنيها لتكون لي مائة نعجة ﴿وَعَزَّنِى﴾ وغلبني ﴿فِى ٱلْخِطَابِ﴾ والحُجج.

عن ابن عبّاس: كان أعزّ منّي وأقوى في مخاطبتي، لأنه كان ملكاً[1].

فلمّا سَمِع داود ذلك ﴿قَالَ﴾ والله ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ أخوك ﴿بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ الواحدة ليضمّها ﴿إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾ الكثيرة ﴿وَ﴾ ليس هذا الظلم منه أمراً بديعاً، بل ﴿إِنَّ كَثِيراً مِّنَ ٱلْخُلَطَاءِ﴾ والشركاء، أو المصاحبين ﴿لَيَبْغِى﴾ ويتعدّى ﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ولا يُراعي حقّ الصحبة والشّركة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله واليوم الآخر ﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ فانّهم يَراعون حقوق الناس ولا يظلمون أحداً سواء أكان شريكاً أو مصاحباً أو غيرهما، ﴿وَ﴾ لكن ﴿قَلِيلٌ مَا﴾ ويسير في الغاية ﴿هُمْ﴾ في الأزمنة كلّها.

قصة داود وتزويجه ميشاوع زوجة أوريا

حكى بعض العامة أن أوريا خطب ميشاوع أو ميشاويع[2]. بنت شايع، فأجابته قومها، ثمّ غاب أوريا وذهب إلى قتال البلقاء قبل أن يعقِد عليها، ثمّ خطبها داود فزوّجت منه لجلالة قدره، فاغتمّ لذلك أوريا، فعاتبه الله تعالى على أنه خطب على خطبة أخيه المسلم مع عدم حاجةٍ، لأنّه كان تحته وفي حِبالته تسع وتسعون امرأة، ولم يكن لأوريا غير التي خطبها[3].

وقيل: إنّ داود رأى امرأة أوريا، فمال قلبه إليها، وابتُلي بحبّها، فسأله داود أن يُطلّقها، فاستحيى أن يَرُدّه، فتزوجها وولد منها سليمان، وكان ذلك جايراً في شريعته معتاداً بين اُمّته، خلا أنه عليه السلام لعظمة منزلته وعلوّ شأنه نبّه بالتمثيل على أنّه لم يكن ينبغي له أن يسأل رجلاً ليس له إلا امرأة واحدةً أن ينزِل عنها ويتزوّجها مع كَثرة نسائه[4].

رُوي أنّ داود قال للخصم: إنّ رُمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا ـ وأشار إلى الأنف والجبهة ـ فقال:

---

١. تفسير روح البيان ٨: ١٧.

٢. في تفسير روح البيان ٨: ١٨: بنشاوع أو بنشاويع.

٣. تفسير روح البيان ٨: ١٩.

٤. تفسير أبي السعود ٧: ٢٢٢، تفسير روح البيان ٨: ١٩.

يا داود، أنت أحقّ أن يُضرَب منك هذا وهذا، وقد فعلت كيت وكيت. ثمّ نظر داود فلم ير أحداً[١].

﴿وَ﴾ لذا **﴿ظَنَّ﴾** وعلِم **﴿دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾** وأردنا تنبيهه على قُبح ما صدر منه.

وقيل: إنّ سبب علمه أنّه لمّا قضى بينهما، نظر أحد المتخاصمين إلى الآخر فضَحِك، ثمّ صَعِد إلى السماء[٢].

وعن الباقر عليه السلام في قوله: **﴿وَظَنَّ دَاوُدُ﴾**: «أي عَلِم، وذكر عليه السلام أنّ داود كتب إلى صاحبه أن لا تُقدِّم أوريا بين يدي التابوت وردّه، فقدِم أوريا إلى أهله، ومَكَث ثمانية أيام ثمّ مات»[٣].

وفي رواية عن الرضا عليه السلام قيل له: يا بن رسول الله، ما قصّة داود مع أوريا؟ قال: «إنّ المرأة في أيام داود كانت إذا مات بعلها أو قُتل لا تتزوج بعده أبداً، فأوّل من أباح الله تعالى أن يتزوج بامرأةٍ قُتِل بعلها داود، فتزوج بامرأة أوريا لما قُتِل، وانقضت عِدتها»[٤].

وقال بعض العامة: كانت زلّة داود المسارعة في الحكم قبل السؤال عن المُدّعى عليه[٥].

وعن الرضا عليه السلام ـ في رواية ـ فقيل: يا بن رسول الله، فما كانت خطيئة داود؟ فقال: «ويحك! إنّ داود إنّما ظنّ أنّه ما خلق الله تعالى خلقاً أعلم منه، فبعث الله المَلَكين فتسوّروا المِحراب، فقالا له: خصمان بغى بعضنا على بعض ـ إلى أن قال ـ فعَجِل داود على المُدعَى عليه، فقال: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه. ولم يسأل المدّعي البيّنة على ذلك، ولم يُقبِل على المُدّعى عليه فيقول له: ما تقول؟ فكان هذا خطيئته»[٦] وقالوا فيه وجوه اُخر لا نُطيل بذكرها.

وعلى أي تقدير **﴿فَاسْتَغْفَرَ﴾** داود **﴿رَبَّهُ﴾** من زلّته التي كانت بالنسبة إليه ذنباً بعد ما التفت إليه **﴿وَخَرَّ﴾** وسقط على الأرض حال كونه **﴿رَاكِعاً﴾** قيل: إنّ المراد من الركوع هنا السجود[٧]، والمعنى خرّ للسجود حال كونه مصلياً تسميةً للصلاة باسم الركوع، لكونه من أعظم أجزائها.

عن ابن عباس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله: «أنه سَجَد في صَ وقال: سجدها داود توبةً، ونَسْجُدها شُكراً»[٨].

﴿وَأَنَابَ﴾ داود ورجع إلى ربّه بالتوبة. رُوي أنّه بقي في سجود أربعين يوماً وليلة لا يرفع رأسه إلّا لصلاةٍ مكتوبةٍ، أو لما لابدّ منه، ولا يرقأ دمعه حتى نَبَت منه العُشب حول رأسه، ولم يشرب ماءً إلّا

---

١. تفسير الرازي ٢٦: ١٩٦.
٢. تفسير الرازي ٢٦: ١٩٨، تفسير أبي السعود ٧: ٢٢١.
٣. تفسير القمي ٢: ٢٣٤، تفسير الصافي ٤: ٢٩٦.
٤. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٩٤/١، تفسير الصافي ٤: ٢٩٦.
٥. تفسير الرازي ٢٦: ١٩٨.
٦. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٩٤/١، تفسير الصافي ٤: ٢٩٥.
٧. تفسير روح البيان ٨: ١٨.
٨. تفسير روح البيان ٨: ١٨.

ثُلثاه دمعٌ، وجهد نفسه راغباً إلى الله في العفو عنه حتّى كاد يهلك، واشتغل بذلك عن المُلك حتّى وثب له ابنٌ يقال له إيشا على مُلكه، واجتمع إليه أهل الزيغ من بني إسرائيل[1] ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذٰلِكَ﴾ الذنب الذي استغفر منه في شهر ذي الحجّة على ما قيل[2]. فلمّا نزلت توبته حارب ولده فهزمه ﴿وَإِنَّ لَهُ﴾ عليه السلام ﴿عِندَنَا﴾ بعد المغفرة ﴿لَزُلْفَىٰ﴾ وقرباً وكرامةً في الدنيا ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ ومرجعٍ بعد الموت، وهو الجنّة العالية المُعدّة للأنبياء.

يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ ٱلْحِسَابِ[٢٦]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان تفضّلاته الخاصة على داود، وذكر ابتلائه بالحُزن الشديد، بيّن زيادة إنعامه عليه بقوله: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا﴾ بعد أن غفرنا لك ﴿جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً﴾ وملكاً نافذ الحكم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وسُلطاناً مقتدراً على جميع الناس مع النبوة والزُّلفى، إذن ﴿فَاحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ والعدل، وفي منازعاتهم بحكم الله، كما هو مقتضى الخلافة الإلهية ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ في حكومتك، ولا تقضِ بميل نفسك ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ ويَحرِفك الهوى ومَيْل النفس ﴿عَن﴾ سلوك ﴿سَبِيلِ ٱللهِ﴾ وطريق القرب إليه، وهو العدل في الحكم، فانّ هوى النفس يدعو إلى جلب المنافع الشخصية ورعاية القريب والصديق، وإعمال البغضاء في حقّ من أساء إلى الحاكم، وكلّ ذلك يصرِف نَظَر الحاكم عن الحقّ وإعطائه لمن هو له ويمنعه عن العدل.

ثمّ هدّد سبحانه مُتّبعي الهوى والضالين عن الهدى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللهِ﴾ باتّباع الهوى والجَور في الحكومة، وتضييع الحقوق، مُعدٌّ ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بالنار ﴿بِمَا نَسُوا﴾ ولم يذكروا ﴿يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ وغَفَلوا عن أهوال القيامه وشدائدها، وكان نسيانهم ذلك اليوم وغفلتهم سبباً لاستحقاقهم أشدّ العذاب وأشدّ العقاب، ولو كانوا متذكّرين له لتداركوا قبائح أعمالهم بالتوبة وأعدّوا له الأهبة.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّماءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِين كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ*أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ

---

١. تفسير أبي السعود ٧: ٢٢٣، تفسير روح البيان ٨: ١٨.

٢. تفسير روح البيان ٨: ١٨.

فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ[٢٧ و ٢٨]

ثمّ لمّا حكى سبحانه شدّة إنكار المشركين للحشر حتّى بلغوا في إنكارهم إلى أن استهزءوا بإخبار النبي صلى الله عليه وآله به، شرع في الاستدلال على لزوم الحشر بقوله: **﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّماءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾** خلقاً **﴿بَاطِلاً﴾** وعبثاً بلا حكمة فيه **﴿ذٰلِكَ﴾** الخلق الباطل والعبث **﴿ظَنُّ ٱلَّذِين كَفَرُوا فَوَيْلٌ﴾** وهلاك **﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ﴾** عذاب **﴿ٱلنَّارِ﴾** لكفرهم وإنكارهم الحشر، بل إنّما كان خلق العالم عن حكمة بالغة، وهي تكميل الاستعدادات وفعليّتها، فالنفوس الزكية بالمعارف والعلم والعمل يرتقون إلى مدارج كمال الانسانية والسعادة، والنفوس الخبيثة ينحطّون إلى مهاوي دَرَكات الحيوانية والشقاوة، ومن المعلوم أنّه لابدّ لكلٍّ من الكمال والنقص والإرتقاء والانحطاط أثر ونتيجة، قابل لأن يصير منظوراً للعقلاء، ومتعلقاً لهم، ولو لم يكن عالم آخر لاستوى الناقص والكامل، والشقي والسعيد، وهذا في غاية القُبح، كما أشار إليه سبحانه بقوله: **﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾** بالكفر والمعاصي، لا والله لا نجعلهم سواء، لكونه خلاف العدل، والله الحكيم منزّة عنه **﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾** من ربّهم وعذابه بالعمل بالطاعات واجتناب السيئات **﴿كَٱلْفُجَّارِ﴾** وأهل الفسوق والطغيان، حاشا لا يجوز التسوية بينهما على الله لكونه قبيحاً في الغاية، فلابدّ من عالمٍ آخرٍ يُثاب فيه المؤمن والمُتقي بأفضل الثواب، ويُجازى فيه المُفسِد والفاجر بأسوأ الجزاء، ويرى كلّ منهم نتيجة أعمالهم.

رُوي أنّ كفّار قريش قالوا للمؤمنين: إنّا نُعطىٰ في الآخرة من الخير ما تُعطون، بل أكثر، فردّهم الله بقوله: **﴿أَمْ نَجْعَلُ﴾** إلى آخره[١].

أقول: ويمكن كون قولهم هذا على سبيل الاستهزاء، أو على تقدير وقوع الآخر.

عن الصادق عليه السلام قال: «لا ينبغي لأهل الحقّ أن يُنزلوا أنفسهم منزلة أهل الباطل، لأن الله لم يجعل عنده أهل الحقّ بمنزلة أهل الباطل، ألم يعرفوا وجه قول الله في كتابه إذ يقول: **﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾** إلى آخره؟!»[٢].

كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ * وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ ٱلصَّافِنَاتُ ٱلْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٢٤.

٢. الكافي ٨: ١/١٢، تفسير الصافي ٤: ٢٩٧.

عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ[٢٩ ـ ٣٣]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه العلوم الكثيرة في القرآن من المعارف وأدلّة التوحيد والمعاد، وخصائص الأنبياء، وتفضلّاته عليهم، وقَصَصهم، بيّن فضل القرآن، وكونه نازلاً منه، لدلالة ما فيه عليه بقوله: ﴿كِتَابٌ﴾ قيل: إنّ التقدير هذا القرآن[١] كتابٌ ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ بتوسّط جَبْرَئيل ﴿إِلَيْكَ﴾ يا محمّد ﴿مُبَارَكٌ﴾ وكثير الخير والنفع الديني والدنيوي، لمن آمن به وصدّقه ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ ويتفكّروا فيها بالفِكر السليم عن التعصّب والعِناد، فيعرِفوا ما فيها من المطالب العالية واللطائف الفائقة والبيانات الرائقة، فيؤمنوا به ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾ ويتّعظ بمواعظه ويعتبر بما فيه ﴿أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ﴾ وأصحاب العقول السليمة عن شوائب الأوهام، وإنّما خصّ سبحانه الاتّعاظ به والعمل بما فيه بأُولي الألباب، لتوقّفه على العقل الغالب على الأهواء الزائغة والشهوات المُردية.

ذكر بعض أحوال داود عليه السلام

ثمّ عاد سبحانه تعالى بعد الاستدلال على المعاد والرسالة إلى ذكر أعظم تفضلّاته على داود عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾ وأنعمنا عليه بذلك الولد الذي كان خليفةً له ووارث نبوته وسلطنته.

رُوي أنّ داود عاش مائة سنة، ومات يوم السبت، وكان له غُرفة ومِحراب يصعد فيه وينزل، وكان يوم السبت في مِحرابه إذ جاءه مَلَك الموت وقال: جئتك لأقبِض رُوحك فقال: دعني حتّى أنزل وارتقي. فقال: مالي إلى ذلك سبيل، نَفِدت الأيام والشهور والسنون والآثار والأرزاق، فما أنت بمؤثر بعدها، فسجد داود على مرقاة من الدَّرج، فقبض نفسه على تلك الحالة، وأوصى لابنه سليمان بالخلافة[٢].

ثمّ مدح سبحانه سليمان بقوله: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ سليمان ﴿إِنَّهُ﴾ كأبيه ﴿أَوَّابٌ﴾ ورجّاع إلى الله في جميع الأحوال في النِّعمة بالشكر، وفي المِحنة بالصبر والتضرُّع، واذكُر يا محمد ﴿إِذْ عُرِضَ﴾ وأظهر ﴿عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ﴾ ووقت العصر الخيول ﴿ٱلصَّافِنَاتُ﴾ والقائمات على قوائم ثلاث مع تثنية الرابعة أو وضعها على طرف السُّنْبُك و ﴿ٱلْجِيَادُ﴾ والسريعات في العَدْو.

وعن ابن عباس: الجياد الخيل السوابق، وإذا جرت كانت سِراعاً خفافاً في جريها[٣]، والصفتان من أحمد صفات الخيل.

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٢٥.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٢٦.

٣. تفسير روح البيان ٨: ٢٧.

في ردّ العامة

قيل: إنّ سليمان غزا أهل دمشق ونَصيبين، وهي قاعدة ديار ربيعة، فأصاب ألف فرسٍ عربي[١]. وقيل: أصابها أبوه من العمالقة ووَرِثها سليمان[٢] على خلاف رواية أبي بكر عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «نحن معاشر الأنبياء لا نُورث، ما تركناه صدقة»[٣].

وقيل: إنّها خيولٌ بحريةٌ جاء بها الجنّ لسليمان[٤]. وعلى أي تقدير قيل: قعد سليمان يوماً بعد صلاة الظهر على كُرسيّه، وكان يُريد جهاداً، فاستعرض تلك الخيول عليه، فلم يَزَل تُعرَض عليه وهو ينظُر إليها ويتعجّب من حُسنها حتّى ذهب وقت فضيلة العصر، أو وقت ذكر كان يُواظب عليه[٥].

ذكر فضيلة لأمير المؤمنين عليه السلام

وقال بعض العامة: حتى غَرَبت الشمس وفات وقت صلاة العصر[٦] ﴿فَقَالَ﴾ تأسّفاً وتحسّراً على ما صدر منه: ﴿إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ وجعلت حبّ الخيل بدلاً ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ واشتغلت بالنظر إليه ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ الشمس ﴿بِٱلْحِجَابِ﴾ وسُتِرت بستر اُفق المغرب، فبعد غروب الشمس قال للملائكة: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ فَرَدّت الملائكة الشمس باذن الله إلى محلّ فضيلة العصر، فصلّاها في وقتها، كما رُدّت الشمس لعلي بن أبي طالب عليه السلام حين فات وقت صلاة العصر منه لنوم النبي صلى الله عليه وآله في حِجره على ما روته العامة والخاصة[٧] ﴿فَطَفِقَ﴾ وأخذ يمسح ﴿مَسْحاً بِالسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾.

عن الصادق عليه السلام، قال: «إنّ سليمان بن داود عُرِض عليه ذات يوم بالعشي الخيل، فاشتغل بالنظر إليها حتّى توارت الشمس بالحِجاب، فقال للملائكة: ردوا الشمس عليّ حتّى اُصلّي صلاتي في وقتها، فردّوها. فقام فمسح ساقيه وعنقه، وأمر أصحابه الذين فاتتهم الصلاة معه بمثل ذلك، وكان ذلك وضوءهم للصلاة، ثمّ قام فصلّى، فلمّا فَرَغ غابت الشمس وطلعت النجوم، وذلك قول الله عز وجل: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَـٰنَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلْأَعْنَاقِ﴾»[٨].

أقول: ظاهر الآية أنّ سليمان مسح بالسوق والأعناق، لا هو وأصحابه.

---

١. تفسير البيضاوي ٢: ٣١٢، تفسير أبي السعود ٧: ٢٢٥، تفسير روح البيان ٨: ٢٧.

٢. تفسير البيضاوي ٢: ٣١٢، تفسير أبي السعود ٧: ٢٢٥، تفسير روح البيان ٨: ٢٧.

٣. تفسير روح البيان ٨: ٢٧.

٤. تفسير روح البيان ٨: ٢٧.

٥. تفسير روح البيان ٨: ٢٨.

٦. تفسير أبي السعود ٧: ٢٢٥.

٧. فضيلة رد الشمس لعلي عليه السلام مروية في البداية والنهاية ٦: ٨٠، وترجمة الامام علي عليه السلام من تاريخ دمشق لابن عساكر ٢: ٢٨٣، والصواعق المحرقة: ١٢٨، ومناقب ابن المغازلي: ١٤٠/٩٦ و: ١٤١/٩٨، ومناقب الخوارزمي: ٢١٧، والرياض النضرة ٣: ١٤٠، ومجمع الزوائد ٨: ٢٩٧ وتفسير روح البيان ٨: ٣١، ونور الأبصار: ٣٣، واثبات الهداة ٥: ٤٢٧/٥٨، وبحار الأنوار ٤١: ١٦٦ ـ ١٩٠.

٨. من لا يحضره الفقيه ١: ٦٠٧/١٢٩، تفسير الصافي ٤: ٢٩٨.

وعن ابن عباس: سألت علياً عن هذه الآية فقال: «ما بلغك فيها؟» قلت: بلى، سَمِعت كعباً يقول: اشتغل سليمان بعرض الأفراس حتى فاتته الصلاة. فقال: ردّوها عليّ ـ يعني الأفراس ـ وكانت أربعة عشر، وأمر بضرب سُوقها وأعناقها بالسيف فقتلها، فسلب الله مُلكه أربعة عشر يوماً، لأنه ظلم الخيل بقتلها.

فقال عليّ عليه السلام: «كذب كعب، لكن اشتغل سليمان بعرض أفراسٍ ذات يوم، لأنه أراد جهاد العدوّ حتّى توارت الشمس بالحِجاب، فقال بأمر الله للملائكة الموكّلين بالشمس: رُدّوها عليّ، فرُدّت فصلّى العصر في وقتها، وإنّ الأنبياء لا يَظلِمون ولا يأمرُون بالظلم، لأنّهم معصومون مُطهّرون»[١].

وعن الباقر عليه السلام، أنّه سُئِل عن قول الله عز وجل: ﴿**ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً**﴾ قال: «يعني مفروضاً، وليس معنى وقت فوتها إذا جاز ذلك ثمّ صلاها، لم تكن صلاته هذه مُؤدّاة، ولو كان ذلك لهلك سليمان بن داود حين صلاها لغير وقتها»[٢].

أقول: يمكن كون النظر إلى الخيول والاطلاع بحالها للجهاد، كان أهمّ من الصلاة، ولمّا أحبّ أن يُؤدّي الصلاة لوقتها أمر برّد الشمس، فكان حاله حال أمير المؤمنين عليه السلام، ونظر سليمان إلى الأفراس كنوم النبي صلى الله عليه وآله في حِجر أمير المؤمنين عليه السلام، وعلى أي تقدير ليست الروايات متواترة ولا حُجَة في غير الأحكام الشرعية.

وقيل: إنّ رِباط الخيل كان مندوباً إليه في دينه كما في ديننا، وكان سليمان احتاج إلى الغزو، فجلس وأمر باحضار الخيل وإجرائها، وذَكَر أنّي لا أحبّ الخيل لأجل الدنيا، وإنّما اُحبّها لأمر الله، وطلب تقوية دينه. وذلك معنى ﴿**إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ**﴾ أي حبّ الخيل، وذلك الحبّ الشديد حصل عن ذكري ربي وكتابة أوامره، لا عن الشهوة والهوى، ثمّ إنّه أمر باعدائها وتسييرها حتّى توارت الخيل بالحِجاب، وغابت عن نظره، ثمّ قال للرائضين: رُدّوا الخيل عليّ، فلمّا عادت إليه جعل يمسح سُوقها وأعناقها تشريفاً لها وإظهاراً لعزّتها[٣]، أو ليعلم صحّتها ومرضها[٤].

أقول: نِعم التفسير هو، لولا أن يكون بالرأي ومخالفاً للروايات.

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ [٣٤]

١. مجمع البيان ٨: ٧٤١، تفسير الصافي ٤: ٢٩٨.

٢. الكافي ٣: ٢٩٤/١٠، من لا يحضره الفقيه ١: ٦٠٦/١٢٩، تفسير الصافي ٤: ٢٩٨.

٣. تفسير الرازي ٢٦: ٢٠٦، تفسير روح البيان ٨: ٢٩. ٤. تفسير الرازي ٢٦: ٢٠٦.

ثمَ أنه تعالى بعد ذكر فتنة أبيه داود، ذكر فتنته بقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ وابتلينا ﴿سُلَيْمانَ﴾ وكانت فتنته على ما روته بعض العامة أنه قال يوماً: لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأةً أو تسعين أو تسع وتسعين أو مائة، تأتي كلّ واحدةٍ بفارسٍ يُجاهد في سبيل الله، ولم يقل: إنْ شاء الله. فقال له صاحبه ووزيره آصف بن برخيا: قل إن شاء الله، فلم يَقُل، فطاف عليهنّ تلك الليلة فلم تحمل إلّا امرأة واحدة جاءت بشِقّ ولدٍ له عينٌ واحدةٌ، ويدٌ واحدةٌ، ورجل واحدةٌ، فألقته القابلة على كُرسيّه[١]، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنا عَلىٰ كُرْسِيِّهِ﴾ وسريره الذي كان يقعُد عليه ﴿جَسَداً﴾.

رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فُرساناً أجمعون[٢].

ورُوي أنّه نسي أن يقولها لينفُذ مُراد الله تعالى[٣].

وفي رواية اُخرى: أنّ سليمان ولد له ابن، فاجتمعت الشياطين على قتله، وذلك أنّهم كان يُقدِّرون في أنفسهم أنّهم يستريحون ممّا هم فيه من تسخير سليمان إياهم على التكاليف الشاقّة، فعَلِم سليمان بذلك، فأمر السّحاب بحمله، وكانت الريح تُعطيه غذاءه، ورَبّي فيه خوفاً من مضرّة الشياطين، فابتلاه الله لأجل خوفه هذا وعدم توكّله في أمر ابنه على ربّه بموت ابنه حيث مات في السّحاب، واُلقي ميتاً على كُرسيّه»[٤].

وقريبٌ منه ما عن الصادق عليه السلام، فانّه قال: «إنّ الجنّ والشياطين لمّا ولد لسليمان ابن قال بعضهم لبعضٍ: إن عاش له ولد لنلقين منه ما لقينا من أبيه من البلاء، فأشفق منهم عليه، فاسترضعه في المُزن ـ وهو السّحاب ـ فلم يشعر إلّا وقد وضع على كرسيه ميتاً، تنبيهاً على أنّ الحذر لا ينفع من القدر، وإنّما عُوتِب على خوفه من الشياطين»[٥].

قيل: لمّا اُلقي ابنه الميت على كرسيه جَزِع سليمان عليه، إذ لم يكن له إلّا ابنٌ واحدٌ، فدخل عليه مَلَكان، فقال أحدهما: إنّ هذا مشى في زرعي فأفسده. فقال له سليمان: لم مشيت في زرعه؟ قال: لأنّ هذا الرجل زَرَعَ في طريق الناس، فلم أجد مسلكاً غير ذلك. فقال سليمان: لم زرعت في طريق الناس. أما علمت أنّ الناس لابُدّ لهم من طريق يمشون فيه؟ فقال لسليمان: صدقت. لم ولدت على طريق الموت، أما عَلِمت أنّ ممرّ الخلق على الموت، ثمّ غابا، فاستغفر سليمان[٦] ﴿ثُمَّ أَنابَ﴾ ورجع إلى الله تعالى.

وقيل: إنّ ابتلاءه كان سبب مُلكه، وذلك أنّ سليمان بلغه خبر مدينة في البحر، فخرج إليها بجنوده

---

١ ـ ٣. تفسير روح البيان ٨: ٣٢.
٤. تفسير روح البيان ٨: ٣٢.
٥. مجمع البيان ٨: ٧٤١، تفسير الصافي ٤: ٢٩٩.
٦. تفسير روح البيان ٨: ٣٢.

تحمله الريح، فأخذها وقتل مَلِكها، وأخذ بنتا اسمها جرادة من أحسن النساء وجهاً، فاصطفاها لنفسه، وأسلمت فأحبّها، وكانت تبكي أبداً على أبيها، فأمر سليمان الشياطين فمثلوا لها صورة أبيها، فكَسوها مثل كُسوة أبيها، وكانت تذهب إلى تلك الصورة بُكرة وعشياً مع جواريها تسجُد لها، فأخبر آصف سليمان بذلك، فكسر الصورة، وعاقب المرأة، ثمّ خرج إلى فلاة من الأرض، وفرش الرماد وجلس عليه تائباً إلى الله.

وكانت له أمّ ولد يقال لها أمينة، إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأةٍ وضع خاتمه عندها، وكان مُلكه في خاتمه، فوضعه عندها يوماً، فأتاها الشيطان صاحب البحر على صورة سليمان، وقال: يا أمينة، خاتمي . فتختّم به وجلس على كُرسي سليمان، فأتى عليه الطير والجنّ والإنس.

وتغيّرت هيئة سليمان، فأتى أمينة لطلب الخاتم. فأنكرته وطردته، فعرف أنّ الخطيئة قد أدركته، فكان يدور على البيوت يتكفّف، وإذا قال: أنا سليمان، حَثَوا التراب عليه وسبّوه، ثمّ أخذ يخدُم السمّاكين، ينقُل لهم فيعطونه كلّ يومٍ سمكتين، فمكث عليه بهذه الحالة أربعين يوماً عدد ما عُبِد الوثن في بيته، فأنكر آصف وعظماء بني إسرائيل حُكم الشيطان، وسأل آصف نساء سليمان، فقلن: ما يدعَ امرأةً منّا في دمها، ولا يغتسل من جنابة. وقيل: نفذ حكمه في كلّ شيء إلّا فيهنّ. ثمّ طار الشيطان، وقذف الخاتم في البحر، فابتلعته سمكة، ووقعت السمكة في يد سليمان، فشقّ بطنها، فاذا هو بالخاتم، فتختّم به، ووقع ساجداً لله، ورجع إليه مُلكه، وأخذ ذلك الشيطان، وأدخله في صخرة، وألقاها في البحر[1].

أقول: عليه يكون الجسد المُلقى على كُرسيّه ذلك الشيطان بتأويلات، وهذه الرواية مردودة بوجوهٍ كثيرة، منها: أنّ الشياطين لا يتصوّرون بصور الأنبياء، وأنّ سليمان لم يكن عاصياً حتى يعاقب عليه إلى غير ذلك.

وقيل: إنّ فتنته كانت بسبب مرضٍ ابتلاه الله بحيث صار كالجسد المُلقى على كُرسيّه لا قوة له ولا روح، ثمّ أناب ورجع إلى الصِحّة[2].

قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكاً لَا يَنْبَغِى لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَٱلشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ * هٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ

---

١. تفسير الرازي ٢٦: ٢٠٧.

٢. تفسير الرازي ٢٦: ٢٠٩.

حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ[٣٥ـ ٤٠]

ثمَ سأل الله تبارك وتعالى أهمّ حوائجه الأخروية حيث ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ زلاتي التي لا تليق بمقام نبوّتي، ثمّ أردفه بطلب ما فيه إصلاح أُمور دنياه وقوة ترويجه للدين بقوله: ﴿وَهَبْ لِى﴾ يا ربّ، وأعطني ﴿مُلْكاً﴾ وسُلطاناً عظيماً ﴿لَا يَنْبَغِى لِأَحَدٍ﴾ من خلقك ﴿مِنْ بَعْدِى﴾ ويكون أرفع من أن يناله غيري حتّى تكون لي مُعجزةٌ دالةٌ على صدق نبوتي، ووسيلةٌ لا نجاح مقاصدي من هداية خلقك، ورفع الظلم وإشاعة العدل، وترويج الدين ﴿إِنَّكَ﴾ لا ترُدّ دعائي ومسألتي لأنك ﴿أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ وكثير العطاء لا نقص في خزائنك، ولا بُخل في ساحتك، ولا مانع من جُودك ﴿فَسَخَّرْنَا﴾ وذلّلنا ﴿لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ إجابةً لدُعائه بحيث ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِ﴾ حال كونها ﴿رُخَاءً﴾ أو طيبةً ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ سليمان وقصد من البلاد والأماكن البعيدة ﴿وَ﴾ سخّرنا ﴿ٱلشَّيَاطِينَ﴾ له، أعني ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ﴾ منهم، ليبنيَ له ما أراد من الأبنية ﴿وَ﴾ كلّ ﴿غَوَّاصٍ﴾ يغُوص في البحر فيُخرِج له اللالىء والمَرجان والنفائس ﴿وَآخَرِينَ﴾ منهم ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ ومُقيّدين ﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ والقيود.

ومن المعلوم أنّ لطافة أجسامهم لا تُنافي صلابتها، بحيث يقدِرون على تحمّل الأشياء الثقيلة، كحِمل ملك بلاد قوم لوط، ونرى الرياح تحمل الأحجار الثقيلة في الغاية وتخريب الأبنية العظيمة، ولا ينافي تقييدهم بالقيود التي لا يقدِرون على قطعها وكسرها.

وقيل: إنّ تقييدهم كنايةٌ عن منعهم من الشرور والفساد[1] بحيث لا يقدِرون على شيءٍ منها.

ثمّ قلنا له: ﴿هٰذَا﴾ المُلك العظيم ﴿عَطَاؤُنَا﴾ الخاصّ بك، لم نُعطِه أحداً قبلك، ولا نُعطه أحداً بعدك ﴿فَامْنُنْ﴾ وأعطِ ما شئت لمن شئت ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ وامنع ما شئت عمّن شئت حال كونك متلبّساً ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ومأخذةٍ على شيءٍ من عطائك ومنعك، لتفويض التصّرف إليك على الإطلاق.

عن ابن عباس: أعط من شئت وامنع من شئت بغير حساب، لا حرج عليك فيما أعطيت، وفيما أمسكت[2].

قيل: ما أنعم الله على أحدٍ نعمةً إلّا كانت عليه تَبِعةً إلّا سليمان فان أعطى أُجر عليه، وإن لم يُعطِ لم يكن عليه تَبِعة[3].

وقيل: إنّ قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ متعلقٌ بعطائنا، والمعنى أنّ هذا العطاء لا يُمكن حسابه لغاية

---

١. تفسير أبي السعود ٧: ٢٢٧، تفسير روح البيان ٨: ٣٧.

٢. تفسير الرازي ٢٦: ٢١١.

٣. تفسير روح البيان ٨: ٣٩.

كثرته[١].

وقيل: إنّ المراد من المنّ والإمساك بالنسبة إلى الشياطين المقيّدين، والمعنى امنُن على من شئت منهم بفكّه، وأمسك من شئت منهم في القيد[٢] ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿إِنَّ لَهُ عِندَنَا﴾ في الدنيا ﴿لَـزُلْفَىٰ﴾ وقُربة حيث إنّهمن المرسلين المُكْرَمين﴿وَ﴾ له ﴿حُسْنَ مَآبٍ﴾ بعد الموت، وفي الآخرة.

وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّـيْطَانُ بِـنُصْبٍ وَعَـذَابٍ * ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِـثْلَهُم مَـعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَابِ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ[٤١ ـ ٤٤]

ثمّ إنّه تعالى بعد تسلية النبيّ ﷺ بافتتان داود وسليمان بزلّتهما مع ما كان لهما من النبوة والسلطنة، وسلامة نبينا منه، أمر النبي ﷺ بالصبر على الأذى ببيان صبر أيوب عليه السلام بقوله: ﴿وَٱذْكُرْ﴾ يا محمّد ﴿عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ بن آموص من ولد إسحاق ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ ودعاه، وكان دعاؤه ﴿أَنِّـى مَسَّـنِىَ﴾ وأصابني ﴿ٱلشَّيْطَانُ﴾ بنفخة فيّ، أو بدعائه﴿بِنُصْبٍ﴾ وتعبٍ ومشقّةٍ ﴿وعَذَابٍ﴾ ومرضٍ مُوجع وألم شديدٍ، وأنت أرحم الراحمين، كما في سورة الانبياء، فاستجابنا وقلنا له: يا أيوب ﴿ٱرْكُـضْ بِرِجْلِكَ﴾ واضرِبها على الارض بقوة، فضربها فنبعت عينٌ من محلّ ضرب رجله، فقلنا له: ﴿هٰذَا﴾ الماء الذي خرج من العين ﴿مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ﴾ تغتسل به ﴿وَشَرَابٌ﴾ تشرب منه، فاغتسل في ذلك الماء يبرأ ظاهرك، واشرب منه يبرأ باطنكِ.

وقيل: مغتسلٌ بارد يُبَرد حرارة الظاهر، وشرابٌ يبَرّد حرارة الباطن[٣] فاغتسل من الماء وشرب منه، فذهب ما به [من] الداء من ظاهره وباطنه، فقام صحيحاً سالماً من الأمراض، وعاد إليه شبابه وجماله أحسن ما كان[٤].

عن ابن عباس رضي الله عنه: مكث أيوب في البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات، لم يُغمَض فيهنَ، ولم ينقلب في المدّة من جنبٍ إلى جنب[٥]، فكشفنا ما به من ضرَ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ﴾ وأولاده الذين هلكوا حين ابتلائه بهدم البناء عليهم ﴿وَ﴾ وهبنا ﴿مِثْلَهُم مَعَهُمْ﴾ فكان له من الأولاد ضِعف ما كان قبل البلاء.

---

١. تفسير أبي السعود ٧: ٢٢٨، تفسير روح البيان ٨: ٣٩.
٢. تفسير الرازي ٢٦: ٢١١.
٣. تفسير روح البيان ٨: ٤١.
٤ و ٥. تفسير روح البيان ٨: ٤١.

عن الصادق عليه السلام: «أحيا الله أهله الذين ماتوا قبل البلية، وأحيا الله الذين ماتوا حين البلية»[١] وكان ذلك ﴿رَحْمَةً﴾ عظيمة ﴿مِنَّا﴾ عليه. قيل: يعني لرحمة عظيمة عليه من عندنا[٢] ﴿وَ﴾ ليكون ﴿ذِكْرَىٰ﴾ وعِظَةً وعِبرةً ﴿لِأُولِى ٱلْأَلْبَابِ﴾ ليصبروا على الشدائد كما صبر أيوب، ويلجأوا إلى الله فيما نزل بهم كما لجأ أيوب إليه، ليفعل بهم ما فعل به من حُسن العاقبة، كما تمّ لمّا حلف أيوب أن يضرب (رَحْمَة) زوجته لتقصير توهّمه في حقّها، كما مرّ تفصيله في سورة الأنبياء، وكان مغتماً على حَلْفه بعد اطّلاعه على عُذرها فيه، كشف الله غمّه بقوله: ﴿وَخُذْ﴾ يا أيوب ﴿بِيَدِكَ ضِغْثاً﴾ وحُزْمةً أو قَبضَةً من ريحان أو حشيشٍ يكون عدده مائة ﴿فَاضْرِبْ بِّهِ﴾ رحمة وأبِرّ قسمك ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ في يمينك.

ثمّ مدحه سبحانه بالصبر والقيام بوظائف العبودية والرجوع إلى الله وعدم الشكوى إلى غيره بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً﴾ على البلايا[٣] العِظام التي أصابته في نفسه وأهله وماله ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أيوب ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ إلى الله رجّاع إليه لا إلى غيره.

روي عن ابن مسعود أنّه قال: أيوب رأس الصابرين إلى يوم القيامة[٤].

روي أنّه لمّا كشف الله البلاء عن أيوب خَطَر في قلبه أنّه حسن صبره فيما نزل عليه من البلاء فنودي: يا أيوب، أأنت صبرت أم نحن صبّرناك؟ يا أيوب، لولا أنّا وضعنا تحت كلّ شعرةٍ من البلاء جبلاً من الصبر لم تصبر[٥].

وفي قوله: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ دلالةٌ على أنه علّة مدحه بالعبودية. قيل: لمّا نزل ﴿نِعْم ٱلْعَبْدُ﴾ في حقّ سليمان، وفي حقّ أيوب، عَظُم الغمّ في قلوب المؤمنين، وقالوا: لا سبيل لنا إلى تحصيل هذا الشرف؛ لأنّ سليمان ناله بمُلكٍ لا ينبغي لأحدٍ بعده، وأيوب ناله بالصبر على البلايا[٦] التي نزلت عليه، ولا نقدِر على أحدهما. فأنزل الله تعالى: ﴿نعم المولى ونعم النصير﴾[٧] والمراد أنّك إن لم تكن نِعمَ العبد، فأنا نِعمَ المولى، وإن كان منك تقصيرٌ، فمنّي الرحمة والتيسير[٨].

وَٱذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ * وَٱذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ ٱلْأَخْيَارِ * هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ

---

١. تفسير القمي ٢: ٢٤٢، تفسير الصافي ٤: ٣٠١. ٢. تفسير أبي السعود ٧: ٢٢٩، تفسير روح البيان ٨: ٤٢.
٣. في النسخة: البلاء. ٤ و٥. تفسير روح البيان ٨: ٤٥. ٦. في النسخة: البلاء.
٧. الأنفال: ٨/٤٠. ٨. تفسير الرازي ٢٦: ٢١٦.

لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ[٤٥-٤٩]

ثمّ ذكر سبحانه أحوال جمعٍ من الأنبياء العِظام بقوله: ﴿وَٱذْكُرْ﴾ يا محمّد ﴿عِبادَنَا﴾ المُخلصين ﴿إِبْرَهِيمَ﴾ كيف ابتُلي بنارِ نمرود ﴿وَإِسْحَاقَ﴾ كيف ابتُلي بالمصائب العظيمة ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ كيف ابتُلي بفراق يوسف حتّى ابيضّت عيناه من الحُزن مع أنّهم كانوا ﴿أُولِى ٱلْأَيْدِى﴾ والقوة في العبادة ﴿وَ﴾ ذوي ﴿ٱلْأَبْصَارِ﴾ والمعارف الإلهية ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم﴾ وبرّأناهم من حُبّ الدنيا والشهوات ورذائل الأخلاق، أو مَحّضناهم لنا بسبب صفةٍ كريمةٍ ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ من الخصال العالية التي لا شَوب فيها، وهي ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ الآخرة، بحيث نَسُوا الدنيا وما فيها، بل نسُوا أنفسهم.

وقيل: إنّ المراد خصصناهم بفضيلةٍ وكرامةٍ خالصةٍ لهم، وهي ذكرهم بالعَظَمة وعُلوّ الرُّتبة في الدار الآخرة، أو في الدنيا إلى يوم القيامة استجابةً لدعائهم بقوله: ﴿واجعل لنا لسان صدق فى الاخرين﴾[1].

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا﴾ وفي علمنا، أو في نظرنا ﴿لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾ والمختارين من أولاد آدم والمتجبين من الخَلْق، لكمال قُربنا، والتمحّض لعبادتنا، وتحمُّل أعباء رسالتنا، ومن ﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾ الذين لا يتمشّى منهم إلّا ما فيه رضا ربهم وصلاح دينهم ونفع أبناء جنسهم، وفي الوصفين دلالةٌ على عِصمتهم ﴿وَٱذْكُرْ﴾ يا محمّد جدّك ﴿إِسْماعِيلَ﴾ بن إبراهيم ﴿وَٱلْيَسَعَ﴾ بن أخطوب خليفة إلياس - على ما قيل - نبيّ من أنبياء بني إسرائيل[2] ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ قيل: هو إلياس[3]. وقيل: إنّه ابن عمّ اليَسَع[4] وقيل: إنّه يوشع[5] وقيل: إنّه ابن ايوب[6]، كيف قاسُوا الشدائد والآفات، وصبروا على البلايا والأذيات ﴿وَكُلٌّ﴾ منهم ﴿مِنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ المشهورين بالخير والصلاح ﴿هَٰذَا﴾ المذكور من افتتان الانبياء وصبرهم على المِحن ﴿ذِكْرٌ﴾ وعِظَةٌ لك وتَذكرة وتسلية لقلبك، حيث إنّ من شأنك أن تصبِر على ما لا يصبِر عليه غيرك.

قيل: إنّ المراد هذا الذي تلونا عليك ذكرٌ جميلٌ لهؤلاء الأنبياء يُذْكَرون به إلى آخر الدهر[7].

ثمّ سلّاه سبحانه بذكر المثُوبات التي تترتّب على التقوى وإطاعة أحكام الله الموجبة للصبر عليها بقوله: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ والمُطيعين لأوامر الله ونواهيه مع مالهم من الشرف والذِّكر الجميل ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ ومرجِع بعد الخروج من الدنيا.

---

١. تفسير الرازي ٢٦: ٢١٧، والآية من سورة الشعراء: ٢٦/٨٤.
٢. تفسير البيضاوي ٢: ٣١٤، تفسير أبي السعود ٧: ٢٣٠، تفسير روح البيان ٨: ٤٧.
٣. تفسير روح البيان ٨: ٤٧.
٤. تفسير البيضاوي ٢: ٣١٤، تفسير أبي السعود ٧: ٢٣١، تفسير روح البيان ٨: ٤٧.
٥. تفسير روح البيان ٨: ٤٧.
٦. تفسير البيضاوي ٢: ٣١٤، تفسير روح البيان ٨: ٤٧.
٧. تفسير روح البيان ٨: ٤٨.

جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ ٱلْأَبْوَابُ * مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ * وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ * هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ * إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَالَهُ مِن نَّفَادٍ * هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ * هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ[٥٠ـ٥٨]

ثمّ بيّن سبحانه حُسن مآبهم بقوله: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ وبساتين تكون لهم الإقامة فيها أبداً. وقيل: إنّ عَدن علم الجنات، لما روى عن النبيّ ﷺ قال: «أن الله تعالى بنى جنة عدنٍ بيده، وبناها بَلِبنةٍ من ذهب ولَبنةٍ من فِضّة، وجعل مِلاطها المِسك، وتُرابها الزعفران، وحصيائها الياقوت[1].

وعلى أيّ تقدير إذا جاءها المتّقون وجدوها ﴿مُفَتَّحَةً لَهُمُ ٱلْأَبْوَابُ﴾ منها فيدخلونها بلاانتظارٍ لأن يفتحها البوّابون وأن يُوذَن لهم في الدخول، بل يستقبلهم الملائكة بالترحيب والتبجيل والتسليم.

وقيل: إنّ فتح ابوابها كنايةٌ عن عدم منعهم من الدخول[2]، فاذا دخلوا الجنة جلسوا على السرير كالملوك حال كونهم ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ على النّمارق المصفوفة ومعتمدين عليها﴿فِيهَا﴾ مستريحين منعمين ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ لتلذّذهم ﴿بِفَاكِهَةٍ﴾ وأنواعٍ ﴿كَثِيرَةٍ﴾ من ثِمار الجنة ﴿وَشَرَابٍ﴾ من خمرٍ وعسلٍ ولبنٍ وغيرها.

ثمّ بيّن سبحانه منكوحهم بقوله: ﴿وَعِندَهُمْ﴾ فيها أزواج ﴿قَاصِرَاتُ ٱلطَّرْفِ﴾ على أزواجهنّ، لا ينظُرون إلى غيرهم، و ﴿أَتْرَابٌ﴾ ومتساويات مع أزواجهنّ في السنّ، لا فيهن عجوزة ولا صغيرة. قيل: لأنّ التحابّ بين الأقران أرسخ[3].

في الحديث: «يدخُل أهل الجنةِ [الجنةَ] جُرداً مكحّلين أبناء ثلاث وثلاثين سنة، لكلّ رجلٍ منهم زوجتان، على كلّ زوجةٍ سبعون حُلّة، يُرى مُخّ ساقيها من ورائها»[4].

ويقول لهم الملائكة: ﴿هَٰذَا﴾ الذي تَرون من الثواب العظيم والنعمة الجسيمة هو ﴿مَا﴾ كنتم ﴿تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا على لسان نبيكم على الايمان والتقوى ﴿لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ ووقت جزاء الأعمال ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي أنتم فيه من أنواع النِّعم والكرامات ﴿لَرِزْقُنَا﴾ وعطاؤنا لأوليائنا والمتّقين من عبادنا ﴿مَالَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ وانقطاعٍ أبداً وزوالٍ أصلاً.

عن ابن عباس: ليس لشيءٍ نَفاد، ما أكِل من ثمارها خُلّف مكانه مثله، وما أُكل من حيوانها وطيرها

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٨: ٤٨.
٣. تفسير روح البيان ٨: ٤٨.
٤. تفسير روح البيان ٨: ٤٩.

عاد مكانه حياً[١].

﴿هٰذَا﴾ الذي قلنا للمتّقين في الآخرة، وأمّا الكفّار فبيّن سبحانه أنّهم في ضدّ حال المتّقين بقوله: ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ على الله، والمكذّبين للرسل، والمتجاوزين عن الحدّ في العصيان ﴿لَشَرَّ مَـآبٍ﴾ وأسوأ مرجع بعد الموت، وإن كانوا في الدنيا أحسن حالاً من المؤمنين، واعلموا أنّ مآبهم ﴿جَهَنَّمَ﴾ التي لا شرّ منها، وهم ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ ويدخلون فيها بعُنفٍ، لأنّهم مهّدوها لأنفسهم في الدنيا ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ والفِراش جهنّم. قيل إطلاق المِهاد والفِراش عليها من التهكّم والسُّخرية[٢].

﴿هٰذَا﴾ الذي هيّئناه لهم وأحضرناه عندهم ﴿فليذوقوه﴾ وليُطعموه، وهو ﴿حَمِيمٌ﴾ ومائعٌ متناهٍ في الحرارة والحُرقة ﴿وَغَسَّاقٌ﴾ ومائعٌ متناهٍ في البُرودة. عن ابن عباس: هو الزَّمْهرير يُحرِقهم ببرده كما تُحرِقهم النار بحرّها[٣]. وقيل: إنّه ما يسيل من قيح أهل النار[٤].

وقيل: إنّه مائعٌ مُنتنٌ لو قَطَرت قطرةٌ منه في المشرق لأنتنت أهل المغرب[٥].

وعن كعب: أنّه عينٌ في جهنمّ يسيل إليها سَمّ كلّ ذي سَمّ من عقربٍ وحيّةٍ[٦].

والقمي، قال: الغسّاق: وادٍ في جهنّم فيه ثلاثمائة وثلاثون قصراً، في كلّ قصرٍ ثلاثمائة بيتٍ، في كلّ بيتٍ أربعون زاوية، في كلّ زاويةٍ شُجاعٌ[٧] في كلّ شجاعٍ ثلاثمائة وثلاثون عقرباً، في حُمَة[٨] كلّ عقرب ثلاثمائة وثلاثون قلّةً من سَمّ، لو أنّ عقرباً منها نَفَحت سَمّها على أهل جهنّم لوَسِعهم سَمّها[٩].

قيل: إنّ في الآية تقديماً وتاخيراً، والمراد هذا حميمٌ وغسّاقٌ فليذوقوه[١٠].

﴿وَ﴾ عذاب ﴿ءَاخَرُ﴾ أو مذوق آخر من مثل هذا العذاب أو المَذُوق، و﴿مِن شَكْلِهِ﴾ في التعذيب والإيلام والشدّة والفَظاعة ﴿أَزْوَاجٌ﴾ وأجناسٌ مختلفةٌ. قيل: إنّه صفةٌ للحميم والغسّاق والعذاب الآخر[١١].

هٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا ٱلنَّارِ * قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَباً بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ[٥٩ و ٦٠]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه سوء حال الكفّار في أنفسهم، بيّن حالهم مع أتباعهم ومواليهم الذين كانوا معهم

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٥٠.
٢و٣. تفسير روح البيان ٨: ٥١.
٤ و ٥. تفسير الرازي ٢٦: ٢٢١، تفسير أبي السعود ٧: ٢٣٢، تفسير روح البيان ٨: ٥١.
٦. تفسير الرازي ٢٦: ٢٢١.
٧. الشُّجاع: ضربٌ من الحيات.
٨. الحُمة: الإبرة التي تضرب بها العقرب.
٩. تفسير القمي ٢: ٢٤٢، تفسير الصافي ٤: ٣٠٦.
١٠. تفسير الرازي ٢٦: ٢٢١.
١١. تفسير الرازي ٢٦: ٢٢١.

في الدنيا مخاطباً للرؤساء بقوله: ﴿هٰذَا﴾ الفوج والجمع السريع اللحوق بكم في دخول النار أيّها الرُّؤساء ﴿فَوْجٌ﴾ وجمعٌ ﴿مُقْتَحِمٌ﴾ وداخلٌ ﴿مَعَكُمْ﴾ بالقهر والشدّة في النار، كما كانوا يتبعونكم في الدنيا، ويسارعون في قَبول قولكم في الكفر والضلال بالاختيار. قيل: هو حكايةٌ لقول الخَزَنة لرؤساء الكفار[1].

قيل: يضرب الزبانية المتبوعين والأتباع معاً بالمقامع، فيسقطون في النار خوفاً من تلك المقامع[2].

ثمَ لمّا رأى الرُّؤساء ضيق مكانهم بدخول الأتباع معهم قالوا في جواب الخَزَنة: ﴿لَا مَرْحَباً بِهِمْ﴾ ولا كرامة لهم ﴿إِنَّهُمْ﴾ أيضاً ﴿صَالُوا ٱلنَّارِ﴾ وداخلوها فيضيّقون علينا المكان، ويسوئوننا بقُبح منظرهم وسُوء صُحبتهم.

القمي، عن النبي ﷺ: «أنّ النار تضيق عليهم كضيق الزُّجّ بالرمح»[3].

فلمّا سَمِع الأتباع سوء مقال الرؤساء في حقّهم ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ﴾ أيّهاالرؤساء أحقّ بالدعاء عليكم، وأن يُقال لكم: ﴿لَا مَرْحَباً بِكُمْ﴾ ولا كرامة لكم إذ ﴿أَنتُمْ﴾ تدعوننا إلى الكفر وتزيينه في نظرنا وترغيبنا إليه، وابتليتمونا بالعذاب والصلي في النار و﴿قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ وأوقعتمونا فيه، وجعلتم النار لنا مقرّاً ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ وساء المقرّ جهنّم.

قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هٰذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِى ٱلنَّارِ * وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِنَ ٱلْأَشْرَارِ * أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَارُ * إِنَّ ذٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ[٦١ ـ ٦٤]

ثمَ أعرض الاتباع عن مكالمة رؤسائهم ومخاصمتهم، وقالوا متضرّعين إلى الله بقولهم: ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هٰذَا﴾ العذاب أو الصَّلي ﴿فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً﴾ ومُضاعفاً ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾ لضلالهم وإضلالهم.

عن القمي: تأويل الطاغين بالاول والثاني وبني أمية، وتأويل الأزواج ببني العباس، وقوله: ﴿لَا مَرْحَباً بِكُمْ﴾ يقول بنو أمية لا مرحباً بهم ﴿وَقَالُوا﴾ يعني بنو فلان: ﴿لَا مَرْحَباً بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ يعني بدأتم بظلم آل محمد ﴿قَالُوا﴾ يعني بنو أمية: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هٰذَا﴾ يعنون الأول والثاني[4].

---

١. تفسير أبي السعود ٧: ٢٣٢، تفسير روح البيان ٨: ٥٢. ٢. تفسير روح البيان ٨: ٥٢.

٣. مجمع البيان ٨: ٧٥٣، تفسير الصافي ٤: ٣٠٧، ولم أعثر عليه في تفسير القمي، والزُّج: الحديدة في أسفل الرمح.

٤. تفسير القمي ٢: ٢٤٢.

﴿وَ﴾ أمّا شرح حال الطاغين مع أعدائه المؤمنين، فهو أنّهم إذا نظروا إلى أطراف جهنّم لا يرون المؤمنين ﴿قَالُوا﴾ تعجباً وتوبيخاً ﴿مَا لَنَا﴾ وأيّ حالٍ عرض علينا بسببه ﴿لَا نَرَىٰ﴾ في جهنم ﴿رِجَالاً﴾ كانوا في الدنيا و ﴿كُنَّا﴾ فيها ﴿نَعُدُّهُم﴾ ونحسبهم ﴿مِنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ والمفسدين لمخالفتهم إيّانا في الدين، وسبّهم آلهتنا، وتشتيت شملنا، وإلقاء البغضاء بيننا. وقيل: أرادوا بالأشرار فقراء المسلمين الذين كانوا يَعُدّونهم من الأراذل والسِّفلة الذين لا خير فيهم، ويَسْخَرون منهم كسلمان وبلال وأضرابهما[١] ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً﴾ وما كانوا كما توهّمنا، فلم يدخلوا النار ﴿أَمْ﴾ دخلوها و﴿زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَارُ﴾ وانحرفت عنهم الأنظار، فلم نلتفت إليهم.

وقيل: إنّ المراد توبيخ أنفسهم عن الاستسخار منهم في الدنيا أو تحقيرهم فيها، والمعنى أي الأمرين فعلنا بهم الاستسخار منهم أو الازدراء بهم وتحقيرهم، فأنكروا كلاً من الفعلين على أنفسهم توبيخاً لها[٢].

وقيل: إنّ (أم) منقطعة، والمعنى اتخذناهم سخرياً، بل زاغت عنهم أبصارنا في الدنيا تحقيراً لهم، وكانوا خيراً منّا ونحن لا نعلم[٣] ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي حكينا وأخبرنا بوقوعها يوم القيامة ﴿لَحَقٌّ﴾ وصدقٌ وواقعٌ البتة، وهو ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ وجدا لهم فيها بعضهم مع بعضٍ.

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلٰهٍ إِلَّا ٱللهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ * رَبُّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ * قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ[٦٥-٦٨]

ثمّ لمّا ذكر سبحانه قَصَص الأنبياء الذين صبروا على البلايا والمِحَن، تسليةً للنبي، وحثاً له على الصبر على أذى قومه، وذكر بعده ثواب الايمان والتقوى، وعقاب الكفر والعِصيان لما ذكر، وليصير داعياً للكفار الى الايمان، ورادعاً لهم عن الكفر ومخالفة الرسول، عاد إلى بيان الرسالة والتوحيد بقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، للمشركين ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَ﴾ مخوّفٌ لكم من عذاب الله على الكفر والعصيان، وقل لهم: ﴿مَا مِنْ إِلٰهٍ﴾ ومعبودٍ بالاستحقاق في عالم الوجود ﴿إِلَّا ٱللهُ﴾ الذي هو ﴿ٱلْوَاحِدُ﴾ ذاتاً وصفاةً بحيث لا يُمكن تصوّر الكَثرة والتعدّد فيه بجهةٍ من الجهات أصلاً، وهو ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ لكلّ شيءٍ، والغالب على كلّ شيءٍ بقدرته يُعذّب من يشاء ويرحم من يشاء، فكيف تدّعون له شُركاء ولا تخافون قهره وعقابه؟!

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٥٣.

٢. تفسير أبي السعود ٧: ٢٣٣، تفسير الصافي ٨: ٥٤.

٣. تفسير روح البيان ٨: ٥٤.

ثمَ أكّد سبحانه وحدته وقدرته بقوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّماوَاتِ﴾ السبع ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من آلهتكم وغيرها، ومالك جميع الموجودات، ومدبّر جميع العوالم، وهو ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغْلَب في أمرٍ من الأمور، فلا يكون لشيءٍ عزّة ولا قوة ولا غَلَبة بوجهٍ من الوجوه.

ثمَ إنّه تعالى بعد ترهيب المشركين بتوصيف ذاته المقدسة بالقهارية، رغّبهم بالتوبة بتوصيف ذاته بالغفارية، كأنه قال: هو مع قهاريته، وعَظَمة سلطنته، وكمال قدرته على الانتقام ﴿ٱلْغَفَّارُ﴾ لمن خالفه وعصاه، ومع عفوه ستّار لقبائح أعماله إذا تاب وآمن وعَمِل صالحاً. في الحديث: «إذا قال العبد: يا رب اغفر لي. قال الله: أذنب عبدي ذنباً، فعَلِم أنّ له رباً يغفِر الذنوب وما يؤاخَذ[1] به، أشهدكم أنّي قد غفرت له»[2]. وإنّما قدّم ذكر وصف القهارية لمناسبته للانذار.

﴿قُلْ﴾ يا محمد، للمشركين: إنّ القرآن الذي جئتكم به ﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ وخبرٌ ذو فائدةٍ مهمةٍ، وذو شأنٍ جسيمٍ، نازلٌ من الله الكريم، يُنبّئكم بالتوحيد والنبوة والمعاد، وكيفية الحشر والجنة والنار، والعلوم الكثيرة والحكم الوفيرة، والأحكام والأخلاق والآداب، وكلّ ما تحتاجون إليه من أمور المعاش والمعاد و﴿أَنتُمْ﴾ أيّها المشركون لانغماركم في الضلال ﴿عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ ولتصلّبكم في دينكم به لا تعتنون، مع أنّ جميع الأمور المذكورة من أعظم موجبات السعادة، والجهل بها من أعظم أبواب الشّقاوة، وبداهة العقل تحكم بوجوب النظر والتفكّر فيها وعدم جواز المساهلة فيها والتغافل عنها.

مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ [٦٩ و ٧٠]

ثمَ استدلّ سبحانه على أنّ القرآن كلام الله تعالى، وأنّه نازلٌ منه إليه بالوحي بقوله: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍ﴾ ما بوجهٍ من الوجوه ﴿بِالْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ وأحوال الملائكة الساكنين في السماوات العُلى، ومكالماتهم بطريق السماع من العلماء وقراءة الكتب والحضور عندهم ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ وحين يقولون لله بعد قوله: ﴿انى جاعل فى الارض خليفة﴾[3] أتجعل فيها خلقاً تغلِب عليهم الشهوة والغضب، فيفسدون فيه ويسفِكون الدماء، ونحن مطهّرون من الرذيلتين ومنزّهون ممّا يترتّب عليهما من قبائح الأعمال، ومع ذلك نُسبّحك ونُقدّس لك. فردّه الله بقوله: ﴿انى أعلم ما لا تعلمون﴾[4] وإنّما

---

١. في تفسير روح البيان: ويأخذ. ٢. تفسير روح البيان ٨: ٥٥.

٣. البقرة: ٣٠/٢. ٤. البقرة: ٣٠/٢.

عبّر سبحانه عن تلك المكالمة بالمخاصمة، لكونها بصورة الاعتراض والردّ، وإن كان غرض الملائكة السؤال عن الحِكمة.

عن الباقر عليه السلام ـ في حديث المعراج ـ: «قال: يا محمّد. قلت: لبيك، قال: فيما اختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: سبحانك لا علم لي إلّا ما علّمتني: قال: فوضع يده ـ أي يد القدرة ـ بين كَتِفيَ، فوجدت بَرْدها بين ثَديَيّ. قال: فلم يسألني عمّا مضى وعمّا بقي إلّا عَلِمته، فقال: يا محمّد، فيما اختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: في الكفارات والدرجات والحسنات»[1].

وفي رواية (المجمع): «فأمّا الكفارات فإسباغ الوضوء في السَّبرات[2]، ونقل الأقدام إلى الجماعات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، وأمّا الدرجات فإفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام»[3].

وعلى أي تقدير، لا يُتصوّر لي طريق إلى العلم بهذه الأمور المذكورة في الكتب السماوية إلّا بالوحي من الله إليّ و ﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ وما ينزل هذه المغيبات عليّ ﴿إِلَّآ﴾ لأجل ﴿أَنَّمَا أَنَا۠﴾ رسولٌ من الله إليكم ﴿نَذِيرٌ﴾ لكم من عذاب الله على الكفر والعصيان ﴿مُّبِينٌ﴾ وظاهر إنذارتي ورسالتي عندكم بالدلائل الموضّحة لها والمعجزات الباهرة.

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌۢ بَشَراً مِن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِى فَقَعُوا لَهُۥ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ ٱلْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ [٧١ـ٨٥]

---

١. تفسير القمي ٢: ٢٤٣، تفسير الصافي ٤: ٣٠٩.

٢. السَّبرات: جمع سَبرة، الغداة الباردة.

٣. مجمع البيان ٨: ٧٥٦، تفسير الصافي ٤: ٣٠٩.

ثمَ لمّا كان المانع عن إيمان المشركين الحَسد والكِبر، وكان امتناع إبليس عن السجود لآدم ذلك المذكورين، حكى سبحانه خصومة الشيطان معه في أمره بالسجود له في الملأ الأعلى بقوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ﴾ الساكنين في الأرض أو لعمومهم ﴿إِنِّى﴾ بعد حين ﴿خَالِقٌ﴾ بقدرتي ﴿بَشَراً﴾ وإنساناً ظاهر الجِلد في الأنظار ﴿مِن طِينٍ﴾ وتُرابٍ مَبْلولٍ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ وصنعت جسده، وأكملت خلق أجزائه، وصوّرته بالصورة الإنسانية ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ﴾ بعد تسويته، وأفضت عليه الجوهر القُدسي الذي كانه لشرفه وعظمته ﴿مِن رُوحِى﴾ وليس لي روح ﴿فَقَعُوا﴾ أيّها الملائكة وخرّوا ﴿لَهُ﴾ حال كونكم ﴿سَاجِدِينَ﴾ تكريماً وتعظيماً له، لاستحقاقه منصب الخلافة الإلهية.

ثمَ لمّا أتمّ الله تعالى خلقه، ونفخ فيه الروح، قام من مكانه ﴿فَسَجَدَ﴾ له ﴿ٱلْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ من غير ريثٍ وتأخيرٍ طاعةً لله وتعظيماً لآدم. قيل: أوّل من سجد إسرافيل، ولذا جُوزي بولاية اللّوح المحفوظ[1]. ثمّ سجد سائر الملائكة ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ لأنّه ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾ وتأنّف من السجود له وتعظيمه ﴿وَكَانَ﴾ لذلك ﴿مِنَ ٱلْكَافِرِينَ﴾ لنِعم ربّه، ومنكري علمه وحكمته، أو كان في علم الله من بدو خلقته من الكافرين، وإن كان في الظاهر معدوداً من الملائكة لكثرة عبادته، فلمّا امتنع الملعون من السجود ﴿قَالَ﴾ الله مشافهةً له: ﴿يَا إِبْلِيسُ﴾ أخبرني ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ وأي رادعٍ ردعك من ﴿أَن تَسْجُدَ﴾ إكراماً وتعظيماً ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ وأوجدته بقدرتي بلا توسّط أب وأُمّ ودخالة شيء من الأسباب.

عن الرضا عليه السلام، قال: «يعني بقدرتي وقوّتي»[2].

قيل: إنّ تثنية اليد كناية عن كمال القدرة في خلقه[3].

وقيل: أُريد يد القدرة ويد النعمة[4].

وقيل: لمّا كان مباشرة السلطان حمل شيءٍ بيده دليل على كمال عنايته به، كنّى سبحانه عن غاية عنايته بخلق آدم بقوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[5].

﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ الآن، وهل تعظّمت في نفسك بغير جهة ﴿أَمْ كُنتَ﴾ في الواقع، أو من قبل ﴿مِنَ﴾ الأكابر و ﴿ٱلْعَالِينَ﴾ شأناً بالاستحقاق؟!

قيل: إنّ المراد من العالين الملائكة الذين لم يؤمروابالسجود، وهم الأرواح الجرّدة[6]، أو المراد

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٥٩.

٢. التوحيد: ٢/١٥٣، عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٣/١٢٠، تفسير الصافي ٤: ٣١٠.

٣. تفسير روح البيان ٨: ٦٠.

٤. تفسير الرازي ٢٦: ٢٣٠ و٢٣١، تفسير روح البيان ٨: ٦٠.

٥. تفسير الرازي ٢٦: ٢٣١.

٦. تفسير روح البيان ٨: ٦١.

أشباح محمد ﷺ وأوصيائه الذين كانوا يعبُدون الله عند ساق العرش[١].

﴿قَالَ﴾ إبليس: سجود الأفضل للمفضول قبيحٌ، و﴿أَنَا خَيْرٌ﴾ من آدم وأفضل ﴿مِنْهُ﴾ ذاتاً وخلقة؛ لأنك ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَارٍ﴾ متصاعدةٍ بالطبع نوارنية لطيفة بالذات، وأين أنا من آدم الذي أوجدته ﴿وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ هابطٍ بالطبع ظُلماني، كثيف بالذات!

بيان وجوه خيرية التراب على النار

والحاصل أن آدم لو كان مخلوقاً من النار ما سجدت له، لكونه مثلي، فيكف أسجُد وأخضع له وهو دوني، وهذا المانع الذي أبداه في الظاهر ـ وإن كان مانعه في الحقيقة الكِبر والحسد ـ في غاية الفساد؛ لأنّ مباشرته تعالى خلقته بذاته المقدّسة ونفخه فيه من روحه وإفاضة العلم الذي لا يعلمه الملائكة المقربّون عليه، من أقوى الأدلّة على فضله عليه وعلى سائر الملائكة مع أنّه قيل: إنّ التراب خيرٌ من النار لوجوه:

منها: أنّ طبع النار الفساد وإتلاف ما تعلّقت به، بخلاف التراب فانّه إذا وُضِع فيه البَذْر أخرجه أضعاف ما وُضِع فيه، بخلاف النار فانّها آكلةٌ له.

ومنها: أنّ طبع النار الخِفّة والطَّيش والحِدّة، بخلاف التراب فانّ طبعه الرَّزانة والسُّكون والثَّبات.

ومنها: أنّ التُّراب يتكوّن فيه ومنه أرزاق الحيوانات وأقواتهم، ولباس الناس وزينتهم، وآلات معايشهم ومساكنهم، وليس في النار تلك الفوائد.

ومنها: أنّ التُّراب ضروريٌّ للحيوانات لا يستغنون عنه في حالٍ ولا عمّا يتكون فيه ومنه، والنار يستغني عنها الحيوان مُطلقاً إلّا الإنسان، وهو أيضاً يستغني عنها أياماً وشهوراً، ومنها أنّ النار لا تقوم بنفسها، بل هي مفتقرةٌ إلى محلّ تقوم به يكون حاملاً لها، والتراب يقوم بنفسه لا يفتقر إلى حامل.

أقول: فيه نظرٌ ظاهرٌ.

ومنها: أنّ النار مفتقرةٌ إلى التراب، لأنّ المحلّ الذي تقوم به لا يتكوّن إلّا من تراب أو فيه، [فهي المفتقرة إلى التراب] والتراب غنيٌّ عنها.

أقول: وفيه نظرٌ.

ومنها: أنّ مادة إبليس هي المارج من نار، وهو ضعيفٌ تتلاعب به الأهوية، فيميل معها كيف ما مالت، ولذا غلب الهوى على المخلوقين منه فأسره وقهره، بخلاف مادة آدم، وهي التراب، فهو قوّي لا يذهب مع الهواء أين ذهب، فهو قهر هواه وأسره، ورجع إلى ربّه فاجتباه، فكان الهواء الذي مع مادة آدم سريع الزوال فزال، وعاد آدم إلى الثبات والرزانة التي كانت أصلاً له، وكان إبليس بالعكس،

---

١. فضائل الشيعة: ٤٩/٧، تأويل الآيات ٢: ١١/٥٠٨.

فعاد كلٌّ إلى أصله وعُنصره، آدم إلى أصله الطيب الشريف، واللّعين إلى أصله الرديء الخبيث.

ومنها: أنّ النار وإن كان لها بعض المنافع كالطبخ والتسخين والاستضاءة بها، إلّا أن الشرّ كامنٌ فيها، لا يَصُدّها عنه إلّا قسرها وحبسها، ولولا ذلك لأفسدت الحرث والنسل، وأمّا التراب فالخير والبركة كامنٌ فيه، كلّما اُثير وقُلِب ظهر خيره وبركته وثمرته.

ومنها: أنّ الله تعالى أكثر ذِكر الأرض في كتابه، وأخبر عن منافعها، وأنّه جعلها، مِهاداً وَفِراشاً وبِساطاً وقَراراً وكِفاتاً للأحياء والأموات، ودعا عباده إلى التفكّر فيها، والنظر في آياتها وعجائبها وما أودع فيها، ولم يذكُر النار إلّا في معرض العقوبة والتخويف والعذاب، إلّا موضعاً أو موضعين ذكرها فيه بأنّها تذكرةٌ ومتاعٌ للمُقوين، تذكرةً بنار الآخرة، وتمتّع الآخرة، وتمتّع بها بعض الناس، وهم النازلون بالقَواء، وهي الأرض الخالية، إذا نزل بها المسافر، فانّه يتمتّع بالنار في منزله.

ومنها: أنّ الله تعالى وصف الأرض بالبركة في غير موضعٍ من كتابه عموماً، كما في قوله: ﴿**وبارك فيها**﴾ [1] وخصوصاً كما في قوله: ﴿**ونجيناه ولوطاً إلى الارض التى باركنا فيها**﴾ [2] الآية، ونحوها. وأمّا النار فلم يُخبِر أنّ فيها بركةً، بل المشهور أنّها مُذهِبةٌ للبركات.

ومنها: أنّ الله جعل الأرض محلّ بيوته التي يُذْكَر فيها اسمه ويُسبّح له فيها بالغُدوّ والآصال عموماً، وبيته الحرام الذي جعله قياماً للناس مباركاً وهُدىً للعالمين خصوصاً، فلو لم يكن في الأرض إلّا بيته الحرام لكفاها شرفاً وفخراً على النار.

ومنها: أنّ الله أودع في الأرض من المعادن والأنهار والعيون والثمرات والحبوب والأقوات وأصناف الحيوانات وأمتعتها، والجبال والرِّياض والمراكب البَهِيّة والصور البهيجة مالم يُودِع في النار.

ومنها: أنّ غاية النار أنّها وُضِعت خادمةً لما في الأرض، فانّ محلّها محلّ الخادم لهذه الأشياءَ فهي تابعة لها، فاذا استغنت عنها طردتها، وإذا احتاجت إليها استدعتها استدعاء المخدوم لخادمه [3].

فلمّا أظهر اللّعين التكبّر على آدم ﴿**قَالَ**﴾ الله تعالى: ﴿**فَاخْرُجْ**﴾ يا إبليس من الجنّة، أو من السماوات، أو من بين الملائكة، وابعُد ﴿**مِنْهَا**﴾ قيل: تبيعده بإهباطه إلى الأرض [4].

ثمّ بيّن سبحانه علّة أمره بخروجه بقوله: ﴿**فَإِنَّكَ رَجِيمٌ**﴾ ومطرودٌ من ساحة رحمتي وكلّ خير وبركة، وإنّما كنّى عن الطرد بالرجم، لأنّ كلّ مطرودٍ مهانٌ يُرْجَم بالحجارة. وقيل: إنّ المراد مرجومٌ

---

١. فصلت: ٤١/١٠. ٢. الأنبياء: ٢١/٧١. ٣. تفسير روح البيان ٨: ٦٢.

٤. تفسير روح البيان ٨: ٦٤.

بالشُّهب[١] ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ والانقطاع عن رحمتي وفيوضاتي مستمراً و ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ووقت جزاء الأعمال، فلا توفّق لعمل يُوجِب نجاتك من النار، ومن كان ملعوناً قبل اليوم كان ملعوناً إلى الأبد ومُبتلىً بعذاب شديد هو نتيجة اللعن في الدنيا ﴿قَالَ﴾ إبليس: ﴿رَبِّ﴾ إذا آل أمري إلى الطرد واللعن ﴿فَأَنظِرْنِي﴾ ومهّلني في الدنيا ولا تُمتني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ﴾ القيامة الذي يحيل فيه آدم وذُرّيته و ﴿يُبْعَثُونَ﴾ من قبورهم للحساب. ولمّا كان إمهاله إلى يوم البعث مستلزماً لعدم موته أبداً، لم يُجبه الله تعالى [إلى] مسؤوله، بل ﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ والمُمهلين جزاءً لعبادتك، ولكن ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ عند الله غير معلومٍ لغيره، وهو النفخة الأولى على قولٍ، أو الرجعة لا إلى يوم البعث.

فلمّا ظهر قَهْر الله وطرده في الدنيا وتعذيبه في الآخرة ﴿قَالَ﴾: إذن ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ وقَهرك وسُلطانك، لآخذ ثأري من ذُريّة آدم ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ أحملنهم على العِصيان بالوساوس والتسويلات، ولأضلّنهم عن الحقّ بإلقاء الشكوك والشُّبهات فيهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

ثمّ لمّا رأى علوّ مقام الخُلَصين من عباده وعجزه عن إغوائهم قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ﴾ أعني ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أخلصتهم لنفسك وطاعتك، عصمتهم من الزلّات والتوجه إلى غيرك، لئلا يقع الخُلف في وعيده، والكِذب في إخباره ﴿قَالَ﴾ الله تعالى تهديداً لابليس والتابعين له من ذُرّيته: ﴿فَٱلْحَقُّ﴾ قسمي، أو أنا الحقّ ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ وقيل: إنّ المعنى فالحقّ تقول، والحقّ أقول وعزّتي ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ يوم القيامة ﴿جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ ومن جِنسك من الشياطين ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ من ذُرية آدم وأطاعك ﴿مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لاأترك من التابعين والمتبوعين أحداً.

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [٨٦-٨٨]

ثمّ إنّه تعالى بعد أمر النبي ﷺ بالاستدلال على بنوّته، وصدق كتابه، باشتماله على المُغيبات التي لا تُعلم إلّا بالوحي، من تخاصم الملائكة، وتمرُّد الشيطان من أمره بالسجود لآدم، وهو المقتضي للايمان، أمره بالاعلان بعدم طمعه في أموال الناس المانع لايمانهم بقوله ﴿قُلْ﴾ يا محمد: أنا مأمورٌ من قبل الله بتبليغ كتابه، وإرشادكم إلى التوحيد والطريق الحقّ و﴿مَا أَسْأَلُكُمْ﴾ ولا أطمع منكم ﴿عَلَيْهِ﴾ شيئاً يسيراً ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ ومالٍ، لأنّ عملي لله وأجري عليه ﴿ وَمَا أَنَا﴾ في دعوتي بنبوتي

---

١. تفسير الرازي ٢٦: ٢٣٤، تفسير روح البيان ٨: ٦٤.

وكتابي ﴿مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ والمتعسّفين في دعوى شيءٍ لا واقع له ولا حقيقة، بل دعوتكم إلى ما دلّ عليه البرهان وحَكم به العقل السليم والمعجزات الباهرات.

عن النبي ﷺ: «أنا بريئ من التكلّف وصالح اُمّتي»[١].

وفي حديث آخر: «أنا والأتقياء من اُمّتي بُرآء من التكلّف»[٢].

وعنه ﷺ: «للمتكلّف ثلاث علامات: يُنازع من فوقه، ويتعاطى ما لا ينال، ويقول ما لا يعلم»[٣].

وعن ابن مسعود: يا أيّها الناس، من عَلِم شيئاً فليقل، ومن لم يعلم شيئاً فليقل: الله أعلم، فانّ من العلم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم، فانّه تعالى قال لنبيه: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾»[٤].

عن الباقر عليه السلام: «قال لأعداء الله أولياء الشيطان أهل التكذيب والإنكار: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ يقول: مُتكلّفاً أن أسألكم ما لستم بأهله»[٥].

وعن الرضا عليه السلام، عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنّ المسلمين قالوا لرسول الله: لو أكرهت يا رسول الله من قَدِرت عليه من الناس على الاسلام لكثّر عددنا وقوينا على عدونا؟ فقال رسول الله ﷺ: ماكنت لألقى الله تعالى ببِدعةٍ لم يُحدِث لي فيها شيئاً، وما أنا من المتكلّفين»[٦].

عن الصادق عليه السلام، قال: «المتكلّف يُخطئ وإن أصاب، والمُتكلّف لا يستجلب في عاقبة أمره إلّا الهَوان، في الوقت إلّا التعب والعَناء والشَّقاء، والمتكلّف ظاهره رِياء، وباطنه نفاق، وهما جنَاحان بهما يطير المُتكلّف، [و] ليس بالجملة من أخلاق الصالحين ولا من شِعار المتّقين التكلّف في أيّ باب كان، قال الله لنبيه: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾»[٧].

ثمّ أكّد سبحانه كون القرآن تنزيلاً من الله، بأنّه لو كان من الخلق لكان فيه الترغيب إلى الدنيا، والإلهاء عن ذكر الله، والقَصَص الكاذبة، والمطالب الباطلة. و﴿إِنْ﴾ هذا القرآن، وما ﴿هُوَ﴾ من أوله إلى آخره ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ وعِظةٌ ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ وهدىً ورحمةً للمتقين من الجِنّة والناس أجمعين ﴿وَ﴾ الله ﴿لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ﴾ والخبر العظيم الشأن الذي فيه من الوعد والوعيد والترغيب والتهديد، أو خبره من حيث الصدق والكذب ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ وزمانٍ مبهمٍ قريبٍ. قيل: هو وقت الموت. وقيل: يوم القيامة[٨]. وكلّ آتٍ قريبٌ، أو عند خروج القائم عليه السلام كما عن أمير المؤمنين عليه السلام[٩]، وفي غاية التهديد[١٠].

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٨: ٦٧.

٣. جوامع الجامع: ٤٠٨، تفسير الصافي ٤: ٣١١، تفسير روح البيان ٨: ٦٧.

٤. تفسير روح البيان ٨: ٦٧.

٥. الكافي ٨: ٥٧٤/٣٧٩، تفسير الصافي ٤: ٣١١.

٦. التوحيد: ١١/٣٤٢، تفسير الصافي ٤: ٣١١.

٧. مصباح الشريعة: ١٤٠، تفسير الصافي ٤: ٣١١.

٨. تفسير أبي السعود ٧: ٢٣٩، تفسير روح البيان ٨: ٦٨.

٩. الكافي ٨: ٤٣٢/٢٨٧، تفسير الصافي ٤: ٣١٢.

١٠. تفسير أبي السعود ٧: ٢٣٩، تفسير روح البيان ٨: ٦٨.

عن الباقر عليه السلام: «من قرأ سورة «صَ» في ليلة الجمعة أُعطي من خير الدنيا والآخرة مالم يُعط أحدٌ من الناس إلّا نبي مرسل أو مَلَك مقرّب، وأدخله الجنة، وكل من أحبّ من أهل بيته حتى خادمه الذي يخدُمه، وإن كان لم يكن في حدّ عياله ومن يُشَفّع فيه»[1].

قد تمّ تفسير السورة بعون الله بتارك وتعالى.

---

١. ثواب الاعمال: ١١٢، مجمع البيان ٨: ٧٢٣، تفسير الصافي ٤: ٣١٢.

في تفسير سورة الزُّمر

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَنزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ ٱللهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ * إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ ٱللهَ مُخْلِصاً لَهُ ٱلدِّينَ [١و٢]

ثمّ لمّا كانت سورة «صَ» متضمنة لبيان التوحيد والنبوة والمعاد، باثبات كون القرآن نازلاً من الله تبارك وتعالى، نظمت بعدها سورة الزُّمر المتضمّنة لبيان التوحيد والمعاد، المبدوءة بعد افتتاحها بذكر الاسماء المباركات بقوله: ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بكون القرآن مُنزَلاً من الله بقوله: ﴿تنزِيلُ﴾ هذا ﴿ٱلْكِتَابِ﴾ المُسمّى بالقرآن يكون ﴿مِنَ﴾ جانب ﴿ٱللهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ القادر على كلّ شيءٍ ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ والعالم بجميع الأشياء وصلاحها، فبقدرته ألفَه من الحروف المتداولة في الإنس، بكيفيةٍ عَجَزت الإنس والجنّ عن الإتيان بمثله، ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً. وبحكمته جعله مشتملاً على الحكم التي لا يُحيط بها أحدٌ، وعلى جميع ما يحتاج إليه الناس إلى يوم القيامة.

وقيل: إنّ الوصفين للكتاب[1]، والمعنى تنزيل الكتاب من الله، وهو كتابٌ عزيزٌ حكيمٌ لظهور الوصفين فيه، بجريان أحكامه، ونفاذ أوامره ونواهيه من غير مدافعٍ ولا مانعٍ، وابتناء جميع ما فيه على أساس الحكم الباهرة.

ثمّ لمّا كان لازم الايمان بكون القرآن نازلاً من الله القيام بعبوديته وترك عبادة غيره، أكّد سبحانه نزوله من الله بقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمّد ﴿ٱلْكِتَابِ﴾ المقرون ﴿بِالْحَقِّ﴾ ودلائل الصدق، من إعجاز البيان، واشتماله على العلوم الكثيرة، والأمور الغيبية.

وقيل: إنّ الأول لبيان شأن المُنزَل، والثاني لبيان شأن المُنزَل إليه، فلا تَكْرار، وذكر لفظ الكتاب في موضع ضميره لبيان عظمته وعلوّ شأنه[2].

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٦٩.

٢. تفسير أبي السعود ٧: ٢٤٠، تفسير روح البيان ٨: ٦٩.

وقيل: إنّ معنى بالحقّ بسبب الحقّ وإثباته وإظهاره، أو المعنى كونا محقّين في ذلك[1].

ثمّ رتّب عليه الأمر بالعبادة الخالصة له بقوله: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ﴾ يا محمد، حال كونك ﴿مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ الذي أوحينا إليك، ومُمحضاً له الطاعة من شوائب الشرك والرياء والشك والهوى، ومن المعلوم أنّ المخاطب في الظاهر هو النبي ﷺ، وفي الحقيقة هو اُمّته.

أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ[٣]

ثمّ كون الخطاب إلى العموم بقوله: ﴿أَلَا﴾ أيها العقلاء تنبّهوا على أنّ ﴿لِلَّهِ﴾ خاصة ﴿الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ من الشرك والشكّ ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ واختاروا لأنفسهم ﴿مِن دُونِهِ﴾ وممّا سواه ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ وأرباباً هم مشركون، وإذا قيل لهم: لم تَعْبُدون الأصنام مع اعترافكم بأنّ الله خالقكم وخالق السماوات والأرض وما بينهما؟ قالوا: لا ندعوا الأصنام و﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ لغرض من الأغراض ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ وقُربى، وليكونوا وسيلة عُلوّ منزلتنا عنده.

ثمّ هدّد سبحانه المشركين المعارضين والمخالفين للمخلصين بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ﴾ يوم القيامة ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بعدله ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين بتعذيب المشركين وإكرام المخلصين، أو المراد يحكُم بين المشركين ومعبوديهم، حيث إنّ المشركين يرجون شفاعة أصنامهم وأصنامهم يلعنونهم.

عن الصادق عليه السلام، عن أبيه عليه السلام: «أنّ رسول الله قال: إنّ الله تبارك وتعالى يأتي يوم القيامة بكلّ شيء يُعْبَد من دونه من شمسٍ أو قمرٍ أو غير ذلك، ثمّ يسأل كل إنسان عمّا كان يعبُد، فيقول من عبد غيره: ربّنا إنّا كنّا نعبُده ليُقرّبنا إليك زُلفى. قال: فيقول الله تبارك وتعالى للملائكة: أذهبوا وبما كانوا يعبدون إلى النار، ما خلا من استثنيت، فانّ اُولئك عنها مُبْعَدون»[2].

ثمّ هدّدهم بحرمانهم عن الحقّ، ووصولهم إلى المقصود في الدنيا بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ ولا يُوفّق للوصول إلى الحقّ والمقصود ﴿مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ ولا يُوفّق للوصول إلى الحقّ والمقصود ﴿مَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ في القول بألوهية الأصنام، وتقريبهم عَبَدتهم إلى الله، وشفاعتهم عنهم عند الله

---

١. تفسير أبي السعود ٧: ٢٤٠، تفسير روح البيان ٨: ٦٩.
٢. قرب الإسناد: ٢٧٩/٨٥، تفسير الصافي ٤: ٣١٣.

و﴿كَفَّارٌ﴾ ومُبالغ في تضييع حقوق نِعم الله، أو مُصرّ في كفرهم وعبادتهم غير الله.

﴿لَوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ * خَلَقَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱللَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱللَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمّىً أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ﴾[٤ و ٥]

ثمّ إنّه تعالى بعد تهديد المشركين شَرَع في إبطال مذاهبهم التي منها القول بأنّ الملائكة بنات الله بقوله: ﴿لَوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ﴾ ويختار لنفسه ﴿وَلَداً﴾ كما زعمه بعض المشركين واليهود والنصارى ﴿لاصْطَفَىٰ﴾ وانتخب ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ ويقدِر على اتخاذ ﴿مَا يَشَاءُ﴾ أن يكون ولده، ومن الجواهر القدسية والعقول المجرّدة، لا عيسى ومريم وعزير، ولا البنات التي تكرهونها لأنفسكم ﴿سُبْحَانَهُ﴾ وتقدّس ذاته عمّا نسبوا إليه من الولد، لامتناعه له، بل ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ الواجب الوجود ﴿ٱلْوَاحِدُ﴾ من جميع الجهات لا تركيب له ولا ثاني له ولا صاحبة ولا ولد، هو ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ الذي يقهر جميع الموجودات بقدرته، فلا يحتاج إلى ولدٍ يعاونه في الأمور ويقوم مقامه بعد الموت.

ثمّ أكّد سبحانه كمال قدرته وغَناءه بقوله: ﴿خَلَقَ﴾ بقدرته الكاملة، بلا مشارك ولا معاون ﴿ٱلسَّماوَاتِ﴾ السبع ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ وما بينهما، والحال أنّ خلقها ﴿بِالْحَقِّ﴾ والحكمة البالغة، لا بالعبث والباطل و ﴿يُكَوِّرُ ٱللَّيْلَ﴾ ويغلبه ﴿عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ بحيث يذهب النهار عن الأبصار ﴿وَيُكَوِّرُ﴾ ويُغلِب ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ بنوره ﴿عَلَى ٱللَّيْلِ﴾ المظلم بحيث يُزيل ظلمته، فشبّه سبحانه النور والظلمة بعسكرين مهيبين عظيمين قد يغلِب هذا ذاك، وقد يغلِب ذاك هذا. وقيل: إنّ التكوير بمعنى الإقبال[١]، وعلى أي تقدير اُريد زيادة أحدهما ونقص الآخر، وذلك دليلٌ على كونهما تحت تدبيره وقدرته ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ﴾ التي هي سلطان النهار ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ الذي هو سلطان الليل، وذلّلهما تحت قدرته وسلطانه، وجعلهما منقادين لأمره وإرادته، فبارادته ﴿كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجْرِى﴾ ويسير في الفلك على وَفْق صلاح العالم ﴿لِأَجَلٍ﴾ ووقتٍ ﴿مُسَمّىً﴾ ومعينٍ قدّره الله بحكمته، وهو منتهى دورته في كلّ يوم، أو في كلّ شهرٍ أو منتهى حركته وسيره، وهو يوم القيامة الذي فيه تُطوى السماء كطَيِّ السِّجَل للكتب.

ثمّ لمّا ذكر سبحانه الآيات العظيمة على قدرته الكاملة، أعلن في الناس بانحصار القدره في ذاته

---

١. تفسير الرازي ٢٦: ٢٤٤.

المقدّسة بقوله، ﴿أَلَا﴾ أيّها العقلاء اعلموا أنّ الله تعالى ﴿هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ والغالب القادر على كلّ شيء.

ثمّ لماكانت قدرته موجباً لارعاب القلوب وترهيب النفوس منه، أعلن بكمال رحمته ورأفته بعباده بقوله: ﴿ٱلْغَفَّارُ﴾ بعباده لا يقطع عنهم رحمته بعصيانهم، ولا يعاجل بالعقوبة على سيئاتهم.

قيل: الغفّار وهو ستّار القبائح، فكما ستر قبائح الأبدان وقذاراتهم في باطنهم، يستُر خواطرهم المذمومة وإرادتهم السيئة، كارادة الغشّ والخيانة والظنون الرديئة في ضميرهم، مع أنّه لو كانت ظاهرة لمقتوا أصحابها، بل قتلوهم، وكذلك يستُر ذنوبهم التي موجبة للافتضاح بها عن الناس، بتبديلها بالحسنات إذا مات على الإيمان[١].

خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِنَ ٱلْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذٰلِكُمُ ٱللهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ[٦]

ثمّ إنه تعالى بعد استدلاله على التوحيد بالآيات الآفاقية، استدلّ عليه بالآيات الأنفسية بقوله: ﴿خَلَقَكُم﴾ الله بقدرته ﴿مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهي آدم أبو البشر ﴿ثُمَّ جَعَلَ﴾ وخلق من جنس تلك النفس أو من جزء ﴿مِنْهَا﴾ وهو الضِلْع الذي يلي الخاصرة، أو من بقية طينتها ﴿زَوْجَهَا﴾ حوّاء ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ إلى الأرض من الجنّة على قول[٢]، أو خلق لانتفاعكم، كما عن أمير المؤمنين عليه السلام[٣] ﴿مِنَ ٱلْأَنْعَامِ﴾ الأربعة: الإبل، والبقر، والضأن، والمَعز، للإبل قسمان: بخاتي[٤] وعِراب، وللثلاثة الأُخر أيضاً قسمان: أهلي، ووحشي، أو لكلٍّ قسمان: الذكر، والأنثى، فيصير المجموع ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ وأصناف، ولمّا كان انتفاع الناس بالأنعام أكثر، أو لكونها أشرف الحيوانات، خصّها بالذّكر.

ثمّ لمّا ذكر سبحانه مبدأ خلق الانسان، وكونهم من نفسٍ واحدةٍ، ذكر كيفية خلقهم بقوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾ أيّها الناس ﴿فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ وأرحامهنّ ﴿خَلْقاً﴾ تدريجياً ومتأخّراً ﴿مِن بَعْدِ خَلْقٍ﴾ سابقٍ فخلقكم إنساناً سوياً من بعد تكسية عظامكم بلحم، وذلك بعد خلقكم عظاماً، وذلك بعد خلقكم مُضغة، وذلك بعد خلقكم عَلقةً، وذلك بعد خلقكم نُطفةً، وكلّ ذلك كائنٌ ﴿فِى ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾: ظلمة البطن، وظُلمة الرّحم، وظُلمة المشيمة، كما عن الباقر عليه السلام[٥] أو ظُلمة الصُّلب، وظُلمة

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٧٣.
٢. تفسير الرازي ٢٦: ٢٤٥.
٣. الاحتجاج: ٢٥٠، تفسير الصافي ٤: ٣١٤.
٤. البَخاتي: الإبل الخراسانية.
٥. مجمع البيان ٨: ٧٦٦، تفسير الصافي ٤: ٣١٥.

البطن، وظُلمة الرَّحم[١].

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ القادر الحكيم ﴿ٱللَّهُ﴾ وهو ﴿رَبُّكُمْ﴾ ومُكمَل وجودكم في تلك الأطوار وما بعدها، أو مالككم المُنعِم عليكم في جميع العوالم، المستحقّ لعبادتكم و ﴿لَهُ﴾ وحده ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ والسَّلطنة المُطلقة الكاملة لا لغيره، فاذن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا معبود سواه، فاذا عرفتم خالقكم وما لككم والمُنعِم عليكم، والسلطان المقتدر عليكم ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ وكيف تردون عن عبادته، وتعرضون عن إطاعته، وتشتغلون بعبادة الأصنام والجمادات؟!

إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ[٧]

ثمّ أنتم ـ أيّها الناس ـ بعد الإحاطة بما تلونا عليكم من آيات وحدانيته وقدرته وحكمته، وتُنزّهه عن الشريك والولد ﴿إِن تَكْفُرُوا﴾ بوحدانيته ونِعمه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ بذاته ﴿غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ وعن إيمانكم وعبادتكم، بل عن العالمين، فانّه واجب الوجود من جميع الجهات، وكامل الصفات بالذات، لا يُتصوَر فيه الحاجة حتى يقضي بكم حاجته، ﴿وَ﴾ لكن ﴿لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ لُطفاً بهم ورحمةً عليهم، حيث إنّ الكفر يَضُرّهم ويُسقطهم عن أهلية الرحمة والإنعام، ويحرِمهم عن الفيوضات الابدية الدنيوية والأُخروية. القمي: هذا كفُر النِّعم[٢].

﴿وَإِن تَشْكُرُوا﴾ نِعمه بالايمان والقيام بالعبودية، رُوي أنّ الشكر الولاية والمعرفة[٣]، يُحبّ الله الشكر و﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ لأنّه سبب فوزكم بسعادة الدارين والنشأتين لا لانتفاعه تعالى به.

ثمّ لمّا ذكر سبحانه غضبه وسَخَطه على الكفر، نبّه بأنّ ضَرره وتَبِعاته لا تتعدّى الكافر، ولا تسرى إلى غيره بقوله: ﴿ولا تَزِرُ﴾ ولا تحمِل نفس ﴿وَازِرَةٌ﴾ وحاملة للكفر وثقل العصيان ﴿وِزْرَ﴾ نفس ﴿أُخْرَىٰ﴾ وحملها من الذنب والمعصية، بل كلّ نفسٍ تحمل وزر نفسها ويعاقب عليه ﴿ثُمَّ﴾ بعد الموت ﴿إِلَىٰ رَبِّكُم﴾ ومالك أمركم وحده ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ ومصيركم بالبعث والنشور ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ ويُخبركم عند ذلك ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والايمان والطاعة والعصيان بالمحاسبة والمجازاة، والثواب والعقاب، وفيه غاية التهديد على الكفر.

---

١. مجمع البيان ٨: ٧٦٦، تفسير الرازي ٢٦: ٢٤٥، تفسير روح البيان ٨: ٧٥.

٢. تفسير القمي ٢: ٢٤٦، تفسير الصافي ٤: ٣١٥.

٣. المحاسن: ١٤٩/٦٥، تفسير الصافي ٤: ٣١٥.

ثمَ لمّا كان الخوف من العقاب متوقَفاً على علم المعاقب بالعصيان، أعلن سبحانه بسعة علمه بقوله: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ والمضمرات في القلوب، فكيف بغيرها من الأعمال الظاهرة؟

وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلهِ أَندَاداً لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلنَّارِ[٨]

ثمَ إنّه تعالى بعد الاستدلال على التوحيد بالأدلة الواضحة وإظهار سَخَطه على الشرك، بيّن شدّة لَجاج المشركين وكفرانهم نِعمه بقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ﴾ وأصاب ﴿ٱلْإِنسَانَ﴾ الجهول المُشرِك ﴿ضُرٌّ﴾ وسوء حال من فقرٍ أو مرضٍ أو غيرهما من الشدائد ﴿دَعَا رَبَّهُ﴾ في كشف ذلك الضُّرّ، ونادى مالكه القادر على دفعه للخلاص من تلك البلية حال كونه ﴿مُنِيباً﴾ وراجعاً ﴿إِلَيْهِ﴾ بالتوبة وإخلاص العمل، وخاضعاً له، ومتضرّعاً عنده ﴿ثُمَّ إِذَا﴾ أزال الله عنه و﴿خَوَّلَهُ﴾ وأعطاه ﴿نِعْمَةً﴾ عظيمة ﴿مِنْهُ﴾ من الغِنى والصحة والراحة ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا﴾ الله ﴿إِلَيْهِ﴾ من الضُّرّ يسأله كشفه ﴿مِن قَبْلُ﴾ أو نسي ربّه الذي كان ذلك الكافر يدعوه ويتضَرع اليه من قبل التحوّل والإعطاء، ومرّ كأن لم يَدْعُه لم يتضرّع إليه، ورجع إلى عبادة الاوثان ﴿وَجَعَلَ﴾ في حسبانه تلك الأوثان ﴿لِلهِ أَندَاداً﴾ وشركاء في العبارة، أو أمثالاً في القدرة، أو أضداداً في الألوهية، وهذا من أعجب الأعاجيب، حيث إنّهم في حال الضرر يعتقدون توحيده وقدرته على جميع الأمور، وفي حال الرَّخاء يعتقدون كون الجمادات امثالاً له في القُدرة، وشركاء له في الألوهية. ومن الواضح أنّ ارتكاب هذين المتناقضين لا يكون إلّا بهوى النفس واتّباع الشهوة، ليضل بنفسه عن سبيل الله ﴿لِيُضِلَّ﴾ الناس أيضاً ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ إلى قربه، وإلى كلّ خيرٍ وهو التوحيد.

ثمَ أمر سبحانه نبيّه ﷺ بتهديدهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهذا الكافر: ﴿تَمَتَّعْ﴾ وانتفع من نِعم الدنيا ﴿بِكُفْرِكَ﴾ الذي تخيّلته وسيلةً إلى نيل تلك النِّعم والانتفاع بها تمتّعاً وانتفاعاً ﴿قَلِيلاً﴾ أو زماناً يسيراً، ولكن لا تفرح بذلك ﴿إِنَّكَ﴾ في الآخرة ﴿مِنْ أَصْحَابِ ٱلنَّارِ﴾ ومُلازمها، ومن الواضح أنّ لذة تمتّعك في تمام عمر الدنيا لا يُعدّ في جنب عذاب الآخرة بشيء.

عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية فقال عليه السلام: «نزلت في أبي الفصيل، إنّه كان رسول الله ﷺ عنده ساحراً، فكان إذا مَسّه الضرر، يعني السَّقَم ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيهِ﴾ يعني تائباً إليه، من قوله في رسول الله ﷺ ما يقول: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً﴾ يعني العافية ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ يعني

نسي التوبة إلى الله تعالى ممّا يقول في رسول الله إنّه ساحرٌ، ولذلك قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلنَّارِ﴾ يعني إمْرَتَك على الناس بغير حقٍّ من الله تعالى ومن رسوله»[١].

أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ ٱللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ[٩]

ثمّ إنّه تعالى بعد ذمّ المشرك وتهديده، مدح الموحّد المنقطع إلى الله بقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ وعابدٌ لله ﴿آنَاءَ ٱللَّيْلِ﴾ وساعاته حال كونه ﴿سَاجِداً﴾ لله ﴿وَقَائِماً﴾ في الصلاة وباجتهاده في العبادة ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ﴾ ويتقّي من أهوالها، ﴿وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ ومغفرته، وفضله عليه بالجنة ونِعمها الدائمة،لا إنّه يحذر ضرر الدنيا ويرجو منافعها فقط، كمن يُعرِض عن عبادة الله ويُشرِك به مخلوقاته الخسيسة، حاشا أن يكونا متساويين.

عن ابن عباس: من أحبّ أن يهوّن الله عليه الموقف يوم القيامة، فليره الله في سواد الليل ساجداً وقائماً، يحذر الآخرة، ويرجو رحمة ربّه»[٢].

ثمّ أكّد سبحانه إنكار التساوي بين الموحدّين المطيعين والمشركين العاصين بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد، للعقلاء المنصفين ﴿هَلْ يَسْتَوِى﴾ في نظركم وحكم عقلكم ﴿ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ المبدأ والمعاد، وما ينجون به من المهالك، وما فيه صلاحهم ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ شيئاً؟ بل في جهلهم وضلالهم يعمهون، لايستوون أبداً، بل بينهما بونٌ بعيدٌ، لوضوح أنّ الأولين في أعلى درجات السعادة والخير، والآخرين في أنزل دَرَكات الشقاوة والشرّ، وفيه تنبيهٌ على أنّ القانتين هم العلماء، وغيرهم هم الجُهّال، وإن حصّلوا العلوم الظاهرية.

قال بعض العامة: إنّ الآية نزلت في عثمان، لأنّه كان يحيي الليل في رَكعةٍ واحدةٍ يقرأ القرآن فيها[٣].

أقول: لا شُبهة في أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان أعبد أصحاب الرسول وأعلمهم، فنزوله في شأنه أولى، كما عن الصادق عليه السلام في الرواية السابقة. قال: «ثمّ عطف القول من الله في عليّ عليه السلام يخبِر بحاله وفضله عند الله، فقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ إلى أن قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ أنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله، أو أنه ساحرٌ كذّابٌ»[٤].

ثمّ نبّه سبحانه على أنّ فَهْم التفاوت بينهم شأن العقلاء بقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ ويَفْهم ذلك التفاوت

---

١. الكافي ٨: ٢٤٦/٢٠٤، تفسير الصافي ٤: ٣١٥.
٢. تفسير روح البيان ٨: ٨١.
٣. تفسير الرازي ٢٦: ٢٥١.
٤. الكافي ٨: ٢٤٦/٢٠٤، تفسير الصافي ٤: ٣١٦.

بين الفرق، وقيل: يعني إنّما يتّعظ بهذه البينات الواضحة **﴿أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ﴾**[١] وذوو العقول الخالصة عن شوائب الأوهام.

عن الباقر عليه السلام: «إنّما نحن الذين يعلمون، وعدونا الذين لا يعلمون، وشيعتنا أُولو الألباب»[٢]. وعن الصادق عليه السلام ما يقرب من ذلك[٣].

وعن المُجتبى عليه السلام: «اولوا الألباب هم اُولو العقُول»[٤].

قُلْ يَاعِبَادِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ[١٠]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه علوّ رُتبة المجتهدين في العبادة، أمر نبيّه صلى الله عليه وآله بحثّ المؤمنين على التقوى والطاعة بقوله: **﴿قُلْ﴾** يا محمد، للمؤمنين على حسب رسالتك: إنّ الله يقول لكم **﴿يَا عِبَادِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾** بتوحيدي **﴿ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾** واحذروا عذابه بالالتزام بطاعته والاجتناب عن معصيته.

ثمّ رغّبهم في طاعته بذكر فائدتها الدنيوية بقوله: **﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾** أعمالهم بالاخلاص وصدق النية **﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾** ومُدّة العمر فيها فائدة **﴿حَسَنَةٌ﴾** من التوفيق والتأييد، والأُنس بالله، واطمئنان القلب وبذكره، والحبّ في قلوب المؤمنين، والعزّة عند الناس، والمهابة في قلوب الكفّار.

وقيل: إنّ المراد الصحة والعافية[٥].

وقيل: الصحة والأمن والكفاية، لقول النبيّ صلى الله عليه وآله: «ثلاثة ليس لها نهاية: الأمن، والصحّة، والكفاية»[٦].

وعن أمير المؤمنين: «أنّ المؤمن يعمل لثلاث من الثواب: أمّا الخير فانّ الله يُثيبه بعمله في الدنيا - ثمّ تلا هذه الآية، ثمّ قال -: فمن أعطاه الله في الدنيا لم يُحاسبه به في الآخرة»[٧].

وقيل: إنّ الظرف مُتعلّق بقوله: **﴿أَحْسَنُوا﴾** والمعنى: أنّ الذين أحسنوا في الدنيا فلهم حسنةٌ في الآخرة، وهي الجنة والنِّعم الدائمة[٨].

ثمّ لمّا كان كثيرٌ من المقصّرين في الطاعة[٩] والاحسان في العمل، دفع الله سبحانه عُذرهم بقوله: **﴿وَأَرْضُ ٱللهِ﴾** وبلاده **﴿وَاسِعَةٌ﴾** وكثيرة، فمن تعسّر عليه توفير الطاعة[١٠] في بلدة ووطنه، فعليه أن

---

١. تفسير أبي السعود ٧: ٢٤٥.
٢. الكافي ١: ٢/١٦٦، تفسير الصافي ٤: ٣١٦.
٣. الكافي ٨: ٦/٣٥، تفسير الصافي ٤: ٣١٦.
٤. الكافي ١: ١٢/١٥، تفسير الصافي ٤: ٣١٦.
٥. تفسير الرازي ٢٦: ٢٥٢، تفسير البيضاوي ٢: ٣٢١، تفسير أبي السعود ٧: ٢٤٦.
٦. تفسير الرازي ٢٦: ٢٥٢.
٧. أمالي الطوسي: ٣١/٣٥، تفسير الصافي ٤: ٣١٦.
٨. تفسير الرازي ٢٦: ٢٥٢.
٩ و ١٠. كذا، والظاهر أن الصواب: التوفّر على الطاعة.

يُهاجر منه إلى بلدٍ آخر يتمكّن فيه من ذلك، كما هو سُنّة الأنبياء والصالحين، ويصبر على مفارقة الوطن المألوف، والبُعد من الأحبّة والأقارب ومشاقّ الطاعة ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ﴾ على البلايا والمِحن في حِفظ دينه والعمل بطاعة الله ويُعطَون ﴿أَجْرَهُم﴾ كاملاً بمقابلة ما كابدوا من الصبر ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وإحصاءٍ لعجز المحاسبين عنه.

رُوي عن النبي ﷺ «أنه تُنْصَب الموازين يوم القيامة لأهل الصلاة والصدقة والحجّ، فيُوفّون بها أجورهم، ولا تُنْصَب لأهل البلاء، بل يُصَبّ عليهم الأجر صَبّاً حتى يتمنّى أهل المعافاة في الدنيا أنّ أجسادهم تُقرَض بالمقاريض ممّا يذهب به أهل البلاء من الفضل»[١].

قيل: لمّا نزل ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾[٢] قال النبي ﷺ «ربّ زِد لأُمّتي» فنزل: ﴿مثل الذين ينفقون اموالهم فى سبيلالله كمثل حبة انبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مأة حبة﴾[٣] إلى آخره. فقال: «ربّ زِد لأُمّتي» فنزل: ﴿من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه اضعافاً كثيرة﴾[٤] فقال: «ربّ زِد لأُمّتي» فنزل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فانتهى رسول ﷺ[٥].

وعن الصادق عليه السلام. قال «قال رسول ﷺ: إذا نُشِرت الدواوين ونُصِبت الموازينَ لم يُنْصَب لأهل البلاء ميزانٌ، ولم يُنْشَر لهم ديوان»[٦].

في فضيلة الصبر

وعنه ﷺ: «إذا كان يوم القيامة يقوم عُنق من الناس[٧] فيأتون باب الجنة فيضربونه فيقال لهم: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر. فيقال لهم: على ما صبرتم؟ فيقولون كنا نصبِر على طاعة الله، ونصبِر على معاصي الله. فيقول الله عزّ وجلّ: صدقوا، ادخلوا الجنة، وهو قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٨].

أقول: ظاهر الروايتين الأخيرتين أنّ المراد من قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أنّهم لا يقومون يوم القيامة في مقام الحساب، ولا يُحاسبون على شيءٍ من أعمالهم.

قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللهَ مُخْلِصاً لَهُ ٱلدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ * قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ[١١-١٣]

---

١. تفسير الرازي ٢٦: ٢٥٤، تفسير البيضاوي ٢: ٣٢١، تفسير أبي السعود ٧: ٢٤٦، تفسير روح البيان ٨: ٨٥.
٢. الأنعام: ١٦٠/٦. ٣. البقرة: ٢٦١/٢. ٤. البقرة ٢: ٢٤٥/٢. ٥. تفسير روح البيان ٨: ٨٥.
٦. مجمع البيان ٨: ٧٦٧، تفسير الصافي ٤: ٣١٧. ٧. أي جماعة منهم.
٨. الكافي ٢: ٤/٦٠، عن الصادق عليه السلام، تفسير الصافي ٤: ٣١٧.

ثمَ إنّه تعالى بعد الأمر بالتقوى، والتأكيد في ملازمة العبادة، أمر نبيّه ﷺ بتبليغ وجوب الاخلاص فيها بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، للمشركين ﴿إِنِّى أُمِرْتُ﴾ من قبل ربّي ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ وامتثل أوامره ونواهيه حال كوني ﴿مُخْلِصاً﴾ ومُمحضاً ﴿لَهُ ٱلدِّينَ﴾ والعبادة من الشرك الرياء والأغراض الدنيوية ﴿وَأُمِرْتُ﴾ من قبله تعالى ﴿لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وأقدمهم في التسليم والانقياد له تعالى، كي أكون أقدمهم في الآخرة في نيل الثواب والدخول في الجنة.

قيل: إنّ لام (لان أكون) ليست زائدة، بل هي للتعليل. والمعنى: إنّما اُمرت بالعبادة والإخلاص فيها، لأجل أن أكون مقدّماً في الدنيا والآخرة[1].

روى أنّ كفّار مكة قالوا للنبيّ ﷺ: ما يَحْمِلك على الذي أتيتنا به؟ الّا تنظر إلى ملة آبائك وسادات قومك يَعْبُدون الّلات والعُزّى، فتأخُذ بتلك المِلّة، فنزلت[2].

ثمَ هدّد سبحانه الناس على ترك العبادة الخاصة بأمر نبيّه ﷺ باظهار خوف نفسه من العقوبة على تركها مع كونه حبيب الله وصفيّه بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، للمشركين ﴿إِنِّى﴾ مع عِظم شأني وعُلوّ قدري عند الله ﴿أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ بترك العبادة الخالصة وأشرك غيره فيها ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ الدواهي والأهوال، فأنتم أولى بالخوف منّي. وفيه غاية التهديد والزجر عن العصيان.

قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِى * فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِن دُونِهِ قُلْ إِنَّ ٱلْخَاسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوْا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أَلاَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ * لَهُم مِن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ[١٤ـ١٦]

ثمَ أمر سبحانه نبيّه ﷺ بالإخبار بالتزامه بامتثال ما أُمر به من العبادة الخالصة، وإعراضه عما يُعبَد من دونه، قطعاً لطمح المشركين من موافقته ﷺ لهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿ٱللَّهَ﴾ الذي خلقني وربّاني وكفاني بالخصوص ﴿أَعْبُدُ﴾ امتثالاً لأمره حال كوني ﴿مُخْلِصاً لَهُ دِينِى﴾ وعبادتي من شَوْب الشِّرك والرياء والهوىٰ، وأرى هذا صلاحي، فان وافقتموني عليه فقد نلتم سعادة الدارين، وإلّا ﴿فَاعْبُدُوا﴾ يا معشر الكفار ﴿مَا شِئْتُم﴾ أن تعبُدوه ﴿مِن دُونِهِ﴾ من الأصنام والأوثان والملائكة والشمس والقمر وغيرها من مخلوقاته، وسَتَرون سوء عاقبة عبادتكم.

ثمَ لمّا كان الكفّار يقولون: خسرت يامحمّد حيث خالفت دين آبائك. أمره سبحانه بجوابهم بقوله:

---

١. تفسير أبي السعود ٧: ٢٤٧.

٢. تفسير الرازي ٢٦: ٢٥٤.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿إِنَّ ٱلْخَاسِرِينَ﴾ والمتضرّرين الذين هم أعظم خُسراناً وضرراً في العالم هم ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوا﴾ وأضرّوا ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ وأهلكوها الهلاك الأبدي[1] بضلالها واختيار الكفر لها ﴿وَ﴾ أهلكوا ﴿أَهْلِيهِمْ﴾ من الأزواج والأولاد والأقارب ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾.

عن ابن عباس: إنّ لكلّ رجلٍ منزلاً وأهلاً وخُدّاماً في الجنّة، فان اطاع أُعطي ذلك، وإنّ كان من أهل النار حُرِم ذلك فخَسَر نفسه وأهله ومنزله، وورِثه غيره من المسلمين[2].

ثمَ بيّن سبحانه غاية فظاعة خُسرانهم بقوله: ﴿أَلَا﴾ اعلموا أيّها العقلاء ﴿ذَٰلِكَ﴾ الخُسران ﴿هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ والضرر والغَبن الفاحش الواضح الذي لا يَشُكّ فيه ذو مُسكة، فانّ صرف العمر والعقل والقوى التي يمكن أن يُستفاد منها الحياة الأبدية والجنة والنِّعم الدائمية والراحة السرمدية في تحصيل الهلاكة الأبدية والعذاب الدائم، تضييعٌ لرأس المال، ووقوع في أعظم الخُسران الذي لايتصوّر خُسران مثله.

ثمَ بيّن سبحانه كيفية خُسران الخاسرين بقوله: ﴿لَهُم﴾ يوم القيامة في جهنّم ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ وعلى رؤوسهم ﴿ظُلَلٌ﴾ وأغشية وطبقات ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾ مانعة من نظرهم إلى الفوق لغِلَظها وكثافتها، وإنّما أطلق عليه الظُّلل مع أنّ الظّلّة ما يُستظلّ به من حرّ الشمس ويُطلب للتبريد للتهكّم بهم ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ﴾ أيضاً ﴿ظُلَلٌ﴾ وطبقات من النار، وإطلاق الظُّلة عليها من باب إطلاق اسم أحد الضدّين على الآخر، أو لأجل المشابهة، أو لكونها ظِلّاً لمن في الدّركات السافلة. وحاصل المعنى أنّهم بين طبقتين من النار محاطون بها من جميع الجوانب ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الفضيع، وإن كان مُعدّاً للكفّار، ولكن ذَكَره في القرآن لأنّه ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ المؤمنين ليُخلِصوا إيمانهم، ويثبّتوا عليه، ويتّقوه بالطاعة ﴿يَا عِبَادِ﴾ إذن ﴿فَاتَّقُونِ﴾ي، واحذروا سَخَطي، ولا تتعرّضوا لما يوجب عقوبتي.

وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا ٱلطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَاهُمُ ٱللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ[١٧ و ١٨]

ثمَ لمّا أوعد الله عَبَدة الأصنام بالنار، وذمّهم بالجهل والخُسران، وعد الموحّدين بالثواب، ومدحهم بالهداية إلى كلّ خير وسعادة، والفضل والكرامة وكمال العقل بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا ٱلطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ وأعرضوا عن عبادة الشيطان والأوثان ﴿وَأَنَابُوا﴾ ورجعوا بالكلية ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ وحده،

---

١. في النسخة: الأبدية. ٢. تفسير الرازي ٢٦: ٢٥٥ و٢٥٦.

وأعرضوا عمّا سواه ﴿لَهُمُ﴾ خاصة ﴿ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالثواب والرِّضوان من الرسل في الدنيا، ومن الملائكة عند الموت وحين البعث بالجنة والنعم الدائمة ﴿فَبَشِّرْ﴾ أنت يا رسول الله حسب رسالتك بالهداية إلى كلّ خير وسعادة والفضل والكرامة عندي ﴿عِبَادِ﴾ي المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾ من أفواه الناس، فيتفكّرون فيما يستمعون، لتمييز الحق والباطل، والصواب والخطأ ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ وأصوبه وأحقه، فاذا سَمِعوا القول بالتوحيد والقول بالشِّرك، والقول بوجوب إرسال الرسول على الله ونصب الامام عليه والقول بعدمه، والقول بكون محمد ﷺ رسول الله وعلي عليه السلام الامام بعده والقول بانكارهما، والقول بوجوب جعل الثواب والعقاب على الأعمال ووجوب خلق العالم الآخر لجزاء الأعمال والقول بعدمها، واختاروا التوحيد، ووجوب إرسال الرسول، ونصب الامام، وكون محمد رسول الله ﷺ وعلي عليه السلام هو الامام بعده، ووجوب جعل الثواب والعقاب على الناس ووجود دار الجزاء لقيام الأدلة القاطعة على كلٍّ منها، وظهور كون أساس غيرها على التقليد والهوى والعصبية.

قال بعض العامة: إنّ الآية نزلت في عثمان بن عفان، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد، وسعيد، وطلحة، والزبير، حين سألوا أبا بكر، فأخبرهم بايمانه فآمنوا[١].

أقول: لا يمكن القول بذلك مع ثبوت مطاعن كثيرة في حقّهم.

ومدحهم بما في ذيل الآية، عن ابن عباس: أنّ المراد منه الرجل يجلس مع القوم ويسمع الحديث، وفيه محاسن ومساوئ، فيُحدّث بأحسن ما سَمِع، ويترُك ما سواه[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «هو الذي يسمع الحديث فيُحدّث به كما سَمِع لا يزيد ولا ينقص منه»[٣].

وفي رواية: «هم المُسلّمون لآل محمد ﷺ الذين إذا سَمِعوا الحديث لم يزيدوا فيه ولم ينقصوا منه، جاءوا به كما سَمِعوه»[٤].

ثمّ مدحهم سبحانه بقوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ إلى الدين الحقّ، وكلّ خير ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمْ﴾ بالخصوص ﴿أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وذوو العقول السليمة عن شوائب الأوهام الفاسدة والأهواء الزائغة.

عن الكاظم عليه السلام: «أنّ الله بشّر أهل العقل والفَهم في كتابه فقال: ﴿فَبَشِّرْ﴾ الآية»[٥].

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ * لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا﴾

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٨٩.
٢. تفسير الرازي ٢٦: ٢٦٢.
٣. الكافي ١: ٤١/١، تفسير الصافي ٤: ٣١٨.
٤. الكافي ١: ٣٢٢/٨، تفسير الصافي ٤: ٣١٨.
٥. الكافي ١: ١٠/١٢، تفسير الصافي ٤: ٣١٨.

رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ وَعْدَ ٱللهِ لَا يُخْلِفُ ٱللهُ ٱلْمِيعَادَ[١٩ و ٢٠]

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان سوء حال المشركين وحسن حال الموحّدين، بيّن عدم تأثير الدعوة الى التوحيد في قلوب المصرّين على الإشراك، وعدم الفائدة في إتعاب النبي ﷺ نفسه الشريفة في ترغيبهم إلى الإيمان بقوله: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ﴾ ووجب ﴿عَلَيْهِ﴾ بسوء فِطرته وخُبث طينته ﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ ووعده من الله تعالى بقوله: ﴿لاملئن جهنم﴾[1] إلى آخره. أنت يا محمد تهديه إلى الحقّ وتسوقه إلى الجنة ﴿أَفَأَنتَ﴾ يا نبي الرحمة ﴿تُنقِذُ﴾ وتُخرِج ﴿مَن﴾ تمكّن ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾ منها؟! لا والله لا تهدي من أضله الله، ولا تُخلّص من النار من جعله الله من أصحابها، فلا تُتعِب نفسك الزكية في دعوتهم، ولا تَحْزَن على عدم إيمانهم.

ثمّ لمّا بيّن استحقاق المشركين للعذاب، استدرك حال المتّقين بقوله: ﴿لٰكِنِ﴾ المؤمنون ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ واحترزوا من الشِّرك والعصيان ﴿لَهُمْ﴾ مع كونهم آمنين من العذاب ﴿غُرَفٌ﴾ في الجنة ﴿مِن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ أخرى ﴿مَبْنِيَّةٌ﴾[2] نحو بناء المنازل على الأرض في الرصانة والاستحكام، كلّها من دُرٍّ وياقُوت وزَبَرْجَد.

عن الباقر عليه السلام: «سأل علي عليه السلام رسول الله ﷺ عن تفسير هذه الآية: بماذا بُنِيت هذه الغُرف يا رسول الله؟ فقال: يا علي، تلك الغُرف بناها الله لأوليائه بالدُّرّ والياقوت والزَّبَرجد، سقوفها الذهب، مَحْبُوكة بالفضة، لكلّ غُرفةٍ ألف باب من ذهب، على كلّ بابٍ منها مَلَك مُوكّل به، وفيها فُرش مرفوعة بعضها فوق بعض من الدِّيباج بألوانٍ مختلفةٍ، وحشوها المِسك والعَنْبر والكافور، وذلك قول الله: ﴿وفرش مرفوعة﴾»[3].

ثمّ أكّد سبحانه وعده للمتقين بقوله: ﴿وَعْدَ ٱللهِ﴾ الذي وعده ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ لقُبح خُلف الوعد عليه.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَابِ[٢١]

---

١. الأعراف: ١٨/٧، هود: ١١٩/١١.
٢. لم يذكر بقية الآية وهي: تجري من تحتها الأنهار.
٣. تفسير القمي ٢: ٢٤٦، الكافي ٨: ٦٩/٩٧، تفسير الصافي ٤: ٣١٨.

ثمّ لمّا كان سبب الإعراض عن الله وعبادته حُبّ الدنيا وشهواتها، بيّن سبحانه سُرعة زوالها الموجبة للنُّفرة منها بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيّها الرائي ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ بقدرته الكاملة ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ المُظلّ، أو جِهة العُلوّ ﴿مَاءً﴾ مباركاً بطريق الأمطار ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ وأجراه في عُروق الأرض، فيكون ﴿يَنَابِيعَ﴾ وعيوناً ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ليُخرج منها شيئاً فشيئاً ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ﴾ الله منها بذلك الماء، ويُنبت ﴿بِهِۦ﴾ بقدرته ﴿زَرْعاً﴾ نافعاً ﴿مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُۥ﴾ وأصنافه كالبُرّ والشعير ونحوهما، وكيفياته كالأحمر والأبيض والأصفر وغيرها، وطُعومه كالحُلو وغيره ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ ذلك الزرع ويَيْبس بعد طَراوته ونَضرته، أويَحضَر ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً﴾ من يُبسه بعد أن كان مُخضراً ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ﴾ الله ﴿حُطَاماً﴾ وفُتاتاً ومتكسّراً من شدّة يُبسه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور مُفصّلاً ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ وتنبيهاً على سَرعة زوال الدنيا وتغيّر حالاتها ﴿لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَابِ﴾ وذوي العقول السليمة، فلا يغترّون بإقبالها وبَهجتها، ولا يُفتَنون بزَهْرتها.

أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ[٢٢]

ثمّ إنّه تعالى بعد ترغيب العباد الى الطاعة والتهديد بالعذاب على العصيان وبيان ثناء الدنيا بين ان تلك البيانات لا تؤثر إلّا مع شرح الصدر وتَنَوّر القلب بقوله: ﴿أَفَمَن﴾ قيل: إنّ التقدير أكل الناس سواء؟[١] ﴿شَرَحَ ٱللَّهُ﴾ ووسّع ﴿صَدْرَهُۥ﴾ وليّن قلبه، وأكمل استعداده ﴿لِلْإِسْلَامِ﴾ وقَبول دين الحقّ بأنْ خلقه من طينةٍ طيبةٍ، وجعله ذا فكرةٍ صائبةٍ ﴿فَهُوَ﴾ باقتضاء طينته، وسَعَة صدره، ونورانية قلبه، وإصابة فِكره مستقرّ ﴿عَلَىٰ نُورٍ﴾ عظيمٍ وبصيرةٍ كاملةٍ وهدايةٍ فائضةٍ ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ اللطيف به.

قيل: إنّ شرح الصدر بقوة الأدلة التي نصبها الله، وهو مختصّ بالعلماء وبالألطاف الخاصة التي تتجدّد حالاً بعد حال، كما قال الله تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾[٢] وبتأكّد الأدلة وحلّ الشُّبهات وإلقاء الخواطر[٣].

عن النبيّ ﷺ: أنّه قرأ هذه الآية فقال: «إنّ النور إذا وقع في القلب انفتح له وانشرح» قالوا: يا رسول الله، هل لذلك علامة يُعرف بها؟ قال: «التجافي عن دار الغُرور، والإنابة إلى دار الخُلود، والاستعداد للموت. قبل حُلول الفَوت»[٤].

---

١. تفسير أبي السعود ٧: ٢٥٠.
٢. سورة محمد: ١٧/٤٧.
٣. مجمع البيان ٨: ٧٢٢.
٤. تفسير أبي السعود ٧: ٢٥٠، تفسير روح البيان ٨: ٩٦.

وقيل: إنّ التقدير أفمن شرح الله صدره للاسلام كمن قسى قلبه من ذِكر الله[١]. وحاصل المعنى والله أعلم: أنّه كما لا يستوي النور والظُّلمة والعلم والجهل، لا يستوي من على النور ومن على الظُّلمة.

قال بعض العامة: نزلت في حمزة بن عبدالمطلب، وعلي بن أبي طالب عليه السلام[٢].

وقال القمي: نزلت في أمير المؤمنين[٣].

﴿فَوَيْلٌ﴾ وهلاك ﴿لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ والغليظة أفئدتهم الحاصلة تلك القوة ﴿مِن ذِكْرِ ٱللهِ﴾ ولأجله، فانّ النفوس الخبيثة والأرواح الظُّلمانية تزيد خُبثها وكُدورتها بسماع ذِكر الله، كما أنّه في القلوب المنورة والصدور المنشرحة يزيد تنوراً وانشراحاً واطمئناناً، ولذا قال سبحانه: ﴿أُولٰـئِكَ﴾ المتّصفون بقساوة القلب ﴿فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وانحرافٍ واضحٍ عن طريق الحقّ وسبيل الخير، بحيث لا يُشكّ فيه من له أدنى شعور وإدراك. قيل: إنّه نزل في أبي لهب وولده[٤].

ٱللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللهِ ذٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ[٢٣]

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان كون من له شرح الصدر على نور وهداية عظيمة من ربّه، بيّن أعظم وسائل الهداية بقوله: ﴿ٱللهُ نَزَّلَ﴾ بلُطفه بعباده لهدايتهم إلى كلّ خيرٍ ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ وأطيب الكلام من حيث الفصاحة والبلاغة، والمَلاحة والحزانة، وحُسن الأسلوب والاشتمال على العلوم الكثيرة والحكم الوفيرة والمعارف والمواعظ النافعة، والقصص المنبّهة، وأحوال الأُمم الماضية، وكيفيات الآخرة، إلى غير ذلك ممّا لا يُدانيه كتابٌ من الكتب السماوية، فضلاً عن غيرها، ومع ذلك يكون ﴿كِتَاباً مُتَشَابِهاً﴾ متماثلة[٥] آياته في الفصاحة والبلاغة والإعجاز وصحة المعنى، والدلالة على الحقّ، واستتباع المنافع الدنيوية والأخروية ﴿مَثَانِىَ﴾ ومكررات مواعظة وعِبَرة، وقَصَصه وأمثاله، ووعده ووعيده. وقيل: يعني مكررة[٦] تلاوته مع عدم ذَهاب رونقه وعدم زوال لذّة قراءته واستماعه، مع أنّ

---

١. تفسير الرازي ٢٦: ٢٦٦.

٢. تفسير الصافي ٤: ٣١٩، تفسير أبي السعود ٧: ٢٥٠، تفسير روح البيان ٨: ٩٦.

٣. تفسير القمي ٢: ٢٤٨، تفسير الصافي ٤: ٣١٩.

٤. تفسير روح البيان ٨: ٩٦.

٥. في النسخة: ومتماثلاً.

٦. في النسخة: مكرر.

كلّ كلام يُمَلّ تَكْراره[١].

ولظهور عَظَمة الله فيه، وغضبه على أعدائه وعُصاته ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ وترتعد ﴿مِنْهُ جُلُودُ﴾ المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ وأبدان الذين عرفوا خالقهم بالعظمة والقهارية. قيل: هو مثل لشدة الخوف[٢] ﴿ثُمَّ﴾ إذا تَلَوا، أو استمعوا آيات الوعد والرحمة ﴿تَلِينُ جُلُودُهُمْ﴾ ولتسكُن أبدانهم، وزال عنها ما كان بها من الخوف والارتعاد، وتبدلت خَشْيتهم بالرجاء، ورهبتهم بالرغبة ﴿وَقُلُوبُهُمْ﴾ تطمئن ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللهِ﴾ ورحمته وغُفرانه، فلذا ﴿ذٰلِكَ﴾ الكتاب الذي بيّنا أوصافه ﴿هُدَى ٱللهِ﴾ وما به رشاد الخَلْق إلى الحقّ ﴿يَهْدِى﴾ الله ويُرشِد ﴿بِهِ﴾ إلى جميع الخيرات الدنيوية والأُخروية ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته وإرشاده من النفوس الزكية، والقُلوب الطاهرة، والذوات المستعدة القابلة لنيل الفيوضات الإلهية ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللهُ﴾ ويَخْذُله بسبب خُبث ذاته، وقساوة قلبه، ورذالة صفاته وأخلاقه ﴿فَما لَهُ﴾ بعد الله ﴿مِنْ هادٍ﴾ يهديه إلى الحقّ ويُخلّصه من وَرْطة الضلال.

روى عن النبي ﷺ أنّه قال: «إذا اقشعرّ جلد العبد من خَشية الله، تحاتّت عنه ذنوبه، كما يتحاتّ عن الشجرة اليابسة وَرَقها» وفي رواية أُخرى: «حرّمه الله على النار»[٣].

«وعن عبدالله بن عبدالله بن الزبير، قال: قلت لجدتي أسماء بنت أبي بكر: كيف كان أصحاب رسول الله يفعلون إذا قُرئ القرآن عليهم؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم. قال: فقلت لها: إنّ ناساً اليوم إذا قُرئ عليهم القرآن خرّ أحدهم مغشياً عليه. فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم[٤].

أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِ سُوءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ * كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * فَأَذَاقَهُمُ ٱللهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ [٢٤_٢٦]

ثمّ لمّا بيّن الله سبحانه عَجْز جميع الخلق عن هداية من أراد الله ضلالته، بيّن عَجْز الضالّ عن دفع العذاب عن نفسه في الآخرة بقوله: ﴿أَفَمَن﴾ قيل: إنّ التقدير أكل الناس سواء[٥]؟ فمن ﴿يَتَّقِى﴾

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٩٨.
٢. الكشاف ٤: ١٢٤، تفسير الرازي ٢٦: ٢٧٣.
٣. تفسير روح البيان ٨: ١٠٠.
٤. تفسير روح البيان ٨: ١٠٠.
٥. تفسير أبي السعود ٧: ٢٥٢، تفسير روح البيان ٨: ١٠١.

ويتوقّى ﴿بِوَجْهِهِ﴾ الذي هو أشرف أعضائه ﴿سُوءَ ٱلْعَذَابِ﴾ وشديدة ﴿يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ﴾ لعجزه عن الاتقاء بغيره، مع أنّ سائر الأعضاء تكون وِقاية له، كمن هو آمنٌ من العذاب في ذلك اليوم، ولا يعتريه مكروهٌ حتى يحتاج إلى الأتقاء ﴿وَقِيلَ﴾ بعد وقوعهم في النار من جهة خَزَنة جهنم ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ الذين ضيّعوا حقوق الله، وكفروا نِعمه، ووضعوا الكفر موضع الايمان، وتكذيب الرسول موضع تصديقه، والعِصيان موضع الطاعة: أيّها الظالمون ﴿ذُوقُوا﴾ وأطعموا طعم ﴿مَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَكْسِبُونَ﴾ وتَحْصَلون لأنفسكم من العذاب بالكفر والعِصيان.

ثمّ استشهد سبحانه على شدّة سَخَطه وعذابه على الظالمين المكذبين للرسل في الآخرة بانزال العذاب على كثيرٍ منهم في الدنيا بقوله: ﴿كَذَّبَ﴾ كثيرٌ من الأمم ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ رُسلهم ﴿فَأَتَاهُمُ﴾ ونزل عليهم ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ المُقدّر لكلّ اُمّة منهم بتكذيبهم ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ومن الجهة التي لا يحتسبون ولا يتوهّمون نزول العذاب منها، وكانوا آمنين. قيل: أشدّ العذاب ما يكون غير متوقع[1] وقيل: يعني لا يعرفون له مدفعاً ولا مرداً[2] ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ مع عذاب الاستئصال ﴿ٱلْخِزْىَ﴾ والذُّل والصَّغار ﴿فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كالمسخ بصورة القِرَدة والخنازير، والغَرَق والخسف، والسبي والإجلاء، ونحوها من فنون النَّكال، وهو العذاب الأدنى لهم ﴿وَ﴾ والله ﴿لَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ﴾ بالنار المُعدّ لهم ﴿أَكْبَرُ﴾ وأشدّ من العذاب الدنيوي كماً وكيفاً مدةً ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ كِبره وشدّته لما تجرّءوا وما عصوا الله ورسوله، وخلّصوا أنفسهم منه بالايمان والتوبة والقيام بالطاعة.

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ[٢٧ و ٢٨]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه ما يُوجِب الاتعاظ من هوان الدنيا، وكون الهداية إلى الحقّ بانشراح وتنوّر القلب، وغير ذلك من المطالب العالية، والإبلاغ في التخويف والترهيب، بيّن سبحانه أنّ القرآن في المواعظ والعِبر وسائر ما يحتاج إليه الناس من العلوم بالغ حدّ الكمال بقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ وبيّنا ﴿لِلنَّاسِ﴾ عموماً ولأهل مكة خصوصاً ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْآنِ﴾ الذي أنزلناه ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ ومطلبٍ نافعٍ هو في الحُسن وكَثْرة النفع والغرابة كالمثل ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ويَنبّهون لما هو خير لهم في دنياهم وآخرتهم، ويتّعظون به.

ثمّ مدح القرآن الجامع لجميع المطالب المهمّة النافعة بقوله: ﴿قُرْآناً﴾ متصفاً بكونه ﴿عَرَبِيّاً﴾

---

١ و ٢. تفسير روح البيان ٨: ١٠١.

يفهمه كلّ العرب. وقيل: يعني متلوّ في المحاريب إلى يوم القيامة بلسان العرب مع أنّه أعجز الفُصحاء والبلغاء منهم عن معارضته والإتيان بمثله[١] ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ وانحرافٍ عن الحقّ واختلاف وتناقض في مطالبه، كما قال تعالى: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾[٢] ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بالتدبّر فيه والتفكّر في جهات إعجازه ﴿يَتَّقُونَ﴾ ويحترزون عن الكفر والعصيان.

ضَرَبَ ٱللهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ٱلْحَمْدُ لِلهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ[٢٩ ـ ٣١]

ثمّ ضرب سبحانه مثلاً لتوضيح فساد مذهب المشركين وقَباحة طريقتهم بقوله: ﴿ضَرَبَ ٱللهُ مَثَلاً﴾ معجباً يطابق حال المشركين والموحدين، وهو أنّه يفرِض المشرك الذي يدّعي لنفسه آلهة ﴿رَجُلاً﴾ مملوكاً ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ ومنازعون في ذلك العبد المملوك يتجاذبونه ويتعاورونه في مهماتهم المتباينة، فانّ هذا العبد يكون متحيّراً متفرّق البال ومتوزّع القلب ﴿وَ﴾ نفرِض الموحّد الذي يعتقد أنّ إلهه واحدٌ ﴿رَجُلاً سَلَماً﴾ وخالصاً ﴿لِرَجُلٍ﴾ واحدٍ لاسبيل لغيره عليه أصلاً ﴿هَلْ﴾ العبدان ﴿يَسْتَوِيَانِ﴾ ويتماثلان ﴿مَثَلاً﴾ وحالاً؟ لا يستويان البتة، بل الأول في غاية التحيّر، والثاني في غاية الاطمئنان والراحة، فعلى المؤمنين أن يقولوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلهِ﴾ على إظهاره الحُجّة على المشركين وقطع خصومتهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك مع غاية ظهوره.

عن أمير المؤمنين قال: «إني مخصوصٌ في القرآن بأسماء، احذروا أن تُغْلَبوا عليها فتَضِلّوا فيّ، أنا السَّلَم لرسول الله ﷺ يقول الله تعالى: ﴿وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ﴾»[٣].

وعنه عليه السلام قال: «أنا ذلك الرجل السّلم لرسول الله ﷺ»[٤].

وعن الباقر عليه السلام: «الرجل السّلم للرجل حقّاً عليّ عليه السلام وشيعته»[٥].

وعنه عليه السلام: «أمّا الذي فيه شركاء متشاكسون، فلان الأول، يجمع المتفرقون ولايته، وهم في ذلك يلعن بعضُهم بعضاً، ويبرأ بعضُهم من بعضٍ، وأمّا رجلٌ سَلَم لرجلٍ فانّه فلان الثاني حقّاً وشيعته»[٦].

أقول: المراد من فلان الأول أبو بكر، ومن فلان الثاني أمير المؤمنين عليه السلام، وتخالف أصحاب أبي

---

١. تفسير الرازي ٢٦: ٢٧٦.
٢. النساء: ٤/٨٢.
٣. معاني الأخبار: ٥٩ و٦٠/٩، تفسير الصافي ٤: ٣٢١.
٤. مجمع البيان ٨: ٧٧٥، شواهد التنزيل ٢: ٨٠٧/١١٩، تفسير الصافي ٤: ٣٢١.
٥. مجمع البيان ٨: ٧٧٥، تفسير الصافي ٤: ٣٢١.
٦. الكافي ٨: ٢٨٣/٢٢٤، تفسير الصافي ٤: ٣٢١.

بكر من جهة كونهم متّبعي الهوى والآراء.

ثمّ لمّا هدّد سبحانه المشركين بعذاب الدنيا، وبيّن حالهم وحال الموحّدين بضرب المثل، ولم تؤثر تلك البيانات في كثيرٍ من القلوب القاسية، وكان قلبه متأثّراً من لجاجهم، سلّى سبحانه حبيبه بقوله: ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿مَيِّتٌ﴾ لا محالة ﴿وَإِنَّهُم﴾ أيضاً ﴿مَيِّتُونَ﴾ عن قريبٍ البتة ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ جميعاً أنت وخُصماؤك ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ ومَليككم، وفي مَحْضَر عدلٍ مَن بيده أُموركم ﴿تَخْتَصِمُونَ﴾ وتحاجّون، فتقول: يا ربّ إنّي بلّغت ما أُرسلتُ به واجتهدتُ في دعوة هؤلاء المشركين حقّ الاجتهاد، فكذّبوني وأصرّوا على لَجاجي وعِنادي. وهؤلاء يقولون: ربّنا أطعنا ساداتنا وكُبراءنا فأضلّونا السبيلا، فيحكم الله لك عليهم، فلا تُبال اليوم بهم.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكَافِرِينَ * وَٱلَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ * لَهُم مَا يَشَاؤُنَ عِندَ رَبِّهِمْ ذٰلِكَ جَزَاءُ ٱلْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ ٱللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ[٣٢ـ ٣٥]

ثمّ حكم سبحانه على المشركين في الدنيا بكونهم أظلم الظالمين بقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللهِ﴾ في نسبة أنّه اتّخذ لنفسه شريكاً وولداً ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾ والأمر الذي هو عين الحقّ، وهو رسالة محمد ﷺ، وكون القرآن كلام الله ﴿إِذْ جَاءَهُ﴾ وحين أتاه من غير تدبُّر فيه والنظر في جهات إعجازه، لا والله لا أظلم ولا أكفر منه، ثمّ أردفه بالوعيد بقوله: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ﴾ يوم القيامة أيّها العُقلاء ﴿مَثْوىً﴾ ومُستقراً أبدياً ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ الذين هؤلاء الظّلمة منهم، بل هي مثواهم بالاستحقاق، وبئس المثوى وبئس المصير.

ثمّ مدح سبحانه النبي ﷺ والمؤمنين به بقوله: ﴿وَٱلَّذِى جَاءَ﴾ من جانب الله ﴿بِالصِّدْقِ﴾ والقرآن المشتمل على المعارف الإلهية والحكم الكثيرة والأحكام والآداب والأخلاق ﴿وَ﴾ هو لمحمد الأُمّي والذي ﴿صَدَّقَ بِهِ﴾ وأقرّ له وهو أمير المؤمنين عليه السلام على ما رُوي عن المعصومين من ذُرّيته[١]، بل روى العلامة في (نهج الحق) عن الجمهور عن مجاهد، أنّه قال: هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام[٢]. ورواها

١. تفسير القمي ٢: ٢٤٩، مجمع البيان ٨: ٧٧٧، تفسير الصافي ٤: ٣٢٢.

٢. نهج الحق: ١٩/١٨٥، كفاية الطالب: ٢٣٣، الدرالمنثور ٧: ٢٢٨، روح المعاني ٢٤: ٣.

أيضاً في (كشف الغمة)[١] عن موسى بن مَرْدُويه، عنه. وعن الحافظ، عن جعفر بن محمد عليه السلام[٢].

في الردّ على فخر الدين الرازي

أقول: يَدُلّ عليه قول النبي صلى الله عليه وآله المسلم بين العامة والخاصة: «سُبّاق الأمم أو الصدّيقون منهم ثلاثة: مؤمن آل فرعون، ومؤمن آل يس، وعلي بن أبي طالب عليه السلام، وهو أفضلهم»[٣] مع أنه روى أحمد بن حنبل أنّ آية ﴿**والذين آمنوا بالله ورسوله اولئك هم الصديقون**﴾ نزلت في علي[٤] فلا يُعتنى بقول فخر الذين الرازي[٥] وبعض أصحابه من أنه أبو بكر[٦]، فانّه على تقدير كونه مُصدّقاً للرسول وكتابه، لم يكن تصديقه قائلاً[٧] للذّكر والمدح بقوله: ﴿**أُوْلَٰئِكَ**﴾ المتّصفون بالصدق والتصديق ﴿**هُمُ**﴾ خاصّة ﴿**ٱلْمُتَّقُونَ**﴾ الفائزون بالتقوى إلى أعلى درجة كمال الانسانية في الدنيا، وأعلى درجات الجنة في الآخرة ﴿**لَهُم**﴾ بإزاء صدقهم وتصديقهم وتقواهم ﴿**ما يشاؤن**﴾ ويشتهون من النِّعم الكائنة ﴿**عِندَ رَبِّهِمْ**﴾ ومَليكهم اللطيف به ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ الجزاء المذكور ﴿**جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ**﴾ في عقائدهم وأعمالهم، المجتهدين في التقوى وعبادة ربّهم ﴿**لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ**﴾ ويَستُر ﴿**عَنْهُمْ**﴾ يوم القيامة ﴿**أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا**﴾ وأقبحه، فضلاً عن السيئ والقبيح منه.

قيل: إنّ المعنى: وعدهم الله جميع ما يشاؤون من زوال المضارّ وحصول المَسارّ[٨]، ليُكفر عنهم بموجب ذلك الوعد أسوأ الذي عملوا دفعاً لمضارّهم ﴿**وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم**﴾ ويُعطيهم ثوابهم ﴿**بِأَحْسَنِ**﴾ من ﴿**ٱلَّذِى كَانُوا**﴾ في الدنيا ﴿**يَعْمَلُونَ**﴾ إعطاءً لمنافعهم ومَسارّهم.

أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ * وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ[٣٦ و ٣٧]

ثمّ لمّا كان الكفّار والمشركين يخوّفون المؤمنين بالتخويفات الكثيرة، بل روي أنّ قريشاً قالت للنبي صلى الله عليه وآله: نخاف أن تخبلك آلهتنا[٩]. آمن الله رسوله والمؤمنين بقوله: ﴿**أَلَيْسَ ٱللَّهُ**﴾ القادر الرؤوف ﴿**بِكَافٍ عَبْدَهُۥ**﴾ محمد صلى الله عليه وآله والمؤمنين به، يدفع عنهم الآفات، ويَحْفَظهم من البليات، كما كفى نوحاً الغَرق، وإبراهيم الحَرق، بل هو كافٍ جميع مهماته.

ثمّ خاطب سبحانه نبيّه صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿**وَيُخَوِّفُونَكَ**﴾ يا محمد، هؤلاء المشركون ﴿**بِٱلَّذِينَ**﴾

---

١. كشف الغمة ١: ٣١٣. ٢. مناقب ابن شهر آشوب ٣: ٩٢.
٣. فضائل الصحابة لابن حنبل ٢: ١٠٧٢/٦٢٧، و١١١٧/٦٥٥، كنز العمال ١١/٦٠١/٣٢٨٩٨.
٤. مناقب ابن شهر آشوب ٣: ٩٠. ٥. تفسير الرازي ٢٦: ٢٧٩.
٦. تفسير الرازي ٢٦: ٢٧٩، روح المعاني ٢٤: ٣. ٧. في النسخة: قابلة.
٨. تفسير روح البيان ٨: ١٠٨.
٩. تفسير الرازي ٢٦: ٢٨١، تفسير البيضاوي ٢: ٣٢٦، تفسير أبي السعود ٧: ٢٥٥.

يَعْبُدونهم ﴿مِن دُونِهِ﴾ من الأصنام والأوثان الذين لا يقدِرون على شيءٍ لغاية جهلهم وضلالهم ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ ويَحرِفه عن طريق الحقّ، كهؤلاء المشركين ﴿فَمَا لَهُ﴾ في العالم ﴿مِنْ هَادٍ﴾ يهديه ويُوصله إلى الحقّ ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ ويُوفّقه للسلوك على الصراط المستقيم ﴿فَمَا لَهُ مِن مُضِلٍّ﴾ يصرِفه عن السلوك فيه بالحُجّة والبرهان والتخويف والتطميع.

ثمَ هدّد سبحانه المشركين المخوّفين بقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ وغالبٍ على كلّ شيءٍ و ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ من أعدائه لأوليائه؟ بلى والله هو الغالب القادر المنتقم، ينتقم من هؤلاء المشركين أشدّ الانتقام.

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ[٣٨]

ثمَ بيّن سبحانه أنّ المشركين مع اعترافهم بأنّ الله هو القادر الذي خلق بقدرته جميع الموجودات،كيف يدّعون أنّ الجمادات التي لا قُدرة لها ولا حسّ ولا شعور يضُرّون عباد الله؟! مع أنّ الله عزّ وجلّ حافظهم بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ وقلت لهم أيّها العقلاء ﴿مَنْ خَلَقَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وما بينهما؟ ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ وليعترفون بأنّ لا خالق غيره، فاذا اعترفوا بذلك ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ﴾ وأخبروني أنّ ﴿مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وتَعبُدونه من الأصنام والأوثان، على فرض كونهم قادرين، هل يُمكنهم أن يُعارضوا الله في إرادته مثلاً ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ ومكروهٍ كالمرض والفقر والذُّلّ ونظائرها ﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ ومزيلات سوء الحال الذي أراده ﴿أَوْ﴾ إن ﴿أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ ونعمةٍ كالصحة والغِنى والأمن والراحة وأمثالها ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ ومانعات عن وصول نِعمه إليّ؟! لا والله لا هنّ كاشفات الضرّ، ولا ممسكات الرحمة، بل هنّ أعجز من كل شيءٍ، وأضعف من كلّ ضعيفٍ.

روي أن النبي ﷺ لمّا سألهم سكتوا ولم يُجيبوه بشيءٍ فنزل[١]. وإنّما أتى سبحانه بالجموع والضمائر المؤنثة للاشارة إلى ضَعْف أصنامهم، أو لأنّهم سمّوا أصنامهم باسم الأناث كاللات والعُزّى ومَنَاة.

ثمَ أمر نبيّه بإظهار الاعتماد على ربّه بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: إن تظاهر عليّ أهل العالم، فانّي لا

---

١. تفسير البيضاوي ٢: ٣٢٦، تفسير أبي السعود ٧: ٢٥٦.

أبالي، لأنّ ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ وهو كافٍ في جميع أموري، وناصري على أعدائي، وحافظي من كلّ شرّ وضرّ ﴿عَلَيْهِ﴾ وحده ﴿يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لعلمهم بأنّ ما سواه تحت قدرته وملكوته ونفوذه وإرادته.

قُلْ يَاقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ * إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ[٣٩ـ٤١]

ثمّ أمره بالابلاغ في إظهار توكّله على الله وعدم مبالاته بالمشركين بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد، مخاطباً لقريش: ﴿يَاقَوْمِ ٱعْمَلُوا﴾ واسْعَوا في الاضرار عليّ، وإبطال أمري، والإخلال في رسالتي، واجتهدوا في مَكْركم وكيدكم، مع أنكم ﴿عَلَىٰ﴾ ما تعتقدون من ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ وحالتكم من القوة والشوكة والعداوة ﴿إِنِّى﴾ أيضاً ﴿عَامِلٌ﴾ وساعٍ في التبليغ والإنذار، وإعلاء كلمة التوحيد، وتقرير دين الاسلام ما استطعت، ما أنا عليه من مكانتي وحالتي من قلّة الناصر وعدم المال ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ من يَنْصرُه الله ويَغْلِبه و ﴿مَن يَأْتِيهِ﴾ من قبله تعالى ﴿عَذَابٌ﴾ يستأصله ﴿يُخْزِيهِ وَ﴾ يُذلّه في الدنيا، ومن ﴿يَحِلُّ﴾ وينزل ﴿عَلَيْهِ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ ودائمٌ لا يُفارقه، لسعيه فيما يوجب غضب الله عليه من الكفر والضلال.

ثمّ لمّا بالغ سبحانه في إتمام الحُجّة على المشركين المعاندين، وبيان بطلان مذهبهم بالأدلة الواضحة القاهرة، وضَرْب المَثَل، وتهديدهم بالعذاب الدنيوي والأخروي، رَدَع نبيّه ﷺ عن الجدّ والاهتمام في دعوتهم إلى التوحيد والايمان بصدق كتابه بقوله: ﴿إِنَّا﴾ بلُطفنا وحكمتنا ومقام ربوبيتنا ﴿أَنزَلْنَا﴾ بتوسّط جَبْرَئيل ﴿عَلَيْكَ﴾ يا نبي الرحمة ﴿ٱلْكِتَابَ﴾ العظيم الشأن الذي فيه المعارف والحكم والأحكام، إرشاداً ﴿لِلنَّاسِ﴾ إلى مصالحهم ومنافعهم الدنيوية والأخروية، وإتماماً للحُجّة حال كونه مقروناً ﴿بِالْحَقِّ﴾ ودلائل الصدق، أو حال كوننا محقّين في إنزاله ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ به إلى ما فيه ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ فوائد هدايته وعمله ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن سبيل الحقّ، بأن كذّبه ولم يعمل به ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ﴾ وكان وبَال ضلاله على نفسه، وضرره ﴿عَلَيْهَا﴾ لا علينا ولا عليك ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم﴾ من قبل ربّك ﴿بِوَكِيلٍ﴾ وقيّم حتّى تَجْبُرهم على الايمان به واتباع أحكامه، بل إنّما عليك البلاغ، وقد بلّغت، فلا تُتعب نفسك في معارضتهم وحثّهم على الإيمان، واسْتَرح من كُلفة تحمِلهم على قبول الحقّ وتصديق كتابك.

ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[٤٢]

ثمّ لمّا كانت الهداية هي الحياة الحقيقية، والضلال الدائم هو الموت والمؤقّت بمنزلة النوم، عاد سبحانه بعد ترويح قلب نبيّه ﷺ إلى الاستدلال على توحيده بكون النوم واليقظة والموت بيده، كما أنّ الهداية والضلال بإرادته بقوله:

﴿ٱللَّهُ﴾ وحده ﴿يَتَوَفَّى﴾ بقدرته ﴿ٱلْأَنفُسَ﴾ ويُميت الأشخاص ﴿حِينَ﴾ وصول وقت ﴿مَوْتِهَا وَ﴾ انقضاء أجل حياتها، ويتوفّى ﴿ٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ﴾ ويقبِض رُوحها ﴿فِى﴾ وقت ﴿مَنَامِهَا﴾ لا كاملاً، بل بحيث يبقى فيها شُعاعها.

وقيل: إنّ المراد بالأنفس الأرواح، والمعنى يقبِض الأرواح كاملاً من أبدانها حين موت أبدانها، ويقبِض الأرواح التي لم تَمُت أبدانها في وقت نوم الأبدان[١]. وإنّما أطلق التوفّي على الإنامة لشباهتها في عدم العقل والتمييز بالإماتة، كما ورد أنّ النوم أخ الموت.

بيان كيفية النوم

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنّ الروح يخرُج عند النوم، ويبقى شُعاعه في الجسد، فلذلك ترى الرؤيا»[٢] ﴿فَيُمْسِكُ﴾ الله الأنفس ﴿ٱلَّتِى قَضَىٰ﴾ وحكم ﴿عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ ويمنعها من الرجوع إلى أبدانها ﴿وَيُرْسِلُ﴾ الأنفس ﴿ٱلْأُخْرَىٰ﴾ التي لم يقضِ عليها الموت عند الانتباه واليقظة مرة بعد مرة ﴿إِلَىٰ﴾ انقضاء ﴿أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ومدّة حياتها المقدّرة.

عن سعيد بن جبير: أنّ أرواح الأحياء وأرواح الأموات تلتقي في المنام، فيتعارف منها ما شاء الله أن يتعارف، فيُمسِك التي قضى عليها الموت، ويُرسِل الأخرى إلى أجسادها إلى انقضاء مدّة حياتها[٣].

عن الباقر عليه السلام قال: «ما من أحدٍ ينام إلّا عرجت نفسه إلى السماء، وبقيت روحه في بدنه، وصار بينهما سبب كشُعاع الشمس، فان أذِن الله في قبض الأرواح أجابت الروح النفس، وان أذِن الله في ردّ الرُّوح أجابت النفس الروح، وهو قول الله: ﴿يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ الآية»[٤].

أقول: الظاهر أنّ المراد بالنفس في الرواية الرُّوح الانساني، وبالرُّوح الرُّوح الحيوانى. وإسناد التوفّي إلى الله لأنّه الآمر، فلا ينافي إسناده إلى مَلَك الموت وأعوانه من الملائكة بالمباشرة. نعم.

---

١. تفسير روح البيان ٨: ١١٢ و١١٥.
٢. تفسير روح البيان ٨: ١١٥.
٣. تفسير روح البيان ٨: ١١٥.
٤. مجمع البيان ٨: ٧٨١، تفسير الصافي ٤: ٣٢٣.

روي أنّ الله تعالى باشر قبض النفوس الطيبة الزكية كروح الحسين بن علي عليه السلام[1].

والصدّيقة الطاهرة، روى بعض العامة أنّ فاطمة الزهراء عليها السلام لمّا نزل عليها مَلَك الموت لم ترضَ بقبض رُوحها، فقبض الله تعالى رُوحها[2].

﴿إِنَّ فِى ذٰلِكَ﴾ المذكور من التوفّي على الوجهين، والامساك في أحدهما، والإرسال في الآخر ﴿لَآيَاتٍ﴾ عجيبةً ودلالاتٍ واضحةً على كمال قُدرة الله وحكمته ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في آثار قُدرة الله التي منها كيفية الموت والنوم، فيعلمون أنّ العاقل لا يعبُد الجَماد الذي لا قُدرة له ولا إدراك، بل يعبُد الإله الذي له القُدرة الكاملة والحكمة البالغة.

أَمِ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ * قُل لِلّٰهِ ٱلشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[٤٣ و ٤٤]

ثمّ لمّا كان قول مشركي مكّة: إنّا لا نعبُدهم لكونهم آلهة، بل نعبُدهم ليُقربونا إلى الله زُلفى، ويَشْفَعوا لنا عند الله، أنكر سبحانه عليهم القول بقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا﴾ قيل: كلمة (أم) منقطعةٌ، والمعنى: بل اتّخذوا واختاروا لأنفسهم[3] ﴿مِن دُونِ ٱللهِ﴾ وممّا سواه ﴿شُفَعَاءَ﴾ يشفعون لهم عند الله.

ثمّ أمر سبحانه بتوبيخهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء السُّفهاء أيشفعونكم ﴿أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً﴾ من الأشياء، ولا يقدِرون على دفع شيءٍ عن أنفسهم، فضلاً عن شفاعتكم عند الله، ودفع عذابه عنكم ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ولا يُدرِكون شيئاً حتّى نفع أنفسهم، فضلاً عن عبادتكم التي لا نفع[4] لهم فيها ﴿قُلْ﴾ يا محمّد إرشاداً لهم ﴿لِلّٰهِ﴾ وحده ﴿ٱلشَّفَاعَةُ﴾ الصادرة عن كلّ شافع ﴿جَمِيعاً﴾ لا يستطيع أحدٌ أن يشفع عنده إلّا بإذنه، كما قال: ﴿من ذا الذى يشفع عنده إلّا بإذنه﴾[5] لأنّ ﴿لَهُ﴾ تعالى وحده ﴿مُلْكُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وما بينهما والسّلطنة فيها، فلا يتنفّس متنفّس ولا يتحرّك متحرّك ولا يتكلّم متكلّم إلّا بإذنه وإرادته ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾ بعد الموت ﴿تُرْجَعُونَ﴾ وإلى محضر عدله تُرَدّون، فيحاسب أعمالكم ويُجازيكم على حسب استحقاقكم، فاحذروا سَخَطه، واحترزوا عذابه.

وَإِذَا ذُكِرَ ٱللهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ عَالِمَ

---

١. تفسير روح البيان ٨: ١١٤.
٢. تفسير روح البيان ٨: ١١٤.
٣. تفسير روح البيان ٨: ١١٧.
٤. في النسخة: يقع.
٥. البقرة: ٢٥٥/٢.

ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ[٤٥ و ٤٦]

ثمّ حكى سبحانه شدّة تعصّبهم في مذهبهم وغاية حُمقهم بقوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللهُ وَحْدَهُ﴾ عندهم بأن يقول أحدٌ: لا اله إلّا الله، وحده لا شريك له ﴿ٱشْمَأَزَّتْ﴾ ونَفَرت من ذكر التوحيد ﴿قُلُوبُ﴾ المشركين لأنّهم ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولا يُصدّقون ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ وامتلأت غيظاً وغماً، لعداوتهم لله، وعدم خوفهم من عقوبته في القيامة ﴿وَإِذَا ذُكِرَ﴾ عندهم الأصنام ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يَعْبُدونهم ﴿مِن دُونِهِ﴾ فُرادى، أو مع ذكر الله ﴿إِذَا هُمْ﴾ لفَرْط افتتانهم بها ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ويُسرّون حتى تُبْسَط وجوههم له.

ثمّ إنّه تعالى بعد حكاية إصرارهم على ما يشهد العقل بفساده، أمر نبيّه ﷺ بالالتجاء إلى الله من لَجاجهم وعِنادهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، عند رؤيتك هذه الحالة العجيبة وعجزك عن هدايتهم: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ يا ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وخالقهما على النحو البديع، ويا ﴿عَالِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ﴾ والمُطّلع على ما لا تُدركه الحواسّ وما تُدركه ﴿أَنتَ﴾ تعلم ما عليه هؤلاء، وتقدِر على الانتقام منهم ﴿تَحْكُمُ﴾ يوم القيامة ﴿بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فاحكُم بيني وبين هؤلاء المشركين المصرّين على الباطل، المعاندين للحقّ.

روى بعض العامة عن أبي سَلَمة، قال: سألت عائشة: بم كان يفتتح رسول الله صلاته بالليل؟ قالت: كان يقول: «اللهم ربّ جبرئيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكُم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحقّ بإذنك، إنّك تهدي من تشاء إلى صراطٍ مستقيم»[١].

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِنَ ٱللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ[٤٧ و ٤٨]

ثمّ بيّن سبحانه حكمه يوم القيامة على المشركين بشدّة العذاب وعدم خلاصهم منه بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ﴾ أشركوا و ﴿ظَلَمُوا﴾ على ربّهم بتضييع حقوقه، وعلى أنفسهم باهلاكها الدائم ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ من الأموال والأمتعة والأملاك ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ على سبيل الفرض ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ وبذلوه ليتخلّصوا ﴿مِن سُوءِ ٱلْعَذَابِ﴾ وشديد العقاب ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ ما تخلّصوا منه، ولا يخفف عنهم ولو ساعة ﴿وَبَدَا لَهُم مِنَ ٱللهِ﴾ وظهر لهم من عذابه ﴿مَا لَمْ يَكُونُوا﴾ في الدنيا ﴿يَحْتَسِبُونَ﴾

---

١. تفسير الرازي ٢٦: ٢٨٦، تفسير روح البيان ٨: ١٢٠.

ويتوهمون. وفيه بيان غاية شدّة عذابهم وكثرة أنواعه، كما أن في قوله ﷺ في صفة ثوابهم في الجنة «بما لا عين رأت، ولا أذن سَمِعت، ولا خطَر في قلب بشر»[١] بيان نهاية حُسنه وكثرة أنواعه.

ثمَ بيّن سبحانه أنّ العذاب المذكور من آثار أعمالهم السيئة التي عملوها في الدنيا بقوله: ﴿وَبَدَا﴾ وظهر ﴿لَهُمْ﴾ يوم القيامة ﴿سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ وآثار قبائح أعمالهم التي عملوها حين عرض صُحفه عليهم ﴿وَحَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِهِم﴾ من كلّ جانب ﴿مَا كَانُوا بِهِ﴾ في الدنيا ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من عذاب الآخرة عند إخبار النبيّ ﷺ به، وكانوا يقولون: متى هذا الوعد؟

فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ [٤٩ ـ ٥١]

ثمَ لمّا حكى سبحانه اشمئزاز المشركين عن ذِكر الله وحده، واستبشارهم بذكر أصنامهم، بيّن أنّهم مع عداوتهم لله يلتجأون إليه وحده عند ابتلائهم بالشدائد بقوله: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَانَ﴾ وأصابه ﴿ضُرٌّ﴾ ومكروه وسوء حال كفقر أو مرض أو خوف أو نظائرها ﴿دَعَانَا﴾ والتجأ إلينا وحدنا، وسألنا كشفه، مع اشمئزازه عن ذكرنا متفرّداً ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ﴾ وأعطيناه ﴿نِعْمَةً﴾ من غنى أو صحة ونحوهما تفضلاً ﴿مِّنَّا﴾ عليه لم يَرَها منّا، بل ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾ ووجدته ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ كان لي بوجوه كسبه، أو لعلمي بأنّي سأعطاه لما لي من الفضل والاستحقاق، والحال أنّه ليس كذلك ﴿بَلْ﴾ تلك النِّعمة إنّما ﴿هِيَ فِتْنَةٌ﴾ واختبارٌ له، أيشكر أم يكفر ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ لحُمقهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّها استدراجٌ واختبارٌ لهم.

واعلم أنّ تلك الكلمة الباطلة ليست مختصة بهم بل ﴿قَدْ قَالَهَا﴾ جمع من الأمم ﴿ٱلَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ كقارون وقومه، حيث قال: ﴿إنما اوتيته على علم عندى﴾[٢] فابتلوا بالعذاب لقولهم ذلك ﴿فَمَا أَغْنَىٰ﴾ وما دفع ﴿عَنْهُم﴾ العذاب ﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الأمتعة الدنيوية ويجمعون منها، ولم تنفعهم النعمة في الخلاص من النِّقمة ﴿فَأَصَابَهُمْ﴾ ووصل إليهم ﴿سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ وأسوأ جزاء ما عملوا في الدنيا من الكفر والقبائح والمعاصي.

ثمَ أوعد سبحانه كفّار مكة، أو من في عصر النبي ﷺ منهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ على أنفسهم

---

١. تفسير الرازي ٢٦: ٢٨٧.
٢. القصص: ٢٨/٧٨.

باختيار الشرك والغُرور ﴿مِنْ هؤلاءِ﴾ القوم الذين جاوروك في مكة، أو في زمانك، وعاندوك في الحقّ ﴿سَيُصيبُهُمْ﴾ وعن قريبٍ يصل إليهم ﴿سَيِّئاتُ مَا كَسَبُوا﴾ وعقوبات ما عَمِلوا من الكفر والمعاصي في الدنيا والآخرة ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ الله القادر على كلّ شيءٍ من تعذيبهم بالهَرب والقوة والشوكة.

قيل: قد أصابهم في الدنيا حيث قَحَطوا سبع سنين، وقُتِل أكابرهم في بدر[1] وسائر الغزوات.

أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * قُلْ يَا عِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ * وَٱتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِن رَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ * أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَاحَسْرَتَى عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنبِ ٱللهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّاخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللهَ هَدَانِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ * بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ [٥٢ ـ ٥٩]

ثمّ عاد سبحانه إلى جواب قولهم: ﴿إنّما اوتيته على علم﴾ بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ اُولئك الحُمقاء.
قيل: إنّ التقدير أيقولون ذلك ولم يعلموا[2] بالتفكّر في أنّ الغِنى والفَقر كثيراً يكونان على خلاف العادة، ويتبدّلان في شخصٍ واحدٍ بغير اختياره ﴿أَنَّ ٱللهَ﴾ بقدرته وحكمته ﴿يَبْسُطُ﴾ ويوسّع ﴿ٱلرِّزْقَ﴾ والنِّعمة ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ أن يُوسّعه عليه لصلاحٍ في نظره من امتحانٍ وجزاء عمل أو لغيرهما، لا لرِفعة قدره عنده ﴿وَيَقْدِرُ﴾ ويضيق على من يشاء أن يقدِر ويضيّق عليه، لعلمه بصلاح في حقّه، أو لنظام العالم، لا لضِعَة قدره، ولا باختياره ﴿إِنَّ فِى ذٰلِكَ﴾ المذكور من البسط تارةً والقبض اُخرى، وفي مورد دون مورد ﴿لَآيَاتٍ﴾ ودلالاتٍ على بسط الرزق وقبضة، بل كلّ الحوادث في العالم، بيد الله وإرادته وحده، لا بتدبير أحدٍ، ولكن إنّما يكون نفع تلك الآيات والتفكّر فيها ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله، إذ هم المتفكّرون والمتدبّرون فيها، والمنتفعون بها، وأمّا غيرهم غافلون عنها غير

---

١. تفسير أبي السعود ٧: ٢٥٩، تفسير روح البيان ٨: ١٢٢.
٢. تفسير روح البيان ٨: ١٢٢.

معتنين بها.

ثمَ إنّه تعالى بعد توعيد المشركين والكفّار الظالمين على أنفسهم بالكفر والشرك والعِصيان، وتهديدهم بالعذاب الشديد، أعلن سبحانه بسَعَة رحمته بالنسبة إلى عباده المؤمنين بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا نبي الرحمة للمؤمنين من قبلي ﴿يَا عِبَادِىَ﴾ المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ وأفرطوا في الخيانة ﴿عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ بتجاوز الحدّ في العِصيان ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾ ولا تيأسوا ﴿مِن رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ وتفضلّه عليكم بالعفو والمغفرة.

ثمَ كأنه قيل: لم لا يَقْنَطون مع كَثْرة المعاصي؟ فأجاب سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ بكرمه وتفضّله ﴿يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾ للمؤمنين ﴿جَمِيعاً﴾ ولو كانت بعدد النجوم والرمال وأوراق الأشجار.

ثمَ أكّد سبحانه وعده بقوله: ﴿إِنَّهُ﴾ بالخصوص ﴿هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ للذنوب وستّارها ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين بعد الغُفران بإعطاء الثواب.

قيل: إنّ الآية نزلت في قوم خافوا إن أسلموا لا يُغْفَر لهم ما ارتكبوا من الذنوب العِظام، كقتل النفس والزنا ومُعاداة النبي ﷺ والقتال معه، فأنزل الله هذه الآية[1]، ففَرِح النبي ﷺ بها، ورآها أصحابه أنها أوسع الآيات في مغفرة الذنوب.

عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قال: «ما في القرآن آية أوسع من ﴿يَا عِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾»[2].

ورُوي أنّ وحشياً قاتل حمزة كتب إلى النبيّ ﷺ يسأله هل له من التوبة؟ وكتب أنّه سَمِع فيما أنزل الله بمكّة من القرآن آيتين أنستاه من كلّ خيرٍ وهما قوله: ﴿والذين لا يدعون مع الله الهاً آخر﴾ إلى قوله: ﴿مهاناً﴾[3] فنزلت: ﴿إلا من تاب وامن وعمل صالحاً﴾[4] فكتب بها رسول الله ﷺ، فخاف وحشي وقال: لعليَ لا أبقى حتى أعمل صالحاً، فأنزل الله ﴿لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[5]. فقال وحشي: إني أخاف أن لا أكون في مشيئة الله، فأنزل الله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ إلى آخره فأقبل وحشي وأسلم[6].

القمي، قال: نزلت في شيعة علي بن أبي طالب عليه السلام خاصة[7].

وعن الباقر عليه السلام: «وفي شيعة ولد فاطمة أنزل الله هذه الآية خاصة»[8].

وعن الصادق عليه السلام، قال: «لقد ذكركم الله في كتابه إذ يقول: ﴿يَا عِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ الآية، قال:

---

١. أسباب النزول للواحدي: ٢٠٨.
٢. مجمع البيان ٨: ٧٨٤، تفسير الصافي ٤: ٣٢٦.
٣. الفرقان: ٢٥/٦٨ و٦٩.
٤. الفرقان: ٢٥/٧٠.
٥. النساء: ٤/١١٦.
٦. اسباب النزول للواحدي: ١٩٠.
٧. تفسير القمي ٢: ٢٥٠، تفسير الصافي ٤: ٣٢٥.
٨. تفسير القمي ٢: ٢٥٠، معاني الأخبار: ٤/١٠٧، تفسير الصافي ٤: ٢٢٥.

والله ما أراد بهذا غيركم»[١].

وعنه عليه السلام: «ما على ملّة إبراهيم غيركم، وما يقبل إلّا منكم، ولا يغفر الذنوب إلّا لكم»[٢].

أقول: المراد من النزول في شيعة على نزولها في حقّ غير المرتدّين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وهم شيعة علي وولده، إذ هم الذين لم يُنكِروا النصّ الجليّ في عليّ عليه السلام.

إن قيل: الآية موجبة لعدم خوف المؤمنين من الله وعقابه، مع أنّه ثبت أنّه يجب على المؤمن أن يكون خائفاً راجياً، لوضوح أن الأمن من مكر الله وعقابه من المعاصي الكبيرة، كاليأس من رحمة الله.

قلنا: لا شُبهة أن كثرة المعاصي قد تؤدي إلى الكفر وذَهاب الايمان، فالمؤمن لا يعلم أنه يموت على الايمان، فيخاف من زوال إيمانه ولو حين الموت، مع أنّ الوعد بالمغفرة إنّما هو في القيامة، والمؤمن يَخاف من عقوبة الله في البرزخ، كما ورد «أنّ أخوف ما أخاف عليكم البَرزخ» مع أنه يحتمل تقييدها، لأنّه بالتوبة المقبولة، ومع التوبة لا يعلم قبولها، كما قيل: إنّ ابن مسعود قرأ: (إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً لمن يشاء)[٣].

ورُوي ذلك عن ابن عباس[٤] أيضاً.

فليس في الآية إغراءٌ إلى المعصية كماتوهَم، بل يجب على المؤمن الإنابة والتوبة إلى الله بقوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا﴾ أيها الناس وارجِعوا ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾

بالتوبة عن المعاصي ﴿وَأَسْلِمُوا﴾ واخصِلوا﴿لَهُ﴾ تعالى أعمالكم من شوب الشرك والهوى﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿ثمّ﴾ بعد نزوله ﴿لَا تُنصَرُونَ﴾ ولا تُمْنَعون منه من قبل أحد ﴿وَٱتَّبِعُوٓا﴾ أيها المؤمنون ﴿أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِن رَبِّكُم﴾ وهو القرآن، وعَمِلوا بما فيه.

وقيل: يعني ما هو أنجى وأسلم كالإنابة والمواظبة على الطاعة، أو المعنى الزَموا طاعته واجتنبوا معصيته[٥] ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ الدنيوي، أو الأُخروي بإتيان الموت ﴿بَغْتَةً﴾ وغَفْلة ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ لوقت مجيئه حتى تتداركوا وتتأهّبوا له، وإنّما امرتكم بما ذكرت كراهة ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ حين نزول العذاب تحسّراً واستغاثةً بها على ما هو دأب المتحسرين: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ ويا أسفاه ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ وقصّرت ﴿فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ وناحيته على تجاوزي عن الحدّ في عدم رعاية حقوقه، وعدم سلوك طريقه ﴿وَإِن كُنتُ﴾ في الدنيا وقد عددت فيها ﴿لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾

---

١. الكافي ٨: ٣٥/٥، تفسير الصافي ٤: ٢٢٥.
٢. المحاسن: ١٤٧/٥٦، تفسير الصافي ٤: ٢٢٥.
٣. تفسير الرازي ٢٧: ٥، تفسير روح البيان ٨: ١٢٦.
٤. مجمع البيان ٨: ٧٨٥، عن عبدالله.
٥. تفسير روح البيان ٨: ١٢٨.

والمستهزئين بدينه وبرسوله وكتابه، ولم اكتفِ بترك طاعتهما ﴿أَوْ تَقُولَ﴾ نفس: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَانِى﴾ وأرشدني إلى الحقّ ﴿لَكُنتُ﴾ في الدنيا ﴿مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشِّرك والمعاصي.

رُوي أنّه ما من أحدٍ من أهل النار يدخُل النار حتى يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أنّ الله هداني لكنت من المتّقين، فيكون عليه حسرة[1].

﴿أَوْ تَقُولَ﴾ نفسٌ تمنّياً ﴿حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ﴾ عِياناً ومشاهدةً: ﴿لَوْ أَنَّ لِى﴾ الآن ﴿كَرَّةً﴾ ورُجوعاً إلى الدنيا ﴿فَأَكُونَ﴾ فيها ﴿مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الصالحين في العقيدة والعمل. قيل: إنّ كلمة (أو) الدالة على الترديد، لها دلالة على أنّ كل نفسٍ من الكفّار لا تخلو عن هذه الأقوال تحيّراً وتعللاً ما لا طائل تحته، أو ندماً حين لا ينفع[2].

وقيل: إنّها تتحسّر بالتفريط عند تطاير الكتب، ثمّ تتعلّل بفقد الهداية عند مشاهدة المتّقين واغتباطهم، بتمنّي الرجعة عند الاطّلاع على النار ورؤية العذاب[3]. وقيل:إنّ كلّ قولٍ يكون لقوم[4].

ثمّ لمّا كان في القول الثاني إنكار الهداية من الله ونفيها، ردّها الله تعالى بقوله ﴿بَلَىٰ﴾ قد هديتك، فانّه ﴿قَدْ جَاءَتْكَ ءَايَاتِى﴾ التي أنزلتها لهداية الناس مع دلائل الصدق بتوسّط رسولي ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ وأنكرت أنّها كلامي عِناداً ولَجاجاً ﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾ من قَبولها واتّباعها، وتعظّمت عن الايمان بها ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ﴾ لنعمي، والمضيّعين لحقوقي عليك من إرسال الرسول إنزال الكتاب بعد إعطائك العقل والحواسّ وسائر القوى.

وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ * وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[٦٠ و ٦١]

ثمّ لمّا حكى سبحانه كذب المشركين على الله بقولهم: إنّ الله ما هدانا، هدّد الكاذبين على الله بقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ تَرَى﴾ يا محمد، أو يأمن من شأنه الرؤية الكفّار ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى ٱللَّهِ﴾ ونسبوا إليه ما لا يليق به من أخذه الشريك، أو أختياره الصاحبة والولد، أو تركه هداية الناس ونحوها ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ ومُظلمةٌ لسواد قلوبهم وظلمتها بسبب الكفر والجهل.

ويُحتمل أن يكون المراد بسواد الوجه الفضيحة بين الناس والذِلّة، كما يقال: الفقر سواد الوجه.

---

١. تفسير روح البيان ٨: ١٢٩.
٢. تفسير روح البيان ٨: ١٢٩.
٣. تفسير روح البيان ٨: ١٣٠.
٤. تفسير روح البيان ٨: ١٢٩.

ويقال للكاذب: ثبت كِذبُك، واُسوّد وجهُك.

ثمّ بيّن كمال استحقاقهم الخلود في جهنّم بقوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَيْسَ﴾ أيّها العقلاء ﴿فِى جَهَنَّمَ﴾ يوم القيامة ﴿مَثْوىً﴾ ومأوى أبدياً ﴿لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الايمان بالله وبرسوله وإطاعته واتّباع آياته.

عن الصادق عليه السلام، قال: «إن في جهنم لوادٍ للمتكبرين يقال لها سقر، شكا إلى الله من شدّة حرّه، وسأله أن يتنفس، فأذِن له فتنفّس، فأحرق جهنّم»[1].

اقول: على هذه الرواية يكون المراد من الآية أنّ في جهنم مثوىً خاصاً للمتكبرين أسوأ من مثوى غيرهم.

ثمّ إنّه تعالى بعد وعيده للمشركين وعد المتّقين من الشرك والكذب بقوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللهُ﴾ يوم القيامة المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا﴾ الشرك والكذب على الله من جهنّم وعذابها مقرونين ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ ونجاحهم بأعلى المطالب وهو الجنّة ونِعمها.

وقيل: إنّ باء (بمفازة) سببية والمعنى أنّ الله يُنجّي المتقين من العذاب[2] بسبب سعادتهم وفوزهم في الدنيا بالطاعات والخيرات.

ثمّ كأنّه قيل: كيف ينجيّهم؟ فقال سبحانه: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ﴾ ولا يُصيبهم ﴿ٱلسُّوءُ﴾ والمكروه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من نِعم الدنيا ولا يَغُمّهم الفزَع الأكبر.

ٱللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَهُ مَقَالِيدُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ ٱللهِ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ [٦٢ و ٦٣]

ثمّ إنّه تعالى بعد شرح الوعد والوعيد، بيّن كمال قدرته الدالّ على توحيده، وعلى إنجازهما بقوله: ﴿ٱللهُ﴾ وحده ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الممكنات ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الموجودات ﴿وَكِيلٌ﴾ وقيّمٌ ووليّ، يتصرف فيه كيف يشاء، ومتكفّل بمصالح عباده، والكافي لهم في جميع اُمورهم ﴿لَهُ﴾ وحده ﴿مَقَالِيدُ﴾ خزائن ﴿ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومفاتيحها، لا يتصرّف فيها غيره، ويُعطي منها ما يشاء لمن يشاء.

قيل: إنّ خزائن السماوات المطر، وخزائن الأرض النبات[3].

---

١. تفسير القمي ٢: ٢٥١، تفسير الصافي ٤: ٣٢٧. ٢. تفسير أبي السعود ٧: ٢٦١.

٣. تفسير روح البيان ٨: ١٣٢.

روي عن النبي ﷺ أنّه سُئل عن تفسير مقاليد السماوات والأرض، فقال: «تفسيرها لا إله إلّا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، وأستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، بيده الخير، يُحيي ويُميت، وهو على كلّ شيءٍ قدير»[١].

أقول: على هذه الرواية يكون معنى الآية له هذه الكلمات، وهي مفاتيح جميع الخيرات، فمن قالها أصاب خير الدنيا والآخرة.

ثمّ لمّا بيّن سبحانه ربح المؤمن في سوق تجارة الدنيا، ذكر خُسران الكفار بقوله: **﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ ٱللهِ﴾** التنزيلية والتكوينية الآفاقية والأنفسية الدالة على توحيد الله في ذاته وصفاته الجلالية والجمالية **﴿أُولٰئِكَ﴾** البعيدون عن ساحة رحمة الله **﴿هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾** خُسراناً لا خسارة ورائه، لأنّهم سدّوا على أنفسهم أبواب رحمته ولُطفه، وفتحوا عليها أبواب سَخَطه وعذابه.

قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللهِ تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَاهِلُونَ * وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ [٦٤ و ٦٥]

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان أنّ ذاته المقدسة خالق كلّ شيءٍ، ومدبّر اُمور عالم الوجود، ومُعطي الخيرات ومانعها، أمر نبيّه وحبيبه ﷺ بالانكار على من توقّع منه عبادة غيره، وإظهارالتعجّب من طَمَعهم بقوله: **﴿قُلْ﴾** يا محمد، في جواب من يتوقع منك الايمان بالأصنام، ويسأل منك الإقدام بعبادتها: **﴿أَفَغَيْرَ ٱللهِ﴾** قيل: إنّ التقدير أبعد مشاهدة آيات قُدرة الله[٢] وحكمته ووحدانيته، ومعرفتي إياه بجميع الصفات الكمالية، فغير الله من المخلوقات التي أنا أفضل وأكمل من جميعها **﴿تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ﴾** وتسألوني أن أقول بألوهيتها، وتقولون أن أستلمها.

قيل: كانوا يقولون: يا محمد، استلم بعض آلهتنا نؤمن بإلٰهك[٣]. **﴿أَيُّهَا ٱلْجَاهِلُونَ﴾** بحكم العقل والعقلاء، فانّ من الواضح أنّ العقل حاكمٌ بقُبح عبادة الجماد الذي لا يَضُرّ ولا ينفع، وترك عبادة الخالق الذي بيده كلّ خيرٍ وشرٍّ ونفعٍ وضرٍّ.

ثمّ إنّه تعالى بعد أمر نبيّه ﷺ بتوبيخ المشركين على طمعهم في إشراكه وإظهار أنه عين الجهل والحُمق، بالغ سبحانه في قطع طمعهم فيه، بتهديد حبيبه عليه بقوله: **﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾**، يا محمد، من قبلنا **﴿وَإِلَىٰ﴾** الأنبياء **﴿ٱلَّذِينَ﴾** جاءوا **﴿مِن قَبْلِكَ﴾** وكان ما اُوحي إليك وإلى كلّ واحدٍ منهم،

---

١. تفسير الرازي ٢٧: ١١، تفسير البيضاوي ٢: ٣٣٠، تفسير أبي السعود ٧: ٢٦١، تفسير روح البيان ٨: ١٣٢.
٢. تفسير روح البيان ٨: ١٣٢.
٣. تفسير الرازي ٢٧: ١٢، تفسير أبي السعود ٧: ٢٦٢.

هو أنه والله و ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ بي على فرض المحال ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وليَبْطُلنّ سعيك، وإن كنت أحبّ الخلق إليّ، وأكرمهم عليّ ﴿وَ﴾ الله ﴿لَتَكُونَنَّ﴾ البتّة ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ في صفقتك، وفيه إيذانٌ بغاية شناعة الشرك وقُبحه، وكونه عبثٌ ينهى عنه من يستحيل منه فضلاً عن غيره.

وقيل: إنّ المخاطب هو النبيّ ﷺ والمراد اُمّته[١].

وعن ابن عباس: هذا أدبٌ لنبيه ﷺ وتهديده لغيره، لأنّ الله عصمة من الشرك ومُداهنة الكفّار[٢].

وعن الباقر عليه السلام، أنّه سُئل عن هذه الآية فقال: «تفسيرها لئن أمرت بولاية أحدٍ مع لاية عليّ عليه السلام من بعدك ليَحْبَطَنّ عملك، ولتكُوننّ من الخاسرين»[٣].

وعن الصادق عليه السلام: «يعني إنْ اشرك[٤] في الولاية غيره» الخبر[٥].

أقول: هذه الروايات تأويلٌ للآية.

بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِنَ الشَّاكِرِينَ * وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ[٦٦ و ٦٧]

ثمّ بالغ سبحانه في تأكيد التوحيد بقوله: ﴿بَلِ اللهَ﴾ وحده ﴿فَاعْبُدْ﴾ وقيل: إنّ التقدير لا تعبُد ما آمرك المشركون بعبادته، بل إن عبدت شيئاً فاعبُد الله[٦] ﴿وَكُن مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لنِعمة هدايتك إلى توحيده ومعرفته وعبادته بتقوية عقلك ونصب الأدلّة القاطعة والوحي إليك.

عن الصادق عليه السلام: «أنّ الله بعث نبيه ﷺ بأياك أعني واسمعي يا جارة، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ يعني بل الله فاعبُد بالطاعة، وكن من الشاكرين أن عَضَدتك بأخيك وابن عمّك»[٧].

ثمّ إنّه تعالى بعد أمر نبيّه ﷺ بتوصيف المشركين له بالشرك والجهل، فسّر جهلهم بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَ﴾ ما عرفوه حقّ معرفته، واعظموه بما يليق بعظمته، حيث جعلوا له من مخلوقاته شركاء، وساووه مع الجمادات التي لا شُعور لها ولا قُدرة على شيء، والحال أنّه ﴿الْأَرْضُ﴾ بطبقاتها الظاهرة والباطنة، وأجزائها الكبيرة والصغيرة ﴿جَمِيعاً﴾ وكَلاً ﴿قَبْضَتُهُ﴾ وفي

---

١. تفسير القمي ٢: ٢٥١، تفسير الصافي ٤: ٣٢٨.
٢. تفسير روح البيان ٨: ١٣٣.
٣. تفسير القمي ٢: ٢٥١، تفسير الصافي ٤: ٣٢٨.
٤. في الكافي: أشركت.
٥. الكافي ١: ٧٦/٣٥٣، تفسير الصافي ٤: ٣٢٨.
٦. تفسير روح البيان ٨: ١٣٣.
٧. تفسير القمي ٢: ٢٥١، إلى نهاية الآية، تفسير الصافي ٤: ٣٢٨.

يد قدرته، وتحت تصرّفه ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ يُقلّبها مع غاية عظمتها، كما يُقلّب الانسان حصاةً أو خاتماً في كفّه ﴿وَٱلسَّمَاوَاتُ﴾ السبع مع سَعتها وغاية ضخامتها ﴿مَطْوِيَّاتٌ﴾ ومدرجات وملفوفات كلف الثياب ﴿بِيَمِينِهِ﴾ وقُدرته.

عن ابن عباس، قال: ما السماوات السبع والأرضون السبع في يد الله إلّا كخَرْدلة في يد أحدكم[١].

عن الصادق عليه السلام: «قبضته يعني مُلكه، لا يملِكها معه احدٌ...» قال: «اليمين: اليد، واليد: القدرة والقوة ﴿مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ يعني بقدرته وقوته»[٢].

ثمّ إنه تعالى بعد بيان عظمته وسلطانه وقدرته، نزّه ذاته المقدّسة عن الشريك بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ﴾ وترفّع ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ من الشركاء والأصنام.

عن ابن عباس وابن مسعود: أنّ حَبْراً من اليهود أتى رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: يا محمد، أشعرت أنّ الله يضع يوم القيامة السماوات على إصْبَع، والجبال على إصْبَع، والأرضين على إصْبَع، والماء والثرى والأشجار على إصْبَع، وجميع الخلائق على إصْبَع، ثمّ يهزّهنّ ويقول: أنا المَلِك، وأين المُلوك؟ فضحك رسول الله تعجباً منه، وتصديقاً له، فانزل الله [هذه الآية]»[٣].

وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَٱلشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * ووُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ [٦٨ ـ ٧٠]

ثمّ بالغ سبحانه في إظهار عظمته قدرته بقوله: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ نفخةً واحدةً ﴿فَصَعِقَ﴾ وفزِع ومات ﴿مَن فِى ٱلسَّمَاوَاتِ﴾ من الملائكة ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الحيوانات ﴿إِلَّا مَن شَاءَ ٱللَّهُ﴾ أن لا يُصْعقَ، قيل: هم جَبْرئيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، أو هم وحَمَلة العرش، فانّهم لا يموتون عند النفخة الأولى[٤]. وقيل: هم الحُور والغِلمان وخَزَنة الجنة والنار»[٥].

ورُوي عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه سأل جَبْرئيل عن هذه الآية: «من الذين لم يشأ الله أن يَصْعقَهم؟» قال: «هم الشهداء يتقلّدون أسيافهم حول العرش»[٦].

---

١. تفسير روح البيان ٨: ١٣٥.
٢. التوحيد: ٢/١٦١، تفسير الصافي ٤: ٣٢٩.
٣. تفسير الرازي ٢٧: ١٥، تفسير روح البيان ٨: ١٣٤.
٤. تفسير أبي السعود ٧: ٢٦٣، تفسير روح البيان ٨: ١٣٧.
٥. تفسير روح البيان ٨: ١٣٧.
٦. تفسير الرازي ٢٧: ١٨، تفسير روح البيان ٨: ١٣٨.

وروىٰ بعض العامة عن الصادق عليه السلام: «أنّ أهل الاستثناء محمّد وأهل بيته عليهم السلام وأهل المعرفة»[1].

أقول: هذان الخبران مبنيّان على أنّ المراد بالصَّعْق أعمّ من الموت والغشوة، كما نسب ذلك إلى بعض المحققين[2]، فالأحياء يموتون بالنفخة، والأرواح الذين ذاقوا الموت يُغشى عليهم، وعند ذلك يقول الله تعالى:﴿**لمن الملك**﴾، مع أنّه لا بُعد في كون محمد وآله أهل الاستثناء، لأنّهم بوجه هو، كما رُوي أنّهم قالوا: «إنّ مع الله حالات، نحن هو، وهو نحن»[3].

﴿**ثُمَّ**﴾ بعد أربعين سنة على رواية[4] ﴿**نُفِخَ فِيهِ**﴾ النفخة الـ﴿**أُخْرَىٰ**﴾ وهي نفخة الإحياء ﴿**فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ**﴾ وناهضون من قبورهم على أرجلهم، أو واقفون من شدّة الحيرة في مكانهم حال كونهم ﴿**يَنظُرُونَ**﴾ إلى الأطراف والجوانب كالمبهوتين، أو إلى السماء كيف غُيّرت وطُويت، إلى الأرض كيف بُدّلت، وإلى الداعي كيف يدعوهم إلى الموقف، أو إلى الآباء والاُمّهات والأولاد كيف ذهبت شفقتهم واشتغلوا بأنفسهم، أو إلى خُصمائهم ماذا يفعلون بهم.

وقيل: يعني ينتظرون ما يُفْعَل بهم[5].

في بيان كيفية الصور، والنفخ فيه، والمدّة الكائنة بين النفختين

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «أنا أوّل من ينشقّ عنه القبر»[6].

وعن السجاد عليه السلام أنّه سُئِل عن النفختين كم بينهما؟ قال: «ما شاء الله».

قيل: أخبرني يا بن رسول الله كيف يُنْفَخ فيه فقال: «أما النفخة الأُولى» فانّ الله يأمُر إسرافيل، فيهبِط إلى الدنيا، ومعه الصُّور، وللصُّور رأسٌ واحدٌ وطرفان، وبين رأس كل طرفٍ منهما إلى الآخر مثل ما بين السماء إلى الأرض، وإذا رأت الملائكة إسرافيل قد هبط إلى الدنيا ومعه الصُّور قالوا: قد أذِن الله في موت أهل الأرض، وفي موت أهل السماء.

قال: فيهبِط إسرافيل بحظيرة بيت المَقدِس، وهو مستقبل الكعبة، فاذا رأوه أهل الأرض قالوا: قد أذِن الله في موت أهل الأرض، فيَنْفُخ فيه نفخةً، فيخرُج الصوت من الطرف الذي يلي الأرض، فلا يبقى في الارض ذو روحٍ إلّا صَعِق ومات، ويخرُج الصوت من الطرف الذي يلي السماء، فلا يبقى في السماوات ذو رُوحٍ إلّا صَعِق ومات إلّا إسرافيل، فيقول الله لإسرافيل: مُتْ فيموت إسرافيل، فَيمكُثون في ذلك ما شاء الله، ثمّ يأمر السماوات فتمور، ويأمر الجبال فتسير، وهو قوله تعالى: ﴿**يوم تمور السماء موراً * وتسير الجبال سيراً**﴾[7].

---

١. تفسير روح البيان ٨: ١٣٨. ٢. تفسير روح البيان ٨: ١٣٧.

٣. لم نعثر عليه. ٤. تفسير الرازي ٢٧: ١٨.

٥ و٦. تفسير روح البيان ٨: ١٣٨. ٧. الطور: ٥٢/ ٩ و١٠.

إلى أن قال: «فينفُخ الجبار نفخةً أُخرى في الصَور، فيخرُج الصوت من الطرف الذي يلي السماوات، فلا يبقى في السماوات أحدٌ إلّا حي وقام كما كان، ويعود حملة العرش، وتحضُر الجنة والنار، ويُحشَر الخلائق للحساب»[١].

قال الغزالي: اختلف الناس في أمد المدة الكائنة بين النفختين، فاستقرّ جمهورهم على أنّها أربعون سنة. قال: وحدثني من لا أشُكّ في علمه: أنّ أمد ذلك لا يعلمه إلّا الله، لأنّه من أسرار الربوبية، فاذا أراد الله إحياء الخلق يفتح خِزانة من خزائن العرش، فيها بحر الحياة، فيُمطِر به الأرض ـ فاذا هو كمَنيّ الرجال ـ بعد أن كانت عطشى، فتحييٰ وتهتزّ، ولا يزال المطر عليها حتى يعمّها، ويكون الماء فوقها أربعين ذراعاً، فإذا الأجسام تنبُتُ من عَجْب الذَّنَب[٢]، وهو أول ما يُخلَقَ من الانسان، بدأ منه ومنه يعود، وهو عَظمٌ على قدر الحِمّصة، وليس له مُخّ، فاذا نَبَت كما ينبُتُ البَقْل، تشتبك بعضها في بعض، فإذا رأس هذا في مَنْكِب هذا، ويد هذا في جنب هذا، أو فَخِذ هذا على حِجر هذا لكثرة البشر، الصبيّ صبيّ، والكَهْل كَهْل، والشيخ شيخ، والشاب شابّ، ثمّ تَهُبّ ريحٌ من تحت العرش فيها نار، فتنسف ذلك عن الأرض، وتبقى الأرض بارزةً مستويةً، كأنّها صحيفةٌ واحدةٌ، ثمّ يُحيي الله إسرافيل، فينفُخ في الصُّور من صخرة بيت المَقْدِس، فتخرُج الأرواح لها دويّ كدويّ النحل، فتملأ الخافقين، ثمّ تذهب كلّ نفسٍ إلى جُثّتها بإعلام الله تعالى حتى الوحش والطير وكلّ ذي روح، فاذا الكلّ قيام يَنظُرون[٣].

وعن الصادق عليه السلام: «إذا اراد الله أن يبعث الخلق أمطر السماء على الأرض أربعين صباحاً، فتجمع الاوصال، وتنبُت اللحوم»[٤].

﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ وأضاءت ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ والذي خلقه لإضاءة العرصة.

وقيل: إنّ المراد بالنور عَدْل ربّهم، وإنّما استُعير له النور لأنه يُزيّن البِقاع، ويُظهر الحقوق، كما يُسمّى الظُّلم ظُلمة[٥].

وفي الحديث: «الظُّلم ظلمات يوم القيامة»[٦].

وقيل: إنّ هذا من المكتوم الذي لا يُفسّر[٧].

عن الصادق عليه السلام قال: «ربّ الأرض إمام الأرض». قيل: إذا خرج يكون ماذا؟ قال: «إذاً يستغني الناس عن ضوء الشمس والقمر، ويجتزون بنور الإمام»[٨].

---

١. تفسير القمي ٢: ٢٥٢، تفسير الصافي ٤: ٢٣٠.
٢. أي أصله عند رأس العصعص.
٣. تفسير روح البيان ٨: ١٣٩.
٤. تفسير القمي ٢: ٢٥٣، تفسير الصافي ٤: ٣٣٠.
٥. تفسير روح البيان ٨: ١٤٠.
٦. تفسير الرازي ٢٧: ١٩، تفسير أبي السعود ٧: ٢٦٣.
٧. تفسر روح البيان ٨: ١٤٠.
٨. تفسير القمي ٢: ٢٥٣، تفسير الصافي ٤: ٣٣١.

وعنه عليه السلام: «إذا قام قائمنا أشرقت الأرض بنور ربّها، واستغنى العباد عن ضوء الشمس، وذهبت الظُلمة»[١].

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَابُ﴾ وصحائف الأعمال في أيدي الناس.

قيل: هو كناية عن الشروع في حساب أعمال الناس، كما يضع المحاسب دفتر المحاسبة بين يديه عند الشروع في الحساب[٢].

وقيل: إنّه اللّوح المحفوظ الذي فيه شرح أحوال عالم الدنيا إلى القيامة[٣].

﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَٱلشُّهَدَاءِ﴾ الذين استشهدوا نُصرةً للدين، فاذا دُعي النبيّون والشهداء الذين هم أفضل الناس للحساب، فكيف يكون حال الأمم.

وقيل: إنّ المراد بالشهداء الشهود على الأُمم من الملائكة والأولياء[٤].

القمي: الشهداء الأئمة، والدليل على ذلك قوله تعالى في سورة الحجّ: ﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا﴾ أنتم يا معشر الأئمّة ﴿شهداء على الناس﴾[٥].

﴿وَقُضِيَ﴾ بين الناس وحُكِم ﴿بَيْنَهُم﴾ في ذلك اليوم ﴿بِالْحَقِّ﴾ والعدل؛ ثمّ بعد إثبات العدل نفي الظلم على العباد بقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص الثواب عمّا وعد، وزيادة العقاب على ما أوعد.

ثمّ أكّد ذلك سبحانه بقوله: ﴿ووُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس وأُعطيت كاملاً جزاء ﴿مَا عَمِلَتْ﴾ من الخير والشرّ.

ثمّ لمّا كان إيفاء الحقّ متوقّفاً على العلم الكامل بأعمال العباد ومقاديرها وكيفياتها، بيّن علمه بها مضافاً إلى كونها مثبوتةً في الكتاب بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿أَعْلَمُ﴾ من غيره حتى من العامل ﴿بِمَا﴾ كانوا في الدنيا ﴿يَفْعَلُونَ﴾ فيمتنع منه الخطأ في الحكم.

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ * قِيلَ ٱدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ [٧١ و ٧٢]

ثمّ بيّن سبحانه ما يحكم به يوم القيامة في حقّ الكفّار والمتّقين بقوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾

---

١. إرشاد المفيد ٢: ٣٨١، تفسير الصافي ٤: ٣٣١. ٢. تفسير روح البيان ٨: ١٤٠.
٣. تفسير الرازي ٢٧: ٢٠. ٤. تفسير روح البيان ٨: ١٤٠.
٥. تفسير القمي ٢: ٢٥٣، تفسير الصافي ٤: ٢٣١.

ويُذْهَب به بالعُنف والدفع ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ بأمره بعد الحساب، والحكم عليهم باستحقاق العقاب حال كونهم ﴿زُمَراً﴾ وجماعاتٍ وأفواجاً متفرّقةً بعضها في أثر بعض على حسب ترتُّب طبقاتهم في الكفر والشرارة ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا﴾ بالاكراه[1] والاضطرار و ﴿فُتِحَتْ﴾ بأمر مالك خازن جهنّم ﴿أَبْوَابُهَا﴾ السبعة ليدخلوها.

قيل: فائدة إغلاقها إلى وقت مجيئهم تهويل شأنها، كما هي حال المسجون، وإيقاد حرّها[2].

﴿وَقَالَ لَهُمْ﴾، تقريعاً وتوبيخاً الملائكة الذين هم ﴿خَزَنَتُهَا﴾ وحُفّاظها: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أيها الكفرة في الدنيا ﴿رُسُلٌ مِنكُمْ﴾ وأنبياء من جنسكم، ليسهل عليكم مراجعتهم وفهم كلامهم، وهم ﴿يَتْلُونَ﴾ ويقرأون ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ويؤدّون إليكم ﴿آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ التي أُنزلت لهدايتكم ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ﴾ ويُخوّفونكم ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا﴾ وشدائده وأهواله؟

﴿قَالُوا﴾ للخَزَنة: ﴿بَلَىٰ﴾ قد أتونا، وتلوا علينا، وأنذرونا ﴿وَلٰكِن﴾ ما اعتنينا بهم، ولذا ﴿حَقَّتْ﴾ ووجبت ﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ ووَعْدُه من الله ﴿عَلَى ٱلْكَافِرِينَ﴾ الذين نحن منهم.

فلمّا اعترفوا باستحقاقهم للعذاب ﴿قِيلَ﴾ لهم: ﴿ٱدْخُلُوا﴾ قهراً وقسراً ﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ حال كونكم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ملازمين لعذابها، بحيث لا تنفكّون منه أبداً ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ وساء مأوى المستنكفين عن الايمان وطاعة الرسول ﷺ تعظّماً، هذا المنزل والمأوى، وفيه دلالةٌ على أنّه مع وفور آيات الحقّ وتمامية الحجّة، لم يكن لهم مانعٌ عن الايمان به إلّا التكبّر على الرسل، والتعظّم عن تبعيّتهم. قيل: إنّه إيهامُ القائل لتهويل المقول[3].

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَامِلِينَ * وَتَرَى ٱلْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ [٧٣-٧٥]

ثمّ ذكر سبحانه حسن حال المتقين بقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا﴾ واحترزوا من الاشراك به، ويذهب بهم الملائكة باسراعٍ وإعزازٍ وإكرام بلا تعبٍ ولا نصبٍ ليوصلونهم ﴿إِلَى ٱلْجَنَّةِ﴾ ودار

---

١. في النسخة: بلا إكراه.
٢. تفسير روح البيان ٨: ١٤٢.
٣. تفسير روح البيان ٨: ١٤٢.

الراحة والكرامة في أسرع وقتٍ حال كونهم ﴿زُمَراً﴾ وجماعاتٍ متفاوتين حسب تفاوتهم في الإيمان والعبادة والمعرفة والفضل، وتحمّل المشاقّ، والصبر على المكاره والشدائد، وحبّ الرسول وآله ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا﴾ وقد ﴿وَفُتِحَتْ﴾ قبل وصولهم إليها ﴿أَبْوَابُهَا﴾ الثمانية، فيدخلوها بلا توقّفٍ عندها ورؤية وَصَب الانتظار لفتحها.

قيل: إنّ جواب (إذا) قوله: (فتحت) وزيادة الواو للايذان بكونها مفتّحة قبل مجيئهم، ولا ينافي ذلك[١] ما روي عن النبي ﷺ: «أنا أوّل من يستفتح باب الجنة»[٢]. وقوله ﷺ: «أنا أول من يَقْرَع باب الجنّة»[٣] لإمكان أن يُريد الله أن يعلم الناس بأنّه ﷺ كما فتح عليكم في الدنيا أبواب المعرفة والعبادة وتكميل النفس وتهذيب الأخلاق، فتح له في الآخره أبواب الجنة والرحمة والنِّعم الدائمة، فيصير ببركته مفتوحاً لهم قبل وصولهم إليه.

وقال ﷺ: «الجنّة محرَمةٌ على جميع الأمم حتى أدخُلها أنا وأُمّتي الأوّل فالأول»[٤].

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ الرضوان واتباعه عن الملائكة الذين هم سدنة الجنة وحين استقبالهم إياهم دخلوهم فيها ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أيّها المتقون، وأمانٌ لكم من كلّ آفةٍ ومكروهٍ ﴿طِبْتُمْ﴾ نفساً، أو نظفتم منا الاقذار الظاهرية والباطنية، وصلحتم لدخول الجنة، إذن ﴿فَادْخُلُوهَا﴾ حال كونكم ﴿خَالِدِينَ﴾ ومقيمين فيها أبداً لا خُروج لكم منها.

عن الصادق، عن أبيه، عن جدّه، عن علي عليه السلام قال: «إنّ للجنة ثمانية أبواب: باب يدخُل منه النبيّون والصدّيقون، وباب يدخُل منه الشهداء والصالحون، وخمسة أبواب يدخُل منها شيعتنا ومحبّونا، فلا أزال واقفاً على الصراط أدعوا وأقول: ربّ شيعتي ومحبّي وأنصاري وأوليائي ومن تولاني في دار الدنيا. فاذا النداء من بُطنان العرش: قد أجبت دعوتك، وشفعت في شيعتك، وليُشفّع كلّ رجل من شيعتي ومن تولاني ونصرني وحارب من حاربني بفعلٍ أو قولٍ في سبعين من جيرانه وأقربائه، وباب يدخُل منه سائر المسلمين ممن يشهد أن لا إله إلّا الله، ولم يكن في قلبه مثقال ذرةٍ من بُغضنا أهل البيت»[٥].

وعن الباقر عليه السلام، قال: «أحسنوا الظّن بالله، واعلموا أنّ للجنّة ثمانية أبواب، عُرض كلّ بابٍ منها مسيرة أربعة سنين»[٦].

وفي رواية عامية عن النبي ﷺ، قال: «إنّ للجنة لثمانية أبواب، ما منها بابان إلّا بينهما سَير الراكب

---

١. تفسير روح البيان ٨: ١٤٥.
٢. تفسير روح البيان ٨: ١٤٤.
٣. تفسير روح البيان ٨: ١٤٤.
٤. تفسير روح البيان ٨: ١٤٤.
٥. الخصال: ٦/٤٠٧، تفسير الصافي ٤: ٣٣٢.
٦. الخصال: ٧/٤٠٨، تفسير الصافي ٤: ٣٣٢.

سبعين عاماً، وما بين كلّ مِصراعين من مَصارع الجنّة مسيرة سبع سنين»[١].

وفي رواية: «كما بين مكة وبُصرى»[٢].

وتحيّة الملائكة لهم بالسلام حين الدخول، وتحيّتهم من الله بالسلام بقوله: **﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾** إنّما هو بعد استقرارهم فيها. وقيل: إنّ سلام الملائكة لعوامّهم، وسلام الله لخواصّهم[٣].

﴿وَقَالُوا﴾ أولئك المتقون بعد دخولهم في الجنّة ونَيلهم بنعمها العِظام: **﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾** بالبعث والثواب على الايمان الأعمال على لسان رسوله ﷺ: **﴿وَأَوْرَثَنَا﴾** هذه **﴿ٱلْأَرْضَ﴾** التي جعلها مقرّاً لأوليائه ـ وقد مرّ تفسير التوريث في قوله تباركو تعالى: **﴿اولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس﴾**[٤] ـ **﴿نَتَبَوَّأُ﴾** ونتمكّن **﴿مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾** التي أعطانا وخصّنا بها **﴿حَيْثُ نَشَآءُ﴾** وفي أيّ مكانٍ نُريد. رُوي أنّ اُمّة محمّد ﷺ تدخُل أولاً الجنّة، فتنزل حيث تشاء منها، ثمّ يدخُل سائر الأمم[٥] **﴿فَنِعْمَ﴾** الأجر **﴿أَجْرُ﴾** العابدين **﴿ٱلْعَامِلِينَ﴾** له وهو الجنّة ونِعمها.

ثمّ لمّا حكى الله سبحانه حمد المتقين إياه في الجنّة، حكى استغراق أقرب الملائكة إليه في التحميد والتسبيح له بقوله تعالى: **﴿وَتَرَى﴾** يا محمّد **﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ﴾** ومُحدقين **﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾** وجوانبه **﴿يُسَبِّحُونَ﴾** الله وينزَهونه عمّا لا يليق به، حال كونهم مُقْرِنين تسبيحه **﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾** تلذّذاً به **﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾** بإقامة كلّ في مقامه اللائق به حسب التفاضل بينهم **﴿بِالحَقّ﴾** والحكمة البالغة.

وقيل: إنّه بيان خاتمة القسمة بالقضاء بين الخلق بالحقّ بادخال أهل الجنّة في الجنّة، وإدخال أهل النار في النار[٦].

﴿وَقِيلَ﴾: والقائل الملائكة على التفسير الأول، والمتقون على الثاني: **﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾** على قضائه بالحقّ بين عباده.

عن الصادق عليه السلام: «من قرأ سورة الزُمر استخفاها[٧] من لسانه، أعطاه الله شرف الدنيا والآخرة، وأعزّه بلا مالٍ ولا عشيرةٍ حتى يهابه من يراه، وحرّم جسده على النار، وبنى له في الجنّة ألف مدينة، في كلّ مدينة ألف قصرٍ، وفي قصر مائة حوراء، وله مع هذا عينان تجريان، وعينان نضّاختان، وجنّتان مدهامّتان، ومن كلّ فاكهةٍ زوجان»[٨].

الحمد لله على توفيقه لاتمام السورة المباركة الشريفة.

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٨: ١٤٤.
٣. تفسير روح البيان ٨: ١٤٥.
٤. المؤمنون: ٢٣/١٠ و١١.
٥. تفسير روح البيان ٨: ١٤٧.
٦. تفسير روح البيان ٨: ١٤٨.
٧. في ثواب الاعمال : استحقها، وفي تفسير الصافي: استخفافاً.
٨. ثواب الاعمال: ١١٢، مجمع البيان ٨: ٧٦٠، تفسير الصافي ٤: ٣٣٣.

في تفسير سورة غافر

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حم * تَنزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ ٱللهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * غَافِرِ ٱلذَّنْبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ[١ـ٣]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة الزُّمر المبدوءة ببيان عظمة القرآن، والأمر باخلاص الدين لله، والحكم بخُسران المكذّبين بآيات الله واستحقاقهم للعذاب، والمختتمة ببيان أهوال القيامة، وقضاء الله فيه بالحقّ، وحكاية حمد الملائكة الحافّين حول العرش، نظمت سورة المؤمن البدوءة أيضاً ببيان عظمة القرآن وتهديد المكذبين بالآيات، وبيان استحقاقهم للنار، وحكاية تحميد الملائكة الحاملين للعرش والمحيطين به، إلى غير ذلك من المطالب المناسبة للسورة السابقة، فبابتدأها بذكر الأسماء المباركات بقوله تعالى:

﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثمّ افتتحها بذكر الحروف المقطّعة بقوله: ﴿حم﴾ وقد مرّ أنّ الحرفين رمزان من اسمين من الأسماء الحُسنى.

عن الصادق عليه السلام: «معناه الحميد المجيد»[1].

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «أنّه اسم من أسمائه تعالى»[2].

وقيل: إنّه اسم للسورة، وعليه هو مبتدأ وخبره قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَابِ﴾[3].

وإنزال هذا القرآن ﴿مِنَ ٱللهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ القادر على كلّ شيءٍ ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بكلّ شيءٍ فبقدرته رتّبه من الحروف المتداولة على نحوٍ عَجَز العاملون عن الاتيان بمثله، وبعلمه جعله حاوياً للعلوم الكثيرة التي لا يحوي عُشرها الكتب السماوية.

وقيل: إنّ العزيز بمعنى الذي لا مثل[4] له في حُسن البيان والنّظم والأسلوب، بحيث لا يُدانيه كتابٌ

---

١. معاني الأخبار: ١/٢٢، تفسير الصافي ٤: ٣٣٤.
٢. تفسير روح البيان ٨: ١٤٩.
٣. تفسير الرازي ٢٧: ٢٦.
٤. تفسير الرازي ٢٧: ٢٦، تفسير روح البيان ٨: ١٥٠.

سماويّ فضلاً عن غيره، ويمكن كون النُكتة في توصيف ذاته هنا بالوصفين، التنبيه على قدرته على إثابة المؤمنين به العاملين بما فيه، وتعذيب المكذبين المُعرضين عنه، وعلى علمه بأحوال العباد من الكفر والايمان والطاعة والعِصيان.

ثمَ أعلن سبحانه بسَعة رحمته وشدّة قهره وعذابه بقوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنبِ﴾ وساتره حتى عن المذنب وإن لم يَتُب ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ العُذر من الذنب والعصيان، عافٍ عمّا يتُب منه، وإن كان أكبر الكبائر. ثمَ أعلن بشدّة قهره وعذابه بقوله: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ على المشركين والعُصاة.

ثمَ لمَا كانت رحمته سابقة على غضبه، عاد إلى ذكر كرمه بقوله: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ والفضل والاحسان على جميع الخلق في الدنيا وعلى المؤمنين في الآخرة، فاذا كان ذاته المقدّسة بتلك الصفات الجليلة، ثبت أنه ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا مستحَق للعبادة في عالم الوجود إلّا ذاته، فإذن فاعبدوه ولا تعبدوا غيره، واعلموا أنه ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ والمُنقَلَب بعد خروجكم من الدنيا، فيجازيكم على عبادتكم إياه، يُعاقبكم على عبادتكم غيره.

مَا يُجَادِلُ فِى ءَايَاتِ ٱللهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَادِ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ[٤ و ٥]

ثمَ إنّه تعالى بعد بيان كون القرآن نازلاً منه، ذمَ الكفّار الذين جادلوا النبيّ ﷺ فيه ونسبوه إلى السحر أو الشعر أو الكِهانة بقوله تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ﴾ ولا يُنازع ﴿فِى ءَايَاتِ ٱللهِ﴾ المُنزَلة بالطعن فيها ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بها لَجاجاً وعِناداً، واصرّوا على مَحْق الحقّ وتشييد الباطل، فاذا علمت يا محمد أنهم كفار مطرودون عن ساحة الرحمة ومستحقّون للعذاب ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ﴾ ولا يُوقفك في توهّم سلامتهم من عذابي إمهالهم و ﴿تَقَلُّبُهُمْ﴾ وتصرّفهم ﴿فِى ٱلْبِلَادِ﴾ كالشام واليمن للتجارة وكسب المعاش وجمع الأموال، فانّي وإن أُمهلهم ولكن سآخذهم وأنتقم منهم، كما أخذت أمثالهم من الأُمم الماضية، فانّ تكذيب الرسول، والمجادلة في الآيات، ليس من خصائص قومك، بل ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ نوحاً ﴿وَٱلْأَحْزَابُ﴾ والأُمم الذين تحزّبوا على الرُّسل وعادوهم، تبعوا قوم نوح ﴿مِن بَعْدِهِمْ﴾، في تكذيب الرسل، بل بعد التكذيب قصدت ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من الأُمم وطائفة من الطوائف ﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ ويقتلوه أو يَحْبِسوه ﴿وَجَادَلُوا﴾ رسولهم وخاصموه ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ وما لا أصل ولا حقيقة له ﴿لِيُدْحِضُوا﴾ ويمحوا ﴿بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ الذي لَا محيد عنه ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾

بالعذاب عقوبةً على كُفرهم وهمّهم بالرسل ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ ربّك الذي عاقبهم به بعد ما رأيت آثاره من خراب الديار ومحو الآثار عبرةً للنظّار، ألم يكن مُهلكاً مستأصلاً لهم؟

وَكَذٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ * ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَقِهِمُ ٱلسَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ[٦ ـ ٩]

ثمّ وعد سبحانه النبي ﷺ بأخذه قومه كما أخذ اُولئك الاُمم بقوله: ﴿وَكَذٰلِكَ﴾ العذاب الذي حقّ وثبت على اُولئك الاُمم ﴿حَقَّتْ﴾ ووجبت ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ ووعده بالعذاب ﴿عَلَى﴾ قومك ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بربّهم، وتحزبوا عليك، وجادلوك بالباطل لأجل ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ﴾ ومستحقّوها أشدّ الاستحقاق.

وقيل: إنّ المراد مثل وجوب العذاب الدنيوي على الاُمم السابقة، وجبت كلمة ربّك على اُولئك الكفَرة، وهي كونهم أصحاب النار في الآخرة[١].

ثمّ لمّا حكى سبحانه شدّة استنكاف المشركين عن التوحيد، وعداوتهم للموحّدين، بيّن رأفة الملائكة بالموحّدين، وشفقتهم عليهم من أن يبتلوا بعذاب النار، ورحمتهم عليهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾ والجسم المحيط بعالم الوجود، منه ينزل قضاء الله وقدره، واُولئك الحمَلة في الدنيا أربعة على قول[٢]، وثمانية على آخر[٣]، وفي الآخرة ثمانية بالاتّفاق[٤] ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ وفي جوانبه من الملائكة المُكرمين. قيل: هم سبعون ألف صفّ من مائة ألف صفّ، قد وضعوا أيمانهم على شمائلهم[٥] ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ الله ويُنزّهونه من كلّ ما لا يليق بشأنه الجليل مُقْرنين تسبيحهم ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ على نَعمائه التي لا تتناهى. قيل: كلّ يسبّح بما لا يسبّح به الآخر[٦] ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ إيماناً حقيقاً بحالهم ومقامهم، وإنّما صرّح بإيمانهم مع كفاية تسبيحهم وتحميدهم عنه، إظهاراً لفضيلة الايمان

---

١. تفسير الرازي ٢٧: ٣٠.
٢. تفسير روح البيان ٨: ١٥٥.
٣. تفسير الرازي ٢٧: ٣١.
٤. تفسير الرازي ٢٧: ٣١، تفسير روح البيان ٨: ١٥٥.
٥. تفسير روح البيان ٨: ١٥٦.
٦. تفسير روح البيان ٨: ١٥٦.

وشرف أهله، وتنبيهاً على أنّ الله تعالى لا يكون حاضراً في العرش مشاهداً لهم، بل هم كغيرهم مؤمنون به وممدوحون بايمانهم به، ولو كانوا مشاهدين إيّاه لم يُمدَحوا بايمانهم ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ من البشر شَفَقة عليهم. قيل: كمال السعادة في تعظيم الله والشّفقة على خلق الله[١].

عن الرضا عليه السلام: «للذين آمنوا بولايتنا»[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ لله ملائكة يُسقِطون عن ظهور شيعتنا الذنوب، كما يُسقِط الريح الورق في أوان سقوطه، وذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾» الآية[٣].

ويقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وأحطت بكلّ شيء ﴿رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ قيل: يعني ملأكلّ شيء نعمتك وعلمك[٤]، فإذاكنت واسع الرحمة ﴿فَاغْفِرْ﴾ برحمتك ﴿لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ ونَدِموا من الشرك والعِصيان، ﴿وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ وعملوا بدينك وأحكامك وما فيه رضاك ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ واحْفَظْهم منه، وهو تأكيدٌ لطلب المغفرة التي بها النجاة من العذاب، ويقولون بعد طلبهم النجاة من العذاب للمؤمنين ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ وبساتين إقامةٍ، أو بساتين اسمها جنّات عَدْن ﴿ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ على لسان أنبيائك على الايمان بك ﴿وَ﴾ أدخِل معهم ﴿مَن صَلَحَ﴾ لدخول الجنة ﴿مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ ليتِمّ سُرورهم، ويتضاعف ابتهاجهم ﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾ بالخصوص ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ والقادر على إنجاز وعدك وإجابة دُعاء كلّ داعٍ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يمتنع منه خُلف الوعد الذي هو من القبائح.

عن سعيد بن جُبير، قال: يدخُل المؤمن الجنّة فيقول: أين أبي، أين ولدي، أين زوجي؟ فيقال لهم: إنّهم لم يعملوا مثل عملك. فيقول: إنّي كنتُ أعمل لي ولهم؟ فيقال: أدخلوهم الجنة[٥].

وعن النبيّ صلّى الله عليه وآله: «إذاكان يوم القيامة نُودي في أطفال المسلمين أن أخرُجوا من قبوركم، فيخرُجون من قبورهم، فيُنادىٰ: أن امضُوا إلى الجنّة»[٦] الخبر.

﴿وَقِهِمُ﴾ يا ربّ ﴿ٱلسَّيِّئَاتِ وَ﴾ احْفَظْهم من جميع مكاره القيامة وأهوالها ﴿مَن تَقِ ٱلسَّيِّئَاتِ﴾ وتَحْفَظه منها ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وفي ذلك اليوم العظيم الشديد الأهوال ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ وتفضّلت عليه غاية الرحمة والتفضّل.

قيل: إنّ المراد بالسيئات المعاصي في الدنيا، والمعنى: وقهم المعاصي في الدنيا، ومن تقيه من

---

١. تفسير روح البيان ٨: ١٥٧.

٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٢/٢٦٢، تفسير الصافي ٤: ٢٣٥.

٣. الكافي ٨: ٤٧٠/٣٠٤، تفسير الصافي ٤: ٢٣٥.

٤. تفسير روح البيان ٨: ١٥٧.

٥. تفسير روح البيان ٨: ١٥٨.

٦. تفسير روح البيان ٨: ١٥٨.

المعاصي فيها فقد رحمته في الآخرة[١]. ﴿وَذٰلِكَ﴾ المذكور من الوقاية والرحمة ﴿هُوَ﴾ فقط ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ والظّفر بأعلى المقاصد، أو أهمّ المطالب الذي ليس وراءه مطمع لطامع.

القمي ﵀، قال في تأويل الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾ يعني رسول الله ﷺ والأوصياء ﵈ من بعده، يحمِلون علم الله عزّ وجلّ ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ يعني الملائكة ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني شيعة آل محمد ﷺ ﴿لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ يعني من ولاية فلان وفلان وبني اُمية ﴿وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أي ولاية وليّ الله ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ يعني تولّى علياً ﵇، وذلك صلاحهم ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ يعني يوم القيامة ﴿وَذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ لمن نجّاه الله من ولاية فلان وفلان[٢].

وروى الكُليني ﵀: «أنّ الله تعالى أعطى النائبين ثلاث خِصال، لو اُعطي كلّ خَصْلةٍ منها أهل السماوات والأرض لنجوا بها» ثمّ تلا الآية[٣].

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوْا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللهِ أَكْبَرُ مِن مَقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ * قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِن سَبِيلٍ * ذٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ ٱللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ[١٠ـ١٢]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان رأفة الملائكة المقرّبين بالمؤمنين، ودعائهم في حقّهم، حكى سبحانه غضبهم على الكافرين ونداءهم إيّاهم بما فيه توبيخهم وتقريعهم وتهويلهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوْا﴾ بآيات الله ورُسله والدار الآخرة ﴿يُنَادَوْنَ﴾ يوم القيامة بعد دُخولهم في جهنّم ومقتهم وغيظهم على أنفسهم الأمّارة بالسوء، والمنادي الملائكة الذين هم خَزَنة جهنّم: أيّها الكَفَرة والله ﴿لَمَقْتُ ٱللهِ﴾ وسَخَطه عليكم في الدنيا ﴿أَكْبَرُ﴾ وأشدّ ﴿مِن مَقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ وسَخَطكم عليكم في هذا اليوم، وإنّما كان مقت الله وسَخَطه عليكم ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ وحين تُنادَون من جهة الأنبياء ﴿إِلى ٱلْإِيمَانِ﴾ بتوحيد الله ورسالة رُسُله ﴿فَتَكْفُرُونَ﴾ وتأبون من إجابتهم استكباراً عليهم واتّباعاً لهوى أنفسكم.

قيل: إنّ كلمة (إذا) متعلّقة باذكُروا المقدّر[٤].

ثمّ حكى سبحانه عنهم الاعتراف بالذنب واستحقاقهم العذاب بقوله: ﴿قَالُوا﴾ حين تقريع خَزَنة

---

١. تفسير روح البيان ٨: ١٥٩.
٢. تفسير القمي ٢: ٢٥٥، تفسير الصافي ٤: ٢٣٥.
٣. الكافي ٢: ٥/٣١٥، تفسير الصافي ٤: ٣٣٦.
٤. تفسير روح البيان ٨: ١٦٠.

جهنّم إياهم ﴿رَبَّنَا﴾ إنّا شاهدنا أنك ﴿أَمَتَّنَا﴾ إماتتين ﴿ٱثْنَتَيْنِ﴾ إحداهما حين انقضاء آجالنا في الدنيا، والأخرى بعد إحيائنا في القبور لسؤال منكر ونكير ﴿وَأَحْيَيْتَنَا﴾ احياءتين ﴿ٱثْنَتَيْنِ﴾ إحداهما في القبور للسؤال والتعذيب، والأخرى في القيامة، وكنّا نُنكِر جميعها.

وعن الصادق عليه السلام: «ذلك في الرجعة»[1].

﴿فَاعْتَرَفْنَا﴾ لمّا شاهدناها ﴿بِذُنُوبِنَا﴾ التي منها تكذيب الأنبياء، وإنكار الحياة بعد الموت، ودار الآخرة، والثواب والعقاب ﴿فَهَلْ﴾ بعد اعترافنا هذا ﴿إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ سريعٍ أو بطيءٍ من النار، أو ﴿مِن﴾ هذه الدار إلى دار الدنيا والعمل ﴿سَبِيلٍ﴾ وطريق فنسلُكه ونَتخلّص من العذاب، أو نعمل غير الذي كنّا نعمل؟ فيقال لهم: لا سبيل إلى ذلك ﴿ذَٰلِكُم﴾ العذاب الذي أنتم فيه وابتُليتم به مُعلّل ﴿بِأَنَّهُ﴾ كان حالكم في الدنيا أنّه ﴿إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ﴾ وذُكِر، أو عُبِد ﴿وَحْدَهُ﴾ وبلا شريك ومنزّهاً عنه ﴿كَفَرْتُمْ﴾ بتوحيده، واشمأزّت منه قلوبكم ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِ﴾ ويُجعَل له نِدٌّ أو ولدٌ ﴿تُؤْمِنُوا﴾ بالإشراك به، ولو رجعتم إلى الدنيا ثانياً ﴿فَالْحُكْمُ﴾ بأنّه لا غُفران للمشرك ولا نجاة له من النار ﴿لِلَّهِ﴾ الحاكم بالحقّ ﴿ٱلْعَلِيِّ﴾ من أن يكون له شريك، المتعالي من أخذ الندّ والصاحبة والولد، ومن خُلف الوعد، الحكيم ﴿ٱلْكَبِيرِ﴾ الذي ليس كمثله شيء.

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِنَ ٱلسَّمَاءِ رِزْقاً وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ * فَادْعُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ * رَفِيعُ ٱلدَّرَجَاتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ[١٣ ـ ١٥]

ثمّ إنّه تعالى بعد تهديد المشركين بالعقوبة، أعلن بلُطفه ومنّته على الناس بنصب الأدلّة القاطعة على توحيده المُحيي للقلوب، وبإنزال المطر الموجب لحياة الأبدان، ترغيباً لهم إلى الايمان به بقوله تعالى: ﴿هُوَ﴾ الله وحده اللطيف ﴿ٱلَّذِى يُرِيكُمْ﴾ بلُطفه ﴿ءَايَاتِهِ﴾ الدالة على وحدانيته وكمال ذاته وصفاته، وليحيى بالتفكّر فيها قلوبكم ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ الأمطار النافعة ليوجد بها ﴿رِزْقاً﴾ ومعاشاً، فيحيي به أبدانكم ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ وما يتنبه بتلك الآيات، وما يتّعظ بها ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ ويرجِع إلى ربّه بالتفكّر فيها، فيعرِف نِعمه الظاهرة والباطنة، فاذا كان الأمر كذلك ﴿فَادْعُوا ٱللَّهَ﴾ وأعبُدوه أيّها المؤمنون حال كونكم ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ ومُخصّصين به العبادة والدعاء ﴿وَلَوْ كَرِهَ﴾ توحيدكم وإخلاصكم ﴿ٱلْكَافِرُونَ﴾ فانّه لا ينبغي أن يَصدّكم عن التوحيد والاخلاص له

---

١. تفسير القمي ٢: ٢٥٦، تفسير الصافي ٤: ٣٣٦.

غيظهم وغضبهم عليكم، لكونهم فيكم رفيعي المنزلة وعالي المقام، فانّ الله تعالى ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَاتِ﴾ في الكمال، وأعلى الموجودات في صفات الجمال والجَلال.

قيل: إن الموجودات من العقل والنفس الكُلّيين والطبيعة الكُلّية والعرش والكرسي والسماوات والكُرات والحيوانات والنباتات والمعادن، كلّها [من] الدرجات والمراتب الرحمانية، التي هو تعالى أعلى وأرفع من جميعها[1].

وقيل: إن المراد رافع درجات الأنبياء والعلماء والأولياء والمؤمنين في الجنّة[2]، أو رافع درجة كلّ موجودٍ من الموجودات في العالم، حيث إنّ للأنبياء درجة، ولكلّ من الملائكة درجة، ولكلّ من العلماء درجة، ولكلّ من الأجسام درجة، ولكلّ فردٍ من الانسان درجة في العلم والرزق والأجل والسعادة والشقاوة[3]. والحاصل أنّ لكلّ شيءٍ يكون له فضيلة ومنقبة، فهو بايجاده تعالى وإعطائه.

وهو تعالى ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ العظيم، الذي له على ما قيل أربعمائة رُكنٍ، ما بين كلّ رُكنٍ إلى رُكنٍ أربعمائة ألف سنة، وهو فوق جميع الموجودات من الكُرسيّ والسماوات، خلقه سبحانه إظهاراً لعظمته وقُدرته، لا مكاناً لذاته، وجعله محلّ نزول بركاته ورحمته، ومَطافاً لملائكته، وقِبلةً لدُعائه، ومِعراجاً لخاتم أنبيائه، وظلّة يوم الحشر لأوليائه[4].

وقيل: إنّ المراد من العرش هنا المُلك العظيم، ذكره إظهاراً لهيبته، ونفاذ قدرته، واستيلائه على جميع مخلوقاته[5].

وهو سبحانه ﴿يُلْقِى﴾ ويُنزِل ﴿ٱلرُّوحَ﴾ والوحي الذي به حياة القلوب، أو المَلَك المُسمّى بالروح، وهو الخاصّ برسول الله ﷺ والأئمّة المعصومين عليهم السلام على رواية القمي[6]، أو المسمى بجَبْرئيل كما عن بعض[7]، حال كون إنزاله ناشئاً ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ تعالى وإرادته ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ المُصطفين للرسالة وتبليغ الوحي ﴿لِيُنذِرَ﴾ ذلك الرسول المُوحى إليه الناس ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ والحشر الذي تتلاقى فيه الأرواح والأبدان، أو الأولون والآخرون، أو أهل السماوات وأهل الأرض، كما عن الصادق عليه السلام[8]، أو العاملون والأعمال، أو الظالمونن والمظلومون، أو أهل النار والزبانية، ويخوّفهم من أهواله وشدائده.

---

١. تفسير روح البيان ٨: ١٦٥.
٢. تفسير روح البيان ٨: ١٦٤.
٣. تفسير روح البيان ٨: ١٦٤، تفسير الرازي ٢٧: ٤٣.
٤. تفسير روح البيان ٨: ١٦٥.
٥. تفسير روح البيان ٨: ١٦٦.
٦. تفسير القمي ٢: ٢٥٦، تفسير الصافي ٤: ٣٣٧.
٧. تفسير روح البيان ٨: ١٦٦.
٨. تفسير القمي ٢: ٢٥٦، معاني الأخبار: ١/١٥٦، تفسير الصافي ٤: ٣٣٧.

يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ[١٦]

ثمّ عرّف سبحانه ذلك ببيان ما فيه من الأهوال والشدائد بقوله: ﴿يَوْمَ﴾ يحشر الناس و ﴿هُم بَارِزُونَ﴾ وظاهرون، ولا يَستُرهم جبلٌ ولا أكَمةٌ ولا بِناء، لكون الأرض مستوية، ولا ثياب لكونهم عُراة، كما في الحديث: «يُحشَرون حفاةً عراةً، أو المراد هم بارزون وخارجون من قبورهم[١].

وقيل: بُروزهم كناية عن ظهور أعمالهم وأسرارهم[٢].

﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ﴾ مع كثرتهم ﴿شَيْءٌ﴾ من أعيانهم وأعمالهم الجليّة والخفية السابقة واللاحقة، فينادي منادٍ حين ظهورهم وظهور أعمالهم: يا أهل المحشر ﴿لِمَنِ ٱلْمُلْكُ﴾ والسّلطنة المُطلقة ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ثمّ يقول ذلك المنادي على قول[٣]، أو أهل المحشر على قول[٤]، أو الله تعالى على قول[٥]: المُلك اليوم ﴿لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

قيل: يقول المؤمنون ذلك تلذّذاً حيث نالوا بهذا الذكر المنزلة الرفيعة، ويقوله الكفّار تحسّراً وندامةً على فوت هذا الذِّكر منهم في الدنيا[٦].

وقيل: إنّ المجيب هو إدريس النبيّ، كما عن أمير المؤمنين عليه السلام[٧]، وفي رواية قال: «ويقول الله: ﴿لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ ثمّ تنطِق أرواح أنبيائه ورُسله وحُججه فيقولون: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾»[٨].

وعن الصادق عليه السلام ـ في حديث إماتة الله أهل الأرض وأهل السماء والملائكة ـ قال: «ثمّ لَبِث مثل ما خلق الله الخلق، ومثل ذلك كلّه، وأضعاف ذلك، ثمّ يقول الله تعالى: ﴿لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؟ ثمّ يَرُدّ على نفسه: لله الواحد القهار. أين الجبّارون، أين الذين ادّعوا معي إلهاً آخر، أين التكبّرون ونخوتهمَ ثمّ يبعث الخلق»[٩] الخبر.

قيل: إنّما خصّ النداء بيوم القيامة مع أنّ مُلك الوجود له تعالى من الأزل إلى الأبد، وأنّه قاهر الممكنات تحت إرادته من بدو الخلق إلى آخر الدهر، ونداء ﴿لِمَنِ ٱلْمُلْكُ﴾ منه تعالى باقٍ في المعنى في الدنيا والآخرة؛ لأنّ الدنيا دار الأسباب، ولولا الأسباب لما ارتاب المرتاب، وفي القيامة

---

١. تفسير روح البيان ٨: ١٦٧.
٢. تفسير الرازي ٢٧: ٤٥.
٣. تفسير روح البيان ٨: ١٦٧.
٤. تفسير روح البيان ٨: ١٦٧.
٥. تفسير الرازي ٢٧: ٤٧.
٦. تفسير الرازي ٢٧: ٤٦.
٧. تفسير روح البيان ٨: ١٦٧، ولم نسبه إلى أمير المؤمنين عليه السلام.
٨. التوحيد: ١/٢٣، تفسير الصافي ٤: ٣٣٧.
٩. تفسير القمي ٢: ٢٥٦ و٢٥٧، تفسير الصافي ٤: ٣٣٧.

تزول الأسباب، وتنعزل الارباب، ولا يبقى غير حُكم مسبِّب الأسباب[١].

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ * وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[١٧ و ١٨]

ثمّ أعلن سبحانه بعدله في المجازات بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ﴾ من النفوس ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ وعملت في الدنيا خيراً أو شراً ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ بوجهٍ من الوجوه على أحدٍ، لا بزيادة العقاب، ولا بنقص الثواب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ تعالى مع كَثْرة الخَلق ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ بحيث يُحاسِب جميعهم في أقرب زمانٍ، إذ لا يَشْغَله شأنٌ عن شأنٍ.

عن ابن عباس رضي الله عنه: إذا أخذ الله في حسابهم، لم يَقِل أهل الجنّة إلّا فيها، ولا أهل النار إلّا فيها[٢].

ثمّ بالغ سبحانه في تخويف الكفّار من أهوال القيامة بقوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ يا محمّد ﴿يَوْمَ﴾ القيامة ﴿ٱلْءَازِفَةِ﴾ والقريبة الوقوع؛ لأنّ كلّ آتٍ قريب ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ﴾ فيه ترتفع من مكانها من شدّة الخوف والفزع وتقف ﴿لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ وتلتصق بالحُلقوم، فلا تعود فيتنفّسوا أو يستروحوا، ولا تخرج فيموتوا، قيل: تنتفح الرِّئة من الفَزَع، فيرتفع القلب إلى الحَنْجَرة[٣]، حال كون أصحاب القلوب ﴿كَـٰظِمِينَ﴾ وحابسين غَيْظهم في أنفسهم بالصبر، وساكتين حال امتلائهم بالغمّ والكَرْب، وعاجزين عن إظهارهما والنُّطق بهما من شدّة غلبتهما عليهم، وعِظَم اضطرابهم من أهوال ذلك اليوم، ورُؤية العذاب المُعدّ لهم و﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ﴾ على أنفسهم في الدنيا بالكفر والطغيان ما به نجاتهم منه ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ وقريب مُشفق يدفع عنهم العذاب ببذل النفس والمال ﴿وَلَا﴾ لهم في ذلك اليوم من ﴿شَفِيعٍ﴾ يشفع لهم و﴿يُطَاعُ﴾ في شفاعته، ويقبل قولهم والتماسهم النجاة لهم. وفيه ردٌّ على المشركين الزاعمين أنّ الأصنام شُفعائهم عند الله، ويقبل شفاعتهم البتة.

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ * وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[١٩ و ٢٠]

ثمّ إنّه تعالى بعد ذكر أعظم موجبات الخوف، بيّن علمه بجميع أعمال العباد وذنوبهم، بحيث لا

---

١. تفسير الرازي ٢٧: ٤٧ قطعة منه.

٢. تفسير روح البيان ٨: ١٦٩.

٣. تفسير روح البيان ٨: ١٧٠.

يخفى عن علمه مثقال ذرّة بقوله: ﴿يَعْلَمُ﴾ الله ﴿خَائِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ واستراق النظر إلى ما لا يحلّ، مع كونه أخفى أعمال الجوارح، فكيف بغيره ﴿وَ﴾ يعلم ﴿مَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ وتُضمِره القلوب من الخَطَرات والنيّات السوء، والعقائد الفاسدة، وحُبّ الأصنام والمعاصي، وبُغض التوحيد والاخلاص وأهلهما ﴿وَٱللَّهُ﴾ الحكيم ﴿يَقْضِى﴾ ويحكم في عباده ﴿بِالْحَقِّ﴾ والعدل في كلّ ما دقّ وجلّ، ولا يغمّض عنه بالهوىٰ والرِّشاء. وفيه أعظم التخويف والتهويل.

ثمّ قطع رجاء المشركين من أصنامهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ويَعْبُدون هؤلاء المشركون ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ تعالى، وممّا سواه من الأصنام وغيرها ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ فكيف يرجون شفاعتهم؟! ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لمقالات المشركين من ثناء آلهتهم وطعنهم في التوحيد و ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ الذي يُبصِر خضوعهم لها وعبادتهم إياها.

أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ * ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ [٢١ و ٢٢]

ثمّ إنّه تعالى بعد الابلاغ في تخويف المشركين بأهوال القيامة وعذابها، هدّدهم بعذاب الدنيا بقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا﴾ ولم يسافروا للتجارة وغيرها ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التي تكون فيها طريقهم إلى الشام واليمن ﴿فَيَنظُرُوا﴾ بنظر الاعتبار ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ الأمم ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾، ومآل أمر القرون السابقة عليهم من الأحزاب المكذّبة للرسل، المُهْلَكة بسبب شِركهم ومعارضتهم للحقّ، كعاد وثمود وقوم لوط ﴿كَانُوا هُمْ﴾ في عصرهم أعظم جُثةً من هؤلاء المشركين و ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ﴾ أكثر ﴿آثَاراً﴾ وأحكمها ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كالقِلاع الحصينة، والقُصور الرفيعة، والمُدن المتينة ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وعاقبهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ وأهلكهم بمعاصيهم من الكفر وتكذيب الرسل ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِنَ﴾ عذاب ﴿ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ وحافظ يقيهم ويَحْفظهم ﴿ذٰلِكَ﴾ الأخذ والعذاب إنّما كان مُعلّلاً ﴿بِأَنَّهُمْ كَانَت تَأْتِيهِمْ﴾ من قبل الله ﴿رُسُلُهُم﴾ مستدلّين على صدقهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والمعجزات الباهرات، أو مصاحبين للأحكام الظاهرات ﴿فَكَفَرُوا﴾ بها وكذّبوا الرسل وعارضوهم ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أخذاً شديداً عاجلاً، وأهلكهم إهلاكاً فظيعاً ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿قَوِيٌّ﴾ وقادرٌ على إنفاذ إرادته ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ على من كفر وعصاه.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ * وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ [٢٣ـ٢٧]

ثمّ ذكر سبحانه من الرسل الذين أتوا قومهم بالبينات موسى بن عمران عليه السلام، الذي كان عظيم الشأن، كثير المعجزات تسليةً للنبي صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ**﴾ بن عمران عليه السلام متمسّكاً ومستدلاً على صدقه في دعوى الرسالة والتوحيد ﴿**بِآيَاتِنَا**﴾ الباهرات والمعجزات الظاهرات ﴿**وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ**﴾ وحُجَةٍ عقليةٍ واضحةٍ.

وقيل: إنّ المراد به معجزة العصا خَصّها بالذكر مع كونها من جملة الآيات تفخيماً لشأنها[1] ﴿**إِلَىٰ فِرْعَوْنَ**﴾ سلطان مصر ﴿**وَهَامَانَ**﴾ وزيره ﴿**وَقَارُونَ**﴾ الاسرائيلي الذي ارتدّ بعد إيمانه بموسى وحِفظه التوراة، وأتباعهم من القِبط وغيرهم، فدعاهم إلى الإيمان بالتوحيد ورسالته، وأظهر لهم المعجزات ﴿**فَقَالُوا**﴾ عِناداً ولَجاجاً: هو ﴿**سَاحِرٌ**﴾ يُظهِر خوارق العادة بالسِّحر ﴿**كَذَّابٌ**﴾ في دعوى توحيد الإله ورسالة نفسه من قبله، وإنّما أتى بصيغة المبالغة الدالة على الكَثْرة لتكرّر الدعوة منه، ولم يُبالغوا في نسبة السحر إليه لعدم تكرّره منه، ولزعمهم أنّ سَحَرتهم أسحر منه، ولذا قالوا في حقّهم: سحّار عليم.

ثمّ بيّن سبحانه شدّة عِناد القوم له بقوله: ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ**﴾ وأظهر لهم المعجزات التي كانت له ﴿**مِنْ عِندِنَا**﴾ وبأقدارنا ﴿**قَالُوا**﴾ أيها القِبط: ﴿**اقْتُلُوا أَبْنَاءَ**﴾ بني إسرائيل ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ بموسى ويكونون ﴿**مَعَهُ**﴾ في الايمان بالتوحيد، لئلا ينشأوا على دين موسى ويُعينوه عليه ﴿**وَاسْتَحْيُوا**﴾ وأبقوا ﴿**نِسَاءَهُمْ**﴾ وبناتهم ليَخدِمنكم، كما تفعلون ذلك من قبل ﴿**وَمَا كَيْدُ**﴾ هؤلاء ﴿**الْكَافِرِينَ**﴾ ومَكْرهم وسوء صَنيعهم ﴿**إِلَّا فِي ضَلَالٍ**﴾ وضَياع وبُطلان، لا يفوزون به إلى مقصودهم، ولا يمنعون به عن نفوذ إرادة الله وجَريان قضائه. وقيل: يعني ما كيدهم إلّا في ازدياد ضلالهم[2].

﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ**﴾ لمَلَئهِ ﴿**ذَرُونِي**﴾ ودعوني ﴿**أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَ**﴾ خلّوه ﴿**لْيَدْعُ رَبَّهُ**﴾ الذي يدّعي أنه

---

١. تفسير روح البيان ٨: ١٧٣.

٢. تفسير روح البيان ٨: ١٧٤.

أرسله حتى يُخلّصه من القتل، فانّي أرى صلاح مملكتي في قتله ﴿إِنِّى أَخَافُ﴾ إن لم أقتُله من ﴿أَن يُبَدِّلَ﴾ ويُغير ﴿دِينَكُمْ﴾ الذي أنتم عليه من عبادة الأصنام ﴿أَوْ أَن﴾ يُفسِد ديناكم و ﴿يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التي تَسْكُنونها، والمملكة التي تعيشون فيها ﴿ٱلْفَسَادَ﴾ ولا اختلاف بأن يجتمع عليه قومه، فيقع القتال والخصومات، وتُثار[١] الفتن.

قيل: إنّ ملأ فرعون كانوا يمنعونه من قتل موسى، ويقولون: لا تَقْتُله إنّه ساحرٌ ضعيفٌ، لا يمكنه أن يغلِب سَحَرتك، وإن قتلته دَخَلت الشُّبهة على الناس، وقالوا: إنّه كان مُحقّاً، وهم عَجَزوا عن جوابه[٢].

وقيل: إنّه لم يمنعه أحدٌ من قتله، وأوهم اللعين أنّهم كفّوه عن قتله، ولولاهم لقتله، وما منعه عنه إلّا ما في نفسه من الفَزَع الهائل العاجل إن هَمّ بقتله، لعلمه بنبوته[٣].

وعن الصادق عليه السلام، أنّه سُئِل عن[٤] هذه الآيه: ما منعه؟ قال: «منعته رَشْدَته، ولا يقتُل الأنبياء ولا أولاد الأنبياء إلّا أولاد الزّنا»[٥].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لقومه بعد ما سَمِع حديث قتله: يا قوم ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم﴾ والتجأت إليه، وامتنع بحِصنه المنيع ﴿مِن﴾ شرّ ﴿كُلِّ﴾ شخصٍ ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾ ومُتعظّم عن التسليم لله ولرسوله، والايمان بهما و ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ فانّ المتكبّر المؤمن بالمعاد قد يرتدع من المعاصي العِظام، لخوف المعاد، بخلاف المتكبر غير المؤمن فانّه لا يُبالي من شيء، وإنّما لم يُسمّ فرعون لتعميم الاستعاذة، وللتنبيه على علّة القساوة والجُرأة على الله، ولرعاية حقّ التربية التي كانت لفرعون عليه.

وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللهَ لاَ يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يَاقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ ٱللهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ * وَقَالَ ٱلَّذِى آمَنَ يَاقَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا ٱللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ * وَيَاقَوْمِ إِنِّى أَخَافُ

---

١. في النسخة: وتثير.　٢. تفسير الرازي ٢٧: ٥٤، تفسير روح البيان ٨: ١٧٤.
٣. تفسير روح البيان ٨: ١٧٥.　٤. في النسخة: في.
٥. علل الشرائع: ١/٥٧، تفسير الصافي ٤: ٣٣٩.

عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ[٢٨ ـ ٣٣]

فلمّا استعاذ موسى بربّه من شرّ فرعون، وانتشر همّه بقتل موسى، حكى سبحانه دفعه القتل عنه ببعث رجلٍ يرُدّ عنه بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ﴾ إذن ﴿رَجُلٌ﴾ كاملٌ في صفات الرجولية ﴿مُؤْمِنٌ﴾ بالله وبموسى في نفسه، كائن ﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ وأقاربه. قيل: كان ابن عمّه، يقال له شمعان[١]. وقيل: جبر[٢]. وقيل: حبيب وهو النجّار الذي عَمِل التابوت الذي وضعت فيه اُمّ موسى وألقته[٣] في البحر[٤]. وقيل: حزقيل[٥] بن نوحائيل[٦]. وقيل: حزقيل[٧].

ذِكرُ سبّاق الأُمم فانّه روى بعض العامة عن النبي ﷺ أنّه قال: «سُبّاق الأُمم ثلاثة لم يَكْفُروا بالله طَرفة عين: حزقيل: مؤمن آل فرعون، وحبيب النجّار صاحب يس، وعلي بن أبي طالب عليه السلام، وهو أفضلهم[٨].

وعلى أيّ حالٍ كان ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ بالله وبموسى ويَسْتُره من فرعون وقومه، لكون قوله مقبولاً عندهم، وكان إيمانه بعد بعثه موسى، وقيل: قبله بمائة سنة[٩].

وعن الصادق عليه السلام: «التقية ديني ودين آبائي، ولا دين لمن لا تقيه له، والتقية تُرس المؤمن[١٠]، فانّ مؤمن آل فرعون لو أظهر إيمانه[١١] لقُتِل»[١٢].

يا قوم ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً﴾ لأجل ﴿أَن يَقُولَ﴾ أو كراهة قوله: ﴿رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ الذي خلقني وخلق السماوات والأرض وما بينهما لا غيره، ﴿وَ﴾ الحال أنّه ﴿قَدْ جَاءَكُم﴾ وأتاكم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والمعجزات الظاهرات ﴿مِن رَبِّكُمْ﴾ وخالقكم اللطيف بكم.

ثمّ إنّه بعد القطع بكون موسى نبياً بالبينات والمعجزات، احتجّ على قُبح قتله باحتمال الضرر في قتله بقوله: ﴿وَإِن يَكُ﴾ موسى ﴿كَاذِباً﴾ في دعواه ﴿فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ ووَبال افترائه وضرره، لا يتعدّى إلى غيره تحتاج في دفعه إلى قتله ﴿وَإِن يَكُ صَادِقاً﴾ فيما يدّعيه من التوحيد والوعد بالعذاب على إنكاره ومخالفة قوله، فكذّبتموه وقصدتموه بسوءٍ ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ به ان لم يُصبكم

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٨: ١٧٦.
٣. في النسخة: وألقاه.
٤. تفسير روح البيان ٨: ١٧٦.
٥. في النسخة: خربيل.
٦ و٧. تفسير روح البيان ٨: ١٧٦.
٨. تفسير روح البيان ٨: ١٧٦.
٩. تفسير روح البيان ٨: ١٧٦.
١٠. في مجمع البيان وتفسير الصافي: ترس الله في الأرض.
١١. في مجمع البيان وتفسير الصافي: الإسلام.
١٢. مجمع البيان ٨: ٨١٠، تفسير الصافي ٤: ٣٤٠.

كلّه، فانّ في إصابتكم البعض كفاية في هلاككم.

وقيل: ان البعض هنا بمعنى الكلّ، أو المراد من البعض العذاب الدنيوي،الذي هو بعض ما يَعِدهم؛ لأنّه كان يَعِدهم بالعذاب الدنيوي والأخروي[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾ ولا يُوصِل إلى الخير والمقصود ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ ومتجاوزٌ عن الحدّ في العِصيان، ومن هو ﴿كَذَّابٌ﴾ على الله وكثير الافتراء عليه. قيل: هو احتجاجٌ آخر عليهم، والمراد أنّه لو كان مسرفاً كذّاباً لما هداه الله إلى المعجزات القاهرة التي أظهرها لكم، أو المراد أنّه لو كان كذلك خذله الله وأهلكه، فلا حاجة إلى قتله[2]. ثمّ قال المؤمن: ﴿يَاقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ﴾ والسّلطنة ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ حال كونكم ﴿ظَاهِرِينَ﴾ وغالبين على بني إسرائيل، أو على سائر الناس ﴿فِى﴾ هذه ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ وتلك المملكة، وهي مملكة مصر، لا يقاومكم في هذا الوقت أحدٌ، ومع ذلك الاقتدار الذي يكون لكم ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ ٱللَّهِ﴾ وأخذه، ومن يدفع عنّا عذابه ﴿إِن جَاءَنَا﴾ فلا تتعرّضوا لقتله بعد ماعَلِمتم أنّه إن جاءنا لا يمنعنا منه أحدٌ، وإنّما نسب ما يَسُرّهم من المُلك والغَلَبة إليهم لتطيب قلوبهم، وأدخل نفسه فيهم في الابتلاء بالعذاب ليؤذِن بأنّه ناصحٌ لهم، سارع في دفع ما يُرديهم كسعيه في نفسه، ليقبلوا نصحه ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ بعد ما سَمِع نُصح المؤمن: يا قوم ﴿مَا أُرِيكُمْ﴾ وما أُشير عليكم ﴿إِلَّا مَا أَرَىٰ﴾ وأعتقد صلاحه، وهو قتله، لتنحسم مادة الفساد والفتنة ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ﴾ بهذا الرأي، وما أرشدكم ﴿إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ والصواب.

قيل: كان كاذباً في إظهار الجلادة، لأنّه كان في غاية الخوف من موسى، ولولاه لما استشار في قتله أحداً[3].

في نصائح مؤمن آل فرعون

﴿وَقَالَ﴾: الرجل ﴿ٱلَّذِى ءَامَنَ﴾ من آل فرعون نُصحاً لقومه: ﴿يَاقَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُم﴾ من أن تَرَون يوماً يكون ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ السالفة والأُمم الماضية والطوائف المختلفة المُهْلَكة بالعذاب على تكذيب الرسل في الأزمنة السابقة، أعني ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ وحالهم ﴿وَ﴾ قوم ﴿عَادٍ وَ﴾ قوم ﴿ثَمُودَ﴾ حيث أُهلِكوا بالطُّوفان والريح الصَّرصر والصَّيحة ﴿وَ﴾ حال ﴿ٱلَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِن بَعْدِهِمْ﴾ كقوم لُوط وأضرابهم، وإنّما كان هلاكهم باستحقاقهم له ﴿وَمَا ٱللَّهُ﴾ الحكيم العادل ﴿يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ﴾ بأن يُعذّبهم قبل إتمام الحُجّة، أو بغير ذنبٍ.

ثمّ لمّا رأى إصرار فرعون على قتل موسى بقوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ﴾ أظهر إيمانه بموسى،

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٨: ١٧٨.

٣. تفسير أبي السعود ٧: ٢٧٥، تفسير روح البيان ٨: ١٧٩.

وخَوّفهم أولاً بعذاب الدنيا، ثمّ خوّفهم بعذاب الآخرة، بقوله: ﴿وَيَاقَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ من عذاب الله تعالى ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ والتصايح بالويل والثُّبور، أو يوم ينادي بعضكم بعضاً للاستغاثة كقولهم: ﴿فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا﴾[1] أو ينادي أصحاب الجنة أصحاب النار، وأصحاب النار أصحاب الجنّة، وعلى أي تقدير المراد يوم القيامة، أعني ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ﴾ وتَرُدّون من موقف الحساب حال كونكم ﴿مُدْبِرِينَ﴾ ومُنصرفين عنه إلى النار، أو فارين من النار، والحال أنّه ﴿مَا لَكُم مِنَ﴾ عذاب ﴿ٱللهِ﴾ وبأسه ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ وحافظٍ يَعْصِمكم ويَحْفَظكم منه، فان قَبِلتم نُصحى فقد هُدِيتم إلى خيركم، وإن لم تقبلوه فقد أضلّكم الله وخذلكم ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللهُ﴾ ويَخْذُله ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى ما فيه رُشده وصلاحه.

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذٰلِكَ يُضِلُّ ٱللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ * ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِ ٱللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ ٱللهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا كَذٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ[٣٤و ٣٥]

ثمّ بيّن المؤمن غاية ضلالهم واتّباعهم الهوى بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ يا أهل مصر ﴿يُوسُفُ﴾ بن يعقوب، وقيل: يعني يوسف بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب[2] ﴿مِن قَبْلُ﴾ بالرسالة من قبل الله مستدلاً على دعوته إلى التوحيد والرسالة ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والمعجزات الظاهرات القاهرات ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ﴾ وترديد ﴿مِمَّا جَاءَكُم بِهِ﴾ من الدين الحقّ ودُمتم عليه ﴿حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ﴾ ومات ﴿قُلْتُمْ﴾ تشهيّاً وتكذيباً للرسل الذين بعده أيضاً: ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللهُ﴾ أبداً ﴿مِن بَعْدِهِ رَسُولاً﴾ قيل: إنّ مقصودهم أنّه لمّا لم نُطِع يوسف لن يجرأ أحدٌ على دعوى الرسالة بعده[3] ﴿كَذٰلِكَ﴾ الضلال الفظيع ﴿يُضِلُّ ٱللهُ﴾ ويُحرف عن طريق الحقّ بخِذلانه ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ ومتجاوز عن الحدّ في العِصيان ﴿مُرْتَابٌ﴾ وشاكّ في رسالة الرسل ومعجزاتهم، لغلبة الهوىٰ وعدم التفكّر في العواقب.

ثمّ عرّف المسرف المُرتاب بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ ويُنازعون المؤمنين ﴿فِى آيَاتِ﴾ توحيد ﴿ٱللهِ﴾ ويطعنون فيها ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ وحُجّة وبرهان ﴿أَتَاهُمْ﴾ من قبل الله يَصِحّ التمسّك به ﴿كَبُرَ﴾ وعَظُم الجِدال في آيات الله ﴿مَقْتاً﴾ ومن جهة البغْض والنفور ﴿عِندَ ٱللهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾

---

١. الأعراف: ٥٣/٧. ٢ و٣. تفسير روح البيان ٨: ١٨١.

عن ابن عباس: يَمْقُتهم الذين آمنوا بذلك الجدال[١]، وليس هذا الجدال إلّا من طبع القلب وَ ﴿كَذٰلِكَ﴾ الطبع الفظيع ﴿يَطْبَعُ ٱللهُ﴾ ويَختِم ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ عن أتباع الرسل، أو قبول الحقّ ﴿جَبَّارٍ﴾ ومتعالٍ على الناس بغير حقّ، أو ظالم عليهم.

وَقَالَ فِرْعَونُ يَا هَـامَانُ ٱبْـنِ لِـى صَـرْحاً لَـعَلِّى أَبْـلُغُ ٱلْأَسْـبَابَ * أَسْـبَابَ ٱلسَّماوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلىٰ إِلٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذٰلِكَ زُيِّنَ لِفرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ * وَقَالَ ٱلَّذِى آمَنَ يَاقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ[٣٦ـ٣٨]

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان تكبّر فرعون وتجبّره، بيّن غاية حُمقه وجهله بقوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَونُ﴾ لوزيره هامان عُتوّاً واستكباراً وحُمقاً: ﴿يَا هَامَانُ﴾ قيل: إنّ اللعين في أثناء مواعظ حزقيل[٢] أراد قطع كلامه خوفاً من أن يُؤثّر في القلوب، فدعا هامان، وقال له[٣]: ﴿ٱبْنِ لِى صَرْحاً﴾ وبناءً عالياً مشيداً بالآجر ﴿لَعَلِّى﴾ بالصعود عليه ﴿أَبْلُغُ ٱلأَسبَابَ﴾ وأصل إلى الطُّرق الموصلة إلى مقصودي، أعنى ﴿أَسْبَابَ ٱلسَّماوَاتِ﴾ وطُرقها من سماءٍ إلى سماء عن ابن عباس، قال: منازلها[٤] ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ واستعلى عليه لانظر ﴿إِلَىٰ إِلٰهِ مُوسَىٰ﴾ لأنّه يمتنع العلم بصدق موسى إلّا برؤية إلهه ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ﴾ في دعوى أنه مرسلٌ من قبله ﴿كَاذِباً﴾ فاشتغل هامان ببنائه، كما مر في سورة القصص[٥].

وقيل: إنّه قال ذلك تمويهاً[٦]. وقيل: إنّه لم يَرِد بناء الصرح، لعلم كلّ عاقل بانّه يمتنع بناء صرحٍ يتمكّن بالصعود عليه من دخول السماوات، بل كان مقصوده بيان امتناع رؤية إلهه، فلا يمكن العلم بوجوده[٧].

وقيل: إنّ الله أعماه وخلّاه نفسه، ليتفرّغ لبناء الصّرح، ليرى منه آية اُخرى له، ويتأكّد استحقاقه العقوبة بذلك[٨]، كما أشار إليه تعالى بقوله: ﴿وَكَذٰلِكَ﴾ التزيين البليغ ﴿زُيِّنَ لِفرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ وشنيع فعله، فانهمك فيه انهماكاً لا يَرْعَوي عنه ﴿وَصُدَّ﴾ ومنع ﴿عَنِ﴾ سلوك ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ المنتهي إلى الخير والصّلاح ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾ ومكره ببناء الصرّح، وسعيه في إبطال الآيات ﴿إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ وخَسار وهلاك.

---

١. تفسير روح البيان ٨: ١٨١.
٢. في تفسير روح البيان: خربيل.
٣. تفسير روح البيان ٨: ١٨٣.
٤. مجمع البيان ٨١٥/٨.
٥. القصص: ٣٨/٢٨.
٦. تفسير روح البيان ٨: ١٨٣.
٧. تفسير الرازي ٢٧: ٦٥، تفسير روح البيان ٨: ١٨٣.
٨. تفسير روح البيان ٨: ١٨٣.

ثمّ حكى سبحانه دعوة المؤمن إلى دين موسى بقوله: ﴿وَقَالَ﴾ الرجل ﴿ٱلَّذِى آمَنَ﴾ بموسى نُصحاً لقومه: ﴿يَاقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ﴾ واسمعوا قولي ﴿أَهْدِكُمْ﴾ وأُرشدكم ﴿سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ وطريقاً يُوصِلُ سالكه إلى مصالح الدين والدنيا، ولا تتّبعوا فِرعون فانّه يَسْلُك بكم سبيل الغَيّ والضلال.

يَا قَوْمِ إِنَّمَا هٰذِهِ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بغَيْرِ حِسَابٍ * وَيَا قَوْمِ مَا لِى أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِى إِلَى ٱلنَّارِ * تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّارِ[٣٩ـ٤٢]

ثمّ لمّا كان أقوى الصوارف عن اتّباع الحقّ حُبّ الدنيا، بدأ بذَمّها بقوله: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هٰذِهِ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا﴾ ولذّاتها ﴿مَتَاعٌ﴾ قليلٌ وانتفاعٌ يسيرٌ، يزول بأسرع وقت ﴿وَإِنَّ﴾ دار ﴿ٱلآخِرَةَ﴾ بالخصوص ﴿هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ والبقاء، لخلودها ودوام ما فيها، فعليكم بالاعراض عن الدنيا، والاقبال إلى الآخرة والعمل لها، فانّه ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ في الدنيا ﴿فَلَا يُجْزَىٰ﴾ في الآخرة ﴿إِلَّا مِثْلَهَا﴾ عدلاً من الله سبحانه ﴿وَمَنْ عَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَالِحاً﴾ مرضياً عند الله، أيّ عملٍ كان ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله وبُرسله واليوم الآخر، فانّ قبول الأعمال مشروطٌ بالايمان ﴿فَأُولٰئِكَ﴾ المؤمنون العاملون ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ في الآخرة جزاءً لايمانهم وأعمالهم و ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا﴾ ويَتَنعَمون ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وبلا تقديرٍ وتقتيرٍ وموازنةٍ بالعمل، بل أضعافاً مضاعفةً فضلاً من الله.

ثمّ بالغ المؤمن في إظهار الشَّفقة على قومه، وإيقاظهم من سِنة الغفلة بتكرير ندائهم بقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِى﴾ والعَجب منّي ومنكم حيث إنّي ﴿أَدْعُوكُم إِلىٰ﴾ سبب ﴿ٱلنَّجَاةِ﴾ من النار ﴿وَتَدْعُونَنِى﴾ أنتم ﴿إِلَىٰ﴾ سبب الدخول في ﴿ٱلنَّارِ﴾ ثمّ بين السببين بقوله: ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِاللهِ﴾ وأنكر وجوده مع دلالة الآثار والادلة القاطعة على وجوده وقُدرته وحكمته، أو أُقِرّ به ﴿وَأُشْرِكَ بِهِ﴾ في اُلوهيّته ﴿مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ﴾ ولم يَقُم على شركته له دليلٌ قاطعٌ. وهو سبب الدخول في النار ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ﴾ الايمان بالإله ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ القادر على كلّ شيءٍ، وعلى الانتقام ممّن أنكره، أو اُشرك به ﴿ٱلْغَفَّارِ﴾ لمن تاب عن العقائد الفاسدة وعِصيانه، ورجع إليه بالايمان والطاعة، وهو سبب النجاة، فلا ييأس الذين اصرّوا على الكفر والطغيان مُدّةً مديدةً من رحمته وإحسانه، فانّه يَغفِر كُفر مائة سنة بايمان لحظةٍ.

لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى ٱللهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَاهُ ٱللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ ٱلْعَذَابِ[٤٣ـ٤٥]

ثمَ بالغ في إبطال الشرك بقوله: **﴿لَا جَرَمَ﴾** قيل: هي كلمة مستقلّة في إثبات ما بعدها[١] **﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾** وتتوقّعون منّي عبادته من الأصنام **﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا﴾** إلى عبادته بإرسال الرسول وإنزال الكتاب والنُّطق والبيان، لأنها جماد **﴿وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ﴾** بل يتبرأ ممّن عبده.

قيل: إنّ المعنى حقّ وثبت أنّ إلٰهكم ليس له استجابة دعوة عابدية في الدنيا بالبقاء والصحّة والغَناء وغيرها، ولا في الآخرة بالنجاة[٢] ورفعة الدرجات ونحوها، فكيف يكون مع غاية العجز، ربّاً؟! أو المراد ليس له دعوة مستجابة.

﴿وَ﴾ ثبت **﴿أَنَّ مَرَدَّنَا﴾** ومَرجعنا بعد الموت والخُروج من الدنيا **﴿إِلَى ٱللهِ﴾** وحده، فيُجازينا على أعمالنا في الدنيا **﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾** والمتجاوزين عن حدود العقل بالاشراك والظلم على الناس **﴿هُمْ﴾** بالخصوص **﴿أَصْحَابُ ٱلنَّارِ﴾** ومُلازِموها يُعذّبون فيها أبداً.

ثمَ قيل: لمّا خوّفه القوم بالقتل خوّفهم بقوله[٣]: **﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾** وعن قريب تعلمون **﴿مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾** من عدم الفائدة في عبادة الأصنام، وأن المرجِع هو الله، وإنّ المشركين مُعذّبون في النار عند الموت، أو حين مشاهدة العذاب، **﴿وَ﴾** أنا **﴿أُفَوِّضُ أَمْرِي﴾** في دفع كيدكم وتظاهركم عليّ **﴿إِلَى ٱللهِ﴾** القادر على نُصرة أوليائه، وأتوكّل عليه **﴿إِنَّ ٱللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾** يعلم المُحقّ والمُبطِل، ومن يُعارضه ويتوكّل عليه فينصُره، ويُثيب المُحقّ والمتوكّل، ويخذُل المُبطِل والمعارِض له ويُعاقبه.

في بيان نجات مؤمن آل فرعون من القتل

ثمَ أمر فرعون بقتله **﴿فَوَقَاهُ ٱللهُ﴾** حَفَظه من **﴿سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾** وشدائد ما همّوا به من الايذاء والقتل.

قال بعض العامة: إنّ المؤمن هرب إلى جبل، واشتغل بالصلاة والعبادة، فبعث الله السباع فأحاطوا به وحرسوه، وبعث فرعون جماعةً من خواصه ليأخذوه، فجاؤا فوجدوه يُصلّي والسباع مُحيطةٌ به، فخافوا من السباع، ورجعوا إلى فرعون وأخبروه بما رأوا من حال المؤمن، فقتل

١. تفسير أبي السعود ٧: ٢٧٨، تفسير روح البيان ٨: ١٨٧.
٢. تفسير روح البيان ٨: ١٨٧.
٣. تفسير الرازي ٢٧: ٧١.

فرعون جميعهم، لئلا يُفشوا الخبر[١].

وقيل: انّ بعضهم أكلته السباع، وبعضهم رجع إلى فرعون وأخبره بالقصة، فاتهمه وصلبه[٢].

وعن مقاتل: إنّ القوم قصدوا قتله، فهرب إلى الجبل، فلم يقدِروا عليه[٣].

وقيل: نجا حزقيل مع موسى[٤] ﴿وَحَاقَ﴾ ونزل ﴿بِآلِ فِرْعَوْنَ﴾ وبنفسه في الدنيا ﴿سُوءُ ٱلْعَذَابِ﴾ وشديده، وهو الغرق في البحر.

وعن الصادق عليه السلام ـ في حديث ـ أنه قال: «كان حزقيل يدعوهم إلى توحيد الله، ونبوة موسى، وتفضيل محمدٍ على جميع الرسل وخلقه، وتفضيل علي بن أبي طالب عليه السلام والخيار من الأئمّة على سائر أوصياء النبيين، وإلى البراءة من ربوبية فرعون، فوشى به الواشون إلى فرعون، وقالوا: إن حزقيل يدعو إلى مخالفتك، ويُعين أعداءك على مضادّتك. فقال لهم فرعون: ابن عمّي، وخليفتي على مُلكي، ووليّ عهدي، إن فعل ما قُلتم فقد استحقّ العذاب على كفره بنعمتي، وإن كنتم عليه كاذبين فقد استحققتم أشدّ العذاب لإيثاركم الدخول في مَسَاءته.

فجاء بحزقيل، وجاء بهم فكاشفوه، وقالوا: أنت تجحَد رُبوبية فرعون المَلِك وتكفُر بنعمائه. فقال حزقيل: أيّها المَلك، هل جرّبت عليّ ذنباً قطٌّ؟ قال: لا. قال: فسألهم من ربهم؟ قالوا: فرعون هذا. قال: ومن خالقكم؟ قالوا: فرعون هذا. قال: ومن رازقكم الكامل لمعايشكم، والدافع عنكم مكارهكم؟ قالوا: فرعون هذا. قال حزقيل: أيّها المَلِك، فأشهدك وكلّ من حضرك أنّ ربّهم هو ربّي، وخالقهم هو خالقي، ورازقهم هو رازقي، ومُصلِح معايشهم هو مُصلِح معايشي، لا ربّ لي ولا خالق ولا رازق غير ربّهم وخالقهم ورازقهم، وأُشهدك وأُشهد من حضرك أنّ كلّ ربّ ورازق وخالق سوى ربّهم وخالقهم ورازقهم، فأنا بريءٌ منه ومن ربوبيته، وكافر بإلهيته.

يقول حزقيل هذا، وهو يعني أنّ ربّهم هو الله ربّي، ولم يقل: إنّ الذي قالوا هو ربّهم ربّي، وخفي هذا على فرعون ومن حضره، وتوهّموا أنّه يقول: فرعون ربّي وخالقي ورازقي. فقال لهم فرعون: يا رجال السوء، ويا طلّاب الفساد في ملكي، ومُريدي الفتنة بيني وبين ابن عمىّ، وهو عَضُدي، أنتم المستحقّون لعذابي، لإرادتكم فساد أمري، وإهلاك ابن عمي، والفتّ في عَضُدي.

ثمّ أمر بالاوتاد، وجعل في ساق كلّ واحدٍ منهم وتداً، وفي صدره وتداً، وأمر أصحاب أمشاط

---

١. تفسير أبي السعود ٧: ٢٧٨، تفسير روح البيان ٨: ١٨٩.
٢. تفسير روح البيان ٨: ١٨٩.
٣. تفسير الرازي ٢٧: ٧٢.
٤. تفسير روح البيان ٨: ١٨٩، وفيه: خربيل، بدل حزقيل.

الحديد فشقّوا بها لحومهم من أبدانهم، فذلك ما قال تعالى: ﴿فَوَقَاهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا﴾ به لمّا وَشَوا إلى فرعون ليُهلِكوه ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ ٱلْعَذَابِ﴾ وهم الذين وَشَوا بحزقيل إليه، لمّا أوتد فيهم الأوتاد، ومشّط عن أبدانهم لحومها بالأمشاط[١].

وعن الصادق عليه السلام قال: «والله لقد قطّعوه إرباً إرباً، ولكن وَقَاه الله أن يفتنوه عن دينه»[٢].

ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ[٤٦]

ثمّ بيّن سبحانه تعذيبه القوم في البَرْزَخ بقوله: ﴿ٱلنَّارُ﴾ بعد هلاك فرعون وقومه ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ ويُعذّبون ويُحْرَقون بها في البَرْزَخ ﴿غُدُوّاً وَعَشِيّاً﴾ وفي أول النهار وآخره.

قيل: إمّا يعذّبون بين الوقتين بعذاب آخر، أو ينفّس عنهم[٣].

وقيل: إنّه كنايةٌ عن الدوام، كما في قوله تعالى[٤]: ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً﴾[٥]. وقيل: إنّ المراد بالعرض الإظهار والإراءة[٦].

وعن ابن مسعود: أنّ أرواح آل فرعون في أجواف طيرٍ سُود، يُعرَضون على النار مرّتين، فيقال: يا آل فرعون، هذه داركم[٧].

وفي حديث عامي: «أنّ أحدكم إذا مات عُرِض عليه مقعده بالغداة والعشيّ، إن كان من أهل الجنّة فمن الجنّة، وإن كان من أهل النار فمن النار، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة»[٨].

أقول: لعلّ المراد من الطير السود القوالب المثالية، وإنّما عبّر عنها بالطير لسرعة سيرها وارتفاعها في الجوّ.

عن الصادق عليه السلام: «ذلك في الدنيا قبل يوم القيامة، لأنّ في النار القيامة لا يكون غدوّاً وعشياً» ثمّ قال: «إن كانوا يُعذّبون في النار غدواً وعشياً، ففيما بين ذلك هم [من] السعداء، ولكن هذا في نار البَرْزَخ قبل يوم القيامة، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ...﴾؟!»[٩].

وعن الباقر عليه السلام: «أنّ لله تعالى ناراً بالمشرق خلقها ليُسْكِنَها أرواح الكفّار، ويأكلون من زقّومها، ويشربون من حميمها ليلهم، فاذا طلع الفجر هاجت إلى وادٍ باليمن يقال له بَرَهوت، أشدّ حرّاً من

---

١. الاحتجاج: ٣٧٠، التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٢٤٧/٣٥٧، تفسير الصافي ٤: ٣٤٣.
٢. تفسير القمي ٢: ٢٥٨، تفسير الصافي ٤: ٣٤٢.
٣. تفسير روح البيان ٨: ١٨٩.
٤. تفسير الرازي ٢٧: ٧٣.
٥. مريم: ٦٢/١٩.
٦ ـ ٨. تفسير روح البيان ٨: ١٨٩.
٩. مجمع البيان ٨: ٨١٨، تفسير الصافي ٤: ٣٤٣.

نار الدنيا، كانوا فيه يتلاقون ويتعارفون، فاذا كان المساء عادوا إلى النار، فهم كذلك إلى يوم القيامة»[1].

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ ووقت الحشر والحساب يقول الله تعالى للملائكة: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ جهنّم وعذّبوهم فيها ﴿أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ ٱلنَّارِ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ ٱللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ[٤٧ و ٤٨]

ثمّ لمّا انتهى الكلام إلى ذكر القيامة، ودخول الكفّار في النار، حكى سبحانه مناظرة الأتباع والرؤساء في النار بقوله: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ﴾ ويتنازعون ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾.

ثمّ شرح سبحانه تخاصمهم فيها بقوله: ﴿فَيَقُولُ﴾ الكفّار ﴿ٱلضُّعَفَاءُ﴾ والأقلّون في القدر والمنزلة والثروة ﴿لِلَّذِينَ﴾ ترأسوا و﴿ٱسْتَكْبَرُوا﴾ عن اتّباع الرسل، وتعظّموا عن قبول الحقّ، واستتبعوا الضعفاء ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿لَكُمْ تَبَعاً﴾ ومُطيعين لأوامركم، وأجبناكم فيما دعوتمونا من الشرك وتكذيب الرسل، وفصار اتّباعنا إياكم سبباً لدخولنا في جهنّم ﴿فَهَلْ أَنتُم﴾ اليوم ﴿مُغْنُونَ﴾ ودافعون ﴿عَنَّا﴾ بالسعي والتحمّل ﴿نَصِيباً﴾ وبعضاً ﴿مِنَ﴾ عذاب ﴿ٱلنَّارِ﴾ باتّباعنا إيّاكم، كما كنّا ندفع عنكم كثيراً من البليّات، ونتحمّل عنكم الزّحمات في الدنيا ﴿قَالَ﴾ الرؤساء ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا﴾ في جوابهم: كيف ندفع النار عنكم؟ أما ترون ﴿إِنَّا﴾ وإياكم ﴿كُلٌّ﴾ داخلون ﴿فِيهَا﴾ ومُعذّبون بها، ولو قدرنا لدفعناه عن أنفسنا ﴿إِنَّ ٱللهَ﴾ الحكيم ﴿قَدْ حَكَمَ﴾ بالحقّ ﴿بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ بأن أدخل المؤمنين الجنّة، والكافرين النار، ولا مُعقّب لحكمه.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ ٱلْعَذَابِ * قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ ٱلْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ[٤٩ و ٥٠]

ثمّ إنّهم لمّا يأسوا من رؤسائهم، حكى الله التماسهم إلى الخَزَنة بقوله: ﴿وَقَالَ﴾ جميع ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اُدخِلوا ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾ من الضعفاء والمستكبرين ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ والملائكة المأمورين بتعذيبهم: يا خَزَنة جهنم ﴿ٱدْعُوا رَبَّكُمْ﴾ شفاعة لنا إنّه ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا﴾ في مقدار زمان يكون ﴿يَوْماً﴾ من أيام

---

١. الكافي ٣: ١/٢٤٧، تفسير الصافي ٤: ٣٤٤.

الدنيا شيئاً ﴿مِنَ ٱلعَذَابِ﴾ الذي نحن فيه. فأجابتهم الخَزَنة و﴿قَالُوا﴾ بعد مدةٍ طويلةٍ ـ على ما قيل ـ توبيخاً لهم[١]: ﴿أَوَ لَمْ تَكُ﴾ قيل: إنّ التقدير ألم تنبّهوا على هذا، ولم تك[٢] ﴿تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم﴾ في الدنيا واحداً بعد واحدٍ مستدلّين على صدقهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والحُجج الظاهرة فيما أخبروكم من سوء عاقبة الكفر والتكذيب؟! ﴿قَالُوا﴾ كلّهم: ﴿بَلَىٰ﴾ أتونا وأخبرونا فكذّبناهم، إذن ﴿قَالُوا﴾ إقناطاً لهم: إذا كان الأمر كذلك، فلا ترجوا منّا هذا الدعاء، لاستحالته علينا ﴿فَادْعُوا﴾ أنتم لأنفسكم ما تُريدون ﴿وَمَا دُعَاءُ ٱلْكَافِرِينَ﴾ في حقّ أنفسهم، أو دعاء غيرهم لهم بتخفيف العذاب أو رفعه عنهم ﴿إِلَّا فِى ضَلَالٍ﴾ وضياعٍ، لأنّه لا يُجاب، لوجوب تعذيبهم على الله بمقتضى الحكمة والعدل.

إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ ٱلدَّارِ[٥١ و ٥٢]

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان عدم إجابته دُعاء الكفّار وإعراضه عنهم في الآخرة بيّن لُطفه برسله وبالمؤمنين بهم بقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ كما نصرنا موسى ﴿وَ﴾ ننصُر ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اتّبعوهم و ﴿ءَامَنُوا﴾ بهم ﴿فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ونُغَلّبهم على أعدائهم بالظّفر بالحُجّة والقوة، ولو في العاقبة.

عن ابن عباس: أنّه لم يُقْتَل من الأنبياء إلّا من لم يُؤمر بقتال، وكلّ من اُمِر بقتال نُصِر[٣].

﴿وَ﴾ ننصُرهم ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَادُ﴾ بإعلاء درجتهم وإكرامهم في مجمع الخلق، أو المراد يوم إقامة الشهود على تبليغهم، والعمل بما كان وظيفتهم من الملائكة والنبيين، كما قال الله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل امة بشهيد﴾[٤] إلى آخره.

عن الصادق عليه السلام: «ذلك في الرجعة، أمّا علمت أن أنبياء كثيرة لم يُنْصَروا في الدنيا وقُتِلوا، وأئمّةً من بعدهم قُتِلوا ولم يُنْصَروا، وذلك في الرجعة»[٥].

ثمّ عرّف سبحانه اليوم بما فيه فرح الرسل والمؤمنين بقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّالِمِينَ﴾ الذين هم أعداؤهم ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ عن كفرهم وطغيانهم على الرسل والمؤمنين، لعدم قبولها إن اعتذروا، ولذا لا يعتذرون، ولا يُؤذن لهم فيعتذرون، وقيل: إنّهم يعتذرون في وقتٍ، ولا يُؤذن لهم في الاعتذار في وقت آخر[٦] ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ والبُعد عن الرحمة ﴿وَلَهُمْ سُوءُ ٱلدَّارِ﴾ وشرّ المقام، لكونهم أسوأ الناس وشرّ الخلق، بخلاف المؤمنين فانّهم تُقبَل معذرتهم عن خطاياهم، بل تُقبَل شفاعتهم، ولهم الرحمة،

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٨: ١٩٢.
٣. تفسير روح البيان ٨: ١٩٣.
٤. النساء: ٤١/٤.
٥. تفسير القمي ٢: ٢٥٩، تفسير الصافي ٤: ٣٤٥.
٦. تفسير روح البيان ٨: ١٩٣.

ولهم حُسن الدار.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ ٱلْكِتَابَ * هُدىً وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَابِ * فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَارِ[٥٣ـ٥٥]

ثمّ استشهد سبحانه على نُصرته رسله والمؤمنين بنُصرته موسى وقومه بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ بفضلنا ورحمتنا ﴿مُوسَى﴾ بن عمران ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ والمعجزات الدالة على صدقه في دعوى نبوّته وصحة شريعته ﴿وَأَوْرَثْنَا﴾ قومه ﴿بَنِى إِسْرَائِيلَ﴾ منه ﴿ٱلْكِتَابَ﴾ الذي اُنزل إليه ـ وهو التوراة ـ ليكون ذلك الكتاب ﴿هُدىً﴾ من الضلال ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ وموعظةً ﴿لِأُولِى ٱلْأَلْبَابِ﴾ وذوي العقول السليمة من شوائب الأوهام.

وقيل: إنّ الهدى ما يكون دليلاً في نفسه، والذكرى ما يُذْكَر[١] في الكتب الإلهية المتقدّمة الذي صار منسياً[٢].

ثمّ لمّا ذكر سبحانه نصرته لموسى وسائر الأنبياء، سلّى نبيه ﷺ بقوله: ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد، على مخالفة الكفّار ومعارضة الأعداء بعد ما سَمِعت من وعدي بنُصرة الرسل ونُصرتي موسى والمؤمنين به ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ﴾ بنصرك وظهور دينك وإعلاء كلمتك ﴿حَقٌّ﴾ وصدقٌ، لا يمكن الخُلف فيه ﴿وَٱسْتَغْفِرْ﴾ ربّك أولاً ﴿لِذَنْبِكَ﴾ وما صدر منك أحياناً من ترك الأفضل والأولى ﴿وَسَبِّحْ﴾ بعد الاستغفار مقرناً له ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ على نِعمه عليك ﴿بِالْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَارِ﴾ قيل: إنّه كنايةٌ عن[٣] الدوام[٤]. وقيل: إنّ الإبكار هو: أول النهار إلى نصفه. والعشيّ: من الزوال إلى أوّل يوم البعد، فيكون المعنى الحقيقي جميع الأوقات[٥]. وقيل: إنّ المراد طرفي النهار[٦]، وهما أفضل أوقات التسبيح.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِ ٱللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ[٥٦]

ثمّ بيّن سبحانه أنّ لا علّة لمجادلتهم إلّا الكبر بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ ويُخاصمون الرسول والمؤمنين ﴿فِى﴾ إبطال ﴿آيَاتِ ٱللهِ﴾ الطعن فيها، ويَجحَدون بها﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ وبُرهانٍ ﴿أَتَاهُمْ﴾

---

١. زاد في النسخة: ما. ٢. تفسير الرازي ٢٧: ٧٧، تفسير روح البيان ٨: ١٩٥. ٣. في النسخة: من.
٤. تفسير روح البيان ٨: ١٩٦. ٥. تفسير الرازي ٢٧: ٧٨، تفسير روح البيان ٨: ١٩٦.
٦. تفسير الرازي ٢٧: ٧٨.

من قبل الله مع أنّ التكلّم فيها وفي أمر الدين لابدَ أن يكون بسلطانٍ مبينٍ وبرهانٍ مَتينٍ ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ﴾ وما في قلوبهم ﴿أَلَّا كِبْرٌ﴾ وتعظّم من قبول الحقّ، وتبعية الرسول، والتفكّر والنظر الصحيح في معجزاته وكلماته، بل إرادة الرئاسة والتقدّم عليه، مع أنّه ﴿مَا هُم﴾ بمدركي غرضهم من الكِبر والتعظّم، وليسوا ﴿بِبَالِغِيهِ﴾ وهو إبطال الآيات والإخلال في أمر نبوتك وإذلالك، فإنّي ناشرٌ آياتك، ومُشرقٌ نورك، ورافعٌ منزلتك في الناس، ومُعَلٍّ قدرك في الآفاق ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾ والتجأ إليه من شرّهم وكيدهم فانّه القادر على دفعهم وعلى كلّ شيء و﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لمقالك ومقال أعدائك ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ باهتمامك في التبليغ واهتمام أعدائك في المنع عنه، فيجازيك أفضل الجزاء، ويُجازي أعداءك أسوأه.

قيل: إنّ المراد بالمجادلين اليهود، فانّهم كانوا يقولون للنبيّ ﷺ: لست صاحبنا المذكور في التوراة، بل هو المسيح بن داود، أو يوسف بن مسيح بن داود[1].

وقيل:إنّهم أرادوا الدجّال الذي يخرُج في آخر الزمانن وقالوا: إنّه يَبْلُغ سلطانه البرّ والبحر، وتسير معه الأنهار، وهو آية من آيات الله، فيرجع إلينا المُلك[2].

وقيل: إنّ المراد بقوله: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾ التجئ إليه من فتنة الدجّال، فإنّه ليس فتنةٌ أعظم من فتنته[3]. وروت العامة أحاديث عن النبيّ ﷺ في الاستعاذة من فتنة الدجّال وخروجه وكيفية إفتتان الناس به[4].

لَخَلْقُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَلَا ٱلْمُسِيءُ قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ [٥٧ و ٥٨]

ثمّ لمّا كان أكثر مجادلة المشركين في البعث وإمكان المعاد وإنكار الآيات الدالة عليه، استدلّ سبحانه عليه بقوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَاوَاتِ﴾ السبع مع سَعَتها وعظمتها ﴿وَ﴾ خلق ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ بطبقاتها وضَخامتها ﴿أَكْبَرُ﴾ وأعظم ﴿مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ ثانياً، ومن هو قادر على الأعظم قادرٌ على خلق الأصغر والأضعف، وهذا من أعظم البراهين على صحة المعاد والبعث وإمكانه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ المنكرين للمعاد ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ كون إعادة الناس أسهل وأهون، لقصور نظرهم، وفرط غفلتهم، ولذا يقولون: ﴿من يحيى العظام وهى رميم﴾[5]؟

---

١ ـ ٤. تفسير روح البيان ٨: ١٩٧.

٥. يس: ٧٨/٣٦.

ثمّ بيّن سبحانه رفعة شأن المستدلّين بالآيات، والمتفكّرين فيها، وعدم تساويهم مع الجُهّال المقلّدين بقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى﴾ الكافر الذي هو ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ قلبه عن رُؤية الآيات ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾ الذي يراها بعين قلبه، ويتفكّر فيها ﴿وَ﴾ كذا ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿ٱلصَّالِحَاتِ﴾ وبادروا إلى الحسنات ﴿وَلَا ٱلْمُسِىءُ﴾ في العقائد والأعمال، وهم الكفّار والعُصاة، فلو لم يكن حشر ومعاد ودار الجزاء، لزم تساوي الفريقين، وهو باطل ببديهة العقل، فأنتم ـ أيّها الكفار المجادلون ـ تعلمون عدم التساوي بين العالم والجاهل والمحسن والمسيء، ولكن ﴿قَلِيلاً مَا﴾ ومِقداراً يسيراً ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ وتتنبّهون إلى ما يَلْزَمه من صِحّة المعاد، وإنّما قدّم ذكر المؤمن المُحسن على المُسيء لمجاورة البصير.

وقيل: إنّ المراد أنّ المشركين يعلمون أنّ العلم خيرٌ من الجهل، وأنّ العمل الصالح خيرٌ من العمل السيء، ولكن لا يُميّزون بين العلم والجهل، والعمل الصالح والسيءَ فيعتقدون الجهل والتقليد علماً ومعرفةً، والحسد والكِبر صالحاً وطاعةً[1].

وقيل: إنّ ﴿قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ في معنى لا يتذكّرون أصلاً، كما يقال: هو قليل الحياء، والمراد أنّه لا حياء له[2].

إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ [٥٩ و ٦٠]

ثمّ لمّا أثبت سبحانه إمكان المعاد بتوضيح كمال قدرته وسهولته، أخبر بوقوعه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ والقيامة ﴿لَآتِيَةٌ﴾ البتة ﴿لَا رَيْبَ﴾ ولا مجال للشك ﴿فِيهَا﴾ وفي إتيانها، لوضوح شواهدها، واتقان براهينها ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ وهم الكفّار المنكرون له ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ باتيانها، لقصور أنظارهم، وشدّة تعصّبهم، وإلْفِهم بما اعتقده آباؤهم.

ثمّ إنّه تعالى بعد إتيان إمكان المعاد، والإخبار بوقوعه، أمر الناس بعبادته المنجية من أهواله بقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾: أيّها الناس ﴿ٱدْعُونِى﴾ وحدي لحوائجكم، واعبُدوني خالصاً مخلصاً لنجاتكم من الشدائد ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ودعاءكم، واقضِ حوائجكم، إما في الدنيا أو في الآخرة، وأُنجكُم من شدائدهما ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ويستنكفون ﴿عَنْ عِبَادَتِى﴾ التي منها الدعاء، ويتعظّمون عن

---

١. تفسير الرازي ٢٧: ٧٩.

٢. تفسير روح البيان ٨: ١٩٩.

طاعتي﴿سَيَدْخُلُونَ﴾ في الآخرة ﴿جَهَنَّمَ﴾ حال كونهم ﴿دَاخِرِينَ﴾ وذليلين جزاءً لتكبّرهم على الله.

في نفضيلة الدعاء — عن الباقر عليه السلام - في هذه الآية - قال: «هو الدعاء، وأفضل العبادة الدعاء»[1].

وعنه عليه السلام، أنّه سُئِل: أي العبادة أفضل عند الله؟ قال: «أن يُسأل ويُطلَب ما عنده، وما من أحدٍ أبغض إلى الله تعالى ممنّ يستكبر عن عبادته، ولا يسأل ما عنده»[2].

وعن الصادق عليه السلام، قال: «ادعُ ولا تقُل: قد فرغ من الأمر، فانّ الدعاء هو العبادة، إنّ الله يقول...» وتلا هذه الآية[3].

وعن السجاد عليه السلام - في (الصحيفة) بعد ذكر الآية -: «فسميّتَ دُعاءك عبادة، وتركه استكباراً، وتوعّدتَ على تركه دخول جهنم داخرين»[4].

وروي أنه سُئل الصادق عليه السلام: أليس الله يقول: ﴿ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وقد نرى المضطرّ يدعوه ولا يُجاب له، والمظلوم يستنصره على عدوه فلا يَنصُره؟ قال: ويحك ما يدعو أحدٌ إلا استجاب له! أمّا الظالم فدعاؤه مردودٌ إلى أن يتوب، وأمّا المُحقّ فإذا دعاه استجاب له، وصرف عنه البلاء من حيث لا يعلم، أو ادّخر له ثواباً ليوم حاجته، وإن لم يكن الأمر الذي سأل العبد خيراً له إن أعطاه أمسك عنه، والمؤمن العارف بالله ربما عزّ عليه أن يدعوه فيما لا يدري أصواب ذلك أم خطأ[5].

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ[٦١]

ثمّ ذكر سبحانه دلائل توحيده واستحقاقه للعبادة بقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾ هو القادر ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ وخلق نفعاً ﴿لَكُمُ﴾ أيها الناس ﴿ٱلَّيْلَ﴾ المظلم ﴿لِتَسْكُنُوا﴾ وتستريحوا ﴿فِيهِ﴾ بسبب برودته المُسكّنة للقوى المُحرّكة، والمظلمة المُسكّنة للحواسّ، ﴿وَ﴾ جعل ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ بضوئه ﴿مُبْصِراً﴾ للأشياء، وطرق تحصيل المعاش، وإنّما لم يذكُر لتبصروا فيه، وأسند الابصار إلى النهار مجازاً، للاشعار بكون النور الذي به قِوام النهار هو العِلّة للرؤية عند البصير، وتكون دلالة تنوّر النهار على وحدانية الله أقوى من دلالة الفعل، وإنّما قدّم ذِكر الليل لأنّه عدم النور، والعدم مقدّمٌ على الوجود، والليل سابقٌ في الوجود على النهار.

ثمّ لمّا ذكر سبحانه النعمتين العظيمتين، نبّه[6] على فضله وإحسانه على الناس، ووبّخهم على ترك

---

١. الكافي ٢: ١/٣٣٨، تفسير الصافي ٤: ٣٤٦.
٢. الكافي ٢: ٢/٣٣٨، تفسير الصافي ٤: ٣٤٦.
٣. الكافي ٢: ٥/٣٣٩، تفسير الصافي ٤: ٣٤٦.
٤. تفسير الصافي ٤: ٣٤٦.
٥. الاحتجاج: ٣٤٣، تفسير الصافي ٤: ٣٤٦.
٦. في النسخة: تنبّه.

شكره بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ وإحسانٍ عظيمٍ ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ يخلُق الليل والنهار بحيث لا يُوازيه فضلٌ وإحسانٌ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ لجهلهم بالمُنعِم وعدم التفاتهم إلى هذه النعمة ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ فضل الله وإنعامه، وإنّما كرّر سبحانه ذِكر الناس للتنصيص بتخصيص الكفران بهم.

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ * كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ * ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَاراً وَٱلسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ * هُوَ ٱلْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ [٦٢ ـ ٦٥]

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان قدرته ونعمته وحكمته، أعلن بألوهيته وربوبيته ووحدانيته بقوله تبارك وتعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ القادر الحكيم المُنعِم هو ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي يتألّه إليه جميع الموجودات، وهو ﴿رَبُّكُمْ﴾ وربّ العالمين وخالقكم ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ممكنٍ، وهو الإله الذي ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا معبود سواه، إذن ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أيّها المشركون، وكيف تُصرَفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الإفك والانصراف العجيب الذي يكون لقومك ﴿يُؤْفَكُ﴾ ويُصرَف عن عبادة الله الأمم ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا﴾ قبل قومك ﴿بِآيَاتِ ٱللَّهِ﴾ ودلائل توحيده وكمال صفاته ﴿يَجْحَدُونَ﴾ ويُكذّبون عِناداً ولَجاجاً وتقليداً.

ثمّ استدلّ سبحانه على توحيده بقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾ هو القادر الحكيم ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ بقدرته وحكمته ﴿لَكُمُ﴾ أيّها الناس ﴿ٱلْأَرْضَ قَرَاراً وَ﴾ منزلاً في حال حياتكم ومماتكم، كما عن ابن عباس[1]! والمراد جعلها ثابتةً وساكنةً لتتمكّنوا من التصرّف فيها، وجعل ﴿ٱلسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ وسقفاً مبنياً، وقبّةً مرفوعةً فوقكم.

ثمّ إنّه تعالى بعد الاستدلال بالآيات الآفاقية على توحيده، استدلّ بالآيات الأنفسية بقوله: ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ في الأرحام ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ حيث خلقكم منتصبي القامة، بادي البشرة، متناسبي الأعضاء. عن ابن عباس: خلق ابن آدم قائماً معتدلاً يأكُل ويتناول بيده[2] ﴿وَرَزَقَكُم مِنَ﴾ المأكولات ﴿ٱلطَّيِّبَاتِ﴾ واللذيذات ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ القادر المُنعِم عليكم بتلك النِّعم هو ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي هو ﴿رَبُّكُمْ﴾ لا ربّ سواه ﴿فَتَبَارَكَ﴾ وتقدّس عن الشريك ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي هو ﴿رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ ومالك الملائكة والجنّ والإنس أجمعين، ورافع كلّ من حضيض النقص على أوج الكمال اللائق به، وكُلٌّ تحت

١. تفسير الرازي ٢٧: ٨٤.
٢. تفسير روح البيان ٨: ٢٠٥.

ملكوته، ومفتقرٌ إليه في ذاته ووجوده وما به بقاؤه وكماله و ﴿هُوَ ٱلحَىُ﴾ بالذات الذي به حياة كلّ حيّ، فمن له تلك الصفات الجمالية والجلالية؟ ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا معبود بالاستحقاق سواه، فاذا عرفتموه بالتفرّد والقدرة والحكمة والرحمة ﴿فَادْعُوهُ﴾ وحده لحوائجكم، واعبُدوه ﴿مُخْلِصِينَ﴾ ومُمحِضين ﴿لَهُ ٱلدِّينَ﴾ والعبادة، ولا تُشركوا به شيئاً، وقولوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ على ما هدانا وأنعم علينا بالنِّعم العِظام.

عن ابن عباس: من قال لا إله إلّا الله، فليقُل على أثرها: الحمد لله ربّ العالمين[1].

وعن السجاد عليه السلام: «إذا قال أحدكم لا اله الا الله، فليقُل: الحمد لله رب العالمين، فانّ الله يقول: ﴿هُوَ ٱلْحَيُّ﴾»[2] الآية.

قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللهِ لَمَّا جَاءَنِىَ ٱلْبَيِّنَاتُ مِن رَبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ[٦٦]

ثمّ لمّا أمر سبحانه الناس بعبادته خالصاً من الشرك، أمر نبيّه صلى الله عليه وآله بترغيبهم فيها، باظهار أنّه اختار لهم ما اختاره لنفسه، التي هي أعزّ النفوس عنده بقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين، ترغيباً لهم إلى التوحيد: ﴿إِنِّى نُهِيتُ﴾ من قبل ربّي عن ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾ الأصنام ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ وتعبُدون ﴿مِن دُونِ ٱللهِ لَمَّا جَاءَنِىَ ٱلْبَيِّنَاتُ﴾ القرآنية، أو اُلهمتُ بالشواهد والأدلّة الواضحة ﴿مِن﴾ قبل ﴿رَبِّى﴾ ومالكي اللطيف بي ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾ أمري، وأُخلص ديني ﴿لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾.

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنكُم مَن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمّىً وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * هُوَ ٱلَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ[٦٧ و ٦٨]

ثمّ عاد سبحانه إلى الاستدلال على توحيده بأطوار خلق الانسان بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ يا بني آدم أولاً ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ حيث إنّ الدم الذي يتكوّن منه المَنيّ من الأغذية المتكونة من التُّراب، أو إنه خلقكم منتهياً إلى خلق أبيكم آدم، وهو مخلوقٌ من تُراب ﴿ثُمَّ﴾ خلقكم ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ وماءٍ صافٍ متكوّنٍ من الدم في صُلب الرجل ﴿ثُمَّ﴾ خلقكم ﴿عَلَقَةٍ﴾ ودمٍ جامدٍ متكوّنٍ من النُّطفة في الرَّحِم، ثمّ

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٢٠٦.

٢. تفسير القمي ٢: ٢٦٠، تفسير الصافي ٤: ٣٤٧.

يخلُق أعضاءكم منها، ويصوّركم فيه، وينْفَخ فيكم الروح، ويُحييكم ﴿ثُمَّ يُخرِجُكُمْ﴾ من رَحِم اُمَكم حال كونكم ﴿طِفْلاً﴾ صغيراً عاجزاً عن جلب نفعٍ أو دفع ضررٍ ﴿ثُمَّ﴾ يُبقيكم في الدنيا ﴿لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ وكمال قوتكم الظاهرية والباطنية، وهو حدّ الشباب.

قيل: هو ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين[1]. وقيل: من إحدى وعشرين سنة إلى ثلاث وثلاثين[2].

﴿ثُمَّ﴾ يُبقيكم ﴿لِتَكُونُوا شُيُوخاً﴾ قيل: إنّ الشيخوخة من خمسين أو إحدى وخمسين إلى الموت، أو إلى ثمانين[3] ﴿وَمِنكُم مَن يُتَوَفَّىٰ﴾ ويُقبَض روحه ﴿مِن قَبْلُ﴾ أن يتولّد، فيسقُط جنيناً، أو من قبل بُلوغ الأشدّ، أو من قبل الشيخوخة ﴿وَ﴾ ذلك الأطوار في الخلق ﴿لِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمّىً﴾ ووقتاً معيناً في تقدير الله لا تتجاوزونه ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وتفهمون ما في ذلك الانتقال من طورٍ إلى طورٍ من فنون الحِكم والعِبر، وتستدلّون به على خالقكم القدير الحكيم.

ثمَ لمّا وصف سبحانه ذاته المقدسة بالحياة الذاتية، نبّه على أنّ حياة كلّ حيٍ وموته بقدرته بقوله: ﴿هُوَ﴾ تعالى وحده القادر ﴿الَّذِي يُحْيِي﴾ كلّ ميتٍ أراد احياءه ﴿وَيُمِيتُ﴾ كلّ حيٍ أراد إماتته.

ثمَ بيّن سبحانه نهاية سهولة خلق الأشياء وتغييرها والتصرّف فيما عليه بقوله: ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْراً﴾ قدّر شيئاً، أو أراد تكوينه وإيجاده ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن﴾ ويُريد وجوده بالارادة التكوينية ﴿فَيَكُونُ﴾ ويُوجَد بلا رَيث وتأخيرٍ وتوقفٍ على شيءٍ، سواء كان ذلك الأمر عظيماً كالسماوات والأرضين، أو حقيراً كالذرّة، أو تغييراً كتغيير التُّراب وصيرورته دماً، وصيرورة الدم نُطفةً، وصيرورة النُّطفة عَلقةً، أو تبديلاً كإعدام هذا العالم، أو إعدام الخلق وإيجاد عالمٍ آخر، أو خلقٍ آخر.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ ٱللهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ * ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ ٱلْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ * ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ * مِن دُونِ ٱللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَمْ نَكُن نَدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئاً كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللهُ ٱلْكَافِرِينَ [٦٩ ـ ٧٤]

ثمَ إنّه تعالى بعد حكمه في أول السورة المباركة بكفر المجادلين في الآيات، وبيان كونهم مبغوضين عنده وعند المؤمنين، وكون قلوبهم مطبوعةً، وبيان علّة جِدالهم، وهو التعظّم والتكبّر عن طاعة الله ورسوله في وسطها، وبعد ذكر الآيات الدالة على توحيده، عاد إلى ذمّ المشركين المجادلين

١ـ٣. تفسير روح البيان ٨: ٢٠٨.

في الآيات، وتهديدهم بعذاب الآخرة بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد، أو أيها الرائي، ولم تنظر نظر التعجّب والعِبرة ﴿إِلَى﴾ المشركين ﴿ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ ويُخاصمون ﴿فِى آيَاتِ ٱللَّهِ﴾ الواضحة المقتضية للإيمان بها، الزاجرة عن الجِدال والمكابرة فيها، أنهم ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ عن تلك الآيات والتصديق بها، وكيف يَعرِضون عنها؟ أعني بالمجادلين المشركين ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ﴾ المنزَل من السماء مع دلائل الصدق ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ من سائر الكتب والأحكام ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوء عاقبة تكذيبهم وجِدالهم، وعن قريب يَرون مآل كفرهم وطُغيانهم، وذلك ﴿إِذِ﴾ تُجعل ﴿ٱلْأَغْلَالُ﴾ وحين تُوضع القُيود من النار ﴿فِى أَعْنَاقِهِمْ﴾. قيل: تُغَلّ أيديهم إلى أعناقهم مضمونةً إليها[1] ﴿وَٱلسَّلَاسِلُ﴾ أيضاً تُجعَل عليهم حال كونهم ﴿يُسْحَبُونَ﴾ ويَجِرّون على الأرض على وجوههم بعُنفٍ، يَجُرّهم الملائكة الزبانية وخَزَنة جهنّم ﴿فِى ٱلْحَمِيمِ﴾ والمائع المتناهي في الحرارة.

قيل: في كلمة (فِي) إشعارٌ بإحاطة حرارة النار أو الماء لجميع جوانبهم، كأنّهم في عين الحميم ويُسْحَبون فيها[2].

وعن مقاتل: ﴿يُسْحَبُونَ * فِى ٱلْحَمِيمِ﴾ أي في حرّ النار، كما في قوله تعالى: ﴿يوم يسبحون فى النار على وجوههم﴾[3].

﴿ثُمَّ﴾ إنّه بعد جرّهم بالسلاسل إلى الحميم ﴿فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ ويُحرَقون، ففي الآيات دلالةٌ على أنّهم يُعذّبون بأنواع العذاب.

﴿ثُمَّ﴾ بعد إحراقهم في النار ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾ تقريعاً وتوبيخاً: أيها المشركون ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تُشْرِكُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ رجاء شفاعتهم، أو إعانتهم إياكم في الشدائد، ادعوهم اليوم ليشفعو لكم، أو يُعينوكم، ويُنجوكم من العذاب ﴿قَالُوا﴾ في جواب خَزَنة جهنّم تحسّراً وندامةً: إنّ أصنامنا ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ وغابوا عن أبصارنا، فلا نعرفهم، وذلك قبل أن تُقرَن بهم آلهتهم وأصنامهم، أو المراد من الضلال الهلاك، والمعنى هلكوا وضاعوا عنّا، فنزّل عدم نفعهم لهم منزلة عدمهم، ثمّ قالوا: ﴿بَل﴾ الآن تبيّن لنا أنّا ﴿لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا﴾ ونعبُد ﴿مِن قَبْلُ﴾ وفي الدنيا ﴿شَيْئًا﴾ قابلاً للعبادة، بل الاعتناء والاعتداد. قيل: إنّ المراد مما كنّا مشركين ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الضلال والتحيّر الذي يكون لهم في الآخرة حتى يَفزَعوا إلى الكذب، مع علمهم بأنّه لا ينفعهم ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ ويُحيّر ﴿ٱلْكَافِرِينَ﴾ في الدنيا والمشركين

١و٢. تفسير روح البيان ٨: ٢١١.

٣. تفسير روح البيان ٨: ٢١١، والآية من سورة القمر: ٤٨/٥٤.

حتى لا يهتدوا إلى شيء ينفعهم في الآخرة.

قيل: إنّ المراد مثل ضلال آلهتهم عنهم، يُضِلّهم الله عن آلهتهم حتى أنّهم لو طلبوها أو طلبتهم لم يجد أحدهما الآخر[١] وقيل: يعني يُضلّهم عن طريق الجنّة[٢].

ذٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ * ٱدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ * فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ[٧٥ـ٧٧]

ثمّ التفت سبحانه من الغيبة إلى الخطاب إلى الكفّار في الدنيا مبالغةً في توبيخهم وتقريعهم بقوله: ﴿ذٰلِكُم﴾ الضلال أيّها الكفَرة، أو العذاب الشديد الذي ابتُليتم به في الآخرة من الأغلال والسلاسل والجرّ إلى الحميم والحرق بالنار جزاءً ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَفْرَحُونَ﴾ وتَبْطِرون ﴿فِى﴾ وجه ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ وفي زمن الحياة ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وبعين الباطل من الشرك بالله الطّغيان عليه وعلى رُسله ﴿وَبِمَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَمْرَحُونَ﴾ وتتكبّرون عن قَبول دين الحقّ، أو تتوسّعون في البطر والأشر بحيث تَغْفُلون عن إتيان هذا اليوم والابتلاء بشدائده وأهواله[٣]، فالحال ﴿ٱدْخُلُوا﴾ أيّها الكَفَرة جزاءً على كفركم وفرحكم بشرككم وبَطَركم في الباطل ﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ السبعة، وهي مفتوحةٌ ومقسومةٌ لكم من أيّ بابٍ شئتم حال كونكم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ومقيمين بها أبداً ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن قَبول الحقّ وإطاعة الله ورسله، وساء منزلهم ومأواهم جهنّم.

ثمّ لمّا كان جدال المشركين في آيات التوحيد والرسالة سبباً لتأثر قلب الرسول سلّاه سبحانه بقوله: ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد، على أذى المشركين وإيحاشهم إيّاك بتلك المجادلات، فانّا نَخْذُلهم ونَنْصُرك عليهم، واعلم ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ﴾ بنصرك وتعذيبهم ﴿حَقٌّ﴾ وصدقٌ لا خُلف فيه أبداً ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ في هذه الدنيا ﴿بَعْضَ﴾ العذاب ﴿ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ كالقتل والأسر فذاك ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن تراه ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ بعد الخروج من الدنيا، فنُعذّبهم بأعمالهم أشدّ العذاب، وننتقِم منهم أشدّ الانتقام.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِن قَبْلِكَ مِنْهُم مَن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَن لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ ٱللهِ قُضِىَ

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٢١٢.
٢. تفسير الرازي ٢٧: ٨٨.
٣. في النسخة: بشدائدها واهوالها.

بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ[٧٨]

ثمّ لمّا كان من جِدال المجادلين نسبة معجزات النبيّ ﷺ إلى السحر، اقتراحهم عليه معجزات زائدة على ما أتى به، مع كونها فوق الكفاية، ردّهم سبحانه بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً﴾ كثيرةً إلى أقوامٍ كثيرةٍ ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ وفي الأزمنة السابقة على بعثك بعضاً ﴿مِنْهُم مَن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ أحوالهم ومعجزاتهم، وكيفية دعوتهم، وصبرهم على أذى قومهم، كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام وأضرابهم، ﴿وَ﴾ بعضاً ﴿مِنْهُم مَن لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ ولم نسمّيهم لك، ولم نُخبرك بأحوالهم.

رُوي عن أبي ذرّ أنّه قال: قلت لرسول الله ﷺ: كم عدد الأنبياء؟ قال ﷺ: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً». فقال: قلت: فكم الرسل منهم؟ فقال: ثلاثمائة وثلاثة عشر جمّاً غفيراً»[1].

وفي (الخصال) عنهم عليهم السلام: «أنّ عددهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً»[2].

وروى بعض العامة عن علي عليه السلام: «بعث الله نبياً أسود لم يقصّ علينا قصّته»[3].

قيل: إنّ الذين قصّ الله قصّتهم على نبيه في القرآن ثمانية عشر[4]، وعدّ منهم ذا القرنين ولقمان، ولم تثبت نبوتهما، بل وردت روايات دالة على عدم نبوتهما.

﴿وَمَا كَانَ﴾ يصح ﴿لِرَسُولٍ﴾ من الرسل، وإن كان في غاية عظمة الشأن وعلوّ المنزلة ﴿أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ ومعجزةٍ لقومه ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ لأنّها من عطاياه، قسّمها بينهم على ما أقتضته الحكمة، ولذا لم يأتوا بكلّ ما اقترح عليهم قومهم عِناداً ولَجاجاً وتعنّتاً، وما كان ذلك قادحاً في نبوتهم، كذلك ليس عدم إيتانك بما أقتُرح عليك قادحاً في رسالتك، مع أنّك أتيت بما أقمت به الحُجّة وأزيد، فليس بعد اتمام الحُجّة إلّا العذاب ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ بالعذاب في الدنيا، أو الآخرة ﴿قُضِيَ﴾ وحكم بين الرسل ومكذّبيهم بالرسالة ﴿بِالْحَقِّ﴾ والعدل، فعند ذلك رَبِح المُحقّون ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ وفي تلك[5] المحكمة ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ منهم المجادلون في الآيات والمقترحون للمعجزات.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ[٧٩و ٨٠]

ثمّ بعد التوعيد على الشرك وتكذيب الرسل، عاد سبحانه إلى بيان آيات التوحيد بقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٢١٥.
٢. الخصال: ٥٢٤، تفسير الصافي ٤: ٣٤٩.
٣. تفسير روح البيان ٨: ٢١٥، مجمع البيان ٨: ٨٣٠، تفسير الصافي ٤: ٣٤٩.
٤. تفسير روح البيان ٨: ٢١٥.
٥. في النسخة: ذلك.

تعالى هو ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ وخلق ﴿لَكُمُ ٱلْأَنْعَامَ﴾ الثمانية ﴿لِتَرْكَبُوا﴾ بعضاً ﴿مِنْهَا﴾ كالإبل في الأسفار ﴿وَ﴾ بعضاً ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ كالبقر والغنم والمعز، وإنّما غير النَّظم في الجملة الثانية لرعاية الفواصل، وللإشعار بأصالة الركوب. وقيل: إنّ المراد بالأنعام الإبل خاصّة[١] لكثرة استعمالها فيه ﴿وَلَكُمْ﴾ أيّها الناس ﴿فِيهَا مَنَافِعُ﴾ كثيرة غير الركوب والأكل كالألبان والأوبار والأشعار والجُلود ﴿وَلِتَبْلُغُوا﴾ بتوسّط الأنعام وحمل أثقالكم ﴿عَلَيْهَا﴾ ونقلها من بلدٍ إلى بلدٍ ﴿حَاجَةً﴾ كائنةً ﴿فِى صُدُورِكُمْ﴾ وقلوبكم من المعاملة والاسترباح ﴿وَعَلَيْهَا﴾ في البراري ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ في البحار ﴿تُحْمَلُونَ﴾.

قيل: إنّ المراد بالحمل على الابل حمل النسوان والولدان، ولذا فصل بينه وبين الركوب، وذكر الفُلك للمناسبة بينه وبين الإبل حتى قالوا: الابل سفينة البرّ، وإنّما لم يقل: في الفُلك[٢]، لصحّة استعمال (في) و(على) في المقام، وكون (على) هنا للمزاوجة، وإنّما أدخل على الركوب والبلوغ حرف التعليل، لأنّهما قد يكونان لأغراض دينية كالجهاد والحجّ بخلاف الأكل وسائر المنافع، فانّها من المباحات، فلا يُعَدّان من الأغراض الإلهية.

وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ ٱللهِ تُنكِرُونَ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِى ٱلْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[٨١و ٨٢]

ثمّ إنّه تعالى بعد ذِكر الدلائل الكثيرة على توحيده وقدرته وحكمته، نبّه على ظهور تلك الآيات والدلائل بقوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ﴾ الله أيّها الناس بلطفه ﴿آيَاتِهِ﴾ ودلائل توحيده ﴿فَأَيَّ آيَاتِ ٱللهِ تُنكِرُونَ﴾ فانّ كلاً منها في[٣] غاية الظهور بحيث لا يجترئ على إنكارها من له عقل، وإنّما أضاف الآيات إلى اسمه الجليل، لتربية المهابة، وتهويلاً لانكارها.

ثمّ لمّا كان سبب إنكار الآيات ليس إلّا الكِبر وحُبّ الدنيا والرئاسة، وبّخهم على ترك التفكّر في وخامة عاقبة المتكبّرين بقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ قيل: إنّ التقدير اقعدوا في مكانهم، فلم يسيروا ولم يسافروا[٤] ﴿فِى﴾ أقطار ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ للتجارة وغيرها ﴿فَيَنظُرُوا﴾ نظر الاعتبار ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ المتكبّرين والمتمرّدين ﴿ٱلَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ فانّها لم تُكن إلّا الهلاك والبَوار مع

---

١. تفسير الرازي ٢٧: ٨٩، تفسير أبي السعود ٧: ٢٨٦. ٢. تفسير روح البيان ٨: ٢١٨.
٣. في النسخة: من. ٤. تفسير روح البيان ٨: ٢١٩.

أنهم ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنهُمْ﴾ عدداً ﴿وَأَشَدَّ﴾ منهم ﴿قُوَّةً﴾ في الأبدان ﴿وَ﴾ أزيد منهم ﴿آثَاراً﴾ باقية ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بعدهم من المدن والقصور والحصون والبساتين والقنوات والأنهار ﴿فَمَا أَغْنَىٰ﴾ وما دفع ﴿عَنْهُم﴾ العذاب ﴿مَا كَانُوا﴾ في مُدّة أعمارهم ﴿يَكْسِبُونَ﴾ ويَحَصّلون من الأموال والأولاد والعدد، فلمّا لم يستفيدوا من تلك المكنة العظيمة والدولة القاهرة إلّا الخيبة والخَسار والبَوار، فكيف يكون حال الفقراء والضَّعفة؟

وقيل: إنّ كلمة (مَا) في قوله: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ استفهامية، وفي قوله: ﴿مَا كَانُوا﴾ مصدرية، والمعنى أي شيء أغنى عنهم كسبهم[1].

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ * فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَافِرُونَ[٨٣ـ٨٥]

ثمّ بيّن سبحانه غُرور المتكبّرين بقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ ودعوهم إلى دين الحقّ مستدلّين على صدقهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والمعجزات الباهرات ﴿فَرِحُوا﴾ واغترّوا اُولئك المتكبّرون ﴿بِمَا عِندَهُم﴾ ومالهم ﴿مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بعقائدهم الفاسدة وشُبهاتهم الباطلة، أو بأمور الدنيا وتدبيرها، واستحقروا عِلم الرسل واستهزءوا بهم وبما أخبروا به من عذاب الدنيا والآخرة ﴿وَحَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِهِم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾ من الأخبار بالعذاب الدنيوي والأخروي.

وقيل: إنّ المراد فرح الرُّسل بعلمهم، والمعنى أنّ الرُّسل لمّا رأوا من قومهم غاية الجهل والاغماض عن الحقّ، فرِحوا بما أتوا من العلم، وشكروا الله عليه، وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم[2].

وقيل: إنّ المراد فَرِح الكافرين بما عند الرسل من العلم، ومعنى فَرَحهم ضِحْكهم واستهزائهم به[3].

﴿فَلَمَّا رَأَوْا﴾ اُولئك الأمم المهلكة ﴿بَأْسَنَا﴾ وعذابنا الشديد النازل عليهم بأمرنا ﴿قَالُوا﴾ اضطراراً ﴿آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾ وصدّقنا بتفرّده في الألوهية واستحقاق العبادة ﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا﴾ بسبب الايمان ﴿بِهِ﴾ وعبادته ﴿مُشْرِكِينَ﴾ بالله من الأصنام وبترّأنا منهم ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ﴾ ولم يمكن أن يفيدهم

---

١. تفسير الرازي ٢٧: ٩١، تفسير أبي السعود ٧: ٢٨٧، تفسير روح البيان ٨: ٢٢٠.

٢. تفسير الرازي ٢٧: ٩١، تفسير أبي السعود ٧: ٢٨٧. ٣. تفسير الرازي ٢٧: ٩١، تفسير أبي السعود ٧: ٢٨٧.

﴿إِيمَانُهُمْ﴾ الاضطراري ﴿لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ وعذابنا في الدنيا، أو عند الموت ورؤية أهوال الآخرة، لعدم قدرتهم على الكفر، كما لم ينفع إيمان فرعون بعد الغرق، وهذه المعاملة مع الكفّار المكذّبين للآيات والرسل من عدم قبول إيمانهم عند معاينة العذاب، تكون ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ وعادته الجارية ﴿ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿فِي عِبَادِهِۦ﴾ والطُّغاة المكذّبين من الأمم السالفة ﴿وَخَسِرَ﴾ وغبن أو هلك ﴿هُنَالِكَ﴾ وفي ذلك الوقت ﴿ٱلْكَافِرُونَ﴾ بوحدانية الله كما عن ابن عباس رضي الله عنه[1].

وعن الرضا عليه السلام أنه سُئل: لأيّ علّة غرّق الله فرعون وقد آمن واقرّ بوحيده؟ قال عليه السلام: «لأنّه آمن عند رؤية البأس، والايمان عند رؤية البأس غير مقبولٍ، وذلك حُكم الله تعالى ذكره في السلف [والخلف]، قال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ الآيتان[2].

وفي (الكافي): قُدّم إلى المتوكّل رجلٌ نصراني فجر بامرأةٍ مسلمةٍ، فأراد أن يقيم عليه الحدّ. فأسلم، فقيل: قد هدم إيمانه شركه وفعله وقيل: يُضرَب ثلاثة حدود. وقيل غير ذلك، فأرسل المتوكّل إلى الامام الهادي عليه السلام، وسأله عن ذلك، فكتب عليه السلام: «يُضرَب حتى يموت» فأنكروا ذلك، وقالوا: هذا شيءٌ لم ينطِق به كتاب، ولم تجيء به سُنّة، فسألوه ثانياً البيان، فكتب عليه السلام هاتين الآيتين بعد البسملة، فأمر المتوكّل فضُرِب حتى مات[3].

عن الباقر عليه السلام: «من قرأ حم المؤمن في كلّ ليلةٍ، غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، وألزمه كلمة التقوى، وجعل الآخرة له خيراً من الدنيا»[4].

وعن الصادق عليه السلام، قال: «الحواميم رياحين القرآن»[5].

الحمد لله على التوفيق لاتمام تفسير السورة المباركة والمسمّاة بالمؤمن، ونشكُره على نِعمه وآلائه.

---

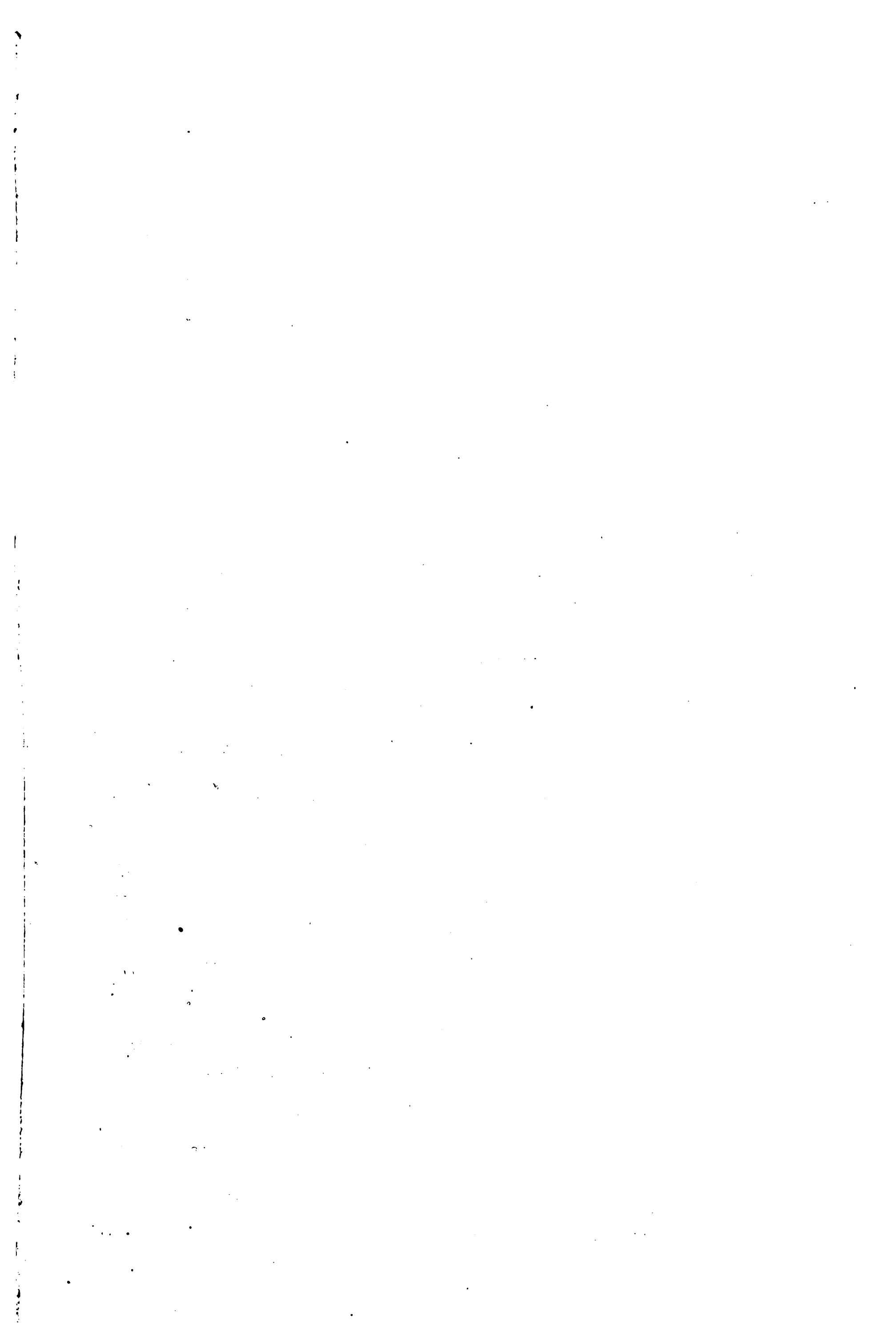
١. تفسير روح البيان ٨: ٢٢٢.

٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٧/٧٧، تفسير الصافي ٤: ٣٥٠.

٣. الكافي ٧: ٢/٢٣٨، تفسير الصافي ٤: ٣٥٠.

٤. ثواب الاعمال: ١٣٠، تفسير الصافي ٤: ٣٥١.

٥. ثواب الاعمال: ١١٤، تفسير الصافي ٤: ٤٥١.



في تفسير سورة فُصّلت

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حم * تَنزِيلٌ مِنَ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ[١ ـ ٥]

ثمّ لما خُتِمت سورة المؤمن البدوءة بتعظيم القرآن المتضمّنة لإثبات التوحيد وذمّ المجادلين في الآيات، وذكر أدلّة التوحيد وتهديد منكريه، نظم بعدها سورة حم السجدة المبدوءة أيضاً بتعظيم القرآن، المشتملة على ذمّ المعرضين عن آياته، والمشركين المعارضين للرسول، وذكر أدلّة التوحيد وتهديد المعرضين عنه وغيرها من المطالب العالية المناسبة لما في السورة المباركة السابقة، فابتدأ سبحانه على دأبه بذكر الأسماء المباركات تيمّناً وتبرّكاً وتعليماً للعباد بقوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثمّ افتتحها بذكر الحروف المقطّعة بقوله: ﴿حم﴾ جلباً للقلوب إلى المطالب التي بعدها، وقد مرّ أنّها رمزٌ عن الأسماء الحسنى. وقيل: إنّها اسم للسورة[١]، أو القرآن[٢].

ثمّ عظّم سبحانه القرآن حيث وصفه بقوله: ﴿تَنزِيلٌ﴾ ومنزلٌ بتوسّط الروح الأمين ﴿مِنَ﴾ الله ﴿ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ على رسوله الذي هو رحمة للعالمين، رحمة منه على الخلق أجمعين إلى يوم الدين، وهو ﴿كِتَابٌ﴾ عظيمالشأن، جامع لعلوم الأولين والآخرين، ولكلّ ما يحتاج إليه في المعاش والمعاد والدنيا والدين ﴿فُصِّلَتْ﴾ وفُرّقت ﴿آيَاتُهُ﴾ وجُعِلت تفاصيل وتبياناً لصفات الله الجمالية والجلالية، من كمال علمه وقدرته وحكمته ورحمته وقهاريته، ولبدو خلق السماوات والأرض والكواكب والانسان والجانّ وحكمته، وحكمة خلق الليل والنهار وتعاقبهما، وللأحكام والسّنن والآداب، وأدلة المعاد والوعد والوعيد والثواب والعقاب، ودرجات أهل الجنّة ودركات أهل النار،

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٨: ٢٢٥.

والمواعظ والعِبر وغير ذلك من المطالب العالية المختلفة.

قيل: إنّه ليس بين الناس كتابٌ اجتمع فيه العلوم المختلفة والمطالب المتباينة مثل القرآن[١].

ثمّ بالغ سبحانه في مدح الكتاب بقوله: ﴿قُرْآناً﴾ قيل: إنّ المعنى اُريد من هذا الكتاب المفصّل، أو حال كونه قرآناً[٢] ﴿عَرَبِيّاً﴾ كائناً ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ويَفْهَمون اللغة العربية، كما قال تعالى: ﴿مَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾[٣] ليكون ذلك الكتاب ﴿بَشِيراً﴾ ومبشّراً لمُصدّقيه والمطيعين لأحكامه بالجنّة ﴿وَنَذِيراً﴾ ومُحذّراً لمكذّبيه ومخالفيه بالنار.

ثمّ حكى سبحانه شقاوة القوم الذين نزل القرآن بلغتهم بقوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ﴾ عنه ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ فلم يتدبّروا فيه مع كونه بلغتهم ﴿فَهُمْ﴾ كأنهم[٤] صمٌّ ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ آياته، أو المراد فهم لا يسمعونه سَماع القبول، وهم مع ذلك عارضوه النبيّ ﷺ ﴿وَقَالُوا﴾ يا محمّد، أنت تدعونا إلى الايمان بكتابك وتوحيد ربّك، والحال أنّه ﴿قُلُوبُنَا﴾ كائنة ﴿فِي أَكِنَّةٍ﴾ وأغطية متكاثفة تمنعها ﴿مِن﴾ فهم ﴿مَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من التوحيد ﴿وَ﴾ كائنٌ ﴿فِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ وثقل، أو صَم لا يمكننا سَماع صوتك واستماع آيات كتابك ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ﴾ مع ذلك ﴿حِجَابٌ﴾ وساترٌ ومانعٌ من رؤيتك.

قيل: إنّ كلمة (من) دالة على قوّة الحِجاب واستيعابه للمسافة الكائنة بينهم وبينه[٥]، ولما كان القلب والسمع والبصر آلة للإدراك، واقتصروا على ذكرها، وفيه بيان لغاية إعراضهم ونفرتهم عنه.

ثمّ قالوا: يا محمّد، إذن ﴿فَاعْمَلْ﴾ واجتهد في ترويج دينك وتشييد رسالتك و ﴿إِنَّنَا﴾ أيضاً ﴿عَامِلُونَ﴾ وساعون في إبطال دينك والإخلال في أمرك. وقيل: يعني اعمل أنت على دينك، وإنّا أيضاً عاملون على ديننا[٦].

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ[٦ و ٧]

ثمّ أمر سبحانه بجوابهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهم ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ لا قدرة لي على إجباركم وقهركم على الايمان وقبول التوحيد، وإنّما المائز بيني وبينكم أنّه ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ من قبل ربّي ولا يُوحى إليكم، ووظيفتي تبليغ ما يُوحى إليّ، وهو ﴿أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ﴾ وهو ربّ العالمين،

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٢٢٦.
٢. تفسير الرازي ٢٧: ٩٤، تفسير روح البيان ٨: ٢٢٦.
٣. إبراهيم: ٤/١٤.
٤. في النسخة: كأنّه.
٥. تفسير الرازي ٢٧: ٩٧.
٦. مجمع البيان ٩: ٥، تفسير روح البيان ٨: ٢٢٨.

لا الأصنام المنحوتة والمصنوعة، وأقول: إذا كان هو ربّكم ﴿فَاسْتَقِيمُوا﴾ وتوجّهوا ﴿إِلَيْهِ﴾ بقلوبكم وجوارحكم، وأخلصوا له دينكم ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ ممّا أنتم عليه من الشرك، وتوبوا إليه من طُغيانكم عليه.

ثمّ هدّدهم على الشرك بعد دعوتهم إلى التوحيد بقوله: ﴿وَوَيْلٌ﴾ وعذابٌ شديدٌ ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ بربّهم، وهم ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ لله، ويصرِفون الأزيد منها من أموالهم للأصنام ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ﴾ ودار جزاء الأعمال ﴿هُمْ﴾ بالخصوص ﴿كَافِرُونَ﴾ جاحدون لا يرجون لأعمالهم ثواباً، ولا يخافون عقاباً، ولذا ينهمكون في الشهوات وطلب الدنيا ولذّاتها.

قيل: إنّ الله قرن ترك الزكاة بالكفر بالآخرة، وصف المشركين به لزيادة التحذير من منعها[1].

وعن ابن عباس: أنّ تفسير (لا يؤتون الزكاة) لا يقولون لا إله إلّا الله، فانّها زكاة الأنفس[2]. والمعنى لا يُطهّرون أنفسهم من الشرك بالتوحيد، فانّما المشركون نجسٌ.

وقيل: إنّ الزكاة إن كانت في القرآن مقرونةً بالصلاة، كقوله: ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[3] وقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾[4] فالمراد بها زكاة المال؛ وإن كانت منفردةً كقوله: ﴿خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً﴾[5] وقوله: ﴿وَحَنَاناً مِن لَّدُنَّا وَزَكَاةً﴾[6] وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾[7] فالمراد بها طهارة النفس[8].

في الردّ على بعض المفسّرين

أقول: في الثاني نظرٌ، بل منعٌ واضحٌ لقوله: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾[9] ثمّ لا يخفى أنّ الآية بناء على التفسير الأول تدلّ على تكليف الكفّار بالزكاة، وما عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «اترى أنّ الله طلب من المشركين زكاة أموالهم وهم يُشركون به حيث يقول: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾».

قيل: جُعِلت فداك، فسّر لي. فقال: «ويل للمشركين الذين أشركوا بالامام الأول، وهم بالأئمة الآخرين كافرون، إنّما دعا الله العباد إلى الايمان به، فاذا آمنوا بالله وبرسوله افترض عليهم الفرائض»[10] مطروحٌ أو مؤوّل، مع أنّ فيه حمل الاشراك على الاشراك بالامام، وحمل الآخرة على

---

١. تفسير أبي السعود ٨: ٣، تفسير روح البيان ٨: ٢٢٩.
٢. تفسير أبي السعود ٨: ٣، تفسير روح البيان ٨: ٢٣٠.
٣. البقرة: ٢/٤٣.
٤. المائدة: ٥/٥٥.
٥. الكهف: ١٨/٨١.
٦. مريم: ١٩/١٣.
٧. الأعلى: ٨٧/١٤.
٨. تفسير روح البيان ٨: ٢٣٠.
٩. الروم: ٣٠/٣٩.
١٠. تفسير القمي ٢: ٢٦٢، تفسير الصافي ٤: ٢٥٣.

الأئمة الآخرة، مع كونهما في الآية بقرينة الآيات السابقة واللاحقة كالنصّ في الاشراك بالله والدار الآخرة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * قُلْ ءَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّماءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ[٨ـ١١]

ثمّ إنّه تعالى بعد تهديد المشركين، وعد المؤمنين الموحّدين بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدانية الله ﴿وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿ٱلصَّالِحَاتِ﴾ المرضيات عند الله، الخالصات من شَوْب الشرك الجليّ والخفيّ ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ عليهم، فينكدر بالمِنّة، لأنّه سمّى ما يُعطيهم أجراً، ولا مِنّة في الأجر.

قيل: نزلت في المرضى والزَّمنى، إذا عَجَزوا عن الطاعة، كُتِب لهم الأجر كأحسن ما كانوا يعملون[١].

وقيل: إنّ المراد لهم أجرٌ غير مقطوعٍ، أو غير محسوبٍ عليهم[٢]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٣].

ثمّ لمّا هدد سبحانه المشركين، وبّخهم على إشراكهم مع دلالة الأدلّة القاطعة على توحيده بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، للمشركين توبيخاً لهم ﴿ءَإِنَّكُمْ﴾ أيّها المشركون ﴿لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ﴾ بقدرته وحكمته ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ مع عِظمها وبسطها ﴿فِى﴾ مقدار ﴿يَوْمَيْنِ﴾ من أيّام الدنيا من الزمان تعليماً للعباد التأنّي في الأمور وترك العجلة، وإلاّ فمن المعلوم إمكان إيجادها في آنٍ واحدٍ.

قيل: خلق الله الأرض في يوم الأحدِ، وبسطها في الاثنين[٤]. وقيل: إنّ المراد من اليومين دُفعتين[٥].

والقمي قال: في وقتين؛ ابتداء الخلق وانقضاؤه[٦].

﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ﴾ مع هذه القدرة الكاملة من الجمادات ﴿أَندَاداً﴾ وشركاء في الألوهية والعبادة،

---

١. تفسير الرازي ٢٧: ١٠٠، تفسير البيضاوي ٢: ٣٤٩، تفسير أبي السعود ٨: ٤.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٢٣٠.

٣. الزمر: ٣٩/١٠، وفي النسخة: لهم أجرهم بغير حساب.

٤. تفسير أبي السعود ٨: ٦، تفسير روح البيان ٨: ٢٣١.

٥. تفسير أبي السعود ٨: ٤، تفسير روح البيان ٨: ٢٣١.

٦. تفسير القمي ٢: ٢٦٢، تفسير الصافي ٤: ٣٥٣.

والحال أنّه يمتنع أن يكون له نِدّاً وضِدّاً ﴿ذٰلِكَ﴾ الاله القادر الحكيم هو ﴿رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ وخالق الموجودات ومربّيها، فكيف يتصوّر أن يكون أخسّ مخلوقاته نِداً له وشريكاً ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ جبالاً ﴿رَوَاسِيَ﴾ وثوابت ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ لتمنعها من المَيلان، ولتكون منافعها ظاهرة.

في بيان بدو خلق السماء والأرض، وما فيهما، وعدد الجبال

عن ابن عباس ﷺ: أوّل ما خلق الله من شيءٍ القلم، وقال له: اكتُب ـإلى أن قال ـثمّ بسط الأرض على ظهر النون، وفاضطرب النون، فمادت الأرض، فأوتدت بالجبال[١].

قيل: إنّ الله تعالى طوّق الأرض بجبلٍ محيطٍ بها، وهو من صخرةٍ خضراء[٢].

وقيل: أوّل جبل نُصِب على وجه الأرض جبل أبو قُبيس[٣]، وإنّ مجموع الجبال التي عُرِفت في الاقاليم السبعة مائة وثمانية وسبعون جبلاً[٤]. وقيل: عددها ستة آلاف وستمائة وثلاثة وسبعون جبلاً سوى التُّلول[٥].

﴿وَبَارَكَ﴾ سبحانه في الأرض وأكثر الخير ﴿فِيْهَا﴾ بخلق أنواع الحيوانات والنباتات التي منها معايش الانسان ﴿وَقَدَّرَ﴾ في الارض، وقسّم لمن يحتاج إلى القوت ﴿فِيْهَا﴾ بقدرته وحكمته ﴿أَقْوَاتَهَا﴾ والأرزاق التي تتولّد منها وتُوجد فيها من البُرّ والشعير وغيرهما.

وقيل: إنّ المراد أقوات نفسها من المطر حيث إنّ الله قدّر لكلّ أرضٍ حظّها من المطر[٦]. وقيل: يعني الأقوات التي اختصّ حدوثها بأرضٍ خاصةٍ حيث إنّ الله جعل كلّ بلدٍ معدِناً لنوعٍ من الأشياء المطلوبة لرغبة الناس في التجارة والضرب في الأرض لكسب الأموال[٧]، كل ذلك ﴿فِي﴾ تتمّة ﴿أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ كاملة من أيام الدنيا، وتلك الأيام استوت ﴿سَوَاءً﴾ بلا زيادةٍ ونُقصان.

القمي: يعني في أربعة أوقات، وهي التي تخرُج فيها أقوات العالم من الناس والبهائم ـإلى أن قال ـ: وهو الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء ـإلى أن قال ـ: وجعل الله هذه الأقوات في أربعة أوقات في الشتاء، والربيع، والصيف، والخريف، وقام به العالم واستوى وبقي، وسمّى الله هذه الأوقات أياماً ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾ يعني المحتاجين؛ لأنّ كلّ محتاجٍ سائلٌ، وفي العالم من خلق الله من لا يسأل ولا يقدِر على السؤال من الحيوان، فهم سائلون وإن لم يسألوا[٨].

وقيل: إنّ المراد أنّ الحَصْر في أربعةٍ للسائلين عن مدّة خلق الأرض وما فيها[٩].

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٢٣٢.
٢. تفسير روح البيان ٨: ٢٣٢.
٣. تفسير روح البيان ٨: ٢٣٣.
٤. تفسير روح البيان ٨: ٢٣٢.
٥. تفسير روح البيان ٨: ٢٣٣.
٦. تفسير الرازي ٢٧: ١٠٢.
٧. تفسير الرازي ٢٧: ١٠٣.
٨. تفسير القمي ٢: ٢٦٢، تفسير الصافي ٤: ٣٥٣.
٩. تفسير أبي السعود ٨: ٥، تفسير روح البيان ٨: ٢٣٤.

عن ابن عباس، قال: سَمِعتُ رسول الله وأنا رديفة يقول: «خلق الله الأرواح قبل الأجسام بأربعة آلاف سنة، وخلق الأرزاق قبل الأرواح بأربعة آلاف سنة سواء لمن سأل ولمن لم يسأل، وأنا من الذين لم يسألوا، ومن سأل جَهِل»[١].

أقول: فيه دلالةٌ على أنّ لام السائلين متعلقةٌ بسواء.

وعن النبي ﷺ ـ في حديث ـ: «الرزق أشدَ طلباً لصاحبه من صاحبه له»[٢].

﴿ثُمَّ﴾ بعد خلق الأرض **﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾** سبحانه، وتوجّه **﴿إِلَى﴾** خلق **﴿ٱلسَّمَاءِ﴾** وقصد نحوها بإرادته ومشيئته **﴿وَهِيَ﴾** في النظر **﴿دُخَانٌ﴾** وأجزاءٌ أرضيةٌ لطيفةٌ متصاعدةٌ في الهواء مع الحرارة، وفي الواقع مادة ظُلمانية. قيل: اُريد به الأجزاء التي لا تتجزأ، ومن ظُلمتها إبهامها[٣]. وقيل: إنّ المراد من الدخان البُخار المرتفع من الماء تشبيهاً له به[٤].

عن ابن عباس في جواب نافع بن الأزرق الحَروري: أنّ أول ما خلق الله العرش على الماء، والماء من جوهرة خضراء أذابها الله، ثمّ ألقى فيها ناراً، فصار الماء يَقذِف بالغِثاء والزَّبَد، فخلق الأرض من الغِثاء، ثمَ استوى إلى الدُّخان الذي صار من الماء، فسمكه سماءً، ثمَ بسط الأرض، فكان خلق الأرض قبل خلق السماء، وبسط الأرض، وأرسىٰ الجبال، وتقدير الأرزاق، وخلق الأشجار والدوابّ والبحار والأنهار بعد خلق السماء[٥].

﴿فَقَالَ﴾ الله **﴿لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾** حين اقتضاء الحكمة إيجادهما: **﴿ٱئْتِيَا﴾** من زاوية العدم إلى عالم الوجود، وكونا على ما ينبغي أن تأتيا وتكونا عليه من الشكل والوصف، من كون الأرض مدحوّة وقراراً ومِهاداً، والسماء مقبية وسقفاً، سواء كان إتيانكما وتكوّنكما **﴿طَوْعاً﴾** ورغبةً إلى طاعة أمري **﴿أَوْ كَرْهاً﴾** وبغير رغبةٍ **﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾** منقادين غير كارهين، وهذا تمثيل لتأثير قدرته ونفوذ إرادته في إيجادهما، وتشبيه له بالسلطان القاهر الذي يقول لأدنى رعيّته: لابُدّ لك من أن تفعل هذا شئت أم لم تشأ: فيقول: سمعاً وطاعةً.

ثمَ لا يخفى أنّ الآية مسوقةٌ لبيان خلق السماء بعد خلق الأرض، ولكن لمّا لم يبن كيفية خلق الأرض مع كمال عظمتها، قرنه ببيان كيفية خلق السماء التي هي أعظم منها، وفي بعض الروايات دلالةٌ على أنّ الخِطاب إلى السماء والأرض بعد خلقهما.

في حديث: «أنّ موسى قال: يا ربّ لو أنّ السماوات والأرض حيث قلت لهما: ائتينا طوعاً أو كرهاً

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٢٣٤.
٢ ـ٤. تفسير روح البيان ٨: ٢٣٥.
٥. تفسير روح البيان ٨: ٢٣٥.

عصياك، ماكنت صانعاً بهما؟ قال: كنت آمر دابة من دوابي فتَبْلَعهما»[١].

القمي ﷺ: سُئل الرضا عليه السلام عمّن كلّم[٢] الله لا من الجنّ ولا من الإنس؟ فقال: «السماوات والأرض في قوله: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾»[٣].

أقول: عليه يكون المراد من إتيانهما طاعتهما إياه في الحركات والسكنات وغيرهما.

ثمّ قيل: إنّ أول ما أجاب الله تعالى من الأرض موضع الكعبة، ومن السماء ما بحِذائها، فجعل الله لها حُرمةً على سائر الأرض حتى كانت كعبة الاسلام وقبلةً للأنام[٤].

فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ[١٢]

ثمّ بيّن سبحانه ما أوجده بإرادته النافذة بقوله: ﴿فَقَضَاهُنَّ﴾ وأتمّ خلقهنّ حال كونهن، أو كان قضاهن ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ طِباق عِظام بحيث تكون الأرض بالنسبة إلى السماء الدنيا كنسبة حَصاة صغيرة إلى الفَلاة الواسعة، وكذا السماء الأُولى بالنسبة إلى الثانية، وهكذا إلى السابعة ﴿فِى﴾ مقدار ﴿يَوْمَيْنِ﴾ من أيام الدنيا من الزمان.

قيل: خَلَق سبحانه ما في الأرض في يوم الثلاثاء والأربعاء، والسماوات وما فيهنّ في يوم الخميس إلى آخر ساعة من يوم الجمعة، وفي الساعة الآخرة منها خَلَق آدم، وهي الساعة التي فيها القيامة[٥].

﴿وَأَوْحَىٰ﴾ الله تعالى ﴿فِى كُلِّ سَمَاءٍ﴾ بعد خلقهنّ ﴿أَمْرَهَا﴾ قيل: يعني خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها، وخلق في كلٍّ منها ما فيها من الملائكة وجبال البَرد والبحار[٦].

وقيل: يعني حكم في كلٍّ منها بما أراد، فانّ له تعالى على أهل كلّ سماءٍ تكليفاً خاصّاً بأهلها، منهم قيامٌ لا يَقْعُدون، ومنهم رُكوعٌ لا ينتصبون، ومنهم سُجودٌ لا يرفعون رؤوسهم إلى غير ذلك[٧]، وإضافة الأمر إلى نفس السماء للملابسة[٨].

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا﴾ والقريبة من الأرض بكواكبٍ متلألئةٍ تُشبّه ﴿بِمَصَابِيحَ﴾ مضيئةٍ، بعضها ثوابت، وبعضها سيّارات، ﴿وَ﴾ حفظناها ﴿حِفْظاً﴾ بديعاً من الآفات، وصُعود الشياطين إليها،

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٢٣٦.
٢. في النسخة: تكلم.
٣. تفسير القمي ٢: ٢٦٣، تفسير الصافي ٤: ٢٥٤.
٤. تفسير روح البيان ٨: ٢٣٦.
٥. تفسير الرازي ٢٧: ١٠٧، تفسير أبي السعود ٨: ٦، تفسير روح البيان ٨: ٢٣٩.
٦. تفسير روح البيان ٢٧: ١٠٧.
٧. تفسير الرازي ٢٧: ١٠٧، تفسير روح البيان ٨: ٢٣٨.
٨. تفسير روح البيان ٨: ٢٣٨.

واستراق السمع منها، بالشُّهب المنفصلة من الكواكب.

في فضيلة أهل البيت عليهم السلام

في (الإكمال) عن النبي صلى الله عليه وآله: «النجوم أمانٌ لأهل السماء، فاذا ذهبت النجوم ذهب أهل السماء، وأهل بيتي أمانٌ لأهل الأرض، فاذا ذهب أهل بيتي ذهب أهل الأرض»[١].

﴿ذٰلِكَ﴾ المذكور المفصّل من بدائع الخلق ﴿تَقْدِيرُ﴾ الإله ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ والقدير الذي لا تناهي لقُدرته ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ الذي لا نِهاية لعلمه، فيفعل ما يشاء، ويعلم مصالح الأمور.

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَاءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ[١٣ و ١٤]

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان كمال قدرته، أمر النبي صلى الله عليه وآله بتهديد المشركين بقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عن الايمان بالله وبتوحيده، ولم يتفكّروا فيما خلقه الله إبداعاً من الموجودات العلوية والسُّفلية ﴿فَقُلْ﴾ لهم يا محمّد: إنّي ﴿أَنذَرْتُكُمْ﴾ وخوّفتكم من أن يُنزل الله عليكم ﴿صَاعِقَةً﴾ من السماء وعذاباً شديداً، يكون ﴿مِثْلَ صَاعِقَةِ﴾ قوم ﴿عَادٍ وَ﴾ قوم ﴿ثَمُودَ﴾ والعذاب النازل عليهم، لأنكم إذن كالحطب اليابس الذي لا يليق إلّا للاحراق بالنار، وإنّما خصّ سبحانه القبيلتين بالذكر لأنّ أهل مكّة كانوا كثيراً يَمُرّون في أسفارهم إلى الشام واليمن على ديارهم، ويرون آثار العذاب فيها ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾ الذين أرسلوا إليهم، وحين دعوهم إلى الايمان بالتوحيد والمعاد ﴿مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ واجتهدوا في إرشادهم من جميع الجهات والجوانب.

قيل: هو كناية عن انحاء النصح من الرفق والعُنف والترغيب والترهيب[٢]، ويحتمل كونه كناية عن شدّة إصرارهم على دعوتهم، وتبليغ ما اُرسلوا به، وهو ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ أيها القوم ﴿إِلَّا ٱللهَ﴾ وحده، فاجابهم قومهم وَ ﴿قَالُوا﴾ استخفافاً بهم وتكذيباً لهم ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا﴾ إرسال رسول من قبله إلينا ﴿لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ برسالته حتى لا نشُكّ في صدقهم، ونسارع إلى الايمان بهم، فلمّا لم تكونوا ملائكةً، بل تكونون بشراً مثلنا، لا فضيلة لكم علينا ﴿فَإِنَّا﴾ برسالتكم و ﴿بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ من التوحيد على زعمكم ﴿كَافِرُونَ﴾ وجاحدون.

رُوي أنّ ابا جهل قال يوماً في ملأ من قريش: التبس علينا أمر محمد، فلو التمستم رجلاً عالماً

---

١. كمال الدين: ١٩/٢٠٥، تفسير الصافي ٤: ٣٥٤.
٢. تفسير روح البيان ٨: ٢٤٢.

بالشعر والسِّحر والكِهانة فكلّمه، ثمّ أتانا ببيانٍ عن أمره. فقال عُتبة بن ربيعة: والله لقد سَمِعت السحر والشعر والكِهانة، وعلمت من ذلك علماً، وما يَخفى عليّ. فأتاه فقال: يا محمد، أنت خيرٌ أم هاشم، أنت خيرٌ أم عبدالمطلب، أنت خيرٌ أم عبدالله؟ لِمَ تَشْتُم آلهتنا وتُضلّلنا؟ فان كنت تُريد الرئاسة عقدنا لك اللواء، فكنت رئيسنا، وإن يكن بك الباء زوّجناك عشر نسوة تختارهنّ، أيَ بناتِ شئت من قريش، وإن كان المال مرادك جمعنا لك ما تستغني به، ورسول الله ﷺ ساكتٌ. فلمّا فرغ عُتبة قال ﷺ: ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حم * تَنزِيلٌ مِنَ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[1].

فأمسك عُتبة على فيه، وناشده بالرَّحِم، ورجع إلى أهله، ولم يخرُج إلى قريش، فلمّا احتبس عنهم قالوا: لا نرى عُتبة إلّا قد صبا، فانطلقوا إليه، وقالوا: يا عُتبة، ما حبسك عنّا إلّا أنّك قد صبأت. فغَضِب وأقسم أنّه لا يُكلّم محمداً أبداً، ثمّ قال: والله لقد كلّمته فأجابني بشيءٍ ما هو بشعرٍ ولا سِحر ولا كِهانة. فلمّا بلغ ﴿صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أمسكتُ بفي وناشدته بالرَّحِم، ولقد علمتُ أنّ محمداً إذا قال شيئاً لم يكذِب، فخفت أن ينزل بكم العذاب[2].

فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِى أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ * وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا ٱلْعَمَىٰ عَلَىٰ ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ[١٥ـ١٨]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه كفر عاد وثمود، بيّن طغيانهم بقوله: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا﴾ وتعظّموا في أنفسهم ﴿فِى﴾ وجه ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ التي كانوا فيها ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وبلا استحقاقٍ للكبر والتعظّم، وإنّما رأوا عِظم أجسامهم وشدّة قوّتهم ﴿وَقَالُوا﴾ اغتراراً بها ﴿مَنْ﴾ هو ﴿أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟

ثمّ ردّهم سبحانه ووبّخهم على اغترارهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ لم يعلموا اُولئك المغرورون ﴿أَنَّ ٱللهَ﴾ القادر ﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾ وأعطاهم تلك القوة ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وأكثر منهم قدرة، إذ من الواضح أنّ قوة المخلوق من عطاء الخالق وكمال قوته وقدرته ﴿وَكَانُوا﴾ من غاية عُتوّهم

---

١. فصلت: ٤١/ ١ ـ ١٣.   ٢. تفسير الرازي ٢٧: ١١١، تفسير أبي السعود ٨: ٨، تفسير روح البيان ٨: ٢٤٢.

واستكبارهم ﴿بِآيَاتِنَا﴾ المُنزَلة على الرسل، أو دلائل توحيدنا وقدرتنا ﴿يَجْحَدُونَ﴾ ويُنكِرون عِناداً ولَجاجاً، فلمّا جمعوا بين التكبّر والغُرور وإنكار الآيات، صاروا مستحقين لعذاب الاستئصال ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ غضباً ﴿عَلَيْهِمْ رِيحاً﴾ عقيماً ﴿صَرْصَراً﴾ وبارداً كما عن الباقر عليه السلام[١]، لها صوتٌ شديدٌ هائلٌ في هبُوبها ﴿فِي أَيَّامٍ﴾ وليالٍ ﴿نَحِسَاتٍ﴾ ومشؤومات، ليس فيها خير ـ على ما قيل ـ من صبيحة الأربعاء لثمان بقين من شوال إلى غروب الأربعاء، الذي كان آخر الشهر[٢]. قيل: ما عُذّب قومٌ إلّا في الأربعاء[٣].

قيل: أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين، ودامت عليهم الرياح من غير مطر[٤].

عن جابر بن عبدالله: إذا أراد الله بقومٍ خيراً أرسل عليهم المطر، وحبس عنهم كثرة الرياح، وإذا أراد الله بقومٍ شرّاً حبس عنهم المطر، وسلّط عليهم كثرة الرياح[٥].

وعلى أيّ حالٍ كان إرسال الريح عليهم ﴿لِنُذِيقَهُمْ﴾ الله بها ﴿عَذَابَ﴾ الاستئصال الذي كان سبب ﴿الْخِزْيِ﴾ والذُّلّ لهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قبل عذاب الآخرة ﴿وَ﴾ والله ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ الذي أعدّ لهم في القيامة ﴿أَخْزَىٰ﴾ وأكثر إذلالاً لهم وافتضاحاً حال كونه في مشهد خلق الأولين والآخرين ﴿وَهُمْ﴾ حين ابتلائهم لا يعاونون على دفعه و ﴿لَا يُنْصَرُونَ﴾ من أحدٍ بوجهٍ من الوجوه، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وإنّما عذّبهم الله بالريح لأنّهم اغترّوا بعِظم أجسادهم وشدّة قوّتهم، حتى ظنّوا أن شيئاً لا يقاومهم، فسلّط الله عليهم الريح، لينبهّهم أنّهم لا يُقاومون الريح التي هي أخفّ وألطف من سائر الأشياء، فكيف بأجسامٍ هي أثقل وأقوى منها؟ فصارت تلك الأجسام العظيمة كريشة طيرٍ أو تِبن في الهواء.

روي أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يجثو على رُكبتيه عند هُبوب الرياح، ويقول: «اللهمّ اجعلها رحمةً ولا تجعلها عذاباً، اللهمّ اجعلها لنا رِياحاً ولا تجعلها رِيحاً»[٦].

أقول: الظاهر أنّ (الرياح) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾[٧] وإلى قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾[٨] و﴿يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾[٩] وقوله: ﴿رِيحاً﴾ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً﴾.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ إلى الحقّ وإلى طريق الجنّة والراحة الأبدية، بارسال الرسول ونصب

---

١. تفسير القمي ٢: ٢٦٣، تفسير الصافي ٤: ٣٥٥.
٢. تفسير روح البيان ٨: ٢٤٤.
٣. تفسير البيضاوي ٢: ٣٥١، تفسير أبي السعود ٨: ٩، تفسير روح البيان ٨: ٢٤٤.
٤ و٥. تفسير روح البيان ٨: ٢٤٤.
٦. تفسير روح البيان ٨: ٢٤٥.
٧. الحجر: ٢٢/١٥.
٨. الفرقان: ٤٨/٢٥.
٩. الروم: ٤٦/٣٠.

الدلائل عليه ﴿فَاسْتَحَبُّوا ٱلْعَمَىٰ﴾ والضلال وعدم البصيرة، وآثروه ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ والبصيرة، واختاروا الكفر ورجّحوه على الايمان.

عن الصادق عليه السلام: «عرّفناهم فاستحبوا العمى على الهدى وهم يعرفون»[1].

وعنه عليه السلام: «عرّفناهم وجوب الطاعة، وتحريم المعاصي، وهم يعرِفون»[2].

﴿فَأَخَذَتْهُمْ﴾ عقوبتنا على كفرهم وطُغيانهم ﴿صَاعِقَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ والداهية التي هي في إفادتها لهوانهم بلغت إلى مَرتبةٍ يصِحّ أن يقال هي عين ﴿ٱلْهُونِ﴾ والذُّل، وذلك الأخذ معلّل ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ويعملون من ترجيح الضلالة على الهدى، واختيار الكفر والعِصيان على الايمان والطاعة ﴿وَنَجَّيْنَا﴾ من ذلك العذاب ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وبرسوله صالح ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الشِّرك والعِصيان.

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ ٱللهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا ٱللهُ ٱلَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[١٩ و ٢١]

ثمّ إنّه تعالى بعد حكاية عذابهم الدنيوي، أخبر عن عذابهم الأُخروي بقوله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ﴾ والتقدير واذكُر يا محمد لقومك يوم يُحشَر ويُجْمَع الأقوام المذكورون الذين هم ﴿أَعْدَاءُ ٱللهِ﴾ ويُسَاقُون ﴿إِلَىٰ﴾ شفير ﴿ٱلنَّارِ﴾ وباب من أبواب جهنّم ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ ويُحْبَسون في الطريق ليتلاحقوا.

عن الباقر عليه السلام: «يُحْبَس أوّلهم على آخرهم ليتلاحقوا»[3] فهم كذلك ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا﴾ حضروا النار، و ﴿جَاءُوهَا﴾ أنكروا صدور الأعمال القبيحة منهم، واستحقاقهم النار، فعند ذلك ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ﴾ على رؤوس الأشهاد ﴿سَمْعُهُمْ﴾ وأذنهم بما سَمِعت من الأقوال والأصوات المحرّمة ﴿وَأَبْصَارُهُمْ﴾ بما بصرت من المحرمات ﴿وَجُلُودُهُم﴾ وقشور أبدانهم بما لامست من المحرّمات و﴿بِمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَعْمَلُونَ﴾ من الجرائم والشرور.

قيل: إنّ المراد بالجلود سائر الجوارح والأعضاء[4]، فتُخبِر كلّ جارحةٍ بما صدر من الأعمال السيئة

---

١. التوحيد: ٤/٤١١، تفسير الصافي ٤: ٣٥٥.
٢. اعتقادات الصدوق: ،تفسير الصافي ٤: ٣٥٥.
٣. تفسير الصافي ٤: ٣٥٦، مجمع البيان ٩: ١٢، وتفسير أبي السعود ٨: ٩، لم ينسباه إلى أحد.
٤. تفسير روح البيان ٨: ٢٤٧.

من صاحبها رُوي أنّ النبي ﷺ ضَحِك يوماً حتى بدت نواجذه، ثمّ قال ﷺ: «ألا تسألون ممّ ضحكتُ؟» قالوا: مِمَ ضحكت يا رسول الله؟ قال ﷺ: «عَجِبتُ من مجادلة العبد ربّه يوم القيامة، قال: يقول: يا رب، أليس قد وعدتني أن لا تَظلِمني؟ قال: فانّ لك ذلك. قال: فإنِي لا أقبل شاهداً إلّا من نفسي. قال الله تعالى: أو ليس كفى بي شهيداً، أو بالملائكة الكِرام الكاتبين؟ فيقول: أي ربّ، أجرني من الظُلم، فلن أقبل شاهداً إلّا من نفسي. فيُختَم على فيه، وتتكلّم الأركان بما [كان] يعمل، قال: فيقول: بُعداً لَكنّ وسُحقاً عنكنّ، كنتُ أجادل»[١]. وقد مرّ ما يقرُب منه في سورة يس.

عن القمي: نزلت في قومٍ تُعرَض عليهم أعمالهم فيُنكِرونها، ويقولون: ما عَملنا شيئاً منها فأشهد عليهم الملائكة الذين كتبوا عليهم أعمالهم، قال: قال الصادق عليه السلام: «فيقولون لله: يا ربّ، هؤلاء ملائكتك يشهدون لك. ثمّ يَحْلِفون الله مافعلوا من ذلك شيئاً - إلى أن قال - فعند ذلك يختِم الله على ألسنتهم، ويُنطِق جوارحهم، فيشهد السمع بما سَمِع ممّا حرّم الله، ويشهد البصر بما نظر به إلى ما حرّم الله عز وجل، وتشهد اليدان بما أخذتا، وتشهد الرجلان بما سعتا فيما حرّم الله عزّ وجل، ويشهد الفَرج بما ارتكب ممّا حرّم الله» الخبر[٢].

﴿وَقَالُوا﴾ توبيخاً ﴿لِجُلُودِهِمْ﴾ وأعضائهم، أو خصوص قُشورهم: أيّها الجلود ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ مع أنّا كنّا نُدافع عنكم؟ قيل: إنّ تخصيص الجُلود بالتوبيخ، لكونها بمرأى منه، أو أبعد من الشهادة، لعدم كون شأن الإدراك اللازم في الشهادة، وهو الادراك بالرؤية والسمع[٣].

أقول: فيه ما فيه.

وعن ابن عباس: المراد بشهادة الجلود شهادة الفروج، لأنّها لا تخلو من الجلود، والله حيِي يُكنّي[٤].

وعن الصدوق، عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «يعني بالجلود الفروج»[٥].

وعن الصادق عليه السلام «يعني بالجلود الفُروج والأفخاذ»[٦].

وإنّما خصّ الأعضاء الثلاثة بالشهادة بناءً على إرادة القُشور أو الفروج من الجلود، لكون المعاصي الصادرة بها أكبر وأعظم من المعاصي الصادرة بالشمّ والذوق، بل ما يُصدر بالذوق داخلٌ في معاصي الجُلود.

﴿قَالُوا﴾ لأصحابهم ببيانٍ لائقٍ بهم، كما أنّ لكلّ شيءٍ نطقاً وبياناً مناسباً لشأنه: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِى

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٢٤٨.
٢. تفسير القمي ٢: ٢٦٤، تفسير الصافي ٤: ٣٥٦.
٣. تفسير روح البيان ٨: ٢٤٨.
٤. تفسير الرازي ٢٧: ١١٦، تفسير روح البيان ٨: ٢٤٨.
٥. من لا يحضره الفقيه ٢: ١٦٢٧/٣٨١، تفسير الصافي ٤: ٣٥٦.
٦. الكافي ٢: ١/٣٠، تفسير الصافي ٤: ٣٥٦.

﴿أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ بتسبيحه وغيره، فمع قدرتنا على النُّطق، لم يكن لنا أن نكتُم الشهادة عند الله بما عَمِلتم بواسطتنا من القبائح ﴿وَهُوَ﴾ القادر الذي ﴿خَلَقَكُمْ﴾ وأوجدكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ في الدنيا ﴿وَإِلَيْهِ﴾ بعد خروجكم منها ﴿تُرْجَعُونَ﴾ فكيف يُسْتَبعد منه إنطاق جوارحكم وأعضائكم.

وقيل: إنّه ابتداء كلام الله لا كلام الجُلود[1].

وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلٰكِن ظَنَنْتُمْ أَنَّ ٱللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَذٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنْتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ * فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِنَ ٱلْمُعْتَبِينَ * وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ [٢٢ـ٢٥]

ثمّ قررَ سبحانه كلام الجلود بتوبيخ أعدائه وتقريعهم في ذلك اليوم بقوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَسْتَتِرُونَ﴾ أعمالكم مخافة ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ﴾ في هذا اليوم ﴿سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ على قبائح أعمالكم عند الله، لعدم اعتقادكم بالبعث وجزاء الأعمال، وعدم تصوركم إمكان شهادتها عليكم ﴿وَلٰكِن ظَنَنْتُمْ﴾ وتوهّمتم حين استتاركم ﴿أَنَّ ٱللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من القبائح خُفيةً وسراً، فلا يُؤاخذكم بها في الآخرة على تقدير وقوعها وفرض إمكانها، ولذلك أجترأتم على ما فعلتم خُفية.

عن ابن مسعود، قال: كنتُ مستتراً باستار الكعبة، فدخل ثلاثة نفرٍ: ثقفيان وقرشي، أو قرشيان وثقفي، كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم. فقال أحدهم: أترون أنّ الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إن جهرنا، ولا يسمع إن أخفينا. فذكر ذلك للنبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ الآية[2].

﴿وَذٰلِكُمْ﴾ الظنّ يا أعداء الله ﴿ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنْتُم بِرَبِّكُمْ﴾ المحيط بكم وبأعمالكم الخفية والجلية ﴿أَرْدَاكُمْ﴾ وأهلككم ﴿فَأَصْبَحْتُم﴾ وصِرتم بسببه ﴿مِنَ﴾ جملة ﴿ٱلْخَاسِرِينَ﴾ والمتضررين بأعظم الضرر في الآخرة، حيث ضيّعوا أعمارهم وعقولهم وجوارحهم التي سبباً

١. تفسير روح البيان ٨: ٢٤٨.
٢. تفسير الرازي ٢٧: ١١٧، تفسير أبي السعود ٨: ١٠، تفسير روح البيان ٨: ٢٤٩.

لتحصيل سعادة الدارين، وحصّلوا بها شقاوة النشأتين ﴿فَإِن يَصْبِرُوا﴾ على ألم النار، ولم يَجزَعوا، ولم يستغيثوا إلى أحدٍ برجاء الفرج ﴿فَالنَّارُ﴾ الموقدة ﴿مَثْوىً﴾ ومأوى ﴿لَهُم﴾ أبداً ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا﴾ ويطلبوا رضا ربّهم ويسألوا منه النجاة ﴿فَمَا هُم مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ والمُجابين إلى مسؤولهم، فيكون صبرهم وجَزَعهم سواء، لا يفيد شيء منهما خلاصهم من النار ونجاتهم من العذاب.

ثمّ إنّه تعالى بيّن سبب ابتلائهم بالكفر بقوله: ﴿وَقَيَّضْنَا﴾ وقدّرنا ﴿لَهُم﴾ في الدنيا ﴿قُرَنَاءَ﴾ وأصدقاء من شياطين الإنس والجنّ بأن خلّينا بينهم وبين هؤلاء المعاندين، وسلبنا عنهم التوفيق ﴿فَزَيَّنُوا﴾ هؤلاء الشياطين القُرناء ﴿لَهُم﴾ وحسّنوا في نظرهم ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من اُمور الدنيا ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من اُمور الآخرة، بأن أروهم أن لا بعث ولا حساب.

وقيل: لمّا كان كلّ أحدٍ مقبلاً إلى الآخرة، كان ما بين أيديهم اُمور الآخرة، وما خلفهم نسيان الذنوب[1].

﴿وَحَقَّ﴾ وثبت ﴿عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ والوعد بالعذاب ﴿فِي أُمَمٍ﴾ وقرون ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت من الدنيا ﴿مِن قَبْلِهِم مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ على الكفر والطُّغيان.

ثمّ لمّا ذكر سبحانه أن الظانّين بالله ظنّ السوء من جملة الخاسرين، وفي زُمرة الامم الماضية المُهلَكة، قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ الذين اُولئك الظانّون من جُملتهم وفي زُمرتهم.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ * فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ[٢٦ - ٢٩]

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان سوء عاقبة أعدائه، وشدّة عذابهم في الآخرة، بيّن شدّة عداوة قريش لله ولرسوله، وسعيهم في صرف الناس عن استماع القرآن والايمان به بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من رُؤساء المشركين لأتباعهم وضُعفائهم، أو بعضهم لبعضٍ: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهٰذَا الْقُرْآنِ﴾ إذا قرأ به محمد أو أحد من المؤمنين به ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ واشتغلوا حين قراءته بالأباطيل كقَصص رُستم وإسفنديار، والتصفيق والصَّفير والرَّقص، على ما قيل[2] ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بهذه الأفعال والأقوال ﴿تَغْلِبُونَ﴾ على قراءته،

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٢٥١.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٢٥٢.

فلا يتمكّن القارئ من القراءة، ولا المستمع من الاستماع، لتشتّت حواسّهم والتشويش والتلبيس عليهم.

ثمّ هدّدهم سبحانه بقوله: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ﴾ هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وسَعوا في تلبيس الحقّ بالباطل، ولغَوا في القرآن ﴿عَذَاباً شَدِيداً﴾ لا يُقادَر قدره، ولا يُمكِن في هذا العالم وصفه ﴿وَ﴾ والله ﴿لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ﴾ الجزاء ﴿ٱلَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

عن ابن عباس: عذاباً شديداً يوم بدر، واسوأ الذي كانوا يعملون في الآخرة[١].

﴿ذٰلِكَ﴾ الجزاء الأسوأ هو ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ ٱللهِ﴾ وهي ﴿ٱلنَّارُ﴾ وقيل: إنّ النار مبتدأ وخبره قوله: ﴿لَهُم﴾، وعلى الوجه الأوّل من كون النار بياناً للجزاء، يكون المعنى ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ ومنزل الإقامة الأبدية[٢].

وقيل: إنّ المراد أنّ لهم في النار المشتملة على الدركات داراً مخصوصةً يَخلَدون فيها[٣]، أو اسمها دار الخُلد.

ثمّ نبّه سبحانه على أنّ ذلك الجزاء هو مقتضى العدل بقوله: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة تصديقاً لرسالة النبي ﷺ وهدايةً إلى الدين الحقّ ﴿يَجْحَدُونَ﴾ ويلغُون فيها بسبب جُحودهم إياها. قيل: إنّ التقدير يُجزَون جزاء[٤]، ويُحتَمل كون (جزاء) مفعولاً لأجله، والمعنى أنّ الخلود في النّار لأجل كونه جزاءً بعوض جُحودهم الآيات ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حين دخولهم في النار، وتقلّبهم في العذاب ﴿رَبَّنَا أَرِنَا﴾ وعرّفنا الشياطين ﴿ٱلَّذَيْنَ أَضَلَّانَا﴾ وحَرَفانا عن صراط دينك ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ بالتسويل والتزيين.

وقيل: إنّ المراد من الإنس قابيل الذي سنّ القتل ظُلماً، ومن الجنّ الشيطان الذي سنّ الكفر[٥].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «يعنون إبليس الأبالسة، وقابيل بن آدم أوّل من أبدع المعصية»[٦].

وعن السجاد عليه السلام: «تأويل الإنس بفلان»[٧].

وعن الصادق عليه السلام: «تأويلهما بهما»[٨].

---

١. تفسير أبي السعود ٨: ١٢، تفسير روح البيان ٨: ٢٥٢.
٢. تفسير روح البيان ٨: ٢٥٢.
٣. تفسير أبي السعود ٨: ١٢، تفسير روح البيان ٨: ٢٥٣.
٤. تفسير روح البيان ٨: ٢٥٣.
٥. تفسير أبي السعود ٨: ١٢، تفسير روح البيان ٨: ٢٥٣.
٦. مجمع البيان ٩: ١٧، تفسير الصافي ٤: ٣٥٨.
٧. تفسير نور الثقلين ج ٤: ٥٤٥.
٨. الكافي ٨: ٥٢٣/٣٣٤، تفسير الصافي ٤: ٣٥٨، وفيهما: قال: هما، ثم قال: فلان شيطاناً.

﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ ندوسهما[١] بها ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ والأذلّين أو الأنزلين منّا مكاناً، والأشدّين منّا عذاباً، تشفياً منهما بذلك، أو نجعلها في الدَّرْك الأسفل من النار.

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ[٣٠]

ثمّ لمّا بالغ سبحانه في وعيد أعدائه والمشركين، وأطنب في تهديدهم، بيّن لُطفه بالموحّدين وإحسانه باوليائه المؤمنين بقوله: ﴿إِنَّ﴾ المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا﴾ بألسنتهم وقلوبهم: ﴿رَبُّنا ٱللهُ﴾ وحده لا شريك له في اُلوهيته وربوبيته ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا﴾ على التوحيد، وثبتوا على ذلك الاعتقاد والقول، لم يَزِلّ قدمهم عن صراط عبوديته، وأخلصوا دينهم له، وأعرضوا عمّا سواه، وعملوا بمقتضاه من اجتناب الكبائر، وأداء الفرائض إلى أن خرجوا من الدنيا.

عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «إنّي متكلّم بعِدَة الله وحُجّته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا﴾ الآية». ثمّ قال: «فاستقيموا على كتابه، وعلى مِنهاج أمره، وعلى الطريقة الصالحة من عبادته، لا تَمْرُقون منها، ولا تبتدعون فيها، ولا تتخلّفون عنها»[٢].

وعن القمي: استقاموا على ولاية أمير المؤمنين عليه السلام[٣].

وعن الرضا عليه السلام، أنّه سُئِل ما الاستقامة؟ قال: «هي والله ما أنتم عليه»[٤].

﴿تَتَنَزَّلُ﴾ من قبل الله ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَائِكَةُ﴾ عند الموت ـ كما عن القمي[٥] ـ بالبشارة، وهي ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ أيّها الموحّدون من إصابة مكروهٍ بعد الموت وبعد اليوم ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما فاتكم من نِعم الدنيا ومفارقة ما خلّفتم من الأهل والأولاد والأحبّة ﴿وَأَبْشِرُوا﴾ وافرحوا ﴿بِالْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تُوعَدُونَ﴾ بها على إيمانكم وأعمالكم الصالحة في كتاب الله وعلى لسان رسوله.

عن العسكري عليه السلام ـ في حديث يذكر حضور ملك الموت عند المؤمن حين نَزْعه ـ قال: «فيقول مَلَك الموت: فانظر فوقك، فينظُر فيرى درجات الجنان وقصورها التي تقصُر عندها الأماني، فيقول مَلَك الموت: تلك منازلك ونِعمك وأموالك وأهلك وعيالك، ومن كان من أهلك هاهنا وذُرّيتك صالحاً فهم هنالك معك، أفترضى بهم بدلاً ممّا هاهنا؟ فيقول: بلى والله. ثمّ يقول: انظُر فينظر فيرى محمداً وعلياً صلوات الله عليهما والطيّبين من آلهما في أعلى عِلّيين. فيقول: أتراهم هؤلاء ساداتك

---

١. في النسخة: ندسهما. ٢. نهج البلاغة: ٢٥٣/١٧٦، تفسير الصافي ٤: ٣٥٨.
٣. تفسير القمي ٢: ٢٦٥، تفسير الصافي ٤: ٣٥٨. ٤. مجمع البيان ٩: ١٧، تفسير الصافي ٤: ٣٥٩.
٥. تفسير القمي ٢: ٢٦٥، تفسير الصافي ٤: ٣٥٨.

وأنمَتك؟ هُم هنالك خُلَاسك وأُنَاسك، أفما ترضى بهم بدلاً ممّا تُفارق هنا. فيقول: بلى وربّي، فذلك ما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللهُ﴾ إلى قوله: ﴿أَلاَّ تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ فما أمامكم من الأهوال قد كفيتموها ولا تحزنوا على ما تخلفونه من الذراري والعِيال، فهذا الذي شاهدتموه في الجنان بدلاً منهم ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ هذه منازلكم، وهؤلاء ساداتكم وأُناسكم وجلاسكم»[1].

وقيل: إنّ البشارة في المواقف الثلاثة عند الموت، وفي القبر، وعند البعث إلى القيامة»[2].

نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ * وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّن دَعَا إِلَى ٱللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ [٣١_٣٣]

ثمَ لمَا أخبر سبحانه عن كون شياطين الإنس والجنّ قُرناء الكفّار والمشركين، بشّر بأنّ الملائكة أولياء الموحّدين المؤمنين، حيث حكى عن الملائكة أنّهم يقولون للمؤمن: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ﴾ وأصدقائكم ﴿فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ومدّة أعماركم فيها، وأعوانكم في أُمور دينكم، بالهامكم الحقّ وإرشادكم إلى ما فيه خيركم وصلاحكم، ويَحْفَظكم من الزّلات بدل وساوس الشياطين وتسويلاتهم في قلوب الكفّار وإضلالهم إياهم.

روى بعض العامة عن الصادق عليه السلام أنّه قال: من لاحظ في أعماله الثواب والأغراض، كانت الملائكة أولياءه، ومن عَمِلها على مشاهدته تعالى فهو وليّه لأنّه يقول: ﴿الله ولى الذين آمنوا﴾[3].

﴿وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾ بتبشيركم بالجنّة، وشفاعتكم، وتلقّيكم بالسلام والتحية والإكرام، وهدايتكم إلى الجنّة ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا﴾ من النِّعم الجسمانية ﴿مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكُمْ﴾ وتَلَذّ أعينكم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ من الحُظوظ الروحانية ﴿مَا تَدَّعُونَ﴾ وما تتمنّون، كما عن ابن عباس[4]. وفي تَكْرار ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ وعدم الاقتصار بعطف (ما تدعون) على (ما تشهى) إيذانٌ باستقلال كلّ منهما بالبشارة حال كونهما ﴿نُزُلاً﴾ ورزقاً مهيئاً للضيف ﴿مِنْ﴾ قبل إله ﴿غَفُورٍ﴾ للذنوب، ومبدّل للسيئات بالحسنات ﴿رَحِيمٍ﴾ بالمؤمنين الصالحين باعلاء درجاتهم، وفنون إكراماتهم، وفي التعبير ـ كما ذكر ـ بالنُّزل وتقديمه

---

١. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١١٧/٢٣٩، تفسير الصافي ٤: ٣٦٠.

٢. تفسير الرازي ٢٧: ١٢٢، تفسير روح البيان ٨: ٢٥٥.

٣. تفسير روح البيان ٨: ٢٥٦.

٤. تفسير الرازي ٢٧: ١٢٣.

الضيف، دلالةً على أن ما أعدّ لهم بعد ذلك من عظائم الأمور بالنسبة إلى ما ذكر أكثر بمراتب[١].

ثمّ لمّا حكى سبحانه الأقوال السيئة عن الكفّار، كقولهم: ﴿قُلُوبنا فِي اكِنَّة ... وَفِي آذاننا وقـر﴾[٢] وقولهم: ﴿لا تَسمعوا لِهَذا القُرآن﴾[٣] أخبر بأنّ أقوال المسلمين أحسن الأقوال بقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً﴾ من أطيب كلاماً ﴿مِمَّن دَعَا﴾ الناس ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ وإلى توحيده، ومعرفة صفاته الكمالية، وطاعته وعبادته ﴿وَعَمِلَ﴾ نفسه عملاً ﴿صَالِحاً﴾ فانّ أعظم الطاعات دعوة الخلق إلى الحقّ، مع كون عمله موافقاً لقوله، واختار دين الاسلام الذي هو الدين المرضيّ عند الله ﴿وَقَالَ﴾ ابتهاجاً به: ﴿إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

قيل: إنّ المراد من الداعي إلى الله رسول الله ﷺ[٤]. وقيل: هم المؤذّنون[٥]، قيل: كان بلال يُؤذّن ويقول اليهود: غُراب أسود يدعو إلى الصلاة! فنزلت الآية[٦].

وعن العياشي: أنّها في عليّ عليه السلام[٧]. وقيل: إنّ المراد هو العموم[٨].

أقول: من المعلوم أنّ أكمل مصاديق الداعي هو النبيّ والوصيّ صلوات الله عليهما والكُمّلون من أصحابهما.

وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ[٣٤]

ثمّ رغّب سبحانه نبيّه ﷺ في الدعوة إلى الحقّ بعد بيان كونها أحسن الأقوال بقوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِى﴾ الأقوال ﴿ٱلْحَسَنَةُ﴾ التي منها دعوتك إلى الدين الحقّ، والصبر على أذى قومك ﴿وَلَا﴾ الأقوال ﴿ٱلسَّيِّئَةُ﴾ والتي منها الصادرة من المشركين المعاندين للحقّ، كقولهم: ﴿قلوبنا فى أكنه﴾ ونظائره في الجزاء والعاقبة، فانّ أقوالك الحسنة موجبةٌ لعظمتك في الدنيا وعُلوّ درجاتك في الآخرة، والأقوال السيئة من أعدائك موجبةٌ لانحطاطهم وعقوبتهم في الدارين، فلا يُفترك سيئات أقوالهم وأعمالهم في اجتهادك في الدعوة، بل عليك بالجدّ والصبر على أذاهم و ﴿ٱدْفَعْ﴾ سيئتهم التي اعترضتك ﴿بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ والطرق في دفعها، وهي الرفق والمُداراة ومقابلة إساءتهم

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٢٥٧.
٢. فصلت: ٥/٤١.
٣. فصلت: ٢٦/٤١.
٤. تفسير الرازي ٢٧: ١٢٥، تفسير روح البيان ٨: ٢٥٧.
٥. تفسير الرازي ٢٧: ١٢٥، تفسير أبي السعود ٨: ١٤، تفسير روح البيان ٨: ٢٥٧، وفي النسخة: هو المؤذنون.
٦. تفسير روح البيان ٨: ٢٥٩.
٧. تفسير الصافي ٤: ٣٦١.
٨. تفسير أبي السعود ٨: ١٤.

بالاحسان، وسفاهتهم وسوء صنيعهم بالصبر والحِلم وحُسن البشر ولِين الكلام **﴿فَإِذَا﴾** قابلت إساءتهم بالاحسان، وخُرقهم بالرِّفق، وسفاهتهم بالحِلم، وافعالهم القبيحة بالأفعال الحسنة، يستحي منك العدوّ، ويتّرك أفعاله القبيحة، وانقلب من البغضة إلى المحبة، ويصير **﴿ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ﴾** كأبي سفيان وأضرابه **﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾** وصديقٌ قريبٌ.

روى بعض العامة أنّها نزلت في أبي سفيان، وذلك أنّه لان للمسلمين بعد الشدّة بالمصاهرة التي حصلت بينه وبين النبي ﷺ، ثمّ أسلم فصار ولياً بالاسلام، حميماً بالقرابة»[١].

عن الصادق عليه السلام ـ في الآية ـ قال: «الحسنة التقية، والسيئة الإذاعة»[٢] الخبر.

وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * وَمِنْ آيَاتِهِ ٱللَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا لِلّٰهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ [٣٥ـ٣٧]

ثمّ عظّم سبحانه تلك السجية بقوله: **﴿وَمَا يُلَقَّاهَا﴾** ولا يَنالها **﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾** على المكاره والشدائد، وحبسوا أنفسهم عن إظهار الغضب، ولا يُعطى تلك الخَصلة والسَّجية، أو خَصْلة الصبر **﴿وَمَا يُلَقَّاهَا﴾** من قبل الله **﴿إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾** من كمال النفس وحسن الأخلاق وفضائل الانسانية، أو ذو حظٍّ عظيمٍ من المثوبات الآخروية، أو من الجميع.

عن الصادق عليه السلام: «**﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾** في الدنيا على الأذى[٣] **﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾** من الخير وكمال النفس».

ثمّ لمّا كان الغضب والخُرق من الشيطان، ذكر سبحانه طريق دفعه بقوله: **﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾** ويُهيّجنك إلى مقابلة الاساءة بالاساءة، والإقدام على الانتقام **﴿مِنَ﴾** قبل **﴿ٱلشَّيْطَانِ﴾** المُوسوس **﴿نَزْغٌ﴾** ومُهيّج **﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾** من شَرّه ووسوسته، واسأل الله حِفظك من تسويلاته **﴿إِنَّهُ﴾** تعالى وحده **﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾** لاستعاذتك، والمجيب لدعائك **﴿ٱلْعَلِيمُ﴾** بخُلوص نيّتك، وصميمية دُعائك.

القمي، قال: المخاطبة لرسول الله ﷺ، والمعنى للناس[٤].

---

١. تفسير أبي السعود ٨: ١٤، تفسير روح البيان ٨: ٢٦٢.
٢. الكافي ٢: ٦/١٧٣، مجمع البيان ٩: ٢٠، تفسير الصافي ٤: ٣٦١.
٣. مجمع البيان ٩: ٢٠، تفسير الصافي ٤: ٣٦١.
٤. تفسير روح البيان ٨: ٢٦٥.

عن النبيّ ﷺ، قال: «إذا غَضِبت وكنت قائماً فاقعُد، وإن كنت قاعداً فقُم، واستعذ بالله من الشيطان»[١].

ثمّ لما مدح سبحانه الدعوة إلى الله وإلى توحيده، شرع في بيان أدلّة توحيده وقدرته وحكمته بقوله: ﴿وَمِنْ﴾ أدلّة توحيده و﴿آيَاتِهِ﴾ الدالّة على قدرته وحكمته ﴿ٱللَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ وتعاقبهما، وقد مرَ نُكتة تقديم الليل.

ثمّ لمّا كان جمعٌ من المشركين عَبَدة الشمس والقمر، ذكرهما لمناسبة الليل والنهار بقوله: ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ دائبان بأمره، ثمّ نهى عن عبادتهما بقوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا﴾ أيّها الناس ﴿لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ لأنّهما حادثان مربوبان مسخّران تحت أمر خالقهما ﴿وَٱسْجُدُوا لِلّٰهِ﴾ القادر ﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ بقدرته لنظام العالم ﴿إِن كُنتُمْ﴾ بالسجود لهما لله تَسْجُدون و﴿إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فانّ السجود خضوعٌ خاصٌ بمقام الربوبية والألوهية، لا يجوز لغير الله.

قيل: إنّ الصابئين كانوا يَسْجُدون للنيِّرين[٢] ويقولون: إنّا نسجُد لها، ونقصُد به السجود لله، فنهوا عن عبادته بتلك الواسطة[٣].

أقول: يُمكن أن يقال: علّة سجودهم للنيِّران[٤] أوّل ابتداعه ذلك، إلّا أنّه انتهى الأمر إلى الاعتقاد بخالقيتهما.

﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَاءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِى أَحْيَاهَا لَمُحْيِى ٱلْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٣٨ و ٣٩]

ثمّ لمّا كان السجود لهما بهذا الاعتقاد من باب الاشتباه في المِصداق، حيث إنّهم كانوا يعتقدون أنّ مِصداق الخالق هو الشمس مثلاً، والحال أنّه هو الله، ففي الحقيقة كان سجودهم لله، فيكون المراد إن كنتم تعبُدون الخالق الذي هو الله في الواقع، لا تسجُدوا للشمس، بل اسجُدوا لله الذي هو تكوّن الشمس من مخلوقاته ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا﴾ وتعظّموا عن عبادة الله الذي تقول بألوهيته، فانّه غنيٌّ عن عبادتهم وسجودهم له ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة المقرّبين يَعْبُدونه دائماً و ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ ويُنزّهونه عن الشريك ﴿وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ ولا يَملّون عن عبادته وتسبيحه.

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٢٦٥.

٢. النيِّرين: الشمس والقمر.

٣. تفسير روح البيان ٨: ٢٦٦.

٤. في النسخة: لينروان.

قيل: إنّ المراد إن استكبروا عن إطاعة أمرك، ولم يَسْجُدوا لله، لا يَقِلّ بذلك عدد من يُخلِص عبادته لله[١]، فانّ الملائكة المقرّبين مع كَثْرتهم وقُربهم للشمس والقمر، يَعْبُدون الله، ويُسبّحونه دائماً، ولا يَسْجُدون لهما.

ثمّ إنّه تعالى بعد الاستدلال بالآيات الفلكية، استدلّ بالآيات الأرضية بقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ﴾ أيّها الانسان الشاعر البصير ﴿تَرَى ٱلْأَرْضَ﴾ قبل نزول المطر عليها ﴿خَاشِعَةً﴾ ومُنحطّة يابسة لا نبات فيها ولا بركة ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَاءَ﴾ بالأمطار ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ وتحرّكت بالنبات والزّرع ﴿وَرَبَتْ﴾ وانتفخت بسبب انتشار اُصول الحشائش والزروع فيها، فتكون كالميت الذي نُفِخ فيه الروح فيحيي.

ثمّ استدلّ سبحانه على المعاد بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى أَحْيَاهَا﴾ بقدرته ﴿لَمُحْيِى ٱلْمَوْتَىٰ﴾ من الأولين والآخرين يوم البعث ﴿إِنَّهُ﴾ من الأشياء من الإبداء والاعادة ﴿قَدِيرٌ﴾ لا تناهي لقُدرته.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَن يَأْتِى آمِناً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ٱعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ * مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ[٤٠ـ٤٣]

ثمّ لمّا ذكر سبحانه بعض آيات التوحيد، هدّد المجادلين فيها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ ويُحرفون عن سبيل الحقّ بالطعن ﴿فِى آيَاتِنَا﴾ وإلقاء الشُّبهات فيها ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ ولا يُسْتَرون منّا، ولا يغيبون عنا، فنسوقهم يوم القيامة إلى النار، ونلقيهم فيها، إذن فانظُروا أيّها العقلاء ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ﴾ بالعُنف ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾ على وجهه ﴿خَيْرٌ﴾ مآلاً وأحسن حالاً ﴿أَم مَن يَأْتِى آمِناً﴾ من كلّ مكروهٍ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ ويدخُل في جنّة عدن، لاشكّ أنّ الثاني خيرٌ.

ثمّ بالغ في التهديد بقوله: ﴿ٱعْمَلُوا﴾ أيّها الكفّار ﴿مَا شِئْتُمْ﴾ من القبائح والفواحش، فانّكم لا تَخْرُجون من سلطان الله، ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يعزُب عنه مِثقال ذرةٍ من أعمالكم، فيجازيكم عليها أسوأ الجزاء، ولم يمنع استعجاله في العذاب إلا الحكمة، فانّها اقتضت إمهالكم، ولا يخاف الفَوت.

ثمّ بالغ سبحانه في تهديد الملحدين في آياته ازدياداً لإرعاب قلوبهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٢٦٦.

بِالذِّكْرِ﴾ وألحدوا في القرآن ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ وحين قُرئ عليهم من غير تفكُّرٍ وتدبُّرٍ فيه من وجوه الإعجاز، سَيعذَّبون بكفرهم وإلحادهم أشدّ العذاب، وكيف يكفُرون به ﴿وَ﴾ الحال ﴿إِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ وقاهرٌ بالحُجَة على سائر الكتب، ومهيمن عليه، أوكثير النفع لعامة الناس، أو بلا نظيرٍ وشبيهٍ لعدم كون كتابٍ معجزاً إلّا هو ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ﴾ ولا يتطرّق إليه المعارض ﴿مِن﴾ الكتب التي ﴿بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ ومن قبله ﴿وَلَا﴾ من الكتب والدفاتر التي ﴿مِنْ خَلْفِهِ﴾ ومن بعده، وإنّما أُطلق الباطل على المعارض، تنبيهاً على أنّ كلّ معارضٍ له باطلٌ وفاسدٌ.

قيل: إنّ المراد بالباطل الذي بين يديه النقيصة، والذي من خلفه الزيادة[١].

وقيل: إنّ المعنى لا يجد الباطل إليه سبيلاً من جهةٍ من الجهات حتى يتصل به[٢]، فعبّر عن جميع الجهات بأظهرها، وهو القُدّام والخلف، أو المراد لا يأتية الباطل فيما أخبر به عمّا مضى، ولا فيما أخبر به عمّا يأتي[٣].

وعنهما عليهما السلام: «ليس في إخباره عمّا باطلٌ، ولا في إخباره عمّا يكون في المستقبل باطلٌ، بل أخباره كلّها موافقه لمُخبراتها»[٤] كلّ لأنّه ﴿تَنزِيلٌ﴾ وكتاب مُنزَل ﴿مِن﴾ إلهٍ ﴿حَكِيمٍ﴾ وعالمٍ بحقائق الأُمور ومصالح الأشياء، لا يفعل ولا يقول شيئاً إلّا بالحكم الكثيرة، ولا ينزل كتاباً على من يشاء إلّا بمصالح وفيرة ﴿حَمِيدٍ﴾ في أحكامه وأفعاله، محمود على نِعمه الجسمانية والروحانية، التي منها هذا الكتاب العظيم.

روى بعض العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ألا إنّها ستكون فتنة. فقلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهَزْل، من تركه من جبّار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله، وهو حبلُ الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء، ولا يُخلَق من كَثْرة الردّ، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تَنْتهِ الجنّ حتى قالوا: ﴿انا سمعنا قراناً عجباً يهدى إلى الرشد فامنا به﴾ من قال به صَدَق، ومن عَمِل به رشد، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراطٍ مسقتيم»[٥].

ومن العجب أنّه مع عظمة هذا القرآن، وظهور كونه معجزاً نازلاً إليك يا محمد ﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾ من

---

١. تفسير الرازي ٢٧: ١٣١.
٢. تفسير الرازي٢٧: ١٣٢، تفسير روح البيان ٨: ٢٧٠.
٣. تفسير روح البيان ٨: ٢٧٠.
٤. مجمع البيان ٩: ٢٣، تفسير الصافي ٤: ٣٦٢.
٥. تفسير روح البيان ٨: ٢٧٠.

جهة كُفّار قومك في شأنك وشأن كتابك ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ﴾ من جهة الأمم الماضية ﴿لِلرُّسُلِ﴾ العِظام الذين كانوا ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ في حقّهم من أنّهم سَحَرة، أو كَهَنة، أو مجانين. وفي حقّ الكتب السماوية المُنزَلة عليهم من أنّها أساطير ونحوها.

وقيل: يعني ما يقال لك من قبل الله إلّا ما قيل من قبله للرسل[١] من الأمر بالصبر على سفاهة القوم وأذاهم.

و﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لأوليائه المؤمنين بك وبهم ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأعدائه الكافرين بك وبهم، المكذّبين لكتابك وكتبهم، فاسعَ أنت يا حبيبي في التبليغ والدعوة إلى الحقّ، ثمّ فوّض أمر الناس إليّ، فإنّي أعاملهم على حسب استحقاقهم.

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِى آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ[٤٤]

ثمّ بيّن سبحانه قطع عُذر العرب في الايمان بالقرآن بقوله: ﴿وَلَوْ﴾ أنزلنا القرآن و ﴿جَعَلْنَاهُ قُرْآناً﴾ وكتاباً ﴿أَعْجَمِيّاً﴾ ومَنظماً بلغة العجم ﴿لَقَالُوا﴾ اعتراضاً عليك وتوبيخاً لك: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ﴾ وهلّا بيّنت ﴿آيَاتُهُ﴾ بلسانٍ نفهمه ﴿أ﴾ كلامٌ، أو كتاب ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ يُوتى إلينا ﴿وَ﴾ نحن قوم ﴿عَرَبِيٌّ﴾ لا نفهم شيئاً منه؟ وهذا من الغرائب الدالة على كذب كتابك.

ثمّ لمّا ذَكَر سبحانه أنه ليس لمشركي العرب الاعتذار من عدم إيمانهم بعدم فهمهم القرآن، وكونه بغير لسانهم، أمر سبحانه نبيّه ﷺ أن يبيّن لهم علّة عدم إيمانهم، وكون قلوبهم منصرفةً عنه، وعدم سماعهم آياته، كما قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ ... وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ﴾[٢] بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿هُوَ لِلَّذِينَ﴾ لم يكن في قلوبهم تعصّبٌ وعِنادٌ ولَجاجٌ و﴿آمَنُوا﴾ بالطوع والرغبة وطلباً للحقّ ﴿هُدىً﴾ من الضلال ورشادٌ إلى الحقّ وجميع الخيرات الدنيوية والأُخروية ﴿وَشِفَاءٌ﴾ من الأمراض الباطنية كالشكّ والأخلاق الرذيلة ﴿وَالَّذِينَ﴾ يستكبرون عن قبول الحقّ، ويُصرّون على تقليد الآباء والكُبراء و ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عِناداً ولَجاجاً، كأنّه ﴿فِى آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ وثقلٌ وصَممٌ، لا يسمعون القرآن ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً﴾ وموجبٌ لذَهاب بصرهم وبصيرتهم، بحيث لا يرون ما فيه من الإعجاز، وما في الرسول من دلائل الصدق، كما قالوا: ﴿بيننا وبينك حجاب﴾[٣] بل ﴿أُولٰئِكَ﴾ البُعداء عن ساحة

---

١. مجمع البيان ٩: ٢٥. ٢. فصلت: ٥/٤١. ٣. فصلت: ٥/٤١.

رحمة الله وسعادة الدارين، إذا تليت عليهم الآيات، أو ذُكِرت عندهم المواعظ والعِبر، كأنّهم ﴿يُنَادَوْنَ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ عنهم غايته، بحيث لا يكاد يُسْمَع منه الكلام، بل إنّما يُسمَع النداء والصوت.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ * مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ[٤٥ و ٤٦]

ثمّ لمّا كان عِناد المشركين وإنكارهم صدق القرآن وطعنهم فيه سبباً لايذاء قلب النبي ﷺ، سلّاه سبحانه بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى﴾ بن عمران التوراة، وأنزلنا إليه ذلك ﴿ٱلْكِتَابَ﴾ لهداية قومه ﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر، كما اختلف قومك في كتابك، فمنهم من صدّقه، ومنهم من كذّبه، فليس اختلاف قومك في صدق كتابك أمراً بديعاً مختصاً بقومك، بل هي عادةٌ قديمةٌ للأمم ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ﴾ وعِدَةٌ ﴿سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ﴾ في حقّ اُمّتك المكذّبة بالإمهال وعدم استئصالهم بالعذاب في الدنيا بقوله: ﴿بل الساعة موعدهم﴾[1] وقوله: ﴿وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم﴾[2] تالله ﴿لَقُضِيَ﴾ وحكم ﴿بَيْنَهُمْ﴾ باستئصال المكذّبين بالعذاب، كما فُعِل بمكذبي الأمم السابقة ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ ليسوا بقاطعين بكذب كتابك، بل هم والله ﴿لَفِى شَكٍّ﴾ من صدق كتابك وترديد ﴿مِنْهُ﴾ ترديد ﴿مُرِيبٍ﴾ وموقعٌ قلبهم في الغَلق والاضطراب، فلا تستعظم استيحاشك من تكذيبهم، واعلم أنّه ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً﴾ من الايمان بكتابك وتعظيمه، والتمسّك به، والعمل بأحكامه ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ نفعه لا يتعدّى إلى غيره ﴿وَمَنْ أَسَاءَ﴾ وأعرض عنه، وكفر به وطعن فيه ﴿فَعَلَيْهَا﴾ ضَرره لا عليك ولا على أحدٍ غيره.

ثمّ قرّر ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ بل هو العادل الذي لا يمكن منه الجَور، فلا يُعذّب غير المسيء، ولا المسيء زائداً على استحقاقه، ولا يضيع أجر المحسنين، ولا يُنقِص منه. قيل: من ظلم وعلم أنّه ظلم فهو ظلّام . وقيل: إنّ صيغة المبالغة باعتبار كَثرة العبيد، لا باعتبار كَثرة الظلم. وقيل: إنّ اصله: وما ربك بظالم، ثمّ نُقِل مع نفيه إلى صيغة المبالغة، فكانت المبالغة راجعةً إلى النفي، والمعنى أنّ الظلم منفيٌّ عنه نفياً موكّداً مضاعفاً[3].

---

١. القمر: ٤٦/٥٤. ٢. الأنفال: ٣٣/٨. ٣. تفسير روح البيان ٨: ٢٧٤.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِى قَالُوا آذَنَّاكَ مَامِنَّا مِن شَهِيدٍ * وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِن مَحِيصٍ﴾[٤٧ و ٤٨]

ثمّ لمّا هدّد سبحانه الكفّار بأنّ ضرر كفرهم راجعٌ إليهم، كان مجال السؤال عن وقته، فأجاب سبحانه تعالى بقوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ تعالى وحده ﴿يُرَدُّ عِلْمُ﴾ وقت عذابهم، وهو يوم ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ والقيامة.

ثمّ بيّن سبحانه إحاطته بالحوادث المستقبلة في هذا العالم بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ﴾ ذات أكمام وقُشور، أو أوعية ﴿مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ وأوعيتها أو قشورها العليا[١] كالجوز واللوز ونظائرهما ﴿وَمَا تَحْمِلُ﴾ ولا تَحْبَل ﴿مِنْ أُنثَىٰ﴾ من الانسان وسائر الحيوانات ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ حَمْلها ﴿بِعِلْمِهِ﴾ ومقروناً باحاطته، وإنّه إذا سئل أحدٌ عن[٢] هذه الأمور، لابدّ له من ردّ علمه إلى الله، ويقول: الله يعلم، كما يَرُد العلم بسائر الحوادث الكونية إليه، ولعلّ ذِكر الجُمل الثلاث من خُروج الأثمار والحَمْل والوضع لشباهتها بالبعث من القبور، فليس لأحدٍ أن يسأل عن وقت الساعة من[٣] أحدٍ، وله أن يسأل عنها بأهوالها ﴿وَ﴾ هو ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ قيل: إنّ التقدير: واذكُر يا محمد لقومك يوم يناديهم الله[٤]، توبيخاً لهم، ويقول: أيها المشركون ﴿أَيْنَ شُرَكَائِى﴾ الذين زعمتم فادعُوهم ليُخلّصوكم اليوم من عذابي ﴿قَالُوا﴾ يا ربّ ﴿آذَنَّاكَ﴾ وأسمعناك، كما عن ابن عباس[٥] ﴿مَا﴾ من أحدٍ ﴿مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ يشهد بأنّ الأصنام شركاءك، إذ تبرّأنا منهم لمّا عاينّا الحال، أو المراد ما منّا أحدٌ يُشاهدهم، إذ ضلّوا عنّا، كما قال سبحانه: ﴿وَضَلَّ﴾ وضاع ﴿عَنْهُم مَا كَانُوا يَدْعُونَ﴾ ويَعْبُدونه ﴿مِن قَبْلُ﴾ وفي زمان حياتهم في الدنيا ﴿وَظَنُّوا﴾ وأيقنوا بأنّه ﴿مَالَهُم﴾ في ذلك اليوم ﴿مِن مَحِيصٍ﴾ ومَهرَب من العذاب، ومَخْلَص من النار.

وقيل: إنّ قوله: ﴿مَامِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ كلام الأصنام، والمعنى ما منّا من شهيدٍ بصحّة ما نسبوا إلينا من الشركة، وعلى هذا يكون معنى ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أنّه لا ينفعهم[٦]، فيكون حضورهم كغيبتهم.

﴿لَا يَسْأَمُ ٱلْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هٰذَا لِى وَمَا أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن

---

١. في النسخة: الأعلى. ٢. في النسخة: من. ٣. في النسخة: عن.
٤. تفسى روح البيان ٨: ٢٧٦. ٥. تفسير الرازي ٢٧: ١٣٦.
٦. تفسير الرازي ٢٧: ١٣٧.

رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّى إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ[٤٩ و ٥٠]

ثمَ لمَا بيّن سبحانه يأس المشركين في القيامة من الخلاص من العذاب، بيّن يأسهم في الدنيا من رحمة الله عند ابتلانهم بالضرر بقوله: ﴿لَا يَسْأَمُ﴾ ولا يَمَلَ ﴿ٱلْإِنسَانُ﴾ بالطبع والجِبلّة ﴿مِن دُعَاءِ ٱلْخَيْرِ﴾ وطلب النفع الدنيوي والأخروي ﴿وَ﴾ لكن ﴿إِن مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ وأصابه الضرر ﴿فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ ومبالغٌ في قطع الرجاء من الرحمة، بحيث تظهر آثار اليأس في وجهه وأعضائه.

وحاصل المراد ـ والله أعلم ـ أنّ حال جنس الانسان وطبيعته دائرٌ بين الحِرص إلى الفوائد بحيث لا يقف على حدّ كلّما وجد طلب الزيادة، والقنوط الذي هو شدّة اليأس.

ثمَ ذمّه سبحانه على سوء حاله ومقاله عند عود النعمة بقوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ﴾ وأنعمنا عليه ﴿رَحْمَةً﴾ ونِعمةً كائنةً ﴿مِنَّا﴾ وبتفضّلنا كالصحة والغنى والأمن ونحوها ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ وبليةٍ أصابته من فقرٍ ومرضٍ وخوفٍ وأمثالها ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ غُروراً وجهلاً ﴿هَٰذَا﴾ الخيرالعائد إلى حقّ ﴿لِى﴾ وصل إليّ بفضلي وعلميَ لا يزول عنّي أبداً، فيشتغل بالنعمة عن المُنعِم، وجَهل أنه عطاءٌ من ربّه ليبلوه أيشكر أم يكفر، بل يُبالغ في الكفر بقوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ﴾ أنّ ﴿ٱلسَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ والقيامة آتية، كما يَزْعُم المؤمنون بالمعاد ﴿وَلَئِن رُجِعْتُ﴾ ورددت ﴿إِلَىٰ رَبِّى﴾ على تقدير قيامها وصحة قول القائلين بالمعاد ودار الجزاء، وبُعِثت من القبر للحساب عند الله ﴿إِنَّ لِى عِندَهُۥ﴾ والله ﴿لَلْحُسْنَىٰ﴾ والدرجة العُليا من النِّعم والكرامة، لأنّ استحقاقي للنعم الدنيوية ملازمٌ لاستحقاقي للنِّعم الأخروية مع كون قياس أمر الآخرة على أمر الدنيا من الأوهام الفاسدة والأماني الكاذبة ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولنُعلمنّهم يوم القيامة ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ من الكفر والمعاصي بتجسّم أعمالهم بالصور الواقعية التي تكون لها فينفِر منها حتى يتمنّى أن بينه وبينها أمداً بعيداً ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾ ونُطعمنّهم ﴿مِن﴾ طَعم ﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وعقابٍ شديدٍ لا يُمكن وصفه، ولا يُعرَف كنهه، بدل ما توهّموه من أنّ لهم عند الله المثوبة الحسنى والكرامة العليا.

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ[٥١ و ٥٢]

ثمّ بعد حكاية أقواله السيئة، حكى سبحانه أفعاله الشنيعة بقوله: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا﴾ بنعمةٍ ﴿عَلَى الْإِنسَانِ﴾ أبطرته و ﴿أَعْرَضَ﴾ عن الشكر، وكفر بتلك النعمة ﴿وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ وتباعد بكُلّيته عن التوجّه إلى مُنعِمه تكبّراً وتعظّماً، وتولّى برُكنه عن طاعة ربّه ﴿وَإِذَا مَسَّهُ﴾ وأصابه ﴿الشَّرُّ﴾ والضرر ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ وتضرُّعٍ طويل.

ثمّ بعد إثبات التوحيد، وحكاية إعراض المشركين عن القرآن ومجادلتهم، وتهديدهم بالعذاب، أمر سبحانه نبيّه ﷺ بالترغيب إلى الايمان بالقرآن بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المشركين المُعرِضين عن القرآن ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ وأخبروني أيها العقلاء ﴿إِن كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ ونازلاً منه، ثمَ أنتم ﴿كَفَرْتُم بِهِ﴾ من غير نظرٍ وتدبُّرٍ مع وُضوح كونه منه بأدنى نظر، ألستم في شِقاقٍ من الله وعِناد معه؟ و ﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ وأبعد من طريق الحقّ ﴿مِمَّنْ هُوَ﴾ كائنٌ ﴿فِي شِقَاقٍ﴾ وخلافٍ ﴿بَعِيدٍ﴾ عن الوفاق، ومُعاداةٍ بعيدةٍ عن المُوالاة.

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِن لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ [٥٣ و ٥٤]

ثمَ لمّا كان عُمدة أسباب إعراض المشركين عن القرآن نهيه عن الشرك، ودعوته إلى التوحيد، بيّن سبحانه أنّ جميع الموجودات أدلّة التوحيد بقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا﴾ وأدلّة توحيدنا آنًا بعد آنٍ ومرةٍ بعد اُخرى بذكر أحوال الموجودات ﴿فِي الْآفَاقِ﴾ وأقطار السماوات والأرض، والتنبيه على ما فيها من عجائب الصُّنع ﴿وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ وعجائب خلقتهم وأحوالهم ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾ ويتّضح ﴿لَهُمْ﴾ توحيد خالقها، و ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ الذي لا يُمكن للعاقل الترديد فيه ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ ولم يُغنِه عن إراءة الآيات أن يروا بفكرهم ﴿أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وكلّ موجودٍ من النَّقير القِطمير ﴿شَهِيدٌ﴾ وناظرٌ، يُدبّره كيف يشاء على وَفْق صلاحه، كما قيل: سبحان من هو عند كلّ شيءٍ وقبله وبعده[1]. وروي أنّه ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت الله قبله وبعده ومعه[2].

وعن الصادق عليه السلام: «العبودية جوهرة كُنهها الربوبية، فما فُقِد من العبودية وُجِد في الربوبية، وما خفي عن الربوبية اُصيب في العبودية. قال الله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ إلى قوله: ﴿شَهِيدٌ﴾ أي موجودٌ في غَيبتك وحَضرتك»[3].

---

١ و ٢. تفسير روح البيان ٨: ٢٨٤.

٣. مصباح الشريعة: ٧، تفسير الصافي ٤: ٣٦٥.

أقول: يُحتمل أن يكون المراد أنّه يعرف حقيقة الربوبية بمعرفة العبودية، فما فقد من العبودية من الكبرياء والعزّة والغنى المطلق والعلم بحقائق الأشياء وخفاياها والمغيبات والقدرة الكاملة وغيرها من الكمالات، وُجِد في الربوبية، فانّ العبودية ذلّة ومَسكنة وفقر وجهل وعجز وعدم وفناء، وما خفي من الربوبية من الكمالات أُصيب في العبودية، فانّ العبد بالتفكّر فيما له من الصفات الكمالية، يعلم الكمالات الربوبية؛ لأنّه يرى الكمالات الحاصلة من ربّه، ولا يمكن أن يكون مُعطى الشيء فاقداً.

قيل: إنّ المراد بالآيات الآيات الدالة على حقّانية القرآن، وكونه من عند الله[١]، والمراد بالآيات الافاقية ما أخبر به النبي ﷺ من الحوادث الآتية، كغلبة الروم على فارس في بضع سنين، وما وقع في الأُمم الماضية الموافقة لما هو المضبوط في كتب التواريخ والأنبياء السابقة، مع كون النبي أُمياً لم يقرأ ولم يتعلّم[٢]، أو ما وقع له من الفتوحات والغلبة على آفاق الدنيا على وجهٍ خارقٍ للعادة[٣]، ومن قوله: ﴿فِى أَنفُسِهِمْ﴾ هو القَحط في مكّة وما حلّ بأهلها من الخوف والقتل والأسر[٤].

وقيل: إنّ المراد من آيات الآفاق فتح البلاد المحيطة بمكة[٥]، ومن آيات أنفسهم فتح مكّة[٦].

ثمّ بيّن سبحانه أنّ عدم تفكّر المشركين في الآيات لجُرأتهم على الله، لعدم اعتقادهم بالآخرة بقوله: ﴿أَلَآ﴾ أيّها العقلاء ﴿إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ﴾ وشكٍّ عظيم، وشُبهةٍ شديدةٍ ﴿مِن لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ بعد الموت، وحضورهم عنده للحساب وجزاء الأعمال، ولذا يجترئون على الله في مخالفته وترك التفكر في آيات توحيده، ورسالة رسوله، وصدق كتابه، فيقولون ما يقولون، ويعملون ما يعملون ﴿أَلَآ﴾ أيّها المشركون بالله، المُنكرون للقائه ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ ظاهره وباطنه ﴿مُحِيطٌ﴾ بحيث لا يَخفى عليه منهم خافيةٌ، فيُجازيكم على كفركم وسوء نياتكم وجدالكم في الحق أسوأ الجزاء.

عن الصادق عليه السلام: «من قرأ حم السجدة، كانت له نوراً يوم القيامة لبصره وسروراً، وعاش في الدنيا محموداً مغبوطاً»[٧].

وعن (الخصال) عنه: «إنّ العزائم أربع» وعدّ منها هذه السورة[٨].

الحمد لله على إتمام تفسيرها.

---

١. تفسير أبي السعود ٨: ١٩، تفسير روح البيان ٨: ٢٨١.
٢. تفسير روح البيان ٨: ٢٨١.
٣ و٤. تفسير أبي السعود ٨: ١٩، تفسير روح البيان ٨: ٢٨١.
٥. تفسير الرازي ٢٧: ١٣٩.
٦. تفسير أبي السعود ٨: ١٩.
٧. ثواب الاعمال: ١١٣، تفسير الصافي ٤: ٣٦٥.
٨. الخصال: ١٢٤/٢٥٢، تفسير الصافي ٤: ٣٦٥.

في تفسير سورة الشورىٰ

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ * عٓسٓقٓ * كَذٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ[١ـ٣]

ثمّ لمّا خُتِمت، وكانت مبتدئة ببيان عَظَمة القرآن، وكونه بلغة العرب، وبيان مجادلة المشركين فيه، وطعنهم عليه وذمّهم، والجواب عنهم، وبيان أدلّة التوحيد والمعاد والنبوة المختتمة بالوعد بإراءة الآيات الدالّة على التوحيد وصدق القرآن، نُظِمت سورة حمعسق المبدوءة بتعظيم ما أُوحي إلى النبي صلّى الله عليه وآله، المشتملة على بيان النبوة، وإظهار المنّة على العرب بإنزال القرآن بلسانهم، وذكر الآيات الدالة على التوحيد، وتهديد المجادلين فيها بقوله: **﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾**[1] وغير ذلك من المطالب العالية المناسبة للسورة السابقة، فابتدأها بقوله: **﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾**.

ثمّ افتتحها بالحروف المُقطّعة بقوله: **﴿حمٓ * عٓسٓقٓ﴾** جلباً لتوجّه القلوب إلى المطالب المهمة المذكورة بعدها، وقد مرّ مراراً أنّ كلّ حرفٍ رمز عن الأسماء الحسنى.

عن الصادق عليه السلام: «معناه الحكيم المثيب العالم السميع القادر القوي»[2]. وأيضاً رمزٌ عن العلوم الكثيرة، ليستنبطها الراسخون في العلم، وقيل: كلّ واحدٍ من حمٓ وعٓسٓقٓ اسم لهذه السورة، ولذا يُفْصَل بينهما[3].

ثمّ عظّم سبحانه المطالب المذكورة في هذه السورة بقوله: **﴿كَذٰلِكَ﴾** المُوحى في هذه السورة، ومثل ما بها من التوحيد والمعاد والنبوة، وما فيه صلاح العباد في المعاش والمعاد، أو مثل ذلك الايحاء **﴿يُوحِي إِلَيْكَ﴾** في سائر السور **﴿إِلَىٰ﴾** الرسل **﴿ٱلَّذِينَ﴾** كانوا **﴿مِن قَبْلِكَ﴾** في الكتب المنزلة عليهم **﴿ٱللهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾** والإله القادر العليم، الذي لا تناهي لعلمه وقدرته وحكمته، فانّ

---

١. الشورىٰ: ٣٥/٤٢. ٢. معاني الأخبار: ١/٢٢، تفسير الصافي ٤: ٣٦٦.

٣. تفسير البيضاوي ٢: ٣٥٨، تفسير أبي السعود ٨: ٢١، تفسير روح البيان ٨: ٢٨٥.

إيحاء هذه المطالب العالية والمباحث القدسية الإلهية ببيانٍ مُعجزٍ، لا يصدُر إلّا ممَن له كمال القدرة والعلم، وإنّما أتى بصيغة المضارع مع أنّ المناسب ذكر لفظ الماضي، بلحاظ ذكر الرسل السابقة، للدلالة على أنّه عادته المستمرة وتجدّده وقتاً بعد وقت.

لَهُ مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ * تَكَادُ ٱلسَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلاَئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَا إِنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ[٤ و ٥]

ثمَ بالغ سبحانه في تعظيم ما أُوحي بتعظيم ذاته المقدسة بقوله: ﴿**لَهُ**﴾ تعالى بالملكية الإشراقية الإيجادية ﴿**مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ**﴾ السبع ﴿**وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ**﴾ ظاهرها وباطنها ﴿**وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ**﴾ والمرتفع عن أن تُدرِكه العقول والأوهام ﴿**ٱلْعَظِيمُ**﴾ الذي تصغُر عنده العظماء ﴿**تَكَادُ ٱلسَّمَاوَاتُ**﴾ مع عظمهنَ وغاية ثخونتهنَ ﴿**يَتَفَطَّرْنَ**﴾ ويتشققن من عظمته وخشيته ومهابته ﴿**مِن**﴾ العرش الذي هو في ﴿**فَوْقِهِنَّ**﴾ إلى السماء الدنيا التي هي أسفل من كلّهن، بأن لا تبقى سماء إلّا سقطت، وإنّما خصّ بدو التفطّر بالعرش لظهور عظمته منه.

قيل: إنّ المراد من قوله: ﴿**مِن فَوْقِهِنَّ**﴾ المبالغة في حصول الإشقاق إلى الجميع، كقوله: ﴿**يصب من فوق رؤسهم الحميم**﴾[1].

وقيل: إنّ ضمير (فوقهن) راجعٌ إلى الأرضين[2] ﴿**وَٱلْمَلاَئِكَةُ**﴾ الذين لا يعلم عددهم وعظمة خلقهم إلّا الله ﴿**يُسَبِّحُونَ**﴾ ويُنزّهون مقروناً ﴿**بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**﴾ عبوديةً وتعظيماً له ﴿**وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ**﴾ من المؤمنين، كما عن الصادق عليه السلام[3]، إشفاقاً بهم.

في الحديث: «ما فيها موضع أربع أصابع إلّا وفيه مَلَكٌ واضعٌ جبهته ساجداً لله ﴿**يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ**﴾»[4].

وقيل: إنّ المراد بالملائكة حَمَلة العرش خاصة[5].

أقول: في الآية دلالةٌ على أنّ كمال العبادة التوجّه إلى الله، والاشفاق على الخلق.

قيل: إنّ الجواهر الروحانية لها جهتان: جهة الاستفاضة من المبدأ الأعلى، وجهة الإفاضة إلى العالم الجسماني الأدنى[6]، فقوله تعالى: ﴿**يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**﴾ إشارةٌ إلى الجهة الأولى، وقوله:

---

١. تفسير الرازي ٢٧: ١٤٤.
٢. تفسير أبي السعود ٨: ٢٢.
٣. جوامع الجامع: ٤٢٧، تفسير الصافي ٤: ٣٦٧.
٤. تفسير روح البيان ٨: ٢٨٧.
٥. تفسير روح البيان ٨: ٢٨٧.
٦. الرازي ٢٧: ٢٤٥.

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ إشارةٌ إلى الجهة الثانية.

ثمّ لمّا كان تنزيه الذات عن النقائص الامكانية مُقدّماً على كونه مُفيضاً للخيرات، قدّم التسبيح الدالّ على التنزيه على الحمد الدالّ على فيّاضيّته.

وقيل: إنّ المراد باستغفارهم لأهل الأرض، تأثيرهم في نظم أحوال العالم على النحو الأصلح والأصوب[1].

وقيل: هو شفاعتهم في حقّ المؤمنين، ودعاؤهم في حقّ الكفّار بأن لا يعجّل الله في عقوبتهم، أو يوفّقهم للإيمان[2].

ثمّ حثّ سبحانه الناس على طلب المغفرة للذنوب، وسؤال ما يحتاجون إليه في دينهم ودنياهم من الله تعالى بقوله: ﴿أَلَآ﴾ أيّها الناس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ﴾ وحده ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ للذنوب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين، فتوجّهوا إليه واسألوه غفران ذنوبكم وخير دنياكم وآخرتكم.

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ * وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ[٦ و ٧]

ثمّ ذمّ سبحانه المشركين الذين توجّهوا إلى غيره، وطلبوا الخير من الأصنام وهدّدهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا﴾ واختاروا لأنفسهم ﴿مِن دُونِهِ﴾ تعالى مع أنّه وليّ المؤمنين ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ وجعلوا له شركاء ﴿ٱللَّهُ﴾ العظيم ﴿حَفِيظٌ﴾ ورقيب ﴿عَلَيْهِم﴾ وعلى أحوالهم وأعمالهم لا يفوته شيءٌ منها، يحاسبهم عليها ﴿وَمَا أَنتَ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِم﴾ من قبل الله ﴿بِوَكِيلٍ﴾ ومفوّض إليك أمرهم حتى تُسأل عنهم وتؤاخذهم، إنّما أنت منذرٌ، وعليك البلاغ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الوحي الذي كان للأنبياء من قبلك بلسان قومهم ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمّد ﴿قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾ وكتاباً عظيم الشأن بلسان قومك ﴿لِتُنذِرَ﴾ العرب الذين يَسْكُنون ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ وأصل البلدان، وهو مكّة، لكون الأرض مدحوّة من تحتها ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ وفي أطرافها من سائر الأرض ﴿وَتُنذِرَ﴾ الناس وتخوّفهم ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ والحشر الذي يجتمع فيه أهل السماوات وأهل الأرضين من الأولين والآخرين والجِنّة والناس أجمعين، فانّه لظهور وجوب وقوعه ﴿لَا رَيْبَ﴾ فيه، ولا مجال لشكّ يعتريه، ثمّ إنهم بعد الجمع يفترقون فرقتين: ﴿فَرِيقٌ﴾ منهم ـ وهم المؤمنون ـ يدخُلون ويَسْكُنون ﴿فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ بفضل الله ﴿وَفَرِيقٌ﴾ آخر منهم ـ

---

١. تفسير الرازي ٢٧: ١٤٥.
٢. تفسير الرازي ٢٧: ١٤٥.

وهم الكفار - يُصْلَون ﴿فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ والنار الملتهبة غضباً عليهم.

وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِى رَحْمَتِهِ وَٱلظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ* أَمِ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِى ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[٨و ٩]

ثمّ لما قال سبحانه لنبيه ﷺ: لا تكون على المشركين وكيلاً، ولا تقدِر على جمعهم على الحقّ، بيّن أنّ تلك القدرة لله بقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ﴾ اجتماع جميع الناس على الحقّ ﴿لَجَعَلَهُمْ﴾ بالقهر ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وفريقاً واحداً متّفقين على دينٍ واحدٍ، كما عن ابن عباس[1] ﴿وَلَٰكِن﴾ لم يشأ الله ذلك، لاختلاف طينتهم، واقتضاء الحكمة ايكالهم إلى إرادتهم واختيارهم، وجعل التكليف عليهم، ليميّز الخبيث من الطيّب، والشقيّ من السعيد، فإذن ﴿يُدْخِلُ﴾ الله ﴿مَن يَشَاءُ﴾ توفيقه لطيب طينته، وقوّة عقله، وسلامة نفسه ﴿فِى رَحْمَتِهِ﴾ ودينه الحقّ في الدنيا، وجنّته في الآخرة، لأنّه وليّه وناصره ﴿وَ﴾ أمّا ﴿ٱلظَّالِمُونَ﴾ الذين اتّخذوا من دونه أولياء ﴿مَا لَهُم﴾ في الدنيا، ولا في الآخرة ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ وحافظٍ لصلاح، يُعينهم على ما فيه خيرهم وصلاحهم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنهم العذاب الدنيوي والأخروي.

ثمّ أكّد سبحانه توبيخ المشركين على اتّخاذهم الاصنام أولياء بقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِ﴾ لأنفسهم من الأصنام التي لا قُدرة لها ولا شعور ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ لا والله هذا غاية السَّفَه والحُمق، فمن طلب وليّاً يستفيد من ولايته ﴿فَاللَّهُ﴾ وحده ﴿هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ الحقيقي الذي بيده الأمور كلّها من الخير والشرّ ﴿وَهُوَ يُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وليس في عالم الوجود من له هذه القدرة، بل ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ إيجاداً وإعداماً وتصرّفاً وتقلّباً ﴿قَدِيرٌ﴾.

وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ[١٠]

ثمّ لمّا بيّن تَفرّق الناس واختلافهم في الدين، أمر نبيّه ﷺ بنهي المؤمنين عن مخاصمة الكفّار ومنازعتهم في شيءٍ والتوكل على الله في دفع كيدهم بقوله: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ﴾ قيل: إنّ التقدير: قل يا محمد للمؤمنين ما اختلفتم فيه أيّها المؤمنون مع الكفّار ﴿مِن شَيْءٍ﴾ من أُمور الدين ﴿فَحُكْمُهُ﴾

---

١. تفسير أبي السعود ٨: ٢٣، تفسير روح البيان ٨: ٢٩٠.

راجعٌ ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ من إثابة المؤمنين المحقّين، وتعذيب الكفّار المُبطلين يوم الفصل والقضاء[١].

قيل: إنّ المراد فما أختلفتم فيه، فتحاكموا إلى الرسول[٢].

وقيل: يعني وما اختلفتم فيه من الأمور التي لا ترتبط بالأحكام كمسألة الروح، فقولوا: الله أعلم[٣]. وما اختلفتم فيه من المُتشابهات، فارجعوا إلى المُحْكَمات ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الحاكم بالحقّ ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي هو ﴿رَبِّى﴾ وربّكم ﴿عَلَيْهِ﴾ خاصّة ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع اُموري التي منها دفع شرّ الأعداء والمشركين ﴿وَإِلَيْهِ﴾ وحده ﴿أُنِيبُ﴾ وأرجعُ في جميع المهمّات والمُعضِلات، ولمّا كان التوكّل أمراً وحدانياً مستمراً، أتى بصيغة الماضي، وأمّا الإنابة فهي متجدّدة حسب تجدُّد الحوائج، ولذا أتىٰ بصيغة المضارع، فكلوا أنتم يا أتباعي على الله، وأنيبوا إليه.

فَاطِرُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ ٱلْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ * لَهُ مَقَالِيدُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[١١ و ١٢]

ثمّ لمّا كان التوكّل التامّ والإنابة في جميع الأمور والحوائج موقوفاً على العلم بكمال قُدرة الله ولُطفه ورأفته، عرّف سبحانه قدرته ورأفته. وعلمه بقوله: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خالقهما و﴿جَعَلَ لَكُم﴾ وخلق لُطفاً بكم ﴿مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾ ومن جنسكم بقدرته ولُطفه وإحسانه ﴿أَزْوَاجاً وَ﴾ حلائل، وخلق ﴿مِنَ ٱلْأَنْعَامِ﴾ للأنعام ﴿أَزْوَاجاً﴾ وقيل: يعني وخلق لكم من الأنعام أصنافاً أو ذكوراً وإناثاً[٤]، لترتفقوا بها، وهو بسبب الإزدواج ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ ويُكثركم أيّها الناس والأنعام، أو يَبُثّكم بهذا التدبير الذي به التوالد والتناسل، و﴿فِيهِ﴾ وإنّما ذكر سبحانه كلمة (فيه) في محلّ (به) تنزيلاً للتدبير والازدواج منزلة المعدِن للبثّ والتكثير، وفي استعمال ضمير (كم) الذي هو للخطاب إلى جماعة العقلاء، مع أنّ الأنعام غير عقلاء، وغائبة لتغليب العقلاء، والخطاب على غير العقلاء والغيب[٥].

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ﴾ وشبيه نظيره على تقدير وجود المثل والنظير له ﴿شَيْءٌ﴾ وموجودٌ من الموجودات، فكيف بأن لا يكون له مثل ونظير؟ ففيه مبالغة في نفي المثل له تعالى. وقيل: إنّ الكاف

---

١. تفسير أبي السعود ٨: ٢٤. ٢ و٣. تفسير الرازي ٢٧: ١٤٩.

٤. تفسير أبي السعود ٨: ٢٤، تفسير روح البيان ٨: ٢٩٢.

٥. في تفسير روح البيان ٨: ٢٩٣: ففيه تغليبان، تغليب المخاطب على الغائب، حيث لم يقل يذرأكم وأياهن لأن الأنعام ذكرت بلفظ الغيبة، وتغليب العقلاء على غيرهم، حيث لم يقل يذرأها وأياكم فان (كم) مخصوص بالعقلاء.

هنا زائدة[١].

وعلى أي تقدير لا شُبهة أنّ مثل الشيء هو المشابه له في الذات والصفات، ولا مُشابهة بين الممكن والواجب، لا في الذات ولا في الصفات، وإن تشاركا في صدق بعض المفاهيم كالموجود والعالم والقادر والسميع والبصير ونظائرها، إلّا أن بين مناشيها في الواجب والممكن غاية المغايرة، كما هو محقّق في محلّه.

ولمّا كان سَماع الوكيل ومَرجع الحوائج لمقال المتوكّل والمُنيب ورؤية ابتلائهما معتبراً في قضاء الحوائج، وصف ذاته المُقدّسة بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع المسموعات ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بكلّ المُبصرات بغير جارحة، بل باحاطته بجميع الموجودات التي منها الأصوات والأفعال والكيفيات ﴿لَهُ﴾ تعالى ﴿مَقَالِيدُ﴾ خزائن خيرات ﴿ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومفاتيحها، لا يتصرّف فيها إلّا هو ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ ويُوسعه ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ توسعة رزقه ﴿وَيَقْدِرُ﴾ ويضيق على من يشاء ضيقه حسب علمه بمصالح نظام العالم ومصالح الأشخاص ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء ومصالحها ومضارّها ﴿عَلِيمٌ﴾ وخبير.

شَرَعَ لَكُم مِنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَٱلَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ[١٣]

ثمّ لمّا أخبر سبحانه بأنّه عالمٌ بالمصالح والمفاسد، وأنّه يُوحي إلى النبيّ ﷺ وإلى الأنبياء من قبله، بيّن ما أوحى إليه ورآه مصلحة للعباد[٢] بقوله: ﴿شَرَعَ﴾ الله وسنّ ﴿لَكُم﴾ يا اُمّة محمد ﴿مِنَ ٱلدِّينَ﴾ المرضي عنده ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً﴾ الذي [هو] أول اُولي العزم من الرسل، وأمره به أكيداً ﴿وَ﴾ الدين ﴿ٱلَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمّد وخاتم الرسل وآخر اُولي العزم منهم، وفي تلوين الخطاب من الغيبة إلى التكلّم، والتعبير عن الوصية بالايحاء إليه دلالةٌ واضحةٌ على تعظيمه ورسالته، رداً على المنكرين لها ﴿وَمَا وَصَّيْنَا﴾ وأمرنا ﴿بِهِ﴾ أكيداً سائر أُولي العزم من الرسل الذين بينهما، أعني ﴿إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ وذلك المُوصى به والمُوحى إليك أمرٌ واحدٌ، وهو ﴿أَنْ أَقِيمُوا﴾ وأشيعوا متّفقاً في النّاس ﴿ٱلدِّينَ﴾ المرضيّ عند الله، وهو الاسلام المركّب من التوحيد، والمعارف

١. تفسير روح البيان ٨: ٢٩٣.

٢. في النسخة: العباد.

الإلهية، والمعاد، والأخلاق، والزُّهد في الدنيا، والإقبال إلى الآخرة، وتظاهروا على حِفظه والمواظبة عليه ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾ ولا تختلفوا ﴿فِيهِ﴾.

أقول: فيه دلالةٌ على أنّ أصل الدين من أول الدنيا الاسلام، والأحكام فروعه التي تختلف باختلاف الاعصار.

وقيل: إنّ المراد اجتمعوا على التوحيد، ولا تتفرّقوا بآلهةٍ كثيرة، فانّ ذلك خلاف العقل، ومع ذلك ﴿كَبُرَ﴾ وثقُل وشقّ ﴿عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ قَبول ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد ورفض عبادة الأصنام، لخُبث طينتهم، وضَعْف عقولهم و ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِى﴾ ويجمع ويجلُب ﴿إِلَيْهِ﴾ ويوفّق لقبول توحيده ﴿مَن يَشَآءُ﴾ توفيقه وجلبه ﴿وَيَهْدِى إِلَيْهِ﴾ بالإرشاد والإمداد وألطافه الخاصّة ﴿مَن يُنِيبُ﴾ ويُقبِل إليه بقلبٍ سليم.

روي أنّه تعالى قال: من تقرّب منّي شِبراً، تقرّبت منه ذِراعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولةً[١].

قيل: إنّ المعنى من أقبل إليّ بطاعته، أقبلت إليه بهدايتي وإرشادي بأن أشرح صدره وأسهّل أمره[٢].

عن الباقر عليه السلام: «أنّ الله بعث نوحاً إلى قومه أن أعبدُوا الله واتّقوه وأطيعوني، ثمّ دعاهم إلى الله وحده، وأن يعبُدوه ولا يُشركوا به شيئاً، ثمّ بعث الأنبياء على ذلك، إلى أن بلغوا محمداً صلى الله عليه وآله فدعاهم إلى أن يعبُدو الله، ولا يُشركوا به شيئاً، وقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِنَ ٱلدِّينِ﴾ إلى قوله: ﴿مَن يُنِيبُ﴾ فبعث الأنبياء إلى قومهم بشهادة أن لا إله إلّا الله، والإقرار بما جاء من عند الله، فمن آمن مُخلِصاً، ومات على ذلك، أدخله الله الجنّة بذلك، وذلك أنّ الله ليس بظلامٍ للعبيد، وذلك إن الله لم يكن يُعذّب عبداً[٣] حتى يغلَظ عليه في القتل والمعاصي التي أوجب الله عليه بها النار، فلمّا استجاب لكلّ نبيٍّ من استجاب له من قومه من المؤمنين، جعل لكلّ نبيٍّ شرعةً ومِنهاجاً، والشرعة[٤] والمِنهاج سبيلٌ وسُنّة»[٥].

وعن الرضا عليه السلام في تأويله: «نحن الذين شَرَع الله لنا دينه، فقال في كتابه: ﴿شَرَعَ لَكُم﴾ يا آل محمد ﴿مِنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً﴾ ووَصّينا بما وَصّى به نوحاً، ﴿وَٱلَّذِى أَوحَينَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ فقد أعلمنا وبلّغنا علم ما علمنا، واستودعنا علمهم، نحن وَرَثة أوْلوا العزم من الرسل ﴿أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ﴾ يا آل محمد ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾ وكونوا على جماعة ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ من أشرك بولاية عليّ ﴿مَا تَدْعُوهُمْ﴾ من ولاية علي، إنّ ﴿ٱللَّهُ﴾ يا محمّد ﴿يَهْدِى

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢٧: ١٥٧.
٣. في النسخة: أنه إن لم يكن يعذب أبداً.
٤. في النسخة: والشرع.
٥. الكافي ٢: ١/٢٤، تفسير الصافي ٤: ٣٦٩.

﴿إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ من يُجيبك إلى ولاية عليّ»[١].

وعن الصادق عليه السلام: **﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾** قال: «الامام **﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾** كناية عن أمير المؤمنين **﴿مَا تَدْعُوهُمْ﴾** من ولاية عليّ **﴿مَن يَشَاءُ﴾** كناية عن عليّ عليه السلام...»[٢].

أقول: لا يَخفى اغتشاش الروايتين على ما وجدتهما.

وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمَّىً لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ * فَلِذٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ [١٤ و ١٥]

ثمّ بيّن سبحانه علّة اختلاف الأمم بعد اتفاق الأنبياء في الدين، ونهي الناس عن التفرّق فيه بقوله: **﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾** وما اختلفوا في الدين الحقّ في وقت **﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ﴾** وحصل لهم **﴿الْعِلْمُ﴾** بحقّانية ذلك الدين المتّفق عليه، بالحجج الظاهرة، والبراهين القاطعة **﴿بَغْياً﴾** وطلباً للدنيا وشهواتها وجاهها، أو ظُلماً وعِناداً **﴿بَيْنَهُمْ﴾** لا لخفاء الحقّ والشُّبهة فيه **﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ﴾** وعِدَةٌ **﴿سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ﴾** بإمهالهم وتأخير عقوبتهم **﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمَّىً﴾** ووقتٍ معينٍ عند الله، وهو يوم القيامة، أو آخر أعمارهم المُقدّرة، والله **﴿لَقُضِيَ﴾** وحُكِم **﴿بَيْنَهُمْ﴾** باستئصالهم بالعذاب لغاية استحقاقهم وعظمة عصيانهم بالكفر بالتوحيد، وإنكار رسالة الرسول، مع ظهور معجزاته وكثرة دلائل صدقه **﴿وَإِنَّ﴾** اليهود والنصارى **﴿الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ﴾** السماوي من سابقيهم، ووصل إليهم التوراة والإنجيل **﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾** وفي عصر نبيّكم، لا يكونون بقاطعين بكذب القرآن، بل هم والله **﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾** وترديدٍ في صدقه **﴿مُرِيبٍ﴾** ومُوقعٍ لقلوبهم في القلق والاضطراب.

وقيل: إنّ المراد أنّهم لفي شكّ من كتابهم لا يؤمنون به حقيقةً[٣] **﴿فَلِذٰلِكَ﴾** التفرّق والشكّ الذي يكون لهم في كتابك، أو كتابهم **﴿فَادْعُ﴾** جميع الناس إلى دين الله وتوحيده وكتابه **﴿وَاسْتَقِمْ﴾** واثبت على الدعوة كما **﴿أُمِرْتَ﴾** من قبل ربّك **﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾**.

روي أنّه قال الوليد بن المُغيرة للنبيّ صلّى الله عليه وآله: ارجع عمّا أنت عليه إلى دين آبائك، أُعطك نصف مالي.

---

١. بصائر الدرجات: ١/١٣٩، الكافي ١: ١/١٧٤، تفسير الصافي ٤: ٣٦٨.

٢. تفسير القمي ٢: ٢٧٤، تفسير الصافي ٤: ٣٦٨. ٣. تفسير روح البيان ٨: ٢٩٩.

وقال له شيبة بن ربيعة: إن رجعت إلى دين آبائك أزوّجك بنتي. فنزلت ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾[١].

﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾ أيّ كتابٍ كان من الكتب المنزلة، ولست كالذين قالوا نؤمن ببعضٍ ونكفُر ببعضٍ ﴿وَأُمِرْتُ﴾ أيضاً من قبل ربّي ﴿لِأَعْدِلَ﴾ في الحكم ﴿بَيْنَكُمُ﴾ إذا تحاكمتم إليّ، أو المراد لأسوّي بين ضعيفكم وقويكم ووضيعكم وشريفكم في الدعوة والهداية، أو أسوّي بينكم وبين نفسي بأن أحبّ لكم ما أحبّ لنفسي، ولا أفرّق بين نفسي وبينكم، بأن آمركم بما لا أعمل به، وأنهاكم عمّا لا انتهي عنه ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ ليس ربي غير ربّكم ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا﴾ وجزاؤها، لا أعذّب بسيئاتكم، ولا تُعذّبون بسيئاتي، فوجب أن يهتمّ كلّ أحدٍ باصلاح عمل نفسه ﴿لَا حُجَّةَ﴾ باقية، ولا مجال بعد للمُحاجّة ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ لأنه أقمتُ عليكم حُجّتي، ووضح عندكم صدقي، فاذا جاء يوم القيامة ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ في صعيدٍ واحدٍ ﴿وَإِلَيْهِ﴾ وحده ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ وإلى حُكمه المَرجع، لا يحكم بين الخلق إلّا هو، ولا يمتنع أحدٌ عن نفوذ حكمه عليه، فيُجازينا وإيّاكم على أعمالنا بعد تمامية الحُجّة علينا في الدنيا.

وَٱلَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ * ٱللَّهُ ٱلَّذِى أَنزَلَ ٱلْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ * يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَا إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ[١٦ـ١٨]

ثمّ لمّا كان لليهود والنصارى مجال الاحتجاج على صحّة دينهم، بأنّه ممّا اتفق عليه، فلزم أن يكون حقاً، ردّ الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَاجُّونَ﴾ ويُخاصمون النبيّ صلى الله عليه وآله والمؤمنين ﴿فِى﴾ دين ﴿ٱللَّهِ﴾ الذي دعا إليه الرسول ﴿مِن بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُ﴾ من قبل كثيرٍ من الناس، أو من قبل المُحاجّين في عالم الذرّ ويوم الميثاق ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ وباطلة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ لأنّهم اتّفقوا على وجوب الايمان بمن أدّعى الرسالة، وأتى بمُعجِزةٍ دالةٍ على صدقه، ولذا آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام، فلَزِم من ذلك الإيمان بمحمد صلى الله عليه وآله حيث أتى بمعجزات شاهدوها دالة على صِدق دعوى رسالته، فليس لهم التفكيك بين الايمان بموسى عليه السلام والايمان بمحمد صلى الله عليه وآله.

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٢٩٩.

ثمَ هدّدهم سبحانه على أباطيلهم بقوله: ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ شديدٌ من الله لمكابرتهم الحقّ بعد ظهوره ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يُوصف بالبيان على كفرهم.

ثمّ أكد نزول القرآن من الله بقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾ هو اللطيف ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ الجامع للعلوم والأحكام مقروناً ﴿بِالْحَقِّ﴾، وشواهد الصدق، ﴿وَ﴾ أنزل ﴿ٱلْمِيزَانَ﴾ قيل: هو الشرع الذي يُوزَن به الأعمال، ويُعيَن به وزن الأشخاص، ويُعتَبر به الحُقوق[1]. وقيل: هو كناية عن نفس العدل في الحقوق، وإنزاله كنايةٌ عن الأمر به[2]، أو المراد به معناه الحقيقي لما[3] روي أنّ جَبْرئيل نزل بالميزان، فدفعه إلى نوح، فقال له: مُر قومك يَزنوا به[4].

وقيل: إنّ المراد به خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله[5]. وقال القمي: هو أمير المؤمنين عليه السلام[6].

أقول: لاشك أن المَعْنَيين واحدٌ، وإنّما قَرَن الله الميزان بالكتاب تنبيهاً على أن العدل في الحقوق أهمّ الأمور بعد التوحيد، وأنّه المقصود المهمّ من الكتاب، وأنّ العدل وميزان الأعمال هو المهمّ في القيامة، ولذا ذكرها بعده بقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ يا محمد، وأيّ شيءٍ يُعلِمك بحال الساعة التي هي من العِظم والشدّة والخَفاء بحيث لا يَعلم وقت وقوعها أحدٌ إلّا بإعلامنا ﴿لَعَلَّ﴾ تلك ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ التي نَطَق بمجيئها الكتاب شيءٌ ﴿قَرِيبٌ﴾ مجيئها، فكونوا منها على حَذَرٍ، وتهيئوا لها بأعمالكم، والعجب أنّه مع ذلك ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا﴾ وسأل سرعة مجيئها استهزاءً بالكتاب وبالنبي المُخبرين بوقوعها الكفّار ﴿ٱلَّذِينَ﴾ لا يعتقدون بالساعة و ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ لعدم خوفهم منها، ويقولون: متى هي؟ ليتها قامت حتى يظهر أنّا على الحقّ أم محمد ﴿وَ﴾ لكن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بها بإخبار النبيّ صلى الله عليه وآله وكتابه كلّهم ﴿مُشْفِقُونَ﴾ وخائفون ﴿مِنْهَا﴾ ويتداركون لها، ويتمنّون تأخيرها، لأنّهم يتيقّنون ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ الواقع لا محالة ﴿أَلَآ﴾ أيها العقلاء اعلموا ﴿إِنَّ﴾ السُفهاء ﴿ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ﴾ ويُجادلون النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين ﴿فِى﴾ إمكان وقوع ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ وينكرون مجيئها عِناداً ولَجاجاً، والله ﴿لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ عن الحقّ، لوضوح إمكانه، وكمال قُدرة الله على إتيانها، ووضوح وجوب الوفاء بالوعد على الله، ووجوب وقوعها، لأنّ استيفاء حقّ المظلوم من الظالم، وعدم التسوية بين المطيع والعاصي واجبٌ، فلو لم تجيء الساعة لَزِم تضييع حقّ المظلوم والمطيع، وهو محال على الله.

ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ[١٩]

---

١ ـ ٤. تفسير روح البيان ٨: ٣٠١.

٥. مجمع البيان ٩: ٤٠، تفسير روح البيان ٨: ٣٠٢.

٦. تفسير القمي ٢: ٢٧٤، تفسير الصافي ٤: ٣٧٠.

ثمّ لمّا بيّن سبحانه إنزاله الكتاب والميزان، نبّه كونه لُطفاً بعباده بقوله: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌ﴾ وكثير الاحسان ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾ المؤمنين، حيث هداهم إلى الإيمان والخيرات الدنيوية والأُخروية بإنزال الكتاب وإرسال الرسول.

ثمّ لمّا كان مجال القول بأنّ الرزق لُطفٌ، وهو للكفّار أكثر من المؤمنين، نبّه بأنّه ليس من جهة اللُّطف بقوله: ﴿يَرْزُقُ﴾ من نِعمه الدُّنيوية ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أن يَرْزُقه من المؤمن والكافر ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ﴾ القادر على ما يشاء ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغالَب ولا يُدافَع، ويُحتَمل أن لا تكون قضية ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ لدفع الدَّخل المقدّر، بل للاستشهاد بها على عموم لُطفه، والمعنى أنّ شاهد لُطفه أنّه يرزُق من يشاء أن يرزُقه كيفما يشاء، فيخُصّ كلاً من عباده بنوعٍ من الرزق على حسب ما تقتضيه مشيئته المبنية على الحِكمة البالغة.

روى بعض العامة عن الصادق عليه السلام، أنّه قال: «لُطفه في الرزق الحلال، وتقسيمه على الأحوال»[١].

وقيل: يرزُق من يشاء بغير حساب[٢].

في (الكافي) عن الصادق عليه السلام. قيل له: الله لطيفٌ بعباده يرزُق من يشاء. قال: «ولاية أمير المؤمنين عليه السلام»[٣].

مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ[٢٠]

ثمّ إنّه تعالى بعد إظهار لُطفه بعباده، حثّهم على العمل للآخرة بقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ بعمله ﴿حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾ فانّه كالبذر لفوائدها والثمرات الأبدية ﴿نَزِدْ﴾ ونُضاعِف ﴿لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ وأجره وثوابه بالواحد عشرة إلى سبعمائة فما فوقها ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ﴾ بأعماله ﴿حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ وفوائدها من الأمتعة والأموال والجاه والرئاسة ﴿نُؤْتِهِۦ﴾ شيئاً ﴿مِنْهَا﴾ حسبما قَسَمنا له.

روت العامة عن النبي صلى الله عليه وآله: «من كانت نيّته الآخرة، جمع الله شمله، وجعل غِناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمةٌ، ومن كانت نيّته الدنيا، فرّق الله عليه أمره، وجعل فَقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلّا ما كتب الله له»[٤] ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ شيءٌ ﴿مِن نَّصِيبٍ﴾ من الثواب، وحظٌّ من النِّعم، إذ كانت همّته مقصورةً على الدنيا، ولكلّ امرئٍ ما نوى.

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٣٠٥.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٣٠٤.

٣. الكافي ١: ٩٢/٣٦١، تفسير الصافي ٤: ٣٧١.

٤. مجمع البيان ٩: ٤١، تفسير الصافي ٤: ٣٧١.

عن الصادق عليه السلام: «المال والبنون حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة، وقد يجمعها الله لأقوام»[1].

وعنه عليه السلام: «من أراد الحديث لمنفعة الدنيا، لم يكن له في الآخرة نصيبٌ، ومن أراد به خير الآخرة أعطاه الله خير الدنيا والآخرة»[2].

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ ٱللهُ وَلَوْلاَ كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * تَرَى ٱلظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ * ذٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ[٢١ ـ ٢٣]

ثمّ إنّه تعالى بعد إظهار مِنّته على العباد، بتشريع الدين المرضيّ عنده لهم، وإنزال الكتاب والميزان، وبّخ المشركين بقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ﴾ من الأصنام. قيل: إنّ المعنى بل لهم من شياطين الانس والجنّ[3] الذين زيّنوا لهم عبادة الأصنام ﴿شُرَكَاءُ﴾ لله ﴿شَرَعُوا﴾ وسنّوا ﴿لَهُم مِنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ ٱللهُ﴾ ولم يرضَ به من الشرك وإنكار البعث وحُرمة السائبة والوصيلة وأخواتهما﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةُ ٱلفَصْلِ﴾ والوعد السابق بإمهالهم وتأخير عذابهم إلى الموت، أو الوعد بأنّ الفصل يكون القيامة، والله ﴿لَقُضِىَ﴾ بين الكافرين والمؤمنين، أو بين المشركين وشركائهم، ويحكم ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بنزول العذاب ﴿وَإِنَّ﴾ المشركين الذين هم أظلم ﴿ٱلظَّالِمِينَ لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وعقابٌ مُوجعٌ غايته.

ثمّ شرح سبحانه حال المشركين والموحّدين في الآخرة بقوله: ﴿تَرَى﴾ يا محمد، أو أيّها الرائي المشركين ﴿ٱلظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بإهلاكها بسبب سوء العقائد والأعمال ﴿مُشْفِقِينَ﴾ وخائفين غاية الخوف ﴿مِن﴾ عذاب ﴿مَا كَسَبُوا﴾ و عَمِلوا من القبائح والسيئات ﴿وَهُوَ﴾ لا محالة ﴿وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ وهم واقعون فيه، [سواء] كان مشفقين منه أم لا ﴿وَ﴾ أما ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله ﴿وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿ٱلصَّالِحَاتِ﴾ فانّهم متمكّنون ﴿فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ وأطيب البساتين وأنزهها ﴿لَهُم مَا يَشَاءُونَ﴾ ويشتهون من النِّعم واللّذات المدّخرة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ومَليكهم اللطيف

---

١. تفسير القمي ٢: ٢٧٤، تفسير الصافي ٤: ٣٧١.
٢. الكافي ١: ٢/٣٧، تفسير الصافي ٤: ٣٧١.
٣. تفسير روح البيان ٨: ٣٠٨.

بهم ﴿ذٰلِكَ﴾ المذكور من المسكن الطيّب والنِّعم الفائقة المُعدّة للمؤمنين ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ والإنعام العظيم الذي تَصغُر دونه الدنيا بحذافيرها ألف ألف مرّة ﴿ذٰلِكَ﴾ الفضل الكبير هو الثواب ﴿ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ﴾ به في الدنيا ﴿عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ على لسان نبيه، وفيه غاية تعظيم الأجر المذكور على الايمان والعمل الصالح.

قُل لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ [٢٣]

ثمّ لمّا كان مجال توهُّم الجاهل طمع النبيﷺ في الأجر على تبليغ الكتاب وتبشير المؤمنين بالأجر العظيم، أمر الله نبيّهﷺ بالاعلان بأن لا طمع له في الأجر بالمال والجاه من أحدٍ بقوله: ﴿قُل﴾ يا محمد، للناس: إنّي ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ﴾ ولا أتوقّع منكم على التبليغ والتبشير ﴿عَلَيْهِ أَجْراً﴾ وعوضاً دنيوياً من مالٍ وجاه وغيرهما، كما لا يطلُب الله منكم على هدايتكم وإنعامه عليكم ولا الأنبياء السابقون على تبليغهم أجراً وعِوضاً ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ﴾ الكائنة ﴿فِى﴾ ذوى ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ومن انتسب إليَ بالنسب.

روى بعض العامة أنّه اجتمع المشركون في مجمع لهم فقال بعضهم: أترون أن محمداً لا يسأل على ما يتعاطاه أجراً، فنزلت[١].

وعن الصادقعليه السلام، قال: «لمّا رجع رسول اللهﷺ من حجّة الوَداع وقَدِم المدينة، أتته الأنصار، فقالوا: يا رسول الله، إنّ الله تعالى قد أحسن إلينا، وشرّفنا بك، وبنزولك بين ظَهْرانينا، فقد فرّح الله صديقنا، وكبت عدوّنا، وقد تأتيك وفودٌ فلا تجد ماتُعطيهم، فيشمتُ بك العدوّ، فنُحِبّ أن تأخذ ثُلث أموالنا، حتى إذا قَدِم عليك وفد مكّة وجدت ما تُعطيهم. فلم يَرُدَّ رسول اللهﷺ عليهم شيئاً، وكان ينتظر ما يأتيه من ربّه، فنزل جَبْرئيل عليه وقال: ﴿قُل لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ولم يقبل أموالهم. فقال المنافقون: ما أنزل الله هذا على محمد، وما يُريد إلّا أن يرفع بضَبْع ابن عمّه، ويحمل علينا أهل بيته، يقول أمسِ من كنت مولاه، فعلي مولاه، واليوم ﴿قُل لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾»[٢].

روى بعض العامة: أنّها لمّا نزلت قيل: يا رسول الله، من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: «علي وفاطمة وابناي الحسن والحسين»[٣].

---

١. تفسير أبي السعود ٨: ٣٠، تفسير روح البيان ٨: ٣١٠.

٢. الكافي ١: ٣/٢٣٤، تفسير الصافي ٤: ٣٧٢.

٣. تفسير الرازي ٢٧: ١٦٦، تفسير البيضاوي ٢: ٣٦٢، تفسير أبي السعود ٨: ٣٠، تفسير روح البيان ٨: ٣١١.

وروى العلامة عن الجمهور في الصحيحين، وأحمد بن حنبل في مسنده، الثعلبي في تفسيره عن ابن عباس، قال: لمّا نزلت: ﴿قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ﴾ قالوا: يا رسول الله، من قرابتك الذين وجبت علينا مودّتهم؟ قال ﷺ: «علي وفاطمة وابناهما»[١].

وردَ بعض العامة هذه الرواية بأنّ السورة مكّية من غير استثناء منها، ولم يكن لفاطمة حينئذٍ أولاد[٢].

في ردّ بعض العامة

أقول: فيه أنّ الدعوى ممنوعة، لما رُوي عن الصادق عليه السلام أنّها مدنية[٣]، مع أنّه يُحتَمل تَكْرار نزولها،وكان السؤال بعد نزولها في المدينة.

وعن الصادق عليه السلام، عن آبائه: «لما نزلت هذه الآية، قام رسول الله ﷺ فقال: أيّها الناس، إنّ الله تبارك وتعالى قد فرض عليكم فرضاً، فهل أنتم مؤدّوه؟ فلم يُجبه أحدٌ منهم، فانصرف. فلمّا كان من الغد قام فقال مثل ذلك، فلم يُجبه أحدٌ، ثمّ قام فقال مثل ذلك في اليوم الثالث، فلم يتكلّم أحدٌ، فقال ﷺ: إنّه ليس من ذهبٍ ولا فضّةٍ ولا مَطْعَم ولا مشرب. قالوا: فألقه إذاً. قال: إنّ الله تبارك وتعالى أنزل عليّ ﴿قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ﴾ فقالوا: أمّا هذه فنعَم».

قال الصادق عليه السلام: «فو الله ما وفى بها إلّا سبعة: سلمان، وأبو ذرّ، وعمّار، والمقداد بن الأسود الكِندي، وجابر بن عبدالله الأنصاري، ومولى لرسول الله، وزيد بن أرقم»[٤].

أقول: هذه الرواية منافية لما روي عنه عليه السلام في شأن نزولها، إلّا أن يُقال إنّ قيامه كان في مجمعٍ جمع من المنافقين، لم يكن فيهم أحدٌ من الخُلّصين كسلمان وأضرابه، ومن الذين التمسوا منه قبول ثُلث أموالهم للبذل للوفّاد.

وعن عليّ عليه السلام، قال: «فينا في حم آية، لا يَحْفَظ مودّتنا إلّا كلّ مؤمنٍ» ثمّ قرأ هذه الآية[٥].

وعن الصادق عليه السلام، قال: «ما يقول أهل البصرة في هذه الآية ﴿قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ الآية؟ قيل: إنّهم يقولون إنّها لأقارب رسول الله ﷺ. قال: «كذبوا، إنّما نزلت فينا خاصة؛ في أهل البيت عليّ وفاطمة والحسن والحسين أصحاب الكساء»[٦].

وعن الباقر عليه السلام أنّه سُئِل عنها فقال: «هم الأئمّة عليهم السلام»[٧].

وعن عليّ عليه السلام، أنّه قال: «قال رسول الله ﷺ: من لم يُحِبّ عِترتي فهو لإحدى ثلاث: إمّا منافق،

---

١. نهج الحق: ١٧٥/٤. ٢. تفسير روح البيان ٨: ٣١١.

٣. لم نعثر عليه وعلى فرض وجود تلك الرواية اريد بها بعض آياتها كما هو معلوم وصرح به في بعض الروايات.

٤. قرب الإسناد: ٢٥٤/٧٨، تفسير الصافي ٤: ٣٧٢. ٥. مجمع البيان ٩: ٤٣، تفسير الصافي ٤: ٣٧٣.

٦. الكافي ٨: ٦٦/٩٣، تفسر الصافي ٤: ٣٧٣. ٧. الكافي ١: ٧/٣٤٢، تفسير الصافي ٤: ٣٧٣.

وإمّا لزنية، وإمّا حملت به أمه في غير طُهر»[١].

وعن النبي ﷺ: «أنّ الله خلق الأنبياء من أشجارٍ شتّى، وخُلِقت أنا وعليّ من شجرةٍ واحدةٍ أنا أصلها، وعلي فَرعها، وفاطمة لِقاحها، والحسن والحسين ثِمارها، وأشياعنا أوراقها، فمن تعلّق بغُصنٍ من أغصانها نجا، ومن زاغ هوى، ولو أنّ عبداً عَبَد الله بين الصفا والمَروة ألف عامٍ ثمّ ألف عام ثمّ ألف عام حتى يصير كالشَّنّ[٢] البالي، ثمّ لو يُدرِك محبّتنا، أكبّه الله على مَنْخِريه في النار، ثمّ تلا: ﴿**قُل لَّآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ**﴾»[٣].

روى الزمخشري في (الكشاف) عن النبي ﷺ أنه قال: «من مات على حُبّ آل محمد مات شهيداً، ألا ومن مات على حُبّ آل محمد مات مغفوراً له، ألا ومن مات على حُبّ آل محمد مات تائباً، ألا ومن مات على حُبّ آل محمد مات مستكمل الايمان، ألا ومن مات على حُبّ آل محمد بشّره مَلَك الموت بالجنّة ثمّ مُنكرٌ ونكيرٌ، ألا ومن مات على حبّ آل محمد يُزَف إلى الجنّة كما تُزَفّ العروس إلى بيت زوجها، ألا ومن مات على حُبّ آل محمد فُتِح له من قبره بابان إلى الجنّة، ألا ومن مات على حُبّ آل محمد، جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة، ألا ومن مات على حُبّ آل محمد مات على السنّة والجماعة.

ألا ومن مات على بُغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوبٌ بين عينيه: آيس من رحمة الله، ألا ومن مات على بُغض آل محمد مات كافراً، ألا ومن مات على بُغض آل محمد لم يَشُمّ رائحة الجنة»[٤].

وقال الفخر الرازي: أنا أقول: آل محمد هم الذين يؤول أمرهم إليه، فكُلّ من كان أوّل أمره إليه أشدّ وأكمل، كان هو الآل، ولا شكّ أنّ فاطمة وعلياً والحسن والحسين كان التعلق بينهم وبين رسول الله أشدّ التعلّقات، وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر، فوجب أن يكونوا هم الآل. إلى أن قال: فاذا ثبت أنّ هؤلاء الأربعة أقارب النبي ﷺ، وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم. إلى أن قال: إنّ الدعاء للآل منصبٌ عظيمٌ، لذلك جُعِل خاتمة التشهّد في الصلاة، وهو قوله: «اللهمّ صلّ على محمدٍ وآل محمد، وارحم محمداً وآل محمد» وهذا التعظيم لم يُوجد في حقّ غير الآل[٥].

في ردّ فخر الرازي

أقول: جميع ما قال هذا الرجل يدُلّ على تقدّم عليّ عليه السلام على آئمّته، وعلى أفضلية فاطمة على عائشة، وكونها سيّدتها وسيّدة نساء العالمين.

---

١. الخصال: ٨٢/١١٠، تفسير الصافي ٤: ٣٧٤.
٢. الشّن: القِربة الخَلَق الصغيرة.
٣. مجمع البيان ٩: ٤٣، تفسير الصافي ٤: ٣٧٣.
٤. الكشاف ٤: ٢٢٠، تفسير الرازي ٢٧: ١٦٥.
٥. تفسير الرازي ٢٧: ١٦٥.

ثمّ قال: قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فيه منصبٌ عظيمٌ للصحابة، لأنه قال: ﴿والسابقون الاولون﴾[١] ﴿أولئك المقربون﴾[٢] فكلّ من أطاع الله كان مقرّباً عند الله، فدخل تحت قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

أقول: هذا الكلام ممّا تضحك به الثكلى، لأنّه يتِمّ بناءً على كون المراد من القُربى الذين تقرّبوا إلى الله ورسوله بالعبادة والطاعة، لا القُرب النسبي، ولا الأشخاص المعيّنة في الروايات النبوية بطرق عامية وخاصية، ولم يقل به أحدٌ.

وعلى الثاني لا يَدخُل في الآية غير الأربعة، أو المعصومين من ذُريّته، بناءً على التعدّي إلى نظائر الأربعة، وعلى الأول يَدخُل فيه الأشخاص الكثيرة، ولا اختصاص له بالسابقين من الصحابة.

وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ[٢٣]

ثمّ حثّ سبحانه المؤمنين على مودّة ذوى القربى بقوله: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ﴾ ويكتسب فِعلةً أو خَصْلةً ﴿حَسَنَةً﴾ عظيمة، وهي مودّة المذكور ﴿نَّزِدْ لَهُ﴾ في تلك الحسنة في الدنيا والآخرة، ونُضاعف ﴿فِيهَا حُسْناً﴾ أمّا في الدنيا فبالتوفيق والتأييد والإخلاص، وأمّا في الآخرة فبالمغفره والدرجات العالية والنِّعم التي يكون فَهْمها وفَهْم حُسنها خارجاً من طَوق البشر.

ثمّ بالغ سبحانه في تعظيم هذه الحسنة باظهار شكره لها بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لذنوب مُحبّي ذوي القربى و ﴿شَكُورٌ﴾ لاحسانهم عليه بهذه المودة التي هي أحبّ الأمور عنده، فانّ الشكر هو فعل ما يُنبيء عن تعظيم المُنعِم لكونه مُنعِماً، والوادّ لآل الرسول صلى الله عليه وآله كأنّه أنعم على الله بمودّته لهم، فشَكَر سبحانه هذه النعمة بتوفية ثوابها، والتفضّل عليه بما لا يُقادر قدره، وبإكرامه غايته.

قال الفخر الرازي: قيل: إنّها نزلت في أبي بكر، والظاهر أنّها للعموم في أي حسنةٍ كانت، إلّا أنها لمّا كانت عَقيب ذكر المودّة في القُربى دلّ على أن المقصود التأكيد في تلك المودّة[٣].

عن الصادق عليه السلام: «أنها نزلت فينا أهل البيت، أصحاب الكساء»[٤].

وعن الحسن المجتبى عليه السلام، أنه قال في خُطبة له: «إنّا من أهل بيتٍ افترض الله مودّتهم على كلّ مسلم، فقال: ﴿قُل لَّآ أَسْأَلُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿حُسْناً﴾ فاقتراف الحسنة مودّتنا أهل البيت»[٥].

وعن الباقر عليه السلام - في هذه الآية - قال: «من توالى الأوصياء من آل محمد وتَبع آثارهم، فذاك نزيده[٦]

---

١. التوبة: ٩/١٠٠. ٢. الواقعة: ٥٦/١٠. ٣. تفسير الرازي ٢٧: ١٦٧.

٤ و٥. مجمع البيان ٩: ٤٤، تفسير الصافي ٤: ٣٧٤. ٦. في الكافي: يزيده، وفي النسخة: تزيده.

ولاية من مضى من البيين والمؤمنين الأولين حتى تتصّل ولايتهم إلى آدم»[١] وعنه عليه السلام «الاقتراف التسليم لنا والصدق علينا ولا يكذب علينا»[٢].

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللهِ كَذِباً فَإِن يَشَإِ ٱللهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللهُ ٱلْبَاطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ[٢٤]

ثمَ لمَا بيّن سبحانه في أوّل السورة عظمة القرآن، وأنّه بوحي الله، وذكر بعده المطالب العالية التي لا تُصدَر من النبي الأمّي إلّا بوحيٍ، وبّخ المشركين على طعنهم فيه ونسبةالكذب إليه بقوله: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ**﴾ قيل إنّ المعنى بل أيقول[٣] هؤلاء المشركون: إنّ القرآن ليس وحياً من الله، بل ﴿**ٱفْتَرَىٰ**﴾ محمد بدعوى الرسالة من الله، ونسبة القرآن إليه ﴿**عَلَى ٱللهِ كَذِباً**﴾ مع تسالمهم على كونه صادقاً في سائر الأمور، اميناً من جميع الجهات، وأنّه اُمّي لا يقرأ كتاباً، ولم يُجالس عالِماً، ولم يتعلّم من أحدٍ، فهذه النسبة إليه من غاية الحُمق.

ثمَ لوّن الخطاب إلى النبي صلّى الله عليه وآله بقوله: ﴿**فَإِن يَشَاء ٱللهُ**﴾ ختم قلبك ﴿**يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ**﴾ ويَطبَع عليه حتى تفتري على الله مثل هذا الافتراء العظيم، فانّه لا يصدُر من أحدٍ إلّا كان مطبوع القلب مختوماً عليه، وفيه غاية استبعاد الافتراء منه صلّى الله عليه وآله.

وقيل: إنّ المراد إن يشأ الله يربُط على قلبك بالصبر على أذى المشركين حتى لا يَشُقّ عليك نسبتهم الافتراء إليك[٤].

وقيل: إنّ المعنى إن يشأ الله عدم صدور القرآن منك لمنعك عن التكلم بأن يختِم على قلبك، فلا يخطِر بقلبك معانية، ولا ينطُق لسانك بحرفٍ من حروفه، وحيث لم يكن الأمر كذلك، بل تواتر الوحي به حيناً بعد حين، تبيّن أنّه من عندالله[٥].

وبعبارة اُخرى المراد أنّ الله قادرٌ على أن يختِم على قلبك، ولو كنت مفترياً عليه لختم على قلبك، ولمّا لم تكن مفترياً عليه، لم يختِم على قلبك.

ثمَ أكّد سبحانه نفي الافتراء عن القرآن بقوله: ﴿**وَيَمْحُ ٱللهُ**﴾ بلُطفه الافتراء ﴿**ٱلْبَاطِلَ**﴾ ويَمْحَقه حتى لا يبقى على الأرض ﴿**وَيُحِقُّ**﴾ ويُثبِت ﴿**ٱلْحَقَّ**﴾ بين الناس إلى يوم القيامة ﴿**بِكَلِمَاتِهِ**﴾ وحُججه وبيّناته، أو بوحيه وقضائه، أو بسبب مواعيده المكرّرة المُؤكّدة.

---

١. الكافي ٨: ٥٧٤/٣٧٩، تفسير الصافي ٤: ٣٧٤.
٢. الكافي ١: ٤/٣٢١، تفسير الصافي ٤: ٣٧٤.
٣. تفسير أبي السعود ٨: ٣٠، تفسير روح البيان ٨: ٣١٣.
٤. تفسير أبي السعود ٨: ٣١.
٥. تفسير أبي السعود ٨: ٣١، تفسير روح البيان ٨: ٣١٣.

أقول: يُحتَمل أن يكون هذا وعداً من الله لرسوله ﷺ بأنّه يمحو الباطل الذي عليه المشركون من البَهت والفِرية والتكذيب، ويُثبت الحقّ الذي كان عليه محمد ﷺ، أو القرآن الذي أتى به.

﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ومُطّلع على الضمائر، فيعلم ما في قلبك وقلوب أعدائك، فيُجري الأمر على حسب ذلك، ولا يخفى عليه صدق نيّتك وسوء ظنّ المشركين في حقّك، فيجزي كلّاً على حسب ما في قلبه.

عن الباقر عليه السلام - تأويل الآية - يقول: «لو شئت حبست عنك الوحي، فلم تُكلّم بفضل أهل بيتك ولا بمودّتهم، وقال الله: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ يقول: يحقّ لأهل بيتك الولاية ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يقول: بما ألقوه في صدورهم من العداوة لأهل بيتك والظُّلم بعدك»[1].

وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ[٢٥]

ثمّ ندب سبحانه المشركين إلى التوبة ممّا هم فيه من الشرك وسوء الظنّ بالنبي بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ الإله العطوف ﴿الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ العاصين، ويتجاوز عن سيئاتهم التي تابوا منها، ونَدِموا عليها.

عن ابن عباس: هي عامة للمؤمن والكافر، والوليّ والعدوّ، فمن تاب منهم قبل الله توبته[2].

في شرائط التوبة المقبولة

روى بعض العامة عن جابر بن عبدالله الأنصاري: أنّ أعرابياً دخل مسجد رسول الله ﷺ وقال: اللهمّ إنّي استغفرك وأتوب إليك، وكبّر فلمّا فرغ من صلاته قال له علي عليه السلام: «يا هذا، إنّ اللسان بالاستغفار توبة الكذّابين، وتوبتك هذه تحتاج إلى التوبة».

فقال: يا أمير المؤمنين، ما التوبة؟ قال: «التوبة تقع على ستة معانٍ: على الماضي من الذنوب بالندامة، وعلى تضييع الفرائض بالإعادة، وردّ المظالم، وإذابة النفس في الطاعة كما ربّيتها في المعصية، وإذاقتها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية، والبكاء بدل كلّ ضَحِكٍ ضَحِكته»[3].

ثمّ بالغ سبحانه في إظهار الرأفة بعباده بقوله: ﴿وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ صغيرها وكبيرها، لمن يشاء برحمته، وإن لم يتوبوا ﴿وَ﴾ إنّه تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من خيرٍ وشرٍّ، فيُجازي التائب، ويتجاوز عن غير تائبٍ حسبما تقتضيه مشيئته البليغة المبتنية على الحكم والمصالح.

عن الحسين بن علي سيد الشهداء عليه السلام قال: «اجتمع المهاجرون والأنصار إلى رسول الله ﷺ

---

١. الكافي ٨: ٥٧٤/٣٧٩، تفسير الصافي ٤: ٣٧٤. ٢. تفسير روح البيان ٨: ٣١٤.
٣. تفسير الرازي ٢٧: ١٦٨، تفسير أبي السعود ٨: ٣١، تفسير روح البيان ٨: ٣١٤.

فقالوا: إنّ لك ـ يا رسول الله ـ في نفقتك، وفيمن يأتيك من الوفود حاجةً، وهذه أموالنا مع دمائنا، فاحكُم بارّاً مأجوراً، أعطِ ماشئت، وأمسك ما شئت من غير حَرَج.

قال: فأنزل الله **﴿قُل لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾** يعني أن تَوَدّوا قرابتي من بعدي، فخرجوا فقال المنافقون: ما حمل رسول الله على ترك ما عرضنا عليه إلّا ليحثنا[1] على قرابته من بعده، إن هو إلّا شيء افتراه محمد في مجلسه. وكان ذلك من قولهم عظيماً، فأنزل الله تعالى: **﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ فَلاَ تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾**[2] فبعث إليهم النبيّ ﷺ فقال: هل من حَدَثٍ؟ فقالوا: إي والله يا رسول الله، لقد قال بعضنا كلاماً عظيماً كَرِهناه، فتلا رسول الله ﷺ الآية، فبكوا واشتدّ بُكائهم، فأنزل الله عز وجل: **﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾** الآية»[3].

وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِن فَضْلِهِ وَٱلْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ[٢٦]

ثمّ أعلن سبحانه بفضله على المطيعين من المؤمنين بقوله: **﴿وَيَسْتَجِيبُ﴾** الله دعاء **﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾** إذا دعوه، ويُثيبهم على طاعتهم. قيل: شبّه سبحانه إثابة المؤمنين على طاعتهم باستجابة دعائهم؛ لأنّ في طاعته طلب الثواب[4] **﴿وَيَزِيدُهُم﴾** على ما سألوه **﴿مِن فَضْلِهِ﴾** وكرمه.

وقيل: يعني ويستجيب المؤمنون لله بالطاعة، ويزيدهم الله على ما استحقّوه من الثواب تفضّلاً[5]، كما قال: **﴿استجيبوا لله وللرسول﴾** فكأنّه قال تعالى: والله يدعو إلى دار السلام، ويستجيب الذين آمنوا.

وقال بعض العامة: الزيادة مفسّرة بالشفاعة لمن وجبت له النار[6]. ورواه في (المجمع) عن النبيّ ﷺ[7].

وعن الباقر عليه السلام في قوله: **﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾** [قال:] «هو المؤمن يدعو لأخيه بظهر الغيب، فيقول له المَلَك: آمين، ويقول العزيز الجبّار: ولك مثلا ما سألت، وقد أعطيت ما سألت لحبّك إياه»[8].

ثمّ إنّه تعالى بعد إظهار لُطفه بالمؤمنين، أعلن بغضبه على الكفار بقوله: **﴿وَٱلْكَافِرُونَ﴾** بالله ورسله

---

١. في النسخة: ليحبنا. ٢. الاحقاف: ٨/٤٦.
٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/٢٣٥، تفسير الصافي ٤: ٣٧٥.
٤. تفسير روح البيان ٨: ٣١٦. ٥. تفسير روح البيان ٨: ٣١٦.
٦. تفسير روح البيان ٨: ٣١٧. ٧. مجمع البيان ٩: ٤٦، تفسير الصافي ٤: ٣٧٦.
٨. الكافي ٢: ٣/٣٦٨، تفسير الصافي ٤: ٣٧٦.

وكتبه والدار الآخرة ﴿لَهُمْ﴾ فيها ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بالنار، والقول بأنّ الآيه تدلّ بدليل الخطاب على ثُبوت العذاب غير الشديد للمؤمن فاسدٌ، لعدم حُجّته دليل الخطاب.

وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ[٢٧]

ثمّ لمّا وعد سبحانه إجابة دُعاء المؤمن، كان مجال السؤال أنّه كيف يكون ذلك مع ضيق معيشة كثيرٍ من المؤمنين وابتلائهم بالشدّة من جهتها مع استجابة دعائهم؟ فأجاب سبحانه عن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ﴾ وسّعه عليهم في الدنيا، والله ﴿لَبَغَوْا﴾ وطغوا ﴿فِى﴾ وجه ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ ولَهَو عن ذكر الله، وانهمكوا في الشهوات والمعاصي، أو لتكبّروا في أنفسهم.

عن ابن عباس: بغيهم في الأرض طلبهم منزلةً بعد منزلةٍ، ومركباً بعد مركبٍ، وملبساً بعد ملبسٍ[١].

وقيل: يعني يظلم بعضهم بعضاً[٢].

﴿وَلَٰكِن﴾ لُطفاً بالعباد ﴿يُنَزِّلُ﴾ الله رزقهم ﴿بِقَدَرٍ﴾ معينٍ، وحدٍّ محدودٍ في علمه ﴿مَّا يَشَآءُ﴾ أن يُنزله من الرزق بما تقتضيه مشيئته وحكمته، وما يكون صلاحهم في دينهم ودنياهم.

عن الصادق عليه السلام: «لو فعل لفعلوا، ولكن جعلهم محتاجين بعضهم إلى بعضٍ، واستعبدهم بذلك، ولو جعلهم كلّهم أغنياء لبَغَوا»[٣].

﴿إِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾ وبخفايا أُمورهم ومصالحهم وجلاياها ﴿خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾.

ذكر حديث قدسي

عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وآله، عن جَبرئيل، عن الله تعالى، أنّه قال: «من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وإنّي لأسرع شيء إلى نُصرة أوليائي، وإنّي لأغضب لهم كما يغضَب الليث الجريء، وما تقرّبَ إليّ عبدي المؤمن بمثل أداء ما افترضت عليه، وما زال عبدي المؤمن يتقرّب إلي بالنوافل حتى أُحبّه، فاذا أحببته كنتُ له سمعاً وبصراً ويداً مؤيداً، إن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته».

إلى أن قال: «وإنّ من عبادي المؤمنين لمَن يسأل الباب من العبادة فأكُفه عنه، لئلا يَدْخُله عُجبٌ فيُفسِده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمَن لا يُصلِح إيمانه إلّا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإنّ من عبادي المؤمنين لمَن لا يُصلِح إيمانه إلّا الغنى، ولو افقرته لأفسده ذلك، وإنّ من عبادي المؤمنين لمَن لا يُصلِح إيمانه إلّا الصحّة، ولو اسقمته لأفسده ذلك، وإنّ من عبادي المؤمنين لمَن لا يُصلِح

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٨: ٣١٨.

٣. تفسير القمي ٢: ٢٧٦، تفسير الصافي ٤: ٣٧٦.

إيمانه إلّا السّقمَ، ولو أصححته لأفسده ذلك، إنّي أُدبّر أمر عبادي بعلمي بقلوبهم، إنّي بعبادي خبيرٌ بصيرٌ»[١].

رُوي عن خَبّاب بن الأرَتّ: أنّ الآية فينا نزلت، وذلك أنّا نظرنا إلى أموال بني قُريظة وبني النَّضير وبني قَيْنُقاع فتمنيناها[٢]. وقيل: نزلت في أهل الصُّفّة، تَمَنّوا سَعَة الرزق والغنى[٣].

وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ[٢٨ و ٢٩]

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان إنزال رزق العباد على حسب مصالحهم، بيّن سَعَة جُوده وكرمه بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ القادر الجواد ﴿ٱلَّذِى﴾ بجُوده وقدرته ﴿يُنَزِّلُ﴾ من السماء ﴿ٱلْغَيْثَ﴾ والمطر النافع لأهل الأرض حين احتاجوا إليه، و﴿مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ ويأسوا من نزوله، وإنّما قيّد سبحانه نزوله بذلك لايجابه كمال الفرح والشكر ﴿وَيَنشُرُ﴾ على عباده ﴿رَحْمَتَهُ﴾ ويبّث عليهم أنواع بركاته. قيل: هي الشمس بعد المطر، فانّها عظيمةُ النفع والوقع[٤].

وفي الحديث القُدسيّ: لو أنّ عبادي أطاعوني أمطرتهم بالليل، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار، وما أسمعتهم صوت الرعد[٥].

﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ لهم الناظر في خيرهم وصلاحهم، ومالك اُمورهم ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ والمستحقّ للحمد على إنعامه، المحمود على افعاله وإحسانه.

ثمّ لمّا ذكر سبحانه آية قدرته ورحمته، ذكر آية اُخرى على قدرته واُلوهيته بقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ وأدلّة قدرته واُلوهيته ﴿خَلْقُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ على عظمتها، وما هما عليه من تعاجيب الصُّنع الدالة على عظمته ﴿وَ﴾ خلق ﴿مَا بَثَّ﴾ وفرّق ﴿فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ﴾ وموجودات فيه متحركة بالارادة من الملائكة والجّن والإنس وسائر الحيوانات، فانّ الملائكة ماشون كما يطيرون ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ﴾ جمعهم لمصلحة فيه كالمحاسبة ﴿قَدِيرٌ﴾.

وَمَا أَصَابَكُم مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ * وَمَا أَنتُم

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٣١٨، مجمع البيان ٩: ٤٦ «قطعة».
٢. تفسير الرازي ٢٧: ١٧١، تفسير روح البيان ٨: ٣١٩، وفي النسخة: فتمناها.
٣. تفسير الرازي ٢٧: ١٧١، تفسير روح البيان ٨: ٣١٩.
٤. تفسير روح البيان ٨: ٣١٩.
٥. تفسير روح البيان ٨: ٣٢٠.

بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِن دُونِ ٱللهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ[٣٠ و ٣١]

ثمّ لمّا بيّن رأفته ورحمته على الناس، بيّن علّة ابتلائهم بالمصائب بقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُم﴾ أيّها الناس، وإن نزلت بكم ﴿مِن مُصِيبَةٍ﴾ وبلية، كالفقر والمرض وغيرهما ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ﴾ وعملت ﴿أَيْدِيكُمْ﴾ وجوارحكم من المعاصي والذنوب، وإنّما نسب الكسب إلى اليد، لكون غالب الأعمال بها.

رُوي عن النبي ﷺ أنّه قال: «لا يُصيب بن آدم خَدش عُودٍ إلّا بذنب»[1].

﴿وَيَعْفُوا﴾ الله ﴿عَن كَثِيرٍ﴾ من الذنوب. عن الصادق عليه السلام: «ليس من التواء عِرقٍ ولا نَكبة حَجَرٍ[2] ولا عَثْرة قدمٍ ولا خَدش عُودٍ إلّا بذنب، وأمّا ما يعفو الله أكثر ممّا عجلّ الله عقوبته في الدنيا، فانّ الله أجل وأكرم وأعظم من أن يعود في عقوبته في الآخرة»[3].

وعنه عليه السلام أنّه سئل: أرايت ما أصاب علياً وأهل بيته من بعده، أهو بما كسبت أيديهم وهم أهل بيت طهارة معصومون؟ فقال: «إنّ رسول الله ﷺ كان يتوب إلى الله ويستغفره في كلّ يومٍ مائة مرة من غير ذنبٍ، وإنّ الله تعالى يَخُصّ أولياءه بالمصائب ليأجُرهم من غير ذنب»[4].

وعن (المجمع) عن علي عليه السلام: «قال رسول الله ﷺ: خير آية في كتاب الله هذه الآية. يا علي، ما من خَدش عُودٍ ولا نَكْبة قدمٍ إلّا بذنبٍ، وما عفاه الله عنه في الدنيا أكثر، فهو أكرم من أن يعود فيه، وما عاقب عليه في الدنيا فهو أعدل من أن يُثنّي على عبده»[5].

ثمّ اعلم أنّ الخطاب للمكلّفين، فلا يشمَل البهائم والأطفال والمجانين، نعم قد تكون مصائبهم [في] مالكي البهائم ووالدي الأطفال والمجانين وأقاربهم، فتكون كفّارة لذنوبهم ﴿وَمَا أَنتُم﴾ أيّها العُصاة ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ الله ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وفائتين منه بالهرب، إن أراد ابتلاءكم وعقوبتكم بذنوبكم ﴿وَمَا لَكُم﴾ في العالم ﴿مِن دُونِ ٱللهِ﴾ وممّا سواه ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يدفع عنكم العقوبة بالموالاة ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ومُعينٍ يدفعها عنكم بالقوة.

وَمِنْ آيَاتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ * وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِنَا مَا لَهُم مِن مَحِيصٍ[٣٢ـ٣٥]

---

١. تفسير الرازي ٢٧: ١٧٢.
٢. نكبت الحجارة رجله: لثمتها وأدمتها.
٣. الكافي ٢: ٦/٣٢٣، تفسير الصافي ٤: ٣٧٧.
٤. تفسير القمي ٢: ٢٧٧، الكافي ٢: ٢/٣٢٦، تفسير الصافي ٤: ٣٧٧.
٥. مجمع البيان ٩: ٤٧، تفسير الصافي ٤: ٣٧٧.

ثمّ نبّه سبحانه على آية اُخرى داله على قدرته ورحمته بقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على كمال عظمته ورحمته السفن ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ والسائرات ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ بالرياح الطيبة ﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ والجبال العظيمة ﴿إِن يَشَأْ﴾ الله ﴿يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ التي تُجري السفن بها ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾ ويبقين ﴿رَوَاكِدَ﴾ وثوابت وغير جاريات في البحر، وغير سائرات ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾ فلا يقدِر أحدٌ على تحريك الريح وإجراء السفن، فيقع سُكّانها في الاضطراب وخوف الغَرق ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور من كون جري السُّفن وركودها بإرادة الله ﴿لَآيَاتٍ﴾ عديدةً وأدلةً واضحةً على قُدره الله ورحمته، وإنّما الاستدلال والانتفاع بها ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على البلايا والمِحن ﴿شَكُورٍ﴾ لِنعم الله، فانّ المؤمن إذا كان صبوراً في البلاء شكوراً لِنعم الله، لا يصرفه الابتلاء برُكود السفن والبَطَر بجريها عن التفكُّر في تلك الآيات.

وقيل: إنّ المراد من الصبّار الشكور المؤمن الكامل الايمان، فانّ الايمان نصفه الصبر عن المعاصي، ونصفه الشكر باتيان الواجبات[١]. ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ قيل: هو عطف على (يُسكِن) والمعنى إن يشأ يُسكِن الريح أو يُرسِلها عاصفةً فيُغرِقهنّ ويُغرِق أهلهنّ جميعاً[٢] ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ وعملوا ويُهلِك بعضهم ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ من أهلهنّ، فيُنجيهم من الغَرق، وذلك الايباق والاهلاك لينتقم من العاصي[٣] ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ ويُنازعون ﴿فِى آيَاتِنَا﴾ بأنّه ﴿مَا لَهُم مِن مَحِيصٍ﴾ ومَخْلَص من عذابنا، إذا وقفت السُّفن، أو عصفت الرياح، فيصير ذلك سبباً لاعترافهم بأنّ الضارّ والنافع هو الله لا غيره.

فَمَا أُوتِيتُم مِن شَيْءٍ فَمَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ * وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ[٣٦ـ٣٩]

ثمّ لمّا كان عدم التفكّر في الآيات والمجادلة فيها بسبب حُبّ الدنيا، والانهماك في شهواتنا، والحِرص على جميع أمتعتها، بيّن سبحانه حقارة الدنيا، وسُرعة زوالها المقتضية لعدم الاعتناء بها والإعراض عنها بقوله: ﴿فَمَا أُوتِيتُم﴾ أيها الناس، واُعطيتم من قبل ربّكم ﴿مِن شَيْءٍ﴾ تَرْغَبون إليه وتتنافسون فيه من الأموال والمزارع والأولاد والرئاسة والجاه ﴿فَمَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ تتمتّعون بها

---

١ و٢. تفسير أبي السعود ٨: ٣٣، تفسير روح البيان ٨: ٣٢٤.

٣. في النسخة: المعاصي.

في مدّة أعمارهم فيها، وانتفاعات قليلة تنقطع بخروجكم منها ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من المَثُوبات الأخروية ﴿خَيْرٌ﴾ من جميع الدنيا وما فيها ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ وأدوم منها، حيث لا انقطاع ولا زوال له أبداً، وهي خالصة ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وأخلصوا له دينهم ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وحده في جميع أمورهم ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ ويعتمدون ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ ويحترزون ﴿كَبَائِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ وعظائم الذنوب، وهي التي أوعد الله عليها النار.

وعن ابن عباس: كبير الإثم هو الشرك[١]، ولعلّ المراد الشرك الخفي حتى يجتمع مع الايمان.

﴿وَ﴾ يحترزون ﴿ٱلْفَوَاحِشَ﴾ والمعاصي المتناهية في القُبح، وهي من عطف الخاصّ على العام، للإيذان بغاية شناعته، وقيل: الكبائر والفواحش واحدٌ، وإنّما التغاير باعتبار الوصف[٢] ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا﴾ على أحدٍ ﴿هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ ويَحْلُمون ولا ينتقمون.

عن الباقر عليه السلام: «من كظم غيضاً وهو يقدِر على إمضائه، حشى الله قلبه أمناً وإيماناً يوم القيامة، ومن مَلَك نفسه إذا رَغِب وإذا رَهِب وإذا غَضِب، حرّم الله جسده على النار»[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ حين دعاهم بلسان رسوله إلى الايمان والتسليم والطاعة، وإنّما خصّه بالذكر مع أنّه عين الايمان المذكور في السابق، لمزيد التشريف.

قيل: نزلت في الأنصار، دعاهم الرسول صلى الله عليه وآله إلى الايمان، فاستجابوا له[٤].

وقيل: إنّ المراد الاستجابة عن صميم القلب، وهو الرضا بقضاء الله، بحيث لا تكون في قلبه منازعة في أمر من الأمور[٥].

﴿وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ﴾ اليومية التي هي أهمّ الواجبات ورأسها، إن قُبِلت قُبِل ما سواها. في الحديث: أوّل ما يُحاسَب العبد يوم القيامة بصلاته، فان صَلَحت أفلح وانجح، وإن فَسَدت خاب وخَسِر[٦].

﴿وَأَمْرُهُمْ﴾ إذا وقعت واقعة ﴿شُورَىٰ﴾ وتشاور ﴿بَيْنَهُمْ﴾ لا يتفرّدون برأي، ولا يَقدِمون على عمل إلّا بعد تبادل الآراء، واجتماع ذوي الرأي منهم عليه، وتصويبهم إيّاه.

في الحثّ على المشاورة في الأمور

روى بعض العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام: «نعم الموازنة المشاورة، وبئس الاستعداد الاستبداد»[٧].

---

١. تفسير الرازي ٢٧: ١٧٦، تفسير أبي السعود ٨: ٣٤، تفسير الصافي ٨: ٣٢٧.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٣٣٠.

٣. تفسير القمي ٢: ٢٧٧، تفسير الصافي ٤: ٣٧٨.

٤. تفسير أبي السعود ٨: ٣٤، تفسير روح البيان ٨: ٣٣١.

٥. تفسير الرازي ٢٧: ١٧٦، تفسير روح البيان ٨: ٣٣١.

٦. تفسير روح البيان ٨: ٣٣١.

٧. تفسير روح البيان ٨: ٣٣١.

وعن النبي ﷺ: «ما من رجلٍ يُشاور أحداً إلّا هُدي إلى الرّشد»[١].

وعن القمي: يشاورون الإمام [فيما يحتاجون إليه] من أمر دينهم[٢].

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الأموال والأمتعة والنِّعم ﴿يُنفِقُونَ﴾ في مرضاة الله، ويحتمل كون المراد من قوله: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ مطلق البِرّ والمعروف. عن النبي ﷺ: «كلّ معروفٍ صدقة»[٣].

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ ووقع عليهم الظُّلم من ذي شوكةٍ جريءٍ على الله، لا يرضون بالذُّلّ والهوان لأنفسهم بتحمّل الظُّلم، بل ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ وينتقمون من الظالم على الوجه الذي جعل الله له ورخّصه فيه، لدفع الذُّلّ عن نفسه، وردع الظالم من الجُرأة على الضعفاء، وهو وصفهم بالشجاعة والصلابة في الدين بعد وصفهم بسائر اُمّهات الفضائل، ولا تنافي بين مدحهم بالعفو عند الغضب وكظم الغيض، وبين مدحهم بعدم الرضا بالظلم عليهم، وتحمُّل الذُّلّ، وتضييع حقّهم، وإقدامهم على إحقاق حقّهم من الظالم، فانّه من إباء النفس الذي هو من الفضائل.

وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ [٤٠]

ثمّ لمّا رخّص سبحانه في الانتقام من الظالم، بيّن حُكمه بقوله: ﴿وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ﴾ وجنايةٍ صادرةٍ من المُسيء والجاني إن أردتم المُجازاة ﴿سَيِّئَةٌ﴾ وجِنايةٌ ﴿مِثْلُهَا﴾ لا تزيد عليها، وإنّما اطلق اسم السيئة على الجزاء باعتبار أنّه يسوء الآخر ﴿فَمَنْ عَفَا﴾ عن المُسيء، ولم يقابل إساءته بإساءة ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بينه وبين من يُعاديه بالعفو والإغضاء ﴿فَأَجْرُهُ﴾ العظيم ﴿عَلَى اللهِ﴾ وفي إبهام الأجر إشعارٌ بغاية عظمته، بحيث لا يُمكن وصفه وتحديده.

في فضيلة العفو عن المسيء

روي أنّ أبا بكر كان عند النبي ﷺ، ورجل من المنافقين يَسُبّه، وأبو بكر لم يُجبه، ورسول الله ﷺ ساكتٌ يتبسّم، فأجابه أبو بكر، فقام النبي ﷺ وذهب. فقال أبو بكر: يا رسول الله، ما دام يَسُبّني كنتَ جالساً، فلمّا أجبته قمت؟ فقال النبي ﷺ: «إنّ مَلَكاً يجيبه عنك، فلمّا أجبته ذهب وجاء الشيطان، وأنا لا أكون في مجلس يكون هناك الشيطان» فنزل ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾[٤].

وفي حديث عامي: «إذا كان يوم القيامة ينادي منادٍ: أين العافون عن الناس؟ هلمّوا إلى ربّكم،

---

١. مجمع البيان ٩: ٥١، تفسير الصافي ٤: ٣٧٨. ٢. تفسير القمي ٢: ٢٧٧، تفسير الصافي ٤: ٣٧٨.

٣. صحيح مسلم ٢: ١٠٠٥/٦٩٧، صحيح البخاري ٨: ٥١/٢٠، تفسير روح البيان ٨: ٣٣٢.

٤. تفسير روح البيان ٨: ٢٣٥.

وخُذوا أُجوركم، وحقّ لكلّ مسلم إذا عفا أن يُدخِله الجنّة»[١].

وعنه عليه السلام: «إذا جمع الله الخلق يوم القيامة نادى منادٍ: أين أهل الفضل؟ فيقوم ناس، وهم قليلون، فينطلقون سِراعاً إلى الجنّة، فتتلقّاهم الملائكة، فيقولون: إنّا نراكم سِراعاً إلى الجنّة، فمن أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الفضل، فيقولون: وما كان فضلكم؟ فيقولون: كنا إذا ظُلِمنا صبرنا، وإذا سِيء إلينا اغتفرنا، وإذا جهل علينا حَلُمنا، فيقولون لهم: ادخُلوا الجنّة، فنِعم أجر العاملين»[٢].

وعن (المجمع) عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: من كان أجره على الله فليدخُل الجنّة؟ فيقال: من ذا الذي أجره على الله؟ فيقال: العافون عن الناس، فيدخلون الجنّة بغير حساب»[٣].

وعن الصادق عليه السلام. قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: عليكم بالعفو، فان العفو لا يزيد العبد إلّا عزّاً، فتعارفوا يُعزّكم الله»[٤].

ثمَ أعلن سبحانه بغضبه على الظالمين الذين منهم من اقتصّ زائداً على المثل بقوله: ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ويقطع عنهم رحمته، سواء كانوا مبتدئين بالظلم، أو متجاوزين في القِصاص على المثل.

قيل: في إخباره تعالى بعدم حبّه للظالمين بعد الحثّ على العفو عنه، تنبيهٌ على أنّ العفو عن المؤمن ـ الذي هو حبيب الله ـ أولى، وفيه ما لا يخفى[٥].

وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ * إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ[٤١ـ٤٣]

ثمَ نبّه سبحانه على أنّه لا مؤاخذة على المظلوم في انتصاره وانتقامه بقوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ﴾ وانتقم من الظالم ﴿بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ وإسائته إليه ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المنتصرون ﴿مَا عَلَيْهِم﴾ لأحد ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ بالمعاتبة أو المؤاخذة؛ لأنّهم فعلوا ما أُبيح لهم من الانتصار[٦] ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ بالمعاقبة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ بأن يبدؤهم بالظلم، أو يعتدوا في الانتقام ﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ويتجبّرون فيها ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ بأن يدّعوا الألوهية أو النبوة أو الامامة ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الظالمون والباغون ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لظُلمهم وبغيهم مضافاً إلى القِصاص والحدّ في الدنيا ﴿وَ﴾ والله ﴿لَمَن صَبَرَ﴾

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٢٣٥.
٢. تفسير روح البيان ٨: ٢٣٦.
٣. مجمع البيان ٩: ٥١، تفسير الصافي ٤: ٣٧٩.
٤. الكافي ٢: ٨٨/٥، تفسير الصافي ٤: ٣٧٩.
٥. تفسير الرازي ٢٧: ١٨١.
٦. في النسخة: الانصار.

على أذى المؤمنين وإساءتهم إليه ﴿وَغَفَرَ﴾ لمن ظلمه وآذاه ولم ينتصر، وفوّض أمره إلى الله ﴿إِنَّ ذٰلِكَ﴾ الصبر ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ وواجبات الأعمال، لكونه من كمال النفس، وصفات الربّ، وكرائم الأخلاق، وفي تأكيد الخبر باللام دلالةٌ على غاية محبوبيته عند الله.

وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِن بَعْدِهِ وَتَرَى ٱلظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِن سَبِيلٍ * وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ ٱلْخَاسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ ٱلظَّالِمِينَ فِى عَذَابٍ مُقِيمٍ * وَمَا كَانَ لَهُم مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ[٤٤ـ٤٦]

ثمّ بالغ سبحانه في تهديد الظالمين بقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ عن طريق الجنّة بخِذلانه حتى يرتكب الظلم على المؤمنين ﴿فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ﴾ ومراعي صلاح يوفّقه للخير وسلوك طريق الصواب والجنّة ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ تعالى وبعد خِذلانه ﴿وَتَرَى﴾ يا محمد، أو يأمن له البصر ﴿ٱلظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم، وعلى المؤمنين ﴿لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ﴾ يوم القيامة ﴿يَقُولُونَ﴾ تحسّراً وتمنّياً: يا ربّ ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ﴾ ورجوعٍ إلى الدنيا ﴿مِن سَبِيلٍ﴾ حتى نتدارك ما فاتنا من الأعمال الصالحة، ونتوب ممّا ارتكبنا من الظلم والأعمال السيئة ﴿وَتَرَاهُمْ﴾ أيّها الرائي أنّهم يُساقون إلى النّار و﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ حال كونهم ﴿خَاشِعِينَ﴾ وحقيرين، أو مُرخين أجفانهم بسبب مالهم ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ والهوان، وهم ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى النّار ﴿مِن طَرْفٍ﴾ وتحريكٍ ضعيفٍ لأجفانهم ﴿خَفِيٍّ﴾ على غيرهم نظرهم إليها، يُعبّر عن هذا النظر باستراق النظر، لأنّهم لا يَقدِرون على أن يملأوا عيونهم منها من شدّة الخوف وغاية الذلّ.

وقيل: إنّ المراد أنّهم ينظُرون النار بابصار قلوبهم لا بأعينهم؛ لأنّهم يُحشَرون عُمياً، أو يُسحَبون على وجوههم[1]. وقيل: لا يرفعون أجفانهم من خجلة المؤمنين[2].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ حين رأوهم على تلك الحالة توبيخاً لهم: ﴿إِنَّ ٱلْخَاسِرِينَ﴾ أشدَ الخُسران هم الكفّار والعُصاة ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوا﴾ وأضرّوا ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ بتعريضها للعذاب بسبب اختيارهم الشرك، وارتكابهم العِصيان ﴿وَ﴾ أضرّوا ﴿أَهْلِيهِمْ﴾ من أزواجهم وأولادهم وأقاربهم، بمنعهم عن الايمان، وترغيبهم إلى الكفر والطُّغيان، ولم يَقُوهم من النار ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾.

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٨: ٣٣٨.

ثمّ بيّن سبحانه كيفية خُسرانهم بقوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَا﴾ اعلموا أيها العقلاء ﴿إِنَّ الظَّـٰلِمِينَ﴾ والكافرين في الآخرة متمكّنون ﴿فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ دائمٍ لا انقطاع له أبداً. قيل: إنّه من تمام كلام المؤمنين[1] ﴿وَمَا كَانَ لَهُم﴾ في ذلك اليوم ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ وأصدقاء ﴿يَنصُرُونَهُم﴾ بدفع العذاب ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حسبما كانوا يرجون ذلك في الدنيا من أصنامهم ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ ويحرِفه عن طريق الحقّ ﴿فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ يُؤدّي سُلوكه إلى النجاة من العذاب.

ٱسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ ٱللَّهِ مَالَكُم مِن مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِن نَكِيرٍ * فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ [٤٧ و ٤٨]

ثمّ إنّه تعالى بعد التهديدات الشديدة، وعظ الناس بقوله تبارك وتعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا﴾ أيّها الناس ﴿لِرَبِّكُم﴾ اللطيف بكم حين دعاكم بلسان رسوله إلى الايمان ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ﴾ كم ﴿يَوْمٌ﴾ كثير الأهوال ﴿لَا مَرَدَّ﴾ ولا دافع ﴿لَهُ مِنَ﴾ قبل ﴿ٱللَّهِ﴾ القادر العظيم بعد ما حكم ووعد به، أو المراد من قبل أن يأتي من الله يومٌ لا يُمكن ردّه لأحدٍ.

وقيل: إنّه يوم الموت، ومعنى ﴿لَا مَرَدَّ لَهُ﴾ أنّه لا يقبل التقديم والتأخير[2].

وقيل: إنّه يوم القيامة، ومعنى (لا مردّ له) أنّه لا يمكن فيه الردّ إلى الدنيا[3]. ﴿مَا لَكُم﴾ أيّها العُصاة من عذاب الله ﴿مِن مَلْجَإٍ﴾ ومَخلصٍ ﴿يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِن نَكِيرٍ﴾ يُنكِر علينا تعذيبكم، فيُرفَع العذاب عنكم باعتراضه علينا، أو المراد ليس لكم إنكار ما اقترحتموه من المعاصي؛ لأنّها مدوّنةٌ في صحائف أعمالكم، وتشهد عليها الكِرام الكاتبين وجوارحكم[4].

ثمّ سلّى سبحانه نبيّه ﷺ كي لا يتأثّر قلبه الشريف من اعتراض المشركين والمعاندين عن دعوة الله إيّاهم إلى الإيمان ووعده ووعيده بقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عن استجابة دعوة الله إلى الايمان، ولم يعتنوا بدعائك إليه ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ إليهم لتكون ﴿عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾ ورقيباً تمنعهم عن الكفر والأعمال السيئة، وتقهرهم على الاستجابة ﴿إِنْ عَلَيْكَ﴾ وما شأنك ووظيفتك ﴿إِلَّا ٱلْبَلَاغُ﴾ وأداء ما اُرسلت به إليهم، وقد أدّيت بأكمل الأداء، فلا يَهمّك إعراضهم، فانّ ضَرره عليهم لا عليك.

إِنَّا إِذَا أَذَقْنَا ٱلْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ

---

١. تفسير أبي السعود ٨: ٣٦.

٢. مجمع البيان ٩: ٥٤، تفسير الرازي ٢٧: ١٨٣.

٣. مجمع البيان ٩: ٥٤، تفسير الرازي ٢٧: ١٨٣.

٤. تفسير أبي السعود ٨: ٣٦.

فَإِنَّ ٱلْإِنسَانَ كَفُورٌ[٤٨]

ثمّ نبّه سبحانه على أنّ سبب إعراضهم ليس إلّا الغرور بالدنيا، والانهماك في شهواتها، وكفرانهم نِعم الله بقوله: ﴿إِنَّا إِذَا أَذَقْنَا ٱلْإِنسَانَ مِنَّا﴾ وبلُطفنا ﴿رَحْمَةً﴾ ونِعمةً من الصِحة والغِنى والأمن والأولاد والرئاسة والجاه ﴿فَرِحَ﴾ واغترّ ﴿بِهَا﴾ وبَطِر لأجلها، ويَظُنّ أنّه بهذا القدر من نعم الدنيا فاز بكلّ المُنى، ووصل إلى أعلى السعادات، لعدم تصوّره السعادة الأُخروية التي جميع الدنيا وما فيها بالنسبة إلى أقلّ قليلٍ منها كالقطرة بالنسبة إلى البحر المحيط ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ ووردت عليهم ﴿سَيِّئَةٌ﴾ وبليةٌ كالفقر والمرض والخوف ونحوهما ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وبسبب ما أرتكبته جوارحهم من المعاصي والقبائح ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَانَ﴾ لاستعظامه تلك البلية ينسى النعم الإلهية، لأنّه بالطبع ﴿كَفُورٌ﴾ مبالغٌ في الإعراض عن الشكر، إلّا من وفّقه الله لأدائه، وعصمه من الكفران.

قيل: في تصدير الشرطية الأُولى بإذا، وإسناد الإذاقة إلى نون العظمة، تنبيهٌ على أنّ إيصال النعمة محقّقٌ كثير الوقوع، وأنّه مقتضى ذاته المقدسة، وفي تصدير الثانية بأن الشرطية، وإسناد الإصابة إلى السيئة، وتعليلها بأعمالهم السيئة إيذانٌ بنِدرة وقوعها، وأنّها بالعارض في وضع الظاهر موضع الضمير دلالة على أنّ الكُفران مقتضى طبع الانسان[١].

لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ ٱلذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ[٤٩ و ٥٠]

ثمّ لمّا ذكر سبحانه أنّ نِعم الدنيا على الانسان برحمته، وابتلائه بالبليات بمعاصيه وسيئاته، بيّن قدرته الكاملة على التصرّف في جميع الموجودات السماوية والأرضية، وسلطنته المطلقة بقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾ وحده ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والسلطنة التامّة في عوالم المُلك والملكوت، ليس لغيره فيها مُلك ومَلِك يُعترّ به، بل كلّما كان لغيره من النِّعم فهو بعطائه، وعليه الشُّكر، وكلّما أصابه من البلية فهو بارادته تعالى، وعليه الصبر والتسليم والرضا، ومن دلائل سلطنته أنّه تعالى ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ خَلْقه، ولا يقدِر غيره على خلق شيءٍ، ومن أظهر تصرّفاته أنّه بقدرته وحكمته ﴿يَهَبُ﴾ ويُعطي بلا عوض ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ من نوع الانسان أولاداً ﴿إِنَاثاً﴾ فقط ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ﴾ منهم ﴿ٱلذُّكُورَ﴾ من الأولاد فقط.

---

١. تفسير البيضاوي ٢: ٣٦٦، تفسير أبي السعود ٨: ٣٦، تفسير روح البيان ٨: ٣٤١.

عن الباقر عليه السلام: «﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثاً﴾ يعني ليس معهنّ ذكر[١] ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ يعني ليس معهم أنثى».

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً﴾ ويجعلهما معاً لشخصٍ واحدٍ، فيكون له البنين والبنات. وفي الرواية الباقرية: «أي يهب لمن يشاء ذُكراناً وإناثاً جميعاً، يجمع له البنين والبنات»[٢] الخبر.

في فضيلة احسان الوالدين إلى البنات

وإنّما قدّم سبحانه ذِكر الإناث أولاً على ذكر الذكور، قيل: لأنّها أكثر، لتكثير النسل، ولتطييب قلوب آبائهنّ، باظهار العناية بهنّ، والتشريف لهنّ، والتوبيخ لمن كان يكرهها ويَدْفِنها في التراب في [حال حياتها]، ولرعاية الترتيب الواقع في الوجود حيث وهب الله لآدم أولاً حوّاء[٣].

وفي الحديث: «من بركة المرأة تبكيرها بالبنات، ألم تسمع قوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ حيث بدأ بالإناث[٤]، وللتنبيه بأنّ الالتفات إلى الضعيف أولى، والإحسان إليه ألزم.

وفي الحديث: «من ابتلي من هذه البنات بشيءٍ فأحسن إليهنّ، كُنّ له ستراً من النار»[٥].

وفي تقديم الذُّكور على الإناث في الآية إيماءٌ إلى فضيلة الذكور على الإناث، كما أنّ في تعريف الذكور في الآية الأولى إيماءً إلى ذلك، مضافاً إلى المحافظة على الفواصل، وإنّما لم يذكُر الهِبة في إعطائهما؛ لأنّ المقصود بيان نعمة اقترانهما لشخصٍ واحدٍ بعد بيان كون كلّ واحدٍ منهما من مواهب الله ﴿وَيَجْعَلُ﴾ الله بقدرته ﴿مَن يَشَاءُ﴾ عقمه وعدم التولّد منه ﴿عَقِيماً﴾ لا تَلِد ولا يُولَد له ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ بحقائق الأشياء ومصالحها، والحِكم الكامنة فيها ﴿قَدِيرٌ﴾ على إنقاذ إرادته، فيفعل بحكمته وقدرته كلّما فيه حكمةٌ وصلاحٌ.

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ[٥١]

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان كمال قدرته وسلطنته وحكمته، بيّن علوّ شأنه، ورفعه مقامه من أن يُواجهه أحدٌ بالكلام، وكيفية تعليمه الأنبياء والرسل العلوم والحقائق بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ وما صحّ، وما أمكن لإنسان ﴿أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ﴾ ويُخاطبه ﴿إِلَّا﴾ بأحد الوجوه الثلاثة: إمّا يُكلّمه ﴿وَحْياً﴾ وإلهاماً وقذفاً في القلب في اليقظة أو النوم باراءته الرؤيا ﴿أَوْ﴾ يُشافهه بالكلام في اليقظة

---

١. في النسخة: الذكور. ٢. تفسير القمي ٢: ٢٧٨، تفسير الصافي ٤: ٣٨١.
٣. تفسير روح البيان ٨: ٣٤٢. ٤. تفسير روح البيان ٨: ٣٤٢.
٥. تفسير روح البيان ٨: ٣٤٢.

بايجاد الصوت والكلام من غير رؤية المتكلّم كتكلُّم من يتكلّم ﴿مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ وسترٍ ﴿أَوْ﴾ يكلمه بتوسّط المَلَك بأن ﴿يُرْسِلَ﴾ من قبله ﴿رَسُولاً﴾ من الملائكة كجَبْرئيل عليه السلام ﴿فَيُوحِيَ﴾ ذلك المَلَك إلى البشر الذي أرسله الله إليه ﴿بِإِذْنِهِ﴾ وأمره ﴿مَا يَشَاءُ﴾ أن يُوحيه إليه من المطالب والحقائق.

عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «من الأنبياء من يسمع الصوت فيكون بذلك نبياً، ومنهم من يُنفَث في اُذنه وقلبه فيكون بذلك نبياً، وإنّ جَبْرئيل يأتيني فيُكلّمني كما يُكلّم أحدٌ صاحبه»[1].

وعن عائشة: أنّ الحارث بن هِشام سأل رسول الله: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشدّه عليّ، فيُفصم[2] عنّي وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثّل المَلَك رجلاً فيُكلّمني فأعي ما يقول» قالت: ولقد رأيته ينزِل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيُفصم[3] عنه وإنّ جبينه ليتفصّد عرقاً[4].

﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿عَلِيٌّ﴾ عن مواجهة الناس ومشابهة المخلوقين، متعالٍ عن صفاتهم، فلا يكون المفاوضة بينه وبينهم إلّا بالوجوه المذكورة ﴿حَكِيمٌ﴾ وعليمٌ بجميع المصالح وقابليات الأشخاص، فيكلّم بعض الأنبياء بلا واسطة، وبعضهم بالواسطة، وبعضهم إلهاماً على حسب اختلاف درجاتهم وكمالهم.

وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَابُ وَلَا ٱلْإِيمَانُ وَلٰكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ ٱللهِ ٱلَّذِى لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَا إِلَى ٱللهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ[٥٢ و ٥٣]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه كيفية الإيحاء إلى الأنبياء، عظّم شأن ما أوحى إلى رسوله بقوله: ﴿وَكَذٰلِكَ﴾ الإيحاء البديع الذي كان لسائر الأنبياء ومثله ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد، القرآن الذي يكون ﴿رُوحاً﴾ وسبباً للحياة الطيبة الأبدية للقلوب الميتة بالجهل والضلال والكفر. قيل: إنّ المراد بالروح جَبْرئيل، وإيحاءه إليه إرساله إليه بالوحي[5].

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٣٤٥.
٢. أفصم الشيء: ذهب وانكشف.
٣. في النسخة: فيفصد.
٤. تفسير روح البيان ٨: ٣٤٥، وفيه: جبينه لينفصد عرقاً.
٥. تفسير أبي السعود ٨: ٣٨، تفسير روح البيان ٨: ٣٤٧.

وعن الصادق عليه السلام: «أنه خَلْقٌ من خَلْق الله أعظم من جَبْرئيل وميكائيل، كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله يُخبِره ويُسدِّده، وهو مع الأئمة من بعده»[1].

وعلى أي تقدير، كان ذلك الإيحاء بالقرآن ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ في وقت ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى﴾ في ذلك الوقت ﴿مَا ٱلْكِتَابُ﴾ وأيّ شيءٍ القرآن ﴿وَلَا﴾ تدري ما ﴿ٱلإِيمَانُ﴾ وتضاعيف ذلك من الأمور التي لا يُدركها البشر إلّا بالوحي ﴿وَلَٰكِن﴾ أنزلنا القرآن و ﴿جَعَلْنَاهُ نُوراً﴾ وضياءً ﴿نَهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ﴾ هدايته ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ بالتوفيق لتصديقه، والنظر فيه ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَتَهْدِى﴾ بالدعوة والتبليغ عموم الناس ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ والدين القويم الذي لا أعوجاج فيه.

ثمّ عظّم سبحانه ذلك الصراط ومدحه بقوله تعالى: ﴿صِرَاطِ ٱللهِ ٱلَّذِى لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً ومُلكاً وتصرّفاً، وفيه تقرير استقامته، وتقرير وجوب سلوكه.

ثمّ هدّد الناس على التخلّف عنه بقوله تعالى: ﴿أَلَآ﴾ اعلموا أيّها الناس أنّه ﴿إِلَى ٱللهِ﴾ العظيم المالك لعالم الملك والملكوت ﴿تَصِيرُ﴾ وترجع ﴿ٱلْأُمُورُ﴾ المتعلّقة بجميع الموجودات، وبيده في الدنيا والآخرة تدبيرها، لا يخرُج شيءٌ عن حكمه، ولا يمتنع من قضائه، فيُجازيكم بأعمالكم، ويُعاقبكم على عصيانكم.

عن الصادق عليه السلام: «من قرأ سورة حم عسق بعثه الله يوم القيامة كالثلج، أو كالشمس، حتى يقف بين يدي الله عز وجل فيقول: عبدي أدمنت قراءة حمعسق ولم تدرِ ثوابها، أما لو دريت ما هي وما ثوابها ما مللت من قراءتها، ولكن سأجزيك جزاءك، أدخلوه الجنة، وله فيها قصر من ياقوتةٍ حمراء، أبوابها وشُرفها ودرجها، يُرىٰ ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، وله فيها حوراوان من حُور العين، وألف جاريةٍ وألف غُلامٍ من الغِلمان المُخلّدين الذين وصفهم الله تعالى»[2].

الحمد لله على التوفيق لإتمام تفسرها وتلاوتها

---

١. الكافي ١: ١/٢١٤، تفسير الصافي ٤: ٣٨١.

٢. ثواب الأعمال: ١١٣، مجمع البيان ٩: ٣١، تفسير الصافي ٤: ٣٨٣.

في تفسير سورة الزخرف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حم * وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ[١ـ٣]

ثمَ لمَا خُتِمت سورة الشورىٰ المبدوءة بتعظيم القرآن ومدحه، المتضمّنة للمنّة على العرب بإنزاله بلغتهم ولسانهم، وللاستدلال على التوحيد والمعاد، وذمَ المجادلين في الآيات المختصّة بمدح القرآن، والتهديد على مخالفته، نُظِمت سورة الزخرف المبدوءة بتعظيم القرآن ومدحه، وإظهار المِنّة على العرب بانزاله بلغتهم ولسانهم، ثمَ تهديد المعارضين له والطاعنين فيه، المتضمّنة لأدلة التوحيد وذمَ المجادلين فيه، وغير ذلك من المطالب العالية المناسبة لما في السورة السابقة، فابتدأها بذكر الأسماء المباركات بقوله تبارك وتعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ثمَ افتتحها جلّ شأنه بلفظ ﴿حَم﴾ وقد مرَ أنّ الحرفين رمزان من اسمين من الاسماء الحسنى، أو أنّها اسم للسورة، أو القرآن، وعلى هذين القولين يكون المعنى هذه السورة أو هذا القرآن حَم.

ثمَ حلف سبحانه بكتابه إظهاراً لعظمته بقوله: ﴿وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ﴾ والواضح الدلالة للذين اُنزل اليهم، أو المُظهِر للدين الحقّ، والصراط المستقيم، أو المبين للهدى من الضلال والحقّ من الباطل، والخير من الشرّ، والسعادة من الشقاوة.

ثمَ ذكر سبحانه المُقسم عليه بقوله: ﴿إِنَّا﴾ أنزلنا و ﴿جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾ وركبّناه من الكلمات المتداولة على ألسنتكم أيّها العرب على نحوٍ عَجَزت جميع الفصحاء عن إتيان سورة مثله ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وتفهمون ما فيه من العقائد الحقّة، والأحكام المُحكمة، والعلوم النافعة، والحكم البالغة، والمواعظ الشافية، والعِبر الوافية.

وَإِنَّهُ فِى أُمِّ ٱلْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ[٤]

ثمَ بالغ سبحانه في مدحه بقوله: ﴿وَإِنَّهُ فِى أُمِّ ٱلْكِتَابِ﴾ واللّوح المحفوظ الذي هو أصل الكتب السماوية مثبوتٌ ومضبوطٌ، وهو ﴿لَدَيْنَا﴾ وعندنا والله ﴿لَعَلِيٌّ﴾ قدراً، ورفيع شأناً، أو لعليّ عن طَرَوَ

الفساد والبطلان، أو لعليَ على سائر الكتب السماوية، لكونه معجزةً باقيةً إلى آخر الدهر و﴿حَكِيمٌ﴾ ومُحكمٌ لا يتطرَق إليه النَّسخ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أو محكمٌ في البلاغة والبداعة، أو ذو حكمة بالغة، وقيل: إنّ الوصفين للوّح المحفوظ ـ كما عن ابن عباس ـ وإنّما خصّه الله بالتشريف لكونه جامعاً لأحوال جميع المُحدثات[١].

عن ابن عباس: إنّ أول ما خلق الله القلم، فأمره أن يكتُب ما يُريد أن يخلُق[٢].

قيل: إنّ ذلك ليشاهد الملائكة موافقة المُحدثات لما في ذلك اللَّوح، فيعلموا كمال علم الله وحكمته[٣].

وقيل: إنّ المراد من أمّ الكتاب الآيات المحكمات، والمعنى أنّ حَم واقعةٌ في الآيات المُحكمات التي هي الأصل والأمّ[٤].

وعن الصادق عليه السلام في تأويله: «هو أمير المؤمنين عليه السلام في أمّ الكتاب، يعني الفاتحة، فانّه مكتوبٌ فيها في قوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾[٥] قال: ﴿الصراط المستقيم﴾ هو أمير المؤمنين عليه السلام ومعرفته».

أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحاً أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ * وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِن نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ * فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ[٥ ـ ٨]

ثمّ أنكر سبحانه على نفسه بعد بيان جعل القرآن عربياً أن يترُك اللُّطف بالعرب، أو بقريش بقوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ﴾ ونصرِف ﴿عَنكُمُ﴾. قيل: إنّ التقدير أنُهلِككم أيّها العرب، أو يا قريش؟ فنُنحّي ﴿ٱلذِّكْرَ﴾ ونُبعِد القرآن عنكم، ونترُك الأمر والنهي والوعد والوعيد[٦] بالنسبة إليكم، أو نرُدّ عنكم المواعظ والنصائح[٧]، أو ذِكر العذاب[٨] ﴿صَفْحاً﴾ وإعراضاً عنكم لأجل ﴿أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ﴾ ومتجاوزين عن الحدّ في الإصرار على الشرك والعصيان. ولا والله لا نفعل ذلك لسَعَة رحمتنا، بل نُتمّ الحجّة عليكم بإرسال الرسول وإنزال الكتاب بلسانكم، لئلّا تقولوا يوم القيامة: ﴿إنّما أُنزل الكتاب

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢٧: ١٩٤.
٣. تفسير الرازي ٢٧: ١٩٤.
٤. تفسير الرازي ٢٧: ١٩٤.
٥. معاني الأخبار: ٣/٣٢، «بتقديم وتأخير»، تفسير الصافي ٤: ٣٨٤.
٦. تفسير روح البيان ٨: ٣٥١.
٧. تفسير الرازي ٢٧: ١٩٥.
٨. تفسير الرازي ٢٧: ١٩٥.

على طائفتين من قبلنا وان كنا عن دراستهم لغافلين﴾[١].

عن قتادة: لو أنّ هذا القرآن رُفِع حين ردّه أوائل هذه الأمّة لهلكوا، ولكن الله برحمته كرّره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة[٢].

والحاصل والله أعلم: إنا لا نتُرككم مع سُوء اخيتاركم، بل نُذكّركم ونَعِظكم كي ترجعوا عمّا أنتم عليه إلى الدين الحقّ.

ثمَ ذكر سبحانه عادة الأمم السابقة في تكذيب الرسل والكتب السماوية وإهلاكهم بالعذاب عِظة للمشركين وتهديداً لهم وتسليةً للرسول بقوله: **﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا﴾** وكثيراً ما بعثنا **﴿مِن نَبِيٍّ﴾** من قبلنا **﴿فِي﴾** الأمم **﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾** والقرون الماضين **﴿وَ﴾** كان دأبهم أنه **﴿مَا يَأْتِيهِم﴾** من قبلنا **﴿مِن نَبِيٍّ﴾** يدعوهم إلى الإيمان بالتوحيد والعمل بالدين الحقّ **﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾** ومنه يَسْخَرون، فلا تتأذّيا محمد من تكذيب قومك واستهزائهم بك، فانّ البلية إذا عمّت طابت **﴿فَأَهْلَكْنَا﴾** هم بالعذاب مع أنّهم كانوا **﴿أَشَدَّ﴾** من قومك وأكثر **﴿مِنْهُم بَطْشاً﴾** وقوةً وعِدةً، ولم يمنعنا عن إهلاكهم بطشهم وقوّتهم، وما قدروا على معارضتنا **﴿وَمَضىٰ﴾** وسَلَف في القرآن **﴿مَثَلُ﴾** الأمم **﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾** وحكينا لك قصّتهم التي حقّها أن يُضرَب بها المثل في الغَرابة، كقصة عاد وثمود وقوم لوط وإضرابهم، فعلى قومك أن يعتبروا بهم، ويتركوا اتّباعهم.

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّماءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذٰلِكَ تُخْرَجُونَ * وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا[٩ـ١٢]

ثمَ إنّه تعالى بعد إسراف المشركين وإصرارهم على الشرك، بيّن اعترافهم بالفطرة بالتوحيد بقوله: **﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾** يا محمد، تقريراً لهم **﴿مَنْ خَلَقَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾** وعوالم المُلك والملكوت؟ والله **﴿لَيَقُولُنَّ﴾** بالفطرة في الجواب ويعترفن البتة بأنّه **﴿خَلَقَهُنَّ﴾** الله الذي هو **﴿ٱلْعَزِيزُ﴾** الغالب على مُلكه **﴿ٱلْعَلِيمُ﴾** بجميع مخلوقاته وأحوالهم، لعدم إمكان خلقهنّ من العاجز الجاهل كالأصنام والأوثان.

---

١. الأنعام: ١٥٦/٦.   ٢. تفسير الرازي ٢٧: ١٩٥.

قيل: جوابهم خلقهن الله[١]، ولمّا كان لازم اعترافهم كون الخلق واجداً للقدرة والعلم، وصف سبحانه ذاته المقدّسة بالوصفين، وفيه توبيخهم بأنّه مع اعترافهم بذلك يعبُدون غيره ويُنكِرون قُدرته على البعث.

ثمّ شرع سبحانه في وصف ذاته بكمال القدرة والحكمة مخاطباً للمشركين بقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ وصيّر ﴿لَكُمُ﴾ أيّها المشركون ﴿ٱلْأَرْضَ مَهْداً﴾ ومكاناً تستقرّون عليه، ومسكناً تنامون وتتقلّبون عليه، كما يتقلّب أحدكم على فراشه ﴿وَجَعَلَ﴾ بلُطفه ﴿لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ وطرقاً سهل العبور منها، تسلكونها في أسفاركم للتجارة وسائر المقاصد الدينية والدنيوية ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بسلوكها ﴿تَهْتَدُونَ﴾ إلى مقاصدكم، وكي تصلوا إلى البلاد التي فيها محاويجكم، أو لكي تهتدوا بالتفكّر فيها إلى توحيد ربّكم الذي هو المقصد الأسنى ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ﴾ بقدرته ورحمته ﴿مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ المُطِلّ، أو من جهة العُلوّ ﴿مَاءً﴾ نافعاً بالأمطار ﴿بِقَدَرٍ﴾ وحدّ ينفعكم ولا يَضُرّكم ﴿فَأَنشَرْنَا﴾ بذلك الماء وأحيينا ﴿بِهِ بَلْدَةً﴾ ومكاناً ﴿مَيْتاً﴾ ويابساً لا نبات له، ولا انتفاع به ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الإحياء تحيون ثانياً، ومثل إخراج النبات من الأرض ﴿تُخْرَجُونَ﴾ من القبور، وتُحْشَرون للحساب، وفي التعبير عن إحيائهم بالإخراج تهوين لأمر البعث ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ﴾ بقدرته ﴿ٱلْأَزْوَاجَ﴾ والأنواع المختلفة من الموجودات ﴿كُلَّهَا﴾ كالأبيض والأسود، والذكر والأنثى، والحُلو والحامض، كما عن ابن عباس[٢].

قيل: إنّ جميع ما سوى الله زوج كالفوق والتحت، واليمين والشمال، والقُدّام والخلف، والماضي والمستقبل، والذوات والصفات، والصيف والشتاء، والربيع والخريف، والليل والنهار، إلى غير ذلك[٣].

أقول: جميع الممكنات زوجٌ تركيبي مركّب من الماهية والوجود والجنس والفصل والمادّة، والصورة، فالتفرّد مختصّ بالذات الواجب الوجود.

وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ [١٢ ـ ١٤]

ثمّ إنّه تعالى بعد إظهار المِنّة على العباد بجعل السبيل، بيّن تسهيله السير بخلق المركب للسير بقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ﴾ والسفن الجارية في البحار ﴿وَ﴾ من ﴿ٱلْأَنْعَامِ﴾ كالإبل والأفراس والبغال والحمير ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ عليه في البحر والبرّ، وتقديم الفُلك على الأنعام، لكون الفُلك أدلّ

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٣٥٣.

٢ و٣. تفسير الرازي ٢٧: ١٩٧، تفسير أبي السعود ٨: ٤١.

على قُدرة الله وحكمته ﴿لِتَسْتَوُوا﴾ وتستعلوا ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ وتستقرّوا عليه، وإفراده الضمير باعتبار اللفظ ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ عليكم ﴿إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ﴾ واستعليتم ﴿عَلَيْهِ﴾ وتَحْمَدوه وتشكروه ﴿وَتَقُولُوا﴾ مستعظمين قدرته وإنعامه حين الركوب ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ﴾ وذلّل ﴿لَنَا هَٰذَا﴾ المركوب بقدرته وإحسانه مع كونه أقوى منّا ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ ومماثلين في القوة والشدّة، وقادرين على تذليله وضبطه إذا استصعب علينا ﴿وَإِنَّا﴾ حين انقضاء آجالنا ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ على مركب الخشب ﴿لَمُنقَلِبُونَ﴾ وراجعون ومسافرون، كما ينقلب من بلدٍ إلى بلدٍ على هذا المركب، أو كما جئنا في الدنيا من عند ربّنا وبقدرته في أوّل الأمر، ننقلب إليه ونرجِع.

قيل: لمّا كان ركوب الفلك والدابة تعريض النفس للهلاك بانكسار الفُلك وعِثار الدابة وشُموسها، أمرنا بتذكُّر الموت والانقلاب إلى الله والتوجّه إليه[1].

في دعاء الركوب والسفر

روى الزمخشري عن النبي ﷺ أنّه كان إذا وضع رجليه في الرِّكاب قال: «بسم الله» فاذا استوى على الدابة قال: «الحمد لله على كلّ حال ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ إلى قوله: ﴿لَمُنقَلِبُونَ﴾»[2].

وروى القاضي أبو بكر أنّ الحسن بن علي عليه السلام رأى رجلاً رَكِب الدابة، وقال: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ فقال له: «مابهذا اُمرت، اُمرت أن تقول: الحمد لله الذي هدانا للاسلام، الحمد لله الذي منّ علينا بمحمد ﷺ، والحمد الذي جعلنا من خير اُمّة اُخرجت للناس، ثمّ تقول: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾»[3].

وروى الفخر الرازي عن النبيّ ﷺ أنّه كان إذا سافر ورَكِب راحلته كبّر ثلاثاً، ثم يقول: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ ثمّ قال: اللهمّ إنّي أسألك في سفري هذا البرّ والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هوّن علينا السفر، وأطوعنا بُعد الأرض، اللهمّ أنت الصاحب في السفر، والخليفة على الأهل، اللهمّ أصحبنا في سفرنا، وأخلفنا في أهلنا» وكان إذا رجع إلى أهله يقول: «آيبون تائبون، لربّنا حامدون»[4].

في (الكافي) عن الرضا عليه السلام: «إن رَكِبت الظهر فقل ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ الآية»[5].

وعن أبيه عليه السلام: «هي إن خرجت براً فقل الذي قال الله عز وجل: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٣٥٦.
٢. الكشاف ٤: ٢٣٩، تفسير الرازي ٢٧: ١٩٩.
٣. تفسير الرازي ٢٧: ١٩٩.
٤. تفسير الرازي ٢٧: ١٩٩.
٥. الكافي ٥: ٣/٢٥٦، تفسير الصافي ٤: ٣٨٥.

الآية، فانّه ليس من عبدٍ يقولها عند ركوبه، فيقع من بعيرٍ أو دابّة، فيُصيبه شيءٍ بإذن الله»[١].

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ * أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ[١٥ و ١٦]

ثمَ إنّه تعالى بعد إثبات أنّه خالق الممكنات والموجودات، واعتراف المشركين بذلك، وبّخهم على القول بأنّ الملائكة أولاده بقوله: ﴿وَجَعَلُوا﴾ وأثبتوا ﴿لَهُ﴾ تعالى ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهم الملائكة ﴿جُزْءاً﴾ وولداً مع أنّ الولد الذي جزءٌ من والده منفصلٌ عنه، لا يمكن أن يكون عبده ومُلكه، وهذا القول ليس منهم ببعيدٍ وعجيبٍ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَانَ﴾ بالطبع ﴿لَكَفُورٌ﴾ مبالغٌ في الكفر و﴿مُبِينٌ﴾ ومظهرٌ لكفره، ولذا يقول ما يقول.

ثمَ ذمّهم بأنّهم لم يقنعوا بهذا القول الشنيع، بل أثبتوا له أخسّ الأولاد، وهو البنات، وأنكر ذلك عليهم بقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ﴾ الله واختار لنفسه ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ بقدرته يا قريش ﴿بَنَاتٍ﴾ موهونة عندكم، مكروهة في طباعكم ﴿وَأَصْفَاكُم﴾ وآثركم على نفسه بتفضيلكم ﴿بِالْبَنِينَ﴾ الذين هم خير الأولاد وأكملهم وأشرفهم، وهذا ممّا لا يقول به ذو مُسكة، وإنّما نبّه على حقارة البنات بتنكير اللفظ، وعلى فخامة البنين بتعريفه، وإنّما قدّم ذكر نسبة البنات إلى الله، لكونها أنكر من اصطفائهم البنين، وفي تلوين الخطاب تأكيد الإلزام وتشديد التوبيخ.

وحاصل المراد والله العالم: حيث إنّكم قلتم: إنّ لله ولداً، مع وضوح امتناعه واستحالته، كيف أمكن منكم القول بأنّه اختار لنفسه أخسّ الأولاد، وآثركم على نفسه بخيرهم وأشرفهم وأفضلهم، فانّه خلاف بديهة العقل.

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ[١٧ و ١٨]

ثمَ بيّن شدّة كراهتهم للبنات بقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾ وأخبر ﴿بِمَا ضَرَبَ﴾ وجعل ﴿لِلرَّحْمٰنِ﴾ والإله الفيّاض على الممكنات ﴿مَثَلاً﴾ وشبيهاً، فانّ الولد يُجانس ويُماثل والده ﴿ظَلَّ﴾ وصار ﴿وَجْهُهُ﴾ من سُوء ما بشّر به وشدّة الغيظ عليه ﴿مُسْوَدّاً﴾ وأسودَ في الغاية. وقيل: إنّ اسوداد الوجه

---

١. الكافي ٣: ٥/٤٧٢، عن الرضا عليه السلام، تفسير الصافي ٤: ٣٨٥.

كنايةٌ عن شدّة كراهته[١] لِما اُخبِر به من تولّد البنت له ﴿وَهُوَ﴾ بسبب إخباره لولادة البنت ﴿كَظِيمٌ﴾ ومملوء من الكَرْب والحُزن والغضب، فاذا نقص البنت بهذه الدرجة، كيف يختارها الله لنفسه، وكيف يَنْسُبونها إليه، وهل يجوز للعاقل إثباتها له؟

ثمّ بالغ سبحانه في الإنكار والتوبيخ عليهم بنسبة البنات إليه بقوله: ﴿أَوَ مَن يُنَشَّأُ﴾ ويُربَى ﴿فِي الْحِلْيَةِ﴾ والزِّينة. قيل: إنّ التقدير اجترءوا وجعلوا له تعالى[٢] من شأنه أن يُربَى في الزِّينة لنقص نفسه و﴿هُوَ﴾ مع ذلك ﴿فِي الْخِصَامِ﴾ ومواقع الجِدال مع غيره ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ وغير قادرٍ على تقرير دعواه، وتبيين حُجّته، لضَعْف لسانه، وقلّة عقله، وبَلادة ذِهنه. قيل: قلّما أرادت المرأة أن تتكلّم بحُجّتها إلّا تكلّمت بما كان حُجّة عليها[٣].

وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوْا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ * وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَا لَهُم بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ[١٩ و ٢٠]

ثمّ ذمّهم سبحانه بنسبة الأُنوثة إلى الملائكة الذين هم أشرف المخلوقات بعد الأنبياء والرسل والأولياء بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا﴾ وحكموا بأنّ ﴿الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ﴾ وأكمل الخلق وأكرمهم على الله ﴿إِنَاثاً﴾ والحال أنّه لا يمكن الاطلاع على اُنوثتهم بإدراك العقول، بل لابُدّ من أن يكون اطّلاعهم على ذلك بإخبار نبيّ، وهم لا يقولون به، أوبرؤية خِلقة الملائكة، إذاً فاسألوهم أيّها العقلاء ﴿أَشَهِدُوا﴾ وحضروا ﴿خَلْقَهُمْ﴾ ورأوا اُنوثتهم حتى يحكموا بها؟ لا والله ما شَهِدوا وما رأوا، بل كان حكمهم بتقليد آبائهم الكاذبين، ونحن ﴿سَتُكْتَبُ﴾ البتة في ديوان أعمالهم ﴿شَهَادَتُهُمْ﴾ هذه ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ يوم القيامة عنها، ويُعذّبون بها، فعُلِم من تفسيرنا أنّ السين للتأكيد. وقيل: إنّها للاستقبال والاستعطاف إلى التوبة قبل الكتابة[٤].

ثمّ حكى سبحانه استدلالهم على صِحّة عبادتهم الملائكة الموجب لازدياد كفرهم بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ استدلالاً على صِحّة عبادتهم الملائكة، وكونها مرضية عند الله ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمٰنُ﴾ أن لا نعبُد الملائكة ﴿مَا عَبَدْنَاهُم﴾ فلمّا عبدناهم عَلِمنا أنّه شاء منّا عبادتهم. ثمّ ردّهم سبحانه بأنّه ﴿مَا لَهُم بِذٰلِكَ﴾ التلازم بين فعلهم وإرادة الله التشريعية ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ مستندٍ إلى الدليل

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٣٥٨.
٢. تفسير روح البيان ٨: ٣٥٨.
٣. مجمع البيان ٩: ٦٦، تفسير الرازي ٢٧: ٢٠٢.
٤. تفسير روح البيان ٨: ٣٦٠.

﴿إِنْ هُمْ﴾ وما اُولئك الكافرون ﴿إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ويكذبون كذباً مستنداً إلى الحَدَس الباطل، لوضوح أنّ الإرادة التكوينية غير الإرادة التشريعية، وغير مستلزمة لها، وإلّا لما عذّب المشركين في الدنيا بشركهم.

أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ * بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُهْتَدُونَ * وَكَذٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِن نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُم قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ [٢١ـ٢٤]

ثمّ لمّا أبطل سبحانه دليلهم المذكور، بيّن كون الملائكة بنات الله لابدّ أن يستند إلى كتابٍ سماويٍّ من قِبله تعالى، وأنكره عليهم بقوله: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ﴾ وأنزلنا عليهم ﴿كِتَاباً﴾ من السماء ناطقاً بأنّ الملائكة بنات الله، ويجوز عبادتهم، خلافاً للقرآن المُبطِل لها والناهي عنها، سابقاً على نزول القرآن و﴿من قبله﴾ وقيل: يعني من قبل [القرآن أو] الرسول، أو من قبل ادّعائهم أنّ الملائكة بنات الله[1] ﴿فَهُم﴾ في ادّعائهم ذلك ﴿بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ ومُستدلّون، وعليه معتمدون؟ لا والله ما آتيناهم كتاباً، فلا دليل لهم على مُدّعاهم، لا عقلاً ولا نقلاً ﴿بَلْ﴾ لا مُستمسك لهم إلّا تقليد آبائهم واسلافهم حيث إنّهم ﴿قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾ الأقدمين ثابتين ﴿عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ ودينٍ مجتمعٍ عليه، وهو عبادة الملائكة واعتقاد أنّهم بنات الله ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم﴾ وسنّتهم وطريقتهم ﴿مُهْتَدُونَ﴾ وفي مواضع أقدامهم سالكون، ولخُطواتهم مُتّبعون.

ثمّ بيّن سبحانه أنّ تمسّك الجُهّال بالتقليد ليس أمراً بِدعياً مختصّاً بقومك، بل كان دأبهم من قديم الدهر بقوله: ﴿وَكَذٰلِكَ﴾ القول الصادر من قومك ﴿مَا أَرْسَلْنَا﴾ في القرون التي مضت ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ وقبل إرسالك ﴿فِى قَرْيَةٍ﴾ من قُرى الأرض وبلدةٍ من البلدان ﴿مِن﴾ نبيّ ﴿نَذِيرٍ﴾ ومخوّفٍ قومه من العذاب على الشرك ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ وجبابرتها ورؤساؤها المتنعمّون الذين أبطرتهم النِّعمة، وصرفتهم إلى التقليد في جواب ذلك الرسول: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾ وأسلافنا الذين كانوا أعقل وأعلم منّا ثابتين ﴿عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ ودينٍ اتّفقوا على صِحّته ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم﴾ وسُنّتهم الباقية منهم ﴿مُقْتَدُونَ﴾ ولهم[2] مُقلّدون ﴿قَالَ﴾ كلّ رسولٍ لقومه الذين تمسّكوا بالتقليد ﴿أ﴾ تُقلّدونهم ﴿وَلَوْ جِئْتُكُم﴾ من

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٣٦١.
٢. في النسخة: وبهم.

قبل الله ﴿بِأَهْدَىٰ﴾ وأرشد إلى الحقّ ﴿مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُم﴾ من الدين؟ على فرض كونه هداية ورشاداً، مع أنّه ليس كذلك ﴿قَالُوا﴾ عِناداً ولَجاجاً وتعصّباً: يا أيها الرسل ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ من التوحيد ﴿كَافِرُونَ﴾ ومُنكِرون، وإن كان أهدى وأرشد ممّا وجدنا عليه آباءنا.

فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِى بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ[٢٥ـ٢٨]

فلمّا أعلنوا بالتعصّب والإصرار على دينهم، وتبعية آبائهم، وبارزوا الرسل بالتكذيب والاستهزاء، ويأس الرسل من إيمانهم ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ باستئصالهم بالعذاب، وأهلكناهم بأفظع الهلاك ﴿فَانظُرْ﴾ يا محمّد ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ أمر الأُمم ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ لرُسلهم، وإلى ما صار مآلهم، فلا تكترث بتكذيب قومك، فانّ الله سينتقم منهم كما أنتقم من الأُمم المكذّبة لرسلهم.

ثمّ حكى سبحانه قصّة دعوة إبراهيم الذي كان يفتخر العرب بانتسابهم إليه، وأنّه تبرّأ من التقليد، وتمسّك في دينه بالبرهان، مع كونه أعقل الناس وأعظمهم شاناً، وأمتنهم رأياً، وأصوبهم طريقةً في اعتقاد الكلّ بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ قيل: إنّ التقدير واذكُر يا محمد لقومك وقتاً[١] قال ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾ الذي يجب عليكم أيّها العرب اتّباعه، دعوةً إلى التوحيد، وتنفيراً من الشرك ﴿لِأَبِيهِ﴾ آذر ﴿وَقَوْمِهِ﴾ الذين كانوا يعبُدون الكواكب والأصنام تقليداً لأبائهم: يا قوم ﴿إِنَّنِى بَرَاءٌ﴾ ومُنزجرٌ قلباً ﴿مِن﴾ عبادة جميع ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ من الكواكب والأصنام وغيرها، فلا أعبُدُ شيئاً ﴿إِلَّا﴾ الله، لأنّه ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ وبدأ خلقي من غير مِثال.

قيل: إنّ الاستثناء منقطعٌ، والمعنى أنّي بريٌ من عبادة الأصنام، لكن الذي خلقني لا أبرأ من عبادته[٢] ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ ويُرشدني إلى معالم دينه، وكيفية عبادته وطاعته، ودرجات قُربه، وعليه يكون السين للتأكيد، وقيل: إنّه للتسويف، والمعنى سيُثبّتني على الهداية، وسيهديني إلى ما وراء الذي هداني إليه إلى الآن[٣].

وقيل: إنّ في قوله في سورة الشعراء: ﴿الذى خلقنى فهو يهدين﴾[٤] وقوله هنا: ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ دلالةٌ على استمرار الهداية في الحال والاستقبال[٥].

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٨: ٣٦٣.
٣. تفسير البيضاوي ٢: ٣٧١، تفسير أبي السعود ٨: ٤٤، تفسير روح البيان ٨: ٣٦٣. ٤. الشعراء ٢٦: ٧٨.
٥. تفسير الرازي ٢٧: ٢٠٨.

وعلى أيّ تقدير أنّه عليه‌السلام دعا الناس إلى كلمة التوحيد، وهو قول: لا إله إلّا الله، المستفاد من تبريّة من جميع ما يعبُدون إلّا خالقه ﴿وَجَعَلَهَا﴾ ـ بقوله: ﴿واجنبني وبني ان نعبد الاصنام﴾[١] ـ ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ ونسله وذُرّيته إلى يوم القيامة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بدعوة الموحّدين منهم ﴿يَرْجِعُونَ﴾ من الشرك إلى التوحيد، فيكون فيهم أبداً من يُوحّد الله ويدعو إلى التوحيد، ويكون إماماً وحُجّة على الخلق.

عن السجّاد عليه‌السلام قال: «فينا نزلت هذه الآية ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ والإمامة في عقب الحسين عليه‌السلام باقيةٌ إلى يوم القيامة»[٢].

وعن النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله في خطبة الغدير: «معاشر الناس، القرآن يعرفكم أنّ الأئمة من بعده ولده، وإنّي عرّفتكم أنّهم منّي و[أنا] منه، حيث يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾»[٣].

وفي (المناقب) عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله أنّه سُئل عن هذه الآية فقال: «الامامة في عقب الحسين عليه‌السلام، يخرُج من صُلبه تسعة من الأئمة، منهم مهدي هذه الأمّة»[٤].

بَلْ مَتَّعْتُ هٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ * وَلَمَّا جَاءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا هٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ [٢٩ و ٣٠]

ثمّ بيّن سبحانه أنّه مع جعله لإبراهيم كلمة التوحيد باقية في ذُرّيته، لم يؤمن به كلّهم بقوله: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ﴾ ونفعت بالنّعم الدنيوية من الصحة وطول العمر، وكَثرة المال والأود وغيرها ﴿هٰؤُلَاءِ﴾ المشركين المعاصرين للرسول من أهل مكّة ﴿وَآبَاءَهُمْ﴾ السابقين، فمع أنّ حقّ تلك النّعم أن يشكُروا المُنعِم ويُوحدّوه ويَعْبُدوه، انهمكوا في الشهوات، واغترّوا واشتغلوا بها عن كلمة التوحيد، واستمرّوا على الشرك ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ﴾ من قِبل الله القرآن الذي هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ وعين الصدق ﴿وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ وظاهر الرسالة بالمعجزات الباهرات، أو مظهر للتوحيد بالحجج القاهرات ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ والقرآن الذي فيه وجوه من الاعجاز ليُوقظهم عن نوم الغفلة، ويُرشدهم إلى التوحيد، عاندوا الحقّ، وطعنوا في القرآن، وكونه معجزةً، و﴿قَالُوا هٰذَا﴾ القرآن الذي لا نقدِر على الإتيان بمثله ﴿سِحْرٌ﴾ لا مُعجزة ﴿وَإِنَّا بِهِ﴾ وبكونه من جانب الله وكلامه ﴿كَافِرُونَ﴾ وعنه مُعرَضون.

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هٰذَا ٱلْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ [٣١]

---

١. إبراهيم: ٣٥/١٤. ٢. كمال الدين: ٨/٣٢٣، تفسير الصافي ٤: ٣٨٧.
٣. الاحتجاج: ٦٥، تفسير الصافي ٤: ٣٨٨. ٤. مناقب ابن شهر آشوب ٤: ٤٦، تفسير الصافي ٤/٤٨٨.

ثمّ حكى سبحانه عنهم الاعتراض على الرسالة ودعوى نزول القرآن من الله بقوله: ﴿وَقَالُوا﴾ جهلاً بمِلاك الرسالة، وخطأً في تطبيق العظمة عند الله على العظمة عند الناس: ﴿لَوْلاَ نُزِّلَ هٰذَا ٱلْقُرْآنُ﴾ إن كان منزلاً من الله ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ﴾ أهالي إحدى ﴿ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ مكة والطائف ﴿عَظِيمٍ﴾ عند الناس بالمال والجاه، كالوليد بن المُغيرة المخزومي الساكن في مكّة، وعُروة بن مسعود الثقفي الساكن في الطائف.

وقيل: إنّ المراد من الرجل خصوص عُروة بن مسعود، فانّه كان يسكُن كلتا القريتين، حيث إنّه كان في الطائف بساتينه وضياعه، وفي مكة تجارته وأمواله، ولذا كان يتردّد إليهما[1]، ويُحسَب من أهلهما.

وحاصل المراد ـ والله أعلم ـ أنّ الرسالة منصبٌ جليلٌ عظيمٌ لا يليق به إلاّ العظيم بين الناس، وهو من له جاهٌ ومالٌ كعُروة والوليد، لا محمد فانّه ليس له مالٌ ورئاسةٌ، فهو كاذبٌ في دعوى الرسالة ونزول القرآن عليه.

أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ[٣٢]

ثمّ ردّ سبحانه اعتراضهم بإنكار قابليتهم للرأي والتكلّم في المناصب الإليهة من النبوة والامامة بقوله: ﴿أَهُمْ﴾ مع ضَعْف عقولهم وغاية عَجْزهم وقُصورهم ﴿يَقْسِمُونَ﴾ بين الناس ﴿رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ وفضله بالنبوة والامامة، ويضعونها حيث شاءوا؟ لا والله هم أعجز وأحقر من أن يتصرّفوا في تفضّلاته الدنيوية، ويقسّموا نِعمه الظاهرية، بأن يُفقِروا الغني، ويُغنوا الفقير، ويُعزّوا الذليل، ويُذلّوا العزيز ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُمْ﴾ وأرزاقهم ﴿فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ومُدّة أعمارهم فيها ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ﴾ في الرزق وسائر النِّعم ﴿فَوْقَ بَعْضٍ﴾ إلى ﴿دَرَجَاتٍ﴾ كثيرةٍ متفاوتةٍ حسبما تقتضيه الحكمة، فمن ضعيفٍ وقويٍّ، وفقيرٍ وغنيّ، ووضيعٍ وشريف، وجاهل وعالم، وغبيّ وذكيّ ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً﴾ في مصالحهم ﴿سُخْرِيّاً﴾ ذليلاً ومطيعاً، ولو سوّينا بينهم في جميع الأمور لم يَصِر أحدٌ مسخّراً لغيره، ولم يخدُم أحدٌ غيره، فيختلّ نظام العالم، وينتهي إلى خرابه ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ ورسالته، وما فيه سعادة الدارين ﴿خَيْرٌ﴾ وأفضل لأهلها ﴿مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ الناس من الحُطام الدنيوية الزائلة، وإنّما العظمة المعتبرة في إعطاء تلك الرحمة العظيمة، هي عظمة النفس بالصفاء والنورانية،

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٣٦٥.

والتخلّق بأخلاق الله، والتنزّه عن الرذائل، وكمال العقل والذكاء، والإعراض عن الدنيا وعمّا سوى الله، والاقبال إلى الله والدار الآخرة. وقليلٌ من تلك المكارم خيرٌ من الدنيا بحذافيرها، ولا يُلازم وجود النِّعم الدنيوية وجود تلك الكمالات النفسانية وقُرب واجدها إلى الله، بل كثيراً ما لا يجتمعان.

في مخاصمة النبي ﷺ مع المشركين

روى في (الاحتجاج) أنّ عبدالله بن أبي اُمية قال لرسول الله ﷺ في مجمع سائر قريش: لو أراد الله أن يبعث إلينا رسولاً، لبعث أجلّ من فيما بيننا مالاً، وأحسن حالاً، فهلّا نُزّل هذا القرآن الذي تزعُم أنّ الله أنزله عليك، وأنّه بعثك به رسولاً، على رجلٍ من القريتين عظيم؛ إمّا الوليد بن المُغيرة بمكّة، وإمّا عُروة بن مسعود الثقفي بالطائف؟ ثمّ ذكر اشياء اُخر.

إلى أن قال له رسول الله ﷺ: «وأمّا قولك: لولا نزّل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم، إمّا الوليد بن المُغيرة بمكّة، وإمّا عُروة بن مسعود الثقفي بالطائف، فانّ الله ليس يستعظم مال الدنيا كما تستعظمه أنت، ولا خَطَر عنده كما له عندك، بل لو كانت الدنيا عنده تعدِل جَناح بعوضةٍ لما سقى كافراً به شُربة ماء، وليس قسمة الله إليك، بل الله القاسم للرحمات، والفاعل لما يشاء في عبيده وإمائه، وليس هو عزّ وجلّ ممّن يخاف أحداً كما تخافه أنت لماله وحاله فعرفته بالنبوّة لذلك، ولا ممّن يطمع في أحدٍ في ماله وحاله كما تطمع فتخُصّه بالنبوّة لذلك، ولا ممّن يُحبّ أحداً محبّة الهوى كما تُحِبّ أنت فتُقدّم من لا يستحقّ التقديم، وإنّما معاملته بالعدل، فلا يُؤثِر لأفضل مراتب الدين وجلاله إلّا الأفضل في طاعته، والأجدّ في خدمته، وكذلك لا يُؤخّر في مراتب الدين وجلاله إلّا أشدّهم تباطؤاً عن طاعته، وإذا كان هذا صفته، لم ينظُر إلى مالٍ، ولا إلى حالٍ، هذا المال والحال من تفضُّله، وليس لأحدٍ من عباده [عليه] ضربة لازبٍ[1].

فلا يقال له: إذا تفضّلت بالمال على عبدٍ، فلابُدّ أن تتفضّل عليه بالنبوة أيضاً، لأنّه ليس لأحدٍ إكراهه على خلاف مُراده، ولا إلزامه تفضلاً، لأنّه تفضّل قبله بنعمة، ألا ترى - يا عبدالله - كيف أغنى واحداً وأقبح صورته، وكيف أحسن صورة واحدٍ وأفقره، وكيف أغنى واحداً، وكيف شرّف واحداً وأفقره ووضعه؟

ثمّ ليس لهذا الغنيّ أن يقول: هلّا اُضيفَ إلى يساري جمال فلان؟ ولا للجميل أن يقول: هلّا اُضيف إلى جمالي مال فلان؟ ولا للشريف أن يقول: هلّا اُضيف إلى شرفي مال فلان؟ ولا للوضيع أن يقول: هلّا أعطيتني شرف فلان؟ ولكن الحُكم لله، يُقسم كيف يشاء، ويفعل كما يشاء، وهو حكيم في

---

١. صار الأمر ضربة لازب، أي لازماً ثابتاً.

افعاله محمود في أعماله، وذلك قوله: ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾.

قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ يا محمد ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فأحوجنا بعضاً إلى بعضٍ، أحوج هذا إلى مال ذلك، وأحوج ذلك إلى سِلعة هذا وإلى خدمته، فترى أجلّ الملوك وأغنى الأغنياء محتاجاً إلى أفقر الفقراء في ضربٍ من الضروب، إمّا سِلعة منه، وإمّا خدمة يصلُح لها لا يتهيّأ لذلك المَلِك أن يستغني إلّا به، وإمّا باب من العلوم والحكم، وهو فقيرٌ إلى أن يستفيده من ذلك الفقير، فهذا الفقير يحتاج إلى ذلك المَلِك الغنيّ، وذلك المَلِك يحتاج إلى علم هذا الفقير ورأيه أو معرفته، ثمّ ليس للمَلِك أن يقول: هلّا اجتمع إلى مالي علم هذا الفقير؟ وليس للفقير أن يقول: هلّا اجتمع إلي رأيي وعلمي وما أتصرّف فيه من فنون الحكم مال هذا المَلِك الغنيّ؟»[١].

وَلَوْلَا أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفاً وَإِن كُلُّ ذٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ[٣٣ـ٣٥]

ثمّ بيّن سبحانه حقارة الدنيا وحُطامها عنده، ردّاً لمن استعظمها وادّعى أولوية واجدها بالرسالة بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا﴾ كراهة ﴿أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ﴾ في الكفر ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وجماعةً متّفقةً على الشرك لرغبتهم فيه، إذا رأوا جميع الكفّار في التنعّم والسَّعَة، والله ﴿لَجَعَلْنَا﴾ لحقارة الدنيا وهوانها عندنا ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ﴾ ويُشرِك به مع كونه شرّ الخلائق وأقلّهم قدراً، أعني ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ ومساكنهم ﴿سُقُفاً﴾ معمولةً ﴿مِن﴾ جنس ﴿فِضَّةٍ﴾ خالصة ﴿وَمَعَارِجَ﴾ ومدارج ومصاعد من فَضةٍ أيضاً ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَ﴾ يعلمون السطوح والقُصور، وجعلنا ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ ومساكنهم ﴿أَبْوَاباً﴾ من فِضَة ﴿وَسُرراً﴾ أيضاً من فضة ﴿عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾ ويعتمدون حال الجلوس ﴿وَ﴾ وجعلنا ﴿زُخْرُفاً﴾ وزينةً عظيمةً من الذهب لهم.

وقيل: إنّ المعنى ونجعل لهم مع ذلك ذهباً كثيراً[٢]. وقيل: إنّه عطفٌ على محلّ (مِن فِضَّةٍ) والمعنى سُقُفاً من فِضَةٍ وزُخرف بمعنى الذهب، أي سُقُفاً بعضها من فضة وبعضها من ذهب[٣].

---

١. الاحتجاج: ٣٠ ـ ٣٣، تفسير الصافي ٤: ٣٨٩.
٢. تفسير الرازي ٢٧: ٢١١.
٣. جوامع الجامع: ٤٣٤.

عن الصادق عليه السلام: «لو فعل الله ذلك بهم لما آمن أحدٌ، ولكنّه جعل في المؤمنين أغنياء، وفي الكافرين فقراء، وجعل في المؤمنين فُقراء، وفي الكافرين أغنياء، ثمّ امتحنهم بالأمر والنهي، والصبر والرضا»[1].

وعن السجاد عليه السلام ـ في رواية ـ «لو فعل الله ذلك بأمّة محمد صلى الله عليه وآله لحزن المؤمنون وغمّهم، ولم يُناكحوهم، ولم يُوارثوهم»[2].

وعن الصادق عليه السلام: «ما كان من ولد آدم مؤمنٌ إلّا فقيراً ولا كان كافر إلّا غنياً، حتى جاء إبراهيم فقال: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[3] فصيّر الله في هؤلاء أموالاً وحاجةً، وفي هؤلاء أموالاً وحاجةً»[4].

ثمّ بيّن سبحانه سرعة زوال تلك النِّعم بقوله: ﴿وَإِن كُلُّ ذٰلِكَ﴾ وما جميع هذه النِّعم ﴿لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ﴾ وإلاّ اُمور يُنتفع بها في مدّة العمر لا بقاء لها، بل تزول بالموت والخروج من الدنيا ﴿وَالْآخِرَةُ﴾ بما فيها من أنواع النِّعم التي لا تُوصَف بالبيان باقيةٌ أبديةٌ لا زوال لها، وهي ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ وفي حُكمه ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ والمحترزين عن الكفر والشرك والعِصيان، ولمّا كانت الدنيا دار الامتحان، ليميز الخبيث من الطيب، لم يُوفَر النِّعم على المؤمنين حتى يجتمع الناس على الايمان، لعدم حصول الامتحان، وعدم تبيّن المُخلص عن المنافق.

وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُهْتَدُونَ[٣٦ و ٣٧]

ثمّ بيّن سبحانه أنّ طعن المشركين في القرآن وإعراضهم عن الرسول من تسويل الشياطين وإلقائهم بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ وتعامى ﴿عَن ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ﴾ وكتابه المُنزَل لوعظ الناس ـ وهو القرآن ـ أو عن التوجّه إلى الله ﴿نُقَيِّضْ لَهُ﴾ ونسلّط عليه، ونضُمّ إليه ﴿شَيْطَاناً﴾ يُغويه ﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ ومُصاحب لا يفارقه، ولا يزال يُوسوسه، ويُزيّن له العمى على الهدى، والكفر على الايمان.

عن النبي صلى الله عليه وآله: «إذا أراد الله بعبد شراً، قيّض له شيطاناً قبل موته بسنة، فلا يرى حَسَناً إلّا قبّحه عنده حتى لا يعمل به ولا يرى قبيحاً إلّا حسّنه حتى يعمل به»[5].

---

١. تفسير القمي ٢: ٢٨٤، تفسير الصافي ٤: ٣٩٠. ٢. علل الشرائع: ٣٣/٥٨٩، تفسير الصافي ٤: ٣٩٠.

٣. الممتحنة: ٥/٦٠. ٤. الكافي ٢: ١٠/٢٠٢، تفسير الصافي ٤: ٣٩١.

٥. تفسير روح البيان ٨: ٣٦٩.

وفي (الخصال) عن أمير المؤمنين عليه السلام: «من تصدّى بالإثم عمي[١] عن ذكر الله تبارك وتعالى، ومن ترك الأخذ بمن أمر الله بطاعته، قيّض له شيطاناً فهو له قرين»[٢].

ثمّ بيّن سبحانه ضرر الشياطين بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ بتسويلاتهم وإغوائهم لقُرنائهم، والله ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ ويمنعونهم ﴿عَنِ﴾ سلوك ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ المؤدّي إلى الحقّ، وإلى جميع الخيرات الدنيوية والأخروية، ﴿وَ﴾ الحال أنّ العاشين ﴿يَحْسَبُونَ﴾ ويتوهّمون في أنفسهم، لشدة ضلالتهم ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ إلى الحقّ. قيل: إنّ مرجع الضمير [إلى] الشياطين[٣]. والمعنى أنهم يَحْسَبون أنّ الشياطين الذين اتّبعوهم مهتدون.

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ * وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ[٣٨ و ٣٩]

ثمّ إنّهم مستمرون على مصاحبة الشياطين وحسبانهم الباطل ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ كلّ واحدٍ منهم مع قرينه يوم القيامة ورأى وَخامة عاقبة اتّباعه للشيطان الذي قارنه ﴿قَالَ﴾ مخاطباً له: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ﴾ في الدنيا ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ وفصل ما بينهما.

قيل: إنّ التثنية على التغليب، والمراد منها المشرق والمغرب[٤]. وقيل: على الحقيقة، والمراد مشرق الشمس ومشرق الكواكب، وهو مغرب الشمس. وقيل: مشرق الشمس في الصيف والشتاء، وبينهما بُعد عظيم[٥].

وعلى أيّ تقديرٍ المقصود تمنّي البُعد الذي لا أبعد منه ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أنت يا شيطان، ثمّ يقال له من قبل الله تعالى توبيخاً وتقريعاً: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ تمنّي التباعُد ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ أنفسكم، ولأجل أن عصيتم ربّكم باتّباعكم في الدنيا إياهم في الكفر والطُغيان ﴿أَنَّكُمْ﴾ أيّها التابعون والمتبوعون ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾ الأليم ﴿مُشْتَرِكُونَ﴾ كما كنتم في الدنيا مشركين في سببه، وهو العصيان.

وقيل: إنّ فاعل (لن ينفعكم) قوله: ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ والمعنى أنّ اشتراككم في العذاب لا ينفعكم في التشفّي، إذ تقولون ﴿ربنا آتهم ضعفين من العذاب﴾[٦] ولا في التخفيف عنكم؛ لأنّ شدّة العذاب تُذهِل كلاً عن الآخر.

---

١. في المصدر: صدىء بالاثم عشى.
٢. الخصال: ٦٣٣، تفسير الصافي ٤: ٣٩١.
٣. تفسير أبي السعود ٨: ٤٧، تفسير روح البيان ٨: ٣٧٠.
٤. تفسير أبي السعود ٨: ٤٧، تفسير روح البيان ٨: ٣٧٠.
٥. تفسير الرازي ٢٧: ٢١٣.
٦. تفسير أبي السعود ٨: ٤٨، تفسير روح البيان ٨: ٣٧٠، والآية من سورة الأحزاب: ٦٨/٣٣.

فحاصل الآيات أنّ كثرة المال والنّعم الدنيوية تُعمي الإنسان عن مطالعة آيات الله وكتابه، وذلك العمى يجعل الانسان قريناً للشيطان، وهو يُضلّه عن الهدى، فيشتركان في العذاب، كما كانا مشتركين في الكفر والعِصيان.

عن الباقر عليه السلام - في تأويله - «نزلت هاتان الآيتان هكذا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ يعني فلاناً وفلاناً، يقول أحدهما لصاحبه حين يراه: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله: قل لفلان وفلان وأتباعهما ﴿لَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ آل محمد»[1].

أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ [٤٠-٤٢]

ثمّ لمّا وصف الله سبحانه المُصرّين على الكفر والشرك بالعمى والعشيَ والتعامي، بالغ في ذمّهم بأن وصفهم بالعمى والصَّمم، فلا يُمكن هدايتهم إلى الطريق الحقّ بالدعوة والبيان بقوله: ﴿أَفَأَنتَ﴾ يا محمد ﴿تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ وفاقدي قوّة السّمع دعوتك وآيات كتابك ﴿أَوْ تَهْدِى﴾ وتُدلّ ﴿ٱلْعُمْىَ﴾ وفاقدي قوّة البصر إلى الطريق الحقّ ودين الاسلام ﴿وَ﴾ تُدلّ ﴿مَن كَانَ﴾ غائراً ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وانحرافٍ واضحٍ لجميع العقلاء عن الحقّ وسبيل الخير؟ لا والله لا تقدِر على إسماعهم وهدايتهم مع كمال نبوتك، وشَماخة مقامك، فلا تُتعِب نفسك الشريفة في دعوتهم إلى الايمان، وفيه إشعارٌ بأنّ الوصفين لتمكّنهم في الضلال المُفرط.

روي أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يُتعِب نفسه في دُعاء قومه، وهم لا يزيدون إلّا غياً وتعامياً ممّا يُشاهدونه من المعجزات، وتصامماً عما يسمعونه من الآيات، فنزلت[2].

ثمّ سلّى سبحانه نبيّه صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ من الدنيا إلى جِوار رحمتنا قبل أن نُريك عذابهم، ونُشفي غليل صدرك وصدر المؤمنين باهلاكهم ﴿فَإِنَّا﴾ لا محالة ﴿مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ في الدنيا والآخرة بعد ذهَابك من الدنيا.

روى العلامة في (نهج الحق) عن ابن عباس في الآية، أنّه قال: بعليّ عليه السلام[3].

وقال القاضي: الرواية عن طريق ابن عباس قد رواها ابن مردويه.

---

١. تفسير القمي ٢: ٢٨٦، تفسير الصافي ٤: ٣٩٢. ٢. تفسير روح البيان ٨: ٣٧١.
٣. نهج الحق: ٢٠٥، مناقب ابن المغازلي: ٣٢١/٢٧٥، وشواهد التنزيل ٢: ٨٥٢/١٥٣، عن جابر الانصاري.

روت العامة عن النبي ﷺ: أري ما يُصيب اُمّته بعده، فما رُؤي مستبشراً ضاحكاً حتى قُبض.

وروى القاضي التُّستري، عن الطبرسي، عن جابر بن عبدالله، قال: إنّي لأدناهم من رسول الله ﷺ في حجة الوداع بمِنى حين قال: «لألقينكم» ثمّ التفت إلى خلفه وقال: «أو علي» ثلاث مرات، فرأينا أن جَبْرئيل عمزه، فأنزل الله تعالى على أثر ذلك: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُنتَقِمُونَ﴾ بعلي.

وفي رواية اُخرى عنه، قال: إنّي لادناهم من رسول الله في حجّة الوداع بمِنى، حتى قال: «لألقينكم ترجعون بعدي كفّاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض، وأيم الله لئن فعلتموها لتعرفنني في الكتيبة التي تُضاربكم» ثمّ التفت إلى خلفه فقال: «أو علي» ثلاث مرات، فرأينا أنّ جَبْرئيل غمزه، فأنزل الله ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُنتَقِمُونَ﴾ بعلي بن أبي طالب[1].

وعن الصادق عليه السلام، قال: «فإمّا نَذْهبنّ بك يا محمد من مكّة إلى المدينة، فانّا رادّوك إليها، ومنهم منتقمون بعلي بن أبي طالب»[2].

﴿أَوْنُرِيَنَّكَ﴾ قيل: إنّ المعنى أو ان أردنا أن نُريك[3] ﴿الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ﴾ من العذاب ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُقْتَدِرُونَ﴾ لا يُفوتوننا ولا يخرُجون من سلطاننا.

فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ[٤٣ و ٤٤]

ثمّ إنّه تعالى بعد تسلية النبيّ ﷺ في معارضة قومه، أمره بالثّبات على ما هو عليه بقوله: ﴿فَاسْتَمْسِكْ﴾ يا محمد ﴿بِالَّذِى أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن الذي لم يُوحَ إلى أحد من الرسل مثله في الفصاحة والبلاغة، وتضمّن العلوم والحكم والأحكام، والتزم بما فيه، ولا تعتنِ بمعارضة قومك، وتكذيبهم إيّاه، وطعنهم فيه، سواء عجّلنا لك عذابهم، أو أخّرناه ﴿إِنَّكَ﴾ بلُطف ربّك كائنٌ، أو مارٌّ ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وطريقٍ سوّي لا عوج له، وهو التوحيد، ودين الاسلام، وأحكام القرآن ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ﴾ وشرفٌ عظيم ﴿لَكَ﴾ خصوصاً ﴿وَلِقَوْمِكَ﴾ واُمّتك عموماً، كما روي أنّ النبي ﷺ قال: «إنّ لكلّ شيءٍ شرفاً يُباهي به، وإنّ بهاء اُمّتي وشرفها بالقرآن»[4].

وقيل: إنّ المراد من قومه خصوص قريش، حيث يقال: إنّ هذا الكتاب العظيم نزل على رجلٍ من هؤلاء[5].

---

١. إحقاق الحق ٣: ٤٤٥.
٢. تفسير القمي ٢: ٢٨٤، تفسير الصافي ٤: ٣٩٢.
٣. تفسير أبي السعود ٨: ٤٨، تفسير روح البيان ٨: ٣٧٢.
٤. تفسير روح البيان ٨: ٣٧٣.
٥. تفسير روح البيان ٨: ٣٧٣.

ثمَ جمع سبحانه النبيّ ﷺ وقومه في الخطاب التهديدي بقوله: ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ هل أدّيتم شكر إنعامنا عليكم بإنزال القرآن والذِّكر الجميل، أو هل حَفظتموه وعَمِلتم بما فيه من الأحكام، وأديتموه إلى الناس.

عن الصادق عليه السلام: «الذِّكر القرآن، ونحن قومه، ونحن المسؤولون»[1].

وعنه عليه السلام: «إيّانا عنى، ونحن أهل الذِّكر، ونحن المسؤولون»[2].

وَٱسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ[٤٥]

ثمَ لمّا كان معارضة القوم مع الرسول ﷺ وطعنهم في القرآن، لتصريحهما ببطلان الشرك والدعوة إلى التوحيد، بيّن سبحانه أنّه ليس من خواصّك وخواصّ كتابك، بل جميع الأنبياء والرسل مُطبِقون على التوحيد وإنكار الشرك بقوله: ﴿وَٱسْأَلْ﴾ يا محمد ﴿مَنْ أَرْسَلْنَا﴾ قيل: إنّ التقدير اُمم من أرسلنا ﴿مِن قَبْلِكَ مِن رُسُلِنَا﴾ وعلمائهم الذين يقرأون كتبهم[3] ﴿أَجَعَلْنَا﴾ لهم ﴿مِن دُونِ ٱلرَّحْمٰنِ﴾ وممّا سواه ﴿ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ وهل حكمنا في ملّة من الملل بجواز عبادة غيرالله.

روي عن عائشة: لمّا نزلت هذه الآية قال ﷺ: «ما أنا بالذي أشكّ، ولا أنا بالذي أسأل»[4].

وقيل: إنّ المراد السؤال من أشخاص الرسل، لمّا رُوي أنّه ﷺ لمّا اُسري به إلى المسجد الحرام حُشِر إليه الأنبياء والمرسلون من قبورهم، ومُثّلوا له، فأذّن جَبْرئيل وأقام، وقال: يا محمد، تقدّم وصلّ بإخوانك الأنبياء والمرسلين، فلمّا فرغ من صلاته قال له جَبْرئيل: زَعَمت قريش أن لله شريكاً، وزعمت اليهود والنصارى أنّ لله ولداً، سل يا محمد هؤلاء النبيين: هل كان لله شريك؟ ثمّ قرأ ﴿وَٱسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا﴾ إلى آخره فقال ﷺ: «لا أسأل، وقد اكتفيت، وليس بشاكّ فيه» فلم يشكّ ولم يسأل[5].

وقال بعض مفسري العامة: إنّ هذه الآية نزلت على النبي ﷺ ببيت المقدس ليلة المعراج، فلمّا نزلت وسمعها الأنبياء أقروا لله بالوحدانية وقالوا: بعثنا بالتوحيد[6]. وعن عطاء، عن ابن عباس: لمّا اُسري به إلى المسجد الأقصى بعث له آدم وجميع المرسلين من ولده فأذّن جَبْرَئيل ثمّ أقام فقال: يا

---

١. الكافي ١: ٤/١٦٤، تفسير الصافي ٤: ٣٩٣.
٢. الكافي ١: ٢/١٦٤، تفسير الصافي ٤: ٣٩٣.
٣. تفسير أبي السعود ٨: ٤٩، تفسير روح البيان ٨: ٣٧٤.
٤. تفسير روح البيان ٨: ٣٧٤.
٥. تفسير روح البيان ٨: ٣٧٤.
٦. تفسير روح البيان ٨: ٣٧٤.

محمد، تقدّم وصلّ بهم. فلمّا فرغ قال له جَبْرئيل: **﴿وَٱسْأَلْ﴾** يا محمد **﴿مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُسُلِنَا﴾** الآية. فقال ﷺ: «لا أسأل لأنّي لست شاكّاً فيه»[١].

وعن الباقر عليه السلام أنّه سُئل عن هذه الآية: من ذا الذي سأله محمد، وكان بينه وبين عيسى خمسمائة سنة، فتلا هذه الآية: **﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَىٰ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَىٰ ٱلَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾**[٢] فكان [من] الآيات التي أراها الله محمداً ﷺ حين أسرى به إلى بيت المَقْدِس أن حشر الله له الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين، ثمّ أمر جبرئيل فأذّن شَفْعاً، وأقام شَفْعاً، ثمّ قال في إقامته: حيّ على خير العمل، ثمّ تقدّم محمد ﷺ فصلّى بالقوم، فأنزل الله عليه: **﴿وَٱسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا﴾** الآية، فقال لهم رسول الله ﷺ: على ما تشهدون، وما كُنت تَعْبُدون؟ فقالوا: نشهد أن لا إله إلّا الله، وحده لا شريك له، وأنّك رسول الله، أخذت[٣] على ذلك مواثيقنا وعهودنا»[٤].

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِنْهَا يَضْحَكُونَ * وَمَا نُرِيهِم مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُوا يَا أَيُّهَا ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ * وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهٰذِهِ ٱلْأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِى أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ[٤٦ ـ ٥٢]

ثمّ حكى سبحانه إرساله موسى مع كونه عديم المال والجاه، إلى فرعون الذي كان له ملك مصر وأموال كثيرة، ردّاً على قريش الذين قالوا: **﴿لَوْلَا نُزِّلَ هٰذَا ٱلْقُرآنُ﴾**[٥] الآية، بقوله: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾** مع كونه فقيراً ومهيناً عند القِبط حال كونه مستدلاً على صدقه **﴿بِآيَاتِنَا﴾** ومعجزاته التي أعطيناه **﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾** مَلِك مِصر **﴿وَمَلَئِهِ﴾** وأشراف قومه المطاعين عند القِبط **﴿فَقَالَ﴾** لهم موسى: يا قوم **﴿إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾** إليكم، لأدعوكم إلى توحيده وطاعته، وجئتكم بآيات ومعجزات من ربّكم **﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا﴾** وأراهم المعجزات الدالّة على صدقه **﴿إِذَا هُم مِنْهَا**

---

١. تفسير الرازي ٢٧: ٢١٦.　٢. الإسراء: ١/١٧.　٣. في الكافي: أخذ.
٤. تفسير القمي ٢: ٢٨٥، الكافي ٨: ٩٣/١٢١، تفسير الصافي ٤: ٣٩٣.　٥. الزخرف: ٣١/٤٣.

﴿يَضْحَكُونَ﴾ كذباً، وبها يستهزئون، فكان يريهم آيةً بعد آيةٍ، ويأتيهم بمعجزةٍ بعد معجزةٍ ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ﴾ من الآيات ومعجزةٍ من المعجزات ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ﴾ وأعظم ﴿مِنْ أُخْتِهَا﴾ وقرينتها ﴿وَأَخَذْنَاهُم﴾ وابتليناهم بعد أن يستهزئوا بالمعجزات ﴿بِالْعَذَابِ﴾ والبلاء من الطُّوفان، والجَراد، والقُمّل، والدم، والطَّمْس ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بسبب العذاب والبلاء ﴿يَرْجِعُونَ﴾ عمّا هم عليه من الكفر والطغيان إلى الايمان والتسليم، فلمّا اشتدّ الأمر على فرعون ومَلَئِهِ، جَزِعوا ﴿وَقَالُوا﴾ تضرعاً إلى موسى: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلسَّاحِرُ﴾ في زعم الناس. وقيل: إنّهم كانوا يقولون للعالم [الماهر] ساحر[١]، والمعنى: أيّها العالم، إنْ تكُ صادقاً في دعوى الرسالة ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ الذي أرسلك ليكشِف عنّا العذاب ﴿بِمَا عَهِدَ﴾ من النبوة المحفوظة ﴿عِندَكَ﴾ أو من استجابة دعوتك، أو من كشف العذاب عمّن آمن بك، والباء على هذا للسببية، أو المعنى بحقّ ما عَهِد عندك من النبوة ﴿إِنَّنَا﴾ على تقدير كشف العذاب ﴿لَمُهْتَدُونَ﴾ ومؤمنون بك.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ ورفعنا ﴿عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ بدعاء موسى ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ ويَنْقُضون عهدهم بالاهتداء والايمان، وبادروا إليه من غير ريثٍ، وأصرّوا على الكفر والعناد ﴿وَ﴾ كان من نقضهم أنّه ﴿نَادَىٰ فِرْعَوْنُ﴾ بنفسه، أو بمنادٍ من قبله ﴿فِي﴾ ما بين ﴿قَوْمِهِ﴾ وهم القِبط، ﴿قَالَ﴾ تعظّماً وافتخاراً: ﴿يَا قَوْمِ﴾ إن كان إله غيري كنت أولى بالرسالة من قبله ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾؟ وهي على ما قيل أربعون فرسخاً في أربعين[٢]. ﴿وَ﴾ أليس ﴿هَٰذِهِ ٱلْأَنْهَارُ﴾ الأربعة المتشعّبة من النِّيل، وهي على ما قيل نهر الإسكندرية، ونهر طُولون، ونهر دِمياط، ونهر تِنِّيس[٣]. ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ قيل: كانت تلك الأنهار تجري في بستان له فيه قصره. وقيل: يعني تجري من أمري[٤]. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يا قوم سلطنتي وجاهي ومالي، يا قوم أموسى خيرٌ منّي مع ما تُبصِرون من سلطنتي وعظمتي ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ وأفضل ﴿مِنْ هَٰذَا﴾ الرجل ﴿ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ وضعيف وحقير بينكم؟

وقيل: إنّ المعنى أفلا تُبصِرون أنا خيرٌ منه[٥]. وقيل: (أنا خيرٌ) لابتداء الكلام، والمعنى (أفلا تبصرون) أم تُبصِرون[٦] ما يكون.

ثمّ قال: (أنا خير منه) وقيل: إنّ كلمة (أم) بمعنى بل[٧]. وقيل: بمعنى الاستفهام وبل، فكأنه قال أثر

---

١. تفسير الرازي ٢٧: ٢١٨.
٢. تفسير روح البيان ٨: ٣٧٧.
٣. تفسير الرازي ٢٧: ٢١٨، تفسير روح البيان ٨: ٣٧٧.
٤. تفسير روح البيان ٨: ٣٧٧.
٥. تفسير روح البيان ٨: ٣٧٧.
٦. تفسير الرازي ٢٧: ٢١٨.
٧. تفسير الرازي ٢٧: ٢١٨، تفسير روح البيان ٨: ٣٧٨.

تعديد موجبات فضله ومبادئ خيريته: يا قوم، أثبت عندكم ما قلت؟ بل أنا خيرٌ منه[١]. ﴿وَ﴾ الحال أنّه ﴿لَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ ويُوضّح كلامه، لرتّة في لسانه، فكيف يَليق للرسالة؟ وقيل: إنّه قال ذلك بلحاظ اطّلاعه على حاله السابق، وما كان يعلم زوال رتّته منه بُدعائه. وقيل: إنّ المراد لا يكاد يُبين حُجّته على رسالته، لا أنّه لا يقدِر على الكلام[٢].

فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ * فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ[٥٣ـ٥٦]

ثمّ قيل: إنّ عادة القِبط كانت جاريةً بأنّ من جعلوه رئيساً مطاعاً سوّروه بسِوارٍ من ذهب، وطوّقوه بطَوْقٍ من ذهب[٣]، فلذا قال فرعون توبيخاً لموسى: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ﴾ من قبل ربّه ﴿أَسْوِرَةٌ﴾ وأقْلِبه ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ التي هي مقاليد الملك، إن كان صادقاً في دعوى الرسالة؟ ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ حال كونهم ﴿مُقْتَرِنِينَ﴾ لموسى ومنضمّين إليه، أو منقادين له؟ كي يُعينونه على أمره، ويُصدّقونه في دعوى رسالته.

﴿فَاسْتَخَفَّ﴾ فرعونُ بما ذكر من التلبيسات ﴿قَوْمَهُ﴾ وأراد بالتمويهات خفّة عقولهم، وحملهم على الجهل، كي يُطيعوه فيما أراد منهم ممّا يأباه أرباب العقول السليمة. وقيل: طلب منهم خفّة الأبدان، وهي كناية عن إسراعهم في طاعته، أو المراد وجد أحلامهم خفيفةً، يغترّون بالتسويلات والتمويهات الباطلة[٤]، أو وجدهم خِفافاً في أبدانهم وعزائمهم[٥]. ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ فيما أمرهم به من معارضة موسى، والأعراض عنه، لفرط ضلالهم.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ وخارجين عن حدود العقل وعبودية الله، فلذلك استعظموا فرعون بماله وملكه، وسارعوا إلى طاعته، واستحقروا موسى لفقر وضَعْفه، فخالفوه أمناً من ضَرَره.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ولقد دخل موسى ومعه أخاه هارون على فرعون، وعليهما مدارع الصوف، وبأيديهما عصا، فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه ودوام عزّه، فقال: ألا تعجبون من هذين، يشترطان لي دوام العزّ، وبَقاء المُلك، وهما بما ترون من حال الفقر والذُّل، فهلّا اُلقي عليهما أساور من ذهب؟! إعظاماً للذهب وجمعه، واحتقاراً للصوف وللبسه. ولو أراد الله لأنبيائه حيث بعثهم كنوز

---

١. تفسير أبي السعود ٨: ٥٠، تفسير روح البيان ٨: ٣٧٨.
٢. تفسير الرازي ٢٧: ٢١٩.
٣. تفسير الرازي ٢٧: ٢١٩.
٤. تفسير روح البيان ٨: ٣٧٩.
٥. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٠.

الذهبان ومعادن الأقيان ومغارس الجنان، وأن يحشُر معهم طيور السماء ووحوش الأرضين لفعل، ولو فعل لسقط البلاء وبطل الجزاء».

إلى أن قال: «ولكن الله سبحانه جعل رسله أُولي قوّة في عزائمهم، وضعفه فيما ترى الأعين من حالاتهم، مع قناعة تملأ القلوب والعيون غِنىً، وخَصاصةً تملأ الأبصار والأسماع أذى، ولو كانت الأنبياء أهل قوّة لا تُرام، وعِزّة لا تُضام، ومُلك تُمَدّ نحوه أعناق الرجال وتُشدّ إليه عُقد الرِّحال، لكان ذلك أهون على الخلق في الاعتبار، وأبعد لهم عن الاستكبار، ولآمنوا عن رهبةٍ قاهرةٍ لهم، أو رغبةٍ مائلةٍ بهم، وكانت السيئات مشتركةً، والحسنات مقتسمة، ولكن الله سبحانه أراد أن يكون الاتّباع لرسله، والتصديق بكتبه، والخشوع لوجهه، والاستكانة لأمره، والاستسلام لطاعته أُموراً له خاصة، لا يشوبها من غيرها شائبةٌ، وكلّما كانت البلوى والاختبار أعظم، كانت المَثُوبة والجزاء أجزل»[1].

﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ وشدّدوا عليهم سَخَطنا بالافراط في الطِغيان والعِناد للحقّ ﴿آنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ وعجّلنا في إنزال العذاب عليهم ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ﴾ في البحر المُطاع والمُطيعين ﴿أَجْمَعِينَ﴾ بحيث لم نَتْرُك منهم أحداً.

قيل: لمّا افتخر فرعون بجَرَيان الماء من تحته، غرّقه الله في الماء[2].

عن الصادق عليه السلام، قال في هذه الآية: «إنّ الله تبارك وتعالى لا يأسف كأسفنا، ولكنه خلق أولياء لنفسه يأسفون ويرضون، وهم مخلوقون ومربوبون، فجعل رضاهم رضا نفسه، وسَخَطهم سَخَط نفسه، وذلك لأنّه جعلهم الدُّعاة إليه، والأدلّاء عليه، فلذلك صاروا كذلك».

إلى أن قال: «ولو كان يصل إلى الملكوت الأسف والضَّجر، وهو الذي أحدثهما وأنشأهما، لجاز لقائلٍ أن يقول: إنّ الملكوت يبيد يوماً، لأنّه إذا دخله الضَّجر والأسف، دخله التغيّر، وإذا دخله التغيّر، لم يُؤمَن عليه الإبادة»[3] الخبر.

وقيل: إنّ الأسف والغضب من الله إرادة العذاب الذي هو أثر الغضب، والانتقام هو التعذيب لجُرمٍ سابقٍ[4].

ثمّ بيّن سبحانه أنّ فائدة إهلاكهم صيرورتهم عبرةً لمن بعدهم بقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ﴾ وصيّرناهم ﴿سَلَفاً﴾ وقُدوةً لمن بعدهم من الكفّار الذين يَسْلُكون مَسْلَكهم في استيجاب ما حلّ به من العذاب،

---

١. نهج البلاغة: ٢٩١ الخطبة ١٩٢، تفسير الصافي ٤: ٣٩٥.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٣٨١.

٣. الكافي ١: ٦/١١٢، التوحيد: ٢/١٦٨، تفسير الصافي ٤: ٣٩٦.

٤. تفسير الرازي ٢٧: ٢١٩.

أو سلفاً وقُدوة في دُخول النار أ﴿ومَثَلاً﴾ وعِظةً ﴿لِلْآخِرِينَ﴾ من الناس، لئلا يَسْلُكوا مَسْلَكهم.

وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ[٥٧]

ثمَ إنَه تعالى بعد حكاية جِدال قريش مع النبيّ ﷺ بقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[١] حكى جِدالهم الآخر بقوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ﴾ وجُعِل عيسى ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ في إبطال قول النبي ﷺ ﴿مَثَلاً﴾ ومقياساً؛ روي أنه لمّا نزل: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[٢] قرأه رسول الله ﷺ على قريش، فامتعضوا وغضبوا غضباً شديداً، وشقّ عليهم ذلك، فقال عبدالله بن الزِّبَعْرىٰ بطريق الجِدال: هذا لنا ولآلهتنا، أو لجميع الأمم؟ فقال: «هو لكم ولالهتكم ولجميع الأمم» فقال: خصمتك وربّ الكعبة، أليست النصارى يَعْبُدون المسيح، وأنت تزْعم أنه نبيَ وتُثني عليه وعلى اُمّه، وقد عَلِمت أن النصارى يَعْبُدونهما، واليهود يَعْبُدون عزيراً، وبنو المليح يَعْبُدون الملائكة، فان كان هؤلاء في النار، فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم، فسكت رسول الله ﷺ فنزلت[٣].

ولمّا ضُرِب بن مريم مثلاً ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾ قريش يا محمد، لمّا سَمِعوا المَثَل ﴿مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ ويَضَجّون، ويرفعون أصواتهم فزَعاً وسُروراً لظنّهم أنّك صرت مُلزماً بذلك المَثَل.

وعن (المعاني) عن النبي ﷺ أنه قال في الآية «الصدود في العربية الضِّحك»[٤].

وفي رواية فضل بن روزبهان: أنّ النبي ﷺ قال في جواب ابن الزِّبَعْرى: «ما أجهلك بلسان قومك!»[٥] فانّ (ما) لا يُراد به ذوو العقول، وعيسى من ذوي العقول، فأنزل الله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾ إلى آخره.

في فضيلة أمير المؤمنين عليه السلام

وروى العلامة في (نهج الحق) عن العامة: أنّ النبي ﷺ قال لعلي عليه السلام: «أن فيك مثلاً من عيسى، أحبّه قومٌ فهلكوا فيه، وأبغضه قومٌ فهلكوا فيه» فقال المنافقون: أما ترى له مثلاً إلّا عيسى بن مريم؟ فنزلت هذه الآية[٦].

وقال القاضي نور الله: قد روى أحمد بن حنبل في مسنده ما في الحديث الذكور من طرق ثمانية، منها: ما رواه مسنداً إلى علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «يا علي، إنّ فيك مثلاً من عيسى، أبغضه اليهود حتى بَهَتوا اُمّه، وأحبه النصارى حتى أنزلوه المنزل الذي ليس له» . قال: قال علي عليه السلام: «يهلِك

---

١. الزخرف: ٣١/٤٣. ٢. الأنبياء: ٩٨/٢١. ٣. تفسير الرازي ٢٧: ٢٢١، تفسير روح البيان ٨: ٣٨١.
٤. معاني الأخبار: ١/٢٢٠، تفسير الصافي ٤: ٣٩٦. ٥. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٢، وليست عن ابن روزبهان.
٦. نهج الحق: ٦٢/٢٠٢.

فيّ رجلان: مُحبٌّ يفرطني بما ليس فيّ، ومبغضٌ شنأني على أن يَبْهَتني».

وكذا ابن المغازلي في كتاب (المناقب)، ومحمد بن عبدالواحد في (جواهر الكلام)، وابن عبد ربّه في (العقد) ذكروا ما في معناه[١]. وقريبٌ من هذا المضمون رواياتٌ عديدة بطُرق أصحابنا.

وَقَالُوا ءَآلِهَتِنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِى إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مِلائِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ[٥٨ ـ ٦٠]

واحتمل الفخر الرازي أنّ الكفار لمّا سَمِعوا أنّ النصارى يَعْبُدون عيسى، قالوا: إذا عبدوا عيسى فآلهتنا خيرٌ من عيسى، وإنّما قالوا ذلك لأنّهم كانوا يَعْبُدون الملائكة[٢]. فحكى سبحانه قولهم بقوله: ﴿وَقَالُوا ءَآلِهَتِنا خَيْرٌ﴾ من عيسى ﴿أَمْ هُوَ﴾ خيرٌ من آلهتنا؟ وما قالوا ذلك المَثَل و﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ﴾ يا محمد لغرض من الأغراض ﴿إِلَّا جَدَلاً﴾ ولأجل الخِصام والغَلَبة عليك، لا لطلب الحقّ حتى يُذعِنوا له عند ظهوره ببيانك ﴿بَلْ هُمْ﴾ وما اُولئك المجادلون إلّا ﴿قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ ومُصرّون على الجِدال، ومبالغون في الخُصومة.

ثمّ بيّن سبحانه منزلة عيسى ردّاً على من قال بألوهيته بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ﴾ من عبادنا مربوبٌ بتربيتنا ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بنعمة النبوة، وتفضّلنا عليه بفضيلة الرسالة، لا هو ابننا ولا شريكنا في الألوهية واستحقاق العبادة ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً﴾ وعِبرةً عجيبةً حقيقةً بكونها كالمثل السائر ﴿لِبَنِى إِسْرَائِيلَ﴾ يعتبرون به، إنّا خلقناه من غير أبٍ، كما خلقنا آدم، وآتيناه معجزاتٍ كثيرةً.

ثمّ لمّا ذكر سبحانه كون عيسى عِبرةً وآيةً من حيث تولّده من غير أب، بيّن كمال قدرته في أمر الولادة بقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾ والله ﴿لَجَعَلْنَا﴾ ولخلقنا بطريق الولادة ﴿مِنكُم﴾ مع أنّكم رجال من الإنس ليس من شأنكم الولادة ﴿مِلائِكَةً﴾ مُستقرّين ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أمثال أولادكم ﴿يَخْلُفُونَ﴾ كم، ويقومون مقامكم في مباشرة أعمالكم التي تباشرونها، كما خلقناهم بطريق الابداع، وأسكنّاهم في السماوات يسبّحون ويُقدّسون، ومن الواضح أنّ توليد الملائكة من رجال الانس أبدع من توليد عيسى من الأنثى الإنسية من غير أب، وفيه تنبيهٌ على أنهم غير أهلين للعبادة، لأنّهم مخلوقون مربوبون.

في (الكافي) عن أبي بصير، قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يومٍ جالس، إذ أقبل أمير المؤمنين عليه السلام،

---

١. إحقاق الحق ٣: ٤٠٣.

٢. تفسير الرازي ٢٧: ٢٢٠.

فقال رسول الله ﷺ: «إنّ فيك شبهاً من عيسى بن مريم، لولا أن تقول فيك طوائف ما قالت النصارى في عيسى بن مريم، لقلت فيك قولاً لاتَمُرّ بملأ من الناس إلّا أخذوا التراب من تحت قدميك، يلتمسون بذلك البركة» قال: فغَضِب الأعرابيان والمُغيرة بن شُعبة وعدّة من قريش معهم، فقالوا: ما رضي أن يضرِب لابن عمّه إلّا عيسى، فأنزل الله على نبيه: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾ إلى قوله: ﴿لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾ أي من بني هاشم ﴿مِلَائِكَةً فِي ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [1].

وقيل: إنّ الله تعالى بعد حكاية جِدال القوم مع الرسول ﷺ هدّدهم وقال: لو نشاء لأهلكناكم وجعلنا بدلاً منكم ملائكةً يسكنون الأرض بعدكم ويُعمّرونها ويَعْبُدونني [2].

وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ [٦١ و ٦٢]

ثمّ بيّن سبحانه خصيصة عيسى عليه السلام بقوله: ﴿وَإِنَّهُ﴾ عليه السلام بنزوله من السماء ﴿لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ وعلامة لقُربها، وشرط من أشراطها ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أيّها الناس، ولا تَشُكّنّ فيها، ولا تُجادلن بوقوعها لوجوب إتيانها عليّ ﴿وَٱتَّبِعُونِ﴾ وآمنوا برسولي، واعملوا بشريعتي، فانّ ﴿هٰذَا﴾ الاتباع الذي أدعوكم إليه ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ وعن القمي رحمه الله في تأويله: ثمّ ذكر خَطَر أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ وفي قوله: ﴿وَٱتَّبِعُونِ هٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ قال: يعني أمير المؤمنين عليه السلام [3].

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ﴾ عن اتّباعي ولا يمنعكم عن سلوك صراطي ﴿ٱلشَّيْطَانُ﴾ وإعلموا ﴿إِنَّهُ لَكُمْ﴾ أيّها الناس ﴿عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ومبغضٌ ظاهر العداوة والبُغض.

في الحديث العامي: «أنّ عيسى ينزِل على ثنيّة بالأرض المُقدّسة يقال لها أفيق أغبر [4].

وفي حديث آخر: «الأنبياء أولاد عَلّات [5]، وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم، ليس بيني وبينه نبي، إنّه أول ما ينزل يكسِر الصليب، ويقتُل الخنزير، ويُقاتل على الاسلام» [6].

أقول: يعني ليس بينه وبين نبينا ﷺ نبيّ [من] أُولي العزم، لأنّه لا تخلو الأرض من حُجّة.

وفي حديث آخر: «ليُوشِكنّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً يكسر الصليب» [7] الخبر.

---

١. الكافي ٨: ١٨/٥٧، تفسير الصافي ٤: ٣٩٧.
٢. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٣.
٣. تفسير القمي ٢: ٢٨٦، تفسير الصافي ٤: ٣٩٨.
٤. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٤.
٥. العَلّة: الضَرّة، وبنو العَلّات: بنو رجلٍ واحدٍ من أُمّهات شتّى، ويريد بالحديث أن الانبياء عليهم السلام إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة.
٦. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٤.
٧. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٤.

ورووا أنه يجتمع عيسى والمهدي، فيقوم عيسى بالشريعة، والمهدي بالسيف[١]. وقال بعضهم: أنّ عيسى يُصلّي بالناس، والمهدي يقتدي به[٢]، وقال بعضهم: يَؤمّ المهدي، ويقتدي به عيسى[٣]، واتّفق أصحابنا على أنّ عيسى يقتدي بالمهدي عليه السلام فانّ السلطنة الإلهية للمهدي، وعيسى مُعينة وتَبعة.

وقيل: إنّ ضمير (إنه) راجع إلى القرآن[٤]، والمعنى أنّ القرآن لعلمٌ للساعة، لما فيه من الإعلام بها، والدلالة عليها.

وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا ٱللهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ ٱللهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ * هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ[٦٣ ـ ٦٦]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه عَظَمة شأن عيسى، حكى دعوته إلى التوحيد والمعارف الإلهية بقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ﴾ من جانب الله إلى بني إسرائيل مستدلاً على رسالته ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والمعجزات الباهرات كاحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغيرهما ﴿قَالَ﴾ يا بني إسرائيل، إنّي ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ﴾ والمعارف الإلهية التي يجب عليكم تعلّمها ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ﴾ وتتنازعون ﴿فِيهِ﴾ من الأمور الدينية التي بيانها وظيفة الأنبياء. وعن ابن عباس: أنّ البعض هنا بمعنى الكُلّ[٥].

﴿فَاتَّقُوا ٱللهَ﴾ يا بني إسرائيل، وخافوه في مخالفتي ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ واقبلوا منّي ما اُبلّغكم من ربي، واعملوا به، واعلموا أنّ أهمّ ما اُبلّغكم به التوحيد، فانّي أقول: ﴿إِنَّ ٱللهَ﴾ تعالى وحده ﴿هُوَ﴾ بالخصوص ﴿رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ وربّ كلّ شيء، لا شريك له في الاُلوهية واستحقاق العبادة، إذا عَلِمتم ذلك ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وحده بخلوص النية، ولا تَعْبُدوني ولا تَعْبُدوا غيري ممّا سواه ﴿هٰذَا﴾ التوحيد والإخلاص في عبادته ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ يُوصل سالكه إلى جميع الخيرات، ويُؤدّيه إلى أكمل السعادات ﴿فَاخْتَلَفَ﴾ اليهود والنصارى في أمر الله وشأن عيسى بعد ثلاثمائة سنة من رفعه، على ما قيل[٦]، وحدثت ﴿ٱلْأَحْزَابُ﴾ والفِرق العديدة ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ فحزب قالوا: إنّه رسول الله وعبده،

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٤.
٢. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٥.
٣. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٥.
٤. جوامع الجامع: ٤٣٦، تفسير أبي السعود ٨: ٥٣.
٥. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٥.
٦. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٦.

وحزب قالوا: إنه ابن الله، وحزب قالوا: إنّه ثالث ثلاثة، وحزب قالوا: إنّه هو الله، وحزب قالوا: إنّه ـ نعوذ بالله ـ ولد زنا، وجميعهم إلّا الفرقة الأولى ظلموه ﴿فَوَيْلٌ﴾ وأسوأ الأحوال في القيامة ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وكفروا به، وخالفوا قوله ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ عذابه، وهو يوم القيامة، وهؤلاء الظالمون ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ وينتظرون شيئاً في ابتلائهم بالعذاب ﴿إِلَّا السَّاعَةَ﴾ والقيامة ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ وفُجَاءَةً ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ ولا يحتملون إتيانها، لكونهم منكرين له.

قيل: ذِكر إيتانها بَغْتةً لم يكن مُغنياً عن ذِكر عدم شعورهم به، لأن إتيانها بَغْتةً يجتمع مع الشعور بوقوعه والاستعداد له[1].

ٱلْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ [٦٧]

ثمّ ذكر سبحانه بعض أهوال الساعة بقوله: ﴿ٱلْأَخِلَّاءُ﴾ والأصدقاء ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وفي ذلك الوقت ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ ومُبغض، لظهور مضارّ الخُلّة، والتحابب بينهم ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين كانوا منتفعين في الآخرة بخُلّتهم ومُوادّتهم، لكونهم في الدنيا متعاونين على البرّ والتقوى، فتكون خُلّتهم في الدنيا باقيةً إلى القيامة، بل تزداد بمشاهدة آثارها من الثواب والشفاعة ورفع الدرجات.

وروى بعض العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه قال في هذه الآية: «كان خليلان مؤمنان، وخليلان كافران، فمات أحد المؤمنين، فقال: يا ربّ، إنّ فلاناً كان يأمُرني بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمُرني بالخير وينهاني عن الشرّ، ويُخبرني أنّي ملاقيك، يا ربّ فلا تُضلّه بعدي، واهدِه كما هديتني، وأكرمه كما أكرمتني. فاذا مات خليله المؤمن، يُجمَع بينهما، فيقول كلّ واحدٍ منهما لصاحبه: نِعم الأخ ونِعم الصاحب، فيُثني عليه خيراً.

قال ويموت أحد الكافرين فيقول: إنّ فلاناً كان ينهاني عن طاعتك وطاعة رسولك، ويأمُرني بالشرّ، وينهاني عن الخير، ويُخبرني أنّي غير ملاقيك، فلا تَهْدِه بعدي وأضلله كما أضللتني، وأهنه كما أهنتني، فاذا مات خليله الكافر جُمِع بينهما، فيقول كلّ واحدٍ منهما لصاحبه: بئس الأخ وبئس الخليل، فيُثني عليه شرّاً»[2].

وفي الحديث: «أنّ الله يقول يوم القيامة: أين المتحابّون بجلالي، اليوم أُظلّهم في ظلّي يوم لا ظِلّ إلّا ظِلّي»[3].

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٦.
٢. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٨.
٣. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٨.

وفي رواية أخرى: «يقول الله تعالى: المتحابّون فيّ [أي في الله] بجلالي لهم منابر من نور يَغبِطهم النبيون والشهداء»[١].

وعن ابن عباس: يقول أحِبّ لله، وأبغِض لله، ووالِ لله، وعادِ لله، فانّه يُنالُ ما عند الله بهذا، ولن ينفع أحداً كثرةُ صومه وصلاته وحجّه حتى يكون هكذا، وقد صار الناس اليوم يُحبّون ويُبغِضون للدنيا، ولن ينفع ذلك أهله، ثمّ قرأ الآية[٢].

في نفضيلة مؤاخاة المتّقين

وعن الصادق عليه السلام: «واطلُب مؤاخاة الأتقياء، ولو في ظُلمات الأرض، وإن أفنيت عمرك في طَلَبهم، فانّ الله عز وجل لم يخلُق أفضل منهم على وجه الأرض بعد النبيين، وما أنعم الله على عبدٍ بمثلِ ما أنعم به من التوفيق لُصحبتهم، قال الله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾»[٣].

يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ * ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[٦٨ ـ ٧١]

ثمّ بيّن سبحانه إكرامه ولُطفه بالمتّقين يوم القيامة بأن يُباشر مخاطبتهم فيه بقوله: ﴿يَا عِبَادِ﴾ المُوحّدين ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ﴾ من أهوال ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ وشدائده ﴿وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتكم من نِعم الدنيا والحِرمان عن الدرجات العالية في الجنّة.

ثمّ عرّف سبحانه عباده المبشرين بتلك البشارة بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا وكمال صفاتنا ﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ومنقادين لأحكامنا، مطيعين لأوامرنا ونواهينا ﴿ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ﴾ التي كنتم توعدون بها في الدنيا ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ المؤمنات حال كونكم ﴿تُحْبَرُونَ﴾ وتُسرّون[٤] سروراً نظهر أثره في وجوهكم، أو تُزيّنون بثياب من سُندس وإستبرق، وأساور من ذهبٍ وفِضّة، أو تُكرّمون، فاذا دخلوا الجنة فرحين مسرورين ومكرّمين ومُزيّنين ﴿يُطَافُ﴾ ويُدار ﴿عَلَيْهِم﴾ بأيدي الغِلمان والوِلدان ﴿بِصِحَافٍ﴾ وقِصاعٍ واسعةٍ مُدوّرة الأفواه مصنوعةٍ ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ فيها طعامهم ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ وكُوز من ذهب لا عُروة لها ولا خُرطُوم، فيها شرابهم، يشربون منها حيث يشاءوا.

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٨.
٢. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٨.
٣. مصباح الشريعة: ١٥٠، تفسير الصافي ٤: ٣٩٩.
٤. في النسخة: وتسترون.

عن ابن عباس: يُطاف بسبعين ألف صَحْفةٍ من ذهب، في كلّ صَحْفةٍ سبعون ألف لونٍ، كلّ لون له طَعْم غير طَعْم الألوان الأُخر، هذا لأسفل درجةٍ، وأما الأعلى فيُوتى بسبعمائة الف صحفة[١].

وفي الحديث: «أنّ أدنى أهل الجنة منزلةً من له سبع درجات، وهو على السادسة، وفوقها السابعة، وإنّ له ثلاثمائة خادم، وإنه يُغدى عليه ويُراح في كلّ يومٍ بثلاثمائة صَحْفة، في كلّ صَحْفةٍ لونٌ من الطعام ليس في الأخرى، وإنّه ليَلَذّ أوله كما يَلَذّ آخره، وإن له من الأشربة ثلاثمائة إناءٍ، في كلّ إناء شرابٌ ليس في الآخر، وإنّه ليَلَذّ أوله كما يَلَذّ آخره، وإنّه ليقول: يا ربّ، لو أذنت لي لأطعمت أهل الجنّة وسقيتهم، ولم يَنقِص ذلك ما عندي شيئاً، وإن له من الحُور العِين ثنتين وسبعون زوجة سوى أزواجه من الدنيا»[٢].

﴿وَ﴾ لكم يا أهل الجنّة ﴿فِيهَا﴾ بتفضل الله ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ من أنواع المشتهيات كالمطاعم والمشارب والمناكح والملابس ونحوها ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ بمشاهدته ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ودائمون لا تموتون، ولا منها تُخْرَجون.

عن القائم عجّل الله فرجه: أنه سُئِل عن أهل الجنّة، هل يتوالدون إذا دخلوها؟

فأجاب: «أنّ الجنة لا حَمْل فيها للنساء ولا ولادة، ولا طمَث ولا نَفاس، ولا شقاء بالطفولية، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتَلَذّ الأعين، كما قال الله، فاذا اشتهى المؤمن ولداً خلقه الله بغير حَمْل ولا ولادة على الصورة التي يُريد، كما خلق آدم عبرةً»[٣].

وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ * إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلٰكِن كَانُوا هُمُ ٱلظَّالِمِينَ [٧٢-٧٦]

ثمّ قرّر سبحانه خُلودهم فيها بقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي أُورِثْتُمُوهَا﴾ وملكتموها ملك الوارث عن مُورّثه ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال الصالحة و﴿لَكُمْ﴾ سوى الطعام والشراب ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ بحسب الأنواع والأصناف، وافرٌ كل صنف ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

ثمّ لمّا ذكر سبحانه حُسن حال المتّقين في الآخرة من حيث المطعم والمشرب والمسكن وسائر اللذائذ وخلودهم فيها، بيّن سوء حال المشركين والطُّغاة في الآخرة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٣٩٠.
٢. تفسير روح البيان ٨: ٣٩١.
٣. الاحتجاج: ٤٨٨، تفسير الصافي ٤: ٣٩٩.

والعُصاة ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ﴾ وشدائدها ﴿خَالِدُونَ﴾ ومُقيمون أبداً، لا ينقطع عنهم لحظةً و﴿لَا يُفَتَّرُ﴾ ولا يُخفَف ﴿عَنْهُمْ﴾ ساعة ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ وآيسون من الخلاص. عن الضحاك: يُجعَل المُجرم في تابوتٍ من النار، ثمّ يُقفَل عليه، فيبقى فيه لا يَرَى ولا يُرَى[١].

ثمّ نبّه سبحانه بأن عذابهم بمقتضى العدل بقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بإخلادهم في العذاب الشديد ﴿وَلٰكِن كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿هُمُ ٱلظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بتعريضها للعذاب الدائم، حيث اختاروا الكفر والعصيان.

وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ * لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ [٧٧ و ٧٨]

ثمّ بيّن سبحانه شدّة عذابهم بقوله: ﴿وَنَادَوْا﴾ تمنّياً أربعين سنة، أو مائة، أو الف سنة، كما عن ابن عباس[٢] ﴿يَا مَالِكُ﴾ جهنّم ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا﴾ وليُميتنا ﴿رَبُّكَ﴾ حتى نستريح.

رُوي أنّه يُلقى على أهل النار الجُوع حتى يعدِل ما هم فيه من العذاب، فيقولون: ادعوا مالكاً، فيدعون: ﴿يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾[٣] ولا ينافي هذه الاستغاثة إياسهم من الخلاص، فانّ الإياس يكون من الخُروج والعَفو، والسؤال راجعٌ إلى الموت، وقيل في رفع التنافي: إنّ أوقاتهم وأحوالهم مختلفة، فيسكتون أوقاتاً لغَلبة يأسهم، ويستغيثون أوقاتاً لشدّة عذابهم[٤].

وعلى أي تقدير ﴿قَالَ﴾ مالك في جوابهم بعد مدة إهانة لهم: يا أهل النار ﴿إِنَّكُم﴾ إلى الأبد ﴿مَاكِثُونَ﴾ ومقيمون فيها، لاخلاص لكم منها بموتٍ ولا بغيره. ثمّ قال لهم من قبل الله: والله ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم﴾ في الدنيا ﴿بِالْحَقِّ﴾ وأعلمناكم بتوسّط الرسول والكتاب السماوي بالدين المرضي عند ربّكم ﴿وَلٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ﴾ وذلك الدين ﴿كَارِهُونَ﴾ ومنه متنفرون، وعنه مُعرِضون، لمنافاته لشهواتكم، فكان تماديكم في الكفر وانهماككم في الشهوات سبباً لبقائكم في العذاب وخُلودكم في النار، فلا مجال لتوقّع النجاة.

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ * أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ * قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ ٱلْعَابِدِينَ [٧٩ ـ ٨١]

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٣٩٣، ولم ينسب إلى أحد.
٢. تفسير الرازي ٢٧: ٢٢٧، تفسير أبي السعود ٨: ٥٥.
٣. تفسير الرازي ٢٧: ٢٢٧.
٤. تفسير الرازي ٢٧: ٢٢٧.

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان شدّة عذاب الكفار في الآخرة لكراهتهم الحقّ في الدنيا، ذكر سعيهم في الدنيا مع ذلك في إطفاء نور الحقّ، ومكرهم بالرسول، وتعاهدهم على قتله بقوله تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا﴾ وبل أحكموا ﴿أَمْراً﴾ معهوداً، وهو كيدهم ومكرهم بالرسول. عن مقاتل: نزلت في تدبيرهم في دار الندوة[1]، في المكر بالرسول وتشاورهم في قتله ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ ومُتْقِنون كيدنا بهم حقيقة لا هُم ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾ وبل يتوهّمون ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ وما حدّثوا به في أنفسهم من الكيد في أمر الرسول ﴿وَنَجْوَاهُم﴾ وتشاورهم خُفيةً من الرسول والمؤمنين ﴿بَلَىٰ﴾ نحن نسمعهما ونطلع عليهما ﴿وَرُسُلُنَا﴾ الحافظون عليهم أعمالهم حاضرون ﴿لَدَيْهِمْ﴾ أينما كانوا و﴿يَكْتُبُونَ﴾ في ديوان أعمالهم كلّما يصدُر عنهم من الاعمال والأقوال سرّاً وعلانيةً، ثمّ تُعرَض عليهم يوم القيامة، ويُعاقبون عليها أشدّ العقاب.

ثمّ لمّا ذكر سبحانه عِناد المشركين للرسول، وهمّهم بقتله لقوله بتوحيد الله، وتنزّهه عن الولد، أمره بإعلامهم بأنّ عدم موافقته لهم في الاعتقادات الفاسدة ليس لأجل العِناد الموجب للقتل، بل إنّما لعلمه بامتناع وجود الشريك والولد له تعالى بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، للمشركين ﴿إِن كَانَ﴾ في الواقع ونفس الأمر ﴿لِلرَّحْمٰنِ﴾ الخالق لجميع الموجودات ﴿وَلَدٌ﴾ ذكراً كان أم اُنثى، كما تَزْعُمون أنّ الملائكة بنات الله ﴿فَأَنَا أَوَّلُ ٱلْعَابِدِينَ﴾ لذلك الولد، وأسبقكم إلى تعظيمه والانقياد له، لأنّي أعلم الناس بعظمة الله الموجبة لتعظيم ولده، لكونه من لوازم تعظيم الوالد، حيث إنّ الولد جزءٌ منفصلٌ من الوالد، ولكن لمّا حكم عقلي بامتناع التركيب في الواجب الوجود حتى ينفصل منه الجزء، امتنع منّي القول بثبوت الولد له وعبادتي إياه، فليس إنكاري كون الملائكة بنات الله للعِناد واللّجاج حتى استحقّ القتل والطرد.

سُبْحَانَ رَبِّ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ[٨٢و ٨٣]

ثمّ أعلن بتنزّهه تعالى عن الولد والشريك بقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ ٱلسَّماوَاتِ﴾ ﴿وَ﴾ ربّ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ وما فيهما و ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ الذي هو اعظم من جميع الموجودات، وتنزّه ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ وَينسُبون إليه من الولد والشريك.

وقيل: يعني سبّحوا ربّ هذه الأجسام العظام؛ لأنّ مثل هذه الربوبية تُوجِب التسبيح على كلّ

١. تفسير الرازي ٢٧: ٢٢٨.

مربوب، ونزّهوه عن كلّ ما يصفه الكافرون به من صفات الأجسام، فانّه لو كان جسماً لم يقدِر على خلق هذا العالم وتدبيره[١].

ثمّ هدّدهم سبحانه على عدم إذعانهم للحقّ بعد إلزامهم عليه بالبرهان القاطع بقوله: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ يا محمد، واترُكهم حتى ﴿يَخُوضُوا وَ﴾ يستغرقوا في أباطيلهم وشهواتهم ﴿يَلْعَبُوا﴾ بدنياهم ويشتغلوا بملاهيهم ليزدادوا شقاوةً واستحقاقاً للعقوبة ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ﴾ ويَصِلوا إلى وقتهم ﴿ٱلَّذِى﴾ كانوا ﴿يُوعَدُونَ﴾ فيه بالعذاب من قبلنا، فيروا صدق وعدنا وسوء عاقبة خوضهم ولعبهم، أو يُوعَدون على لسانك بمجيئه، وهو يوم القيامة، وهم يُنكِرون مجيئه.

وقيل: هو يوم موتهم، لأنه متّصل بيوم القيامة، كما قال ﷺ: «من مات فقد قامت قيامته» ولذا جعل خوضهم ولعبهم منتهيين إليه[٢].

وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ * وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ[٨٤-٨٦]

ثمّ أعلن سبحانه بتوحيده بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ﴾ تعالى وحده ﴿ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَ﴾ معبودٌ بالحقّ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أيضاً ﴿إِلَٰهٌ﴾ ومعبودٌ لا معبود فيهما سواه ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يُدبّر بحكمته البالغة أمور العوالم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوال جميع الموجودات أزلاً وأبداً ﴿وَتَبَارَكَ﴾ وتعالى عن الولد والشريك، أو كثر خير الاله ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ﴾ بالإشراق والإيجاد ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الموجودات والسلطنة التامة عليها إيجاداً وإعداماً وتصرّفاً وتدبيراً ﴿وَعِندَهُۥ﴾ وخاصته وحده ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ التي تقوم فيها القيامة ﴿وَإِلَيْهِ﴾ أيها الناس ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بالموت وتُردّون للحساب والجزاء، فاستعدوا للقائه، وبادروا إلى تحصيل مرضاته.

ثمّ إنّه تعالى بعد إبطال القول بأنّ الملائكة بنات الله، نفى كونهم وكون غيرهم من المعبودين شُفعاء عنده بقوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ هؤلاء المشركون ويَعْبُدونهم ﴿مِن دُونِهِ﴾ تعالى ﴿ٱلشَّفَاعَةَ﴾ عند الله للعُصاة، ولا يقدر عليها ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ وأعترف بتوحيد الله في الألوهية والعبادة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ما يَشْهَدون به عن بصيرة، ويُوقنون به عن شهود أو برهان، كالملائكة،

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٣٩٦.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٣٩٧.

وعيسى، وعُزير. ومن الواضح أنّهم لا يشفعون لمن خالفهم في العقائد.

وقيل: إنّ المعنى أنّهم لا يقدِرون على الشفاعة إلّا لمن شَهِد بالحق[١]، واعترف به، من اختصاص استحقاق العبادة بالله، وهم المؤمنون الموحّدون، فليس للمشركين أن يرجوا الشفاعة.

رُوي أنّ النَّضر بن الحارث ونفراً معه قالوا: إنْ كان ما يقول محمد حقاً فنحن نتولّى الملائكة، فهم أحقّ بالشفاعة من محمد، فأنزل الله هذه الآية[٢].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ * فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[٨٧ـ٨٩]

ثمّ بيّن سبحانه أنّ المشركين مجبولون على التوحيد بقوله: **﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَهُمْ﴾** وأخرجهم من كَتم العدم إلى الوجود، والله **﴿لَيَقُولُنَّ ٱللهُ﴾** خلقنا، لعدم إمكان غير ذلك لأحدٍ ممّن يَشَمّ [منه] رائحة العقل **﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾** ويُصرَفون عن عبادته إلى عبادة غيره، مع اعترافهم بأنّهم كلّهم مخلوقون له، أو المراد لم يُكذّبون على الله بأنّه أمرهم بعبادة الأصنام؟

ثمّ إنّه تعالى بعد ذكر علمه بالسعة التي لا يعلمها غيره ذكر علمه بشكوى نبيه ﷺ من قومه بقوله: **﴿وَقِيلِهِ﴾** وشكواه من قومه بقوله: **﴿يَا رَبِّ إِنَّ هٰؤُلَاءِ﴾** الكفّار **﴿قَوْمٌ﴾** وجمعٌ **﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾** بي وبكتابي.

وقيل: إنّ واو (وقيله) واو القسم[٣]، والمعنى: أُقسم بقول رسولي يا ربّ، وجواب القسم: إنّ هؤلاء قومٌ لا يؤمنون، فيكون المجموع كلام الله. وفي حلفه تعالى بقول رسوله إظهارٌ لكمال عظمته، ورفعة شأنه، وتفخيم دعائه، والتجائه إليه.

وعن ابن عباس: أنّ المعنى: وقيل يا ربّ، والهاء زائدة[٤].

ثمّ سلّى سبحانه رسوله ﷺ بقوله: **﴿فَاصْفَحْ﴾** يا حبيبي، وأعرض **﴿عَنْهُمْ﴾** واقْنَط عن إيمانهم **﴿وَقُلْ﴾** مُتاركةً لهم **﴿سَلَامٌ﴾** عليكم، تَسْلَمون أنتم من إيذائي، وأسلم أنا من كيدكم، لا خلاف بيني وبينكم.

ثمّ هدّدهم سبحانه بقوله: **﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾** وخامة عاقبة كفرهم، ومتاركة إياهم، وإن تأخّر ذلك، فانّ كلّ آتٍ قريب.

---

١. تفسير الرازي ٢٧: ٢٣٢. ٢. تفسير الرازي ٢٧: ٢٣٢.
٣. تفسير أبي السعود ٨: ٥٧، تفسير روح البيان ٨: ٣٩٩. ٤. تفسير الرازي ٢٧: ٢٣٤.

عن ابن عباس: أنّ قوله: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾ منسوخٌ بآية السيف[١].

عن الباقر عليه السلام: «من قرأ سورة الزخرف آمنه الله في قبره من هوامّ الأرض وضغطة القبر حتى يقف بين يدي الله عزّ وجلّ، ثمّ جاءت به حتى تُدخله الجنة»[٢].

الحمد لله ربّ العالمين على إنعامه عليّ بالتوفيق لإتمام السورة المباركة الزخرف.

---

١. تفسير الرازي ٢٧: ٢٣٥.

٢. ثواب الأعمال: ١١٣، مجمع البيان ٩: ٥٩، تفسير الصافي ٤: ٤٠٢.

في تفسير سورة الدخان

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حم*وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ [١-٣]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة الزخرف المبدوءة بتعظيم القرآن، وبإظهار المنّة على العرب بإنزاله بلسانهم، المختتمة بذكر أدلّة التوحيد وتهديد منكريه، وحكاية شكاية الرسول ﷺ من عدم إيمان قومه، وأمره تعالى إياه بمتاركتهم المتوسطة بذكر دعوة موسى إلى التوحيد، ومعارضة فرعون ملأه معه، نظمت سورة الدخان المبدوءة بتعظيم القرآن، وإنزاله في أشرف الأوقات، وبيان أدلّة التوحيد، وتهديد منكريه، وتسلية الرسول ﷺ بحكاية معارضة فرعون وقومه موسى عليه السلام، وشكاية موسى من عدم إيمان قومه، وسؤاله منهم المتاركة، إلى غير ذلك من المطالب المناسبة لما في السورة السابقة، فابتدأها بذكر أسمائه المباركة بقوله تبارك وتعالى: ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثمّ افتتحها بذكر كلمة ﴿حم﴾ المركّبة من حرفين، وقد مرّ أنّ كلّ حرفٍ منها رمزٌ من اسم من الأسماء الحُسنى، وقلنا إنّها اسم للسورة عند بعض، واسم للقرآن عند آخر، وقيل: إنّ المعنى على هذا القول بحقّ حم[١].

﴿وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ﴾ والقرآن الواضح المعنى للعرب، لكونه بلسانهم. وقيل: إن حم خبر لمبتدأ محذوف[٢]، والمعنى هذه السورة حم، ثمّ أقسم بالقرآن بقوله: ﴿وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ﴾.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ بلُطفنا على الخلق ﴿فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ وهي ليلة القدر. عن قتادة، قال: نزلت صُحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، والتوراة لستّ ليالٍ منه، والزَّبور لاثنتي عشرة مضت منه، والإنجيل لثمان عشرة مضت منه، والقرآن لأربع وعشرين مضت من رمضان، وهي ليلة القدر[٣].

وعن الصادق عليه السلام قال: «أي أنزلنا القرآن، والليلة المباركة هي ليلة القدر»[٤].

وعن الكاظم عليه السلام مثله، وزاد: «أنزل الله سبحانه القرآن فيها إلى البيت المعمور جملةً واحدةً، ثمَ

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٤٠٠.
٢. مجمع البيان ٩: ٩٢.
٣. تفسير الرازي ٢٧: ٢٣٨.
٤. مجمع البيان ٩: ٩٢، تفسير الصافي ٤: ٤٠٣.

نزل من البيت المعمور على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في طول عشرين سنة»[١].

وروى بعض العامة أنّ عطية الحروري سأل ابن عباس عن قوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ وقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[٢] كيف يصِحّ ذلك، مع أنّ الله أنزل القرآن في جميع الشهور؟ فقال ابن عباس: يا بن الأسود، لو هلكت أنا، ووقع هذا في نفسك، ولم تجد جوابه لهلكت، نزل القرآن جملةً واحدةً من اللوح المحفوظ إلى البيت المعمور، وهو في السماء الدنيا، ثمّ نزل بعد ذلك في أنواع الوقائع حالاً بعد حال[٣].

وعن الكاظم عليه السلام أنه سأله نصراني عن تفسير هذه الآية في الباطن فقال: «أما ﴿حم﴾ فهو محمد، وهو في كتاب هود الذي أُنزل عليه [وهو] منقوص الحروف، والكتاب المبين فهو أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وأمّا الليلة ففاطمة»[٤].

ثمّ ذكر سبحانه علّة إنزاله بقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ من بدو الخلق ﴿مُنذِرِينَ﴾ للناس ومخوّفيهم من العذاب على الشرك والعصيان، وشأننا هدايتهم إلى الحقّ.

فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْراً مِنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِن رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ[٤-٦]

ثمّ بيّن سبحانه فضيلة الليلة بقوله:﴿فِيهَا يُفْرَقُ﴾ ويُفصَل ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ ومُتقَن من الآجال والأرزاق وسائر الأمور من الليلة إلى مثلها من السنة القابلة.

عن الكاظم عليه السلام: «﴿فِيهَا يُفْرَقُ﴾ يعني في ليلة القدر ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي يقدّر الله عزّ وجلّ كلّ أمرٍ من الحقّ والباطل، وما يكون في تلك السنة، وله فيه البَداء والمشيئة، يُقدّم ما يشاء، ويُؤخّر ما يشاء من الآجال والأرزاق، والبلايا والأعراض والأمراض، ويزيد فيه ما يشاء، وينقّص ما يشاء، ويُلقيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أمير المؤمنين عليه السلام، ويُلقيه أمير المؤمنين عليه السلام إلى الأئمّة بعده، حتى ينتهي ذلك إلى صاحب الزمان عجّل الله فرجه الشريف، ويشترط له فيه البَداء والمشيئة والتقديم والتأخير»[٥].

ثمّ بيّن سبحانه الأمر الحكيم بقوله تعالى: ﴿أَمْراً﴾ حاصلاً ﴿مِنْ عِندِنَا﴾ على مُقتضى حكمتنا ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ رُسلنا بالكتاب، لإنذار الخلق، ولتكمل عليهم ﴿رَحْمَةً﴾ كائنة ﴿مِن رَبِّكَ﴾ بمُقتضى

---

١. تفسير القمي ٢: ٢٩٠، ولم ينسب إلى احد، تفسير الصافي ٤: ٤٠٣.
٢. القدر: ١/٩٧.
٣. تفسير الرازي ٢٧: ٢٣٩.
٤. الكافي ١: ٤/٣٩٩، تفسير الصافي ٤: ٤٠٤.
٥. تفسير القمي ٢: ٢٩٠، لم ينسب إلى أحد، تفسير الصافي ٤: ٤٠١.

ربوبيته على وَفْق حاجات المحتاجين ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لتضرّعاتهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحاجاتهم.

فتحصّل من الآيات المباركات بيان شرف القرآن وعظمته، ذاتاً بقسمه تعالى به، وتوصيفه بكونه مبيناً، وانتساباً بنسبة إنزاله إلى ذاته المقدّسة، وبيان زمان نزوله، وهو أشرف الأزمنة، وغايةً هي إنذار الخلق وتكميل الرحمة عليهم.

رَبِّ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُوقِنِينَ * لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ [٧ و ٨]

ثمّ بالغ سبحانه في تعظيم كتابه بتعظيم نفسه الذي أنزله بقوله: ﴿رَبِّ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُوقِنِينَ﴾ بأنّ لها رباً، أو موقنين بشيء، فانّ اليقين بهذا أولى من اليقين بسائر الأشياء لغاية وضوحه. وقيل: يعني إن كنتم طالبين لليقين، فأيقنوا بذلك[1].

فاذا كان الله تعالى خالق جميع الموجودات العُلوية والسُّفلية، ثبت أنّه ﴿لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا معبود بالاستحقاق سواه وهو ﴿يُحْيِى﴾ الموتى ﴿وَيُمِيتُ﴾ الأحياء، وهو ﴿رَبُّكُمْ﴾ وخالقكم ومكمّل وجودكم ﴿وَرَبُّ آبَائِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وأجدادكم السابقين من آدم ومن بعده من أولاده.

روى بعض العامة عن الباقر عليه السلام: «أنّه قد انقضى قبل آدم الذي هو أبونا ألف آدم وأكثر»[2].

بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ * فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّماءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى ٱلنَّاسَ هٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ [٩-١٢]

ثمّ أضرب سبحانه عن كونهم موقنين بقوله: ﴿بَلْ هُمْ﴾ مع تلك الآيات الدالة على التوحيد ﴿فِى شَكٍّ﴾ ممّا ذكر من التوحيد وسائر شؤونه تعالى غير موقنين في إقرارهم بأنّه ربّ السماوات والأرض ﴿يَلْعَبُونَ﴾ بإقرارهم، ويهزؤون باعترافهم، ولا يقولون عن جدٍّ وإذعان. وقيل: إنّ المعنى بل هم حال شكّ مستقرٍ في قلوبهم، يلعبون[3] بزخارف الدنيا، ولا يكونون بصدد إزالة شكّهم.

إذا كان ذلك حال الكفار ﴿فَارْتَقِبْ﴾ يا محمد، وانتظر لهم ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّماءُ﴾ أو المراد فانتظر وعد الله في يوم تأتي السماء ﴿بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ ظاهر لا يشكّ أحدٌ في أنّه دخانٌ.

قيل: إن الدخان كناية عن المجاعة والقَحْط، فانّ الجائع يرى بينه وبين السماء كهيئة الدُّخان من

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٤٠٥.
٢. تفسير روح البيان ٨: ٤٠٥.
٣. تفسير روح البيان ٨: ٤٠٦.

شدّة الجُوع، أو لأنّ في عام القَحْط يظلمَ الهواء لقلة الأمطار وكثرة الغُبار، أو لأنّ العرب تسمّي الشرّ الغالب دُخاناً، وإسناد إتيانه إلى السماء؛ لأنّه بسبب كفّها عن الأمطار[١].

رُوي هذا عن ابن عباس، وابن مسعود، وقالا: ذلك لمّا دعا النبيّ ﷺ على أهل مكّة حين أصرّوا على تكذيبه وإيذائه بقوله: «اللهمّ اشدُد وطأتك على مُضر، واجعلها عليهم سنيناً كسنيّ يوسف» فأصابتهم سنةٌ حتى أكلوا الجِيف والجُلود والعِظام والعِلْهِز[٢] والكِلاب، فكان الرجل لِما به من الجوع يرى بينه وبين السماء كالدخان، فجاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ، وناشده بالله والرَّحِم، ووعده إن دعا لهم وأزال عنهم تلك البلية أن يُؤمنوا به[٣]، فلمّا أزال الله عنهم ذلك رجعوا إلى الكفر والشرك.

في ذكر بعض اشراط الساعة

وقيل: إنّه الدُّخان الذي عُدّ من أشراط الساعة، فانّه يظهر في العالم، فيحصّل لأهل الايمان منه حالة تشبه الزُّكام، ولأهل الكفر السُّكر، وتصير رؤوسهم كالحَنيذ[٤]. روى بعض العامة هذا القول عن علي عليه السلام وابن عباس[٥].

ورووا عن النبي ﷺ أنه قال: «أول الآيات الدُّخان، ونزول عيسى بن مريم، ونار تخرُج من قَعْر عَدَن، تسوق الناس إلى المحشر» قال حُذيفة: يا رسول الله، وما الدُّخان؟ فتلا رسول الله ﷺ هذه الآية، وقال: «دُخانٌ يملأ ما بين المغرب والمشرق، يمكُث أربعين يوماً وليلة، أمّا المؤمن فيصيبه كهيئة الزُّكمة، وأما الكافر فهو كالسكران، يخرُج من مَنْخَريه وأُذنيه ودُبره»[٦].

وفي رواية أُخرى ذكر ﷺ من الآيات طُلوع الشمس من مغربها، والدجّال، والدُّخان، والدابّة[٧].

وروى في (الجوامع) عن علي عليه السلام أنّه قال: «دُخان يأتي من السماء قبل قيام الساعة، يدخل في أسماع الكَفَرة حتى يكون رأس الواحد كالحنيذ، ويعتري المؤمن كهيئة الزُّكام، وتكون الأرض كلّها كبيتٍ أُوقد فيه، ليس فيه خِصاص[٨] ويمتد ذلك أربعين يوماً»[٩].

﴿يَغْشَى﴾ ذلك الدُّخان ﴿ٱلنَّاسَ﴾ ويَشْملهم من كلّ جانب، وهم يقولون: ﴿هَـٰذَا﴾ الدُّخان ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عظيم، ثمّ يقولون تضرّعاً إلى الله: ﴿رَبَّنَا ٱكْشِفْ﴾ وارفع ﴿عَنَّا﴾ هذا ﴿ٱلْعَذَابَ﴾

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٤٠٦.

٢. العِلْهِز: القراد الضخم، وطعامه من الدم والوبر كان يُتّخذ في المجاعة.

٣. تفسير روح البيان ٨: ٤٠٦، ولم ينسبه إلى أحد.

٤. الحَنيذ: الشيء المشوي، فعيل بمعنى مفعول، ومنه لحمٌ حنيذ، وعجل حنيذ، أي محنوذ.

٥. تفسير الرازي ٢٧: ٢٤٢.

٦. تفسير الرازي ٢٧: ٢٤٢.

٧. تفسير الرازي ٢٧: ٢٤٣.

٨. الخِصاص: جمع خُصّ. وهو البيت المتّخذ من الشجر أو القصب، أو الذي سقفه من الخشب.

٩. جوامع الجامع: ٤٣٨.

الذي أحاط بنا ﴿إِنَّا﴾ بعد رفعه ﴿مُؤْمِنُونَ﴾ بك وبرسولك.

أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ[١٣ ـ ١٦]

ثمَ يقول الله تعالى ردّاً عليهم: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَ﴾ كيف لهم الاتعاظ برؤية هذه الداهية، والحال أنه ﴿قَدْ جَاءَهُمْ﴾ من قبل الله ﴿رَسُولٌ﴾ عظيم الشأن ﴿مُبِينٌ﴾ ومظهرٌ لهم رسالته بالمعجزات الباهرة، أو مظهرٌ لهم مناهج الحقّ، وأتاهم من المواعظ والعِبر ما يُحرّك صُمّ الجبال ﴿ثُمَّ﴾ مع ذلك ﴿تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا ﴿عَنْهُ﴾ بل لم يقنعوا بالتولّي والإعراض حتى أطالوا اللسان عليه ﴿وَقَالُوا﴾ تارةً ﴿مُعَلَّمٌ﴾ يُعلّمه بشرٌ، ويفتري على الله بأنّ كتابه كتاب الله وكلامه أنزله إليه بالوحي، وتارةً قالوا: إنّه ﴿مَجْنُونٌ﴾ وخفيف العقل حيث يدّعي ما لم يقل به عقلاء قومه، أو يُصيبه الجنّ حين يعرض له[1] الغشي، فيُلقون إليه ما يدّعي أنّه كلام الله. وقيل: إنّ بعضهم قالوا: معلم، وبعضهم قالوا: إنّه مجنون[2]، فإذا كان خُبث ذاتهم ورذالة صفاتهم بهذه المرتبة، لا يُتوقّع منهم الايمان والاتّعاظ.

ثمّ لوّن سبحانه الخِطاب إليهم تسجيلاً عليهم الخلف بقوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا﴾ ورافعو ﴿ٱلْعَذَابِ﴾ الذي تسألون كشفه ورفعه زماناً ﴿قَلِيلاً﴾ وهو بقية مدّة أعمارهم إلى القيامة، أو كشفاً قليلاً، ولكن ﴿إِنَّكُمْ﴾ بعد كشفه ﴿عَائِدُونَ﴾ وراجعون البتة إلى الكفر والعُتوّ والطُّغيان، واذكُر يا محمد، أو ذكّرهم ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ﴾ فيه ونأخُذ الكفّار بعُنفٍ وَصَوْلةٍ ﴿ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ ونُعاقبهم العقوبة العظمى، وفي ذلك اليوم ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ منهم أشدّ الانتقام.

عن ابن عباس: أنّه قال ابن مسعود: البطشة الكبرى يوم بدر، وأنا أقول هي يوم القيامة[3].

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ ٱللهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَن لَا تَعْلُوا عَلَى ٱللهِ[١٧ ـ ١٩]

ثمّ حكى سبحانه حال قوم فرعون، ومعارضتهم موسى بن عمران، وإهلاكهم بالعذاب، تسليةً للنبي ﷺ، وتهديداً لقومه بقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ وامتحنّا في العصر السابق على عصر قومك و﴿قَبْلَهُمْ﴾ بزمانٍ طويلٍ ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ وكان امتحانهم بأن أتاهم ﴿وَجَاءَهُمْ﴾ من قبلنا لهدايتهم إلى

---

١. في النسخة: يعرضه.   ٢. تفسير الرازي ٢٧: ٢٤٣ و٢٤٤.   ٣. تفسير الرازي ٢٧: ٢٤٤.

الحقّ موسى بن عمران الذي هو ﴿رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ على الله عظيم الشأن عنده، أو كريم وشريف عند الناس، أو حسن الخلق، فقال: ﴿أَنْ أَدُّوا﴾ يا قوم، وسلّموا ﴿إِلَيَّ﴾ بني إسرائيل الذين هم يكونون ﴿عِبَادَ ٱللهِ﴾ وارسلوهم معي ولا تعذبوهم. قيل ان المعنى ادو إلى عبادالله ما هو واجبٌ عليكم من الايمان بالله، وقبول دعوتي وطاعتي[1].

ثمّ ذكر علّة أمره بتأدية بني إسرائيل، أو تأدية حقّ الله إليه بقوله: ﴿إِنِّى﴾ يا قوم ﴿لَكُمْ﴾ وإليكم ﴿رَسُولٌ﴾ من قبل الله ﴿أَمِينٌ﴾ على وحيه ورسالته، غير متّهم بالكذب والخيانة ﴿وَأَن لَا تَعْلُوا﴾ ولا تتكبّروا ﴿عَلَى ٱللهِ﴾ بالإهانة بوحيه وبرسوله وبعباده، أو لا تتأنّفوا من طاعته والإيمان به.

إِنِّى ءَاتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ * وَإِن لَمْ تُؤْمِنُوا لِى فَاعْتَزِلُونِ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ * فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلاً إِنَّكُم مُتَّبَعُونَ * وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً ءَاخَرِينَ [١٩ ـ ٢٨]

ثمّ ذكر علّة نهيه بقوله: ﴿إِنِّى ءَاتِيكُم﴾ من جانب الله ﴿بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ وحجّةٍ واضحةٍ على رسالتي من قبله، وصدقي فيما دعوتكم إليه، وهي المعجزات الباهرات، وفي تعليل وجوب التأدية عليهم بأمانة نفسه، وحرمة العلوّ على الله بإتيان السلطان المبين، ما لا يخفى من اللّطافة والجزالة ﴿وَإِنِّى﴾ يا قوم ﴿عُذْتُ﴾ والتجأت ﴿بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ﴾ القادر على دفع كلّ شرٍّ وخيرٍ من ﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾ بالحجارة، الذي هو أفظع القتل، أو بالقول السيء من الشتم والسبّ والنسبة إلى الكذب والسحر، أو من أن تُؤذونني بالضرب والشتم.

وقيل: لمّا قال: ﴿وان لا تعلوا على الله﴾ توعدّوه بالقتل[2].

﴿وَإِن لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ وتُذعِنوا ﴿لِى﴾ وكابَرتم عقولكم، ولم تُصدّقوني فيما أقول ﴿فَاعْتَزِلُونِ﴾ واتركوني على ما أنا عليه، ولا تتعرّضوا لي بشرٍّ ولا أذىً، فأصرَّ القِبط على تكذيبه وإيذائه ﴿فَدَعَا﴾ موسى ﴿رَبَّهُ﴾ وكان دعاؤه: ﴿أَنَّ هٰؤُلَاءِ﴾ القِبط ﴿قَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾ وطاغون مصرّون على الكفر بك وتكذيبي، فافعل بهم ما يستحقون بجُرمهم.

فأوحى الله إليه إذا كان حال القِبط ذلك ﴿فَأَسْرِ﴾ أنت يا موسى ﴿بِعِبَادِى﴾ بني إسرائيل ﴿لَيْلاً﴾

---

١. تفسير الرازي ٢٧: ٢٤٥.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٤١٠.

من مصر، وأخرجهم منها على غفلةٍ من أعدائهم ﴿إِنَّكُم﴾ بعد خُروجكم من مصر ﴿مُّتَّبَعُونَ﴾ يتبعكم فرعون وجنوده، إن عَلِموا بخروجكم ليقتلوكم، فاذا قربوا منكم، ووصلتم إلى بحر القُلْزُم، فاضرِب بعصاك البحر فينفلق، وجاوز ببني إسرائيل البحر ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ﴾ حال كونه ﴿رَهْوًا﴾ وساكناً على هيئته بعد ما جاوزته، ولا تضرِبه بعصاك لينطبق.

وقيل: إنّ الرَّهو الفُرجة الواسعة[١]. والمعنى: اتركْه حال كونه ذا فُرجةٍ واسعةٍ حتى يدخُله القِبط ﴿إِنَّهُمْ﴾ إذاً ﴿جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ في البحر، لانطباق الماء عليهم بعد دخولهم فيه.

ثمّ فعل موسى عليه السلام ما أمره الله من إخراج قومه من مصر ليلاً، فاتّبعه فرعون وجنوده، فأدركهم الغرق فغرقوا و ﴿كَمْ تَرَكُوا﴾ وكثيراً أبقوا في الدنيا ما حصّلوه في مدّة أعمارهم ﴿مِن جَنَّاتٍ﴾ وبساتين كثيرةِ الأشجار ﴿وَعُيُونٍ﴾ وأنهار كثيرة الماء المنشعبة من النِّيل، على ما قيل[٢] ﴿وَزُرُوعٍ﴾ من الحبوب والثمار ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ ومحافل مرتّبة، ومنازل مُسْتَحْسَنة، أو منابر كانوا يمدحون فرعون عليها[٣] ﴿وَنَعْمَةٍ﴾ ونَضارة عيشٍ ﴿كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ ومتنعمّين ومتلذّذين ﴿كَذَٰلِكَ﴾ السلب سلبناهم إياها، ومثل ذلك الخروج أخرجناهم منها ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ وملّكناها ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ليسوا منهم في شيءٍ من قرابةٍ ولا دينٍ ولا ولاء، وهم بنو إسرائيل الذين كانوا مُسْتَعْبَدين في أيديهم أذلّاء بينهم.

فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَاءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ [٢٩]

ثمّ بيّن سبحانه هوان القِبط عليه، وعدم اكتراثه بهلاكهم بقوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ﴾ بعد هلاكهم ﴿ٱلسَّمَاءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ قيل: هو كناية عن عدم الاعتداد بوجودهم[٤].

وقيل: هو من التهكّم والسُّخرية، حيث إنّهم كانوا يستعظمون أنفسهم، ويتخيّلون أنّهم إذا ماتوا بكت السماء والأرض عليهم، فأخبر الله أنّهم ماكانوا في القدر والشأن بهذا الحدّ الذي كانوا يتخيّلون لأنفسهم، بل كانوا أدون من ذلك[٥].

وقيل: إنّ المعنى فما بكت أهل السماء وأهل الأرض من المؤمنين عليهم، بل كانوا مسرورين بهلاكهم[٦].

---

١. تفسير الرازي ٢٧: ٢٤٦.
٢. تفسير روح البيان ٨: ٤١١.
٣. تفسير الرازي ٢٧: ٢٤٦.
٤. تفسير أبي السعود ٨: ٦٣، تفسير روح البيان ٨: ٤١٣.
٥. تفسير الرازي ٢٧: ٢٤٧.
٦. تفسير الرازي ٢٧: ٢٤٧.

وقيل: إنّ الكلام على حقيقته[١] من غير حذفٍ وإضمارٍ، لرواية أنس، عن النبي ﷺ، أنه قال: «ما من عبدٍ إلّا وله في السماء بابان: باب يخرُج منه رزقه، وباب يدخُل فيه عمله، فاذا مات فقداه، وبكيا عليه» وتلا هذه الآية، قال: «وذلك لأنّهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملاً صالحاً، فتبكي عليهم، ولم يصعد لهم إلى السماء كلامٌ طيبٌ ولا عملٌ صالحٌ، فتبكي عليهم»[٢].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه مرّ عليه رجلٌ عدوّ لله ولرسوله، فقال ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَاءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ وقال: «وما بكت السماء والأرض إلّا على يحيى بن زكريا، وعلى الحسين»[٣].

وعن الصادق عليه السلام، قال: «بكت السماء على يحيى بن زكريا وعلى الحسين ابن علي عليه السلام أربعين صباحاً، ولم تبك إلّا عليهما» قيل: فما بكاؤهما؟ قال: «تطلُع حمراء، وتغيب حمراء»[٤].

وروى بعض العامة عن زيد بن أبي زياد: لمّا قُتِل الحسين بن علي عليه السلام أحمرَ له آفاق السماء أشهراً، واحمرارها بكاؤها[٥].

وعن ابن سيرين، قال: أخبرونا أنّ الحُمرة التي مع الشّفق لم تكُن حتّى قُتِل الحسين[٦].

ثمّ بيّن سبحانه عدم إمهاله القِبط بقوله: ﴿وَمَا كَانُوا﴾ لمّا جاء وقت هلاكهم ﴿مُنظَرِينَ﴾ ومُمهلين ساعة، بل عجّل إهلاكهم، فاجتمع لهم عذاب الدنيا والآخرة.

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ * مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ * وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُم مِنَ ٱلآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاَءٌ مُبِينٌ [٣٠-٣٣]

ثمّ إنّه تعالى بعد ذكر غضبه على القِبط، ذكر لُطفه ببني إسرائيل بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بإغراق أعدائهم من القبط ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ والمُذلّ الذي كانوا معذبين به، أعني ﴿مِن﴾ عذاب ﴿فِرْعَوْنَ﴾ أو من العذاب المهين الذي كان يُصيبهم من فرعون ﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِياً﴾ ومتكبّراً، وكان ﴿مِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ على أنفسهم بالظلم، المتجاوزين عن الحدّ في الكفر والطُّغيان ﴿وَ﴾ والله ﴿لَقَدِ ٱخْتَرْنَاهُمْ﴾ واصطفيناهم حال كوننا ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ باستحقاقهم للاختيار والتفضّل، أو على علم بجناياتهم وفرَطاتهم ﴿عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾ والجماعات الكثيرة في أعصارهم، بأن آتيناهم الكتاب والنبوة والمُلك ﴿وَآتَيْنَاهُم مِنَ ٱلآيَاتِ﴾ ودلائل التوحيد والقدرة والحكمة،

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٤١٣.
٢. تفسير الرازي ٢٧: ٢٤٦.
٣. تفسير القمي ٢: ٢٩١، تفسير الصافي ٤: ٤٠٧.
٤. مجمع البيان ٩: ٩٨، تفسير الصافي ٤: ٤٠٧.
٥. تفسير روح البيان ٨: ٤١٣.
٦. تفسير روح البيان ٨: ٤١٣.

كفلق البحر، وتظليل الغَمام، وإنزال المنّ والسّلوى، التي لم يعهد مثلها في غيرهم ﴿مَا فِيهِ بَلاَءٌ مُبِينٌ﴾ ونعمةٌ عظيمةٌ ظاهرةٌ، أو ما فيه امتحان واختبار لهم، أنّهم كيف يعملون، هل يشكرون أو يكفرون؟

إِنَّ هٰؤُلاَءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ * فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ [٣٤-٣٧]

ثمَ لمّا كان الكلام في ذمَ أهل مكّة وإصرارهم على الكفر، وإنّما ذكر قصة موسى تسليةً للنبي وتهديداً لهم، عاد سبحانه إلى ذمَ أهل مكّة بقوله: ﴿إِنَّ هٰؤُلاَءِ﴾ المشركين المنكرين للبعث ﴿لَيَقُولُونَ﴾ في جواب المؤمنين القائلين بأنّ عاقبة حياتهم الموت ثمَ البعث للحساب: ﴿إِنْ﴾ العاقبة، وما ﴿هِيَ﴾ عندنا ﴿إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلأُولَىٰ﴾ المزيلة للحياة الدنيوية ﴿وَمَا نَحْنُ﴾ بعدها ﴿بِمُنشَرِينَ﴾ ومبعوثين.

وقيل: إنّ المعنى وما الحياة إلّا حياة موتتنا الأولى[1].

وقيل: يعني ما الحالة إلّا حالة موتتنا الأولى، وإن كان البعث والنشور ممكناً. ﴿فَأْتُوا﴾ ايها المدّعون للبعث بعد الموت ﴿بِآبَائِنَا﴾ وأحيوهم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تَعِدوننا من البعث.

قيل: كانوا يطلُبون من الرسول والمؤمنين أن يدعوا الله فينشر لهم قُصيَ بن كلاب، ليشاوروه ويسألوا منه أحوال الموت وصدق محمد ﷺ في دعوى النبوة والبعث في الآخرة[2]، وهم طلبوه في الدنيا جهلاً وعِناداً، فبادر سبحانه في جوابهم أولاً بتهديدهم بقوله: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ وأفضل في القوة والشوكة التي بها يُدْفَع الضرّ والشرّ ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ ملك اليمن الذين كانوا قريب الدار منهم ﴿وَ﴾ الأمم ﴿ٱلَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ كقوم عاد وثمود وأضرابهم من الجبابرة الذين كانوا أُولي قوةٍ وبأسٍ، لاشكّ أنّ قوم تُبّع وأضرابهم كانوا أشدّ من كفّار مكة قوةً وشوكةً، ومع ذلك ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بعذاب الاستئصال بحيث لم يبق منهم أحد.

كأنّه قيل: ما سبب إهلاكهم؟ فقال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ في عصرهم ﴿مُجْرِمِينَ﴾ ومُصرّين على الكفر والطُّغيان، فاذا أُهلك هؤلاء الأقوام الكثيرة القوية بسبب إجرامهم، كان إهلاك أهل مكّة مع ضَعْفهم أولى.

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٤١٧.

٢. تفسير الرازي ٢٧: ٢٤٩، تفسير روح البيان ٨: ٤١٧.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلىً عَن مَوْلىً شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَن رَحِمَ ٱللهُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ[٣٨ـ٤٢]

ثمَ استدلَ سبحانه على صحَة البعث ثانياً بقوله: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا**﴾ من الموجودات حال كوننا ﴿**لَاعِبِينَ**﴾ بخلقها، وقاصدين عملاً لا حكمة فيه ﴿**مَا خَلَقْنَاهُمَا**﴾ ومابينهما بداعٍ من الدواعي، وغرضٍ من الأغراض ﴿**إِلَّا بِالْحَقِّ**﴾ وداع الحكمة، وغرض الايمان والطاعة المُكمَلين للنفوس المستعدَة للكمال، ولازم ذلك خلق عالم آخر للحساب والجزاء وبعث الناس، والإلزام تساوي الكامل والناقص، والمطيع والعاصي، بل يَلْزَم أن يكون المطيع أسوء حالاً من العاصي ﴿**وَلٰكِنَّ**﴾ أهل مكَة ﴿**أَكْثَرَهُمْ**﴾ بسبب إنهماكهم في الشهوات وعدم تفكَرهم في الآيات ﴿**لَا يَعْلَمُونَ**﴾ أنّ لازم خلق هذا العالم خلق آخر وبعث الناس فيه، ولذا يُنكِرونه.

ثمَ صرَح سبحانه نتيجة الدليل المذكور بقوله: ﴿**إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ**﴾ والقضاء بين الحقّ والباطل، وتمييز الأعمال الصحيحة والفاسدة، وهو يوم القيامة، موعد الخلائق و ﴿**مِيقَاتُهُمْ**﴾ ووقت اجتماعهم ﴿**أَجْمَعِينَ**﴾ لا يشِذّ منهم أحدٌ، أعني ﴿**يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلىً**﴾ ومُحبَ من الأقرباء والأصدقاء ﴿**عَن مَوْلىً شَيْئاً**﴾ من الإغناء، ولا يدفع أحدٌ عن أحدٍ قليلاً من العذاب، ولا تنفع نفسٌ نفساً يسيراً من النفع ﴿**وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ**﴾ ويُمْنَعون ممَا ينزِل بهم من الشدائد ﴿**إِلَّا مَن رَحِمَ ٱللهُ**﴾ عليه بالعفو وقَبول الشفاعة في حقَه، وهم المؤمنون ﴿**إِنَّهُ**﴾ تعالى ﴿**هُوَ**﴾ وحده ﴿**ٱلْعَزِيزُ**﴾ القاهر الذي لا ينصُر من أراد تعذيبه ﴿**ٱلرَّحِيمُ**﴾ بمن أراد أن يرحمه.

إِنَّ شَجَرَةَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ * كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ ٱلْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ * إِنَّ هٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ[٤٣ـ٥٠]

ثمَ إنَه تعالى بعد ذكر اجتماع الناس في القيامة، وعدم نفع أحدٍ أحداً، ذكر سوء حال الكفَار بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ شَجَرَةَ ٱلزَّقُّومِ**﴾ التي منبتها قَعْر جهنم، ثمرتُها التي في غاية المرارة والحرارة ﴿**طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ**﴾ وغذاء الكافر الكثير العصيان، وذلك الثمر في شدَة الحرارة ﴿**كَالْمُهْلِ**﴾ والصُفر أو النُحاس المُذاب، فاذا أُكِل ﴿**يَغْلِى**﴾ ذلك الثمر ﴿**فِى ٱلْبُطُونِ**﴾ والأجواف ﴿**كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ**﴾ وغليان الماء

الشديد الحرارة. قيل: إنّه يُقطّع الأمعاء[١].

ثمّ يقول الله للملائكة الغِلاظ الشداد غضباً على الكافر الأثيم: ﴿خُذُوهُ﴾ بالنواصي والأقدام ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ وجرّوه بالعُنف والقهر ﴿إِلَىٰ سَوَاءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ ووسط جهنّم ﴿ثُمَّ صُبُّوا﴾ وأهريقوا ﴿فَوْقَ رَأْسِهِ﴾ ومن أعلى جسده ﴿مِنْ عَذَابِ﴾ ذلك ﴿ٱلْحَمِيمِ﴾ وفي نسبة الصبّ إلى العذاب دون الحميم مع أنّه المصبوب غاية المبالغة، فيعذّب ظاهره بالحميم، وباطنه بالزّقّوم.

رُوي أنّه إذا دخل الكافر النار يُطْعَم الزقّوم، ثمّ إنّ خازن النار يضرب على رأسه بمِقْمَعة يسيل منها دِماغه على جسده، ثمّ يَصَبّ الحميم فوق رأسه، فينفُذ إلى جوفه، فيقطع الأمعاء والأحشاء[٢]، ويقال له استهزاء وتقريعاً: ﴿ذُقْ﴾ هذا العذاب المهين المُذلّ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ على زعمك وزعم قومك، مع أنّك بخلاف ما زعمت ﴿إِنَّ هٰذَا﴾ العذاب الذي تذوقه هو ﴿مَا كُنتُم﴾ في الدنيا ﴿بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ وفيه تشكّون، أو فيه تُمارون وتُجادلون.

رُوي أنّ أبا جهل قال: ما بين جبلي مكة أعزّ وأكرم منّي، فوالله ما تستطيع أنت ولا ربّك أن تفعل بي شيئاً، فنزلت الآية[٣].

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ * فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ * كَذٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ [٥١ـ٥٥]

ثمّ إنّه تعالى بعد وعيد الكفّار، وعد المؤمنين المتقين بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ والمحترزين عن الشّرك والعِصيان، متمكّنون في الآخرة ﴿فِى مَقَامٍ﴾ ومنزلٍ ﴿أَمِينٍ﴾ ومأمون من الآفات والمكاره والزوال، وأعني ﴿فِى جَنَّاتٍ﴾ وبساتين كثيرة الأشجار ﴿وَعُيُونٍ﴾ وأنهار لا يُمكن توصيفها من حيث النزاهة والصفا، ﴿يَلْبَسُونَ﴾ فيها ألبسة ﴿مِن سُندُسٍ﴾ وحريرٍ رقيقٍ ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ وحريرٍ غليظ، وهما من أرفع أنواع اللباس، حال كونهم في المجالس ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾ ومواجهين، ليأنس بعضهم ببعض. وقيل: إنّ المراد متقابلين بالمحبة، غير متدابرين بالبُغض والحَسد[٤].

ثمّ عظّم سبحانه ذلك الثواب بقوله: ﴿كَذٰلِكَ﴾ قيل: يعني الأمر كذلك[٥] الذي ذكرنا، أو مثل ذلك

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٤٢٧.
٢. تفسير روح البيان ٨: ٤٢٨.
٣. تفسير الرازي ٢٧: ٢٥٢، تفسير روح البيان ٨: ٤٢٨.
٤. تفسير روح البيان ٨: ٤٣٠.
٥. تفسير روح البيان ٨: ٤٣٠.

الثواب العظيم آتيناهم ﴿وَزَوَّجْنَاهُم﴾ وقرناهم ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾ ونسوة بيض[١] واسعة الأعين حسانها، أو الشديدات بياض أعينهن وسوادها.

عن الباقر عليه السلام: «إذا دخل أهل الجنّة الجنّة، وأهل النار النار، بعث ربّ العزة علياً فأنزلهم منازلهم من الجنّة وزوّجهم، فعليّ والله الذي يزوّج أهل الجنّة في الجنة، وما ذاك إلى أحدٍ غيره، كرامةً من الله، وفضلاً فضّله الله، ومنّ به عليه»[٢].

وعن الصادق عليه السلام قال: «المؤمن يُزَوّج ثمانمائة عذراء وألف ثيّب[٣]، وزوجتين من الحُور العِين»[٤].

وقيل: إنّ الحُور العِين من نساء الدنيا[٥].

وعن أبي هريرة: أنّهنّ لسن من نساء الدنيا[٦].

ثمّ بيّن سبحانه مأكول أهل الايمان بعد منازلهم وملابسهم ومناكحهم بقوله: ﴿يَدْعُونَ﴾ ويطلبون ﴿فِيهَا﴾ في أيّ مكانٍ كانوا ﴿بِكُلِّ فَاكِهَةٍ﴾ أرادوا حال كونهم ﴿آمِنِينَ﴾ من ضررها وانقطاعها وزوالها والاعتراض من اكثارها.

لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * فَضْلاً مِن رَبِّكَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُرْتَقِبُونَ[٥٦ ـ ٥٩]

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان نِعم الجنة، وتنعّمات المتّقين وأزواجهم، وتلذّذاتهم فيها، بشّر بخلودهم فيها بقوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ أبداً، أيّ نحوٍ كان ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ التي ذاقوها في الدنيا، إن أمكن ذوقها في الآخرة، مع أنّه محال، فيستحيل موتهم فيها.

وقيل: إنّ المعنى إلّا ذوق تذكّر الموتة الأولى، فكما يصِحّ نسبة الذوق إلى شيءٍ إذا عَلِم به، يصِحّ نسبته إليه إذا تذكّره. وقيل: إنّ الاستثناء منقطعٌ، والمعنى ولكن الموتة الأولى قد ذاقوها[٧].

ثمّ نبّه سبحانه على أعظم التفضّلات عليهم بقوله: ﴿وَوَقَاهُمْ﴾ وحفظهم أوّل الأمر، وقبل النِّعم المذكورة ﴿عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ ونجّاهم منه، كلّ ذلك من النجاة من النار، والدخول في الجنّة، والتنعم بالنِّعم الأبدية، يكون ﴿فَضْلاً﴾ وإحساناً ﴿مِن رَبِّكَ﴾ يا محمد على المتقين المستحقين للإحسان

---

١. في النسخة: بيضاء.
٢. الكافي ٨: ١٥٤/١٥٩، تفسير الصافي ٤: ٤١٠.
٣. في تفسير القمي: وأربعة آلاف ثيّب.
٤. تفسير القمي ٢: ٨٢، تفسير الصافي ٤: ٤١٠.
٥. تفسير روح البيان ٨: ٤٣١.
٦. تفسير روح البيان ٨: ٤٣١.
٧. تفسير الرازي ٢٧: ٢٥٤.

والتفضّل ﴿ذٰلِكَ﴾ المذكور الذي خصّ الله المتّقين به ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ والنيل بأعلى المقاصد.

ثمّ بيّن سبحانه الغرض من إنزال الكتاب المبين والقرآن المجيد، وذكر دلائل التوحيد والمعاد والوعد والوعيد بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ ولسان قومك، وأنزلناه بلغتكم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ويفهمون ما فيه، ويتّعظون ويعملون به، ومع ذلك هم يُنكرونه ويُكذّبونك ويُخاصمونك ﴿فَارْتَقِبْ﴾ وانتظر لما يحُلّ بهم من العذاب ﴿إِنَّهُم﴾ أيضاً ﴿مُرْتَقِبُونَ﴾ لما يَحُلّ بك من الدوائر والمضارّ، وسترى ما يحُلّ بهم، ولا ينالون ما يأملون فيك.

روت العامة عن النبي ﷺ: «من قرأ حم الدخان ليلة الجمعة، أصبح مغفوراً له»[١].

ورووا أيضاً عنه ﷺ: «من قرأ حم الدخان ليلة الجمعة، أو يوم الجمعة، بنى الله له بيتاً في الجنّة»[٢].

وعن الباقر عليه السلام: «من أدمن سورة الدخان في فرائضه ونوافله، بعثه الله من الآمنين يوم القيامة، وظلّله تحت عرشه، وحاسبه حساباً يسيراً، وأعطاه كتابه بيمينه»[٣].

في الكافي عنه عليه السلام، أنه سُئِل: كيف أعرف أنّ ليلة القدر تكون في كلّ سنة؟ قال: «إذا أتى شهر رمضان فاقرأ سورة الدخان في كل ليلة مائة مرّة، فاذا أتت ليلة ثلاث وعشرين فانّك ناظرٌ إلى تصديق ما سألت عنه»[٤].

الحمد لله على التوفيق.

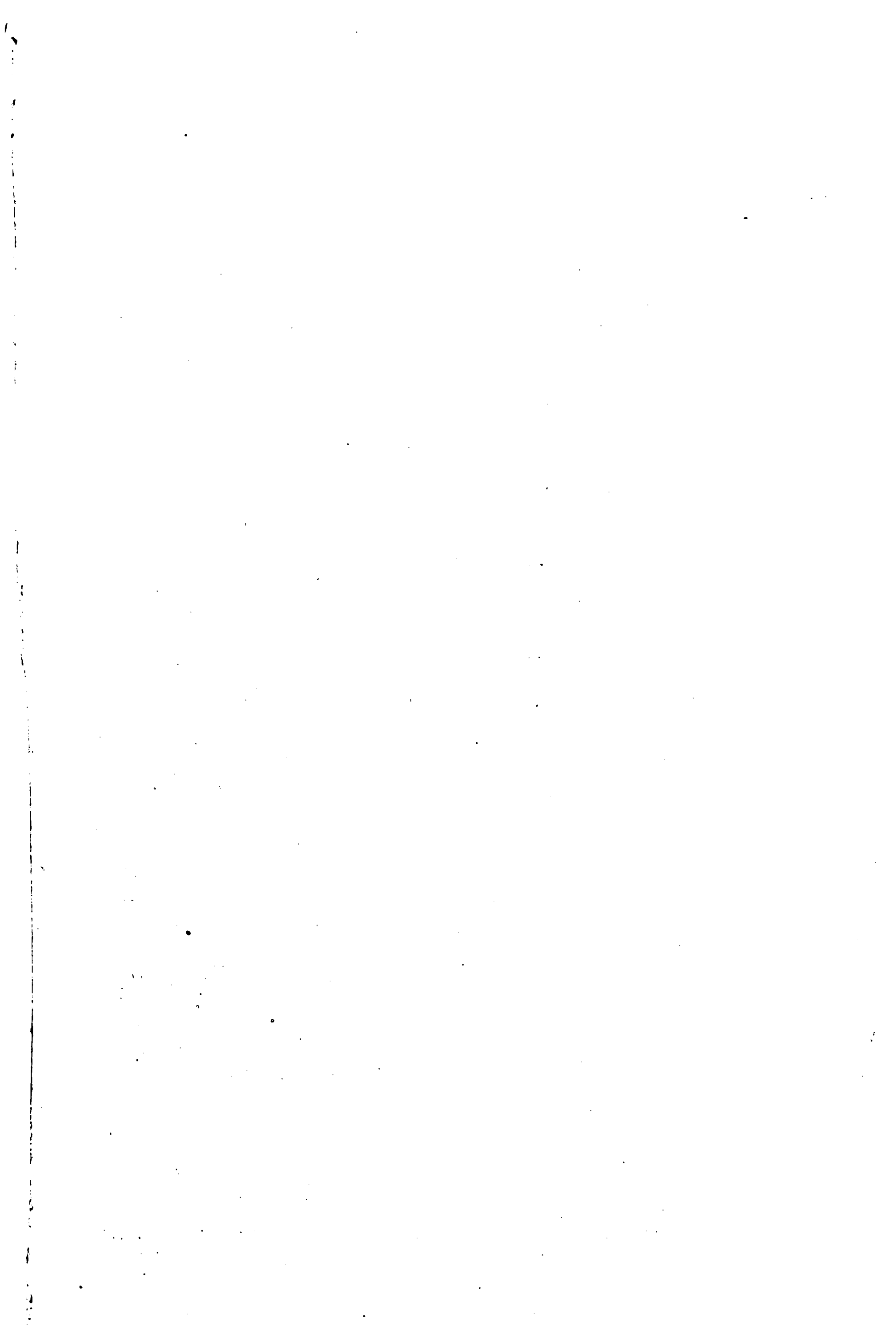
---

١. تفسير البيضاوي ٢: ٣٨٥، تفسير روح البيان ٨: ٤٣٣.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٤٣٣.

٣. ثواب الأعمال: ١١٤، مجمع البيان ٩: ٩١، تفسير الصافي ٤: ٤١١.

٤. الكافي ١: ١٩٦/٨، تفسير الصافي ٤: ٤١١.



في تفسير سورة الجاثية

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حم * تَنزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ ٱللهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ * إِنَّ فِى ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ ٱللهُ مِنَ ٱلسَّماءِ مِن رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ[١ ـ ٥]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة حم الدخان المشتملة على تعظيم القرآن، وبيان أدلة التوحيد والمعاد، والتفضّلات العظيمة ببني إسرائيل، نظمت سورة حم الجاثية المشتملة على تلك المطالب، فابتدأها بقوله: ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثمّ افتتحها بذكر كلمة ﴿حم﴾ وقد مرّ تأويلها مراراً.

ثمّ بين عظمة شأن القرآن الكريم بقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَابِ﴾ العظيم الشأن ﴿مِنَ﴾ جانب ﴿ٱللهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ القادر على إيجاد الممكنات التي منها جعل القرآن من أعظم المعجزات ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ المُطّلع على جميع العلومات، ولذا اشتمل كتابه على حِكمٍ كثيرةٍ وعُلومٍ وفيرةٍ.

قيل: إن حم قسمٌ، والمعنى أقسم بحم الذي هو تنزيل الكتاب، وجواب القسم قوله: ﴿إِنَّ فِى﴾ خلق ﴿ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1] أو في أنفسهما خلقاً ومقداراً وكيفيةً ﴿لَآيَاتٍ﴾ وأدلّة واضحة على توحيد خالقهما، وكمال قدرته وربوبيته، ولكن الانتفاع بها ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنّهم يتفكّرون فيها، ويستدلّون بالخلق على الخالق، وبالمصنوع على الصانع وتوحيده وقدرته وحكمته ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ﴾ أيّها الناس من التُّراب أولاً، ومن النطفة، ثمّ من عَلَقة، ثمّ من المُضغة إلى تمام الخلق ﴿وَ﴾ في ﴿مَا يَبُثُّ﴾ ويُفرّق في الأرض ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ وذي حياة متحرّك على اختلاف أنواعها وأصنافها وصورها وهيآتها ﴿آيَاتٌ﴾ وشواهد مقتضية لليقين بتوحيد موجودها ومُفرّقها وحكمته وقدرته ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ بشيءٍ في العالم، فانّ من لم يكن شكّاكاً، بل كان ممّن يحصُل له اليقين بشيء، يحصُل له

---

١. تفسير الرازي ٢٧: ٢٥٦.

اليقين بما دلّت عليه تلك الآيات بطريق أولى، لأنّه من الظهور كالشمس في رائعة النهار ﴿وَ﴾ في ﴿آخْتِلَافِ آللَّيْلِ وَآلنَّهَارِ وَ﴾ في ﴿مَا أَنزَلَ آللهُ﴾ بقدرته وحكمته ﴿مِنَ آلسَّمَاءِ مِن﴾ ماءٍ نافعٍ هو سبب ﴿رِزْقٍ﴾ الانسان وسائر الحيوانات بأصنافها ﴿فَأَحْيَا بِهِ آلْأَرْضَ﴾ بإخراج أنواع الزروع والأشجار والثّمار والنباتات منها ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ويُبسها وعدم الانتفاع بها ﴿وَ﴾ في ﴿تَصْرِيفِ آلرِّيَاحِ﴾ وتحويلها من جهةٍ إلى جهةٍ، وتبديلها من حالٍ إلى حالٍ ﴿آيَاتٌ﴾ وبراهين متقنةٌ على قدرة الله ورحمته ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ويُدرِكون واقعيات الأمور غير المحسوسة بالنظر إلى المحسوسات.

قيل: إنّ في اختلاف الفواصل إشارةٌ إلى أنّ الناس إن كانوا مؤمنين، فعليهم أن يفهموا هذه الدلائل بقوة إيمانهم، وإن لم يكونوا من أهل الايمان، بل كانوا طلاب الحقّ واليقين به، فعليهم أيضاً أن يتفكّروا في تلك الآيات، ويطلبوا اليقين بقوّة النظر والفكر، وإن لم يكونوا من أهل الايمان، ولا من طلّاب اليقين، فلا أقلّ يكونون من زُمرة العقلاء، فعليهم أيضاً أن يتفكّروا فيها، ويُدركوا الحقّ بقوّة عقلهم[١].

أقول: والأولى أن يقال إنّ حدوث السماوات والأرض، لمّا لم يكن من المحسوسات، وكان محتاجاً إلى التأمّل التامّ أدلّة حدوثهما، ولا باعث إلى ذلك التأمّل إلّا الايمان، خصّ دلالتهما بأهل الايمان، وأمّا الآيات الأُخر من خلق الانسان والحيوانات ونزول الغيث وتصريف الرياح، فلمّا كان حدوثها محسوساً ومشاهداً لكلّ أحدٍ، كان دليلاً على وجود القادر الحكيم من غير حاجةٍ إلى ترتيب القياس، لوضوح احتياج الحادث إلى المُحدِث، إلّا أنّ بعضها لمّا أمكن إسنادها إلى الأسباب الطبيعية، كنزول المطر الذي يُمكن إسناده إلى تصاعُد الأبخرة، وكتصريف الريح الممكن إسناده إلى سقوط الأدخنة، لابدّ من قوّة عقل يُدرَك بها أنّ العلل لابدّ أن تنتهي إلى علّة العلل، وإن كان الاستدلال بكلّ آية محتاجاً إلى العقل ولذا ذكر سبحانه الآيات جميعها في آية واحدة وذيلها بقوله: ﴿آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

تِلْكَ آيَاتُ آللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ آللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ * وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ[٦ و ٧]

ثمّ عظّم سبحانه تلك الآيات لتوجيه النفوس إليها، وتوبيخ من لا يتفكّر فيها بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ الآيات التكوينية العظيمة التي ذكرناها في الآيات السابقة القرآنية ﴿آيَاتُ آللهِ﴾ ودلائل وجوده وتوحيده،

١. تفسير الرازي ٢٧: ٢٥٩.

وكمال صفاته التي ﴿تَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد، بتوسّط جبرئيل، حال كونها مقرونة ﴿بِالْحَقِّ﴾ ودلائل الصدق بعيدة عن الباطل والكذب.

ثمّ ذمّ المشركين بقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ وبيان يَحُثّهم إلى الايمان، أو أي برهانٍ على التوحيد ﴿بَعْدَ﴾ حديث ﴿اللهِ وَآيَاتِهِ﴾ المُنزلة على سبيل الاعجاز، والمبينة للدلائل الواضحة، أولئك المشركون ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بالتوحيد، فانّه ليست آيةٌ ومعجزةٌ أعظم من تلك الآيات، وليس برهانٌ على التوحيد أتقن من تلك البراهين، وليس بيانٌ أوضح وأفصح من بيان الله، فاذا لم يؤمنوا بها لم يؤمنوا بغيرها أبداً. قيل: إنّ المعنى فبأيّ حديثٍ بعد آياته يؤمنون[1] وانما ذكر سبحانه اسم الجلالة في الآية تعظيماً للآيات.

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان إصرار المشركين على الشرك، وامتناعهم عن الايمان، هدّدهم سبحانه بقوله: ﴿وَيْلٌ﴾ وعذاب شديد ﴿لِكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ وكذّاب في إخباره بأنّ القرآن سحرٌ أو شعرٌ أو كلام بشر ﴿أَثِيمٍ﴾ ومُصرّ على الذنب والعصيان.

يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ[٨]

ثمّ ذكر سبحانه من عظام ذنوبه أنّه ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ﴾ القرآن المنزل من ﴿اللهِ﴾ حين ﴿تُتْلَىٰ﴾ وتُقرأ ﴿عَلَيْهِ﴾ لأن يؤمن بها، وينقاد لما فيها ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ على كفره، ويدوم على ضلالته ومعارضته، مع أنّ حقّها الإذعان والانقياد لها، لما فيها من جهات الاعجاز، وهو يعرض عنها حال كونه ﴿مُسْتَكْبِراً﴾ ومتأنّفاً عن الايمان بها، وتعظّماً نفسه عن التسليم لما فيها، معجباً بما عنده من الأباطيل، وهو في عدم تأثّر قلبه بها ﴿كَأَن لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ وفي عدم الانتفاع بها كأن لم يشعُر بها ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ يا محمد، وسُرّ قلبه بإخباره ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ حيث إنّه باصراره بما يُوجبه، وجده في إيجاد أسبابه، كأنّه طالبٌ وشائقٌ إليه.

قيل: نزلت في النَّضر بن الحارث بن عبدالدار، كان يشترى من أحاديث الأعاجم كحديث رُستم وإسفنديار، ويَشْغَل الناس بها عن استماع القرآن[2].

وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * مِن وَرَائِهِمْ

---

١. تفسير أبي السعود ٨: ٦٨، تفسير روح البيان ٨: ٤٣٧.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٤٣٨.

جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * هٰذَا هُدىً وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِن رِجْزٍ أَلِيمٌ[٩ـ١١]

ثمّ ذمّه سبحانه بعدم قناعته بالتكذيب والإصرار على الكفر، بل يستهزئ بالآيات بقوله: ﴿وَإِذَا عَلِمَ﴾ ذلك الأفاك ﴿مِنْ آيَاتِنَا﴾ المُنزلة ﴿شَيْئاً﴾ قليلاً كان، أو كثيراً ﴿ٱتَّخَذَهَا هُزُواً﴾ وجعلها مهزوءاً بها وموردْ للسُّخرية ﴿أُولٰئِكَ﴾ المستهزئون بالآيات، المستكبرون عن الايمان بها ﴿لَهُمْ﴾ بسبب كِبرهم الباعث على الاستهزاء ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ومُذِلّ لهم، مُذهِب لعزّهم الذي تخيّلوه لأنفسهم، ثمّ فسّر سبحانه العذاب المهين الذي هدّد به هؤلاء المقبلين بقلوبهم إلى الدنيا بقوله: ﴿مِن وَرَائِهِمْ﴾ وفي خلفهم، وهو الدار الآخرة التي ولّوا عنها ﴿جَهَنَّمُ﴾ وقيل: إنّ الوراء هنا بمعنى القُدّام[١] ﴿وَلَا يُغْنِى﴾ ولا يدفع العذاب ﴿عَنْهُم﴾ في الآخرة ﴿مَا كَسَبُوا﴾ وحَصّلوا في الدنيا من الأموال والزخارف ﴿شَيْئاً﴾ قليلاً ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا﴾ واختاروا لأنفسهم ﴿مِن دُونِ ٱللهِ أَوْلِيَاءَ﴾ من الأصنام والأوثان، على خلاف زعمهم من أنّهم شُفعاء عند الله ﴿وَلَهُمْ﴾ في جهنم[٢] ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وشديد في الغاية مضافاً إلى كونه مهيناً.

ثمّ إنّه تعالى بعد تهديد المعرضين عن آيات القرآن والمستهزئين بها، بالغ في توصيف القرآن بالهداية، باخباره عنه بأنه عينها بقوله: ﴿هٰذَا﴾ القرآن ﴿هُدىً﴾ وعين رشادٍ إلى مصالح الدين والدنيا، ودالّ إلى كلّ خيرٍ، وإلى أعلى الكمالات اللائقة بالبشر ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ﴾ القرآن النازلة من ﴿رَبِّهِمْ﴾ اللطيف بهم ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة استحقاقٌ وعدلٌ ﴿عَذَابٌ مِن رِجْزٍ﴾ وشديدة ﴿أَلِيمٌ﴾ ذلك العذاب غايته.

ٱللهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُم مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[١٢ و ١٣]

ثمّ إنّه تعالى بعد ذكر كثيرٍ من الآيات الدالة على توحيده وقدرته وحكمته، وتهديد المعرضين عنها والمستهزئين بها، عاد إلى ذكر آيات وأدلة أُخر على توحيده بقوله: ﴿ٱللهُ﴾ تعالى هو القادر ﴿ٱلَّذِى سَخَّرَ﴾ وذلّل ﴿لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ بأن جعله ليّناً مائعاً ساكناً ﴿لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ﴾ والسُّفن ﴿فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾

---

١. تفسير الرازي ٢٧: ٢٦١، تفسير أبي السعود ٨: ٦٩.
٢. في النسخة: في تلك الجهنم.

وإرادته ﴿وَلِتَبْتَغُوا﴾ وتطلبوا بالركوب في السفن للتجارة، وبالغوص في البحر وإخراج اللؤلؤ والمَرْجان منه، وبصيد السُّموك ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ وإحسانه ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمه، ولكي تُؤدّون حقّ إحسانه ﴿وَسَخَّرَ﴾ وذلّل أيضاً ﴿لَكُم مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الموجودات، بأن جعلها نافعةً لكم في حياتكم وبقائكم ومعاشكم، ومعارفكم وكمال أنفسكم حال كونها ﴿جَمِيعاً﴾ وكلاًّ كائنةً ﴿مِنْهُ﴾ تعالى موجودةً بقدرته ومشيئته ﴿إِنَّ فِى ذٰلِكَ﴾ التسخير ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمة ودلالات واضحة على توحيد خالقها ومُسخّرها وإنما كماله ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في بدائع صُنع الله وعظائم نعمه.

قُل لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللهِ لِيَجْزِىَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[١٤]

ثمّ إنه تعالى بعد ذكر الأدلّة المُتقنة على توحيده وتهديد المشركين، أمر المؤمنين بالمُداراة معهم والعفو عن إساءتهم بقوله: ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بك ﴿يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللهِ﴾ وثوابه، ولا يخافون عقابه، ولا يخشون نزول مثل ما نزل على الأُمم الماضية، كما عن ابن عباس[١]. وهم الكفّار والمشركون المنكرون للمعاد، إذا أساءوا إليهم باللسان واليد ﴿لِيَجْزِىَ﴾ الله ﴿قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

قيل: إنّ المراد من القوم المؤمنون، وتنكيره لتعظيم شأنهم، والمراد ممّا يكسبون مغفرتهم للمسيئين إليهم، والمعنى أمرهم بالمغفرة ليجزي الله يوم القيامة قوماً، أي قومٍ كانوا بما كسبوا في الدنيا من الأعمال الحسنة التي من جملتها الصبر على أذى الكفّار وإساءتهم، والإغضاء عنهم بكَظْم الغَيظ واحتمال المكروه[٢].

وقيل: إنّ المراد الكفار، وتنكيره للتحقير، والمعنى: قل للمؤمنين يتجازوا عن إساءة الكفّار، ليجزي الله الكفّار بما كسبوا من الإثم والإساءة، والمراد لا تكافِئوهم أنتم حتى نُكافئهم نحن[٣].

قيل: إنّ الآية منسوخةٌ بآية السيف والقتال[٤].

روى بعض العامة عن ابن عباس: ﴿قُل لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني عمر ﴿يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللهِ﴾ يعني عبدالله بن اُبي، وذلك أنّهم نزلوا في غزوة بني المُصْطَلِق على بئرٍ يقال له المريسيع،

---

١. تفسير الرازي ٢٧: ٢٦٣.
٢. تفسير أبي السعود ٨: ٧٠، تفسير روح البيان ٨: ٤٤٢.
٣. تفسير الرازي ٢٧: ٢٦٣.
٤. تفسير البيضاوي ٢: ٣٨٨، تفسير روح البيان ٨: ٤٤١.

فأرسل عبدالله غلامه ليستقي الماء، فابطأ عليه، فلمّا أتاه قال له: ما حبسك؟ قال: غلام عمر قعد على طرف البئر، فما ترك احداً يستقى حتى ملأ قِرب النبي وقِرب أبي بكر وملأ لمولاه. فقال عبدالله: ما مَثَلنا ومَثَل هؤلاء إلّا كما قيل: سَمِّن كلبك يأكُلك، فبلغ قوله عمر، فاشتمل بسيفه يُريد التوجّه إليه، فنزلت[١].

وقيل: شَتَم رجلٌ من كفّار قريش عمرَ بمكة، فهمّ أن يبطِشَ به، فأمر الله بالعفو والتجاوز، وأنزل الله هذه الآية[٢].

وروى ميمون بن مِهران أنّ فنحاس[٣] بن عازورا اليهودي، لمّا نزل قوله: **﴿من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً﴾**[٤] قال: ربّ محمد احتاج، فسَمِع بذلك عمر، فاشتمل على سيفه، وخرج في طلبه، فبعث النبي ﷺ في طلبه وردّه[٥].

مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ * وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فِيما كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ[١٥ـ١٨]

ثمّ بيّن سبحانه أنّه يُجزي كلّ أحدٍ جزاء عمله، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ، بقوله تعالى: **﴿مَنْ عَمِلَ﴾** عملاً **﴿صَالِحاً﴾** ومرضياً عند الله **﴿فَلِنَفْسِهِ﴾** عمله ونفعه، وإليه عائد ثوابه، لا إلى الله، ولا إلى غيره **﴿وَمَنْ أَسَاءَ﴾** وعصى ربّه، وتَبع هوى نفسه **﴿فَعَلَيْهَا﴾** وِزره وضرره وعقابه، لا على نفس غيره، فأوامره تعالى ونواهيه ألطافٌ منه تعالى إلى العبيد، وتقريب إلى مصالحهم، تبعيد عن مضارّهم ومفاسدهم **﴿ثُمَّ﴾** بعد خروجكم من الدنيا، ودخولكم في دار الجزاء **﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾** ومالك اُموركم **﴿تُرْجَعُونَ﴾** وإلى محكمة عدله تُساقون، فيجازيكم على أعمالكم، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرّ، ففيه حثّ على العمل الصالح، ومنه العفو عن المسيىء، وتحذير عن العمل السيء.

ثمّ بيّن سبحانه أنّ طريقة قوم خاتم النبيين ﷺ طريقة قوم موسى في الايمان والكفر مع نزول

---

١. تفسير الرازي ٢٧: ٢٦٣، تفسير روح البيان ٨: ٤٤١.
٢. تفسير الرازي ٢٧: ٢٦٣.
٣. في تفسير الرازي: فنحاص.
٤. البقرة: ٢/٢٤٥.
٥. تفسير الرازي ٢٧: ٢٦٣.

الكتاب إليهم، وإتيان المعجزات لهم، ووفور النِّعم عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وأعطيناهم بفضلنا ﴿ٱلْكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ﴾ قيل: هي العلم بالأحكام[١]. وقيل: إنّها العلم بفصل القضاء[٢]. وقيل: إنّها المعارف الإلهية[٣] ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ فانّ إبراهيم كان شجرة الأنبياء، وكان أكثر الأنبياء في نسله.

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان نعمه الدينية بيّن نعمه الدنيوية التي أعطاهم بقوله: ﴿وَرَزَقْنَاهُم﴾ في الدنيا ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ﴾ واللذائذ كالمَنّ والسّلوى وأموال القِبط ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ﴾ بفَلْق البحر لهم، وتظليل الغَمام عليهم ونظائرهما ﴿عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾ قيل: إنّ المراد عالمي زمانهم[٤] ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ﴾ وأدلّة ظاهرة ﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾ والدين، أو معجزات ظاهرة على صحّة نبوتهم.

عن ابن عباس: يعني بيّن لهم من أمر النبي ﷺ أنه يُهاجِر من تِهامة إلى يثرب، ويكون أنصاره من أهل يثرب[٥]، ومع ذلك اختلفوا في أمر النبي ﷺ، أو في التوحيد، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا﴾ في ذلك الأمر ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بحقيته وحقيقته، فجعلوا ما يرفع الخلاف سبباً لوجوده، ولم يكن هذا الاختلاف لحدوث شكٍّ في قلوبهم، بل كان لأجل أن أحدثوا ﴿بَغْياً﴾ وعداوةً ﴿بَيْنَهُمْ﴾ لطلبهم الدنيا والرئاسة، فصار ذلك العدوان سبباً لاختلافهم وتنازعهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي﴾ يوم القيامة ﴿بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين بإثابة المحقّين، وتعذيب المبطلين.

﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء نبوة بني إسرائيل ﴿جَعَلْنَاكَ﴾ يا محمد ـ لكرامتك عليّ، ونورانية قلبك، وكمال عقلك وعظمة خلقك ـ مستوياً ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ وطريقة عظيمة الشأن ﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾ والدين الذي خصصناك به ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ واعمل بأحكامها، وبلّغها إلى الناس ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ﴾ الضالين ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ شيئاً من الحقائق، ولا تأخذ بآراء قومٍ يجهلون الدين، بل لا دين لهم إلّا ما يشتهون من غير حُجَةٍ على ما يتديّنون.

عن الكلبي: أنّ رؤساء قريش قالوا للنبي ﷺ وهو بمكة: ارجع إلى دين آبائك، فهم كانوا أفضل منك، وأسنّ فنزلت[٦].

إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً وَإِنَّ ٱلظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَٱللهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ * هٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ[١٩ و ٢٠]

---

١ ـ ٣. تفسير الرازي ٢٧: ٢٦٥، تفسير أبي السعود ٨: ٨١، تفسير روح البيان ٨: ٤٤٣.
٤. تفسير الرازي ٢٧: ٢٦٥، تفسير روح البيان ٨: ٤٤٣.
٥. تفسير الرازي ٢٧: ٢٦٥.
٦. تفسير الرازي ٢٧: ٢٦٥.

ثمّ هدّد سبحانه حبيبه صلى الله عليه وآله على اتباع أهواء قومه بقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ﴾ ولا يفيدوك لو ملت إلى أديانهم الباطلة، ولن يمنعوك ﴿مِنَ﴾ عذاب ﴿اللَّهِ﴾ على اتّباعك شهواتهم التي سمّوه ديناً ﴿شَيْئًا﴾ قليلاً من الإغناء، وبوجه من الوجوه ﴿وَإِنَّ﴾ المشركين ﴿الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم باختيار الكفر ﴿بَعْضُهُمْ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ وأتباعه، للتجانس في الخُبث، ورذالة الصفات والأخلاق، ولاتنفعهم تلك الولاية، وأنت وليّ الله ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ من الشرك واتّباع الهوىٰ والأديان الباطلة، وأنت قُدوتهم، وهو بولايته لهم وصّلهم إلى جميع الخيرات والسعادات الدنيوية والأخروية، وما أبين الفرق بين الولايتين!

ثمّ بيّن سبحانه فوائد القرآن المشتملة على ادلّة دين الحق بقوله: ﴿هَٰذَا﴾ القرآن العظيم المشتمل على البيانات الشافية والمواعظ الوافية آياته ﴿بَصَائِرُ﴾ للقلوب وأنوار للعيون النازلة ﴿لِلنَّاسِ﴾ من ربكم ومالك أمركم اللطيف بكم ﴿وَهُدًى﴾ ورشاد من الضلال ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ ونعمة عظيمة من الله ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ بصدقه وبأنّه كلام ربّه.

عن النبي صلى الله عليه وآله «القرآن يَدُلّ على دائكم ودوائكم»[١].

أقول: الداء الشرك، وأعظم دوائه التفكّر في أدلّة التوحيد، ثمّ بعده الذنوب ودواؤه الاستغفار، ثمّ حبّ الدنيا ودواؤه التفكّر في فنائها.

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا ٱلسَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ[٢١]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه ولايته للمتقين، بيّن علّة ذلك، وهو وضوح فضيلة المتقين على الظالمين بقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ الكفّار ﴿الَّذِينَ اجْتَرَحُوا﴾ واكتسبوا ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ والأعمال الشنيعة، واشتغلوا بها، وغفلوا عن الله والدار الآخرة ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾ ونُصيّرهم في الألطاف والإكرام ﴿كَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بما يجب الايمان به من التوحيد ورسالة الرسول والدار الآخرة ﴿وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ المرضيات عندنا، ونعاملهم معاملتهم، ويكون ﴿سَوَاءً﴾ ومساوياً ﴿مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ ودنياهم وآخرتهم؟ كلا ليس الظالمون كالمتقين، والعصاة المسيئون كالمطيعين الصالحين، بل الطائفة الأولى في ذلّ الكفر والعِصيان، والثانية في عزّ الايمان والطاعة، ولا تستوي حياتهم وموتهم، فانّ الطائفة الأولى حياتهم أسوأ الحياة، لابتلائهم فيها بالتعب لجمع الأموال وحِفظها، واشتغال قلوبهم بحُبّ

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٤٤٤.

الدنيا والأموال والأولاد والرئاسة وكونهم في خوفٍ من العدوّ والضرر والمرض والذلّ، وفي حزن ممّا يفوتهم ممّا يأملون، وموتهم أسوأ الموت، لصعوبة انقطاعهم من الدنيا، وشدّة ابتلائهم بالعذاب. والطائفة الثانية حياتهم حياةٌ طيبةٌ، لأُنسهم بالله، وقناعتهم بما رزقهم الله، وتوكّلهم على الله، وفَراغ قلبهم من همّ الدنيا، وأمنهم من الأعداء، وسُرورهم بما أعدّ الله لهم من الكرامة والثواب.

روي عن النبي ﷺ أنّه قال لمّا رأى أصحاب الصُّفّة[١] في المسجد: «المحيي محياكم والممات مماتكم»[٢].

عن ابن عباس: يعني أحسبوا أنّ حياتهم ومماتهم كحياة المؤمنين ومماتهم؟ كلا فإنهم يعيشون كافرين ويموتون كافرين، والمؤمنون يعيشون مؤمنين ويموتون مؤمنين، وذلك لأنّ المؤمن ما دام في الدنيا يكون وليه الله، وأنصاره المؤمنون، وحُجّة الله معه، والكافر بالضدّ[٣].

وقيل: إنّ المعنى أحسبوا أن يستووا في الممات، كما استووا في الحياة؟ فانّ المؤمنين يستوون [مع] الكفّار في الرزق والصحة والكفاية، بل قد يكون الكافر أحسن حالاً من المؤمن، وإنّما الفرق بينهما في الممات[٤].

وقيل: إنّ الجملة مستأنفةٌ، والمعنى الكافر محياه ومماته سواء، والمؤمن كذلك فكل يموت على ما عاش عليه[٥].

ثمّ لمّا كان المشركون يقولون: نحن أحسن حالاً من المؤمنين في الآخرة، ردّهم الله بقوله: ﴿**سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾ وبئس شيئاً يقولون عن جَزمٍ من أنهم أحسن حالاً من المؤمنين.

قال الفخر الرازي: قال الكلبي: نزلت هذه الآية في عليّ وحمزة وأبي عبيدة بن الجرّاح، وفي ثلاثة من المشركين: عُتبة وشيبة والوليد بن عُتبة، قالوا للمؤمنين: والله ما أنتم على شيءٍ، ولو كان ما تقولون حقاً لكان حالنا أفضل من حالكم في الآخرة، كما أنّا أفضل حالاً منكم في الدنيا، فأنكر الله عليهم هذا الكلام[٦].

وَخَلَقَ ٱللهُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * أَفَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ ٱللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ ٱللهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ [٢٢ و ٢٣]

---

١. الصُّفّة: مكان مُظلّل في مسجد المدينة، كان يأوي إليه فقراء المهاجرين، ويرعاهم الرسول ﷺ، وهم أصحاب الصُّفّة.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٤٤٦.

٣ ـ٥. تفسير الرازي ٢٧: ٢٦٧.

٦. تفسير الرازي ٢٧: ٢٦٦.

ثمَ لمّا حكم الله سبحانه بُعد مساواة الكافر والمؤمن في الحياة وفي الممات، استدلّ على وجود عالم آخر، وهي دار الجزاء بقوله: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ لا للّغو والعبث، بل مُعلّلاً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ والحكمة البالغة، وهو تكميل النفوس وظهور استعداداتها، بسبب جعل التكاليف والأحكام ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ وحصلت لها من الأعمال الصالحة والسيئة. وقيل: إنّ التقدير ليَدِلّ بها على قدرته ولتُجزى[١]. وقيل: إنّه معطوفٌ على قوله: ﴿بِـٱلْحَقِّ﴾ والمعنى: لأجل إظهار الحقّ ولتجزى، وعلى أيّ تقدير يكون الحاصل أنّ المقصود من خلق العالم إظهار العدل والرحمة، ولا يتمّ إلّا إذا حصل البعث والتفاوت في الدرجات والدركات بين المحقّين والمبطلين[٢]، والمحسنين والمسيئين ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بتنقيص الثواب وزيادة العقاب على الاستحقاق.

ثمَ إنّه تعالى بعد نهي نبيّه ﷺ عن اتّباع هوى المشركين الجُهّال، ذمّ المشركين باتّباعهم الهوى، وأظهر التعجّب من سَفَههم بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ يا محمد، قيل: إنّ التقدير أنظرت فرأيت[٣] ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ﴾ ومعبوده ﴿هَوَاهُ﴾ وشَهْوة نفسه، وتَرَك الهُدى وطاعة ربّه، وذلك ممّا يقضي التعجّب. قيل: كانوا يستحسنون حَجَراً فيَعْبُدونه، فاذا أرادوا أحسن منه رفضوه[٤].

ثمَ بيّن سبحانه أنّه بخِذلانه بقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ﴾ وحرفه عن طريق الهدى بخِذلانه ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ من إيصال بالطريق الحقّ والصواب، أو علم من الله بأنّ ذاته الخبيثة غير قابلة للهداية ﴿وَخَتَمَ﴾ وطبع ﴿عَلَىٰ سَمْعِهِۦ﴾ بحيث لا تَدْخُله المواعظ، ولا يسمع الحقّ ﴿وَ﴾ على ﴿قَلْبِهِۦ﴾ بحيث لا يفهم كلام الله، ولا يتفكّر في آياته، ولا يتأثّر بالنُّذر ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَاوَةً﴾ وغِطاءً مانعاً عن رؤية المعجزات وبدائع الصُّنع الدالة على توحيد الصانع ﴿فَمَن يَهْدِيهِ﴾ وأي شخصٍ ومرشدٍ يَرْشُده إلى الحقّ ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ وممّا سواه، أو من بعد إضلاله إياه، لا والله لا يهديه أحدٌ غير الله ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ذلك وتنبّهون؟ قيل: إنّ التقدير ألا تُلاحظون فلا تَذكّرون ولا تتفكّرون، فتعلموا أن الهداية بيد الله؟[٥]

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ[٢٤]

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢٧: ٢٦٨.

٣. تفسير أبي السعود ٨: ٧٣، تفسير روح البيان ٨: ٤٤٨.

٤. تفسير البيضاوي ٢: ٣٨٩، تفسير أبي السعود ٨: ٧٣.

٥. تفسير أبي السعود ٨: ٥٧٣، تفسير روح البيان ٨: ٤٤٩.

ثمّ وبّخهم سبحانه على إنكارهم البعث والمعاد بقوله: ﴿وَقَالُوا﴾ من غاية جهلهم وضلالهم: ليس حياتنا و﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾ في ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ التي نحن فيها ﴿نَمُوتُ﴾ فيها تارةً ﴿وَنَحْيَا﴾ فيها أخرى، وليس وراء ذلك حياة في عالم آخر، كما تدّعون، وتأخير (نحيى) لمراعاة شَبَه الفواصل، والواو لمطلق الجمع، كذا قيل[١]. وقيل: إنّهم كانوا يقولون بالتناسخ[٢]. وقيل: إنّ المراد بالموت كونهم نُطفاً في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات[٣]. وقيل: إنّ المراد بالحياة المذكورة بعد الموت حياتهم بسبب بقاء الأولاد[٤]. وقيل: إنّ المراد موت بعضٍ، وحياة بعضٍ[٥].

ثمّ حكى سبحانه إنكارهم كون الموت بقبض مَلَك الموت أرواح الناس، بل هو بالطبيعة بقوله حكاية عنهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا﴾ ويُميتنا شيء ﴿إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ وطول زمان الحياة، أو حركات الأفلاك وتأثير الطبائع، فليس الموت بيد الفاعل المختار، فجمعوا بين إنكار الإله وإنكار المعاد، فردّهم سبحانه بقوله: ﴿وَمَالَهُم بِذٰلِكَ﴾ القول من حصر الحياة بالحياة الدنيوية، وكون الموت بتأثير الطبيعة والدهر شيء ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ وحُجّةٌ قاطعةٌ تُورِث اليقين، بل ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ بسبب تقليد آبائهم، ولا ينبغي للعاقل أن يعتمد في هذه العقائد التي في خطئها خطرٌ عظيمٌ على الظنّ والحُسبان، بل لابدّ من الحُجّة القاطعة العقلية والنقلية، كما هو طريقة المؤمنين.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ٱئْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُلِ ٱللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَلِلهِ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ[٢٥ ـ ٢٧]

ثمّ حكى سبحانه معارضتهم الآيات الدالة على البعث، فردّهم إياها بما يكون فساده أظهر من الشمس بقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ﴾ وتقرأ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لإثبات البعث ﴿آيَاتُنَا﴾ الدالة على إمكانه ووقوعه مع كونها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ وواضحات الدلالات عليه، وكقولنا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى أَحْيَاهَا لَمُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ﴾[٦] وقولنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[٧] وقولنا: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[٨].

﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ بزعمهم ودليلهم على إبطال ما نطقت به الآيات شيءٌ ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ سفهاً

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٤٤٩.
٢. تفسير البيضاوي ٢: ٣٨٩، تفسير أبي السعود ٨: ٧٣، تفسير روح البيان ٨: ٤٤٩.
٣ ـ ٥. تفسير الرازي ٢٧: ٢٦٩.
٦. فصلت: ٣٩/٤١.
٧. الروم: ٢٧/٣٠.
٨. يس: ٧٩/٣٦.

وعِناداً ولَجاجاً: أيَها المدَعون للحياة بعد الموت ﴿آئْتُوا بِآبَائِنَا﴾ وأحيوهم ثانياً، وأحضروهم عندنا يشهدون بصحَة قولكم بالبعث والحساب ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في إخباركم به.

ثمَ أمر سبحانه نبيَه ﷺ بردَهم بقوله: ﴿قُلِ﴾ يا محمد لهم: أيَها الجُهَال ﴿ٱللَّهُ﴾ القادر على خلق كلَ شيء ﴿يُحْيِيكُمْ﴾ في الدنيا بقدرته وحكمته ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء آجالكم هو ﴿يُمِيتُكُمْ﴾ بقدرته، لا الطَبيعة والدهر، ولا حركات الأفلاك، ولا تأثير الكواكب﴿ثُمَّ﴾ بعد إحياكم في القبور ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾ حال كونكم منتهين ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ﴾ للحساب وجزاء الأعمال ﴿لَا رَيْبَ﴾ في جمعكم في ذلك اليوم، ولاشكَ للعاقل ﴿فِيهِ﴾ لوجوبه على الله بحكم العقل، ومن الواضح عدم التلازم بين إمكان الإحياء في الآخرة، وإمكانه في الدنيا، ولا يَلْزَم من قدرة الله على ذلك قدرة المخبرين به عن الله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ دلالة حدوث الانسان وسائر الموجودات على وجود الإله القادر الحكيم، وعلى قدرته على الإحياء ثانياً ووجوبه عليه، ثمَ بيَن قدرته الكاملة على إيجاد جميع الموجودات، وسَعَة سلطنته بقوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ وحده ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والسلطنة التامة على جميع الموجودات عُلوياً وسُفلياً، إيجاداً وإعداماً، وتصرَفاً وتدبيراً، فمن كان بهذه القدرة لا يعجِز عن إيجاد الانسان وإحيائه ثانياً بعد موته وصيرورته رميماً وتراباً، فثبت المعاد بالدليل القاطع.

ثمَ هدَد المنكرين بقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ والقيامة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ووقت قيامها ﴿يَخْسَرُ﴾ ويتضرَر ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ والقائلون بأن لا إله ولا بعث، لأنَهم ضَيعوا أعمارهم وعقولهم وقواهم التي أنعم الله بها عليهم، وجعلها بمنزلة رأس مالهم في سوق الدنيا، كرأس مال التجار، ففي إتلافها وتضييعها خسارةٌ لا خسارة فوقها.

وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[٢٨ و ٢٩]

ثمَ ذكر بعض أهوال القيامة بقوله: ﴿وَتَرَىٰ﴾ يا محمد، أو أيَها الرائي ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ من الأممَ وجماعةٍ من الجماعات مؤمنيهم وكفَارهم من هول ذلك اليوم ﴿جَاثِيَةً﴾ وباركةً على رُكبهم، لذهاب قوة القيام عنهم.

عن كعب الأحبار أنَه قال لعمر: ان جهنَم تزِفر زَفرةً يوم القيامة فلا يبقى مَلَكٌ مُقرَبٌ ولا نبيٌ مرسلٌ إلَا جثا على ركبتيه، حتى يقول إبراهيم الخليل: يا ربَ، أسألك اليوم إلَا نفسي[1].

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٤٥٣.

وقيل: يَجْثُون لإظهار الخُضوع والخُشوع[١].

وقيل: جاثية: يعني قائمة على اطراف الأصابع[٢]، ليروا ما ينزِل بهم.

قيل: إنّ المؤمن والكافر مشاركون في الخوف حتى يظهر المحقّ والمُبطل[٣].

وعن ابن عباس، قال: يعني مجتمعةً[٤]، لا يُخلَط بعضهم بعضٍ، وعند ذلك ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ وصحيفة أعمالها لتقرأها، وتكرير كلمة (كل أمة) للاغلاظ والوعيد، ثمّ يقال لهم: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يوم ﴿تُجْزَوْنَ﴾ فيه أيتها الأمم ﴿مَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من خيرٍ أو شرٍّ، وطاعةٍ أو عصيان.

عن النبي ﷺ: «إذا كان يوم القيامة جاء الايمان والشرك فيجثيان بين يدي الربّ تعالىٰ، فيقول الله للايمان: أنطلق أنت وأهلك إلى الجنّة، ويقال للشرك: انطلق أنت وأهلك إلى النار»[٥].

ثمّ يقال للأمم بعد إعطاء كلٍّ كتابه بيده: ﴿هَٰذَا﴾ الكتاب الذي فيه أعمالكم ﴿كِتَابُنَا﴾ الذي كتبه الكرام الكاتبين بأمرنا ﴿يَنطِقُ﴾ بأعمالكم في الدنيا، ويشهد ﴿عَلَيْكُم﴾ بما فعلتم وأرتكبتم مقروناً ﴿بِالْحَقِّ﴾ والصدق بلا زيادةٍ ولا نقصان ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا الدنيّة ﴿نَسْتَنسِخُ﴾ ونستكتب بتوسّط الملائكة ﴿مَا كُنتُمْ﴾ في مدّة أعماركم ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من الحسنات والسيئات صغيرة وكبيرة.

قيل: ما من صباح ومساء إلّا وينزل فيه مَلَك من عند إسرافيل إلى كاتب أعمال كلّ إنسان، ينسخ عمله الذي يعمله في يومه وليلته، وما هو لاقٍ فيهما[٦].

عن النبي ﷺ: «أول ما خلق الله القلم، وكتب ما يكون في الدنيا من عملٍ معمول برّ أو فجور، وأحصاه في الذكر، واقرءوا ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهل يكون النسخ إلّا من شيءٍ قد فرغ منه»[٧].

وعن ابن عباس: أنّ الله وكّل ملائكة يستنسخون من ذلك الكتاب المكتوب عنده كلّ عامٍ في شهر رمضان ما يكون في الأرض من حدثٍ إلى مثلها من السنة المقبلة، فيعارضون به حَفَظة الله على عباده كلّ عشية خميس، فيجدون ما رفع الحَفَظة موافقاً لما في كتابهم ذلك ليس فيه زيادة ولا نقصان، فإذا أفنى الورق ممّا قدّر وانقطع الأمر وانقضىالأجل، أتت الحَفَظة الخَزَنة، وقالوا: ما نجد لصاحبكم عندنا شيئاً، فيرجع الحَفَظة فيجدونه قد مات.

ثمّ قال ابن عباس: ألستم قوماً عُرباً؟ هل يكون الاستنساخ إلّا من أصلٍ وهو اللّوح المحفوظ من

---

١. تفسير الجامع ١٦: ١٧٤.
٢. تفسير روح البيان ٨: ٤٥٣.
٣ و ٤. تفسير الرازي ٢٧: ٢٧٢، تفسير روح البيان ٨: ٤٥٣.
٥. تفسير روح البيان ٨: ٤٥٤.
٦. تفسير روح البيان ٨: ٤٥٤.
٧. تفسير روح البيان ٨: ٤٥٤.

التغيير والتبديل والزيادة والنقصان على ما عليه مما كتبه القلم الأعلى؟[١]

وعن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن ﴿نون والقلم﴾ قال: «إنّ الله خلق القلم من شجرةٍ في الجنة، يقال لها الخُلد، ثمّ قال لنهرٍ في الجنة: كُن مداداً، فجَمَد النهر، وكان أشدّ بياضاً من الثلج، وأحلى من الشهد، ثمّ قال للقلم: اكتُب، قال: يا رب، ما أكتب؟ قال عزّ وجلّ: اكتُب ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة، فكتب القلم في ورقٍ أشدّ بياضاً من الفِضّة، وأصفى من الياقوت، ثمّ طواه فجعله في رُكن العرش، ثمّ ختم على فم القلم، فلم ينطِق ولا ينطِق أبداً، فهو الكتاب المكنون الذي منه النُسخ كلّها، أو لستم عُرباً فكيف لا تعرِفون معنى الكلام، وأحدكم يقول لصاحبه: انسخ ذلك الكتاب، أو ليس إنّما يُنْسَخ من كتابٍ آخر من الأصل، وهو قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾»[٢].

وفي حديث ذكر فيه المَلَكين المُوكّلين بالعبد، قال: «إنّهما إذا أرادا النزول صباحاً ومساءً، ينسخ لهما إسرافيل عمل العبد من اللَّوح المحفوظ، فيُعطيهما ذلك، فاذا صَعِدا صباحاً ومساءً بديوان العبد، قابله إسرافيل بالنُّسخ التي استنسخ لهما حتى يظهر أنّه كان كما نسخ منه»[٣].

قيل: إلزام الحجّة على العبد يوم القيامة بشهود الملائكة صدور الطاعة أو العصيان من العبد في وقته المخصوص وكتابتهم أعمالهم[٤].

وقيل: إنّ الحَفَظة يكتبون جميع أعمال العبيد، ثمّ يُقابلونها بما في اللَّوح المحفوظ، فما فيه ثواب أو عقاب أثبت، وما لم يكن فيه شيء منهما مُحي، وذلك قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا ٱللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾[٥].

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ * وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ * وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا وَمَأْوَاكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِن نَاصِرِينَ * ذٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ آيَاتِ ٱللهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا[٣٠-٣٥]

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٤٥٤.
٢. تفسير القمي ٢: ٣٧٩، تفسير الصافي ٥: ٩.
٣. سعد السعود: ٢٢٦، تفسير الصافي ٥: ٩.
٤. تفسير روح البيان ٨: ٤٥٤.
٥. تفسير روح البيان ٨: ٤٥٤، والآية من سورة الرعد: ٣٩/١٣.

ثمّ بيّن سبحانه معاملته مع المؤمنين بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ من كلّ اُمة من الأمم ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ﴾ بفضله ﴿فِى﴾ جنّته التي هي محلّ ﴿رَحْمَتِهِ﴾ ومَظْهَرها و﴿ذٰلِكَ﴾ الإدخال في الجنّة ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ﴾ والظّفر ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ والظاهر على المقصد الأعلى، بحيث لا فوز وراءه، ولا ظَفر على مقصودٍ فوقه.

ثم ذكر سبحانه عِتابه على الكفار بقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوْا﴾ فيقول الله لهم تقريعاً وتوبيخاً: أيّها الكفّار ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ﴾ قيل: إنّ التقدير ألم يكن تأتيكم رسلي، فلم تكن ﴿آيَاتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[1]؟ بلىٰ، قد كانت تُتلى عليكم ﴿فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الايمان بها، وكذّبتموها ﴿وَكُنتُمْ﴾ بسبب الاستكبار والتكذيب ﴿قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾ وجمعاً مُعاقبين، أو المراد قوماً عادتهم الإجرام.

ثمَ إنّه تعالى بعد توبيخهم على الكفر بالله وبآياته، واستكبارهم عن الايمان بالمبدأ، وبَخهم على إنكارهم البعث والمعاد بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ في الدنيا لكم ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ﴾ بالحشر والبعث وجزاء الأعمال ﴿حَقٌّ﴾ وصدق لا ريب فيه ﴿وَ﴾ إنّ ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ والقيامة قائمة لا محالة و ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ ولاشكّ في صَحة وقوعها، ﴿قُلْتُم﴾ أيّها العُتاة استغراباً وإنكاراً لها: إنّا ﴿مَا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ ولا نعلم أي شيء هي ﴿إِن نَظُنُّ﴾ بقيامها وما نَحْسَب إتيانها ﴿إِلَّا ظَنّاً﴾ ضعيفاً وحُسباناً واهناً، لكثرة ما سَمِعنا من الرسول من الوعد بها والاستدلال عليها ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ بقيامها، وعالمين بوقوعها، لما رأينا من إنكار آبائنا وأكابرنا إيّاها.

أقول: الظاهر أنّ الطائفة المظهرين للشكّ غير الطائفة الذين قالوا: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ ٱلدَّهْرُ﴾[2] عن يقين وجزم.

﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿بَدَا﴾ للكفّار، وظهر ﴿لَهُمْ﴾ صور البرزخيّة التي تكون عليها ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ وقبائحه، وهم في الدنيا كانوا يَعُدّونه حسنات، أو المراد وخامة عاقبته.

وقيل: إنّ المراد جزاء أعمالهم القبيحة، كالشرك والمعاصي[3] ﴿وَحَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِهِم﴾ من كلّ جانب ﴿مَّا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾ ومنه يَسْخَرون من جزاء أعمالهم، والعقاب الموعود على شركهم وعتوّهم ومعاصيهم، وفيه إيذان بأنّ قولهم: ﴿إِن نَظُنُّ إِلَّا ظَنّاً﴾ كان على سبيل الاستهزاء والسُّخرية.

﴿وَقِيلَ﴾ لهم من جانب الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ أيّها الكفّار، ونترُككم في جهنم وعذابها،

---

١. تفسير البيضاوي ٢: ٣٩٠، تفسير روح البيان ٨: ٤٥٥.
٢. الجاثية: ٢٤/٤٥.
٣. تفسير روح البيان ٨: ٤٥٨.

كترك الشيء المنسيّ الذي لا يُبالي به ﴿كَمَا نَسِيتُمْ﴾ وما راعيتم ﴿لِقَاءَ﴾ عذاب الله في ﴿يَوْمِكُمْ هٰذَا﴾ ولم تلتفتوا إليه، ولم تُبالوا به، بأن تركتم ما يُدْفَع به من الايمان والأعمال الصالحة ﴿وَمَأْوَاكُمُ﴾ ومنزلكم، أو مَرْجِعكم ﴿ٱلنَّارُ﴾ لأنها مأوى من نسيناه ﴿وَمَا لَكُم﴾ اليوم أبداً أحد ﴿مِن نَاصِرِينَ﴾ يَنْصُركم، ويدفع عذاب النار عنكم، ويُخلّصكم عنه.

﴿ذٰلِكُم﴾ الترك في العذاب، وتمكّنكم في النار معلّل ﴿بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ آيَاتِ ٱللهِ﴾ وبراهين توحيده وما ينزل من كتابه الناطق بالحقّ ﴿هُزُواً﴾ وجعلتموها ممّا يُسْخَر به ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا﴾ وخدعتكم شهواتها، فشُغِلتم بها، وانهمكتم فيها، وغفلتم عن الله والدار الآخرة، حتى أنّكم أنكرتم الله ودار الجزاء، وحَسِبتم أن لا حياة بعد الموت، ولا حساب ولا جزاء.

فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَاءُ فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ[٣٥ـ٣٧]

ثمّ أعرض سبحانه عن مخاطبتهم إيذاناً بغاية مهانتهم، وخروجهم عن أهلية الخطاب، ووجّه خطابه إلى العقلاء بقوله: ﴿فَالْيَومَ﴾ وفي هذا العالم ﴿لَا يُخْرَجُونَ﴾ من النار ولا يُخلّصون ﴿مِنْهَا﴾ أبداً ﴿وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ويُطالبون بأن يُرضُوا عنهم ربّهم بالتوبة والإنابة والطاعة، لفوات وقته وأوانه، ثمّ لما كان المطالب العالية والوعد والوعيد المُفصّلة في هذه السورة من ألطاف الله بعباده ونِعمه الروحانية عليهم، ومن شؤون ربوبيته لهم، ختم سبحانه السورة بحمد ذاته المُقدّسة على نِعمه بقوله: ﴿فَلِلهِ﴾ وحده ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ بأنواعه وأصنافه لأنّه ﴿رَبِّ ٱلسَّماوَاتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ كلّها من عالم الجبروت، وعالم الملكوت، وعالم الملك.

ثمّ أثنى سبحانه على نفسه بقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَاءُ﴾ والعَظَمة والسّلطنة المطلقة ﴿فِى ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وجميع عوالم الوجود ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا عزّة لغيره إلّا به، والقادر الذي لا قُدرة لغيره إلّا بإعطائه و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يصدُر منه إلّا ما فيه أكمل الصلاح وأتمّ الحكمة، فلاختصاص الحمد به أحْمَدوه على نِعمه، ولاختصاص العَظَمة والكبرياء به كبّروه، ولاختصاص العزّة والحكمة به وحدّوه واعبدوه.

في الحديث: «أنّ لله ثلاثة أثواب: أتّزر بالعزّة، وأرتدى بالكبرياء، وتسربل بالرحمة، فمن تعزّز

بغير الله أذلّه الله، فذلك الذي يقول الله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[١]، ومن تكبّر فقد نازع الله، إنّ الله تعالى يقول: لا ينبغي لمن نازعني أن أُدخله الجنّة، ومن يرحم الناس يرحمه الله، فذلك الذي سربله الله سرباله الذي ينبغي له»[٢].

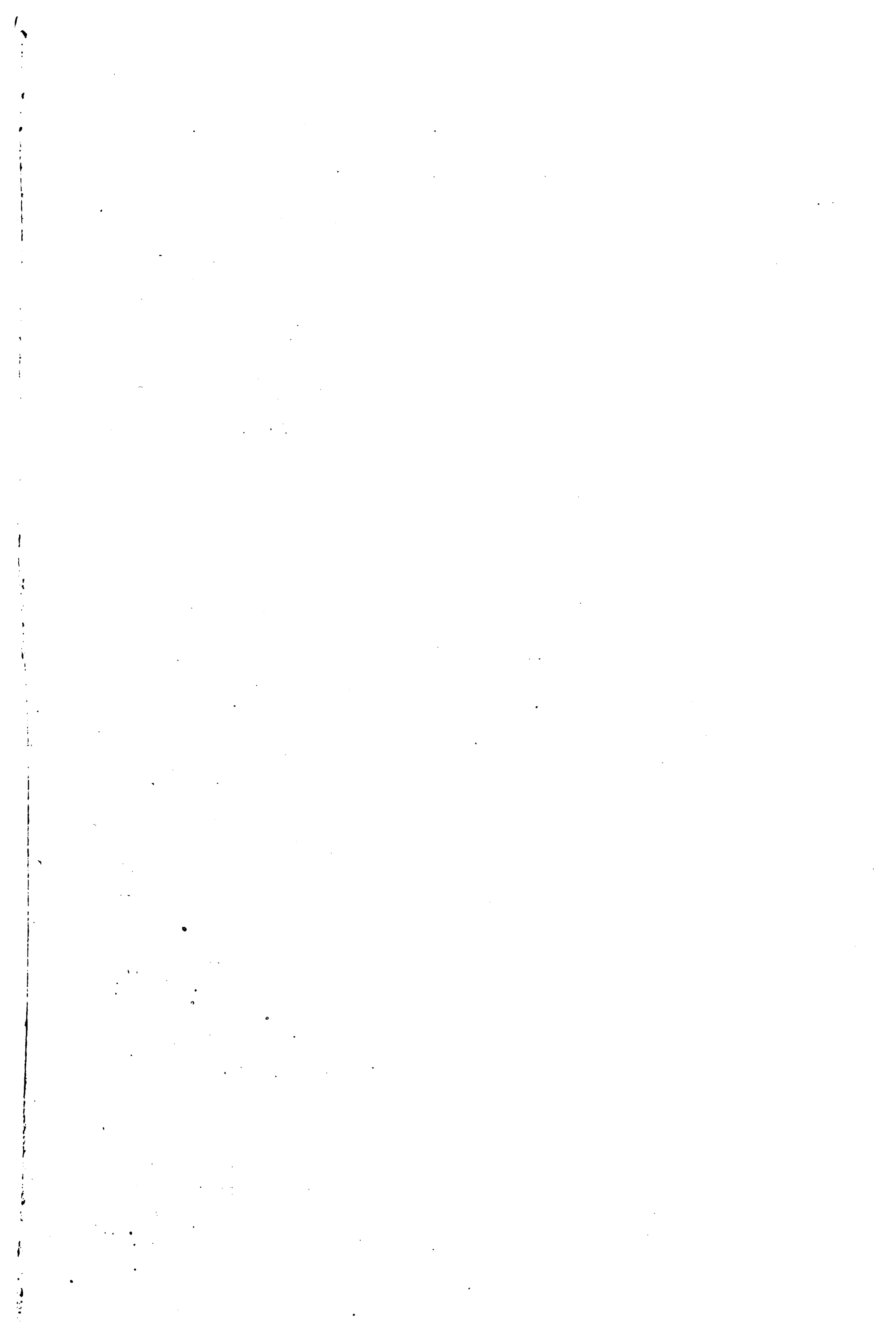
وفي الحديث القُدسي: «يقول الله: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم»[٣].

عن الصادق عليه السلام: «من قرأ سورة الجاثية كان ثوابها أن لا يرى النار أبداً، ولا يسمع زفير جهنّم وشهيقها، وهو في الجنّة مع محمد صلى الله عليه وآله»[٤].

الحمد لله على التوفيق لإتمام تفسيرها.

---

١. الدخان: ٤٤/٤٩. ٢ و٣. تفسير روح البيان ٨: ٤٥٩.
٤. ثواب الأعمال: ١١٤، مجمع البيان ٩: ١٠٦، تفسير الصافي ٥: ١٠.



في تفسير سورة الأحقاف

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حم * تَنزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ ٱللهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ * مَا خَلَقْنَا ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمّىً وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ[١ـ٣]

ثمّ بعد ختم سورة الجاثية المتضمّنة لبيان عَظَمة القرآن، وأدلّة التوحيد والمعاد، وذمّ المشركين الذين أعرضوا عن الرسول وكتابه، وتهديدهم بالعذاب، والإخبار بوقوع القيامة وشدّة أهوالها، نظمت سورة الأحقاف المتضمّنة لجميع تلك المطالب العالية النافعة، فابتدأها بذكر الأسماء الحُسنى بقوله: ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ثمّ افتتحها بما افتتح به السورة السابقة من الحروف المقطّعة، وهو قوله: ﴿حم﴾ ثمّ عظّم القرآن بقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ ٱللهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ وقد مرّ تفسيره.

ثمّ شرع في ذكر دليل التوحيد والمعاد بقوله: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الموجودات العُلوية والسُّفلية بداعٍ من الدواعي ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وداعي الحكمة والصلاح الأتم، وهو تكميل النفوس بالمعرفة والعلم والأخلاق والأعمال الصالحة، ليصرن[1] قابلات للفيوضات الأبدية والنِعم غير المتناهية والرحمة الموصولة ﴿وَ﴾ مقرونات بتقدير ﴿أَجَلٍ﴾ ووقتٍ ﴿مُسَمّىً﴾ ومعين ينتهي إليه الكلّ، وهو يوم القيامة، وعالم الآخرة، ودار الجزاء، وتميّز النفوس الزكية والخبيثة، لا لتبقى أبداً.

ثمّ ذمّ المشركين على غفلتهم عن عالم الآخرة، ودليل وجوبه، وعدم اعتنائهم بما وُعِظوا به من المجازاة فيه بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأشركوا بالله، وأنكروا دار الجزاء ﴿عَمَّا أُنذِرُوا﴾ به وخُوّفوا من يوم القيامة وأهوالها ﴿مُعْرِضُونَ﴾ وبما وُعِظوا به من عذاب الآخرة على الشرك والعِصيان لا

---

١. في النسخة: ليصيروا.

يعتنون ولا يبالون، مع قيام البراهين القاطعة على صحّته، وإخبار الرُّسل بوقوعه، ونُطق الكتب السماوية به.

قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَاوَاتِ ٱئْتُونِى بِكِتَابٍ مِن قَبْلِ هٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ [٤]

ثمّ إنه تعالى بعد إثبات التوحيد، ردّ مذهب الشرك بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المشركين ﴿أَرَأَيْتُم﴾ أيها المشركون، وأخبروني ﴿مَّا تَدْعُونَ﴾ وتَعْبُدون ﴿مِن دُونِ ٱللهِ﴾ من الأصنام والأوثان ﴿أَرُونِى﴾ وبيّنوا لي ﴿مَاذَا خَلَقُوا﴾ وأيّ جزءٍ أوجدوا ﴿مِنَ﴾ أجزاء ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ متفردين بخلقه وإيجاده؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شَرْكٌ﴾ مع الله ودخل ﴿فِى﴾ إيجاد ﴿ٱلسَّماوَاتِ﴾ أو ملكها أو تدبيرها حتى يكون لهم شأنية استحقاق للعبادة؟ لا والله ليس لهم دخل في وجود شيءٍ منهما، فإذن تكون عبادتهم محض السَّفه، لعدم استحقاهم لها، بل الاستحقاق لخالقهما وخالق غيرهما من الموجودات، وإنّ قلتم: إنّ الخالق المستحقّ بالذات للعبادة أمرنا بعبادة هذه الجمادات ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَابٍ﴾ وسندٍ على ما تَدّعون من قبل الله نازل عليكم ﴿مِن قَبْلِ هٰذَا﴾ القرآن الناطق بالتوحيد والنهي عن عبادة غيره ﴿أَوْ أَثَارَةٍ﴾ وبقيةٍ بقت عندكم من علمٍ مختصٍّ بالأنبياء والرسل، أو روايةٍ رويتم ﴿مِنْ عَلْمٍ﴾ الأولين خُصصتم به، ولم يَطّلع عليها غيركم.

عن ابن عباس، أنّه قال: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ﴾ علم الخطّ الذي يُخطّ في الرمل[1].

﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى أمر الله بهذا، فإذا لم يكن في الكتب السماوية، ولا فيما نُقِل عن الأنبياء ما يَدُلّ على صحّة دينكم، كان بطلانه ظاهراً واضحاً، مع أنّه قد دلّت الأدلّة القطعية العقلية والنقلية على خلافه.

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللهِ مَن لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ [٥ ـ ٧]

---

١. تفسير الرازي ٢٨: ٥.

ثمّ لمّا بيّن سبحانه عدم استحقاق غير الله العبادة بالذات، ولا يأمر الله، بيّن غاية ضلال المشركين بعبادتهم ما لا شعور له ولا إدراك بقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن﴾ يترك عبادة الله ودعاءه و ﴿يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللهِ﴾ القادر على كل شيء، العالم بالخفيات ﴿مَن لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ دعاءه ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ﴾ لعدم قدرتهم على الجواب ﴿وَهُمْ﴾ مع عجزهم عن إجابة دعاء الداعين ﴿عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ وبه غير شاعرين، لكونهم جمادات، وفيه تهكّم بالأصنام وبعَبَدَتها.

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان عدم نفع الأصنام بعابديهم في الدنيا، بيّن عدم نفعهم إياهم في الآخرة بقوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ حين قيام الساعة، وجمعوا في عرصة القيامة، وأحيا الله الأصنام ﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ وأنكروا عبادة المشركين ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ ومكذّبين، وقالوا: ماكنتم إيّانا تعبُدون، بل كنتم تعبُدون أهواءكم.

ثمّ إنّه تعالى بعد إثبات التوحيد وإبطال الشرك، حكى إنكار المشركين معجزات النبي ﷺ بقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ﴾ وتُقرأ ﴿عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ القرآنية المشتملة على جهات من الاعجاز ليؤمنوا بها وبنبوة محمد ﷺ حال كون تلك الآيات ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ وواضحات الدلالة على كونها من الله، وعلى رسالة محمد، وحشر الناس للجزاء ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عِناداً ﴿لِلْحَقِّ﴾ أو كفروا لأجل الحقّ وشأنه، وهو الآيات المتلوّة عليهم ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ ذلك الحقّ، وبمحض سَماع الآيات من غير تدبّر فيها وتأمّل: ﴿هٰذَا﴾ الذي جاءنا وتلي علينا ﴿سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وباطل ظاهر بطلانه، وواضح أنّه لا حقيقة له.

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ[٨]

ثمّ أنكر سبحانه عليهم قولهم الآخر الأعجب من الأول بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ إنّ محمداً ﷺ اختلق هذا القرآن و ﴿ٱفْتَرَاهُ﴾ على الله، ونسبه كِذباً إليه.

ثمّ أمر نبيّه ﷺ بردّهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء الكفّار: ﴿إِنِ﴾ اختلقتُ القرآن من قِبَل نفسي و﴿ٱفْتَرَيْتُهُ﴾ على الله على سبيل الفرض كما تقولون، فانّ الله يُعاجلني بعقوبة هذا الافتراء، وإن عاجلني بالعقوبة ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِى﴾ ولا تَقْدِرون على أن تدفعوا عنّي ﴿مِنَ﴾ عذاب ﴿ٱللهِ شَيْئاً﴾ يسيراً إن كنتم مؤمنين بي ومدافعين عنّي، فكيف يُمكن أن أقدِم على الافتراء، وأُعرّض نفسي للعقوبة التي لا مَخْلَص منها!

ثمّ أمر سبحانه نبيّه ﷺ بتهديدهم بقوله: ﴿هُوَ﴾ تعالى ﴿أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ﴾ وما تخوضون

﴿فِيهِ﴾ من القَدْح والطعن في القرآن، ونسبته إلى السحر تارةً، وإلى الافتراء اُخرى ﴿كَفَىٰ بِهِ﴾ تعالى ﴿شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ فانّه يشهد بصدقي في دعوى الرسالة، حيث أنزل عليّ أفضل الكتب السماوية، وصدّق كتابي حيث جعله محتوياً لجهات من الإعجاز، فيُجازيني على صدقي أفضل الجزاء، ويُعاقبكم على تكذيبي أشدّ العقوبة ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لمن رجع عن الكفر وآمن بتوحيده ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بمن تاب وعَمِل صالحاً بإعطاء جزيل الثواب، وبمن أصرّ على الكفر بتأخير عقوبته إلى يوم الحساب.

قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِنَ ٱلرُّسُلِ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ [٩]

ثمّ لمّا اقترح المشركون على النبي ﷺ معجزات غير ما أتى به، أو بإخباره بالمغيبات على ما قيل[١]، أمر الله نبيّه ﷺ بردّهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المقترحين ﴿مَا كُنتُ بِدْعاً مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ وأوّل من أرسل إلى البشر، لوضوح أنّه اُرسِل قبلي كثيرٌ من الرسل، وكلّهم دعوا الناس إلى ما أدعوكم إليه من توحيد الله وعبادته وطاعته، وما أتوا إلّا بما آتاهم الله من المعجزات، ولم يُجيبوا اُممهم بجميع ما سألوهم من خوارق العادات، ولم يُخبِروهم إلّا بما اُوحي إليهم من ربّهم، فكيف تُنكِرون منّي أن دعوتكم إلى ما دعا إليه من قَبْلي من الرسل؟ وكيف تقترحون عليّ مالم يُؤتيه الله إياي؟

﴿وَمَا أَدْرِى﴾ ولا أعلم بغير الوحي من الله ﴿مَا يُفْعَلُ بِى﴾ وأي شيءٍ يُصيبني فيما يغير من الحوادث ﴿وَلَا بِكُمْ﴾ وإلى ما يصير أمري وأمركم في الدنيا، وإنّما اُخبركم ببعض الحوادث من هجرتي، وغلبتي عليكم، وظهور ديني على سائر الأديان بالوحي من الله ﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾ وما أقول وما أفعل ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ من ربّي، لا أتجاوزه ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ ومُخوّف من عقاب الله ﴿مُبِينٌ﴾ ومُوضح إنذاري لكم بلسانكم، وبالمعجزات الدالة على صدقي.

عن ابن عباس: لمّا اشتدّ البلاء بأصحاب النبي ﷺ بمكّة، رأى في المنام أنّه يهاجر إلى أرضٍ ذات نخلٍ وشجرٍ وماءٍ، فقصّها على أصحابه، فاستبشروا بذلك، ورأوا أنّ ذلك فرج ممّا هم فيه من أذى المشركين ثمّ انهم مكثوا بُرهةً من الدهر لا يرون أثر ذلك، فقالوا: يا رسول الله، ما رأينا الذي قلت، متى تُهاجر الى الأرض التي رأيتها في المنام؟ فسكت النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ وهو شيء رأيته في المنام، وأنا لا أتّبع إلّا ما أوحاه الله إليّ[٢].

---

١. تفسير الرازي ٢٨: ٧.   ٢. تفسير الرازي ٢٨: ٨.

وقيل: إنّ المراد لا أدري ما يُفعَل بي في الدنيا، أموت أم أُقْتَل كما قُتِل الأنبياء قَبلي، ولا أدري ما يُفعَل بكم أيّها المكذبون، أترمون بالحجارة من السماء، أم يُخْسَف بكم، أم يُفعَل بكم ما فُعِل بسائر الأمم[١].

وروي أيضاً عن ابن عباس: أنّه لمّا نزلت هذه الآية، فَرِح المشركون والمنافقون واليهود، وقالوا: كيف نَتّبع نبياً لا يدري ما يُفعل به وبنا؟ فأنزل الله ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ آللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ ذٰلِكَ عِندَ آللهِ فَوْزاً عَظِيماً﴾[٢]، فبيّن تعالى ما يُفعَل به وبمن اتّبعه، ونُسِخت هذه الآية، وأرغم الله أنف المنافقين والمشركين[٣].

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ آللهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِن بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَآسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ آللهَ لَا يَهْدِى آلْقَوْمَ آلظَّالِمِينَ[١٠]

ثمّ حثّ سبحانه المشركين على الايمان بالقرآن بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، للمشركين: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أيّها المشركون، وأخبروني ﴿إِن كَانَ﴾ ما أتيتكم به من القرآن نازلاً ﴿مِنْ عِندِ آللهِ﴾ وبوحيه كما أقول، لا سحرٌ ولا مُفترىً كما تَزْعُمون ﴿وَ﴾ أنتم ﴿كَفَرْتُم بِهِ﴾ وجحدتم بنزوله من عند الله ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ عظيمُ الشأن ﴿مِن﴾ علماء ﴿بَنِى إِسْرَائِيلَ﴾ الواقفين على ما في التوراة من التوحيد والوعد والوعيد على الايمان والكفر وكيفية المعاد ﴿عَلَىٰ﴾ انطواء التوراة بنظير ما في القرآن و ﴿مِثْلِهِ﴾ فعلم بسبب مطابقة القرآن للتوراة أن القرآن من جنس الوحي الناطق بالحقّ.

وقيل: إنّ المراد إن كان القرآن من عند الله وشَهِد شاهدٌ من بني إسرائيل على مثل ما أقول[٤] لدلالة المعجزات ﴿فَآمَنَ﴾ بالقرآن أنّه كلام الله وليس من اختلاق البشر ﴿وَآسْتَكْبَرْتُمْ﴾ وتأنّفتم عن الإقرار به، ألستم أضلّ الناس وأظلمهم على أنفسكم، حيث وضعتم الجحود والإنكار موضع الايمان، والاقرار عِناداً ولَجاجاً؟ فبذلك الظلم سُلِب عنهم التوفيق للايمان والهداية ﴿إِنَّ آللهَ لَا يَهْدِى﴾ ولا يُوفّق للايمان ﴿آلْقَوْمَ آلظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بالإصرار على الكفر.

في ذكر إيمان عبدالله ابن سلّام

عن سعد بن أبي وقّاص، قال: ما سَمِعت رسول الله يقول لأحد يمشي على وجه الأرض: إنّه من أهل الجنّة إلاّ لعبدالله بن سلّام، وفيه نزل ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ إلى آخره[٥]. كان من أحبار اليهود، وكان اسمه الحصين[٦]، فسمّاه رسول الله ﷺ عبدالله،

---

١. تفسير الرازي ٢٨: ٨. ٢. الفتح: ٤٨/ ١ ـ ٥. ٣. تفسير الرازي ٢٨: ٨. ٤. تفسير الرازي ٢٨: ١٠.
٥. تفسير الرازي ٢٨: ٩، تفسير روح البيان ٨: ٤٧٠. ٦. في النسخة: الحفتين.

قيل: إنّه لمّا سَمِع بمقدم رسول الله ﷺ المدينة أتاه فنظر إلى وجهه الكريم، فعَلِم أنّه ليس بوجه كذّاب، وتأمّله فتحقّق أنّه النبي الموعود المنتظر، فقال له: إنّي أسألك عن ثلاثٍ لا يعلمهنّ إلّا نبي: ما أول أشراط الساعة، وأول طعام يأكله أهل الجنّة، والولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمّه؟

فقال ﷺ: «أمّا أول أشراط الساعة فنار تحشُرهم من الشرق إلى الغرب، وأمّا أوّل طعام أهل الجنّة فزيادة كَبِد الحوت، وأمّا الولد فان سبق ماء الرجل نزعه، وإن سبق ماء المرأة نزعته».

فقال: أشهد أنّك رسول الله حقاً، فقام ثمّ قال: يا رسول الله، إنّ اليهود قوم بُهت، فان عَلِموا بإسلامي قبل أن تسألهم عنّي بهتوني عندك. فجاءت اليهود وهم خمسون فقال لهم النبي ﷺ: «أيّ رجلٍ عبدالله فيكم؟» قالو: خيّرنا وابن خيّرنا، وسيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا.

فقال: «أرايتم إن أسلم عبدالله؟» قالوا: أعاذه الله من ذلك. فخرج عبدالله إليهم فقال: أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنّ محمداً رسول الله. فقالوا: شرّنا وابن شرّنا وانتقصوه. قال: هذا ما كنتُ أخاف يا رسول الله وأحذر[١].

وقيل: إنّ المراد بالشاهد غير عبدالله؛ لأنّ الحواميم كلّها مكيّة، وكان إسلام عبدالله بعد الهجرة قبل وفاة رسول الله ﷺ بعامين، وورد بأنّ الحواميم وإن كان مكية إلّا هذه الآية، فانّها مدنية، وضعت في السورة المكية بأمر الرسول ﷺ[٢].

وقيل: إنّ الشاهد موسى بن عمران، وشهادته ما في التوراة من بعث[٣] الرسول، ونزول القرآن عليه[٤].

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ[١١]

ثمّ بيّن سبحانه شدّة كفر المشركين بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من عُتاة قريش تعظيماً لأنفسهم مخاطبة ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمد ﷺ وهم في نظرهم من أدنى الناس وفقرائهم، ثمّ ترك سبحانه حكاية خطابهم، وانتقل إلى الغيبة بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ﴾ دين الاسلام حقاً والقرآن ﴿خَيْراً﴾ ونافعاً ﴿مَا سَبَقُونَا﴾ أولئك الأرذال والسَّفِلة ﴿إِلَيْهِ﴾ وإلى الايمان به.

وقيل: إنّ معنى ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأجل إيمان الذين آمنوا[٥]، فليس الكلام للمشافهة والمخاطبة.

وقيل: إنّ الكفّار لمّا سَمِعوا إيمان جماعة من الفقراء بالرسول ﷺ والقرآن قالوا للمؤمنين

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٤٦٩.
٢. تفسير الرازي ٢٨: ١٠، تفسير روح البيان ٨: ٤٧٠.
٣. في تفسير البيضاوي: نعت.
٤. تفسير البيضاوي ٢: ٣٩٣، تفسير أبي السعود ٨: ٨١.
٥. تفسير الرازي ٢٨: ١١.

الحاضرين عندهم، لو كان خيراً ما سبقنا إليه أولئك الفقراء الغائبون[١].

قيل: إنّ هذا كلام كفّار مكّة[٢]، وقيل: لمّا أسلمت جُهنية ومُزنية وغفّار وأسلم، قالت بنو عامر وغَطفان وأسد وأشجع: لو كان خيراً ما سبقنا إليه رِعاء البهم[٣].

وقيل: إنّ أمةً لعُمر أسلمت، وكان عُمر يضربها حتى يفتر، ويقول: لولا إنّي فَتَرت لزدتك ضرباً، فكان كفّار قريش يقولون: لو كان ما يدعو إليه محمد حقّاً، ما سبقنا إليه أمَة عمر[٤].

وقيل: لمّا أسلم عبدالله بن سلام قالت اليهود ذلك[٥].

ثمّ ردّهم بقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا﴾ بالقرآن، كما اهتدى به المؤمنون، ولم يرشُدوا إلى الحقّ ﴿بِهِ﴾ لعدم تدبّرهم فيه، وعدم وقوفهم على جهات إعجازه، ظهر عِنادهم وقالوا ما قالوا ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ بعد نفيهم الخير في القرآن: ﴿هٰذَا﴾ القرآن ﴿إِفْكٌ﴾ وكِذب ﴿قَدِيمٌ﴾ دائرٌ في ألسنة السابقين.

وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً لِيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [١٢ ـ ١٤]

ثمّ ردّ سبحانه تكذيبهم القرآن بقوله: ﴿وَمِن قَبْلِهِ﴾ نزل ﴿كِتَابُ مُوسَىٰ﴾ وهو التوراة حال كونه ﴿إِمَاماً﴾ يُؤتمّ به، ومقتدىً يُقتدى به في دين الله ﴿وَرَحْمَةً﴾ ونعمةً عظيمةً من الله. لمن آمن به وعَمِل بأحكامه، وقد سَلّم جميع أهل الكتاب حقّانيته وصدقه ﴿وَهٰذَا﴾ القرآن الذي يُكذّبونه ﴿كِتَابٌ﴾ عظيمُ الشأن ﴿مُصَدِّقٌ﴾ لذلك الكتاب الذي جاء به موسى، ومطابقٌ له، ولما بين يديه من الكتب السماوية في العلوم والمعارف، وبيان أحوال المعاد والمواعظ والعِبر، والتزهيد عن الدنيا، والترغيب إلى الآخرة.

ولمّا كان قوم النبي ﷺ عُرباً جعل لسانه ﴿لِسَاناً عَرَبِيّاً﴾ لتفهم العرب ما فيه و ﴿لِيُنذِرَ﴾ ويُخوّف ذلك الكتاب بالوعد بالعذاب ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ على أنفسهم بالكفر والعصيان ﴿وَ﴾ ليكون ﴿بُشْرَىٰ﴾ بالثواب العظيم في الآخرة ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ في العقائد والأعمال المطيعين لله مخلصين.

وحاصل المراد ـ والله أعلم ـ أنّ الغرض من إنزال الكتاب إنذار العاصين، وبشارة المطيعين، فلا

---

١. تفسير الرازي ٢٨: ١١.

٢. الكشاف ٤: ٣٠٠، تفسير الرازي ٢٨: ١١.

٣ و ٤. الكشاف ٤: ٣٠٠، تفسير الرازي ٢٨: ١١.

٥. الكشاف ٤: ٣٠٠، تفسير الرازي ٢٨: ١١.

يمكن أن يكون مثل هذا الكتاب كذباً.

ثمَ بيَن سبحانه المحسنين المبشرين بالثواب بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا﴾ بألسنتهم وقلوبهم ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ وحده لا شريك له في الربوبية والعبادة ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا﴾ وثبتوا على شريعته ودينه من الأحكام، واجتهدوا في العمل بمقتضى عبوديته وتوحيده، فلم يروا منعماً ولا مُطاعاً غيره، ولا مستحقاً للشكر والطاعة سواه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بعد الموت من عذابٍ ومكروهٍ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من فوات محبوب ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموحَدون المستقيمون على وظائف العبودية إلى الموت ﴿أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ﴾ وأهاليها، حال كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ ومقيمين ﴿فِيهَا﴾ أبداً لا يخرجون منها ولا يموتون أصلاً، وإنّما يُعطَون ذلك ليكون ﴿جَزَاءً﴾ لهم ﴿بِمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَعْمَلُونَ﴾ من الإيمان والحسنات.

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً[١٥]

ثمَ بيَن سبحانه أنواع الحسنات بقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَانَ﴾ وأمرناه بأن يُحسِن ﴿بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً﴾ بليغاً.

ثمَ بيَن سبحانه علّة وجوب الإحسان إلى الأمّ مع كونها وِعاء وكون الأب هو الأصل والمنعم بقوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ﴾ في[١] بطنها ﴿كُرْهاً﴾ وعلى مشقّةٍ لثقله بعد أربعة أشهر إلى وضعه ﴿وَوَضَعَتْهُ﴾ من بطنها على الأرض ﴿كُرْهاً﴾ وعلى مشقّةٍ لشدة وَجَع المَخاض عليها ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ﴾ وفِطامه من المدَة ﴿ثَلاثُونَ شَهْراً﴾ تمضي عليها بمقاساة الشدائد لأجله.

وفيه دلالة على أنّ أقلّ الحمل ستة أشهر، بالنظر إلى الآية التي حدّ فيها الرَّضاع التامّ بحولين كاملين، فاذا أتت المرأة بالولد لستة أشهر من دخول الزوج بها، يُلْحق بالزوج ولا تُتّهم المرأة.

في ذكر خبط عمر في الحكم بالرجم

روى الفخر الرازي أنّ امرأةً رُفِعت إلى عمر، وكانت قد ولدت لستة أشهر، فأمر برجمها، فقال علي عليه السلام: «لا رجم عليها» واستدلّ بالآية على النحو الذي ذكرنا[٢].

وقال المفيد في (الارشاد): رووا أنّ عمر أُتي بأمرأةٍ ولدت لستة أشهر، فهمّ برجمها، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «إن خاصمتك بكتاب الله خصمتك، إنّ الله يقول: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً﴾ ويقول: ﴿وَٱلْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾[٣] فاذا أتمّت الرَّضاعة لسنتين، وكان حمله وفصاله ثلاثين شهراً، كان الحمل منها ستة أشهر، فخلّى عمر

---

١. في النسخة: على.
٢. تفسير الرازي ٢٨: ١٥.
٣. البقرة: ٢/٢٣٣.

سبيل المرأة، وثبت الحكم بذلك، يعمل به الصحابة والتابعون، ومن أخذ عنه إلى يومنا هذا[١].

أقول: والعجب أنّ مع ظهور هذا الخَبْط والغَلَط والحُكم بغير العلم في دين الله من عمر، وبيان الحكم الحقّ من أمير المؤمنين عليه السلام وشيوعه بين الصحابة والتابعين، وقع عين هذا الخبط والحكم بغير ما أنزل الله به من عثمان.

فان الفخر الرازي روى عن عثمان أنّه همّ بذلك، فقرأ ابن عباس عليه ذلك[٢].

حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِى إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِى أَصْحَابِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ[١٥ و ١٦]

ثمّ بيّن سبحانه حال الولد البارّ المُحسِن بوالديه بقوله: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ**﴾ قيل: إنّ الانسان أخذ ما وصّيناه به من البرّ والاحسان بوالديه حتى إذا بلغ وقت كمال قواه وعقله[٣] ﴿**وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً**﴾ وهو أكثر مدّة بلوغ الأشدّ، كما عن الصادق عليه السلام، قال: «إذا بلغ العبد ثلاث وثلاثين سنة فقد بلغ أشدّه، وإذا بلغ أربعين سنة فقد بلغ منتهاه» الخبر[٤].

وقيل: هو آخر سنّ الكُهولة[٥]، وقيل: بلوغ الاشدّ هو آخر سنّ النشوء والنماء، والأربعين آخر الشباب، ومن ذلك الوقت تأخُذ القوى الحيوانية في الانتقاص، والقوة العقلية في الاستكمال[٦].

فعند ذلك ﴿**قَالَ**﴾ تضرّعاً إلى الله ﴿**رَبِّ أَوْزِعْنِى**﴾ وألهمني، كما عن ابن عباس[٧]، أو وفّقني[٨] ﴿**أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَيَّ**﴾ من الوجود والعقل وكمال الأعضاء، والرزق والصحة والأمان وغيرها ممّا لا يُحصى ﴿**وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ**﴾ الذين نعمتها عليّ أعظم بعد نعمتك عليّ، فانّي لا أقدِر على مُكافأة نعمهما عليّ إلّا بالدعاء في حقّهما ﴿**وَأَنْ أَعْمَلَ**﴾ عملاً ﴿**صَالِحاً تَرْضَاهُ**﴾ وتقبله منّي، فانه لا يُمكنني ذلك إلّا بتوفيقك.

﴿**وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِى**﴾ بان تجعل الايمان والعمل الصالح سارياً وراسخاً فيهم، ولا تجعل

---

١. إرشاد المفيد ١: ٢٠٦، تفسير الصافي ٥: ١٤.
٢. تفسير الرازي ٢٨: ١٥.
٣. تفسير روح البيان ٨: ٤٧٤.
٤. الخصال: ٢٣/٥٤٥، تفسير الصافي ٥: ١٤.
٥. تفسير الرازي ٢٨: ١٧.
٦. تفسير الرازي ٢٨: ١٨.
٧. تفسير الرازي ٢٨: ٢٠.
٨. تفسير روح البيان ٨: ٤٧٤.

للشيطان فيهم نصيباً وسبيلاً، يا رب ﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ مما فرط منّي من الزلّات والمعاصي قبل أن أدعوك ﴿وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ الذين أخصلوا لك دينهم. ﴿أُولَـٰئِكَ﴾ المنعوتون بتلك النّعوت الجليلة ﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ من الطاعات التي كلّها أحسن الأعمال ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ﴾ وزلّاتهم بأنواعها، تابوا عنها أو لم يتوبوا، لكونها مكفورة بأعمالهم الحسنة، بل مُبدَلة بالحسنات حال كونهم ﴿فِى﴾ زُمرة ﴿أَصْحَابِ ٱلْجَنَّةِ﴾ ومنتظمين في سِلكهم في الآخرة، كلّ ذلك يكون ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾ من الله لهم ﴿ٱلَّذِى كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يُوعَدُونَ﴾ به على ألسنة الرسل.

في نقل كلام مفسري العامة في نزول الآية وردّه

حكى الفخر الرازي عن الواحدي أنّه حكى عن كثير من مُفسّري العامة أنّ هذه الآية نزلت في أبي بكر[١]، ثمّ قال قالوا: والدليل عليه أنّ الله تعالى قد وقّت الحمل والفصال ها هنا بمقدار يعلم أنّه قد ينقّص وقد يزيد عنه بحسب اختلاف الناس في هذه الأحوال، فوجب أن يكون المقصود شخصاً واحداً حتى يقال: إنّ هذا التقدير إخبار عن حاله، فيمكن أن يكون أبو بكر كان حمله وفِصاله هذا المقدار.

أقول: فيما ذكر ما لا يخفى من الوهن، فانّ ذكر الوقتين لبيان اقلّ الحمل وأكثر مدّة الرّضاع، ولا يختلف الناس فيهما وفي تعيينهما حكم وأحكام كثيرة مذكورة في محلّه، ثمّ على تقدير كون المراد شخصاً خاصاً، وإمكان كون حمل أبي بكر وفصاله هذا المقدار من المدّة، لا بوجوب كون المراد منه ذلك الرجل، لوجود هذا الاحتمال في كثيرٍ من الصحابة الخُلّصين.

ثمّ قالوا: ثمّ قال الله تعالى في صفة ذلك الانسان: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ إلى آخره، ومعلوم أنّه ليس كلّ إنسان يقول ذلك القول، فوجب أن يكون المراد إنساناً معيناً. قال هذا القول، وأمّا أبو بكر فقد قال هذا القول في قريبٍ من هذا السنّ، لأنّه كان أقلّ سناً من النبي ﷺ بسنتين وشيء، والنبي ﷺ بُعث عند الأربعين، وكان أبو بكر قريباً من الأربعين، وهو قد صدّق النبي ﷺ وآمن به، فثبت بما ذكرناه أنّ هذه الآية صالحة لأن يكون المراد منها أبا بكر.

أقول: فيه أنّه قد ذكرنا أنّ المراد بيان حال الانسان الذي أخذ بوصية الله في حقّ الوالدين في تمام عمره بالبرّ والإحسان، ورأى النِّعم التي على والديه نعماً على نفسه، وناب عنهما في الشكر عند اكمال أربعين سنة وكمال قوّة عقله، وليس المراد بيان حال شخصٍ معينٍ، كما أنّ الآية التي فيها بيان حال الولد العاقّ لوالديه ليس المراد منها شخصاً معيناً، مع أنّ أبا بكر لم يكن له وقت إيمانه أربعين سنة باعترافهم، كما أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً لم يكن له ذلك السنّ وقت إيمانه، والقُرب والبُعد لا

---

١. تفسير الرازي ١٨: ٢١، أسباب النزول: ٢١٣.

يوجب الصلاحية للقريب وعدمها للبعيد، بعد أن لم يكونا بالغين ذلك الحدّ من السنّ، مع أن الظاهر نيابة الولد الشكر عن الوالدين غير الكافرين، وأبو بكر كان أبواه كافرين، ولا ينفع شُكر الولد في حقّها، وعلي عليه السلام كان أبواه مؤمنين في اعتقادنا.

ثمّ قالوا: وإذا ثبت القول بهذه الصلاحية، فنقول: ندّعي أنه هو المراد من هذه الآية، ويدلّ عليه أنه تعالى قال في آخر هذه الآية: ﴿**أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ ٱلْجَنَّةِ**﴾ وهذا يدُلّ على أنّ المراد من هذه الآية أفضل الخلق، لأنّ الذي يتقبّل الله عنه أحسن أعماله، ويتجاوز عن سيئاته، يجب أن يكون أفضل الخلق، وأجمعت الأمّة على أنّ أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله إمّا أبو بكر وإمّا عليّ، ولا يجوز أن يكون المراد من هذه الآية علي بن أبي طالب، لأنّ هذه الآية إنما تليق بمن أتى بهذه الكلمة عند بلوغ الأشد، وعند القُرب من أربعين سنة، وعلي بن أبي طالب ما كان كذلك، انتهى.

أقول: هذا الاستدلال ممّا يُضْحِك به الثكلى، لوضوح أنّ من تقبّل الله أحسن أعماله، ويجاوز عن سيئاته، لا يجب أن يكون أفضل الخلق، فانّ كلّ من يدخُل الجنة يكون كذلك، لأنّه لا يمكن أن لا يتقبّل الله أحسن الأعمال، ولا يمكن أن يدخُل الجنة من له ذنبٌ غير مغفورٍ، ثمّ لا شُبهة أنّ علياً عليه السلام كان أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ولا ينكره إلّا من كان له عِناد وعصبية، ولا في أنّ الآية إنّما تليق بمن أتى بهذه الكلمة بعد بلوغ أربعين سنة، لا عند القرب منه.

وإنّما الغرض من نقل كلامهم بطوله الذي لا ينبغي التفوّه به من عاقل، فضلاً من عالم وفاضل، وضوح أنّ القول بنزول الآية في حقّ أبي بكر لا مستند له إلّا الاجتهاد الفاسد، المبني على حبّ ترويج الباطل، وإطفاء نور الحقّ، والله متمّ نوره ولو كَرِه المشركون.

ذكر فضيلة الحسين عليه السلام

وعن الصادق عليه السلام قال: «لمّا حملت فاطمة عليها السلام بالحسين عليه السلام، جاء جَبْرئيل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: إنّ فاطمة ستلد غلاماً تقتُله اُمّتك من بعدك، فلمّا حملت فاطمة بالحسين عليها السلام كَرِهت حمله، وحين وضعته كَرِهت وضعه، ثمّ قال: «لم تُر اُمّ تلد غلاماً تكرهه، ولكنّها كَرِهته لمّا عَلِمت أنه سيُقْتَل» قال: «وفيه نزلت هذه الآية»[1].

أقول: لعلّ المراد أنّه لم يكن لهذا الكلي الذي تضمّنته الآية مصداقٌ تامّ المطابقة إلّا الحسين عليه السلام وفاطمة عليها السلام.

وفي رواية اُخرى، قال: «ثمّ هبط جَبْرَئيل فقال: يا محمد، إنّ ربّك يقرئك السلام، ويُبشّرك بأنه

---

١. الكافي ١: ٣/٣٨٦، تفسير الصافي ٥: ١٤.

جاعلٌ في ذرّيته الإمامة والولاية والوصية، فقال: إنّي رضيت، ثمّ بشّر فاطمة بذلك فرضيت»[١].

أقول: يحتمل الجمع بأنّ بشارة الرسول ﷺ ورضا فاطمة عليها السلام كانا بعد وضعه عليه السلام.

ثمّ قال الصادق عليه السلام: «فلولا أنّه قال: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِى﴾ لكانت ذرّيته كلّهم أئمة» قال: «ولم يرتضع الحسين من فاطمة عليها السلام ولا من انثى، كان يُؤتى به النبيّ ﷺ فيضع إبهامه في فيه، فيمُصّ منها ما يكفيه اليومين والثلاث، فنبت لحم الحسين عليه السلام من لحم رسول الله ﷺ ودمه»[٢].

أقول: قال السيد الأجل بحر العلوم:

لله مــرتضع لم يــرتضع أبــداً   من ثدي اُنثى ومن طه مراضعه[٣]

وقال الصادق عليه السلام: ولم يُولَد لستة أشهر إلّا عيسى بن مريم، والحسين عليه السلام»[٤].

وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ [١٧ و ١٨]

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان برّ الولد الصالح بوالديه، وأخذه بوصية الله في حقّهما، بيّن سبحانه حال الإنسان العاقّ لوالديه، الكافر بربّه وبالدار الآخرة بقوله: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ﴾ عند دعوتهما له إلى الايمان بالله وبالدار الآخرة شفقةً عليه وإحساناً إليه، تضجّراً من قولهما وكراهةً له، يا والدي ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ والنكبة الدائمة عليكما ﴿أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ﴾ حياً من القبر بعد الموت وصيرورتي تراباً وعظاماً رَميماً، وأُبعث حياً ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ﴾ ومضت أهالي الأعصار السابقة من الدنيا ﴿مِن قَبْلِى﴾ ولم يُبْعَث منهم أحد، ولم تحيا منهم نفس ﴿وَهُمَا﴾ حرصاً على إيمان ولدهما ﴿يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ ويدعوانه أن يغيثه ويوفقه للايمان، ويقولان لذلك الولد: ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾ بالبعث والحساب، وصدّق بالاخراج من القبر للجزاء ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث والنشور للحساب وجزاء الأعمال ﴿حَقٌّ﴾ وصدق، لا يمكن الخُلف فيه، لتنزّهه تعالى عنه ﴿فَيَقُولُ﴾ الولد تكذيباً لوالديه: ﴿مَا هَٰذَآ﴾ الوعد الذي تنسُبانه إلى الله ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وأكاذيب الأمم السابقين التي كانوا يُسطّرونها في دفاترهم، كأحاديث رُستم وإسفنديار.

---

١. الكافي ١: ٣٨٦/٤، تفسير الصافي ٥: ١٤.
٢. الكافي ١: ٣٨٦/٤، تفسير الصافي ٥: ١٤.
٣. أدب الطف ٦: ٥٠.
٤. الكافي ١: ٣٨٦/٤، تفسير الصافي ٥: ١٤.

قيل: نزلت في عبدالرحمن بن أبي بكر، كان أبواه يدعوانه إلى الاسلام فيأبى[١].

رُوي أنّه لمّا دعاه أبواه إلى الاسلام، وأخبراه بالبعث بعد الموت، قال: أتعدانني أن أخرَج من القبر، وقد خَلَت القرون من قبلي، فلم أرَ أحداً منهم بُعِث؟ فأين عبدالله بن جُدْعان، وأين فلان، وأين فلان؟[٢]

ورُوي أنه لمّا كتب معاوية إلى مَروان بأن يُبايع الناس ليزيد، قال عبدالرحمن: لقد جئتم بها هرقلية، أتبايعون لأبنائكم؟ فقال مَروان: أيّها الناس، هو الذي قال الله فيه: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا﴾ وبه قال الكلبي من العامة، والقمي ﷺ[٣].

وقيل: إنّه لم يُرِد به شخصاً معيناً[٤].

ثمّ قال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ العاقون الكافرون بالله، المنكرون للحشر، هم ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ﴾ وثبت ﴿عَلَيْهِمُ﴾ في علم الله ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ والوعد بالعذاب الأبد بقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[٥] وهم ﴿فِىٓ﴾ زُمرة ﴿أُمَمٍ﴾ مُستحقّة للعذاب ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ من الدنيا ﴿إِنَّهُمْ﴾ السابقين واللاحقين جميعاً ﴿كَانُوا خَٰسِرِينَ﴾ في سوق الدنيا، لإتلافهم ما هو بمنزلة رأس مال تجارتهم من الفِطرة الأصلية، والعقل السليم، والعمر والنِّعم التي تَفضّل الله عليهم بها.

وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ [١٩ و ٢٠]

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان فريقين من الأولاد البارّين بالوالدين والعاقّين لهما، بيّن أن لكلّ فريقٍ مراتب ودرجات مختلفة بقوله: ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من الفريقين المذكورين ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ مختلفة في الايمان والكفر والطاعة والعصيان، أو في الثواب ودَرَكات متفاوتة في العقاب مسبّبة ﴿مِّمَّا عَمِلُوا﴾ في الدنيا من الخير والشرّ ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ﴾ ربّهم ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ ويُعطيهم أجرة طاعاتهم ومعاصيهم وافيةً تامةً ﴿وَهُمْ لَا

---

١. تفسير الرازي ٢٨: ٢٣.
٢. تفسير الرازي ٢٨: ٢٣.
٣. تفسير الرازي ٢٨: ٢٣، تفسير القمي ٢: ٢٩٧، تفسير الصافي ٥: ١٥.
٤. تفسير الرازي ٢٨: ٢٣.
٥. السجدة: ١٣/٣٢.

﴿يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب المطيعين، وزيادة عقاب العاصين.

قيل: إنّ (ليوفيهم) علّة لمقدّر، يدلّ الكلام عليه، والمعنى: قدّر جزاء أعمالهم، وجعل الثواب درجات، والعقاب دركات، ليوفيهم ولا يَظْلِمهم[١].

ثمّ لمّا بيّن سبحانه أنّه يُوصِل حقّ كلّ أحدٍ إليه، بيّن أحوال أهل العقاب بقوله تعالى: **﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى ٱلنَّارِ﴾** ويقرّبون منها، ويُوقَفون عليها، ليروا أهوالها. أو المراد يُصْلَون فيها، فيقول لهم: ايّها الكفّار **﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾** وأصبتم حُظوظكم ولذائذكم التي قُدّرت لكم **﴿فِي حَيَاتِكُمُ﴾** في **﴿ٱلدُّنْيَا﴾** وعَمَركم فيها **﴿وَٱسْتَمْتَعْتُم﴾** بنعم الله، وانتفعتم **﴿بِهَا﴾** فلم يبق لكم في الآخرة منها شيء **﴿فَالْيَوْمَ﴾** وفي هذا الوقت **﴿تجْزَوْنَ﴾** من الله **﴿عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾** وجزاء بالنار فيه ذلّ وحقارة **﴿بِمَا كُنتُمْ﴾** في الدنيا **﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾** على الناس **﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾** وتتأنّفون عن الايمان وطاعة الرسول ﷺ **﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾** وبلا مُقتضى للاستكبار والتأنّف **﴿وَبِمَا كُنتُمْ﴾** فيها **﴿تَفْسُقُونَ﴾** وتعصون بترك الواجبات وإتيان المُحرّمات.

روي عن النبي ﷺ أنّه دخل على أصحاب الصُّفّة، وهم يرقعون ثيابهم بالأدم، ما يجدون لها رِقاعاً، فقال: «أنتم اليوم خيرٌ أم يوم يغدو أحدكم في حُلّةٍ ويروح في اُخرى، ويُغدىٰ عليه بجفنة ويُراح عنه بأخرى، ويُستّر بيته كما تُستَر الكعبة؟». قالوا: نحن يومئذٍ خيرٌ. قال: «بل [أنتم] اليوم [خير]»[٢]

روي عن عُمر أنّه دخل على رسول الله ﷺ وهو على سريرٍ، وقد أثر بجنبيه الشريط، فبكى عمر، فقال ﷺ: «ما يُبكيك يا عمر؟» قال: ذكرت كسرى وقيصر، وما كانا فيه من الدنيا، وأنت رسول ربّ العالمين، قد أثّر بجنبيك الشريط! فقال ﷺ: «اُولئك قومٌ قد عُجّلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، ونحن قومٌ قد اُخّرت طيباتنا في الآخرة».

قالت عائشة: ما شَبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قُبض رسول الله، وأول بِدعةٍ حدثت بعده الشِّبَع.

وقالت أيضاً: وقد كان يأتي علينا الشهر ما نُوقِد فيه ناراً، وما هو إلّا الماء والتمر، غير أنّه جزى الله عنّا نساء الأنصار، كُنّ ربما أهدين لنا شيئاً من اللّبن[٣].

عن أبي هُريرة قال: رأيت سبعين من أصحاب الصّفّة ما منهم رجلٌ عليه رِداء، إما إزار أو كساء، قد

---

١. تفسير الرازي ٢٨: ٢٥.
٢. تفسير الرازي ٢٨: ٢٥.
٣. تفسير روح البيان ٨: ٤٨٠.

ربطوه في أعناقهم، فمنها ما يَبْلُغ نصف الساقين، ومنها ما يبلُغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن تُرى عورته[١].

عن الصادق عليه السلام، عن آبائه، قال: «أُتي النبي صلى الله عليه وآله بخَبيصٍ[٢]، فأبى أن يَأكُله، فقيل: أتُحرِّمه؟ قال: لا، ولكني أكره ما تتوق إليه نفسي، ثمّ تلا هذه الآية ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾»[٣].

وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللهَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللهِ وَأُبَلِّغُكُم مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلٰكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ * فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هٰذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ[٢١ـ٢٥]

ثمّ إنّه تعالى بعد إثبات التوحيد، وتوعيد الكفّار المنهمكين في الشهوات، ذكر قصّة قوم عاد، الذين كانوا أقوى وأكثر نعمة من أهل مكّة، ليعتبروا بهم بقوله: ﴿**وَٱذْكُرْ**﴾ يا محمد، لقومك هود الذي كان ﴿**أَخَا عَادٍ**﴾ ومن قومه، ليعتبروا من حال قومه ﴿**إِذْ أَنذَرَ**﴾ وخوّف ﴿**قَوْمَهُ**﴾ الذين كانوا يَسْكُنون ﴿**بِالْأَحْقَافِ**﴾ وهو أرضٌ قريبةٌ من حَضْرَمَوت من بلاد اليمن، على ما قيل[٤]، وكانوا من قبيلة إرَم. وقيل: إنّ بلاد عاد كانت في اليمن، ولهم كانت إرم ذات العِماد، والأحقاف جبلٌ مستطيلٌ مُعوَجَ من الرَّمل[٥].

أقول: هذا منافٍ لقول علي عليه السلام: «شرّ وادٍ بين الناس وادي الأحقاف» إلّا أن يقال: إنّ الوادي سمّي باسم الجبل الذي فيه، قال: «وواد بحَضْرَمَوت يُدعى بَرَهُوت تُلقى فيه أرواح الكفّار»[٦].

﴿**وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ**﴾ ومضت الرُّسُل من الدنيا من قبل هود و﴿**مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ**﴾ وبعده، وكان إنذاره ﴿**ان**﴾ يا قوم ﴿**لا تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللهَ**﴾ ولا تُشركوا به شيئاً ﴿**إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ**﴾ يا قوم إن أشركتم به ﴿**عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ أهواله، وشديد بلاؤه ﴿**قَالُوا**﴾ في جواب هود: يا هود ﴿**أَجِئْتَنَا**

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٤٨٠.
٢. الخَبيص: الحلواء المخلوطة من التمر والسَّمن.
٣. المحاسن: ١٣٣/٤٠٩، تفسير الصافي ٥: ١٥.
٤. تفسير روح البيان ٨: ٤٨٠.
٥. تفسير روح البيان ٨: ٤٨١.
٦. تفسير روح البيان ٨: ٤٨١.

﴿لِتَأْفِكَنَا﴾ وتَصْرِفنا ﴿عَنْ﴾ عبادة ﴿آلِهَتِنَا﴾ إلى عبادة إلهك، وهذا لا يكون أبداً ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب العظيم على عبادة أصنامنا ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾ في وعدك به ﴿قَالَ﴾ هود: لاشكّ في وقوعه، و﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ بوقت نزوله ﴿عِندَ ٱللهِ﴾ ومختصّ به، وهو يأتيكم به في الوقت الذي يعلمه، ويرى فيه صلاح إتيانه به، وليس في قدرتي شيء، وإنّما أنا رسول من الله إليكم ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ من واجب الرسالة التي من جُملتها تحذيركم بنزول العذاب عليكم، إن لم تنتهوا عن الشرك ﴿وَلٰكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾ خيركم وصلاحكم، ولا تعلمون وظيفة الرسول، إنّها التبليغ لا إتيان العذاب.

في حكاية نزول العذاب على قوم عاد

ثمّ قيل: إنّ الله تعالى حبس عنهم المطر أياماً، ثمّ ساق إليهم سَحابة سوداء، فخرجت عليهم من وادٍ يقال له المغيث[1] ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ حال كونه ﴿عَارِضاً﴾ يعرض في السماء ﴿مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ ومتوجّهاً إلى أراضيهم ﴿قَالُوا﴾ مستبشرين ومسرورين بعروضه واستقباله: يا قوم ﴿هٰذَا﴾ السَّحاب ﴿عَارِضٌ﴾ وظاهرٌ في السماء وهو ﴿مُمْطِرُنَا﴾ ومُنزِل الغيث علينا. قال هود: ليس الأمر كما توهّمتم ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ من العذاب، وهو ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فاذا جاءتهم ريحٌ عقيمٌ كانت ﴿تُدَمِّرُ﴾ وتُهلِك ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من نفوسهم وأموالهم ومواشيهم ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ وإرادته، كالجُند الذي لا يسير ولا يقف إلّا بأمر الرئيس والأمير ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ وصاروا من ذلك العذاب هالكين بحيث ﴿لَا يُرَىٰ﴾ من آثارهم ﴿إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ الخالية منهم ﴿كَذٰلِكَ﴾ الجزاء الفظيع، وبمثل ذلك العذاب المستأصل ﴿نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ والطاغين على ربّهم.

قيل: جاءت ريحٌ باردةٌ من قِبل المغرب، وأوّل ما عرفوا أنّه عذاب، أن راوا ما كان في الصحراء من رِحالهم ومواشيهم تطير بها الريح بين السماء والأرض، وترفع الظعينة في الجوّ حتى تُرى كأنّها جَرادة، فتَدْمَغها بالحجارة، فدخلوا بيوتهم، وأغلقوا أبوابهم، فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم، فأمال الله الأحقاف عليهم، فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام، لهم أنينٌ، ثمّ كشفت الريح عنهم الأحقاف، فاحتملتهم فطرحتهم في البحر[2].

وقيل أول من أبصر العذاب امرأةٌ منهم، قالت: رأيت ريحاً فيها كشُهُب النار[3].

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٤٨٢.

٢. تفسير الرازي ٢٨: ٢٨، تفسير أبي السعود ٨: ٨٦، تفسير روح البيان ٨: ٤٨٣.

٣. تفسير الرازي ٢٨: ٢٨، تفسير أبي السعود ٨: ٨٦.

ورُوِي أنّ هوداً لمّا أحسّ بالريح، خطّ على نفسه وعلى المؤمنين خطّاً إلى جنب عينٍ تنبُع، فكانت الريح التي تُصيبهم ريحاً لينةً هاويةً طيبةً، والريح التي تُصيب القوم ترفعهم من الأرض، وتطير بهم إلى السماء، وتضربهم على الأرض[1].

وعن النبي ﷺ أنه قال: «ما أمر الله خازن الرياح أن يُرسل إلى عاد إلّا مثل مقدار الخاتم» ثمّ انّ ذلك المقدار أهلكهم بكُلّيتهم[2].

وعنه ﷺ أنّه كان إذا رأى الريح فَزِع، وقال: «اللهم إنّي أسألك خيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرّها وشرّ ما أرسلت به»[3].

وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِن مَكَّناكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللهِ قُرْبَاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ[٢٦ـ٢٨]

ثمّ بيّن سبحانه فضل قوم عاد على كفّار أهل مكّة بكمال القوة وكثرة النعم والأموال بقوله: **﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ﴾** واقدرناهم وملّكناهم **﴿فِيما إِن مَكَّناكُمْ فِيهِ﴾** من السّعة والبَسْطة والقوّة وسائر التصرفات، وإنّما لم يقل: فيما ما مكّناكم فيه، لركاكة التّكرار. وقيل: إنّ كلمة (إن) زائدة[4]. وقيل: شرطية، وجزاء الشرط كان بغيكم أكثر[5].

أقول: لا يفيد القولان ما هو المقصود من بيان كونهم أقوى وأقدر منكم، ومع ذلك لم ينجوا من العذاب، فكيف بكم؟

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً﴾ ليستعملوها في سَماع دلائل التوحيد والمواعظ والعِبر **﴿وَأَبْصاراً﴾** ليستعملوها في النّظر إلى بدائع صُنع الله، وما فيه دلائل توحيده وكمال صفاته ومعجزات الرسول **﴿وَأَفْئِدَةً﴾** يتفكّرون بها في عجائب الخلق وعواقب الأمور **﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾** ولم يُفِدهم **﴿سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم﴾** في كمال نفوسهم وحصول سعادتهم وارتقائهم عن حضيض الحيوانية

---

١. تفسير الرازي ٢٨: ٢٨.
٢. تفسير الرازي ٢٨: ٢٨.
٣. تفسير الرازي ٢٨: ٢٨.
٤. تفسير الرازي ٢٨: ٢٩، تفسير روح البيان ٨: ٤٨٤.
٥. تفسير روح البيان ٨: ٤٨٤.

﴿مِن شَيْءٍ﴾ من الإغناء والفائدة، حيث إنّهم لم يستعملوا شيئاً منها فيما خُلِقت له، ولم يؤدّوا شكرها.

﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ﴾ ويتعصّبون في إنكار دلائل التوحيد والمعاد ورسالة الرسول ﴿وَحَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من العذاب، حيث كانوا يستعجلونه سُخرية وأستهزاءً.

﴿وَ﴾ تالله ﴿لَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾ يا أهل مكة بأنواعٍ مختلفةٍ من العذاب ﴿مَا حَوْلَكُم﴾ وفي أطرافكم ﴿مِنَ﴾ أهالي ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ والبلدان الكثيرة كقُرى عاد وثمود وقوم لوط باليمن والشام، بسبب شِركهم وطُغيانهم ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلآيَاتِ﴾ وكرّرنا عليهم الحُجج وأنواع العِبر، لكي يعتبر بها اُولئك الأهالي ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عمّا هم عليه من الشّرك والطُّغيان، ويتوبوا من معاصيهم، ومع ذلك لم يرجع أحدٌ منهم ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ﴾ وهلّا خلّصهم من العذاب الأصنام ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللهِ﴾ وممّا سواه، لكونهم بزعمهم ﴿قُرْبَاناً﴾ ووسائل للزُّلفى إلى الله ﴿آلِهَةً﴾ ومعبودين.

وقيل: إنّ المعنى اتّخذوهم آلهةً حال كونهم متقرّبين بعبادتهم إلى الله، حيث كانوا يقولون: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾[1].

وقيل: إنّ المفعول الثاني لاتخذوا هو (قرباناً) و(آلهة) عطف بيان له[2]. وعلى كلّ تقدير فيه غاية التقريع.

ثمّ بالغ سبحانه في تقريعهم بقوله: ﴿بَلْ ضَلُّوا﴾ وغابوا، أو ضاعوا﴿عَنْهُمْ﴾ فحُرِموا عن نُصرتهم وشفاعتهم، لعجزهم عن ذلك ﴿وَذٰلِكَ﴾ المذكور من اتخاذهم الأصنام قرباناً آلهةً ﴿إِفْكُهُمْ﴾ وقولهم الباطل الذي صرفهم عن الحقّ ﴿وَمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَفْتَرُونَ﴾ على الله من أنّ الله جعل الأصنام شُفعاءهم ورضى بعبادتها.

قيل: يعني: وذلك الضياع أثر إفكهم وأثر ما يَفْتَرُون[3].

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُنذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٤٨٥.
٢. تفسير الرازي ٢٨: ٣٠، تفسير البيضاوي ٢: ٣٩٧.
٣. تفسير أبي السعود ٨: ٨٨.

﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ ٱللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٢٩ ـ ٣١]

ثمّ إنّه تعالى بعد تهديد أهل مكة على الكفر ومخالفة الحقّ، رغّبهم في الايمان بالقرآن بذكر إيمان الجنّ به بقوله: **﴿وَإِذْ صَرَفْنَا﴾** ووجّهنا **﴿إِلَيْكَ﴾** يا محمد **﴿نَفَراً﴾** وجماعةً **﴿مِنَ ٱلْجِنِّ﴾** وألقينا في قلوبهم الميل والرغبة إلى الحضور عندك **﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرآنَ﴾** حين تلاوتك إيّاه **﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾** عند تلاوته **﴿قَالُوا﴾** أولئك النّفر بعضهم لبعضٍ **﴿أَنصِتُوا﴾** واسكتُوا لسَماعه **﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾** القرآن وفرغتَ من تلاوته، آمنوا به وأجابوا إلى ما سَمِعوه، و**﴿وَلَّوْا﴾** عنك ورجعوا **﴿إِلَىٰ قَوْمِهِم﴾** حال كونهم **﴿مُنذِرِينَ﴾** لهم وداعين إيّاهم إلى الإيمان به.

في إيمان الجن بالقرآن، ودعوة قومهم إليه

روى بعض العامة: أنّ الجن كانت تَسْتَرِق السمع، فلمّا حُرِست السماء ورُجِموا بالشُّهب قالوا: ما هذا إلّا لنبأٍ حدث، فنهض سبعة نفر من أشراف جنّ نصيبين ورؤسائهم[١]، وقيل: كانوا من ملوك جنّ نِينوى بالمَوْصِل[٢].

وعن ابن عباس: أنّهم كانوا تسعة، وأسماؤهم سليط، وشاصر، وباصر[٣]، وحاصر، وحسا، ومسا، وعليم، وأرقم، وأدرس، فضربوا في الأرض حتى بلغوا تِهامة، ثمّ اندفعوا إلى وادي نحلة بين مكة والطائف، فوافوا رسول الله ﷺ وهو قائم في جوف الليل[٤] ـ وفي رواية: يصلّي صلاة الفجر ـ فاستمعوا لقراءته وهو يقرأ طه[٥]، فجاءوا إلى قومهم، و**﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ﴾** كتاب **﴿مُوسَىٰ﴾** من السماء، يكون **﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾** وموافقاً لما قبله من الكتب الإلهية السماوية في التوحيد والمعارف والنبوة والمعاد، والتزهيد في الدنيا والترغيب إلى الآخرة، وتهذيب الأخلاق وغيرها من المطالب العالية، وهو **﴿يَهْدِي إِلَى ٱلْحَقِّ﴾** من العقائد **﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾** مُوصِل إلى قُرب الله والجنّة من الشرائع والأعمال الصالحة.

قيل: إنّما قالوا: **﴿مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾** لأنّهم كانوا يهوداً[٦]. وعن ابن عباس: أنّهم لم يسمعوا بأمر عيسى[٧]. وقيل: لأنّ شريعة عيسى مُقرّرة لشريعة موسى لا ناسخة[٨]. ويُحْتَمل أنّه من جهة عظمة التوراة من بين الكتب السماوية.

ثمّ قالوا: **﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ ٱللهِ﴾** وكتابه أو رسوله الذي يدعوكم إلى كلّ خيرٍ وسعادة **﴿وَآمِنُوا**

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٨: ٤٨٧.
٣. في تفسير روح البيان: وماصر.
٤. تفسير روح البيان ٨: ٤٨٧.
٥. تفسير روح البيان ٨: ٤٨٧.
٦ و٧. تفسير روح البيان ٨: ٤٨٩.
٨. تفسير روح البيان ٨: ٤٨٩.

بِهِ يَغْفِرْ﴾ الله ﴿لَكُم﴾ بعضاً ﴿مِن ذُنُوبِكُمْ﴾ وهو ما كان من حقوق الله على ما قيل[1] ﴿وَيُجِرْكُم﴾ ويُعِذْبكم ﴿مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مُعدٍّ للكفار.

وَمَن لَا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ[٣٢]

ثمّ بعد ذكر المرغبَات إلى الايمان تبيّنوا مضارّ تركه بقوله: ﴿وَمَن لَا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ ولا يؤمن برسوله أو كتابه ﴿فَلَيْسَ﴾ بقادرٍ على دفع عذاب الله، ولا ﴿بِمُعْجِزٍ﴾ه تعالى عن تعذيبه ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالهرب من أقطارها، أو الدخول في أعماقها ﴿وَلَيْسَ لَهُ﴾ ممّا سوى الله ﴿مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ وأنصارٌ يدفعون عنه العذاب بالمعارضة والشفاعة ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين لا يجيبون داعي الله، ولا يؤمنون به، متمكّنون، أو ثابتون ﴿فِى ضَلَالٍ﴾ وانحرافٍ ﴿مُبِينٍ﴾ عن الحقّ والطريق المستقيم بحيث لا يخفى على عاقل.

رُوي أنّه سُئل ابن عباس: هل للجنّ ثواب؟ قال: نعم، لهم ثواب، وعليهم عقاب، يلتقون في الجنّة، ويزدحمون على أبوابها[2].

في بيان تشرف الجن بحضور الرسول وايمانهم به

روي أنّ النفر من الجنّ لمّا انصرفوا من بطن نخلة، جاءوا إلى قومهم منذرين، ثمّ جاءوا مع قومهم وافدين إلى رسول الله ﷺ وهو بمكّة، وهم ثلاثمائة، أو اثنا عشر ألفاً، فانتهوا إلى الحَجُون ـ وهو موضع فيه مقابر مكة ـ فجاء واحدٌ من أُولئك النفر إلى رسول الله ﷺ فقال: إنّ قومنا قد حضروا بالحَجُون يلقونك، فوعده ﷺ ساعةً من الليل، ثمّ قال لأصحابه: «إنّي أُمرتُ أن أقرأ على الجنّ الليلة وأُنذرهم، فمن يتبعني؟» قالها ثلاثاً، فأطرقوا إلّا عبدالله بن مسعود، فقام معه قال: فانطلقنا حتى إذا كنّا بأعلى مكّة في شِعب الحَجُون، خطّ لي ﷺ خطّاً برجله، وقال لي: «لا تخرُج منه حتى أعود إليك، فانّك إن خرجت لن تراني إلى يوم القيامة[3]. ـ وفي رواية: لم آمن عليك أن يَخْطَفك بعضهم» ـ ثمّ جلس وقرأ عليهم: ﴿اقرأ باسم ربك﴾ أو سورة الرحمن، وسمعت لَغَطاً شديداً، وغشيته ﷺ، ثمّ انقطعوا كقطع السحاب، فقال لي: «هل رأيت شيئاً؟» قلت: نعم، رجالاً سُوداً كأنّهم رجال الزُّطّ. فقال ﷺ: «أُولئك جنّ نَصِيبين» قلت: سَمِعتُ لَغَطاً شديداً حتى خفتُ عليك، إلى أن سَمِعتك تَقْرَعهم بعصاك، وتقول: اجلسوا؟ فقال ﷺ: «إنّ

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٤٨٩.
٢. تفسير الرازي ٢٨: ٣١.
٣. تفسير روح البيان ٨: ٤٨٨.

الجنّ تَدَاعت في قتيلٍ قُتِل بينهم، فتحاكموا إليّ، فحكمت بينهم بالحقّ»[١].

أقول: اللَّغَط: اختلاط أصوات الكلام حتى لا يُفهم، والزُّطّ: طائفةٌ من السودان.

القمي ﷺ، قال بعد ذكر الآيات: فهذا كلّه حكاية الجنّ، وكان سبب نزول هذه الآية أنّ رسول الله ﷺ خرج من مكّة إلى سوق عُكاظ، ومعه زيد بن حارثة، يدعو الناس إلى الاسلام، فلم يُجِبْه أحدٌ، ولم يجد أحداً يقبله، ثمّ رجع إلى مكّة، فلمّا بلغ موضعاً يقال له: وادي مجنّة تهجّد بالقرآن في جوف الليل، فمرّ به نفرٌ من الجنّ، فلمّا سَمِعوا قراءته قال بعضهم لبعض: **﴿أَنصِتُوا﴾** يعني اسكُتوا **﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾** أي فرغ رسول الله ﷺ من القراءة **﴿وَلَّوْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُنذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا﴾** إلى قوله: **﴿فِي ضَلال مبين﴾** فجاءوا إلى رسول الله ﷺ فأسلموا وآمنوا، وعلّمهم رسول الله ﷺ شرائع الإسلام، فأنزل الله على نبيّه ﷺ **﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾**[٢] السورة كلّها، فحكى الله عزّ وجلّ قولهم، وولّى عليهم رسول الله ﷺ منهم، وكانوا يعودون إلى رسول الله في كلّ وقتٍ، فأمر رسول الله أمير المؤمنين عليه السلام أن يُعلّمهم ويُفقّهم، فمنهم مؤمنون وكافرون وناصبون ويهود ونصارى ومجوس، وهم ولد الجانّ، انتهى.

وسُئل العالم عليه السلام عن مُؤمني الجنّ أيدخلون الجنّة؟ فقال: «لا، ولكن لله حظائر بين الجنّة والنار، يكون فيها مؤمنو الجنّ وفُسّاق الشيعة»[٣] أقول: وبه قال بعض العامّة[٤].

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِن نَهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَاسِقُونَ[٣٣ ـ ٣٥]

ثمّ إنّه تعالى بعد إثبات التوحيد والنبوة، واستدلّ على المعاد بقوله: **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾** قيل: إنّ التقدير والمعنى: أو لم يتفكروا ولم يعلموا علماً جازماً يكون بمنزلة الرؤية[٥] **﴿أَنَّ ٱللهَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾** بقدرته

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٤٨٨.
٢. الجن: ١/٧٢.
٣. تفسير القمي ٢: ٢٩٩، تفسير الصافي ٢: ١٨.
٤. تفسير روح البيان ٨: ٤٩١.
٥. تفسير أبي السعود ٨: ٨٩، تفسير روح البيان ٨: ٤٩٢.

الكاملة ﴿ٱلسَّماوَاتِ﴾ السبع ﴿وَٱلأَرْضَ﴾ وأبدعهما من غير مثالٍ سابقٍ ﴿وَلَمْ يَعْيَ﴾ ولم يتعب ﴿بِخَلْقِهِنَّ﴾ مع غاية عظمهنّ ﴿بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ويخلقهم على المثال الأول مع صِغرهم ﴿بَلَىٰ﴾ قادرٌ على ذلك ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء ﴿قَدِيرٌ﴾ لا تختصّ قدرته بشيءٍ دون شيء.

ثمّ هدّد سبحانه منكري المعاد بقوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى ٱلنَّارِ﴾ ويُوقفون عليها، ثمّ يقال لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿أَلَيْسَ هٰذَا﴾ العذاب الذي ترونه ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ والصدق وأنتم كنتم في الدنيا تُكذّبونه وتستهزءون به؟! ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ إنّه الحقّ، ووعده مطابقٌ للواقع ﴿وَ﴾ الله ﴿رَبِّنَا﴾ قيل: أكدّوا جوابهم بالقسم طمعاً في الخلاص بسبب الاعتراف به[1] ﴿قَالَ﴾ الله أو خازن النار ﴿فَذُوقُوا﴾ اليوم ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ الذي كنتم تستعجلونه مستلذّين بذوقه وطعمه، ولا تتوهّموا ابتلاءكم به بلا علّةٍ، ولا سببٍ، بل هو ﴿بِمَا كُنتُم﴾ في الدنيا به ﴿تَكْفُرُونَ﴾ والكفر به أعظم أسباب الاستحقاق، وتكذيب وعد الله أقوى مقتضات الابتلاء به.

فاذا علمت ـ يا محمد ـ وَخَامة عاقبة تكذيبهم واستهزائهم بك ﴿فَٱصْبِرْ﴾ عليهما ﴿كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا ٱلْعَزْمِ﴾ وذوو الثبات والجَزْم ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ الذين جاءوا من قبلك، كابراهيم ونوح وموسى وعيسى، فانّك من جُملتهم، بل أفضلهم وخاتمهم.

في ذكر اولي العزم من الرسل وعددهم

عن الصادق عليه السلام في هذه الآية: «هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم».

قيل: كيف صاروا اُولي العزم؟ قال: «لأن نُوحاً بُعِث بكتاب وشريعة، وكلّ من جاء بعد نوح أخذ بكتاب نُوح وشريعته ومنهاجه، حتى جاء إبراهيم بالصُّحف وبعزيمة ترك كتاب نوح، لا كفراً به، فكلّ من جاء بعد إبراهيم أخذ بشريعة إبراهيم ومنهاجه وبالصُّحف، حتى جاء موسى بالتوراة وشريعته ومنهاجه وبعزيمة ترك الصّحف، فكلّ نبيٍ جاء بعد موسى أخذ بالتوراة ومنهاجه، حتى جاء المسيح بالإنجيل، وبعزيمة ترك شريعة موسى ومنهاجه، فكلّ نبيّ جاء بعد المسيح أخذ بشريعته ومنهاجه، حتى جاء محمد صلى الله عليه وآله فجاء بالقرآن وبشريعته ومِنهاجه، فحلاله حلالٌ إلى يوم القيامة، وحرامه حرامٌ إلى يوم القيامة، فهؤلاء اُولو العزم من الرسل»[2].

عن الباقر عليه السلام: «إنّما سُمّوا اُولي العزم، لأنّه عُهِد إليهم في محمد صلى الله عليه وآله ولأوصيائه من بعده

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٤٩٣.

٢. الكافي ٢: ٢/١٤، تفسير الصافي ٥: ١٨.

والمهديّ عليه السلام وسيرته، فأجمع عزمهم على أنّ ذلك كذلك»[١].

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل﴾ يا محمد بالعذاب **﴿لَّهُمْ﴾** فانّه على شرف النزول عليهم **﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾** من العذاب **﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾** ولم يَمْكُثوا في الدنيا، ولو عُمّروا ألف سنة أو أكثر فيها **﴿إِلَّا سَاعَةً﴾** وزماناً قليلاً **﴿مِن نَّهَارٍ﴾** لأنّ الزمان الطويل في الغاية بعد انقضائه يكون في النظر كالزمان القصير، بل يكون كأن لم يكن، مع أنّ طول عمر الدنيا بالنسبة إلى عمر الآخرة وطول بقائها كالساعة، والآن هذا الذي ذكرناه في السورة، أو في القرآن **﴿بَلَاغٌ﴾** وكفايةٌ لهم في الوعظ والنُّصح وإتمام الحجّة، فان اتّعظوا به فقد هُدوا إلى كلّ خيرٍ، وحازوا السعادة الأبدية، ونالوا الحياة[٢] الدائمة، وإن أعرضوا عنه **﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾** بالعذاب **﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَاسِقُونَ﴾** والجماعة الخارجون عن قابلية الاتّعاظ وطاعة الله.

ذكر ما يوجب سهولة الولادة للمرأة التي عسرت ولادتها

عن ابن عباس، قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: «إذا عسرت على المرأة ولادتها، أُخِذ إناءٌ نظيفٌ وكُتِب عليه: **﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾** إلى آخره، وقوله تعالى: **﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾**[٣] وآية: **﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ﴾**[٤] ثمّ يُغسَل الإناء، وتُسقى منه المرأة، ويُنْضَح على بطنها وفَرْجها»[٥].

وفي رواية أُخرى، عن ابن عباس: إذا عسرت على المرأة الولادة، فليُكتب هاتان الآيتان في صحيفة، ثمّ تُسقى، وهي هذه: بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلّا الله الحكيم الكريم، لا إله إلّا الله العلي العظيم، سبحان الله ربّ السماوات السبع وربّ العرش العظيم **﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَاسِقُونَ﴾**، **﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾**[٦].

عن الصادق عليه السلام: «من قرأ كل ليلةٍ أو كلّ جُمعةٍ سورة الأحقاف، لم يُصبه الله بروعة في الحياة الدنيا، وآمنه من فزع يوم القيامة»[٧].

---

١. الكافي ١: ٢٢/٣٤٤، علل الشرائع: ١/١٢٢، تفسير الصافي ٥: ١٩، وزاد في المصادر: والإقرار به.

٢. في النسخة: بالحياة. ٣. النازعات: ٤٦/٧٩. ٤. يوسف: ١١١/١٢.

٥. تفسير روح البيان ٨: ٤٩٥. ٦. تفسير روح البيان ٨: ٤٩٦.

٧. ثواب الأعمال: ١١٤، مجمع البيان ٩: ١٢٣، تفسير الصافي ٥: ١٩.

في تفسير سورة محمد صلى الله عليه وآله

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ[١]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة الأحقاف ببيان إيمان الجنّ بمحمد صلى الله عليه وآله وكتابه، وكُفر أهل مكّة بهما، وتهديد الكفّار بالعذاب الدنيوي والأخروي، نظمت سورة محمد صلى الله عليه وآله المتضمّنة لذمّ الكفّار، ومنعهم الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وآله ودينه وكتابه، وبيان سوء عاقبتهم، ومدح المؤمنين وبيان حسن عاقبتهم، وتحريضهم على قتال الكفّار، وأمرهم بجهادهم، فافتتحها بذكر الاسماء الحسنى بقوله **﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾**. ثمّ شرع في ذمّ الكفّار الصادّين عن سبيل الله بقوله: **﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾** وأصرّوا على كفرهم، كأبي جهل وأضرابه من قريش واليهود وغيرهم **﴿وَصَدُّوا﴾** ومنعوا أنفسهم أو الناس **﴿عَن﴾** سلوك **﴿سَبِيلِ ٱللهِ﴾** واتّباع أدلّة الحقّ ودين الاسلام **﴿أَضَلَّ﴾** الله وأبطل **﴿أَعْمَالَهُمْ﴾** الحسنة بالذات، كصلة الرّحم، والانفاق على الفقراء، وإعانة المظلومين وإغاثه الملهوفين ونظائرها، بحيث لا يبقى لهم عملٌ يؤجرون[1] عليه.

قيل: لمّا قال في آخر السورة المباركة السابقة **﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَاسِقُونَ﴾** كان مجال أن يقال: كيف يُهْلَك الفاسقون مع أنّ لهم في طول أعمارهم صالحة كإطعام الطعام، وصلة الرحم ونحو ذلك، فيكون في إهلاكهم إهدار أعمالهم، مع أنّه تعالى قال: **﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾**؟ فقال الله تعالى: **﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾** أي لم يبق لهم عملٌ، ولم يوجد، فلم يُمنع إهلاكهم؛[2] لأنّ الايمان شرط قبول العمل وترتب الأجر عليه، فما لا يُقبَل كما لايوجد، أو لأنّ الكفر يترجّح في الميزان على جميع الحسنات، كما أنّ الايمان بترجّح على جميع السيئات، أو لأن خيرية العمل بحيث يترتّب عليه الأجر، إنّما يكون بقصد العامل إيجاده لله، والكافر لا يقصِد بأعماله التقرّب إلى الله، وتحصيل رضاه، فلا يصدُر منه خيرٌ حتى يراه.

---

١. في النسخة: يؤجر. ٢. تفسير الرازي ٢٨: ٣٦.

قيل: إنّ المراد من سبيل الله هو الانفاق على المؤمنين[١]. وقيل: هو الجهاد[٢]. والحق أنّه الاسلام واتّباع النبي الذي هو الصراط المستقيم.

عن الباقر عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام بعد وفاة رسول الله في المسجد والناس مجتمعون بصوتٍ عالٍ: **﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾** فقال له ابن عباس: يا أبا الحسن، لم قلت؟ ما قلت؟ قال: قرأت شيئاً من القرآن. قال: لقد قلتهُ لأمرٍ؟ قال: نعم، إنّ الله يقول: **﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾**[٣] فتشهد على رسول الله أنّه استخلف أبا بكر؟ قال: ما سَمِعتُ رسول الله أوصى إلّا إليك. قال: فهلا بايعتني؟ قال: اجتمع الناس على أبي بكر، فكنتُ منهم. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «كما اجتمع أهل العِجل على العِجل، هاهنا. فتنتم، ومَثَلكم **﴿كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَايُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَايَرْجِعُونَ﴾**»[٤].

أقول: تدلّ الرواية على عموم الكفر للأصلي والارتدادي الذي حصل بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ * ذٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَبِّهِمْ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ[٢ و ٣]

ثمَ إنّه تعالى بعد بيان سوء حال الكفّار، بيّن حُسن حال المؤمنين بقوله: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾** بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر **﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾** والأعمال المرضيات عند الله **﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾** من القرآن وشرائع الاسلام وعن الصادق عليه السلام، قال: «بما نزل على محمد صلى الله عليه وآله في علي عليه السلام»[٥].

﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ النازل **﴿مِن رَبِّهِمْ﴾** الحقيق بالايمان به، وتخصيصه بالذكر لتعظيم شأنه **﴿كَفَّرَ﴾** وسَتَرَ **﴿عَنْهُمْ﴾** بسبب هذا الايمان **﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾** ومعاصيهم في الآخرة **﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾** وحالهم في الدين والدنيا بالتأييد والتوفيق.

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢٨: ٣٧. ٣. الحشر: ٧/٥٩.
٤. تفسير القمي ٢: ٣٠١، تفسير الصافي ٥: ٢٠، والآيتان من سورة البقرة: ١٧/٢ و١٨.
٥. تفسير القمي ٢: ٣٠١، تفسير الصافي ٥: ٢١.

القمي ﷺ قال: نزلت في أبي ذرّ وسلمان وعمّار والمقداد، لم يَنقُضوا العهد قال: ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ أي ثبتوا على الولاية التي أنزلها الله ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ يعني أمير المؤمنين عليه السلام ﴿بَالَهُمْ﴾ أي حالهم[1].

ثمّ بيّن سبحانه علّة هذا التفاوت بين الفريقين بقوله: ﴿ذٰلِكَ﴾ المذكور من إبطال أعمال الكفار، وتكفير سيئات المؤمنين، وإصلاح حالهم ﴿بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ وأطاعوا الشيطان وكبراءهم، وعملوا بدين آبائهم عن تقليدٍ وعصبيةٍ، ففعلوا ما فعلوا من الكفر والصدّ عن سبيل الله ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ﴾ النازل ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ والرسول المبعوث من قبل خالقهم، ففعلوا ما فعلوا من الايمان والأعمال الصالحات ﴿كَذٰلِكَ﴾ الضرب البديع الفصيح الوافي ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ﴾ ويبيّن ﴿لِلنَّاسِ﴾ عامةً ﴿أَمْثَالَهُمْ﴾.

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذٰلِكَ[٤]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه كون الكفّار غير نافعين لأنفسهم ولغيرهم لضلال أعمالهم، وضارّين للناس بصدّهم عن سبيل الله، أمر المؤمنين بقتلهم وإعدامهم بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ﴾ وصادفتم أيّها المسلمون ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في أيّ مكانٍ وأيّ حالٍ ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ وقطع الأعناق عنهم بالسيف واجبٌ عليكم، وهذا الحكم مستمرٌ ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ وكسرتم جيشهم بإكثار القتل فيهم، أو أعجزتموهم عن الحركة والمقاومة في قتالكم ﴿فَشُدُّوا﴾ واستحكموا ﴿الْوَثَاقَ﴾ والقيد بأيديهم وأرجلهم، وأسّروهم كيلا يَفِرّوا من أيديكم، فاذا قهرتموهم وأسرتموهم ﴿فَإِمَّا﴾ تَمُنّون عليهم ﴿مَنًّا﴾ وتُطلقونهم من غير أخذ شيءٍ منهم ﴿بَعْدُ﴾ الأسر وشدّ الوَثاق ﴿وَإِمَّا﴾ تَفْدون وتأخذون منهم ﴿فِدَاءً﴾ ومالاً وتُطلقونهم بعوضه.

وحاصل الآية ـ والله أعلم ـ أنّه ما دام الحرب قائمة، فالحكم القتل حال المبارزة، فاذا انكسر جيش الكفر وغلب المسلمون عليهم بإكثار القتل فيهم، فالحكم الأسر، وبعد الأسر يتخيّر بين القتل وبين الإطلاق بلا أخذ شيءٍ، وبين الاطلاق مع أخذ شيءٍ، وهذا الحكم باقٍ ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ آلاتها وأثقالها التي لا تقوم إلّا بها، كالسلاح والكراع.

وقيل: يعني حتى يضع أهل الحرب أثامهم وشركهم ومعاصيهم ظاهراً بحيث لا يبقى إلّا مسلم أو

---

١. تفسير القمي ٢: ٣٠١، تفسير الصافي ٥: ٢١.

مسالم[١].

وفي التعبير عن القتل بضرب الرقبة إشعارٌ بأنّه ينبغي أن يكون القتل بذلك، وفيه أيضاً تصويرٌ له بأشنع صوره.

في ذكر بعض أحكام الجهاد

عن الصادق عليه السلام، قال: «كان أبي يقول: إنّ للحرب حكمين: إذا كانت الحرب قائمة لم تضع أوزارها ولم يُثْخَن أهلها، فكلّ أسيرٍ اُخذ في تلك الحال فانّ الامام فيه بالخيار، إن شاء ضرب عنقه، وإن شاء قطع يده ورجله من خلاف بغير حسم، وتركه يتشحّط في دمه حتى يموت، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ﴾[٢] الاية. والحكم الآخر: إذا وضعت الحرب أوزارها، واُثخن اهلها، فكلّ اسيرٍ اُخذ على تلك الحال، فكان في أيديهم، فالامام فيه بالخيار، إن شاء منّ عليهم فأرسلهم، وإن شاء فاداهم أنفسهم، وإن شاء استعبدهم فصاروا عبيداً»[٣].

أقول: قال الحسن البصري من العامة: إنّ الامام بعد الأسر مخيّر بين المنّ والفداء والاسترقاق، وليس له القتل[٤].

وقال الفاضل المقداد في آيات أحكامه: المنقول من أهل البيت عليهم السلام أن الأسير إن اُخذ والحرب قائمةٌ، تعيّن قتله، إمّا بضرب عُنقه، أو قطع يديه ورجليه، ويُترَك حتى ينزِف ويموت، وإن اُخذ بعد تقضيَ الحرب تخيّر الامام بين المن والفداء والاسترقاق، ولا يجوز القتل، ولو حصل منه الاسلام مُنِع القتل خاصّة[٥].

أقول: على ما ذكر لابدّ من القول بالتقديم والتأخير في الآية، ولا بأس به، فتكون الآية: فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها. ثمّ قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ ثمّ في نسبة قطع اليدين والرجلين إلى أهل البيت عليهم السلام إشكالٌ، وأمّا حكم الاسترقاق فيُعلَم من الرواية.

ثمّ قال الفاضل المذكور اختلف القائلون بأنّ الآية لا تقديم فيها ولا تأخير في قوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ قيل: هو غاية لضرب الأعناق، وقيل: غاية لشدّ الوَثاق، وقيل: للمنّ والفداء، وقيل: للمجموع بمعنى أنّ هذه الأحكام جاريةٌ فيهم حتى لا تكون حرب بين المشركين بزوال شوكتهم.

---

١. تفسير البيضاوي ٢: ٤٠١.
٢. المائدة: ٣٣/٥.
٣. الكافي ٥: ١/٣٢، التهذيب ٦: ٢٤٥/١٤٣، تفسير الصافي ٥: ٢١.
٤. كنز العرفان ١: ٢/٣٦٥.
٥. كنز العرفان ١: ٣/٣٦٥.

وقيل: حتى لا يبقى أحدٌ من المشركين. وقيل: حتى لا يبقى غير دين الاسلام. وقيل: حتى ينزل عيسى [١].

ثمَ أكّد سبحانه الأحكام بقوله: ﴿ذٰلِكَ﴾ قيل: إنّ التقدير الأمر ذلك، أو افعلوا ذلك [٢].

وَلَوْ يَشَاءُ ٱللهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلٰكِن لِيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ[٤ ـ ٦]

ثمَ بيّن سبحانه قدرته على إهلاك الكفّار وعدم حاجته إلى قتال المسلمين معهم بقوله: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ ٱللهُ لَانتَصَرَ﴾ من الكفّار، وانتقم ﴿مِنْهُمْ﴾ بإهلاكهم بالخسف أو الرجفة أو الصاعقة أو غيرها من الأسباب، أو بإقباض أرواحهم بلا واسطة سببٍ من حاجة إلى القتال، أو بقتل الملائكة إياهم من غير حاجة إليكم ﴿وَلٰكِن﴾ لم يشأ ذلك ﴿لِيَبْلُوا﴾ ويمتحن ﴿بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أمركم بقتالهم والجهاد معهم، فتستوجبوا الثواب العظيم، ويرتدع الكفّار عن كفرهم بظهور شوكتكم وغلبتكم عليهم ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا﴾ منكم ﴿فِى سَبِيلِ ٱللهِ﴾ وطلباً لمرضاته في جهاد أعدائه ﴿فَلَن يُضِلَّ﴾ ولن يُضيع أبداً ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ بل يُثيبهم أعظم الثواب، ويكون حالهم ضدّ حال الكفّار الذين أضلَ الله أعمالهم.

ثمَ فصّل سبحانه ثواب المجاهدين بقوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ ويرشُدهم البتة في الدنيا إلى درجات قُربه، وطرق تحصيل رضاه ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ وشأنهم بالتوفيق لتهذيب أخلاقهم وتكميل نفوسهم ومعارفهم ويقينهم.

وقيل: إنّه وعد لخصوص المقتولين [٣]، ويكون المراد سيهديهم في القيامة إلى الجنّة من غير توقّف، والمراد باصلاح بالهم تبديل سيئاتهم بالحسنات.

﴿وَيُدْخِلُهُمُ﴾ في الآخرة ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ التي ﴿عَرَّفَهَا﴾ ووصفها ﴿لَهُمْ﴾ في الدنيا، أوبيّنها لهم بحيث يعلم كلّ أحدٍ حين دخوله الجنة منزله فيها، ويهتدي إليه كأنه كان ساكنه منذ خُلِق، كما قيل [٤]. وفي الحديث: «لأحدكم بمنزله في الجنة أعرف منه بمنزله في الدنيا» [٥].

وقيل: (عرّفها) جعل لها عَرفاً، أي رائحة طيبة، والمعنى زيّنها وطيّبها لهم [٦]. وقيل: يعني حدّدها وأفرزها، يعني أنّ جنة كلّ أحدٍ محدودةٌ مفروزةٌ [٧].

---

١. كنز العرفان ١: ٤/٣٦٦.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٤٩٩.

٣. تفسير الرازي ٢٨: ٤٨.

٤ ـ ٥. تفسير روح البيان ٨: ٥٠٠.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا ٱللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ ٱللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ[٧ـ ٩]

ثمَ شجّع سبحانه المؤمنين في جهاد الكفار بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا ٱللهَ﴾ وتُعينوه في إنجاح مقصوده، وهو إعلاء كلمته، ورواج توحيده، وقمع الكفر ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ في حرب أعدائكم بتقوية قلوبكم، وإرعاب أعدائكم، وحفظكم من بأسهم، وتأييدكم بالملائكة، وتهيئة الأسباب الغيبية ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ في حربهم، ويُزِلّ أقدام أعدائكم بحيث لا يقدرون على المقاومة في نِزالكم. قيل: يُثبّت أقدامكم في معارضة الكفّار بالحُجّة والقيام بحقوق الإسلام[١].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً﴾ وهلاكاً دائماً، أو ذُلّاً وهواناً، أو عثوراً وخيبةً ﴿لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ وأبطل مساعيهم في النيل بالمقاصد الدنيوية والأخروية على خلاف المؤمنين، حيث إنّه تعالى لن يُضِلّ أعمالهم ﴿ذٰلِكَ﴾ المذكور من التّعس والإضلال ﴿بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا﴾ وأبغضوا ﴿مَا أَنزَلَ ٱللهُ﴾ من الكتاب الداعي إلى التوحيد وطاعة الله، ولمخافة هوىٰ أنفسهم ﴿فَأَحْبَطَ﴾ الله من درجة القبول ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ كائناً ما كان.

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا * ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱللهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ ٱلْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ * إِنَّ ٱللهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَامُ وَٱلنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ[١٠ـ ١٢]

ثمَ هدّد سبحانه الكفّار المعارضين للرسول ﷺ والكارهين لدينه بقوله تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ ولم يُسافروا ﴿فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ في أسفارهم ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ الأمم ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كعاد وثمود وقوم سبأ وقوم لوط.

ثمَ كأنّه قيل: كيف كان عاقبتهم؟ فقال سبحانه: ﴿دَمَّرَ ٱللهُ﴾ وأنزل الهلاك ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بكفرهم، ومعارضة الرسل ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ الذين يُنكرون التوحيد والرسالة في عصرك نظائر تلك العواقب

---

١. تفسير البيضاوي ٢: ٤٠١.

و﴿أَمْثَالُهَا﴾ لكونهم أمثال أولئك ﴿ذَٰلِكَ﴾ الهلاك الذي هو نقمة على الكافرين ونعمة على المؤمنين، أو ذلك المذكور من نصر المؤمنين وتدمير الكافرين ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ بلطفه ﴿مَوْلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وحافظ صلاحهم، ومُعينهم في كلّ خير، وناصرهم على أعدائهم ﴿وَأَنَّ ٱلْكَافِرِينَ﴾ الذين هم مظهر قهره تعالى ﴿لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ ولا راعي لصلاحهم، ولا معين يدفع العذاب والشُّرور عنهم.

ثمَ بيّن سبحانه أنّ من شؤون ولايته للمؤمنين حُسن حالهم في الآخرة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ تعالى بفضله ﴿يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّاتٍ﴾ كثيرة الأشجار ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ يتنعّمون فيها بنعم لا قدر لنعم الدنيا عندها، ولذا لم يَذكُر سبحانه تمتّعهم بنعم الدنيا ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حيث إنّهم لا مولى لهم ﴿يَتَمَتَّعُونَ﴾ وينتفعون بنعم الدنيا أياماً قلائل كالبهائم، لا همّ لهم إلّا ذلك ﴿وَيَأْكُلُونَ﴾ حريصين على الأكل، مهتمّين به، غافلين عن النِّعم، وعن عواقبهم ﴿كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَامُ﴾ في مسارحها ومعالفها حريصةً عليه غافلةً عمّا يُراد بها من النحر والذبح، غير عارفة بالمُنعِم عليها ﴿وَٱلنَّارُ﴾ في الآخرة ﴿مَثْوًى﴾ ومنزل إقامة ﴿لَهُمْ﴾ باستحقاقهم وسوء أعمالهم.

وَكَأَيِّن مِن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ * أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِن رَبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم[١٣ و ١٤]

ثمّ إنّه تعالى بعد تهديد الكفّار المعارضين للرسول ﷺ بما جرى على الأمم الماضية، سلّى رسوله بقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِن قَرْيَةٍ﴾ وكثيراً من بلدةٍ كانت ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً﴾ وأكثر أهلاً وشوكةً ﴿مِن قَرْيَتِكَ﴾ وبلدتك ﴿ٱلَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ أهاليها منها ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بعُتوّهم وطُغيانهم أنواع العذاب ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ يدفع عنهم العذاب ويمنعهم من الهلاك، وأهل قريتك أولى بذلك لضَعْفهم وقوّة جنايتهم.

عن ابن عباس: لمّا خرج النبي ﷺ من مكة إلى الغار، التفت إلى مكة وقال: «أنت أحبّ البلاد إلى الله وإليّ، ولولا أنّ المشركين أخرجوني ما خرجت عنك» فأنزل الله هذه الآية[١].

ثمّ بيّن سبحانه استحقاق النبيّ ﷺ والمؤمنين للنُّصرة والإكرام، واستحقاق الكفّار للخِذلان والهَوان بإنكار التساوي بينهم بقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ﴾ مستقراً ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ وحُجّةٍ ظاهرةٍ وبرهانٍ باهرٍ كالقرآن والمعجزات التي تكون له ﴿مِن رَبِّهِ﴾ ومالك أمره ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ﴾ من قبل الشيطان والنفس

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٥٠٥.

الأمّارة ﴿سُوءُ عَمَلِهِ﴾ وقبيح فعله كالشرك وغيره من المعاصي ﴿وَٱتَّبَعُوا﴾ بسبب ذلك التزيين ﴿أَهْوَاءَهُم﴾ الزائغة، وانهمكوا في فنون الضلالات من غير شُبهة تُوهِم صحّة ما عليه، لا والله لا تساوي بينهما عند الله، وإفراد ضمير (له) و(عمله) باعتبار لفظ (من) وجمع ضمير (اتبعوا) و(اهوائهم) باعتبار معناه.

مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِن رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ[١٥]

ثمَ بعد بيان الفرق بين الفريقين عنده، بيّن عاقبتهما في الآخرة بقوله: ﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ والمؤمنون العاملون بوظائف الايمان من قبل الله على لسان رسوله ﷺ ووصفها العجيب الشأن أن ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ﴾ كثيرة ﴿مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ وغير متغيّر الطّعم واللون والرائحة بطول المكث في منابعه وأوانيه، مع أنّ مياه الدنيا تتغيّر ﴿وَأَنْهارٌ﴾ كثيرة ﴿مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ بالحُموضة وغيرها من الطُّعوم المكروهة ﴿وَأَنْهارٌ﴾ كثيرة ﴿مِنْ خَمْرٍ﴾ ومُسكِر عنبي أو غيره ﴿لَذَّةٍ﴾ ولذيذة ﴿لِلشَّارِبِينَ﴾ كلّهم، ليس فيها كراهة طَعْم وريح وخُمار[١]، وغائلة سُكر وغُمار[٢]، على خلاف خمر الدنيا.

وقيل: إنّ (لذة) مصدر وصف به الخمر للمبالغة[٣].

﴿وَأَنْهَارٌ﴾ كثيرة ﴿مِن عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ من الشّمع وفضلات النحل وغيرها غير مختلطةٍ بشيءٍ منها. قيل: إنّ الفرق بين الخالص والمُصفّى، أنّ الأول يقال لِما زال عنه شَوْبه، والثاني يقال لما لا شَوْب فيه أصلاً[٤].

قيل: إنّما وصف الجنّة بما يستلذّ من أشربة الدنيان لغاية شوق العرب إلى هذه المائعات المجرّدة عمّا ينقصها وينغّصها، مع وصفها بالغزارة والاستمرار، وإنّما قدّم أنهار الماء لغرابتها في الحجاز، وشدّة حاجة العرب إليها، وإنّما ثنى باللّبن لكون حاجتهم إليه بعد الماء أكثر، ثمّ ثلّثه بالخمر لكونها

---

١. الخُمار: صداع الخمر وأذاها.

٢. يقال: اغتمر السكر فلاناً: غطّى على عقله وستره.

٣. تفسير روح البيان ٨: ٥٠٦.

٤. تفسير روح البيان ٨: ٥٠٧.

عندهم أعزّ، ثمّ ختم بالعسل لكونه أشرف[١].

عن كعب الأحبار، قال: قلت لرسول الله ﷺ: كيف أنهار الجنة؟ فقال ﷺ: «على حافتها كراسي وقِباب مضروبة، وماؤها أصفى من الدمع، وأحلى من الشّهْد، والين من الزُّبد، ألذّ من كلّ شيء، وعَرض كلّ نهر مسيرة خمسمائة عام، تدور تحت القصور والحِجال، لا تُرطب ثيابهم، ولا تُوجع بطونهم، وأكبر أنهارها نهر الكوثر، طينه المِسك الأذفر، وحافتاه الدُّرّ والياقوت»[٢].

عن ابن عباس: ليس هنا ممّا في الجنّة سوى الأسامي[٣].

﴿وَلَهُم فِيهَا﴾ مضافاً إلى الأنهار الأربعة **﴿مِن كُلِّ﴾** صنفٍ من **﴿ٱلثَّمَرَاتِ﴾** والفواكه التي تشتهيها الأنفس. قيل: لمّا كان الأكل في الجنّة للِذّة لا للحاجة، لم يذكُر من المأكولات إلّا الثمرات التي تُؤكل للِذّة[٤].

ثمّ بيّن سبحانه بعد إكمال النعمة عليهم، أمنيّتهم من العقوبة والمُؤاخذة بقوله: **﴿وَمَغْفِرَةٌ مِن رَبِّهِمْ﴾** والتقدير: ولهم المغفرة لذنوبهم قبل دخول الجنة، أو في الجنّة، لعدم التكليف فيها، فيأكُلون فيها ويشربون من غير حساب ومؤاخذة بخلاف الدنيا، فانّ في الأكل والشرب فيها حساب أو عقاب أو عتاب.

ثمّ كأنه قال سبحانه: انظر أيّها العاقل، أمَن هو خالد في هذه الجنة ومتنعّم فيها بفنون النعم، ويُسقون من تلك الأنهار الأربعة **﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾** أبداً، ومُعذّب فيها دائماً. وقيل: إنّ التقدير هذه الجنة التي مثلها وصفتها ما ذكر، كمقام من هو خالد في النار[٥].

﴿وَسُقُوا﴾ بدل الأشربة التي تكون لأهل الجنّة **﴿مَاءً حَمِيماً﴾** وحاراً غاية الحرارة **﴿فَقَطَّعَ﴾** ذلك الماء من غاية حرارته وسموميته **﴿أَمْعَاءَهُمْ﴾** وأحشاءهم. قيل: إذا دنا منهم شوى وجوههم، وانعزلت فروة وجوههم[٦]، فاذا شربوه قطّع أمعاءهم فخرجت من أدبارهم[٧]. ثمّ اعلم أنّ قطع الأمعاء ليس من أثر الحرارة، ولعلّه من أثر مسمومية الماء، أو أثر خصوص ذلك الماء.

وَمِنْهُم مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ * وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ[١٦ و ١٧]

---

١ -٣. تفسير روح البيان ٨: ٥٠٧.
٤. تفسير الرازي ٢٨: ٥٥.
٥. تفسير الرازي ٢٨: ٥٦.
٦. الصحيح: فروة رؤوسهم. راجع روح البيان ٨: ٥٠٨.
٧. تفسير روح البيان ٨: ٥٠٨.

ثمَ لمّا ذكر سبحانه حال المؤمن والكافر أردفها بذكر حال المنافق بقوله: ﴿وَمِنْهُم مَن﴾ يحضر مجلسك و ﴿يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ يا محمد، ويُصغي [إلى] كلامك، ولا يتأمل فيه تهاوناً به ﴿حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا﴾ استهزاءً وسُخريةً ﴿لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من الصحابة الخُلَصين كسلمان وأبي ذرّ وابن مسعود: ﴿مَاذَا قَالَ﴾ محمد ﴿آنِفاً﴾ وقبلاً أو الساعة.

عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «إنّا كنّا عند رسول الله، فيُخبرنا بالوحي فأعيه [أنا] ومن يعيه، فإذا خرجنا قالوا: ماذا قال آنفاً»[1].

﴿أُولَٰئِكَ﴾ المستهزئون بالنبي صلى الله عليه وآله وبكلامه، هم ﴿الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ﴾ وختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ لا يتوجّهون إلى الحقّ، ولا يميلون إلى خيرٍ أصلاً ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ الفاسدة ونفوسهم الأمّارة الخبيثة، ولذا فعلوا ما فعلوا من الإهانة والاستهزاء.

عن الباقر عليه السلام: «أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يدعو أصحابه، فمن أراد الله به خيراً سَمِع وعرف ما يدعوه إليه، ومن أراد الله به شراً طُبع على قلبه، ولا يسمع ولا يعقِل، وهو قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾»[2].

﴿وَالَّذِينَ﴾ آمنوا بالرسول عن صميم القلب و﴿اهْتَدَوْا﴾ ببركته إلى دين الحقّ ﴿زَادَهُمْ﴾ الله باستماع كلمات الرسول ومواعظه، أو باستهزاء المنافقين ﴿هُدًى﴾ ورشاداً حيث إنّهم فَهِموا المطالب العالية التي ألقاها إليهم الرسول، أو استقبحوا استهزاء المنافقين، فصار سبباً لكمال توجّههم إلى كلام الرسول ومواعظه ﴿وَآتَاهُمْ﴾ الله ﴿تَقْوَاهُمْ﴾ وتوفيق العمل بما عَلِموا من وظائف دينهم، أو المراد آتاهم ثواب تقواهم، أو جنّبهم من القول في القرآن بغير حُجّةٍ وبرهانٍ والتفسير بالرأي، أو ألقى الخَشية من القيامة في قلوبهم.

فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ[١٨]

ثمَ هدّد سبحانه الكفّار والمنافقين بقوله: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ وما ينتظرون ﴿إِلَّا السَّاعَةَ﴾ والقيامة ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ ومُفاجأةً، أو المعنى فانّهم لا يتّعظون بأخبار الأُمم السابقة المُهْلَكة، ولا بالإخبار بإتيان الساعة والقيامة، بل ينتظرون في تذكّرهم واتّعاضهم إتيانها، وليس ببعيدٍ ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ وظهرت أماراتها ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ﴾ وكيف تنفعهم ﴿إِذَا جَاءَتْهُمْ﴾ الساعة ﴿ذِكْرَاهُمْ﴾ واتّعاظهم لاستحالة

---

١. مجمع البيان ٩: ١٥٤، تفسير الصافي ٥: ٢٤.
٢. تفسير القمي ٢: ٣٠٣، تفسير الصافي ٥: ٢٤.

نفعه لانقضاء وقته وعدم قبول التوبة فيه.

في ذكر علائم القيامة

عن حُذيفة بن اليمان، قال: سئل رسول الله ﷺ: متى الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنه بأعلم من السائل، ولكن لها أشراط: تقارُب الأسواق.

أقول: يعني كسادها ومطر لا نبات له، وتفشو الفتنة، وتظهر أولاد البَغية، ويُعظَّم ربّ المال، وتعلو أصوات الفَسَقة في المساجد، ويظهر أهل المنكر على أهل الحقّ»[١].

وفي الحديث: «إذا ضيّعت الأمانة، فانتظر الساعة» فقيل: كيف إضاعتها؟ فقال: «إذا وَسّد الأمر[٢] إلى غير أهله، فانتظر الساعة»[٣].

وعن الصادق عليه السلام، قال: «قال النبي ﷺ: من أشراط الساعة أن يفشو الفالج وموت الفجأة»[٤].

وعن النبي ﷺ: «من أشراط الساعة أن يُرفَع العِلم، ويظهر الجَهْل، ويُشْرَب الخمر، ويفشو الزنا، ويقلّ الرجال، وتكثر النساء»[٥] إلى غير ذلك من الروايات التي لا يهمّنا استقصاء ذكرها، لعدم ارتباطها بمقصودنا من التفسير.

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلَّا ٱللهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْـمُؤْمِنَاتِ وَٱللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ[١٩]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه قرُب مجيء الساعة، أمر نبيّه ﷺ بالالتزام بالتوحيد والاستغفار من الذنوب، ترغيباً للمؤمنين بقوله تعالى: ﴿**فَاعْلَمْ**﴾ يا محمد ﴿**أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلَّا ٱللهُ**﴾ والتزم بالتوحيد، فانّه المنجي من أهوال الساعة ﴿**وَٱسْتَغْفِرْ**﴾ ربّك ﴿**لِذَنبِكَ**﴾ وترك الأولى والأفضل الصادر منك. وقيل: إنّ المراد لذنب أهل بيتك ﴿**وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ**﴾ الذين ليسوا من أهلك[٦].

وقيل: لمّا حكى الله سبحانه إصرار قوم النبي ﷺ على الشرك، وعدم اتّعاظهم إلّا بقيام الساعة، وكان ذلك ممّا يقتضي حُزن حبيبه ﷺ سلّاه سبحانه بأنّ كفر قومك لا يَضُرّك، فاثبُت أنت على التوحيد وتكميل نفسك ونفوس المؤمنين بك بالاستغفار، فانّه يَحْصُل لك ما ترجوه من عُلوّ الدرجة ورفعة المقام والقُرب الكامل إلى الله[٧].

﴿**وَٱللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ**﴾ والأمكنة التي تذهبون إليها وترجعون منها لمعاشكم ومعادكم، وأعمالكم

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٥١٠.
٢. وَسّد الأمر إليه: أسنده.
٣. تفسير روح البيان ٨: ٥١٠.
٤. الكافي ٣: ٣٩/٢٦١، تفسير الصافي ٥: ٢٤.
٥. روضة الواعظين: ٤٨٥، تفسير الصافي ٥: ٢٤.
٦. تفسير الرازي ٢٨: ٦١.
٧. تفسير الرازي ٢٨: ٦١.

التي تشتغلون بها في حوائجكم الدنيوية والأُخروية ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ ومنزل إقامتكم في الآخرة، فلا يأمُركم إلّا بما فيه خيركم وصلاحكم في الدنيا والآخرة، فبادروا إلى امتثال ما أمركم به، فانّه المهمَ لكم في المقامين.

عن الصادق عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الاستغفار، وقول لا إله إلّا الله خير العبادة، قال العزيز الجبار: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾»[١].

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا ٱللهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ * فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ [٢٠ـ٢٢]

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان التباين بين المؤمنين والمنافقين في فَهْم كلمات الرسول والاتّعاظ بها والاستفادة منها، بيّن الفرق بينهم في الأخذ بما يُوحي إليه من التكاليف العملية بقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ عن صميم القلب اشتياقاً إلى الوحي، وحِرصاً على الجهاد الذي فيه شرف الدنيا والآخرة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ﴾ وهلّا جاءت من جانب الله ﴿سُورَةٌ﴾ فيها الأمر بجهاد الكفّار حتى نمتثله ونفدي نفوسنا في سبيل الله؟ ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ﴾ من جانب الله ﴿سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ﴾ واضحةُ الدلالة على ما فيها ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ وأمر الله به، رأيت المؤمنين يفرحون ويستبشرون بها شوقاً إلى الشهادة ولقاء الله و ﴿رَأَيْتَ﴾ المنافقين ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَرَضٌ﴾ الشكّ والنفاق وحُبّ الحياة الدنيا وزَخارفها ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ من شدّة الجُبن ﴿نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ﴾ ومن سُلب شعوره وقواه ﴿مِنَ﴾ جهة عروض ﴿ٱلْمَوْتِ﴾ عليه، أو من خوف الموت ﴿فَأَوْلَىٰ﴾ وأحقّ ﴿لَهُمْ﴾ الموت الذي لا فِرار منه؛ لأنّ الموت خيرٌ من الحياة التي ليست في طاعة الله ورسوله.

وقيل: إنّ (أولى لهم) دعاءٌ عليهم بأن يليهم المكروه[٢]. وقيل: إنّه بمعنى فويل لهم[٣]. وقيل: إنّ المعنى الطاعة أولى لهم[٤]، كما قال سبحانه: ﴿طَاعَةٌ﴾ خالصة ﴿وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ مستحسنٌ عند العقلاء، خيرٌ لهم وأحسن.

---

١. الكافي ٢: ٦/٣٦٦، تفسير الصافي ٥: ٢٧.
٢. تفسير روح البيان ٨: ٥١٦.
٣. تفسير الرازي ٢٨: ٦٢، تفسير روح البيان ٨: ٥١٦.
٤. تفسير الرازي ٢٨: ٦٢.

وقيل: إنّ المعنى أمرهم وشأنهم طاعة لله ولرسوله وقول معروف أن يجيبوا لما اُمروا به من الجهاد[١]. أو المراد أنّهم يقولون أمرنا طاعة وقول معروف[٢]

﴿فَإِذَا عَزَمَ﴾ الرسول ﷺ أو الله **﴿ٱلْأَمْرُ﴾** وجدّ في الجهاد، خالفوا وقعدوا مع المتخلّفين **﴿فَلَوْ صَدَقُوا ٱللَّهَ﴾** في إخبارهم بايمانهم وطاعتهم أوامره **﴿لَكَانَ﴾** الصدق والله **﴿خَيْراً لَهُمْ﴾** وأفضل وأنفع من الكذب والنفاق والقُعود عن الجهاد.

ثمّ قيل: إنّ المنافقين كانوا يعتذرون بالقتال والجهاد، ويقولون: كيف والقتل إفساد، والعرب قبائلنا وأرحامنا[٣]، فردّ الله سبحانه عليهم بقوله: **﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾** وهل يُتوقّع منكم أيها المنافقون **﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾** اُمور الناس، وتأمّرتم عليهم، وصار بيدكم زِمام اُمورهم **﴿أَن تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾** حِرصاً على المُلك، وتهالكاً على الدنيا.

وقيل: إنّ المراد يتوقّع منكم إن تولّيتم وأعرضتم عن الجهاد، لكراهة الفساد وقطع الأرحام، أن تُفسِدوا في الأرض بالسرقة والغارة، وتُقاتلوا على أدنى شيءٍ، وتقطعوا أرحامكم، كما كان عادة العرب في الجاهلية[٤].

عن الصادق عليه السلام: «أنّها نزلت في بني اُميّة»[٥].

أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ * أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا[٢٣ و ٢٤]

ثمّ أعرض سبحانه عن مخاطبتهم إظهاراً لعدم قابليتهم للمكالمة بقوله: **﴿أُولَٰئِكَ﴾** المعرضون عن طاعة الله ورسوله ﷺ هم **﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾** وأطردهم عن ساحة رحمته، وعن كلّ خيرٍ وسعادة **﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾** وسلب عنهم قوّة استماع الحقّ ومواعظ الله ورسوله **﴿وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾** عمّا يُشاهدونه من الآيات الآفاقية والأنفسية على التوحيد والمعجزات الدالّة على صدق الرسول، ولما كان العمى أقوى في السببية للضلال أطنب فيه تسجيلاً له.

وقيل: إنّ البصر آلة الرؤية، فاذا أصابته آفة حصل العمى بخلاف الأذن، فانّها ليست آلة للسماع، لوضوح أنّ قوة السمع لا يذهب بقطع الأذن، ولذا لم يقل: أصمّ آذانهم، وقال: (أَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ)[٦].

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٥١٦.
٢. تفسير الرازي ٢٨: ٦٣، تفسير روح البيان ٨: ٥١٦.
٣. تفسير الرازي ٢٨: ٦٣.
٤. الكشاف ٤: ٣٢٥، تفسير الرازي ٢٨: ٦٤.
٥. تفسير القمي ٢: ٣٠٨، والكافي ٨: ٧٦/١٠٣، وتفسير الصافي ٥: ٢٨، عن الامام علي عليه السلام.
٦. تفسير الرازي ٢٨: ٦٥.

ثمَ لمّا كان التدبّر في القرآن شفاءً لما في الصدور من مرض الكفر والشكّ والنفاق، وبّخ سبحانه المنافقين والكفّار على ترك تداوي أمراضهم بالتدبّر فيه بقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ قيل: إنّ التقدير ألا يلاحظون القرآن فلا يتصفحون ما فيه من المواعظ والعِبر والزواجر حتى تشفى أمراضهم، ولا يقعوا في المعاصي الموبقة[١]، لكونهم ملعونين مبعدين من كلّ خير.

وعن الصادق عليه السلام: «فيقضوا ما عليهم من الحق»[٢].

﴿أَمْ﴾ يتدبّرون ويتفكّرون فيه، ولكن ﴿عَلَىٰ قُلُوبٍ﴾ قاسية ﴿أَقْفَالُهَا﴾ الخاصة بها، وهي أقفال اللَّجاج والعِناد والعصبية، فلا تدخل فيها معانية.

قيل: إن تنكير القلوب لإفادة البعض[٣]، أو للتنبيه على أنّ القلوب لعدم استفادتهم بها كأنّها ليست لهم[٤] ولا صاحب لها، أو لتهويل حالها، وتفظيع شأنها في الفساد، والجهالة بابهامها، كأنّه قيل: على قلوب منكرة لا يُعرَف حالها ولا يُقادر قدرها في القسوة[٥].

عن الصادق عليه السلام: «أنّ لك قلباً ومسامع، وإن أراد الله أن يهدي عبداً فتح مسامع قلبه، وإن أراد غير ذلك ختم مسامع قلبه، فلا يصلُح أبداً، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾»[٦].

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ ٱلشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ * ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ ٱللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ[٢٥ و ٢٦]

ثمّ بيّن سبحانه غاية ضلال المنافقين والمُصرّين على الكفر من أهل الكتاب بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا﴾ ورجعوا ﴿عَلَىٰ أَدْبَارِهِم﴾ وكفرهم السابق الذي كانوا عليه، وأصرّوا عليه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ ووضح ﴿لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ وطريق الحقّ، وهو نبوة محمد صلى الله عليه وآله، وصحّة دين الاسلام بالدلائل والمعجزات، ورؤية نعت محمد صلى الله عليه وآله في التوراة وسائر الكتب السماوية.

﴿ٱلشَّيْطَانُ﴾ المُغوي ﴿سَوَّلَ﴾ وسهّل ﴿لَهُمْ﴾ مخالفة الحقّ، وزيّن لهم ارتكاب العظائم ﴿وَأَمْلَىٰ﴾ وأمدّ ﴿لَهُمْ﴾ في الأماني بأن يقولوا نعيش أياماً، ونؤمن به بعد نيلنا بمقاصدنا الدنيوية. وقيل: يعني أملى الله لهم وأمهلهم، فلم يُعاجلهم بالعقوبة[٧] ﴿ذٰلِكَ﴾ الارتداد والتسويل، أو الإملاء

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٥١٨.

٢. مجمع البيان ٩: ١٥٨، وتفسير الصافي ٥: ٢٨، عن الصادق والكاظم عليهما السلام.

٣. تفسير الرازي ٢٨: ٦٥.

٤. تفسير الرازي ٢٨: ٦٦.

٥. تفسير روح البيان ٨: ٥١٨.

٦. المحاسن: ٣٥/٢٠٠، تفسير الصافي ٥: ٢٨.

٧. تفسير أبي السعود ٨: ٩٩، تفسير روح البيان ٨: ٥١٩.

لهم، يكون ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ سرّاً وخُفيةً ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا﴾ وأبغضوا ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ من القرآن ورسالة محمد صلى الله عليه وآله -قيل: هم اليهود الذين كَرِهوا نزول القرآن على محمد[١] -: ﴿سَنُطِيعُكُمْ﴾ ونُوافقكم ﴿فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ الذي تتوقعون منّا.

قيل: إنّ المنافقين قالوا لليهود: إنّا نُوافقكم في إنكار محمد وتكذيبه، ولا نُوافقكم في إظهار الكفر وإعلان أمرنا بالفعل قبل قتالهم وإخراجهم من ديارنا، وإنّما لم يُوافقوهم في ذلك لما كان لهم في إظهار الايمان من المنافع الدنيوية[٢].

وقيل: إنّ القائلين هم اليهود، فانّهم قالوا للمشركين الذين كَرِهوا ما أنزل الله من القرآن الناطق بالتوحيد والرسالة والحشر: سنُطيعكم في بعض الأمر، وهو إنكار رسالة محمد وتكذيبه، ولا نُوافقكم في إنكار مطلق الرسالة والحشر وإشراك الأصنام بالله[٣].

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ والأقاويل التي قالوها خُفيةً. وقيل: يعني والله يعلم ما في قلوبهم من العلم بصدق النبي صلى الله عليه وآله، وصحّة ما أتى به من القرآن والدين، فانّهم كانوا مكابرين معاندين[٤].

وعن الصادق عليه السلام في تأويل هذه الآية، قال: «فلان وفلان ارتدّوا عن الإيمان في ترك ولاية أمير المؤمنين عليه السلام».

قال: «نزلت والله فيهما وفي أتباعهما، وهو قول الله عزّ وجلّ الذي نزل به جَبْرَئيل على محمد صلى الله عليه وآله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ في عليّ ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ قال: دعوا بني اُمية إلى ميثاقهم أن لا يُصيّروا هذا الأمر فينا بعد النبيّ صلى الله عليه وآله، ولا يُعطونا من الخُمس شيئاً، وقالوا: إن أعطيناهم إياه لم يحتاجوا إلى شيء، ولم يُبالوا أن لا يكون الأمر فيهم. فقالوا: سنُطيعكم في بعض الأمر الذي دعوتمونا إليه، وهو الخمس، أن لا نُعطيهم منه شيئاً، والذي نزّل الله ما افترض على خلقه من ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، وكان معهم أبو عبيدة، وكان كاتبهم» الخبر[٥].

وعنهما عليهما السلام: «أنّهم بنوا اُمية، كَرِهوا ما أنزل الله في عليّ عليه السلام»[٦].

فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ[٢٧ و ٢٨]

---

١. تفسير أبي السعود ٨: ١٠٠، تفسير روح البيان ٨: ٥١٩.
٢. تفسير أبي السعود ٨: ١٠٠، تفسير روح البيان ٨: ٥١٩.
٣ و ٤. تفسير الرازي ٢٨: ٦٧.
٥. الكافي ١: ٤٣/٣٤٨، تفسير الصافي ٥: ٢٨.
٦. مجمع البيان ٩: ١٦٠، تفسير الصافي ٥: ٢٩.

ثمَ هدّدهم سبحانه بقوله: ﴿فَكَيْفَ﴾ حالهم ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَآئِكَةُ﴾ الموكّلون بقبض الأرواح، وقبضوا أرواحهم.

قيل: إنّ المراد يفعلون في حياتهم ما يفعلون، فكيف يفعلون إذا قبض روحهم الملائكة[١]. وقيل: يعني هب أنّهم يُسِرّون كفرهم، والله لا يُظهره في حياتهم، فيكف يُخفونه إذا قبض أرواحهم ملائكة[٢] العذاب حال كونهم ﴿يَضْرِبُونَ﴾ بمقامع الحديد أو النار ﴿وُجُوهَهُمْ﴾ التي أقبلوا بها إلى ما أسخط الله، وحوّلوها عن الحقّ ﴿وَأَدْبَارَهُمْ﴾ وأقفيتهم التي ولّوها عن أهله، وعمّا فيه رضا ربهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التوفّي الهائل، أو الضرب بالمقامع ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ لخُبث باطنهم ﴿ٱتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ وأغضبه عليهم من الكفر والطغيان والمعاصي ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ وما يُوجِب حُبّه لهم ورحمته عليهم من الايمان والطاعة ﴿فَأَحْبَطَ﴾ الله لذلك ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ الحسنة، فلا يُفيدهم شيء من نفقاتهم على الفقراء وإحسانهم إلى الناس ونظائرهما من الخيرات والمبرّات التي فعلوها حال إيمانهم، أو حال كفرهم، ولأنّهم لم يطلبوا بها رضا الله وطاعته، بل طلبوا رضا الشيطان والأصنام وموافقة هوى أنفسهم.

عن الباقر عليه السلام في تأويله قال: «كَرِهوا علياً عليه السلام وقد أمر الله بولايته يوم بدر، ويوم حُنين، وببطن نَخْلة، ويوم التروية، ويوم عرفة، نزلت فيه خمس عشرة آية في الحجّة التي صُدّ فيها رسول الله صلى الله عليه وآله عن المسجد الحرام، وبالجُحفة، وبخُم»[٣].

القمي رحمه الله: ﴿مَا أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ يعني موالاة فلان وفلان وظالمي أمير المؤمنين عليه السلام ﴿فَأَحْبَطَ﴾ الله ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ يعني التي عَمِلوها من الخيرات[٤].

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ [٢٩ـ٣١]

ثمّ بيّن الله سبحانه بعد تهديد المنافقين والكفّار علّة جُرأتهم على ما هم عليه من النفاق بقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ وبل توهّم المنافقون ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الشكّ وعِناد الرسول والعصبية ﴿أَن لَّن

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٥١٩.
٢. تفسير الرازي ٢٨: ٦٧.
٣. روضة الواعظين: ١٠٦، تفسير الصافي ٥: ٢٩.
٤. تفسير القمي ٢: ٣٠٩، تفسير الصافي ٥: ٢٩.

﴿يُخْرِجَ ٱللَّهُ﴾ ولن يظهر للمؤمنين أبداً ﴿أَضْغَانَهُمْ﴾ وأحقادهم وعداوتهم للرسول والمؤمنين، فيبقى كفرهم وحقدهم لهم مستوراً، وهذا لا يمكن أبداً.

قيل: إنّ كلمة (أم) استفهامية مُتّصلة، والتقدير: أحسب الذين كفروا أن لن يعلم الله إسرارهم، أم حسب المنافقون أن لن يُظهرها الله[١].

﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾ إراءتهم ﴿لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ ولعرفناكهم بأعيانهم وأشخاصهم بالأمارات والدلائل ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيَمَاهُمْ﴾ وعلامات في وجوههم دالة على نفاقهم.

عن أنس، قال: ما خفي على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية شيء من المنافقين، كان يعرِفهم بسيماهم، ولقد كنّا في بعض الغزوات وفينا تسعة من المنافقين، يشُكّ فيهم الناس، فناموا ذات ليلة وأصبحوا وعلى وجه كلّ منهم مكتوبٌ: هذا منافق[٢].

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾ والله يا محمد ﴿فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ وفَحْوى كلامه، وأُسلوب محاورته، وصرف الكلام عن سُننه الجارية عليه، إما بازالة الإعراب، أو التصحيف، وإما بازالته عن التصريح وصرفه بمعناه إلى التعريض، كقولهم: ﴿ليخرجن الاعز منها الاذل﴾[٣] أو المراد لتعرفنّهم في معنى قول الله، كقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا﴾[٤] وقيل: لحن القول: الوجه الخفيّ من القول الذي يعرِفه النبي ﷺ دون غيره[٥].

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَعْمَالَكُمْ﴾ ظاهرها وباطنها، فيُجازيكم على حسب قُصودكم ونيّاتكم.

عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «قلت أربع كلماتٍ أنزل الله تصديقهنّ، قلت: المرء مخبوءٌ تحت لسانه، فإذا تكلّم ظهر، فأنزل الله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾»[٦].

وعن أبي سعيد الخُدري، قال: لحن القول: بُغض علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: كنّا نعرِف المنافقين على عهد رسول الله ببُغضهم علي بن أبي طالب عليه السلام[٧].

﴿وَ﴾ بالله ﴿لَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ ولنختبرنّ إيمانكم بالأمر بالجهاد ونحوه من التكاليف الشاقة ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ﴾ ونُميّزهم من غير المجاهدين ﴿وَٱلصَّابِرِينَ﴾ على مشاقّ الجهاد وسائر التكاليف، وتُميّزوا من غير الصابرين والثابتين في المعارك من المولّين والفارّين ﴿وَنَبْلُوَا﴾ و

---

١. تفسير الرازي ٢٨: ٦٩.
٢. تفسير أبي السعود ٨: ١٠١، تفسير روح البيان ٨: ٥٢٠.
٣. المنافقون: ٨/٦٣.
٤. النور: ٦٢/٢٤.
٥. تفسير الرازي ٢٨: ٧٠.
٦. أمالي الطوسي: ١٠٨٢/٤٩٤، تفسير الصافي ٥: ٢٩.
٧. مجمع البيان ٩: ١٦٠، تفسير الصافي ٥: ٣٠.

نمتحن﴿أَخْبَارَكُمْ﴾ بأنكم صادقون في الايمان، وأنكم ثابتون في نزال الأعداء، إنه صدق أو كذب.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللهِ وَشَاقُّوا ٱلرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا ٱللهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ * يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ[٣٢ و ٣٣]

ثمّ هدّد سبحانه الكفّار والمنافقين بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله في الباطن، أظهر الايمان أو الكفر ﴿وَصَدُّوا﴾ ومنعوا انفسهم أو غيرهم ﴿عَن﴾ سلوك ﴿سَبِيلِ ٱللهِ﴾ والعمل بدين الاسلام ﴿وَشَاقُّوا ٱلرَّسُولَ﴾ وعاندوه وعارضوه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ ووضح ﴿لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ والحقّ من رسالة محمد صلى الله عليه وآله وصحة دينه، بما شاهدوا من معجزاته ونُعوته في الكتب السماوية. قيل: اُريد منهم بنو قُريظة والنّضير من اليهود، ورؤساء قريش المُطعِمون يوم بدر، اُولئك[١] ﴿لَن يَضُرُّوا ٱللهَ﴾ تعالى بكفرهم وصدّهم وشِقاقهم مع الله بشِقاقهم مع الرسول ﴿شَيْئاً﴾ يسيراً من الضرر، بل يَضُرّون انفسهم أشدّ الضرر ﴿وَسَيُحْبِطُ﴾ الله ويُبطِل البتة ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ ومكائدهم في إطفاء نور الحقّ، واضمحلال كلمة التوحيد، وإبطال دين الاسلام.

وقيل: إنّ المراد من الذين كفروا خصوص أهل الكتاب ومن أعمالهم الخيرية التي كانوا يعملونها قبل الكفر برسالة النبي صلى الله عليه وآله[٢].

ثمّ لمّا بيّن سبحانه أنّ الكفر ومشاقّة الرسول صلى الله عليه وآله يوجب بطلان الأعمال الخيرية، حثّ المؤمنين على طاعة الله ورسوله، والتحذير عن إبطال الأعمال بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ﴾ في جميع ما أمراكم به ونهياكم عنه ﴿وَلَا تُبْطِلُوا﴾ بمخالفة الرسول صلى الله عليه وآله والرياء والسُّمعة والعُجب ﴿أَعْمَالَكُمْ﴾ كما أبطل الكفّار بالكفر ومشاقّة الرسول صلى الله عليه وآله أعمالهم. وقيل: إنّ المعنى لا تُبطلوا بالشِّرك أعمالكم[٣].

عن الباقر عليه السلام. قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من قال: سُبحان الله، غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال: الحمد لله، غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال: لا إله إلّا الله، غرس الله له بها شجرة في الجنّة، ومن قال: الله أكبر، غرس الله له بها شجرة في الجنة. فقال رجلٌ من قريش: يا رسول الله، إنّ شجرنا في الجنة كثير؟ فقال: نعم، ولكن إياكم أن تُرسِلوا عليها نيراناً فتُحرِقوها، وذلك أن الله تعالى

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٥٢٢.
٢. تفسير الرازي ٢٨: ٧١.
٣. تفسير الرازي ٢٨: ٧٢.

يقول: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾»[1].

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللهُ لَهُمْ * فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ[٣٤و ٣٥]

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان بطلان أعمالهم الخيرية وعدم فائدتها لهم، بيّن عدم العفو عن ذنوبهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللهِ ثُمَّ مَاتُوا﴾ وخرجوا من الدنيا ﴿وَ﴾ الحال أنّ ﴿هُمْ كُفَّارٌ﴾ حين موتهم ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللهُ لَهُمْ﴾ ذنوبهم التي اقترفوها في الدنيا، كثيرة كانت أو صغيرة، لعدم أهليتهم للمغفرة والرحمة، فاذا عَلِمتم أنّ الله يُعادي الكفار، ولا يقبل أعمالهم الخيرية، ولا يغفر ذنوبهم، ولا يرحمهم ﴿فَلَا تَهِنُوا وَ﴾ لا تتوانوا في قتالهم، ولا تَضْعُفوا في جهادهم، بل جُدّوا واجتهدوا فيه، ولا تجعلوا المشاغل الدنيوية مانعةً عنه، ولا ﴿تَدْعُوا﴾ هم ﴿إِلَى ٱلسَّلْمِ وَ﴾ الصُّلح. ولا تسألوا منهم متاركة القتال، فانّ فيه ذُلّكم، والحال ﴿أَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ والغالبون عليهم.

ثمّ بيّن سبحانه علّة عُلوهم وغَلَبتهم بقوله: ﴿وَٱللهُ مَعَكُمْ﴾ وناصركم في الدارين ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ﴾ ولن يُضيع ﴿أَعْمَالَكُمْ﴾ بل يُعطيكم أجرها فوق ما تتوقّعون، فيكون لكم في جهادهم شرف الدنيا وثواب الآخرة، فلا ينبغي لمن له عقل أن يتهاون فيه.

لمّا بيّن سبحانه أنّ الغَلَبة على الكفّار بنصرة الله لا بقوتهم وشوكتهم، كان مجال أن يتوهّم أن أجر جهادهم يَنْقُص بسبب كون الغَلَبة بنُصرته تعالى، فدفعه سبحانه وقال: لم ينقص أجر جهادكم بسبب نُصرته، بل يُعطيكم أجركم كاملاً[2].

قيل: إنّ الآية ناسخة لقوله ﴿وان جنحوا للسلم فاجنح لها﴾[3] وفيه: أنّه لا تنافي بين الحكمين، فانّ الآية ظاهرة في حُرمة طلب المسلمين الصلح مع الكفار أولاً، والآية الأُخرى إذن في إجابة الكفار إن طلبوا الصُّلح، فانّ في طلب الصّلح منهم ذُلّ ومهانة للمسلمين[4]، وفي إجابة دعائهم إلى الصُّلح شَرَفٌ وكرامة لهم.

إِنَّمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ * إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ[٣٦و ٣٧]

---

١. ثواب الأعمال: ١١، تفسير الصافي ٥: ٣٠.
٢. تفسير الرازي ٢٨: ٧٣.
٣. الأنفال: ٦١/٨.
٤. تفسير القرطبي ١٦: ٢٥٦.

ثمَ بالغ سبحانه في حثّ المؤمنين على الجهاد ببيان مهانة الدنيا وعَظَمة أجر الآخرة بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا﴾ والعمر فيها والاشتغال بزخارفها وزينتها ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ وباطلٌ وعمل سُفهائي عند العقلاء وأهل البصيرة ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا﴾ أيها الناس بما يجب الايمان به ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الكفر والعصيان ومخالفة أحكام الله ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ الله ﴿أُجُورَكُمْ﴾ ومثوبات أعمالكم الصالحة من الايمان والتقوى في الآخرة، كما وعدكم به ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ﴾ الله ﴿أَمْوَالَكُمْ﴾ جميعاً، فتتضرَرون في الدنيا بسبب الايمان والتقوى، ويختلّ معاشكم، حتى يصير الضرر مانعاً من الايمان والتقوى، وإنّما يسألكم جزءاً يسيراً منها بعنوان الزكاة كالعُشر ونصف العُشر.

وقيل: إنّ المراد لا يسألكم أموالكم لانّه ليس لكم مال، بل جميع ما في ايديكم مال الله، أو دعه عندكم، وأجازكم في صرفه في محاويجكم تفضّلاً عليكم، فلا ينبغي أن تمتنعوا عن صرفه فيما أمركم مالكه بصرفه[1].

ثمَ قرّر سبحانه لُطفه بالمؤمنين بأن لم يرض بضررهم وحَرَجهم وفساد باطنهم وضمائرهم بقوله: ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا﴾ ويأمُركم بصرفها ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ ويُجهدكم بأمركم بصرف الكلّ في سبيله ﴿تَبْخَلُوا﴾ وتمتنعوا عن صرف الكلّ ﴿وَيُخْرِجْ﴾ الله بسبب ذلك الأمر والسؤال أو البُخل ﴿أَضْغَانَكُمْ﴾ وأحقادكم الحادثة بذلك السؤال، فانّ ابن آدم ينقِم ويبغُض من يطمع في ماله، ويُوقعه في الضرر، ولذا لم يسالكم جميع أموالكم.

هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَفْسِهِ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم[٣٨]

ثمَ وبّخهم سبحانه على بُخلهم بصرف اليسير من أموالهم بقوله تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ﴾ وتنبّهوا أيّها المؤمنون بأنّكم ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ البُخلاء الذين ﴿تُدْعَوْنَ﴾ من قبل الله ﴿لِتُنفِقُوا﴾ يسيراً من أموالكم ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وترويج دينه، واعانة أوليائه ﴿فَمِنكُم مَن يَبْخَلُ﴾ ويمتنع ببُخله عن الانفاق، والحال أنّ ﴿وَمَن يَبْخَلْ﴾ بماله على الفقراء والمجاهدين وسائر الوجوه البرية ﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلُ﴾ ويمسِك الخير ﴿عَن نَفْسِهِ وَ﴾ يُحرَم من منافعه.

﴿ٱللَّهُ﴾ تعالى هو ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾ بذاته عنكم وعن أموالكم وصدقاتكم ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَاءُ﴾ إليه وإلى ما

---

١. تفسير الرازي ٢٨: ٧٤.

عنده من الخيرات، فما يأمُركم به هو عين خيركم وصلاحكم، وفائدته راجعةٌ إليكم.

ثمَ هدّد سبحانه العُصاة والمخالفين بقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ وتُعرِضوا عن الايمان والطاعة والانفاق يهلِككم و﴿يَسْتَبْدِلْ﴾ ويُخلف في أرضكم ومساكنكم ﴿قَوْماً﴾ آخرين وجماعة ﴿غَيْرَكُمْ﴾ يعيشون في دياركم ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ في العصيان والإعراض عن الايمان والطاعة، بل يكونون مؤمنين مجدّين في التقوى والطاعة.

قيل: إن كلمة (ثمّ) دالةٌ على أن مدخولها ممّا يستبعده المخاطب[١].

قيل: إنّ المخاطب قريش، والبدل الأنصار. وقيل: إنّ المخاطب العرب، والبدل أهل فارس[٢]، لما رُوي أنّ النبي ﷺ سُئل عن القوم وسلمان كان إلى جنبه، فضرب على فخذه، فقال: «هذا وقومه، والذي نفسي بيده، لو كان الإيمان مَنُوطاً بالثُّريا لتناوله رجالٌ من فارس»[٣]، ورواه (المجمع) أيضاً، وفيه فضيلةٌ عظيمةٌ لأهل فارس[٤].

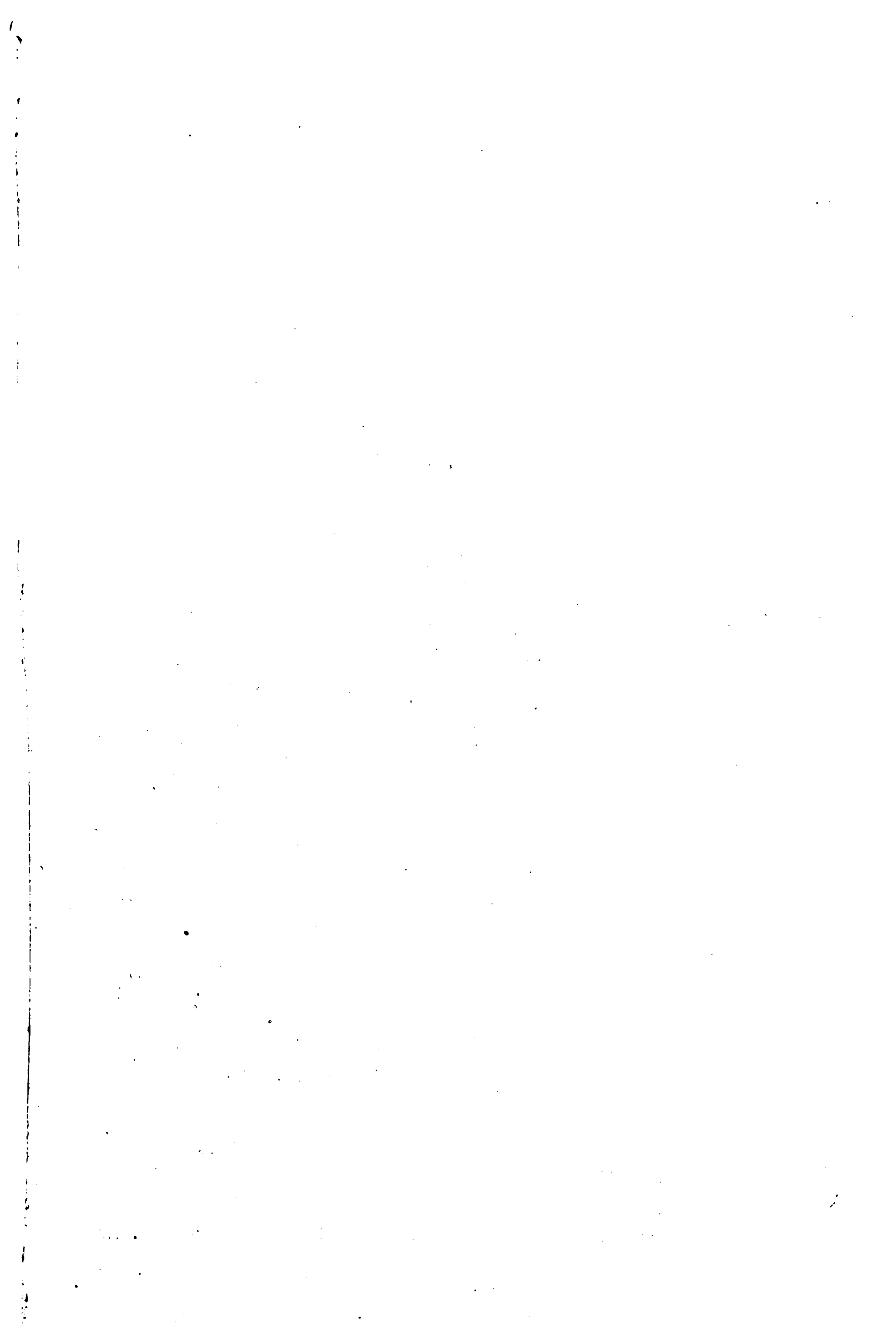
وفي الحديث: «خيرتان من خلقه في أرضه: قُريش خيرة الله من العرب، وفارس خيرة الله من العجم»[٥].

وعن أبي الدرداء أنّه كان يقول بعد قراءة هذه الآية: أكثروا يا بني فرّوح[٦]. قيل: إنّ فرّوح إن َفرّوح كتنّور، أخو إسماعيل وإسحاق، أبو العجم الذين في وسط البلاد[٧].

عن الباقر عليه السلام، قال: «﴿إِن تَتَوَلَّوْا﴾ يا معشر العرب ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾ يعني الموالي»[٨].

---

١. تفسير روح البيان ٨: ٥٢٦.
٢. تفسير روح البيان ٨: ٥٢٦.
٣. تفسير الرازي ٢٨: ٧٦، تفسير أبي السعود ٨: ١٠٣، تفسير روح البيان ٨: ٥٢٦.
٤. مجمع البيان ٩: ١٦٤.
٥ ـ ٧. تفسير روح البيان ٨: ٥٢٦.
٨. مجمع البيان ٩: ١٦٤، عن الصادق عليه السلام، تفسير الصافي ٥: ٣٢.



في تفسير سورة الفتح

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً [١]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة محمد ﷺ المتضمّنة لبيان فضيلة المؤمنين به باتّباعهم دينه الحقّ، وتفضُّله عليهم بتكفير ذنوبهم وإصلاح أُمور دينهم ودنياهم، وأمرهم بنُصرته، والانفاق في ترويج دينه، والجهاد لإعلاء كلمته ودفع أعدائه، والبشارة بغلبتهم على الكفّار، نظمت سورة الفتح المبدوءة ببشارة رسوله ﷺ بفتح مكّة أو الحديبية، ونُصرته على أعدائه، الموقوف على ثبات المؤمنين في نَصْره، والانفاق في الجهاد معه، وبغفران ذنوبه، وسائر تفضلاته عليه ﷺ وعلى المؤمنين به، فافتتحها عزّ وجلّ بذكر أسمائه الحُسنى على دأبه تعالى تيمناً وتعليماً للعباد والمؤمنين بقوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ثمّ ابتدئها بالبشارة بقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ يا محمّد، مكّة وغلبناك على أهلها، وظفرناك بها عَنْوةً ﴿فَتْحاً﴾ وظَفَراً ﴿مُبِيناً﴾ ظاهراً، مكشوف الحال لكلّ أحد، إنّه بقُدرتنا وتأييدنا.

عن أنس بُشر به رسول الله ﷺ عند انصرافه من الحديبية، وإنّما أتى سبحانه بصيغة الماضي إيذاناً تحقّق وقوعه[١].

رُوي أنّه لمّا نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «لقد نزلت عليَ آيةٌ هي أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها»[٢].

وفي رواية أُخرى: «لقد نزلت عليَ سورةٌ ما يَسُرّني بها حُمر النَّعم»[٣].

وفي ثالثة أنه ﷺ قال لأصحابه: «أُنزلت عليَ سورة أحبّ إلي ممّا طلعت عليه الشمس»[٤] ثم قرأ السورة عليهم، وهنأهم وهنأوه، وفي الآية والروايات دلالةٌ واضحةٌ على عَظَمة شأن هذا الفتح الذي

---

١. تفسير أبي السعود ٨: ١٠٣، تفسير روح البيان ٩: ٢.
٢. مجمع البيان ٩: ١٦٥، وفيه: الدنيا كلها، تفسير الصافي ٥: ٣٣.
٣. تفسير القرطبي ١٦: ٢٦٠، تفسير روح البيان ٩: ٦ و٧.
٤. تفسير روح البيان ٩: ٦.

فيه قوّة الإسلام ورواج شَرْعه.

روت العامة أنّ النبي ﷺ رأى في المنام أنّه مع أصحابه دخلوا مكّة آمنين مُحلّقين رؤسهم ومقصّرين، وأنّه دخل البيت وأخذ مفتاحه، وطاف هو وأصحابه واعتمر، فأخبر بتلك الرؤيا أصحابه ففرحوا، ثمّ أخبرهم أنّه يُريد الخروج للعمرة فتجهّزوا للسفر، فخرج عليه الصلاة [والسلام] بعد أن اغتسل في بيته، ولَبِس ثوبين، ورَكِب راحلته القَصوى من عند بابه، ومعه ألف وأربعمائة من المسلمين على رواية، وأبطأ عليه كثيرٌ من أهل البوادي خَشيةً من قريش، وساق عليه السلام معه الهدي سبعين بَدَنة[1]، وكان خروجه يوم الاثنين غُرّة ذي القعدة من السنة السادسة من الهجرة، فلمّا وصل إلى ذي الحليفة[2]، وهو ميقات المدنيين، صلّى بالمسجد الذي فيه رَكْعتين، وأحرم بالعُمرة هو وغالب أصحابه، ومنهم من أخّر الإحرام إلى الجُحفة[3]، ثمّ نَفِد الماء في الطريق بين أصحابه، فأقبلوا نحوه، وكان بين يديه رِكْوة[4] يتوضأ منها، فقال: «مالكم؟» قالوا: يا رسول الله. ليس عندنا ماءٌ نشرب أو نتوضأ منه إلّا في رِكوتك. فوضع يده في الرِّكوة، ففار الماء من أصابعه الشريفة أمثال العيون، فشَرِبوا وتوضّأوا، وقال جابر: لو كنّا مائة ألف لكفانا[5].

ثمّ أرسل ﷺ بشر بن سفيان إلى مكّة عيناً له، فلمّا رجع إلى رسول الله ﷺ وهو بعُسفان[6]، قال: يا رسول الله، قد سَمِعتْ قريش بخروجك، فلبسوا النِّمر ـ قيل: هو كناية عن إظهار شدّة العداوة والحِقد له ـ واستنفروا من أطاعهم من الأحابيش، ومعهم زادهم ونساؤهم وأولادهم، ونزلوا بذي طوى[7]، وتعاهدوا على أن لا تدخُلها عليهم أبداً. فقال ﷺ: «أشيروا عليّ ـ أيّها الناس ـ أتُريدون أن نَؤمّ البيت، فمن صدّنا عنه قاتلناه؟» فقال المِقداد: يا رسول الله، إنّا لا نقول ما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ﴾[8] ولكن نقول: اذهب أنت وربّك [فقاتلا] إنا معكما مقاتلون. فقال ﷺ «امضوا على اسم الله» فساروا.

ثمّ قال ﷺ: «هل رجلٍ [يُخرجنا] من طريق إلى غير طريقهم التي هم بها» فقال رجل من أسلم اسمه ناجية بن جُندب: أنا يا رسول الله. فسلك بهم طريقاً وَعْراً، ثمّ أفاضوا إلى أرضٍ سهلةٍ.

---

١. البَدَنة: ناقة أو بقرة تُنْحَ قُرباناً بمكّة.

٢. ذو الحُليفة: قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة.

٣. الجُحفة: قرية كبيرة ذات منبر على طريق المدينة من مكة على أربعة مراحل.

٤. الرِّكوة: إناء صغير من جلدٍ يُشرب فيه الماء.

٥. تفسير روح البيان ٩: ٣.

٦. عُسفان: منهلة من مناهل الطريق بين الجُحفة ومكة.

٧. ذو طُوى: موضع عند مكة.

٨. المائدة: ٢٤/٥.

ثمّ أمر رسول الله ﷺ أن يَسْلُكوا طريقاً يُخرجهم على مَهْبِط الحُدَيبية من أسفل مكّة، فسلكوا ذلك الطريق، فلمّا نزلوا بالحُدَيبية نزح[1] ماؤها حتى لم يبقَ فيها قطرة ماء، فشكا الناس إلى رسول الله العطش، وكان الحرّ شديداً، فأخرج ﷺ سهماً من كِنانته، ودفعه إلى البَراء بن عازب، وأمره أن يَغرِزه في جوف البئر[2] ـ وقيل: تمضمض رسول الله ﷺ ثمّ مَجّه في البئر ـ فجاش الماء حتى امتلأت البئر، فشربوا جميعاً، وروت إبلُهم، ولم يَنْفَد ماؤها[3].

وقيل: لمّا ارتحلوا من الحُدَيبية أخذ البراء السَّهم من البئر، فخُفِضت كأن لم يكن فيها ماء.

فلمّا أطمأن ﷺ بالحُدَيبية، جاءه بديل بن ورقاء، وكان سيد قومه، فسأله ما الذي جاء به؟ فأخبره أنّه لم يأتِ يُريد حرباً، إنّما جاء زائراً للبيت، فلمّا رجع إلى قريش وأخبرهم بما قال النبي ﷺ لم يطمئنوا بقوله، ثمّ أرسلوا الحُليس بن علقمة، وكان سيد الأحابيش، فلم يعتمدوا عليه أيضاً، فأرسلوا عُروة بن مسعود الثقفي عظيم الطائف، فلمّا قام بالخبر من عنده ﷺ، وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يغسل يديه إلّا ابتدروا وضوءه، ولا يَبصُق بُصاقاً إلا ابتدروه، ولا يسقُط من شعره شيءٌ إلّا أخذوه، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده، ولا يَحِدّون النظر إليه تعظيماً له.

فقال: يا معشر قريش، إنّي جئت كسرى في مُلكه، وقيصر في مُلكه، والنجاشي في مُلكه، ما رأيت مَلِكاً في قومٍ قطّ مثل محمد في أصحابه، أخاف أن لا تُنْصَروا عليه.

فقالت له قريش: لا تتكلّم بهذا يا أبا يعفور، لكن نَرُدّه عامنا هذا، أو يرجِع من قابل. فقال: ما أراكم إلا سيصيبكم قارعةٌ، ثمّ انصرف هو ومن معه إلى الطائف.

ثمّ دعا ﷺ خِراش بن أُمية الخُزاعي، فبعثه إلى قريش، وحمله على بعيرٍ له، يقال له الثعلب، ليُبلّغ اشرافهم عنه ما جاء له، فعقروا جمل رسول الله ﷺ، وأرادوا قتل خِراش، فمنعه الأحابيش، فخلّوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ وأخبره بما لقي.

ثمّ دعا عمر بن الخطاب، وأمره أن يُبلّغ أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله، إنّي أخاف قريشاً على نفسي، وما بمكّة من بني عَديّ بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغِلْظتي عليها، ولكن أدُلّك على رجلٍ أعزّ بها منّي؛ عثمان بن عفان، فانّ بني عمّه يمنعونه.

فدعا عثمان، فبعثه إلى أشراف قريش، وأمره أن يأتي رجالاً مُسلمين بمكّة ونساءً مسلمات، ويدخُل عليهم ويُخبرهم أنّ الله قرب أن يظهر دينه بمكّة حتى لا يُستخفىٰ فيها بالايمان، فخرج

---

١. يقال: نَزَح البئرُ: قل ماؤها أو نَفِد.
٢. تفسير روح البيان ٩: ٣.
٣. تفسير روح البيان ٩: ٤.

عثمان إلى مكّة ومعه عشرة رجال من الصحابة بإذن رسول الله ﷺ ليزوروا أهاليهم هناك، فلقي عثمان قبل أن يدخُل مكّة أبان بن سعيد، فأجاره حتى يُبَلّغ رسالته، وجعله بين يديه، فأتى عُظماء قريش، فبلّغهم الرسالة، وهم يقولون: إنّ محمداً لا يدخُل علينا أبداً.

فلمّا فرغ عثمان من الرسالة، قالوا له: إن شئت فطف بالبيت، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله. وكانت قريش قد احتبست عثمان عندها ثلاثة أيام، فبلغ رسول الله ﷺ أنّ عثمان ومن معه قُتِلوا كلّهم، فقال: «لا نبرح حتى نُناجِز القوم» فأمره الله بالبيعة، فنادى مناديه: أيّها الناس، البيعة البيعة، نزل رُوح القُدس، فاخرُجوا على اسم الله، فثاروا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرةٍ من أشجار السَّمُر[1]، فبايعوه على عدم الفِرار، وقالوا لها بيعة الرِّضوان[2].

أقول: لعلّ وجه التسمية أنّ الله قال: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ**﴾[3].

وأول من بايع سِنان بن سِنان الأسدي، فقال: يا رسول الله، أبايعك على ما في نفسك. قال: «وما في نفسي؟» قال: أضرِب بسيفي حتى ينصُرك الله أو أُقتل، وصار الناس يقولون: نُبايعك على ما بايعك عليه سِنان[4]. وروي أن عثمان رجع بعد ثلاثة أيام، فبايع هو أيضاً.

وكان محمد بن مَسلمة على حرس رسول الله ﷺ فبعثت قريش أربعين رجلاً، عليهم مِكرِز بن حَفْص، ليطوفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليلاً، رجاء أن يُصيبوا منهم أحداً، ويجدوا منهم غفلةً، فأخذهم محمد بن مَسْلَمة إلا مِكْرِز فانّه أفلت، وأتى بهم رسول الله ﷺ، فحُبِسوا، فبلغ قريشاً حبس أصحابهم، فجاء جمعٌ منهم حتى رَمَوا المسلمين بالنَّبل والحِجارة، وقُتِل من المسلمين ابن رَسم رُمي بسهم، فأسر المسلمون منهم اثني عشر رجلاً.

وعند ذلك بعثت قريش إلى رسول الله جمعاً فيهم سُهيل بن عمرو، فلمّا رآه رسول الله ﷺ تفاءل، وقال لأصحابه: «سَهُل أمركم» فقال سهيل: يا محمد، إنّ ما كان من حبس أصحابك، وما كان من قتال من قاتل، لم يكن من رأي ذوي رأينا، بل كنّا كارهين له حين بلغنا، وكان من سُفهائنا، فابعث إلينا أصحابنا الذين أُسروا أولاً وثانياً، فقال ﷺ: «إني لا أُرسلهم حتى تُرسِلوا أصحابي» فقالوا: نفعل فبعث سهيل ومن معه إلى قريش بذلك، فبعثت قريش عثمان والعَشرة، فأرسل رسول الله ﷺ أصحابهم.

ولمّا سَمِعت قريش بهذه البيعة، كَبُرت عليهم، وخافوا أن يُحاربوا، وأشار أهل الرأي منهم بالصُّلح

---

١. السَّمُر: ضربٌ من شجر الطَّلح، واحدته سَمُرة. ٢. تفسير روح البيان ٩: ٤.
٣. الفتح: ١٨/٤٨. ٤. تفسير روح البيان ٩: ٥.

على أن يرجِع ويعود من قابل، ويُقيم ثلاثاً، فبعثوا سهيلاً ومِكْرِز أو حُويطب بن عبد العُزّى إلى رسول الله ﷺ للصُّلح، فلمّا رآه مقبلاً قال: «أراد القوم الصُّلح» فلمّا أراد الرسول ﷺ الصُّلح لم يرضَ بعض الأصحاب به، وقالوا: علام نُعطي الدنية في ديننا، ونحن المسلمون، وهم مشركون؟ فأشار ﷺ بالرضا ومتابعة الرسول.

ثمّ دعا علياً عليه السلام، فقال: «اكتُب بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سُهيل: لا نعرِف هذه، ولكن اكتب: باسمك اللهم، فكتبها لأنّ قريشاً كانت تقولها.

ثمّ قال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمّد رسول الله سهيل بن عمرو». فقال سهيل: لو شَهِدت أنّك رسول الله لم أُقاتلك، ولم اصُدّك عن البيت، ولكن اكتب اسمك وأسم أبيك. فقال ﷺ لعلي عليه السلام: «امحُ رسول الله». فقال علي عليه السلام: «والله لا أمحوك». فقال: «أرنيه» فأراه إياه، فمحاه رسول الله ﷺ بيده الشريفة، وقال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله سهيل بن عمرو» وقال: «أنا والله رسول الله، وإن كذّبتموني».

وكان الصُّلح على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، ومن أتى من قريش ممّن هو على دين محمد ﷺ بغير إذن وليه ردّه إليه ذكراً كان أم أُنثى، ومن أتى قريشاً ممّن كان مع محمداً ذكراً كان أو أُنثى لم تَرُده إليه، ومن أحبّ أن يدخُل في عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخُل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وأنّ بيننا وبينكم عيبةً مكفوفة[١]، لا إسلال ولا إغلال[٢]، وأنّ محمداً ﷺ يرجِع عامة هذا، فلا يدخُل مكّة، وإذا كان عام قابل خرج منها قريش ودخلها محمد بأصحابه، وأقاموا بها ثلاثة أيام معهم سلاك الراكب السيوف في القُرُب والقوس، لا يدخلونها بغيرهما.

فلمّا فرغ رسول الله ﷺ من الصُّلح، وأشهد عليه رجالاً من المسلمين، قام إلى هَدية فنحره، وفرّق لحمه على الفقراء، فلمّا رأى المسلمون الصُّلح وما تحملّه رسول الله ﷺ، دخلهم من ذلك أمر عظيم، وكانوا لا يَشُكّون في دخولهم مكّة وطَوافهم بالبيت ذلك العام للرؤيا التي رآها النبي ﷺ، وقال عمر: ألم تقل إنّك تدخُل مكة آمناً؟ قال: بلى، أفقلت لكم من عامي هذا؟» قال المسلمون: لا، قال ﷺ: «فهو كما قال جَبْرَئيل، إنّكم تأتونه وتطوفون به»[٣].

وروي أنه ﷺ لمّا دخل في العام القابل، وحلق رأسه، قال: «هذا الذي وعدتكم» فلمّا كان يوم

---

١. أي صدوراً منطوية على ما فيها لا تُبدي عداوة. أو منطوية على الوفاء بالصلح.
٢. أي لا سرقة ولا خيانة.
٣. تفسير روح البيان ٩: ٥.

الفتح وأخذ المفتاح قال: «هذا الذي قلت لكم»[١].

أقول: يُعلم من تلك الرواية حال عمر وحال كثير من الأصحاب وحال بيعتهم هنا من فِرار أكثرهم يوم حُنين.

قيل: إنه ﷺ أقام بالحديبية تسعة عشر أو عشرين يوماً، ثمّ انصرف إلى المدينة، فلمّا بلغ بكراع الغميم[٢] نزلت عليه سورة الفتح، قال بعض الصحابة: ما هو بفتح، لقد صَدّونا عن البيت، وصدُّوا هدينا، فلمّا بلغ النبيّ ﷺ كلامهم السوء، قال ﷺ: «بل هو أعظم الفتح، لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالبَرَاح[٣] عن بلادهم، وسألوكم الصُلح، والتجأوا إليكم في الأمان، ورأوا منكم ما كَرِهوا، وظفركم الله عليهم، وردّكم سالمين مأجورين، فهو أعظم الفتوح، أنسيتم يوم أُحد، وأنا أدعوكم في أُخراكم؟ أنسيتم يوم الأحزاب، إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم؟ وإذ زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وتظُنّون بالله الظنونا؟».

فقال المسلمون: صدق الله ورسوله، هو أعظم الفتح، والله يا نبي الله ما فكّرنا فيما فكّرت فيه، ولأنت أعلم بالله وبأمره.

ثمّ أصاب الناس مجاعةٌ شديدةٌ، وهمّوا أن ينحروا ظهورهم[٤]، فقال ﷺ: «ابسطوا أنطاعكم وعباءكم» ففعلوا ثمّ قال: «من كان عنده بقيةٌ من زادٍ وطعامٍ فلينشُره» ثمّ دعا لهم، ثمّ قال: «قرّبوا أوعيتكم» فأخذوا ما شاءوا، ملأوا أوعيتهم، وأكلوا حتى شبعوا؟ وبقي مثله، وقال ﷺ لرجلٍ من أصحابه: «هل من وَضُوءٍ؟»[٥] فجاءه بأداوة فيها ماءٌ قليلٌ، فأفرغها في قدحٍ، ووضع راحلته الشريفة في ذلك الماء، فتوضأ المسلمون كلّهم به[٦].

وروى القمي رحمه الله عن الصادق عليه السلام، قال: «سبب نزول هذه السورة وهذا الفتح العظيم، أنّ الله عزّ وجلّ أمر رسوله في النوم أن يدخُل المسجد الحرام ويطوف، ويحلِق مع المُحلّقين، فأخبر أصحابه وأمرهم بالخروج فخرجوا، فلمّا نزل ذا الحَليفة أحرموا بالعُمرة وساقوا البُدن، وساق رسول الله ﷺ ستة وستين بَدَنة، وأشعرها عند إحرامه، أحرموا من ذي الحَليفة مُلَبّين بالعُمرة، وقد ساق من ساق منهم الهدي مُشعرات مجلّلات.

فلمّا بلغ قريشاً ذلك، بعثوا خالد بن الوليد في مائتي فارس كميناً، ليستقبل رسول الله ﷺ، وكان

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٧.

٢. كُراع الغميم: موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة.

٣. البَرَاح: الزوال والمغادرة.

٤. أي الدوابّ التي يركبونها أو تحمل أثقالهم.

٥. الوَضوء ـ بالفتح ـ: الماء.

٦. تفسير روح البيان ٩: ٦ و٧.

يُعارضه على الجبال، فلمّا كان في بعض الطريق حضرت صلاة الظهر، فأذّن بلال، فصلى رسول الله ﷺ بالناس، فقال خالد بن الوليد، لو حملنا عليهم وهم في الصلاة لأصبناهم، فانّهم لا يقطعون صلاتهم، ولكن تجيء لهم صلاة أُخرى أحب إليهم من ضياء أبصارهم، فإذا دخلوا في الصلاة أغرنا عليهم، فنزل جبرئيل على رسول الله ﷺ بصلاة الخوف.

فلمّا كان في اليوم الثاني نزل رسول الله ﷺ بالحُديبية، وهي على طرف الحَرم، وكان رسول الله ﷺ يستنفر الأعراب في طريقه معه، فلم يتبعه أحدٌ، ويقولون: أيطمع محمد وأصحابه أن يدخُلوا الحرم وقد غزتهم قريش في عُقر ديارهم فقتلوهم، إنّه لا يرجع محمد وأصحابه إلى المدينة أبداً.

فلمّا نزل رسول الله ﷺ الحُدَيبية، خرجت قريش يحلِفون باللات والعُزَى لا يَدَعُون رسول الله ﷺ يدخُل مكّة وفيهم عَين تطرِف، فبعث إليهم رسول الله ﷺ: أنّي لم آتِ للحرب، وإنّما جئتُ لأقضي مناسكي، وأنحر بُدْني، وأُخلّي بينكم وبين لحماتها.

فبعثوا عُروة بن مسعود الثقفي، وكان عاقلاً لبيباً، وهو الذي أنزل الله فيه: **﴿وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هٰذَا ٱلْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾** فلمّا أقبلوا إلى رسول الله ﷺ عظّم ذلك، وقال: يا محمد، تركت قومك وقد ضربوا الأبنية، وأخرجوا العُوذ المَطَافِيل[1]، يحلِفون باللات والعُزَى لا يَدَعوك تدخُل مكّة وفيهم عين تطرِف، أفتُريد أن تبير أهلك وقومك يا محمد؟

فقال رسول الله ﷺ: ما جئت للحرب، وإنّما جئت لأُقضي مناسكي، وأنحر بُدني، وأُخلّي بينهم وبين لحماتها. فقال عُروة: والله ما رأيت أحداً صُدَّكما صُدِدت.

فرجع إلى قريش، فأخبرهم، فقالت قريش: والله لئن دخل محمد مكّة، وتسامعت به العرب، لَتذلنّ ولتجترئنّ علينا العرب. فبعثوا حفص بن الأحنف وسُهيل بن عمرو، فلمّا نظر إليهما رسول الله ﷺ قال: ويح قريش، قد نهكتهم الحرب، ألا خلّوا بيني وبين العرب، فإن أكُ صادقاً فانّما أجر المُلك إليهم مع النبوة، وإن أكُ كاذباً كفتهم ذُؤبان العرب، لا يسألني اليوم امرؤ من قريش خُطّة لله فيها رضىً[2] إلّا أجبتهم إليه.

فلمّا وافوا رسول الله ﷺ. قالوا: يا محمد، ألا ترجِع عامك هذا إلى أن ننظُر إلى ما يصير أمرك وأمر العرب، فانّ العرب تسامعت بمسيرك، فاذا دخلت بلادنا وحَرَمنا استذلّتنا العرب واجترأت علينا، ونُخلي لك البيت في العام القابل في هذا الشهر ثلاثة أيام حتى تقضي نُسكك وتَنْصَرف عنّا.

---

١. العُوذ: الحديثة العهد بالنتاج من الابل والخيل، والمطافيل: ذوات الطفل.

٢. في المصدر، وتفسير الصافي: سخط.

فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وآله إلى ذلك.

وقالوا: ترُدَ إلينا كلَ من جاءك من رجالنا، ونرُدَ إليك كلَ من جاءنا من رجالك. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: من جاءكم من رجالنا فلا حاجة لنا فيهم، ولكن على أنّ المسلمين بمكة لا يُؤذَون في إظهارهم الاسلام، ولا يُكرَهون، ولا يُنكِرون عليهم شيئاً يفعلونه من شرائع الاسلام، فقبلوا ذلك.

فلمّا أجابهم رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الصُلح أنكر عامة أصحابه، واشدّ ما كان إنكار عمر، فقال: يا رسول الله، ألسنا على الحقّ، وعدوّنا على الباطل؟ قال نعم. قال: فنُعطى الذلّة في ديننا؟ فقال: إنّ الله عز وجل وَعَدني ولن يُخلفني. قال: لو أنّ معي أربعين رجلاً لخالفته.

ورجع سُهيل بن عمر وحفص بن الأحنف إلى قريش، وأخبراهم بالصُلح، فقال عمر: يا رسول الله، ألم تقل لنا: إنّا ندخُل المسجد ونَحلِق مع المُحلّقين؟ فقال صلى الله عليه وآله: أمن عامنا هذا وعدتك؟ قلت لك: إنّ الله عز وجل قد وعدني أن أفتح مكة وأطوف وأسعى وأحلِق مع المُحلّقين فلمّا أكثروا عليه قال لهم: إن لم تقبلوا الصُلح فحاربوهم، فمرّوا نحو قريش وهم مستعدون للحرب، وحملوا عليهم، فانهزم أصحاب رسول الله ثمّ قال: يا علي، خُذ السيف واستقبل قريشاً، وأخذ أمير المؤمنين عليه السلام سيفه، وحمل على قريش، فلمّا نظروا إلى أمير المؤمنين عليه السلام تراجعوا، ثمّ قالوا: يا علي، بدا لمحمد فيما أعطانا. قال: لا.

وتراجع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله مستحيين، وأقبلوا يعتذرون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله: ألستم أصحابي يوم بدر، وأنزل الله عز وجل فيكم **﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ ٱلْمَلاَئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾**؟[1] ألستم أصحابي يوم اُحد **﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِى أُخْرَاكُمْ﴾**؟[2] ألستم أصحابي يوم كذا؟ فاعتذروا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ونَدِموا على ما كان منهم، وقالوا: الله أعلم ورسوله، فاصنع ما بدا لك.

ورجع سُهيل بن عمرو وحَفْص بن الأحنف إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالا: يا محمد، قد أجابت قريش إلى ما أشترطت من إظهار الإسلام، وأن لا يُكره أحدٌ على دينه. فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله بالمَكتَب[3]، ودعا أمير المؤمنين عليه السلام، قال له: اكتُب، فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سُهيل بن عمرو: لا نعرِف الرحمن، اكتُب كما كان يكتُب آباؤك: باسمك اللهمّ. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: اكتُب باسمك اللهم، فانّه اسمٌ من أسماء الله، ثمّ كتب: هذا ما تقاضى عليه محمد رسول الله صلى الله عليه وآله والملأ من قريش. فقال سهيل بن عمرو: لو عَلِمنا أنّك رسول الله ما حاربناك، أكتُب: هذا ما تقاضى عليه محمد بن عبدالله،

---

١. الأنفال: ٩/٨. ٢. آل عمران: ١٥٣/٣. ٣. المكتب: قطعة أثاث يجلس عليها للكتابة.

أتانف من نسبك يا محمد؟ فقال رسول الله ﷺ: أنا رسول الله، وإن لم تُقِرّوا. ثمّ قال: يا علي امحُ واكتب: محمد بن عبدالله. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: ما أمحو اسمك من النبوة أبداً، فمحاه رسول الله ﷺ بيده، ثمّ كتب: هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبدالله والملأ من قريش، وسهيل بن عمرو، اصطلحوا على وضع الحرب بينهم عشر سنين، وعلى أن يكُفّ بعضٌ من بعضٍ، وعلى أنّه لا إسلال ولا إغلال، وأنّ بيننا وبينهم عَيبةً مكفوفةً، وأن من أحبّ أن يدخُل في عهد محمد وعقده فعل، ومن أحبّ أن يدخُل في عهد قريش وعقدها فعل، وأنه من أتى محمداً بغير إذن وليه ردّه إليه، وأنه من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم تَرُدّه إليه، وأن يكون الاسلام ظاهراً بمكة، ولا يُكْره أحدٌ على دينه، ولا يُؤذى ولا يُعيّر، وأنّ محمداً يرجِع عنهم عامه هذا وأصحابه، ثمّ يدخُل عليها في العام القابل مكّة، فيقيم فيها ثلاثة أيام، ولا يدخُل عليها بسلاح إلّا سلاح المُسافر: السيوف في القُرُب. وكتب علي بن أبي طالب وشَهِد على الكتابة المهاجرون والأنصار.

ثمّ قال رسول الله ﷺ: يا علي، إنّك أبيت أن تمحو اسمي من النبوة، فوالذي بعثني بالحقّ نبياً لتُجيبنّ أبناءهم إلى مثلها وأنت مضيض[١] مُضطهد، فلمّا كان يوم صفيّن ورضوا بالحَكَمين، كتب: هذا ما اصطلح عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان. فقال عمرو بن العاص: لو عَلِمنا أنّك أمير المؤمنين ما حاربناك، ولكن اكتُب: هذا ما اصطلح عليه علي بن أبي طالب ومعاويه بن أبي سفيان. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: صدق الله وصدق رسوله، أخبرني رسول الله بذلك.

قال: فلمّا كتبوا الكتاب قامت خُزاعة، فقالت: نحن في عهد محمد رسول الله وعقده، وقامت بنو بكر وقالت: نحن في عهد قريش وعقدها، وكتبوا نسختين: نسخة عند رسول الله ﷺ ونسخة عند سُهيل بن عمر، ورجع سُهيل بن عمرو وحفص بن الأحنف إلى قريش فأخبراهم. وقال رسول الله ﷺ: انحروا بُدنكم، واحلقوا رُؤوسكم، فامتنعوا وقالوا: ننحَر ونحلِق ولم نطُف بالبيت، ولم نسع بين الصفا والمروة؟! فاغتم رسول الله ﷺ لذلك، وشكا ذلك عند أمّ سَلَمة، فقالت: يا رسول الله، انحر أنت واحلِق. فنحر رسول الله ﷺ وحلق، فنحر القوم على حيث يقينٍ وشكٍّ وارتيابٍ، فقال رسول الله ﷺ تعظيماً للبُدن: رَحِم الله المُحلّقين. وقال: قوم لم يسوقوا البُدن: يا رسول الله، والمُقصّرين؟ لأنّ من يَسُق هدياً لم يجب عليه الحَلق. فقال رسول الله ﷺ ثانياً: رَحِم الله المُحلّقين الذين لم يسوقوا البُدن. فقالوا: يا رسول الله، والمُقصّرين ؟ فقال ﷺ: رَحِم الله المُقصّرين.

ثمّ رحل رسول الله ﷺ نحو المدينة، فرجع إلى التنعيمبمنزل تحت الشجرة، فجاء اصحابه الذين

---

١. مضّ فلان من الشيء: ألِم من وجع المصيبة، وأمضّه الشيء: بلغ من قلبه الحزن به، أي أحرقه وشقّ عليه.

أنكروا عليه الصُّلح ، واعتذروا وأظهروا الندامة على ما كان منهم، وسألوا رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم، فنزلت آية الرِّضوان[١].

قال جمع من المفسرين: إنّ المراد بالفتح هو فتح الحُديبية[٢]، كما هو مدلول الروايتين السابقتين العامية والصادقية.

وعن ابن عباس: رَمَوا المشركين حتى أدخلوهم ديارهم[٣]. وعن الكلبي: ظهروا عليهم حتى سألوا الصُّلح[٤].

وعن الشَّعبي: أنّ السورة نزلت بالحُدَيبية، وأصاب رسول الله ﷺ في تلك العزوة ما لم يُصِب في غزوة، حيث أصاب أن بُويع بيعة الرِّضوان، وغُفِر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، وبلغ الهَدي محلّه، وظهرت الروم على فارس، ففرِح به المسلمون[٥].

وعن مجاهد: أنّه ما حصل له في تلك السنة من فتح خيبر[٦]. وقيل: هو جميع الفتوحات التي حصلت له ﷺ[٧].

وقيل: هو ما فتح من الاسلام والنبوة والدعوة بالحُجّة والسيف، ولا فتح أبين وأعظم منه، وهو رأس الفتوح كافّة، إذ لا فتح من فتوح الاسلام إلّا وهو شُعبة من شُعبه وفَرع من فُروعه[٨].

وعن قَتادة: أنّه بمعنى الحكم والقضاء، والمعنى أنّا قضينا لك أن تدخُل مكّة من قابل[٩]. والأظهر هو الأول، وقد أُيّد بوجوه تُعدّ من وجوه النَّظم:

منها: أنّ فتح مكّة كان فيه غنائم كثيرة اضعاف ما أنفقوا، فكان مناسباً لما في آخر السورة السابقة **﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَفْسِهِ﴾**[١٠] لضياع تلك الغنائم الكثيرة عليه وحرمانه منها بسبب بُخله عن الانفاق.

ومنها: أنّه تعالى قال في السورة السابقة: **﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾**[١١] يعني لا تسألوا الصُّلح، بل اصبروا حتى يسأل المشركون منكم الصُّلح والأمان، كما كان في فتح مكّة حيث أنّ صناديد قريش جاءوا إلى المسلمين مؤمنين أو مستأمنين.

ومنها: أنه تعالى قال في السورة السابقة: **﴿والله معكم﴾** وقال: **﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾** ويكون فتح مكّة

---

١. تفسير القمي ٢: ٣٠٩، تفسير الصافي ٥: ٣٣.
٢. تفسير الرازي ٢٨: ٧٧.
٣ و٤. تفسير أبي السعود ٨: ١٠٣.
٥. تفسير أبي السعود ٨: ١٠٤.
٦. تفسير أبي السعود ٨: ١٠٣.
٧. تفسير أبي السعود ٨: ١٠٤.
٨. تفسير أبي السعود ٨: ١٠٤.
٩. تفسير أبي السعود ٨: ١٠٤.
١٠. محمد ﷺ: ٣٨/٤٧.
١١. محمد ﷺ: ٣٥/٤٧.

شاهداً عليه.

لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً * وَيَنْصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً[٢ و ٣]

ثمّ بيّن سبحانه غاية الفتح وفائدته المترتّبة عليه بقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ﴾ يا محمد ﴿ٱللَّهُ﴾ العظيم القادر على كلّ شيءٍ بسبب الفتح الذي فيه إعلاء كلمته وترويج دينه بمكابدة مشاقّ الحروب واقتحام موارد الخطوب ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ على الفتح ﴿مِن ذَنْبِكَ﴾ وما فرط منك من إقبالك إلى عالم الخلق وتوجّهك إلى غيره لأداء وظيفة الرسالة، أو من تركك الأولى والأفضل الذي هو ذنب في حقّك ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ منه.

وقيل: إنّ المعنى ليعرف أنّ الله يغفر لك ذنوبك، فانّ الناس كانوا يعتقدون بعد عام الفيل أنّ الله لا يُسلّط على مكة عدوّه المسخوط عليه، بل لا يفتحها ولا يُسلّط عليها إلّا حبيبه المغفور له[١].

وقيل: إنّ فتح مكّة لمّا صار سبباً لتسهيل الحجّ عليه وعلى اُمّته، ويكون الحجّ سبباً لغفران الذنوب، بيّن سبحانه أنّ الفتح سبب لغفران ذنوبك إن كان لك ذنب، حتى يعلم الناس ما في الحجّ من الثواب[٢].

قيل: إنّه بعد ما ثبت عصمته لابدّ من القول بكون المراد ذنب اُمّته، وخطابه من باب: إياك أعني واسمعي يا جارة[٣].

وعن الصادق عليه السلام: أنّه سُئِل عن هذه الآية فقال عليه السلام: «ما كان له ذنب، ولا همّ بذنب، ولكن الله حمّله ذنوب شيعته، ثمّ غفرها له»[٤].

وعنه عليه السلام: أنّه سُئِل عنها. فقال: «والله ما كان له ذنب، ولكن الله تعالى ضَمِن له أن يغفر ذنوب شيعته على ما تقدّم من ذنبهم وما تأخر»[٥].

ثمّ بيّن سبحانه فائدته الأُخرى بقوله: ﴿وَيُتِمَّ﴾ ويُكمِل بفضله ﴿نِعْمَتَهُ﴾ التي أعظمها إعلاء كلمة الحقّ وضمّ المُلك والنبوة، أو إتمام التكاليف ﴿عَلَيْكَ﴾ فانّ جميع ذلك حصل بعد فتح مكّة ﴿وَيَهْدِيَكَ﴾ في تبليغ الرسالة، وإقامة مراسم الرئاسة ﴿صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾.

---

١. تفسير الرازي ٢٨: ٧٩.
٢. مجمع البيان ٩: ١٦٩، تفسير الرازي ٢٩: ١٨.
٣. تفسير الصافي ٥: ٣٦.
٤. تفسير القمي ٢: ٣١٤، مجمع البيان ٩: ١٦٩، تفسير الصافي ٥: ٣٧.
٥. مجمع البيان ٩: ١٦٨، جوامع الجامع: ٤٥٢، تفسير الصافي ٥: ٣٦.

قيل: إنّه حصل بعد فتح مكّة من اتّضاح سبيل الحقّ واستقامة مناهجه مالم يكن حاصلاً قبله[١] ﴿وَيَنْصُرَكَ ٱللهُ﴾ يا محمد، بذلك الفتح العظيم، على أعدائك ﴿نَصْراً عَزِيزاً﴾ وقوياً ومنيعاً، أو عزيزاً صاحبه، أو نفيساً يَقِلّ مثله، وإنّما ذكر سبحانه الاسم الجليل لإظهار كمال العناية بذلك النصر، ولكونه خاتمة الغايات.

قيل: إنّه لم يبق بعد الفتح عدوّ يُعتنىٰ به، فانّ أغلب العرب صاروا مؤمنين أو مستأمنين[٢].

هُوَ ٱلَّذِى أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلّٰهِ جُنُودُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللهُ عَلِيماً حَكِيماً * لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذٰلِكَ عِندَ ٱللهِ فَوْزاً عَظِيماً [٤ و ٥]

ثمّ بيّن سبحانه ما هو وسيلة نصره في الظاهر بقوله: ﴿هُوَ﴾ المُتفضّل ﴿ٱلَّذِى أَنزَلَ﴾ برحمته وفضله ﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾ والطُّمأنينة.

وعنهما عليهما السلام: «هو الايمان» ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣] وجعل فيها بلُطفه ثباتاً وقراراً، لا تَماجَ ولا تُزَلْزَل من مشاهدة شوكة العدوّ وقوته وكَثْرته ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً﴾ ويقيناً بنصر الله، فكأنه صار إيمانٌ مقروناً ﴿مَعَ إِيمَانِهِمْ وَ﴾ يقينٌ مضافاً إلى يقينهم، أو المراد لينضمّ يقينهم بالأحكام الإلهية بيقينهم بالتوحيد والمعاد، أو يزداد إيمانهم بصدق الرسول على إيمانهم بالتوحيد، أو يزداد إيمانهم الاستدلالي بايمانهم الفِطري، والحال أن ﴿لِلّٰهِ جُنُودُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الملائكة والجنّ وسائر الحيوانات، بل سائر الموجودات من المياه والرياح والنار والرعود والصواعق والزلازل وغيرها، فلا حاجة له في نُصرة نبيه إلى المؤمنين، بل هو قادرٌ على إهلاك أعدائه بإرادته من غير حاجةٍ إلى الجنود من خلقه.

ثمّ بيّن علمه وإحاطته بالقلوب القابلة لنزول السكينة فيها، ومقدار إيمان المؤمنين وعدد جنوده من الموجودات بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللهُ عَلِيماً﴾ بكلّ شيءٍ ذاتاً وقابليةً وعدداً و﴿حَكِيماً﴾ في تقديره وتدبيره، يُوجِد كلّ شيءٍ في محلّه، ويعامل مع كلّ شيء بما يستحقّه، وإنّما أراد ازدياد الايمان في القلوب ﴿لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ﴾ يوم القيامة بإزاء إيمانهم ﴿جَنَّاتٍ﴾ وبساتين ذات أشجار

---

١. تفسير أبي السعود ٨: ١٠٤، تفسير روح البيان ٩: ١٠.

٢. تفسير نور الثقلين ٥: ٥٦.

٣. الكافي ٢: ١/١٢، و: ٤/١٣، تفسير الصافي ٥: ٣٩.

كثيرة ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة، ليزداد صفاؤها وبهاؤها وطراوتها[١] ﴿وَيُكَفِّرَ﴾ ويستُر ﴿عَنْهُمْ﴾ في تلك الجنات ﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾ وخطاياهم وزلّاتهم، لئلا يذكُرونها فينقّص عيشهم الخجلة والانفعال من ربّهم، وان صارت مغفورةً.

وقيل: يعني يستُر عنهم فيها الأدناس الجسمانية كالفضلات، والنفسانية كالغضب والكِبر والحسد وغيرها، وسترها بازالتها عنهم[٢]. أو المراد مغفرة ذنوبهم في الآخرة قبل دخول الجنة، وإنما قدّم دخولهم في الجنة على تكفير معاصيهم، مع أنّ وجودهما بالعكس للمسارعة إلى بيان الطلب الأعلى[٣].

قيل: إنّ الجملتين متعلقان بقوله: ﴿ليغفر لك الله﴾ بناءً على أن المراد من ذنبه ذنب اُمّته، والمعنى ليغفر لك الله ذنب اُمّتك، ليُدخِل المؤمنين إلى آخره[٤].

وقيل: إنّهما متعلّقان بقوله تعالى: ﴿وينصرك الله﴾ والمعنى لينصُرك الله بالمؤمنين، ليُدخِل المؤمنين والمؤمنات[٥] إلى آخره.

واحتُمل تعلّقهما بقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ حيث روي أنّ المؤمنين قالوا للنبي ﷺ: هنيئاً لك، إن الله غفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخرن فماذا لنا؟ فنزلت هذه الآية، والمعنى: فتحنا لك ليُدخِل المؤمنين[٦].

ولا يخفى أنّ الكلَ في غاية البعد غير الأول، والأبعد من الكلَ، ما قاله أبو السعود من تعلّقهما بما يدُلّ عليه قوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من معنى التصرّف والتدبير، والمعنى أنّه تعالى دبّر ما دبّر من تسليط المؤمنين، ليعرفوا نعمة الله في ذلك ويشكروها، فيُدخِلهم الجنة، ويُكفّر عنهم سيئاتهم[٧].

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من دخول الجنة، تكفير السيئات ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وفي علمه ﴿فَوْزاً عَظِيماً﴾ وظفراً كاملاً بأعلى المقاصد.

وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَاتِ ٱلظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً[٦]

---

١. لم يذكر المصنف تفسير قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾.
٢. تفسير الرازي ٢٨: ٨٣.
٣. تفسير روح البيان ٩: ١٤.
٤ ـ٦. تفسير الرازي ٢٨: ٨٣.
٧. تفسير أبي السعود ٨: ١٠٥.

ثمَ بيّن سبحانه غاية أُخرى لإنزال السكينة في قلوب المؤمنين وازدياد إيمانهم بقوله: ﴿وَيُعَذِّبَ﴾ الله بسبب إنزال السَّكينة في قلوبهم وازدياد إيمانهم وقوّتهم وكثْرتهم ﴿ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ﴾ من أهل المدينة ﴿وَٱلْـمُشْرِكِينَ وَٱلْـمُشْرِكَاتِ﴾ من أهل مكة ﴿ٱلظَّـانِّينَ بِـاللهِ﴾ في حقّ نبيّه ﷺ والمؤمنين به ﴿ظَنَّ ٱلسَّوءِ﴾ والحُسبان القبيح الفاسد، أو حُسبان الأمر السوء والفاسد، وهو ظنّهم وحُسبانهم أنّ الله لا ينصُر نبيّه ﷺ والمؤمنين، بما قدّمهم على المشركين، حيث حَسِبوا أنه لا ينصُرهم، وأنّه لا يرجِع أحدٌ منهم إلى أهله أبداً، ولذا تخلّف عنه المنافقون الذين هم أسوأ حالاً من المشركين، وأولى بالعذاب منهم، ولذا قدّمهم على المشركين في الذكر.

ثمَ أكذب الله ظنّهم، وقلب ما يَظُنّونه بالرسول ﷺ والمؤمنين عليهم بقوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ في الدنيا، وحائق بهم ما يكرهونه من الفساد والخِذلان والحرمان عن جميع المطالب. وقيل: إنّه دعاءٌ عليهم[١]، كقوله: ﴿قاتلهم الله﴾.

﴿وَغَضِبَ ٱللهُ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أشدّ الغضب ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ وطردهم عن ساحة رحمته ﴿وَأَعَدَّ﴾ وهيّأ ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَهَنَّمَ﴾ يَصْلَونها ﴿وَسَاءَتْ﴾ جهنّم ﴿مَصِيراً﴾ ومَرجِعاً لهم، وفي عطف اللعن وما بعده بالواو مع اقتضاء كون اللّعن مُسبّباً عن الغضب، وإعداد جهنّم لهم مُسبّباً عن اللعن، عطفهما بالفاء إشعارٌ باستقلال كلّ من الثلاثة في الوعيد.

وَلِلهِ جُنُودُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللهُ عَزِيزاً حَكِيماً * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً[٧و ٨]

ثمَ إنه تعالى بعد بيان قدرته على نُصرة الرسول ﷺ بكون جنود السماوات والأرض له، بيّن قدرته على تعذيب المنافقين والمشركين في الدنيا والآخرة بقوله: ﴿وَلِلهِ جُنُودُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

قيل: إنّ المراد بالجنود في الآية الأُولى جنود الرحمة، ولذا وصف ذاته المقدّسة بالعلم باستحقاق النفوس الزكية، بالحكمة البالغة، والمراد منها في الآية جنود العذاب، ولذا وصف ذاته بالعزّة والحكمة[٢].

﴿وَكَانَ ٱللهُ﴾ أزلاً وأبداً ﴿عَزِيزاً﴾ وقديراً على كلّ شيءٍ و ﴿حَكِيماً﴾ في افعاله، لا يُعذّب أحداً إلّا باستحقاقه، ولا يفعل شيئاً إلّا على مُقتضى الحكمة والصواب، فانّ عادته تعالى توصيف ذاته

---

١. تفسير روح البيان ٩: ١٥.

٢. تفسير أبي السعود ٨: ١٠٦، تفسير روح البيان ٩: ١٦.

بالعزّة في مقام ذِكر العذاب والانتقام.

رُوي أنّ عبدالله بن أُبي بن أبي سلول، قال: هَب أنّ محمداً هزم اليهود وغلب عليهم، فكيف استطاعته بفارس والروم؟ فقال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهم أكثر عدداً وأقوى من فارس والروم[١].

ثمّ إنّه تعالى بعد بشارة رسوله ﷺ بالفتح، بيّن مناصبة الجليلة الموجبة لغاية الإلطاف بقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد، وبعثناك على أُمّتك لتكون ﴿شَاهِداً﴾ على تصديق من صدّقك، وتكذيب من كذّبك وعصى من أُمّتك يوم القيامة، أو شاهداً بين الناس على وحدانية الله كما في آية ﴿شهد الله﴾[٢] ﴿وَمُبَشِّراً﴾ للمؤمنين المطيعين بالثواب ﴿وَنَذِيراً﴾ للكفّار والعاصين بالعذاب.

لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللهَ يَدُ ٱللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَن أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ ٱللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً[٩و ١٠]

ثمّ وجّه سبحانه الخطاب إلى الناس، وبيّن غاية الإرسال والتبشير بقوله: ﴿لِتُؤْمِنُوا﴾ أيـها الناس ﴿بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ الذي أرسله إليكم، وتنصُروا الله ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ وتقوّوه بتقوية رسوله ونُصرة دينه ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وتُعظّموه بإطاعة أوامره والسجود له ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ وتُنزّهوه من كلّ ما لا يليق به بقوله سبحان الله ﴿بُكْرَةً﴾ وصباحاً ﴿وَأَصِيلاً﴾ ومساءً وغُدوّاً وعشياً.

قيل: إنّما خصّ سبحانه الوقتين بالتسبيح، لشرافتهما، ولظهور آثار القدرة فيهما، ولذا ورد عن الأئمّة الأطهار عليهم السلام تأكّد استحباب التسبيح قبل طلوع الشمس وقبل غروبها[٣].

وقيل: لما كان المشركون يجتمعون لعبادة الأصنام في الكعبة في الوقتين، أمر الله عباده بخلاف ما كان عليه المشركون[٤].

وعن ابن عباس: أُريد من التسبيح بكرةً صلاة الفجر، وبالأصيل صلاة الظهر والعصر[٥].

وقيل: أُريد بالبكرة صلاة الفجر، وبالأصيل بقية الصلاة[٦].

وقيل: إنّ ذكر الوقتين كناية عن الدوام[٧].

---

١. تفسير روح البيان ٩: ١٦.
٢. آل عمران: ١٨/٣.
٣. وسائل الشيعة ٧: باب ٢٥ و٤٧.
٤. تفسير الرازي ٢٨: ٨٦.
٥. تفسير أبي السعود ٨: ١٠٦، تفسير روح البيان ٩: ١٨.
٦. تفسير روح البيان ٩: ١٨.
٧. تفسير الرازي ٢٨: ٨٦، تفسير روح البيان ٩: ١٨.

وقيل: إنّ الضمائر كلّها راجعة إلى الرسول ﷺ وليس بشيء[١].

ثمّ لمّا أعلن سبحانه برسالة محمد ﷺ بيّن أنّ يده بمنزلة يده، وبيعته بمنزلة بيعته بقوله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾** ويُعاهدون معك يا محمد على اتّباعك وطاعتك، وتفدية أنفسهم دونك **﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾** لأنّك نائبة ومظهره، وقصدك من أخذ بيعتهم أخذ بيعتهم لله على طاعته والجهاد في سبيله، فيدك حين البيعة فوق أيديهم، كأنّها **﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾** وفيه غاية التعظيم ليد الرسول.

عن ابن عباس: يعني يد الله بالثواب، وما وعدهم على بيعتهم من الجزاء، فوق أيديهم بالتصديق والوفاء[٢].

وقيل: يعني قوّة الله في نُصرة نبيه ﷺ فوق نُصرتهم إيّاه، والمراد ثِق بنُصرة الله لا بنُصرتهم وإن بايعوك[٣].

وقيل: يعني نعمة الله عليهم بنبيه ﷺ فوق أيديهم بالطاعة بالمبايعة[٤].

وقيل: إنّه كناية عن حفظ الله تلك البيعة، فانّ العرب كانوا إذا تصافقوا للبيع وضع ثالثٌ يده على أيدي المتبايعين، ويَحْفَظ يديهما إلى أن يتِمّ العقد لا يترك احدهما ان يقبض يده إلى نفسه ويفارق صاحبه قبل اتمام البيع[٥].

ثمّ هدّد سبحانه ناقضين العهد والبيعة بقوله: **﴿فَمَن نَكَثَ﴾** البيعة، ونقض عهده مع النبي ﷺ، وأعرض عن طاعته واتّباعه وفرض الجهاد معه **﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ﴾** بيعته وينقّض عهده، وكان ضرره **﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾** لا يتخطّاه إلى غيره **﴿وَمَن أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ﴾** من الطاعة وضرب السيوف بين يدي نبيّه ﷺ حتى يُظهره الله على عدوّه أو يقتلوا، واستقام عليه وثبت **﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾** في الآخرة **﴿أَجْراً عَظِيماً﴾** وثواباً جزيلاً لا يُقادر قدرُه.

قيل: أبقى ضمّ هاء (عليه) توسّلاً إلى تفخيم لام الجلالة[٦].

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً[١١]

ثمّ لمّا ذكر سبحانه وجوب الثبات على بيعة النبي ﷺ وحُرمة ظنّ السوء بالله تعالى، ذكر نقض

---

١. تفسير روح البيان ٩: ١٨.
٢. مجمع البيان ٩: ١٧٢.
٣ـ٥. تفسير روح البيان ٩: ٢٠.
٦. تفسير روح البيان ٩: ٢١.

المنافقين ببعثه وظنّهم السوء بالله بقوله: ﴿سَيَقُولُ لَكَ﴾ المنافقون ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ والمتقاعدون عن الخروج مع النبي ﷺ ﴿مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ قيل: هم أسلم[1]. وقيل: جُهنية ومُزينة وغِفار، فانّهم استنفرهم رسول الله ﷺ عام الحُدَيبية فتخلّفوا، واعتلّوا بعد مراجعة النبي ﷺ إلى المدينة، واعتذروا بأنّا[2] ﴿شَغَلَتْنَا﴾ ومنعتنا عن متابعتك في سفرك ﴿أَمْوَالُنَا﴾ التي تكون بأيدينا، فانّا لو كنّا خرجنا معك تلفت وتشتّت وفاتت عنّا منافعها، وكذا منعتنا عيالاتنا ﴿وَأَهْلُونَا﴾ عن الخروج، فانّه لم يكن لنا من يَخْلُفنا فيهم، ويقوم بأُمورهم ومصالحهم، ويحميهم عن الضياع والهلاك، مع أنّ حُفظهم أهمّ الأُمور، وإن كان في القعود عنك ذنبٌ وتقصيرٌ منّا ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ ربّنا ليغفر لنا ذلك الذنب والتقصير.

ثمّ كذّب سبحانه اعتذارهم، وطلب استغفارهم بقوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ لك ﴿بِأَلْسِنَتِهِم﴾ وأفواههم ﴿مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الايمان والعُذر والنَّدم، بل ما أقعدهم إلّا الشكّ والنفاق وسوء الظنّ بالله، حيث كانوا يقولون: إنّ قريش كانوا يُقاتلون عن باب المدينة، فكيف حالهم إذا دخل المسلمون في بلادهم.

ثمّ أمر الله رسوله بإبطال عُذرهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم، إن كنتم تخلّفتم لحفظ أموالكم وأهليكم ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم﴾ ويقدّر لأجلكم ﴿مِنَ﴾ مشيئة ﴿ٱللَّهِ﴾ وقضائه ﴿شَيْئاً﴾ يسيراً من النفع ﴿إِنْ أَرَادَ﴾ الله ان يحل ﴿بِكُمْ ضَرّاً﴾ من هلاك الأهل والمال وضياعهما حتى تتخلّفوا عن رسول الله ﷺ لحفظهما ودفع الضرر الوارد عليكم بتلفهما ﴿أَوْ﴾ من يقدِر على إضراركم إن ﴿أَرَادَ﴾ الله أن يُوصِل ﴿بِكُمْ نَفْعاً﴾ من حِفظ أموالكم وأهليكم، فاذا كان الضرر والنفع بارادة الله ومشيئته، فلا ينفع القعود عن متابعة النبي ﷺ في حِفظ أموالكم وأهليكم من الضِّياع، ولا يُؤثر خروجكم في هلاكهما، ليس الأمر كما تقولون ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال التي من جُملتها تخلّفكم عن النبي ﷺ ﴿خَبِيراً﴾ وبصيراً.

بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً * وَمَن لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً[١٢ و ١٣]

ثمّ أخبر سبحانه بما في قلوبهم بقوله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ﴾ وتوهّمتم أيّها المتخلّفون لعدم إيمانكم ﴿أَن لَن يَنقَلِبَ﴾ ولن يرجع ﴿ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ به الذين اتّبعوه في الخروج إلى مكّة ﴿إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ﴾ وعشائرهم الذين كانوا في المدينة ﴿أَبَداً﴾ وأصلاً، وتخيّلتم إن كنتم معهم أن يُصيبكم مثل ما

---

١ و٢. تفسير البيضاوي ٢: ٤٠٨، تفسير أبي السعود ٨: ١٠٦، تفسير روح البيان ٩: ٢٦.

يُصيبهم ﴿وَزُيِّنَ﴾ من قبل الشيطان ﴿ذَٰلِكَ﴾ الظنّ والتوهُّم ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾ حتى قطعتم به.

ثمّ قبح سبحانه ذلك الظنّ بقوله: ﴿وَظَنَنتُمْ﴾ أيها المخلّفون ﴿ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ وتوهّمتم التوهّم القبيح الفاسد ﴿وَكُنتُمْ﴾ بذلك الظنّ، وصرتم بهذا التوهّم ﴿قَوْماً بُوراً﴾ وجمعاً هالكين.

وقيل: إنّه بيان لعلّة ظنّهم، وهي كونهم في الأصل قوماً هالكين فاسدين مستوجبين سَخَط الله وعقابه[1]، لخُبث ذواتهم ونيّاتهم.

ثمّ هدّدهم سبحانه بعذاب الآخرة بقوله: ﴿وَمَن لَمْ يُؤمِنْ﴾ إيماناً خالصاً ﴿بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ عن صميم القلب، سواء أظهر الكفر كالمشركين، أو أظهر الايمان كالمنافقين، فهو كافرٌ ﴿فَإِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ وهيّأنا ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ مُطلقاً في الآخرة ﴿سَعِيراً﴾ وناراً ملتهبةً لا يُدرك أحد في الدنيا شدّة حرّها.

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً رَحِيماً * سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ ٱللهِ قُل لَن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا[١٤ و ١٥]

ثمّ إنّه تعالى بعد وعد المؤمنين بالمغفرة والجنّة، ووعيد المنافقين والمشركين بالعذاب، نبّه على سَعَة قدرته تهويلاً للقلوب بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والسّلطنة المطلقة التامة في عالم الوجود بحيث يفعل ما يشاء ويحكم ما يُريد، فهو تعالى ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ أن يغفر له ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أن يُعذّبه بمقتضى عدله وحكمته، بلا دَخلٍ لأحدٍ في شيءٍ منهما إيجاداً وإعداماً.

ثمّ أعلن سبحانه بسَعَة رحمته، لترغيب الناس إلى التوبة والرجوع إليه بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً﴾ لذنوب التائبين ﴿رَحِيماً﴾ بمن آمن وأصلح.

قيل: إنّه عليه السلام لمّا تمّ صُلح الحُدَيبية أخبر أصحابه بفتح خيبر، واختصاص غنائمه بالحاضرين في الحُدَيبية من المؤمنين[2].

ثمّ رجع صلى الله عليه وآله وأصحابه إلى المدينة في ذي الحجّة سنة ستّ، وأقام بها بقية الشهر من سنة سبع، ثمّ عزم في محرم سنة سبع على الخروج إلى خيبر، فاستدعى المنافقون أن يخرجوا مع المؤمنين، فأكذب سبحانه اعتذارهم عن الخروج إلى مكّة بقوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ المذكورون لكم: ايها

---

١. تفسير أبي السعود ٨: ١٠٧، تفسير روح البيان ٩: ٢٨.
٢. تفسير أبي السعود ٨: ١٠٨، تفسير روح البيان ٩: ٢٩.

النبي والمؤمنون ﴿إِذَا آنطَلَقْتُمْ﴾ وحين ذهبتم ﴿إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾ خيبر﴿لِتَأْخُذُوهَا﴾ وتحوزوها ﴿ذَرُونَا﴾ واتركونا ﴿نَتَّبِعْكُمْ﴾ إلى خيبر ونشهد معكم قتال أهلها، فانّهم إن كانوا حين خروجكم إلى مكّة صادقين في اعتذارهم باشتغالهم بحِفظ أموالهم وأهليهم، فما بالهم يسألونكم ذلك مع بقاء عُذرهم اليوم أيضاً، فظهر أنّهم كانوا كاذبين في اعتذارهم بعد رجوعكم من مكة، وليس غرضهم من سؤالهم ذلك أن يُعينوكم في الجهاد مع الكفّار بل ﴿يُرِيدُونَ أَن﴾ يُشاركوكم في الغنائم و ﴿يُبَدِّلُوا﴾ ويُغيّروا ﴿كَلَامَ آللهِ﴾ ووعده باختصاص غنائم خيبر بأهل الحُدَيبية، كما عن ابن عباس[1]. أو أمر الله نبيّه ﷺ بأن لا يكون معه إلّا أهل الحُدَيبية[2]، أو قوله تعالى: ﴿غضب الله عليهم﴾ وأنّه يُعاقبهم، فانّهم لو اتّبعوهم كانوا ممّن رضى الله عنه.

فأمر نبيّه ﷺ بأنّ ينهاهم عن الخروج معه بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم: ﴿لَن تَتَّبِعُونَا﴾ ولا تكونون معنا في سفرنا إلى خيبر ﴿كَذٰلِكُمْ﴾ القول الذي قلت لكم ﴿قَالَ آللهُ مِن قَبْلُ﴾ عند انصرافي من الحُدَيبية ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ للمؤمنين عند سَماع هذا النهي: ليس ذلك النهي حُكم الله ﴿بَلْ﴾ أنتم ﴿تَحْسُدُونَنَا﴾ وتُريدون منعنا من هذه النعمة التي نستحقّها.

بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً * قُل لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ ٱللهُ أَجْراً حَسَناً وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً[١٥ و ١٦]

ثمّ ردّ الله عليهم كما ردّوا على المؤمنين بقوله: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾ ولا يفهمون ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ وهو ظاهر النهي لا حكمته وواقعه، فلذا حملوه على ما أرادوا، وعلّلوه بالحسد، أو إلّا فَهماً قليلاً، وهو فِطنتهم لأمور الدنيا دون أمور الدين ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لِلْمُخَلَّفِينَ﴾ عن متابعتك عند الخروج إلى مكّة ﴿مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ المنافقين الذين سألوا الإذن في متابعتك إلى خيبر، وإنّما ذكر الوصف مقام الضمير إيذاناً بغاية ذمّهم وشناعة تخلّفهم: إن كنتم تشتاقون إلى الجهاد في سبيل الله، فاعلموا أنّكم ﴿سَتُدْعَوْنَ﴾ من قبلي ﴿إِلَىٰ﴾ جهاد ﴿قَوْمٍ﴾ من الكفار ﴿أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ وذوي قوّةٍ ونَجْدةٍ وشهامةٍ في الحرب. قيل: هم قبيلة هوازن وثَقيف[3]. وقيل: هم بنو حَنيفة، كانوا من أهل اليمامة قوم مسيلمة الكذّاب[4]، فانّه كان أوّل غزوهم في زمان النبي ﷺ، وإن طال إلى زمان أبي بكر.

---

١. مجمع البيان ٩: ١٧٤.
٢. مجمع البيان ٩: ١٧٤.
٣. مجمع البيان ٩: ١٧٦، تفسير الصافي ٥: ٤١، تفسير روح البيان ٩: ٣١.
٤. تفسير أبي السعود ٨: ١٠٩، تفسير روح البيان ٩: ٣٠.

في ردّ استدلال بعض العامة على إمامة أبي بكر

ثمّ كأنه قيل: لماذا نُدعى، فأجاب سبحانه بقوله: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ لا يكون إلّا أحد الأمرين، إمّا المقاتلة، وإمّا الاسلام ﴿فَإِن تُطِيعُوا﴾ أمر النبي ﷺ، وتجيبوا دعوته ﴿يُؤْتِكُمُ ٱللهُ﴾ على طاعتكم ﴿أَجْراً حَسَناً﴾ في الدنيا وهو الغنيمة وحُسن الذِّكر، وفي الآخرة وهو الجنّة ونِعمها ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ عن إجابة النبي ﷺ وتُعرضوا عن إطاعته ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم﴾ عن دعوته وتخلّفتم عن الخروج معه ﴿مِن قَبْلُ﴾ في الحديبية كُفراً ونِفاقاً ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾ الله ﴿عَذَاباً أَلِيماً﴾ في الدنيا بالخِزي والحِرمان من كلّ خيرٍ، وفي الآخرة بالنار، فجعل الله لصدقهم في الايمان ودعوى الخُلوص علامةً، وهي إجابة دعوة النبي ﷺ إلى الجهاد، لا دعوة غيره كأبي بكر كما ادّعاه بعض العامة، فاستدلال بعضهم بالآية على إمامة أبي بكر بتقريب أنّ الله وعد الأجر الحَسن على إطاعة دعوة الداعي إلى الجهاد قوم أولي بأسٍ، وكان الداعي إليه أبو بكر، فكانت إطاعته واجبةً، في غاية الوهن والفساد[1].

لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً * لَقَدْ رَضِىَ ٱللهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللهُ عَزِيزاً حَكِيماً[١٧ ـ ١٩]

ثمّ إنّه تعالى بعد إيجاب إجابته دعوة النبي ﷺ إلى الجهاد، رخّص للمعذورين التخلّف بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ وإثمٌ في التخلّف عن الجهاد ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ﴾ ومن برجله شَلَل ﴿حَرَجٌ﴾ وضيقٌ وإثمٌ ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ﴾ الذي يكون به الضّعف عن القتال ﴿حَرَجٌ﴾ وإثمٌ لعجز الفِرق الثلاث عن الكرّ والفرّ في القتال ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ﴾ في أوامرهما ونواهيهما ﴿يُدْخِلْهُ﴾ الله في الآخرة ﴿جَنَّاتٍ﴾ ذات قُصورٍ وأشجار ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن طاعة أحكامهما، ويعصي أوامرهما ﴿يُعَذِّبْهُ﴾ الله في الآخرة ﴿عَذَاباً أَلِيماً﴾ لا يُمكن وصفه إلّا بنهاية الإيلام.

ثمّ لمّا ذكر الله غضبه على الكفّار والمنافقين، أعلن برضاه عن المؤمنين المخلصين بقوله: ﴿لَقَدْ رَضِىَ ٱللهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وشَمَلتهم الرحمة الخاصّة ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ وحين يُعاهدونك على

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٣١.

طاعتك، وجهاد أعدائك[١]، والضرب بالسيف دونك حتى يُظهرك الله على عدوّك ﴿تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ المعهودة. قيل: هي شجرة السِّدر[٢]. وقيل: هي شجرة سَمُرة، وهي أم غَيلان[٣]. روى بعض العامة: أنّ عمر قَطَعها[٤]، وهو من مطاعنه.

﴿فَعَلِمَ﴾ الله ﴿مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من الصدق والاخلاص حين مبايعتهم، فصارت هذه البيعة المقرونة بعلم الله بصدقهم سبباً لرضا ربّهم عنهم ﴿فَأَنزَلَ﴾ الله ﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾ والطمأنينة بالنصر والثبات على الايمان ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بتقوية إيمانهم حتى بايعوك على الموت.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا أول من بايع رسول الله صلى الله عليه وآله تحت الشجرة»[٥].

﴿وَأَثَابَهُمْ﴾ الله وجازاهم على بيعتهم عن الصدق والاخلاص ﴿فَتْحاً قَرِيباً﴾ وهو فتح خيبر الذي حَصَل لهم بعد انصرافهم من الحُدَيبية ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ من اليهود ﴿يَأْخُذُونَهَا﴾ ويَحُوزونها عوض ما فات منهم من غنائم مكّة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزاً﴾ كامل القدرة لا يحتاج إلى إعانتكم إياه ﴿حَكِيماً﴾ حيث جعل إذلالكم أعداءكم بأيديكم لتفوزو بالثواب، وتَنالوا عزّ الدنيا والآخرة.

وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً[٢٠]

ثمّ لمّا كانت العرب كثيرة الطمع في الغنيمة، وكان مجال توهّم أن لا تكون لهم إلّا غنيمة خيبر، دفع الله سبحانه هذا التوهّم مخاطباً لهم بقوله: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أيها المسلمون مضافاً إلى غنيمة خيبر ﴿مَغَانِمَ﴾ اُخرى ﴿كَثِيرَةً﴾ من العرب كهوازن وثَقيف ﴿تَأْخُذُونَهَا﴾ وتَحوُزونها في أوقاتها المقدّرة لكلّ منها ﴿فَعَجَّلَ﴾ الله ﴿لَكُمْ﴾ يا أهل الحُدَيبية ﴿هٰذِهِ﴾ الغنائم التي تأخذونها من أهل خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ ومنعهم مع كَثْرتهم من قتالكم إتماماً للمِنّة عليكم، لتطيب بهذه الغنيمة الباردة نفوسكم من غير مسّ مُرّ القتال، لئلا تقولوا إنّ هذه الغنيمة فائدة قتالنا وتعبنا.

وقيل: إنّ المراد كفّ أيدي قبائل أسد وغطفان أن يغيروا على أموال المسلمين وعيالهم بعد خروجهم إلى خيبر بالقاء الرُّعب في قلوبهم[٦].

﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الغنيمة ﴿ءَايَةً﴾ وعلامة ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ كافة، يعرفون بها صِدق الرسول صلى الله عليه وآله في وعده إياهم بخير الدنيا والآخرة، كما صَدَق وعده إياكم بفتح خيبر وغنائمه ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ بلُطفه

---

١. في النسخة: والجهاد مع أعدائك.
٢. تفسير أبي السعود ٨: ١١٠، تفسير روح البيان ٩: ٣٣.
٣. تفسير روح البيان ٩: ٣٣.
٤. تفسير روح البيان ٩: ٣٤.
٥. تفسير القمي ٢: ٢٦٨، تفسير الصافي ٥: ٤٢.
٦. تفسير أبي السعود ٨: ١١٠، تفسير روح البيان ٩: ٣٥.

﴿صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾ وطريقاً مُوصلاً إلى قربه ومرضاته، وهو التوكّل عليه والتفويض إليه.

في كيفية غزوة خيبر وفتحها

قيل: إنّ خيبر اسم حِصنٍ معروفٍ سمي باسم رجلٍ من العماليق نزلها، وكان أخا يثرب الذي سميّت المدينة الطيبة باسمه[1].

وقيل: إنّ خيبر بلسان اليهود هو الحِصن، وكانت مدينة كبيرة بينها وبين المدينة اثنان وثلاثون فَرْسَخاً، وفيها حُصون ومزارع ونَخْل كثير.

ثمّ رجع رسول الله ﷺ من الحُدَيبية إلى المدينة فأقام بها قريباً من الشهر، ثمّ استنفر من حوله ممّن شَهِد الحُدَيبية، وأمر منادياً ينادي: لا يخرُج الضعيف، ولا من له مركبٌ صَعْب، فخالف واحدٌ من الصحابة، فنَفَر مركوبه فصرعه فكسر فَخِذه فمات، وجاء المُخلَفون عنه في الخروج إلى الحُدَيبية، فسألوا الإذن في الخروج معه رجاء الغنيمة، فقال ﷺ: لا تخرُجوا معي إلا راغبين في الجهاد، أمّا الغنيمة فلا، وأخرج معه من نسائه اُمّ سلَمة، فلمّا أشرف على خيبر، وكان وقت الصبح، رأى عُمّالها وقد خرجوا بمساحيهم وقُففهم، قالوا: محمد وجيشه العظيم! وأدبروا هرباً إلى حُصونهم، وكان بها عشرة آلاف مقاتل[2]. وقيل: سبعون ألفاً، ومعهم حلفاؤهم من بني أسد وغَطفان، فقذف الله في قلوبهم الرُّعب[3].

فقال ﷺ: «الله أكبر، خَرِبت خيبر، إنّا إذا نزلنا بساحة قوم ساء صباحهم، وابتدأ من حُصونهم بحُصون النطاة، وأمر بقطع نخلها، فقطعوا أربعمائة نخلة، ثمّ نهاهم عن القطع، فمكث سبعة أيام يقاتل أهل حُصون النطاة، فلم يرجِع من أعطى له الراية بفتح، ثمّ قال: «لأعطينّ الراية غداً رجلاً يُحبّ الله ورسوله ويُحبانه، يفتح الله على يديه» فتطاول لها أبو بكر وعمر وبعض الصحابة من قريش، فدعا علياً عليه السلام وبه رَمَد، فتَفَل في عينيه، ثم أعطاه الراية، وكانت بيضاء مكتوب فيها لا إله إلّا الله، محمد رسول الله، بالسواد. فقال علي عليه السلام: «على ما اُقاتلهم يا رسول الله؟» قال: «على أن يشهدوا أن لا إله إلّا الله، وأنّي رسول الله، فاذا فعلوا ذلك فقد حَقَنوا دماءهم وأموالهم».

وألبسه ﷺ درعه الحديد، وشدّ سيفه ذا الفقار في وسطه، ووجّهه إلى الحصن، وقال: «لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمر النَّعم [أي من الابل النفيسة التي] تَصَدَّقُ بها في سبيل الله».

فخرج علي عليه السلام بالراية يُهرول حتى رَكَزها تحت حصن الحارث أخي مرحب، وكان معروفاً بالشجاعة، فتضاربا فقلته علي عليه السلام، وانهزم اليهود إلى الحصن، ثمّ خرج إليه مرحب سيد اليهود، وهو

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٣٦.
٢. تفسير روح البيان ٩: ٣٦.
٣. تفسير روح البيان ٩: ٣٥.

يرتجز ويقول:

قد عَلِمت خيبر أنّـي مـرحب شاكي السلاح البطل المجرّب

وارتجز علي عليه السلام، وقال:

أنا الذي سمّتني أمّـي حيدرة ضِـرغام آجامٍ وليث قسـورة

فضرب علياً عليه السلام فطرح تُرسه من يده، فتناول عليّ عليه السلام باباً كان عند الحصن، فتترّس به عن نفسه، فلم يزل يقاتل وهو في يده حتى قَتَل مرحباً، وفتح الله عليه الحصن، وهو حصن ناعم من حصون النطاة، وألقى الباب من وراء ظهره ثمانين شبراً.

ثمّ انتقل النبي صلى الله عليه وآله من حصن ناعم إلى حصن العصب من حصون النطاة، فاقاموا على محاصرته يومين حتى فتحه الله، وما بخيبر حصن أكثر طعاماً منه، كالشعير والسّمن والتمر والزيت والشحم والماشية والمتاع.

ثمّ انتقلوا إلى حصن قلة، وهو حصن منيع، آخر حصون النطاة، فقطعوا عنهم ماءهم، ففتحه الله. ثمّ سار المسلمون إلى حصار الشق، ففتحوا الحصن الأول من حصونه، ثمّ حاصروا حصن البراء وهو الحصن الثاني من حصون الشق، فقاتلوا قتالاً شديداً حتى فتحه الله.

ثمّ حاصروا حصون الكتيبة، وهي ثلاثة حصون: القموص، والوطيح، وسلالم، وكان أعظم حصون خيبر القموص، وكان منيعاً، فحاصره المسلمون عشرين ليلة، ثمّ فتحه الله على يد علي عليه السلام، ومنه سُبيت صفية، وأنتهت المسلمون إلى حصار الوطيح وسلالم آخر حصون خيبر، ومكثوا على حصارهما أربعة عشر يوماً، فهذان الحصنان فُتِحا صُلحاً، لأنّ أهلهما لمّا أيقنوا بالهلاك سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله الصلح على حقن دماء المُقاتلة، وترك الذُّرية لهم، ويخرُجون من خيبر وأرضها بذراريهم، وأن لا يصحَب أحدٌ منهم إلّا ثوباً واحداً على ظهره، فصالحهم النبي صلى الله عليه وآله، ووجدوا في الحصنين المذكورين مائة درع، وأربعمائة سيف، وألف رمح، وخمسمائة قوس عربية بجِعابها، وأشياء أُخر غاليه القيمة.

في بيان قضية فدك

ثمّ أرسل النبي صلى الله عليه وآله إلى أهل فَدَك - وهي قرية بخيبر - يدعوهم إلى الاسلام ويُخوّفهم، فتصالحوا معه على أن يحقِن دماءهم ويُخلّيهم ويُخلّون بينه وبين الأموال، ففعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله، فصارت فَدَك لرسول الله صلى الله عليه وآله لأنّه لم تُوخَذ بمقاتلة، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يُنفق منها، ويعود منها على صغار بني هاشم، ويُزوج منها أيمهم، فلمّا مات رسول الله صلى الله عليه وآله وولي أبو بكر الخلافة أرسل إلى فدك وتصرّفها، وسألته فاطمة أن يجعل فدك

لها فأبى، وروى لها أنّ النبيّ ﷺ قال: «إنا معاشر الأنبياء لا نُورث ما تركناه صدقة»[١].

أقول: ليت شعري كيف يمكن أن يُخفي الرسول ﷺ هذا الحكم عن ابنته فاطمة المعصومة التي أذهب الله عنها الرجس وطهّرها تطهيراً، مع أنّه مُتعلّق بها، حتى تطلُب ما ليس لها فيه حقّ، وتفتضح بين الأصحاب بجهلها بتكليف نفسها، وتتوقّع ملكاً يحرُم عليها تصرّفها فيه، وعن علي بن أبي طالب عليه السلام الذي هو عَيبة علمه، وباب حكمته، وعن سائر الصحابة الذين هم شعاره ودثاره وأسرّه إلى أبي بكر مع كونه جاهلاً بأغلب الأحكام؟! وأيّ عاقلٍ يحتمل مع ذلك صدق هذه الرواية؟

ثمّ إنّ النبي ﷺ أمر بالغنائم التي غُنِمت قبل الصُّلح فجُمِعت، وأصاب منها سبايا منها صفية بنت حُيي بن أخطب، من سِبط هارون أخي موسى بن عمران، فأسلمت ثمّ أعتقها رسول الله ﷺ، ثمّ تزوّجها، وكانت رأت في المنام أنّ القمر وقع في حِجرها، فعبّرت بذلك، ونهى النبيّ ﷺ عن إتيان الحُبالى وعن غير الحُبالى حتى تستبرئ بحيضة.

وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللّٰهُ بِهَا وَكَانَ ٱللّٰهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً * وَلَوْ قَاتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً * سُنَّةَ ٱللّٰهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللّٰهِ تَبْدِيلاً[٢١ و ٢٣]

ثمّ وعد سبحانه المسلمين بغنائم غير تلك الغنيمة بقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ من الغنائم وغيرما ذكرنا ﴿لَمْ تَقْدِرُوا﴾ في حال كفركم، أو قبل فتح مكة ﴿عَلَيْهَا﴾ ولكن ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللّٰهُ بِهَا﴾ وقدر عليها أو حَفَظها لكم، وهي كما عن ابن عباس غنائم قسطنطينية وروميّة وعمورية ومدائن فارس والروم والشام[٢].

وإنّما لم يُقيّد غنائم العرب بعدم قدرتهم عليها؛ لأنّ الغَلَبة والغارة على العرب كانت عادتهم القديمة، ولم تكن منهم ببعيد، وأما الاغتنام من الروم وفارس فكان في غاية البُعد منهم؛ لأنّ العرب كانت في ذلك الزمان من أذلّ الطوائف واضعفهم على وجه الأرض، وكان كلّ من الروم والفرس في غاية القوة والشوكة، وكانت غَلَبة العرب عليهم من المحالات العادية[٣]، ولذا وصف سبحانه الغنيمة

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٣٧.
٢. تفسير روح البيان ٩: ٤١.
٣. هذا الاستنتاج غير صحيح، لأنه يقوم على تعليق عدم القدرة في زمان الجاهلية، وليس هو مراد الآية باتفاق أغلب المفسرين الذين قالوا: إنّ المراد بالغنائم التي لم يقدروا عليها، هي غنائم هوازن، فانّهم لم يقدروا عليها إلى عام الحديبية، وإنّما قدروا عليها عقيب فتح مكّة. كالرازي في تفسيره ٢٨: ٩٧، وأبي السعود في تفسيره ٨: ١١٠، والبروسوي في روح البيان ٩: ٤٠، والزمخشري في الكشاف ٤: ٣٤١ وغيرهم.

←

منهم بكونها غير مقدورةٍ للمسلمين.

ثمّ وصف ذاته المقدّسة بالقدرة الكاملة بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ بذاته أزلاً وأبداً ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الممكنات ﴿قَدِيراً﴾.

وقيل: إنّ المراد من (مغانم كثيرة) في الآية السابقة جميع الغنائم التي تحصُل للمسلمين إلى يوم القيامة[١]، ومن الغنيمة الأُخرى غنيمة هوازن[٢]، والأظهر ما ذكرنا.

ثمّ أكّد سبحانه نُصرته للمؤمنين بإدخال الرُّعب في قلوب الكفّار من غير حاجةٍ إلى بيعة المؤمنين ونُصرتهم بقوله: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جميعهم، أو من أهل مكّة، أو حلفاء أهل خيبر من بني أسد وغَطفان ﴿لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبَارَ﴾ وانهزموا من قتالكم رُعباً منكم ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ﴾ بعد التولّي لهم ﴿وَلِيّاً﴾ وصديقاً يَحْرُسهم من الهلاك باللُّطف ﴿وَلَا نَصِيراً﴾ ومُعيناً يدفع عنهم بالعُنف.

ثمّ أعلم أنّ دفع الكفّار عن المؤمنين ونُصرة المؤمنين على الكفّار ليس مختصّاً بكم، بل يكون ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت في الأُمم السابقة والأنبياء الماضية ﴿مِن قَبْلُ﴾ ومن بدو الدنيا إلى فنائها ﴿وَلَن تَجِدَ﴾ يا محمد ﴿لِسُنَّةِ ٱللَّهِ﴾ وعادته الجارية القديمة ﴿تَبْدِيلاً﴾ وتغييراً، فلا تحتمل أن يخذُلك ولا ينصُرك.

وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً[٢٤]

ثمّ استشهد سبحانه على فِرار الكفّار إذا قاتلوا المؤمنين بِفرارهم يوم الحُدَيبية بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ القادر ﴿ٱلَّذِى﴾ بقدرته أرعب قلوب كفّار مكّة و﴿كَفَّ﴾ عن قتالكم ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ ومنعهم عن نزالكم، بأن حملهم على الفِرار ﴿عَنكُمْ﴾ مع كثرة عددهم، وكونهم في بلدهم مهتمّين للذبّ عن أهليهم

← أمّا قوله: (أذلّ الطوائف وأضعفهم على وجه الأرض) فلم يقل به أحد من المفسرين أو المؤرخين، وليس له ما يؤيده من أدلة الشريعة، بل الواقع التاريخي يناقضه ويعارضه، لأنه يثبت بسالتهم ونجدتهم وشدّة بأسهم وإقدامهم، وأنفتهم من الذلّ والصغار.

وقوله: (من المحالات العادية) غير صحيح، لأن التاريخ يحدثنا عن انتصار قبيلة واحدة، وهي ربيعة، على جيش الفرس الذي أنفذه كسرى لحربهم، في وقعة ذي قار، التي حصلوا فيها على غنائم وفيرة، فضلاً عمن قتلوا وأسروا من قادة جيشهم ومقاتليهم، وذلك في أيام جاهليتهم. راجع الكامل في التاريخ ١: ٤٨٢ ـ ٤٩٠، وتاريخ الطبري ٢: ١٩٣ ـ ٢١٢.

١. تفسير أبي السعود ٨: ١١٠، تفسير روح البيان ٩: ٣٥.

٢. تفسير أبي السعود ٨: ١١٠، تفسير روح البيان ٩: ٤٠.

وذراريهم ﴿وَ﴾ كف ﴿أَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ ومنعكم عن قتالهم، بأن حملكم على تركهم والرجوع عنهم ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ وفي داخلها ﴿مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ مع قوة داعيكم إلى قتلهم واستئصالهم، حيث إنّ العادة جارية فيمن ظفر بعدوّه أن يقتُله ويستأصله.

روى بعض العامة: أنّ جماعة من مشركي مكّة خرجوا يوم الحُدَيبية يرمُون المسلمين، فرماهم المسلمون بالحجارة حتى أدخلوهم بيوت مكّة[1].

وعن ابن عباس: أنّ الله أظهر المسلمين عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت[2].

وقيل: إنّ المراد من بطن مكة أسفل واديها، وهي الحُدَيبية[3]، حيث إنّها في جانب جُدَة.

قيل: إنّ جماعة من المشركين خرجوا إلى رسول الله ﷺ من قبل التنعيم[4] عند صلاة الصبح، ليأخذوه ويقتلوا أصحابه، فأسرهم رسول الله ﷺ ثمّ خلّى سبيلهم[5].

وقيل: إنّ المراد من الكفّين ببطن مكة هو ما وقع يوم فتح مكة، والآية إخبار بالغيب، بناءً على نزولها عام الحُدَيبية[6].

﴿وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من طاعة الرسول ﷺ وكفّكم عن قتال الكفّار ﴿بَصِيراً﴾ وعالماً فيُجازيكم بذلك أحسن الجزاء.

قيل: إنّ فتح مكّة كان لنقض قريش عهد رسول الله ﷺ، وذلك أنّ رجلاً من بني بكر هجا رسول الله ﷺ، وكان يتغنّى به، فسمعه غلامٌ من خُزاعة وكان مسلماً، فضربه وشجّه، فثار الشرّ بين الحيّين فأمدّت قريش بني بكر، فبيّتوا على خزاعة، فقتلوا عشرين منهم، فكره ذلك أبو سفيان، وكان رأس قريش، فقال إن زوجتي هند رأت رؤيا كَرِهتها، رأت دماً اقبل من الحجون ـ وهو جبل في أعلى مكة ـ يسيل حتى وقف بخندمة وهو اسم جبل آخر بمكة وقال ليغزونا محمد، فكَرِه القوم ذلك.

ثمّ جاء عمرو بن سالم الخزاعي إلى رسول الله ﷺ وأخبره بنقض قريش عهدهم، فقال النبي ﷺ: «نُصِرت يا عمرو بن سالم» ودمعت عيناه، وكان يقول: «خُزاعة منّي، وأنا منهم» وقالت عائشة: أترى قريشاً تجترئ على العهد الذي بينك وبينهم؟ فقال النبي ﷺ: «نقضوا لأمرٍ يُريده الله». فقالت: خير. قال: خير.

فلمّا نَدِمت قريش على نقض العهد، أرسلوا أبا سفيان ليشُدّ العهد ويزيد في مُدّته، فقال النبي ﷺ:

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٤٤.
٢ و٣. تفسير روح البيان ٩: ٤٤.
٤. التّنعيم: موضع بمكة في الحل، وهو بيت مكة وسرف، على فرسخين من مكة.
٥ و٦. تفسير روخ البيان ٩: ٤٤.

«نحن على عَهدنا ومدّته» ولم يقبل ذلك من أبي سفيان، فرجع إلى قريش، وأخبرهم بما قال رسول الله ﷺ، وقال: إنّي تتبّعت اصحابه، فما رأيت قوماً أطوع لَملِكهم من أصحاب محمد له.

ثمّ أمر النبي ﷺ أصحابه بالجَهاز، وأرسل إلى أهل البادية ومن حوله من المسلمين في كل ناحيةٍ، يقول لهم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضُر في شهر رمضان بالمدينة. فلمّا قدِموا قال ﷺ: «اللهمّ خُذ العيون والأخبار من قريش حتى نَبْلغها[1] في بلادها».

ثمّ خرج من المدينة لعشر خلون من شهر رمضان، وأفطر بالكَديد ـ وهو محلّ بين عسفان وقُديد ـ وأمر أصحابه بالإفطار، وكان عددهم عشرة آلاف، فيهم المهاجرون والأنصار، وعقد ﷺ بالقُديد الألوية والرايات، ودفعها للقبائل، ثمّ سار ﷺ حتى نزل بمَرّ الظّهران وهو على مرحلة من مكة، وقد أعمى الله تعالى أخباره عن قريش إجابةً لدُعائه، وأمر ﷺ أصحابه أن يُوقِد كلّ أحدٍ منهم ناراً.

فلمّا سَمِعت قريش بتوجّه النبي ﷺ اليهم أرسلوا أبا سفيان ليأخُذ منه الأمان لهم، فوصل إلى مَرّ الظّهران ليلاً، قال: ما رأيت كالليلة نيراناً قطّ ولا عسكراً، وكان بينه وبين العباس عمّ النبي ﷺ صداقة، فلمّا لقيه أخذ العباس بيده، وجاء به إلى النبي ﷺ ليأخُذ منه الأمان له، فقال ﷺ له: «اذهب به يا عباس إلى رَحْلك، فاذا أصبحت فأتني به، فلمّا أتى به إلى النبي ﷺ عرض عليه الإسلام فتوقّف، فقال له العباس: ويحك أسلِم واشهد أنّه لا إله إلّا الله، وأن محمداً رسول الله قبل أن يُضرَب عُنُقك، فشهد الشهادتين وأسلم.

ثمّ قال: يا رسول الله، إن اعتزلت قريش فكفّت أيديها أهم مُؤمنون؟ قال ﷺ: «نعم، من كفّ يده وأغلق باب داره فهو آمن» فقال العباس: يا رسول الله،إنّ أبا سفيان يُحبّ الفخر، فاجعل له شيئاً. قال: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن دخل دار حكيم فهو آمن» واستثنى جماعة من الرجال والنساء، وأمر بقتلهم، وإن وُجِدوا متعلّقين باستار الكعبة، منهم ابن خَطل ونحوه، فانّهم كانوا طغاةً مرَدة مُؤذين لرسول الله ﷺ أشدّ الأذى.

وقال ﷺ للعباس: «احبِس أبا سفيان في مضيق الوادي حتى تمُرّ به جنود الله فيراها» فأول من مرّ به خالد بن الوليد في بني سُليم، ثمّ قبيلة بعد قبيلة براياتهم، حتى مرّ رسول الله ﷺ ومعه المهاجرون والأنصار، فقال أبو سفيان: سبحان الله يا عباس، من هؤلاء؟ فقال العباس: هذا رسول الله في الأنصار، وكان عليهم سعد بن عُبادة ومعه الراية، وكان المهاجرون سبعمائة ومعهم ثلاثمائة فرس، والأنصار

---

١. في تفسير روح البيان: نبغتها.

أربعة آلاف ومعهم خمسمائة فرس. فقال أبو سفيان: ما لأحدٍ بهؤلاء من قِبَل ولا طاقة، يا عباس لقد أصبح مُلك ابن اخيك اليوم عظيماً. فقال العباس: إنّها النبوّة.

ثمّ أمر ﷺ أن يدخُل خالد بن الوليد مع جملةٍ من قبائل العرب من أسفل مكة، وقال: لا تقاتلوا إلّا من قاتلكم، وجمع قريش ناساً بالخندمة ليقاتلوا، فلّما لقيهم خالد منعوه من الدخول ورموه بالنبل، فصاح خالد في أصحابه، فقُتِل من قُتِل، وانهزم من لم يُقتَل، فوصل خالد إلى باب المسجد، ودخل ﷺ بمكة وهو راكبٌ على ناقته القُصوى مردفاً أسامة بن زيد في صبيحة يوم الجمعة، أو يوم الاثنين، معتمّاً بعمامةٍ سوداء، واضعاً رأسه الشريف على راحلته تواضعاً لله تعالى ممّا رأى من كثرة المسلمين وفتح مكّة. ثمّ قال: «لا عيش إلّا عيش الآخرة» وسار وهو يقرأ سورة الفتح، حتى جاء البيت وطاف به اُسبوعاً على راحلته، ومحمد بن مَسلمة آخذٌ بزمامها، واستلم الحجر بمِحْجَن في يده الشريفة، وصلّى بالمقام ركعتين.

وكان في داخل الكعبة وخارجها وفوقها ثلاثمائة وستون صنماً، لكلّ حيٍ من أحياء العرب صنم، وكان هُبل وهو أعظم الأصنام، وكان من عقيق في جنب البيت من جهة بابه، فجاء ﷺ وفي يده قضيب، فجعل يهوي به إلى كل صنم، فيخِرّ لوجهه، وهو يقول: «جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً» وأمر علياً عليه السلام فصعِد الكعبة، وكسر ما فوقها.

ثمّ أرسل ﷺ بلالاً إلى عثمان بن أبي طلحة يأتي بمفتاح الكعبة، فدخلها وصلىّ فيها ركعتين، ودعا في نواحيها، ثمّ جلس على الصفا يبايع الناس، فجاء أهل مكّة صغارهم وكبارهم، ورجالهم ونساؤهم، فبايعهم على شهادة أن لا إله إلّا الله، وأن محمداً رسول الله، وعلى العمل بأحكام الإسلام، فدخل الناس في دين الله افواجاً، وعفا عن عامتهم، وقال: «أيها الناس، إنّ الله حرّم مكة يوم خلق السماوات والأرض ويوم خلق الشمس والقمر، فهي حرامٌ إلى يوم القيامة، فلا يحِلّ لامرىءٍ يُؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفِك فيها دماً، ولا يعضُد[1] فيها شجرة، لم يحِلّ لأحدٍ قبلي ولا لأحد بعدي، ولا يحِلّ لي إلّا هذه الساعة غضباً على أهلها، ألا قد رجعت اليوم كحُرمتها بالأمس، فليُبلّغ الشاهد منكم الغائب»[2].

هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم

---

١. عضد الشجرة: قطعها بالمِعْضَد. ٢. تفسير روح البيان ٩: ٤٤.

مِنْهُم مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوْا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً[٢٥]

ثمّ بيّن سبحانه علّة كفّ يد المسلمين عن قتل كفّار مكة مع استحقاقهم القتل والاستئصال بقوله تبارك وتعالى: ﴿هُمُ﴾ الأشقياء ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله واليوم الآخر ﴿وَصَدُّوكُمْ﴾ ومنعوكم أيها المؤمنون ﴿عَنِ﴾ دخول ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ والصلاة فيه، والطّواف بالبيت، ﴿وَ﴾ منعوا ﴿ٱلْهَدْىَ﴾ والنّعم التي جعلتموها لله تقرباً إليه، حال كون الهدي ﴿مَعْكُوفاً﴾ ومحبوساً من ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ الذي يجب نحره فيه، وهو للمعتمر عند الصفا، فصاروا بتلك الأعمال القبيحة مستحقين للقتل والاستئصال ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾ في مكة، وأنتم ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ بأعيانهم، ولم تعرِفوهم باشخاصهم، وهم على ما قيل اثنان وسبعون نفس، كانوا يكتّمون إيمانهم[١]، ولولا كراهة ﴿أَن تَطَؤُوهُمْ﴾ وتُهلِكوهم ﴿فَتُصِيبَكُم﴾ وتصل إليكم ﴿مِنْهُم﴾ ومن جهة إهلاكهم ﴿مَعَرَّةٌ﴾ ومشقّةٌ ومكروهٌ ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ منكم بهم، لوجوب الدِّية والكفّارة، والأسف عليهم، والإثم بترك الفحص عنهم والتقصير فيه، وتعيير الكفار عليكم بقتلكم إخوانكم في الدين، ومعاملتكم مع أحبائكم معاملتكم مع أعدائكم، لمّا كفّ الله أيدكم عنهم، أو لفعل بهم ما أراد، أو لعجّل الله في إهلاكهم، وإنّما كفّها عنهم، أو لم يُعجّل في إهلاكهم ﴿لِيُدْخِلَ ٱللَّهُ﴾ بلُطفه ﴿فِى رَحْمَتِهِ﴾ بهذا الكفّ، أو ترك تعجيل إهلاكهم ﴿مَن يَشَاءُ﴾ إدخاله في الرحمة بتوفيقه للدخول في الإسلام، أو لتعلّم أحكامه والعمل بها بلا تقيةٍ ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ وافترقوا أولئك المؤمنون والكفّار وامتازوا ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوْا مِنْهُمْ﴾ بكفرهم وقبائح أعمالهم ﴿عَذَاباً أَلِيماً﴾ من القتل والاستئصال حسب استحقاقهم.

وعن الصادق عليه السلام في تأويل الآية: أنّه سئل ألم يكن علي عليه السلام قوياً في بدنه، قوياً في أمر الله؟ فقال: «بلى» قيل: فما منعه أن يدفع أو يمتنع؟ قال عليه السلام: «سألت فافهم الجواب، منع علياً من ذلك آيةٌ من كتاب الله» فقيل: وأي آية؟ فقرأ ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا...﴾ الآية، إنه كان لله ودائع مؤمنون في أصلاب قومٍ كافرين ومنافقين، فلم يكن علي عليه السلام ليقتُل الآباء حتى تخرُج الودائع، فلمّا خرجت ظهر على من ظهر وقتله، وكذلك قائمنا أهل البيت، لم يظهر أبداً حتى تخرُج ودائع الله، فاذا خرجت ظهر على من ظهر فيقتله»[٢].

إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٤٨.
٢. تفسير القمي ٢: ٣١٦، تفسير الصافي ٥: ٤٣.

عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً[٢٦]

ثمّ بيّن سبحانه وقت غاية استحقاق الكفّار للتعذيب ونزول العذاب عليهم بقوله: ﴿**إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ من أهل مكّة وحين مكّنوا ﴿**فِى قُلوبِهِمُ**﴾ القاسية ورسّخوا فيها ﴿**ٱلْحَمِيَّةَ**﴾ والعصبية والأنفة من الإقرار للنبي ﷺ بالرسالة، واستفتاح كتاب الصلح ببسم الله الرحمن الرحيم او منعهم إياكم من دخول مكة، حيث قالوا على ما قيل: إنّ المسلمين قتلوا أبناءنا وإخواننا، ثمّ يدخُلون علينا، فتتحدّث العرب أنّهم دخلوا علينا على رغم أنفنا، واللّات والعُزّى لا يدخُلون علينا، فكانت هذه الحمية ﴿**حَمِيَّةَ**﴾ الملّة ﴿**ٱلْجَاهِلِيَّةِ**﴾ التي دخلت في قلوبهم[١]، الحمية الناشئة من الجاهلية التي تمنع من الإذعان للحقّ[٢].

وقيل: إنّ الظرف متعلّق بقوله: ﴿**وصدوكم**﴾[٣] وقيل: فاذكر المقدّر[٤].

ثمّ إنّه تعالى بعد ذكر سوء صنيع الكفّار، ذكر حسن صنيع الرسول ﷺ والمؤمنين بتوفيق الله بقوله: ﴿**فَأَنزَلَ ٱللّٰهُ سَكِينَتَهُ**﴾ والطُّمأنينة الكائنة من قبله ﴿**عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ**﴾ بتبعه، وزاد في ثباتهم على التسليم لأمر الله واتّباع مرضاته، أو ألبسهم الوقار حتى تحمّلوا حميّتهم وصالحوهم ورضوا ان يُكتَب كتاب الصُّلح على ما أرادوا، [و] لم يَلْحَقهم ما لَحِق الكفّار ﴿**وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ**﴾ وقول لا إله إلّا ٱلله، الذي به يُتّقىٰ عن الشِّرك في الدنيا، وعن النار في الآخرة، وثبّتهم عليها، والمشركون أبوا منها.

عن النبي ﷺ قال: «أول القول كلمة التقوى»[٥].

وعن (العلل) عنه عليه السلام أنّه قال في تفسير لا إله إلّا الله: «وهي كلمة التقوى، تثقّل بها الموازين يوم القيامة»[٦].

وقيل: هي (بسم الله الرحمن الرحيم) و(محمد رسول الله) الذي امتنع المشركون من كتبهما في كتاب الصُّلح في الحديبية[٧].

وقيل: هو الوفاء بالعهد، فانّ المؤمنين وفوا بعهدهم، والمشركون نقضوه، حيث عاونوا بني بكر على خُزاعة[٨].

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٩: ٤٩.
٣ و٤. تفسير الرازي ٢٨: ١٠١.
٥. تفسير القمي ١: ٢٩٠، تفسير الصافي ٥: ٤٤.
٦. علل الشرائع: ، تفسير الصافي ٥: ٤٤.
٧. تفسير روح البيان ٩: ٥٠.
٨. تفسير روح البيان ٩: ٥٠.

وعن الصادق عليه السلام، أنّه قال: «هو الايمان»[١].

وعن (المجالس) عن النبي صلى الله عليه وآله، قال: «إنّ علياً راية الهدى، وإمام أوليائي، ونور من أطاعني، وهو الكلمة التي ألزمتها المتّقين»[٢].

وعن (الخصال) قال صلى الله عليه وآله: «نحن كلمة التقوى، وسبيل الهدى»[٣].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «أنا العُروة الوثقى وكلمة التقوى»[٤].

وعن الرضا عليه السلام، قال: «نحن كلمة التقوى والعروة الوثقى»[٥].

ثمّ بيّن سبحانه استحقاق الرسول والمؤمنين واستئهالهم لهذه النعمة بقوله: ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ﴾ بكلمة التقوى وأولى ﴿بِهَا﴾ من الكفّار الذين خلقوا من سجيّن ﴿وَ﴾ كانوا ﴿أَهْلَهَا﴾ واللائق بها، لحُسن فِطرتهم وطيب طينتهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الموجودات واستعداداتها وقابلياتها ﴿عَلِيماً﴾.

لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَاءَ ٱللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذٰلِكَ فَتْحاً قَرِيباً[٢٧]

ثمَ لمّا أنزل الله سكينته على الرسول والمؤمنين، ووقع الصُّلح على الرجوع من الحُدَيبية إلى المدينة، قال المنافقون: كَذَب النبي في إخباره بدخول المسلمين مسجد الحرام محلّقين ومُقصّرين، فإنا ما دخلنا المسجد الحرام ولا حلقنا ولا قصّرنا، فردّ الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّؤْيَا﴾ التي أريناه مقروناً ﴿بِالْحَقِّ﴾ والحكمة البالغة، وجعلها مطابقة للواقع، وكائنة لا محالة في الوقت المقدّر لوقوعها، وقد مرّ تفصيل الرؤيا في أوّل السورة.

وقيل: إنّ معنى صدق الرؤيا: أتى بما يدُلّ على صدق الرؤيا[٦].

وقيل: إن قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ صفة للرسول، والمعنى: أنّ الله صدّق رسوله بالحقّ الرؤيا[٧]. وقيل: ففيه تقديم وتأخير[٨].

وقيل: إنّ كلمة (بالحق) قسمٌ، فان الحقّ اسم من أسمائه تعالى[٩]. والمعنى: أُقسم بالحقّ لقد صدق،

---

١. الكافي ٢: ١٣/٥، تفسير الصافي ٥: ٤٤.
٢. أمالي الصدوق: ٧٦٥/٥٦٥، تفسير الصافي ٥: ٤٤.
٣. الخصال: ١٤/٤٣٢، تفسير الصافي ٥: ٤٤.
٤. التوحيد: ٢/١٦٥، تفسير الصافي ٥: ٤٤.
٥. كمال الدين: ٦/٢٠٢، تفسير الصافي ٥: ٤٤.
٦. تفسير الرازي ٢٨: ١٠٥.
٧. تفسير الرازي ٢٨: ١٠٥.
٨. تفسير الرازي ٢٨: ١٠٤.
٩. تفسير الرازي ٢٨: ١٠٤.

ووالله ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ أيها المؤمنون في العام القابل ﴿ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ لا بمشيئتكم وقُدرتكم، بل ﴿إِن شَاءَ﴾ وأراد دخولكم فيه، وفيه تعليمٌ للعباد وتنبيهٌ على أنّ إرادة أهل مكّة منعكم من دخوله لا يزاحم إرادة الله، وأنكم تدخُلونه حال كونكم ﴿آمِنِينَ﴾ من أعدائكم، ويدوم أمنكم إلى أن تصيروا ﴿مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ﴾ ومزيلين جميع شعرها ﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾ ومزيلين بعضه و﴿لَا تَخَافُونَ﴾ من أحدٍ بعد الحَلق والتقصير وإحلالكم من الاحرام، مع أن قريش لا يُحرّمون من أحلّ من إحرامه.

﴿فَعَلِمَ﴾ الله بعدما أرى نبيه ﷺ الرؤيا في تأخير وقوع تعبيرها، أو في تقديم ما يشهد على صدقها ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ من الحكمة والمصلحة ﴿فَجَعَلَ﴾ سبحانه لأجل تلك المصلحة واسترواح قلوب المؤمنين ﴿مِن دُونِ﴾ وقوع ﴿ذٰلِكَ﴾ الموعود من دخول مكّة ﴿فَتْحاً﴾ وافر الغنيمة ﴿قَرِيباً﴾ من صُلح الحُدَيبية، وهو فتح خيبر.

قيل: إنّه كان بعد خمس عشرة ليلة من الحُدَيبية[1].

وقيل: إنّ المراد من الفتح القريب صُلح الحُدَيبية[2]، فانّه أعظم الفتوح كما مرّ.

هُوَ ٱلَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً * مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ ٱللهِ وَرِضْوَاناً سِيَماهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ[٢٨ و ٢٩]

ثمّ أكّد سبحانه صدق رؤيا النبي ﷺ وعدم إمكان كذبها بقوله: ﴿هُوَ﴾ الله الحكيم ﴿ٱلَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ محمد إلى الناس جائياً لهم ﴿بِالْهُدَىٰ﴾ والرَّشاد إلى الصراط المستقيم. وقيل: يعني بالقرآن[3]، أو ما اتّفق عليه الرسل[4]، أو بالمعجزات[5] الباهرة ﴿وَدِينَ ٱلْحَقِّ﴾ والثابت الذي لا يُنسخ إلى يوم القيامة، وهو الاسلام، فإذا كان إرساله للهدايه لا يمكن أن يُخبِر الناس بوقوع ما لا يقع، فيُضلّوا بكذبه في إخباره.

وقيل: إنّ باء (بالهدى) للسببية[6]، والمعنى: أرسله بسبب الهدى ولأجله، فلا يصدُر عنه ما هو سبب الضلال، وليس فتح مكة منه ببعيد، مع أن الله ارسله بالدين الثابت ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ ويُغلبه ويُعليه ﴿عَلَىٰ﴾

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٥٣.
٢. مجمع البيان ٩: ١٩١، تفسير الرازي ٢٨: ١٠٦.
٣. مجمع البيان ٩: ١٩١، جوامع الجامع: ٤٥٥.
٤. تفسير الرازي ٢٨: ١٠٦.
٥. تفسير البيضاوي ٢: ٤١٣، تفسير أبي السعود ٨: ١١٤.
٦. تفسير أبي السعود ٨: ١١٣، تفسير روح البيان ٩: ٥٥.

غيره من ﴿ٱلدِّينِ كُلِّهِ﴾ وبجميع أفراده بنسخ ما كان منه حقاً من بعض الأحكام المتبدَلة بتبديل الأعصار، وإظهار بطلان ما كان باطلاً، أو بتسليط المسلمين على أهل سائر الأديان وقهر ملوكهم وفتح بلادهم، وقد أنجز الله وعده حيث أعطى المسلمين من الفتح والغَلَبة على ممالك الكفرة ما يستقلّ إليه فتح مكة، أو بذهاب سائر الأديان من وجه الأرض في زمان ظهور الحجة والإمام الغائب.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيداً﴾ على صدق رسوله ﷺ في وعده بدخول المسلمين المسجد الحرام، أو على صدق محمّد ﷺ في دعوى الرسالة، وإن أبت قريش من أنْ يكتُب في كتاب الصُّلح رسالته.

عن ابن عباس: شهد له بالرسالة[1] بقوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ إلى كافة الناس إلى القيامة ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ بالايمان، واتّبعوه عن صميم القلب، وأطاعوه عن خُلوص النيّة،كأمير المؤمنين وسلمان وأضرابهما، يكون من أخلاقهم الحميدة أنّهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ غِلاظ عليهم، لا لغلظة قلوبهم وفَظاظة خلقهم، بل لما بينهم من التضادّ، كتضادّ النور والظلمة، والايمان والكفر ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ متعاطفون بعضهم على بعضٍ كالوالد مع ولده، فهو كقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ﴾[2].

قيل: إنّهم بلغوا من الشدّة على الكفّار أنّهم كانوا يتحرّزون من أن تَلْزَق ثيابهم بثيابهم، وأن تَمَسّ أبدانهم بأبدانهم، ومن ترحمّهم بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صافحه وعانقه[3].

أقول: من شدّتهم على الكفّار أن يتحرّزوا من أن يقع نظرهم إلى وجه الكافر، ومن عطوفتهم على المؤمنين أن اشتاقوا إلى النظر إلى وجوههم، ويَحزَنون لحُزنهم، ويفرحون لفرحهم، ويُحِبّون لهم ما يُحِبّون لأنفسهم، هذا حال المؤمنين مع الناس، وأما حالهم مع الله، فانك ﴿تَرَاهُمْ﴾ أيها الرائي ﴿رُكَّعاً سُجَّداً﴾ لله في حال اشتغالهم بضروريات معاشهم ﴿يَبْتَغُونَ﴾ ويَطّلُبون بركوعهم وسجودهم وسائر عباداتهم ﴿فَضْلاً﴾ وإنعاماً ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ عليهم من النار والدخول في الجنّة ﴿وَرِضْوَاناً﴾ وتحنّناً منه إليهم بالرحمة بخلاف المشركين والمرائين، فانّهم يَطّلُبون بركوعهم وسجودهم رضا غير الله ﴿سِيَماهُمْ﴾ وعلامة كونهم من أتباع محمد ﷺ أنّك ترى ﴿فِى وُجُوهِهِم﴾ وجباههم شيئاً ﴿مِنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ كثَفِنة البعير، كما كان لزين العابدين عليه السلام، فانّه يقال له ذو الثَّفِنات[4].

وقيل: هو التُّراب على الجباه[5].

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٥٥. ٢. المائدة: ٥/٥٤.

٣. مجمع البيان ٩: ١٩٢، جوامع الجامع: ٤٥٦، تفسير روح البيان ٩: ٥٧.

٤. جوامع الجامع: ٤٥٦، تفسير أبي السعود ٨: ١١٤، تفسير روح البيان ٩: ٥٨. ٥. مجمع البيان ٩: ١٩٢.

وعن ابن عباس: سيماهم في القيامة أن تكون مواضع سجودهم أشدَ بياضاً[١]. قيل: تكون مواضع سجودهم كالقمر ليلة البدر[٢].

وقيل: أثر السجود بالليل الحُسن الظاهر في وجه الساجد بالنهار. رُوي عن النبي ﷺ أنّه قال: «من كثر صلاته بالليل، حسن وجهه بالنهار»[٣].

وعن الصادق عليه السلام قال: «هو السهر في الصلاة»[٤]، ﴿ذٰلِكَ﴾ المذكور من نعُوتهم الجليلة ﴿مَثَلُهُمْ﴾ ووصفهم العجيب الشأن المذكور ﴿فِى ٱلتَّوْرَاةِ﴾ المُنزَلة على موسى ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ المُنزل على عيسى عليهما السلام.

كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً[٢٩]

ثمّ بيّن سبحانه قوّة اصحابه بعد ضعفهم، وكثْرتهم بعد قلّتهم، بتشبيههم بالزّرع بقوله: ﴿كَزَرْعٍ﴾ والتقدير: هم كزرع ﴿أَخْرَجَ﴾ وأنبت ﴿شَطْأَهُ﴾ وفرخه وفرْعه النابت من جانبه حال كونه أولاً في غاية الدقّة والضّعف ﴿فَآزَرَهُ﴾ وقوّاه ذلك الزرع ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ وصار شديداً ومستحكماً بعد ما كان ليّناً، وغليظاً بعدما كان دقيقاً ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ الشّطأ، واستقام الفرعُ لقوّته ﴿عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ وأصله بحيث ﴿يُعْجِبُ﴾ ويُسرّ ﴿ٱلزُّرَّاعَ﴾ بقوته وغلظته وحُسن منظره.

وعن الحسن البصري: استوى الاسلام بسيف عليّ[٥].

وحاصل المثل أنّ أصحاب خاتم النبيين ﷺ قليلون وضعفاء في بدو الاسلام، ثمّ كثروا وقووا يوماً فيوماً، بحيث أعجب الناس قوّتهم وكثْرتهم.

وقيل: مكتوبٌ في التوراة يخرُج قومٌ يَنْبتُون نبات الزرع، يأمُرون بالمعروف، ويَنْهَون عن المنكر[٦].

قيل: إنّ ذلك إشارةٌ إلى هذا المثل، والمعنى: أنّ تشبيه أصحاب محمد ﷺ بالزرع مذكورٌ في التوراة والإنجيل[٧].

---

١. مجمع البيان ٩: ١٩٢.
٢. مجمع البيان ٩: ١٩٢، تفسير روح البيان ٩: ٥٨.
٣. من لا يحضره الفقيه ١: ١٣٧٣/٣٠٠، تفسير أبي السعود ٨: ١١٤، تفسير روح البيان ٩: ٥٨.
٤. من لا يحضره الفقيه ١: ١٣٦٩/٢٩٩، تفسير الصافي ٥: ٤٥.
٥. نهج الحق: ١٩٥.
٦. تفسير أبي السعود ٨: ١١٥، تفسير روح البيان ٩: ٥٩.
٧. تفسير أبي السعود ٨: ١١٥، تفسير روح البيان ٩: ٥٩.

وقيل: إنّ الكلام قد تمّ عند قوله: ﴿مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَاةِ﴾ وقوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ مبتدأ خبره (كزرع)[١]. وعلى أيّ تقدير إنّما قوّى الله أصحاب محمد وكثّرهم ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ ويشتدّ غضبهم بإرغام أُنوفهم وخزيهم.

وقيل: هو علّةٌ لقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [٢] بالله ورسوله عن صميم القلب ﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ خالصاً ﴿مِنْهُم﴾ راجعٌ إلى الكفّار، فيكون الوعد للكفّار الذين يؤمنون بالرسول، فتكون كلمة (من) للتبيين على الأول، وللتبعيض على الثاني[٣].

روى الصدوق عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه سئل فيمن نزلت هذه الآية؟ قال: «إذا كان يوم القيامة عقد لواء من نور أنور، ونادى منادٍ: ليقم سيد المؤمنين ومعه الذين آمنوا، وقد بعث الله محمداً. فيقوم علي بن أبي طالب، فيُعطي الله اللواء من النور الأبيض بيده، تحته جميع السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، لا يُخالطهم غيرهم، حتى يجلِس عليّ على مِنبَر من نُور ربّ العزّة، ويُعرَض الجميع عليه رجلاً بعد رجلٍ، فيُعطى أجره ونوره، فاذا أتى على آخرهم قيل لهم: قد عرفتم موقفكم ومنزلكم من الجنّة، إنّ ربّكم يقول لكم: عندي لكم مغفرةٌ وأجرٌ عظيمٌ ـ يعني في الجنّة ـ فيقوم علي بن أبي طالب والقوم تحت لوائه معهم، حتى يُدخِلهم الجنّة، ثمّ يرجِع إلى مِنبَره، ولا يزال يُعرَض عليه جميع المؤمنين، فيأخُذ نصيبه منهم، ويذهب بهم إلى الجنة، ويترُك أقواماً على النار»[٤].

رويَ عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال «من قرأ سورة الفتح، [فكأنّما] كان ممّن شهِد[٥] [مع محمد] رسول الله فتح مكّة»[٦].

وعن الصادق عليه السلام. قال: «حصّنوا أموالكم ونساءكم وما ملكت أيمانكم من التّلف بقراءة سورة (إنّا فتَحنا) فانّه إذا كان ممّن يُدمِن قراءتها نادى منادٍ يوم القيامة حتى يسمع الخلائق: أنت من عبادي المُخلصين، ألحقوه بالصالحين من عبادي، وأسكنوه جنات النعيم، وأسقوه من الرحيق المختوم بمزاج الكافور»[٧].

الحمد لله على التوفيق.

---

١. تفسير الرازي ٢٨: ١٠٨.
٢. تفسير روح البيان ٩: ٦٠.
٣. تفسير الرازي ٢٨: ١٠٩.
٤. أمالي الطوسي: ٣٧٨/٨١٠، تفسير الصافي ٥: ٤٦.
٥. في النسخة: يشهد.
٦. تفسير روح البيان ٩: ٦١.
٧. ثواب الأعمال: ١١٥، مجمع البيان ٩: ١٦٥، تفسير الصافي ٥: ٤٦.

فهرس المحتوى